المنظمة العربية للترجمة

جان ـ جاك روسو

الاعترافات

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ترجمة

خليل رامز سركيس

بالتعاون مع اللجنة الوطنية اللبنانية اليونسكو

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

لجنة العلوم الإنسانية والاجتماعية

عزيز العظمة (منسقاً)
عزمي بشارة
جميل مطر
جورج قرم
السيد يسين
علي الكنز

twitter @baghdad_library

المنظمة العربية للترجمة

جان ـ جاك روسو

الاعترافات

ترجمة

خليل رامز سركيس

مراجعة وتقديم

عبد العزيز لبيب

بالتعاون مع اللجنة الوطنية اللبنانية اليونسكو

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
روسو، جان - جاك
الاعترافات/ جان - جاك روسو؛ ترجمة خليل رامز سركيس؛ مراجعة وتقديم عبد العزيز لبيب.
925 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية)
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-82-525-0
1. الاعترافات في الأدب. 2. التراجمة الذاتية. أ. العنوان. ب. سركيس، خليل رامز (مترجم). ج. لبيب، عبد العزيز (مراجع). د. السلسلة.
920.71

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

روسو، جان - جاك
الاعترافات

© اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1982.
© جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة حصراً لـ:

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 - 113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http://www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، أيار (مايو) 2012

twitter @baghdad_library

المحتويات

روسو في سطور 7
أهم مؤلفات روسو 13
تصدير 15
تقديم 19

الجزء الأول

الفصل الأول 33
الفصل الثاني 85
الفصل الثالث 143
الفصل الرابع 201
الفصل الخامس 259
الفصل السادس 325

الجزء الثاني

الفصل السابع 391
الفصل الثامن 487
الفصل التاسع 557

الفصل العاشر	673
الفصل الحادي عشر	747
الفصل الثاني عشر	805
الثبت التعريفي	895
ثبت المصطلحات	903
الفهرس	915

twitter @baghdad_library

روسو في سطور

1712 ـ 28 حزيران: مولد جان ـ جاك روسو في جنيف.

7 تموز: وفاة والدته سوزان روسو.

1722 ـ 1724 ـ إقامة روسو عند القس لامبرسيه في بوسي.

1725 ـ إقامته عند خاله جبريال برنار في جنيف. تدربه على بعض الصناعات.

1728 ـ هرب روسو من جنيف. تعرفه إلى السيدة دو فارانس في أنوسي وبدء العلاقة بينهما. اعتناق روسو الديانة الكاثوليكية.

1730 ـ روسو يعلم الموسيقى في لوزان ونوشاتيل.

1731 ـ سفارة فرنسية في سولير تؤوي روسو. إقامته أول مرة في باريس مؤدباً. إقامته في ليون. تعيينه موظفاً بمساحة سافوي في شامبيري.

1732 ـ روسو يهجر الوظيفة بدار المساحة ويعلم الموسيقى في شامبيري.

1735 ـ أول إقامة لروسو في الشارميت عند السيدة دو فارانس.

1737 ـ انتقاله من شامبيري إلى مونبلييه.

1738 ـ عودته إلى شامبيري.

1741 ـ روسو في باريس

1742 ـ لقاؤه ديدرو.

1743 ـ «مقال في الموسيقى الحديثة». انتقال روسو من باريس إلى البندقية.

1744 ـ انتقاله من البندقية إلى باريس.

1745 ـ روسو يتعرف بتيريز لوفاسور.

1746 ـ 1747 ـ أول ولد لروسو من تيريز لوفاسور.

1749 ـ روسو يصادق جريم.

1750 ـ أكاديمية ديجون تمنح جائرتها لمؤلف روسو «خطاب في العلوم والفنون».

1752 ـ أوبرا «عراف القرية» تأليف روسو يجري تمثيلها في فونتينبلو أمام ملك فرنسا.

1753 ـ «رسالة في الموسيقى الفرنسية».

1754 ـ روسو يعود إلى الكنيسة الكالفينية ويستعيد رعوية مدينة جنيف في خلال إقامة له بهذه المدينة.

1755 ـ صدور «خطاب في أصل التفاوت».

1756 ـ روسو يقيم في الإرميتاج عند السيد ديبيناي.

1757 ـ خلاف روسو وديدرو. تصالحهما. حب روسو لصوفي دو دوتو. خصام روسو مع جريم. انقطاع العلاقات ما بينهما. روسو

twitter @baghdad_library

يبرح الإرميتاج إلى مون لويس بمونمورانسي.

1758 ـ السيدة دو دوتو تقطع علاقتها بروسو. صدور «رسالة إلى دالامبير في الحفلات المسرحية».

1761 ـ عرض «إيلوييز الجديدة» في مكتبات باريس.

1762 ـ روسو ينشئ «الرسائل إلى السيد دو مالزيرب». وهي رسائل تتضمن سيرة روسو نفسه. صدور «العقد الاجتماعي» في أمستردام. منع دخوله إلى فرنسا. عرض «**كتاب إميل**» في باريس. برلمان باريس يمنع «**كتاب إميل**». إصدار الأمر باعتقال روسو. روسو يبرح الإرميتاج إلى سويسرا. وصوله إلى أراضي برن. منع «العقد الاجتماعي» و«**كتاب إميل**» في جنيف ومصادرتهما. إخراج روسو من أراضي برن. إقامته في إمارة نوشاتيل التابعة لملك بروسيا. وفاة السيدة دو فارانس. ولايات هولندا ومجلس برن تمنع «**كتاب إميل**». رئيس أساقفة باريس يذيع رسالة يحمل فيها على «**كتاب إميل**».

1763 ـ رسالة روسو إلى رئيس أساقفة باريس. تخلي روسو عن حقه مواطناً لجنيف. حملة روسو على «رسائل كتبت من الريف».

1764 ـ صدور «رسائل كتبت من الجبل» في أمستردام وقد وضعها روسو رداً على «رسائل كتبت من الريف». فولتير وراء المنشور الغفل الموجه للحملة على روسو وعنوانه: «شعور المواطنين».

1765 ـ إحراق «رسائل من الجبل» في لاهاي وباريس بعد منعها. دعوة روسو أمام مجمع القسوس في موتييه. رمي روسو بالحصى في موتييه. انتقال روسو إلى جزيرة سان بيار في بحيرة بيان. انتقاله من بيان إلى ستراسبورغ قصد الذهاب إلى برلين. (هنا ينتهي

ما أورده روسو عن سيرته في «**الاعترافات**». روسو يقرر الانتقال إلى إنجلترا عن طريق باريس. وصوله إلى باريس بحماية أمير كونتي.

1766 ـ سفر روسو من باريس إلى إنجلترا. إقامته في لندن ثم في ضواحيها. سكنه في فوتون في ستافوردشاير. روسو يبدأ كتابة الجزء الأول من «**الاعترافات**».

1767 ـ ملك إنجلترا يجعل لروسو مرتّباً. روسو يعود إلى فرنسا فجأة يحمل اسماً مستعاراً هو رونو (Renou). إقامته بضعة أيام عند ميرابو قرب كلامار. سكنه عند أمير كونتي قرب جيزور حيث يواصل كتابة «**الاعترافات**». خلافه مع صديقه دو بيرو. توقفه عن كتابة «**الاعترافات**».

1768 ـ روسو ينتقل إلى ليون فجرينويل، وقد تضاعف عليه الشعور بأنه موضوع دسيسة، زواجه بتيريز لوفاسور زواجاً مدنياً.

1769 ـ إقامته في مونكان (فرنسا) وعودته إلى كتابة «**الاعترافات**».

1770 ـ انتقال روسو إلى ليون، ثم إقامته في باريس. إتمام الجزء الثاني من «**الاعترافات**». عقد مجالس لقراءة «**الاعترافات**».

1771 ـ الشرطة الفرنسية تمنع قراءة «**الاعترافات**».

1772 ـ 1776 ـ روسو يضع «روسو قاضي جان ـ جاك»، ويضع «**المحاورات**»، ويبدأ تأليف «**أحلام يقظة المتنزه المنفرد**».

1778 ـ إنهاء «**أحلام يقظة المتنزه المنفرد**» روسو يقيم في أرمنونفيل.

2 تموز وفاته في أرمنونفيل. دفنه في جزيرة البويلييه.

twitter @baghdad_library

1782 ـ نشر، في جنيف، الجزء الأول من «**الاعترافات**» و«**أحلام يقظة المتنزه المنفرد**» ثم «**المحاورات**».

1789 ـ نشر، في جنيف، الجزء الثاني من «**الاعترافات**».

1794 ـ نقل رفات روسو إلى البانتيون.

(

twitter @baghdad_library

أهم مؤلفات روسو(*)

جولي أو إيلوييز الجديدة	*Julie ou la nouvelle Héloise*
العقد الاجتماعي	*Du Contrat social*
إميل	*Emile*
الاعترافات	*Les confessions*
أحلام يقظة المتنزه المنفرد	*Les rêveries du promeneur solitaire*

(*) بحسب التسلسل التاريخي.

twitter @baghdad_library

تصدير

بقلم الدكتور عبد العزيز لبيب

لم يخطئ من قال عن ترجمة **اعترافات** روسو من الفرنسية إلى العربية، وهي الترجمة التي أجاد صنعتَها خليل رامز سركيس وصدرت في عام 1982 ببيروت، إن «جان جاك سركيس يترجم خليل رامز روسو إلى العربية»[1]. فمَن الكاتب الأصلي ومن المترجم الناقل؟ وليس هذا السؤال من باب الحذلقة ولا من باب الأحكام المتسرعة، وإنما تسوقك إليه اضطراراً قراءتك لترجمة **الاعترافات** على نحو ما صاغها سركيس في ثوب عربي شفاف ومعقد النسيج معاً. أما ما كان يختلج بخاطري، وأنا أقرأ **الاعترافات** في صيغتها السركيسية، مقلباً أقوالها من جهات عدة، أن عبارة الشاعر اللاتيني التي صدّر بها روسو كتابه ـ وهي «في الدخيلة، ومن تحت الجلد» (Intus, et in Cute) ـ تصدق تماماً على القران الذي به قرن سركيس نفْسه ونفَسه بنفْس روسو ونفَسه. ولك أن تتخيل، أيها القارئ الكريم، خليلاً وهو يلج عميقاً إلى بعدين اثنين في ذات الوقت

(1) صاحب المقولة هو هنري عويس.

بعد روسو في **اعترافاته**، وبعد اللسان العربي في تنويعاته ولُطَيْفاته.

السيرة الذاتية، زمانية التاريخ الكوني، موسيقى البيان العربي، عناصر ثلاثة مجتمعة في ترجمة سركيس. ومع أن الأدب العربي الكلاسيكي، كـ**طوق الحمامة** لابن حزم الأندلسي مثلاً، أو كنصوص من الذوق الصوفي، حاوٍ لتعبيرات بسيكولوجية مرهفة الحس، فإن ترجمة **الاعترافات** هذه تؤكد مرة أخرى أن العربية مقتدرة على نقل البسيكولوجيا الحديثة المعتاصة والمتمازجة مع القلق الأوغستيني الرقيق الكامن في طيات الثقافة الغربية. وعند سركيس، أيضاً، تتكفل الترجمة، إلى جانب نهجها الأمين والدقيق، بنهجها التأويلي الأصيل. فأما التأويل في الترجمة التي نحن بصددها ففيه ثلاث مشقات **أولاها** مشقة المراوحة بين سبيلين اثنين، سبيل اللسان الفرنسي، وسبيل اللسان العربي، والتبحر في كليهما، ودراية بالثقافة الحاملة للواحد منهما والمحمولة عليه؛ **وثانيتها** مشقة معاشرة جان جاك روسو، وهو الرجل الذي أحبه كثيرون وما طاقوا عشرته كثيراً، فنفروا منه ونفر منهم. **وثالثتها** مشقة أن يزن المرء الحرفَ بالمعنى، وأن يزن المعنى بالحرف. فكيف ننقل المعنى من غير أن نخذل الحرف العربي، وكيف نحترم الحرف العربي دون أن نخون المعنى الأصلي؟ هذا إن حصل لنا المعنى أصلاً وأحطنا به.

ولذلك جاءت لذة النص السركيسي وليدة معاناة المفكر، وحرية الرجل الأصيل، وواجب المترجم المنصاع لمسؤوليته. وإذْ الحال هذه، فما الداعي إلى معاودة قراءة ترجمة سركيس قراءة نقدية، و«مراجعتها»، واقتراح «تنقيحات» ولو جزئية وطفيفة عليها إن لزم الأمر؟ لنفصح عن أن أصل المشروع يعود إلى طلب جاءني من قبل المنظمة العربية للترجمة وهو أن تُستعاد بعض الترجمات الكبرى التي صارت كلاسيكية لما لها من فائدة معرفية أولاً، وتكريماً لأصحابها المترجمين ثانياً، ولأجل تحيينها ثالثاً. ولنفصح أيضاً عن

twitter @baghdad_library

أن القلم قد تردد أمام أول «تنقيح» إذْ ألفى نفسه في الواقع إزاء أثر أدبي مكتمل ومستقل بذاته. ثم لمّا حزم القلمُ أمرَه فما فعل ليس البتة تصويباً وإنما ضرب من التأويل على التأويل والشرح على الشرح. ومعلوم أن التأويل عمل طويل لا يقر له قرار. كذا هو أثر سركيس على أثر روسو، ثم أثري على أثره، وأثر غيري على أثري، إلى ما لا نهاية.

وأما ما يجعل من **التحديدات المفهومية** المجراة اليوم على ترجمة **الاعترافات** الصادرة في سنة 1982 عن اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع خياراً مستحسناً فهو تغير سلم القراءة وتغير معايير التأويل منذ ذلك الوقت ليس إلا. ولا شك البتة في أن مادة **الاعترافات** وصورتها تندرجان في الجنس الأدبي. وفي الجنس الأدبي أيضاً تُصنف السيرة الذاتية ويُصنَّف البورتريه الذاتي. والبادي لفهمي أن ترجمة سركيس يغلب عليها الهاجس الأدبي فأخذتْ النص الفرنسي على هذه الجهة الأدبية في أكثر الأحايين والمواضع. ومع ذلك، فإن **للاعترافات** غوراً فلسفياً تجمع عليه أغلب الدراسات الروسوية. بل ومن شراح روسو الكبار من يرى في أدب **الاعترافات** الروسوي «مناسبة» **لخطاب فلسفي** في الذات والحياة وزمن التاريخ والحساسية. ولا ريب أن لهذه الفلسفة مفاهيمها ومقولاتها تفعل فعل القالب أو الحاوي الذي يستقبل الحدوس والتجارب والظواهر الذاتية التي تمرس بها روسو. حقاً إن سيرة روسو محكومة بقانون الحركة والتدفق والتحول؛ وهو قانون يعبر عنه الأدب أكثر من سائر الأجناس الذوقية والمعرفية والعملية؛ غير أن الحركة نفسها محمولة على صفيحة أو قل على بنية ثابتة الأوتاد، وهذه الأوتاد هي المفاهيم والمقولات. ولئن نزعتُ إلى التثبيت البنيوي فلأن التنوع البلاغي الذي يبدع فيه سركيس إبداعاً قل نظيره في الترجمات، يزداد بياناً إذا ما احتوته مفاهيم روسو الثابتة المنزرعة في نص **الاعترافات**. والأرجح أن هذه المفاهيم، كما تتعين

في قاموس روسو وفي فلسفته، عادة ما لا تحتمل أن تترجم بغير مصطلحات متواضع عليها عربياً؛ أما ما يُراد لها من تنوع في المعاني فهذا ما تستحدثه سياقات النص العربي المختلفة على نحو ما تفعل سياقات النص الفرنسي نفسه.

ومهما شاكت مسائلُ الترجمة وطال الخوضُ فيها حتى ليصدق عليها الحكمُ ونقيضه، فإن ما رأيته من تنقيح في ترجمة سركيس إنما مساهمة مني في تكريم هذا الأديب وهذا الكاتب الكبير وهذا المترجم الفريد بمناسبة إعادة طبعة ترجمته، والحال أن سنة 2012 ستكون سنة إحياء المائوية الثالثة لمولد جان جاك روسو. ولذلك تأتي محاولتي لا من باب التصويب بل من باب الاجتهاد في التأويل، خصوصاً وربما دفعني الإعجاب بترجمة سركيس إلى أن أخال نفسي، وأنا أتصدى من داخل النص الحميم إلى بعض العبارات والمفردات والمصطلحات، في وضع من يترجم **الاعترافات**. لولا هذا الوضع المتخيَّل لما اجترأت على تبديل حرف واحد من ترجمة سركيس؛ وهي الترجمة التي جعلتني - وأنا قبالة النصين، الفرنسي والعربي معاً، وأنا أقرأ روسو يقول في «الديباجة" «**وليدوّ صُور يوم الحساب متى يشاء، فلسوف أتقدّم إلى الديّان الأعظم وبيدي هذا الكتاب**» جعلني أسائل نفسي لو أن روسو يجيد قراءة العربية فأيهما يرفع إلى ربّه يوم الحساب أهو النص الفرنسي أم النص العربي؟ وأيّاً منهما رفع، فسيكون من اللزوم عليه أن يرتبك أوّلاً ويتردد بين الاثنين.

عبد العزيز لبيب
جامعة تونس المنار
كانون الأول/ ديسمبر 2011

twitter @baghdad_library

تقديم

«**الاعترافات**» أزمةُ عُمْر. فلقد رأى جان جاك روسو أن لا شيء يَعدل الحقيقة إلا الحرية التي تُوصل إليها، وأن لا شيء يفضي إلى الحرية كما يفضي إليها التحرر والصدق الأصيل. فذهب على سيرةٍ شخصية السلوك أدت إلى غاية جماعية التطلع لم تقتصر على طالبها وحده، بل تعدته إلى الذات من كل إنسان. فمن أعماق التجارب. التي عاناها صاحب «**الاعترافات**» معاناة أثَّرتْ في جُل مراحل سيرته، نفذ هو إلى إنسانه وكأنه قد صار إلى الإنسان من كل أرض وجيل، ذلك وإن يكن روسو قد حصر التجربة في شخصه دون سواه إذ قال: « . أريدُ أن أُري أشباهي [من الناس] إنساناً على تمام طبيعته الحق، وذلك الإنسان هو أنا. أنا وحدي..»[1]

فاعتراف روسو اعتراف للإنسان الآخر، لا لنفسه وحدها، على حين أن اعتراف أغوسطينوس ـ مثلاً ـ هو، أولاً وآخراً، استسلام إلى الله حتى الفناء.

فمن هنا كان اعتراف روسو مشارَكة في تفجير ثورة ألهبتْ

---

(1) انظر الفصل الأول، ص 33 من هذا الكتاب.

أوروبا ومعظمَ القارات وما تزال، ومن هنا كان اعتراف أغوسطينوس طريقاً إلى طمأنينة غَلبت العالَم فجاوزت الخطيئةَ فاستقرت في السلام على غير ما جمود.

ولعل السؤال هو، في هذه السانحة، هل أنشأ كتاب «**الاعترافات**» أدب السيرة الذاتية إذا اتصلتْ فصوله بمعنى الاعتراف الذي أَلفه الضمير المسيحي على شرق وغرب؟ لا ريب أن كون «**الاعترافات**» سبْقاً في بابه إنما هو حُكمٌ نسبيّ، لأنّ الآداب الإنسانية قد أُثرَ عنها ذاك الفن قبل روسو عند سواه مثل بترارخوس فضلاً على أغوسطينوس، وإن غايرا صاحب «**الاعترافات**» سبيلاً ومقصداً. ولئن كان «**الاعترافات**» ينتسب إلى روائع كتب السيرة، فإنه، في بعض النواحي قريب من المذكرات التي تروي أياماً معيَّنة ومجتمعات معينة. فكان في «**الاعترافات**» صورُ جمَّة أناس وديار قد وُصفتْ وصفاً شاعَ في أوروبا، ولا سيما في فرنسا، منذ القرن السابع عشر، فكم من شخصٍ عمد إليه روسو فصوّره تصويراً يُذكّر بما جرى عليه لابروبير. فروسو هو، في بعض الفصول من «**اعترافاته**»، وصّاف هُزاءة ذو روح كئيبة القرار قد تُخطر على البال مرارةَ سرفانتس وسخرية الجاحظ. ومثال ذلك وصفُ روسو للقاضي سيمون حيث يقول: «. فالقاضي سيمون لم تعلُ قامته على القدمين، ولو أن ساقيه القويمتين الدقيقتين، بل الطويلتين، كانتا عموديتين، لأطالتا من قامته، لكنهما معوجّتان منحرفتان وكأنهما ساقا البيكار قد انفرجتا أي انفراج. أما بدنه، فلم يكن قصيراً فحسب، بل كان، إلى هذا، نحيلاً صغيَراً في كل شيء. ولا شك أنه عارياً، قد أشبهَ دويبة الجراد. أما رأسه الطبيعيُّ الحجم، على وجهٍ حَسن التكوين وسحنةٍ كريمة وعينين جميلتين، فقد بدا وكأنه الرأس المستعار قد رُكّز على بعض العيدان. ولو شاء السيد سيمون، لأمكنه أن يستغني عن نفقات

twitter @baghdad_library

الملبس لأن وفرته كانت وحدها تكسوه من رأسه إلى الأخمصين. وكان ذا صوتين جد متنافرين لا ينفكان، في حديثه، متخالطين، وعلى تناقض فيهما يُضحِك أولاً ثم يصبح في غاية الإزعاج. أما أحد صوتيه، فثخين جهير، وهذا هو صوتُ رأسه إن جاز القول. وأما صوته الآخر، فجلي حاد في غير ثخانة وكأنه متخنث، وها هو صوت بدنه. فكان إذا أطال الإصغاء إلى نفسه وترصن في القول ولم يُجهد أنفاسه، تأَتى له صوتُه الغليظ، ولكن ما يحتّد ولو قليلاً، بعض ساعات الفوران، حتى يغدو صوته وكأنه الصفير بالمفتاح، فيشق عليه أن ينكفئ إلى صوته الأول..»[2]

بيد أن «**الاعترافات**» يبقى، مع ذلك، أول محاولة إنسانية لم يقتصر صاحبها على غيره وحدهم، بل تخطاهم يرجع إلى نفسه في أكثر الأحوال، ولئن كان لـ «**الاعترافات**» تأثيره في كتب السيرة، فلقد صنع في هذا الفن بعضُ المعاصرين لروسو، لكنهم لبثوا بمعزل عنه.

واذا كان القارئ كلما أوغل في فصول «**الاعترافات**» وجد كاتبَها قد مال عن الاعتراف وتطرَّقَ إلى المذكرات، فهل يسوغ للقارئ أن يقطع أن فكرة المذكرات قد رجحت عند روسو على فكرة الاعتراف؟ أليس الأَولى أن يقال إن روسو لم يبرح من الفكرتين على تنقل، حتى ربما أَشركهما في فعل إيمان فرْد؟

فروسو قد فعل فيه إيمانُ طفولته، إيمانُه الكالفيني. إلا أن هذا الإيمان، الذي عَدل هو عنه إذ اعتنق الكاثوليكية، لم ينته به إلى ما يقارب الجنون كما قال بعض من عُنوا بدراسة روسو، بل إنه انتهى به، في أواخر حياته، إلى أن خلَّصه من اليأس والانهيار، فحمل إليه

(2) انظر الفصل الرابع، ص 140 من هذا الكتاب.

الثقة والرجاء بعد ما تقلّب، دهراً، على المتأجّجات في النفس منه والجسد. وذلك أن روسو، وهو سليلُ وراثة مركّبة العُقَد، قد جبل على طبع مرهف التأثر عَملتْ فيه الطبيعةُ وعناصرها بقدْر ما عَملتْ فيه الأخيلةُ والأوهام. ولعل عبقرية روسو مدينة لغرابة هذا المزاج بقسط غير ضئيل. فكان أن روسو قد رأى، في عدة أحداث وقعت له اتفاقاً، خطّةً أرادت به الشر في كيد منها ودس، حتى إنه بات، إذ هو في منحدر أيامه، وقد ظن أن في الناس من يأتمرون به بعد ما جدوا في إثره وطردوه عن مقامه في فرنسا فسويسرا فبروسيا. فتولاه الحذر والخوف، فازدادت مخّيلته جموحاً وتضاعفتْ عليه الأوهام.

ولقد تكررتْ هذه الأزمة ـ أزمة الحذر والخوف ـ بعد أن كابد روسو من ضروب الاضطهاد ما أَظنَّه أن خياله لم يصوّر له إلا الحقيقة. ومع ذلك، لا مذهب عن القول إن روسو كلما كاد يغرق في سويدائه، كان ذكاؤه ينقذه منها، يريه أن ما قد خيّل اليه فهو عن أزمة نفسية وهمية خاصة أكثر مما هو عن أزمة واقعية عامة. فوقتئذٍ كان روسو يلجأ إلى ما يبدّد به الغياهب فيسلو الوحشة والشعورَ بالاغتراب. وكان مما شل روسو عن أزماته طلبه علم النبات ومزاولته إياه وقد رد عليه شيئاً من السكينة والاستقرار (أما روسو والموسيقى، فقصة عجب، إذ أبى إلا أن يعد نفسه في أكابر الموسيقيين تأليفاً وتلحيناً).

ولكن، برغم ذلك، أَلحّت على روسو حاجته إلى الاعتراف كأنما هو مذنب. فلامه بعضهم على أنه، إذ أعلن براءته، أَحجمَ عن تبعات ذنوبه، ومضوا، في القول، إلى أن روسو قد كبت ما أحسَّ به من ذنب على غير وعيٍ منه لهذا الكبت، فأضحى أسيرَ عقدة ابتلته بأن يعذّب نفسه بنفسه، مع وفرة عدائه ومضطهديه كما يرى قارئ «الاعترافات». ثم إن روسو، على ما قد أصابه من ضروب الاضطهاد، لم يحجم عن الاعتراف بذنوبه. وسيشهد القارئ ما كان

twitter @baghdad_library

من روسو مع الطاهية ماريون وقد نمَّ عليها يزعم أنها سرقت قطعة شريط صغير قديم كان قد أخذه. فطُردت الطاهية من عملها. فهذه النميمة بقي وزرُها على ضمير روسو، حتى إن رغبته في أن يتخلَّص من هذا الوزر قد شاركتْ في عزمه على أن يكتب اعترافاته مشاركةً عظيمة. كذلك لم يحجم روسو عن الاعتراف بأنه تخلى عن أولاده الخمسة إلى ملجإ اللقطاء، فهو، من هذه الناحية، يعترف بذنوبه ويجد في ما نابه من محنٍ تكفيراً عنها. بيد أنه يقول إن ذنوبه ليست فعل امرئ خبيث، كما يتهمه أعداؤه، (مع كونه لا يدعي الفضيلة)، فما في قصده الضر، وإنما هو بشرٌ ضعيف، إلا أنه رجل خير يسعى لأن يجتنب ما قد يحمله على الأذية.

فكيف يبدو روسو من خلال «الاعترافات»؟ إن روسو، من خلال ما يصف به نفسه وقد لاح له أن قلبه وعقله متناقضان، يبدو إنساناًساذجاً لا يعرف الحقد والانتقام، وإن غرضه أن يظفر بالسلام والدعة. هذه السذاجة هي، كما يقول نقاد اليوم، أوثقُ ما يصل جزئَي «الاعترافات» وأظهرُ ما يميّز، لا كاتبها وحده، بل صاحبها على وجه خاص.

فهل الرأي إجماع على أن روسو بشَرٌ ساذجٌ أولَ كلّ أمر؟ كان القرن التاسع عشر الأوروبي يأبى على روسو هذه السذاجة ويتهمه بالرياء والكذب والغرور، ويشك في صدقه وصدق ما قال: «هذا ما فعلتُ، وهذا ما جرى به فكري، وهذا ما كنت عليه. ولقد قلتُ الخير والشر بالصراحة نفسها. فما سكتُّ عن قبيح، ولا أضفت من شيء حسن[3] ألا إني قلتُ الحقيقة...»[4]

(3) انظر الفصل الأول، ص 33 من هذا الكتاب.

(4) انظر الفصل الثاني عشر، ص 602 من هذا الكتاب.

والواقع أن هذا الاتهام مرده إلى أن مفهوم الحقيقة ومفهوم الصدق عند روسو لم يُحسَن تمييز أحدهما عن الآخر، ولا سيما في القرن الماضي، تمييزاً لا غنى عنه لاكتناه «الاعترافات». أما في هذا النصف الثاني من القرن العشرين، والدراساتُ في روسو قد أوفت على شأو قصي، فقد قل المشككون في صدق المعترف وقل المتهمون له بعد ما دلت أعمال التنقيب في سيرته على أنه قد قال فصدَق، وإن يكن قد عناه صدقُ المشاعر والنيات فوق ما عناه صدقُ روايته الأمور والأحداث، ذلك وإن التمييز ما بين صدق «الاعترافات» وحقيقتها يحدو على التمييز ما بين الجزء الأول منها والجزء الثاني. ففي الجزء الأول ينظر روسو إلى نفسه وإلى ما وقع عليه نظرةً أكسبها مرُّ الأيام عليه بُعداً موضوعياً كافياً، أما في الجزء الثاني، ولا سيما في الفصول الأربعة الأخيرة. فإن روسو ينظر إلى ما وقع له نظرةً أَثَّر فيها قربُ صاحبها إلى ما وقع له. لكن الصدق والحقيقة غالباً ما التقيا في الجزء الأول، ـ وعلى ذلك رأيُ معظم النقدة الحديثين، ـ فشارك في علم النفس عند الأطفال والفتيان مشاركةً هي في بواكير الوثائق الأدبية التي استند إليها ذاك العلم. فأما الجزء الثاني، فإن روسو قد لزم فيه موقف المحاماة عن نفسه أَكثر مما التزم به موقفَ المعترف.

إلا أن روسو بقي، في الحالتين، إنساناً قلقاً متأزماً قد تقلَّبَ على واقع الأمور تَقلُّبه على الأخيلة، فكان بين هذه وتلك، في فوضى سيرةٍ مصطرعة القوى، متنازعة الرغبات.

وإذا كانت حياة روسو على هذه الأزمة، فلا غرو أن يبدو كتاب «**الاعترافات**» وهو على مثلها، وإن يكن في ضخامة الكتاب وفي طريقة تأليفه، ـ وقد انقطع عنه روسو مراراً قبلما أنجزه، مسوّغٌ

twitter @baghdad_library

لما هي عليه فصوله من بعض الافتقار إلى اطراد التنسيق، وخصوصاً في الجزء الثاني إذ كان روسو تحت الاضطهاد.

* *

لكن روسو، كاتباً، ظلَّ بنجوة من الأزمة. فهو القلم الكلاسيكي، وهو رائد الرومنطيقية بما لها وبما عليها في أسلوب الإنشاء. فأما عبارة روسو، فمتداخلة الأنفاس، على تنهدِ سيّال الشعور، حتى كأنها شجَرُ البكاء. فإذا ارتاح قلبه، لانَ قلمُه، فصفا، فاسترسل فسلس، فلم تتعسر ترجمته بالعربية. وإذا اضطربت نفسه، اشتد قلمه، فاعتكر، فانقبض، فتعقَّد، وحينئذٍ فالويل للمترجم! وروسو، في الحالتين، يكتب من غير بادي تصعّبٍ ولا ظاهر تنقيب، وإن كانت الدراسات، التي رَجعتْ إلى مخطوطات مؤلَّفه، قد أثبتت أن لهذا الرائد الرومنطيقي النزر العناية، إلهمان، براعة أصولية تدري كيف تؤكل اللفظة، وكيف تصاغ العبارة، وكيف تركَّب أضعافُ الفقرة في إثر الفقرة. فكان النص، على الإجمال، دقيقاً وصْله، قد انتظمه قلمٌ أستاذ.

ولئن كانت آراء روسو ومذاهبه الفكرية قد شاخ معظمها، فإن روسو إنساناً وروسو كاتباً هما في مشاع التراث. ليس **«الاعترافات»** كتاباً يسبق المستقبلَ، ولا هو رهين الزمن الغابر، ولا سليل اللحظة الحاضرة، ولكن «الاعترافات» ما يزال، من تفاعل المسافات الثلاث، على نبض تطورٍ وفحوَى دوام.

* *

ذلك هو الكتاب الذي وقفتُ على ترجمته شهوراً موصولة السعي والأناة. فعانيتُ روسو في «اعترافاته»، فضلاً على معاناتي إياه في سائر مؤلفاته الرئيسة، أُعايشه وأُلابسه وأقوم عنه إليه، كأني

أقاسي شبْه الذي قاسى من قلق الفطرة وكدر المزاج، إذ فنيتُ في صفحاته الطوال وكأنما أنا الممثّل قد تخلى من نفسه إلى حين فجعل يؤدي دوره ويفنى فيه أو كدتُ أَفعل. أضفْ أن الترجمة وجهٌ للتعاطف والتعاطي غنيُّ الأسباب حضارةً وثقافة.

ولقد لبثتُ من ذلك كله ما أرجو أن أكون قد أصبت من وفاءٍ للأصل، أمين النقل، صحيح الأداء، ولا سيما أن في اللسان العربي ما يفصح عن «**الاعترافات**» في الظاهر منها والباطن، إفصاحاً قد يقال معه إن الترجمة هي ما إذا نُقل من لسان إلى لسان، لم يعثر فيه الأثر شيء من هموم الانزعاج ولا من وحشة الاغتراب، ولا أحسَّ القارئ بمشقَّة الانتقال ولا بأمرٍ مما يشوب صناعة الترجمة.

وبديه أنني قد جريتُ في ذلك على نفَس روسو ما استطعتُ. وبديه أنني قد حرصتُ على أصوليته الغنائية حرصي على أن لا أُسقط من «**لاعترافات**» أي فقرة كانت، يقيناً مني أن ما انطوى عليه هذا السفر، في بعض صفحاته، قد عفا عنه مرُّ الزمن، فوسعتْه رغبة القارئ في أن يقف، ههنا، على كتاب «**الاعترافات**» تامةً فقراتُه لم تُحذَف منها عبارة واحدة مهما يكن بها من غلوّ رأي وكشْف قول فإنما الأمانة العلمية أمانة في ذمة المترجم.

ولئن جريتُ على الأصولية الكلاسيكية، فلقد أجزتُ للقلم أن يقارب المفردات التي لا تترجَم، مقاربةً لم أجد ما هو أفضل منها، إذ تناولتُها كما هي فعرّفتُها، فالفيلونسيل، مثلاً، لا تستساغ ترجمته بالكمان الجهير، بل الفيولونسيل، مأخوذاً عن الفرنسية، لا بد أن يقال له فيلولونسيل إلى يوم يهتدى عندنا، في هذه المسألة ـ وفي كثير غيرها ـ جوابٌ يكون بمستوى المجامع العلمية والمقتضيات الحية في لفظٍ معاً.

* *

twitter @baghdad_library

فإذا أَقبلَ القارئ يطالع هذه «**الاعترافات**» العربية اللسان، كفاه أن يعاصر إنساناً اتخذ اعترافاته سبيلاً إلى الصدق والحقيقة واتخذ قلمه سبيلاً إلى ابتداع جمال.

وحسْب القارئ أن يلقى، في هذه الترجمة، مَن أتاها بثلاث: بالعمل وحُبّ العمل والاتضاع في حضرة العمل.

خليل رامز سركيس

twitter @baghdad_library

اعترافات روسو

الجزء الأول

twitter @baghdad_library

هذي[1] هي الصورة اليتيمة لإنسان من الناس، وقد رسمت على وفق الطبيعة بتمام دقتها وملء حقيقتها، وأرجح الظن أنه لن يوجد من صورة غيرها أبد الدهر. وأياً كنت، يا من أقامه قدري أو نصبته ثقتي، حكماً على هذا الدفتر، فإني أستحلفك بمصائبي، وبقرارة أحشائك، وبالنوع البشري كله أجمع، ألا تتلف سفراً مفيداً فريداً قد يصبح وثيقة أولى للمقابلة قصد الدراسة لبني البشر، وهي دراسة ما يزال الابتداء بها أمراً لازماً، وأستحلفك ألا تحرم التكريم لذكراي صرح طباعي الوحيد الأكيد الذي ما شوهته يد أعدائي. فإن كنت أنت بنفسك، في آخر الحال، أحد أعدائي اللداد، فكف عن أن تكون لرفاتي عدواً، ولا تحملن قسوة جورك إلى الزمن الذي لن نبقى فيه، لا أنت ولا أنا، في دنيا الأحياء، فتستطيع، ولو مرة واحدة، أن تؤدي لنفسك نبيل الشهادة بأن قد كنت كريماً طيباً، في حين قد استعطت أن تكون مسيئاً حقوداً، ذلك إن جاز أن يطلق اسم الثأر على الشر الذي ينزل بامرئ لم يقترف ولا تعمد قط أن يقترف الشر.

---

(1) كتب روسو هذه السطور في محاذاة الصفحة الأولى من مخطوط جنيف لمؤلف **الاعترافات** ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

في الدخيلة، ومن تحت الجلد[1] إني أعتزم عملاً لم يكن له قط من نظير ولن يكون البتة لإنشائه أحد يقلّده. إني أريد أن أُري أشباهي [من الناس] إنساناً على تمام طبيعته الحق، وذلك الإنسان هو أنا.

أنا وحدي. إني لأشعر بما في قلبي، وإنني أعرف الناس؛ فأنا لم أُخلَق على غرار أحد ممن رأيتُ قطّ؛ وأجرؤ على الاعتقاد أني لم أُصنع على شاكلة أيّ من البشر الموجودين. إن لم أكن خيراً منهم، ففي الأقل **أنا آخر** لهم. أما هل أحسنت الطبيعة أم أساءت إذ حطمت القالب الذي سكبتْني فيه، فذلك ما لا يُستطاع الحكم به إلا بعد قراءة ما أكتب.

وليدوّ صُور يوم الحساب متى يشاء، فلسوف أتقدّم إلى الديّان الأعظم وبيدي هذا الكتاب. ولسوف أقول جاهراً: هذا ما فعلتُ، وهذا ما جرى به فكري، وهذا ما كنتُ عليه. ولقد قلتُ الخير والشر بالصراحة نفسها. فما سكتُّ عن قبيح، ولا أَضفتُ من شيء حسن.

[إن جميع الهوامش المشار إليها (*) هي من أصل الكتاب. أما تلك المشار إليها بأرقام تسلسلية فهي من وضع المترجم].

(1) في الأصل باللاتينية: Intus, et in cute ـ المترجم.

ولئن اتفق لي أن عمدت إلى بعض التنميق الذي لا طائل تحته، فلم يكن ذلك قط إلا سدّاً لثغرة سببها وهنُ الذاكرة، وربما قدَّرتُ صدْق ما عرفتُ أنه قد يكون حقّاً، ولكن لم أقدّر يوماً صدْق ما عرفتُ أنه باطل. ولقد أبديتُ نفسي كما كنتُ عليه، أبديتُ نفسي محتقَراً نذلاً حينما كنتُ كذلك، وأبديتُ نفسي طيّباً كريماً سامياً حينما كنتُ كذلك: فكشفتُ عن دخيلتي كما رأيتَها أنت بنفسك. فيا أيها الكائن الأزلي، أحشْد حولي من أشباهي الجموع التي لا تحصى، فلْينصتوا إلى اعترافاتي، وليرْثوا لعيوبي وليخجلوا لما أنا عليه من ضروب البؤس. وليتناوبوا واحداً وحداً، عند أسفل عرشك، يكشف كل منهم ما في جنانه بالصراحة عينها، فإن تجاسر أحد بعدئذ، فليقل لك: «لقد كنتُ خيراً من هذا الإنسان».

ولدتُ بجنيف عام 1712 إبنَ المواطن إسحق روسو، والمواطنة سوزان برنار. وإذْ إنّ تقسيم وَرْثٍ زهيد وتوزيعه على خمسة عشر ولداً قد أدّيا إلى أن حصة أبي منه قاربت العدم، فإن أبي لم يُرزَق من أسباب لتحصيل العيش إلا ما احترفه من صناعة الساعات، ولقد كان ماهراً جداً فيها. وأما أمي، وهي ابنة القس برنار، فكانت أوفر مالاً، وأُوتيت حكمةً وجمالاً؛ ولم يفز بها أبي من غير جهد. وُلد حبهما مذ أيامهما الأول، على وجه التقريب، فأخذا، مذ هما في سنتهما الثامنة أو التاسعة، يتنزهان معاً كلَّ عشيّ من ناحية «ترْاي»، حتى إذا بلغا العاشرة من العمر، لم يبقَ في وسعهما الافتراق. فوثّق تعاطفُهما وائتلافُ روحيهما الشعورَ الذي كانت العادة سبباً له. وإذْ ولد كلاهما رقيق القلب والإحساس، فما كان منه إلا أن ينتظر الساعة التي فيها يلقى الميلَ نفسه عند الآخر، لا بل الأصح أن تلك الساعة كانت تنتظرهما، فألقى كلاهما بفؤاده في من كان الأسبق إلى تلقّيه. وإذ لاح القدَر وكأنه قد حال دون هذا الهوى، فإنه لم يعمل إلاّ على إذكائه. جعل العاشقَ الشابُ يتحرّق ألماً، وقد تعذَّر عليه

twitter @baghdad_library

الظفر بحبيبته، فنصحتْ له بالسفر لكي يسلوها. سافر ولكن بلا جدوى، ثم عاد وهو من العشق على أحرّ ما يكون. ووجد تلك التي كان يحب عطوفةً ومخلصةً. وبعد هذا الامتحان، لم يكن أمامهما إلا أن يتحابّا طول العمر، فأَقسما على ذلك، وباركتْ عهدهما السماء.

ثم إن جبريال برنار، وهو خالي، وقع يوماً في حب إحدى عمّاتي، فلم ترضَ أن يتزوجها ما لم يتزوج شقيقُه بشقيقتها. فدبَّر الحبُّ كلَّ شيء؛ وأقيم الزواجان في اليوم نفسه. وهكذا كان خالي زوجاً لعمتي، وأولادُهما أولادَ خال لي وعمة معاً. ورُزق كل زوجين، في كلتا الجهتين، طفلاً بعد سنة واحدة، ثم اضطروا إلى الافتراق من جديد.

وكان خالي برنار مهندساً: فمضى يخدم في الأمبراطورية وفي المجر تحت قيادة الأمير «**أوجين**». فامتاز في حصار بلجراد وفي معركتها. أما أبي، فإنه، بعد ما وُلد شقيقي الأوحد، ارتحل إلى القسطنطينية وقد استدعي إليها ليكون ساعاتي السراي. وحدث، في أثناء غيابه، أن اجتذب جمالُ أمي وذكاؤها ومواهبها إعجاب البعض(*) وكان السيد **دو لاكلوزير**، المقيم الفرنسي، من أشد المعجبين بها. ولا ريب أنه قد شغف بأمي أيَّ شغف، لأنني، بعد ثلاثين سنة، رأيته يحدّثني بها وقد تولاّه الحنين. لكن أمي أوتيتْ من المنعة ما يفوق الفضيلة بأن كانت تحب أبي حبّاً جمّاً، فألحّت عليه

(*) ولقد أُوتيتْ أمي من إشراق المواهب أكثر مما كان ينبغي لها أن تؤتى وهي على ما هي عليه. فإن والدها القسيس قد أحبها حتى العبادة فعني بتنشئتها عناية فائقة. فكانت ترسم، وكانت تغنّي تُصاحَب بالناي، وكانت تقرأ في بعض الكتب وتنظم أبياتاً هي بين بين. فارتجلتْ، في خلال غياب شقيقها وزوجها، الأبيات التالية بينما كانت، يوماً، تتنزه ومعها ابنها وزوجة شقيقها ووحيدها وقد أتى بعضهم على ذكر الزوج والشقيق، قالت:

«هذان السيدان الغائبان   فهما لنا الصديقان، والعاشقان،
إنهما عزيزان إلينا لعدة أسباب،   والزوجان، والشقيقان.
وهما الوالدان لهذين الطفلين».

أن يرجع، فتركَ أموره كلها وعاد. وكنتُ أنا ثمرة هذه العودة، ثمرتها النحس. وُلدتُ بعد عشرة أشهر، سقيماً معتلاًّ، وأَوديتُ بحياة بأمي فكان مولدي هو أول شقاء من شقاواتي.

ولم أدر كيف احتملَ أبي هذه الخسارة لكني أعلم أنه لم يتعزّ عن أمي قط. وكان يخيَّل إليه أنه يراها فيّ ولا يمكنه أن ينسى أني أفقدتُه إياها، فما قبّلني يوماً إلا أحسستُ في تنهيداته وفي عناقه العصبيّ حسرةً مُرّة تخالطُ قُبله التي لا تزداد حينئذٍ إلا حناناً. وكان إذا قال لي: «لنتحدث عن أمك يا جان جاك»، قلتُ «سنبكي إذن يا أبي»، فكفى بهذه الكلمة وحدها باعثاً لعبراته. فقال متأوهاً: «آه! رُدَّها عليَّ، عَزّني عنها، املأْ ما خلّفتْ بنفسي من فراغ. أكنتُ أُحبّك مثلما أُحبّك لو لم تكن إلا ابني؟» ثم إن أبي، بعدما فقدَ أمي بأربعين سنة، أسلم الروح بين ذراعي زوجة له ثانية، غير أن اسم زوجته الأولى كان ساعتئذٍ على شفتيه، وخيالُها من قلبه في الصميم.

ذانك هما اللذان صنعا أيامي. لكنهما لم يورثاني من كل ما وهبت السماءُ لهما إلا فؤاداً رقيقاً كان سبب سعادتهما وعلّة شقاواتي جمعاء.

ولدتُ شبْه ميت، وكان الأمل في إنقاذي ضعيفاً. وحَملتُ بذور داءٍ مكّنه مرُّ السنين فبات لا يكفّ عني في أحيان إلا تضاعفتْ عليّ آلامه في وجه آخر. فاعتنت بي إحدى عماتي عناية فائقة جداً حتى إنها أنقذتني. وكانت عمتي لطيفة فطنة. وعلى حين أكتب هذه السطور، ما تزال عمتي حية وقد أوفت على الثمانين واعتنت بزوج لها دونها سنّاً ولكنْ نَهَكَهُ المسكر. فيا عمتي العزيزة! إني لأصفحُ لك أنك أنقذت حياتي، وإني لأَغتمُّ لعجزي أن أردّ عليك، في أواخر أيامك، العناية الحنون التي أسبغتها عليّ في أوائل أيامي. ولي أيضاً مربيتي، وهي العمة جاكلين، ما تزال على قيد الحياة، وفي عافية وذات بنية قوية. إنّ الأيدي التي فتحتْ عينيّ يوم مولدي، ربما قُدّر لها أن تغمضهما عند مماتي.

twitter @baghdad_library

ولقد أحسست قبل أن أفكر ؛ وهذا حظ الإنسانية المشترك. بيد أني اختبرت الأمر أكثر مما اختبره سواي. ولستُ أدري ما الذي فعلتُ إلى سنتي الخامسة أو السادسة. ولستُ أدري كيف تعلمتُ القراءة؛ ولستُ أذكر إلا مطالعاتي الأولى وتأثيرها فيّ. وما أبرح، مذ ذلك العهد، أُسجّل وعيي ذاتي. وكانت أمي قد خلّفتْ بعض الروايات فأخذنا ـ أنا وأبي ـ نقرأها بعد العشاء. ولم يكن القصد، في أول الأمر، إلا التوسل بكتب مشوقة لأجْل تدريبي على القراءة. لكن اهتمامنا لم يلبث أن ازداد حتى تعوّدنا أن نتناوب القراءة بلا انقطاع، فسلخنا ليالينا على هذا الشاغل. ولم يكن في وسعنا أن ندع الكتاب إلا وقد وصلنا إلى نهايته. وكان أبي إذا سمع السنونو وقد طلع الصبح، ربما قال لي في خجل: «ألا تعال فننام؛ أنا صبي أكثر منك أنت».

فما انقضى زمن قصير حتى أكسبتْني هذه الطريقة الشديدةُ الخطر سهولةً في القراءة والفهم بالغة، ولم يقتصر شأني على ذلك، بل اكتسبتُ أيضاً معرفة بالأهواء ليس لها في سنّي مثيل. وإذْ لم تكن عندي أفكار عن الأشياء، فإن جميع المشاعر كانت عندي معلومة من قبل. لم أكن قد عقلتُ شيئاً، وإنما أحسستُ بكل شيء. ثم إن هذه الانفعالات الغامضة، التي كنت أمتحنها، لم تفسد قط العقل الذي لم أمتلكه يومئذٍ بعدُ. لكن تلك الانفعالات جعلتْ لي عقلاً من طراز آخر، ومثّلتْ لي صوراً للحياة الإنسانية غريبة ورومنسية لم تستطع التجربة ولا التفكير أن يبرئاني منها في حال.

وانتهت قراءة الروايات صيف عام 1719. حمل إلينا الشتاءُ التالي شيئاً آخر. وإذْ كنا قد أتينا على كل ما في مكتبة أمي، أقبلنا على الحصة التي عادت إلى أمي من مكتبة أبيها. وكان في حُسن الطالع أن بالمكتبة مؤلّفات جيدة، وليس في الإمكان إلا أن يكون الأمر كذلك. فالمكتبة قد جمعها قسٌّ متبحر في العلم؛ وكانت تلك

موضة العصر؛ ولكنه كان رجلَ ذوق وفكر. وحصل أن نُقل «**تاريخ الكنيسة والأمبراطورية**» للوسيور، و«**خطاب في التاريخ الكوني**» لبوسييه، و«**مشاهير الرجال**» لبلوتارخوس، و«**تاريخ البندقية**» لناني، و«**التحولات**» لأوفيدوس، ولابروييير، و«**العوالم**» لفونتنيل ومؤلَّفه «**محاورات الموتى**»، وبعض مؤلفات موليير، ـ نقل [كل هذا] إلى مكتبة أبي، فكنتُ أقرأ عليه شيئاً منها كل يوم في أثناء عمله. استسغتُها استساغة نادرة، ربما كانت فريدة من نوعها في مثل سني ذاك. غدا بلوتارخوس موضوع قراءتي المفضَّلة. فكان أن اللذة، التي لم أزل أعيد قراءته بها، قد أبرأتني بعض الشيء من قراءة الروايات؛ ولم ألبث طويلاً حتى آثرتُ أجيزيلاسيوس وبروتوس وأريستيدوس وأورونداتوس وأرطامينوس ويوبا. من هذه القراءات الممتعة، وممّا سببته بين أبي وبيني من أحاديث، تكون هذا الروحَ الحُرّ والجمهوري وهذا الطبع الجامح والأبيّ الذي يضيق بالنير والعبودية والذي عذَّبني، طول أيامي، [حتى] في أقلّ الظروف ملاءمةً لنموّه. وكنتُ لا أفتأ تشغلني روما وأثينة وكأني أعايش رجالاتهما العظام. والحال أني أنا بنفسي ولدت مواطناً لجمهورية وابناً لرجل عنده حبّ الوطن هو الهوى الأشد. فالتهبتُ حماسةً على غراره، وحسبتُني إغريقياً أو رومانياً، وغدوتُ شخْص من أقرأ سيرته. وكانت أخبار الثبات والبسالة قد أثّرتْ فيّ فجعلتْ لعينيّ بريقاً وخشَّنتْ صوتي. وحصل يوماً أنْ كنت أَروي مغامرةَ سكافولا[2] ونحن على الطعام، إذْ فزع الناس وقد رأوني أتقدّم إلى المدفأة فأضع يدي عليها كي أمثّل فعْله.

(2) سكافولا شاب روماني قديم وضع يده على النار عقاباً لنفسه إذ قتل خطأً أحدَ الرجال يحسبه عدوّه الملكَ ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

كان لي شقيق يكبرني بسبع سنوات. وكان يتعلم حرفة أبي. وكان منتهى الحنان الذي أُحطتُ به مدعاةً لبعض الإهمال الذي لقيه شقيقي، وهذا ما لم أكن أستصوبه. أثَّر الشأن في تربيته، فسلك سبيل الإباحية حتى قبْل أن يبلغ السن التي يكون فيها إباحياً حقّاً، فنُقل إلى عند معلّم آخر. أخذ يهرب من هناك كما كان يفعل وهو في بيت أهله. ولم أكن أكاد ألقاه البتة، حتى إني لا أستطيع القول إنني تعرفتُ بشقيقي أو أكاد؛ ولكن ما كففتُ عن حبه بحنان، أما هو، فلقد أحبني بقدْر ما يسع الفتى الطائش أن يُحبّ شيئاً. وأذكر أن أبي هبَّ مرة يعاقبه عقابَ غلظة وغضَب، فاندفعتُ وألقيتُ نفسي بينهما واحتضنتُ شقيقي. وقيتُه بجسمي وتلقيتُ الضربات التي وُجّهتْ إليه. وتشبثتُ هكذا وعاندتُ حتى اضطر أبي، في نهاية الأمر، أن يكفّ عن شقيقي إما لأن صياحي ودموعي هدّأتْ من سورته، وإما لأنه كرهَ أن يؤذيني أكثر مما يؤذيه. ثم أفضى بشقيقي سوءُ الحال إلى أن فرّ واختفى تماماً. وبلغنا بعد زمن أنه في ألمانيا. لكنه لم يكتب إلينا قط. وانقطعتْ أخبارُه من ذلك الحين، فبقيتُ ابناً وحيداً.

وإذا كان هذا الصبي المسكين لم يُعتنَ بتربيته، فإن شقيقه لم يكن على هذه الحال، إذ لم يُتَح لأولاد الملوك عنايةٌ تفوق ما أُتيحَ لي منها في سنواتي الأولى. فلقد كنتُ معبود مَن كانوا حولي جميعاً. والأندر بكثير أنهم كانوا يعاملونني معاملة الولد الحبيب لا الولد المدلَّل. لم يأذنوا لي قط أن أَجري وحدي في الشارع مع سواي من الأولاد قبلما فارقتُ بيت أبي، ولا ألجأتُهم يوماً أن يكبحوا فيّ ولا أن يلبّوا فيّ نزوةً من النزوات الغريبة التي تُعزى إلى الطبيعة والتي إنما تنشأ جميعها عن التربية وحدها. كانت لي عيوبُ سنّي؛ فقد كنتُ ثرثاراً، نَهماً، وكاذباً في أحيان. وربما اختلستُ بعض الفواكه

والحلوى والمأكل؛ على أني لم يطب لي يوماً بالمضرّة والأذية وباتهام غيري ولا بتعذيب الحيوان. بيد أني أذكر أنني بلتُ مرةً في قدر جارةٍ لنا تدعى السيدة كلو بينما هي في المعبد، وإني أُقرُّ بأن هذا التذكار ما يزال يضحكني لأن السيدة كلو، على طيب سجاياها، كانت أكثر من عرفتُ تذمراً. تلك هي قصة مساوئي الصبيانية، قصتها الوجيزة، الصادقة.

ثم كيف لي أن يداخلني الخبث، ونظري لم يقع إلا على أمثلة الوداعة ولا كان حولي إلا خير الناس أجمعين؟ والحقّ أن أبي وعمتي والعمة الأخرى مربيتي وأقاربي وأصدقاءنا وجيرتنا لم يكونوا طوع يدي، بل إنهم أحبوني فأحببتُهم كذلك. وإذْ قلّما ما كانت إراداتي مستثارة، وقلما ما كان يحول دونها أحد، فإنه لم يخطر ببالي أن أكتسب شيئاً منها. وأُقسمُ أني لم أدر ما النزوة إلى أن حان إخضاعي تحت سطوة معلم من المعلمين. فإذا استثنيتُ وقت القراءة أو الكتابة، وكنتُ أقضيه مع أبي، وإذا استثنيتُ وقت النزهة، وكنتُ أقضيه مع مربيتي، فلقد لزمتُ عمتي ألحظها تطرّز، وأستمع إليها تغنّي، وأنا قاعد أو واقف إلى جنبها يتولاني السرور. وكان من بشاشتها ووداعتها ووجهها الطلق ما طبع في نفسي أثراً عميقاً، حتى إنني ما أزال أتصوّر هيئتها ونظرَتها وسلوكها جميعاً وما أزال أتذكّر أحاديثها اللطيفة، ويمكنني أن أَصف ما كان عليها من ثياب، وكيف كانت تُصفف شعرها ما أنسى خصلتَي الشعر الفاحم قد تدلّتا على صدغيها بحسب الزي في ذلك الوقت.

وإني على يقين أنني مدين لها بالميل إلى الموسيقى، أو، في الأحرى، بولعي بالموسيقى ولعاً لم ينمُ فيّ حقَّ النمو إلا بعد ردح من الزمن. وكانت عمتي تعرف قدْراً من الألحان والأغاني مدهشاً فتنشدها بصوت عذب، وكان صفاءُ روح هذه الفتاة الكريمة يقيها

twitter @baghdad_library

ويقي كل ما يحيط بها من أحلام اليقظة والأحزان. ولقد بلغ مني غناؤها كل مبلغ حتى إن الكثير من أغانيها لم يستقرّ في ذاكرتي فحسب، ولكنْ عاودني بعدما فقدتُها وكنتُ قد نسيتُه منذ أيام طفولتي، وكلما علت بي السنّ، بُعث في نفسي بضرب من السحر يعييني الإفصاحُ عنه. أفيصدَّق أنني، أنا الشيخَ الخرف، الذي أضنته الهموم والأرزاء، أيصدَّق أنني ربما فاجأتُ نفسي أبكي مثل الطفل وأُهمهم بتلك الألحان في صوتٍ مرتعش مكسور؟ ولقد عاودني منها لحنٌ برمّته، إلا أن ثاني شطر من كلماته قد امتنع عليّ وإن كانت قوافيه ماثلة في خاطري على شيء من الغموض. وهذا هو المطلع وما استطعتُ أن أتذكّر من سائر الأغنية:

«لستُ أجرؤ يا تيرسيس
أن أستمع إلى صوت الشبّابة التي بها تنفخين
تحت شجيرات الدردار؛
فقد ابتدأوا في قريتنا يلغطون

وراءِ
يرتهن
بلا خطر،
إنما الشوك أبداً تحت الورد».

وإني لأسائل نفسي: أيّ سحر حنون يجده قلبي في هذه الأغنية؟ لعل ذاك نزوة لا أفقه منها شيئاً. ولكن يتعذّر عليّ أن أنشد الأغنية حتى النهاية إلاّ وقد أشرقتُ بالدموع. ولقد نويتُ مراراً أن

أكتب إلى باريس لكي يفتشوا لي عن سائر الكلمات، هذا إن بقي أحد يذكرها إلى اليوم. بيد أني أكاد أوقن أن اللذة، التي أشعر بها وأنا أتذكر هذا اللحن، كان يذهب عني بعضٌ منها لو أُوتيتُ الدليل على أن في الناس مَن غَنّى بها يوماً عدا عمتي سوزان.

هكذا كانت وجداناتي الأولى لمّا ولجتُ أبواب الحياة. وهكذا جعل يتكوّن فيّ، أو يتبدى، ذلك القلب الكثير الإباءة والتحنان معاً، وذلك الطبع المتخنث، على الرغم من كونه طبعاً لا يُرَوَّض، والذي إذْ ترجّح بين الخور والشجاعة، وبين الإماعة والفضيلة، جعلْني، مدى العمر، في تناقض أنا ونفسي والتي أفاتتني العفةَ والمتعةَ، اللذةَ والحكمةَ على السواء.

ولقد قطع مجرى هذه التربية حادث كان لعواقبه تأثير فيّ ما حييتُ. وذاك أن أبي تشاجر هو والسيد جوتييه، وكان نقيب جيش في فرنسا وذا قربى بالمجلس، فرعف الرجل، وكان وقحاً جباناً. فأراد أن ينتقم لنفسه، فاتهم أبي بأنه شهر سيفه داخل المدينة؛ وابتغى حبسه. فأصرّ أبي على أن يُسجَن المتهمُ أسوة به هو ووفقاً لأحكام القانون. فلم يُلَبَّ طلبُ أبي، فآثر أن يهجر جنيف على أن يتخلّى عن وجهة نظر وجد أنها تتعلق بالشرف والحرية.

مكثتُ تحت وصاية خالي برنار، وكان يعمل وقتئذٍ في تحصينات جنيف، وكانت بنته البكر قد توفيت، ولكن بقي له ابن هو في مثل سني. فأُرسلنا معاً إلى بوسّي نقيم عند القس لامبرسييه لنتعلّم اللاتينية ومعها كل ما يصحبها من حشو يقال له تربية.

1 ـ فأما السنتان، اللتان قضيتُهما في تلك القرية، فلطّفتا شيئاً من خشونتي الرومانية ورجعتا بي إلى حال الطفولة. وأما في جنيف، حيث لم يكن يفرَض عليّ أمر، فكنتُ مجتهداً ومحبّاً للقراءة، وكان

twitter @baghdad_library

ذلك هو تسليتي الوحيدة أو يكاد يكون. أما في بوسّي، فإن العمل قد حبَّب إليّ الألعاب التي كانت [مناسبة] للاستراحة منه. وكان الريف شيئاً عندي جديداً حتى لم أملّ التمتع به، فتملّكني حُبٌّ له شديد لم يهمد على العمر. إن ذكرى الأيام السعيدة، التي قضيُتها في الريف، قد جعلتني أتحسر على انقضائها وعلى مباهج الريف حسرةً لزمتني في مختلف مراحل الحياة إلى يوم عدتُ للريف. وكان السيد لامبرسييه رجلاً متعقلاً، فلم يثقلنا بالفروض وإن لم يهمل تعليمنا؛ والدليل على حُسن طريقته هو أني، برغم كرهي للقسر، لا أذكر بامتعاض قط ساعات الدرس هناك، ولئن لم آخذ عن يد لامبرسييه علماً وافراً، فإنّ ما تعلمتُه يومئذ قد تعلمته بلا جهد، فلم أنس منه حرفاً.

ولقد أولتني بساطةُ هذه العيشة الريفية نفعاً لا يقدَّر شأنه، إذ أَشرعتْ قلبي على الصداقة. ولم أكن، إلى ذلك الحين، قد عرفتُ إلا مشاعر ساميةً لكنها في الخياليات. فكان من تعوّدي أن أعايش ابن خالي برنار على الوئام ما شدَّني اليه بأسباب اتحادٍ رقيق الشعور. فما مرَّ وقت قريب حتى أحسستُ بمودة لابن خالي تفوق ما كنتُ أكنه لشقيقي، وهذا الإحساس لم تُمحَ أشياؤه قط. كان ابن خالي فتًى عالي القامة، جد نحيل، وديع الخُلق بقدْر ما كان ضعيف البنية؛ ولم يبالغ هو جد المبالغة من أن يغتنم ما قد لقي بالبيت من تفضيلٍ عليّ لأنه ابن الوصيّ عليّ. وكانت أعمالنا وألوان لهونا وأذواقنا واحدة. وكنا وحدنا، وفي سن واحدة، وبكل منا حاجة إلى رفيق، فإنْ فُرّق بيننا، قُضي علينا. ومع أنه لم يُتَح لنا من الفرص إلا القليل كي نُثبت تعلُّقَ كل منا بالآخر، فقد بلغ تعلّقنا، هذا، مبلغاً وفيّاً، فتعذّر علينا لا أن نفترق لحظة فحسب، ولكن ما تصوّرْنا أنّا نقوى على الافتراق يوماً من الأيام. وكان كلانا على فطرة سهلة الانقياد

للمشاعر، لطيفاً حيث لا قسر، فتَوافَقْنا على كل شيء. ولئن كان له عليَّ بعضُ السلطان إذ نحن بحضرة اللذين يتوليان أمرنا، فقد كان لي عليه، إذْ نحن وحدنا، سلطانٌ يعيد التوازنَ بيننا. وكان إذا تردَّدَ في أثناء الدرس، هامستُه بالأمثولة. وكنت إذا فرغتُ من فرضي، ساعدتُه على فرضه. أما في اللعب، فقد كنتُ دليلاً له إذ أنا أنشط ذهناً منه. وكنا في طبعنا جد منسجمَيْن، وكانت الأخوّة، التي وصلتْ بيننا، جد صادقة حتى إننا لبثنا غير مفترقَين، أو نكاد، ما يربو على خمس سنوات، في جنيف أو بوسّي على السواء. وإني أُقرّ أننا تضارَبنا مراراً، ولكن لم يكن قط من حاجة إلى تفريقنا، إذ لا شجار لنا قد جاوز ربع الساعة، ولا اتهم أحد منا الآخر قط. ولعلّ هذه الملاحظات صبيانية، إن شئتَ، لكن فيها مثَلاً ربما كان فريداً مُذْ عَهْد الدنيا بالأطفال.

ولقد لاءمتني الطريقة التي كنت أحيا عليها في بوسّي الملاءمة كلها حتى أنه لو لم يعوزها الدوام أكثر لتُثبّت طبعي تثبيتاً مطلقاً. وكان قوامها مشاعر حنان وحب ووئام. وفي ظني أنه لم يوجد قط فرد واحد من أفراد نوعنا [البشري] له، على نحو طبيعي، من الغرور أقل مما لي أنا. كنت أسمو بنفسي تهزني اندفاعات إلى حركات جليلة، ثم سرعان ما أتردَّى في ما كنتُ عليه من فتور. وأن يحبّني كل من يقاربني ذلك أقصى ما قد رغبتُ فيه. ولقد كنتُ وديعاً، وكان ابن خالي هكذا، وهكذا كان القائمون على تربيتنا. فلم أقع، طوال سنتين، على مشهد شعور عنيف، ولا كنت ضحيةً له. وكان كل شيء ينمي في قلبي ما تلقاه من الطبيعة. فلم أعرف ما هو أجمل من أن أرى الناس كافة قد رضوا عني ورضوا عن كل حال. ولسوف أتذكّر دائماً أن لا أمْر كان يجعلني أشدَّ ارتباكاً إما تلعثمتُ وأنا في المعبد أجيبُ متلعثماً عن أسئلة التعليم المسيحي من أن أرى

twitter @baghdad_library

على وجه الآنسة لامبرسييه علامات الحيرة والأسى. فكان ذلك وحده أشقَّ عليّ من أن أغلط أمام الجمهور، وإن يكن الغلط جمَّ التأثير في نفسي. ولئن كنتُ قليلاً ما أكترث للإطراء، فإنني شديد الانفعال مما يُخجل، وفي وسعي القول، ههنا، إن انتظاري تأنيبَ الآنسة لامبرسييه كان أقلّ إزعاجاً لي من خشيتي أن أكدّرها.

ومع ذلك، لم تتوانَ، ولا توانى شقيقها في القسوة إذا ما اقتضاها الحال. لكن هذه القسوة، وهي في الأغلب عادلة، لم يؤججها الغضب. فآلمتْني ولكن لم أتمرد قط. وكان أسفي على تكديري سواي أشدَّ منه على ما أُنزلَ بي من عقاب. وكانت أمارات الإستياء أقسى إليّ من معاقبة البدن. وإنه ليحرجني أن أشرح ذلك شرحاً هو خيرٌ مما فعلتُ، ولكن لا بد من هذا الشرح. فلكم كانت تتغير طريقةُ معاملة الشباب لو أُحكمَ التبصر في الآثار البعيدة التي تنشأ عما يُعمَد إليه معهم في غير فطنة ولا تمييز! إنّ العبرة المهمة التي يمكن استخلاصها من مثال من الأمثلة شائع بقدْر ما هو ضارّ لَتحملني على أن أَرويه.

وإذْ أولتنا الآنسة لامبرسييه حنوّ الأم، فقد تمكّنتْ منا سلطتها، وربما ذهبتْ فيها إلى أن تنزل بنا عقوبة الأطفال إذا كنا نستحقها. وقد اقتصرت الآنسة لامبرسييه زمناً على التهديد، فبدا لي أن التهديد بقصاص لم أبتله من قبْل هو أمر جدُّ رهيب؛ فلما أنزلتْ بي العقوبةَ، ألفيتُ مكابدتي إياها أقلَّ رهبةً من توقّعي لها. والأغرب أن هذا القصاص قد زادني تعلّقاً بالتي أنزلتْه بي. فوجب أن يكون لهذا التعلّق كل الصدق، وأن تحضر كل وداعتي الطبيعية حتى أكفّ نفسي عن محاولتي أن تتكرر المعاملة عينها بشيء استأهلتُها فيه، لأنني كنت إذا توجعتُ، بل حتى إذا خجلتُ، أحسستُ بمزيج لذة شهوانية إن كابدتُها من اليد نفسها مرة أخرى، بتُّ أشدَّ رغبةً فيها مني في

الخوف منها. والحق أن هذا العقاب، **إذ كانت** تخالطه غريزة جنسية مبكرة، ما كان ليبدو لي قط ممتعاً لو أن أخاها هو من أنزله بي. ولكن لم يكن من داعٍ إلى مخافتي أن يحلّ هو محلّ شقيقته لما قد جُبل عليه من طباع. ولئن أمسكتُ عن إتيان ما أستحق معه العقوبة، فإنما ذلك خوفَ أن أُغيظ الآنسة لامبرسييه، لأن لرفق، بل وللرفق المتولد عن الحواس، من السلطان في دخيلتي ما أعطى الحواس منزلة الحَكَم طيَّ قلبي.

ولقد حصل ثانية ما أَمسكتُ عن إتيانه إمساكاً لا خوف فيه، حصل ثانية عن غير ذنب مني ولا عمْد، فانتهزتُ السانحة وأنا مطمئن الضمير. على أن هذه المرة الثانية كانت المرة الأخيرة، فإذْ أن الآنسة لامبرسييه قرأت في بعض العلامات أن ذلك العقاب لا يصيب ما توخت، أعلنت أنها تقلع عنه وأنه يتعبها. ولقد كنا، إلى ذلك اليوم، ننام في حجرتها، وربما رقدنا شتاءً على سريرها في بعض الأحيان. فما مضى يومان حتى نُقلنا إلى حجرة للنوم أخرى، فتشرفتُ منذئذٍ بأن تعاملني معاملةَ الصبيّ الكبير، ولقد كنتُ في غنىً عن هذا الشرف.

فمن يصدّق أن العقاب المنزل على الأطفال، هذا الذي أَنزلتْه بي فتاة في الثلاثين وأنا في الثامنة من العمر، قد حسم أمر أذواقي ورغباتي وأهوائي، وحسم أمري أنا ما حييتُ؟ والمؤكّد أن ذلك هو على ضد ما وجب أن يكون عليه طبعاً. فما إن شبّتْ حواسي حتى تأججتْ شهواتي يقتصرن على ما كنتُ قد شعرتُ به من لذة، لسن يبتغين شيئاً آخر.اضطرمتْ فيّ دماءُ الشهوة منذ وُلدتُ على التقريب، ومع ذلك، صنتُ نفسي عن كل ما يلطّخ، إلى أن بلغتُ السن التي تنمو فيها أشدُّ الميول فتوراً وتأخيراً. فاضطربتُ زمناً طويلاً لستُ أدري علامَ اضطرابي، وأخذتُ أَلحظ النساء الجميلات فألتهمهن

twitter @baghdad_library

بنظرات لهيب، فلم تنفكّ مخيّلتي تُذكّرني بهن، لا لسبب إلا لكي أتصورهن على هواي أصنع منهن أوانس لامبرسييه كثيرات.

وحتى بعْدَ سن المراهقة، فإن هذا الميل الغريب، الثابت على الدوام، البالغ حد الانحراف، حدّ الجنون، قد حفظ لي مسلكي الأخلاقي الشريف ولئن كان من المفترض أن يذهب به عني. فإذا كانت في الدنيا تربيةٌ متواضعة وذات عفة، فإنما هي تلك التي تلقيتها أنا. ولم تكن عماتي الثلاث ذوات حكمة مثالية فحسب، ولكن، إلى هذا، كنّ من الحشمة على قسط باتت النساء لا يعرفنه منذ عهد بعيد. أما أبي، وهو أخو لذة، ـ لكنه غزلٌ على الطراز القديم ـ فلم يوجّه قط إلى أكثر مَن أَحبَّ من النساء كلمة واحدة يحمرّ لها وجهُ عذراء؛ ولم يبلغ الاحترامُ للأولاد عند أحد قط ما قد بلغه في أُسرتنا، ولقد شهدتُ ذلك بنفسي؛ ولم ألقَ عند السيد لامبرسييه، في هذه الناحية، عناية أقل، حتى إن خادمة له طيبة القلب طُردتْ من منزله إذ فرطتْ منها أمامنا لفظة هي على شيء من التجاوز. ولم يتضح لي كيف يتجامع الجنسان إلى أن شببتُ، بل لم تتجسم لي هذه الصورة الغامضة إلا تجسماً مقيتاً يبعث الاشمئزاز. فشعرتُ بتقزز من البغايا لم يُمحَ عني قط، فما رأيتُ فاسقاً إلا احتقرتُه، بل وفزعتُ حتى، لأن اشمئزازي من الفسق قد أوفى على هذا الحد منذ أن سرت يوماً إلى قرية بوتي ساكونكس، عبر طريق منخفض فشاهدتُ عن جانبيه حُفَراً في الأرض قيل لي إن تلك الأناس كانت تمارس الفجور هناك. ثم إنّ ما رأيتُه من تجامع الكلاب كانت صُورتُه تعاود خاطري دائماً كلما هجس فيّ غيرُه من ألوان الجماع، وكان هذا التذكار وحده يبعثني على الاشمئزاز.

إن هذه الأحكام المسبقة في التربية، وهي التي من شأنها أن تؤخّر أُولى الفورات لمزاج سريع الالتهاب، أَيّدها الانحراف الذي

سببتْه لي البوادرُ المتأججة للمتعة الحسية، على ما تقدَّم قوله. فلما لم أتصوَّر إلا ما أحسستُ به رغم فوراتٍ بدمي مضنية، لم أَعرف كيف أحوّل شهواتي إلى سوى ضرب من اللَذاذَة قد أَلفتُه، فلم أذهب قط إلى ضرب آخر جعله الناس كريهاً عندي وكان قريبَ الشبه بالضرب الذي أَلفتُه من غير أن أفطن إلى ذلك البتة. فكنتُ، وأنا في جنون التخيُّل وتأجّج الشهوة وفي ما ربما حملاني إليه من سيرة غريبة الأطوار، كنتُ أَعمد في الخيال إلى أن أستعين بالجنس الآخر، وما حسبت البتة أنه يصلح لشيء عدا ما تحرَّقتُ للاستفادة منه.

فكنتُ على مزاجٍ جائش التحرّق والتشهي قبل الأوان، ومع ذلك أمضيتُ سن البلوغ لم أشته ولا عرفتُ من الملذات الحسية إلا ما كانت الآنسة لامبرسييه قد أوحت لي به من أفكار ببراءة منها خالصة. فلما تقدَّمتْ بي الأيام فأَصبحتُ في الرجولية، حفظني ما كان خليقاً بأن يقضي عليّ. وكان أنّ ميلي الصبياني القديم قد ازداد اقترانه بإحساسي الآخر، بدل أن يتلاشى هذا الميل، حتى لم أستطع قط أن أُقصيه عن الملذات التي أضرمتْها فيّ الحواس. وكان أن هذا الجنون، فضلاً على حيائي الفطري، قد أَوهنَ جزائي وأنا مع النسوان خيفةَ ألا أتجاسر على أن أقول كل شيء، أو خيفةَ ألا أقدر على أن أفعل كل شيء، لأن الاستمتاع، الذي ليست ملذةُ المجامعة إلا مرحلته الأخيرة، لم يكن بلوغُه سهلاً على من يبتغيه ولا كان يمكن أن تَحْرزه المرأة التي تستطيع أن تمنحه. وهكذا قضيتُ العمر أشتهي فأسكتُ أمام أَحبّ الخَلق إليّ. فلم أجترئ قط على أن أُفصح عن ميلي، فكنتُ أخدعه بعلاقاتٍ تحفظ لي صورته. فأن أرتمي عند قدمي معشوقة آمرة، فأطيع ما تأمر به وأسألها العفو والسماح، كل ذلك كان لي متعات هنيئة. وكان خيالي كلما أَجَّج دمي، بدت هيئتي

twitter @baghdad_library

أقرب ما تكون إلى هيئة العاشق الفاتر. ولا يخفى أن الحب على هذا النحو لا يؤدي إلى تقدّم حثيث، ولا بخطره شديد على فضائل من يتعاطونه من النساء. فأَصبتُ من الحُبّ الشيءَ اليسير، ولكن لم أمتنع عن أن أتمتع به جمَّ التمتع على حسب طريقتي، أي بالخيال. وهكذا فإن حواسي، منسجمةً هي ومزاجي الحَي وروحي الرومنسية، قد أبقت لي مشاعر طاهرة ومسلكاً أخلاقياً شريفاً، وذلك بالميولات نفسها التي لو أُوتيتُ معها قسطاً من الوقاحة أوفر قليلاً، لترديتُ في اللذاذات الحسية الفظة أشدها.

لقد خطوتُ، في سرداب اعترافاتي القاتم المذلّ، أول خطوةٍ وأصعبَها. فليست الجريمة هي ما يكلفنا البوح به الكلفة الأشد، وإنما ما يكون مضحكاً ومخجلاً.

وإني واثق بنفسي من الآن، فلا شيء يستطيع أن يوقفني بعد الذي اجترأتُ على قوله. والناس يمكنهم أن يقدّروا ما كلفتني هذه الاعترافات في ما لم أقوَ أن أقطعه على نفسي من إقرار بحماقتي أُفضي به للاتي أحببتُهن أَلتمس منهن، في أخصّ المواقف الحميمة، الحظوةَ الوحيدة التي أَعوزتْ سواي، وقد أَخذتْ بي معها سورةُ هوًى أعمت بصري وتولتْني رعدةٌ هزَّتْ بدني هزّاً، وما وقع لي ذلك إلا مرة واحدة، أيامَ الطفولة، وقد جرى لي مع فتاة في مثل سنّي، وكانت هي أول من اقترح ذلك.

فإذا رجعتُ، على هذا النحو، إلى الآثار الأولى التي لكائني الحسّاس، عثرتُ على عناصر قد تبدو متنافرة، لكنها لم تألُ جهْدَ أن تتناسق وتتحد فتؤثر فيّ تأثيراً سويّاً وبسيطاً، وعثرتُ على عناصر أخرى هي نفسها في الظاهر، ولكنها، لبعض الأحوال، قد أحدثتْ فيّ مركّباتٍ جدَّ مختلفة، حتى ليتعذّر عليك أن تتصوّر أن بين هذه العناصر وتلك أيّ تواصلٍ كان. فمن يصدّق مثَلاً أن قوةً من أصلب

قوى نفسي قد انغمستْ في المنبع عينه الذي منه سالت بدمي الخلاعة والميوعة؟ لن أخرج عن الموضوع الذي تكلمتُ عليه منذ لحظات، ومع ذلك، أستخلصُ منه، كما ترى، إحساساً مغايراً له جد المغايرة.

فلقد كنتُ يوماً، أدرس وحدي في الحجرة التي تلاصق المطبخ. وكانت الخادمة قد وضعت أمشاط الآنسة لامبرسييه بالقرب من لوحة المدفأة لكي تنشف. فلما رجعتْ لكي تأخذ الأمشاط، إذا بأحدها قد تكسَّر من أسنانه صفٌّ برمّته. فعلى من تبعة هذه الأذية؟ لم يكن بالحجرة أحد غيري. فسُئلتُ. فأَنكرتُ أن قد لمستُ المشط. فتألبَ عليّ السيد لامبرسييه وشقيقته فأخذاني بالوعظ والحزم والوعيد. فأصررتُ وعاندتُ، لكن اقتناعهما كان أَشدَّ من أن لا يتغلب على كل ما احتججتُ به، وإن تكن تلك أول مرة كذبتُ فيها مثل هذه الكذبة الجريئة. فنظرا في الأمر نظر الجد، ولقد كان يستحق هذا النظر. وبدا الخبث والكذب والعناد مما يستحقّ العقاب، ولكن لم تُنزله بي الآنسة لامبرسييه، بل كُتب إلى خالي برنار، وكان ابن خالي المسكين قد اتُهم بذنب آخر ليس أخفّ مما اتُهمتُ به، فشملَنا معاً عين العقاب. ولقد كان هائلاً رهيباً. ولو أرادوا مداواتي بدائي ويكبتوا فساد حواسي، لم يمكنهم أن يعملوا شيئاً أفضلَ مما فعلوا، إذ إنني استرحتُ من حواسي إلى زمن طويل.

ولقد أعياهم أن ينتزعوا مني الإقرار الذي توخَّوه. فأُخذتُ بذنبي مراراً وجُعلتُ في أفظع حال، فلم أتزعزع قط. ولقد كنتُ احتملتُ الموت، ومع هذا، تشبثتُ بموقفي. حتى القوة كان لا بد لها أن تَلين حيال صبيّ شيطانيّ العناد، إذ لم يطلقوا على رباطة جأشي غير هذا الاسم. ففي آخر الأمر، خرجتُ من هذه المحنة القاسية وقد تحطمتُ، لكني انتصرتُ.

twitter @baghdad_library

ولقد مضى على هذا الحادث ما يناهز خمسين سنة، ولستُ أخشى أن أعاقَب ثانيةً، اليومَ، لأجل السبب عينه. وإني، أمام السماء، أُعلنُ أنني كنتُ بريئاً وأنني لم أَكسر المشط ولا لمستُه ولا اقتربتُ من لوحة المدفأة ولا خطر لي هذا قط. فلا يسأَلني أحد كيف حصلت الأذية، فإنني أجهل كيف حصلتْ ويُعييني إدراكه، وكل ما أعلم علم اليقين هو أنني قد كنتُ بريئاً.

وليتصور الناس فتًى هو، في حياته العادية، خجلٌ طيّع، لكنه، في الأهواء، مشتعلٌ أبيّ لا يُقهَر، ليتصوروا فتًى لا يبرح منقاداً لسلطان العقل ولا يبرح يلقى الرفق واللطف والإنصاف، فهو لا يعرف من الظلم شيئاً، ومع ذلك، فقد قاسى منه، أول مرة في العمر، ضرباً فادح الإرهاق أنزلتْه به يدُ أحبّ الناس إليه وأَجلّهم عنده. يا للتشوش في تفكيره! ويا للفوضى في شعوره! ويا للتقلب في قلبه وذهنه، بل في جميع كيانه عقلاً وأخلاقاً! أقول: فليتصور الناسُ أن الإمكان هذا الأمر كله؟ أما أنا، فلستُ أجد عندي القدرة على أن أقتفي أدنى أثرٍ مما اضطربَ فيّ وقتئذٍ ولا على أن أتقصاه.

ولم أَكن قد أَصبتُ بعد قسطاً من العقل كافياً لأن أدرك مدى ما كانت المظاهر تدينني به ولا لأن أضع نفسي بموضع الآخرين. وإنما بموضع نفسي كنتُ أضع نفسي، وكل ما شعرت به يومئذٍ فهو شدة عقاب على ذنب لم أرتكبه. ولئن برّحتْ ببدني الأوجاع، فلقد وَهنَ إحساسي بها؛ ولم أشعر إلا بالحنق والغيظ واليأس. أما ابن خالي، وهو الذي تردّى في ما يشبه حالتي وأُخذ بما اقترفَهُ عن غير قصد كما لو أن فعله قد اجترحه عن سبق إضمار، فلقد ثار ثورتي فحنق واغتاظ ولبث من أمره على ما يماثل موقفي. فاحتضن كل منا الآخر إذ نحن في سرير واحد وقد احتدّ شعورنا وضاقت أنفسنا؛ حتى إذا تسنّى لقلبينا الفتيّين أن يُخرجا ما بهما من غيظ، جلسنا في

السرير فأَخذنا نصيح ما وسعنا الصياح قائلين: «يا للجلّاد، يا للجلّاد!»[3]

أُحسُّ، وأنا أكتب هذا، أن نبضي ما يني يضرب ضرباً شديداً، ولسوف تبقى تلك الأوقات ماثلة في روعي ولو عمّرتُ ألف سنة. فلقد رسخ في نفسي أولُ شعور لي بالعنف وبالظلم حتى إن كل الهواجس التي تتصل به تردّني إلى انفعالي البكر. ثم إن شعوري هذا، وهو الذي اقتصر عليّ في مبدإ نشأته، قد نما في حد ذاته أيَّ نمو فتنزَّه عن المنفعة الشخصية حقَّ التنزّه، حتى إن قلبي ليتأجج لمرأى أو مسمع الظلم، أيّاً كانت دواعيه وأينما كانت مواضع ارتكابه، ولكأن عواقبه تعود عليّ أنا. فإذا قرأتُ عن فظاعات طاغيةٍ ضارية، أو عن الخبث المتحذلق لكاهنٍ خَدّاع، وددتُ حقّاً لو أَطيرُ إلى ذينك اللعينين أطعنهما بالخنجر ولو هلكتُ ألف مرة. ولكم تصبَّبَ عرقي وأنا أَطرد، جرياً أو رمياً بالحجارة، ديكاً أو بقرة أو كلباً أو حيواناً آخر شهدتُه يعذّب حيواناً غيره لا لسبب إلا لشعوره بأنه هو الأقوى. ولعلّ هذه الحالة أمرٌ عندي طبيعي وإني أراها طبيعية؛ لكن أول ظلم قاسيتُ كان عمقُ تذكاري له أوثقَ اتصالاً بتلك الحالة وأطولَ زمناً من أن لا يوطّدها.

هنا انتهى عندي صفاءُ الطفولة، فأصبحتُ مذ ذلك العهد وقد خلوتُ من السعادة الخالصة. وإني أشعر، حتى يومي الحاضر، أن مباهج طفولتي يقف ههنا تذكارُها، ولقد لبثنا في بوسّي بضعة أشهر أخرى. وكنا على مثل حال الإنسان الأول إذ هو في الجنة الدنيا، ولكن بعدما امتنع عليه نعيمها. هكذا بدت حالنا في الظاهر، أما في الواقع، فلقد كانت على غير ذلك تماماً. فإن المحبة والاحترام

(3) في الأصل باللاتينية Carnifex, Carnifex, Carnifex ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

والعلاقة الحميمة والثقة لم تبقَ تشدُّ التلميذين إلى مُرشدَيهما، ولا عدنا ننظر إليهما نظرتنا إلى إلهين يعلمان ما في قلب كل منا، بل قلّ حياؤنا من الإساءة وكثُرَ خوفنا أن نُتهَم، فابتدأنا نتستر ونتمرد ونكذب، وأَخذتْ كل الرذائل التي لسنّنا تُفسد براءتنا وتشوّه ألوانَ لعبنا. حتى الريفُ فقدَ، في عيوننا، من سحر وداعته وبساطته، ذاك السحر الذي كان يتجه إلى القلب رأساً. فبدا الريف قفراً قاتماً كأنما يغطيه ستار قد حجب عنا ما به من روعة وجمال.

وأمسكْنا عن غرس حُديقاتنا وأعشابنا وأزهارنا، وأمسينا لا نبحث في الأرض بحثاً رفيقاً ولا نصيح جذلاً إذا اكتشفنا البذرةَ التي كنا قد زرعناها. فعفنا عيشَنا ذاك، واشمأزّ منا الآخرون. فأَخرجَنا خالي من هناك، فانفصلنا عن السيد لامبرسييه وعن الآنسة لامبرسييه وقد شبع كل فريق من الآخر فلم يكد يأسف على الانفصال عنه.

ولقد مضى زهاء ثلاثين سنة على خروجي من بوسّي فلم أستعد عن إقامتي فيها ذكرياتٍ يُحببها إليّ ما بها من بعض التسلسل. لكني، مذ تخطيتُ سن النضج فانحدرتُ إلى الشيخوخة، أصبحتُ أشعر بأن تلك الذكريات نفسها تنبعث من جديد، على حين يمَّحي سواها، فترسخ فيّ رسوخاً يتضاعف سحرُه وتأثيرُه يوماً بعد يوم، لكأني، إذا أَحسستُ بإدبار الحياة، أحاولُ أن أمسك بها من حيث ابتدأتْ. وإنّ أتفه الوقائع لذلك العهد لا تلذّ لي إلا لأنها من ذلك العهد. وإني أذكر كل ما كان من أحوال الديار والأناس والأيام. فأرى الخادمة أو الخادم يسعيان في الحجرة، وسنونوةً تمرق من النافذة، وذبابةً تحطّ على يدي وأنا أتلو درسي، وأرى كل هيئة الحجرة التي كنا فيها؛ ومكتب السيد لامبرسييه إلى اليمين، مع صورة للباباوات جميعاً قد طُبعتْ على الخشب، وميزاناً لأحوال الجو، وروزنامة كبيرة، وأشجاراً من توت تُظللُ النافذة وقد تصل إلى البيت عبر حديقة عالية

تُواجه مؤخرته. وإني لأعلم علم اليقين أن القارئ ليس له مسُّ حاجة إلى أن يقف على هذا كله، غير أني أنا بي حاجة إلى أن أقول هذا كله للقارئ. ويا ليتني أجرؤ على أن أروي له حكايات ذلك العهد الطيّب وهي التي أَطربُ لها ما تذكّرتُها! بل لو أَروي له خمساً منها، أو ستاً، على الأخص. ألا فلنتفقْ ولنكتف بالقليل: أعفيك من الخمس، ولكني أحكي حكايةً واحدة أريدها، على أن تدعني أرويها بأوفى ما يسعني من الإسهاب لأجل أن تمتد بي ملذتي.

ولو لم أبتغ إلا ملذتك، لأمكنني أن أختار حكايةَ مؤخرة الآنسة لامبرسييه التي لما انقلبت على قفاها يوماً، عند أسفل المرج، انكشفت بطولهابتمامها أمام ملك سردينيا إذْ هو في طريقه من هناك. على أن حكاية شجرة الجوز التي كانت على الرصيف، يسرّني سردها فوق ما يسرّني سرد الحكاية السابقة، لأن حكاية شجرة الجوز كنت فيها ممثّلاً، بينما الأخرى لم أكن فيها إلاّ متفرجاً على زلّة القدم، كما أُقرّ بأنه لم تتهيأ لي أدنى كلمة لتضحكني من حادث لئن هو مضحك في نفسه، فقد أزعجني إذ دار على الشخص الذي كنتُ أُحبّه حُبّي لأمي أو أكثر.

وأنتم أيها القراء، الذين تحرَّكَ فيهم الفضول فأرادوا أن يقفوا على الحكاية الخطيرة، حكاية شجر الجوز، أَصغوا إلى مأساتها المهولة، وإن استطعتم فلا ترتعدوا!

كان، في خارج باب الدار، رصيفٌ على شمال المدخل. وكثيراً ما قعدنا هناك بعد الظهر. ولكن لم يكن على الرصيف شيء من ظل. فغرس السيد لامبرسييه شجرة جوز طلباً للظل، وأُقيمَ احتفال لهذه المناسبة، وكان التلميذان الداخليان عرّابَي الشجرة؛ فعلى حين عَمَد سوانا إلى ردم الثغرة التي من حول أصلها، كنا ـ أنا

twitter @baghdad_library

وابن خالي - نقبض على الشجرة كل منا بيد واحدة، يتخلل ذلك أناشيدُ ظفر. وقد بُني لسقي الشجرة بركةٌ سَيَّجتْ جذعَها. وكنا في كل يوم نشاهد سقيها، فازددنا كلانا اقتناعاً بفكرةٍ طبيعية جداً هي أنّ غرس شَجرة على الرصيف شيء أجمل من شكّ عَلم في ثغرة سور، فعزمنا أن نفوز نحن بذلك المجد لسنا نشرك فيه أحداً.

فمضينا نقطع فسيلةَ شجيرة صفصاف، فغرسناها في الرصيف، على ثماني أقدام، أو عشر، من شجرة الجوز المعظَّمة. ولم ننس أن ننقب ما حول شجرتنا؛ على أن الصعوبة كانت أن نوفر ماءً نملأ به النقبة التي حفرناها، لأن الماء يسيل في مكان بعيد، ولم يؤذَن لنا أن نصير إلى طلبه فنأتي بشيء منه. لكن شجرتنا لم يكن لها غنًى عن الماء. فلجأنا إلى مختلف الحيل فسقيناها إلى بضعة أيام فوُفّقنا غاية التوفيق، إذ بدتْ وقد برعمتْ وأطلعتْ بضعَ وريقات أخذنا نقيس نموَّهنَّ ساعة فساعة ونحن على يقين أن شجرة الصفصاف، وإنْ يبلغ ارتفاعها قدماً واحداً، لن تلبث طويلاً حتى تُظللنا.

وإذ شغلتْنا شجرتنا عما سواها، صرفتْنا عن الاجتهاد والدرس حتى غدونا وكأننا في نشوة. فلما لم يُعلَم ما بنا، شُدَّ علينا أكثر من قبْل، فإذا نحن أمام الساعة المحترمة التي أعوزنا فيها الماء، فجعلْنا نتحسر ننتظر أن نرى شجرتنا قد أتى عليها الجفاف. ولكن، في آخر الأمر، أوحت إلينا الحاجةُ، أمُّ الابتكار، باختراع ينقذ الشجرة وينقذنا من هلاك أكيد؛ وذلك بأن نحفر تحت سطح التّراب قناةً خفيّةً تؤدّي إلى شجرة الصفصاف فتسقيها من بعض الماء الذي تُسقى منه شجرة الجوز. إلا أننا، بادئ بدء، لم تُوفَّق محاولتنا، مع ما قد بذلنا من جهد. وذاك لأننا جعلنا منحدَرَ القناة على نحو تعذَّرَ معه أن يصبّ الماءُ فيها، فانهدّ التراب، فسدّ القناة، فامتلأ مدخلها بالأوساخ، فإذا كل شيء على نقيض ما يرام. ولكن لم يثننا عن سعينا حائل و«مَن جَدّ

وجد»[4] فازددنا حفراً للتراب وحفراً لبركتنا قصْدَ أن نيسّر للماء مجالَ انصباب، وقطعنا قُعُورَ العلب لويحاتٍ لويحاتٍ ضيقةً وضعنا بعضاً منها على شكلٍ مسطَّح وبعضاً منها على جهتَي بعضها الأول، فصار لممرنا قناةٌ مثلَّثةُ الزوايا. وغرَسْنا في مدخل القناة أطرُفَ خشب رقيقة متوازية لتكون حاجزاً له ثقوبٌ تمنع مرور الرواسب والحصى ولا تسدّ مجرى الماء. ثم غطّينا صنْعنا بتراب أحكمنا دكَّه، فلما أتممنا ذلك كله، لبثنا نرتقب ساعة السقي وقد تنازعتْنا عواملُ أمل وخوف. فحانت الساعة بعد دهر انتظار، إذ أتى السيد لامبرسييه يشهد سقي شجرته جرياً على العادة، وكلانا واقفان خلفه لنحجب عنه شجرتنا، وهو ـ لحُسن الحظ ـ قد ولاّها ظهره.

فما إن فُرّغَ أولُ دلو حتى بصرنا بالماء قد سال في بركتنا. وحيال هذا المشهد، أفلتَ منا الحذر، فأنشأنا نرسل أصوات فرح لفتت إلينا السيد لامبرسييه وقد أُفسدتْ عليه بهجتُه إذ كان يلذّ له كثيراً أن يشهد شجرة الجوز يعبّ ترابُها الماءَ عبّاً. ففوجئ هو هذه المرة وقد رأى الماء يذهب نحو بركتين، فزعقَ بدوره ونظرَ فاكتشف الصنعَ الماكر، فاستحضر بعض المعاول فوراً، فضرب ضربة واحدة، فأطار من لوحاتنا كسرتين، أو ثلاث كسرات، وهو يصيح ملء صوته: «قناة لجرّ الماء! قناة لجرّ الماء!» وهبَّ يضرب في كل جهة ضرباً لا يُبقي ولا يَرحم، فذهبتْ كل ضربة تنفذ منا، كلينا، إلى الصميم. وهُدّم في طرفة عين كلُّ شيء، وقُلّب كل شيء؛ ولم يُلفَظ، طولَ تلك الكرّة المكدّرة المروّعة، أيُّ حرف كان، عدا صياح السيد لامبرسييه، إذْ لم يفتأ يصيح مردداً: «قناة لجرّ الماء! قناة لجرّ الماء!».

---

(4) في الأصل باللاتينية Omnia vincit labor improbus ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وقد يُظَن أن ما حدث كان سيء المغبة على المهندسيْن الصغيرين. لكن هذا الظن خطأٌ: فيؤمئذٍ انتهى كل شيء يتصل بما حدث. لم يقل لنا السيد لامبرسييه كلمة تأنيب واحدة، ولا أبدى لنا وجهاً أَشدَّ عبوساً، ولا حدَّثنا بذلك على الإطلاق؛ بل إننا سمعناه، بعد قليل، يضحك أمام شقيقته ويقهقه، إذ إن ضحك السيد لامبرسييه كان يُسمَع من بعيد؛ والأغرب، فضلاً عما سبق، هو أننا ما إن جاوزنا أول تأثرنا حتى هدأنا فلم نحزن كثيراً. ثم إننا غرسنا شجرة أخرى، وتذكَّرنا مراراً كارثة الشجرة الأولى نردّد في ما بيننا ترديداً مفخَّماً قائلين: «قناة لجرّ الماء! قناة لجرّ الماء!» ولقد كنتُ، إلى ذلك الحين، تعتريني نوباتُ زهو فأحسبني أريستيدوس أو بروتوس. أما وقتئذٍ، فلقد أتيتُ عملاً أزهو به حقّاً. فأن نكون قد بنينا بأيدينا قناةً لجرّ الماء ووضعنا فسيلةً بإزاء شجرة كبيرة فذلك هو، في ما قد لاح لي، أعلى درجات المجد. فكنتُ، وأنا في سنتي العاشرة، أفهم المجد أقدَرَ من قيصر وهو في الثلاثين.

ولقد رسختْ فيّ صورة شجرة الجوز هذه والطُّرفة التي تدور عليها، فعاودني ذكرها حتى إنّ مشروعاً من أبهج مشاريع سفري إلى جنيف عام 1754 هو أن أذهب إلى بوسّي أجوس ملاعب الطفولة، ولا سيما شجرة الجوز العزيزة وهي يومئذٍ قد ناهزتْ ثلث القرن. ولكن بلغ مني ضغط الهواجس واستمرارها وضعفُ التمكن من نفسي فلم يتهيأ لي أن أتحيَّن سانحة أقضي بها تلك الرغبة. وما إخال الفرصة تسنح مرة أخرى. بيد أنني لم أفقد رغبتي في ذلك مع فقدي أملي فيه، وأكاد أوقن أن لو رجعت يوماً إلى تلك الديار الحبيبة، لرأيتُ شجرة الجوز العزيزة فسقيتُها بدموعي.

فلما عدتُ إلى جنيف، أمضيتُ عند خالي سنتين، أو ثلاثاً، أنتظر ما يقرَّر في شأني. وإذ كان يُعدّ ابنَه للهندسة، استحضر له مَن

علّمه شيئاً من الرسم، وأخذ هو يدرّسه مبادئ أقليدس. فتعلَّمتُ ذلك كله لمرافقتي إياه، فاستسغتُه واستسغتُ الرسم على الأخص. وكانوا، مع هذا، يتشاورون أَصانعاً للساعات سأَصير، أم محامياً، أم قسيساً. أما أنا، فلقد آثرتُ أن أُصبح قسيساً، أجدُ الوعظ أمراً في غاية الروعة. لكن دخْل أمي الزهيد، وقد وجبتْ قسْمته عليّ وعلى شقيقي، لم يكف لإتمام دروسي؛ ولم تستدعِ سنّي سرعةَ الاختيار، فلبثتُ عند خالي أُبدّد معظم الوقت؛ وكنت أُؤدّي إلى خالي، على ما يقتضي الإنصاف، بدل إقامة باهظ نسبياً.

وكان خالي أخا للذةِ مثل أبي، إلا أنه لم يعرف كيف يضطلع بواجباته كما اضطلع بها أبي؛ وكان قليل العناية بنا. أما عمتي، فكانت متدينة وكانت تقيّة بعض الشيء، فآثرت ترتيل المزامير على العناية بتربيتنا. ثم إن ذوينا قد وفّروا لنا تقريباً حرية تامة لم نُفْرط فيها. واكتفى كلانا بالآخر لسنا نتفارق البتة ولا نغرى بعشرة من كانوا في سننا من فتيان الأزقة، فلم نَجر على عادة من عادات الإباحة التي كان يمكن أوقات الفراغ أن توحي بها إلينا. لا بل إني أخطئ إذا ما أَخالُنا قد تهيأتْ لنا أوقات فراغ، فما أصبنا شيئاً منه طيلة حياتنا أقلّ مما أصبنا يومئذٍ. وآيةُ سعادتنا، في ذلك، هي أن ما شُغفنا به، المرة تلو المرة، من ألوان اللهو كلها قد شَغلنا معاً في البيت، فلم يغرنا النزول إلى الشارع. وكنا نصنع أقفاصاً وشبّابات وكراتٍ مريَّشة وطبولاً وبيوتاً ومقالع وأقواساً. وكثيراً ما أَتلفنا أدوات جدّي، العجوز الطيب، إذ جعلنا نقلّده في صنع الساعات. وكان بنا، على الأخص، ميلٌ إلى تلطيخ الورق وإلى الرسم واللعب والغسل والتلوين والعبث بالألوان. فأتى يوماً إلى جنيف «ساحر» إيطالي يدعى جامبا كورتا؛ فشاهدْنا مرة واحدة ما يقوم به من لعب سحريّ فلم نرغب في أن نشاهده ثانية؛ ولكن كان معه دمًى متحركة تُمثّل أدواراً فكهة. فوضعنا

twitter @baghdad_library

لدُمانا أدواراً فكهة. وكنا، لقلّة تمرسنا، نقلّد صوت قراقوش في تمثيلياتنا الهزلية اللطيفة التي أوتي ذوونا الطيبون الخيّرون جميل صبر على حضورها وسماعها. غير أن خالي برنار تلا، ذات يوم، على الأُسرة موعظةً له حسنة. فعزفنا عن التمثيليات الهزلية وأخذنا ننشئ بعض المواعظ. ثم إني أُقرّ أن هذه التفصيلات ليست جد مشوّقة، لكنها تدل على ما قد أُتيحَ لتربيتنا الأولى من توجيه مستقيم؛ فمع كوننا كنا تقريباً قيّمَيْن على وقتنا وعلى أنفسنا في تلك السن اليافعة، فقلّ وندر أن ننجرّ إلى الشطط في هذا الشأن. ولقد كان بنا من الغنى عن الرفقاء ما حدانا على أن نهمل فرَص اكتسابنا إياهم. حتى إذا مضينا نتنزه فنظرْنا إليهم يلعبون، لم نشته ما هُم عليه منه ولا خطرَ لنا أن نشاركهم فيه. فأفعمت الصداقة قلبينا حتى لقد كفانا أن نظل معاً فتصبح أبسط الرغبات وهي، عندنا، منتهى الإمتاع.

ولفرط ما شوهدنا متلازمَيْن، تحصنا بالحذر، ولا سيما أن ابن خالي كان شاهق القامة وأنني جد قصير. فكنا ثنائياً [زوجاً] منسجماً انسجاماً رائقاً. ثم إن هيئته الطويلة النحيلة، ووجهه الصغير الذي هو بالتفاحة المطبوخة أشبه، ومنظره الرخو، ومشيته المكسال كل هذا كان يحث الأطفال على السخرية منه.

فلقّبوه، على حسب لهجة البلد، ببارْنا بريدانّا، فما إن كنا نخرج حتى لا نسمع من حولنا إلا «بارْنا بريدانّا». فكان ابن خالي يكابد ذلك وهو أهدأ مني. أما أنا، فقد حنقتُ واعتزمتُ القتال، وهذا ما توخاه الأنذال الصغار. فقاتلتُ، فغُلبتُ وابنُ خالي يسندني قدْرَ جهده، غير أنه كان ضعيفاً، فوقع على الأرض إذ أُصيبَ بأول لكمة، فهجت لكني، مع ما قد أُصبتُ به من ضرب شديد، لم أكن مبعث نقمتهم، بل كانوا يريدون بارْنا بريدانّا؛ إلا أني تسببتُ بتضاعف الأذية عليه لفرط ما أبديتُ من حنق وعناد، حتى لقد بتنا

لا نجرؤ على أن نخرج إلا إذا كان الصبيان في المدرسة كراهةَ أن ينطلقوا في إثرنا هازئين.

وها أنذا، منذ تلك الساعة، مقوّم للأخطاء والمظالم.. فلم يعوزني إلا أن تكون لي محبوبة فأصبح الفارس المغامر المغوار، فكان لي محبوبتان. وذلك أنني كنت أمضي، في الحين بعد الحين، أزور أبي وقد أقام في نيون، بلدة صغيرة تقع في أقليم فو. وكان أبي محبوباً جداً، فلمس ابنُه العناية التي أُحيطَ بها كرامةً لوالده. فالوقت القليل، الذي كنتُ أصرفه مع أبي، كان الناس في أثنائه يتسابقون إلى الترحيب بي. ولقد أولتني سيدة تدعى مدام دو فولسون ألف ملاطفة وملاطفة [ملامسة]؛ وزيادة في البلوى إتخذتْني ابنتها حبيباً لها. ولا يخفَى على الناس حقيقة أن يكون لفتاة في الثانية والعشرين من عمرها حبيب هو في سنته الحادية عشرة. بيد أن أولئك النساء الماكرات كلهن يطيب لهن أن يضعن دمى صغيرة لكي يسترن الدمى الكبيرة، أو لكي يُغوينَها بمشهد لعبٍ هن ماهرات في جعله جذّاباً! أما أنا، فلم أجد بيني وبين الفتاة شيئاً على غير توافق، فأخذتُ الأمر مأخذ جد، فانقدتُ له بقلبي أجمع، بل الأصح أني انقدتُ له بعقلي أجمع، لأن حبّي لم يتجاوز رأسي، وإن كنتُ قد عَشقتُ حتى الجنون وإن كان ما اعتلج فيّ من النشوة والانفعال والهياج قد أدّى إلى منَاظر لي هي في المضحكات المضحكات.

ولقد عرفتُ ضربين من الحب جد مختلفين، جد حقيقيين، لا يكاد يكون بينهما من أمر مشترك، مع أن كليهما كان شديد التأجج، نائياً عن الصداقة الوفيّة، العطوف. فظللتُ العمر كله يتقاسمني هذان الضربان من الحب اللذان من طبيعتين مختلفتين، تقاسماً جعلني أمتحنهما الاثنين في آنٍ واحد. ففي ذلك الوقت الذي أتحدث عنه ـ مثَلاً ـ وقد استأثرتُ بالآنسة دو فولسون علناً واستبداداً حتى لم أُطق

twitter @baghdad_library

أن يدنو منها أحد سواي، ـ في ذلك الوقت طفقتُ أخلو بفتاة صغيرة اسمها الآنسة جوتون. وكانت خلواتنا قصيرة، لكنها على بعض من الحيوية. وكانت الآنسة جوتون تتنازل بأن تقوم بدور معلّمة المدرسة لا شيء غيره؛ إلا أن هذا الدور كان عندي كل شيء، حتى لقد بدا لي كأنه السعادة العظمى. ثم إني صرتُ أقدر قيمة السر الغامض، السر الذي لم أعرف كيف أعمد إليه إلا وأنا طفل، فقابلتُ الآنسة دو فولسون، على غير شعور منها، بمثل ما قابلتْني به إذ عُنيتْ بأن تستعملني لكي تستر غراميات لها أخرى. لكن سرّي، ويا للأسف، قد انكشف، أو لعل معلمتي الصغيرة لم تُحسن كتمانه كما كتمتُه، فلم نلبث أن فُرّق بيننا، فلما كنتُ عائداً إلى جنيف، بعد مدة من الزمن، سمعتُ وأنا أمرّ في كوتانس، بعض الفتيات الصغيرات يصحن بي في أصوات غير مرتفعة قائلات: «جوتون وروسّو سابحان في الغرام».

وكانت الآنسة جوتون شيئاً فريداً. لم تكن جميلة، إلا أن وجْهها يصعب نسيانه، وأنا ما أزال أذكره، بل ربما ذكرتُه أكثر مما ينبغي بالنسبة لعجوز مجون. ولم تكن قامتها ولا صانتها، ولا كانت عيناها، على الأخص، لفتاة في مثلِ سنها. فهي على منظرٍ أبيّ مهيب يلائم دورها حقّ الملاءمة، مما أَطلقَ بيننا أول سانحة. على أن أغرب ما فيها اختلاطُ جرأة وتحفّظ يصعب تصوُّرهما في شخصٍ واحد. فأباحت لنفسها معي ما شاءت من الحميمية المفرطة ولم تبح لي معها شيئاً من ذلك؛ وعاملتْني كما يعامَل الطفل على التمام، فظننتُ أنها جاوزت الطفولة، أو أنها كانت من الطفولة على طور لم ترَ معه، في ما تعرَّضتْ له من خطر، إلا ضرْبَ لعب ولهو.

ولقد كنت بأجمعي ـ على حسب ما يقال ـ لكل واحدة من هاتين الفتاتين، حتى لم يتفق لي يوماً أن أفكر في إحداهن إذ أنا مع

الأخرى. ولكن لم يكن من شبهٍ بين ما كانت تحرّكه فيّ من إحساس كل واحدة منهما. ولقد كان بوسعي أن أقضي العمر كله مع الآنسة دو فولسون فما يخطر لي أن أفارقها، على أني كنتُ إذا لقيتُها غلبَ على فرحي السكونُ ولم يبلغ مبلغ الانفعال. وكان حبي لها يشتدّ، في الأخص، إذ نحن في حفل من الناس، فالدعابةُ والغنج بل الغيرة أيضاً كانت تستهويني وتشوّقني؛ فكنت أزهو أتغلب على الذي تُؤْثرهم من منافسيّ الكبار وقد تظاهرتْ بصدّهم. ولقد كنتُ معذَّباً، غير أنني أحببتُ هذا العذاب. وكان التصفيق والتشجيع والضحك مبعث حركة لي ونشاط، فتنتابني فورات شعور ويستولي عليّ سلطان الحب إذ أنا بين الناس. ولو كنتُ آنئذٍ وحدي، لتضايقتُ وبردتْ همتي وربما داخلني الضجر. ومع ذلك، لقد استأثرتْ هي بقسط من اهتمامي، فإذا مرضتْ، تقلَّبتُ على العذاب أَجُودُ بعافيتي لكي تشفى. وإذا غبتُ عنها، فكرتُ فيها وافتقدتُها، وإذا حضرتُ وإياها طابت مسحات يدها لقلبي لا لحواسي. فتأنسنا ولكن بلا إفراط، إذ لم يسألني خيالي فوق ما أتاحت لي؛ على أني لم أحتمل أن أراها تتيح مثْله لسواي. فكان حبي لها حُبَّ الأخ، وكانت غيرتي عليها غيرةَ العاشق.

ولو خَطر لي يوماً أن الآنسة جوتون تقوى على أن تولي أحداً سواي ما قد أولتني من المعاملة، لأحببتُها وغرتُ عليها كما يحب ويغار التركيّ، أو المجنون، أو النمر؛ ثم إن هذه المعاملة كانت نعمة لا بد لي أن ألتمسها راكعاً. وكنتُ إذا قاربتُ الآنسة دو فولسون، سُررتُ ولكن لم أضطرب؛ أما الآنسة جوتون، فقد كفى أن تقع عيني عليها حتى يغشّى على بصري وتشبّ حواسي جمعاء. ولقد آنستُ الأولى على غير تكلف وليس لي قبَلها أسبابٌ للتكلف؛ فأما مع الثانية، فقد كنتُ، حتى وأنا في أخص حالات المؤانسة

twitter @baghdad_library

ورفع التكلف، أرتعد وأضطرب على السواء. وأغلبُ الظن أنني لو طال أمري معها، لما بقيتُ حيّاً، بل أودى بي خفْقُ الفؤاد. وكنتُ، إلى ذلك، أخشى أن أُسخطهما، وكنتُ أكثَر ملاطفةً لإحداهما وأكثَر إطاعةً للأخرى. فلا شيء في الدنيا أغراني بأن أغيظ الآنسة دو فولسون، ولكن لو أن الآنسة جوتون أمرتْني أن ألقي بنفسي في ألسنة اللهيب، لكنتُ أَطعت ولا ريب.

ولقد دامت أسباب حبي، أو، في الأصح، دام لقائي الآنسة جوتون وقتاً يسيراً، وذلك لحُسن حظها وحظي جميعاً. ومع أن علاقاتي بالآنسة دو فولسون لم تنطو على مثل هذا الخطر، فلقد نكبنني، هن أيضاً، بعدما استمر عهدهن وقتاً أطول قليلاً. ولقد بدت نهايات ذلك كله خيالية بعض الشيء، وكانت مبعث استغراب. وكانت صلتي بالآنسة دو فولسون أخفّ اضطراماً، ولكن، مع هذا، زادتني تعلقاً بها. فما افترقنا يوماً بلا دموع؛ فكنتُ إذا برحتُها، تردّيتُ في فراغ عجيب، فلم يسعني إلا أن أتحدّث عنها وإلا أن أفكر فيها؛ ولقد كنتُ صادق الحسرة، جيّاشَها؛ ولكن أحسب أن هذه الحسرة البطولية لم تكن كلها من أجلها هي، وأنه لا بد أن يكون لأسباب اللهو، ومدارها على الآنسة دو فولسون، نصيب في حسرتي وأنا يومئذ لا أشعر بذلك. ثم لقد كنت أبعث إليها وكانت تبعث الي برسائل عاطفية مؤثرة تفتت الصخر نتوخى بها التخفيف مما بنا من لوعة الغياب. فأتاني المجد آخر الأمر، إذ أصبحت لم تقوَ على احتمال الفراق، فجاءتني إلى جنيف. فازداد رأسي دواراً، وكنت، في خلال اليومين اللذين قضيتهما هناك، نشوان هيمان. فلما ارتحلت، أردت أن ألقي بنفسي في الماء على أثرها، وتردد صراخي في الجو طويلاً، ثم أرسلت الي، بعد ثمانية أيام، ببعض الحلوى وقفازين، مما كان يبدو لي منها غاية لطف وإيناس لو لم يبلغني،

في اليوم نفسه، أنها كانت قد تزوجت وأن سفرتها، التي طاب لها أن تشرفني بها، إنما هي لكي تشتري ثياب الزفاف. ولن أصف حنقي آنئذ، فهو واضح مفهوم. لكن أقسمت، وأنا في غضبتي النبيلة، أنني لن أعود أبداً إلى لقاء تلك الماكرة، ولم أتصور عقاباً أشد وقعاً في نفسها. ومع هذا، لم تقض نحبها، فلقد كنت مرة، بعد عشرين سنة، أزور أبي، فبينما قد تنزهت معه على البحيرة، سألته مَن تلك السيدة التي كانت على قارب غير بعيد من قاربنا، فقال لي أبي وهو يبتسم: «كيف؟ ألا يدلك قلبك إلى ذلك؟ هذي السيدة كريستان، وهي مدوموازيل دو فولسون». فارتعشت لما سمعت هذا الاسم الذي كدت أنساه، فقلت للملاح يحول مجراه، إذ لم أجد ما يستحق أن أحنث لأجله في قسمي فأجدد، مع امرأة في الأربعين، شجاراً مضى عليه عشرون سنة، ذلك وإن تكن الفرصة قد سنحت لكي أثأر لنفسي.

هكذا تبددت أثمن أيام حداثتي، تبددت في ضروب من الغباوة قبل أن يُقرَّر مصيري. ثم إنه، بعد طول التشاور في اتجاه مؤهلاتي، وقع الاختيار على آخر المهن ملاءمة لي، فأدخلت عند السيد ماسيرون، كاتب عدل المدينة، لكي يشرف على تعليمي مهنة «اغتصاب الأجر» النافعة، على حسب قول السيد برنار. فاستقبحت هذه التسمية، إذ لم يغر فطرتي الأبيةَ الأملُ في مال كثير أكسبه كسباً دنيئاً، فضلاً عن أن العمل نفسه بدا لي مملاً لا يطاق، وزاد في كراهتي له ضرورة المواظبة عليه مع شعوري بالقسر فيه، حتى إني لم ألج المكتب مرة إلا تملكني اشمئزاز ما برح يتضاعف علي يوماً فيوماً، ولم يكن السيد ماسيرون، من ناحيته راضياً عني، فأخذ يزدريني ويوبخني على فتوري وغباوتي، مردداً لي كل يوم أن خالي أكد له «أنني أعرف، أنني أعرف»، ولكني، في الحقيقة، لا أعرف

twitter @baghdad_library

شيئاً؛ وقال لي مراراً إن خالي قد وعده بفتى فهيم فلم يعطه سوى حمار أبله. فكان، في نهاية الأمر، أنني طُردت عن المكتب ذليلاً اذ لا كفاية عندي، وتفوه كُتّاب السيد ماسيرون أنني لا أصلح إلا لصناعة المبرد.

على هذا النحو اختيرت حرفتي، فوُضعت لأتدرب، لا عند صانع ساعات، بل لدى أحد النقاشين، وكان الاحتقار الذي لقيته من كاتب عدل المدينة قد أذلني جداً، فأذعنت ولم أتذمر. وكان معلمي، ويدعى السيد دوكومان، شاباً فظاً عنيفاً، فاستطاع في وقت قصير أن يذهب بكل ما في حداثتي من تألق، وأن يخمد سجيتي التي فطرت على المودة والنشاط، وأن ينحط بي، نفساً ومرتبة، إلى حالة صبي متدرب. فنسيت اللغة اللاتينية وآثار الأقدمين وعلم التاريخ نسياناً طويل الأجل وأمسيت لا أذكر هل كان في العالم من رومانيين. وكنت إذا شخصت إلى أبي كيما أزوره، لم يعد يجد فيَّ معبودَه، ولا عدت في نظر السيدات جان جاك الغزلَ، وبلغ مني الشعور بأن السيد لامبرسييه والآنسة لامبرسييه لن يعرفا فيَّ تلميذَهما، حتى إني خجلت أن أزورهما، فلم أرهما مذ ذلك الحين. ولقد حلت أسفل الميول وأسفل أخلاق السوق محل ما كنت ألهو به وألعب، فلم تحفظ لي منه أي ذكر كان. ولا ريب أني، برغم تربيتي القويمة، قد جبلت على الانحطاط لأنني انحدرت يومئذ انحداراً سريعاً جداً على غير مشقة؛ وما كان لقيصر أبداً، وهو من سبق أوانه، أن يتحول بهذه السرعة إلى لاريدون(5)

ليست الحرفة نفسها هي ما كنت أكره، فلقد كنت على ميل شديد إلى الرسم، وكان يحلو لي نقش المعادن. فأملت أن أصل في

(5) لاريدون اسم كلب أصيل العرق لكن تربيته كانت في بعض المطابخ ـ المترجم.

النقش على الساعات إلى درجة الكمال، لأن مهارة النقش هذه صناعة محدودة. ولربما كنت أصبت فيها الكمال لو لم تحملني فظاظة معلمي وشدة تضايقي به على أن أكره الشغل. وكنت أختلس بعض أوقات العمل فأقضيها في صنع أشياء مماثلة قد شوقني إليها ورغبني فيها كوني أصنعها وأنا حر. وكنت أنقش بعض الأوسمة لكي نتخذها، أنا ورفقائي، شعاراً لبعض مرتبات الفرسان. ففجأني معلمي ذات يوم وقد قمت بهذا خفية، فانهال علي بالضرب وقال إني أتدرب على تزييف النقود، لأن أوسمتنا تلك كان عليها شعار الجمهورية. وأقسم أنْ لم يكن عندي فكرة، أيّاً كانت، عمّا عساها تكون النقود المزيفة، وأنْ لم يكن عندي إلا فكرة ضعيفة عمّا عساها تكون النقود الحقيقية. وكنت أعرَف بصنع النقد الروماني القديم مني بصنع قطع نقودنا من فئة ثلاثة دراهم.

فانتهى بي طغيان معلمي إلى أن جعلني لا أحتمل عملاً كنت سأستحسنه، وأن أكتسب رذائل كنت سأستقبحها مثل الكذب وفرط الكسل والسرقة. ولا شيء علمني الفرق بين التبعية البَنَويّة والاستعباد المهين أَحسنَ مما علّمتني إياه ذكرى التغييرات التي أحدثَها فيّ ذلك العهد. وإذ كنت فقط مفطوراً بطبيعتي على الخجل والحياء، فما كنتُ عن نقيصةٍ أبعد مني عن الوقاحة. بيد أني كنتُ قد نعمتُ بحرية كريمة، فأخذتْ تتقلّص تدريجاً، ثم تلاشت كلها في النهاية. ولقد كنت جريئاً إذ أنا عند أبي، وحرّاً إذ أنا عند السيد لامبرسييه، ومتحفظاً إذ أنا عند خالي؛ فلما صرتُ عند معلّمي، غلب عليّ الجزع، وأمسيتُ صبيّاً ضالاً مضيّعاً. وإذ كنتُ، قبْل ذلك، قد عُوّدت على عيش المساواة التامة مع من هم أعلى مني، وعلى ألاّ أعاين لذةّ إلا أدركتُها، ولا وقعتْ عيني على لون طعام إلا أصبتُ منه حصتي، ولا طاب لي شغل إلا أعربتُ عن بهجتي إذ امتلكتُه،

twitter @baghdad_library

وكل ما في قلبي يجري على شفتيّ. فتصوَّرْ ما قد قضي به عليّ أن أنتهي إليه في بيت كنتُ لا أتجاسر فيه على فتح فمي، وكنتُ مضطراً إلى أن أقوم عن المائدة وأنا لا أزال على بعض الطعام، وإلى أن أبرح الغرفة لحظةَ لا يبقى لي فيها من شاغل، بيت كنتُ لا أنفكّ فيه أسيراً لعملي، ولا أرى فيه إلا موضوعات متعة بالنسبة للآخرين وموضوعات حرمان بالنسبة لي أنا وحدي، بيت كان فيه مرأى الحرية التي ينعم بها المعلّم والرفقاء يزيد قيودي ثقلاً، بيت إذا احتدم فيه النقاش في ما لا يجاريني به أحد، لم أجترئ على أن أفتح فمي، بيت كان كل ما أُبصرُ فيه يغدو مشتهًى لقلبي، لا لشيء إلا لكوني حُرمتُ كل شيء. فوداعاً يا رخاء العيش، ويا أيها الفرح، ويا أيتها الكلمات الموفقة المؤاتية التي طالما أنقذتْني، في الأمس، من العقاب على ما كنتُ قد أذنبتُ فيه. ثم لا يسعني إلا أن أضحك حين أذكر أني عوقبتُ مرة، وأنا في بيت أبي، أن أنام بلا عشاء عدا كسرة خبز، وذلك لشيطنة قمتُ بها. فمررتُ بالمطبخ ومعي كسرة الخبز فبصرتُ بقطعة لحم على المشواة وشممتُ رائحتها الطيبة. وكان أهلُ البيت جميعاً حول النار، فلم يبقَ بد من أن أسلّم على الجميع في أثناء مروري. فلما انتهيتُ من السلام، نظرتُ من طرفٍ خفيّ إلى قطعة اللحم الشهية المنظر، الطيبة الرائحة، فلم يمكنني إلا أن أنحني أمامها أيضاً وأقول لها بصوت كئيب: «وداعاً يا قطعة الروستو» فطربوا لهذه الفلتة من سذاجتي فأبقوني على العشاء. ولربما كانت هذه النكتة تُصيبُ من استحسان معلّمي الصانع مثل ما قد أصابت في الأمس من استحسان، لكني موقن أنها ما كانت لتسنح لي وأنا عنده، أو أنني ما كنتُ قط لاجترئ معه على ما يشبه ذلك الأمر.

فانظر كيف تعلّمتُ أن أشتهي في صمت، وأن أنطوي على

نفسي، وأكتم، وأكذب، وأن أسرق في آخر الشأن، ولم تكن فكرة السرقة قد خطرت لي من قبْل، فلم أبرأ منها بعدئذٍ حقاً. فإن الاشتهاء مع العجز عن إدراك المشتهى يؤديان إلى السرقة في كل حال. فلذلك ترى الخدم يسرقون، وجميع المتدربين لا مفر لهم من أن يَسرقوا، ولكن إذا قُدّرتْ لهؤلاء عيشةٌ مساواة مطمئنة تبيح لهم أن يتناولوا كل ما يبصرون، فإنهم كلما شبّوا فقدوا هذا الميل الشائن. أما أنا، فلم يُتَح لي ذلك الامتياز فأَجنيَ منه النفعَ نفسه.

والأغلب أن المشاعر الطيّبة إذا أُسيءَ توجيهها، كانت هي التي تخطو بالأطفال أول خطوة نحو الشر. ثم إنني، برغم الحرمان والمحاولات المتواصلة، بقيت، إذ أنا عند معلّمي، ما يربي على السنة لا أستطيع أن أعتزم اختلاس شيء. ولقد قمتُ بسرقتي الأُولى وكانت من باب المجاملة، لكنها أَشرعت الباب لسرقات لي أخرى لم تكن محمودة القصد.

وذلك أنه كان يعمل عند معلّمي رفيق عمل يدعى السيد فيرّا؛ وكان يسكن منزلاً مجاوراً، له حديقة واسعة نبتَ فيها نوع من الهليون جيد حقّاً، فأراد السيد فيرّا، ولم يكن وافر المال، أن يسرق بواكير تلك النباتات، التي كانت أمه تزرعها، فيبيعها ويأكل بثمنها عدة وجبات. غير أنه لم يشأ أن يخاطر بنفسه ولا كان خفيف القدم، فاختارني لذلك، فابتدأ يلاطفني ويداهن، فوقعتْ ملاطفته ومداهنته موقعاً مني بالغاً، ولا سيما أنني لم أدر، أول بدءٍ، سبباً لهما؛ ثم اقترح عليّ الأمرَ وكأنه وحي ساعته. فعارضتُ معارضة شديدة، فألحّ عليّ، فاستسلمتُ، إذ لم أقوَ يوماً على أن أقاوم التملّق، فكنت أذهب في كل صباحٍ أحصدُ أجملَ نباتات الهليون، فأحملهن إلى سوق مولار حيث أَدركت امرأةٌ أنني أسرقهن، فصارحتْني بذلك لكي تشتريهن مني بثمن أرخص. وكنتُ، لذعري، أتناول منها ما تريد أن

twitter @baghdad_library

تعطيني إياه، ثم أحمله إلى السيد فيرّا، فيتحول الثمن غداءً كنتُ سبب ابتياعه وكان فيرّا يتقاسمه هو ورفيق له؛ أما أنا، فقد قنعتُ ببعض الفضلات، حتى النبيذ لم أَمسَّه قط.

واستمرّت هذه الحيلة عدة أيام، فلم يخطر لي أن أغشّ اللص ولا أن أستخلص من السيد فيرّا ضريبة على منتوجاته من الهليون. فأَدّيتُ تلك السرقة على أوفى ما تكون الأمانة، لا لسبب إلا مجاملة مني لمن طلب إليّ أن أقوم بالسرقة. ولكن لو فوجئتُ آنئذٍ، فكم من الضرب وكم من الشتم وكم من القسوة كنت عانيتُ، في حين أن ذلك المرء الدنيء لو عمد إلى تكذيبي، لصُدّقَ قوله فضوعف عقابي لأني اجترأتُ على أن أتهمه وهو من فئة الرفقاء وأنا لست سوى «صانعاً». هكذا ينجو المذنب، القوي، على حساب الضعيف، البريء.

فتعلمتُ أن السرقة ليست بالأمر المهول على قدْر ما كنتُ أظن، فعمدتُ إلى أن استغلّ أيّ استغلال ما تعلمتُ من هذا القبيل، حتى لم يسلم مني شيء اشتهيته وهو في متناولي. ولم تكن مآكلي عند معلّمي جد سيئة، ولم يكن الاعتدال صعباً عليّ إلا لأني كنت أرى السيد فيرا لا يحفظ له عهداً. ويبدو لي أن عادةَ إقصاء الفتيان عن المائدة، حين تُقدَّم أكثر ألوان الطعام إغراءً لشهوتهم، هي عادة ربما صيَّرتْهم شرهين ولصوصاً على السواء. فأصبحتُ شرهاً وأصبحتُ لصّاً في وقت قريب؛ وعلى الجملة، ألفيتُني في أحسن حال، مع أني ربما عانيتُ الأمرّين ساعةَ اكتشف فعلي.

أما التذكار الذي ما أبرح أرتعد له وأضحك في آنٍ، فهو تذكارُ «اصطياد» تفاح اقتضى مني ثمناً غالياً. كانت التفاحات في حجرة للمونة يتسرب إليها الضوء من مطبخ يجاورها عبر كوة مرتفعة. فبينما

أنا يوماً وحدي في البيت، إذ وقفتُ على معجن الخبز لكي أَنظر، في بستان الإيسبيريديّات[6]، الثمرَ النفيس الذي لا سبيل لي إلى الإقتراب منه. فأتيتُ بسفودٍ أرى هل يمكنني أن أصل به إلى شيء من الثمر، فوجدتُ السفود أَقصر من ذلك، فوصلتُه ببعض السفافيد التي تُستعمَل لشيّ الطرائد الصغيرة التي كان معلّمي مولعاً بها. ثم حاولتُ مراراً أن أغرز السفود في بعض التفاح، فلم أُوفَّق. ثم أحسستُ، في النهاية، أنني أستخرج تفاحة، فتهللتُ وجذبتُ السفود في غاية الرفق، فإذا التفاحة قد لامست الكوة، وإذا بي قد كدتُ أتناولها. فمن ذا الذي يصف حزني؟ لقد كانت التفاحة أَضخم من أن تمر من الكوة. ولكم ابتكرتُ من وسائل لكي أُخرجها من هناك! فركّزتُ السفود لئلا يقع، وأَتيتُ بسكين طويل لكي أَشطر التفاحة، وأتيتُ بخشبة لكي أسند إليها التفاحة. فتوصلت إلى شطرها بعد فرط مشقة وامتداد وقت رجاءَ أن أُخرج شطريها تباعاً؛ ولكن ما انفصل أحدهما عن الآخر حتى سقطا كلاهما في حجرة المونة. فقاسِمْني كرْبي أيها القارئ الرؤوف.

على أني لم أفقد صبري، وإن كنتُ أَضعتُ كثيراً من الوقت. فتخوفتُ أن يفاجأني أحد، فأرجأتُ إلى الغد محاولةً لي أخرى لعلها تعود أجزلَ توفيقاً، وعدت إلى عملي هادئاً وكأن شيئاً لم يصدر مني، ومن غير أن افتكر في الشاهدين اللذين يرقبانني من غرفة المونة.

وفي الغد وجدتُ الفرصة قد سنحتْ جيداً، فحاولتُ مرة

---

(6) الإيسبيريديّات ثلاث بنات أطلس الإله الميثولوجي: كان لهن بستان فيه أشجار تثمر تفاحاً ذهباً. فأقيم على حراسة البستان غول له مائة رأس، فقتله هرقل واستولى على التفاح. فكان ذلك، في خوارق هرقل، المأثرة الحادية عشرة ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أخرى. فوقفتُ على شيء مرتفع ومددتُ السفود وسوّيتُه فأوشكتُ أن أغرزه. لكن في سوء الحظ أن الشيطان لا ينام: فجأة يُفتح ويطلّ منه معلّمي وعقد ذراعيه، ثم نظر إليّ وقال: «تشجع!» وها إن القلم ليهوي من يدي.

ولم ألبث طويلاً حتى تبلّد إحساسي بالمعاملة القاسية السيئة لفرط ما قد نابني منها، وبدت لي تعويضاً عن السرقة يبيح لي أن أواصل ارتكابها. فجعلتُ أتطلع إلى الأمام أريد أن أتشفى بدل أن ألتفت إلى الوراء أنظر في ما أنزل بي من قصاص. كنت أرى أن الانهيال عليّ بالضرب كما يُضرَب اللص إنما أجاز لي أن أكون لصاً. ووجدتُ أن كوني أَسرقُ وأُضرَب أمران يشكّلان حالة واحدة إذا قمتُ بقسط منها يعود إليّ، أبقيتُ لمعلّمي القسط الآخر. فأَخذتُ أسرق وأنا أوفى اطمئناناً مما كنتُ عليه من قبْلُ فقلتُ في نفسي: «ماذا يحصل؟ سأُضرَب. أجل، لكني صُنعت لكي أُضرَب».

ثم إني مُحبّ للأكل في غير نهم؛ فأنا متعوي حسّي، ولكن لستُ بالشره. وميولي الأخرى هي أكثر من أن لا تشغلني عن الشراهة. فما عشتُ لفمي قط إلا يومَ قلبي كان على تعطّل وفراغ؛ وقليلاً ما اتفق لي ذلك، حتى لم يتيسر لي من الوقت ما يجنح معه فكري إلى طيّبات الموائد. ولذاك لم أقتصر على سرقة الطعام، بل جاوزتُه إلى ما كان يغريني؛ ولئن لم أصبح لصاً محترفاً، فلأني لم أُغرَ بالمال قط بالغ الإغراء. ولقد كان لمعلّمي، في داخل المشغل المشترك، غرفة خاصة يقفلها ببعض المفاتيح؛ فاهتديتُ إلى حيلة أفتحُ بها باب الغرفة وأُقفله ما أُخلّفُ من بعدي أثراً. فكنتُ، وأنا بالغرفة، أعمد إلى أدقّ أدوات معلّمي وأَحسن رسومه وأشكاله وإلى جميع ما يستهويني هناك وقد تعمّدَ هو أن يبقيه بعيداً من تناولي. ولقد كانت هذه السرقات، في قرارتها، بريئة لأنها لم تُرتكَب إلا

قصْد أن تُستعمل أشياؤها لأجل خدمته، على أنني كنتُ أَطير فرحاً لأن تلك الأشياء الطفيفة قد باتت في يدي، وخيّل إليَّ أنني أسرق مهارةَ الصنعة مع سرقتي منتجاتها. وكان في بعض العلب، هناك، أشياء من ذهب وفضة وجواهر صغيرة الحجم ونفائس وبعض النقود. ولو التقى في جيبي أربعة دراهم، أو خمسة، لاستكثرتُها، ومع هذا لم أَلمس من ذلك كله شيئاً، ولستُ أذكر أني نظرتُ إليه نظرة طمعٍ واشتهاء، بل كنتُ أنظر إليه نظرة هي إلى الرهبة والانقباض أدنى منها إلى البهجة والانبساط. وأصدقُ الظن أن لنفوري من سرقة المال، ومما يُنتج المالَ، سبباً نجمَ معظمُه عن تربيتي، وخالطَ ذلك غموضُ أفكار تتصل بالعار والسجن والعقاب والمشنقة مما كان خليقاً بأن أرتعد له لو تعرضتُ للإغراء، على حين بدا لي أن حيلي إن هي إلا ضَربٌ من الشيطنة، ولم تكن في الواقع غير ذاك، بيد أنها قد اقتضت مني ضرب معلّمي المذل، وهو ما تهيّأتُ له مقدَّماً.

ولا بد لي أن أكرر أني لم أكن من الطمع والاشتهاء على ما يوجب أن أكفّ عنهما، ولا شعرتُ بأمر ينبغي أن أقاومه وأصارعه. ولربّ ورقةٍ من ورق الرسم الجميل قد كانت وحدها أشدّ إغراءً لي مما يلزم من المال لمشترى رزمة ورق كاملة. هذه الغرابة مردّها إلى بعض ما أنا عليه من تفرّد طبع، ولقد بلغ من تأثيرها فيّ ما يستدعي أن أفسرها.

ذلك بأني جد مشبوب الأهواء، فإذا هيجتني لم يعدل فورتي شيء؛ آنئذٍ لا أعود أعرف تَحفُّظاً، لا احتراماً، ولا خشيةً، ولا لياقةً، وإنما أنقلب امرأً وقحاً، سفيهاً، عنيفاً، ليس يردّني حائل ولا يصدّني خطر، عدا ما قد شغلني، والعالَمُ وقتئذٍ لا شيء في نظري. بيد أن ذلك لا يَلزمني إلا لحظات، ثم يعقبه حال من التلاشي والهمود. خذني ساعة هدوئي، سأكون مثال التواني والحياء: كل أمر

twitter @baghdad_library

يُجفلني ويُثبطني، حتى الذبابة الطائرة تخيفني؛ قولة واحدة أتلفظُ بها، أو حركة واحدة آتيها، مما يزعج كسلي، فيغلب عليّ الخشية والاستحياء حتى إني أود لو أتوارى عن أبصار الناس. فإذا اضطررتُ إلى العمل، لم أدر ماذا أَعمل؛ وإذا اضطررت إلى الكلام، لم أدر ما الذي أقول؛ فإنْ نظر إليّ أحد، اضطربتُ. وعندما يأخذني الهوى، فربما اهتديتُ إلى ما يجب عليّ قوله؛ لكن الأحاديث العادية لا أتوصل البتة إلى أن أقول بمناسبتها شيئاً؛ فأنا لستُ أطيقها لا لسبب إلا لكوني مجبراً فيها على الكلام.

أضف أن ميولي الراجحة ليس فيها ميل إلى المشتَريات، إنما أنشُدُ اللذات الصافية؛ أما المالُ، فهو سمٌّ لها جمعاء. فأنا مولَع بطيّبات المائدة، مثَلاً، لكني لا أُطيق الانحصار مع الرفقة الصالحة، ولا مع معشر السوء في الحانات، فلذلك لا أستسيغ الطيّبات إلا وأنا مع صديق؛ فهذا وحده لا يعييني احتماله، وعندئذٍ يهيم خيالي في شواغل أخرى فلا أبقى أتلذذ الطعام. ولئن كان دمي المتأجج يطلب النساء، فإنّ قلبي الحسّاس يزداد شوقاً إلى الحب. ثم إن النساء، إما لجأتُ إلى المال كي أقضي بغيتي منهن، يصبحن لا فتنة لهن عندي ولا سحْر، حتى إني أشكّ في هل أَعرف، ساعتئذٍ، كيف أستمتع بهن. ذلك شأني في كل ما هو بتناولي من مباهج ولذات إن لم تكن مجانية، ألفيتُها تفاهة عقيمة. فإنما أَحَبُّ الطيّبات هي تلك التي ليست إلا لأول من يدري كيف يستمتع بها.

ولم أجد قط أن المال ثمين بقدْر ما يعتبره الناس؛ ولا وجدتُه، إلى هذا، شيئاً ملائماً قط. فهو، في نفسه، لا يصلح لأمر، بل ينبغي تحويله فيمكن التمتع به، إذ على الإنسان أن يشتري، ويساوم، ويتعرض للغش في الأحايين، وأن ينفق المال عن سعة، ومع ذلك لا يُخدَم به الإنسان حقَّ الخدمة. وربما رغبتُ في الشيء

الجيّد النوع، لكني بمالي موقن أنني سأصيب النوع الرديء. فإذا شريتُ بيضة طازجة غالية الثمن، رأيتُها فاسدة؛ أو ثمراً ناضجاً، رأيتُه فجّاً؛ أو إذا ابتغيت إحدى الفتيات، ألفيتُها قد أُفسدَتْ. وإني أستطيب النبيذ الجيّد، ولكن أين أحصل عليه؟ أعند بائع النبيذ؟ مهما أَعمل لأجل البائع، يسمّني. أَأُصرُّ على النوع الجيّد؟ فآنئذٍ كم من عناء وكم من تحيّر؟ إذ لا بد لي من أصدقاء ومراسلين ومن أن أؤدّي العمالة وأن أكتب وأذهب وأعود وأنتظر، ولا بد أن أقع على الغش في نهاية الأحايين. فكم من مشقة عليّ بمالي! إنّ خوفي منها لأشدُّ من حبي النبيذ الطيّب.

ولطالما خرجتُ، في أثناء عهد التدريب وفي ما بعد، أريدُ أن أبتاع بعض الحلوى؛ فما أبصرتُ بعض النساء، عند منضدة البيع، حتى تصورتُهن يضحكن في ما بينهن هازئات بالشره الصغير. فمضيت إلى بائعة الفاكهة أختلس النظر إلى الكمثرى الطيبة، فأغراني شميمها، فإذا بعضُ الشبان قد تطلعوا إليّ من كثب، وإذا رجل ممن يعرفوني قد وقف أمام حانوته، وإذا فتاة قد أَقبلتْ من بعيد؛ أليست هذه خادمة البيت؟ وذلك أن نظري الكليل كان يصوّر لي ألواناً من الأوهام، فخلتُ جميع المارّين معارف لي؛ وكنت حيثما اتجهتُ ارتعبتُ وحال دوني حائل، فازددتُ رغبةً ما ازددتُ حياءً، فأمسيتُ، آخر الأمر، مثل الأبله، فالتهمني التشهي؛ ولقد كان في جيبي ما يُشبع، ولكن لم أجرؤ على ابتياع شيء.

ولو تبعتُ الارتباك والحياء والنفر والعسر وضروب الاشمئزاز، وهي التي كنتُ لا أفتأ أشعر بها كلها حين أُنفقُ من مالي، أو حين ينفق سواي، إذاً لشرعتُ أَسْرد أتفه التفصيلات. لكن القارئ، كلما تقدَّمتْ به السن، تقدَّمتْ معرفته بطباعي فأَدركَ ذلكَ كلَّه من غير أن أسهب في ذكري له.

twitter @baghdad_library

وإذا كان ذلك أمراً مفهوماً، لن يصعب أن نفهم إحدى تناقضاتي المزعومة، وهي أن أجمع بين بخل يقارب القذارة وازدراء للمال لا مزيد عليه. والمال، عندي أنا، متاعٌ لا يوفر من أسباب الراحة إلا قليلاً حتى إني لا أرغب في الحصول على مال لا أملكه؛ فإنْ ملكتُ منه شيئاً، احتفظتُ به برهة طويلة فلم أنفقه، لأنني أجهل كيف أستخدمه بحسب نزوة خيالي؛ فإذا سنحتْ لي الفرصة المستحبّة، انتهزتُها حقّاً فخَلَتْ صرّة نقودي قبْل أن أشعر بخلوها. عدا ذلك، فلا تبحث لديّ عن شيمة البخلاء، وهي أنهم ينفقون المال تيهاً وافتخاراً؛ فأنا على نقيض ذلك، إذ أُنفقُ المال سرّاً وطلباً للذة، أُنفقه لا تمجيداً لنفسي، بل متستراً عنه. وإني أدركُ أن المال ليس لمنفعتي، حتى يكاد يخجلني امتلاكي لقسط منه، وحتى يتضاعف خجلي إذا استخدمتُ المال. وإني لعلى يقين أنه لو أُوتيتُ من الدخل ما يكفي لأن أتوسع في النفقة، لما أغراني البخل قط ولأَنفقتُ دخلي كله لم أحاول زيادته؛ ولكن حالتي المتقلبة تبقيني على خشية. فإني أَعبد الحرية، وأكره الضيق والعذاب والاستعباد. فالمال ضمان لاستقلالي ما دام المال في صرّة نقودي؛ وهو يعفيني من الحيلة طلباً لمالٍ سواه. وتلك ضرورة لم أستطع إلا أن أمقتها في كل حال، على أنني أداري المال خوْفَ نفاده، فالمال الذي أملك، أداةُ حرية؛ والمال الذي أجدّ في طلبه، أداةُ استعباد. لذلك أُحسن القبض على المال ولا أطمع منه بشيء.

وإذاً، فإنّ تنزّهي عن المنفعة ليس إلا ضرب من الكسل، لأن لذة الامتلاك لا تستحقّ عناء التحصيل. وما إسرافي إلا وجهٌ لكسل آخر؛ فإذا تسنّتْ لي لذة الإنفاق، لم يسعني الانتفاع بها حقّ الانتفاع. وأنا بالمال أَقَلُّ إغراءً مني بالأشياء، لأن بين المال وحيازة الشيء المرغوب في حيازته وسيطاً لا مهرب منه؛ في حين ليس بين

الشيء والتمتع به أيّ وسيط كان. وربما نظرتُ الشيء فأغراني؛ فإن لم أرَ إلا وسيلةَ الحصول عليه، لم يُغرني. فلذلك كنتُ وما أزال أختلس بعض التوافه التي تغريني فأُوثرُ أن آخذها رأساً على أن أَلتمسها التماساً؛ ولكن لستُ أذكر أني قد سرقتُ فلساً واحداً طول العمر، حديثَ السن كنتُ أم قديمها، ما عدا مرةً واحدة كانت لزهاء خمس عشرة سنة مضت، إذ سرقتُ سبع ليرات وعشرة أفلس. والمغامرة خليقة بأن أرويها وقد اجتمع فيها من الوقاحة والحماقة ما يثير الهزء حتى إنه يصعب عليّ، أنا نفسي، أن أصدّقها لو أنها مغامرة أحدٍ غيري.

كان ذلك في باريس. كنت أتنزه مع السيد دو فرنكوي في البالاي رويال، نحو الساعة الخامسة. أخرج ساعته، ونظر إليها، ثم قال لي: «نذهب إلى الأوبرا»: قلتُ: «أجل، عن طيبة نفس»؛ فذهبنا. ابتاع بطاقتين من بطاقات المدرج، وأعطاني إحداهما ومرَّ أولاً والبطاقة الأخرى بيده، فتبعتُه، فدخل. وإني لأدخلُ من بعده، إذ رأيت على الباب ازدحاماً. فنظرتُ فإذا الناس كلهم وقوف، فوجدتُ أني أقدر أن أضيع وسط هذا الجمهور، أو، في الأقل، وجدتُ أني أقدر أن أوهم السيد دو فرنكوي أني قد اختفيتُ ضائعاً. فخرجتُ، فاسترجعتُ أرومة البطاقة فثمنَها، ومضيتُ لم يخطر لي أنه ما إن بلغتُ الباب حتى كان الناس في مقاعدهم، ولا خطر لي أن السيد دو فرنكوي قد اكتشف أني لم أَبقَ هناك.

ليس هناك من شيء أنأى عن مزاجي من هذا السلوك، ولستُ أدوّنه إلا لكي أدلّ أن لبعض الأوقات ضروباً من الهذيان ينبغي معه ألاّ يُدان الناسُ في ما قاموا به حينئذٍ. ما كان الأمر يتعلق بسرقة هذا المال، وإنما بسرقة استعماله كلما قَلّ طابعُ السرقة فيه، زاد طابع الخزي والعار.

twitter @baghdad_library

ولو شئتُ أن أذهب، ههنا، في جميع السبل التي كنتُ، زمن تدرُّبي، أنتقل فيها من سُموّ البطولة إلى سفالة مَن لا خير فيه، إذاً لما انتهيتُ من هذه التفصيلات. لكن، وإن لحقتْ بي رذائل المنزلة التي هي منزلتي، لم يسعني أن أميل إليها الميلَ الحسم. وكنتُ أَملُّ اللّهو الذي لرفقائي، حتى إذا بلغ مني القسر مبلغه فكرهتُ العمل، سئمتُ كل شيء. فردّ عليّ ذلك ميلي إلى المطالعة وكنتُ قد فقدتُه منذ وقت مديد. لكن المطالعة، وقد جعلتُ أختلس فرصها من ساعات العمل، باتت ذنباً لي جديداً عادت عليّ منه عقوبات جديدة. فما لبث هذا الميل، إذ هيَّجه القسر، أن تحوّل إلى هوًى، فإلى هيجان. كانت لاتريبو، وهي مؤجّرة كتب مشهورة، تمدّني بكل لون وصنف، فأُقبلُ على الغث والسمين لستُ أتخيّر، بل أقرأ كل شيء وأنا على النهم عينه. كنت أقرأ إذ أنا إلى منضدة العمل، وأقرأ إذ أنا بطريقي إلى بعض ما كُلّفتُ القيام به، وأقرأ مختبئاً في صوان الملابس، فأذهلُ عن نفسي هناك الساعات الطوال حتى يعتريني الدوار لفرط ما قد قرأتُ؛ ولم أكن آتي من أمر إلا المطالعة. وكثيراً ما ترصَّدَني معلّمي، ففاجأني، وضربني، واستولى على الكتب.

وكم من كتب مُزّقتْ، أو أُحرقَتْ، أو ألقيتْ من بعض النوافذ! وكم من مؤلّفات ظلّت عند لاتريبو ناقصة الصفحات! وكنتُ إذا نفدتْ نقودي، وفّيتُ لاتريبو بقمصاني ورباطات عنقي وثيابي؛ وكنتُ، في كل يوم أحد، أحمل إليها نفقة جيبي وقدْرها ثلاثة دراهم.

سيقال: «هوذا المال وقد صار في الضروريات». أجل، هذا صيح إذ إن المطالعة أقعدتْني عن كل عمل. فاستسلمتُ إلى ميلي الجديد أيّ استسلام، فغدوتُ لا أقوم بأمر سوى المطالعة، وعدتُ لا أسرق. ههنا، أيضاً، إحدى مفارقاتي الشخصية المميّزة. فبينما

أكون على أوفى تعلّق بنحو في العيش معيَّن، إذ أتحمس لبعض التوافه، فيغيّرني هذا، فأتمسك به وقد امتلك لبّي وهواي، فأَذهل عن كل ما سواه لستُ أفكر إلا في الشأن الجديد الذي قد استأثر باهتمامي. ثم إن قلبي يخفق من نفاد الصبر عندي ومن إلحاح الشوق إلى أن أقرأ الكتاب الذي أكون قد خبّأته في جيبي، فما أبيتُ وحدي حتى أُخرج الكتابَ فتذهب عني فكرة التفتيش في غرفة شغل معلّمي الصانع. ويصعب عليّ التصديق أنني كنتُ أسرق ولو أوتيتُ ميولاً أغلى ثمناً من الميل إلى القراءة. وكنتُ، في تلك الأيام، أقتصر على الساعة التي أنا فيها، إذ ليس في طبعي أن أتأهب لمستقبل. وكانت لاتريبو تمهلني في الدفع، وكانت دفعاتي إليها زهيدة، حتى إذا أضحى الكتاب في جيبي، لم يبقَ عندي من شاغل سواه. ثم إن النقود التي تحصل لي بشكل سويّ، تنتهي إلى تلك المرأة؛ وكنتُ إذا ألحّت عليّ، لم أجد أَقرب إلى يدي من أمتعتي الخاصة. فإما أن أسرق احتياطاً فذاك إفراط مني في بُعد النظر، وإما أن أسرق إيفاءً للدَين فليس ذاك، عندي، حتى موضع محاولة.

ثم إنني، لكثرة التشاجر والضرب والمطالعات السيئة الاختيار، أصبحتُ سَكوتاً متوحشاً، وابتدأتْ أفكاري تتغير، وأَخذتُ أعيش عيشة المرء الخشن الطباع، المجتنب معاشرة الناس. وإذا لم يكن ذوقي هو الذي صانني من الكتب الغثة الفارغة، فإنّ حُسن حظي هو الذي صانني من الكتب البذيئة والإباحية، لا لأن لاتريبو أبت أن تعيرني شيئاً من تلك الكتب، وهي امرأة تراعي جميع الأذواق، بل لأن لاتريبو قد رغبتْ في أن تثير شهوتي إلى كتبها تلك فجعلتْ تذكر لي عناوينها في صوت غامض حملني على الاشمئزاز والحياء معاً، فأَبَيتُ أن أقرأها؛ ثم إنّ المصادفة أعانت طبعي الحي كأحسن ما تكون الإعانة، حتى لقد جاوزت الثلاثين من عمري قبل أن ألقيتُ

twitter @baghdad_library

نظري على شيء من تلك الكتب الخطيرة والتي تقول فيها إحدى سيدات المجتمع إنها كتب غير ملائمة إذ لا يمكننا قراءتها إلا ونحن نمسكها بيد واحدة.

استنفدتُ حانوت لاتريبو الصغير في مدة هي دون السنة، فعدتُ من أوقات فراغي وأنا على فراغ أليم. وكنتُ قد أبرأني من ميولي الصبيانية ميلي إلى القراءة ومطالعاتي التي كانت، في الأغلب، رديئة، دون اختيار، إلا أنها، مع ذلك، حرّكتْ في قلبي مشاعر هي أنبل مما ألهمتني منزلتي وقتئذٍ، وإذْ عفتُ مختلف ما وقع في تناولي، وشعرتُ بأن ما قد يغريني هو أبعد من أن أصل إليه، لم أر شيئاً ممكناً يستميل إليه قلبي. وكانت حواسي، وقد شبَّت منذ وقت غير قريب، لا تنفك تطلب مني متعةً ما أدري كيف أتخيلها حتى مجرد الخيال. وكنت نائياً عن المتعة فعلاً كأنما أنا بلا جنس، أما حين بلغتُ وشبّتْ حواسي، فلربما فكرتُ في ما أنا عليه من حمق، بيد أن نظري لم يتعدَّ ذاك. فكان أن خيالي المضطرب، وأنا على هذه الحالة الغريبة، قد عمد إلى ما أنقذني من نفسي وإلى ما هدّأ متعتي الحسية النامية، فطفقتُ أغتذي بالمواقف التي شاقتني في بعض ما قرأتُ، فجعلتُ أتذكرها وأنوّعها وأتفنن فيها وأجمع بينها وأصلُها بنفسي حتى غدوتُ أنا إحدى الشخصيات التي أتخيلها، وحتى وجدتُني في أَحبّ المواقف إلى طبعي، وحتى إن تلك الحالة الخيالية التي وضعتُ نفسي فيها قد أَذهلتْني عن حالتي الواقعية التي كانت تسوءني جداً. ثم شغفي بالخياليات وسهولة انقيادي لهن قد انتهى بي أمرُهما إلى أن صرتُ أَشمئزُّ من كل ما حولي، فاشتدّ ميلي إلى الوحدة وغدا ميلاً حاسماً، وما يبرح يلازمني من ذلك العهد. ولسوف ترى، أكثر من مرة واحدة، النتائجَ الغريبة التي تنشأ عن هذا الطبع الذي يبدو، في الظاهر، متوحشاً كئيباً والذي ينبع، في

الواقع، من قلبٍ كريم، رؤوف، محب، كثير التحنان، لكنه لم يلق في الناس شبيهاً له، فالتجأ إلى الأخيلة والأوهام. وبحسبي الآن أنني بَيَّنتُ مصدر الميل الذي حوَّلَ أهوائي جميعاً، فأبديتُ علّته الأولى. ولقد احتوى هو تلك الأهواء؛ فإذا عملتُ، توانيتُ؛ وإذا رغبتُ وتشهيتُ كنتُ مشبوب الرغبة.

بلغتُ سنتي السادسة عشرة وأنا قلقٌ، ما أرضى عن نفسي ولا عن سواها، وليس لي الميل الذي لمنزلتي، ولا اللذة التي لسنّي، وقد اعتلجتْ فيّ شهوات جَهلتُ موضوعها، فبكيتُ ولا موجب للدمع، وتنهدتُ لم أدر لما التنهد، وداعبتُ أوهامي فرفقتُ بها إذ لم يكن عندي ما يساويها. وكان أترابي، في أيام الأحد، يأتونني بعد العظة في الكنيسة لكي أرافقهم إلى اللعب. ولو استطعتُ آنئذٍ، لتخلصتُ منهم عن طيبة نفس، ولكن ما إن كنتُ أندفع وإياهم في اللعب حتى أُمسي أَوفرَهم حركة وأَبعدهم تمادياً فيه فتتعسَّرَ زعزعتي ويتعسر كبحي. ذلك هو طبعي ثابتاً على كل حال. ثم كنا إذا خرجنا من المدينة لكي نتنزه، انطلقتُ في الطليعة لم أفكر في الرجوع إلا أن ينوب عني غيري في التفكير فيه.

فتأخرتُ عن العودة مرتين، فأُغلقتْ أبواب المدينة قبلما أمكنني بلوغها. حتى إذا كنتُ من غدي، ذقتُ المعاملة التي أدَع القارئ يتصوّرها. أما في المرة الثانية، فلقد هُدّدتُ أَعظمَ تهديد بما ينتظرني من استقبال إن عدتُ إلى التأخر مرة ثالثة، فصممتُ ألا أعرّض نفسي لذلك. على أن المرة الثالثة، التي طالما تخوفتُ منها، قد حصلت برغم هذا كله. ذلك أن حذري قد أفشله ضابط لعين يدعى السيد مينوتولي، إذ كان يغلق الباب الذي وُكلتْ إليه حراسته متقدماً بنصف ساعة لغيره من الضباط. ولقد كنتُ عائداً مع رفيقين، فسمعتُ جرس الرجوع وأنا على زهاء نصف فرسخ من المدينة،

twitter @baghdad_library

فضاعفتُ خطوي، فسمعتُ الضربَ بالطبل، فطرتُ ركضاً، فوصلتُ وقد لهثتُ وغرقتُ في العرق وقلبي في شدّة الخفقان، فرأيتُ الجنود في مراكزهم من بعيد، فأسرعتُ أصيح بصوتٍ مختنق. ولكن فات الأوان تماماً. فبصرتُ بالجسر الأول قد رُفع وأنا على عشرين خطوة من مقدمة الحصن. فأخذتُ أرتعد إذ رأيتُ إلى طرفَي الجسر الهائلين قد ارتفعا في الجو كنذيرَي شؤم بالمصير المحتوم الذي كان قد ابتدأ بي شرُّه المستطير.

ارتميتُ على المنحدَر وأنا في أول صولة من الخيبة والغيظ. فطفقتُ أعضّ التراب. فما لبث رفيقاي أن عزما على أمرهما يستخفان بما تورطا فيه. ولقد اعتزمتُ أمري أنا أيضاً، ولكن على نحو آخر. أَقسمتُ، وأنا لم أبرح مكاني، أني لن أرجع إلى معلّمي أبداً. فلما دخل رفيقاي المدينة في الغد، وقد فُتحت الأبواب، ودّعتُهما إلى غير لقاء لم أسألهما إلا أن يُبلغا ابن خالي برنار، في الخفاء، ما قد اعتزمتُ وأن يدلاّه إلى الناحية التي يمكنه أن يلقاني فيها مرة أخرى.

وكنتُ، مذ شرعتُ أتدرب على الصنعة، ألقى ابن خالي أقلَّ مما كنتُ ألقاه قبْلاً، فغدونا أكثر افتراقاً، وإن ظللنا، إلى بعض الوقت، نجتمع أيام الأحد؛ بيد أن كلاً منا كان قد مال إلى عادات تُغاير عادات الآخر، فتضاءلتْ أسبابُ التقائنا شيئاً فشيئاً. وفي يقيني أن لأُمّه بالغ التأثير في هذا التحول، فهو من أطفال الحيّ العالي، وأنا ـ الصانع الحقير ـ لستُ إلا من أطفال سان جرفيه. فلم يبقَ بيننا من مساواة، على ما بيننا من علائق مولدٍ وقربى. فإن هو عاشرني، انخفض مقامه. إلا أن روابطنا لم تنقطع كلها أيامئذٍ، فلقد كان ابن خالي فتًى طيّب الفطرة، وربما تبع قلبَه برغم عظات أمه. فلما بلغه عزمي على الهرب، خفّ إليّ، لا ليثنيني عنه ولا ليشاركني فيه، بل

ليُصحب فراري شيئاً من البهجة، إذ حمل إليّ هدايا صغيرة، ولم تكن مواردي لتسهّل عليّ أن أوغل بعيداً في السفر. فأعطاني هو، في ما أعطى، سيفاً صغيراً راقني جداً، فحملتُه إلى تورينو، فألَحّت عليّ الحاجة هناك فاضطرتُ إلى التخلّي عنه سدّاً للرمق.

وكلما فكرتُ منذ ذلك الحين كيف سلك ابن خالي في ساعتي الحرجة تلك، ازددتُ اقتناعاً بأنه قد اتبع ما دعته إليه أُمه، وربما اتبع ما دعاه إليه أبوه؛ فلو كان سلك من تلقاء نفسه، فمحال أن لا يبذل بعضَ الجهد لأجل استبقائي، أو ألا يحاول أن يتبعني، لكن ذلك لم يحصل البتة. بل هو قد شجعّني على خطتي أضعاف ما صرفني عنها، فلما رآني قد صَمّمْتُ، فارقني لم يذرف سخيّ الدمع. فلم نلتق مذ ذلك اليوم ولا تَراسلنا. وإنّ هذا لمؤسف؛ فلقد كان هو طيّب الجبلة، ولقد خُلقنا لكي نتحابّ.

وقبل أن أستسلم إلى مصيري المحتوم، ليؤذَن لي أن أحوّل نظري، طرفةَ عين، إلى المصير الذي كان يرتقبني بحُكم الطبيعة لو وقعتُ بين يدي معلّم أفضلٍ. لا شيء كان أَصلح لمزاجي ولا أَفضل لإسعادي من المنزلة الهانئة والمغمورة، منزلة حرفيّ كريم، كما هو الشأن في بعض الطبقات، وخصوصاً طبقة النقاشين في جنيف. فإنّ ما يوفّر دخلاً كافياً للمعيشة الرغدة، لا لتحصيل الثروة، كان حقيقياً بأن يحدّ من طموحي بقيةَ العمر وكان خليقاً بأن يهيئ لي من ساعات الفراغ ما ينمي فيّ ميول الاعتدال وما يحفظني في بيئتي ليس يدَع لي مجالا للخروج منها. ولقد اكتسبت من ثراء المخيلة ما يخلع على ذلك كلّه أَلواناً من الأوهام، ومن قوتها ما يطير بي على هواي من حال إلى حال، حتى إني قلما اكترثتُ لواقع الأمر الذي أكون عليه. ومهما يكن البون نائياً بين المقام الذي أنا فيه وبين مقام الأحلام الذي ما أصبو إلى بلوغه، فسهل عليّ أن مُرامي وأستقر فيه. ولهذا

twitter @baghdad_library

فإنّ أبسط الحالات وأقلها مشقّةً وعناءً وأوفرها مجالاً لحرية الفكر قد غدت أكثر الحالات ملاءمةً لي؛ وتلك هي بالتحديد حالتي أنا. وعندئذٍ كنتُ حَييتُ، في أحضان ديني ووطني وأُسرتي وأصدقائي، حياة هادئة وادعة تُناسب طبعي، على اطّراد عمل يلبي ميلي ورغبتي، بين مجتمع يتجاوب هو ومشاعري، فغدوتُ مسيحياً صالحاً، ومواطناً صالحاً، ورب أُسرة صالحاً، وعاملاً صالحاً، وإنساناً صالحاً في كل أمر، فأَحببتُ حالي التي أنا فيها، وربما شرّفتُها؛ ثم رقدتُ في أحضان ذويّ رقْدَ سلام، فنمتُ عن سيرة مغمورة وضيعة لكنها سويّة مطمئنة. ولئن كان النسيان سيطويني بلا شك، فسأَبقينَّ مأسوفاً علي طالما ذكرني أحد من الناس.

وبدل ذلك أيّ صورة قد أوشكتُ أن أرسم الآن؟ آه! علينا ألاّ نستبقْ [ما سأرويه] من ضروب البؤس في حياتي؛ فلسوف أشغل بها كثيراً قرائي وزيادة.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

بقدر ما بدت لي الساعة التي أوحى إليّ الخوف فيها بأن ألوذ بالفرار ساعة كئيبة، بدت لي الساعةُ التي نفّذت فيها فراري ساعة بهيجة. فأنا ما أزال طفلاً، وإذ بي أهجر بلدي وأهلي وأترك سندي ومواردي؛ وأخلّف صنعةً لم أتدرّب عليها إلا بعض التدرب ولا أتقنتُ حرفتي فيها اتقاناً يضمن ارتزاقي منها؛ وأنا أُسلم نفسي إلى أهوال الفقر لستُ أملك ما ينتشلني منه؛ وأعرّض نفسي لمختلف إغراءات الرذيلة واليأس إذ أنا في سن الضعف والبراءة وأن أبتغي بعيداً الآفات والأخطار والأحابيل والموت تحت نير هو أشدّ تصلباً مما لم أصبر عليه من قبل: ذلك ما كنتُ في سبيلي إليه، وذلك ما كان خليقاً بي أن أعتبره. ألا ما أبعده عما كنت أصوّر لنفسي! فما استولى عليّ آنئذٍ إلا الشعور بالاستقلال إذ خلتُني حاصلاً عليه. وظننتُ أني، سيّدَ نفسي حرّاً، قادر على إتيان كل شيء وعلى بلوغ كل شيء؛ فلم يبقَ إلا أن أنطلق وأرتفع وأطير في الأجواء. ودخلتُ العالم واثقاً من أن استحقاقي [جدارتي/مزيتي] كفيل بأن يملأ مداه الفسيح؛ فما أخطو أول خطوة حتى أجد الولائم والكنوز والمغامَرات؛ وألقي أصدقاء يهبّون لخدمتي، وخليلات يسارعن إلى إرضائي: فما أن أُظهر نفسي، حتى أشغل العالم بنفسي [بأناي]؛

وما أعني العالم بأسره، لأني أَعفيته من ذلك، ولأن مطلبي من الدنيا لم يصل إلى ذلك الحد؛ وإنما كان يكفيني مجلس لطيف، وما سواه لم يكن يهمني أمره. وهكذا فإن اعتدالي أبقاني في دائرة ضيقة، بيد أنها دائرة قد طاب لي اختيارها إذ أيقنتُ أني أنا فيها المالك السعيد. وكان أقصى طموحي عهدئذٍ بلوغ قصر واحد ولا غير: أن أكون مقرَّباً إلى ربّ القصر وربّته، عاشقاً بنتهما الفتاة، صديقاً لشقيقها، حامياً للجيران، فما كان لي من حاجة إلا إلى ذلك فأُسَرّ وأَسعد.

جعلتُ أهيم حول المدينة بضعة أيام وأنا أنتظر هذا المستقبل المتواضع، وكنتُ أَبيتُ عند معارف لي من القرويين قد تلقوني بطيبة نفسٍ ما كان أهل المدينة ليتلقوني بمثْلها. ولقد رحَّبوا بي، وأنزلوني عندهم، ووفَّروا لي من الطعام ما فاق استحقاقي إياه. ولم يكن ذلك ليقال له إحسان، إذ لم ينفخوا فيه من روح التفوق ما يجيز هذه التسمية.

ولفرط ما سافرتُ وطوّفتُ في الأرضين، على ذلك النحو، وصلتُ إلى بلاد كونفينيون من إقليم سافوى، على فرسخين من جنيف. وكان كاهنها يدعى السيد دو بونفير. فاجتذبني هذا الاسم بقوة لأنه اشتهر في تاريخ الجمهورية، فتحرَّكَ فضولي أريدُ أن أرى كيف كانت عليه سلالة أشراف الملعقة[1] فذهبتُ أزور السيد دو بونفير؛ فأَحسن استقبالي، وحدثني عن هرطقة جنيف وعن سلطة الكنيسة الأم المقدسة، ثم دعاني إلى الطعام. فلم أجد شيئاً كثيراً أردُّ به على حجج كانت نهايتها على هذا الوجه. وخلصتُ إلى الاعتقاد

(1) أشراف الملعقة أخوية فرسان أسست عام 1527، أو عام 1528، في بلاد فو. وكان أعضاؤها يجعلون على صدورهم ملعقة ترمز إلى أنهم يأكلون أعداءهم، أي أهل جنيف، بالملعقة. وقد ذهب روسو إلى أن السيد دو بونفير هو من سلالة أولئك الفرسان - المترجم.

twitter @baghdad_library

أن الكهنة، الذين يقدّمون على موائدهم مثل هذه الطيّبات، يعادلون قساوستنا في الأقل. ولا ريب أنني كنتُ أكثر تبحراً في العلم من السيد دو بونفير ولئن كان هو رجلاً نبيلاً(*)، ولكن وقد كنت جليس مائدة [ضيفاً] كأحسن ما يكون الجليس لم أكن عالم لاهوت كأحسن ما يكون العالم؛ وكان نبيذه الفرانجي، وقد استطيبتُه، مما يؤيده في حججه حتى إني أستحي أن أُسكتَ مضيفاً كريماً إلى هذه الدرجة. وهكذا، سلَّمتُ بحججه، أو، في الأقلّ، لم أقاومه وجهاً لوجه. ومن رأى من الناس ما عمدتُ إليه من ضروب المراعاة ومن المداراة، عدّني في المرائين. لكنه على خطإٍ؛ فيقيناً لقد كنتُ نزيهاً. وليس التملّق، أو، على الأصح، المجاملة عيباً دائماً، بل هي، في أكثر الأحيان، فضيلة ولا سيما عند الشبان. فإن الطيبة التي يعاملنا بها إنسان ما تشدّنا إليه فنجاريه، لا استغلالاً منا لكرمه، ولكن لئلا نكدّره فنقابل إحسانه بالإساءة إليه. أيّ منفعة أصاب السيد دو بونفير إذ رحّب بي فأكرمني فأَحسن معاملتي ثم حاول إقناعي؟ لا شيء إلا منفعتي أنا. هذا ما كان يتردد في قلبي اليافع وقد شعرتُ باحترام لذلك الكاهن وبعرفان لجميله، وشعرتُ أيضاً بتفوقي عليه، إلا أني لم أشأ أنِ أُرهقه بتفوقي جزاءً مني لكرم ضيافته. ولم يكن سلوكي عن رياء، إذ لم يخطر لي أن أغيّر ديني؛ بل ما أبعدني عن أن أستأنس بتلك الفكرة فلكَم هالني أمرها هولاً جعلني أطردها عني إلى زمن طويل. وكل ما في الأمر هو أنني وددتُ ألاّ أكدّر مَن لاطفوني وتحبَّبوا إليّ قصْدَ تحويلي عن ديني؛ أما قصدي فكان أن لا أقطع أملهم في النجاح، فظهرتُ أمامهم وأنا أضعفُ تحصّناً مما كنتُ عليه في الواقع. وكان خطأي في ذلك يشبه غنج بعض النسوان

(*) (gentilhomme) من الألقاب التقليدية في أوروبا [المراجع: ع. لبيب].

المستقيمات اللواتي، من أجل الوصول إلى مآربهن، يعرفن أحياناً كيف يلوّحن بآمال تُجاوز ما يبغين الوفاءَ به فلا يأذنّ في شيء ولا يَعدن بشيء.

أكيد أن العقل والتحنن وحب النظام، كل ذلك كان يقضي بصرفي عما قد أَسرعتُ فيه من ضلال، فأُعادُ إلى أُسرتي بدل تشجيعي على حماقتي وغيي. هذا ما كان يفعله، أو ما يحاوله، كل إنسان فاضل حقّاً. لكن السيد دوبونفير لم يكن رجلاً فاضلاً، بل إنه على الضد من هذا، إذ كان رجلاً متديناً لا يعرف من الفضيلة إلا عبادة الصور وقراءة الوردية(*)؛ فهو مثال المبشّر الذي، سعيا إلى خير الإيمان، يعتبر أن ليس هناك من فعل يفعله أَحسن من هجاء قساوسة جنيف هجاءً شنيعاً. فلم يفكر في إرجاعي إلى بلدي، بل انتهز رغبتي في الهجرة منه فأفضى بي إلى حالة تعذَّر عليّ معها أن أعود إليه إذا رغبتُ في العودة يوماً. ولا شك أنه قد بعثني على أن أتردى في البؤس وعلى أن أصبح مَن لا يرجى منه خير. ولم يكن ليرى ذلك، وإنما هو قد وجد نفساً يخلّصها من الهرطقة فيردّها إلى الكنيسة. فليس همّه أن أكون نزيهاً أم غير نزيه، ما دمتُ أَحضرُ القداس. ويلزم أن لا نظنّ أن طريقة التفكير هذه قد اختص بها الكاثوليكيون دون سواهم، بل هي الطريقة لكل ديانة وثوقية [دوغمائية] لا ترى أن الجوهر يكمن في العمل، وإنما في الاعتقاد.

قال لي السيد دوبونفير: «إن الله يدعوك ويناديك. فاذهبْ إلى أنّوسي، تلقَ هناك سيدة طيّبة خيّرة بارّة قد مكّنها إحسانُ الملك أن

(*) مما جاء في **معجم الإيمان المسيحي** (بيروت، 1998) الوردية هي «صلاة مسيحية مؤلفة من ثلاث مسابح [...] تحيًّا فيها العذراء في أسرار الفرح وأسرار الحزن وأسرار المجد» [المراجع: ع. لبيب].

twitter @baghdad_library

تخلّص نفوساً أخرى من الضلال الذي نجت هي منه. «أما تلك السيدة، فكانت مدام دو فارانس، وقد اهتدت حديثاً، ثم أجبرها الكهنة على أن تقتسم هي والنذل السافل، الذي ربما أتى لبيع إيمانه، مرتّباً قدْره ألفا فرنك هبة لها من ملك سردينيا، فأَحسست بأني ذليل جداً أن أفتقر إلى صاحبة إحسان. كان يطيب لي أن أُرزَق الكفاف، لا أن يُحسن إليّ على وجه الصدقة. ثم إن امرأة متدينة ليست في عيني جذابة بقوة. ولكن، مع ذلك اعتزمتُ أمري ولو شقَّ عليّ، فشخصتُ إلى أنّوسي وقد ألحّ عليّ السيد دوبونفير وتعقّبني الجوع ورغبتُ في السفر وأردتُ لي هدف حياة. ولقد كنتُ أستطيع أن أبلغ أنّوسي في يوم واحد، إلا أنني لم أحثّ خطاي فوصلتُ في ثلاثة أيام. وكنتُ، وأنا في الطريق، إذا وقعتْ عيني على أحد القصور عن يميني أو عن شمالي، مضيتُ أطلب المغامَرة التي كنتُ موقناً أنها ترتقبني. ولكن لم أجرؤ على أن أدخل القصر ولا على أن أطرق بابه، لأنني كنتُ حيياً جداً. وربما انطلقتُ أغنّى تحت أَجمل الشبابيك في الظاهر فلا ألبث طويلاً، وقد أنهك أنفاسي الغناءُ، أن أَعجب أن لا سيدات ولا أوانس قد جذبهن حسن صوتي وجمال أغانيّ، وكنتُ أعرف من الأغاني رائعاتٍ علّمنيها رفقائي فأَجدتُ غناءها أيَّ أجادة.

وفي آخر الأمر، وصلت إلى أنّوسي وقصدتُ مدام دو فارانس. والحقّ أنّ تلك المرحلة من العمر قد طبعتْني بالطابع الحسم، فلا يسعني أن أمرّ بها مرّاً سريعاً. كنتُ، يومئذٍ، في منتصف سنتي السادسة عشرة. وكنتُ، في قامتي القصيرة، حَسن البنيان، دون أن يمكّن وصفي بالفتى الوسيم. وكنتُ رشيق القدمين، دقيق الساقين، منبسط الهيئة، حيويّ الوجه، صغير الفم، فاحم الشعر والحاجبين، ضيّق العينين بل غائرهما، لكنهما شديدتا البريق والتألق بما قد تأجّج

في دمي من نار. غير أنه في سوء الحظ أن لم أَكُ أدري من ذلك شيئاً ولا حدث لي قط أن فكرتُ في هيئتي اللهم أن يكون قد فات أوانُ الانتفاع بها. وهكذا أُوتيتُ مع الخجل الذي يلازم سني خجلاً طبيعياً أليفاً وحبيباً جدّاً، فكنتُ لا أبرح مضطرباً أخشى ألا أُرضي أحداً سواي. زد على ذلك، لئن كان لي ذهن محمّل [بالمعارف] بما فيه الكفاية، فلقد أعوزتْني المعرفة بآداب السلوك، إذ لم أكن قد بلوتُ الناس قط. أما معلوماتي، فلم تؤدّ إلا إلى ازديادي خجلاً وارتباكاً، إذ أشعرتْني بمقدار ما يعوزني من آداب السلوك.

ولقد خشيتُ أن تكون مقابلتي مدام دو فارانس لغير منفعتي، فعمدتُ إلى وسيلة أوفق، إذ صغتُ لها رسالة جميلة، خطابية الأسلوب، حشدتُ فيها عبارات أخذتُها عن بعض الكتب وتعبيراتٍ اكتسبتُها من لغة العمال، وأظهرتُ فصاحتي كلها لعلي أفوز بلفتة من تلك السيدة. ثم طويتُ رسالتي على رسالة السيد دوبونفير ومضيت إلى المقابلة المهيبة. فلم أَرَ مدام دو فارانس، وقيل لي أنها خرجتْ إلى الكنيسة منذ قليل. وكان ذلك اليوم هو الأحد [الذي يُطلق عليه اسم] الشعانين(*) من عام 1728. فأسرعتُ في إثرها، فانتظرتُها، ثم كلّمتُها. ألا إنما عليّ أن أذكر تلك الأرض. فلطالما بللتُها بالدموع وغمرتُها بالقُبل. ويا ليتني أحيطها بسياج من ذهب. ويا ليتني أجتذب إليها العالم كله وفاءً لها وتكريماً. فمن أراد أن يُكرم الأنصاب التذكارية التي أقيمت لخلاص البشر، وجب عليه ألا يدنو من تلك الأرض إلاّ راكعاً.

(*) يقول **معجم الإيمان المسيحي**: الشعانين «اسم يطلق على يوم الأحد الذي يفتتح أسبوع الآلام [..] إحياء لذكرى دخول يسوع ظافراً إلى [القدس] أورشليم» [المراجع: ع. لبيب].

twitter @baghdad_library

وأما عن ذاك [الموضع] فهو ممرّ خلف بيت مدام دو فارانس يقع بين ساقيةعلى جهته اليمنى تفصله عن الحديقة، وجدارُ ساحة البيت على جهته اليسرى، وهي الساحة التي تؤدّي، من باب خلفي، إلى كنيسة الآباء الكبوشيين. فلما أوشكت مدام دو فارانس أن تجتاز بذلك الباب، التفتتْ إليّ وقد سمعتْ صوتي. فيا عجباً لما غدوتُ فيه وقد وقعتْ عيني عليها! كنتُ قد تصوّرتها عجوزاً متدينة كالحة الوجه، ولم أحسب أن السيدة الطيّبة التي بعثني إليها السيد دوبونفير يمكن أن تكون على غير ما تصوّرتُها عليه. ولكني أبصرتُ، بدل ذلك، وجهاً قد طفح بالملاحة، وعينين زرقاوين جميلتين، وبشَرَة باهرة، وعنقاً ذات فتون. فما غاب شيء عن النظرة الخاطفة التي ألقاها الفتى الدخيل، إذ سرعان ما صرتُ مريداً للسيدة دو فارانس، لَمّا أيقنتُ أن الديانة التي يبشّر بها أمثالُ أولئك المرسلين لا بد أن تفضي إلى الفردوس. قدّمتُ إليها الرسالة ويدي ترجف، فتناولتْها وهي تبتسم، وفضتْها، فشملتْ رسالةَ السيد دوبونفير بنظرة عجلى، ثم انعطفتْ إلى رسالتي فقرأتْها كلها، ولولا أنّ خادمها لفت انتباهها إلى أن قد حان الوقت لتدخل الكنيسة، لأعادت قراءة رسالتي مرة ثانية. فقالت لي بصوت ارتعشتُ له: «ها أنت ذا، يا بُنيّ، قد همتَ في البلاد على حداثة سنك، إنه لأمر مؤسف حقّاً»، ولم ترتقب جوابي، بل قالت لي بعد ذلك: «اذهبْ فانتظرني عندنا في البيت، وقل لهم ليقدموا لك طعام الصباح، وإني راجعة بعد القداس فأتحدث إليك».

كانت لويز إليانور دو فارانس فتاة تنتمي إلى أُسرة لاتور دو بيل، وهي أُسرة شريفة وعريقة من أُسَر فيفاي، وهي إحدى مدن بلاد فو. وكانت في أوج صباها لما تزوجت السيد دو فارانس، وهو من آل لوْيز والابن البكر للسيد دو فيلاردان من لوزان. فلم يكن هذا

الزواج، وقد حُرم الأولادَ، زواجاً في غاية التوفيق. فانتهزت مدام دو فارانس مناسبة نزول الملك فكتور أميديه في إيفيان فعبرت البحيرة، وقد حثّتها بعضِ المكدّرات البيتية، فارتمتْ على قدميِ الأمير وتركت زوجها وأُسرتها وبلدها بطيش يعادل طيشي. ولقد أُوتيتْ، هي أيضاً، سعة وقت لتبكي ندماً على ما فرط منها. فما كان من الملك، وهو مولَع بأن يَظهر بمظهر الكاثوليكي الغيور، إلا أن وضعها في حمايته، وخصّها بمرتَّب ألف وخمسمائة ليرة بيامونتيه، وإنه لمبلغ كثير عند أمير قليل التبذير مثله. لكنه، بعد ما استقبلها على هذا النحو، وجد أن الناس حسبوه عاشقاً لها، فأَرسل بها إلى أنّوسي تواكبها كوكبة من حرسه، وهناك أَنكرتْ دينها[2] في دير زيارة العذراء، وكان مرشدها أسقف جنيف واسمه ميشال جبريال دوبرنكس.

كان قد مضى عليها ست سنوات في أنّوسي لما وصلتُ أنا إليها. وكانت وقتئذٍ في الثامنة والعشرين من عمرها، إذ إنها وُلدتْ مع هذا القرن، ولقد أُوتيتْ لوناً من الجمال مصون الروعة، لأنه يتجلى في قرارة السّيماء أضعاف ما يتجلّى في الملامح؛ وكانت سيماؤها ما تزال على نضارتها الأولى. أما منظرها، فلطفٌ وحنان، ونظرُها فمنتهى الوداعة، إلى بسمة ملائكية، وفم على نحو فمي، وشعرِ رمادي اللون رونقه نادر المثال، ولقد كانت تُصففه من دون تأنق فتبدو في قمة الإغراء. كانت صغيرة البنية، قصيرة القامة، وقامتها على شيء من الانقباض ولكن في غير دمامة. أما الرأس منها والصدر واليدان والذراعان، فلم يكن في الإمكان أن تقع العين على ما هو أروع من ذلك جميعاً.

(2) أي المذهب الإنجيلي ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وأما تنشئتها فمتمازجة الأطراف تمازجاً شديداً: فهي مثلي فقدتْ أُمّها مذ وُلدتْ؛ وإذ تلقت بلا تمييز ضروباً من التعليم كما اتفق فلقد، أَخذتْ عن مربيتها قليلاً، وعن أبيها قليلاً، وعن أساتذتها قليلاً، ثم عن عشّاقها أَخذت الشيء الكثير، ولا سيما عن أَحدهم ويدعى السيد دو ترافيل، وقد أُوتي من سلامة الذوق وسعة المعرفة ما كان حليةً منه للمرأة التي كان يحبّها. ولكن كل هذه الضروب المختلفة من التعليم كان بعضها مضراً ببعضها الآخر. كما أن مدام دو فارانس أضافت إلى ذلك قليلاً من التنظيم ممّا منع دراساتها المتنوعة أن تُنمي ما لها من صواب رأي طبيعي. فمع ما أصابت من مبادئ الفلسفة والكيمياء، لم تبرح تميل إلى ما كان أبوها يميل إليه من الطب الاختياري والألخيمياء: فصنعتْ بعضَ ألوان الإكسير والصبغ والبلسم، وادّعت أن لها علْماً ببعض الأسرار. فاغتنم ضعْفَها الدجّالون فسيطروا عليها ولازموها، ففلّسوها وصهروا، في البوتقات والعقاقير، ألمعيتَها ومواهبها ومفاتنها التي كانت تستطيع أن تسبغها على أرقى المجالس.

ولئن كان بعض الأوغاد الأنذال قد استغلّوا تربيتها السيئة التوجيه فأطفأوا أنوار عقلها، فإنّ قلبها السمح الكريم قد ابتُليَ بالامتحان فبقي هو عينه دائماً في كل حال. فخُلقُها المحب الوادع، ورقّتها للمساكين، وطيبتها التي لا تنفد، وطبعُها المنفتح الصريح هذه كلها لم تتغير قط؛ بل إن صفاء نفسها الجميلة قد لزمها إلى ما بعد أن عَجزَتْ وقلّت ذاتُ يدها وباتت تتقلب على الأوجاع ومختلف الأرزاء، فصان لها، حتى آخر حياتها، أشرقَ ما عرفت من بهجة الأيام.

ولقد نجمتْ أخطاؤها عن نشاط فيها لا يكلّ ولا يفتأ يطلب ما يشغله. ولم تكن بغيتها مكايد النساء، وإنما كانت تروم المشاريع

لكي تحققها وتشرف عليها. فلقد وُلدتْ لجلل الأعمال. ولو أن مدام دو لونجفيل[3] كانت في محلّها، لأزعجت الناس؛ ولو كانت هي في محل مدام دو لونجفيل، لحَكمتْ الدولة. كانت مواهبها في غير موضعها، فما كان خليقاً بأن يبني مجدها لو أنها كانت في وضع أعلى، أَفضى إلى خسرانها في الوضع الذي عاشت فيه. وبالنسبة لما تطاله من أمور، كانت تبسط تخطيطاً له في رأسها، وتنظر في موضوعه نظراً واسعاً كبيراً. وهكذا، إذ استخدمت وسائل مناسبة لنظرياتها أكثر منها لقواها، فلقد أخفقت بسبب أخطاء الآخرين؛ حتى إذا خاب مشروعها، أَفلستْ حيث كان سواها لا يكاد يخسر. ولئن كان ولعُها بأعمال التجارة قد أَوقع بها ما أَوقع من أضرار، فلقد جلب لها، وهي في عزلتها المترهّبة، نفعاً عظيماً، إذ حال دون أن تبقى في عزلتها إلى مدى العمر على حسب ما أُغريتْ به. فما كانت عيشة الراهبات الرتيبة البسيطة لتكفي ذهناً دائم الحركة لم يفتأ، كلَّ يوم، يضع مشروعات جديدة لا بد له معها من الحرية والانطلاق لكي يتوفر عليها. وكان أسقف برنكس الطيب يشبه مدام دو فارانس في عدة نواحٍ، وإن لم يكن قد أُوتي روح فرنسوا دوسال[4] ومدام دو فارانس، ـ وقد سمّاها أسقف برنكس ابنته وأَشبهت مدام دو شانتال[5] شبهاً متعدد النواحي، ـ قد أمكنها أن تشابه هذا الأسقف وهي في عزلتها لو لم يحد بها ذوقها عن عيشة الدير المليئة بأوقات

(3) الدوقة دو لونجفيل (1619-1679) سيدة عالية الهمة، بعيدة الطموح، اشتهرتْ بمعارضتها الكاردينال مازاران - المترجم.

(4) القديس فرنسوا دوسال (1567-1622) أسقف جنيف وأحد مؤسسي رهبنة زيارة العذراء ـ المترجم.

(5) البارونة دو شانتال (1572-1641) لقيت القديس فرنسوا دوسال فترهبتْ وكانت أول رئيسة لدير سيدة العذراء - المترجم.

twitter @baghdad_library

الفراغ. ولئن كانت مدام دو فارانس اللطيفة لم تمارس دقائق شعائر التدينية التي تتوافق مع مهتدية حديثة العهد مثْلها تقيم تحت إرشاد أحد الأساقفة، فما كان ذلك عن ضعف غيرة قط. وأيّاً كان الداعي الذي حداها على تغيير ديانتها، فلقد صدقتْ في ما اعتنقتْ من دين اهتدت إليه. ولربما ندمتْ على ارتكابها لهذا الخطإ، بيد أنها لم ترغب في الرجوع عنه. ثم إنها لم تمت ميتة [إمرأة] كاثوليكية مؤمنة فحسب، ولكنها عاشت ذلك وهي صافية النية. وأجرؤ على القول، إذ أحسبني قد وقفتُ على قرارة نفسها، إنها لم تتظاهر بالتدين أمام الناس لا لسبب إلا لفرط اشمئزازها من حركات التصنع، وقد كانت تقواها أمتن من أن تتكلف التدين. ولكن ليس ههنا مجال الإسهاب في مبادئها وصفاتها، فلسوف يتاح لي أن أُورد ذلك في مناسبات أُخرى.

ألا فليفسّر الذين ينكرون تعاطف الأرواح، إن استطاعوا، كيف أن مدام دو فارانس لم توح إليّ، منذ اللحظة الأولى والكلمة الأولى والنظرة الأولى، أوفى مشاعر التعلّق فحسب، وإنما أوحت إليّ، مع ذلك، ثقة تامة لم تَهن في يوم من الأيام. ولنقدّر أن ما شعرتُ به كان في الواقع حبّاً لها، وهذا ما يشكّ فيه، على الأقل، من يتبع مجرى علاقاتنا، فكيف وُلد هذا الحب موصولاً بالمشاعر التي قلّما يوحيها الهوى: مشاعر طمأنينة القلب، ومشاعر السكينة والصفاء والأمان والثقة بالنفس؟ كيف وجدتُني حين اقتربتُ، أول مرة، من سيدة لطيفة، مهذبة، باهرة الجمال، أرفعَ مقاماً مني، سيدة لم أكن قد واجهتُ مثْلها قط وكان جُلُّ مصيري وقفاً على ما توليني من عناية واهتمام أقول كيف وجدتُني على الفور حرّاً، طلقاً مرتاحاً، كما لو أيقنتُ أني سأروق لها لا محالة؟ كيف لم أشعر ولو بلحظة حيرة وخجل وارتباك؟ لقد كنتُ، بالطبيعة، حيياً مضطرباً، لم أرَ شيئاً من

الدنيا قطّ؛ فكيف استطعتُ، من أول هنيهة لقيتُ فيها مدام دو فارانس، أن أَنطلق حيالها على السجية، فآخذها بالكلام العذب الرقيق وأبدي لها اللهجة الأليفة التي أبديتُها لها بعد ذلك بعشر سنوات إذ تمكنتْ بيننا الأسباب الحميمة فجعلتْ هذا السلوك أمراً طبيعياً؟ هَلْ لنا من حبٍ دون قلق ولا غيرة، وأنا لا أقول دون رغبة، لأن الرغبة كامنة فيّ؟ ألا نريد لو أننا نعلم من عند المحبوب إنْ كان يحبنا؟ هذا السؤال لم يخطر لي أن أطرحه على نفسي مثلما أنه لم يخطر لي أن أسائل نفسي إن كنت أُحبُّ نفسي؛ ولم تكن مدام دو فارانس أَوفر فضولاً مني. ولا ريب أن اتصال شعوري بتلك المرأة الساحرة قد اتسم بشيء فريد. ولسوف تقع، أيها القارئ، من الغرائب على ما لستَ تتوقع.

دار الحديث بيني وبين مدام دو فارانس على ما يصير إليه أمري، فاستبقتني على العشاء فيتسنى لها أن تحادثني ونحن على سعة من الوقت. وكان ذلك الطعام هو أول طعام فقدتُ فيه شهيتي، حتى إن خادمتها، التي كانت تقدّمه إلينا، قالت إنني أول مسافر يأكل بلا شهية وهو في سني وتكويني. ولئن لم تؤذني هذه الملاحظة عند سيدتها، فلقد أصابتْ قروياً خشناً كان يتعشى معنا ويلتهم، لوحده، من المآكل ما يكفي ستة أشخاص. أما أنا، فلقد كنتُ من النشوة على ما صرفني عن الأكل، وكان قلبي يغذيه شعور جديد قد ملأ كياني أجمع حتى لم يدَع لي مجالاً للتفكير في ما سواه.

وأرادت مدام دو فارانس أن تقف على تفصيلات سيرتي الناشئة، فاستعدتُ، وأنا أرويها لها، كل الحميّا التي كنتُ قد فقدتُها وأنا عند معلّمي [النقّاش]. وكنتُ كلما حفزت تلك النفس الخيّرة على المزيد من الاهتمام بشأني، ازدادتْ رثاءً لما أنا معرَّض له من مصير. فلاحت رأفتُها على هيئتها وعلى نظراتها وعلى إشاراتها

twitter @baghdad_library

جميعاً. لكنها لم تجرؤ أن تحثني على الرجوع إلى جنيف، فإنما ذلك هو، بالنسبة إلى موقعها، جناية على الكثلكة؛ ولم تجهل مبلغ ما أَحدقتْ بها الرقابة ولا مبلغ ما كانت كلماتها تُوزَن وزناً دقيقاً. بيد أنها حدثتني بما قد اعترى أبي من الغم فكان صوتُ حديثها مؤثراً جداً، فاتضح لي أنها قد وافقتْني على أن أعود إلى أبي فأُواسيه. ولم تدر مبلغ ما كانت تعمل على نقيض مصلحتها من غير أن تشعر بذاك. أما أنا، فإن رأيي كان قد استقرّ على ما تقدَّمَ لي ذكره في ما أظن. وإلى هذا، كنتُ كلما وجدتُ كلماتها مفحمة بليغة، اتصلتْ معانيها بقلبي فعجزتُ أن أنفصل عنها. وشعرتُ أن رجوعي إلى جنيف يقيم بين مدام دو فارانس وبيني حاجزاً لا يكاد يمكن تخطيه ما لم أُقدم على الخطوة التي خطوتُها والتي يحسن بي أن أمضي فيها دفعة واحدة. فمضيتُ إذاً في خطوتي. فلما رأت مدام دو فارانس أن جهدها قد ذهب بلا طائل، لم تواصل بذله إلى ما يحرج موقفها، بل نظرتْ إليّ نظرةَ شفقة، فقالت لي: «أيها الصغير المسكين، عليك أن تذهب إلى حيث يناديك الله، ولكن متى كبرت فلتذْكرني»؛ وأصدق الظن أنها، هي نفسها، لم يدُرْ في خلدها أن هذه النبوءة ستصدق على الوجه الأليم الذي صدقتْ فيه.

وظلت صعوبة أمري على ما هي عليه. فكيف لي، وأنا الفتى الصغير، أن أرتزق في خارج بلدي؟ لقد كنتُ أَبعدَ من أن أُتقن صنعتي، إذ تدرُّبي عليها لم يكد يجاوز منتصف الطريق. ولو أتقنتُها، لم يسعني أن أرتزق بها في سافوى لأنه بلد أَفقرُ من أن تكون فيه صناعة فنون. ثم إن القروي الخشن، الذي كان يتعشى بدلاً عنا جميعاً، اضطر أن يريح فكّيه بعض الشيء فأدلى برأي قال إنه سنح له من السماء. لكن هذا الرأي، على ما اتضح لي بعدئذٍ، إنما أتاه من الناحية المخالفة ومؤداه أن أَرحل إلى تورينو حيث تتاح لي، في

مأوًى لطالبي المعمودية، العيشةُ الزمنية والحياةُ الروحية، إلى أن أَدخل في أحضان الكنيسة فأهتدي، بإحسان النفوس الصالحة، إلى ما يلائمني. ثم أضاف صاحبنا يقول: «أما نفقات السفرة، فإنّ صاحب العظمة سيدنا المطران لن يمتنع عن تأديتها كرماً منه وإحساناً إذا اقترحتْ عليه سيدتي، هذا العمل المقدس». ثم مال الرجل إلى صحنه وقال: «كذلك فإن سيدتي البارونة، وهي من أهل الإحسان ذات فضل كبير، ستخفّ إلى المشاركة في ذلك ولا ريب».

وجدتُ جميع ضروب الإحسان هذه مؤلمة حقاً: انقبض قلبي وغلب عليّ الصمت. أما مدام دو فارانس، فلم تتلقَ المشروع بمثْل الحماسة التي عُرض بها، وإنما اكتفت بالقول إن على كل إنسان أن يشارك في عمل الخير بحسب مقدرته، وأنها ستحدّث الأسقف بشأني. لكنّ صاحبنا الخشن اللعين خشي أن يأتي حديثها طوع رغبتها، لاطوع رغبته هو، إذ كان له في تلك الصفقة منفعته الخاصة، فطار إلى الكهنة ينبئهم ويلقنهم ما ينبغي أن يقولوا. فلما أرادت مدام دو فارانس أن تكلّم الأسقف في هذا الصدد، وقد خافت عليّ من هذا السفر، وجدت المسألة قد دُبّرَتْ، إذ سلّمها الأسقف على الفور النقود التي أُجريتْ لسفرتي الصغيرة. فلم تجرؤ هي أن تلحّ عليه أن يستبقيني، لأني كنتُ أقاربُ السن التي لا تستطيع معها امرأة في سنها أن تستبقي في جوارها أحداً من الفتيان اللهم أن تُخالف أصولَ الحشمة.

أما وقد دبَّر سفري أولئك الذين اعتنوا بأمري، فقد وجب عليّ الإذعان، فأذعنتُ من دون استنكاف شديد. ولئن كانت تورينو أبعد من جنيف، فقد حسبتُ أن لها، وهي العاصمة، علاقات بأنّوسي أَوثَقَ مما لمدينة غريبة دولةً وديانةً؛ ثم إني كنت مرتحلاً إليها إطاعة لمدام دو فارانس، فاعتبرتُ أنني، وأنا هناك، ما أزال أقيم تحت

twitter @baghdad_library

إمرتها، وفي ذلك ما يزيد عن العيش بجوارها. ثم إن فكرة السفر البعيد قد أثارت شغفي الجوّال الذي ابتدأت طلائعه في الظهور. فطاب لي أن أقطع الجبال في سني تلك، وطاب لي أن أسمو فوق أترابي شأني شأن جبال الألب العالية. ثم إن في مشاهدة البلدان إغراءً قلما يستطيع أحد من أهل جنيف أن يقاومه. فوافقتُ على السفر. وكان صاحبنا القروي وزوجته على سفر بعد يومين. فوُكلتُ إليهما ووُصّيا بي خيراً. وسُلّم إليهما كيسُ نقودي وقد زادت مدام دو فارانس على ما فيه ونفحتْني، سرّاً، بمدَّخر من الدراهم يسير أضافت إليه إرشاداتٍ مسهبة؛ وارتحلنا يوم الأربعاء من أسبوع الآلام.

فلما كان غدُ يوم ارتحالي عن أنّوسي، وصل إليها أبي يتعقب أثري مع صديق له اسمه السيد ريفال، وهو ساعاتيّ مثله، فطنٌ ألمعيّ ينظم الشعر على نحوٍ أَحسن مما ينظمه لاموتّ، ويكاد يضارعه في الحديث؛ ثم هو، إلى ذلك، أديب كامل، إلا أن أدبه كان في غير موضعه فلم يؤدّ إلى نتيجةٍ، ما عدا كونه قد جعل أحد أبنائه من الممثّلين.

قابل الرجلان مدام دو فارانس واكتفيا بأن رثيا وإياها لمصيري بدل أن يلحقا بي ويدركاني إذ سهْلٌ عليهما إدراكي فهما فارسان وأنا مترجل. والأمر عينه هو ما جرى لخالي برنار حين وصل إلى كونفينيون وبلغه أنني في أنّوسي، فعاد إلى جنيف. لكأن أقاربي قد تآمروا مع طالعي [نجمي] لتسليمي إلى المصير الذي كان يترقبني. كما أن شقيقي إنما ألم به الخسران جراء هذا الإهمال، فضاع عنا تماماً حتى لم نعد البتة نعرف ما الذي حلّ به.

ولم يكن أبي رجل شرفٍ فحسب، بل كان، إلى هذا، على نزاهة لا شك فيها، ولقد أُوتي نفساً من تلك النفوس العظيمة التي تصنع الفضائلَ الكبيرة؛ وكان، فوق ذلك، أباً صالحاً، ولا سيما

معي. فأَحبّني حباً جمّاً، لكنه أَحبَّ ملذاته أيضاً، فأَخذتْ به ميول أخرى مذ أَقمتُ بعيداً عنه، وفتَر حنانُه الأبوي بعضَ الفتور. وكان قد تزوج ثانية في نيون، ولم تكن زوجته في سنّ تمكّنها من أن تهبني أخوةً، ولكن كان لها أقارب؛ وهذا ما جعل لأبي أُسرةً أخرى، وأغراضاً أخرى، وبيتاً آخر كفَّ في أحيان كثيرة عن أن يذكّر والدي بي أنا. وكان قد علت به السن وليس عنده ما يتكئ عليه في الشيخوخة. بيد أننا، أنا وشقيقي، كنا نملك مالاً ورثناه عن أمي على أن يعود دخلُه إلى أبي ما دمنا غائبَين. فلم تسنح له هذه الفكرة رأساً ولا منعتْه عن أن يؤدي واجبه، إلاّ أنها اعتملت فيه خفيةً وهو لا يشعر، فخفَّفتْ من جهده لأجلي بعض الأحيان، ولولا ذلك لبذل من المجهود فوق ما بذل. فأنظر كيف أنه، في رأيي، جاء أولاً إلى أنّوسي متعقباً أثري، ولم يتبعني إلى شامبيري وظاهر الحال أنه على يقين بأنه يستطيع أن يدركني فيها. فكنتُ إذا مضيتُ لزيارته، على ما فعلته غالب الأحيان منذ هروبي، تلقّاني بعطف الأب، لكنه لم يبذل جهداً كبيراً ليبقيني معه.

ثم إن هذا السلوك من والد اختبرتُ حنانه وفضيلته تمام الاختبار، قد أهاب بي إلى أن أقوم بتأملات في نفسي أنا بالذات ساهمت في إبقاء قلبي على نقاوته مساهمة ليست بالقليلة. فاستخرجتُ من ذلك هذه الحكمة الأخلاقية الكبيرة التي قد تكون وحدها قابلة للاستعمال في مجال الممارسة وهي أن أجتنب الوضعيات التي تجعل واجباتنا تتعارض مع مصالحنا، إذ تُرينا نفْعَنا في مضرة غيرنا، وقد أيقنّا أنه، في مثل هذه الوضعيات مهما يكن حبنا للفضيلة صادقاً، فلا بد أن يضعف، عاجلاً أو آجلاً، على غير علم منا، فنصبح في الواقع ظالمين وأشراراً، ونظلّ في قرارة النفس عادلين وخيّرين.

twitter @baghdad_library

إن هذه الحكمة الأخلاقية، التي نُقشت في أعماق قلبي والتي أُتيحَ لي العمل بها في كل سلوكي، ولو جاء متأخراً بعض الشيء، لهي من الحكم التي أظهرتْني للناس، ولا سيما عند معارفي، في أشد المظاهر غرابةً وجنوناً. فنسبوا إليّ إرادة أن أكون أصيلاً وفي أن أعمل خلافاً لما يعمل الآخرون. لكني، في الحقيقة، لم أكن أفتكر، أو أكاد، في أن أعمل لا مثل الآخرين ولا خلافاً لهم. وإنما كنتُ أرغب، صادقاً، في عمل ما هو حسن، فأتخلص ما وسعني التخلص من بعض المواقف التي تجعل مصلحتي تُضادّ مصلحة الآخرين والتي تحملني على ضرهم حملاً خفيّاً ولو عن غير قصد.

ولقد شاء مليورد المارشال[6] أن يخصني بشيء في وصيته. فعارضتُه بكل ما لي من جهد. وأفهمتُه أني لا أريد البتة أن أُذكَر في وصية أيّ إنسان كان، ولا سيما وصيّته، فأَذعنَ. وهو ينوي أن يُجري لي مرتباً على مدى الحياة، ولستُ أعارضه. قد يقال إني أرى في هذا التغيير ما هو أجزلُ لي نفعاً. ولكن إن ابتُليتُ بأن أحيا من بعدك، أنت أيها المحسن إليّ و يا أبي، أدركتُ أنني ما فقدتُك إلا فقدتُ كل شيء، وأنه لا ربح لي في ذلك أبداً.

هذه هي، في رأيي، الفلسفة الصالحة، وهي الوحيدة التي تلائم القلب الإنساني. وإني، في كل يوم أزداد اقتناعاً بعمق متانتها. ولقد قلّبتها في آخر مؤلَّفاتي على أنحاء مختلفة؛ لكن الجمهور، وهو جمهور طائش، لم يفطن لذلك. فإذا قُدّر لي، بعد أن أُكمل هذا الكتاب، أن أَحيا زمناً يكفي لأن أعمل كتاباً آخر، فإني أزمع، في مؤلَّفٍ تابع لكتاب «**إميل**»، أن أضرب مثَلاً رائعاً جداً وبليغاً جداً

---

(6) تكلم روسو على وصية ميلورد المارشال في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب - المترجم.

عن هذه الحكمة حتى يضطر القارئ إلى الانتباه إليها. ولكن كفى بمسافر مثلي تأملاً؛ فلقد حان لي أن أواصل الرحلة.

فواصلتها على نحو هو أمتع مما توقعت، ولم يكن صاحبنا القروي خشناً بقدر ما دل عليه منظره. وكان في أواسط العمر، ذا شعر طويل الخصل فاحم قد خطه الشيب، وهيئة عسكري، وصوت جهير، مع بشاشة وجه، ومشية نشيطة، وشهوة طعام أنشط، وكان يتعاطى مختلف الأعمال، إذ لم يتقن عملاً معيناً واحداً. وأظنه قد اقترح أن يؤسس في أنوسي مصنعاً لا أدري ما نوعه. فلم يفت مدام دو فارانس أن تشارك في المشروع، فشخص هو إلى تورينو، على نفقة غيره، يسعى إلى أن يظفر بموافقة الأسقف على المشروع، ولقد وهب لصاحبنا المقدرة على الدس والحيلة، فلم يفتأ يخالط الكهنة يتظاهر بإلحاح رغبته في خدمتهم، وقد أدخل في مدرستهم رطانة تديُّنيّة معيَّنة ما انفك يستغلها لأغراضه زاعماً أنه واعظ كبير. بل وكان أيضاً يحفظ من **الكتاب المقدس** فقرة باللغة اللاتينية وكأنه قد حفظ منه ألف فقرة وفقرة، لأنه يرددها ألف مرة ومرة في النهار الواحد. ثم إنّه نادراً ما كان المال يعوزه عندما يعلم أن المال أيضاً متوفر بمزود الآخرين. وإذ كان إلى الحذق أقرب منه إلى الماكر الخداع، وإذ كان يسرد عظاته الأخلاقية بنبرة داعية يطمح في الإغراء، كان أشبه ببطرس المتنسك يوم وقف يدعو إلى الحرب الصليبية وسيفه على جنبه.

أما زوجته، السيدة سابران، فامرأة طيبة، وهي في النهار أهدأ منها في الليل. وإذ كنت أرقد دائماً في غرفتهما، فكثيراً ما أيقظني أرقها بضجيجه، وربما كان يوقظني أكثر لو أني أدركت موضوعه. ولكني لم أشك فيه قط؛ وكنت، في هذا الصدد، على غباوة تركت الطبيعةَ تعتني وحدها بتلقيني.

twitter @baghdad_library

وواصلت السير فرحاً بمعية دليلي المتدين ورفيقته النابهة. لم يكدر سفري حادث كائناً ما كان: بل كنت، جسداً وروحاً، في أسعد الوضعيات التي كنت فيها طوال عمري. كنت فتياً، قوياً، وقد امتلأتُ عافيةً وثقةً بنفسي وبالآخرين. فذلك الوقت القصير، النفيس، مررت فيه بمرحلة من العمر يضاعف اكتمالها وانبساطها ما بكياننا من إحساسات، فنراهما قد خلعا على الطبيعة بأسرها سحر وجودنا. وكان لقلقي العذب موضوع هدّأ من تيهانه وثبت مخيلتي. فنظرت إلى نفسي على أنني صنيعة مدام دو فارانس وتلميذها وصديقها، وأكاد أقول عشيقها. فما حدثتني به من لطيف الكلام، وما أعربت لي عنه من تحبب وتدليل، وما أبدت لي من رقة والتفات، وما كانت عليه من ود نظرات وجدتهن ممتلئات حباً إذ ألهمتني الحب، ذلك كله قد ألهم أفكاري، وأنا في تجوالي، وحداني على أن أحلم في رغد يقظتي. لم يكن هناك من خوف البتة ولا شك البتة يحومان حول مصيري فيكدران هواجسي تلك [أحلام يقظتي]. فأن يرسَل بي إلى تورينو كان، عندي، تعهداً لي بضمان معيشتي فيها وتعهداً بعمل هناك يليق بي، فلم يبق لدي من همّ لما أنا فيه من حال، فقد تولى سواي الاعتناء بأمري. وهكذا مضيت في سبيلي خفيف الخطى، وقد تخلصت من أعبائي وشبّت فيّ الرغبات فأفعمني الأمل الفتان والخطط البراقة الخلابة. فإن كل ما ابصرت، آنئذ، قد بدا لي وكأنه يؤكد نُعْمايَ الآتية القريبة. فتخيلت ولائم ريفية تقام في البيوت، وضروبَ لعبٍ مرحةً تقام في المروج؛ وتخيلت، على طول مجاري المياه، الحمامات والنزه وصيد السمك، وتخيلت على الأشجار شهيّ الثمر، وتحت ظلالها لذيذ الخلوات، وتخيلت في الجبال أوعية الحليب والقشدة، أوقات فراغ طيبات، والسكينة، والبساطة، ولذّة الذهاب إلى حيث لا أدري. وفحوى القول إنه ما وقعت عيني على شيء إلا وحرك في قلبي شيئاً من فتنة الإمتاع. فكان من عظمة

المشهد ومن تنوعه وحق جماله ما جعل هذه الفتنة خليقة بالتصديق، حتى الغرور كان له في ذلك نصيب. فقد رأيت أن سفري إلى إيطاليا وأنا صغير، ومشاهدتي ما قد شاهدت من بلاد، واجتيازي بالجبال التي اجتاز بها هنيبعل ـ رأيت أن ذلك أجمع إنما هو مجد يفوق ما قدر لمن هو في سني. أضف توقفي عند محطات متواترة وطيبة، وازدياد شهوتي للطعام في ما يشبعها. ولكن لا داعي لانتقادها عليَّ، فإنها إذا قيست بغداء السيد سابران، لم تكن شيئاً مذكوراً.

ولست أتذكر أني بلوت، في حياتي كلها، آمادا قد خلت من همّ ومن كدر أكثر مما خلى أمد الأيام السبعة، أو الثمانية، التي قضيناها في رحلتنا تلك، لأن خطى السيد سابران، وقد وجب أن نوقع عليها خطانا، قد جعلت في رحلتنا نزهة مديدة أبقي لي تذكارها أشد الميل إلى كل ما يتصل بها، ولا سيما إلى الجبال والأسفار مشياً. فما سافرت راجلاً إلا في أهنأ أيامي إذ أنا في نعيم موصول. ثم إن الواجبات والشواغل، فضلا عن الأمتعة التي لا بد من نقلها، قد اضطرتني إلى أن أتعظّم فأركب العربات، فركبت معي مضنياتُ الهموم والحيرةُ والضيقُ، فبت إذا سافرت، لم أشعر إلا بالحاجة إلى الوصول، وكنت، من قبلُ، لا أشعر إلا بالشوق إلى الذهاب. ولقد طالما فتشت في باريس عن رفيقين يكونان على مثل هذا الميل، فيبذل كلاهما من ماله خمسين ليرة فرنسية ذهباً ومن عمره سنة واحدة فنقوم معاً بجولة حول إيطاليا لا يصحبنا فيها أحد إلا صبي يحمل وإيانا كيس المنامة. فتقدم أناس كثيرون وقد أعجبتهم هذه الخطة إعجاباً لم يتعد الظواهر، لكنهم، في أعماق نفوسهم، اعتبروا الخطة قصراً بالأندلس وهمياً يؤتى على ذكره ولا يُبتغى إدراكُه أبداً. وأتذكر أنني، ذات يوم، اندفعت أتحدث بذلك إلى ديدرو وإلى جريم فرغبتهما فيه حتى جنّحا إليه بخيالهما. فظننت مرة

twitter @baghdad_library

أنهما وافقا عليه، بيد أن الأمر اقتصر، في النهاية، على الرغبة في أن يقوما برحلة كتابية لم يجد بها جريم شيئاً أمتع من أن يحمل ديدرو على كثرة الكفر ومن أن يلقيني في محكمة التفتيش بدلاً من ديدرو.

ثم إنني قد خفَّف من أسفي على بلوغي تورينو بهذه السرعة كَوني شاهدتُ فيها مدينة كبيرة وكَوني أمّلتُ أن أغدو الشخصية التي تليق بي؛ وقد ابتدأتْ تجتاح فكري سُحبُ الطموح. فأخذتُ أنظر إلى نفسي على أنني قد أصبحتُ فوق ما كنتُ فيه أيامَ تدرُّبي على يد الصانع؛ فلم أتوقَّع أني، عما قليل، متردٍّ في ما هو أحطّ جداً من عهد التدرّب.

ولكن، قبْل أن أمضي ههنا إلى أبعد مما فعلتُ، ينبغي أن أعتذر إلى القارئ، أو أن أسوّغ له ما قد دَخلتُ فيه من دقائق التفصيلات، أو ما أنا داخل فيه من تفصيلات لا تعني القارئ البتة. وذلك أنني، في هذا العمل الذي قد اعتزمتُ فيه أن أُري الناس نفسي كلها، يجب ألاّ يُغلق عليهم شيء وألاّ يخفى عليهم شيء، وإنما يجب أن أَظل تحت أبصارهم، فيتبعوني في غوايات قلبي وخوافي سيرتي لستُ أُغيب عن أبصارهم طرفة عين؛ لأنهم إذا وقعوا في سيرتي على أضأل ثغرةٍ وأقلّ فراغ فتساءلوا أنْ ما تراه فعَلَ في تلك الأثناء، كرهتُ أن يتهموني بأني لم أشأ البوح بكل أمر؛ فأنا، في ما أروي وأُخبر، قد عرَّضتُ نفسي لمبلغ من خبث البشَر كافٍ، لكنني، صامتاً، لم أُعرّض نفسي لخبثهم بعد.

وكانت نقودي اليسيرة قد نفدتْ، إذ أَفشيتُ سرَّها فلم يكن ذاك مَخسرة لدليليّ. فقد وجدت السيدة سابران سبيلاً لكي تنزع مني حتى الشريط الفضي الذي أعطتنيه مدام دو فارانس لأجل سيفي الصغير والذي أَسفتُ عليه أكثر من أسفي على سائر الأشياء؛ ولو لم أتمسك

بالسيف، لكان هو أيضاً قد ظل في حوزتهما. ولقد كانا، في خلال السفرة، ينفقان ما أُدّيَ لهما عني إنفاقَ أمانة، لكنهما لم يُبقيا لي شيئاً. فوصلتُ إلى تورينو ليس معي ثياب ولا نقود ولا ملابس داخلية، وإنما اعتمادي على استحقاقي وحده فيستوي بي إلى شرف الثروة التي كنت أسعى إليها.

وكانت معي رسائل، فأوصلتُها؛ وما لبثتُ أن مُضي بي إلى مأوى طالبي المعمودية والهداية لكي أتعلم الديانة التي بها يبيعونني القوت. فلما بلغتُه، أبصرتُ باباً ضخماً قضبانه من حديد، فما دخلتُ حتى أُغلقَ البابُ وأُحكمَ إقفاله. فصدمتْني هذه البداية أكثر مما أَبهجتْني وهجستْ في نفسي الخواطر، وإذا بي قد أُدخلتُ حجرةً واسعة ليس بها من أثاث إلا مذبحٌ خشبٌ فوقه صليب كبير، وذلك في أقصى الحجرة، وحول المذبح أربعة مقاعد خشب، أو خمسة، بدت كأنها صُقلتْ بالشمع ولكن لم تكن تلمع إلا لفرط ما قد استُعملتْ ولفرط ما قد مُسحتْ. وكان في قاعة الاجتماع، هذه، أربعة أناس أو خمسة أناس أشرار - وهم أترابي في الدرس - بل هم بأعوان الشيطان أشبهُ منهم بالراغبين في أن يصيروا من بني الله. وكان بين هؤلاء الأوغاد رجلان إسكلافيان زعما أنهما من اليهود ومن الموريين [المغاربة]، وأقرّا بأنهما قضيا العمر يقطعان إسبانيا وإيطاليا لا يبرحان يعتنقان الديانة المسيحية ويطلبان المعمودية كلما أصابا في ذلك صفقة تستأهل الذكر. ثم أنه قد فُتح علينا بابٌ حديدٌ آخر يشطر شرفة واسعة تطلّ على ساحة البناء. فولجتْ من هذا الباب أخواتُنا طالبات الهداية وقد قُدّر لهن مثلي أن يتجددن لا بالمعمودية، بل بالارتداد عن عقيدتهن في احتفال خاص. وأَصدقُ ظني أنهن قد كنّ أقذر الداعرات وأشنع الأفاقات اللواتي لطخن أحضان الرب. ولكن أعجبتْني منهن أخت واحدة استملحتُها وألفيتُها على بعض

twitter @baghdad_library

الفهم. وكانت في مثل سني، وربما كبرتْني بسنة واحدة أو بسنتين. وكانت ذات عينين ماكرتين ربما التقتا عينيّ في أحيان، فرغبتُ في أن أتعرف إليها بعض الرغبة، ولكن، في زهاء شهرين مرّا عليها منذ وصولي إلى ذلك المأوى الذي كانت قد حلّت فيه قبْل وصولي إليه بثلاثة أشهر، لم أتمكن قط أن أدنو منها فأحادثها، ذلك لفرط ما قد وُصّي بها إلى سجّانتنا العجوز ولفرط ما قد تسلَّط عليها المرسَل القديس الذي اجتهد في هدايتها أكثر مما تعجّلَ. ولا شك أنها كانت في منتهى الغباوة، وإن لم يبدُ عليها ذلك، فلا تعليم اقتضى من طول الوقت أقصى مما اقتضاه تعليمها، ومع هذا لم يرَها الرجل القديس خليقة بأن تعتنق الدين الحقّ. لكنها ملّت المقام في المأوى، فقالت إنها تريد أن تبرحه مسيحيةً كانت أم غير مسيحية. فكان لا بد من النزول على ما أرادت ما دامت لا تزال راضية أن تكون مسيحية، خوفَ أن تتمرد وتعصي فترفض الدين.

ثم إن الطائفة الصغيرة قد جُمعتْ لمناسبة وصول القادم الجديد. فأُلقيتْ علينا عظة قصيرة حُضضْتُ فيها على أن ألبي النعمة التي أسبغها الله عليّ، ودُعي سائر المريدين إلى الصلاة من أجلي فيكوّنوا قدوةً لي صالحة. ثم عادت عذراواتنا إلى معزلهن، فاتسع لي الوقت لكي أفكر في حالي ما شئتُ التفكير.

فلما كنا من الغد، جُمعنا ثانية ليُلقى علينا الدرس؛ فأنشأتُ أفكر، أول مرة، في الخطوة التي أوشكتُ حينئذٍ أن أخطوها وفي المساعي التي ساقتني إليها.

قلتُ شيئاً ازددتُ اقتناعاً به على الأيام، وأعيدُ قوله الآن، وربما كررتُه في المستقبل: وذلك أنه إذا كان قد أُوتي أحد من الفتيان تربيةً رشيدة سليمة، فإنما أنا هو هذا الفتى. فلقد وُلدتُ في أُسرة ميَّزتْها عن سواد الشعب رفعةُ الأخلاق الجارية، فما أَخذتُ عن

أقاربي كلهم إلا دروس الحكمة وأمثلة الشرف. ولئن كان أبي أخَ لذّة، فلقد كان نزيهاً مستقيماً، وكان، إلى هذا، جمَّ التديّن. كان في دنياه كيّساً عيّوقاً، وفي أعماق نفسه مسيحيّاً حقّاً، فألهمني، منذ الصغر، المشاعرَ التي رسختْ فيه. ومن بين عمّاتي الثلاث، وكلهن حكيمات وفاضلات، كانت الكبريان، متديّنتن؛ أما عمتي الصغرى، وقد كانت آية جمال وذكاء وسلامة ذوق، فربما فاقتهما تديناً، وإن كانت دونهما ابتهاءً بتقواها. ومن أحضان هذه الأسرة الكريمة انتقلتُ إلى السيد لامبرسييه، وكان في صميم نفسه مؤمناً يُحسن الفعلَ بقدْر ما يُحسن القول، أو يكاد، مع أنه قد ارتزق من خدمة الكنيسة والوعظ. فعمل وشقيقته على تعهد مبادئ التقوى التي وجداها في قلبي، فكان عملهما عمل درايةٍ ورفْق. وكانت عُدّةُ ذينك الكريمين أسلوب تربية جد صحيح، جد فطن، جد حكيم، حتى إنني كنتُ إذا أَصغيتُ إلى بعض العظات هناك، خرجتُ من بعدها لم أضجر، بل إنها أَثّرتْ في نفسي فنويتُ أن أسلك سلوكاً جميلاً، وقلما أَخلفتُ. أما عند زوجة خالي برنار، فإن ضجري من التديّن قد ازداد بعضَ الشيء، لأنها كانت تتخذ منه حرفة لها. وأما عند معلّمي النقّاش، فلم يكد يخطر لي ذلك وإن لم يتبدّل رأيي فيه، ولا وقعتُ على شبان يفسدونني. ولئن صرت طائشاً، لم أصر زنديقاً.

وعلى هذا، فلقد أُوتيتُ من الدين أقصى ما يتهيأ لفتًى في سني. حتى إني كنت أعرفُ من الدين أضعاف ذلك؛ فلمَ أَكتمُ ههنا ما يجول بفكري؟ إن طفولتي لم تكن البتة طفولةَ طفل، إذ كنتُ، أحسّ وأفكّر بما أنا رجل. ولم أَدخل في طبقة سواد الناس إلا حين كبرتُ؛ أما يومَ وُلدتُ، فكنتُ قد خرجتُ منها. وربما ضحكتَ وقد ألفيتَني أعتبر نفسي رجلاً من خوارق الرجال، فليكن؛ ولكن، بعد أن تضحك ما طاب لك الضحك، فتشْ عن طفل قد استهوتْه

twitter @baghdad_library

الروايات وشغلتْه وأثّرتْ فيه وهو لا يزال في سنته السادسة حتى إنه ذرف الدمع السخين؛ فإن أنت وقعتَ على مثل هذا الطفل، أدركتُ أن غروري مضحك ووافقتُ أنني على خطإ.

ولما قلتُ إنه إذا شئنا أن يكون الأطفال يوماً على قسط من الدين، فقد وجب ألا نحدّثهم بشؤونه، ولما قلتُ إنه يتعذر عليهم أن يعرفوا الله ولو على الصورة التي نتمثله فيها، كنتُ قد استنبطتُ قولي مما شاهدتُ لا مما اختبرتُ، لأنني أدركتُ أن اختباري لا تصلح نتائجه لسواي، وإلا فجيئوني بأمثال جان جاك روسو إذ هو في السادسة من عمره، فحدّثوهم عن الله إذ هم في السابعة، أكفل لكم أنكم إذا أجريتم عليهم اختباري الخاص، لم تخاطروا بشيء.

وفي رأيي أن التدين عند الطفل، بل حتى عند الرجل، هو أن يتبع الإنسان الديانة التي وُلد فيها. وقد يَحذف منها، وقليلاً ما يضيف إليها، لأن الإيمان الوثوقي [الدوغماطيقي] هو من ثمر التربية. ثم إنني، في جنب هذا المبدإ العام الذي وصلني بشعيرة آبائي، قد أُوتيتُ ما أُثِرَ عن مدينتنا من كرهٍ للكثلكة إذ صوَّروها لنا على أنها وثنية مُبغَضة ووصفوا لنا رجال دينها بأحلك الألوان. فبلغ مني الشعور بذلك كل مبلغ، حتى إني، في بداية أمري، لم أَلمح كنيسةً من داخل ولا أَبصرتُ كاهناً في قميص القدّاس ولا سمعتُ جُريسات بعض المواكب الدينية إلا سرَتْ فيّ رعشةُ خوف لم تلبث أن فارقتْني في المدن، لكنها كثيراً ما عاودتني وأنا في أبرشيات الجبل لأنها تشبه الأبرشيات التي اعترتني فيها هذه الرعشة أول مرة، وإن يكن شعوري هذا يناقضه، على الأخص، تذكُري ما كان يطيب لكهنة ضواحي جنيف أن يطوّقوا به غلمان المدينة من لمسات تودُّد وتحبُّب. ولئن كانت جُريسة المناوَلة تخيفني، فقد كان جرس القداس، أو جرس صلاة الغروب، مما يذكّرني بعضَ وجبات الصبح

والعصر والزبدة الطازجة والفاكهة والألبان. كما أن غدائي الطيّب الذي أكلتُه عند السيد دوبونفير، كان قد فعل آنئذٍ فعْلَه. فطردتُ عني ذلك كله ولم أنظر في البابوية إلا على هدي ما لها من علاقات باللهو والنهَم، فألَفتُ فكرةَ الحياة في أحضانها إلفةً لا مشقة فيها؛ أما فكرة اعتناقي لعقيدتها والاحتفال بدخولي في كنيستها، فلم تعرض لي إلا خطفاً، في مستقبل متباعد. وأما في الساعة التي كنتُ فيها، فلم يبقَ في وسعي أن أخدع نفسي: فكنت، وأنا في أشدّ حالات النفور، أَرى إلى هذا الضرب من التعهد الذي أخذتُه على نفسي وأَرى إلى تبعاته التي أمسيتُ لا مفرّ لي منها. ولم يكن في مَن حولي من المرشحين الجدد للمعمودية قدوةٌ صالحة تشجعني وتقويني، ولا أمكنني أن أُخفي على نفسي أن العمل المقدس، الذي عزمتُ أن أمضي فيه، لم يكن في الواقع إلا سلوكَ أحد الأوغاد. فلقد شعرتُ، على صغر سني، بأنني أبيعُ ديانتي، كائناً ما كانت الديانة الحقّ، وشعرتُ بأنني، وإن أَحسنتُ اختياراً، فإنما أنا، في قرارة الفؤاد، أَكذب الروحَ القدس وأستأهل احتقار الناس. فما ازددتُ تفكيراً في ذلك إلا ازددتُ سخطاً على نفسي وتحسرتُ أسفاً لما صرتُ إليه كأن مصيري لم تصنعه يداي. وربما أُطبقتْ علي هذي التفكرات، حتى إني لو رأيتُ، آنئذ، باب المأوى مفتوحاً، لانطلقتُ هارباً ولا ريب، لكن لم يكن ذلك في الإمكان، ولا كان عزمي على الهرب ثابتاً ثبتاً قوياً.

فلقد قاومتْه كثرة كثيرة من الرغبات الخفيّة كانت أَشدّ من أن لا تتغلب عليه. فضلاً عن ذلك، فإن تصميمي على ألا أعود إلى جنيف، و شعوري بالخجل، ومشقّة قطع الجبال ثانية، وحيرتي لكوني بعيداً عن بلدي بلا أصدقاء، ولا موارد، كل ذلك قد تعاضدت [عناصره] لتحملني على أن أعتبر توبةً متأخرةً ما كان

twitter @baghdad_library

ضروباً من وخز الضمير، فجعلتُ أتظاهر بأني ألوم نفسي على ما قد فعلتُ، لا لسبب إلا كي ألتمس لي الأعذار عما أنا فاعله. ولقد كنتُ إذا غلوتُ في تقديري أخطاء الماضي، تطلعتُ إلى المستقبل أحسبه نتيجة لها محتومة. ولم أكن أقول لنفسي: «لم يحصل شيء بعد، فإذا شئتَ أن تعود إلى براءتك استطعتَ»، بل كنت أقول: «انتحبْ على ما قد ارتكبتَ من جرم عملت على أن تضطرّ إلى إتمامه».

وفعلاً، يا لها من قوة نفس نادرة تلك التي كنتُ أحتاج إليها في سني تلك، لكي أطرد عني الوعود التي قطعتُها والآمال التي لوَّحتُ بها، ولكي أحطّم الأغلال التي قيدتُ بها نفسي، ولكي أعلن بجرأة أنني أريد أن أبقى على ديانة آبائي مهما كانت المكاره التي قد تحدث؟ لكن من كان في سني لم يؤتَ هذه القوة، والأرجح أنها ما كانت ليحالفها التوفيق. فلقد سارت الأمور يؤمئذٍ شوطاً هو أبعد من أن يبتغي معه المرءُ تكذيبَها؛ فلو أني ازددتُ مقاومةً، لازداد الضغط لأجل التغلب عليها بوجه من الوجوه.

والسفسطة التي أودت هي سفسطة غالبية البشر الذين تعوزهم القوة فيشتكون افتقارهم إليها ولكن بَعْد فوات الأوان. فالفضيلة لا يتعسر علينا شأنها إلا لخطإ منا، ولو شئنا أن نظل على الدهر حكماء، فنادراً ما نحتاج إلى أن نكون فاضلين. لكن بعض الميول التي يسهل علينا قهرها تغرينا فتدفعنا فلا نقاوم، بل نستسلم إلى إغراءات تافهة لا نأبه بخطرها. ونتردى، على غير شعور منا، في مواقف مُهلكة كان ممكناً لنا أن نأمن شرّها بكامل اليسر؛ فصرنا لا نقدر على الإفلات منها إذا لم نبذل جهد الأبطال، فإذا بنا، آخرَ الأمر، قد سقطنا في الهاوية، فأَخذنا نسائل الله نقول: «لَم جعلتَني ضعيفاً هذا الضعف كله؟» فيجيب الله ضمائرنا، يجيبها بالرغم منا، يقول: «لقد جعلتُك أَضعف من أن تخرج من الهاوية، لأنني جعلتُك أقوى من أن تسقط فيها».

وعلى وجه التحديد، لم أبرم قراري أن أعتنق المذهب الكاثوليكي، ولكن لما وجدتُ أن الأمر ما يزال بعيداً أجله، أخذتُ أروّض نفسي عليه تدريجاً لعله يحدث شيء غير مرتقب ينجيني من ورطته، فرأيتُ أن أقاوم وأتمنع وسْعَ طاقتي كسباً مني للوقت. فلم يلبث الغرور أن أعفاني من التشبث بهذا الرأي، فما أن لحظتُ أنني ربما أَحرجتُ أولئك الذين أرادوا تعليمي، حتى حاولتُ إفحامهم والتغلب عليهم حقّاً وتماماً. فأبديتُ في ذلك من الغيرة ما يثير الهزءَ والضحك، إذ بينما هم قد عمدوا إلى التأثير فيّ، أَردتُ التأثير فيهم وظننتُ، عن طيبة قلب، أنه لا ينبغي لي إلا أن أقنعهم لكي أبعثهم على أن يصبحوا من البروتستانتيين.

لهذا لم يَلقوا عندي كل ما توقّعوا من يسر ولين، لا من حيث المعارف النيرة ولا من حيث الإرادة. والبروتستنتيون هم، على العموم، خير من الكاثوليكيين تعلّماً. والأمر يجب أن يكون هكذا، لأن العقيدة البروتستنتية تستدعي المناقشة، والعقيدة الكاثوليكية تقتضي بالخضوع. فعلى الكاثوليكي أن يعتنق القرار الذي يؤمر به، أما البروتستنتي، فعليه أن يتعلّم كيف يقرّر. ولقد عرفوا ذلك؛ لكنهم لم يتوقّعوا، لدى من كان في حالي وسني، صعاباً تشقّ على أمثالهم من المحنَّكين. ولم أكن قد تناولتُ المناوَلة الأُولى بعد ولا تلقيتُ ما يتعلّق بها من إرشادات. ولقد عرفوا ذلك أيضاً. لكنهم، في مقابله، لم يعرفوا أنني تلقيتُ عند السيد لامبرسييه تعليماً جيداً، ولا أنني، إلى ذلك، قد كان لي من قراءاتي **تاريخ الكنيسة والأمبراطورية**(7) ذخرٌ يُعنتُ أولئك السادة. ولقد كنتُ، وأنا لا أزال عند أبي، أكاد

(7) الكتاب من تأليف لوسيور - المترجم. تعليق المراجع [ع. لبيب]: Le Sueur, *l'histoire de l'église et de l'empire, Chez Cramer et Perachon, 1723.*

twitter @baghdad_library

أحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب ثم نسيتُه كله على التقريب، حتى إذا اشتدَّ الجدل عاودني ذكره من جديد.

ألقى علينا أولَ درس كاهن عجوز، صغير البنية، لكنه وقور. وكان هذا الدرس هو، عند رفقائي، درساً في التعليم المسيحي أَقرب منه إلى أن يكون جدلاً في الدين، لأنه قد وجب على الكاهن أن يعلّمهم أكثر من أن يُبطل ما به يعترضون. أما عندي، فقد كان الشأن على غير ذلك. فلما وافت نوبتي، استوقفتُ الكاهن لدى كل شيء فلم أَدَع صعوبة إلا واجهتُه بها، فطال وقتُ الدرس جدّ الطول فملّ الحاضرون. ولقد تكلّم كاهني العجوز فأسهب فاحتدم فهذرَ، ثم تخلّص بقوله إنه لا يتقن الفرنسية. فلما أصبحنا من الغد، وُضعتُ في حجرة أخرى خوفَ أن تكون اعتراضاتي الوقحة مَعثرةً لأترابي، فعُهد في أمري إلى كاهن أصغرَ سنّاً وأطلقَ لساناً، أعني أنه كان يلفّق العبارات الطوال ويعجَب بنفسه، هذا إن أُعجبَ بنفسه عالم متبحر من الأيام. لم أَنقَد لمنظره المهيب، ولكن، على كل حال، شعرتُ أني أقوم بما يجب عليّ، إذ طفقتُ أجيبه إجابة الواثق وأُمطرهُ، من هناك ومن هنا، بالحجج غايةَ وسعي. فظن أنه يقدر عليّ بالقديس أغسطينوس وبالقديس غريغوريوس وبالآباء الآخرين، لكنه دهش دهشة تفوق التصوّر إذ رآني أَعدله تمرّساً بهم، أو أكاد، لا لأني قرأتُ مؤلَّفاتهم، ولعله هو أيضاً لم يقرأها، ولكن لأني كنتُ قد حفظتُ فقرات منها كثيرة أخذتُها عن كتاب لوسيور؛ فما ذكر لي الكاهن فقرة حتى أَردّ عليه، قبل أن أناقشها، أسوق إليه فقرة أخرى للأب نفسه، فضاعفتُ إحراجي الكاهنَ معظم الأحايين. بيد أنه انتصر في النهاية، وكان لانتصاره سببان. أما أولهما، فهو أن الكاهن كان الأقوى؛ وإذ شعرتُ بأني ـ على حسب ما يقال ـ تحت رحمته، أدركتُ، مع حداثة سني، أنه لا ينبغي أن أحرج الكاهن العجوز

بعدما اتضح لي أنه لم يطمئن إلى علمي ولا إلى شخصي. وأما السبب الثاني، فهو أن الكاهن الشاب كان متعلماً وأنني لم أكن متعلماً، فأعانه ذلك على أن يحاجج بمنهج لم يسعني اتباعه، فكنتُ إذا أَحرجتُه باعتراضٍ غير منتظَر أرجأ المناقشة إلى الغد وقال إنني قد خرجتُ عن الموضوع. وكان هو، إلى ذاك، ربما رفض الأقوال التي استشهدتُ بها زاعماً أنها مزيَّفة، فعرض عليّ أن يذهب فيأتيني بالكتاب يتحدّاني أن أقع عليها فيه، شعوراً منه بأنه لا يواجه من خطر وبأنني، على رغم علمي المستعار، كنت أَقلَّ خبرة من أن أُنقب في الكتب وأقل معرفة باللاتينية من أن أهتدي إلى الفقرة في مجلد ضخم ولو قد أيقنتُ بأنها في أضعافه؛ حتى إني أذهب في ارتيابي بذلك الكاهن إلى أنه قد عمد لسوء الأمانة التي اتهَم بها القساوسَة وإلى أنه ربما لفَّق بعض الفقرات لكي يتخلص من بعض ما أَحرجتُه فيه من اعتراض.

وإن هذه المحاكمات التوافه لتستمرّ، وإن الأيام لتمرّ في المناقشة وفي الهمهمة ببعض الصلوات وفي ما لا يرجى منه شيء، إذ وقعت لي مغامرة صغيرة شنيعة تبعث بعض الإشمئزاز، فكاد يصيبني منها شر عظيم.

مهما خسّت النفسُ ومهما قسا القلب، لم يكن لهما بدّ من التعلق على نحو من الأنحاء وذلك أن أحد الوغدين اللذين زعما أنهما من الموريين [المغاربة]، قد تعلّق بي. وطاب له أن يقاربني، وأنشأ يكلّمني بلغته الفرنجية الرديئة ويؤدّي لي بعض يسير الخدمات، وربما قسم طعامه بيننا ونحن على المائدة، وكان، في الأخص، كثيراً ما يقبّلني تقبيلاً حارّاً قد أَزعجني جد الإزعاج. ولقد فزعتُ طبعاً، إذ هالني وجهُه الملوَّح الذي زينتْه ندبة طويلة، وهالتني نظراته المتأججة التي بدت إلى الهياج أقرب منها إلى الحنان، ولكن، مع

twitter @baghdad_library

ذلك، احتملتُ تقبيله إياي أقول في نفسي: «إن المسكين ليشعرُ بصداقة لي بالغة، فإنْ صددتُه أخطأتُ». ثم أخذ سلوكه معي يزداد تحرراً شيئاً فشيئاً، وجعل يسوق إليّ غرائب الأحاديث حتى ربما ظننتُه قد فقد الرشد. ثم أراد، ذات ليلة، أن يرقد معي، فأَبَيْتُ أقول إن سريري ضيّق، فألحّ علي أن أذهب إلى سريره، فأَبَيتُ أيضاً، لأن هذا الرجل اللعين كان قذراً جداً ففاحت منه رائحة التبغ ممضوغاً حتى لقد غثتْ نفسي.

فلما أصبحنا في غدنا في ساعة مبكرة، وكلانا وحدنا في قاعة الاجتماع، ارتدّ إليّ يقبّلني وقد تضاعفتْ حركاته عنفاً، فغلب عليّ الخوف. وأخيراً، أراد أن يتمادى معي درجةً فدرجةً في أشنع الدّالات [الحميميات]، فأمسك بيدي يغصبني على أن أفعل مثل الذي كان يفعل. فتفلّتُ منه خطفاً أصيحُ وأقفز إلى الوراء، ما استنكرتُ ولا غضبتُ، إذ لم يكن لديّ فكرة في ما عساه يكون الشيء، بل دهشتُ أَيَّ دهش واستغربتُ أَيَّ استغراب، فتركني الرجل عند هذا الحد. إلا أني، إذ كان يُكمل فعْله بيده، رأيتُ إلى شيءٍ لزجٍ مُبْيَضّ قد انطلق منه صوب المدفأة ثم سال على الأرض فقلب نفَسي منظرُه. فاندفعتُ إلى الشرفة وأنا على أشدّ التأثر والاضطراب والرعب فوشكتُ أن يغمى عليّ.

ولم يسعني أن أدرك ما قد اعتلج في ذلك الشقيّ، فحسبتُ أن قد انتابه صرع، أو جنون أفدحُ وطأةً. والحقّ لستُ أدري ما هو أبشع من أن يقع نظر المرء الرابط الجأش، الهادئ الطبع، على ذلك الفعل القذر القبيح وعلى ذلك الوجه الشبق المخيف الذي أضرمتْه أعنفُ الشهوات. ثم إني ما رأيتُ قطّ رجلاً آخر حاله على تلك الحال. فإن كنا، نحن الرجال، نهتاج هكذا ونحن مع النساء، فإنما علينا أن نسحر عيونهن سحراً أو ينفرن منا مشمئزات.

وما كنتُ إلى أمر أَعجلَ مني إلى أن أُخبر الجميع بما قد جرى لي. فقالت لي قيّمتنا العجوز: «اسكتْ»، ولكن رأيتُ القصة قد أَثَّرتْ فيها بالغ التأثير، وسمعتُها تدمدم تقول: «لعنة على الوحش المفترس»[8] فلما لم أفهم لماذا وجب عليّ أن أَسكت، مضيتُ أتكلم، برغم الحظر، أَروي ما جرى لي وأتحدّث به. فأتاني أحد رجال الإدارة صباح الغد، فوبخني توبيخاً واتهمني بأني أُثيرُ كثير ضجة بسبب أذى صغير وبأني أعرّض للقال والقيل شرفَ مؤسسة مقدَّسة.

ثم انطلق يقرّعني ويفسّر لي أموراً كثيرة كنتُ أجهلها؛ بيد أنه لم يصدّق أنني على جهل بها، إذ اقتنع بأني قد مانعتُ عن نفسي، لا لجهلي ما قد ابتغاه مني المغربيّ، ولكن لأني لم تكن عندي رغبة في بغيته. ثم قال لي جادّاً إن هذا الفعل محرَّم شنيع، وشأْنه كشأن الفسق، بيد أنه لا يمسّ مَن تُفعَل به الرغبة؛ وقال أيضاً إنه إذا كنتُ قد وُجدتُ أهلاً للحب، فلا داعي أن أحنق هذا الحنق كله. ثم أخبَرني، من غير لف ودوران، أنه، هو نفسه، قد حظي بمثْل هذا الشرف، إذ فوجئ مرة وهو أعجز من أن يقاوم، فلم يحسّ أن الفعل موجع جداً. ثم انتهى الرجل في قلّة حيائه إلى أن أدخل في حديثه بعض التعبيرات الخاصة الدلالة، وأكّد لي، إذ تصوَّرَ أن الخوف من الألم هو سبب ممانعتي، أكّد لي أن هذا الخوف وهمٌ يجب ألا أُذعَر منه أبداً.

فأصغيتُ إلى هذا الفاحش وقد أَخذتْ بي دهشة زادها أضعافاً كونُه لم يتحدث لأجْل نفسه، بل كان يلقي عليّ درساً لما فيه خيري. فوجدتُ درسه على بساطة لم يحاول معها أن يحدّثني سرّاً

---

(8) في الأصل بالإيطالية: Can maledet! Brutta bestia! ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ويخلو بي، وإنما كان معنا شخص ثالث هو كاهن لم ينفر أيضاً من ذلك كله. فأثَّر فيّ هذا المظهر الطبيعيّ تأثيراً شديداً حتى لقد ملتُ إلى الظن أن الأمر هو، من غير شك، عادةٌ درجتْ في عرف المجتمع ولكن لم يتسن لي أن أتلقاها قبْل ذلك الحين. فأَصغيتُ بلا غضب، ولكن في اشمئزاز. فرسختْ في حافظتي صورةُ ما جرى لي وما قد رأيتُ على الأخص، حتى إنها كلما لاحت لي، تقزَّزتْ نفسي. فأجفلتُ من الموضوع لم أَعلم منه غير ذلك، ونفرتُ ممن قد سوّغه لي، فلم أستطع السيطرة على نفسي فلا يرى ما لدرسه من سوء تأثير. فنظر إليّ الرجل نظرة لا ودّ فيها، ثم لم يألُ جهداً في أن يكّره إليّ الإقامة بالمأوى. فأفلحَ في ذاك حتى لم أَرَ لي مخرجاً إلا من طريق واحدة تعجّلتُ في سلوكها بقدْر ما كنتُ قد حدتُ عنها من قبْل.

ثم إن هذه المغامرة قد وقَى مستقبلي من أفعال فرسان الملعقة، فكنتُ إذا لقيتُ قوماً ينتسبون إليهم، تذكرتُ هيئة الموري [المغربي] المخيف وإشاراته، فاشمأزت نفسي اشمئزازاً صعبَ عليّ إخفاؤه. أما النساء فإنهن، عندي، على ضد ذلك، وقد ارتفع تقديري لهن بمناسبة هذه المقارنة، فكأنما قد وجب عليّ، لأَجْل رقة مشاعرهن وحفاوتهن بي، أن أعيضهن من إساءة الرجال إليهن، حتى إن أقبح النسوان منظراً وكأنها القردة كانت تعود في عينيّ وهي موضوع شغف وهيام لا لسبب إلا لتذكُّري ذلك الأفريقي الزيف.

ولم أدر ما الذي وجَّهوا إليه من قول، ولكن لاح لي أنهم لم يسيئوا الظن به أكثر مما فعلوا قبْلاً، حاشا السيدة لورنزة[9] إلا أنه بات لا يقاربني ولا يحدّثني على الإطلاق. فلما كنا بعد ثمانية أيام

(9) وهي قيّمة المأوى - المترجم.

عُمّد في احتفال كبير، وسُربل بالبياض من رأسه إلى الأخمصين، رمز طهارة نفسه المتجددة، وبرح المأوى في غده، فلم أره من ذلك الحين.

ثم حانت نوبتي بعد شهر واحد، وكان لا بد من هذا الوقت كله حتى يظفر رؤسائي بشرف هدايةِ صعبة عصية، فأطلعوني على العقائد بأسرها لكي ينتصروا على وداعتي الحديثة العهد.

فلما وجد أساتذتي أني قد أَصبتُ من تعليمهم قدْراً كافياً وتهيأتُ لما يرضون عنه، سيرَ بي في موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنا الأبرشية لأعلن إنكاري مذهبي وأتلقى مستلزمات التعميد، لكنهم في الواقع لم يعمّدوني[10]، فالطقوس هي هي على التقريب، وإنما المقصود إيهام الشعب أن البروتستنت ليسوا مسيحيين. كنت يؤمئذٍ لابساً بعضَ الثياب الرمادية اللون وقد أُعدَّت لمثْل تلك المناسبات. فمشى رجلان، أحدهما خلفي والآخر قدامي، وكل منهما قد حمل كفّة نحاس يضربها بمفتاح، فيُلقي فيهما كل واحد من الحاضرين ما يتصدق به ورعاً منه أو عنايةً بالمهتدي الجديد. وفحوى القول إنهم لم يُغفلوا من الأبهة الكاثوليكية شيئاً يكون معه الاحتفال أَعظمَ وقعاً في الجمهور وأشدَّ إذلالاً لي. ولم يبقَ إلا أن يُلبسوني الثياب البيض التي كان يصير إليّ منها نفع جزيل، لكنهم لم يخلعوها عليّ كما فعلوا بالمغربي، إذ لم أتشرف بأن أكون يهودياً.

وليس هذا كل ما في الأمر. وإنما وجب عليّ أن أَمثل أمام محكمة التفتيش، فيغفَر لي جرمُ الهرطقة وأُدخَل في أحضان الكنيسة بمثْل الاحتفال الذي أُخضعَ له الملك هنري الرابع في شخص

(10) يريد أنه عُمّد في صغره - المترجم.

twitter @baghdad_library

سفيره، ولم تكن هيئة الكاهن المفتش ولا أسباب سلوكه لتبدّد الرعب الخفيّ الذي تملّكني يوم ولجتُ ذلك البيت. فألقى عليّ الكاهن عدة أسئلة تدور على إيماني وحالتي وأُسرتي، ثم سألني بغتةً أهالكَةٌ أُمي. فحملني الخوف أن أَكبت بادرة غيظي، فاكتفيتُ بالقول إنني أريد وأرجو ألا تكون هالكة وإن الله قد استطاع أن يهديها، في آخر ساعة لها، إلى السبيل المستقيم، فسكتَ الكاهن، بيد أن تصعَّرَ تصعيراً دلّني على أنه لم يوافق قط.

فلما تمّ ذلك كله وتوقَّعتُ أن يوفِّر لي، في آخر الأمر، ما يحقق آمالي، أخرجوني من المأوى بعد أن زوّدوني ما يربي على عشرين فرنكاً من القطع الصغيرة وهي حصيلة ما جُمع لي من صدقات. ولم يَفُتْهم أن يوصوني بأن أحيا حياة المسيحيّ الصالح، وأن أكون وفيّاً للنعمة، وتمنّوا لي التوفيق، ثم أغلقوا الباب، وغاب كل شيء.

وهكذا، تلاشت، في لحظة واحدة، كل آمالي الكبار، ولم يبقَ من الخطوة النفعية التي خطوتُ إلا ذكرى بأني كنتُ مارقاً ومغفّلاً في آنٍ واحد. ويسهل تصوُّر الثورة المفاجئة التي شبّت في آرائي إذ ألفيتُني قد هويتُ من برج أحلام الثروة إلى أحط دركات البؤس، وإذ ألفيتُني، عند المساء، وقد اضطررتُ أن أرقد على الطريق بعدما كنتُ، في الصباح، أفكر في أيّ قصر أختار لي مسكناً. وقد يُظَنّ أني أنقدتُ ليأس يزيده وطأةً ندمي على ما سلف من أخطائي ومن لومي نفسي على ما قد أشقيتُها فيه. ولكن لم يَحدث من ذلك شيء. وكنتُ قد مكثتُ، أول مرة في العمر، ما يرجو على الشهرين وأنا في مثل المحبس، فما خرجتُ حتى تملّكني الشعور بالحرية التي استرجعتُها، فعدتُ، بعد طول استعباد، سيّد نفسي وسلوكي. ورأيتُني بمدينة كبيرة، خصبة الموارد، مليئة بذوي المنزلة ممن كان لا بد لمواهبي وجدارتي أن تفسح لي في رحبهم لحظةَ يتصل بهم أمري.

وكان أمامي، فضلاً عن ذلك، سعةُ وقتٍ، ورأيتُ في العشرين فرنكاً التي في جيبي مورداً لا ينضب. وكنت أستطيع أن أتصرف فيها على هواي، ليس ينبغي لي أن أؤدّي لأحد حساباً. تلك أول مرة وجدتُني فيها على هذا القدْر من اليسر والغنى. فلم استسلم إلى الخيبة والدموع؛ وكل ما أَتيتُ هو أني أَبدلتُ بآمالي آمالاً غيرَها، فلم تفقد كرامتي شيئاً. فما شعرتُ قط بمثْل ما شعرتُ به إذاك من ثقة ويقين، وغلب عليّ الاعتقاد، بعدُ، أن ثروتي قد صُنعت. وطاب لي أني لستُ مديناً بها لأحد سواي.

فكان أول ما فعلتُ هو أني أَرضيتُ فضولي أُطوّف بالمدينة كلها، وإن لم يكن ذلك إلا تأدية مني لعمل من أعمالي الحرة. فمضيتُ أشاهد الجند قد قاموا على الحراسة وأشاهد الأسلحة واللوازم العسكرية التي راقتني كثيراً. وسرتُ في بعض المواكب؛ وكانت تحلو لي تراتيل الكهنة؛ ومضيتُ أشاهد قصر الملك، فدنوتُ منه في خشية، فلما أبصرتُ غيري من الناس يدخلون، دخلتُ، فلم يعترض دوني أحد. ولعلي بهذه الحظوة مدين للرزمة الصغيرة التي كنتُ أتأبطها. ومهما يكن من أمري، فقد عظم ظني بنفسي إذ ألفيتُني بذلك القصر؛ وما لبثتُ أن خلتُني أحد المقيمين به، أو أكاد أكون. ولكن لفرط ما قد مضيتُ في ذهاب وإياب، تعبتُ في آخر الحال وجعتُ؛ وكان الجو حارّاً، فدخلتُ حانوت بائعة ألبان، فاشتريتُ جيانسة وهي ضرب من اللبن الرائب وقطعتين من خبز بيامونت الممتاز الذي أُفضّله على سائر ألوان الخبز. فتناولتُ بخمسة دراهم، أو ستة، غداءً هو في أطيب ما أكلتُ طول عمري.

ولقد كان لا بد من التفتيش عن مَبيت. وكنتُ قد أَلممتُ من اللغة البيامونتيه بما مكنني من التفاهم، فلم يصعب عليّ أن أهتدي إلى مبيت، فاحتطت للأمر فاخترتُ واحداً منها على قدْر مالي، لا

twitter @baghdad_library

على حسب ذوقي. وذلك أنه قيل لي إن زوجة أحد الجنود، وهي تقيم في شارع بو، تؤوي بعضَ الخَدم المتعطلين. فأَصبتُ لديها فراشاً حقيراً ليس به أحد، فرقدتُ فيه. وكانت هي شابة حديثة العهد بالزواج، وإن تكن قد رُزقتْ خمسة أطفال أو ستة. فنمنا جميعنا، الأم والأطفال والنزلاء، في حجرة واحدة. ودام الحال على هذا النحو ما أَقمتُ عندها. وكانت، إلى ذلك، امرأةً طيّبة تحلف وتجدّف كأيّ حوذيّ كان، ولا تني مهمَلة الهيئة، غير مسرَّحة الشعر، بيد أنها رقيقة الفؤاد، حفيّة، فصادقتْني، بل ونفعتْني.

وقضيتُ عدة أيام لست أمارس إلاّ لذة الاستقلال والفضول، أطوف في داخل المدينة وخارجها، فاحصاً، زائراً ما يبدو لي أنه غريب وجديد؛ وكان كل شيء هكذا في نظر شاب قد خرج من عشه ولم يرَ من قبْل عاصمة قط. وكنتُ، في الأخص، مواظباً جداً على زيارة القصر أَحضرُ قداس الملك في كل صباح. فطاب لي أن أكون أنا وذلك الأمير وحاشيته في كنيسة واحدة؛ إلا أنه كان لولعي بالموسيقى، وقد أخذ يتبدى، فضلٌ في انتظام حضوري هناك أكثر مما كان لأبهة البلاط من فضل، وهي التي ما يشهدها الإنسان فيتكرر عليه منظرها حتى لا يبقى لها من طول تأثير.

وكان ملك سردينيا عنده، يؤمئذٍ، أَحسن فرقة سيمفونية في أوروبا يتألق بها على التوالي سوميس وديجاردان وبيزّوزي. ولم يكن من حاجة إلى كل ذلك لاستهواء شاب تأخذه نشوة الاستماع لأقل آلة موسيقية شريطة أن يكون العزف صحيحاً. ثم إن إعجابي بالأبهة التي شدهتْني ليس له فحوى ولا فيه طمع. وكل ما عناني من أبهة البلاط بأسرها هو أن أرى هل من أميرة شابة تستحق إكرامي ويمكن أن تكون لي موضوع رواية.

ولقد أوشكتُ، وأنا في حال أقلّ توفيقاً، أن أشرع في تأليف

رواية لو أتممتُها، لأَصبتُ من اللذات ما هو أمتع من تلك أضعافاً وأضعافاً.

ولئن عشتُ يومئذٍ على تقتير شديد في النفقة، فلقد أخذ كيسُ نقودي يخلو تدريجاً. وما اقتصدتُ عن احتراس، بل عن بساطة ميل لم يغيّره، حتى في يومي هذا، ما قد أَلفتُ من كبريات الموائد الفخمة. فما عرفتُ ولستُ أعرف إلى اليوم طعاماً أطيب من طعام الريف. فمن وفَّر لي شيئاً من لبن وبيض وخضرة وجبن وخبز أسمر ونبيذ سائغ، فقد وفَّر لي ما يحلو لنفسي، على أن تتولى الباقي شهيتي. أما أن يحفّ بي رئيس خدم وأعوانه، فلن يشبعني مظهرهم المزعج. ولقد أَكلتُ، وقتئذٍ، بما ثمنه ستة أفلس أو سبعة طعاماً هو أطيب جداً مما أكلتُ بعدئذٍ بما ثمنه ستة فرنكات أو سبعة. فلقد كنتُ في الأكل متقشفا قنوعا [معتدلا] لأني لم أُغْرَ بأن أكون على غير ذلك؛ بل إني أأخطأت إذْ سميت ذلك قناعة [اعتدالا] لأني أَشبعتُ فيه كل ما كان عندي من شهوة طعام. فكانت الكمثرى ولبن جيانسة والجبن والخضرة، مع بعض الكؤوس من مزيج خمرة مونتفيرّا، تُصيّرني أسعد النهمين. ولكن هذا كله لم يحجب عني أن ليراتي العشرين هي إلى نفاد، فازددتُ شعوراً بذلك يوماً بعد يوم، حتى انتهى قلقي من المستقبل إلى مهاوي الذعر، مع ما كنتُ فيه من طيش سنّي تلك. فلم يبقَ عندي من جميع قصوري الوهمية إلا أن أطلب ما أرتزق به، ولم يكن هذا يسيرَ الإدراك. فطففتُ أفكر في صنعتي القديمة، غير أني لم أتقنها إتقاناً يكفي لأن أذهب إلى معلّم ما فأعمل عنده، ولا كان في تورينو كثير من المعلّمين. فجعلتُ أنتظر ما هو أَحسن، أتنقل من حانوت إلى حانوت، أعرض أن أنقش بعض الأرقام أو الشعارات على بعض آنية الطعام والصحون، آمل أن أُغري الناس بالسعر الرخيص، أضع نفسي على النحو الذي يريدون.

twitter @baghdad_library

فلم تلقَ هذه الوسيلة جمَّ توفيق، بل قوبلتُ فيها بالطرد مهما كان الباب الذي أطرقه تقريباً، فضلاً عن أن ما أَصبتُ من الشغل كان ضئيلاً جداً حتى لم أحصل به إلا على بضع وجبات. ولكني لما مررتُ يوماً بكونترا نوفا، والساعةُ مبكرة، وقعتْ عيني، من خلال نوافذ أحد الحوانيت، على بائعة شابة ذات منظر جميل جذّاب، حتى إني، برغم خجلي من النسوان، دخلتُ الحانوت لم أتردد، فعرضتُ عليها موهبتي الصغيرة. فلم تصدّني، بل دعتني إلى أن أقعد فأروي لها قصتي، فرثَتْ لحالي وشجّعتْني وقالت لي إن المسيحيين الخيّرين لن يتركوني؛ وبينما هي قد أُرسلتْ إلى صائغ مجاور تستحضر الأدوات التي قلتُ إني في حاجة إليها، إذ صعدتْ إلى المطبخ فحملتْ لي هي بنفسها شيئاً من طعام الصباح. فتوسمتُ في ذلك بدايةً سعيدة لم تكذّبها الأيام الآتية. فلقد بدت المرأة راضية عما قمتُ به من شغل بسيط، وبدت أَشدَّ رضًى عن ثرثرتي إذ قلّ ارتباكي واطمأننتُ بعض الشيء؛ وذلك أنها كانت امرأة ذكية أنيقة، فهبْتُ منظرَها، مع ما هي عليه من رشاقة وإيناس. بيد أن استقبالها الذي أَفعمتْه الطيبةُ، وصوتَها الشفيق، وأخلاقها الوديعة اللطيفة لم تلبث كلها أن أشاعت الراحةَ في نفسي. فرأيتُني قد وُفّقتُ، فازددتُ توفيقاً. ومع أن المرأة كانت إيطاليا وأَجملَ من أَن لا تتغنج بعض الغنج، فلقد تواضعتْ جداً واستحييت جداً، حتى صعب أن يتمّ بيننا، في أجل قريب، أمرٌ غير الذي كان. كما أنه لم يُفسَح لنا في الوقت فنكمل المغامَرة. ولست أذكر اللحظات التي قضيتُ في جوارها إلا أحسستُ بفائق نشوة وسحْر، حتى لأستطيع القول إني ذقت أحلى لذّات الحب وأصفاهن إذ هن بعد في البواكير.

كانت هي سمراء في غاية الفتون، يزيد رشاقَتها تأثيراً ما على وجهها المشرق من مخايل الطيبة. وكان اسمها السيدة بازيل. كان

زوجها، وهو أكبر منها سناً، يغار عليها بعض الغيرة، فإذا سافر وكلَ حراستَها إلى كاتب عنده هو أَشدُّ عبوساً من أن يكون ذا إغراء، لكنه، مع ذلك، لم يزل يطمع فيها لا يكاد يعبّر لها عن ميله إليها إلا بسوء طبعه. فصبّ عليّ من سوء طبعه، هذا، الأمرَ الكثير، مع أني قد حلا لي أن أستمع إليه ينفخ بالناي على نحو كافٍ من البراعة. وكان إجيست[11] الجديدُ هذا، كلما رآني قد دخلتُ على سيدته، شبَّ يدمدم؛ وكان يعاملني باحتقار قد أَحسنتْ هي الرد عليه، إذ ربما راقها أن تلاطفني في حضوره كيما تعذبه. ولو أن هذا التشفي الذي طاب لي أمرُه قد جرى وأنا وحدي معها، لكان أَمرُه يطيب لي أضعافاً. إلا أنها لم تتمادَ في التشفي إلى هذا الحد، أو هي، في الأقل، لم تتمادَ على هذا النحو، فأبدت لي وجهاً من التحفظ مستحبّاً، لكنه أخجلني لم أدر له من سبب؛ فإما أن تكون أَلفتْني صغيرَ السن جداً، وإما أن تكون لم تعرف كيف تمهد لي السبيل، وإما أن تكون أرادت حقّاً أن تُحْسن السلوك. ولئن كنتُ لم أشعر حيالها بما قد شعرتُ به تُجاه السيدة دو فارانس من احترام صادقٍ وعطوف، فلقد كنتُ أَوفر تهيّباً لها وأقلّ تحرراً وأنا معها، فارتبكتُ وارتعدتُ لم أجرؤ على النظر إليها ولا على التنفس بالقرب منها، ولكن، مع ذلك، خفتُ النأْيَ عنها أكثر مما أتخوف الموت. وكنتُ أَلتهم بعين شرهة كل ما تهيّأَ لي أن أرى فيها من دون أن يراني أحد: كنتُ أَلتهم أزهار فستانها، وطرف قدمها الجميلة، وما بين كمّ فستانها وقفازها من فرجة ذراعها المكتنزة البيضاء، أو ما قد ينكشف منها عند النحر، بين منديلها والعنق. فكان كل شيء فيها يقوّي الانطباعات التي أثارتها الأشياء الأخرى. وكانت عيناي

---

(11) إجيست شخص ميثولوجي فتن كليتمنسترة وقتل زوجَها أجاممنون. ثم إن أورست، وهو ابن أجاممنون. قتل إجيست انتقاماً لأبيه - المترجم.

twitter @baghdad_library

تضطربان من فرط النظر إلى ما لا يسعني رؤيته وإلى ما تحته، فيضيق صدري حتى يكاد يعييني التنفس، فلا أملك إلا أن أزفر زفرات صامتات كن يحرجنني أيَّ إحراج وسط السكوت المطبق الذي كثيراً ما وجدْنا أنفسنا فيه. ولقد بدا لي في حُسن الحظ أن السيدة بازيل لم تكن لتنتبه إلى ذلك وقد شُغلتْ عنه بالتطريز. على أنني ربما رأيتُ إلى صدر فستانها، في بعض المرّات، وقد خفق ميلاً إليّ وحناناً. فما كان من هذا المنظر الشديد الخطَر إلا أن أَجهز على ما بي من رشد؛ ولكن ما أكاد أتأهبُ انقياداً لما أنا به من انفعال حتى توجّه إليّ كلاماً هادئ الصوت يردّني إلى نفسي على الفور.

ولقد أبصرتُها مراراً وهي وحدها على هذا الحال، ليس بيننا من كلمة، ولا من إشارة، ولا حتى من نظرة صارخة التعبير تدلّ على شيء من التفاهم. ولئن قاسيتُ آنئذٍ مرارة العذاب، لقد كنتُ أشعر بغبطة أكاد، لسذاجة قلبي، لا أدري لمَ أنا معذَّب كل هذا العذاب، وتبيَّن لي أن خلواتنا القصيرة لسن عندها موضع استهجان، إذ كثيراً ما أتاحت لهن المجال فيتكررن، وهذا جهدٌ في غير طائل ما دام ذاك هو سلوكها معي وسلوكي معها.

ثم إنها ضاقت، يوماً، بحديث الكاتب السخيفة، فصعدتْ إلى حجرتها، فأَسرعتُ أنا، وكنت في غرفة بمؤخرة الحانوت أُنهي شغلاً يسيراً كان في يدي، ثم تبعتُها. وكانت حجرتها لم يُغلَق بابُها على التمام، فدخلتُ لم يلمحني أحد. وكانت تطرّز قريباً من بعض النوافذ ووجهها إلى الحجرة التي تقابل الباب. فلم يسعها أن تراني أدخل، ولا أن تسمع حركة دخولي، وذلك بسبب صوت العربات في الطريق. وكانت هي تحسن التزيّن على الدوام، وزيْنتها يؤمئذٍ قد قاربت التأنق، وهيئتُها فاتنة، ورأسها قد انحنى قليلاً فكشف عن

بياض عنقها، وشعرُها قد صُفِّف برشاقة وازدان بالزهر. وكان عليها كلها جمعاء سحرٌ اتسع لي الوقت فتأملتُه فطربتُ، فارتميتُ عند مدخل الباب راكعاً، أَبسطُ ذراعيّ نحوها بإرشادات هيام، وأُوقنُ أنه لم يكن في إمكانها أن تسمعني، ولم يدُرْ في خلدي أنه أمكنها أن تراني، إذ كان على المدفأة مرآة فضحتْني. ولستُ أدري ما أحدثَ اندفاعي من تأثير فيها، فإنها لم تنظر إليّ حينئذٍ قط، بل التفتتْ نحوي قليلاً وأومأتْ بإصبعها إيماءةً يسيرة وأرتني الحصيرة عند قدميها. فأن أرتجف، وأَصرخ، وأرتمي حيث أومأتْ، فذلك إن هو إلا فعْل لحظة؛ لكن ما يصعب تصديقه هو أني لم أجرؤ على أن أقول لها حرفاً واحداً، ولا أن أرفع عينيّ صوبها، ولا حتى أن ألمسها أستند إلى ركبتيها وأنا في ذلك الوضع غير المريح. كنتُ صامتاً جامداً، بيد أني لم أكن هادئاً قط، بل كلُّ أمرٍ قد دلّ على انفعالي وفرحي وعرفاني الجميل وعلى رغباتي الجامحة التي لم تستقر على قصد معيَّن والتي كبتَها خوفي ألاّ أعجب تلك السيدة، وهو خوف لم يسع قلبي الفتيّ أن يطمئن إليه.

ولاح لي أنها لم تكن دوني تأثّراً وحياءً. فلقد اضطربتْ إذ أبصرتْني في حجرتها، وذهلتْ لأنها اجتذبتْني إلى هناك وابتدأتْ تدرك مغبة الإيماءة التي فرطتْ منها ولا ريب، فما رحّبتْ بي، وما صدّتني، ولا رفعتْ عينيها عن التطريز، بل حاولتْ أن تظهر كأنما هي لم تَرني عند قدميها. لكنني، مع غباوتي كلها، فهمتُ أنها قد قاسمتْني الارتباك وأنها ربما قاسمتْني الرغبات، وأنه قد حبسها عني ما قد حبسني عنها من حياء لم أُجسر أن أتغلب عليه. ثم وجدتُ أنه كان حقيقاً بها، وهي تكبرني بخمس سنوات أو ست، أن تستأثر بالجرأة دوني، وقلتُ في نفسي: «ما دامت لم تأت شيئاً يستحث جرأتي، فهي لا تريدني أن أكون على شيء من الجرأة». وما أزال

twitter @baghdad_library

أستصوب هذا القول، ولا شك في أنها كانت أذكى من أن لا يغيب عنها أن فتًى غرّاً مثلي لا يفتقر إلى التشجيع فحسب، بل إلى التعليم أيضاً.

ولو لم تُقطع علينا خلوتُنا، لم أدر كيف كان انتهى هذا المشهد ذو الحركة النشيطة والصامت، ولا كم كنتُ لبثتُ جامداً في وضعي المضحك واللذيذ. فبينما أنا في أقصى انفعال، إذ سمعتُ باب المطبخ الذي يلاصق الحجرة التي كنا فيها قد فُتح، فذُعرت السيدة بازيل، فقالت لي بالصوت والإشارة معاً: «انهض فها إن روزينة مقبلة»، فأَمسكتُ بيدها وأنا أنهض في عجل فطبعتُ عليها بَوستين محرقتين أَحسستُ عند ثانيتهما أن اليد الفاتنة تضغط شفتيّ ضغطاً رفيقاً. فما استمتعتُ يوماً بهنيهة أعذب من تلك الهنيهة؛ على أن الفرصة، التي فقدتُها، لم تسنح مرة ثانية قط، فعند هذا الحد وقف غرامنا الناشئ.

ولعل هذا هو السبب في أن تلك المرأة اللطيفة قد ظلّت صورتُها مطبوعة في صميم قلبي على هذا النحو الفتّان. حتى إن صورتها قد ازدادت جمالاً ما ازددتُ معرفةً بالدنيا وبالنساء. ولو أُوتيت السيدة بازيل اختباراً قليلاً، لكان سلوكها معي على غير ما فعلتْ لتُلهبَ فتًى نظيري. ولئن كان قلبها ضعيفاً، فلقد كان نزيهاً؛ وكانت تنقاد، لاإرادياً، للميل الذي يأخذ بها. وكانت تلك خيانتها الأولى، على ما دلّت عليه المظاهر، ولربما جهدتْ في التغلب على حيائها فوق ما جهدتُ لأتغلب على حيائي. ولكني لم أتجشّم هذا الجهد لأني، وأنا معها، قد تذوقتُ من ألوان العذوبة والرقة والمؤانسة ما لا يُستطاع الإفصاحُ عنه. وليس من شيء، إذ النسوان طوع يديّ، يعدل الدقيقتين اللتين قضيتُهما عند قدمي تلك السيدة، مع أني لم أجسر حتى على أن ألمس فستانها. كلا، فليس هناك البتة من مُتَع تضاهي ما توفّره إمرأة شريفة نحبها، إذ كل ما بجوارها فيه

حظوتنا. ولقد كان كل ما أَصبتُ من السيدة بازيل إيماءةً بإصبعها يسيرة، ويداً التصقتْ راحتُها بشفتيّ قليلاً، فما تزال ذكرى ما أَصبتُ، على بساطتها، تهزّني كلما فكرتُ فيها.

فلما كنتُ في اليومين التاليين، جعلتُ أتحين السانحة فنختلي مرةً ثانية، لكنني لم أُوَفَّق ولا وجدتُ عندها اهتماماً بأن تتيح لي المجال. فعاد مسلكها أَكثر تحفظاً، لا أَكثر فتوراً، وإخالها قد تجنبتْ نظراتي خوف ألا تتمكن من أن تسيطر على نظراتها حقَّ السيطرة. وبات كاتبها اللعين أَشدَّ تكديراً منه في أيّ وقت مضى، حتى إنه غدا يهزأ عابثاً، وقال لي إنني سأُوفَّق مع النسوان. وكنتُ أرتعد مخافةَ أن أكون قد أَفشيتُ بعض الأسرار، ونظرتُ إلى نفسي على أني قد تواطأتُ والسيدة بازيل، فشئتُ أن أخلعَ ستاراً من الكتمان على ميل لي لم يكن به، إلى ذلك الوقت، مسُّ حاجة إلى كتمان. فازددتُ حذراً من تحيّني الفرص التي تلائم ميلي ذاك، فأخطأتها كلها لفرط ما قد حرصتُ على أن أضمن حيازتها جمعاء.

تلك هي حماقة خيالية أخرى لم أستطع قط أن أبرأ منها، حتى إذا أضيفت إلى حيائي الطبيعي، كذَّبتْ نبوءات الكاتب أيّ تكذيب. ولقد كان حُبّي أخلص وأكمل ـ إن جاز القول ـ من أن أسعد فيه وأرتاح. فلا هوى كان أقوى من هواي وأصفى، ولا حُبَّ فوق حُبّي حناناً وصدقاً وتنزهاً عن المنفعة. ولقد كنتُ أُضحّي بسعادتي، على الدوام لأجْل سعادة من أُحبّها، لأن صيتها هو، عندي، أعز من الحياة. ولو وُهبتْ لي لذائذ المتعة كلها، لم أعرّض راحتها للقلق طرفة عين. فحداني ذلك على أن أعنى بمغامَراتي أحيطها بضروب العناية والكتمان والاحتراز حتى إنه لم يقدَّر لمغامَرة منها قط النجاح والتوفيق، وإن ما لقيتُ من ضآلة التوفيق عند النساء يرجع سببه إلى فرط حُبّي لهن.

twitter @baghdad_library

فإن عدنا إلى إجيست النافخ بالناي، فآية هذا الخائن هي أنه كان كلما ازداد ثقلاً فأمسى لا يُحتمَل، ازداد تودداً وملاطفة. ولقد خطر لحرمه منذ اليوم الأول الذي مالت فيه إليّ أن تتيح لي عملاً يُنتفَع به في الحانوت. وكنتُ أُجيدُ الحساب بعض الإجادة، فاقترحتْ على الكاتب أن يعلّمني مسك الدفاتر التجارية، فتلقّى ذلك الغليظ اقتراحها بأسوإ ما يكون، وربما تخوف أن أحلّ محلّه. فاقتصر عملي، بعد صناعة النقش، على أن أنقل بعض الحسابات والبيانات، وعلى أن أبيّض بعض الدفاتر، وعلى أن أترجم بعض الرسائل التجارية أنقلها من الإيطالية إلى الفرنسية. لكن الرجل عاد بغتة إلى الاقتراح الذي سبق أن عُرض عليه والذي كان قد رفَضه، فقال إنه سيعلّمني الحساب الثنائي المضاعَف، وإنه يرغب في أن يؤهّلني لخدمة السيد بازيل بعد رجوعه من السفر. فبدا على قوله وهيئته شيء من الكذب والخبث والتهكم لا أدري ما هو ولم يوح إليّ الثقة والاطمئنان. فلم تنتظر السيدة بازيل ريثما أجيبه، بل بادرتْه بجفاء، وقالت إنني شاكر له ما عرض وإنها تأمل أن يكافئ التوفيقُ، آخر الأمر، ما أنا عليه من استحقاق، وإنما هو غبنٌ أن أصبح مستخدماً تجارياً لا غير وأنا على ما أنا فيه من الفطنة والذكاء.

ولقد قالت لي مراراً إنها تريد أن تعرّفني إلى مَن لعله يفيدني؛ إذ كانت من الحكمة لتستشعر أن الوقت قد حان لكي أنفصل عنها. وكانت ساعةُ بوحنا الصامت قد جرت يوم الخميس. فلما وافى يومُ الأحد، أَولمتْ غداءً حضرتُه وحضره راهب من اليعقوبيين[12] حَسن الهيئة، فعرّفتْني إليه. فتودد إليّ وهنأني بتجددي واهتدائي وذكر لي

(12) اليعقوبيون (Les Jacobins) اسم كان يُطلَق، في فرنسا، على كهنة الرهبنة الدومينيقية، إذ أَولُ دير لهم كان مقرّه في شارع سان جاك في باريس - المترجم.

في شأني عدة أمور أنبأتني بأنه قد أُطلعَ على قصتي إطلاعاً مفصَّلاً، ثم مال إليّ بظهر كفّه تحبباً فصفعني على خدّي مرتين صفعاً رفيقاً وهو يقول لي لأكن جميل السلوك، مطيعاً، وأتشجع، وأذهب إليه فأقابله فيتسنى لنا مجال للتحادث أَوسع. فأَدركتُ أن الرجل ذو مكانة، للمراعاة التي أَعرب له عنها الجميع، وأدركتُ أنه معرّفُ السيدة بازيل، للطريقة الأبوية التي كلّمها بها. وأذكر أن دالّته المحتشمة قد خالطها علاماتُ قذرٍ للسيدة بازيل وآياتُ احترام لم تؤثّر فيّ يؤمئذٍ كما عادت تؤثّر فيّ اليوم. ولو رُزقتُ قسطاً من الذكاء أَوفر، لتأثّرتُ بادئ بدء أيَّ تأثر لأني استطعتُ أن أؤثّر في امرأة شابة لها عند معرّفها القذْر والاحترام!

لم تتسع المائدة لجميع المدعوين، فأُتي بمائدة صغيرة تمتعتُ فيها بالسيد الكاتب فكنّا، أنا وهو، وحدنا وجهاً إلى وجه. ولم أُحرَم شيئاً من العناية والطيّبات، فقد أُرسلَ إلى المائدة الصغيرة ببعض الألوان التي، يقيناً، لم يكن هو المقصود بها. وجرى كل حال إلى تلك الساعة على خير ما يرام. فالنساء في مرح، والرجل لطفٌ وإيناس، والسيدة بازيل تحتفي بضيوفها في رشاقة فاتنة. وبينما نحن في وسط الغداء، إذ سمعنا عربة تتوقف عند الباب. وصعد رجل، فإذا نحن بالسيد بازيل. وإني لأراه الآن كأنه يدخل، وعليه ثياب قرمزية اللون، مذهّبة الأزرار، وهو لون قد كرهتُه من ذلك الحين. كان السيد بازيل عاليةً قمّتُه، بهيّةً طلْعته، حسناً مَظهره. فدخل يضجّ وكأنه يفاجئ القومَ، وإن لم يكن بينهم إلا أصدقاء له. نهضتْ زوجته وعانقتْه وأَخذته بكلتا يديه تستقبله بألوان من الملاطفة تلقّاها فلم يقابلها بالمثْل. ثم حيّا المدعوين، وقُدّم إليه الطعام، فأكل فما أن ابتدأ الحديثُ يدور على سفره حتى نظر إلى المائدة، فسأل بنبرة قاسية أنْ من هذا الصُبيّ ههنا، فأنبأتْه السيدة بازيل بخبري في غاية

twitter @baghdad_library

السذاجة. فسأل أفي المنزل أَبيتُ. فقيل له لا، فقال بخشونة: «ولمَ لا؟ بوسعه أن يبقى هنا في الليل ما دام هو هنا طول النهار». فهبَّ الراهب يتكلم، فأثنى على السيدة بازيل ثناءً رصيناً صادقاً. ثم أثنى عليّ في قول وجيز، وأضاف إلى ذلك قوله إنه كان أخلق بالسيد بازيل أن يشارك زوجته في التقوى والإحسان بدل أن يُقبل عليها باللوم، إذ الأمر ليس فيه ما يتعدّى حدود الحشمة. فردّ الزوج بنبرة غضب كظم بعضاً منه مراعاةً للراهب، إلا أن ذلك قد كفاني لأَشعر أن الرجل قد انتهت إليه أخبار عليّ وأن الكاتب قد أسدى إليّ، بحسب طريقته، خدمة جزيلة.

فما أن انفضّ القوم حتى خفّ الكاتب ظافراً يبلغني عن مخدومه أن أَخرج من داره فوراً فلا أطأها ما حَييتُ. وضمَّن قولَه كلَّ ما جعله قولاً مهيناً قاسياً. فمضيتُ لم أتلفظ بحرف، ولكني كنتُ حزين القلب، ولم أَحزن على مفارقتي هذه المرأة الحبيبة بقدْر ما حزنتُ أني أدعها فريسة زوجها الفظ. ولقد كان في حقّه، ولا ريب، أن يأبى أن تخونه؛ غير أنها كانت، مع حكمتها وأصالة منشئها، امرأةً إيطاليا، أي حساسة وثائرة؛ وأحسبه قد أخطأ إذ عاملها بوسائل من شأنها أن تجلب عليه الشقاء الذي كان يخاف منه.

هكذا كان توفيقي في مغامَرتي الأولى. فحاولتُ أن أمرّ بالطريق هناك مرتين أو ثلاث مرات لكي أرى، في الأقلّ، تلك التي ما فتئ قلبي نادماً على فراقها؛ ولكن لم يقع نظري إلا على زوجها وعلى كاتبه اليقظ الذي لما لمحني، مرة، أبدى لي بمقياس للطول، كان يُستعمَل في الحانوت، إشارةً تعبّر عن معناها أكثر مما تجتذب إليه. فلما ألفيتُني تحت المراقبة إلى هذا الحد، يئستُ ولم أمرَّ من ثم قط. وأردتُ أن أَزور المعلّم الذي كانت هي قد هيأتْ لي أمري معه، ولكن في سوء الحظ أنني لم أعلم اسمه. فطفتُ مراراً حول الدير

أحاول أن ألقاه فلم أُوفَّق. ثم حدثَ ما شغلني عن بهجة ذكريات السيدة بازيل، فلم ألبث طويلاً حتى سلوتُها تماماً وحتى باتت الحسان لا يجتذبنني لأني بقيتُ غرّاً ساذجاً كما كُنتُ عليه من قبْل.

بيد أن سلوك السيدة بازيل، أعني جودها وكرمها معي، قد أضاف إلى متاعي بعض الملابس، ولكن كان ذلك بما لمرأة حذرة من احتياط، وهي التي قد اعتنت بالنظافة أكثر مما اعتنت بالزينة فأرادت أن تجنّبني الشقاء، لا أن تُظهرني بالمظهر البرّاق. وكان ثوبي الذي أَتيتُ به من جنيف في حالة جيدة وما يزال قابلا للاستعمال. فاضافت هي إليه قبعة وبعض الألبسة الداخلية. ولم يكن معي أكمام قميص فابت أن تعطيني أكمام قميص، على شدة رغبتي فيها. واكتفت بإعطائي ما أبدو معه نظيفاً، وهذا لم يكن لي حاجة إلى من يوصيني به طالما ظهرتُ أمامها.

فلما انقضى على نكبتي بضعة أيام، قالت لي صاحبة البيت الذي كنتُ آوي إليه، وكانت قد مالت إليّ، على ما تقدّم ذكره، قالت إنها ربما وجدتْ لي عملاً وإن سيدة من ذوات المكانة ترغب في أن تراني. وعند هذه الكلمة، خيّل إليّ أنني قد استويتُ فعلاً إلى المغامَرات العاليات، إذ كان ذهني لا يفتأ يدور عليهن ولا يفتأ يعود إليهن في الحين بعد الحين. لكن تلك السيدة لم تكن مشرقة برّاقة إلى الحد الذي تصورتُها عليه. فذهبتُ لأقابلها وأنا مع الخادم الذي كان قد حدَّثها بشأني. ساءلتني، ونظرتْ إليّ، فاستحسنتْني، فدخلتُ في خدمتها فوراً، لا محظيّاً مقرَّباً إليها حقّاً، بل كنت تابعاً لها. فأُلبستُ البزة التي ترتيدها طبقة التابعين، وهذه البزة مميّزتها الوحيدة هي الشريطة المعدنية الطرفين، بيد أني لم أُعطَ الشريطة، فشابهتْ بزتي، على التقريب، ما يرتديه أهل المدن البورجوازيون. تلك هي النهاية غير المتوقَّعة التي أفضتْ إليها آمالي الكبار.

twitter @baghdad_library

كانت مدام الكونتسة دو فيرسلّي، التي التحقت وقتئذٍ بخدمتها، أَرملة لم تُرزَق أولاداً، وكان زوجها من أهل بيامونت. وكنتُ، على الدوام، إخالها من أهل سافوى لم أتصوَّر أن امرأة بيامونتيه يتأتى لها أن تتقن اللسان الفرنسي كما قد أتقنته هي ولا أن تتكلَّم به بلهجة صافية صفاءَ لهجتها. وكانت في أواسط العمر، كريمة الهيئة، مثقفة، مولَعة بالأدب الفرنسي، متضلعة منه، تُكثر من الكتابة، تنشئ بالفرنسية في كل الأحوال. فضاهت رسائلها، نهجاً وأسلوباً، ما كانت تنشئه مدام دو سيفينييه من رسائل، وكدن يماثلنه سحراً ورشاقة بيان، حتى ربما ظُنَّ بعضُهن إياه. وكان قوام عملي، وهو عملٌ لم أكرهه، أن أَكتب ما تُملي عليّ من رسائلها، إذ ألمَّ بها سرطان في الثدي قاست معه أوجاعاً شديدة فتعذَّرَ عليها أن تكتب هي بنفسها.

ولم تؤتَ السيدة دو فيرسيلّي حدة ذكاء فحسب، بل أُوتيتْ، إلى هذا، روحاً سامية قديرة. ولقد لابستُها في مرضها الأخير، فشاهدتها تُعذَّب فتموت ليس تبدي إشارةَ ضعف، تتمالك بلا جهد ولا تخلٍّ عن الأنوثة، ما يخطر لها أن بسلوكها وجْهَ فلسفة، الإسم الذي لم يكن قد شاع زيّه بعد، حتى إن السيدة دو فيرسيلّي لم تكن قد عرفتْ هذا الاسم على المعنى الذي تردّى به اليوم. وربما بلغتْ صلابةُ خُلقها درجة البرودة. فلاح لي أنها، في كل حال، كانت قليلة المشاركة سواء في ما يَشعر به غيرُها وفي ما تشعر به هي نفسها. فإذا أحسنتْ إلى المساكين، فرغبة منها في الخير لأجل الخير، لا شفقة عليهم حقَّ الشفقة. فكابدتُ من ذلك بعض الشيء في أثناء الأشهر الثلاثة التي قضيتُ عندها. فلقد كان في الطبيعي أن تعطف على شاب يرتجى منه بعض الخير وهو تحت نظرها طول اليوم؛ وكان في الطبيعي أن تفكر، وقد أحسّت بدنو ساعتها، في أن هذا الشاب سيحتاج من بعدها إلى العون والسند. لكنها لم تصنع من أجلي

شيئاً، إما لكونها لم تجدني أهلاً لعناية خاصة، وإما لكون الذين لزموها لم يدَعوها تفكر في أحد سواهم.

غير أني أذكر، مع ذلك، أنها قد أعربتْ لي عن بعض الفضول تريد أن تقف على قصتي. وربما ساءلتني يَطيب لها أن أُطلعها على رسائلي إلى السيدة دو فارانس وعلى ما عندي من مشاعر. بيد أنها لم تعرف كيف تسبر غوري إذ لم تُرني من مشاعرها شيئاً. إنّ قلبي يحبّ أن يكشف دخيلته شرط أن يحسّ أنه يناجي قلباً آخر. أما الأسئلة الجافة الباردة التي تُطرَح بلا علامة استحسان لها ولا علامة لوم عليها، فهي أسئلة لم توح إليّ بأيّ ثقة كانت. حتى إذا لم يبدُ ثمة ما ينبئني أأَعجبتْ ثرثرتي مدام دو فيرسيلّي أم لم تعجبها، ساورتْني الخشية، فلم أحاول أن أُظهر ما أفكر فيه بقدْر ما حاولتُ ألا أقول ما قد يؤذيني. ولاحظتُ، منذ ذلك الحين، أن استنطاق الناس على هذا النحو الجاف، بغيةَ الوقوف على شأنهم، إنما هو عادة قد شاعت في النسوان اللواتي يدّعين الفطنة والذكاء. فهن يتصوّرن أنهن، إذ يكتمن شعورهن، يصبحن أقدر على النفاذ إلى صميم شعوردك، ولكن يفوتهن أنهن بذاك يثبّطنك عن أن تعرب عما بك من شعور. فمن استُنطق، أَخذ حذرَه أولَ كل شيء؛ فإذا وجد أن لم يُقصَد باستنطاقه إلا حملُه على الثرثرة وأن ليس من اكتراث لأمره، عمدَ هو إلى الكذب، أو إلى الصمت، أو ضاعفَ العناية بنفسه، وآثر أن تظنه أَبله على أن يذهب ضحية فضولك. فإن ابتغيتَ أن تستطلع قلوب غيرك ولم تُطلعهم على ما في قلبك، فقد أخطأتَ السبيل.

لم تقل لي السيدة دو فيرسيلّي، يوماً، كلمة عطف ولا شفقة ولا تودّد. وإنما كانت تسائلني في برودة، فأجيب في تحفظ. وكانت أجوبتي حَيِيَّة الحياء غايته حتى إن هذه السيدة ربما وجدتها مبتذلة

twitter @baghdad_library

فملّتْها. وكفّتْ، في النهاية عن مساءلتي، واقتصر حديثها معي على شؤون الخدمة. ولقد استندتْ في حكمها عليّ إلى ما جعلتني أكونه أنا أكثَر مما استندتْ إلى ما كنتُه أنا؛ ولفرط ما قد رأت فيّ خادماً لا غير، منعتْني أن أظهر في نظرها شيئاً مغايراً لذلك.

وأغلب الظن أني، مذ ذلك الوقت أصبحتُ أعاني آفة المصالح الخفية، وهي آفة قد اعترتني طول العمر فحدتْني على أن أنفر، نفوراً طبيعياً، من النظام الظاهري الذي ينتج تلك المصالح. وكان وارث السيدة دو فيرسيلّي هو ابن شقيقها الكونت دو لاروك؛ فإذ لم تُرزَق أولاداً، فلقد ثابر على التقرب والتودّد إليها. كما أن كبار خدمها، لما رأوا أجلها قد أخذ يدنو، لم يغفلوا عن أنفسهم، فحفَّ بالسيدة دو فيرسيلّي كثير من الملاطفين المداهنين، حتى صعب أن يتسع لها الوقت فتذكرني. كان المدعو السيد لورنزي على رأس بيتها، وهو رجل داهية، وكان له زوجة أدهى منه، فجعلتْ تتملّق سيدتها وتسترضيها حتى أمست منزلتها عندها إلى الصديقة أدنى منها إلى الأجيرة. ثم إنها اختارت بنت شقيقها لتقوم بخدمة السيدة دو فيرسيلّي، واسمها الآنسة بونتال، وهي فتاة ماكرة قد تظاهرتْ كأنها الوصيفة التابعة، في حين جدّت تساعد عمتها على التقرب من سيدتهما حتى أصبحتْ هذه لا ترى إلا بأعينهما ولا تأتي شيئاً إلا بأيديهما. ولم يسعدني الحظ بإرضاء أولئك الثلاثة، فأَطعتُهم، لكني لم أخدمهم إذ لم أحسب أن عليّ، مع خدمتي سيدتنا، أن أغدو خادماً لخَدمها. زد على ذلك أني كنتُ من صنف من البشر المثير للقلق بالنسبة إليهم. فاتضح لهم أني لم أكن في الموضع الذي هو موضعي، وتخوفوا أن يتضح ذاك للسيدة فتجعلني حيث أستحقّ فيتضاءل نصيبهم عندها. وإنّ أمثال أولئك الناس لأشدُّ جشعاً من أن يكونوا منصفين، فهم يرون ما قد يوصى به لغيرهم وكأنه من مالهم

يؤخذ. فتواطؤوا على إقصائي عن نظر السيدة. وكان لها ولعٌ بكتابة الرسائل تسلو بهن عن حالها، فكرَّهوا إليها كتابة الرسائل وحملوا طبيبها على أن يرغّبها عنهن يزعم لها أنهن يتعبنها. وذهبوا إلى أني لا أجيد خدمتها، فاستخدموا بدلاً مني قرويَين خشنين من حمّالي المحفات، وما زالوا في سعيهم حتى إني، لما كتبت وصيَّتَها، كان قد مضى عليّ ثمانية أيام لم أَلج غرفتها. ولكن، بعدئذٍ، عدتُ أَدخل عليها كما سبق، وكنتُ أَكثر مواظبة من سواي، لأن أوجاعها كانت تمزّقني. وكان جلَدها يُكبرها في عيني ويُعزّها عندي، ولكم ذرفتُ في حجرتها صادق الدمع فلم تشعر ولا شعر به أحد.

ثم فقدناها في آخر الأمر. فشهدتُها تُسلم الروح. ولقد كانت سيرتُها سيرة المرأة الفاضلة عقلاً وشعوراً، وكانت ميتتها ميتة المرأة الحكيمة. وإني لأستطيع القول إنها قد حبَّبتْ إليّ المذهب الكاثوليكي، من أجل الصفاء الروحي الذي أدّت به فروضها في غير إهمال ولا تصنع، وكانت الرصانة طبعاً أصيلاً فيها. فلما قرب أجلُها، داخلَها مرحٌ كان أوفى اطراداً من أن يشوبه التصنع؛ وما ذاك إلا آية من عقلها تُوازن ما قد انتهت إليه حالُها المحزنة. فلم تلزم السرير إلا في يوميها الأخيرين، وكانت تني تحدّث الجميع في سكينة وسلام. حتى إذا أعياها النطق ودخلتْ في صراع الاحتضار، ضَرطتْ ضرطة مدويّة، فتقلَّبتْ على فراشها وقالت: «حسَن! ما ماتت مَن ضَرطتْ». فكانت هذه كلماتها الأخيرة.

أوصت لصغار خدمها بأجور سنةٍ واحدة؛ أما أنا، فلم أُصب شيئاً، إذ لم يُدرَج اسمي في لائحة خدم البيت. إلا أن الكونت دو لاروك أمر لي بثلاثين ليرة، وأبقى لي البزة الجديدة التي كنتُ أرتديها والتي أراد السيد لورنزي أن يخلعها عني. ووعدني الكونت دولاروك، مع ذلك، بأن يسعى لعمل من أجلي، وأَذن لي في

twitter @baghdad_library

زيارته. فقصدتُه مرتين، أو ثلاثاً، فلم يتسنَ لي مخاطبته، وما أسهلَ ما كنتُ أقنط. فلم أرجع إلى زيارته بعدئذٍ قط، فأخطأتُ كما سيتبيّن بعد قليل.

يا ليتني أَتيتُ على ما لديّ من قول في شأن إقامتي عند السيدة دوفيرسيلّي. فإن حالتي الظاهرية لم تبرح، آنئذٍ، على ما كانت عليه من قبْل. بيد أني لم أخرج من بيتها كما دخلتُه، بل حَملتُ ذكريات باقيات، ذكريات جريمة وعبء ندامةٍ لا يطاق وما ينفكّ يُثقل ضميري منذ أربعين سنة، ، فتشتدّ عليّ مرارته ما علتْ بي السن، بدلاً من أن تضعف على الأيام. فمن ذا الذي يصدّق أن للخطإ الذي اقترفه صبي تبعاتٌ مؤلمة قاسية حتى إن قلبي لا يسلو عنها؟ فلربما تسببتُ بتهديم فتاة لطيفة ونزيهة ومحترَمة، وربما تسببتُ بهلاكها في العار والبؤس، مع كونها أَفضل مني ولا ريب.

وذلك أن انحلال أُسرةٍ ما يصعب أن لا يؤدي إلى بعض التشوش في بيتها، وإلى فقدان أشياء كثيرة. لكن الخدم كانوا من الأمانة وكان السيد لورنزي وزوجته من اليقظة حتى إنه لما دُوّن بيانٌ في محتويات البيت، لم ينقص منها شيء. بيد أن الآنسة بونتال، دون غيرها، فقدتْ قطعة شريط صغير قديم لونه بين الوردي والفضي، وكان في متناولي أشياء كثيرة هي خير من هذا الشريط، إلا أنه قد أغراني، دون سواه، فسرقتُه لم أكد أُعنى بإخفائه، فعثروا عليه في حيازتي. فابتغوا أن يعلموا من أين جئتُ به. فارتبكتُ، وتلعثمتُ، ثم قلتُ وقد احمرَّ وجهي إن ماريون هي التي أعطتنيه. وكانت ماريون صبية من وادي موريان قد اتخذتْها السيدة دوفيرسيلّي طاهية لها بعد ما كفّت عن الولائم وبعد ما سرّحتْ طاهيها إذ باتت إلى الحساء الطيّب أحوجَ منها إلى توابل اللحم والسمك والبقل. ولم تكن ماريون مليحة فحسب، لكنها، إلى هذا، قد رُزقتْ نضارةَ وجه

لا يُرزَق مثلَها إلا أهلُ الجبال؛ ورُزقتْ، على الأخص، ضرباً من التواضع والوداعة لا سبيل معه لمن يراها إلا أن يميل إليها فيحبّها؛ وكانت، في كل حال، فتاةً طيّبة، وأمانتها لا ريبة فيها. فلما ذكرتُ اسمها، دهش الجميع. ولم تكن ثقتهم بي دون ثقتهم بها، فرأوا أنه يجب معرفة أيّ منا، نحن الاثنين، قد سرق الشريط. فاستحضروها، والجمعُ كُثْرٌ وفيهم الكونت دولاروك؛ فلما جاءت، عرضوا عليها الشريط، فاتهمتُها اتهاماً وقحاً، فدهشتْ وصمتتْ ورمتني بنظرة تزعزعُ الشياطين؛ أما قلبي المتوحش، فقد ثبتَ لم يتأثر. فأَنكرتْ برباطة جأش لا غضب معها، وما لبثتْ أن خاطبتْني تناشدني أن أتوب إلى نفسي فلا أشين فتاةً بريئةً لم تؤذني قط. فتمسكتُ بقولي وأصررتُ على صحته إصراراً جهنمياً وقحاً، وقلتُ لها، في وجهها، إنما هي التي أعطتني الشريط. فانفلتت المسكينة باكية، ولم تخاطبني إلا بقولها: «آه روسو! حسبتُك كريم الأخلاق. إنك لتشقيني، وإني لا أتمنى أن أكون بموقفك». هذا ما قالت لي. ثم واصلت الدفاع عن براءتها بثقة وبساطة ولم تُبح لنفسها أن توجّه إليّ كلمةَ إهانة واحدة. غير أن هذا الاعتدال، حيال لهجتي الجازمة، قد أَضرَّها، إذ لم يكن في الطبيعي أن يدركوا معنى وداعتها الملائكية التي قابلتْ بها وقاحتي الشيطانية. ولئن لم يجزموا برأي، فقد مالوا إلى تبرئتي، ولم يشغلوا وقتهم بتقصي الأمر وقد سادتْهم المتاعب يومئذٍ، بل اكتفى الكونت دولاروك، حين طردَنا كلينا، بأن قال إن ضمير المذنب سيثأر للبريء. فلم تذهب نبوءته سدًى، بل هي ما تزال تصدق في كل يوم.

ولست أدري إلى ما انتهت إليه ضحيةُ نميمتي، ولكن لا دليل على أنه قد تيسَّر لها أن تصيب عملاً موافقاً، لأنها حيثما ذهبتْ، حملتْ وصمةَ عارها. فالشيء المسروق لم يكن سوى شيء تافه،

twitter @baghdad_library

لكن السرقة سرقة في كل حال. وأسوأُ من ذلك هو أن السرقة، ههنا، قد قُصد بها إغواء فتًى. ثم إن الكذب والعناد قد قطعا، في النهاية، الأملَ في الفتاة التي اجتمعتْ فيها تلك النقائص كلها. حتى إني أحسب أن البؤس والنبذ ليسا أدهى خطر عرَّضتُ له الفتاة. فمن يدري إلى أين أفضت بها، وهي في سنها تلك، خيبةُ البراءة التي شرَّدها الهوان. فإن كنتُ، إذ أَشقيتُها، قد عانيتُ من تبكيت الضمير ما لا يطاق، فلكم عانيتُ منه لأني صيّرتُها أسوأَ مني!

إن هذه الذكرى الأليمة تكدّرني بعض المرات، وإنها تقلقني قلقاً بالغاً حتى لأمضي، وأنا في ساعات الأرق، أتصوّر تلك الفتاة المسكينة وقد أَقبلتْ عليّ تلومني في جريمتي وكأني لم أرتكبها إلا أمس. هذه الذكرى يسكن عني عذابها كلما تقلّبتُ في الطمأنينة والهدوء؛ أما إذا عصفتْ بسيرتي الأعاصيرُ، سلبتْني هذه الذكرى خيرَ ما يتعزى به الأبرياء المضطهَدون، فأشعرتني حقَّ الشعور بما إخالني أوردتُه في بعض مؤلَّفاتي حيث قُلتُ: «إن الندم يسكن مع اليسر والإقبال، ويهبّ مع العسر والإدبار». لكني لم أستطع يوماً أن أقطع على نفسي عهداً أَحطُّ به عن قلبي عبءَ هذا الإقرار فألقيه في صدر صديق. إن أوثق صداقة حميمة لم تستدرجني أبداً إلى أن أبوح به إلى أحد ولو إلى السيدة دو فارانس. وكل ما أمكنني عمله هو أنني أقررتُ بأني ألوم نفسي على فعلٍ فظيع، ولكن لم أبيّن قط ما ذلك الفعل. فبقي ثقله على ضميري إلى اليوم، حتى إن رغبتي في التخلص من هذا الثقل قد ساهمت، مساهمة كبيرة، في عزمي على أن أكتب اعترافاتي.

أما اعترافي هذا فأَفضيتُ به صدقاً وصراحة، وليس في الناس، لا ريب، من يجد أني قد سترتُ سوءةَ جرمي. ولو كتمتُ ميولي الخفية وتهيبتُ الاعتذار عن كوني لم أَصدق، لما أَوفيتُ على غرض

هذا الكتاب. ثم إن الخبث لم يكن يوماً أَبعد عني منه في تلك الساعة الأليمة. والغريب، بل الصحيح أني لما اتهمتُ تلك الفتاة المسكينة، اتهمتُها عن صداقة لها. كانت هي، آنئذٍ، ماثلة في روعي فدفعتُ عني التهمة أستعين بأول ما سنح لي. ولقد اتهمتُها بما تعمدتُ فعله وبأنها هي التي أعطتني الشريط، لأنني نويتُ أن أعطيها إياه. حتى إذا استُحضرتْ فرأيتُها قد أَقبلتْ، تمزَّقَ فؤادي، إلا أن حضور أولئك الناس جميعاً قد غلب ما كان بي من ندم. وكنتُ ضئيل الخوف من العقاب ليس يخفيني إلا العار. فكنتُ أخاف العار أكثر مما أخاف الموت والجريمة وسائر ما في الدنيا. فوددتُ آنئذٍ لو تواريتُ في جوف الأرض فاختنقتُ ثمة، إلا أن حيائي الذي لا يُقهَر قد تغلّب على كل أمر فحملني على الوقاحة؛ وكنتُ كلما أَذنبتُ، ازداد خوفي من الاعتراف بذنبي فاجترأتُ على النميمة والإنكار. ولم أَرَ إلا هول اكتشاف أمري وتشهيري، وأنا حاضر، بأني لص كذّاب ومفترٍ نمّام. وإنّ اضطرابي كله قد جرّدني عن كل شعور سواه. ولو أُتيحَ لي، يؤمئذٍ، أن أثوبَ إلى نفسي، ولو أن السيد دولاروك مال بي على حدة فقال لي: «لا تخرب بيت هذه الفتاة، فإن كنتَ أنت المذنب، فاعترف»، إذاً لكنت من ساعتي ارتميتُ على قدميه ولا شك. لكنهم عمدوا إليّ بالتخويف والتهديد بدل أن يتوسلوا إليّ بالحض والتشجيع. ثم لا بدّ من مراعاة سنّي في ذلك الوقت وقد كدتُ أجاوز الطفولة، أو، في الأصح، كنتُ ما أزال طفلاً، ثم إن القبائح المتأصلة تلوح، في الصبا، وهي أَشدُّ إجراماً منها في سن النضج؛ أما ما لا ينشأ إلا عن ضعف، فهو أَقلُّ إجراماً من تلك بلا ريب، ولم يكن ذنبي إلا من هذا القبيل. ولذلك فإن ذكراه لا تحزنني على ما فيه من شرّ بقْدر ما تحزنني على ما قد تسببَ به من ضرر، لا بل إن ذكراه قد أَحسنتْ إليّ إذ وقتْني، بقيةَ العمر، من كل ما ينزع إلى الإجرام، وذاك لما كان للذنب الذي اقترفتُ من

twitter @baghdad_library

انطباع مرعب في نفسي. ويلهمني الحسّ أنّ كرهي للكذب يعود سببه، في الأكثر، إلى أسفي على ارتكابي تلك الكذبة الشنيعة. فإن كان في الدنيا جرم يُستطاع التكفيرُ عنه، كما أجرؤ على الاعتقاد، فإني كفَّرتُ، لُزوماً، عن ذنبي بما قد أثقل أواخرَ حياتي بضروب من الشقاء، وبأربعين سنة استقامة ونزاهة في مناسبات عسيرة. أما ماريون المسكينة، فإنها تجد في عالمنا أناساً كثيرين يثأرون لها. ومهما تكن إساءتي إليها عظيمة، فإنني لا أكاد أخشى أن أحمل وزرها. ذلك ما وجب عليّ قوله في هذا الشأن، فليؤذَن لي أن لا أعود أبداً إلى ذكره.

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث

خرجتُ من بيت السيدة دوفيرسيلّي كما دخلتُه، على التقريب، رجعتُ إلى بيت مضيفتي السابقة، فلبثتُ هناك خمسة أسابيع، أو ستة، فكان أن العافية والشباب والتعطل قد ارتدّت بي إلى ما كنتُ عليه من اضطراب. فعدتُ قلقاً، ساهياً، مشتت البال، أبكي وأتنهد، أبتغي سعادة لستُ أدري ما هي وإن شعرتُ بأني قد حُرمتُها. تلك الحال لا يُستطاع وصفها، وقليل من الناس أمكنهم أن يتخيلوها، لأن أكثرهم قد أملوا في بلوغ غاية الحياة أَتَمّها هذه المثيرة للعذاب واللذة معاً، والتي توفّر، لَمَّا يكون المرء في سكرة الرغبة، مذاقا مسبقا للمتعة [قبل أن تكون المتعة]. وكان دمي المتأجّج لا يفتأ يملأ خيالي بأوانس وسيدات؛ لكنني لم أشعر بما ينبغي أن أعمد إليه معهن، فجعلتُ، وأنا أتصوّرهن تصوراً غريباً، أستخدمهن في نزوات خيالي من غير أن أدري البتة ما عساي أفعله بهن من شيء أكثر من ذلك. كانت أفكاري تلك لا تني تبقي حواسي على تحفز نشيط متعب؛ غير أنها لم تعلّمني، وهذا في حُسن الحظ، أن أتخلّص منه. ولقد كنتُ أفدي بحياتي ربع ساعة من الزمن فيه أَلقى فتاة كمثْل الآنسة جوتون. ولكن فات الوقت الذي كان فيه لَعبُ الطفولة وكأنه يجري من تلقاء نفسه. لقد وافاني مع الأيام شعور بالعار هو رفيق

الضمير مستيقظاً على الشر. فازداد خجلي الفطري حتى بات لا يُغلب، فلم أُقبل قط، لا حينئذٍ ولا من بعد، على امرأة أُراودها عن نفسها إلا وأرغمتني مراوداتُها المسبقة لي، حتى وإن أَدركتُ أنها غير ذات تمنّعٍ وإن كدتُ أُوقنُ أنها ستتحداني.

تضاعفَ ما بي من اضطراب، حتى لم أقوَ على أن أشبع شهواتي إلا بأغرب الوسائل. فكنتُ أمضي أريد بعض الدروب المعتمة والأماكن المتوارية حيث يتهيأ لي أن أعرض نفسي على بعض النسوان بعيداً عنهن وأنا في الحالة التي أود لو أكون فيها بجوارهن. إلا أن ما كن يبصرنه مني ليس بالشيء البذيء، فما خطر لي هذا يوماً، وإنما كن يبصرن الشيء التافه المضحك. وذلك أن اللذة الغبية، التي كنت أشعر بها إذ أعرضُ عليهن هذا الشيء، لا يمكن وصفها. فلم يبقَ بيني وبين العلاج، الذي اشتهيتُه ورغبتُ فيه، إلا خطوة واحدة؛ ولا شك عندي أنه لو مرّت بي آنئذٍ بعضُ ذوات العزم، لأتاحت لي أن أتلهى، ذلك لو أُوتيتُ الجرأة على الانتظار. فنجمَ عن هذا الجنون بليةٌ لها طابع المهزلة نفسه تقريباً، ولكنها كانت أقلّ هزلاً بالنسبة لي أنا.

ذهبتُ يوماً أتخذ لي مكاناً في خلفية ساحة أحد البيوت [المتخلعة]، وكان فيها بئر كثيراً ما تأتيه فتيات البيت يستقين منها، فلبثتُ في آخر الساحة. وكان ثمة منحدر يفضي إلى بعض الأقبية من عدة دروب. فطفقتُ، وأنا بالعتمة، أسبر تلك الدروب التي امتدت تحت سطح الأرض، فأَلفيتُها طوالاً مظلمات، وخيّل إليّ أن لا نهاية لها وأني إن شوهدتُ وفوجئتُ، أصبتُ فيها ملجأً أميناً. فقمتُ، وأنا على تلك الثقة، أَعرض على النساء، اللائي أتين البئر، منظراً هو إلى الإضحاك أَقربُ منه إلى الإغراء. فتظاهرتْ أَوفرهُن حكمةً بأنهن

twitter @baghdad_library

لم يشاهدن شيئاً، وأَخذ بعضهن في الضحك، أما الباقيات، فحسبن ذلك إهانة لهن فجعلن يُصوّتن. فهربتُ أنطلق في ما خلتُه ملجأً لي. جري الناس في إثري. وسمعتُ صوت رجل، ولم يكن هذا في حسباني، فذعرتُ وأَوغلتُ في الأنفاق وأنا على خطر أن أَضلَّ الطريق. كانت الضجة والجلبة وصيحات الرجل لا تنفك تتبعني. وكان اعتمادي على الظلام، فإذا أنا في الضوء. ارتعشتُ وأمعنتُ في التوغل. فصدّني أحد الجدران، فلما لم يبقَ في وسعي أن أبعُد أكثر، كان لا بد لي أن أرتقب مصيري. فأُدرِكتُ في مثل اللحظة، وقبض عليّ رجل ضخم القامة، عظيم الشاربين، عريض القبعة، طويل السيف، تواكبه أربع عجائز، أو خمس، كل واحدة منهن قد تسلحتْ بمقبض مكنسة، ولمحتُ بينهن العجوز النذلة التي فضحتْني ورغبتْ في أن ترى وجهي.

ثم إن الرجل صاحب السيف سألني في غلظة، وهو يمسكني من ذراعي، عمّا كنتُ أفعل ههنا. ولا غرو أن لا يسنح لي الجواب. ولكن، مع ذلك، عادت إليّ نفسي فاستفرغتُ جهدي أستطلع حيلة خيالية موفَّقة. فقلتُ له، بصوت متضرع، ليشفق على سني وحالي، وزعمتُ أنني فتًى غريب من أسرة شريفة قد اختل عقله، وأنني هربتُ من بيت أبي إذ كان يُراد حبسي هناك، وأنني إذا هو أفشى خبري، هلكتُ؛ أما إذا شاء أن يأذن لي في الذهاب، فلربما قابلتُ يده يوماً بعرفان الجميل. فكان لخطابي ولهيئتي ـ بخلاف ما توقّعتُ ـ تأثيرهما فيه. فرقَّ لي الرجل الرهيب، ووبخني، ثم أذن لي في الذهاب ولم يطرح عليّ مزيد أسئلة. فلما رأيتُ إلى نظرات العجائز وقد أبصرنني ذاهباً، أَدركتُ أن الرجل، الذي خشيتُه، كان لي جد مفيد وأن لو أقتصر عليهن أمري، لم أنجُ بتلك السهولة. وسمعتُهن يتهامسن في ما لم أدر ما هو وفي ما كاد لا يهمني أمره، فلقد أَيقنتُ

حقَّ اليقين، وأنا على ما أنا عليه من خفة بدن وقوة، أني في نجوة منهن ومما بأيديهن من عصيّ إلا أن يتدخل في شأني السيف والرجل.

فلما مررتُ، بعد بضعة أيام، في بعض الطرق وأنا مع كاهن شاب هو جار لي، أبصرتُ الرجل صاحب السيف، فأَبديتُ له، وإبهامي على رأس أنفي، إشارة بسائر أصابعي. عرفني وردَّ عليّ بإشارة مثْلها ساخراً، وقال لي: «أنت أمير، أنت أمير، وأنا من الأوباش، بشرط أن لا يَرجع إلينا صاحب السمو». ولم يضف شيئاً، فهربتُ مطرقاً أشكر له، في نفسي، كتمانه سرّي. وأَدركتُ أن تلك العجائز اللعينات قد عيّرنه لأنه صدّقني. ومهما يكن من أمره، فلقد كان امرأً طيباً، وإن يكن من أهل بيامونت، وما فكرتُ فيه مرة إلا ذكرتُه ببعض عرفان الجميل، فالرواية جد مسلّية حتى إن أيّاً كان، ما خلا ذلك الرجل، قد كان فضحني لا لسبب إلا للضحك والسخرية. ولئن لم تنجم عن هذه المغامَرة المغباتُ التي تخوفتُها، فإنها قد أبقتني على الرصانة ردحاً من الزمن.

وكانت إقامتي عند السيدة دو فيرسيلّي قد أكسبتْني بعض المعارف، فوطدتُ صلتي بهم رجاة أن يكون لي نفع منهم في بعض الأيام. وكان فيهم كاهن من سافوي يدعى السيد جايم، فأَخذتُ أَزوره في بعض الأحيان، وكان معلّماً لأولاد الكونت دو ميلاريد. وكان شاباً قليل معاشرة الناس، بيد أنه رُزق تمام سلامة الحسّ والرأي والصلاح، فأَشعّتْ أنوارُه، وبات من خير مَن بلوتُ خُلقاً ومعرفة. ولم يكن في ما قد شدّني إليه فائدة لي قط، إذ لم يكن على المنزلة الاجتماعية التي تمكنه أن يهيّئ لي عملاً. غير أنني جنيتُ منه فوائد أعظم نفعتّني طول العمر، وأخذتُ عنه دروساً في استقامة الأخلاق وحكماً في سلامة التفكير. فلقد كنتُ، على توالي

twitter @baghdad_library

الآراء مني والميول، مفرط العلو والإسفاف، أُشبهُ أخيل[1] تارة، وتارة أشبه ترسيتوس[2]؛ فأنا البطل ساعةً، وساعةً لا يرجى مني شيء. فأخذ السيد جايم على نفسه أن يعيدني إلى الحال السويّ، وأن يريني أنا نفسي لنفسي لا يُفْرط ولا يثبّط. فكلمني على طبعي ومواهبي كلاماً صادقاً صريحاً أضاف إليه قوله إنه يجد العراقيل تنبعث من مواهبي فتحول دون أن أنتفع بها حقَّ الانتفاع؛ فمواهبي، في نظره، لا تصلح لي مرقاةً إلى السعد والجَد بقدْر ما هي سبيل لاستغنائي عنهما. ثم رسم أمامي صورة صحيحة للحياة البشرية التي لم يكن بروعي منها إلا أفكار بعيدة عن الصواب؛ فأراني كيف يستطيع الحكيم، وهو يلقي مصيراً مضاداً، أن ينزع أبداً إلى السعادة وأن يجري على اتجاه يخالف الريح كيما يصيب مبتغاه. كما أنه أراني أن ليس من سعادة حقّ بغير حكمة وأن الحكمة لا غنى عنها في كل الأحوال. وخفّف من إعجابي بالعظمة تخفيفاً جمّاً. وأَثبتَ لي أن من يسودون غيرهم ليسوا فوقهم حكمةً وسعادة. وقال لي قولاً طالما ذكرتُه وهو أنه لو أُوتي كل إنسان أن يطّلع على ما في قلوب سائر الناس، لزاد طلاّبُ الهبوط على روّاد المعالي. فكانت هذه المأثورة ذات الحقيقة الدامغة، والبريئةُ من الغلو، جزيلةَ النفع لي على العمر، إذ وقفتْني عند حدّي بسلام. ثم إن السيد جايم ألقى فيّ أول ما تيسَّر لي من سلامة الآراء في موضوع الشرف وحُسن السلوك، وهو موضوع لم تكن ألمعيتي المفرطة قد وعت إلا أبعاده المتطرفة. وأَشعرني هو بأن حُبَّ الفضائل السامية قلما يعوَّل عليه في المجتمع، وأن من أَمعن في الإرتفاع عرّض نفسه للسقوط، ،وأن الثبات على حُسن التأدية للواجبات البسيطة يقتضي من الجهد ما ليس دون الذي

---

(1) أخيل أشهر أبطال الإلياذة وقد عُرف بالجرأة والإقدام ـ المترجم.

(2) ترسيتوس من أشخاص الإلياذة وقد عُرف بالجبن والوقاحة ـ المترجم.

تقتضيه أعمال البطولة، وأن في تلك من مَعاني الرفعة والسعادة ما ليس في هذه، وأن دوام الفوز بتقدير الناس خيرٌ من الفوز بإعجابهم في بعض الأحيان.

لأجل إقامة واجبات الإنسان لا بد من الرجوع إلى مبدئها. كما أن الخطوة، التي كنتُ قد خطوتها والتي كانت حالتي آنئذٍ نتيجة لها، قد أَفضت بنا إلى الكلام على الدين. وإنك لأدركت بَعْدُ أن السيد الفاضل، جايم، هو - إلى حد كبير على الأقل - الأصلُ للكاهن السافواوي(*) إلا أن الاحتراس قد أوجب على السيد جايم أن يتحفظ في القول، فعبّر عن نفسه بوضوح وانشراح أَقلَّ مما كان يفعل؛ لكن حكمه ومشاعره وآراءه ظلت هي إياها؛ حتى نصائحه بأن أَرجع إلى وطني أبداها لي كما أذعتُها في الناس. ولذاك لن أسهب في أحاديث لنا فمَن شاء استطاع الوقوف على جوهر فحواها، وإنما حسبي أن أقول إن دروسه الحكيمة، التي لم تؤثّر فيَّ أول الأمر، قد أصبحتْ بذرةَ فضيلة ودين لم تُكبَت في صدري قط ولا احتاجت إلاّ إلى عناية يد أخرى أحبّ إليّ لكي تؤتي ثمرها.

ولئن لم تكن هدايتي(3) متينة، فلم يسعني إلا أن يؤثر فيّ قول السيد جايم. فما مللتُ أحاديثه، بل استسغتُها لوضوحها وبساطتها، وعلى الأخص، لما قد امتلأتْ به من عناية قلبية شعرتُ بها أوفى الشعور. ولي نفسٌ تُحبّ الناس، فتعلّقتُ بهم على الدوام تعلقاً أقلّه لأجل خير أرادوه لي لا لأجل خير فعلوه معي، وفي ذلك لا يخطئ

(*) Le Vicaire Savoyard، هو شخصية رئيسية في **إعلان إيمان الكاهن السافواوي** (Profession de foi du Vicaire Savoyard)، النص الشهير الذي يكون الكتاب الرابع من مؤلَّف روسو: **إميل أو في التربية** (*Emile* ou *de l'éducation*) المنشور في عام 1762 [ع. لبيب].

(3) إلى المذهب الكاثوليكي - المترجم.

twitter @baghdad_library

حسّي فراستي أبداً. فملتُ إلى السيد جايم حقّ الميل، وأَمسيتُ تلميذه الثاني، إن جاز التعبير، فانتفعتُ أيَّ انتفاع إذ صُرفتُ عن مهوى الرذيلة التي كانت تدفعني إليها أوقاتُ التعطل والفراغ.

فبينا كنتُ يوماً أفكر نائياً بتفكري عن أشياء الرذيلة وهي الأقل مدعاة له، استحضرني الكونت دو لاروك. وكنتُ، لكثرة ما قصدتُه ولم يُتَح لي أن أحدّثه، قد سئمتُ المحاولة حتى كففتُ عنها. وخلتُه قد نسيني، أو قد بقيتْ في روعه صورة لي سيئة. ولكني أخطأتُ. فلقد شهد، غير مرة واحدة، مبلغ بهجتي إذ كنتُ أقوم بما يجب عليّ أيامَ أنا في خدمة عمته، ولقد ذكر لها ذلك وذكَرَه لي على حين أنا نفسي قد طويتُه. فأَحسن الكونت دو لاروك استقبالي، وقال لي إنه لم يلهني بغوامض الوعود، بل حاول أن يطلب لي عملاً فوقَ سعيه، وقال إنه يُعدّني لكي أصبح شيئاً مذكوراً وإنّ عليّ أن أُكمل بنفسي ما يبقى من هذا القبيل، وقال إن البيت الذي يُلحقني بخدمته بيت عظيم القدر والنفوذ، وإنه لا حاجة بي إلى حُماةٍ غيرهم لكي أرتقي وأتقدم، وإني وإن عوملتُ أول الحال معاملة الخادم، على نحو ما قد أصبحتُ عليه، فلأثقْ بأنهم إذا وجدوني فوق هذه المنزلة خُلقاً وسلوكاً، فلن يتركونني فيها. لكن نهاية هذا الخطاب قد كذّبتْ ما أوحاه إليّ مطلعه من آمال براقة. فقلتُ في نفسي وقد أَخذ بي حزن ومرارة وغيظ لم يلبث شعوري بالثقة أن تغلّب عليها: «أي هذا! أأنا خادم أبداً؟» وأيقنتُ أني لم أُجعل لهذا الضرب من الشغل حتى أخاف من أن يتركني الناس فيه.

ثم إن الكونت دو لاروك مضى بي إلى الكونت دو جوفون، كبير فرسان الملكة ورأس بيت سولار الشهير. فإذا على هذا الشيخ الوقور من المهابة والكرامة ما زاد لطفَ استقباله وقعاً في نفسي. ساءلني في اهتمام، وأجبتُه بإخلاص. فقال للكونت دو لاروك إن

هيئتي لطيفة تبشّر بالذكاء، وإنه يلوح له أن الذكاء لا يعوزني فعلاً، لكن ذلك ليس بكل شيء، بل لا بد من النظر في سائر الأمور. ثم التفت إليّ وقال: «ولَدي، إن البداية قاسية في كل الأشياء على التقريب، لكن بدايتك، ههنا، لن تكون قاسية جداً. فكن حكيماً، وحاول أن ترضي الجميع؛ هذا هو كل شغلك، فتشجَّعْ. إننا معتنون بك». ثم انتقل إلى المركيزة دوبريل كنّته فعرّفني إليها، ثم عرّفني إلى ابنه الأب دوجوفون. فوجدتُ هذه البداية ميمونة الطالع. وكان الاختبار قد علّمني أن ليس في العادة استقبال الخدم مثل هذا الاستقبال. والواقع أنني لم ألقَ من قبلهم معاملة الخدام. فكنت أَطعم مع متولّي شؤون البيت، ولم أُلبَس بزة الخدم. فلما أراد، يوماً، الكونت دوفافريا ـ وهو شاب طائش ـ أن أَركب خلف عربته، منع جَدُّه أن أركب خلف عربة أيّ كان، ومنع أن أسير خلف أحد في خارج البيت. بيد أني كنتُ أخدم على المائدة وأقوم في البيت بأكثر ما على الخادم أن يقوم به. لكني كنتُ، في شغلي، حرّاً إلى حدٍّ ما ولم أُلحَق بخدمة شخص معيّن، بل كنتُ حرّ التصرّف في وقتي معظم النهار، اللهم أن تُملي عليّ بعضَ الرسائل أو يطلب مني الكونت دوفافريا أن أقصّ له بعض الصور. فكان هذا الاختبار الذي لم أفطن إليه وقتئذٍ شديد الخطر بلا ريب، ولم يكن ذا طابع إنسانيّ قويّ، لأن ما تقلّبتُ فيه من طول الفراغ كان يمكن أن ينتهي بي إلى رذائل ما كنتُ لأنتهي إليها لولاه.

ولكن في حُسن الحظ أنه لم يحصل ذلك قط. فإن دروس السيد جايم كانت قد انطبعتْ في قلبي، فأحببتُها حتى إنني كنتُ أفلتُ، في أحيان، فأقصده أُصغي إلى دروسه. وأغلب الظن أن من أبصروني قد خرجتُ أتسلل لم يخمنوا مقصدي. ثم إنه لا شيء أَسلم رأياً من نصائحه لي في شأن سلوكي. فكان أن أول عهدي

twitter @baghdad_library

بالخدمة قد أثار الإعجاب، إذ كنتُ من المواظبة والنباهة والجد على ما راق الجميع. لكن الأب جايم، الوافر الحكمة، أشار عليّ أن أُسكّن هذه الفورة الأولى لئلا تفتر حراراتها فيلاحَظ أمرها. قال: «إنّ بدايتك مقياسُ ما يُطلب منك. فحاولْ زيادة جهدك مع الأيام، ولكن إياك أن تنقصه يوماً».

فلما لم يكادوا يمتحنوني في مواهبي اليسيرة ولا قدَّروا أن عندي منها غير ما فُطرتُ عليه، تبيَّنَ لي أنهم لم يخطر لهم أن ينتفعوا بي، ذلك برغم ما كان الكونت دوجوفون قد قاله لي في هذا الصدد. فلقد حدث من تعسّر الأمور ما كاد ينسيهم أمري. وذلك أن المركيز دوبريل، وهو الكونت دوجوفون، كان يؤمئذٍ سفيراً في فيينا. فجرى في البلاط ما أفضى تأثيره إلى الأُسرة نفسها، فظلّوا بضعة أسابيع في اضطراب لم يفسح لهم أن يفكروا في شأني. وكنتُ، إلى ذلك الحين، قد تراخيتُ بعض الشيء. وكان ثمة من نفعني وضرّني إذ أبعدني عن الطيش في خارج البيت، لكنه زادني إغفالاً لواجباتي.

كانت الآنسة دوبريل فتاة في سني على التقريب. وكانت أنيقة الهيئة، إلى كفاية حُسن وبشرةٍ ناصعة البياض وشعرٍ فاحم. ثم إن وجهها ـ مع ما كانت عليه من سمرة ـ قد اتسم بوداعة الشقراوات، وهذا المنظر لم يسع قلبي أن يقاوم سحره يوماً. وكان لباس البلاط، وهو ما يليق بالفتيات، قد أَظهر قامتها الجميلة، وأَبرزَ الصدرَ منها والكتفين، وزاد بشرتها فتنة وإغراءً، ولا سيما أنهم كانوا وقتئذٍ في ثياب الحداد. وقد يقال إنه ليس في شأن الخادم أن ينتبه لذلك كله. كنت مخطئاً بلا ريب؛ ولكن كنت متفطناً للأمر، ولم أكن فيه وحدي. وإنما كان كبير الخدم وخدّام الغرف يذكرونه أحياناً وهم على الطعام يتحدثون عنه بغلظة آلمتْني كثيراً. بيد أن رأسي لم يأخذ به الدوار فأقع حقّاً في الغرام. فما كنتُ لأذهل عن نفسي، بل عرفتُ

حذّي فوقفتُ عنده لم تقوَ عليّ الرغائب. وطاب لي أن أنظر إلى الآنسة دوبريل وأن أصغي إليها ترسل كلاماً ما يدل على ذكاءٍ وسلامة حس وأدب: وإذ اقتصر طموحي على المسرة الحاصلة من خدمتها، فإني لم أتعدَّ ما لي من حقوق. فإذا كانت الآنسة دوبرويل على المائدة، ترصَّدتُ المناسبة لكي أنال هذه الحقوق. فإنْ مال خادمها عن ناحيتها أَواناً واحداً، أسرعتُ أقف محلّه؛ وما سوى ذلك، فقد كنتُ ألبث أمامها أفتش في عينيها عما عساها تريد من خدمة، وأتحيّن الأوانَ كيما أُغيّر صحنها. ولكم كنتُ أبذل لكي تتنازل فتأمرني بخدمة ما، ولكي تنظر إليّ، وتقول لي كلمة واحدة! إلا أنها لم تفعل قط، فشجاني أن لستُ عندها شيئاً؛ أما هي، فلم تنتبه حتى إلى أني كنتُ هناك. لكن شقيقها، وكان ربما وجَّه إليّ بعض الكلمات إذ هو على المائدة، قال لي ذات مرة ما ساءني، فأجبتُه إجابة جد مرهفة، جد محكَمة، فتنبهتْ هي لأمري. فنظرتْ إليّ نظرة خاطفة بلغتْ مني المبالغ. فلما كنتُ من الغد، سنحتْ لي نظرة منها ثانية، فلم أدَع الفرصة تفوت. وكان قد أُعدّت يؤمئذٍ وليمةُ غداء حافلة رأيتُ في أثنائها، أول مرة، إلى كبير الخدم يشرف على تقديم ألوان الطعام وسيفُه على جنبه وقبعته على رأسه. واتفق أن الحديث دار على شعار أُسرة سولار، وهو الشعار الذي نُقش على أثاث البيت مع شعارات النَسب والشرف. أما الشعار، فهو: «يضرب ولا يقتل»[4] وغير خفيّ أن أهل بيامونت ليسوا، في العادة، متضلعين من اللغة الفرنسية. فخيّل إلى أحد الحاضرين أن في هذا الشعار غلطة إملاء، فأشار إليها يقول إن لفظة Fiert لا تحتاج إلى حرف t.

---

(4) يَضرب ولا يَقتل: Tel fiert qui ne tue pas - المترجم.

twitter @baghdad_library

ثم إن الكونت العجوز، دوجوفون همّ بأن يجيب، لكنه نظر إليّ فوجدني أبتسم لست أجرؤ على أن أتفوه بشيء. فأمرني أن أتكلَّم. فقلتُ إني أظن أن حرف t ليس حرفاً زائداً على الحاجة، وقلتُ إن لفظة fiert لفظة فرنسية قديمة لم تُشتَقّ من كلمة ferus التي معناها: متكبر، أو متوعد، لكنها اشتُقَّت من فعل ferit الذي معناه: يضرب، أو يجرح؛ وعلى ذلك فالشعار لا يعني «يهدّد»، بل يعني «يضرب».

نظر إليّ الجميع، ونظر بعضهم إلى بعض صامتين، ولم يحدث طوال الأيام أن وقعت العين مرة على مثل ما كانوا فيه من دهشة. غير أن ما قد أعجبني فوق ذلك هو أني تبينتُ على وجه الآنسة دوبريل آية الرضى. فتنازلتْ، مع شدة احتقارها لسواي، بأن ألقت عليّ نظرة ثانية تعادلُ، في الأقل، نظرتها الأولى، ثم نظرتْ إلى جدها وكأنها تتوقّع، وقد نفد بعض صبرها، ما حقَّ على جدها من إطراء لي؛ فأجزله الجدّ عليّ بمزيد من الرضى والاستحسان. فما كان ممن هم على المائدة إلا أن خفّوا جميعاً يثنون عليّ ويمدحون. ولئن أسرع ذلك الأوان فولّى، فلقد كان طيباً لذيذاً من جميع الجهات. فهو من بين تلك الأوانات النادرة التي ترجع بالأمور إلى نظامها الطبيعي وتثأر للموهبة من مظالم الثروة التي أذلّتها. وما هي إلا بضع دقائق حتى نظرتْ إليّ الآنسة دوبريل مرة أخرى فسألتْني بصوت حيي لطيف أن أسقيها. ولا حاجة إلى القول إنني قد لبيتُ طلبها على الفور، فلما اقتربتُ منها هزّتني رعدة شديدة، وكنتُ قد ملأتُ كوبها حتى الطفاف فأرقتُ بعض الماء على صحنها وعليها هي. فسألني شقيقها بذهول علامَ هذا الارتعاد الشديد. فلم يساعدني سؤاله على الاطمئنان، واحمرّت الآنسة دوبريل حتى بياض العينين.

هنا نهاية الرواية التي يتضح منها أنني كنتُ فيها على مثل ما

كنتُ عليه مع السيدة بازيل وعلى مثل ما كنتُ عليه في سائر الأيام إذ لم أُوفَّق في خواتيم غرامياتي. لقد كنتُ، وأنا بالغرفة التي تؤدي إلى حجرة السيدة دوبريل، كَلِفاً على غير طائل، لا ألقى من ابنتها أيّ التفات كان. ولطالما خرجتُ ودخلتُ فلم تنظر إليّ؛ أما أنا فكدتُ لا أجرؤ على النظر إليها. وكان من فرط غباوتي وجمودي أنني، وقد مرَّت يوماً فأوقعتْ قفازَها على الأرض، لم أسرع أرتمي عليه أتمنى لو أغمره بالقبل، ولكن لبثتُ بمكاني، فالتقط القفاز خادم خشن غليظ وددتُ لو سحقتُه سحقاً. ومما زادني التياعاً أنني لم أحظ برضى السيدة دوبريل. فلم تقتصر على أن لا تأمرني بشيء، بل أبت أن أقوم بخدمتها في كل حال. فصادفتْني مرتين في الغرفة التي تؤدي إلى حجرتها، فسألتني ببرودة فائقة أن أليس عندي ما أفعل. وكان لا بد لي من التخلي عن هذه الحجرة العزيزة. وأسفتُ بادئ بدء، ثم سلوتُ، ولم ألبث طويلاً حتى أصبحتْ لا تعنّ لي على الإطلاق. ولقد عزّاني عن احتقار السيدة دوبريل إياي ما أبداه لي حموها من رقة وطيبة إذ انتبه، آخرَ الأمر، إلى كوني هناك. ففي مساء يوم الغداء الذي تقدَّم ذكره، جرت لي معه محادثة دامت نصف ساعة، فرأيتُ أنه راضٍ، ففرحتُ جدّاً. ولئن كان ذلك الرجل الطيّب رجلَ ذكاء وفطنة، فإنه لم يؤتَ منهما ما قد أُوتيت السيدة دوفيرسيلّي، ولكن كان أغنى منها قلباً وأكرم نفساً، فأَصبتُ عنده من النجاح ما لم أُصب مثْله عندها. ثم إنه قال لي لألتحق بالأب دوجوفون ابنه الذي عطف عليّ؛ كما قال لي إنني إذا عرفتُ كيف أنتهز هذا العطف، انتفعتُ واكتسبت ما يعوزني في ما يراد بي من تقدّم وخير. فطرتُ صباح الغد إلى الكاهن فلم يستقبلني وكأنه يستقبل خادماً، بل أقعدني بالقرب من المدفأة، وجعل يسائلني وهو في غاية الوداعة، فتبيَّن له أن تعليمي، وقد ابتدئ بعدة موضوعات، لم يُكمَل في موضوع واحد معيَّن. فلما وجدني ضعيفاً، ولا سيما في اللاتينية،

twitter @baghdad_library

أخذ على نفسه أن يعلمني مزيداً منها. فاتفقنا على أن أوافيه كل صباح، فجعلتُ آتيه من غدنا. وهكذا بلوتُ ضرباً من الغرابة كثيراً ما واجهتُه في سيرتي سيان أن كنت فوق منزلتي أو كنت دونها؛ فكنتُ، في البيت عينه، تلميذاً وخادماً، كما كان لي وأنا مستعبَد، معلم من أبناء الأصول الذين لا يربّون إلاّ أولاد الملوك.

كان الأب دوجوفون شاباً شريفاً قد أعدَّته أُسرته لمرتبة الأسقفية، فأتاحت له من أسباب الدراسة والتحصيل فوق ما جرت العادة على إتاحته لذوي الجدارة من الأولاد. فأُرسل إلى جامعة سيانّ، وأمضى بها عدة سنوات، ثم عاد منها وقد حرص على سلامة اللغة وصفاء البيان حتى كاد يكون هو في تورينو على مثل ما كان عليه، في الماضي، الأب دو دانجو[5] في باريس. وذلك أن اشمئزازه من علم اللاهوت قد حمله على التبحر في الآداب، وهو أمر شائع في إيطاليا لدى مريدي الحياة الحبرية. وكان قد اطّلع على آثار الشعراء حقّ الاطلاع، فنظم باللاتينية والإيطالية أبياتاً هي بين بين. وفحوى القول أنه أُوتي من سلامة الذوق ما كفى لأن ينشئ ذوقي ويُدخل بعضَ النظام على ما قد اختلط في ذهني من حشو الموضوعات. لكنه ابتدأ بي في ما يعلو على مستواي جد العلو، ذلك إما لكون ثرثرتي أوهمتْه أني فوق ما أنا عليه من المعرفة، وإما لكونه لم يطق مبادئ اللاتينية وهي مبادئ مملة؛ فما أن جعلني أُترجم بعض حكايات فيدروس حتى غاص بي في أشعار فيرجيليوس فلم أكد أفهم منها شيئاً. ولقد كُتبَ عليّ، كما يتبيَّن في ما بعد، أن أتعلّم اللاتينية مراراً فلا أُتقنها أبد العمر. إلا أني اجتهدتُ في

(5) الأب لويس دو دانجو (1643-1723) عالم لغوي عضو الأكاديمية الفرنسية - المترجم.

دروسي، فأولاني الكاهن من طيبة عنايته ما أَذكرُه إلى اليوم ذكْرَ حنين. وكنت أقضي معه أكثرَ أَوقات الصباح آخذ عنه وأخدمه على السواء. وما أعني أنني كنتُ أخدم شخصه، فهو لم يحتمل قط أن أؤدّي له أيّ خدمة كانت، بل أعني أنه كان يُملي عليّ بعض الأقوال، وأنني كنتُ أنسخ بعض الأوراق. فأمسى عملي كاتبَاً للسر أنفع لي من عملي تلميذاً. فلم أتعلَّم الإيطالية على حقّ صفائها فحسب، ولكني، على هذا، ملتُ إلى الآداب وإلى حُسن الاختيار لبعض المؤلَّفات التي لم أقع عليها في حانوت لاتريبو والتي نفعتْني في المستقبل نفعاً وافراً لمّا جعلتُ أدرس وحدي.

ولقد أمكنني حينئذٍ، وأنا خلو من المشروعات الرومنسية، أن آمل في النجاح أملاً طبيعياً معقولاً في أكثر ما يكون. فإن الكاهن قد رضي عليّ فأشاد أمام الجميع بتقدّمي، كما أن والده شملني بعطف خاص حتى لقد تحدّث عني إلى الملك، وقد أخبرني بذاك الكونت دوفافريا. حتى السيدة دوبريل كفّت عن أن تنظر إليّ نظرة احتقار. وخلاصة القول أني غدوتُ موضوع حظوة في البيت، فحسدني سائر الخدم على ما أخذتُه عن نجل سيدهم وأيقنوا أني لن أبقى نظيراً لهم إلا إلى وقت قريب.

ولقد وجدتُ، بقدْر ما اتضح لي من آراء الأُسرة فيّ ومن بعض الكلمات التي أُرسلَتْ على الهامش والتي لم أفكر فيها إلا بعد زمن، وجدتُ أن أُسرة سولار، وقد رغبتْ في منصب السفارة ولعلها يوماً راغبة في منصب الوزارة، إنما كانت ترتاح إلى أن تهيئ لنفسها صنيعةً له مزاياه ومواهبه ولكنه تابع لأسرة سولار وحدها لا غير، فيفوز بثقتها، ويؤدي لها الخدمات. فكان هذا المشروع، وهو للكونت دوجوفون، مشروعاً نبيل القصد، حصيف الرأي، سامياً، كريماً، وخليقاً حقّاً بالسيّد الكبير، الخيّر، البعيد النظر؛ بيد أنني لم

twitter @baghdad_library

أُوف يؤمئذٍ على مدى المشروع كله وقد كان أعمق من أن يستوعبه عقلي، فضلاً عما يقتضيني الأخذ به من جهد وطول عناء. ولم يكن طموحي الأرعن ليبتغي نصيبي إلا عن طريق المغامَرات، فلما لم أَرَ في ذلك أجمع أثرَ امرأةٍ واحدة، لاح لي أن طريقتي هذه في الوصول ما هي إلا طريقة شاقّة، بطيئة، كئيبة. وإذ كان أحرى بي أن أجدها طريقة مشرّفةً ومضمونة، ولا سيما أن النساء لا يتدخلن فيها، فإن نوع الاستحقاق الذي كنّ يرعينه لا يساوي، بكل تأكيد، الاستحقاق الذي قدروه لي.

وجرت أموري على أحسن ما يرام. اكتسبتُ إعجاب الجميع، وكدتُ أنتزعه. وانتهت مرحلةُ الاختبار، فنظروا إليّ في ذلك البيت على أنني شاب عُلّقتْ عليه أعظم الآمال ولكنه لم يكن في مقامه، فتوقّعوا أن أصل إليه. بيد أن مقامي لم يكن ذاك الذي أراده لي البشر، وإنما كان ينبغي علي أن أتوصل إليه بسبل مختلفة جداً. وأنا، الساعة، قد وضعتُ يدي على أحد الملامح المميزة المخصوصة عليّ والتي حسْبي أن أبديها للقارئ من غير أن أُعلّق عليها.

ولئن كان في تورينو كثرة من المهتدين الجُدُد من أشباهي، فما ملتُ إليهم ولا رغبتُ قط في أن ألقى منهم أحداً. لكني لقيتُ بعض أهل جنيف ولم يكونوا من أولئك المهتدين؛ وكان في مَن لقيتُ امرءاً يدعى السيد موسّار ويلقَّب بفكّاك الحنك، وهو رسامُ منمنمات ولي به بعض القربى. اكتشف السيد موسّار هذا أنني أقيم في بيت الكونت دوجوفون، فجاءني مع شخص آخر من جنيف اسمه باكل كنتُ رفيقاً له أيام التدرب على صنعة النقش. وكان باكل، هذا، فتًى مسلّياً، فرحاً، طروباً، يروي فكاهات جعلتْها سنُّه في الممتعات. فشغفتُ به حتى إنني لم أقوَ على فراقه. وكان ينوي العودة إلى

جنيف بعد قليل. فيا لخسارتي آنئذٍ! لقد شعرتُ بهولها أجمع. فانتهزتُ، في الأقل، ما بقي له من وقت إقامة في تورينو فلم أفارقه في أثنائه قط، بل الأصح أنه هو نفسه لم يفارقني وقتئذٍ على الإطلاق؛ وذلك بأني، في أول الأمر، لم أفقد رشدي فأبرح القصر بلا استئذان وأَظل مع رفيقي طول النهار. فما لبثوا أن وجدوني قد تشغَّلتُ به في البيت، فمنعوه من القدوم، فاحتدمتُ غيظاً وذهلتُ عن كل شيء عدا صديقي باكل، فبتُّ لا أذهب لا إلى عند الكاهن ولا إلى عند الكونت دوجوفون، وباتوا لا يلمحوني في البيت. فوبخوني، فلم أُصغ إليهم. فهددوني بالطرد. فكان خرابي في هذا التهديد، إذ تبيَّن لي أنه في الإمكان ألا يرتحل باكل وحده. فأصبحتُ لا أرى من لذة ولا من مصير ولا من سعادة إلا في الرحلة معه؛ فإنما هي، عندي، رحلة لا توصَف متعتها وقد تصوَّرتُ في نهايتها السيدة دو فارانس، ولكن بَعْد وقت بعيد؛ أما عودتي إلى جنيف فلم أفكر فيها يومئذٍ قط. وقامت الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تتوالى على خيالي فلا تنفك تباشرني بسحر جديد، حتى لاح لي أن هذه الرحلة السعيدة خليقة أن تحتوي حياتي كلها. وحلا لي أن أتذكر مبلغ ما راقتني هذه الرحلة نفسها لمّا شخصتُ إلى تورينو. فكيف بها اليوم وأنا، مع مباهج الحرية والاستقلال، قد نعمتُ بصحبة رفيق هو في مثل سني وميلي، فضلاً عما رُزق من مرح وخفّة روح، فلا قيد علينا ولا فرْض ولا قسْر، وليس بنا من اضطرار إلى أن نذهب، أو إلى أن نبقى، إلا كما يطيب لنا؟ فمن ضحى بهذه السانحة من أجل طموح خطط بطيئة الإنجاز، صعبة، غير مضمونة، فإنما هو أحمق ولا ريب. ولو قُدّر لتلك الخطط أن تُنجَز يوماً، لما عدلتْ ربعَ ساعة من صفو الإمتاع والحرية والشباب.

وإذ استولت عليّ هذه النزوة الخيالية الحكيمة، سلكتُ سلوكاً

twitter @baghdad_library

أَفلحتُ معه في حملهم على طردي، والحقّ أنهم لم يطردوني من دون أسف وتألم. فبينما كنتُ راجعاً ذات مساء، إذ أبلغني كبير الخدم أن الكونت دوجوفون قد استغنى عني. فكان هذا هو ما قد توخيتُ، لأنني ـ على الرغم مني ـ لما شعرتُ بغرابة سلوكي، احتججتُ بأنهم قد تجنّوا عليّ، وحسبتُ أني أقوى على أن أخطّئ القوم وعلى أن أبرئ نفسي أُسوّغ لها أسباب انحيازي. فدعا بي الكونت دوفافريا، على أن آتيه صباح الغد قُبيل ذهابي. وكانوا قد رأوني في مثل دوار لا سبيل لي معه إلى أن أرتزق بأيّ شغل كان، فأدّى إليّ كبيرُ الخدم، وأنا خارج من عند الكونت دوفافريا، بعضَ النقود التي خصّوني بها والتي لم أستحقّها، إذ لم يُجروا لي أجراً رغبة منهم في أن لا أبقى في طبقة الخدام.

وجه إليّ الكونت دوفافريا، على حداثة سنه وعلى طيشه، أرزنَ الكلام؛ وأذهبُ إلى أن كلامه كان في غاية الحنان. وقال لي قولاً لطيفاً مؤثّراً أوضح فيه ما قد وفّره لي عمُّه من عناية وما قد نواني به جَدُّه من خير. وبيَّن كل ما أَفقدُه إذ أندفع نحو الخراب؛ ثم عرض أن يتوسط لأجلي بشرط ألا أعود البتة إلى لقاء ذلك الشقيّ الذي أغواني.

فتجلّى لي أنه لم يقل ما قاله من تلقاء نفسه، حتى إنني، مع ما أصابني من عمهِ أخرق، قد شعرتُ بكرم سيدي الشيخ الخيّر، فتأَثّرتُ. ولكن تلك الرحلة العزيزة رسختْ يومئذٍ في مخيَّلتي رسوخاً كان أقوى من أن يمحو سحرَه أيُّ إغراءٍ آخر كان. ففقدتُ رشدي كله، فاشتدّ عنادي، فتصلَّبتُ وتأَبّيتُ، فأجبتُه بتكبر قائلاً إنني ما دمتُ قد فُصلتُ من الخدمة، فلا سبيل إلى الرجوع لأن وقته قد فات، ومهما يَحلَّ بي، فإنني مصمم على أن لا أُطرَد من البيت الواحد مرتين. فغضب الشاب، ولقد حقَّ له أن يغضب، فوصفني بما

قد استأهلتُ، ثم دفعني من كتفيّ إلى خارج غرفته. فانطلقتُ ظافراً وكأني قد انتصرتُ أعظم انتصار، لكن كرهتُ أن أخوض معركة ثانية، فحملتْني قباحتي على أن أبرح البيت دون أن أمرّ بالكاهن فأشكر له ما قد أولاني من عطف ومعروف.

فإذا شئتَ أن تعرف مبلغ ما انتهى إليه هذياني في ذلك الأوان، كان لا بد لك من أن تعرف مبلغ ما يثور قلبي ويفور، ولا بد لك من أن تعرف مبلغ القوة التي بها يغوص قلبي في تخيّل الموضوع الذي يجذبه إليه مهما كان هذا الموضوع تافهاً في بعض المرات. وذلك أن أغرب الخطط الصبيانية وأحمقها ربما أَخذتْ بي تداعب فكرتي المستحبّة، تريني أن انقيادي لها أمرٌ واقع لا ريبة فيه. أَتصدّقُ أن شخصاً، يقارب التاسعة عشرة من العمر، يبني ما بقي له من حياة على قنينة فارغة؟ أما وهذا هو الحال، فاصغ إليّ.

كان الأب دوجوفون قد أهدى إليَّ، لبضعة أسابيع خلت، إناءً صغيراً جميلاً يُعرَف باسم إناء هيرون[6]، فسررتُ به أيّ سرور؛ ولفرط ما لهونا بالإناء يحوّل الماءَ خمراً، ولفرط ما تحدثنا عن رحلتنا، خيّل إلينا ـ أنا وباكل الحكيم ـ أن الإناء قد يصلح لنا في أثناء الرحلة ويطيل مدتها. وهل في الدنيا شيء غريب يثير الفضول كما يثيره إناء هيرون؟ فكان هذا المبدأ هو الأساس الذي بنينا عليه سعدنا؛ إذ كان ينبغي لنا، كلما مررنا بقرية، أن نؤلب على إنائنا القرويين، فتتدفّق علينا طيّبات المأكول تدفقاً غزيراً أيقنّا معه أن الطعام لا يقتضي مَن يلتقطونه شيئاً، فإذا لم يُتخموا المارّين، فإنما ذاك عن سوء نية. ولم

(6) هيرون رياضي إغريقي ولد في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد. اخترع الإناء المعروف باسمه، وهو «إناء ذو طبقتين مغلقتين تماماً يصل إحداهما بالأخرى أحدُ الأنابيب، فتملأ الطبقة العليا خمراً وتُملأ الطبقة السفلى ماءً، فيؤدي ضغط الهواء إلى تفجير الخمر على شكل مطفرة وكأن الماء قد تحوَّل خمراً» ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

نتصوَّر إلا الولائم والطيّبات تتلقانا حيث اتجهنا، فلا نضطر إلى أن ننفق شيئاً، وإنما اعتمادنا هو على حرارة أنفاسنا وعلى مياه إنائنا فهي تؤدّي عنا نفقات السفر في بلاد بيامونت وسافوى وفرنسا، بل في سائر العالم. فأنشأنا نضع خطط سفر لا نهاية لها، فوجَّهنا إلى الشمال رحلتنا في مبتدإ الأمر، لا تقديراً منا أننا سنحتاج إلى التوقف بمكان ما، بل رغبة في أن نقطع جبال الألب.

تلك هي الخطة التي ابتغيتُها فوضعتُها، فبرحتُ مُجيري، وبرحتُ مؤدّبي، وتركتُ دروسي، وتخليتُ عن آمالي، غير ندمان؛ وترقبتُ بختاً كدتُ أضمنه فبدأتُ حياة التائه المتشرّد. فيا أيتها المدينة العاصمة، وداعاً! والوداع أيها البلاط والطموح والغرور والحُبّ! والوداع أيتها الغواني ويا جميع المغامَرات الكبيرة التي ساقها إليّ الرجاءُ سنتَنا الماضية! فإني مرتحل مع إنائي وصديقي باكل وبعض النقود. أما قلبي، فلقد أَفعمه الحبور، فلم يخطر له إلا أن يستمتع بتلك الغبطة الجوّالة التي عليها قصرتُ خططي البراقة قصراً مفاجئاً.

فقمتُ بتلك الرحلة الغريبة وأنا في مثل ما توقَّعتُه من بهجة على وجه التقريب، لكني لم أقم بالرحلة على الطريقة عينها. ولئن كان إناؤنا قد ألهى، إلى بعض الأحيان، صاحبات الملاهي والخادمات فيها، فلقد كان لا مفرّ لنا من أن نؤدّي ما علينا ثمة عند الخروج. فلم نضطرب لذاك، لأننا لم نقصد أن نستغلّ موردنا حقَّ الإستغلال إلا عندما تعوزنا الدراهم. ولكن جرى ما جنَّبنا تلك المشقّة، إذ تحطَّم الإناء ونحن في جوار برامانت. ولقد آن له أن يتحطّم بعدما مللناه لسنا نجرؤ على أن نبوح إلى أنفسنا بما قد شعرنا به حياله من ملل. فزادتنا هذه الكارثة فرحاً على فرح، فضحكنا من خفّتنا ضحكاً بالغاً، وضحكنا من سهونا أن ثيابنا وأحذيتنا ستبلى، وضحكنا من ظننا أنّا نقدر على تجديدها بما يرد علينا من الإناء.

فواصلنا الرحلة بمثْل ما بدأناها به من مرح ونشاط، على أننا أخذنا نتجه نحو النهاية، وأمسى اتجاهنا أقلّ اعوجاجاً، ولقد ألجأَنا إلى تلك النهاية كونُ ما في كيسنا من نقود قد قارب النفاد.

حتى إذا كنا في شامبيري استولى عليّ التفكير في الحماقة التي ارتكبتُها ـ فليس في الناس مَن عرف مثلي كيف يتعزى عن الماضي تعزية سريعة ـ ولكن استولى عليّ التفكير في الاستقبال الذي ينتظرني عند السيدة دو فارانس، لأني كنتُ أعتبر بيتها وكأنما هو بيتي الأبوي. وكنتُ قد كتبتُ إليها أُطلعها على التحاقي بخدمة الكونت دوجوفون، فعلمتْ على أيّ وجه كنتُ أَعمل هناك، فهنّأتْني وأسدتْ إليّ نصائح رزينة حكيمة في كيف يجب أن أقابل المعروف الذي أَلقى. وعدّتني مضمونَ السعد إلا إذا هدمتُه بخطإٍ مني. فما عساها أن تقول حين تراني قد قَدمتُ؟ لم يمرّ ببالي أنها قد تُغلق بابها دوني، ولكن خشيتُ أن أكدّرها، وخشيتُ لومها لي وهو الذي كان، عندي، أقسى من البؤس. فاعتزمتُ أن أكابد ذلك كله مكابدة صامته، وعلى أن أبذل جهدي لأُهدّئ من روعها. وأَصبحتُ لا أرى في الكون شخصاً غيرها، فأن أُحرَم حظوتَها أمرٌ عندي لا يطاق.

أما أَشدَّ ما أزعجني فهو رفيق السفر وقد أَبيتُ أن أُثقل به على السيدة دو فارانس وخشيت ألا يسهل عليّ التخلص منه. فجعلتُ أُهيّئه للفراق، إذ أمضيتُ معه اليومَ الأخير وأنا على شيء من الفتور. فأَدرك ذلك الشخص الطريف العجيب ما يدور في نفسي؛ وكان إلى الجنون أميل منه إلى الغباء. أما أنا فحسبتُ أنه سيحزن لتقلّب حالتي، ولكني أخطأتُ لأن صديقي باكل ما كان ليؤثّر فيه أمر البتة. فما أن دخلنا مدينة أنّوسي حتى قال: «ها أنت ذا في بيتك»، فقبّلني وودَّعني ثم انفتل عني واختفى. ولم أسمع بعدئذٍ خبراً عنه. ولقد دام تعارُفنا وتصادُقنا ستة أسابيع؛ أما عواقب ذلك، فلسوف تدوم ما دمتُ حيّاً.

twitter @baghdad_library

ولكم خفق قلبي وأنا أدنو إلى بيت السيدة دو فارانس! اصطكت ركبتاي، وغُشّي على بصري، فعدتُ لا أرى ولا أسمع؛ ولو لقيتُ أحداً ممن كنتُ أعرف، لم أعرفه آنئذٍ قط. فاضطررتُ إلى التوقف عدة مرات أُريحُ نفسي وأستعيدها. فهل كان الخوف من ألا أنال المساعدة التي احتجتُ إليها هو ما أقلقني هذا القلق أجمع؟ أفي سني تلك يبعث الخوفُ من الجوع ما قد اعتلج في نفسي من ذعر واضطراب؟ كلا، ثم كلا: إني لأقولها قولة صدْقٍ وإباءةٍ معاً، إذ لم يتهيّأ للمنفعة ولا للعوز أن يسعداني ولا أن يكدّراني في يوم من الأيام. ففي كل مراحل حياة مسارها متفاوت وقلاقلها عالقة في ذاكرتي وغالباً ما كنت بلا ملجإ ولا خبز، نظرتُ، كل حين، إلى رخاء العيش وإلى بؤسه نظرة واحدة. فلو اضطررتُ، لشحذتُ أو لسرقتُ كما يفعل أيّ شخص آخر، ولكن هيهات أن يقلقني أني قد أُكرهتُ على تلك الحال. فإنّ قليلاً من البشر انتحبوا بقدْر ما انتحبتُ، وإن قليلاً منهم ذرفوا من الدمع قدْر ما ذرَّفتُ، ولكن لا الفقر ولا الخوف من الفقر حملاني على أن أتنهّد مرة واحدة وعلى أن أسكب دمعة واحدة. وإنّ نفسي، وهي تمتحن بختها، لم تعرف من الخيرات الحقيقية ومن الشرور الحقيقية إلا تلك التي ليست تابعة لها، فما وجدتُني أشقى الكائنات الفانية جميعاً إلا عندما لم يعوزني شيء مما هو ضروري.

ما إن أبصرتني السيدة دو فارانس حتى اطمأننتُ إلى منظرها. وأولَ ما سمعتُ صوتها ارتعشتُ، فارتميتُ على قدميها، وألصقتُ شفتيّ بيدها في فرح مني بالغ الإنفعال. ولستُ أدري هل كانت قد انتهت إليها أخباري، ولكن لم يبدُ لي على وجهها من دهشة تُذكر، ولا بدا لي عليه من كآبة قط. فقالت لي بصوت حنون: «يا صغيري المسكين، ها أنت ذا ثانية؟ كنتُ أعرف حقَّ المعرفة أنك أَحدثُ سناً

من أن تقوى على تلك الرحلة، وإني لمرتاحة إلى كونها لم تتحول إلى كل ما خفتُ عليك فيها من سوء». ثم سألتْني عن قصتي، فرويتُها لها رواية صادقة أمينة، بيد أني حذفتُ بعض الأمور، وما سواه فقد أوردتُه ما راعيتُ نفسي ولا اعتذرتُ.

ثم دار الكلام على سكناي. فشاورتْ خادمتَها، وأنا في أثناء ذلك ما أجرؤ على التنفس. فلما سمعتُ أن مبيتي هو في دارها، لم يسهل عليّ أن أتمالك؛ ورأيتُ رُزَيمةَ أمتعتي قد حُملتْ إلى الحجرة التي جُعلتْ لي، وذلك هو، تقريباً، على نحو ما كان سان برو قد رأى محفته تُحمَل إلى بيت السيدة دو فولمار[7] وازداد ابتهاجي إذ علمتُ أن هذا الصنيع ليس بالشيء العابر. وسمعتُ السيدة دو فارانس تقول وقد حسبتْني في شغل عنها: «ليقولوا ما شاؤوا، فإني مصممة ألا أتخلى عنه ما دامت العناية الإلهية قد ردّته إليّ».

فها آنذا، آخرَ الحال، قد استقرَّ مقامي في بيتها هي. بيد أن استقراري لم يَكن بَعدُ ذاك الاستقرار الذي به أَرّختُ أيام سعادتي في الحياة الدنيا، بل هو قد ساعدني على الإعداد له. ولئن كانت حساسية القلب هذه، وهي التي تمتّعنا بأنفسنا حقّ الإمتاع، عملاً من أعمال الطبيعة أو ربما كانت نتاجاً للتنظيم، فإنها كانت تحتاج لأوضاع تتعهد بتنميتها. ولولا العلل المناسبة تلك، لوُلدَ الإنسان المرهف الحس.عاش من دون أن يحسَّ بشيء قط، ولربما مات من دون أن يَعرف الكائن الذي هو. على ما يقارب هذه الحال كنتُ إلى ذلك اليوم، ولربما كنتُ بقيتُ عليها حتى آخر العمر، لولا أني عرفتُ السيدة دو فارانس ولولا أني ـ مع معرفتي إياها ـ عايشتُها زمناً

(7) سان برو، بطل رواية روسو **إيلوييز الجديدة**، طاف في العالم ثم قفل إلى سويسرا؛ وفي العبارة، ههنا، إشارة إلى ذلك - المترجم.

twitter @baghdad_library

طويلاً اكتسبتُ فيه ما عودتْنيه من حنان المشاعر التي ألهمتنيها. وإني أذهب إلى أن من لا يشعر إلا بالحُبّ، لا يشعر بأعذب ما في الحياة. فلقد بلوتُ شعوراً آخر لعلّه دون الحُبّ عصفاً؛ لكنه يفوقه حلاوةً بألف مرة ومرة؛ وهو يقترن بالحُبّ أحياناً، وينفصل عنه معظمَ الأحايين. وليس هذا الشعور هو الصداقة وحدها، بل إنه أشدُّ منها تشهّياً وأوفى حناناً؛ ولا إخال الإنسان يأتيه مثل هذا الشعور حيال من هو في مثل جنسه. وإذا كان في الناس أصدقاء، فلقد كنتُ أنا صديقاً ولا ريب، لكني لم أشعر حيال أحد من أصدقائي بمثل هذا الشعور قط. وما ذلك بالأمر الواضح، إلا أنه سيتضح، فالمشاعر لا يتأتى وصفها حقَّ الوصف إلا بما ينجم عنها.

كانت السيدة دو فارانس تسكن في بيت قديم بلغ من السعة ما اشتمل معه على غرفة إضافية ملائمة وُضع فيها ما أربى على الحاجة من أثاث ومتاع. فنزلتُ في تلك الغرفة، وهي تقع على الممر الذي تقدَّمَ ذكره إذ التقينا فيه أول مرة. وكان الريف يتبدّى من خلف الساقية والبساتين. وما كنتُ، أنا القادم الشاب، قليل الإكتراث لهذا المنظر. فتلك هي، منذ أيامي في بوسّي، أولُ مرة تنبسط فيها الخضرة أمام نوافذي. فطالما أَحدقتْ بي الجدران حتى لم تقع عيني إلا على السطوح ولون الشوارع الأغبر. فلكم أَبهجني المنظر الريفيّ الجديد! وكم طاب لي حتى إنه زاد ما فُطرتُ عليه من رقة وحنان! فرأيتُ، في ذلك المشهد الساحر، حسنة من حسنات نصيرتي العزيزة، وخيّل إليّ أنها إنما جعلتْه هنالك لأجلي. فتمثَّلْتُني بجوارها وادعاً مطمئناً، أنظر إليها من بين الأزهار والأعشاب، حتى تداخَلَ في قلبي سحرُها وسحرُ الربيع. فهبّتْ نفسي تنطلق بعد كبتٍ وتنفتح على مداها وسط ذلك المدى الفيّاح، وأخذتُ أتنهد بين البساتين في حرية لم أنعم بها من قبْل.

لم يكن عند السيدة دو فارانس الأبهة التي وجدتُها في تورينو، بل وجدتُ في بيتها النظافة والحشمة، فضلاً عن جوّ عائلي لا ينسجم هو والأبهة على الإطلاق. ولم يكن لديها كثير من الفضّية، ولا كان لديها شيء من الصينيّ قط، ولا كان في مطبخها لحمُ طرائد، ولا في قبوها خمور أجنبية، وإنما كان فيهما قدْرُ كفاية. وكانت قهوتها الطيّبة تُسكَب في فناجين من خزف. وما زارها أحد إلا دعي إلى أن يتغدى معها أو عندها، وما برح بيتَها أحدٌ من العمال والمراسيل وعابري السبيل إلا وقد أكل أو شرب. وكان عندها خادمةٌ، من فريبورغ، هي على قسط من الملاحة تدعى ميرسوريه، وخادمٌ من بلدها يدعى كلود أنيه، وسيأتي ذكره، وطاهيةٌ، وحمّالان كانا يُستأجران ليحملا محفة السيدة دو فارانس عندما تخرج في زيارة، وهذا أمر نادر. والواقع أن ذلك كله كثير مقابل ألف ليرة كدخل سنوي، غير أن دخلها، هذا، الضئيل، لو أُحسنَ تدبيره، لكفى ذلك كلَّه في بلد أَرضُه جيدة وماله قليل. ولكن في سوء الحظ أن الاقتصاد لم يكن الفضيلة المحبَّبة إلى السيدة دو فارانس، فكانت تستدين ثم توفي دينَها. وكان المال منها وإليها في ذهاب ورجوع. وكانت أمورها تسير على هذا النحو.

أما طريقة عيشها، فهي التي لو خيّرتُ ما اخترتُ سواها، فانتهزتُها وطبتُ بها نفساً. وأما ما لم يرقني جداً، فهو أننا كنّا نُمضي على المائدة وقتاً طويلا جداً، إذ شقَّ على السيدة دو فارانس أن تحتمل رائحة الثريد والطبيخ أول ما تفوح، حتى تكاد يغشى عليها منها، وكان ذلك لا يفتأ ينوبها منذ وقت بعيد. ثم تستعيد نفَسها تدريجاً، فتأخذ تتحدث، لكنها آنئذٍ لا تأكل، فهي لا تحاول أول لقمة إلا بعد ما يناهز نصف الساعة. ولقد كنتُ، في أثناء ذلك، أستطيع أن أتغدى ثلاث وجبات، وكنتُ أَفرغ من الطعام قبل أن

twitter @baghdad_library

تبتدئ به. حتى إذا ابتدأتْ عدتُ أشاركها فأكلتُ عديل شخصين ليس يعتريني ما يؤذي. ثم إني انقدتُ لنعمى العيش الرغيد الذي تقلّبتُ فيه وأنا مع السيدة دو فارانس، ولا سيمَا أن هذه النعمى لا خوف عندي على أسبابها أن تزول. فلما لم أكن قد اطلعت بعد على دخيلة أعمال السيدة دو فارانس اطلاعاً حميماً، قدَّرتُ أن أعمالها ما تزال على ما كانت عليه. ولقد شعرتُ في ما بعد، وأنا عندها في البيت، بالنعمى نفسها، ولكن كنتُ قد أصبحتُ أوفى اطلاعاً على حقيقة أعمالها فتبيّن لي أن دخلها لا ينهض بمستوى تلك المعيشة، فعدتُ لا أستطيبها بمثل ما كنتُ أستطيبها به من دعة وسلام. وذلك أن التبصر بالأمور دائماً ما نغّص عليّ التمتع بها. ألا أني أرى المستقبل في خسران ولكني لم أتمكن قطّ من أن أجتنبه.

ولقد توطدتْ بيننا، مذ يومنا الأول، أوثقُ روابط الإلفة ودُمنَا على هذا النحو حتى آخر عمرها. فغدا اسمي: الصغير، وغدا اسمها: ماما[8]، فبقيتُ أنا «الصغير»، وبقيتْ هي «ماما»، إلى أن كادت السنون تمحو ما بيننا من فرْق السن. وإني أجد هذين الاسمين قد عبّرا عن حقيقة علاقتنا وعن بساطة مسلكنا، وعبَّرا عما هو فوق ذلك إذ عبَّرا عما بيننا من وشائج. فكانت هي أحن الأمهات، ما ابتغت يوماً مسرّتها، وإنما أرادت خيري في كل حال. ولئن خالطت الحواسُّ تعلقي بها، فما غيّرن طبيعته، بل زدنه لذةً فانتشيتُ من سحر أُم لي شابة حسناء قد استطيبتُ تقبيلها وعناقها. وإني أقول هذا قولاً حرْفياً، لأن ماما لم يخطر لها قط أن تحرمني أَحرَّ قُبَل الأمومة

(8) جرت العادة في فرنسا وفي غيرها من بعض البلدان الأوروبية، في بعض ما سلف من العهود، أن يتوسع الناس في استعمالهم اسم «ماما» (Maman) كأن يطلقوه حتى على الفتاة، محبوبة كانت أم مخطوبة. ولقد استعملنا لفظة «ماما» على العَلَميّة إذ آثرناها، ههنا، على لفظة «أمي» ـ المترجم.

وعناقها ولأن نفسي ما سوَّلتْ لي في ذلك شيئاً من الإسراف. وقد يقال إن علاقاتنا اتسمتْ، في النهاية، بما يغاير ما كانت عليه في مبتدإ الحال. إني أُقرُّ بذلك، ولكن لا بد من الانتظار، فليس في طاقتي أن أُورد الأمور كلها معاً.

ولقد كانت نظرتنا الخاطفة، يوم التقائنا الأول، هي أوان الوجد الوحيد الذي أشعرتْني به ماما؛ غير أن ذلك الأوان أتى فجأةً. ثم إن نظري الفضولي لم يكن ليتسلل إلى ما تحت منديل عنقها، مع أن عنقها المكتنز، وقد حجبه المنديل، كان خليقاً بأن يجتذب إليه نظراتي. وكنتُ، وأنا معها، لا يفور شعوري ولا تثور شهوتي، بل يتولاني هدوءُ سحرٍ عجيب فأَتمتّع بما لستُ أدري ما هو. فلو قضيتُ العمر على تلك الحالة، بل لو بقيتُ فيها إلى أبد الدهر، ما ضجرتُ قط. فإن ماما هي المرأة الوحيدة التي لم أشعر معها بجفاء الحديث إذ عانيتُ في إذكائه مع غيرها ما يشبه التعذيب. ولم تكن خلوتنا خلوة محادثات بقدْر ما كانت خلوة ثرثرة لا تنضب إلا أن ننقطع عن القول. فكنتُ أَبعد من أن أُلزم نفسي بالكلام، حتى لقد كان ينبغي لي، في الأحرى، أن أُلزم نفسي بالكفّ عنه. ولطالما تردّت ماما في أحلام اليقظة لفرط ما تأملتْ في مشروعات لها وأعمال. فكنت أدَعها وأحلامها فأصمتُ أنظر إليها، أتأملها، فأغدو أسعد الناس. وكانت بي، إلى هذا، عادةٌ مضحكة متفردة. فإني لم أكن أطمح إلى ما في الخلوات من تبجيل، ومع ذلك كنتُ لا أنفكّ أَجُدّ وراء تلك الخلوة فأتمتّع بها بهوىً شغوف ينخرم إذا قطع خلوتنا أحد فيتحوّلَ إلى غضب مسعور. فما يدخل علينا أحد، وسواء عندي رجلاً كان أم امرأة، حتى أنطلق خارجاً أغمغم، لستُ أطيق أحداً معنا. فأذهب إلى الغرفة المجاورة أحصي الدقائق وألعن أولئك الزوار الدائمين ألف لعنة، لستُ أَفهم كيف أَمكنهم أن يتحدثوا هذا الوقت الطويل،

twitter @baghdad_library

وذلك لا لداعٍ إلا لأنني كان لديّ ما أقوله لها زيادة على أحاديثهم أضعافاً.

وما كنتُ لأشعر بمبلغ القوة التي وصلتْني بها إلا حين لا تقع عيني عليها. حتى إذا أبصرتُها، لم أشعر إلا بالسرور. فإن غابت عن نظري، قلقتُ حتى الألم. وكنتُ، لاحتياجي أن ألازمها، تنتابني فورات شعور كثيراً ما انتهت بي إلى الدموع. ولسوف أذكر أبداً أنني، يومَ عيدٍ كبير، مضيتُ أتنزه في خارج المدينة إذ هي قد ذهبتْ تحضر الصلاة، فملأتْ قلبي صورتُها واشتدّت رغبتي في أن أقضي بالقرب منها ما بقي لي من أيام العمر. ولكن كنتُ من سلامة الرأي على ما أدركتُ معه أن رغبتي ليست، آنئذٍ، في المستطاع، وأن سعادتي، التي كنتُ أتقلّب في نعماها، إنما هي إلى أجل قريب. فرانت على أحلام يقظتي كآبةٌ ليست البتة بالعبوس، فهوّنها عليّ ما قد لاح لي من أمل برّاق. ثم إن صوت الأجراس ولطالما هزّني، وصداح الطير، وروعة النهار، وجمال تلك الربوع، والبيوت الريفية التي انتشرتْ هنا وهناك والتي تصوّرتُ وسطها بيتنا المشترَك إن هذي كلها قد انطبعتْ في قلبي انطباعاً لطيفاً، عنيفاً، كئيباً، بالغ التأثير، حتى لقد أصبحتُ على غاية النشوة أتقلّب في ذلك العهد الطيّب والمقام السعيد اللذين أَفعما القلب مني بأصفى اغتباط قد استمتعتُ به في ما لا يوصف سحرُه، ليس يأتيني من الحواس قليلُ لذات ولا كثير. ولا أذكر أني انطلقتُ يوماً إلى المستقبل بقوة تفوق القوة والتوهم الذي كنت عليهما عهدئذٍ. وأَعجبُ ما استرعى انتباهي، وأنا أتذكر حلمي ذاك بعد ما صدق، هو أنني وجدتُ بعض الأشياء على تمام ما تخيلتها فيه. فإن يكن لحلم الإنسان في يقظته رؤيا نبوية، فإنما كانت في حلمي ذاك، بكل تأكيد. فما خيّبني الحلم إلا من جهة ديمومته الخيالية؛ فإن الأيام والسنين كانت تنقضي في دعة

شاملة، أما الحلم، فلا يدوم سوى أوانٍ واحد. فواحسرتاه! إنّ أثبت ما عرفتُ من سعادة قد أتاني في الحلم، فما إن صدق حتى صحوتُ!

ولو استرسلتُ أُفضّلُ الحماقات اللواتي كان ذكراي لماما العزيزة تحدوني على اقترافهن وأنا بعيد عن نظرها، إذاً لما فرغتُ من الاسترسال. فكم مرة قبّلتُ سريري أقول إنها رقدتْ عليه! وكم مرة قبّلتُ ستائري وكل مؤثثات حجرتي لأنهن ملكٌ لها ولأنها لمستْهن بيدها الجميلة! حتى أرضُ الحجرة كم مرة قبّلتُها وارتميتُ عليها لأنها سارت هناك! ولربما فرطتْ مني، وأنا معها، نزوات ما كان ليوحي بهن إليّ إلا أعنف الغرام. فبينما هي، ذات يوم، على المائدة تلتقم بعض الطعام، صحتُ أنْ هذه شعرة فيه، فلفظت اللقمةَ في صحنها، فأسرعتُ أتناولها في نهم وأزدردها. وخلاصة القول إنه لم يكن بيني وبين أوفى العشّاق وجداً إلا فرق واحد، لكنه فرق جوهريّ كادت معه حالي تتعذر على العقل والإدراك.

كنتُ قد عدتُ من إيطاليا، لا كما ذهبتُ إليها على وجه التمام، بل كما لم يكد يتهيأ لأحد في مثل سني أن يعود من إيطاليا. فلقد رجعتُ بعذريتي ولكن لم أرجع بعفتي. فأَحسستُ بتقدّم السنين؛ وتكشَّفَ، آخرَ الأمر، مزاجي القلق الذي لما تفجّر أول مرة، بلا إرادة مني، أشفقتُ منه على صحتي إشفاقاً هو خيرُ ما يصف براءتي إلى ذلك الوقت. ولم ألبث طويلاً حتى اطمأننتُ إلى صحتي، فتعلّمتُ تلك الوسيلة التي يحفّ بها الخطر والتي تخدع الطبيعةَ إذ تحلّ محلّها والتي تقي الشبانَ أشباهي كثيراً من ضروب الفجور والتي تضرّ صحتَهم وقوّتَهم وتودي بهم في بعض الأحيان. إن تلك الرذيلة، وهي متنفَّس لذوي الخجل والاستحياء، تستهوي أولي المخيّلات النشيطة، إذ تتيح لهم أن يثيروا الجنس بأجمعه كما

twitter @baghdad_library

يتشهون ـ إن جاز التعبير ـ وإذ تبيح لهم من أغراض الجمال ما يغويهم فيستخدمونه، بغيةَ اللذة لا حاجة بهم إلى موافقة منه ولا إلى قبول. فأغوتني الوسيلة المشؤومة، فقمتُ أعمل على هدم البنية الصحيحة التي وفّرتْها لي الطبيعة ويسّرتُ لها متسعَ وقت فتنمو حقّ النمو. أضف إلى تلك العادة وضعي الخاص، وقد أَقمت عند امرأة حسناء، أعانق طيفها في أعماق فؤادي ولا أنفك أنظرها طول النهار؛ فإذا أَقبل المساء، ألفيتُني قد أحاطت بي أشياء تذكّرني بها، واضطجعتُ على سرير أعلم أنها اضطجعتْ عليه. فآنئذٍ كم من مغريات إذا تمثّلهن القارئ، عدّني شبه ميت! ولكن الحال هي على الضد من ذلك، فإنّ ما وجب أن يقضي عليّ كان هو الذي أنقذني، إلى حين في الأقل. فلقد انتشيتُ من سحر الإقامة بالقرب منها، وانتشيتُ من إلحاح الرغبة في أن أسلخ العمر عندها، فرأيتُ فيها على الدوام، غائبة كانت أم حاضرة، أمّاً لي حنوناً، وأختاً حبيبة، وصديقة رائعة، ولم أَرَ فيها غير ذلك. ولقد رأيتُها على الدوام هكذا، فهي، عندي، هي عينها أبداً، وما كنتُ لأرى سواها على الإطلاق. فمثلتْ في قلبي صورتُها لم تبق فيه لغيرها موضعاً. كانت هي، عندي، المرأة الوحيدة في الدنيا، فألهمتْني من المشاعر ما هو عذب جداً وما لم يدَعْ حواسي تستيقظ إلا عليه، فعصمني منها هي ومن سائر ذوات جنسها. وموجز القول إني قد كنت حكيماً متزهداً لأني أحببتُها. فإن استطاع أحد، بحجة أساس هذه الآثار التي لا أُحسن التعبير عنها، أن يقول ما طبيعة تعلّقي بها فليفعل. أما أنا، فأقصَى ما يسعني أن أقول هو أنه إذا كان تعلّقي بها يلوح، منذ الساعة، غريباً عجيباً، فلسوف يبدو أغرب وأعجب أضعافاً مضاعفة.

كنتُ أُمضي وقتي على أمتع حال، مع أني قد شغلني أقلّ ما طاب لي عمله. وكان قوام عملي أن أكتب بعض المشروعات،

وأبيّض بعض المذكرات، وأنسخ بعض الحسابات، وأنتقي بعض الأعشاب، وأسحق بعض العقاقير، وأستخدم بعض الأنابيق. وكان عابرو السبيل والشحاذون والزائرون في شتى الطبقات يأتون من خلال ذلك، وحداناً وزرافات، حتى ربما وجب إطعام جندي وصيدلي وكاهن وسيدة حسناء وراهب خادم كلهم في آنٍ واحدٍ. فكنتُ أشتم، وأزمجر، وأحلف، وأدعو على الجمع اللعين أتمنى لو أَرجم بهم الشيطان. أما هي، وكان في طبعها أن تأخذ الأمور كلها أخذاً هيناً مرحاً، فكان حنقي يضحكها حتى الدموع، فتزداد ضحكاً إذا رأتني قد اشتدّ حنقي ولم أقدر، مع هذا، أن أكفّ عن الضحك. ولقد طابت تلك الساعات القصار التي سرّني فيها أن أتذمر وأزمجر، حتى إذا طرأ علينا، في غضون المعمعة، قادمٌ مزعج آخر، عرفتْ هي كيف تستغلّ قدومه، تفكهاً منها وتلهياً، فعمدتْ إلى إطالة زيارته ثم رمتني بنظرات وددتُ معهن لو ضربتُها. وكان يصعب عليها ألا تنفلت ضاحكة إذا بصرتْ بي حينئذٍ وقد قسرتُ نفسي تأدباً وتجملاً فحدجتُها بعينَي شيطان وأنا، في قرارة نفسي، بل حتى غصباً مني، أجد ذلك أجمع مضحكاً جداً.

ولئن لم يرقني ذلك كله في حد نفسه، فلقد سرّني إذ هو بعضٌ من العيشة التي أَحببتُ. ولئن كنتُ لا مَيْل عندي إلى كل ما عُمل حولي وإلى كل ما وجب عليّ عمله، فلقد سرى ذلك بأسره في مجرى قلبي. وأغلب الظن أنني كنتُ توصلتُ إلى أن أهوى الطب لولا أن ميلي إليه تسبَّب بمشاهد مضحكة؛ ولعلها المرة الأولى التي نشأ فيها عن صناعة الطب مثل هذه النتيجة. فلقد زعمتُ أنني أعرف كتاب الطب من رائحته لا غير، والأعجب هو أني قلما أخطأت في الشم. وكانت هي تذيقني أكرهَ العقاقير طعماً؛ ومهما هربتُ آنئذٍ، ومهما تحاميتُ، ومهما قاومتُ، ومهما تصعَّرتُ، فإني ما أكاد أرى أناملها التي خضبها لون العقار قد اقتربتْ من فمي حتى أفتحه

twitter @baghdad_library

مرغماً، آخر الأمر، وآخذ في المصّ. فإذا تألَّبَ الخدم جميعاً في الحجرة عينها وقد سمعونا نضحك ونصيح، ظنوا أن هناك من يمثّل إحدى الهزليات، ولم يظنوا أن هناك من يصنع بعض المعجونات أو بعض العقاقير الإكسيرية.

على أن وقتي لم يتصرح كله على تلك الألاعيب. فلقد وقعتُ في حجرتي على بعض المؤلَّفات وهي **المتفرج** (*Le spectateur*)، ومؤلَّفات لبوفاندروف، وسانت افرمون، و«لاهنرياد»[9] ومع أني لم أبقَ مولَعاً بالمطالعة ولعاً جنونياً، فلقد كنتُ إذا لم أجد ما آتيه غير القراءة، قرأتُ من ذلك كله الشيء اليسير. ثم إن **المتفرج**، على الأخص، قد راقني كثيراً ونفعني. وكان الأب دوجوفون قد علّمني أن أطالع وأنا أقلّ نهماً وأوفى روية، فأمست المطالعة أجزلَ لي فائدة. وتعودتُ أن أتفكر في دقائق العبارة وبلاغة التركيب وتدربتُ على أن أميّز الفرنسية الصافية من لهجتي الإقليمية. وكنتُ ـ مَثَلاً ـ أقع وسائر أهل جنيف في خطإِ إملاءٍ صححه لي هذان البيتان من «لاهنرياد».

..«إما أن احتراماً قديماً لسلالة أسيادهم

لم يزل يشفع فيه إلى قلوب أولئك الخائنين».

Soit qu’un ancient respect pour le sang de leur maitres
parlât encore pour lui dans le coeur de ces traitres...

فتعلمت من لفظة parlât، وقد أثارت انتباهي، أن الفعل الماضي إذا استعمل في بعض صيغ الغائب، خُتم بحرف t؛ في حين قد كتبتُه ونطقتُ به إلى الآن هكذا: parla على صيغة أخرى للماضي.

---

(9) *Le spectateur* أي **المشاهد** [**المتفرج**] *La Henriade*. أي «الهنريّة» وهي ملحمة لفولتير على الملك هنري الرابع ـ المترجم.

وكنتُ ربما كلَّمتُ ماما على ما أطالع، وربما قرأتُ وأنا بالقرب منها فأتيحتْ لي متعة فائقة؛ ولقد تمرنتُ على إتقان القراءة، فانتفعتُ بذلك أيضاً. قلتُ إن ماما كانت على ذكاءٍ أنيقٍ بلغَ أيامئذٍ غاية الريعان. فخفَّ عدة رجال من أهل الأدب يلتمسون رضاها، فعلّموها كيف تنظر في أعمال الفكر. ثم إنها أُوتيتْ قسطاً من الذوق البروتستنتي [الإنجيلي]، إن جاز التعبير، فما تكلّمتْ إلا في بايل، وتضاعفَ اهتمامها بسانت افرمون وكان قد توفي بفرنسا منذ ردح من الزمن، لكن ذلك لم يحلْ دون أن تطّلع على الأدب الجيد الرفيع ولا حال دون أن تجول في موضوعه جولات موفقة. فلقد نشأتْ في جمعيات النخب الجيدة، فلما قدمتْ أحلت بالسافوى وهي لا تزال شابة، أفقدها اتصالُها بعلية القوم في هذه البلاد لهجة إقليم فو المتصنعة، والنساء في فو يحسبن أن آداب المجتمع إنما هي في شغفهن بالأدب، فلا يُحسّن النطق إلا بالشعر هجواً في ألغاز.

ولئن لم ترَ هي البلاط إلا رؤية عابرة، فلقد تولته بنظرة سريعة كفتها لأن تعرفه. احتفظتْ، على الدوام، بأصدقاء لها في البلاط، ولم تفقد مرتّبها قط، برغم الحسد الخفيّ، وبرغم التذمرات التي أثارها سلوكها وديونها. ولقد رُزقتْ معرفة بالدنيا وافية ومقدرة على التفكير انتفعتْ بتلك المعرفة. وكان ذلك الموضوع هو، عندها، أَحبّ الأحاديث، وكان ذلك، ـ وأنا على ما أنا عليه من الأفكار الوهمية ـ هو ما قد احتجتُ إلى أن أتعلّمه أقصى احتياج. كنا نقرأ معاً لابروبير. فيعجبها أكثر ما يعجبها لاروشفوكو، فهذا كتابه مكدّر حزين ولا سيما في عهد الشباب الذي لا يروقه أن يرى الإنسان كما هو عليه. فكانت إذا أرسلتْ بعض الأقوال في الأخلاقيات، ربما تاهت في بعض المقامات الفضائية، ولكني، في الحين بعد الحين، كنت أبوسها على ثغرها أو على يديها، فأتجلّد ولا أملّ هذا التطويل.

twitter @baghdad_library

وكانت هذه العيشة أحلى من أن تدوم. فشعرتُ بذلك، وما نغّص عليّ تمتعي بها إلا قلقي إذ رأيتُها إلى انقضاء. وكانت ماما، وهي تلاعبني، تسبر أغواري وتراقبني وتسائلني وتُعدّ لإسعادي مشروعات كنتُ في غنى عنهن. ومن حسن الحظ أنها لم تقتصر أن تقف على ميولي وأذواقي ومواهبي العادية، وإنما كان لا بد أن تنتهز المناسبات، أو أن تخلق المناسبات، حتى يمكن الانتفاع بتلك الميول والأذواق والمواهب؛ وما كان ذلك ليتأتى في وقت يسير. حتى الآراء المسبَّقة، التي كانت تلك المرأة الطيّبة قد تصوّرتها في شأن استحقاقي، أخّرت انطلاقه وزادتني تصعباً في اختيار الوسائل التي يقتضيها مثل هذا الانطلاق. فكان من حُسن رأيها فيّ أن كل شيء قد جرى على حسب رغبتي. ولكن وجب أن تَقصر من حُسن رأيها ذاك، فودّعتُ منذئذٍ السكينة والسلام. فزارها يوماً قريب لها يدعى السيد دوبون، وكان وافر الذكاء، دسّاساً، مغامراً، قد جُبل مثلها على وضع المشروعات، لكنه لم يتح لمشروعاته أن تخربه، وكان قد اقترح على الكاردينال دوفلوري مشروع يانصيب مركّباً جداً، ولم يُستسغ مشروعه. ثم ذهب يقترحه على بلاط تورينو فقُبل ونُفّذ. توقف الرجل في أنّوسي بعض الوقت، فأُغرم بالسيدة قرينة الناظر الملكي، امرأة جمّة اللطف وجودة الذوق، وهي الشخص الوحيد الذي طاب لي أن ألقاه في بيت ماما. فرآني السيد دوبون، فحدثتْه بي نسيبته، فتولى امتحاني ليتبين ما لعلي أصلح له من عمل؛ وإذا هو وجدني على كفاية، قام يبحث لي عن وظيفة.

أرسلتْني إليه مدام دو فارانس مرتين، أو ثلاثاً، وقد احتجّتْ ببعض الأمور ولم تطلعني على ما تنوي بهذا الصدد. فأفلح الرجل ببعثي على الثرثرة، وآنسني، وأراحني ما أمكن، وكلّمني في ما لا طائل تحته وفي شتى الموضوعات، ليس يبدي، من خلال ذلك

كله، أنه يراقبني ولا يلوح عليه أقلّ تكلّف، بل يُظهر كأنما قد طابت له زيارتي فأراد أن نتحادث في غير مشقّة ولا إزعاج، فارتحتُ وفرحتُ. فكانت نتيجة ملاحظته إياي أنني، مع ما يَعدُ به منظري ومع نشاط هيئتي، فتًى ضئيل الذكاء، ضعيف التفكير، قليل المعرفة، وإن لم أكن غبياً. وموجز قوله إني كنتُ، في كل ناحية، محدوداً، وأن نصيبي الأرفع [في الدنيا] الذي يَحُقّ لي أن أطمح إليه هو أن أصبح كاهناً قروياً. ذلك ما قاله في شأني للسيدة دو فارانس. فكانت هذه ثاني مرة، أو ثالث مرة، يُحكَم عليّ فيها بمثْل هذا الحكم، ولم تكن هي المرة الأخيرة، فإنّ حكم السيد مسايرون(10) قد ثُبّت مراراً.

ثم إن أسباب هذه الأحكام تتصل بطبعي اتصالاً هو أوثقُ من أن يحتاج إلى توضيح؛ فمن حيث الوعي يشعر الناس حقّ الشعور بأني لا أستطيع أن أوافق على تلك الأحكام موافقة صادقة، وبأنني لا يسعني، بكامل التجرد، أن أسلم بأقوال السيدين ماسيرون ودوبون ولا بأقوال الكثيرين غيرهما تسليماً حرفياً مطلقاً.

لقد اجتمع فيّ أمران يكاد يتعذّر أن يجتمعا، ولستُ أدري كيف اجتمعا فيّ. أما الأمران، فهما طبعٌ حادّ جداً، جيّاش الأهواء، عنيفها؛ وأفكار تتوالد ببطء، مختلطة، لا تتكشف أبداً إلا بعد فوات الوقت. لكأنَّ قلبي وعقلي ليسا لشخص واحد. فإن الشعور يفعم نفسي بما هو أَسرع من الومض، لكنه يكويني ويغشّي على بصري بدل أن ينير لي السبيل. إني أُحسُّ بكل شيء ولا أرى شيئاً. إني أندفع انفعالاً، ولكني أكون حينئذٍ بليد الذهن، فلا يمكنني التفكير

(10) السيد مسايرون هو الكاتب العدل الذي عمل عنده روسو فخرج طرداً، على ما ذكر في الفصل الأول من هذا الكتاب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

إلا وقد سكن روعي. والغريب أني صاحب بصيرة صائبة بما فيه الكفاية، وصاحب رأي نافذ وتفكير دقيق شريطة أن يتاح لي الوقت. فإن كنتُ على تفرغ، أحسنتُ ارتجالاً؛ أما على الفور، فما عملتُ ولا قلتُ قط من أمرٍ نفيس، وإني أقيم محادثة رائعة، شرط أن أفعل ما يفعله الإسبان عندما يلعبون بالشطرنج مراسلة. فلما قرأتُ جواب أحد دوقات سافوي، ـ إذ التفتَ إلى الوراء وهو يواصل طريقه، ثم صاح يقول: «على عنقك، أيها البائع الباريسي!» ـ قلتُ: «هاآنذا»[11]

ولستُ بطيء التفكير، حادّ الشعور في أثناء الحديث فحسب، بل أنا على ذلك ولو كنتُ وحدي، أو حتى إذا عملتُ. فإن الخواطر تتسق في ذهني اتساقاً عسراً لا يمكن تصوره، فتدور فيه خفيةً وتختمر حتى تستثيرني فأحتدم، ويأخذ قلبي في الخفقان لستُ أتبين، وأنا على هذا الانفعال، شيئاً واضحاً ولا يسعنى أن أكتب حرفاً واحداً، وإنما لا بد لي من الانتظار. ثم يسكن عني هذا الاضطراب الكبير وينتظم في ما سلف من دواعي الفوضى، فيعود كل شيء إلى موضعه، ولكن في مهل، بعد قلق غامض طويل. ألم تشاهد، بعضَ الأحيان، الأوبرا في إيطاليا؟ ففي خلال تغيير المشاهد، يسود تلك المسارح الفسيحة فوضى مزعجة تستمر وقتاً غير يسير تختلط في أثنائه ألوان الزينة، على مناظر متداعية متناقضة يخيَّل إليك معها أن كل ما هنالك منقلب حتماً، إلا أنه لا يلبث حتى ينتظم تدريجاً، فلا يبقى من ثغرة ولا نقصان، فترى إلى

---

(11) قيل إن الدوق المذكور عرض على البائع ثمناً بخساً، فرده عليه بغلظة وإيجاز، فواصل الدوق طريقه، ثم التفت إلى البائع فوجّه إليه جوابه، هذا، المتأخر، ومؤداه أن «لأشدّدنّ على عنقك أيها البائع الباريسي - المترجم.

المشهد الرائع يخلف الضوضاء. ذلك هو، على التقريب، ما يضطرب في ذهني إما أَردتُ الكتابة؛ فلو عرفتُ كيف أنتظر بادئ بدء ثم عبَّرتُ عن الأشياء التي تتمثل في ذهني تعبيراً يؤديها بما هي عليه من جمال، إذاً لما تفوَّق عليّ إلا قليل من المؤلّفين.

ههنا منشأ الصعوبة القصوى التي أعانيها في الكتابة. وهذه مخطوطاتي تشهد على ما قد جشّمتْني من جهد ومشقّة، لما بها من الشطب والتلطيخ والتشابك ومن تعذّر قراءة الخط. فلا مخطوط لي إلا اضطررتُ أن أعيد نسخه أربع مرات، أو خمساً، قبلما سلّمتُه إلى المطبعة. وما استطعتُ يوماً أن أنشئ والقلم بيدي، ولا وأنا قبالة مكتبي وأوراقي. ولكن بالذهن أبتدئ الكتابة وأنا أتنزه بين الصخور والغابات، أو إذ أنا بالسرير ليلاً وقد أَرقتُ. ففي وسعك أن تدرك مبلغ بطئي في الكتابة ولا سيما أني امرؤ لا حافظة له كلامية ولا مكنة عنده أن يعي عن ظهر قلب ستة أبيات شعر. وإن من العبارات ما قد أَدرتُه في ذهني وأَعدتُه، خمس ليال، أو ستاً، قبلما صلح لأن أجعله على الورق. ومن هنا أيضاً، أنني، في الكتابات التي تقتضي المجهود، أكثر توفيقاً مني في تلك التي تؤدّي ببعض السرعة كالرسائل؛ فهذه ضرب من الكتابة لم أقدر على الأخذ بأسلوبه يوماً، فإما تعاطيتُها، بتُّ في عذاب، وذلك أني لم أنشئ مرة رسائل على أبسط الموضوعات إلا اقتضاني إنشاؤها كدّاً ونصباً، فإذا أَردتُ أن أكتب فوراً ما يعرض لي، لم أدر من أين أبدأ ولا إلى أين أنتهي، فكانت رسالتي أَشبه بحشو لفظيّ غامض طويل لا يكاد قارئه يفهم منه حرفاً.

ثم إنني يصعب عليّ أن أُفصح عن أفكاري فحسب، ولكن، إلى ذاك، يشقّ عليّ حتى أن أتلقاها وأن أستوعبها. ولقد درستُ البشر، وإخالني دقيق الملاحظة، ومع هذا، لا أَعرف أن أرى شيئاً

twitter @baghdad_library

مما أنظر، وإنما أنا أُحسن رؤيةَ ما أتذكر؛ فما لي من ذكاء الا بالذكريات. أما ما يقال وما يُفعل وما يجرى إذ أنا حاضر، فلا أشعر بأمر منه ولا أكتنه منه أمراً. فالمعنى الخارجيّ إنما هو وحده الذي يؤثّر فيّ. ولكن بعد ذلك يعاودني كل شيء: فأذكر المكان، والوقت، والصوت، والنظرة، والإشارة، والمناسبة، ليس يفوتني شيء منها كلها، وآنئذٍ، فمما عُمل، أو مما قيل، أتبين ما قد جرى به الفكر لستُ أخطئ إلا نادراً.

فما دمتُ، وأنا وحدي، لست بمسيطر على ذهني إلا قليلاً، فتصوَّرْ حالتي أثناء المحادثة وقد وجب عليّ أن أفكر، هنا والآن، في أَلف شيء وشيء لأجل أن يأتي كلامي في محلّه وأوانه. ثم إن تفكيري في هذا النحو من المجاملات، التي لا أشك أني قد نسيتُ بعضاً منها على الأقل، يكفي وحده لأن يزعجني؛ بل إني لا أفهم كيف يجرؤ الإنسان أن يتحدث وسط الجماعة وقد وجب عليه أن يمرّ بنظراته على جميع الحاضرين، يقف على طباعهم كلها ويقف على قصصهم لئلا يقول ما يسيء إلى أحد منهم. والواقع أن لمن يعيشون بين المجتمعات أفضليةً بالغة على سواهم، إذ هم أَشدّ ثقةً بما يقولون لأنهم أدرى بما عليهم أن يفعلوا؛ ومع ذلك، فكثيراً ما فرطتْ منهم البلاهات قولاً وعملاً. فكيف بمن هبط من أجواء الخيال فكاد يتعذّر عليه أن يتحدث لحظة إلا وقد فرطَ منه ما يؤذي؟ أما عندما يختلي شخصان، فإن للحديث آفة أخرى أجدها أَسوأ من غيرها، وهي أن الإنسان يُضطر إلى التكلّم بلا انقطاع: فإذا خوطب، وجب عليه أن يجيب، وإذا ساد الصمت، وجب إذكاء الحديث. إن هذا القسر، الذي لا يطاق، كان وحده كفيلاً بأن ينفّرني من المجتمع. فلا كلفة أشقّ عليّ من أن أُضطر إلى التكلم فوراً في كل حال. ولستُ أدري هل لهذا من علاقة بمقتي للقسر على اختلاف

ضروبه، ولكن الذي أدري هو أنه يكفي أن أُضطر إلى التكلّم حتى ألغو في القول لا محالة.

وأسوأ من ذلك كله هو أنني إذا لم يكن لديّ ما أقول، لم أعرف كيف ألزم الصمت، بل انطلقتُ أريد الكلام رغبةً في أن أتخلص منه في أسرع وقت مستطاع، فتعجلتُ متلعثماً في جمل من الكلام خالية من الأفكار، وأنا سعيد جداً لأنها لا تعني شيئاً البتة. فإذا أردتُ أن أتغلب على بلاهتي، أو إذا أردتُ أن أخفيها، فقليلاً ما فاتني أن أظهرها. وعندي عن ذلك ألف مثال ومثال مما يمكنني ذكرُه، إلا أني أختار مثالاً واحداً لا يرجع إلى أيام الشباب، بل يعود إلى أيام عشتُها وسط المجتمع عدة سنوات كنت فيها خليقاً بأن أكتسب ما في المجتمع من يُسر السلوك قولاً وفعلاً لو أن الأمر هو حقاً في الإمكان. وذلك أني كنتُ، ذات عشيّ، مع سيدتين من كبريات السيدات ورجل أستطيع أن أورد اسمه وهو الدوق السيد دوجونتو. ولم يكن في الحجرة أحد سوانا، فجهدتُ في إرسال كلمات ـ علم اللهُ أيّ كلمات هي! ـ على حديث قد جرى بين أربعة أشخاص ثلاثة منهم ليس لهم من حاجة إلى أن أُعيْنهم فيه. فاستحضرتُ ربّة البيت عقاراً كانت تتناول منه كل يوم مرتين فتداوي به معدتها. فرأتها السيدة الأخرى قد تصعّرتْ، فقالت لها: «أهذا من عقار السيد ترونشان؟» فأجابتها قائلة: «لا أَحسبه منه». فما كان من روسو الخفيف الروح إلا أن أضاف يقول: «ما أظن هذا العقارَ خيراً من ذاك». فلبث الجميع لا يحيرون جواباً ولا تفلت منهم كلمة واحدة ولا ابتسامة، ثم تحوَّل الحديث إلى ناحية أخرى. ولو أَصبتُ بغباوتي امرأة غيرها، لربما أضحكتُها، لكني وجَّهتُ غباوتي إلى سيدة هي أرقّ لطفاً من أن لا تدير الحديث على نفسها، فعظم عليها قولي وإن لم أقصد الإساءة إليها. وإخال الشاهدَين، الرجل والمرأة،

twitter @baghdad_library

قد صعب عليهما أن لا ينفجرا ضاحكين. هذا مثَل من تلك اللطائف التي تفرط مني لا لسبب إلا لرغبتي في التكلّم وليس عندي ما أقول. وهو مثَل لن يسهل عليّ نسيانه، فعلاوة على كونه جديراً بالتذكر في حدّ ذاته، له نتائج وتبعات غالبا ما تعيد إليّ.

وأحسب هذا كافياً لأن يبيّن أني، وإن لم أكن غبيّاً، فحتى أصحاب الرأي الصواب كثيراً ما عدّوني في الأغبياء. ومما زادني سوءَ جَد أن سحنتي ونظراتي كان يرجى منها فوق ما أبدت مراراً، ولكن خاب هذا الرجاء، فبرزتْ بلاهتي وتضاعفَ وقعُها على الآخرين. وما كان إسهابي ههنا، وقد نشأ عن مناسبة معيّنة، ليخلو من منفعة لما يأتي ذكره. فإن هذا الإسهاب يفسر أموراً شاذة كثيرة ارتكبتُها فعُزيتْ إلى فطرة مستوحشة لستُ منها في شيء. ولولا يقيني بأن ظهوري في المجتمع لا يضيرني فحسب، لكنه، إلى هذا، يبديني على غير ما أنا عليه، إذاً لكنتُ أَحببتُ المجتمع كما يحبّه أيّ إنسان آخر كان. وإنما اختياري الكتابة والعزلة هو ما قد لاءمني حقّ الملاءمة. فإني، حاضراً، لا يقدر قيمتي أحد ولا يشعر بها أحد؛ وهذا ما جرى للسيدة دوبان، مع كونها امرأة ذكية ومع أني أَقمتُ في بيتها عدة سنوات، فذكرتْه لي مراراً. وعلى كل حال، فإن ذلك كله يحتمل بعض الاستثناءات، وسأعود إليه في ما يلي.

أما وقد حُدّدت مواهبي ووحدد الوضع الذي يلائمني، فلم يبقَ إلا أن ألبّي الدعوة مرة ثانية[12]، لكن الصعوبة هي أنني لم أُكمل دراستي؛ حتى اللغة اللاتينية لم أعرف منها ما يكفي لأن أصبح كاهناً. وخطر للسيدة دو فارانس أن ترسلني لكي أدرس في المعهد

(12) أما المرة الأولى، فهي يوم تدرَّبَ روسو على بعض الصناعات اليدوية مما تقدَّم ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب ـ المترجم.

الإكليريكي بعض الوقت. فكلّمتْ رئيس المعهد، وهو كاهن لعازري يدعى السيد جرو، وكان رجلاً طيّباً، صغير القامة، شبْه أعور، هزيلاً، أشيب. وكان أوفر من عرفتُ من اللعازريين حدّةَ ذكاء وخفّةَ روح، وأقلّهم ادعاءً للعلم وتظاهراً به، والحقّ ما هذا بالقول الكثير.

كان يأتي ماما في بعض الأحيان، فترحّب به وتداعبه حتى إنها كانت تزعجه، وربما رغبت إليه في أن يوثقها برباط، فيفعل عن طيبة نفس. وإنه ليوثقها إذ تنطلق في الحجرة، من هناك ومن هنا، تقوم بأمرٍ ما تارة، وتارة تقوم بأمرٍ آخر، ورئيس المعهد يجري وراءها وقد اجتذبه الرباط فأخذ يدمدم عليها ويقول: «سيدتي! هلا توقفت، هلا هدأت!» فكان المنظر على نحو من الطرافة.

ولقد وافق السيد جرو على ما خطته لي ماما ورضي عنه، وقنع بنفقة زهيدة جداً وتولى تعليمي، شرط أن يوافق الأسقف. فلم يكتف الأسقف بالموافقة، بل أراد أن يؤدي هو النفقة. وأَذن لي أن أظل في اللباس المدني إلى أن يتيح الامتحانُ تقديرَ ما يرجى أن أصيب من نجاح.

فيا له من تغيّر وجب عليّ الإذعان له! فمضيتُ إلى المعهد الإكليريكي وكأني ماضٍ إلى التعذيب، لأن هذا المعهد مثوًى كئيب الوجه، حزين، ولا سيما عند من أتى من بيت امرأة مُحبّة. وحملتُ كتاباً واحداً كنتُ قد رغبت إلى ماما في أن تعيرني إياه، فنلتُ به نفعاً جزيلاً. ولن يخمّن أحد أيّ صنف من الكتب كان: لقد كان كتاب موسيقى. فبين ما تعهدتْه ماما من المواهب، لم تغفل عن الموسيقى، إذ أُوتيتْ عذوبة صوت، وكان غناؤها مقبولاً، وكانت قليلاً ما تعزف بالكلافسان. فتفضلتْ عليّ ببضعة دروس في الغناء، ولم يكن لها بد من أن تلقنني مبادئ الدروس لأني لم أكن أعرف إلا نزراً من ألحان مزاميرنا. وما كانت ثمانية دروس أو عشرة دروس

twitter @baghdad_library

غير منتظمة تؤديها امرأة ما كانت هذه الدروس لتمكنني من أن أُنشد النغمات ولا من أن أتعلم ربع الطبقات. إلا أني شغفتُ بالموسيقى وأردتُ أن أحاول التمرّن عليها وحدي. ولم يكن الكتاب الذي جئت به معي هو من أهون كتب الموسيقى، بل كان أناشيد لكليرامبو. وأنا أدع القارئ يتصوّر مبلغ اجتهادي وإصراري إذا ذكرتُ أني ـ مع كوني لم أعرف شيئاً من إبدال الألحان ولا من أوزان تقاطع الكلمات ـ استطعتُ أن أقرأ وأغنّي الإلقائية الأولى واللحن الأول من أنشودة «**ألفيه وأَريتوز**»[13] لستُ أخطئ؛ ولا يخفى أن هذا اللحن قد وُقّع توقيعاً صحيحاً جداً حتى لا ينبغي للمنشد إلا أن يلقي الأبيات على وزنها ويضيف إليها وزن اللحن.

وكان يؤمّ السيمينار لعازريّ لعين جُعلتُ في عهدته. فكرّه إليّ اللاتينية التي أراد أن يعلّمنيها. كان ذا شعر مسترسل كث فاحم، ووجهٍ كأنه قرص الحلوى، وصوتٍ يُذكّر بخوار الثور، ونظرة كنظرات الهر إذ يموء، وهُلْب خنزيرٍ برّي بدلَ اللحية، وابتسامةٍ متشنجة؛ أما يداه ورجلاه، فكانت تتحرك وكأنها بعض الدواليب. ولئن نسيتُ اسمه المبغَض، فإنّ وجهه المرعب، والبشوش بطريقة متكلفة، قد رسخ عندي، فما تذكرتُه مرة إلا ارتعشتُ، وربما خيّل لي أني ما أزال ألقاه في بعض الممرات يشير إليّ بقبعته الوسخة لكي أدخل غرفته التي كانت تخوّفني أكثر مما يخوّفني الحبس المزنّد. فليقدّر القارئ ما قد عانيتُ من تناقض هذا المعلّم هو والكاهن العريق[14]

ولو أَقمتُ شهرين تحت رحمة هذا الوحش، ما احتملتُ

(13) «ألفيه وأريتوز» (Aplhée et Aréthuse) ـ المترجم.
(14) الأب دو جوفون - المترجم.

الإقامة ولا ريب. إلا أن السيد جرو الطيب رآني كئيباً، قليل الأكل، قد أخذ بي الهزال، فأدرك علّة حزني ولم تكن صعبة الإدراك، فأنقذني من براثن هذا الوحش وأسلمني ـ بضرب من التناقض هو أبرز من التناقض الأول ـ إلى أودع الناس، كاهن شاب من بلاد فوسينيي يدعى السيد جاتييه، وكان يكمل دراسته في المعهد، فشاء أن يُسقط منها وقتاً لكي يوجه فيه دروسي وذلك لرغبته في إرضاء السيد جرو ولشعوره الإنساني الكريم. فما رأيتُ قط وجهاً أبلغَ تأثيراً في النفس من وجه السيد جاتييه. كان فتًى أشقر قد مالت لحيته إلى بعض الحمرة ولاحت عليه هيئة سكان الأقاليم، وهم الذين تحت قسوة قلوبهم يُخْفون ذكاء جمّاً. بيد أن أبرز ما لاح عليه نفسٌ مرهفة الحسّ، راضية، مُحبّة. ولقد جال في عينيه الواسعتين الزرقاوين مزيجُ رقة وحنان وحزن، فمن نظر إليه لم يسعه إلا الاهتمام به. فكأن نظرات هذا الشاب المسكين وصوته وسلوكه كانت توحي بأنه قد توقَّع مصيره فشعر بأنه وُلد لكي يشقى.

وما كان خُلقه ليكذّب هيئته. فكان طويل الصبر، جزيل الفضل. فعلّمني وكأنه يدرس معي. فما احتجتُ إلى هذه المزايا كلها حتى تُحبّبه إليّ، لأن سلفه قد هوّن عليّ الأمر جداً. ولكن، مع ما قد منحني هو من وقته، وما لدينا من حسن إرادة ومع جودة طريقته في التعليم، كنتُ قليل التقدّم وإن إجتهدتُ كثيراً. والغريب أنني، على ما أنا فيه من كفاية فهم وإدراك، لم أستطع قط أن آخذ شيئاً عن معلّمي، عدا ما أخذتُ عن أبي وعن السيد لامبرسييه. أما اليسير الذي تعلّمتُ فوق ما أَخذتُ عنهما، فبنفسي قد حصّلتُه كما ترى في ما بعد. وذلك أن ذهني، وهو الذي لا يصبر على النير كائناً ما كان، لا يطيق أن يذعن لحُكم الأوان الذي أنا فيه؛ بل إن خوفي ألا أتعلّم قد شتَّتَ انتباهي، فتظاهرتُ بالفهم خشيةَ أن يضيق بي من يكلّمني

twitter @baghdad_library

وقد انطلقَ في كلامه وأنا لا أَفهم شيئاً. فلقد ابتغى ذهني أن يجري على وقتي أنا، ولم يسعه الخضوع لوقت الآخرين.

وكانت الرسامة قد حان موعدها، فعاد السيد جاتييه إلى إقليمه وهو برتبة شمّاس. فحمل أسفي على فراقه وتعلقي به وعرفاني لجميله. ولقد تمنيتُ له أماني لم تتحقق شأنها شأن ما تمنيته لنفسي. ثم بلغني بعد بضع سنوات، إذ هو نائب لبعض الأبرشيات، أن إحدى الفتيات قد ولدتْ منه سفاحاً، وهي الفتاة الوحيدة التي أَحبها، على ما كان فيه من رقة وحنان. فكانت فضيحة منكرة في أبرشية قد أُخضعتْ لإدارة قاسية ونظام شديد، إذ لم يكن ينبغي للكهنة أن يولَد لهم إلا من نساء متزوجات. أما وقد خالف هو هذا العرف، فلقد سُجن وشُهر وطُرد. وما أدري هل أمكنه تسوية أموره، لكن شعوري بنكد حظه قد انطبع مني في أعماق النفس، فتذكرتُه لما وضعتُ كتاب «**إميل**» إذ ضممتُ السيد جاتييه إلى السيد جايم فصنعتُ من هذين الكاهنين الجليلين الشخصية الأصلية للكاهن السافواويّ. وما أحسب صنعي، هذا، قد أساء إلى المثالَين.

ولقد اضطر السيد دوبون أن يبرح أنّوسي أيام كنتُ في المعهد الإكليريكي، إذ لم يستحسن الناظرُ الملكي أن يعمد السيد دوبون إلى زوجته هو فيضاجعها، فكان مثَله في ذلك مثَل كلب البستاني[15]، ولئن كانت السيدة كورفيزي[16] امرأة لطيفة، فإن زوجها كان يسيء معاملتها إساءة بالغة وقد أغناه عنها ما به من ميول منحرفة شاذة، فكان من فظاظته أن الأمر وصل إلى البحث في الهجر والإنفصال.

(15) في بعض أمثال الإسبان أن كلب البستاني يعاف طعامه، فإذا أكلتْه البقر، هبّ ينبح - المترجم.

(16) زوجة الناظر الملكي - المترجم.

وكان السيد كورفيزي امرأً قبيحاً أسود كأنه الخلد، خدّاعاً سرّاقاً كأنه البوم. فأفضت به الحال إلى أنه طُرد عن منصبه لفرط ما قد عنَّتَ وجار. قيل إن أهل البروفانس ينتقمون من أعدائهم ببعض الأغاني، أما السيد دوبون، فقد انتقم من عدوّه بتمثيلية هزلية أَرسل بها إلى السيدة دو فارانس، فأَرتنيها، فراقت لي، وخطر لي أن أضع تمثيلية هزلية لكي أختبر هل أنا من الغباوة على قدْر ما وصفني به المؤلّف؛ بيد أنني لم أُنفذ ما نويتُ إلا في شامبيري، إذ كتبتُ «عاشق نفسه»[17] فلما ذكرتُ في المقدمة أني كتبتُ التمثيلية وأنا في الثامنة عشرة من العمر، كذبتُ ببضع سنوات.

وإلى ذلك العهد، على التقريب، يرجع حادث ضئيل الشأن، في حد ذاته، ولكن لزمتْ عنه تبعات تتعلّق بي، وتردَّدَ صداه بين الناس، على حين قد نسيتُه. وذلك أنه كان قد أُذن لي أن أخرج من المعهد الإكليريكي مرة في الأسبوع واحدة، وما بي حاجة أن أذكر إلى أين كنتُ أذهب آنئذٍ. فبينما أنا عند ماما، في بعض أيام الأحد، شبّت النار في بناء للآباء الكبوشيين يجاور بيتها ويقع حيث كان فُرْنُهم من قبْل. وكان البناء قد مُلئ كله بالحطب اليابس. فسريعاً ما أتت النار على كل شيء، فأمسى البيت في خطر شديد وقد غطته ألسنة اللهيب تُذكّيها الريح. فوجب إخلاء البيت على عجل، ووجب نقل الأثاث إلى الحديقة قبالة نوافذي القديمة، خلف الساقية التي سبق أن ذكرتُها. بلغ مني الإضطراب مبلغه، فانطلقتُ أُلقي من النافذة كل ما تناولتْه يدي بلا تمييز، حتى إني ألقيتُ جرناً حجرياً لو كنتُ في غير تلك الساعة، لشقّ عليّ أن أرفعه. وهممتُ أن ألقي من النافذة مرآة ضخمة لو لم يكفّني بعضهم. كما أن الأسقف

---

(17) عاشق نفسه (l'amant de lui-même) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الطيّب[18]، وقد جاء يؤمئذٍ يزور ماما، لم يقف مكتوف اليدين، بل سار بها إلى الحديقة فركع يصلّي معها ومع سائر من كانوا هناك. حتى إذا وصلتُ بعد حين، أبصرتُ الجميع ركّعاً، فركعتُ أسوة بهم. فبينما كان الرجل القديس يصلي، إذ تغيّر اتجاه الريح تغيّراً مفاجئاً وملائماً جداً، حتى إن ألسنة اللهيب، وكانت قد غطّت البيت وهبّت تقتحمه من النوافذ، تحولتْ إلى الناحية الأخرى من الدار. فنجا البيت ولم يُصَب بضرر قط. فلما توفي السيد دوبرنكس، بعد الحادث بسنتين، أخذ الآباء الأنطونيون، رصفاؤه القدامى، يجمعون الوثائق التي لعلها تصلح لتطويبه[*] (béatification). فأضفتُ إلى تلك الوثائق، نزولاً عند رغبة الأب بوديه، شهادة تؤيد ما سردتُه الآن، فأحسنتُ؛ أما وجهُ الإساءة في ذلك، فهو أني اعتبرتُ الحادث من الأعاجيب. وكنتُ قد أبصرتُ الأسقف يصلّي والريح تتحول تحولها الملائم، فجاز لي أن أذكر هذا وأن أشهد به. أما أن يكون أحد الأمرين سببا للآخر، فهذا ما ينبغي أن لا أشهد به إذ ليس في استطاعتي معرفته. لكني، على ما أعي، كنتُ حسن النية، وأنا يؤمئذٍ كاثوليكي صادق. إلا أن حبّي للعجيب، وهو في طبيعة القلب البشري، وإجلالي ذلك الحبر المفضال، وزهوي الخفيّ إذ ربما شاركتُ في المعجزة ـ إلا أن هذه الأمور ساعدتْ كلها على إيهامي. ولو أن تلك المعجزة نجمتْ عن أحرّ الصلوات، لأَخذتُ نصيبي منها ولا ريب.

فلما نشرت كتابي «**رسائل من الجبل**»، بعد ما يزيد على ثلاثين سنة، نبش السيد فريرون عن تلك الشهادة، ولستُ أدري كيف فعل،

---

(18) أسقف برنكس - المترجم.

(*) التطويب مقامٌ سامٍ من مقامات المسيحية يقلد بموجب مرسوم بابوي، مؤمن مسيحي له مناقب وفضائل مُثلّ [ع. لبيب].

فاستعملها في بعض أوراقه. فكان موفَّقاً اكتشافه وراقت لي ملاءمته لواقع الحال.

ولقد قدّر لي أن ابقى طريد الأحوال كلها. ولئن أبدى السيد جاتييه في شأن تقدّمي أقلَّ ما أمكنه أن يبديه من قول في غير مصلحتي، فلقد اتضح أن تقدّمي لم يتناسب هو ومجهودي، ولا شجّع على مواصلة تعليمي. فأبى الأسقف ورئيس المعهد أن يستبقياني، ثم أرجعاني إلى مدام دو فارانس على أني امرؤ لا يصلح ولو لأكون كاهناً، مع كوني فتًى طيّباً غير رذيل. فلهذا لم تتخلَّ هي عني برغم كل ما قيل لها عليّ.

فأَعدتُ إليها كتابها الموسيقي وأنا مزهوّ ظافر وقد انتفعتُ به خيرَ انتفاع. فلحنُ ألفيه وأريتوز هو كل ما تعلّمتُه في المعهد الإكليريكي. فكان أن ما لوحظ عندي من ميل إلى هذا الفن قد أوحى إليها أن تجعلني موسيقياً. ولقد تيسرت المناسبة، إذ كان يقام في بيتها، كلَّ أسبوع، حفلةٌ موسيقية واحدة، على الأقل. وكان يدير الحفلة رئيس موسيقى الكاتدرائية، وكثيراً ما أتى يزور ماما. كان هو باريسيّاً يدعى السيد لوميتر، وكان مؤلّفاً موسيقيّاً بارعاً، وافر النشاط، مقبول الهيئة، على ضآلة ذكاء طيبة قلب جمّة. عرّفتْني ماما إليه، فتعلَّقتُ به، وَعجبتُه، فجرى الكلام على أن أقيم عنده، فاتفقنا على ذاك. وموجز القول أني انتقلتُ إلى داره، فأمضيتُ الشتاء هناك، ومما زادني اغتباطاً هو أن دار معلّم الموسيقى لم تَبعد من بيت ماما إلا عشرين خطوة، فكنا نطير إليها في لحظة، وكثيراً ما تعشينا معاً عندها.

ولا يخفى أن الحياة في دار معلّم الموسيقى ـ حياة الطرب والفرح مع الموسيقيين والمنشدين الفتيان قد راقني أكثر مما راقتني الإقامة في المعهد الإكليريكي مع الآباء اللعازريين. بيد أن هذه

twitter @baghdad_library

الحياة، على كونها أوسع حرية، لم تكن أقل اطّراداً وتنظيماً. ولقد جُبلتُ على أن أُحبّ الاستقلال وعلى أن لا أفرط فيه أبداً. فلم أخرج من الدار قط، طوال ستة أشهر، إلا لكي أذهب إلى ماما أو إلى الكنيسة، ولا سوَّلتْ لي النفس قط أن أبرح مقامي هناك. فكانت هذه الفترة هي من الأوقات التي أقمتُ فيها على أقصى الدعة والتي تذكّرتُها بأوفى ما يكون من بهجة وارتياح. ولقد عرفتُ، على مختلف الأحوال التي مررتُ بها، ما يشبه تلك الفترة راحةً وابتهاجاً، فإذا تذكرتُه، حزنتُ وكأني ما أزال فيه. ولستُ أذكر الأيام والديار والأناسي فحسب، ولكني أذكر معها ما يحيط بها من أشياء: أذكر حرارة الجو، ورائحته، ولونه، وطابعاً له خاصاً لم أُحسَّ بمثْله إلا هناك وما يزال تذكري إياه يحملني إليه من جديد. مثال ذلك جميع ما كنا نتمرّن عليه في دار الموسيقى، وما كنا نغنّي به في جوقة الإنشاد، وما كنا نفعل هناك، ولباسُ الكهنة الأنيق الرفيع، وحللُهم في القداس، وتيجانُ المنشدين، ووجوهُ المغنّين، ونجارٌ شيخٌ أعرجُ جهيرُ الصوت، وراهبٌ أشقر قصير يعزف بالكمان، والجبةُ الممزقة التي كان السيد لوميتر يرتديها فوق ثيابه المدنية وقد وضع عنه سيفه، والقميصُ الجميل الرقيق الذي كان يخعله على جبته إذ يمضي إلى جوقة الإنشاد، والزهو الذي كنتُ فيه حين أتجه إلى موضعي من الجوقة على المنصّة وفي يدي ناي بصفّارة، ولم يكن زهوي إلا لقُصيصة كتبها السيد لوميتر لأجلي، والغداءُ الطيّب الذي كان ينتظرنا بعد ذلك، والشهية الطيبة التي كنا نأكل بها؛ فإن تعاضد هذه الأمور والموضوعات المرسومة هنا رسماً حيّاً قد سحرني وهو في ذاكرتي أكثر ممّا سحرني لَمَّا كان في الواقع. ولقد حننتُ، على الدوام، إلى لحن من **الوتد المجموع** لأنّي، وأنا في السرير يومَ أحد المجيء، سمعتُه يغنّى به من على درجات سلّم الكاتدرائية وفقاً لطقس تلك الكنيسة. وكانت الآنسة ميرسوريه، خادمةُ ماما، تُلمّ بالموسيقى. ولن

أنسى أبداً ترنيمة قصيرة جعلني السيد لوميتر أُنشدها معها وسيدتُها تصغي إلينا بمزيد ابتهاج. وصفوة القول إن كل شيء من تلك الأيام السعيدة البريئة، حتى خادمتي بيرين، الفتاة الطيّبة التي كان أعضاء الجوقة الموسيقية يغيظونها ـ كل شيء يعاودني ذكْره فيبلغ مني فأحزن.

كنت أقيم في أنّوسي، منذ ما يقارب السنة، لا لوم عليّ والجميع راضون عني، ولم أكن، مذ ارتحلتُ عن تورينو، قد أَتيتُ من غباوة قط؛ ولم آت من غباوة قط ما دمت تحت نظر ماما. فكانت ترشدني وتُحسن إرشادي أبداً، فأصبحَ تعلّقي بها ولَعي الأوحد؛ ومما يدل على أنه ليس بالهوى الأحمق كونُ فؤادي هو الذي ألهم عقلي، وإن يكن هذا الشعور الأوحد، الذي تسلّط على مواهبي كلها، قد منعني أن أتعلّم حتى الموسيقى، مع أني قد بذلتُ، في محاولتي أن أتعلّمها، أقصى مجهود. فلم أكن أنا المخطئ إذ وفرَ حُسنُ إرادتي بأجمعه ووفرتْ مواظبتي. لكني كنتُ تائه الفكر، متنهداً، فما الذي يمكنني أن أقوم به وأنا على هذه الحال؟ لم يعوز اجتهادي شيء مما يتعلّق بي أمره، وإنما كان يعوزني، لكي أقترف حماقات جديدة، موضوع واحد يوحيها إليّ. فسنح هذا الموضوع وقد أتاحته المصادفة، وكان به نفع لي عقلاً وخُلقاً.

في أمسية باردة من أمسيّات شباط، ونحن حول النار، سمعنا الباب الخارجي يُطرَق. تناولتْ بيرين مصباحها ونزلتْ تفتح، فدخل معها شاب تعرَّفَ إلينا بطلاقة، ووجّه إلى السيد لوميتر كلمة إطراء موجزة رشيقة، ثم قال إنه موسيقي فرنسي قد ألجأه تعسُّر شؤونه المالية أن يعرض خدماته على مدارس الموسيقى الدينية لكي يستطيع مواصلة الطريق. فما إن سمعه السيد لوميتر، الطيّب القلب، يقول إنه

twitter @baghdad_library

فرنسي حتى هشّ له قلبه، وقد كان يحبّ وطنه وفنه حبّاً فائقاً. فرحَّب بالطارق الشاب ودعاه إلى منزله. لم يتردد الزائر تردداً كثيراً، بل قبل الدعوةَ وقد بدا في أمسّ الحاجة إلى مأوًى. فأخذتُ أتأمله وهو يتدفأ ويتحدث ريثما يحين العشاء. كان قصير القامة، بعيدَ ما بين المنكبين، وعلى بنيته هيئة لا أدري ما هي إذ ليس بها من خلل معيَّن؛ وكان أحدب، منبسط الكفّين إن جاز التعبير، وأظنه كان على عرج خفيف، وقد ارتدى ثوباً أسود هو إلى الرثاثة أقرب منه إلى العتق، وقميصاً في منتهى الرقة والوسخ، وكان على طرف كميه أهداب حرير، وقد انتعل خفّين كل فردة منهما تسع قدميه كلتيهما، وتأبطَ قبّيعة تقيه الثلج. وكان في لباسه، هذا، المضحك، شيء من أصالة العرق لم يكذّبها منظره، إذ لاحت على سحنته الرهافة والكياسة. وكان طلق اللسان، جيد الكلام، إلا أنه قليل الاتضاع، وكل ما به يدلّ على أنه شاب فاسق، كريم التنشئة. فلم يمض يشحذ وكأنه الصعلوك، بل مضى يشحذ وكأنه الأحمق الطائش. فقال لنا إن اسمه فانتور دوفيلنوف، وإنه قادم من باريس وقد ضل الطريق؛ ثم نسي، لحظة، أنه موسيقي فقال إنه متوجه إلى جرينوبل يزور قريباً له عضواً في البرلمان.

ودار الحديث، في أثناء العشاء، على الموسيقى، فأَحسنَ الكلام فيها. ولقد كان يعرف كبار الموسيقيين قاطبة، والمؤلّفات الشهيرة كلها، والممثلين والممثلات جميعاً، والحسناوات كلهن، والأشراف والعظماء كلهم. وبدا أنه قد اطّلع على كل ما يقال، ولكن ما أن يُطرَق أحدُ الموضوعات حتى يبادر هو إلى أن يحوّل النظر عن هذا الموضوع، يحتال ببعض الملح التي تُضحك وتُذهل عما سلف قوله. وكان قدومه في يوم سبت، والموسيقى موعدها من الغد في الكاتدرائية. اقترح عليه السيد لوميتر أن ينشد. فأجابه أنْ بطيبة نفس.

فسأله أيّ دور سينشد، فقال: «الصوت الأعلى»، وأسرع يغيّر الحديث. ثم إنهم، قبْل الذهاب إلى الكنيسة، عرضوا عليه دوره لكي يستعدّ له، فلم يُلق عليه نظرة واحدة. فاستغرب السيد لوميتر هذا السلوك الصبياني وهمس في أذني يقول: «سترى أنه لا يعرف علامة موسيقية واحدة». فقلتُ: «وهذا ما أتخوف». فتبعتُه وأنا قلق جداً. فلما ابتدأنا ننشد، أخذ قلبي يجب أيّ وجيب وقد اهتممتُ بالشاب حقّ الاهتمام.

فلم ألبث طويلاً حتى اطمأننتُ، إذ أَنشد إلقائيته الأولى والثانية إلقاء صحيحاً، الصحة كلها وبذوق سليم السلامة كلها، يضاف إلى ذلك صوت جميل جداً. ولم أعرف أمتع عندي من هذه المفاجأة أو أكاد. فلما انتهى القداس، أَقبل الكهنة والموسيقيون على السيد فانتور يهنئونه أيَّ تهنئة، فكان يجيبهم مازحاً، ولكن برشاقة لا تفارقه. وقبّله السيد لوميتر تقبيلاً قلبياً، وحذوتُ حذوه، فرآني قد ارتحتُ، فبدا عليه السرور.

وإذا كنتُ قد أُولعتُ بالسيد باكل الذي لم يكن، في نهاية الأمر، إلا جلفاً، فما بالك بالسيد فانتور الذي أولعت به وهو الذي أُوتي حُسن تنشئة ومواهب وذكاء وخبرة بالناس، حتى وإن قيل إنه ماجن ظريف. ذلك ما قد حصل لي، وذلك ما يحصل لكل شاب مثلي، ولا سيما إذا رُزق شعوراً بالاستحقاق [الجدارة] وبسلامة الذوق أرهف من شعوري بهما. ولقد كان فانتور صاحب استحقاق وسلامة ذوق لا شك فيهما، فأُوتي منهما، على الأخص، ما ندر أن يحصل لأحد في سنه، إذ لم يكن يتعجّل في إظهار مكتسباته. ولئن تفاخر بأمور جمّة لم يعرفها قط؛ ولكنه سكت فقط عن أمور يعرفها وهي كثيرة، فكان يرتقب الفرصة المؤاتية ليُظهر معرفته بها وهو معتز وغير معجّل، فيكون لهذا أعظمُ الأثر. وكان إذا فرغ من الكلام في

twitter @baghdad_library

الشيء، توقف ولم يتكلّم في غيره، حتى لم يُعرَف متى سوف يفصح عن كلٍّ ما يَعرف. وكان رجلاً دعّابةً ومرحاً لا ينضب ماؤه، ساحر الحديث، يبتسم دائماً ولا يضحك أبداً، يورد أغلظ معنًى بألبق مقال، فيجيز كلامه كما يشاء، حتى إن أوفر النساء اتضاعاً قد استغربن ما يقاسين منه في هذا القبيل، ومهما أدركن أنه يجب أن يغضبن عليه، فلا يسعهن الغضب. أما هو، فلم يكن به من حاجة إلا إلى نساء ضالات؛ وما أحسبه قد كُتب عليه حُسنُ الحظ، لكنه جُبل على أن يُدخل أوفى البهجة في نفوس المحظوظين من عشرائه. فصعبَ عليه أن يقصر اتصالَه على بيئة الموسيقيين وهو في ما هو فيه من لطائف المواهب وقد حلّ ببلد يقدر المواهب ويعرف بها ويهواها.

ولقد كان ميلي إلى السيد فانتور معقولاً أكثر من حيث أسبابه، وأَقلّ هوساً من حيث نتائجه، ولكنه كان أَشدَّ حدّةً، وأَطول عمراً من ميلي إلى السيد باكل. فطاب لي أن ألقاه وأن أسمعه، واستحسنتُ كل ما كان يفعله، ونظرتُ إلى أقواله وكأنها النبوءات؛ ولكن لم يبلغ مني الميل إليه مبلغاً يتعذّر عليّ معه أن أفارقه. فلقد كان في جواري ضمانٌ طيّب أنيس يجنّبني هذا الشطط. ولئن وجدتُ أقوال السيد فانتور موافقة له، فلقد أَدركتُ أنها لا تصلح لي. فإنما ابتغيتُ ضرباً آخر من اللذاذة لم يخطر له هو، ولا اجترأتُ أنا على أن أحدّثه به يقيناً مني أنه سيضحك عليّ. بيد أني، مع ذلك، وددت لو أجمع بين تعلّقي به ومطلبي من اللذاذة الذي كان يسيطر عليّ. كلمتُ ماما في أمر السيد فانتور وأنا حادّ الانفعال، وكلّمها فيه السيد لوميتر فأثنى عليه. فوافقتْ أن يُصار به إليها. فلم تكن المواجهة موفّقة قط، إذ ألفاها هو إمرأة متصنعةً وأَلْفتْه هي رجلاً إباحيّاً، فخافت عليّ من عشير السوء هذا. فلم تكتف بمنعي أن آتيها به مرة ثانية، لكنها

وصفتْ لي ما أعرّض له نفسي من أخطار عشْرته وصفاً بالغاً جداً، فازددتُ تحفظاً منه؛ وكان من حُسن حظي، خُلقيّاً وعقلياً، أنّا لم نلبث طويلاً حتى تم التفريق بيننا.

أما السيد لوميتر، فكان ميّالاً إلى فنه؛ ولقد أَحبَّ النبيذ. إلا أنه كان قليل الشرب منه على المائدة، حتى إذا مضى يعمل في مكتبه، لم يكن له بد من الشرب. فعلمتْ خادمته ذلك كل العلم، فما إن كان يُعدّ أوراقه للتأليف ويتناول الفيولونسيل حتى توافيه الخادمة بقنينة النبيذ والكأس. ثم تعيد ملءَ القنينة آناً بعد آن. ولئن لم يسكر هو تماماً، لقد انتشى معظم الأحايين، وتلك في الحقّ مَخسرة، فهو فتًى طيّب الجوهر على غاية المرح، حتى إن ماما لم تكن تسميه إلا الهر الصغير. ومن نكد حظه أنه قد شُغف بفنه، فعمل كثيراً، وشرب كثيراً. فأثّر ذلك في صحته، وأثّر، آخرَ الأمر، في طباعه. فكان، في بعض الأوقات، سريع التريّب، سهل الإغاظة، لكنه لم يُغلظ في قول ولا فعل، ولم يقصّر في عمله يوماً، ولا قال ولو لأحد من فتيان جوقة الإنشاد قولاً مسيئاً قط. ولقد أبى إلا أن يعامله الناس معاملة احترام، وهذا حقّ. على أن آفته كونُه قليل الذكاء لا يميز ما بين مختلف الهيئات والطباع، وغالباً ما يحنق بغير سبب.

وكان المجمع السابق لكهنة جنيف ـ وهو الذي طالما رأى أمراء وأساقفة كثيرون من أن في التحاقهم به شرفاً لهم، ـ كان هذا المجمع قد فقد في منفاه ما سلف من رونقه وجلاله، لكنه احتفظ بعزته وإبائه، فمن طلب الالتحاق بالمجمع، وجب أن يكون من الأشراف، أو أن يكون دكتوراً من السوربون، فإن يكن في الدنيا زهوٌ يُصفَح عنه، بعد الزهو بالمزية الشخصية، فإنما هو زهو المرء بأصله ومولده. ثم إن جميع الكهنة الذين يستخدمون العلمانيين يعاملونهم، في الجملة، من علٍ، فكان الكهنة يعاملون السيد لوميتر

twitter @baghdad_library

هكذا في أغلب الأحايين، ولا سيما الكاهن المرتّل، واسمه الأب دوفيدون، وكان رجلاً في منتهى اللطف والإيناس، إلا أنه شديد الزهو بعلوّ طبقته، ولم يبد للسيد لوميتر ما تستحقّه مواهبه من مراعاة؛ فلم يسهل على السيد لوميتر أن يحتمل ازدراءهم. وحدث في تلك السنة، بينه وبين المرتّل، مشادة كانت أعنف من العادة، وذلك في أثناء غداءٍ دوريّ جرى الأسقف على أن يقيمه للكهنة، وكان لوميتر يُستدعَى إليه على الدوام. وكان من الكاهنُ المرتّل أن تعدى على بعض حقوق السيد لوميتر ووجه إليه كلاماً قاسياً لم يقوَ على أن يهضمه؛ فمن ساعته، عزم على الهرب في الليلة التالية، ولم يستطع أحد أن يثنيه عن عزمه، وإن تكن السيدة دو فارانس، إذ جاء يودّعها، لم تدّخر جهداً في تهدئته. فما أمكنه التخلي عن لذة الانتقام من ظالميه وذلك بأن يوقعهم في مأزق على أعياد الفصح، وهو الوقت الذي كانت حاجتهم إليه ماسة. بيد أن ما أزعجه هو أمر ألحانه وقد أراد أن يحملها وما هذا بيسير، لأنها كانت تملأ صندوقاً واسعاً ثقيلاً جداً لا سبيل إلى تأبطه.

عملت ماما ما كنتُ أعمله يؤمئذٍ وما كنتُ أعمله إلى اليوم لو أنني في موضعها. فبذلتْ جهداً كثيراً لكي تحمل السيد لوميتر على أن يبقى؛ فلما لم تفلح وتبينتْ عزمه على الذهاب في كل حال، رأت أن تساعده في كل ما هو رهن إرادتها. وإني لأذهب إلى أن هذه المساعدة قد حَقَّتْ عليها، لأن لوميتر كان، إن ساغ التعبير، قد وقف نفسه على خدمة ماما، سواء بفنه أم بالاعتناء بها، فكان أبداً رهينَ أوامرها، ينفذها بمروءة جعلتْ لمعروفه مزيداً من القيمة والفضل. وإذاً فإنّ ماما قد ردّت إلى صديق لها، في مناسبة حيوية بالنسبة إليه، ما كان لا يفتأ يعمله لأجلها منذ ثلاث سنوات أو أربع. غير أنها، لطيبة عنصرها، لم تشعر بأنها تؤدي واجباً ما.

فاستحضرتني وأمرتْني أن أرافق السيد لوميتر إلى مدينة ليون في الأقل، وأن ألازمه ما احتاجَ إليّ. وقد أقرّت لي، بعدئذٍ، أنه كان لرغبتها في النأي بي عن فانتور علاقة بذلك. وشاورتْ خادمها الأمين كلود أنيه في شأن الصندوق. فرأى ألا نحمله من أنّوسي على دابة لئلا ينكشف أمرنا، بل نحمله باليد، ليلاً، ثم نستأجر حماراً في بعض القرى، ومن القرية ينقل الصندوق إلى سايسل[19]، ولا خطر ثمة إذ نكون قد صرنا على أراضي فرنسية. فتبعنا هذا الرأيَ، وسرينا في المساء عينه عند الساعة السابعة. واحتجّتْ ماما بأنها تؤدّي نفقة سفري فزادت في كيس النقود الذي للـ «الهر الصغير» المسكين زيادةً قد نفعتْه ولا شك. فحملنا، أنا وكلود أنيه والبستاني، الصندوق كما تأتّى لنا حمله، وذهبنا إلى أقرب قرية حيث ناب عنا في حمله أحدُ الحمير، ومضينا إلى سايسل الليلة نفسها.

وأحسب أن من الأوقات ما أكون فيه قليل الشبه بنفسي حتى إن الناس يخالوني بشراً آخَر طبعه خلاف طبعي تماماً. وإليك مثالاً عن ذلك. كان السيد رايدوليه كاهنَ سايسل ومن كهنة القديس بطرس، فهو، بالنتيجة، من معارف السيد لوميتر ومن أكثر الناس مدعاةً لأن يتوارى عنهم السيد لوميتر. أما رأيي، فقد كان على الضد من ذاك، فاقترحتُ أن نقصد الكاهن فنسأله القرى بتعلة أننا جئنا هناك بموافقة المجمع. استساغ لوميتر هذا الرأي الذي جعل انتقامه ساخراً مستحبّاً. فانطلقنا بوقاحة إلى منزل السيد راديوليه، فأحسن استقبالنا أَيّ إحسان فقال له لوميتر إنه شاخص إلى بيليه نزولاً على إلحاح الأسقف لكي يدير له جوقته الموسيقية لمناسبة أعياد الفصح، وقال إنه ينوي المرور ثانية بعد عدة أيام، فأضفتُ إلى هذه الكذبة كثيراً غيرها بلا تكلّف

(19) تقع سايسل على طريق ليون - المترجم.

twitter @baghdad_library

حتى إن السيد رايدوليه، وقد وجدني غلاماً حسناً وسيماً، أخذ يتودد إليّ ويلاطفني أيّ ملاطفة، ثم إنّا أكلنا فشبعنا، وكان مبيتنا على ما قد رجوناه. فبالغ السيد رايدوليه في الحفاوة بنا، فافترقنا ونحن خير الأصدقاء كافة، فوعدناه أن نتوقف عنده مدة أطول إذ نحن عائدان. ولم ننتظر إلا أن نغيب عن ناظرية لكي عنه ننفجر ضاحكين. وأُقسمُ أنْ كلما خطر لي ذلك، عاودني الضحك إلى اليوم، إذ ليس في الإمكان شيطنةٌ أَحكم سرداً وأعظم توفيقاً. ولولا أن السيد لوميتر الذي كان لا يني يشرب النبيذ فتأخذ منه سورته، لم تعتره نوبات كثيراً ما كان معرَّضاً لها، إذاً لكانت شيطنتُنا تلك سرّتنا طول الطريق. لكني ارتبكتُ وخفتُ، فرأيتُ أن أتخلص في القريب على نحو ما يتيسر.

شخصنا إلى بيليه.أَمضينا فيها أعياد الفصح كما ذكرنا للسيد رايدوليه، واستقبلنا أستاذُ الموسيقى مع أننا وصلنا على غير موعد، ورحّب الجميع بنا وسرُّوا. وكان لفن السيد لوميتر منزلة يستحقّها، فأبدى أستاذ الموسيقى في بيليه سروره أن يطّلع على مؤلّفاته وحاول أن يحظى بتأْييد مثل هذا الحَكم الممتاز، إذ لم يكن السيد لوميتر عليماً بالموسيقى فحسب، بل زد على ذلك أنه كان منصفاً غير حسود ولا متملّق. لقد تفوَّق على جميع معلّمي الموسيقى في تلك الأقاليم تمامَ التفوّق، فشعروا بذلك ونظروا إليه، لا على أنه رصيفهم، بل على أنه رأسُهم جميعاً.

أمضينا في بيليه أربعة أيام، أو خمسة، ثم برحناها وواصلنا طريقنا لم يقع لنا غيرُ ما تقدَّم لي ذكره. فلما بلغنا ليون، أُنزلنا بفندق نوتردام دو بيتييه نرتقب وصول الصندوق، وكنا قد عمدنا إلى كذبة أخرى إذ شحنّاه على نهر الرون بفضل مضيفنا الطيّب السيد رايدوليه.

فذهب السيد لوميتر يزور معارفه وفيهم الأب كاتون الكبوشي

وسيأتي ذكره، والأب دورتان، وهو كونت ليون، فأَحسن هذا وذاك استقبالنا، لكنهما خاناه كما سيرى القارئ عما قليل، إذ كان نصيبه من التوفيق قد أوفى على غايته عند السيد رايدوليه.

فلما كنا بعد يومين من وصولنا إلى ليون، وقد اجتزنا بطريق ضيّقة قريبة من الفندق، فاجأتْ لوميتر إحدى نوباته وكانت في منتهى الشدّة، فتملَّكني الذعر. أخذتُ أصيح وأستغيث وأذكر اسم الفندق الذي نزل فيه وأتوسل كي يُحمَل إلى هناك، وبينما تأَلَّبَ الناس وازدحموا على امرئ قد سقط في الطريق مغشيّاً عليه فاقد الحسّ مزبداً، إذ تخلى عنه الصديق الأوحد الذي كان يعتمد هو عليه. انتهزتُ لحظة لم ينتبه لي فيها أحد وانطلقتُ في بعض المنعطفات وتواريتُ. أما الآن، فبنعمة السماء على أني قد فرغتُ من اعترافي هذا، الشاق، الثالث. ولو بقي عليّ الكثير من أمثاله، لأَعرضتُ عن كتابي هذا الذي باشرتُ تأليفه.

ولقد ظل من بعض الآثار، في الأمكنة التي أَقمتُ فيها، ما أذكره إلى الساعة. بيد أن ما عليّ أن أذكره، في الكتاب التالي، لا يزال كله مجهولاً على التقريب. إنه أعظم غرائب سيرتي؛ ومن السعد أنه لم ينته بأسوأ مما انتهى عليه. أما رأسي، وقد ركبت على شاكلة آلة موسيقية غريبة مارقة، فلقد شذت عن سُلَّمها قبل أن ترتد إليه فأَقلعتُ عما سلف من حماقاتي، بل أَتيتُ منها ما هو أَوفقُ لطباعي. إن هذه المرحلة من شبابي لهي أكثر المراحل غموضاً عندي، ولم يكد يجري فيها ما يهم قلبي حقّاً فأَستعيد ذكرياته وأنا في تأثر وانفعال، فضلاً على أنني يصعب عليّ أن لا أخطئ في بعض الأزمان والديار لفرط ما قد ذهبتُ ورجعتُ ولفرط ما قد تقلبت فيه تباعاً. ثم أنني، في الكتابة، أعتمد على الذاكرة وليس لديّ من وثائق ولا موادّ أستعين بها على التذكّر. ولقد جرى في حياتي من

twitter @baghdad_library

الأحداث ما يَمثُل في روعي وكأنه قد جرى الساعة، إلا أن في حياتي نواقص وفراغات لا قبل لي أن أملأها إلا بحكايات ليست أقلّ التباساً وإبهاماً من ذكرياتي عنها. وإذاً فلربما أخطأتُ بعض الأحيان، ولسوف أخطئ في توافه الأمور إلى أن أحصل على معلومات عني أنا تكون أوثق خبراً. أما في جوهر الموضوع فإني موقن بأني صادق أمين، على نحو ما اجتهدتُ أن أكون عليه في كل حال؛ وذاك مما يمكن الركون إليّ فيه.

فما إن زلتُ عن السيد لوميتر حتى اعتزمتُ الرجوع إلى أنّوسي، فرجعتُ. وكان سببُ انكفائنا عنها خفيةً قد حملني على أن أهتم بتأمين سفري اهتماماً ظلَّ، بضعة أيام، يشغلني كل الشغل عما يدعوني إلى الرجوع. فلمّا أمّنتُ على هذا الانكفاء وبتُّ أَوفر اطمئناناً إليه، عاودني شعوري الملحّ الغالب. فلا شيء ألهاني عن ماما، ولا شيء أغواني، ولا كان لي من رغبة سوى الرجوع إلى ماما. وذلك أن ما لتعلّقي بها من حنان وصدْق اقتلع من قلبي جميعَ المشاريع الخيالية وكل حماقات الطموح. فأصبحتُ لا أرى من سعادة لي إلا أن أحيا بالقرب من ماما. فلم أخطُ خطوة واحدة إلا شعرتُ بأني أبتعد عن هذه السعادة. فعدتُ إلى ماما لحظةَ استطعت أن أعود. فكان عودي سريعاً جداً، وذهني ساهياً جداً، حتى إني، وإن طاب لي أن أتذكر أسفاري الأخرى، لم يسنح لي عن عَودي هذا أيسرُ تذكار، فما أعي منه شيئاً البتة، عدا سفري من ليون ووصولي إلى أنّوسي. ولكم غابت عن الذاكرة تلك المرحلة الأخيرة. فلما وصلتُ، لم أجد السيدة دو فارانس، إذ كانت قد قصدت إلى باريس.

لم أدرك سرَّ قصدها إلى باريس حقّ الإدراك. ولو ألححتُ عليها، لأطلعتْني عليه ولا ريب؛ لكن ليس في الناس من هو أقلّ مني فضولاً ورغبةً في استطلاع أسرار الأصدقاء؛ فإن قلبي منشغل

باليوم الحاضر وحده لا غير، فيمتلئ به بكل قدراته وبكل ما فيه من فسحة، فلا يبقى في قلبي موضع فارغ واحد لما مضى ولم يعد موجوداً، خلا اللذات الماضية التي أضحت من الآن فصاعدا، متعاتي الوحيدة. على أن كل ما تسنّى لي أن أتبيّنه من أخبار قليلة قالتها لي ماما هو أنها، في أثناء الثورة التي نشبتْ في تورينو بسبب تخلّي ملك سردينيا عن عرشه، تخوفتْ أن تُنسى هناك. فأرادت، اعتماداً منها على مكايد السيد دوبون، أن تسعى للحصول على الامتيازات نفسها من بلاط فرنسا؛ وكانت قد قالت لي مراراً إنها تفضّل هذا البلاط، لأن كثرة الشواغل الكبرى فيه تُخففُ من وطأة المراقبة المزعجة التي كان يحيطها بها بلاط سردينيا. فإنْ صحّ الأمر، كان في المستغرَب جداً أنها، حين عادت من باريس، لم تقابلها وجوهُ أشد عبوساً، وكان في المستغرب جداً أنها ظلت تتمتع بمرتبها دون انقطاع، ولقد ظن كثير من الناس أنْ قد عُهد إليها في بعض المهام السريّة، إما من قبل الأسقف الذي كانت له أعمال في بلاط فرنسا، وإما ممن هو أعظم نفوذاً منه وقد عرف كيف يضمن لها عودة موفَّقة. فإن صحّ ذلك، فالمؤكّد أن السفيرة لم يُسأ اختيارها، وأنها، إذ كانت لا تزال شابة مليحة، قد رُزقتْ كلَّ المواهب التي تؤهلها لأن تنجح في مفاوضة من المفاوضات.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع

وصلتُ فلم أجدها. فلك أن تقدّرْ مبلغ دهشتي وألمي! أَخذ يتولاني الندم على جبانتي في التخلّيّ عن السيد لوميتر، وازددتُ ندماً حين بلغتْني الخسارة التي حلّت به. ذلك أن صندوق ألحانه، وكان يحتوي ثروته بأجمعها، الصندوق النفيس الذي طالما دأبنا في إنقاذه، قد حُجز لمّا وصل إلى ليون، وأُجري الحجز بمساعي الكونت دورتان إذ كتب إليه المجمع يعلمه بعملية الخطف السريّة تلك. فطالب لوميتر بحقّه، بمورد رزقه، بجهد العمر كله، ولكن بلا طائل. أما ملكية الصندوق فكانت موضوع تنازع على الأقل: غير أن الأمر جرى على نحو مخالف تماماً، إذ حُسمت القضية على الفور وفقاً لقانون الأقوى، وفقد لوميتر المسكين ثمرة مواهبه، وعمل شبابه، ومورد شيخوخته.

والحقّ أن هذه الصدمة لم يعوزها شيء فترهقَني. على أني كنتُ في سن لا تؤثّر فيها شدة الهموم، فلم ألبث طويلاً حتى أَوجدتُ لي عزاءً، إذ توقّعتُ أن تصل إليّ في القريب أنباء عن السيدة دو فارانس، وإن كنتُ لا أعلم عنوانها، وإن كانت تجهل أنني رجعتُ. أما هربي، فإنني، بعد ما فكرتُ فيه، لم أرَ به ذنباً فاحشاً. لقد انتفع بي السيد لوميتر في أثناء هربه، وهذه هي الخدمة الوحيدة التي كان

القيام بها وقفاً عليّ، فلو بقيتُ معه في فرنسا، لما أبرأتُه من دائه ولا أنقذتُ صندوق ألحانه، بل كنتُ ضاعفتُ نفقاته ولم أستطع نفعه بشيء. على هذا الوجه رأيتُ الأمر وقتئذٍ. أما الآن، فإني أراه على غير ما كنتُ قد رأيتُه. وذلك بأن السيئة لا تعذّبنا يوم نقترفها، بل هي تعذّبنا يوم نتذكرها بعد زمن طويل، لأن ذكراها لا تنطفئ نارها أبداً.

ولم يكن لي من سبيل أَستخبر به عن ماما إلا أن أنتظر هذه الأخبار، فأين كنتُ أستطيع أن أفتش عنها في بارس، وبمَ أقوم بالرحلة إلى هناك؟ وإذاً فليس عندي ما هو أضمن من أنّوسي لكي أعلم، عاجلاً أو آجلا، أين هي. فمكثتُ في أنّوسي. لكني أسأتُ السلوك. فلم أزر الأسقف الذي سبق أن ساعدني والذي كان بوسعه أن يساعدني مرة أخرى، لم أزره لأن نصيرتي إليه لم تبقَ لي هناك، فخشيتُ أن يوبخني على هربنا. كذلك لم أذهب إلى المعهد الإكليريكي، إذ لم يبقَ فيه السيد جرو، ولا زرتُ أحداً من معارفي، على كوني وددتُ لو زرتُ قرينة الناظر الملكي، ولكن لم أجترئ قط؛ بل فعلتُ ما هو شرّ من ذلك كله. فلقد عدتُ إلى الاتصال بالسيد فانتور الذي لم يَعنَّ لي ذكرُه منذ ارتحلتُ، مع ما كنتُ قد أُولعتْ به من قبْل: ألفيتُه متألقاً مكرَّماً في أنّوسي كلها وقد تنازعتْه النساء. فزاد نجاحه من إعجابي به وميلي إليه، حتى أَمسيتُ لا ألقى أحداً سواه. وكاد ينسيني السيدة دو فارانس. فعرضتُ عليه أن أشاركه في مسكنه لكي أنتفع بدروسه بكامل راحتي، فقبل. وكان يقيم عند سكّاف مضحك هزّال لا يدعو زوجته، في لهجته السوقية، إلا بقوله لها: «يا قبيحة»، وكانت تستحقّ هذه التسمية، وكان السكّاف يتشاجر هو وزوجته فيحرص فانتور على أن يذكي تشاجرهما وهو يتظاهر بأنه يوفّق بينهما إذ يقول لهما بلهجته البروفنسية كلاماً يؤثّر فيهما أبعد التأثير؛ فكان ثمة من المشاهد ما يُضحك جداً. وكانت أوقات

twitter @baghdad_library

الصباح تنقضي على هذا النحو فما نشعر بانقضائها، حتى إذا بلغت الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر، أَكلنا بعض الطعام، ثم ذهب فانتور إلى عشرائه فتعشى معهم؛ أما أنا، فكنتُ أمضي أتنزه وحدي متفكراً في الاستحقاق الكبير الذي له، معجباً بمواهبه النادرة وطامحاً إليها، ولاعناً كد طالعي الذي لم يُتح لي مثل هذا العيش السعيد. ولكم كنتُ عارفا بنفسي أسوأ معرفة ! إذ لو كنتُ أقل غباوةً، ولو عرفتُ كيف أستمتع بحياتي خيراً مما فعلت، لغدت حياتي أبهج مما كانت عليه أضعافاً!

لم تكن السيدة دو فارانس قد استصحبتْ إلا أنيه، وأبقت ميرسوريه، خادمتُها التي تقدَّم ذكرها، فوجدتُها ما تزال تقيم في جناح سيدتها. وكانت الآنسة ميرسوريه أسنّ مني قليلاً، ولم تكن فتاة مليحة، لكنها مقبولة الهيئة، طيّبة القلب، لا خبث فيها، وهي من أهل مدينة فريبور، وما بها من عيب سوى أنها ربما عاندتْ سيدتها بعض المعاندة. فجعلتُ أُكثر من زيارتي لها إذ هي من المعارف القدامى، وذلك لأن رؤيتي إياها تذكّرني بواحدة أخرى هي عندي أَعزّ.

كان لها عدة صديقات، وفيهن فتاة من جنيف إسمها الآنسة جيرو قد مالت إليّ، وهذا في سوء حظي. وكانت الآنسة جيرو تستعجل ميرسوريه لكي تأخذني إلى منزلها، فتركتها تفعل لأنني كانت لي مودة مع ميرسوريه ولأني ألقى هناك شباناً آخرين أريد لقياهم. أما الآنسة جيرو التي كانت تتحبَّب إليّ بكل ما يزعجني، فقد نفرتُ منها نفراً لا مزيد عليه. كانت إذا دنت من وجهي بفمها الجاف الأسود وقد اتسخ بسعوطٍ [تبغ] من إسبانيا، جهدتُ لئلا أَبصق في وجهها. إلا أني كنتُ صابراً وقد طبتُ نفساً بين تلك الفتيات اللائي كن يحتفين بي إما مجاملةً منهن للآنسة جيرو، وإما

تحبُّباً إليّ. فما رأيتُ في ذلك كله إلا صداقة. ثم خطر لي أني لو شئتُ أن أرى فيه ما هو أبعد من الصداقة، لكان لي ذلك؛ ولكن لم يخطر لي ذلك ولا فكرتُ فيه.

أضف أن الخياطات والخادمات وعاملات المتاجر لم يكنّ يستهويننني وقد ابتغيت بنات البيوت. ولكل بشَر نزوته، ونزوتي أنا دائماً في بنات البيوت؛ ولست على رأي هوراسيوس في هذه النقطة. ومع ذلك فليس الغرور التافه، غرور المنزلة والمرتبة، هو ما يجتذبني؛ وإنما تعجبني البشَرة أُحسنَ صونها، ويدان رائعتان، وزينة ساحرة، وهيئة نعومة ونظافة قد بدت على الشخص كله، ومزيد من الذوق في الملبس ومن الرشاقة في التعبير، مع فستان رقيق وجيد الصنع، وحذائين دقيقين، وشرائط، ودانتيلّة وشعر متقن التصفيف. فإذا تأنقت الفتاة في ذلك كله، فضّلتُها على غيرها من الفتيات وإن كانت دونهن جمالاً. وإني لأجد في تَفضيلي ما يُضحك، ولكن كذا يريد قلبي ولو كرهتُ.

ولقد سنحتْ لي تلك النعم، مرة أخرى، ولم يكن انتفاعي بها وقفاً على أحد سواي. ولكم أَحببتُ أن أرتدّ، بين الحين والحين، إلى بهجة أيام الشباب! ولكم كانت عذبة عندي؛ ولكم كانت قَصيرةً ونادرة ولكم استمتعت بها بثمن زهيد! آه! إنّ ذكراها وحدها لتعيد إلى قلبي لذاذة خالصة أحتاج إليها كيما أجدّد حماستي وأشدّد شجاعتي وأحتمل السأمة بقية حياتي.

ولقد لاح لي الفجر، ذات صباح، وهو في غاية الروعة والبهاء، فلبستُ على عجل وطرتُ إلى الريف أَستقبل شروق الشمس. فاستطيبتُ هذه اللذة على أتم سحرها الفتّان، وكان ذلك في الأسبوع الذي يلي عيد يوحنا القديس، والأرضُ في مدى زينتها تكتسي بالأعشاب والأزهار، والبلابل قد أوشكتْ أن توفي على ختام

twitter @baghdad_library

الشدو فطاب لها أن تَمدّ بالصداح، والطير في وداع الربيع كلها صوتٌ معاً يغنّي بمولد يوم صيف جميل، يوم من تلك الأيام التي من كان في سنّي، بات لا يلقاها أبد العمر والتي لم يُعرَف لها مثيل على الأرض الحزينة التي أقطن بها الآن.

فابتعدتُ، حينئذٍ، عن المدينة بلا شعور مني، والحَرُّ على اشتداد، وأنا أتنزه في وادٍ ظليل، على ضفة إحدى الساقيات. فسمعتُ من خلفي وقعاً لحوافر بعض الخيل وسمعتُ أصوات فتيات بدت كأنهن في ارتباك وإن كنّ مسترسلات في الضحك. فالتفتُ، فإذا بي قد نوديتُ باسمي، فدنوتُ، فوجدتُ فتاتين من معارفي هما الآنسة دوجرافانريد والآنسة جاليه، وكانتا غير ماهرتين في ركوب الخيل فما عرفتا كيف تحثان فرسيهما على عبور الساقية. وكانت الآنسة دوجرافانريد فتاة من برن لطيفة جداً طُردت عن موطنها لزلة من زلات الشباب، فحذت حذو السيدة دو فارانس، وكنتُ قد لقيتُها عند ماما في بعض الأحيان، لكنها لم تُعطَ مرتباً مثْلها، فكان أقصى سعدها أن تلتحق بالآنسة جاليه التي صادقتْها ورغبتْ إلى أمها في أن تبقيها مرافقةً لها حتى يمكن إيجاد عمل لأجلها. وكانت الآنسة جاليه تصغرها بسنة واحدة، وتفوقها ملاحةَ هيئةٍ، ورقّةً، ورهافةً؛ ولقد أُوتيتْ، إلى ذلك، هيئةً بالغة الحُسن هي، عند الفتاة، أبهى أيام العمر. وكانت كلتاهما على تواد صادق الحنان، وما كانت طيبة خُلقهما إلا لتتعهد صلتهما إلى زمن طويل ما لم يكدّر صفوَها بعضُ العشّاق. فأخبرتاني أنهما ذاهبتان إلى تون، وهو قصر قديم تملكه السيدة جاليه، ثم سألتاني أن أساعدهما على حث فرسيهما أن يعبرا الساقية وقد تعذّر ذلك على الفتاتين وحدهما. فأردتُ أن أُلهب الفرسين بالسوط. فأَشفقتا عليّ من اللبط وعلى أنفسهما من السقوط، فلجأتُ إلى وسيلة أخرى، إذ أَخذتُ بلجام فرس الآنسة جاليه

فجررتُه وأنا أجتاز بالساقية والماءُ مني إلى الركبتين، فتبعنا الفرسُ الآخر دون مشقّة. فلما أتممتُ ذلك، أردتُ أن أُحيّي الفتاتين وأذهب عنهما كالأبله، فتهامستا، ثم قالت لي الآنسة دوجرافانريد: «لا، لا، لن تفلت منا هكذا. لأجلنا تبللتَ، فعلينا، إرضاءً لضميرنا، أن نعتني بتنشيف ثيابك؛ وعليك أن تأتي معنا إذا شئتَ، فإنك أسيرنا». فخفق فؤادي، ونظرتُ إلى الآنسة جاليه. فقالت لي وهي تضحك مما ظهر عليّ من ارتباك: «نعم، نعم، أنت أسير حرب. فاركبْ خلفها، فإنما علينا أن نخبر بشأنك». فقلتُ: «ولكن لم أتشرف، آنستي، بأن تعرفني سيدتي والدتك، فما تقول إذ تراني قادماً معها؟» فقالت الآنسة دوجرافانريد: «إن والدتها ليست في تون، ونحن وحدنا، وسنرجع هذا المساء، وسترجع أنت معنا».

وما تأثير الكهرباء بأسرع مما كان لتلك الكلمات من تأثير فيّ. قفزت إلى متن فرس الآنسة دوجرافانريد وأنا أرتعد من شدّة الفرح. فأحطتُها بذراعيّ حفظاً لاتزاني، فأخذ قلبي يجب أيّ وجيب، فشعرتْ بذلك، فقالت لي إن قلبها يخفق أيضاً خوفَ الوقوع. فكاد قولها، وأنا بموقفي هذا، يكون دعوة لي أن أثق بنفسي، ولكن لم أتجاسر قط. طوقتها بذراعيّ طول الطريق، وشددتُ حقّاً، بيد أني لم أحركهما طرفة عين. فإذا قرأتْ هذا امرأة ما، صفعتْني ولم تكن على خطإ.

ولقد أَطلقت الرحلةُ السارّةُ وثرثرةُ الفتاتين لساني حتى إننا لم نسكت لحظة إلى المساء، بل ظللنا نتحادث ما دمنا معاً. فعرفتا كيف توفّران لي الراحة والانبساط، فعاد لساني يتكلّم بقدْر ما تكلّمتْ عيناي، وإن لم يفصح عن الأشياء نفسها. حتى إذا ألفيتُني في خلوة مع إحداهن، أو مع الأخرى، ارتبك الحديث بضعَ ثوان، فلم تلبث الغائبة منهما أن رجعتْ ليس ليتتيح لنا الوقت فنجلو هذا الارتباك.

twitter @baghdad_library

فلما وصلنا إلى تون وقد نشفتْ ثيابي، أَكلنا وجبة الصباح. ثم كان ينبغي أن نعنى بالشأن المهم: إعداد الغداء. وكانت الآنستان وهما تطبخان، تقبّلان، بين حين وحين، أولاد الزارعة الشريكة، والطبّاخُ المعاون[1] يرى إلى ذلك فيشقّ عليه أن يحتمله. وكانت المؤن قد أُرسلَ بها من المدينة وفيها ما يطيّب الغداءَ ويشهّيه، ولا سيما الحلوى، ولكن في سوء الحظ أن النبيذ نسي إستحضاره. ولم يكن هذا النسيان مما تستغربه فتاتان قلما تشربان النبيذ؛ أما أنا، اغتظتُ لأني كنتُ أعوّل على النبيذ لكي أستمدّ الجرأة والإقدام. وربما كدَّرهما أيضاً هذا النسيان، وإن كنتُ لا أصدّق أنهما تكدّرتا. وكان مرحهما الساحر هو البراءة عينها؛ وعلى كل حال، فما الذي كان يسعهما أن تفعلا بي وأنا بينهما جميعاً؟ ثم إنهما أَرسلتا تطلبان النبيذ في تلك الجهات كلها، فلم يوجَد منه شيء البتة لما كان عليه قرويو ذلك القضاء من الفقر والزهد في المأكول والمشروب. فلما أَعربتا لي عن استيائهما، قلتُ لهما لتهوّنا عليكما فما بكما من حاجة إلى النبيذ لكي تسكراني. وهذي هي المغازلة الوحيدة التي اجترأتُ أن أعبّر عنها طول النهار، ولكن أحسب تينك الغَنجتين رأتاني صادق المغازلة.

وتغدينا في مطبخ المزارعة الشريكة، والصديقتان قد قعدتْ كل واحدة منهما على مقعد يحاذي جانباً من المائدة الطويلة، وبينهما ضيفهما[2] وقد قعد على كرسي مثلَّث القوائم لا ظَهْرَ له. فيا للغداء! ويا للذكريات قد امتلأن سحراً! أبأقلّ ما في الإمكان أحصل على تلك الملذات الصافيات الصادقات وأبتغي سواهن؟ فلا عشاء في

---

(1) الطباخ المعاون يُقصَد به روسو - المترجم.

(2) الضيف يُقصَد به روسو - المترجم.

البيوت الباريسية الصغيرة، يداني هذا الغداء، لا من حيث المرح والسعادة والعذوبة فحسب، ولكن من حيث طيب المتعة الحسية.

فلما انتهينا من الغداء، اقتصدنا في بعض الشيء، إذ لم نشرب كل ما فضل من قهوة الصباح، بل أبقيناه للُمْجَة العصر، على أن نتناول، عندئذٍ، القهوة مع القشدة والحلوى مما جاءت به الفتاتان. وذهبنا بعد الغداء إلى البستان نختم غداءنا ببعض الكرز ونذكّي شهوتنا للطعام. فتسلقتُ الشجرة وأخذتُ ألقي إليهما عناقيد الكرز فتردّان عليّ البزور من خلال الأغصان. فبدت لي الآنسة جاليه، ذات مرة، هدفاً رائعاً إذ بسطتْ إزاءها ومالت برأسها إلى الوراء، فرميتُها فأَصبتُها وقد حلّ بين ثدييها أحد العناقيد، فانفلتنا ضاحكين. وكنتُ أقول في نفسي: «ليت شفتيَّ كرز فيطيب لي أن أرمي بهما الفتاتين!».

انقضى النهار على ذلك النحو من المرح ونحن في منتهى الحرية وغاية الاحتشام. ولا كلمة واحدة مبهمة المعنى [مُثناة المعنى]، ولا مُلْحة تُلقى جزافاً. ولم نفرض على أنفسنا ذلك الاحتشام، وإنما هو قد أتانا عفوياً، فسلكنا على ما أوحت به إلينا القلوب. وخلاصة القول إن تواضعي، وقد يسميه غيري بلاهة، كان بالغاً جداً حتى إن أكثر ما فرط مني هو كوني قد قبّلت يد الآنسة جاليه مرة واحدة. والحقّ أن المناسبة قد جعلتْ لتلك الحظوة اليسيرة قيمةً بالغة. فلقد كنا وحدنا وأنفاسي ترتعش وعيناها منكّستان. فلم يجد فمي شيئاً ينطق به، بل وجد في يدها ما ينطبع عليه، فلما قبّلت يدها، أسرعتْ تشدّها نحوها، ثم نظرتْ إليّ نظرة غير مغضبة. ولستُ أدري ما الذي كنتُ أستطيع أن أقول لها وصديقتُها قد دخلتْ آنئذٍ فألفيتُها دميمة.

وتذكّرنا، في نهاية الأمر، أنه لا ينبغي أن تنتظرا الليل فترجعا

twitter @baghdad_library

إلى المدينة. ولم يبقَ من وقت إلا ما يكفي لأن نصل قبل الظلام. فأَسرعنا نعود وركبْنا كما قَدمنا. ولو اجترأتُ، لغيَّرتُ موضعي لأن نظرات الآنسة جاليه بلغن من قلبي، لكني لم أجسر على أن أذكر شيئاً، ولا حُقَّ لها أن تقترح هذا التغيير. وكنا، في أثناء عودتنا، نقول إن النهار قد أذنب إذ قارب الزوال، بيد أنا لم نشك قصر النهار، بل رأَينا أننا أُوتينا مقدرة خفيّة على أن نطيله بما قد ملأناه به من لهو ومسلّيات.

ثم فارقتُهما حيث كنا قد التقينا على التقريب. ولكم تحسّرنا على افتراقنا! ولكم تَواعدنا بأن نلتقي من جديد! فإن الاثنتي عشرة ساعة التي سلخناها معاً قد ساوت، عندنا، أُلفةَ أجيال. وما كانت الذكرى الحلوة لذلك اليوم لتقتضي من الفتاتين اللطيفتين شيئاً؛ وإنّ الوحدة اللطيفة التي سادت بيننا، نحن الثلاثة، تستحق لذات أقوى، ولكن ما كان لتلك الوحدة أن تدوم مع قوة اللذات هذه: وهكذا تحاببنا جهاراً في غير استحياء، وأردنا أن نبقى متحابّين على هذا النحو أبد العمر، وذلك أن لبراءة الطباع غبطتها التي تَعدل سواها ولا ريب والتي لا تنفك بعيدة التاثير ليس يتخللها وهَنٌ ولا انقطاع. وعندي أن ذكرى يوم جميل هي أقوى تأثيراً فيّ وأشدّ فتناً لي وأكثر عَوداً إلى قلبي من ذكرى جميع اللذات التي بلوتُها على الأيام. ولم أدر، على التدقيق، ما الذي كنت أبتغي من تينك الفتاتين الساحرتين، إلا أن عنايتي بكلتيهما قد بلغتْ حدّاً قصيّاً. ولستُ أقول إنني لو كنتُ سيّد أمري، لانشطر قلبي بينهما شطرين، فلقد كان بي شيء من تفضيل إحداهن على الأخرى. وكنتُ يسعدني أن أتخذ الآنسة دوجرافانريد خليلة لي؛ ولكن لو خُيّرتُ لآثرتُها لي نجيّة في أغلب الظن. ومهما يكن من حال، فقد خيّل إليّ، وأنا أفارقهما، أني لن استطيع أن أحيا بلا إحداهما ولا بدون الأخرى، إذ من كان

يصدّق أنني لن ألقاهما ثانية طول الحياة، وأن حُبَّنا العابر قد انتهى عند ذاك.

ثم إن قراء هذه السطور لن يفوتهم أن يضحكوا من مغامَراتي الغرامية عندما يتبينون أنني، بعد تعدد التمهيدات، لم أصل بأقصى تلك المغامرات إلا إلى تقبيل اليد. فيا قرائي! لا تخطئوا. فربما أَصبتُ في غرامياتي من اللذة التي أوصلني إليها تقبيل اليد، أضعاف ما تصيبون في غرامياتكم وأنتم تبدأونها تقبيل اليد على الأقل.

ورجع فانتور إلى منزله من بعدي بقليل وقد أطال السهرة. فلم أَلقَه بما كنتُ ألقاه به من مسرّة وارتياح، وتجنَّبتُ أن أخبره كيف أمضيتُ نهاري. وكانت الآنستان قد كلّمتاني عليه بلا تقدير له ولا احترام، وبَدَتا لي وكأنهما غير راضيتين أن أكون في عهدة هذا الرجل السيء جداً. ولقد أثر موقف الفتاتين هذا في نفسي تأثيرا ضارّا بالرجل في، فضلاً عن أن كل ما كان يشغلني عن الفتاتين لا يمكنه إلا أن يكون منفراً عندي. بيد أن فانتور لم يلبث أن ارتدّ بي إلى ذاته وإلى ذاتي وقد كلَّمني في حالتي إذ أمست أحرج من أن تستمر على ما هي فيه. ولئن لم أنفق إلا نَبْذاً، فإن الزهيد المقتَّر كان قد نفد كله، فأصبحتُ بلا مورد. ولم يأتني من ماما خبر، فلم أدر ما الذي أصير عليه، وحز في قلبي حتى التمزق إذ وجدت صديق الآنسة جالية قد اضطر إلى الشحاذة.

فقال لي فانتور إنه كلَّم في شأني رئيس محكمة أنّوسي، وإنه سيمضي بي غداً لكي نتغدى عنده، وقال إن الرجل، بمن له من أصدقاء، قادر على أن يوليني بعض الخدمات، فضلاً عن كونه ممن يَحسن التعرفُ إليهم، فهو ذو ألمعية وأدب ولطف عشرة، وهو، إلى ذلك، يهوى مواهب فانتور. أما فانتور فأخذ، جرياً على عادته، يخلط أرصن الموضوعات بأخفها قصداً، فأراني دوراً جميلاً لحنُه

twitter @baghdad_library

على لحن أوبرا لموريه؛ وهو يمثّل وقتئذٍ في باريس وقد وصل إلينا منها. وكان هذا الدور قد أَعجب السيد سيمون (وهذا هو اسم رئيس المحكمة) أيّ إعجاب، حتى إنه أراد أن يؤلّف، على اللحن عينه، دوراً آخر جواباً عن الدور الأول، وطلب إلى فانتور أن يؤلّف، هو أيضاً، دوراً جوابيّاً ثانياً. فركب هذا رأسه وسألني أن اضع دوراً ثالثاً وذلك ـ حسب قوله ـ لكي تَردَ عليهم الأدوارُ في الغد وكأنها محامل **الرواية الهزلية**[3] (*Roman comique*).

فلم يأتني النوم ليلئذٍ، وقد صنعتُ الدور على نحو ما استطعتُ. فكانت الأبيات، ـ وهي أول ما نظمتُ، ـ من الصنف الوسط، بل كانت أجود صنفاً، أو، في الأقل، أحسن ذوقاً مما لو كنتُ نظمتُها ليوم واحد سبق، فهي قد جرت على موضوع بالغ الرقة والحنان كان قلبي قد أصبح قابلاً منه كلَّ معنًى. فلما كنتُ من الغد، أَطلعتُ فانتور على دوري هذا، فراقه جداً، فوضعه في جيبه ولم يقل لي هل أَلَّف هو دوراً. ثم ذهبنا نتغدى عند السيد سيمون. فأَحسن استقبالنا، وكان الحديث ممتعاً، وليس في الإمكان إلا أن يأتي هكذا إذ دار بين رجلين قد اكتسبا من القراءة الشيءَ الكثير. أما أنا، فقد قمت بما عليّ أن اقوم به في هذا الموقف، إذ أصغيتُ وصمتُّ فلم يمرّ كلامهما على ذكر الأدوار، ولا مَرّا، في ما أعلم، على ذكر دوري.

فبدا السيد سيمون وقد رضي عن مسلكي، وإن يكن هذا هو كل ما لقي مني في تلك المواجهة. وكان قد تقدّم له أن لقيني مراراً عند السيدة دو فارانس فلم يعرني انتباهاً جمّا. فمعرفتي به يرجع

---

(3) *le Roman comique* أي كتاب **الرواية الهزلية** تأليف سكارّون (Scarron) ـ المترجم.

تاريخها إلى ذلك الغداء، وهي لم تنفعني قط في الغرض الذي دعاني إليها، ولكن جنيتُ منها بعدئذٍ فوائد تذكرني به بسرور.

فإني إذا لم أتكلّم على هيئة السيد سيمون سأكون مخطئاً، وهي التي إن سكتُّ عنها، لم يسع الناس أن يتخيلوه قاضياً من جهة مزاياه، وصاحب فكر قيّم من جهة ما كان يفتخر به. فالقاضي سيمون لم تعلُ قامته على القدمين، ولو أن ساقيه القويمتين الدقيقتين، بل الطويلتين، كانتا عموديّتين، لأطالتا من قامته، لكنهما معوجّتان منحرفتان وكأنهما ساقا البيكار قد انفرجتا أيّ انفراج. أما بدنه، فلم يكن قصيراً فحسب، بل كان، إلى هذا، نحيلاً وصغيراً في كل شيء. ولا شك أنه، عارياً، قد أَشبهَ دويبةَ الجراد. أما رأسه الطبيعيُّ الحجم، على وجهٍ حسن التكوين وسحنةٍ كريمة وعينين جميلتين، فقد بدا وكأنه الرأس المستعار قد رُكّز على بعض العيدان. ولو شاء السيد سيمون، لأمكنه أن يستغني عن نفقات الملبس لأن وَفْرته[4] كانت وحدها تكسوه من رأسه إلى الأخمصين.

وكان ذا صوتين جد متنافرين لا ينفكان، في حديثه، متخالطين، وعلى تناقض فيهما يُضحك أولاً، ثم يصبح في غاية الإزعاج. أما أحد صوتيه، فثخين جهير، وهذا هو صوتُ رأسه إن جاز القول. وأما صوته الآخر، فجليّ حادّ في غير ثخانة وكأنه متخنث، وهذا هو صوتُ بدنه. فكان إذا أطال الإصغاء إلى نفسه وترصّنَ في القول ولم يجهد أنفاسه، تأتى له صوته الغليظ؛ ولكن ما يحتدّ ولو قليلاً، بعض ساعات الفوران، حتى يغدو صوتُه وكأنه الصفير بالمفتاح، فيشقّ عليه أن ينكفئ إلى صوته الأول.

---

(4) الوفرة هي الشعر المستعار - المترجم.

twitter @baghdad_library

ثم إن السيد سيمون، مع الهيئة التي وصفتُه بها وصفاً لا غلوّ فيه، كان أنيقاً ومحدّثاً غزلاً، وقد ذهب في الاعتناء بنفسه إلى حد التزيّن. وحاول أن يحيط نفسه بما أمكنه من أسباب التفوق، فكان، صباحاً، يستقبل وهو بالسرير، لأن القادمين إذا رأوا على المخدة رأساً جميلاً، لم يخطر لهم أن هذا هو كل ما عند القاضي. فنجم عن ذلك من المشاهد ما لا أشك في أن أنّوسي برمّتها تذكره إلى اليوم.

بينما كان القاضي، ذات صباح، ينتظر المتداعين وهو في السرير، بل الأصح أنه على السرير، وقد جعل على رأسه قلنسوة الليل الرقيقة البيضاء المزيَّنة بعهنتين من شرائط وردية اللون، إذ وصل أحد القرويين وأخذ يطرق الباب، وكانت الخادمة قد خرجتْ. فسمع القاضي الطرق يتكرر، فصاح أن «ادخلْ»، فإذا صوته، وقد أُطلقَ بشدة، صوتٌ حادّ غير ثخين. فدخل القروي وقام يبحث عن مصدر ذلك الصوت النسوي. فلما أَبصر في السرير قلنسوة وبعض الشرائط، همّ بأن يخرج وهو يعتذر إلى السيدة أيّ اعتذار. فغضب السيد سيمون وازداد صوته تخنثاً، وازداد القروي اقتناعاً بصدق ظنه ووجد في الصياح إهانة له فهبّ يلوم ويشتم ويقول إن هذه ليست، في ما يظهر، إلا امرأة خفيفة وإن منزل القاضي ليس قدوة حسنة. فحنق القاضي، ولم يكن لديه من سلاح إلا المبولة، فهمَّ أن يرمي بها القرويَّ المسكين. عندئذٍ وصلت الخادمة.

ولئن كان ذلك القزم قد جارت عليه الطبيعة في بدنه، فلقد أعاضته منه في عقله. وكان له روح ممتع بالطبع، فتولاه بالتهذيب والتنميق. ومهما أصاب من علم الشرائع والقوانين، على ما قيل، فإنه لم يحبّ عمله، بل أُولع بالآداب، واسترسل فيها، فأفلح واكتسب سعة الأفق المتألق والحلاوة التي جعلتْ مسلكه ظريفاً

كيّساً، ولو مع النساء. وحفظَ عن ظهر قلب مأثور كتب **الحكَم والأمثال والحكايات** وسواها، فتفنن في ذكرها يورد ما جرى لستين سنة مضت، يرويه بعناية ويحيطه بما يقتضي من أسرار، فيبدو وكأنه قصة البارحة. وكان يعرف أصول الموسيقى ويغنّي بصوته الرجوليّ غناء عذْبَاً. وفحوى القول أنه رُزق من المواهب الحسان ما كثر على القاضي أن يُرزَق مثْلُه. ثم إنه، لفرط ما قد لاطف نسوان أنّوسي بات وقد تلهين به يتبعهن وكأنه القرد الصغير. وذهب في زعمه إلى أن له عند بعضهن حظوة ونصيباً، فأضحكهنّ ذلك جد الإضحاك. وكانت إحدى السيدات، واسمها السيدة ديبانْيي، تقول إنّ حظوته الأخيرة هي أن يُقبّل المرأة عند رُكبتها.

ولقد كان يعرف الكتب الجيدة ويتكلّم عليها عن طيبة نفس، حتى إن كلامه لا يُبهج فحسب، بل يكون كلاماً مفيداً بالمعرفة. وهكذا لمّا ملتُ، بعدئذٍ، إلى الدراسة، أقبلتُ على المطالعة فحَلَتْ لي. وربما ذهبتُ من شامبيري، حيث أقمت في تلك الأيام، فزرتُه في بعض الأوقات، فكان يثني على مزاملتي له في المطالعة ويشجّعني عليها ويسدي إليّ في شأنها الرأيَ السليم، فانتفعتُ في معظم الأحايين. وكان من سوء الحظ أنْ قد حلّت ببدنه النحيف روح هي على منتهى الرقة والشعور. ثم أصيبَ بعد سنوات ببعض الخسارة، ولستُ أدري ما هي، فاكتأب، فمات. فيا للخسارة! لقد كان إنسانا طيّباً تَضحك منه في أول الحال ثم تنتهي إلى محبته. ولئن لم ترتبط حياته بحياتي إلا قليلاً، فلقد خصصتهُ ببعض الذكر عرفاناً مني لجميل دروسه المفيدة.

ثم إنني ما أنْ أُتيحَ لي الوقت حتى هرعتُ إلى الطريق التي يقع فيها منزل الآنسة جاليه أعلل النفس بأن ارى أحداً يدخله أو يخرج منه، أو، في الأقل، أن أرى بعض النوافذ تُفتَح. ولكن لم أرَ شيئاً،

twitter @baghdad_library

ولا بدا لي حتى من هرٍّ قَط، فظلَّ البيت، طول ذلك الحين، مغلَقاً كأن ليس يسكنه أحد البتة. وكان الطريق ضيقاً خالياً، ولاحظتُ أحد الرجال، وربما مرّ بعض الناس فدخل في الجوار أو خرج منه. فارتبكتُ لمنظري، وخيّل إليّ أنْ قد خُمّن [حُرز] لمَ أنا هناك. فعذّبتْني هذه الفكرة لأن شرف اللواتي أُحبُّ وراحتهن كنت لا أنفكّ أوثرهما على لذتي وبهجتي.

فأعياني، في آخر الأمر، أن اقوم بدور العاشق الإسباني. ولما لم يكن معي من قيثارة، رأيتُ أن أوجّه رسالتي إلى الآنسة دوجرافانريد. وكنتُ أفضّل أن أكتب إلى صديقتها، ولكن لم أتجاسر. وكان في الأنسب أن أبدأ بهذه التي أنا مدين لها بمعرفة الآنسة الأخرى والتي كنتُ وإياها أكثر تآنساً. فلما أَنهيتُ رسالتي، مضيتُ أحملها إلى الآنسة جيرو، بحسب ما كنتُ قد اتفقتُ عليه مع الآنستين يوم افترقنا؛ وهما قد دلّتاني إلى هذه الوسيلة. وكانت الآنسة جيرو ممن يعملن في صناعة نسيج الأثاث، وربما عملتْ أحياناً عند السيدة جاليه فأُبيحَ لها أن تغشى منزلها. فلم يبدُ لي أن الفتاة المرسال قد أُحسنَ اختيارُها حقّاً، ولكن خفتُ، إن تصعَّبتُ حيالها، ألا يُعرَض عليّ سواها، فضلاً على كوني لم أجرؤ على أن اقول لها إنها قد قَصدتْ بذلك أن تعمل لنفسها. وأذلّني أن أجترئ على الظن أنها، عندي، من جنس تينك الآنستين. بيد أن هذا المستودع قد آثرتُه خوْفَ ألا يتسنى لي غيره البتة، فقنعتُ به مهما يكن فيه من مخاطرة.

فما كلَّمتُ الآنسة جيرو حتى خمنت ما في قصدي، ولم يكن عسيراً. فلو أن الرسالة التي وجب إيصالها إلى الفتاتين لم تنطق من تلقاء نفسها، لكانت هيئتي الغريبة كفيلة وحدها بأن تكشف أمري. وأصدق الظن أن هذه المهمة لم تسرها كثيراً وإن تكن قد قامت بها

فصدَقتْ. ولما كنتُ من صباح الغد، طرتُ إلى منزلها فوجدتُ الجواب. وما أَسرع ما خرجتُ من هناك فمضيتُ اقرأه وأقبّله ما شئتُ. والواقع أن ذلك لا يحتاج إلى أن أذكره؛ أما ما كان أحوج إلى القول، فهو موقف الآنسة جيرو وقد أَلفيتُ عندها من رقة الذوق والاعتدال فوق ما توقَّعتُ، وذلك أنها لها من سلامة الحسّ ما كفاها لأن تتبيّن أنها، بسنواتها السبع والثلاثين وبعينيها اللتين أشبهتا عينَي الأرنب البرية وبأنفها المتسخ وبصوتها الأحبش وببشرتها الشديدة السمرة ليس لها من سبيل إلى أن تتغلب على فتاتين هما في غاية الحسن وعنفوان الفتون، فأبت أن تخونهما وأبت أن تخدمهما، وفضَّلتْ أن تراعيني لأجلهما.

وكان قد تصرّم بعض الوقت فلم يرد على ميرسوريه من نبإ عن سيدتها قط، فأخذتْ تفكر في الرجوع إلى فريبور، فشجعتْها الآنسة جيرو على ما فكرتْ فيه تشجيعاً حاسماً، لا بل فعلتْ غير ذلك أيضاً، إذ أفهمتْها أنه من الموافق أن يوصلها أحدهم إلى بيت أبيها واقترحتْني لكي أوصلها. فوجدتْ ميرسوريه هذا الاقتراح ملائماً جداً وقد كنتُ أُعجبها. فكلّمتاني به في اليوم نفسه على أنه أمر قد فرغ منه؛ فلما لم أجد في تصرفهما بي على هذا النحو ما لا يروقني، رضيتُ وقد نظرتُ إلى هذه الرحلة على أنها لا تتعدى ثمانية ايام في الأكثر. أما جيرو، التي لم يكن رأيها في ذلك على وفق نظري، فقد دبَّرتْ كل شيء. وكان لا بد لي أن أقرّ لها بحالتي المالية، فدبَّرتا الأمر وتولت ميرسوريه تأمين نفقة سفري. ثم عوضتْ نفسها من تلك النفقة، إذ أُقرَّ، نزولاً عند رغبتي، أن يُرسَلَ بأمتعتها اليسيرة قبْل أن نرتحل، ثم نسافر مشياً بعض النهار على بضعة أيام؛ وهكذا كان.

وإنه ليؤسفني أنني قد كنتُ السبب لأن تقع في غرامي هذه الكثرةُ من الفتيات. لكن ليس في ما أَصبتُ من تلك الغراميات مدعاة

twitter @baghdad_library

إلى الغرور، فلذاك أحسب أنه يمكنني أن أعلن الحقيقة إعلاناً لا تردّد فيه. فإن ميرسوريه، وهي أفتى من جيرو دونها وأقل بلاهةً، لم تتغنج عليّ بقدْر ما فعلتْ هذه. لكنها كانت تقلّد صوتي ولهجتي وتردّد كلماتي وتُظهر لي من العناية ما وجب عليّ معه أن أبدي لها مثله. وكانت تحرص على أن نرقد في حجرة واحدة. وهذه الصلة، ما بين فتًى في العشرين وفتاة في الخامسة والعشرين، قليلاً ما تقتصر غايتها على هذا الحد في أثناء السفر.

بيد أنها قد اقتصرتْ عليه في هذه المرة. وإذ بلغت سلامة طويتي أقصاها بحيث إنني، رغم أن ميرسوريه لم تكن كريهة، لم يخطر لي طولَ السفر أن أحاول مغازلتها أقلّ مغازلةٍ، بل ولم تكن عندي فكرة مهما كانت ضئيلة تتصل بهذا الشيء؛ وهب أن هذه الفكرة قد خطرت لي، لكنتُ أَشدَّ غباوة من أن أعرف كيف أنتهز السانحة. ولم يسعني أن أتخيل كيف يستطيع فتًى وفتاة أن يبيتا معاً، بل حسبتُ أنه لا بد من أجيال لتهيئة هذا التدبير المهول. فإذا كانت ميرسوريه المسكينة، إذ أدّت عني نفقة السفر، قد اعتمدتُ على بعض ما يساوي ثمنها، فلقد خُدعتْ، لأننا وصلنا إلى فريبور ونحن على مثل ما برحنا أنّوسي.

فلما مررتُ بجنيف، لم أقصد زيارة أحد وأحسستُ بانقباض وأنا أجتاز ببعض الجسور هناك. فما أَبصرتُ يوماً، أسوار تلك المدينة، ولا دخلتُها يوماً، إلا تلاشى قلبي بعضَ الشيء لفرط ما قد اعتلج فيّ من أسباب الحنان. ولقد كانت صورة الحرية في نبلها تستوي بنفسي إلى الرفعة والسمو، على حين كانت صورة المساواة والاتحاد ودماثه الأخلاق الجارية تبلغ مني المبالغ فأذرف الدمع ويشتدّ ندمي على فقداني لتلك الخيرات كلها. فما أبعدَ ما كنتُ فيه من ضلال، ولكن كم كان ضلالي طبيعياً! فلقد حسبتُ أنْ سأَرى في موطني تلك الخيرات جميعاً لأني كنتُ أحملها من قلبي في الصميم.

وكان لا بد من المرور بنيون. أَمرّ من هناك ولا ألقى أبي! لو تجاسرتُ، لمُتّ ندماً. فغادرتُ ميرسوريه في النزل ومضيتُ أزور أبي مجازفةً. ولكم أخطأتُ إذ خشيتُه، فما واجهتُه حتى انفتحتْ نفسه على المشاعر الأبوية التي ملأتْها. وكم من دموع ذرفنا حين تعانقنا! فحسبني، أول الأمر، عائداً إليه. فرويتُ له قصتي وأَخبرتُه بما اعتزمتُ. فقاومني مقاومة واهية، وبيَّن لي الأخطار التي أعرّض نفسي لها، وقال إن خيرَ الحماقات أقصرُها. إلا أنه لم يحاول قسري على أن أبقى. وأخاله على حقّ. ولكن اليقين هو أنه لم يبذل من أجل أن يستبقيني كل ما قد أمكنه بذله، وذاك إما لكونه وجد أن ليس لي أن ارتد على أعقابي بعد الخطوة التي خطوتُها، وإما لكونه لم يدر ما الذي يصنع بي وأنا في سني تلك. ولقد بلغني بعدئذٍ أن رأيه في رفيقة السفر لم يكن منصفاً، إذ كان رأياً بعيداً عن الحقيقة؛ لكنه، في الواقع، رأي لا يُستغرَب. أما زوجة أبي، وهي امرأة طيّبة على بعض الرياء، فقد تظاهرتْ بأنها ترغب في أن أبقى على العشاء. بيد أني لم أبقَ، بل قلتُ لها إن في نيتي أن أتوقف عندهما، في أثناء الرجوع، وقتاً أطول. وأودعتُها الرُزَيمة التي كنتُ قد أَرسلتُ بها على بعض السفن والتي أَزعجني نقلها معي. ثم ارتحلتُ في صباح الغد وقد أبهجني أن رأيت أبي وكَوْني قد اجترأتُ على تأدية هذا الواجب.

ووصلنا إلى فريبور والحمدلله، وكانت الآنسة ميرسوريه قد خفّت ملاطفتها لي بعض الشيء. ثم أضحت، بعد ما وصلنا، لا تبدي لي إلا الجفاء، كما أن أباها، وهو لا يرتع في البحبوحة، لم يرحب بي ترحيباً حاراً، فبتُّ، ليلتي تلك، في بعض الحانات، ثم زرتُهما في الغد، فدعواني إلى الغداء، فقبلتُ الدعوة. ثم افترقنا بلا دموع، فعدتُ في المساء إلى الحانة، ثم ارتحلتُ في اليوم الثالث لم أدر إلى أين أنوي الذهاب.

twitter @baghdad_library

وتلك هي، في حياتي، سانحة أخرى أتاحت لي فيها العنايةُ الإلهية ما يلزمني لكي أُمضي أياماً هنيئة سعيدة. وكانت ميرسوريه فتاة في منتهى الطيبة. على غير ألمعية ولا ملاحة، وإن لم تكن قبيحة قط. وكانت جد رصينة، هادئة الطباع، خلا فورات لها ينقضين في البكاء فما يعقبهن إعصار. فمالت إليّ حقَّ الميل، حتى ربما كان أمكنني أن أتزوجها وأن أسير على حرفة أبيها، لأن ميلي إلى الموسيقى حبَّبَ إليّ تلك الحرفة، وإذ ذاك كنتُ أَقمتُ في فريبور، مدينةٍ صغيرة محدودة الجمال، وإن يكن سكانها من الطيّبين الأخيار. ولا ريب أنني كنتُ حُرمتُ، آنئذٍ، كثيراً من رغد المباهج والمسرّات، لكني كنتُ عشتُ بسلام إلى ساعتي الأخيرة، فأنا أَعلمُ الناس أنه لا سبيل إلى التردّد بين الأمرين.

ثم إنني رجعتُ، لا إلى نيون، بل إلى لوزان أريدُ أن أرتوي من منظر تلك البحيرة الجميلة التي تمتدّ ثمة على مداها الأوسع. ولم يكن في أسباب رجوعي الحاسمة، الخفيّة، ما هو أشدّ من ذلك إلحاحاً عليّ، إذ إن الأسباب البعيدة التطلّع قلما قويتْ على أن توجهني في قول لي ولا في فعل. كما أن اللاّيقين في المستقبل قد أراني المشروعات التي يتطلب تنفيذها وقتاً طويلاً وكأنها خدائع مخدوع. وذلك أني أنقاد للأمل كما ينقاد له امرؤ آخر شرْطَ ألا يقتضيني تعهدي إياه شيئاً من مجهود، فإنْ وجب عليّ أن أدأب في تعهدي إياه زمناً طويلاً، لم أستطع ذلك على الإطلاق؛ وإن تهيأتْ لي أَيسرُ المسرّات، أصبحتْ أشدَّ إغراءً لي من كل مباهج الفردوس، عدا المسرّة التي لا يعقبها الحزن، فهي لا تغريني،إذ لست أهوى إلا المتع الخالصة التي لا تتسنى للإنسان وقد أَدركَ أنه على أهبة الندامة.

وكانت حاجتي ماسة إلى أن أبلغ أيّ محلّ كان؛ وخير الأمكنة عندي كان يومئذٍ أقربَها مني، لأني ضللتُ الطريق، فألفيتُني مساءً في

مودون، فأَنفقتُ هناك ما بقي معي من نقود زهيدة، عدا عشرة دراهم نفدتْ على الغداء في غد ذلك اليوم. فلما وصلتُ، مساءً، إلى إحدى القرى الصغيرة التي تجاور لوزان، دخلتُ بعض الحانات لم يبقَ معي فلس واحد أؤدّي به نفقة المبيت ولا دريتُ إلى ما أنا صائر فيه. وكان قد اشتدّ عليّ الجوع، فتشجعتُ فطلبتُ عشاءً وكأني أملك ثمنه. ثم ذهبتُ إلى النوم ليس يهجس في روعي شيء. فنمتُ نوماً هادئاً. فلما غدوتُ وأكلتُ وجبة الصباح واطّلعتُ على نفقة ذلك كله وقد بلغت سبعة دراهم، أردتُ أن أَرهن سترتي عند صاحب الحانة. فأبى الرجل الخيّر أن يرتهنها وقال لي إنه بنعمة السماء لم يتقدَّم له أن عرّى أحداً من ثيابه قط وإنه لن يبدأ بي من أجل سبعة دراهم، وقال لي أُبقي سترتي فأُوفّيه حقَّه متى استطعتُ. فأثَّرتْ فيّ طيبته، لكن تأثيرها كان دون ما قد وجب عليّ ودون ما قد بلغتْ مني بعدئذٍ كلما فكرتُ فيها من جديد. ولم ألبث طويلاً حتى أَرسلتُ إليه مع رجلٍ ثقة، بما قد استحقّ له عليّ وشكرتُه. ولكن، بعد انقضاء خمس عشرة سنة وقد مررتُ بلوزان ثانية إذ أنا عائد من إيطاليا، أَسفتُ حقّاً أني كنتُ قد نسيتُ اسم الحانة وصاحبها. ولولا ذلك لقصدتُه زائراً ولسرّني أن أُذكّره بصنيعه وأن أقيم له الدليل على أن حُسن رأيه فيّ كان بموضعه. ولقد أُسديتْ إليّ خدمات هي، ولا ريب، أَجزل شأناً من خدمته، لكنها أُدّيت إليّ بمزيد افتخار، فلم أجدها خليقات بعرفان الجميل مثل المعاملة الإنسانية البسيطة المتواضعة التي تلقّاني بها ذلك الرجل النزيه المستقيم.

فلما اقتربتُ من لوزان، أخذتُ أفكّر في ما قد ترديتُ فيه من ضيق وفي كيف أنتشل نفسي منه دون أن أعرض بؤسي على زوجة أبي؛ وتشبهتُ، وأنا في رحلتي مشياً، بصديقي فانتور يوم وصل إلى أنّوسي. فلم تزل بي تلك الصورة حتى أصررتُ على أن أمثّل في

twitter @baghdad_library

لوزان دور فانتور وكأني فانتور الصغير، فأعلّم الموسيقى مع جهلي بها، وأزعم أنني من باريس مع أني لم أكن قد جئتُها يوماً، ذلك ولم يخطر لي أني لم أَرزق ما قد رُزق فانتور من ملاطفة ومواهب. ولم يكن ثمة من دار لتعليم الموسيقى الدينية أستطيع أن أنوب عن بعض معلّميها إذ لم أحذر التطفل على أهل الفن، فرأيتُ، على هدي مشروعي الخلّاب، أن أبدأ بطلب نزلٍ صغير، مقبول، وبثمن الإقامة. فهُديتُ إلى نزل يدعى صاحبه بيروتيه، فإذا الرجل من خيرة الناس أجمعين، وأحسنَ استقبالي، وأخبرتُه بأكاذيبي كما لفّقتُها. ووعدني أن يأتي على ذكري ويتكلّم بشأني ويحاول أن يوجد لي تلاميذ، وقال إنه لن يطلب مني ثمن الإقامة إلا بعد أن أكسب قيمته وقدرها خمسة دراهم، وهو بنفسه ثمن زهيد، لكنه عندي، باهظ كثيراً. فنصح لي أن أنزل عنده بنصف بدل فيقدّم لي على الغداء حساءً طيّباً لا غير، أما على العشاء، فالطعام وفيرٌ، فرضيتُ. والحقّ أن بيروتيه قد أسلفني ذلك كله عن طيبة نفس ولم يألُ جهداً في سبيل نفعي. فلمَ لا أقع اليوم، وقد علت بي السن، إلا على قليل من الكرام الخيّرين الذين كنتُ أقع، أيام الشباب، على جمّ منهم غفير؟ هل انقرضتْ ذريتهم؟ لا، ولكن الطبقة التي ينبغي أن أطلبهم فيها، يومَنا هذا، لم تبقَ هي الطبقة نفسها التي كنتُ ألقاهم فيها بالأمس. فإن الشعب، حيث الأهواء الجسام لا تعصف سورتها إلا بين الحين والحين، هو أوفى إصغاءً إلى مشاعر الطبيعة. أما في الطبقات العليا، فإن تلك المشاعر تُكبَتْ كبتاً فلا يبقى تحت قناعها إلا لغة المنفعة أو الغرور.

ثم إني كتبتُ إلى أبي من لوزان، فبعث إليّ برزمتي وأولاني من نفيس النصح ما كان يجب أن أنتفع به على أحسن مما فعلتُ. ولقد تقدَّمتْ لي الإشارة إلى ساعات هذيان لي غريبة ما أَظلُّ فيها أنا

إياي. وإليك ساعة لهذياني أخرى هي من أشدّ هذه الساعات. ولكي يدرَك مبلغُ ما ركبتُ رأسي يؤمئذٍ، ومبلغُ «التفنتر»[5] الذي أصابني لا بدّ أن يُنظَر إلى ما راكمتُ من غرائب ومروقات. فهاآنذا أستاذُ غناء لستُ أَعرف كيف أقرأ لحناً واحداً. ولئن أفادتني الأشهر الستة التي سلختُها مع لوميتر، فما كانت لتكفيني؛ وكنتُ، فضلاً عما سبق آخذ عن معلّم أستاذ، وبحسبي ذاك فأسيء التعلّم. وإذ كنت باريسياً من جنيف وكاثوليكياً في بلدٍ بروتستنتي فلقد رجّحت أن أغيّر اسمي وديني ووطني. فقمتُ أُداني مثالي الأكبر ما أمكنَ أن أدانيه. كان هو يدعى فانتور دوفيلنوف. أما أنا فقد صغتُ بأحرف اسم روسو اسماً لي آخر بدأتُه بحرف «ف» فدعوتُ نفسي فوسّور دوفيلنوف. ولقد كان فانتور يعرف التأليف الموسيقي وإن لم يذكر هذا قط، أما أنا، فكنتُ أجهل هذا التأليف وأتباهى به أمام الجميع وأزعم أنني مؤلّفُ موسيقى، مع كوني لم أقدر على أن أَرقم لحناً واحداً. ولم يقتصر على ذلك أمري، لكني لما عُرّفتُ بالسيد دوتريتورانس، وهو أستاذ حقوق يهوى الموسيقى ويحيي في بيته الحفلات، أردتُ أن أقدّم له نموذجاً من فني فأنشأتُ أؤلّف قطعة لبعض حفلاته، وذلك بوقاحة مني كما لو كنتُ أَعرف التأليف الموسيقي. واظبتُ خمسة عشر يوماً على هذا العمل الرائع، فوضعتُه، ثم بيَّضتُه ونسَّقتُ أدواره ووزعتُها وأنا في تمام الثقة وكأن عملي آية في الإيقاع والتأليف. وأَبَيتُ في النهاية ـ وهذا يصعب تصديقه مع أنه لا شك فيه ـ أَبَيتُ إلا أن أتوّج هذا النتاج الرفيع بلحن مونويه كان قد شاع حتى الابتذال، ولعله ما يزال يتذكره الجميع، وهذي هي كلماته وقد ذاعت في الأمس أيّ ذيوع:

---

(5) يقصد روسو مدى تأثره بفانتور الموسيقار وتقمصه لشخصيته الفنية.

twitter @baghdad_library

«يا لها من نزوات!

يا له من جور!

ماذا؟ أكلاريسُك أنتَ

حُبَّك تَخون؟». إلخ.

وكان فانتور قد علّمني هذا اللحن على صوتٍ جهير وكلماتٍ أخرى فاحشة استعنتُ بها على حفظه، فختمتُ به قطعتي الموسيقية بعدما حذفتُ كلماته، وقدّمتُه على أنه من تأليفي كأنما قد خاطبتُ قوماً من سكان القمر.

اجتمع الموسيقيون لكي يؤدوا قطعتي. فجعلتُ أبيّن لكل واحد منهم ضرب الحركة وطريقة التأدية ومَراجع الأجزاء وقد انهمكتُ أيّ انهماك. فظلّوا يتأهبون، بضّاً ودوزاناً، خمس دقائق أو ستّاً خلتُها خمسة قرون أو ستة قرون. حتى إذا فرغنا من التأهب، أَخذتُ أَضربُ منصّة قيادة الجوقة بمدرج ورقة جميل كان في يدي ضرباً هو على وزن النغمات الخمس أو الست للحن «خذوا حذركم». فسكت الجميع، فانطلقتُ أجدّ وأواصل الضرب على هذا الوزن، فابتدأ الناس. فلم يُسمَع قط مثل هذا الصخب ولا مثل هذه الضوضاء منذ عهد الناس بالأوبرا الفرنسية. وكائنة ما كانت آراؤهم في نبوغي المزعوم، فإن تأثيره قد بدا أسوأ مما كانوا يتوقّعون. فضاقت أنفاس العازفين وقد ضحكوا ضحكاً شديداً، وفتح المستمعون عيونهم، فودّوا لو سدّوا آذانهم ولكن لم يكن لهم وسيلة إلى ذلك. وأبى جلّاديّ، أعضاءُ جوقة الموسيقى، إلا أن يمعنوا في المرح فهبّوا يعزفون، في لحن سريع، عزفاً ناشزاً، مخالفاً للأصول، فأَصمّ الأسماع. فواصلتُ الضرب، والعرق يتصبب مني، لكني تمالكتُ نفسي من الخجل، ولم أجرؤ على أن أَهرب وأَدَع كل شيء على

حاله. وكان من التعزية لي أني سمعتُ الحاضرين يتهامسون في آذانهم بل على مسمعي أنْ «هذا أمر لا يطاق» وبعضاً منهم يقول «يا للموسيقى الصاخبة!» وبعضاً آخر يقول: «أيّ ضوضاء شيطانيّ هو هذا!» مسكين جان جاك! ففي هذه الساعة الأليمة كدتَ تفقد أملك أن تثير ألحانُك يوماً، بين يدي ملك فرنسا وبلاطه أجمع، همسات الإعجاب والتصفيق، وكدتَ تفقد أملك أن تتهامس من حولك في جميع المقصورات أَلطفُ النساء قائلات «ما أعذب هذه الألحان! إن هذي الأغاني كلها لتأسرُ القلوب!».

بيد أن ما أشاع الأنس في نفوس الجميع هو لحن المونويه. فما إن عزفتُ منه ببضع نغمات، حتى انفجرت القهقهات من كل صوب. فجعل كلٌّ من حضر يهنئني بحُسن ذوقي في الغناء، وأكّدوا لي أن هذا اللحن سيُطلق ذكري وأنه خليق أن يغنّى به حيثما كان. وليست بي حاجة إلى أن أصف ما قد اعتلج بنفسي من اضطراب كنتُ له أهلاً.

فلما أصبحتُ من الغد، جاءني أحد الذين عزفوا في الحفلة، ويدعى لوتولد، فلم يهنئني بما أصبتُ من نجاح وتوفيق فصدقَ قولاً. فأَشرعتُ له قلبي لعمق شعوري بحماقتي ولخجلي ولأسفي وليأسي من الحال التي انتهيتُ إليها، ولعجزي أن أدَع قلبي مغلَقاً حيال تلك الآلام الجسيمة. فأَطلقتُ لدموعي العنان، واعترفتُ إليه بكل شيء بدل ألا أُقرّ له إلا بجهلي، وسألتُه أن يكتم سرّي، فوعدني، فكتمه على النحو الذي تتصوَّره. فإذا لوزان بأسرها قد وقفتْ، منذ المساء عينه، على حقيقة شأني، والعجيب أنه لم يُظهر لي أحد أن قد اطّلع على سرّي، حتى بيروتيه الطيّب لم يبد لي شيئاً من هذا القبيل ولا أبى أن يأويني ويقيتني.

فأَقمتُ على حالتي، ولكن أَمسيتُ حزيناً جداً لأن ما نجم عن براعة استهلالي، ذاك، لم يكن ليجعل إقامتي في لوزان إقامة ممتعة. فلم يتوافد عليّ التلاميذ، ولا أتتني تلميذة واحدة، ولا قصدني من

twitter @baghdad_library

المدينة أحد، وإنما جاءني ألمانيان بدينان، بل ثلاثة، فكانت غباوتهم على قدْر جهلي، فأبرموني وأزعجوني ولم يتخرجوا على يدي وهم في مهرة العازفين المجتهدين. ودُعيتُ إلى بيتٍ واحد لا غير طاب فيه لإحدى الفتيات الخبيثات أن تريني كثيراً من الألحان التي لم يسعني أن أقرأ منها علامة موسيقية واحدة، فشاء خبثها أن تغنّي أمام المعلّم الأستاذ فتبيّن له كيف تؤدي الألحان، وكنتُ ضعيف المقدرة على أن أقرأ اللحن من أول وهلة حتى إنني، في تلك الحفلة اللامعة التي أحييتُها، لم أستطع مواصلة العزف لكي أَعلم هل أَحسن الموسيقيون تأديةَ ما كان بين يديّ من تأليفي أنا.

فوردتْ عليّ، وأنا في دركة هذه المذلّة، تعزيات عذبة رقيقة، وذلك في الأخبار التي كانت تصل إليّ، بين الحين والحين، من الصديقتين الفاتنتين. فلقد كنتُ، على الدوام، أجد في الجنس اللطيف فضيلةً عظيمةَ التأسية، إذ لا شيء يعزّيني عما يشجيني من بلوى إلا أن أشعر بأن في الناس امرأةً مُحبّة قد اهتمت ببلواي. غير أن هذه المراسلة لم تلبث طويلاً حتى انقطعت، فلم يتجدد عهدها قط، وإنما الذنب، ههنا، ذنبي. وذلك أنني، لمّا غيَّرتُ مقامي، أَهملتُ أن أُطلعهما على عنواني وقد اضطرتني أحكام الضرورة أن لا أفتأ أتدبر أمري، فما عتّمتُ أن ذهلتُ عنهما كل الذهول.

ومضى ردح من الوقت لم أذكر فيها ماما المسكينة، فإنْ حسب أحد أني نسيتها، أَخطأَ حقّاً، إذ كنتُ لا أبرح متفكراً فيها، راغباً في لقائها من جديد، لا قضاءً لحاجات المعيشة وحدها، بل، على الأخص، قضاءً لحاجات القلب نفسه. ولئن كان تعلقي بها شديداً، بالغ الحنان، فإنه لم يمنعني أن أحبّ سواها ولكن على نحوٍ آخر. فالنساء كافة مدينات بحناني لما بهن من سحر وفتون، وحناني مدينٌ لهن هو أيضاً، ولولاهن لم يحي من بعدهن قط. أما ماما، فلو صارت عَجُوزاً وقبيحة، لم ينقص ما في حبّي إياها من رقة وحنان. فلقد بثّ

قلبي، في شخصها، ما كنتُ قد أَحطتُ به حُسنها من إكرام، ومهما أَحست إزائي من تغيير، فلا يمكن مشاعري أن تتغير ما دامت ماما هي إياها في كل حال. وإني لأعلم أن لها عليّ عرفان بجميلها، وإن لم يخطر لي ذلك في شيء. فكان سواء عليّ أأسْدَتْ إليّ أم لم تُسْد، إذ أنا منها على ثبات. فما أحببتُها فرضاً ولا انتفاعاً ولا مجاملةً، وإنما أحببتُها لأني وُلدت لكي أحبّها. فكنتُ إذا أُغرمتُ بسواها، ذهلتُ عنها ـ وإني لأقرُّ بهذا ـ فصرتُ أقلّ تفكيراً فيها وإن بقيتُ، في تفكيري هذا، أشعر بالغبطة عينها، فما شغلتُ يوماً بها، عاشقاً كنتُ أم غير عاشق، إلا أحسستُ أن لا سعادة لي في الحياة ما دمتُ منفصلاً عنها.

ولئن كانت أخبارها قد انقطعتْ عني من زمن بعيد جداً، وما ظننتُ قط أني فقدتُها فقداناً تاماً ولا أنها قويتْ على أن تنساني. وكنتُ أقول في نفسي: «ستعلم هي، أو سوف تعلم أني تائه شريد، فيأتيني منها نبأ ما، وألقاها مرة أخرى ولا ريب». وطاب لي، وأنا أرتقب ذلك، أن أقطن في بلدها، وأن أمرّ بالشوارع التي كانت تمرّ بها، وأمام المنازل التي سبق أن سكنتْ فيها، وكان كل ما في هذا القبيل حدساً مني وتخميناً، لأن من سخف غرائبي أني لم أجرؤ على السؤال عنها ولا على اللفظ باسمها إلا إذا اضطررتُ اضطراراً. فلقد خيّل إليّ أنني إن ذكرتُ اسمها، بحتُ بكل ما تلهمني، وخيّل إليّ أن لساني يفشي سرّ قلبي فأحرج موقفَها. وأصدق الظن أنني قد خامرني بعض الخوف من أن يَطعن عليها الناس. فكثيراً ما تكلّموا على مسعاها[6]، وقليلاً ما تكلّموا على مسلكها. فآثرتُ ألا يذكروها أبداً كراهةَ ألاّ يذكروا ما أودّ لو أسمعه عنها.

ولم يكن تلاميذي ليشغلوني جداً، ولا كان مسقط رأسها يبعد

(6) لعلّ المقصود مسعاها في بلاط سردينيا - المترجم.

twitter @baghdad_library

من لوزان إلا أربعة فراسخ، فشخصتُ إليه في نزهة يومين، أو ثلاثة، فلم تفارقني في تلك المدة أعذب مشاعر التأثر والانفعال. ولقد كان لبحيرة جنيف ولشطآنها الرائعة تأثير في نفسي مقيم فريد لا أدري له تفسيراً، فهو لا يرجع سببه إلى جمال المنظر وحده، بل يرجع أيضاً إلى ما لستُ أدري مما يحرّك فيّ الرقة والحنان. وكلما اقتربتُ من بلاد فو، أخذ بي إحساس قد اجتمع فيه تذكّري السيدة دو فارانس التي وُلدتْ هناك، وأبي الذي كان يقطن في تلك البلاد، والآنسةُ دو فولسون التي قطفتْ مني بواكير الحب، وعدةُ أسفار إلى فو قمتُ بها في سن الطفولة، ويلوح لي أن ثمة أسباباً أخرى هي أعمق خفاءً وأشدّ قوةً من ذلك كله. فإذا أَلهبَ خيالي تأجُجُ الرغبة في تلك الحياة الحلوة السعيدة التي تنفلت مني والتي وُلدت لأجلها، استقرّ خيالي في بلاد فو على قرب من البحيرة في بعض الأرياف الساحرة. فإنما مطلبي بستان على الضفة من تلك البحيرة، لا على ضفة سواها، وصديقٌ وفيّ أمين، وامرأةٌ محبّة، وبقرةٌ، وقاربٌ صغير. فلن أنعم على الأرض بتمام السعادة إلا أن يكون لي هذا كله بأجمعه. وإني لأضحك من السذاجة التي بها سرتُ إلى تلك البلاد مراراً لا لأمر إلا طلباً للسعادة الخيالية. فكنتُ يدهشني أن أجد سكانها، ولا سيما النساء، على طباع مغايرة لمطلبي. ولكم بدا لي ذلك في غاية التخالف!، ولم يَبْدُ لي ذلك البلد ولا الشعب الذي يقيم فيه أن أحدهما قد جعل للآخر قط.

ولقد انقدتُ لأعذب كآبة وأنا أسير على تلك الضفة في رحلتي إلى فيفاي. فاندفع قلبي يبتغي ألف غبطة وغبطة بريئة اندفاع هيام مشبوب، فكنتُ كثير الحنان والتنهد أبكي بكاء الطفل. ولكم توقفتُ لأذرف ملء العينين، فقعدتُ على صخر ضخم أتلهى بالنظر إلى دموعي منهمرات في المياه!

فبتُ وأنا في فيفاي بنزل لأكليه، ومكثتُ بها يومين لم ألقَ خلالهما أحداً. ولقد شُغفتُ بتلك المدينة شَغَفاً رافقني في اسفاري كلها فحداني، آخرَ الأمر، على أن أجعلها مقام أبطال روايتي. فإلى أُولي الذوق والحساسية أقول: «إذهبوا إلى فيفاي، فَتَقرَّوا مواقعها، وتنزَّهوا على البحيرة، ثم قولوا أليس لجولي وكلير وسان برو صَنعت الطبيعةُ هذا البلد، ولكن لا تسألوا عنهم هناك». وبعد، فهاآنذا أعود إلى قصتي.

كنتُ كاثوليكيّاً، وزَعمتُ أني كاثوليكي، فاتبعتُ المذهب الذي اعتنقتُ اتباعاً لا إخفاء معه ولا تردُّد فيه. فكنتُ، في الصحو في أيام الأحد، أَحضر القداس في أسنس، على فرسخين من لوزان. وكان في عادتي أن أقطع هذه المسافة مع بعض الكاثوليكيين، وخصوصاً مع طرّاز باريسي نسيتُ اسمه. ولم يكن باريسياً على شاكلتي، وإنما كان باريسياً قحّاً، باريسيّاً من باريس، باريسيّاً من خَلق الله، طيّباً كأهل شامبانيه. فأحبّ موطنه حبّاً جمّاً، حتى قد أبى أن يشكّ لحظة في كوني من غير باريس لئلا تفوته فرصةُ ذكرها. وكان عند السيد دو كروساز، القاضي، بستانيٌّ هو أيضاً من باريس، إلا أنه دون الطرّاز مجامَلة. فلقد رأى البستاني أنّ مجد وطنه بات في حرج حتى لم يجرؤ الفرنسيون على أن يفاخروا به ما لم يبنوا هم بأنفسهم ذلك المجد. فجعل يسائلني وكأنه قد أيقن بإحراجي، ثم ابتسم ابتسامةَ خبث. فسألني مرة أن ما الشيء البارز في المارشي نوف، فارتبكتُ على ما تتصوّر. أما وقد سلختُ عشرين سنة في باريس، فلا ريب أني قد صرتُ أعرف تلك المدينة، ولكن إنْ طُرح اليوم عليّ هذا السؤال، لم يكن ارتباكي أقلّ منه في الأمس، حتى قد يُظَن أني لم أزر باريس قط، وذلك لأن في شأن الإنسان أن يستند إلى أسس وهمية خادعة ولو واجه واقعَ الحقيقة.

twitter @baghdad_library

لستُ أدري، على التدقيق، كم أَقمتُ في لوزان، إذ لم أحمل ذكريات عنها راسخة. وكل ما أدري هو أني لم أجد فيها لي مرتزقاً، فقصدتُ إلى نوشاتيل أُمضي فيها الشتاء. فكان توفيقي ههنا أكثر منه في لوزان، إذ أتتني بعض التلميذات فكسبتُ ما أمكنني معه أن أوفّي بيروتيه حقَّه، وقد أَبت عليه أمانته إلا أن يبعث إليّ برزمة أمتعتي مع أني قد عدتُ، ثانية، وأنا مدين له بمبلغ ليس باليسير.

وكنتُ، وأنا أعلّم الموسيقى، أتعلّمها دون شعور مني. وكانت أيامي على كفاف رغد يقنع به العاقل الحكيم، لكن قلبي القلق قد ابتغى مني غير ذلك. وكنتُ، أيام الأحد والفراغ، أَنطلق في الأرياف والغابات المجاورة هائماً، شارداً، حالماً، متنهداً. وكنتُ إذا برحتُ المدينة، لم أَرجع إليها إلا في المساء. فبينما أنا يوماً في بودري، إذ دخلتُ أتغدى في بعض المطاعم، فأبصرتُ رجلاً طويل اللحية قد ارتدى ثياباً بنفسجيةَ اللون يونانيةَ الزيّ، وعلى رأسه قبعة فرو. أما هيئته وأمتعته فعلى شيء من الأصالة، وقد صعب عليه أن يتفاهم هو والناس هناك إذ كان يتكلّم بلهجة غريبة لا تكاد تُفهَم، وإن تكن إلى اللغة الإيطالية أقرب ما تكون. ففهمتُ معظم كلامه وكنتُ في ذاك وحيداً، ولم يسعه أن يتفاهم هو وصاحب المطعم وأهل البلد إلا بالإشارة. فكلمتُه بالإيطالية بعض الكلمات ففهمها حق الفهم، فنهض فأَقبل عليّ فعانقني وهو بادي التأثر. فلم نلبث إلا قليلاً حتى اتصلتْ بيننا الأسباب وقد اتخذني ترجماناً له. وكان غداؤه طيّباً وغدائي دون الوسط؛ فدعاني إلى أن أشاركه في طعامه، فلبّيتُ بلا تكلّف، وأخذنا نشرب ونتخاطب بلغة ركيكة، وتعارفنا فتآلفنا، وما أن انتهينا من الغداء حتى كنا قد أصبحنا رفيقين لا يفترقان، فأخبرني أنه حبرٌ يوناني وأرشمندريتُ القدس وأنه عُهد إليه في جمع الصدقات بأوروبا لترميم القبر المقدّس. ثم أطلعني على رسالتين في هذا الصدد

ساميتين قد صدرتا عن قيصرة روسية وعن الأمبراطور، وكان في حيازته شهادات أخر من عدة ملوك. وأعرب عن بعض رضاه على ما جمعه إلى ذلك الوقت، بيد أنه قد كابد في ألمانيا مشاقّ لا توصف، فهو لا يفهم من اللغة الألمانيا ولا اللاتينية ولا الفرنسية حرفاً واحداً، فاضطر أن يتوسل بلغته الإغريقية، فضلاً على التركية وخليط من بعض اللغات الفرنجية، مما لم يساعده على أن يجمع كثيراً من الصدقات في تلك البلاد التي ألقى نفسه فيها. فاقترح عليّ أن أصحبه كاتباً لسرّه وترجماناً. ولم يجدني صعب القبول لاقتراحه، فلم يخطئ في ذلك إذ لم يَظهر عليّ السعة واليسر برغم ثوبي البنفسجي الجديد الذي يليق بوظيفتي الجديدة. فما لبثنا أن اتفقنا لم أطلب شيئاً وقد وعدني بالكثير. وانقدتُ له بلا ضمان منه، ولا ثقة منّي به ولا معرفة له، فصرت من الغد في طريقي إلى القدس.

بدأنا جولتنا بقضاء فريبور، فلم يوفَّق هناك إذ لم يَلقْ بمرتبته الأسقفية أن يشحذ ولا أن يدور على الأفراد يجمع منهم الصدقات، بل رفعنا أمر مهمته إلى مجلس الشيوخ، فنفحه بملغ زهيد. ومن ثم شخصنا إلى برن حيث كان لا بد لنا أن نقوم بمزيد من الإجراءات في هذا الصدد فاستمرّ النظر في شهادات الأرشمندريت والفحص عنها عدة أيام. وكنا، في أثناء ذلك، قد حللنا بنزل لوفوكون وهو حينئذٍ نزلٌ جيد تَلْقى فيه المعشَر الأنيس. وكانت المائدة سخية، وكنتُ قد مضى عليّ وقت طويل لم أَطعم فيه سوى أكل رديء، وكانت حاجتي ماسة إلى أن أستعيد قواي، وسنحتْ لي الفرصة فانتهزتُها. وكانت سيادة الأرشمندريت، هو نفسه، رجلاً طيّب العشرة، محبّاً للموائد، على روح مرح وحُسن حديث إلى من يصغي إليه، ليس يعوزه بعض أركان المعرفة، رشيق الإفصاح عن سعة ثقافته الإغريقية، فبينما كان، يوماً، يرضخ بعض البندق، إذ

twitter @baghdad_library

جُرحتْ إصبعه جرحاً بالغاً، فسال منها دم غزير، فأرى النزلاءَ إصبعه وقال لهم ضاحكاً: «سادتي، انظروا، إنّ هذا من دم بيلاج»[7].

وفي برن لم تذهب أعمالي سدًى، ولا تعسَّر عليّ السلوك بقدْر ما تخوفتُ، فبتُّ أجرأَ حالاً وأَحسن قولاً مما لو كان الموضوع يتعلّق بي غرضه. إلا أن الأمور لم تجر على السهولة التي جرت عليها في فريبور، بل كان لا بد لنا من محادثات مسهبة متعددة قمنا بها مع كبار رجالات السلطة. فلما أنهيتُ الإجراءات، قُبل الأرشمندريت في اجتماع مجلس الشيوخ، فرافقتُه ترجماناً له، فطُلب إليّ أن أتكلّم. فما كنتُ أقلّ توقّعاً لشيء مني لهذا الطلب، إذ لم يخطر لي أنه، بعد طول محادثتنا مع أعضاء المجلس، لا بد لنا أن نخاطب الهيئة ملتئمةً كما لو لم يُذكَر من قبْل شيء في هذا النحو. فتصوَّرْ مدَى ارتباكي! أن أقف، أنا الإنسان الحيي، فأتكلّم، لا أمام الجمهور فحسب، ولكن بين يدي مجلس شيوخ برن، أن أتكلّم ارتجالاً دون لحظة استعداد، ذلك ما كان خليقاً أن يودي بي. فتكلّمتُ لم أخجل ولا ارتبكتُ. فعرضتُ مهمة الأرشمندريت عرضاً موجزاً واضحاً. ومدحتُ تقوى الأمراء الذين شاركوا في تأدية صدقات قد سعى هو لجمعها. واتجهتُ إلى تقوى أصحاب السعادة الشيوخ أَحضّهم أقول لهم إننا، ههنا، لسنا نتوقّع من سخائهم المشهور أقلّ مما توقّعناه من أريحية الأمراء، ثم حاولتُ جهدي أن أبيّن لهم أن هذا العمل الصالح يشمل خيرُه المسيحيين كافة بلا تمييز بين مختلف المذاهب، ثم وعدتُ الذين يشاركون في الصدقة ببركات السماء. ذلك ولن أقول إن خطابي كان له حُسنُ وقعه، لكنه قد استسيغ ولا ريب، حتى إذا خرجنا من الاجتماع

---

(7) في الأصل بالإيطالية Mirate, signori; questo è sangue pelasgo وبيلاج اسم قومٍ قيل إنهم أول من سكن بلاد الإغريق - المترجم.

أُعطيَ الكاهنُ تقدمة جزيلة وهُنّئ بذكاءٍ كاتب سرّه تهنئات سرّني أن أقوم بدور الترجمان إذ أبلغتُه إياها، وإن لم أتجاسر على أن أنقلها إليه حرفاً بحرف. تلك هي المرة الوحيدة التي فيها تكلَّمتُ أمام الجمهور، بين يدي مليك، ولعلها المرة الوحيدة التي فيها تكلّمتُ فاجترأتُ وأحسنتُ الكلام. فيا للفرق بين مؤهلات الإنسان الواحد! وكنتُ، لثلاث سنوات خلتْ، قد ذهبتُ إلى إيفيردون أزور صديقي القديم السيد روجان، فاستقبلتُ هناك وفداً أتى يشكر لي بعض المؤلَّفات التي أهديتُها إلى مكتبة هذه المدينة. ولا يخفى أن السويسريين يحبّون الخطابة، وهكذا خطب فيّ الوافدون. فحسبتُ أن عليّ أن أجيب. واضطربتُ في الإجابة والتبستْ عليّ الأمور، وأُرتجَ عليّ فسخروا منّي. ولئن جُبلتُ على الحياء، لقد جسرتُ أحياناً في زمن الشباب، فلما علت بي السن تخلّت عني الجسارة، إذ إني كلما بلوتُ العالم ضعفتْ قدرتي على التكيف.

ثم برحنا برن نريد سولور، وكان الأرشمندريت ينوي أن يسلك، ثانية، طريق ألمانيا فيعود إليها من طريق المجر أو طريق بولونيا، وهو طريق طويل طويل، بيد أن كيس دراهمه كان، في أثناء ذلك، يمتلئ أكثر مما يخلو، فلم يخفْ هو من هذه الدورة. أما أنا، فكاد السفر على الفرس يطيب لي بقدْر ما طاب السفر إذ أنا راجل، فما ابتغيتُ شيئاً هو خير لي من أن أمضي هكذا مسافراً إلى مدى الحياة، إلا أني قد كُتبَ عليّ أن لا أُبعد إلى ذلك الشأو.

فلما بلغنا سولور، قمنا، أول ما قمنا، بزيارة سفير فرنسا لكي نسلّم عليه. ولكن في سوء حظ الأرشمندريت أن السفير كان المركيز دو بوناك، وقد سبق أن تولى منصب السفير لدى الباب العالي فأُتيحَ له أن يقف على كل ما يتصل بالقبر المقدس. فاستقبل الأرشمندريت ربع ساعة، ولم يؤذَن لي في الدخول معه لأن السفير كان يفهم اللغة الفرنجية ويتكلّم بالإيطالية كما أتكلّم بها في الأقل. فلما خرج

twitter @baghdad_library

الأرشمندريت، أَردتُ أن أتبعه، فاستُبقيتُ على أن دوري قد حان. وكنتُ قد زعمتُ أنني فرنسي، فأَصبحتُ تحت سلطة صاحب السعادة السفير، فسألني من عساي أكون، وحثَّني أن أطلعه على حقيقة أمري فوعدتُه، على أن يجري لي مقابلة خاصة معه، فأَذن لي فيها. سار بي إلى غرفته، وأَغلق الباب، فارتميتُ على قدميه، وبررتُ له في وعدي. ولو لم أَعده بما قد وعدتُه به، لم استطع أن أقول له دون ما قد قلتُ، فإنما بي حاجة إلى البوح مستمرة تُطلق قلبي على لساني أبداً، فلم يسعني أن اقوم، وأنا في حضرة السفير، بدور الرجل الغامض بعدما كنتُ قد عَرَّيتُ نفسي أمام لوتولد الموسيقي. فسُرَّ المركيز دوبوناك بقصتي وبانفتاح قلبي له أي سرور، فأخذني من يدي ودخل بي على السيدة قرينة السفير، فعرّفني إليها وهو يروي لها موجز خبري. فرحبتْ بي السيدة دوبوناك ترحيباً طيّباً، وقالت لي إنه لا ينبغي أن أرافق الكاهن اليوناني. فصحّ الرأي أن ألبث بالنزل ريثما يُنظَر في ما يمكن عمله من أجلي. أَردتُ أن أذهب فأودّع الأرشمندريت المسكين الذي كنتُ قد تعلّقتُ به، فلم يؤذَن لي في وداعه؛ وإنما أُعلمَ بقراري، فما مضى ربع ساعة حتى كان كيسُ أمتعتي الصغير قد حُمل إليّ. وأُوكلتُ إلى السيد دولا مارتينيار أمين سر السفارة. فقال وهو يقودني إلى الحجرة التي عيّنتْ لي: «هذي الحجرة أقام بها، على عهد الكونت دولوك، رجل شهير يحمل اسمك، وإذاً فإنما عليك أنت يتوقف أن تحلّ محلّه في كل شأن، فيقال يوماً: «روسو الأول، ورسو الثاني»[8] وما كانت هذه المطابقة لتغرّني وتستثير رغباتي كثيراً لو تهيأَ لي آنئذٍ أن أعلم الثمن الذي سأدفعه يوماً مقابلها..

---

(8) روسو الأول قصد به جان باتيست روسو الشاعر الفرنسي (1671-1741) - المترجم.

ثم إن قول السيد دولامارتينيار قد حرَّك فضولي. فأَخذتُ أقرأ مؤلَّفات ذلك الذي نزلتُ بحجرته، فحسبتُني على ميل إلى الشعر لما لقيتُ، يومئذٍ، من ثناء وتقريظ. فصنعتُ، في أول محاولة من محاولاتي،أنشودةً مدحتُ فيها السيدة دوبوناك. إلا أن ميلي هذا لم يدم طويلاً. فلقد نظمتُ، في الحين بعد الحين، بعض الأبيات التي هي بين بين، والواقع أن النظم تمرين نافعٌ بعضَ النفع لأجل التدرب على بعض التركيب الأنيق ولإجادة الكتابة نثراً، بيد أني لم أرَ قط، في الشعر الفرنسي، من روعة السحر ما يرويني فأتعاطاه حقاً وتماماً.

رغب السيد دولامارتينيار في أن يطلع على نماذج من إنشائي، فطلب إليّ أن أوافيه خطاً بما أَخبرتُ به السفير جملةً وتفصيلاً. فكتبتُ إليه رسالة مسهبة بلغني أن قد حفظها السيد دوماريان الذي كان قد التحق بالمركيز دوبوناك منذ ردح من الوقت ثم خلف السيد دولامارتينيار في ما بعد على عهد السفير السيد دوكورتاي. فرجوتُ من السيد دومالزيرب أن يسعى كيما يحصل لي على نسخة من تلك الرسالة. فإذا أمكنني أن أحصل عليها منه، أو من سواه، وجدتَها في المجموعة التي يقدَّر أن تُلحَق بهذه الاعترافات.

وكانت تجربتي التي شرعت فيها، قد جعلت تهدّئ من مشاريعي الخيالية تهدئة تدريجية متأنية، مثال ذلك أنني لم أقع في غرام السيدة دوبوناك، ولا شعرتُ، أول الحال، بأن في وسعي أن أخطو في بيت زوجها خطًى متقدمة بعيدة. والحال أن السيد دولامارتينيار عامل في وظيفته والسيد دوماريان يرتقب أن يخلفه بهذه الوظيفة، لم يكن من أمل إلا الحصول على وظيفة أمين سر مساعد، وهي وظيفة لا تستميلني كثيراً. فلما سألوني رأيي في ما أودّ لو أعمل، أَعربتُ عن عظيم رغبتي في أن أذهب إلى باريس. استساغ السفير هذه الرغبة التي كان في شأنها، على الأقل، أن تخلّصه مني.

twitter @baghdad_library

فذكر السيد دومرفيو، أمين سر الترجمة في السفارة، أن صديقه السيد جودار، وهو ضابط سويسري يخدم في جيش فرنسا برتبة كولونيل [عقيد]، كان يبحث عمن يُلحقه بابن أخيه الذي أُدخلَ الخدمة العسكرية وهو فتي جداً، وقال إنني قد أصلحُ للالتحاق به. فقرّر سفري استناداً إلى هذا الرأي الذي أُخذَ به في بعض الخفة والعجل. أما أنا فقد طرت فرحا إذ سمعت بالسفر الذي يفضي إلى باريس. سُلّمت إليّ بعض الرسائل ومائة فرنك نفقة سفر، وزُوّدتُ بنصائح غالية، ثم ارتحلتُ.

اقتضتني هذه الرحلة زهاء خمسة عشر يوماً أَعدُّها من أيامي السعيدة. لقد كنتُ شاباً صحيحاً، وكان معي ما يكفيني من الدراهم ووافرٌ من الآمال، وكنتُ مسافراً، وكان سفري مشياً، وكنتُ مسافراً وحدي. ولولا أنك أَلفتَ طباعي، لعجبتَ من اغتباطي عندئذٍ. كانت أوهامي الحلوة ترافقني، فلم يتَح قط لخيالي الملتهب أن يتصوَّر ما هو أروع منها. كنتُ إذا قام أحد في بعض العربات يدعوني إلى مقعد شاغر، أو إذا اقترب مني أحد في بعض الطريق، عبستُ أسفاً على انهيار البخت الذي أنشأتُ أبني أبراجه في تلك المسيرة. وكانت أخيلتي، هذه المرة، أخيلة عسكرية.كنت سألحق برجل عسكريّ وأن أصبح، أنا نفسي، عسكرياً، وقد دُبّرَ أمري في هذا الصدد، على أن أتهيأ للخدمة العسكرية أسوة بسائر المتهيئين. فتصوّرتُني منذئذٍ في بزة ضابط مع ريشة جميلة بيضاء. فما أن جالت هذه الفكرة السامية بخاطري حتى ابتهج قلبي. فقد ألممتُ بالهندسة والتحصينات بعض الإلمام، وكان خالي مهندساً، وإذاً فسأشبّ على تقاليد الأُسرة. بيد أن نظري الحاسر عاقني بعض الشيء وإن لم يزعجني، فعزمتُ أن أقاوم هذه الآفة أتغلّب عليها بالشجاعة ورباطة الجأش. وكنتُ قد قرأتُ أن المارشال شومبرج بصرُه كليل جداً، فلمَ لا يكون المارشال

روسو، هو أيضاً، كليل البصر؟ اعتلج صدري حيال هذه الحماقات، فعدتُ لا أرى سوى جيوش وأسوار وأكياس من تراب ومدافع، وتصوّرتُني وسط النيران والدخان أُصدرُ الأوامر وأنا هادئ ومنظاري بيدي. إلا أني كنتُ إذا مررتُ ببعض الأرياف الجميلة فوقعتْ عيني على بعض السواقي والغابات، تنهدتُ حيال المنظر الممتع وشعرتُ، وأنا في عنفوان المجد، بأن قلبي لم يجعل لمثْل هذه الجعجعة، فلم ألبث أن ألفيتُني بيد أخيلتي الريفية الفاتنة وقد تخلّيتُ عن أعمال المريخ[9] إلى أبد الدهر.

ولكم كذَّب وصولي إلى باريس الصورة التي كنتُ قد تمثَّلتُها فيها! فإن الزينة الخارجية وجمال الطرقات واتساق البيوت، وهي التي أبصرتُها في تورينو، قد جعلتني أبتغي في باريس شيئاً آخر فضلاً على ذلك كله. وكنت أتصوَّر باريس مدينةً رائعةً على قدْر اتساعها وعظمتها، ذات منظر هو من المهابة على أقصى ما يكون، وطرقات هي في غاية الجمال، وقصور من مرمر وذهب. فلما دخلتُها من ربض سان مارسو، لم أرَ إلا طرقات قذرة منتنة، وبيوتاً بشعة مسودّة، وهيئة الوسخ والفقر، وشحاذين، وحوذيين، ورفّاءات، وبائعات لعصير الأعشاب، وبائعات للقبعات العتيقة. فبلغ مني ذلك مبلغه، حتى إن كل ما أَصبتُ، بعدئذٍ، من روعة باريس الحقيقية لم تقوَ على أن تمحو عني انطباعي الأول، فبقي في نفسي تقزّز خفيٌّ من السكن في تلك العاصمة. وإني ليسعني القول إن الوقت الذي سلختُه في باريس، لم أنفقه إلا على طلبي الموارد التي بها أستطيع أن أقيم بعيداً من باريس. تلك هي ثمرة خيال مفرط النشاط، يغلو فوق غلوّ البشر، ويرى فوق أقوالهم أضعافاً. وكان الناس قد مدحوا

(9) المريخ هو، في الميثولوجية، إله الحرب - المترجم.

twitter @baghdad_library

لي باريس أيّ مدح، فتصوّرتُها وكأنها بابل القديمة التي لو أبصرتُها يوماً، لربما قلّ إعجابي بما تصوّرتُها عليه قدْرَ ما قل إعجابي بباريس لمّا عرفتُها. ولقد جرى لي الأمر نفسه في دار الأوبرا اذ طرتُ إليها يوماً بعد وصولي، ثم جرى لي الأمر نفسه في فرساي؛ ثم يومَ رأيتُ البحر؛ ولسوف يحصل الأمر نفسه كلما أبصرتُ ما قد بولغ في وصفه لي، وذلك لأنه يتعذّر على الناس بل ويصعب حتى على الطبيعة نفسها أن تفوق خيالي ثراءً.

ثم إن ما تلقّاني به جميع أولئك الذي حملتُ رسائل إليهم قد مال بي إلى الظن أن سعدي قد اكتمل نصيبه. أما أكثرُ من أُوصيَ بي إليه وأقلُّ من احتفى بي، فهو السيد دوسوربيك، موظف متقاعد يعيش في بانيو عيش قناعة حكيمة، فزرتُه عدة مرات فلم يسقني كوب ماءٍ واحداً. وأما مدام دومرفيّو، زوجة شقيق الترجمان، وابن شقيقه وهو ضابط في الحرس، فقد استقبلاني أستقبالا أحسن، فلم يؤهّل بي الأمُّ وابنها فحسب، لكنهما، فضلاً على ذلك، دعواني إلى مائدتهما التي كثيراً ما غشيتُها في أثناء إقامتي بباريس، ولاح لي أن السيدة دومرفيو كانت، في أيامها، على غاية الملاحة، وكان شعرها الفاحم الجميل يزين فوديها على الموضة القديمة. فبقي لها ما لا يذهب به ذبول الملاحة، وهو روح ممتع. وتبيَّن لي أنها قد استساغت ما أنا عليه من ذكاء، فبذلتْ اقصى الجهد لكي تسدي إليّ بعض الخدمات، ولكن لم يساعدها أحد، فلم ألبث طويلاً حتى أَزلتُ عني الغشاوة التي أوهمتْني أن للقوم عناية بي واهتماماً. على أنه لا بد من إنصاف الفرنسيين، فإنهم لا يستنفدون طاقتهم في الوعود على قدْر ما يُذكَر عنهم، وإن وعودهم صادقة في أغلب الأحايين. لكن لهم، في ما يعربون لك عنه من اهتمام، طريقةً تُضلّ أكثر مما يُضلّ الكلام العذب، على حين أن عبارات المديح الذي

يرسله السويسريون لا تؤثّر إلا في الأغبياء. ثم إن سلوك الفرنسيين هو، من هذا القبيل، أعظم إغراءً لأنه أبسطُ عملاً، حتى ليخيَّل إليك أنهم لا يُطلعونك على كل ما يريدون أن يعملوا لأجلك، رغبةً منهم في أن تكون مفاجأتهم إياك أشد إبهاجاً لك. وإني لأذهب إلى أبعد من ذلك: فإنهم إذا أعربوا لك عن شيء، لم يكذبوا، بل هم ميّالون بالطبع إلى المعروف، عَطُوفون، إنسانيون. ومهما يُقَلْ فيهم، فإنهم، مع ذالك، اصدق من أي أمّة أخرى كانت. لكنهم خفاف، على نزق. ثم هم يشعرون بما يعربون لك عنه حقّ الشعور، بيد أن شعورهم يذهب كما أتى. فإذا غبتَ عنهم، نسوك. فلا أمر يثبت منهم في القلوب، وإنما كل أمر هو، عندهم، فعْلُ اللحظة.

ومعنى ذلك إذاً أني مُدحتُ كثيراً وخدمتُ قليلا. فكان الكولونيل جودار، الذي أُلحقتُ بخدمة ابن شقيقه، بخيلاً عتيقاً بشعاً؛ فلما أتيتُه، أراد أن يسخّرني لخدمته مع ما كنتُ عليه من بؤس، ومع ما كان على بزته من ذهب برّاق. فزعم أني أكثرني خادمٌ لابن شقيقه مجانيٌّ مني مؤدّبه الحقيقي، وزعم أن عليّ أن ألتحق به باستمرار لكي أعفى من الخدمة العسكرية، وأن عليّ، إلى ذلك، أن اقتات من المرتب الذي يؤدَّى إليّ بصفتي مهيئاً لتلك الخدمة، أي أن أقتات من مرتبي جندياً، وكاد هو لا يوافق على أن يعطيني البزة وقد ودّ لو اكتفيتُ ببزة الكتيبة. فسخطتْ عليه مدام دومرقيّو لهذا العرض، ونفرتني منه، وكان ابنها على رأيها. ولكن ابتدأت الحاجة تلحّ عليّ، فما أمكن مائة فرنك وقد اعتمدتُها لسفري أن توصلني إلى أمد بعيد. وكان في حُسن حظي أنه ورد عليّ من السفير مبلغ يسير نفعني جدّاً؛ وما أحسب السفير كان يتخلى عني لو أنني أجمل صبراً، ولكن أن أضنى، وأن انتظر، وأن التمس، ذلك هو، عندي، أمر لا يطاق. فغلبتْ عليّ الخيبة، فلم أرجع إلى السيد جودار ثانية،

twitter @baghdad_library

وانتهى كل شيء. ولم أكن قد ذهلتُ عن ماما المسكينة. ولكن كيف أهتدي إليها؟ واين ابحث عنها؟ فساعدتْني السيدة دومرقيّو على البحث عنها مساعدةً جمّة ظلت من غير طائل. وكانت السيدة دومرقيّو قد وقفتْ على قصتي. ثم أنبأتْني، في آخر الشأن، أن السيدة دو فارانس قد عادت من باريس منذ ما يربي على الشهرين، ولكن لم يُعرَف إلى سافوي عادت أم إلى تورينو، وقال بعض الناس إنها رجعتْ إلى سويسرا. فما احتجتُ إلى غير ذلك حتى أصمّم على أن أتبعها يقيناً مني أنها حيثما كانت من بعض الأقاليم، سهُلَ عليّ الاهتداء إليها أكثر مما استطعتُ أن أتحرى عنها وهي في باريس.

ولكن، قبلما ارتحلتُ، أطلقتُ على الكولونيل جودار قريحتي الشعرية الطالعة، فنظمتُ في هجوه رسالة تهكمتُه فيها ما استطعتُ. فأطلعتُ عليها السيدة دومرقيّو، فانفلتت تضحك، في حين وجب أن تنتقد عليّ هذا التهكم. وضحك ابنها أيضاً، وما أخاله قد أحبّ السيد جودار، ولا بد من القول إن هذا لم يكن أهلاً للحبّ. فأُغريتُ أن أبعث إليه بأبياتي، فشجّعاني، فرزمتُها وكتبتُ عنوانه على الرزمة، وباريس يؤمئذٍ ليس فيها بريد المسافات القريبة، فوضعتُ الرسالة في جيبي، وأرسلتها من أوكسير عند مروري بها. وما أزال أضحك أحياناً إذ أتصوّر وجهه وهو يقرأ ذلك المديح الذي وصفتُه فيه وصفاً شاملاً، وهذا مطلعه:

قد كنتَ تحسب، أيها الفاسق القديم، أن بي شذوذ ميل إلى

أن أربّي ابن شقيقك الكريم.

والحقّ أن هذه المقطّعة، ولم تكن جيدة النظم، هي الأهجية الوحيدة التي جرى بها قلمي، على كونها لم تخلُ من الملح وعلى كونها قد بشّرتْ بموهبتي في الهجاء. بيد أن قلبي أيسرُ حقداً من أن

أفتخر بمثْل هذه الموهبة. فإذا قرأتَ كتابات لي سجالية قد كنتُ من وقت إلى وقت، أنشئها دفاعاً عن نفسي، وجدت أنني لو طُبعتُ على المشاكسة والمجادلة والخصام، لقلما تمكن الذين حملوا عليّ أن يظفروا بقهقهة الضاحكين.

وأَشَدُّ ما أندمُ عليه من تفصيلات نسيتُها في سيرة حياتي هو أني لم أدوّن يوميات أسفاري. فما كنتُ قط أكثر تفكيراً وأَوفر كياناً وأَنبض حياة، ولا كنتُ قط أنا إياي إلا وأنا أمشي على القدمين وحيداً في أسفاري. للمشي ما ينشّط أفكاري فيبعثها، حتى ليكاد يتعذّر عليّ التفكير وأنا ثابت بمكاني، فلا بد لبدني أن يتحرّك فيحرّك ذهني. ثم إن مشاهدتي الريف، وتوالي المناظر الممتعة، والهواء الطلق، وشهوة الطعام، والعافية التي أجتنيها وقد ذهبتُ مشياً، وما أَجده في الحانة من حرية سلوك، والابتعاد عن كل ما يحدّ من استقلالي وعما يذكّرني بحالي، إن ذلك أجمع ليُسرّح نفسي فيتيح لي مزيداً من الجرأة على التفكير، ويطلقني في مدى الكائنات وقد أَلفتُ بينها واخترتُ منها، واتخذتُها على هواي بلا تكلف ولا خشية، فتسلطتُ على الطبيعة كلها، فشبّ قلبي مترحلا فيها من موضع إلى موضع، فاتحدَ بما يفتنه منها، وكاد يفنى فيها، وأحاط نفسه بسحر الأخيلة ينتشي من لذة المشاعر. فإن شئتُ أن أكتب ذلك أجمع فتلهيتُ بوصفه في ما بيني وبين نفسي، فآنئذٍ كم كنتُ أؤدّيه في روعة تصوير وطراوة تلوين ومتانة تعبير! ولقد قيل إن بعض قرائي وقعوا، في مؤلَّفاتي، على أمثال ذلك أجمع وإن كنتُ قد كتبتُها بعد ما انحدرتْ بي السنون، فيا ليتهم وقعوا على ما كتبتُ إذ أنا في عنفوان الشباب، وعلى ما كتبتُ خلال الأسفار، وعلى ما أَلّفتُه ولم أكتبه قط. ولعلكم تقولون: «لمَ لا تكتب هذا؟» فأقول لكم: «بل لماذا أكتبه؟ ولمَ أحرم نفسي سحر المتعة الحاضرة أقول لسواي إن متعتي كانت في ماضيات الأيام؟»

twitter @baghdad_library

أكان يعنيني أمر القراء والجمهور بل الأرض كلها وأنا أحلّق في منطلقات السماء؟ وهل كنتُ أحمل أقلاماً وقراطيس؟ لو عنيتُ بذلك، ما سنح لي من الأفكار شيء. ثم إني لم أتوقع أن تأتيني الأفكار وأنا في سفر، فهي تأتي حين تشاء، لا عندما أريد. فربما كانت لا تسنح لي على الإطلاق، وربما تواردت علي فأرهقتني كثرتها وشدتها فلم يتسع لها، في اليوم الواحد، عشرة مجلدات، فأنى لي الوقت لأكتب خواطري؟ فلما وصلت لم أفكر إلا أن أتغدى أحسن الغداء، وكنت، لما ذهبت، لم أفكر إلا أن أمشي أحسن المشي. فألهمني الحس أن فردوساً جديداً ينتظرني على الباب. فلم يخطر لي إلا أن أقصد هذا الفردوس أبتغيه.

ولم أشعر بذلك كله حقّ الشعور عند عودتي التي أتكلّم عليها الآن. وكنتُ، وأنا ماض إلى باريس، قد اقتصر تفكيري على ما يتصل بعملي هناك، فأَخذتُ أفكر في السلك الذي أوشكتُ أن أدخل فيه، وقمتُ أطوف في ميدانه وأنا أشعر بما يكفي من المجْد. إلا أن ذلك السلك لم يكن هو ما قد دعتني إليه المشاعر، وكانت الكائنات الواقعية [الحقيقية] تسيء للكائنات الخيالية [المجازية]. إن الكولونيل جودار وابن شقيقه لم يلائما بطلاً مثلي أنا. وبعناية السماء تخلصتُ من كل تلك العقبات، فأَصبح في وسعي أن أوغل في عالم الأخيلة والأوهام ما شئتُ الإيغال، إذ لم يبقَ أمامي غير ذلك العالم، فتهتُ فيه أيّ تيهان حتى إني ضللتُ فعلاً عن طريقي مراراً؛ ولو كان طريقي آنئذٍ أقْومَ اتجاهاً، لأسفتُ حق الأسف أنني وقد بدأت أشعر في ليون أني هابط إلى الأرض، وددتُ ألا أَبلغها أبداً.

وجرى لي مما جرى في بعض الأيام أني ملتُ عن طريقي لكي أشاهد عن كثب مكاناً بدا من بعيد رائعاً جداً، فأعجبني كثيراً، فما زلتُ أعرج وأنثني حتى ضللتُ عن طريقي تمام الضلالة. وبعد عدة

ساعات من التفتيش غير المجدي، وقد آل أمري إلى الظمأ والجوع، فدخلت إلى بيت فلاح [بسيط] لم يكن بَيْتُه جميل المظهر، إلا أنه البيت الوحيد الذي شاهدته في تلك الأنحاء. وكنتُ أظن أن الحالة هي هناك على ما هي عليه في جنيف أو في سويسرا، حيث الناس على سعة عيش تمكّنهم من كرم الضيافة. سألتُ الرجل أن يغذّيني فأؤدّي إليه الثمن. فقدَّم إليَّ بعض اللبن الخاثر وخبز الشعير وقال إن هذا هو كل ما عنده. شربتُ الحليب فالتذذتُ به وأكلتُ الخبز بأجمعه، لكن ذلك لم يكن ليجدد قوى لأرجل أنهكها التعب. بانت للفلاح حقيقةُ أمري، وقد كان يلاحظني، فرأى شهوتي للطعام. فما أن قال لي إنه أَدرك(*) أني شاب نزيه مستقيم وأني لم آته لكي أخونه وأسعى به، حتى فتح بوبياً كان في جوار المطبخ، وانحدر منه، ثم عاد بعد قليل ومعه رغيف قمح أسمر جيد وشريحة من فخذ خنزير مملحة طيبة جداً، وإن كانت مأكولاً منها، وقنينة نبيذ هش لها قلبي أكثر مما هش لسائر الأشياء. ثم أضاف إلى ذلك عجة خثنة. فتغديت غداء لم يتح مثله قط لأي آخر كان من مشاة المسافرين. فلما أردتُ تأدية الثمن، تجدَّدَ خوفه وقلقه، فأبى أن يأخذ الدراهم وطفق يدفعها عنه في اضطراب غريب، والمضحك في هذا أني لم أستطع أن أتخيل ممَ قد خاف. ثم نطق، آخرَ الأمر، بهذه اللفظات المرعبة وهو يرتعد، قال: «محصّلو الضرائب، جرذان الأقبية»(10) وأفهمني أنه أخفى ما عنده من نبيذ بسبب ضريبة المساعدات (Aides) وأخفى ما عنده من خبز بسبب الضريبة الشخصية (taille)، وأن مجرد الشك في كونه لن يقضي يموت جوعاً، يقضي عليه بخراب بيته. أثَّرتْ فيّ

(*) الظاهر أنني لم أكن قد أصبحت على الهيئة التي وُصفتُ بها في ما بعد.

(10) «جرذ القبو» (Rats - de- cave) اسم أُطلقَ، في فرنسا، على بعض محصلي الضرائب، وقد كانوا إذا تحرّوا عن المحصولات، هبطوا الأقبية ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أقواله تأثيراً لن يُمحَى ما حييتُ ولم أكن، قبلئذٍ، أدري منها شيئاً قط. فههنا منشأ الكراهية التي رسختْ في قلبي منذ ذلك اليوم ولم تنطفئ جذوتها مدى الدهر، إذ حقدتُ على كل ما يقاسيه الشعب الشقي حقدي على مضطهديه. فإنّ ذلك الإنسان، مع أن حالته كانت يسيرة، لم يجرؤ على أن يأكل خبزاً جناه بعرق جبينه ولا أمكنه أن يتقي الخراب ما لم يتظاهر بالبؤس الذي يسود أجواره. خرجت من بيته وبي من السخط قدْرُ ما بي من الإشفاق، أرثي لمصير تلك البقاع الجميلة اللائي لم تتوله الطبيعة بسخائها إلا لتجعلها فريسة العشّارين البرابرة.

ذلك هو تذكاري الجلّي، الوحيد، الذي يتصل بما جرى لي في أثناء سفري يومئذٍ. لكني أذكر ـ فضلاً عليه ـ أني لما قاربتُ مدينة ليون، أغريتُ بمواصلة السير لكي أذهب فأشاهد نهر لينيون؛ وذلك أني لم أكن قد نسيتُ رواية «**أستريه**»[11] التي كانت من بين ما طالعتُ مع أبي والتي عاودني ذكرُها أكثر مما عاودني ذكرُ سواها. فسألتُ من أين الطريق إلى فوريز؛ وإني لأحادث صاحبةَ نزل، إذ أنبأتْني أن فوريز بلدٌ حسن الموارد بالنسبة للعمال، وأن فيه مصانع حديد كثيرة، وأن صناعة الحديد متقنة هناك. فلما سمعتُ هذا الثناء هدأ فضولي الرومنسي ولم أستسغ أن أمضي إلى فوريز أبحث عن ديانا وعن سيلفاندر[12] وأمثالهما بين شعب من الحدّادين. أما المرأة الطيبة التي حثتني على أن أزور هذا البلد، فلا ريب أنها قد حسبتْني عاملاً من المستخدمين في صناعة الأقفال.

---

(11) رواية *L'Astrée* رواية ريفية تأليف أونوريه دورفيه (Honoré d'Urfé) (1607-1627) ـ المترجم.

(12) سيلفاندر راعي غنم أحب راعية للغنم تدعى ديانة، وذلك في رواية **أستريه** التي تقدم ذكرها ـ المترجم.

ذهبتُ إلى ليون لم أخلُ من بعض الأغراض. فلما وصلتُ إليها، قصدتُ إلى دير راهبات الشازوت أزور مدوموازيل دوشاتوليه، أحدى صديقات السيدة دو فارانس التي سبق أن حمّلتْني رسالة إليها يوم قدمتُ مع السيد لوميتر: وهكذا فقد عرفتُها من قبْل. أخبرتْني مدوموازيل دوشاتوليه أن صديقتها مرت بليون، لكنها لا تدري هل واصلتْ طريقها إلى أن بلغتْ بيامونت، وقالت لي إن السيدة دو فارانس نفسها لم تدر أتتوقف بسافوى أم لا، ثم قالت إنه إذا شئتُ، كتبتْ تستطلع أخبارها، وإن خير ما أعمل الآن هو أن ألبث في ليون ارتقب تلك الأخبار. فقبلتُ العرض، ولكن لم أجرؤ على أن أقول لمدوموازيل دوشاتوليه إنني في عجل إلى الجواب وإن نفاد دراهمي لا يأذن لي في طول الانتظار. أما ما منعني أن أقول لها ذلك، فليس كونها لم تُحسن استقبالي، فهي، على الضد، قد غازلتْني كثيراً وساوتْني بنفسها، ولكن لم أتجاسر أن أطلعها على حقيقة حالي لئلا أنحدر في نفسها من دور العشير الأنيس إلى دور الشحاذ المسكين.

ويبدو لي أنني أتبيّن نتيجةَ ما أوردتُ في هذا الكتاب. بيد أني أذكر، في أثناء ذلك، سفراً إلى ليون قمتُ به مرة أخرى وأنا في ضيق شديد، ولكن لا يسعني أن أحدد يومه، وإن يكن هناك قصة صغيرة تُذكّرنيه دائماً، مع ما أجد في روايتي إياها من بعض العسر. وذلك أنني بينما كنتُ، ذات مساء، قاعداً في ساحة بلكور، بعد عشاءٍ خفيف، وقد جعلتُ أتأمل في ما لعله ينقذني من ورطتي، إذ جاء امرؤ على رأسه قبعة فقعد إلى جانبي، فدلّتني هيئته أنه من عمال الحرير وهم الذين يسمَّون، في ليون، بالتفتاويين[13] فكلّمني، فأجبتُه، فتوثق بيننا الحديث. وما كدنا نتحادث ربع ساعة، حتى

(13) نسبة إلى حرير التفتا - المترجم.

twitter @baghdad_library

اقترح عليّ أن نتلهى معاً وظلَّ يكلّمني بالصوت نفسه والهدوء نفسه. فانتظرتُ أن يفسّر لي ما هذا التلهي، فلم يضف حرفاً إلى قوله، بل حسب أن عليه أن يريني ذلك. وكنا نكاد نتلاصق، والليل ليس مظلماً فيحولَ دون أن أبصر ما كان الرجل يتأهب له من فعْل. إلا أنه لم يبغ شخصي قط، أو، على الأقل، لا شيء منه دلّ على هذه النية، ثم إن الموضع لم يسهّل ذاك، وإنما الرجل كان مبتغاه أن يتلهى هو وأن أتلهى أنا، كل منا وحده، فألفى هذا الأمر في منتهى السهولة، ولم يقدّر قط أنني لا أجد الأمر كما قد يجده هو. وهالتني هذه السفالة، فنهضتُ بغتة، وهرولتُ هرَباً يخيَّل إليَّ أن ذلك اللعين قد جدّ في إثري، حتى لقد طرتُ إلى مأواي من جهة الرصيف بدل أن أسلك شارع سان دومينيك، فلم أتوقف إلا بعد الجسر الخشبي وقد هزتني رعدة كأني ارتكبتُ جريمة ما. لقد كنتُ أمارس القباحة عينها، بيد أن هذه الذكرى أبرأتني منها إلى زمن طويل.

ثم وقعتْ لي، في سفري هذا أيضاً، مغامَرة هي من الضرب نفسه، فعرّضتني لخطر أدهى. فأني لما رأيتُ نقودي قد أوشكتْ أن تنفد، ضننتُ بما بقي منها وكان زهيداً، فأقللتُ من تناولي الطعام في النزل الذي حللتُ به، ثم أَمسيتُ لا آكل من طعامه قط، إذ أمكنني أن أشبع في بعض الحانات آكل بخمسة أفلس، أو ستة، عديلَ ما كنتُ آكله في النزل بخمسة وعشرين. فلما أمسكتُ عن طعام النزل، صعبَ عليّ أن أَبيتَ فيه، ولم يكن قد حَقَّ عليّ دين كثير. فخجلتُ أن أقيم بحجرة من النزل وصاحبتُه لا تربح مني شيئاً. وكان الفصل جميلاً، فلما اشتدَّ حره ذات مساء، اعتزمتُ المبيت في ساحة المدينة، فما أن استلقيتُ على بعض المقاعد حتى اقترب مني كاهن قد مرّ من هناك فرآني مستلقياً، فسألني إن كنت في حاجة إلى مأوًى. أَقررتُ له بحالتي، فبدا وكأنه قد تعطَّف عليّ، وقعد إلى

جنبي، فابتدأنا نتحادث، فاستعذبتُ كلماته، فغدوتُ مما سمعتُ منها على أفضل رأي في قائلها. فلما وجدني على هذا النحو وقد تأهبتُ للمزيد، أخبرني أنه لا يأوي في بيت واسع وليس عنده إلا حجرة واحدة، لكنه، في كل حال، لن يتركني أرقد هكذا في الساحة، وقال لي إنه، في هذه الساعة المتأخرة، لن يبحث عن مأوًى لي، بل هو يقدّم إليّ في ليلتنا هذه نصف سريره. فقبلتُ أملَ أن أتخذ منه صديقاً لعله ينفعني. ثم ذهبنا فقدح بالزند. فظهر لي أن حجرته، على ضيقها، حجرة نظيفة، فاستقبلني بمنتهى التأدب. وأَخرج من الخزانة إناء زجاج فيه كرزٌ قد غُمّس ببعض الخمور، فأكل كل واحد منا كرزتين، ثم نمنا.

وكان الرجل على الميول نفسها التي عليها صاحبي اليهوديّ في مأوى المهتدين، إلا أنه لم يبد ميوله بمثْل ذلك الشبق. فما اجترأ أن يعرض عليّ رأساً ما ينوي أن يفعل، بل حاول أن يؤثّر فيّ من غير أن يقلقني، وذلك إما لأنه كان يعلم أنني لو استغثتُ لسُمع صياحي، وقد حاذر أن يضطرني إلى الذود عن نفسي، وإما لأنه كان، في الواقع، أقلّ ثباتاً على ما ينوي فعْله بي، فأدركتُ قصده، إذ بتُّ أكثر خبرةً مما كنتُ عليه في المرة الأولى، فارتعدتُ وخفتُ أن يقضي عليّ إذا صوَّت، وكنتُ لا أدري ما الدار التي أنا فيها ولا مَن هذا الذي بتُّ ليلئذٍ بين يديه. فتجاهلتُ ما أراد بي، ثم بدا عليّ أن قد أزعجتْني لمساتُ ملاطفته وأنْ قد عزمتُ ألا أقاسي المزيد من إمعانه فيها، فما زلتُ بأمري حتى اضطر هو أن يتمالك. فخاطبتُه بكل ما عندي من وداعة وحزم، فاعتذرتُ إليه عما تسببتُ به من إزعاج له ولم يظهر عليّ من ارتياب قط. ثم رويتُ له حادثتي السابقة فسردتُها بعبارات تبعث التقزز والاشمئزاز حتى لأخاله، هو نفسه، قد أَخذ به الغثيان، فكفّ عن قصده السيّء، فأمضينا بقية الليل في

twitter @baghdad_library

هدوء، حتى إنه وجَّه إليّ كلاماً هو في غاية الطيبة وسلامة الرأي، والواقع أن الكاهن لم يكن بلا استحقاق، وإنْ كان فاحشاً رذيلاً.

فلما أَصبحنا، لم يشأ الكاهن أن يبدو وكأنه ليس راضياً، فأتى على ذكر وجبة الصباح، فطلب إلى بنتٍ لصاحبة النزل، هي في منتهى الحسن، أن تستحضر لنا الوجبة. فقالت إنه ليس عندها متسع وقت. فاتجه إلى شقيقتها يخاطبها، فلم تتنازل بالجواب. فلبثنا ننتظر ولكن لا طعام. فانتقلنا إلى حجرة هاتين الآنستين، فقابلتا الكاهن مقابلة جافية، أما استقبالهما لي، فكان أَقلّ مدعاة للشكر. فلما التفتتْ إلى الشقيقة الكبرى، وطأتْ برأس عقبها طرف رجلي، وكانت بي أُبنة[14] جد مؤلمة قد اضطرتني أن أقصّ شيئاً من وجه حذائي، وأما الشقيقة الصغرى، فقد فجأتْني تسحب من خلفي كرسياً قد هممتُ بأن أقعد عليه، وأما أمهما، فبينا هي تلقي ماءً من النافذة، رشّت بعضاً منه على وجهي، وكنتُ حيثما صرتُ من الحجرة، دُفعتُ بحثاً عن شيء ما، لم أكن قد لقيت في حياتي كلها مثل هذه الحفاوة ولقد قرأت في نظراتهن المهينة الساخرة غيظاً مكبوتاً، لكنني لغباوتي لم أدرك معناه قط. فدهشتُ، واستغربتُ، وكدت أخال بهن مسّاً، وأخذ الخوف يغلب عليّ، فتظاهرَ الكاهن بأنه لم يرَ شيئاً وبأنه لم يسمع شيئاً، حتى إذا فقد أمله في وجبة الصباح، خرج، فانطلقتُ في إثره وقد سرَّني أني نجوتُ من تلك الخبيثات الغضاب الثلاث، فاقترح عليّ، ونحن سائران، أن نأكل وجبة الصباح في بعض المقاهي. وكنتُ قد أَلحَّ عليّ الجوع، ولكن أَبيتُ، فلم يلح هو كثيراً، ثم افترقنا عند المنعطف الثالث، أو المنعطف الرابع، من الطريق وقد أبهجني أن يغيب عني كل ما يتصل

(14) الابنة هي ما تسميه العامة مسمار الرِجْل - المترجم.

بذلك البيت اللعين، والكاهنُ، على ما أظن، قد اطمأنت نفسه الي أنه قد ابتعد بي عن البيت حتى ليصعب عليّ أن أهتدي إلى موقعه. ولم يحصل لي، لا في باريس ولا في أيّ مدينة أخرى كانت، مثل هاتين المغامَرتين، فلذلك رسخ فيّ انطباع ليس حسناً رأيُه في شعب ليون، فكنتُ، على الدوام، أنظر إلى هذه المدينة على أنها أعظم مدن أوروبا فساداً.

ثم إن ذكرى ما قد عانيتُ في ليون من أسباب الضيق لا يساعدني على أن استحبّ ذكرها. فلو كنتُ جُبلتُ على ما جُبل عليه سواي، ولو عَرفتُ كيف أستعير الدراهم وكيف استدين من المقهى الذي كنتُ أَتردد إليه، لهان عليّ أن أدبّر أموري، بيد أن كرهي لذلك يساوي عجزي عنه. فإذا شئتَ أن تدرك مدى انسجام كرهي وعجزي هذين، كفاك أن تعلم أنني، وقد سلختُ في الضيق معظم أيام حياتي، لم يطالبني مرة أحد الدائنين إلا أدّيتُ إليه الدراهم على الفور. فما عرفتُ قط تكرار مطالبتي بالديون، بل آثرتُ أن أشقى على أن أتداين.

ولقد كان في اضطراري إلى أَن أبيت في الشارع عذاب لي ولا ريب، وذلك ما قد بلوتُه مراراً وأنا في ليون. فلقد فضّلتُ أن أقتات ببضعة الدراهم، التي بقيتْ معي، على أن أنفقها على المأوى، إذ كان تعريضي نفسي لأن أموت أرقاً أقلّ من تعريضي نفسي لأن أموت جوعاً. والغريب أنني، وأنا في تلك الحالة المؤلمة لم أقلق ولا اكتأبتُ ولا خفتُ المستقبل على الإطلاق، وإنما كنتُ أنتظر الأجوبة ترد على الآنسة دوشاتوليه وقد بتُّ في العراء أستلقي على الأرض، أو على بعض المقاعد، في هدوء وكأني على فراش وَرْد. حتى إني أذكر أنْ قد أمضيت، في خارج المدينة، ليلة ممتعة وأنا على بعض الدروب، إزاء نهر الرون أو نهر السون، وما أذكر أيّاً

twitter @baghdad_library

منهما. وكان ثمة بساتين على شكل أرصفة من تراب تحيط بالدرب من الجهة المقابلة، والحرُّ يومئذٍ شديد، والليلُ فتّان، والندى يبلّل العشب الذابل، والهواءُ على شيء من البرودة، والشمسُ قد غابت فخلّفتْ في السماء أشعة حمراً منعكسات على الماء تجعله مثْلَ لون الورود، وأشجار الأرصفة مثقلة بالبلابل التي كانت تصدح متناجية. فقمتُ أتنزه وأنا في مثل النشوة يحدوني قلبي وحواسي على أن أستمتع بذلك أجمع وقد تنهدتُ بعض التنهد أسفاً على أني أستمتع به وحدي. وكنت مسترسلاً في شرودي الحالم العذب، أواصلُ التنزه في الليل إلى مدًى بعيد، لستُ أشعر أنني قد نأيتُ، حتى شعرتُ بذاك في آخر الأمر، فاستلقيتُ بغبطة على لوحة كوة أو على لوحة مشكاة كانت إلى بعض الجدران، وسريري سقْفه رؤوس الأشجار، وفوقي بعض البلابل، فنمتُ على الشدو نوماً مطمئناً، وكانت يقظتي أوفى هدوءاً وقد طلع الصباح. رأيتُ، وأنا أفتح عينيّ، الماء والعشب ومنظراً للطبيعة رائعاً. صحوتُ، ونهضتُ، وأحسستُ بالجوع، فسرتُ إلى المدينة فرحاً وقد عزمتُ أن أنفق على وجبة الصباح درهمين من ستة دراهم كانت لا تزال معي. وكان مزاجي في غاية الانشراح، ومضيتُ أغنّي طول الطريق، حتى إني أذكر أن قد جعلتُ أغنّي بأنشودة لباتيستان عنوانها «**حمّامات توميري**»[15] وكنت قد حفظتُها. فتبارك باتيستان الكريم، وتباركتْ أنشودته الطيّبة التي أتاحت لي وجبة صباح هي أحسن مما توقعت، وغداء أحسن منها جداً لم أكن أتوقّع مثله قط. وإني لمنطلق في المسير، مسترسل في الغناء، إذ شعرتُ بأن ورائي أحد الناس، فالتفتُّ، فأبصرتُ كاهناً من الأنطونيين يتبعني، والبادي أنه قد استمع إليّ بارتياح. دنا مني،

(15) حمامات توميري (*Les bains de Thomery*) ـ المترجم.

وحيّاني، وسألني هل أعرف أصول الموسيقى. فقلتُ: «أعرف منها القليل» وأنا أعني الكثير. مضى يسائلني، فرويت له شيئاً من قصتي. وسألني أَلَمْ يتقدَّم لي أن نسختُ الألحان. فقلتُ: «كثيراً ما فعلتُ». فقال: «إذاً تعال معي أشغلك بضعة أيام لن يعوزك في أثنائها شيء، على أنه ترضى بملازمة الغرفة». فرضيتُ، وتبعتُه.

هذا الكاهن الأنطوني كان اسمه السيد روليشون، وكان يحبّ الموسيقى ويعرف أصولها وينشد في حفلات موسيقية خاصة يقيمها هو وأصدقاؤه. فلم يكن ثمة من شيء إلا ما هو بريء وإلا ما هو قويم. ولكن يبدو أن ميله إلى الموسيقى كان يتحول إلى هوًى مفرطاً مشبوباً، فيضطر أن يكبت بعضاً منه. قادني إلى حجرة صغيرة، فلزمتُها ووجدتُ فيها ألحاناً جمّة كان قد نسخها. عهد إليّ في أن أنسخ ألحاناً أخرى، ولا سيما اللحن الذي سمعني أُنشده وقد وجب عليه أن ينشده بعد بضعة أيام. فلبثتُ هناك ثلاثة أيام، أو أربعة، أنسخ بلا انقطاع خلا أوقات الطعام، والواقع أنني لم أحسّ قط بمثْل ما قد أَحسستُ به وقتئذٍ من جوع ولا أَكلتُ ما هو أَجود مما أَكلتُ هناك. وكان هو بنفسه يحمل إليّ طعامي من مطبخ الكهنة، فإذ كان طعامهم نظير مأكلي، هذا، جودةً، فلا شك أنه مأكلٌ طيّب. فما تلذّذتُ بالطعام يوماً كما تلذذتُ به في ذلك الحين. وههنا لا بد من أن أقرّ أن أكلي مجاناً، هكذا قد أتاني في أوانه وأنا خالي الجيب، فكنتُ في عملي على مثل ما كنت في أكلي من رغبة وطيبة نفس، وما هذا بالقول اليسير، بيد أن غلطي في النسخ قد أربى على اجتهادي فيه. وصادفتُ السيد روليشون في الطريق بعد بضعة أيام، فأخبرني أن الألحان التي نسختُها قد حالت دون تأدية القطع الموسيقية لفرط ما كان بهذه الألحان من سهو وتكرار ونقل وإبدال، ولا مناص من أن أقرّ بأني قد اخترتُ أقلَّ المهن موافقةً لي. ذلك

twitter @baghdad_library

ونسخي لم يكن غير جميل الخط ولا غير واضح، لكن مللي من العمل الطويل يذهلني عنه وقتاً طويلاً حتى لأقضي في الحكّ والتنقيح أضعاف ما أقضي في النسخ. فإن لم أُعنَ بمقابلة الألحان أقصى عناية، تعذّرتْ تأديتها لا محالة. وإذاً فقد أسأتُ الصنع من حيث أردتُ أن أُحسن. وطلبتُ العجلة فوقعتُ في الخطأ. بيد أن ذلك لم يمنع السيد روليشون أن يحسن معاملتي حتى آخر يوم مكثتُ فيه عنده، ولا منعه أن يعطيني، إذ أنا خارج، بعض الدراهم التي لم أستحقّها كثيراً والتي انتشلتْني مما قد ترديتُ فيه. فما مضت بضعة أيام حتى وردتْ عليّ أنباء من ماما التي كانت في شامبيري، كما أنه ورد عليّ منها بعض الدراهم قصْدَ أن امضي إليها، وهذا ما فعلتُ في تهلل وسرور. وبقيتُ، مذ ذلك الوقت، في حالة مالية متعسرة، ولكن لم أُضطر إلى الصوم. وإني أذكر هذه المرحلة وقلبي مفعم بالشعور إزاء نعم العناية الإلهية، فلقد كانت هذه المرحلة من حياتي آخر مرحلة قاسيت فيها البؤس والجوع.

فلبثتُ في ليون سبعة أيام أو ثمانية أيام أُخرى أنتظر المهام التي وكلتْها ماما إلى مدوموازيل دوشاتوليه وأنا أكثر مواظبةً على التردد إليها وقد طاب لي أن أتحدث معها عن صديقتها ليس يذهلني عنها تكرارُ ما قد عانيتُ من ضيق أُكرهتُ على أن أكتمها إياه. ولم تكن الآنسة دوشاتوليه شابة ولا مليحة، على أنها لم تخلُ من رشاقة، فهي أليفة، أنيسة، فزادها إلفةً وإنساً ما قد فُطرتْ عليه من ذكاء. ولها ميل إلى أخلاق الملاحظة التي تحث على دراسة البشر، فأخذتُ عنها هذا الميل أول ما أخذته. وكانت تحب روايات لوساج، ولا سيما «**جيل بلاس**»، فكلّمتْني في هذه الرواية، وأعارتني إياها، فقرأتُها فالتذذتُ، إلا أني لم أكن بعد من النضج على مستوًى يهيئني لمثل هذه القراءات، بل حاجتي هي، يومئذٍ، إلى رواياتٍ متقدة

المشاعر. فسلختُ تلك الأيام على هذا النحو، أمام القضبان المشبّكة من دير راهبات الشازوت، أحادث مدوموازيل دوشاتوليه وقد انشرحتُ وانتفعتُ، ولا شك أن الفوائد الرزينة التي تتحدث بها المرأة الذكية الجديرة هي على تنشئة الفتى أقدر من كل ما في بطون الكتب من ادعاءاتِ متفلسفة. ثم إنني تعرَّفتُ، في دير الشازوت، بنزيلات أخريات وبصديقاتهن ومن بينهن فتاة في الرابعة عشرة من العمر تدعى الآنسة سارّ لم أعرها إنتباهاً كبيراً، إلا أني، بعد ثماني سنوات، أو تسع، أُغرمتُ بها حقّاً إذ كانت شابة فاتنة لطيفة.

ولقد شغلني انتظاري أن ألقى ماما في القريب، فأَقلعتُ عن أخيلتي بعض الإقلاع، إذ إن واقع السعادة التي كانت ترتقبني قد أعفاني من أن أطلب السعادة في الرؤى. فما لقيتُ ماما من جديد فحسب، ولكن بالقرب منها وبفضلها وجدت من جديد وضعاً ممتعاً، وقد كتبتْ إليّ تقول إنها وجدتْ لي شغلاً رجت أن يلائمني ولا يبعدني منها. فأَمعنتُ في الافتراضات لعلي أخمّن ما هذا الشغل، والواقع أنه كان لا بد لي من أن أخمن لكي أعرف ما هذا الشغل. كان معي من النقود ما يكفي لأن أسافر إلى ماما سفراً مريحاً. فارادت مدوموازيل دوشاتوليه أن ارتحل على فرس، فلم يسعني القبول، فأَصبتُ، إذ لو قَبلتُ لحُرمتُ إلى بقية العمر لذةَ آخر سفر لي مشياً. أما تجوالات النزهة، وهي التي كثيراً ما قمتُ بها في الجوار أيام سكنت موتييه، فلا أدعوها سفراً.

أما الأمر الفريد حقّاً فهو أن خيالي لا يتقوّم بنفسه على أمتع ما يكون إلا وأنا أقلّ ما أكون إمتاعاً، وأن خيالي هو أقلّ ما يكون حبوراً يومَ كلُّ ما حولي يضحك. وذلك أن رأسي السيئة لا يمكنه الإذعان لواقع الأشياء. إنه لا يستطيع تجميل الواقع، وإنما يريد إبداعه. إن الموضوعات الواقعية ترتسم في رأسي كما هي موجودة

twitter @baghdad_library

في أكثر الأحوال، وإذ لا يمكن رأسي هذه أن تنمق إلا الموضوعات الخيالية. فإذا شئتُ أن أصف الربيع، وجب أن أكون في الشتاء، وإذا شئتُ أن اصف المنظر الطبيعي الجميل، وجب أن أكون بين بعض الجدران، ولقد طالما قلت إني لو كنتُ في سجن الباستيل، لرسمتُ صورة الحرية. فلما برحتُ ليون، لم أرَ أمامي إلا غداً بهيجاً فسررتُ، ولقد حُقَّ لي ذاك بقدْر ما تضاءل سروري لمّا برحتُ باريس، على أني، في سفري هذا، لم يسنح لي من أحلام اليقظة العذاب ما قد سنح لي منها في سفري ذاك، وإنما كنتُ على صفاء قلب فحسب. فأَخذتُ أسير بحنان أقترب من تلك الصديقة الكريمة التي أنا بسبيل أن القاها مرة أخرى، فجعلتُ أتذوق بهجة الحياة بالقرب منها تذوقاً مسبَّقاً لكنه بلا نشوة، وكنتُ قد توقّعتُ ذاك في كل حال، فما هو عندي بالأمر الجديد. وكنتُ قد أقلقني ما أنا بسبيل أن أعمله وكأنه الشيء الذي يُقلق حقّاً، وكانت خواطري هادئة حلوة، لكنها لم تكن خواطر سموّ وفتون. فما مررتُ يؤمئذٍ بشيء إلا لفتَ نظري، فأعرتُ مناظر الطبيعة انتباهي، حتى إذا بلغتُ بعض المفارق، سألتُ عن الطريق، خوفَ أن أضلّ، فما ضللتُ قط. وخلاصة القول أني لم أَبقَ في مثل علّيين، بل تَارةَ غدوتُ حيث كنتُ قد بلغتُ، وتارة حيث كنتُ ذاهباً إليه، وما صرتُ إلى أبعد من ذلك على الإطلاق.

وإني وأنا أروي أسفاري مثلما كنت عندما كنت أقوم بها: فلا يسعني أن أوفي منها على نهاية. فلما سرتُ اقترب من ماما العزيزة، جعل قلبي يخفق فرحاً ولكن لم أحث السير. وذلك أني أحبّ أن أمشي على هواي، أتوقف حيث يطيب لي الوقوف، فالعيشة المتنقلة الجوّالة هي ما أروم. فأن أَمضي مشياً والجو صحو، والبلد جميل، ليس يستعجلني أمر، وأن يكون لي في غاية هذا المطاف موضوعٌ ما

أستحب: ذلك هو، على تنوع طرائق العيش، أدناها مني وأَحبُّها إليّ، ويعلم الناس ما الذي أعني ببلد جميل، إذ مهما يكن بلد السهول رائعاً جميلاً، فإنه لا يبدو لي هكذا أبداً. وإنما أريدُ السيول الجارفة، والصخور، وأشجار الصنوبر، والغابات السود، والجبال، والدروب الوعرة أتسلقها وأنحدر فيها وعن جانبيّ ما يخوّف. فنعمتُ بهذي البهجة فطبتُ بها بملء سحرها وقد قاربتُ شامبيري. وثمة نهر صغير غير بعيد من جبل مشطَّر يدعى جبل «با دو ليشيل»، ويمرّ هذا النهر تحت درب واسع يشقّ الصخر عند المكان الذي يسمّى شايُّ، ثم يجري النهر يصبّ في مهاو مخوفة وكأنه ما يزال يحفرها منذ ألوف الأجيال، وقد سُيّجَ الطريقُ تجنباً للأخطار، فأُتيحَ لي أن أتأمل تلك الأعماق فأخذ بي الدوار ولا بأس عليّ، والمضحك هو أني إذا ملتُ إلى الأمكنة الوعرة الانحدار، اعتراني دوار أستحبه، على أن أكون بمأمن. فاستندتُ إلى السياج وأَطللتُ بأنفي. فلبثتُ هناك الساعات الطوال أَلمح، بين الحين والحين، زبد المياه الزرق تهدر من خلال نعيب الغربان ومن خلال أصوات الكواسر قد طارت من صخر إلى صخر ومن شوك إلى شوك، تحتي، على مئات الأقدام. وكنتُ كلما تماسكَ المنحدَر وخفّت كثافةُ الشوك فجاز من ثمة بعض الحصيّ، ذهبتُ فأبعدتُ فأَتيتُ بأضخم ما أمكنني حمله منها فكوّمتُه على السياج، ثم قمتُ أرميه حصاة حصاة إذ أعجبني منظرها وقد انحدرتْ فطفرتْ فتطايرتْ قبلما انتهت إلى قرارة المهوى.

فلما ازددتُ اقتراباً من شامبيري، أُتيحَ لي منظر مماثل، لكنه على اتجاه مضادّ. وذلك أن الدرب، ههنا، قد مرّ بحضيض شلّال هو أبهى ما أَبصرتُ من شلالات. والجبل، ههنا، وعرُ المنحدَر جداً حتى إن المياه قد انفصلتْ عنه رأساً فهوت في هبطٍ معوجّ فأمكنك أن تعبر ما بين الشلال والصخور ليس تُبلّلك المياه. ولكن إذا لم

twitter @baghdad_library

تحتط، بلّلتك كما قد بلّلتني، لأن هذا المرتفَع العاتي يبدد المياه فتنثال انثيالاً وتذهب في مقرّ الهاوية، فإن دانيتَ هذه السحابة أكثر مما ينبغي أن تدانيها، لم تشعر، أوّلَ الحال، بأنك تبللت مع كونك قد تبللت جداً.

وصلتُ في آخر الأمر، فلقيتُها من جديد. ولم تكن وحدها، بل إني، حين دخلت، رأيتُ عندها الناظر العام. فأَخذتْ بيدي من غير كلام، فعرّفتْني إليه في رشاقة قد فتحتْ لها جميعَ القلوب، وقالت له: «هذا هو الشاب المسكين، فتنازلْ، سيدي، أن تحميه ما استحقَّ منك الحماية، وعندئذٍ لا يقلقني أمرُه ما حييتُ». ثم التفتت إليّ فقالت: «ولدي! إنك بيد الملك، فاشكر السيّد الناظر العام لأنه سيعطيك القوت». فدهشت ولم أنبس بحرف. بل طرقَ خيالي ألفُ خاطر وكاد يساورني الدوار لبُعد طموحي الطالع، وكدتُ أقوم بدور النويظر الملكي. إلا أن نصيبي كان دون ما قد تمثّلتُه من توفيق، وإن يكن به الكفاف، وهذا يؤمئذٍ شأنُه عندي خطير. وإليك خبره.

فإن الملك فكتور أميديه، وقد نظر في ما مضى من حروب وفي ما انتهى إليه ميراث آبائه، وجد أن هذا الميراث سيزول عنه يوماً، فتوخى أن يستنفده قبل أن يزول. وكان هو، لبضع سنوات خلتْ، قد قرَّر أن يفرض على الأشراف ضرائب لا عهد لهم بها من قبْل. فأمرَ أن تُمسحَ البلاد كلها مساحة عامة لكي يمكن فرض الضريبة فعلاً ولكي يجري فرضها بأوفى ما يستطاع من المساواة والإنصاف. فبُدئَ بالمسح على عهد الملك الوالد وفرغ منه على عهد الملك الابن. واستُخدم لذلك مائتا شخص أو ثلاثمائة شخص من المسّاحين وكان يقال لهم مهندسون، ومن الكتبة وكان يقال لهم أمناء السرّ. فمكنتْني الوظيفة أن أتوسع في نفقات المعيشة وإن لم تكن هي وظيفةً غزيرة المكسب. وكانت آفتها أنها مؤقتة، بيد أنها كانت تتيح

لي أن أبحث عن عمل آخر وتتيح لي أن أنتظر؛ ولم تفتأ ماما، لبُعد بصيرتها، تسعى لأن تحصل لي من الناظر الملكي على حماية خاصة يتأتى لي معها الانتقال إلى عمل يكون أَثبَت وذلك حين تنتهي مدة عملي الحاليّ.

شرعتُ أعمل بعد وصولي بأيام، ولم يكن في ذلك صعوبة، فما لبثتُ أن أَلفتُه. وكانت هذه أول مرة كسبتُ فيها نفقة معيشتي كسباً مشرّفاً بعد ما مضى على خروجي من جنيف خمس سنوات، أو ست، كانت سنوات أسفار وتنقلات وحماقات وآلام.

وربما بدا أن التوقف على كل هذه التفاصيل المطوّلة لشبابي الأول أمر صبياني [سخيفاً]؛ وإني لآسفٌ لذلك. ولئن كنتُ، من بعض الأوجه، قد وُلدتُ رجلاً، فلقد بَقيتُ طفلا زمناً طويلاً، وما أزال في كثير من الوجوه الأخرى طفلاً. ثم إنني لم أَعد الجمهور بأن أعرض عليه شخصية عظيمة، بل وَعدتُ أن أصف نفسي كما أنا، فمن أراد أن يعرفني وقد علت بي السن، فلا بد له من أن يعرفني وأنا في عهد الشباب. ثم إن الأشياء لا تؤثر فيّ بقدر ما يؤثّر فيّ تذكُّري لها. وأفكاري كلها صُوَر، ولقد رسخ في ذهني أولُ ما انطبع عليه من رسوم. أما الأشياء التي انطبعتْ بعدئذٍ، فقد اختلطتْ هي والأشياء الأولى أكثر مما محتْها. يوجد تتابع معين للتأثرات والأفكار التي تحوّر ما يعقبها، فلا غنى لك عن أن تعرفها للحكم فيها حقَّ الحكم. وإني، على الدوام، أَجتهد في أَن أبلور الأسباب لجعل أناس يستشعرون تسلسل النتائج. فقصدي أن أدع القارئ يطّلع على نفسي شفافة، فأحاول أن أريه إياها من مختلف وجهات النظر، وأن أجلو عليه كل حالة لي، فلا ينبض في نفسي شيء إلا تبيَّنه القارئ فاستنتجَ هو بنفسه ما تحت ذلك الشيء من أسباب.

ولو وَكلتُ إلى نفسي أمر الاستنتاج فقلتُ للقارئ: «هذي هي

twitter @baghdad_library

فطرتي [طبعي]»، لربما حسبني أخادعه، أو أَخدع نفسي في الأقل. أما إذا فصَّلتُ للقارئ ببساطة كل ما جرى لي وكل ما فَعلتُ وكل ما فكرتُ فيه وكل ما شعرتُ به تفصيلاً، فإني لا يمكنني البتة أن أضلّله ما لم أتعمد التضليل؛ بل لو تعمدتُ التضليل، لم يسهل عليّ أن أفعله بهذه الطريقة. وإنما على القارئ أن يجمع تلك العناصر فيحدّد الكائنَ الذي يتألف منها، أما ما ينجم عنها فهو من صنع القارئ، فإن أخطأ فإليه مردّ الخطأ. ولذلك لا تكفي ههنا أمانة الرواية، بل يجب معها صحة الرواية. ثم ليس علي أن أقدر أهمية الأمور، وإنما عليّ أن أذكرها جميعاً، وأن أُتيحَ للقارئ مهمة الاختيار. وهذا ما اجتهدتُ فيه إلى اليوم غاية الاجتهاد، وهذا ما لن أتوانى فيه من بعد. إلاّ أن ذكريات أواسط العمر هي، في كل حال أقلّ حيوّية [نشاطاً] من ذكريات الصبا الأول. ولقد انتفعتُ بهذي أقصى ما استطعتُ. فإن سنحتْ لي الذكريات الأخرى بمثْل النشاط الذي سنحتْ لي فيه الذكريات الأُول، فقد يضيق بي بعض القراء المتبرمين. أما أنا فلن أكون إلا راضياً عن عملي. وإن هالني من عملي شيء واحد فليس هو أن أفرط في القول ولا أن ألفق الأكاذيب، إنما خوفي أن لا أقول كل شيء وأن أسكت عن بعض الحقائق.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

يبدو لي أني وصلتُ إلى شامبيري في عام 1732، على ما ذكرتُ منذ قليل، وبدأتُ عملي موظفاً بالمساحة في خدمة الملك. وكنتُ قد جاوزتُ سنتي العشرين وقاربتُ الحادية والعشرين. وبالنسبة إلى سنة كان ذكائي، على نمو كاف؛ أما ملكة الحكم، فلم يكد يوفي منه على شيء. وذلك أن بضع السنوات اختباراً لم يسعها أن تبرئني من رؤايا إبراءً جذرياً، فكنتُ، على الآلام التي قاسيتُ، ضئيل المعرفة بالدنيا وبالناس كأني لم أؤدِّ ثمن هذه المعرفة.

وكنتُ آوي إلى بيتي، أعني بيت ماما؛ إلا أني لم أجد حجرتي ههنا مثل حجرتي في أنّوسي. فلا حديقة، ولا ساقية، ولا مناظر طبيعية. فالبيت مظلم كئيب، وحجرتي أشدُّ حجراته ظلمةً واكتئاباً. أما مطلّه، فعلى بعض الجدران، وليس لطريق البيت منفذ. ثم هو قليل الهواء، بخيل الضياء، ضيّق الرقعة، به جداجد وجرذان، إلى ألواح خشب بالية. فما السكنى فيه بالمقام الطيّب. لكني، ههنا، في بيتها، على قرب منها؛ فكنتُ لا أبرح إما في غرفة استقبالها وإما في حجرة نومها، مما حجب عني الكثير من بشاعة حجرتي إذ لم يفسح لي الوقتُ أن أتصوّر تلك البشاعة. وقد يُستغرب أن تقيم هي بشامبيري لا لسبب إلا لتسكن هذا البيت البشع، غير أن سكنها فيه كان ضرباً

من براعتها لا ينبغي أن أسكت عنه. وذلك أنها كانت تشخص إلى تورينو على كره منها، إذ شعرتْ أنه لا يستحسن أن تأتي البلاط بعد ثورات قريبة العهد قد أقلقت الخواطر وما تزال تقلقها. بيد أن مصالح ماما قد أوجبتْ عليها أن يراها الناس في البلاط، فقد خشيتْ أن ينسوها أو يؤذوها. وأَخَصّ ما علمتْ به، من هذا القبيل، أن الكونت دوسان لوران، الناظر العام لشؤون المال، لم يكن مؤيداً لها. وكان يملك في شامبيري بيتاً قديماً سيّئ البنيان، موقعه مستكرَهٌ جداً حتى لم يسكنه أحد، فاستأجرتْه وسكنتْ فيه. فأفلحتْ هكذا أكثر مما أفلحتْ حين قصدتْ إلى تورينو، فلم يُلغ مرتبها، وما فتئ الكونت دوسان لوران في عداد أصدقائها من ذلك اليوم.

وجدتُ نظام معيشتها وخَدمها على نحو ما عرفتُه من قبْل، وكلود أنيه الوفيّ الأمين ما يزال معها. وكان هذا، وقد تقدَّم لي ذكره في ما أحسب، قروياً من مونترو أمضى طفولته يجمع الأعشاب في [مرتفعات] الجيرا ليصنع بها شاي سويسرا[1]، فاتخذتْه ماما لخدمتها من أجل هذه العقاقير، إذ استحسنت أن يكون عندها صانع عقاقير. فشغف بدراسة النبات أيَّ شغف، وشجعتْه هي على هذا الميل، حتى لقد أمسى عالماً في النبات حقّاً، ولو لم يتوفَ وهو شاب، لاشتهر بين أُولي المعرفة، على حسب ما قد استحقّ علمُه. وكان أنيه رزيناً غاية الرزانة، وكنتُ أصغر منه سناً، فغدا وكأنه مؤدَّب لي، فأنقذني من حماقات كثيرة إذ تولاني بهيبته فلم أجرؤ على أن أذهل عن نفسي وأنا بحضرته. وكان، إلى ذلك، يفرض هيبته على سيدته وقد أدركتْ سعةَ فهمه واستقامته وشدّةَ تعلقه بها فقابلتْه بمثل ذلك. ولقد كان كلود أنيه، بلا شك، رجلاً نادراً، فريداً من نوعه، لم أرَ

(1) شاي سويسرا خليط أعشاب يُصنع بها بعض العقاقير - المترجم.

twitter @baghdad_library

له نظيراً قط. وكان متأنياً، رصيناً، جاف السلوك، مختصر القول، يتكلّم بالحكم والأمثال. وكان، وهو بين أهوائه، على حدّة لم يزل يكبتها فلا يظهر منها شيئاً أبداً، فاعتلجتْ فيه، فأكلتْه في الصميم، ولم تحمله، مع ذلك، إلا على حماقة واحدة، بيد أنها حماقة مريعة إذ سمّمَ نفسه، ثم إن هذا الحادث الفاجع وقع بُعيْد وصولي، فلولاه ما وقفتُ على العلاقة الحميمة التي وصلتْ هذا الفتى بسيدته، ولو لم تطلعني هي بنفسها، آنئذ، على تلك العلاقة، لما شعرتُ بها قط. فإذا كانت مزايا التعلق والوفاء والإخلاص تستحقّ هذا الجزاء، فلقد استحقّه هو ولا ريب، ومما يدلّ أنه كان أهلاً لتلك العلاقة كونُه لم يشطّ فيها يوماً. ونادراً ما تشاجرا، وكان تشاجرهما حسن العاقبة في كل حال، عدا مرة واحدة ساءت فيها عاقبته، إذ وجَّهت إليه سيدته، وهي غضبى، كلمة مهينة لم يسعه احتمالها. فلم يعر أذناً إلا لليأس الذي هو فيه، فوقعتْ يده على قنينة فيها بعض المخدرات، فشربها ومضى يرقد في سكينة أَملَ ألا يصحو أبداً. ولكن في حُسن الحظ أن السيدة دو فارانس، وقد هامت على وجهها في البيت قلقة مضطربة، رأت القنينة فارغة، فخمنت ما قد جرى، فطارت إلى نجدته تصيح صياحاً لفتَ انتباهي، فأسرعتُ، فاعترفتْ إليّ بكل شيء والتمستْ عوني، فما زالت بالفتى في جهد منها جاهد حتى استطاعت حمله على أن يلفظ الأفيون. فشهدتُ هذا الحادث، فأُعجبتُ بغباوتي إذ لم أشكَ يوماً في تلك العلاقات التي أطلعتْني ماما عليها، غير أن كلود أنيه كان كتوماً جداً حتى إن سرّه يخفى على من هو أبعد فطنة مني. ثم إن المصالحة تمّت على خير وجه فأثّرتْ فيّ أنا نفسي، فأضَفتُ احترامي له إلى تقديري إياه وبتُّ كأني تلميذه، ولم أجدني أسوأ حالاً.

ولكن آلمني أن يكون ثمة من يعايش ماما معايشة حميمة هي

أقرب صلةً من معايشتي لها. ولئن لم يخطر لي أن أبتغي هذه المنزلة، لقد عظم عليّ أن يظفر بها سواي، وذاك طبيعيّ. بيد أني لم أمقت هذا الذي سبقني اليها، بل شعرتُ أن تعلّقي بها قد أخذ يمتد إليه هو. فنشدتُ سعادتها في كل أمر، وما دامت هي قد احتاجت إلى أنيه لكي يكون سعيدة، فلقد سرّني أنه هو أيضاً سعيد. وكان، من جهته، على رأي سيدته فأولى صديقَها الذي اختارته أوفى مشاعر الصداقة. فلم يعاملني بما خوّله مقامه من سلطة، بل عاملني، طبيعياً، بما كان ذكاؤه يهيئ له من التفوّق. فأما أنا فلم أجرؤ على أن أفعل ما يبدو أنه يستنكرها، وأما هو فلم يكن يستنكر إلا ما كان سيّئاً. فعشنا هكذا في توافق سعدنا به جميعاً ولم يقوَ عليه إلا الموت. ومن الأدلة على سمو الطبع عند تلك المرأة الكريمة أن جميع من أحبّوها قد أمسوا متحابّين. فالغيرة بل الخصومة نفسها كانت شدّتهما تلين حيال الشعور الغالب الذي توحي هي به، فلم أجد قط بين أولئك الذين حفّوا بها من أراد بعضهم ببعضهم شرّاً. فليتوقفْ قرائي، حيناً، أمام هذا الثناء، وليفكروا هل يعرفون امرأة غيرها يستطيعون أن يقولوا فيها مثل هذا القول، فإن وجدوا هذه المرأة، فليتعلّقوا بها من أجل راحة عيشهم ولو كانت هي أقبح زانية.

هنا يبدأ، ما بين وصولي إلى شامبيري وارتحالي إلى باريس عام 1741، أَمَدُ ثماني سنوات، أو تسع، ليس عندي خلالها أمور كثيرة آتي على ذكرها، لأن حياتي كانت بسيطة بقدْر ما كانت هنيئة. وكان اطرادها على هذا النحو هو ما قد كانت حاجتي ماسّة اليه ليكتمل نمو طبعي الذي حال قلقي دون استقراره على شيء. فإنّ تنشئتي، التي اختلطتْ أسبابها من غير اتساق، قد زكّت في ذلك الأمد الجزيل النفع واكتنزتْ فجعلتْني هذا الذي لم أفتأ أكون هو [أكونه] بين الزوابع التي تنتظرني. فمرت الأيام مرًّا بطيئاً فكدتُ لا

twitter @baghdad_library

أشعر أنها تمرّ، اذ ليس لي فيها مما جرى شأن كثير يستحقّ أن أذكره، وإن استحقَّ أن أقتفي أثره وأسهب فيه.

وفي أول أمري، كدتُ لا يشغلني إلا عملي، إذ لم يتح لي انحصاري في المكتب أن أفكّر في غير العمل. أما أوقات الفراغ، وهي يسيرة، فكنتُ أُمضيها مع ماما الكريمة، الطيّبة. فلم يتسع وقتي للمطالعة، ولم أرغب فيها، ولا اشتقتُ اليها. فلما أَلفتُ الوظيفة، عادت هذه أقلّ إثارة لاهتمامي، فعاودني القلق وتجددتْ حاجتي إلى القراءة، ولولا أن ميولاً أخرى غلبتْ على ميلي إلى القراءة فصرفتْني عنه، ـ وإن يكن هذا الميل قد أيقظتْه صعوبة تلبيتي إياه، ـ إذاً لكنتُ شُغفتُ بالقراءة كما شُغف بها أستاذي.

ولم تستوجب أعمال المسح علم حساب متعالياً، إلا أنها استوجبتْ قسطاً من هذا العلم أزعجتْني صعوبته أحيانا. فابتعتُ بعض كتب الحساب لأتمكن من هذه الصعوبة، فأحكمتُ درسه إذ درستُه وحدي. والحساب العملي إذا أَخذتَ بدقائقه، اتسع موضوعه فوق ما تَظن، لأن به أعمالاً هي على غاية الطول، حتى إني ربما أبصرتُ بعض المسّاحين العارفين قد تاهوا في ذلك الموضوع. ثم إن نظرك في هذا العلم إذا اقترن بممارستك إياه، أوضَح تفكيرَك فيه، فاهتديت إلى طرائق له مختصرة تبتكرها فتعَزُ كرامتَك، وتصيب غرضها فترضي عقلك، فيطيب لك عملٌ هو بنفسه شأن لا يعدل جهدَك فيه. ولقد أوغلتُ في ذلك أيَّ إيغال، فلم يبقَ من مسألة تقبل الحل بالأرقام وحدها إلا هان عليّ حلّها، أما الآن وقد نسيتُ كل ما علمتُ، فإن ما حصّلتُه من علم الحساب ما يزال بعض منه ماثلاً في ذهني بعد ما انقطعتُ عنه من زهاء ثلاثين سنة. ولقد كنتُ، لبضعة أيام خَلت، في رحلة إلى دافانبور، فحضرتُ درس حساب قد تلقّاه أولاد مضيفي، فأجريتُ عملاً حسابيّاً هو من أكثر الأعمال تركيباً،

فلم أخطئ فيه قط، فسُررتُ حقاً، إذ خيل إليّ، وانا أعالج تلك الأرقام، أنني ما أزال في شامبيري على عهد أيامي السعيدة، فكأني قد رجعتُ إلى زمن لي بعيد.

ثم إن تلوينات مخطَّطات المسّاحين قد جدَّدتْ ميلي إلى الرسم. فابتعتُ بعض الألوان وأنشأتُ أرسم صوراً للطبيعة والأزهار. ومن الخسران أني لم أبرع في هذا الفن، مع أن ميلي إليه قد بلغ اتمامه. ولو أمكنني، لقضيتُ بين الريش والأقلام شهوراً بأسرها. فاشتدّ تعلقي بهذا الشغل، حتى كان لا بد أن أُسلَخ منه. وهذا حالي في جميع الميول التي انقاد لها، فهي تتضاعف ثم تصبح أهواءً، فلا ألبث طويلاً حتى أعود لا أرى في الدنيا إلا اللهو الذي يشغلني. ولم يبرئني من هذه الآفة علّو سني ولا خفَّف منها شيئاً، والآن، إذ أكتب ما أكتب، هاأنذا كالخرف الهرم وقد أُولعتُ بموضوع دراسيّ آخر غير ذي فائدة لا أعلم منه أمراً، حتى أولئك الذين تعاطونه في أيام شبابهم قد اضطروا إلى أن يتخلوا عنه في السن التي ابتدأتُ أتعاطاه فيها.

وكانت أيام الشباب هي الأيام التي تلائم ذلك الموضوع. فسنحتْ لي المناسبة عندئذٍ، فأُغريتُ بأن أنتهزها بعضَ الإغراء. ولقد قرأتُ في عيني أنيه آيات الرضى، اذ رجع يحمل نباتات جديدة، فهممتُ مرتين، أو ثلاث مرات، أن أذهب معه فأجمع الأعشاب. وأكاد أوقن أني لو صحبتُه مرة واحدة، لأُولعتُ بذلك وربما غدوت اليوم عالماً من كبار علماء النبات، فلستُ أعرف البتة علماً هو أكثر ملاءمة لميولي من علم النبات، وما عيشتي بالريف منذ عشر سنوات إلا ضربٌ من جمع الأعشاب موصول، على غير هدف ولا تقدّم. ولكن، يومئذٍ، لم أعرف شيئاً من علم النبات، فازدريتُه، حتى إني عفتُه لم أحسبه من غرض الصيدليّ صانع العقاقير. أما ماما، وقد

twitter @baghdad_library

مالت إلى علم النبات، فلم تستخدمه لسوى الشأن الصيدليّ، إذ لم تتوخَ إلا النبات الذي يصلح لأن تستخدمه في عقاقيرها. وعلى هذا، فإنّ علوم النبات والكيمياء والتشريح قد اختلطتْ، وقتئذٍ، في ذهني تحت اسم علم الطب، فما انفكت طول النهار موضوع سخرية لي مستحبَّة، وجلبتْ عليّ بعضَ المهانة في الحين بعد الحين. ثم إن ميلاً لي آخر مغايراً لذلك الميل ومخالفاً له حقَّ المخالفة قد أخذ ينمو فيّ تدريجاً فلم يلبث أن استولى عليّ بأجمعي، وأعني به الموسيقى. ولا ريب أني قد خُلقتُ لهذا الفن، فأحببتُه منذ طفولتي، وهو الفن الأوحد الذي أحببته على الدوام. ولكن الغريب أن هذا الفن الذي خُلقتُ له، قد اقتضاني من مشقة تعلمه ما قد اقتضى، وكنت بطيء النجاح فيه، حتى إني، بعدما زاولتُه سحابة العمر، لم أستطع أن أغنّي به ارتجالاً بلا خطأ. وأَخصُّ ما حبَّبَ إليّ الموسيقى هو أنه تسنّى لي أن أتعاطاها مع ماما. وكان لنا من تباين الميول ما جعل الموسيقى موضوع التقاءٍ لنا أردت أن أتوسل به اليها. وما كانت ماما لتأبى ذاك، وكنت يؤمئذ على نحو مستواها في الفن الموسيقي. فتهيأ لنا أن نقرأ اللحن بعد محاولتين منا، أو ثلاث. وربما رأيتُها أحياناً قد شغلها ما في الموقد، فقلتُ لها: «ماما، هذا ثُنائيّ للغناء جميل يخيَّل إليَّ أنه يجعل لعقاقيرك رائحةَ شيء يحترق». فقالت: «والله، إذا جعلتني أحرق العقاقير، أجبرتُك أن تأكلها». وبينا نحن نتحادث هكذا، كنتُ أميل بها إلى كلافسانها، فننسى أنفسنا هناك، في حين يكون مستخلَص العرار أو الأفسنتين قد أصبح رماداً، فتعمد هي اليه تلطّخ به وجهي، فكان ذلك كله مستحبّاً لذيذاً.

وإنك لترى أن لي أمور جمّة أشغلُ بها ما تهيّأَ لي من أوقات فراغ قليلة. فسنح لي، فضلاً على ذلك، ما تلهيتُ به وما نفع سائر ما كنا نتلهى به.

وكان بيتنا مثل السجن المطبق. فاضطررنا أن نخرج، حيناً بعد حين، إلى الهواء الطلق نتنسم على سطح الأرض. فحثَّ أنيه ماما أن تستأجر، في إحدى الضواحي، بستاناً فنغرس فيه بعض النبات. وكان لهذا البستان بيت ريفيّ صغير هو على قسط من الروعة، فأثثناه وفقَ أحكام القانون[2]. فوضعنا فيه سريراً، ولطالما صرنا إلى هناك نتغدى، وكنتُ أرقد فيه بعض الأوقات. فأُولعتُ بهذه العزلة شيئاً بعد شيء، فجعلتُ فيها بعض الكتب وكثيراً من الصور التي طُبعتْ على الخشب، وأمضيتُ بها بعضاً من وقتي أزيّنها وأعدُّ لماما بعض المفاجآت المستحبّة إذ ما أَقبلتْ هي تتنزه، فلقد كنتُ أبرح ماما لكن آتي ههنا أنشغل بها وأفكر فيها بمزيد غبطة وابتهاج. وتلك هي، عندي، نزوةُ هوًى أخرى لا أجد لها عذراً ولا أبتغي لها تفسيراً، بل أقرُّ بها لأنها على هذا النحو. وأذكر أن السيدة دولوكسمبور حدثتْني مرة فسخرتْ بامرئ كان يفارق معشوقته ليكتب إليها فقلتُ لها إنه لا حائل يمنع أن أكون مثل هذا الآدمي. وكان في وسعي أن أضيف قائلاً إني غدوت مثله في بعض الأحيان. ولكن، مع ذلك، لم أشعر يوماً، وأنا على قرب ماما، بالحاجة إلى أن أبتعد عنها كيما أزداد حبّاً لها، فكنتُ إذا خلوتُ معها، استرحتُ كأنما أنا وحدي، وهذا ما لم أشعر به في القرب من أيّ إنسان آخر كان، رجلاً أم امرأة، بالغاً ما بلغ تعلّقي به. إلا أن ماما كثيراً ما حفّ بها الناس ممن لم ترُقني عشرتهم، فنفاني إلى ملجأي الغيظ والضجر، فامتلكتُها ثمة على حسب ما قد شئتها لم أخشَ أن يتبعنا المزعجون.

فتقلبتُ، بين العمل والتلذّذ والتعلّم، وأنا في أنعم راحة، أما

(2) يريد المؤلّف أن هذا البيت لم يوضع فيه من أثاث إلا الضروريَّ الذي لا يسوّغ حجزَه القانون - المترجم.

twitter @baghdad_library

أوروبا فلم تكن عهدئذٍ على ما كنتُ فيه من سلام. وذلك أن الحرب كانت قد نشبتْ بين فرنسا والأمبراطور، فدخل ملك سردينيا في النزاع، فخفَّ الجيش الفرنسي إلى بيامونت لكي يدخل بلاد ميلانيه. فمرت كتيبة منه بشامبيري، وبينها فرقةُ شامبانية وكان يقودها الدوق دولاتريموي، فعُرّفت اليه، فأجزل عليّ الوعود، ولكن لا ريب أنه لم يذكرني مرة ثانية قط. وكان بستاننا الصغير يقع على مرتفع الضاحية التي دخل منها الجنود، فتمتعتُ بأن رأيتُهم يمرّون من هناك، وشُغفتُ بانتصارهم في تلك الحرب كأن أمرها قد عناني كثيراً. وكنتُ، إلى ذلك اليوم، لم يخطر لي أن أفكر في الشؤون العامة، فأَقبلتُ، أول مرة، على قراءة الجرائد وقد انحزتُ إلى فرنسا أي انحياز حتى إن قلبي كان يخفق فرحاً إذا أقبلتْ عليها الأحوال، وينقبض ألماً إذا أدبرت عنها وكأنها قد أدبرت عني. ولو كان هذا الجنون إلى حين، لما استحقّ الذكر، لكنه قد رسخ في قلبي، فلما قمت بعدئذٍ، وأنا في باريس، أناهض حُكمَ الاستبداد وأعلنُ أنني جمهوري أبيّ كريم، شعرتُ، على الرغم مني، بميل خفيٍّ إلى تلك الأمة التي وجدتُها مستعبَدة، وإلى حكومتها التي تظاهرتُ بأني أنتقدها وأتحداها. والمضحك في ذلك هو أنني، اذ استحييتُ من ميلي هذا الذي يخالف أقوالي، لم أجرؤ على أن أبوح به إلى أحد، فسخرتُ من الفرنسيين لأنهم هزموا، على حين كنتُ أكثر تألماً منهم وأوفى حزناً عليهم. ولا ريب أني الإنسان الأوحد الذي أقام في أمة قد أحسنتْ معاملته فأحبَّها حتى العبادة، لكنه تظاهر بالازدراء لها. ولقد كان ميلي هذا على أقصى التجرد والقوة والثبات، فلم أتمكن منه ولا تمكنتُ أن أشفى من ذلك الجنون حتى منذ برحتُ المملكة الفرنسية وانقضّت عليّ حكومتها وقضاتها ومؤلّفوها ما استطاعوا، ولا حتى منذ أصبح الانهيال عليّ بالظلم والتحقير مَجلبةً للحظوة والمراعاة، فأنَا أحبُّ الفرنسيين بالرغم مني أياً كانت معاملتهم إياي،

حتى إذا وجدتُ إنجلترا قد ابتدأتْ في الانحطاط الذي تنبأتُ به وهي في أوج انتصاراتها، انقدتُ للأمل الأحمق الخلّاب الذي أراني أن الأمة الفرنسية، يوم تنتصر، قد تُقبل عليّ تخلّصني من كآبة الأَسر الذي أتقلب فيه[3]

ولقد بقيتُ ردحاً من الزمن أبحث عن سبب انحيازي إلى الفرنسيين، فلم أجده إلا في المناسبة التي نشأ عنها. وتلك أني قد ازددتُ ميلاً إلى الأدب وأُولعتُ بالكتب الفرنسية وبمؤلّفي تلك الكتب وبموطن أولئك المؤلّفين. فيومَ اجتاز من أمامي الجيش الفرنسي، كنتُ أقرأ كتاب برانتوم[4] في القادة الكبار. فامتلأ ذهني بأخبار كليسّون وبايار ولوتريك وكولينيي ومونمورنسي ولاتريموي، فأحببتُ سلالتهم وورثةَ جدارتهم وشجاعتهم. وكنتُ كلما مرّت أمامي كتيبة، خيّل إليّ أني أبصر، مرة أخرى، تلك الأفواج السود الشهيرة التي طالما استبسلتْ في بيامونت. فطبّقتُ، على ما أبصرتُه، الخواطرَ والصورَ التي قبستُها عن الكتب. وكانت مطالعاتي المطرّدة، التي لم يفتأ موضوعها يدور على الأمة نفسها، قد دكّت حبّي لتلك الأمة، فهمتُ بها هياماً أعمى لم يقوَ عليه شيء. ثم أتيحَ لي من بعد، خلال أسفاري أن أتبين أن هذا الشعور ليس مخصوصاً عليّ وأنه، في جميع البلدان، يؤثّر إن كثيراً أو قليلاً في فئة من الأمة هي

(3) هذه الفقرة كتبها روسو عام 1766 وقد خيل إليه ان أعداءه استدرجوه إلى إنجلترا لكي يبقوه فيها أسيراً ـ المترجم.

(4) برانتوم (1540-1614) كاتب فرنسي مؤلّف كتاب **مشاهير الرجال وكبار القادة الفرنسيين** ـ المترجم.

[تعليق المراجع ع. لبيب]: Pierre de Bourdeille, dit Brantôme, abbé de Brantôme, Vie des hommes illustres et grands capitaines français [oeuvre posthume], *Oeuvres complètes*, Leyde, 1666.

twitter @baghdad_library

الفئة التي تهوى المطالعة وتتعاطى الأدب، فإذا به بمثابة العديل للكراهية التي يوحي بها تكَبّرُ الفرنسيين. ثم إن النساء في مختلف البلدان تغريهن الروايات أكثر مما يغريهن الرجال؛ وروائع الأعمال الدرامية عند الفرنسيين تميل بالشبان إلى المسارح. وشهرة مسرح باريس تجتذب إليه جماهير الأجانب الذين يعودون منه معجبين. كما أن رفعة أدبهم قد أخضعتْ له كل ذوق رفيع. أما في هذه الحرب المشؤومة التي انكفأوا منها منذ وقت قريب، فإنني رأيت مؤلّفيهم وفلاسفتهم قد حملوا مجد فرنسا بعدما هوى مشعله من أيدي المحاربين.

وإذاً فلقد كنتُ فرنسيّاً ملتهب الغيرة، وهذا ما جعلني كثير الاستخبار. فكنتُ أمضي وجمهور السذّج أنتظر في ساحة المدينة أن يصل البريد وأنا أَعظم غباوةً من حمار الحكايةْ[5]، إذ همّني أن أعلم أيّ سيد سأتشرف بأن أحمل بردعته، فقد زعم الزاعمون، يؤمئذٍ، أننا سنُلحَق بفرنسا وأن بلاد سافوى ستستبدَل بها بلادُ ميلانيه مقايضةً. ولكن لا بد من القول إنه قد حُقَّ لي أن أخشى بعض الخشية، فلو هُزم الحلفاء في هذه الحرب، لعرّض مرتّب ماما لخطر جسيم. بيد أني قد عظمتْ ثقتي بأصدقائي الخيرين الكرام، وهي، برغم دهشة السيد دوبرويل، ثقة في موضوعها، والفضل في ذلك مردّه إلى ملك سردينيا الذي لم يخطر ببالي آنئذٍ.

وبينا كان في إيطاليا تحاربٌ واقتتال، كانت فرنسا تتردد فيها الأغاني والأناشيد، وأوبرات رامو قد ابتدأتْ تدوّي في الناس وتنهض من شأن مؤلّفاته النظرية التي أدّى غموضها إلى أن تنحصر في تناول قليل من الناس. فاتفق أني سمعتُ من يتكلّم على مبحث

(5) حكاية لافونتين - المترجم.

رامو في **تآلف الأصوات**(6) فما زلت أسعى حتى حصلتُ على هذا الكتاب. واتفق أيضاً أن اصابني مرضٌ التهابيّ شديد، إلا أنه قصير الأجل، أما نقاهتي، فقد امتدّت شهراً تاماً لم أبرح فيه البيت. فأَقبلتُ، في أثناء ذلك، على كتاب رامو التهمه التهاماً، لكنه كان من الإسهاب والحشو واضطراب التنسيق على ما أدركتُ معه أنه لا بد لي من برهة طويلة حتى أدرسه وأتدبره. فتوقفتُ عنه وملتُ إلى الموسيقى أستعيض بها عن المطالعة. فغدتْ أناشيد برنييه، وقد كنت أتدّرب عليها، لا تغيب عن خاطري. فاستظهرتُ منها أربع أناشيد، أو خمساً، وبينها أنشودة «**الحب الراقد**»(7) وهي التي لم أقع على أثر لها مذ ذلك العهد والتي ما أفتأ أذكر معظمها، كذلك حفظتُ أنشودة «**الحبّ قد لسعته نحلة**»(8) وهي أنشودة لكليرامبو في غاية الروعة وقد تعلمتُها في تلك الأيام على التقريب.

ثم وصل من بلاد فال دوست عازف بالأرغن شاب يدعى الأب باليه، فكأنه قد أتى يزيد مني عليّ، وهو موسيقي بارع وإنسان طيّب كريم يجيد مصاحبة العزف بالكلافسان أيّ إجادة. فتعارفنا فبتنا لا نتفارق. وكان هو تلميذ راهب ايطالي عازف بالأرغن كبير. فأخذ يكلّمني في طرائق معلمه. فقابلتُها بطرائق رامو، فحشوتُ ذهني بأشياء المصاحبة الموسيقية والمؤالفة والإيقاع، حتى وجب أن أدرّب سمعي على ذلك كله، فاقترحتُ على ماما أن نحيي حفلة موسيقية صغيرة، مرة في الشهر واحدة، فوافقتْ. فشُغلتُ بتلك الحفلة نهار ليل ما يثنيني عنها ثان. والواقع أن قد كان بها ما يشغّلني فأجمع الألحان والعازفين وآلات الموسيقى وأوزع الأدوار، .إلخ. وكانت

(6) عنوان هذا المبحث *Traité de l'harmonie* ـ المترجم.

(7) الحب الراقد *Les amours dormants* ـ المترجم.

(8) «الحب قد لسعته نحلة» (*L'amour piqué par une abeille*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ماما تغنّي في الحفلة، وكان الأب كاتون، وقد تقدّم لي ذكره وسأذكره، يغنّي هو أيضاً، وكان أحد معلّمي الرقص، ويدعى روش، هو وابنه يعزفان بالكمان، وكانافاس، موسيقيّ بيامونتيّ موظف بالمساحة، يعزف بالفيلونسيل، والأب باليه يصاحب على الكلافسان، وكان لي شرف قيادة الجوقة، وما أنسى قضيب الحطّاب[9] فتصوّرْ جمال ذلك أجمع! ولم يجر الأمر على مثل ما جرى عليه عند السيد دوتريتورانس، وإن قاربه أو كاد يقاربه.

فأخذت زمرة مدام دو فارانس التي كانت، حسب قولهم، حديثة الاهتداء [إلى المذهب الكاثوليكي] والتي كانت ترتزق من حسنة الملك، تتهامس في شأن هذه الحفلات. إلا أن عدة رجال شرفاء [نزهاء] استحبّوا تلك الحفلات، ولن يخمن القارئ مَن أذكر في طليعة هؤلاء المستحبّين: هو راهب، لكنه راهب ذو جدارة، بل هو، إلى ذاك، إنسان وادع لطيف قد ساءني ما نزل به من محن، فما تني ذكراه عزيزة إليّ إذ اقترنتْ بأيامي الطيّبة السعيدة. وأعني به الأب كاتون، من الآباء الكبوشيين، وهو الذي كان قد شارك الكونت دورتان في حجز ألحان **«الهر الصغير»**، وذلك في مدينة ليون. وليست هذه المشاركة أفضل مأثرةٍ له. وكان من خريجي السوربون، وقد أقام في باريس وقتاً طويلاً وعاشر أرفع الطبقات. وكان وثيق الصلة بالمركيز دانتريمون سفير سردينيا يومئذٍ، وكان الأب كاتون عالي القمة، حَسن الهيئة، ممتلئ الوجه، ذا عينين قد لاصقتا حاجبيه، وشعرٍ فاحم قد انسدل على جبهته بغير تكلف، وكان أصيل المنظر، على انفتاح واتضاع، جميل الشكل على رفعة،

---

(9) قيل إن هذه الفكاهة مأخوذة عن جريم. انظر الفصل السابع من هذا الكتاب ـ المترجم.

ليس عنده رياء الكهنة ولا وقاحاتهم، وليس به زهوُ أهل الدنيا مع أنه منهم؛ بل كان، خُلقاً ومعرفة، على ثقة الرجل الشريف قد أَكرم نفسه بنفسه، فلم يستح أن يتردى برداء الكهنوت، بل شعر أنه قد حلّ بمحلّه إذ عاشر رجالاً أشرافاً. ولئن لم يؤتَ من أسباب العلم قدْرَ ما يكفي العالم الأستاذ، لقد أوتي منها فوق ما يحتاج إليه رجل الدنيا، ثم لم يستعجل نفسه يوماً ليُظهر ما اكتسب من علم، بل عرف كيف يؤدي علمه، ومتى يؤديه، وأين يؤديه، حتى بدا أوفى معرفة مما هو عليه. ولقد طالما غشي المجتمعات، فمال إلى المواهب اللطيفة المستحبّة أكثر مما تعلّق بالعلم الراسخ المتين. وكان ذكياً، يتعاطى النظم، جيد الحديث، إلى غناء أجود منه، جميل الصوت، يعزف بالأرغن والكلافسان، فلم يكن من حاجة إلى ذلك كله حتى يُقبل الناسُ عليه ويرغبوا فيه، والحقّ لقد كانوا يطلبونه ويريدونه، إلا أن ذلك كله لم يحمله على أن يهمل مقتضيات شأنه، فتوصَّل إلى أن يُنتخَب معاوناً للرئيس الإقليمي العام، فأصبح ركناً من أركان الرهبنة، وذلك برغم الحُسّد المنافسين.

فتعرّف الأب كاتون بماما في بيت المركيز دانتريمون وسمع بأخبار حفلاتنا الموسيقية، فابتغى أن يشارك فيها، ففعل، فخلع عليها رونقاً وجمالاً. ولم نلبث أن جمعَنا الميلُ إلى الموسيقى، وهو، عند أحدنا وعند الآخر، ميلٌ هائم مشغوف، مع الفارق أن الأب كاتون موسيقي حقّ وأني لستُ إلا مصوّتاً مضحكاً. فكنا نذهب وكانافاس والأب باليه نعزف وننشد في حجرة الأب كاتون، وربما عزفنا بأرغنه في بعض أيام الأعياد. وكثيراً ما تغدينا على مائدته المتواضعة، والغريب فيه كاهناً، فضلاً عما تقدَّم، هو أنه سخيّ، كريم، شهوان بغير تبذل، أما في أيام حفلاتنا الموسيقية، فكان يتعشى عند ماما، وكانت أوقات العشاء في غاية المرح والبهجة، اذ

twitter @baghdad_library

نسمّي الأشياء بأسمائها ونغنّي بعض الثنائيات، فكنتُ في راحة على مُلَحٍ مني وخفة روح، وكان الأب كاتون لطيفاً، وكانت ماما رائعة، أما الأب باليه، فلقد كان هدف سهامنا لصوته الذي يشبه الخوار. فيا أيتها الأيام الحلوة الطيّبة، أيام الشباب الطرب اللّعاب، كم مرّ على انقضائك من سنين!

وإذ إني لن أذكر الأب كاتون هذا المسكين مرة أخرى، فلذاك أُوجزُ ههنا تتمة قصته الأليمة. فإن الكهنة الآخرين قد حسدوه على مزاياه، بل غاظتهم منه جدارة هي رشاقةُ طباع ليس بها شيء من خبث الأديرة، فحقدوا عليه لأنه كان دونهم إثارةً للحقد. فتحالف عليه الرؤساء، وأثاروا عليه صغار الكهنة الذين حسدوه على منصبه، وكانوا من قبْل لا يجرؤون أن يتطلعوا إليه. فما انفكوا يهينونه ويطعنون فيه حتى عزلوه عن منصبه، واستولوا على حجرته التي أثثها بحُسن ذوق وبساطة، ولم أدر إلى أين أبعدوه، وما برح أولئك الأشرار يحقّرونه ويذلّونه حتى إن نفسه الأبية النزيهة قد عجزتْ أن تحتمل ذلك، فبلغ منه الحزن، فمات على فراش حقير، في غرفة مطْبقة، في بعض المحابس، بعدما كان فاكهة أرقى الجمعيات وأَلطفها. فأسف عليه وبكى جميع النزهاء ممن عاشروه ووجدوا أن لا عيب فيه سوى أنه راهب.

فكنتُ، وأنا في يُسر هذه العيشة، قد أحسنتُ عملي الموسيقيّ أيَّ إحسان ونهضتُ به في وقت قليل، فاستأثرتْ بي الموسيقى، فأعياني التفكير في ما سواها. فأصبحتُ لا أذهب إلى مكتبي إلا على كره مني، وباتت مواظبتي على شغل المكتب وانحصاري فيه عذاباً لي لا يطاق، فانتهى بي الأمر إلى أني أردتُ أن أترك شغلي لكي أتفرغ للموسيقى تفرغاً شاملاً. وما أخال هذه الحماقة قد مرّت فلم يعارضها أحد. فأن أترك وظيفة ملائمة ذات دخل ثابت وأَجري أبغي

تلاميذ غير ثابتين ذلك اختيار هو أشدُّ حماقةً من أن ترضى عنه ماما. بل لو قدَّرت أن تقدّمي سيكون على المستوى الذي تمثلُته فيه، لاقتصر شأني على أن أبقى موسيقياً طول العمر. أما ماما التي لم تتمثل إلا المشروعات العظيمة، فلم تنظر إليّ كما نظر إليّ السيد دوبون[10]، وشقَّ عليها أن تراني جد معنّي بفن قد وجدتُه لا طائل تحته، وكثيراً ما ردَّدتْ لي أَحسن الرقص والغناء، زوالَ صناعة زهيدة العطاء». وكانت ماما، في نحو آخر، ترى إلي قد انقدتُ لميل لا يُغلب هواه، فبلغ ولعي بالموسيقى حد التأجج، فخيف منه على شغلي في المساحة أن أُصرَف عنه. فكان خيراً لي أن أنصرف بنفسي. فأَبديتُ لماما، فضلاً عما تقدَّم، أن هذه الوظيفة لن تستمر إلى وقت بعيد وأنني سأُضطر إلى عمل أرتزق به، وأنه في الأضمن أن أكمل ممارستي العمل الذي يحدوني عليه ميلي والذي كانت هي قد اختارته لي بدل أن أبيت تحت رحمة الشفاعة والحماية، أو بدل أن أقوم بمحاولات جديدة قد تكون ضئيلة التوفيق، وبدل أن أُترك بلا مورد ارتزاق وقد جاوزتُ سن التعلّم. والتمستُ موافقة ماما، فتوسلتُ إليها بالإلحاح والملاطفة فوق ما توسلتُ بالدواعي الموجبة التي اكتفت هي بها. وما هو إلا أن طرتُ إلى السيد كوسيلّي، مدير المساحة العام، فشكرتُه بزهو وافتخار كأني أتيتُ أعظم الأعمال بطولة، ثم تخليتُ عن وظيفتي تخليَ اختيار من غير داعٍ ولا سبب ولا عذر وأنا على مثل ما كنتُ عليه منها يوم دخلتُ المَساحة منذ أقل من سنتين.

ثم إن خطوتي هذه، مع حمقها، قد جَعلَتْ لي في البلد حظوة

(10) يذكر القارئ أن السيد دوبون قد أبدى رأيه في روسو فقال إنه لا يصلح إلا لأن يكون كاهن قرية، على ما ورد في الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

انتفعتُ بها، فظن بعض الناس أن عندي موارد لم أملك منها شيئاً، في الواقع، وظن بعضهم، إذ رأوني قد وقفت نفسي على الموسيقى، أن موهبتي فيها على قدْر تضحيتي من أجلها وأنني أوتيتُ فنّها فأَحكمتُه فعلوتُ فيه إذ أُولعتُ بها جدّا. والواقع أن العُور ملوك في مملكة العميان، فقد اعتُبرتُ أستاذاً ماهراً لأنه لم يكن ثمة إلا معلّمون غير أكفاء. فما عتّمتُ أن ورد عليّ من التلميذات دخلٌ يزيد على ما احتجتُ اليه عوضَ مرتبي كاتباً في المساحة، وذلك لأني كنتُ ميّالاً إلى الغناء ولأن سنّي وهيئتي كانتا عوناً لي من هذا القبيل.

ولا شك أنه لم يكن في الإمكان أن أنتقل، في العمل، من النقيض إلى النقيض انتقالاً هو أسرع مما فعلت ولا أيسر منه. وكنتُ أمضي بالمساحة ثماني ساعات من كل يوم في أكره الأعمال وقد حُصرتُ في مكتب مظلم كئيب قد فاحت منه أنفاس أولئك القرويين الغلاظ وانتشرتْ في أرجائه نتانةُ عرَقهم، ومعظمُهم على قذارة وجه ولباس، حتى ربما أخذ بي التعب والدوار لفرط التوتر وخبث الروائح والضجر والضيق. فهآءنذا قد صرتُ، بغته، وسط البيئة الراقية بدل أن ابقى حيث كنتُ، فأُشرعتْ في وجهي الأبواب، وابتُغيتُ في خير البيوتات، وحيث ذهبتُ أُحسنُ استقبالي وأُحطتُ بالملاطفة والمغازلة كأنما أنا في عيد، تنتظرني فتيات مزيّنات ملاح مرحّبات بي محتفيات، لستُ اقع إلا على ما يبهج، ولا أشم إلا عطر الورد والبرتقال، والناس من حولي في لهوٍ وضحكٍ وغناء، فما أخرج من عند بعض منهم حتى أدخل إلى عند غيرهم ألقى هنا ما قد لقيتُ هناك. ولا مرية أنه لم يكن من مجال للتردد في ما بين المساحة والموسيقى ما دام دخلي من هذه يساوي دخلي من تلك. فناسبني ما اخترته فلم أندم عليه قط، ولستُ بنادم عليه حتى في هذه

الساعة وقد غدوتُ أزن أعمال سيرتي بميزان العقل بعد ما تحررتُ من حمق الدواعي التي حدثني على ذلك الأعمال.

وتكاد هذه تكون المرة الوحيدة التي لم يخبْ فيها انتظاري مع أني لم أسلك إلا على حسب هواي. وكان من رحابة أهل البلد وكرمهم ولطفهم ودماثتهم ما حبَّب إليّ معاشرة الناس، فبرهن لي ميلهم نحوي على أني لم أستطيب العيش بين البشر، فإنما الذنب ذنبهم أكثر مما هو ذنبي.

ومن الخسران أن أهل سافوي ليسوا أغنياء، أو لعله في الخسران لو كانوا أغنياء، لأنهم، بما هم عليه، خيرُ شعب عرفتُه وأوفاه ألفة اجتماعية. فإن يكن في الدنيا مدينة صغيرة يتمتع فيها المرءيطيب العيش، على حُسن تعامل لا شك فيه، فإنما هي شامبيري. وليس لأشراف الأقاليم، وهم الذين تجمَّعوا في هذه المدينة، إلا الكفاف. وليس عندهم من الرزق ما يحملهم على أن يتوخوا النعمة المحدَثة وأن يحتالوا من أجل الوصول، ولا في مكنتهم أن ينقادوا للطموح، بل هم قد اضطروا إلى أن يأخذوا بنصحية سينياس[11] ثم غنهم يقفون زمن الشباب على الخدمة في الجيش، ثم يرجعون إلى بلدهم يطوون فيه أيام الشيخوخة بسلام. أما تقسيمهم المعيشةَ على هذا النحو من الخدمة والراحة، فمرده إلى ما هم عليه من الشرف والحكمة. وأما نساؤهم، فمليحات، وإن كن في غنّى عن الملاحة اذ ملكن قيَمها وما يعيض منها. ولقد أتاح لي عملي في الموسيقى أن ألقى كثرة فتيات، ولكن الغريب أني لا اذكر أن قد لقيتُ في شامبيري فتاة واحدة إلا كانت لطيفة مستحبّة. وقد يقال إني تهيأتُ لأن أجدهن هكذا، ولعله قولٌ صواب، غير أني لم

(11) سينياس (+277 ق. م.) وزير بيروس الملك، حذّر مليكه من الطموح ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أُضطر يوماً إلى أن أجدّ في هذا السبيل. فما ذكرتُ تلميذاتي الشابات إلا ابتهجتُ. فيا ليتني، وأنا أذكر أَحبَّهن إليَّ، أعود بهن وبنفسي إلى العهد السعيد الذي أمضيتُه معهن والذي فيه كنا على براءة نفس وعذوبة شعور! أما أولى تلك الفتيات، فهي مدوموازيل دويملاريد، جارتي وشقيقة تلميذ السيد جايم، فتاة سمراء، حيوية الحركة، جمة النشاط، على مغازلة ودلال من غير خفّة، إلى بعض النحول كمعظم الفتيات اللائي في سنها. وليس لعينيها المتقدتين وقامتها الدقيقة وهيئتها الفاتنة حاجة إلى اكتناز اللحم لكي تثير الاعجاب. ولقد كنتُ آتيها في الصباح وهي، على الأغلب، ما تزال في بعض مَفاضلها وما على رأسها من زينة إلا شعرها قد سوّته بلا اعتناء وزينتْه بزهرات كانت تضعهن عليه حين أصل وتطرحهن عنه حين أذهب ثم تصفّفه. ولستُ أخشى في الدنيا شيئاً كما أخشى المرأة قد تَفضلتْ، فإذا تزيَّنتْ، قلَّت خشيتي إياها أضعافاً. وأما مدوموازيل دومانتون، وكنتُ آتيها بعد الظهر، فهي أبداً في زينة، فأحسستُ إزاءها بما لا يقل عما سلف رقةً وعذوبة، إلا أنه مغاير له في كل حال. ولهذه الفتاة شعر أشقر في بعض لون الرماد، وهي على منتهى اللطف والحياء، ناصعة البشرة إلى بياض، ذات صوت جليّ، صحيح، عذب كصوت الناي، بيد أنه غير ذي جرأة على الانطلاق والاسترسال. ويبدو على صدرها، من أثر الماء الغالي، حرقٌ لم يستره منديلها الحرير ستراً تاماً، فكان ذاك مما لفت عيني إلى صدرها في بعض الأحيان فلم يلبث نظري أن تعدى موضع الحرق. وأما مدوموازيل دوشال، وهي جارة لي أخرى، ففتاةٌ بالغٌ، عالية القمة، بعيدةٌ ما بين المنكبين، سمينة، كانت في أمسها مليحة، ففقدتْ ملاحتها واحتفظتْ برشاقةٍ وطيبةٍ ويسر طباع. وأما شقيقتها مدام دو شارلي، وهي من أجمل نساء شامبيري فلم تبقَ تتعلّم الموسيقى، لكن ابنتها أخذتْ تتعلّم هذا الفن وهي لا تزال على طراوة السن، ولولا أنها صهباء في بعض

الشيء، لكان حُسنها الطالع يبشّر أن سيعادل ملاحة أمها. ثم كان لي، في دير سيدة الزيارة، فتاة فرنسية نسيتُ اسمها، بيد أنها تستحقُ أن أذكرها بين من آثرتُ. وكانت قد أخذتْ عن الراهبات صوتهن الراتب البطيء. فجعلتْ تتكلّم كلاماً يؤثر في القلب أيّ تأثير، لكنه لا ينسجم هو وصوتها وهيئتها. وكانت، إلى ما ذكرتُ، تلميذة كسلى لا تجتهد في أن تبدي ذكاءها، فهو منّة لا تُنعم بها على الجميع. فلم تفطن لهذه الحيلة إلا بعد شهر واحد أو بعد شهرين من الدرس والإهمال، فعمدتْ إليها لكي تزيدني مواظبةً وجداً. ولقد كنتُ إذا درَّستُ سُررتُ، ولكن أَبيتُ أَن أكره على التدريس، وان تُفرض عليّ ساعة معيّنة للقيام به. فالضيق والقسر هما، عندي، أمر لا يطاق في أيّ حالة كانت حتى إنه يكرّه إليّ اللذة عينها. ولقد قيل إن المسلمين يقوم فيهم، عند شقّ الصبح، رجل يمرّ بالطرق يأمر الأزواج أن يؤدّوا ما عليهم لنسائهم. فلو كنت تركياً، لم أحسن، في تلك الساعة، أن أقوم بما عليّ من هذا القبيل.

ثم كان لي بعض التلميذات من طبقة الميسورين، وفيهن تلميذة تسببتْ بتبدل علاقة لي تسبباً غير مباشر، وسأذكر ذلك لأن عليّ أن أقول كل شيء. كانت هذه التلميذة بنت أحد البقّالين، واسمها الآنسة لار، وهي حقًّا صورة للتمثال الاغريقي، ولو أن في الدنيا جمالاً لا حياة به ولا روح، لكانت هي أجمل فتاة رأيتها على الدهر. ثم إنها من الاسترخاء والجفاء وفقر الإحساس على ما لا يسعك أن تتصوّره في أي حال. وإنك ليتعذّر عليك أن تعجبها، ويتعذّر عليك أن تغضبها، فلو فعلتَ بها أمراً ما، لانفعلتْ، لا ميلاً منها ولكن عن غباوة، فكانت أمها لا تفارقها لحظةً خوفاً عليها. واستحضرتْ لها معلّماً للغناء شاباً لكي تفتحها على دواعي المرح والأنس، بيد أنها لم تُوفّق. فبينما المعلّم قد هاج البنتَ، إذا الأم قد هاجت المعلّم،

twitter @baghdad_library

فما كان ذلك أحسن توفيقاً. فأضافت السيدة لار إلى خفّتها الطبيعية ما قد أَعوز ابنتها من أسباب الخفّة. وكانت الأم ذات وجه فطنٍ، جعدٍ، عليه آثار من بثور الجدري، وذات عينين متوقدتين، على احمرار، قد آلمتاها أكثرَ الأحايين، فكنتُ إذا وصلتُ صباحَ كل يوم، وجدتُ فنجان القهوة والحليب في انتظاري، وما فات الأم قط أن تتلقاني بقبلة على ثغري وددتُ لو طبعت مثلها على ثغر البنت لكي أرى، عن فضول مني، ما الذي تفعل آنئذٍ. ولقد كان ذلك كله يجري في منتهى البساطة فلم ينجم عنه شيء، حتى إن التقبيل والمغازلة قد جريا بحضور السيد لار، هو نفسه، على نحو ما جريا في غيابه، فهو آدميّ طيّب الفطرة، وهو حقًّا أبو كريمته، فما خانته زوجته، إذ لم يكن بها من احتياج إلى أن تخونه.

انقدتُ لتلك المغازلات كلها بما عُهد فيّ من بلاهة، فنظرتُ إليها على أنها من آيات الصداقة الخالصة. لكنها أزعجتني في أحيان، لأن السيدة لار المتأججة لم تفتأ تبتغيني، فلو مررتُ أمام الحانوت فلم أعرّج عليها، لنادتني وصوّتتْ، فكنتُ إذا ألفيتُني متعجلاً، عمدتُ إلى بعض المنعطفات فسلكتُ طريقاً آخر يقيناً مني أن الخروج من عندها لا يتسهّل بقدر ما يتسهل الدخول عليها.

وكانت السيدة لار أشدّ اهتماماً بي من أن لا أهتم بها. وبلغتْ مني عنايتها، فأخبرتُ ماما على أن الأمر لا سرّ فيه، ولو كان في الأمر سرّ ما، لأخبرتُها به في كل حال، إذ لم يسعني أن أكتمها شيئاً، فلقد انفتح قلبي بين يديها وكأنني أمام الله. إلا أن ماما لم تتلقَّ ذلك الخبر بمثْل ما تلقيتُه به من السذاجة، بل رأت فيه مقدّمات وتمهيداً لغايات، على حين لم أرَ فيه إلا آيات صداقة، ووجدتْ ماما أن السيدة لار، وقد حرصتْ على أن تصيّرني أقلّ غباوةً مما كنتُ عليه قبْل أن تلقاني، ستتوصل إلى أن تؤثّر فيّ بطريقة ما، كما أنها

وجدتْ أنْ ليس من الإنصاف أن تعنى امرأة غيرها هي بتنشئة مريدها. وكان عند ماما، إلى ذلك، من الأسباب ما هو أجدر بها فتقيني من الأشراك التي يعرّضني لها سنّي وتعليمي الموسيقى. ولقد نُصب لي، في أثناء ذلك، شركٌ أدهى خطراً، فأفلتُّ منه، لكنه أَشعرَ ماما بأن الأخطار، التي لم تفتأ تهدّدني قد اقتضت ما أمكنها هي أن تحيطني به من ضروب الوقاية.

أما الكونتسة دومانتون، أُمّ إحدى تلميذاتي، فهي على سوية في وفرة الذكاء والخبث. وقيل إنها تسببتْ بعدة خصومات من بينها خصومة نشأ عنها، في أُسرة دانتريمون، عواقبُ وخيمة. وكانت ماما على اتصال بهذه السيدة، فابتلت طباعها، ولقد مال يوماً أحد الرجال إلى ماما، على براءة منها وخلوص نية، وهو ممن تتطلعتْ إليهم الكونتسة دومانتون. فهبّت تتهم ماما بهذه الجريمة التي لم تسعَ ماما إليها ولا ارتضتها، ومنذئذٍ حاولت السيدة دومانتون، عدة مرات، أن تمكر بمنافستها فلم تنجح مرة واحدة قط، وإني مورد ههنا، من محاولات مَكرها، مثالاً هو الأكثر إضحاكاً. وذلك أنهما كانتا معاً بالريف، بعض الأيام، يرافقهما عدة رجال من علية القوم ممن يقيمون بالجوار، وبينهم الرجل الذي تقدّم ذكره. فقالت السيدة دومانتون لأحد هؤلاء الرجال إن السيدة دو فارانس إن هي إلا امرأة متصنعة لا حُسن ذوق عندها، وإنها سيئة الملبس تستر عنقها بمنديل وكأنها بعض نسوة الضواحي. فقال لها الرجل، وكان فكها: «أما ستُر عنقها بمنديل، فله سبب، إذ اكتشفت أن على صدرها صورةَ جرذ تبدو طبيعية جداً حتى لَتُوهم أنه يجري ثمة». ولا يخفى أن الكراهية والحبّ يحملان الإنسان على سرعة التصديق. فصممت السيدة دومانتون على أن تستغلّ هذا الاكتشاف، فبينا ماما في اللعب مع سيد له حظوة عند السيدة ناكرة الجميل، مرّت هذه على مهل من

twitter @baghdad_library

خلف منافستها فأمالت الكرسي من تحتها وكشفت المنديل عن صدرها في رشاقة. فلم يبصر الرجل جرذاً، بل وقعتْ عينه، في ما لا يشبه الجرذَ أبداً، على شيء ليس نسيانك له بأهون عليك من أن تراه. فلم يكن ذلك ليرضي السيدة دومانتون ولا ليوافقها.

وما كنتُ ممن تهتم بهم السيدة دومانتون، وهي التي لم تبتغ من حولها إلا ذوي الألمعية والفتون. على أنها التفتتْ إليّ بعض الالتفات، لا ميلاً منها إلى هيئتي التي لم تعنها قط، ولكن لما قدَّرتْ فيّ من ذكاء لعلّ به ما يلبي ميولها، إذ كانت تحبّ الهجو. فأرادت أن تؤلّف بعض الأغاني وأن تنظم أبياتاً في من لا يروقها من الناس. فلو رأت فيّ من الموهبة ما يساعدها على صناعة أبياتها، ولو وجدتْني على استعداد لأن أكتب لها تلك الأبيات، لم نلبث طويلاً حتى أقمنا شامبيري وأقعدناها، فانطلق الناس يتحرّون عن مصدر تلك الأهجيات، ولتخّلصت السيدة دومانتون فضحّت بي، ولربما سُجنتُ حتى آخر العمر فلقّنتُ درساً في كيف ينبغي أن اقوم، حيال سيدات شامبيري، بدور فيبوس(12)

ولكن في حُسن الحظ أن لم يحدث شيء من ذلك. فاستبقتْني السيدة دومانتون على الغداء مرتين، أو ثلاث مرات، وقد أرادت أن تمتحن سلوكي وحديثي، فرأت أني لا أتعدى حدود البلاهة. وأحسستُ، أنا نفسي، أني أبله، فتحسرتُ وغبطتُ صديقي فانتور بما هو عليه من مواهب، على حين وجب أن أشكر لغباوتي أنها أنقذتْني من أخطار المواهب. فبقيتُ في نظر السيدة دومانتون معلّم الغناء لابنتها لا أكثر، بيد أني عشتُ في شامبيري عيشة وادعة

(12) فيبوس، أي أبولون، هو، في الميثولوجية، إله الشعر والموسيقى والتكهن والضياء وغيرها - المترجم.

والناسُ على دوام رغبة في صحبتي. وهذا أفضل من أن أكون ذكياً في نظر السيدة دومانتون، وأكون، في نظر سائر أهل البلد، كالحية الرقطاء.

ومهما يكن من شأن، فقد وجدتْ ماما أن الوقت قد حان لكي تعاملني على أني رجل فتنقذني من مخاطر الشباب، وهذا ما عملتْه، لكنها عمدتْ إليه على نحو لم تعمد إليه، في مثل هذه الحال، أي امرأة أخرى كانت، فألفيتُها أرصن هيئةً وحديثاً مما كنتُ قد ألفتُها عليه. فحلّت محلَّ مرحها المداعب، الذي كان يداخل ما تُصدر إليّ من تعليمات، لهجةٌ مطرّدة لا هي أليفة ولا جافة بدا لي أن وراءها ما يفسرها. فبحثتُ في نفسي عن سبب هذا التغير، ولكن بلا طائل، فسألتُها عن السبب، فكان ذاك ما قد انتظرتْه حقّاً فاقترحتْ عليّ أن نذهب، غدَ يومنا، في نزهة إلى البستان، فذهبنا منذ الصباح. وكانت قد احتاطت لكي نظل وحدنا طول النهار، فأمضته تُعدّني لما تريد بي من خير ومعروف، تتوسل إليّ بالحيلة والدلال، لا كما يتوسل غيرها من النساء، بل في كلام كله شعور وعقل إذ قصدتْ إرشادي لا إغوائي، فاتجهتْ إلى القلب مني أكثر مما اتجهتْ إلى الحواس. ولكن، مع ما كان عليه كلامها من الجودة وجزالة النفع، ومع ما اتسم به من الكآبة والجفاء، لم أعره كل ما قد استحقَّ من انتباه ولا تَبّتهُ في ذهني كما كنتُ فعلتُ في أيّ وقت آخر كان. وذلك أن أوائل كلامها ومقدّماته قد أقلقتْني، كانت هي تكلّمني واهتمامي بقولها هو دون اهتمامي بقصدها، وقد شردتُ ساهياً على الرغم مني. فما أدركتُ قصدها، الذي لم يسهل عليّ إدراكه، حتى لم تتح لي الفكرةُ الجديدة، التي سمعتُ منها، مجالاً للتأمل في ما قالت، ولم تكن هذه الفكرة قد خطرتْ لي يوماً مذ عايشت ماما. فأصبحتُ لا أفكر إلا فيها، ولكن لم أصغ إلى ما كانت تقول.

twitter @baghdad_library

فإذا ابتغيتَ أن تنبّه الشبان على ما تقول لهم فدلهم في نهاية قولك إلى موضوع ما يعنيهم كثيراً، فقد فعلت شيئاً هو عكس المطلوب وهو شائع بين المعلّمين، وذاك ما لم أجتنبه أنا نفسي في كتاب «**إميل**». أما الشباب الذي يؤثّر فيه ما تقول له، فإنه يعنى به دون سائر أقوالك، فيتخطى مقدّماتها يريد أن يصل رأساً إلى الغاية التي قد تمهلتَ جداً في أن توصله اليها. فإذا شئتَ أن تستأثر باهتمامه، فقد حقَّ عليك ألا تقنع بقولك قبل أن تؤديه اليه، وذاك ما لم تكن ماما بارعة فيه، فإنها، لغرابة في طبعها المنهجي، قد حرصتْ أن تفرض عليّ شروطها حرصاً لا طائل تحته، فما أن تبيَّنتْ لي الكلفة التي كانت تقتضيني هذه الشروطُ حتى لم أصغ اليها، بل أسرعتُ أوافق على كل شيء. فهل في الدنيا كلها رجل واحد أُوتي من المصارَحة والشجاعة ما اجترأ معه على أن يساوم؟ وهل في الدنيا كلها امرأة واحدة عفّت عمّن هو يساوم؟ ثم إن ماما، للغرابة عينها، قد ضمّنتْ هذا الاتفاق أقسى الشروط، وأمهلتْني ثمانية أيام لكي أتدبر هذه الشروط، فأكدتُ لماما أني لستُ في حاجة إلى هذه المهلة تأكيداً كاذباً، ومما زاد في الغرابة هو أنني وجدتُ، في ثمانية الأيام، متسع راحة لي لفرط ما قد بلغتْ مني جدّةُ هذه الأفكار ولفرط ما قد شعرتُ بأن أفكاري هي على تقلب يستدعي بعض الوقت فأنسقها!

ولعلك تظن أن ثمانية الأيام هذه بدت لي وكأنها ثمانية قرون، لكن العكس هو الصحيح، فلقد وددتُ لو دامت مديداً. وما أدري كيف أصف حالتي أيامئذٍ وقد تملّكني بعض القلق وعيل صبري، فراعني ما أنا صائر اليه، حتى ربما مضيتُ جادّاً في ذهني أبحَث عن وسيلة نزيهة مستقيمة تجنّبني السعادة. فتصوّرْ طبيعتي وقد تأججتْ فشبقتُ، ودمي وقد حمي فتلهب، وقلبي وقد انتشى من حبّ

وهيام، وتصوّرْني، في شهوتي للنساء، لم أجامع امرأة واحدة بعد، وتصوّرْ ألوان التخيّل وإلحاح الحاجة والغرور والفضول وقد تحالفتْ عليّ برمّتها فالتهمتْني شهوةُ أن أكون رجلاً وأن أبدو رجلاً، أضف ما لا ينبغي أن نذهل عنه، وهو أنّ تعلّقي بماما الشديد لم تفتر حدةُ حنانه قط بل ازدادت يوماً فيوماً، وإني لم يطب مقامي إلا وأنا بالقرب منها هي، وإني ما ابتعدتُ عنها إلا فكرت فيها، وإن قلبي لم تملأه طيبتها ودماثتها فحسب، ولكن، إلى ذلك، سرَتْ فيه أشياءُ جنسها ووجهها وشخصها، فحلّت هي نفسها في قلبي لما قد وصلني بها فحبَّبها إليّ، ولا تتصوّرْ أنها اكتهلتْ، أو لاحت لي وقد اكتهلتْ لأني أصغرها بعشر سنوات أو باثنتي عشرة سنة. فمذ شعرتُ بحبّ عذب لها، يوم لقيتُها أول مرة لخمس سنوات أو ست مضت، لم تكد هي تتغير إلا قليلاً ولم يظهر عليها قط شيء من هذا التغير. ولقد تولتني بلطفها، وما تزال تحيط به جميع الناس. إلا أن قامتها، دون سائر هيئتها، قد تبدّل شكلُها تبدلاً يسيراً، إذ ازدادت سمناً. وما خلا ذلك، فالعين هي هي، والبشرة هي هي، والصدر هو هو، والقسمات هن هن، والشعر الأشقر هو هو، والمرح هو هو، بل كل شيء هو هو، حتى صوتها ما يبرح هو إياه - صوتها الفضّي الصافي، صوت عهد الشباب، صوتها الذي طالما بلغ مني حتى إني، إلى اليوم، لم أسمع مرة صوت فتاة إلا تأثرتُ عن جديد.

أما ما تخوّفتُ، وأنا أنتظر أن أظفر بالمرأة التي كلفتُ بها أيّ كلف، فهو أن أكون أسبقَ من صبوتي إليها فلا أقوى أن أسيطر على أهوائي وأخيلتي سيطرة كافية ولا أبقى مالكاً نفسي. وسترى أني لما علتْ بي السن، كان دمي لا ينفك يضطرم اضطراماً لحظةَ أتصوّر ما ينتظرني من حظوة عند المرأة التي أُحبُّ، حتى إنني، مع قرب المكان الذي يفصلني عنها، لم أفض إليها مرة إلا نجم عن ذاك ما

twitter @baghdad_library

آذاني، فكيف فترت همتي أمام المتعة الأولى من عهد الشباب، ولأيّ سبب عجيب فترتْ همتي عهدئذٍ؟ وكيف أمكنني أن أرى ساعة المتعة تدنو وأنا إلى التعذيب أقرَب مني إلى التلذذ؟ وكيف تقززتْ نفسي حينئذٍ وفزعتْ بدل أن أنتشي من متعة وفتون؟ ولو استطعتُ أن أفرّ من تلك السعادة فراراً يليق بي لفعلتُ عن طيبة ولا ريب. ثم إني وعدتُ القارئ بأن أُطلعه على بعض الغرائب من قصة تعلّقي بماما، فإليه إحدى هذه الغرائب، وهي مما لم يتوقّعه في أغلب الظن.

إن القارئ، وهو المستاء من قبل، يقدّر أن رجلاً سواي قد امتلك ماما وأنها سقطتْ من عيني بعد ما أن قسّمت نفسها بيني وبين هذا الرجل، وأن احتقاري لها يعدّل مما كانت قد أوحت إليّ سابقا من مشاعر: لكن القارئ هو المخطىء. فلئن آلمني هذا التقسيم أيّ إيلام لما فُطرتْ هي عليه من رهافة حسّ ولما تبيّن لي أن سلوكها لا يليق ولا يليق بي، فإن موقفها لم يبدل مشاعر حبي إياها، وأُقسمُ أن حبيّ إياها لم يكن مرة أشدّ منه يومَ فترتْ رغبتي في أن أمتلكها. وكنتُ بطهارة قلبها وببرودة طبيعتها أَعلمَ من أن أصدّق أن لذة الحواس لها تأثير في سلوكها، فلمستُ اهتمامها بأن تجنبني أخطاراً كاد لا يكون لي مفر منها وبأن تجنّبني كل ما يشغلني عن نفسي وعمّا عليّ من واجبات، وأيقنتُ أن اهتمامها هذا قد حملها على أن تهمل أمراً حَقّ عليها ألا تهمله فنظرتْ إليه كما لم ينظر إليه سائر النساء، على ما أُوردُه في بعض ما يلي. فرثيتُ لها ورثيتُ لنفسي. ولقد وددتُ لو قلت لها: «لا يا ماما، فما ذلك بالأمر اللازم، وأنا كفيل لك بنفسي من دونه». ولكن لم أتجاسر لأن ذلك ليس مما يجوز قوله، ولأنني شعرتُ، في أعماق الوجدان، بأن هذا القول غير صادق وبأنْ ليس في الدنيا إلا امرأة واحدة تستطيع أن تجنّبني سائر النساء وأن تقيني من تجربة الغواية. ولئن لم أشته أن أمتلك

ماما، لقد ارتحتُ إلى أنها رغّبتْني عن امتلاكي سواها، وذلك لفرط ما قد نظرتُ إلى كل ما يذهلني عنها وكأنما هو ضرب من البلوى.

ثم إن تعوّدي أن نتعايش في براءة لم يُخمد مشاعرَ حبّي لها، بل ذكّى مشاعري واتجه بها اتجاهاً جديداً زادني تعلّقاً بماما، وربما زادني لها وفاءً، إلا أنه خفَّف من اشتهائي اياها فتعودتُ أن اراني ابناً لها لفرط ما قد دعوتُها ماما ولفرط ما قد سلكتُ إزاءها سلوك البنوة الحميم. ولذلك أحسبني قد فترتْ رغبتي في أن أمتلكها، مع أني قد أحببتُها حبّاً كثيراً. وأذكر أن مشاعري الأُول كانت أذكى شهوةً، وإن لم تكن أقلّ اضطراباً. ففي أنّوسي كنتُ على نشوة، أما بشامبيري، فقد صحوتُ. ولقد كلفتُ بماما ما استطعتُ، إلا أن كلفي لم يبقَ من أجلي بقدْر ما أصبحَ من أجلها، أو أنا، على الأصح، قد غدوتُ أطلب بالقرب منها سعادتي أكثر مما أبتغي لذتي، فإن ماما هي، عندي، فوق الشقيقة، فوق الأم، فوق الصديقة، فوق المعشوقة، ولقد كان حبّي لها أوفى من أن أطمع فيها: ذلك هو أحلى ما بروعي في شأنها.

مرّت الأيام الثمانية، فأقبل اليوم الذي خفتُه أكثر مما انتظرتُه. فوعدتُها بكل شيء فلم أكذب. فأيّد قلبي ما تعهدتُ به لها لم أبتغ أجراً ولا ثمناً. إلا أني قد أصبتُ الأجر والثمن، إذ ألفيتُني أول مرة بين ذراعي امرأة هي المرأة التي أحببتُها حب عبادة. فهل سعدتُ؟ لا لم أسعد، بل تلذذتُ. ولستُ أدري أيّ كآبة قاهرة نغّصت لذتي، فكنتُ كأني قد زنيتُ أنا وأمي، أو شقيقة لي، أو بعض ذوات القربى. فطوقتُها آنئذٍ بذراعيّ، وضممتُها إليّ في هياج، وغمرتُ صدرها بالدموع مرتين، أو ثلاث مرات. أما هي، فما اكتأبتْ ولا اهتاجتْ، بل غازلتْ في هدوء فلقد كانت يسيرة التشهي، ما ابتغت الملذة، ولا ذاقت طيّباتها، ولا ندمتْ على فواتها قط.

twitter @baghdad_library

ههنا أعيدُ القول إن جميع ذنوبها قد نشأتْ عن أخطائها، ولم تنشأ عن أهوائها على الإطلاق. كانت هي كريمة المولد، طاهرة الفؤاد، مؤثرة للطف والأدب، فاضلة الميول، مستقيمة، رقيقة الذوق، حسنة الالتفات، قد خُلقتْ لرفعة الشيم اللائي لم تفتأ تحبّهن، وإن لم تسرْ عليهن يوماً، وذلك بأنها أصغت إلى عقلها فلم يحسن إرشادها، بدل أن تصغي إلى قلبها فيحسن الإرشاد. وكلما أضلّتها مبادئ خاطئة كانت مشاعرُها الحقيقية تكذب دائماً تلك المبادئ: وإنما المؤسف أنها ادعت الفلسفة، فاتخذتْ لها أخلاقاً أفسدتْ ما أَلهمها إياه قلبها.

ثم إن السيد دوتافيل، عشيقها الأول، كان أستاذها للفلسفة، فعلّمها من المبادئ والآراء ما قد احتاج هو إليه لكي يغويها، فلما وجدها متعلّقة بزوجها وبما عليها من الواجبات، فاترةً، عاقلةً، لا سبيل إلى إثارتها بالحواس، عمد إليها بالسفسطات، فأراها أنّ تمسكها بما عليها من الواجبات إن هو إلا ثرثرةُ تعليم مسيحيّ قُصد به إلهاء الأطفال، وأراها أن تجامع الجنسين هو أقل الأشياء التي يُكترثُ لها، ثم أراها أن الإخلاص الزوجي إنما هو ظاهرة لا يعنى بوجهها الأخلاقي إلا الرأي العام، وأن المرأة لا ينبغي لها أن توفر لزوجها إلا الراحة، فإنْ هي خانته على غير علم منه، لم تؤَثّر فيه خيانتها قط ولا أثّرتْ في ضميرها هي، ثم أقنعها أن ذلك الفعل نفسه إنما هو لا شيء، وإن لا وجود له ما لم يفتضَح، وأن المرأة لا تلوح عليها آيات الحكمة إلا بذلك الفعل. فكان أن هذا المعلّم التعس قد أصاب بغيته فأفسد عقل تلميذته الشابة بعد ما أعياه أن يفسد قلبها. فعوقب على فعله أقصى عقوبة إذ أيقن أن تلميذته كانت تعامله كما علّمها أن تعامل زوجها. ولستُ أدري هل أخطأ في ما أيقن بوريه الوزير قد خلفه عندها، لكني أعلم أن ما منع المرأة

الشابة أن تكفّ عن ذلك الفعل إنما هو مزاج لها بارد كان خليقاً بأن يجنّبها ما قد فعلتْ. فلم يمكنها أن تتصوّر كيف يهتم الناس كل الاهتمام بفعل ليس له من قبلها هي أي قيمة، ولا وجدتْ في عفتها التي لم تقتضها جهداً بالغاً، ما يستحق أن يقال له فضيلة.

ثم إنها كادت لا تغلو في ذلك الفعل من أجلها هي، بل غلتْ فيه من أجل غيرها وقد أَخذتْ بسفسطة أخرى تكاد تساوي ما سبقها من سفسطات خطأً وتضليلاً، وإن تكن أَوفر منهن موافقةً لطيبة قلبها. فلقد أيقنتْ ماما أن لا شيء يُحكم شدَّ الرجل إلى المرأة إلا الامتلاك، ولئن لم تحبّ أصدقاءها غير حب صداقة، فلقد بلغتْ في مصادقتها لهم أوفى الحنان، حتى لم تدعَ شيئاً إلا عمدتْ له كي تشدّهم إليها وكي يتعلّقوا بها إلى أبعد حدود التعلّق. والغريب أنها وُفّقتْ معظمَ الأحايين. فلقد كانت تحبّ حبّاً فائقاً، وكانت كلما أضحت المعايشةُ لها حميمة، ازدادت مؤثّرات ذلك الحبّ. وكانت ماما على شيء آخر خليق بالملاحظة، أعني أنها، بعد زلّتها البكر، لم تُحظ إلا من هم في المنكودين، أما من ابتغوها من ذوي المكانة والألمعية، فإنهم جميعاً ارتدوا وقد خابوا. فإن ابتغاها رجل منكود فرثت له ولكن لم تطق أن تحبه، فما ذاك إلا لأنه ليس لها إلى حبّه من سبيل، وكانت إذا اختارت مَن لا يليق بها كثيراً، فما سبب اختيارها إياه ميل فيها خسيس، إذ قلبها النبيل لا عهد له بمثْل هذا الميل، وإنما هي قد اختارته عن فرط كرم منها وفرط إنسانية فرط شفقة و فرط إحساس، وذلك طبعٌ لم يتهيأ لماما أن تسيطر عليه في كل حال سيطرةً بعيدة التبصر.

فإن تكن بعض المبادئ المخطئة قد أضلّتها، فكم لها من نظرات رائعات لم تتخلّ عنهن قط! وكم لها من فضائل بهن كفّرتْ عن ساعات الضعف، ذلك إن جاز أن يطلَق اسمُ الضعف على

twitter @baghdad_library

أخطاء لم يكن فيها للحواس إلا أيسر نصيب! ثم إن هذا الرجل نفسه، الذي خدعها في ناحية، قد نفعها في ألف ناحية، إذ أتاح لها اعتدالُ أهوائها أن تستنير بآراء معلّمها، ذلك حين لم تضلّها سفسطاته. فكان ما بها من البواعث والأسباب أهلاً للثناء ولو أخطأتْ، ولربما أساءت إذ غلت في هذا الذي فعلتْ، ولكن لم يسعها أن تبغي فعلاً منكراً. فأَبغضت الكذب والرياء، وعدلتْ فأنصفتْ، وسما شعورها فتنزهتْ، ووفيتْ بقولها وفاءها لأصدقائها، وعرفتْ ما عليها من واجبات فأدتها، ولكن لم تعرف الضغينة والانتقام، ولا تمثلتْ في العفو أدنى استحقاق، أما أقلّ ما تُعذَر عنه، فهو أنها لم تقدر مواهبها حقّ القدر، مع كونها لم تبتذل مواهبها ولا تاجرتْ بها، وإن لم تنفك تلجأ إلى وسائل مختلفة كيما ترتزق وأتجاسر على القول إنه إذا كان سقراط قد قدر أسبازية[13]، فلا مرية أنه كان احترم مدام دو فارانس.

ولسوف أُتَّهَم بأني أناقض نفسي بنفسي كما تعودتُ أن أفعل، وذلك لأني وصفتُ ماما بأنها ذات شعور حسّاس مع برودة مزاج. وهذا الاتهام حقٌّ. ولكن ربما كان الخطأ يقع، ههنا، على الطبيعة إذ فَطرتْ هذا الخُلق المركّب الذي ربما كان من الأفضل ألا يُفطَر على ما فُطر عليه. أما أنا، فكل ما أعلم هو أن ماما كانت على مثْل ما وصفتُها به. وجميع الذين عرفوها قد تبيَّن لهم أنها هكذا، وما يزال الكثر منهم في الأحياء، وأجرؤ على أن اضيف، إلى ما تقدَّم، أنها لم يكن عندها في الدنيا إلا لذة واحدة هي أن تُلذّذ مَن تحبّ، فمن أراد أن يجادلني في ذلك ويبرهن أن قولي غير صحيح، فليجادل

(13) أسبازية صاحبة حظوة لدى بريكلس، اشتهرت بالذكاء والجمال، عاشت في أثينا، في القرن الخامس قبل الميلاد، بين أهل الفن والفكر والفلسفة ورجالات السياسة - المترجم.

وليبرهن ما شاء أن يفعل. أما غرضي، فهو أن أقول فأَصْدق، وليس غرضي أن أحمل غيري على أن يصدّق ما أقول.

ولقد أطلعتُ، شيئاً فشيئاً، على كل ما أوردتُ إذ انتهى إليّ خلال المسارّات التي أعقبتْ تواثُقنا والتي لولاها لم يؤتَ هذا التواثق نصيباً من الإمتاع. ولقد حُق لماما أن ترى في حظوتي عندها ما ينفعني، فجنيتُ منه منافع جمّة. وكانت ماما، إلى ذلك اليوم، قد حدثتْني أنا عنّي أنا وحدي وكأنها عن طفل تتحدث. أما بعد ذلك، فقد ابتدأت تعاملني وكأني رجل، وأخذت تحدثني على نفسها، فاهتممتُ بما قالت لي أي اهتمام، وأثر فيّ قولها أيّ تأثير، فانطويتُ على قلبي أنتفع بمسارّاتها أكثر من انتفاعي بدروسها، فإنك إذا شعرتَ حق الشعور بأن قلب محدثك يتكلّم، انفتح قلبك على ما يُلقى إليه من حُبّ، وما كانت الأخلاق التي للمؤدّب بتمامها وكمالها لتعادل حديث الحب والحنان وقد استرسلت فيه امرأة رزينة أنت متعلّق بها.

وأما الحميمية التي في طيّها عايشتُ ماما فأتاحت لها أن تقدرني وقتئذ فوق ما قدرتْني في الأمس، فرأتْني، مع ما أنا عليه من هيئة خرقاء، جديراً بأن تُعدّني لمخالطة الناس، قادراً على أن أسلك طريقي إليهم إذا استطعتُ أن أستوي إلى شأني يوماً من الأيام. فحرصتْ لا على أن تنمي عقلي ومداركي فحسب، لكنها، إلى ذلك، حرصتْ على أن تنمي هيئتي الخارجية وأن تُمكّن أسباب سلوكي، وأن تجعلني ملاطفاً للناس، محترماً عندهم، فإن صحّ أن النجاح يقترن بالفضيلة، وهذا ما لا أعتقد، أيقنتُ أنه لا سبيل إلى النجاح غير السبيل الذي سلكت والذي ابتغتْ إرشادي إليه، وذلك أن السيدة دو فارانس كانت قد ابتلت البشر فعرفتْ أوفى المعرفة الفن الذي به تعاملهم بلا كذب ولا تهوّر، فلم تخدعهم ولا

twitter @baghdad_library

أغضبتْهم. لكنّ هذا الفن كان أكثره كامناً في سجاياها لا في دروسها، فأحسنتْ أن تمارسه ممارسة أكثر مما أحسنتْ أن تعلّمه تعليما. وكنتُ آخر الخَلق أهلاً لأن أتعلّمه. فخاب جُل سعيها في هذا الصدد، كما أن اعتناءها بأن تجعل لي معلّمي رقص ومبارزة بالسيوف قد ذهب في غير طائل. فلم يسعني أن أتعلم رقصة المونويه مع ما أنا عليه يومئذٍ من رشاقة قوام، وقد عودتْني الأُبنُ أن أعتمد على عقبي حين أمشي فعجز روش[14] أن يفقدني هذه العادة، حتى لم أقوَ يوماً على أن أقفز فوق حُفيرة، مع ما كنتُ فيه من خفّة بدن. أما في قاعة المبارزة، فقد كنتُ أسوأَ حالاً، إذ إنني، بعد ما تعلّمتُ المبارزة ثلاثة أشهر، لم أزل أحاول أن اقتحم الجدار وقد قصّرتُ عن الهجوم، فلم أكن قط ليّن المعصم ولا شديد الذراع فأمنع المعلّمَ أن يطير السيف من يدي متى شاء. ثم أضف أنني قد مقت هذه الرياضة ومقت المعلم الذي حاول تدريبي عليها. فلم أتصوّر قط أن في طاقة الإنسان أن يفتخر بالتفنن في قتل الإنسان مثل هذا الافتخار، ولقد توخى معلّمي أن يجعل نبوغه في متناولي، فلم يكلّمني إلا استعارةً يستمدّ بيانه من لغة الموسيقى مع كونه قد جهلها جهلاً. فوجد تواتُرَ ضربات السيف قد تجانسَ لفظاً هو وتواتر الألحان. فكان إذ ضربني بالسيف، قال لي لآخذ حذري من ضربه، وقديماً استُعملتْ لفظة الضرب في لغة المبارزة وفي بعض ألوان العزف، وكان المعلّم إذا أطار السيفَ من يدي، قال لي مازحاً: «هذا فن من فنون التوقف»[15] فما لقيتُ قط مَن هو أَثقل علماً وادعاءً من هذا الرجل ذي الريشة والدرع الجلد.

---

(14) روش معلم للرقص في شامبيري - المترجم.

(15) التوقف هو، هنا، ترجمة للفظة Pause التي تقع في الموسيقى والمسايفة على جناس واحد - المترجم.

فكنتُ قليل التقدّم في تلك التمرينات، فلم ألبث أن عفتُها، إلا أني كنتُ أكثر تقدّماً في فن أصعب منها، وهو أن اقنع بما قُسم لي فلا أرغب في ما يفوقه تألقاً وفي ما قد ابتدأتُ أدرك معه أنني لم أُخلق له. فلقد امتلكتْني الرغبة في أن أُسعد ماما، فطاب مقامي عندها، فكنتُ إذا اضطررتُ أن أبتعد عنها لكي أشخص إلى المدينة فأتعلّم الموسيقى، تملّكني الشعور بأن درس الموسيقى قد أخذ يزعجني ويضيّق عليّ.

ولستُ أدري هل شعر كلود أنيه بعلاقتنا الحميمة، ولكن أَميلُ إلى الظن أن علاقتنا لم تخفَ عليه. وكان أنيه شاباً متبصراً، بيد أنه كتوم. وكان إذا قال، لم ينقضْ ما يحول بفكره، وإن لم يفصح عنه في كل حال. فما أبدى لي قط من إشارة إلى أنه قد وقف على علاقتي بماما، غير أن سلوكه دلّني أنه قد وقف على هذه العلاقة، ولم يسلك هكذا عن دناءة نفس، بل سلك على هذا النحو لأنه أَخذ بما كانت سيدته ترى وتقول، فلم يسعه أن يعارض سيرها على حسب آرائها وأقوالها. وكان أنيه في مثل سنها، فنضجَ مع ذاك ورزنَ، حتى كاد ينظر إلينا كأننا طفلان قد استحقّا المسامحة، فنظر إليه كلانا على أنه رجل محترم كريم قد وجب أن نقدّره، ولم أقف على مبلغ تعلّقها به إلا بعد ما خانته. ولقد أدركتُ أنني كنتُ لا أفكر ولا أشعر ولا أتنفس إلا من خلالها هي، فأعربتْ لي عن مدى حبّها له كيما أُحبّها أنا إلى ذلك المدى. وكانت تعوّل على تقديرها إياه أكثر مما تعوّل على مصادقتها له، لأن التقدير هو الشعور الذي استطعتُ أن أشارك فيه على أوفى ما تكون المشاركة. ولطالما رقّقتْ من قلبي ومن قلبه، فحثتنا على أن نتباوس وعيناها تذرفان وهي تقول لنا إن كلينا لا غنى عنه لسعادتها في الحياة! فلا تَضحك النسوان في خبث إذا قرأن هذا، فالأمر لا إبهام فيه، وإنما هو عند

twitter @baghdad_library

ماما ضرورة عاطفية لما قد جُبلتْ هي عليه من طباع.

فنشأتْ بيننا، نحن الثلاثة، علاقة لا مثيل لها في الدنيا. فتشاركْنا في مختلف أسباب التمني والاهتمام والشعور، ولم يدخل في حلقتنا أحد غيرها، فبلغت منا عادةُ التعايش وحدنا، دون سوانا مبلغاً قصياً، حتى إذا غاب أحد منا عن الطعام، أو جاءنا في أثنائه شخص رابع، اختلّ أمرنا، ولئن كان كلانا، أنا وهو، على علاقة بها خاصة، فإن اجتماعنا نحن الثلاثة كان أَحبَّ الينا من أن يخلو معها أحد منا نحن الاثنين. ولقد حالت ثقتنا المتبادلة دون أن نتضايق، وحال فرطُ اشتغالنا على الدوام دون أن نتبرم، وكانت ماما، من مشروع إلى مشروع، في نشاط موصول لم يُتح لي ولا لأنيه وقتَ فراغ، وإلى ذلك، لقد كان عندنا كلينا، أنا وأنيه، ما يملأ يومنا. وفي رأيي أن التعطل ليس آفة المجتمع فحسب، لكنه إلى ذاك آفة الوحدة، ولا شيء أكثرُ تضييقاً للفكر ولا أكثر إتياناً بالتوافه والنمائم والأحاديث المكدّرة والمزعجات والأكاذيب من أن تنزوي أنت وغيرك في بعض الحجرات ولا شغل لكم إلا الثرثرة بدون انقطاع. أما إذا شُغل الجميع، فإنهم لا يتكلمون إلا أن يكون لديهم ما يقولون، وأما إذا تعطلوا فلا بد لهم من الاستمرار على التخاطب، وهذا أَتعبُ المزعجات وأفدحها خطراً. وإني أذهب إلى أبعد من ذلك، فأقول إنك إذا شئت أن تجعل حلقة الاجتماع مستحبة حقّاً لم ينبغ لكل من فيها أن يأتي عملاً ما فحسب، ولكن، إلى هذا، وجب عليه أن يأتي من العمل ما يثير بعض الانتباه. فإذا فتلت المرأة بعض الخيطان فكأنها لم تصنع شيئاً، لأن إلهاءها يقتضي من العناية قدْرَ ما يقتضيه إلهاء المرأة المكتوفة اليدين. أما حين تطرّز المرأة فشأنها غير ذلك، إذ لها في هذا الشغل ما يملأ فترات الصمت. لكن الذي يصدم ويضحك هو أن ترى عندئذٍ بضعة عشر غبيّاً من النحاف

الطوال قد قاموا فقعدوا، وذهبوا فعادوا، ينقلبون على أعقابهم، يبحثون في رماد المدفأة، يُجهدون خيالهم في سيل من الكلام لا ينقطع: فيا للشغلة الرائعة! ومهما يعمل هؤلاء الناس، يظلوا عيالاً على غيرهم وعلى أنفسهم. لكني، وأنا في موتييه، كنتُ أمضي إلى جاراتي أفتل بعض الحبال، ولو عدتُ إلى معاشرة الناس، لوضعتُ في جيبي كرة القَرن[16] فلعبتُ بها طول النهار لكي أعفي نفسي من الكلام حين لا يكون عندي ما أقول، ولو أن كل إنسان أتى مثل ما عملتُ، لأضحى الناس أقلّ خبثاً، ولأصبح تَعاملهم آمن جانباً، ولبات وهو أَحبّ إليّ في ما أخال. فإذا شاء الساخرون أن يضحكوا فليضحكوا، لكني أؤكّد أن عبرة لعبة القَرن هي العبرة الوحيدة التي تقع في تناول العصر الحاضر.

ثم لم يُتح لنا الناسُ من سبيل إلى أن نجتنب، نحن بأنفسنا، دواعي الملل، لأن المزعجين كان تأثيرهم أشدَّ إملالاً لنا من أن نتبرم اذ نحن وحدنا. فلم يَخفَّ ما قد تسببوا به في الأمس من نفاد صبري، لكن الفارق الوحيد هو أني غدوت أَقلّ اتساع وقت من أن أنقاد لنفاد الصبر. ولم تكن ماما الطيبة، المسكينة، قد فقدتْ ما سلف من ميلها إلى المشروعات وأشياء التخطيط والتنظيم، بل أمست على ضد ذلك، فكانت كلما ازدادت حاجاتها المنزلية إلحاحاً عليها، ازدادت هي انقياداً لأخيلتها كيما تلبي تلك الحاجات. وكانت كلما تضاءلتْ موارد يومها، ازدادت تطلعاً إلى موارد المستقبل، وكلما تقدمت بها السن، تضاعف عليها هذا الولع، وكلما فتر ميلها إلى ملذات الدنيا والشباب، مالت، بدل ذاك، إلى لذات الأسرار

(16) كرة القَرْن (Le Bilboquet) لعبةُ خشبٌ ذات كرة مثقوبة يصلها خيط بقضيبٍ أحدُ طرفيه حاد وطرفه الآخر أجوَف - المترجم.

twitter @baghdad_library

والمشاريع. فلم يفتأ في بيتها صانعو أدوية وعقاقير سحرية وغيرهم يلوّحون بالثروة، يوزعونها بالملايين، ثم ينتهي بهم الأمر أن يفتقروا إلى الفلس الواحد. فلم يبرحها أحد منهم صفر اليدين، ومما أثار استغرابي هو أنها استطاعت، إلى زمن طويل، أن تبذّر دراهمها تبذيراً فما استنفدت الدراهم ولا أعيت الدائنين.

أما المشروع الذي يشغلها يومئذ فوق ما شغلها سواه والذي لم يكن أكثر مشروعاتها بعداً عن الصواب، فهو أن تؤسّس في شامبيري حديقة مَلَكية للنبات يؤتى فيها بأستاذ يؤدى له مرتب، وأنت تدرك، من الآن، لمن عُينتْ هذه الوظيفة. وكان موقع شامبيري، وهي وسط جبال الألب، جد مناسب لعلم النبات. فما كان من ماما، وقد تعوّدتْ أن تهوّن مشروعاً بمشروع آخر، إلا أن أضافت إلى مشروع حديقة النبات مشروع مدرسة للصيدلة هو في الواقع جزيل النفع لبلد فقير كهذا البلد الذي كادت ممارسة الطب فيه تقتصر على الصيادلة وحدهم. فبدا لماما أن رجوع جروسّي، رأس الأطباء، إلى شامبيري بعد وفاة فكتور الملك، أيّد فكرتها في هذا الصدد، وربما كان رجوع جروسّي هو الذي أوحى إليها بهذه الفكرة. ومهما يكن من أمر، فإن ماما أخذتْ تتملّق جروسيّ، ولم يسهل تملّقه، فهو ألذع من عرفتُ على الدهر وأشدّهم فظاظة. وسيتبين ذلك في قصتين بل ثلاث أوردها في ما يلي مثَلاً.

كان يوماً يتشاور وبعض الأطباء وفيهم طبيب المريض موضوع التشاور، وقد جيء بهذا الطبيب من أنّوسي. ولم يكن قد أوتي بعد خبرةً بالطب فتجاسرَ ألا يوافق على رأي رأس الأطباء. فلم يجبه هذا إلا بأن سأله أن متى يرجع ومن أين يمرّ وأيّ عربة يركب. فأجابه عن أسئلته، ثم سأله في دوره هل من خدمة يستطيع أن يؤديها له. فقال جروسّي: «لا شيء، لا شيء، يمكنك أن تخدمني به سوى

أنني أريد، حين تمر، أن أُطلّ من بعض النوافذ لكي يسرّني أن أبصر حماراً على حصان». ثم كان جروسيّ بخيلاً قدْر ما كان غنيّاً وقاسياً. فابتغى أحدُ أصدقائه، ذات مرة، أن يقترض منه بعض المال، على أن يضمن له إيفاءه إياه. فقال جروسيّ وهو يصرف بأسنانه ويضغط ذراع صديقه: «يا صاحبي، لو هبط القديس بطرس من السماء ليقترض مني عشرة دنانير فقدّم إليّ الثالوث تأميناً عليها، لما أقرضتُه». ودعي جروسيّ يوماً إلى الغداء عند الكونت بيكون حاكم سافوي، وهو رجل تقيّ جداً، فوصل قبْل الوقت، وكان سعادة الحاكم يقضي سبحته مصلّياً، فاقترح عليه أن يصلي معه. فلما لم يدر بمَ يجيب، تصعّر تصعيرة بشعة وركع. فما إن تلا «السلام عليك يا مريم» تلاوتين حتى عاد لا يقوى على أن يظل راكعاً، فنهض بغتةً فتناول عصاه ومضى لم ينبس بحرف. فجرى الكونت بيكون في إثره يناديه يقول: «سيّد جروسيّ! سيد جروسيّ! إبقَ هنا، فعلى المشواةَ حجلٌ روميّ طيب». فالتفت وقال له: «سيدي الكونت، لو أعطيتَني مَلاكاً مشويّاً، ما بقيتُ». ذلك هو السيد جروسيّ رأسُ الأطباء، فأقنعته ماما بمشروعها وتمكنتْ من أن تروّضه. فتعوّد، مع وفرة شواغله، أن يكثر من التردد اليها، فصادقَ أنيه، وأَظهر اهتمامه بما هو عليه أنيه من معرفة، فتكلّم فيها وقدرها، وتكلف أن يعامله معاملة كريمة لم تُتوقَّع من ذلك الفظ، وقد ابتغى أن يمحو بها انطباعات الماضي. ولئن لم يبقَ أنيه، أيامئذٍ، على سوية الخدم، فلقد ظل في المعلوم أنه كان خادماً، حتى لا حاجة إلى ما هو دون الاقتداء برأس الأطباء ودون سلطته، لكي يراعى أنيه مراعاة لولا ذلك لم تَتح له. وكان كلود أنيه يرتدي ثوباً أسود ويتخذ وفرةً[17]

(17) الوفرة هي الشعر المستعار وقد سبق ذكرها - المترجم.

twitter @baghdad_library

جيدة التصفيف، وكان رصين الهيئة، أديباً، محتشماً، حكيم السلوك، متحفظاً، على سعة معرفة بالطب وعلم النبات، فكانت حظوته عند رئيس الكلّية تحدو على أمل قريب من المعقول، وهو أن يتولى أنيه وظيفة الأستاذ الملكي لحديقة علم النبات، هذا إن نُفّذ المشروع، والواقع أن جروسيّ قد استساغ مخطَّطات المشروع، فتبناها ولم يرتقب إلا أن يتيح السلمُ التفكيرَ في الموضوعات المجدية والتصرفَ في بعض المال الذي يجب من أجل القيام بها حتى يقترح هو المشروعَ على البلاط.

لكن هذا المشروع الذي ربما كان تنفيذه أفضى بي إلى علم النبات، وهو علم يلوح لي أني خُلقتُ له لكن هذا المشروع قد أخفق بسبب ضربة من الضربات غير المتوقَّعة التي تقْلب خير المشروعات تخطيطاً وتصميماً، فلقد كُتبَ عليّ أن أصبح بالتدريج مثَلاً لألوان البؤس الإنساني، كأن العناية الالهية، التي دعتني إلى البلايا الجسام، قد نحّت بيدها كل ما أمكنه أن يحول دون انتهائي إلى تلك البلايا. وكان أنيه قد تسلَّق مرتفعات بعض الجبال ليأتي بنبتة جنيبي[18]، وهي نبتة نادرة لا تنمو إلا في جبال الألب، وكان للسيد جروسيّ حاجة إليها، فجهد ذلك الشاب المسكين حقّ الجهد، فأصيب بذات الجنب، فلم تقدر تلك النبتة على أن تنقذه، مع أنها لعلاج ذات الجنب خاصة، على حسب ما قيل. فتوفي برغم حذق السيد جروسيّ، (ولا ريب أنه قد كان حاذقاً جداً)، وبرغم ما قد أحطناه به، أنا وسيدته، من منتهى العناية توفي بين أيدينا، في اليوم الخامس، بعد أوجع احتضار لم يوجّه إليه في أثنائه أحد سواي كلمات التشجيع وقد اندفعتُ أُجزلها عليه في حزن ومروءة، فلو كان

(18) جنيبي (Génipi) ـ المترجم.

هو في حال تُمكنه من أن يسمعني، لوجدَ في كلماتي بعض العزاء. ففقدتُ، هكذا، أوفى صديق أوتيتُه في حياتي كلها، إنساناً محترماً، عزيز المثيل، قد نشأ على الطبيعة فحلّت منه بمحل التربية التي تغذّي، في الاستعباد، فضائلَ الرجال العظام، إنساناً ربما كان لا يعوزه الا أن يُمَدّ في عمره وأن يتقلّب في المناصب حتى يبدي عظمته أمام الناس أجمعين.

وكلّمتُ به ماما في الغد، وأنا على أبلغ الحزن وأَصدقه، فبينما قد استرسلتُ في الكلام، اذ خطرتْ لي فكرة خسيسة لا تليق بي وهي أن أَرث بعض ثيابه العتيقة، ولا سيما ثوب أسود جميل كان قد راقني. فعرض لي ذلك الخاطر، فقلتُه، اذ لا فرق عندي، وأنا بالقرب من ماما، بين أن يخطر لي الأمر وأن أقوله. فما من شيء أَشعرها بالخسارة التي نزلتْ بها أكثر مما قد أَشعرها بها ذلك القول الدنيء المقيت، لأن التنزيه عن المصلحة وكرم النفس هما من المزايا التي زينت الراحل. فلم تجب المرأةُ المسكينة، بل أدارت وجهها فطفقتْ تبكي. فيا للدموع الغوالي! لقد سمعتُها، فانسكبتْ بأجمعها في قلبي، فغسّلتْ كل ما فيه حتى آخر آثار شعوري الدنيء الخالي من الشرف، ومنذئذٍ لم يَغشَ قلبي، يوماً، مثل ذاك الشعور.

ثم إن هذه الخسارة قد جلبتْ على ماما من الضرر قدْرَ ما جلبتْ عليها من الحزن. فمن ذلك الوقت لم تنفك أعمالها إلى انحدار، إذ كان أنيه فتًى مدققاً، حَسن التصرف، فصان النظام في بيت سيدته. وكانوا يخشون يقظته، فقلّ في أيامه التبذير. وكانت، هي نفسها، تخشى مراقبته لها فازدادت تمالكاً عن الإسراف. ولم يكفها أن يتعلّق هو بها، ولكن أرادت أن تحتفظ بتقديره إياها، فخافت لومة حقّ لها، إذ ربما كان يتجاسر أن يلومها في تبذيرها مالَ غيرها بقدْر ما تبذّر مالها. فقاسمتُه رأيه، لا بل أفصحتُ عن رأيي

twitter @baghdad_library

لها، بيد أني لم يكن لي عليها من السلطان ما قد كان لأنيه عليها منه، ولا أثّرتْ فيها أقوالي بقدْر ما أثّرتْ فيها أقوال أنيه. فلما غاب عنا، اضطررتُ إلى أن أحلّ محله ولم أكن جديراً بذلك ولا على ميل إليه، فلم أُحسن الاضطلاع به. فلقد كنتُ قليل الاعتناء، كثير الخجل، فتركتُ كل أمر يجري على حاله، وإن كنتُ قد أَتْبتُ الجميع فلم أستثن إلا نفسي. ففزتُ بالثقة عينها التي فاز بها أنيه، ولكن لم أفز بعديل سلطته. فرأيتُ الفوضى، فتحسرتُ وتشكيتُ، فلم يُصغَ إليّ، إذ إني كنت أصغر سناً وأشدّ نزقاً من أن يُحَقّ لي أن أتعقل، فكنتُ إذا أَردتُ أن أتدخل في ما يجري فراقبتُه، صفعتْني ماما على خدي تداعبني، تدعوني منتورها[19] الصغير، ثم حملتْني على أن أعود إلى الدور الذي يناسبني.

فهجس فيّ شعور بالضيقة التي سوف يوقعها فيها الإسراف حتماً، عاجلاً أو آجلاً، وبلغ مني هذا الشعور إذ أصبحتُ القيّم على بيتها وتبينتُ بنفسي تفاوت الـ «من» والـ «إلى» في ميزان الإنفاق والدخل. ومذ ذلك العهد، ملتُ إلى البخل وما أزال. فما أَسرفتُ نقودي إلا بعض الأوقات، ولكن إلى ذلك العهد، لم يكن قد أقلقني جداً قلَّتْ دراهمي أم كثرتْ. فابتدأتُ أنتبه لحالتي المالية وأعنى بها. فخسستُ وأنا على سمو قصد، فما توخيتُ، في الواقع، إلا أن أحتفظ لماما ببعض الموارد في الكارثة التي رأيتُ وقوعها قبْل أن تقع. ولقد تخوفتُ أن يحجز الدائنون عليها مرتبها، وأن يلغى هذا المرتب إلغاءً تاماً، وخيّل إليّ، لضيق نظري، أن مدَّخري اليسير سيسعفها جدّا، فاستترتُ منها لكي أحصّل بعض المال، أو على

(19) منتور هو، في الميثولوجية، صديق عوليس (Ulysse) ومؤدب تليماك (Télémaque) بن عوليس، وكانت الإلهة أثينا (Athéna) لما نصحت تليماك، قد كلمته بلسان منتور - المترجم.

الأخص، لكي أدخره، فما يليق أن تعلم أنني أملك مالاً وقد لجأتْ إلى مختلف الوسائل كي تحصل عليه. فذهبتُ أبتغي، هنا وهناك، مخابئ أدسّ فيها بعض الليرات الذهب، معتمداً أنني لن أبرح أزيد على هذا المبلغ إلى أن أضعه عند قدمي ماما. ولكن كنتُ خرقاً جداً في اختياري تلك المخابئ حتى إن ماما قد اكتشفْتها جميعاً فأخذتْ ما أَودعتْ هناك من ذهب وأودعت بدلاً منه مبلغ ذهبٍ من قطع أخرى تفوق مبلغي، وذلك لكي تُعلمني أنها قد اكتشفتْ مخابئي. فكنتُ أَمضي خجلاً أعيد إلى الصندوق المشترك كنزي المدَّخَر اليسير، فما فاتها قط أن تنفقه لتشتري لي ثياباً عتيقة أو بعض الأشياء كسيفٍ من فضة، أو ساعة، أو ما شابه.

فاقتنعتُ حقّاً أنني لن أوفَّق للتكديس وأنه لن يكون لها منه إلا مورد زهيد. ثم تبيَّن لي، في آخر الأمر، أنه لا سبيل إلى أن أواجه البلوى، التي كنتُ أتخوف وقوعها، إلا إذا أصبحتُ على ما يمكّنني من أن أتولى بنفسي القيام بمعاش ماما يومَ لا يبقى في وسعها القيام بمعاشي وقد أعوزها القوت. ولكن في سوء الحظ أنني وضعت مشروعاتي إلى جانب ميولاتي الذوقية، فأصررتُ أن أطلب هذا الحظ في الموسيقى طلباً أحمق. حتى إذا شعرتُ أن في ذهني أفكار تتردد وأغاني تولَد، حسبتُ أني ما أكاد أقدر على الانتفاع بها حتى أغدو رجلاً، أُورْفيوس الحديث الذي تجتذب ألحانُه كل ما في بلاد البيرو من فضة. أما ما كنتُ في صدده، وقتئذٍ، وقد ابتدأتُ أقرأ الألحان قراءة مقبولة، فهو أن أتعلم التأليف الموسيقي. لكن الصعوبة هي أن أجد من يعلّمنيه، إذ لم آمل أن أتعلّمه بنفسي وليس معي الا كتاب رامو، ولم يكن قد بقي في شامبيري أحد يعرف شيئاً من علم الإيقاع منذ برحها السيد لوميتر.

وهنا سترى، فضلاً عما سبق أن رأيتَ، إحدى المتناقضات

twitter @baghdad_library

التي امتلأتْ بها سيرة حياتي والتي طالما وجهتْني إلى ما يخالف غرضي، على حين قد حسبتُني متجهاً إليها رأساً، وكان فانتور كثيراً ما كلَّمني على الأب بلانشار معلّمه التأليفَ، رجل كفاية وبراعة، وهو يومئذٍ معلّم الموسيقى في كاتدرائية بوزانسون، فأصبحَ، يومَنا هذا، معلّم الموسيقى في كاتدرائية فرساي.

وبدا لي أن أذهب إلى بوزانسون آخذ عن الأب بلانشار، فوجدتُ الأمر جد معقول حتى لقد استطعتُ أن أُري ماما أنه هكذا. فما هي إلا أن قامت تهيّئ أمتعتي اليسيرة، فأسرفتْ إسرافها في سائر الأمور، ولقد تسببتُ، من ساعتي، بأن ماما أنفقتْ ثمانمائة فرنك، على حين أردتُ أن أتدارك إفلاسها وأعوّضها مما أدّى اليه تبذيرها، فتعجلتُ في خرابها لكي أنتشلها منه. ومهما حمق هذا السلوك، فلقد كنتُ فيه على أقصى التوهّم، وكانت، هي نفسها، على مثل توهمي، فأيقنتُ أنني قد أتيت ما ينفعها وأيقنتْ أنني قد أَتيتُ ما ينفعني.

وخلتُ فانتور ما يزال في أنّوسي فأسأله رسالة إلى الأب بلانشار. لكنه كان قد برح أنّوسي. فاكتفيتُ من أخباره بمؤلَّفة دينية من نوع الميس[20] كان قد خطّ ألحانها بيده وخلّفها لي. فشخصتُ إلى بوزانسون ومعي هذه التوصية، فمررتُ بجنيف فزرتُ أقربائي، ومررتُ بنيون فزرتُ أبي، فاستقبلني على حسب عادته وتولى أن يوصل إليّ صندوق أمتعتي التي كان مقدّراً ألا تصل إلا من بعدي، إذ ارتحلتُ راكباً. ثم بلغتُ بوزانسون. فأحسنَ الأب بلانشار استقبالي، وعرض عليّ خدماته. فما هممنا بالدروس حتى وردتْ

(20) الميس (Messe) أي مما يرتَّل في القُدّاس الصارخ - المترجم.

عليّ رسالة من أبي ينبئني فيها أن صندوق أمتعتي قد حُجز وصودر في روسّ[21]، مخفر فرنسا على حدود سويسرا. فهالني هذا النبأ، فلجأتُ إلى معارفي في بوزانسون أريدُ أن أقف على سبب المصادرة، ولقد كنتُ على يقين بأني لم أهرّب شيئاً قط، فلم أدر إلى ما استُند في مصادرة الأمتعة. ثم وقفتُ، آخر الأمر، على السبب، ويجب أن أذكره، فهو شأن غريب.

وذلك أني عرفتُ، في شامبيري، أمرأً من قدامى أهل مدينة ليون، طيّب القلب، يدعى السيد دوفيفييه، قد تقدَّم له أن عمل في مكتب مراقبة النقد الورق على عهد الوصاية، ثم تعطّل، فأتى يعمل في المساحة. وكان قد أقام بين المجتمعات الراقية وخُصَّ بمواهب وبعض المعرفة، إلى وداعة وتهذيب، وكان يَعلم الموسيقى، فعملنا معاً في المساحة في غرفة واحدة، وتصادقنا، على الأكثر، لأننا كنا في وسْط أولئك الموظفين الغلاظ. وكانت ترد عليه من باريس رسائل تنقل اليه تلك التوافهَ الطرائفَ السريعةَ الزوال، وهي التي تشيع ليس يُدرى لمَ شاعت، وتنقضي ليس يُدرى كيف انقضتْ، فلا يعود إلى التفكير فيها أحد بعد ما عزف الناس عن ذكرها. فأَتيتُ أحياناً بالسيد دوفيفييه ليتغدى عند ماما، فأعرب لي عن إعجابه بها، ولاطفني يحاول أن يحبّب إليّ لغوَ تلك التوافه التي طالما كرهتُها حتى لم يتفق لي قط، وأنا وحدي، أن قرأتُ منها شيئاً. فكنتُ لا أتناول تلك الوريقات الغثة إلا رغبة مني في أن أراعيه، فأضعها في جيبي ما أذكرها إلا لكي أستعملها في ما لا تصلح معه لحاجة أخرى. ولكن في سوء الحظ أن إحداها تُركتْ في ثوب لي جديد لم ألبسه إلا مرتين، أو ثلاث مرات، لكي لا أخالف أنظمة الحدود حين أسافر.

(21) اسم يطلق على بعض رجال الأمن وبعض المخافر هناك - المترجم.

twitter @baghdad_library

وكانت هذه الوريقة تقلّد مشهداً **يانسينياً**[22] جميلاً ورد في مسرحية «**ميتريدات**»[23]، من تأليف راسين، تقليداً ركيك الفحوى والإنشاء، وكنتُ قد قرأتُ منها دون عشرة أبيات، ثم وضعتُها في جيبي فنسيتُها فيه، فتسببتْ بمصادرة الأمتعة. وذلك أن موظفي الحدود حسبوا النص قد ورد من جنيف لكي يُطبع ويوزَّع في فرنسا، فوضعوا في رأس البيان، الذي تضمَّن محتويات الصندوق، محضر ضبط رائعاً حملوا فيه على أعداء الله والكنيسة حملة مسهبة واسترسلوا يثنون على سهرهم الورع الذي أحبط هذه الخطة الجهنمية. ولا شك أنهم قد شمّوا في قمصاني رائحة الهرطقة، لأنهم استندوا إلى تلك الوريقة الهائلة لكي يصادروا أمتعتي كلها، فلم أستطع يوماً أن أستعيد الأمتعة ولا أعلم شيئاً عما انتهت اليه. ولقد كان المزارعون الذين سئلوا عنها يستعلمون ويستفسرون ويطلبون شهادات وبيانات تهتُ في سردابها مراراً حتى اضطررتُ إلى أن أتخلى عن الأمر أجمع. وإني لندمان حقّاً على كوني لم أحتفظ بمحضر ضبط من مكتب روسّ، فلقد كان وثيقة جديرة بأن تُضَمّ إلى مجموعة الوثائق التي تُلحَق بهذه الاعترافات.

أرجعتْني هذه الخسارة إلى شامبيري فوراً، فلم أدرس على الأب بلانشار قط، فتدبرتُ شأني أجد النحس قد تبعني في كل ما أقوم به، فاعتزمتُ أن ألازم ماما دون سائر الخَلق، فيكون نصيبي كنصيبها لست أقلق في غير طائل حيال غد لا قبَل لي به أبداً. فاستقبلتْني وكأني قد أَتيت أَحمل الكنوز، وجعلتْ تزوّدني، تدريجاً، بدل ما فقدتُ من أمتعة، فلم يمض على وصولي وقت قريب حتى

---

(22) يانسيني ترجمة (Janséniste) ـ المترجم.

(23) ميتريدات (Mithridate) ـ المترجم.

نسينا خسارتي، وإن يكن أمرها، عندي وعندها باهظ الكلفة.

ولئن كانت هذه الخسارة قد فتّرتْ من مشروعاتي الموسيقية، لم أبرح أدرس في كتاب رامو، فاستطعتُ أن أفهمه بعد جهد جاهد، كما استطعتُ أن أقوم ببعض محاولات تاليف يسيرة شجّعني ما أصابت من نجاح. وكان الكونت دوبلجارد، وهو ابن المركيز دانتريمون، قد رجع من دريسد بعد وفاة أوجست الملك، وقد تقدّم له أن أقام في باريس ردحاً من الزمن، ثم هو قد أحبّ الموسيقى حبّاً جمّاً وشُغف بموسيقى رامو. وكان شقيقه الكونت دونانجي يعزف بالكمان، وكانت شقيقتهما الكونتسة دولاتور تجيد الغناء بعض الاجادة. فلذلك كله أقبل الناس في شامبيري على الموسيقى إقبالهم على زيّ جديد، فأقاموا حفلات موسيقية عامة رغبوا إليّ، بادئ بدء، في أن أتولى قيادتها، فما لبثوا أن اتضح لهم أنها فوق طاقتي، فعمدوا إلى سواي. وكنتُ لا أفتأ أقدم فيها بعض القطع التي ألفتُها، ومنها أنشودة أَعجبت الناس جداً. ولم تكن القطعة حسنة التأليف، لكنها مُلئتْ بأغانٍ جديدة وبتنميقات تتوخى لفت النظر لم يتوقعوا مثيلها عندي. فما تصوّروا أن بإمكاني، مع ضعف قراءاتي للألحان، أن أعمل بها شيئاً تقبله الأسماع، بل حسبوا أني حظيتُ بشرف عمل قد وضعه سواي. فأرادوا أن يكونوا على يقين من الأمر، فأتاني السيد دونانجي ومعه أنشودة من تأليف كليرامبو، فقال إنه غيّر لحنها رغبةً في أن يسهّل بعض أصوات التغنية بها، وإنه ينبغي أن يضاف إلى لحنها صوت من المقام المنخفض، لأن تغيير اللحن قد تعذّرت معه مصاحبةُ الصوت الذي استعمله كليربو. فقلت له إن ذلك عمل جسيم لا يتهيأ فوراً، فحسبني أحتجّ أبتغي مهرباً، فألح عليّ أن أضع، في الأقل، لحن إلقائية من المقام المنخفض. فأسأتُ وضع اللحن، دون ريب، لأنني لا استطيع أن أتقن أيّ عمل كان إلا وأنا

twitter @baghdad_library

في راحة وحرية. بيد أني صنعتُ اللحن بحسب أصول التأليف، على الأقل، وكان السيد دونانجي حاضراً فلم يشكّ في معرفتي مبادئ التاليف، ولا فقدتُ تلميذاتي، لكن همتي حيال الموسيقى فترتْ بعض الفتور، اذ رأيتُ الناس قد أقاموا حفلات موسيقى فاستغنوا عني.

وكان السلم قد أُعلن في ذلك العهد، على التقريب، والجيوش الفرنسية قد عادت تعبر الجبال على طريق عودتها. فزار ماما عدة ضباط من بينهم الكونت دولوتريك قائد كتيبة أورليان يومئذٍ، وقد أَصبح في ما بعد سفيراً بجنيف فمشيراً لفرنسا، فعرّفتْني ماما اليه. فظهر من كلامه أنه جدّ معنّي بي، فأجزل عليّ وعوداً لم يذكرها إلا في آخر سنة من عمره وأنا حينئذٍ ليس لي اليه حاجة. ومرّ بشامبيري، في ذلك الوقت نفسه، المركيز دوسينكتير الشاب الذي كان والده سفيراً بتورينو. فتغدى عند السيدة دومانتون، وكنتُ عندها على الغداء، فلما قمنا عن المائدة جرى الحديث على الموسيقى، فإذا هو قد عرف بها حقّ المعرفة. وكانت «**أوبرا يفتاح**»[24] لا تزال جديدة، فتكلَّم عليها، فجيء بها. فاقترح عليّ أن نؤدّي كلانا معاً هذه الأوبرا، فارتعدتُ، ثم فتح الكتابَ فوقع على هذه الفقرة الشهيرة التي وُضعتْ لكي تنشدها فرقتان:

«الأرض، والجحيم، والسماء نفسها،

بل الكائنات بأسرها ترتعد أمام الرب».

فقال لي: «كم مقطعاً تريد أن تؤدّي؟ أما أنا، فسأؤدي هذه المقاطع الستة»، ولم أكن قد ألفتُ بَعْدُ هذا النزق الفرنسي، فلم

(24) أوبرا يفتاح (*L'opéra de Jephté*) ـ المترجم.

أفهم كيف يستطيع الشخص الواحد أن يؤدّي، في وقتٍ معاً، ستة مقاطع ولا حتى مقطعين، وقد تقدّم لي أن أنشدتُ بعض المقاطع فارتبكتُ، والحقّ أنني لم أتشجم في تعاطيّ الموسيقى ما هو أشقّ من خفّة الانتقال من مقطع إلى مقطع وعيني على المقاطع كلها. وربما ظنني السيد دوسينكتير جاهلاً بالموسيقى لَمّا رأى من طريقة قيامي بتلك المهمة. وربما أراد أن يعلم هل كان ظنه في موضعه، فاقترح عليّ أن أرقّم نغمات أغنية قد رغب في أن يهديها إلى الآنسة دومانتون. فلم يسعني أن أرفض. فأَنشدَ الأغنية، فرقمتُها لم أضطره إلى أن يكررها كثيراً. ثم قرأها، فألفاها قد رُقمتْ رقماً هو، في الواقع، صحيح جداً، وكان قد لحظ اضطرابي فسرّه أن يشيد بموقفي مع أنه عملٌ بسيطٌ فلقد كنت أَعرف بالموسيقى حقّ المعرفة، فلم يعوزني إلا بديهة النظرة الأولى، فلم تتح لي في حال من الأحوال، وهي، في الموسيقى، لا تُكتسب إلا بطول مراس. ومهما يكن من شأن، فلقد أثّر فيّ لكريم عنايته بأن يمحو عن ذهني وعن أذهان الآخرين ما كان قد اعتراني من بعض الحياء. فلما لقيتُه بعد اثنتي عشرةَ سنة، أو خمس عشرة سنة، في عدة بيوتات من باريس، أُغريتُ مراراً أن أذكّره بقصتي التي حصلتْ لي معه، وأن أبيّن له أنني ما أزال أعيها، ولكن كان قد كُفّ بصرُه، فخشيتُ أن أجدد حسرته إن أنا ذكّرتُه بما مضى من حُسن نظره، فسكتُّ.

وها أنا أقارب اللحظة التي تشرع في ربط وجودي السابق بوجودي الحاضر. فعزّت عندي بعض صداقات الزمن الغابر وقد امتدّت إلى الساعة التي أنا فيها.وكثيراً ما جعلتني أتحسر على تلك العتمة السعيدة، أيام صدَقَ من ادّعوا أنهم أصدقائي وأنهم يحبونني في ذاتي أنا وبمقتضى ودّ خالص وليس لافتخارهم بأن لهم علائق برجل معروف، ولا لرغبة خفية في تحيّن مزيد فرص حتى يؤذوني.

twitter @baghdad_library

وإلى ذلك الوقت يرجع تعرفي بصديقي القديم جوفكور، الذي بقي صديقاً لي على الدهر برغم ما قد بُذل من جهد لمنعي إياه. بقي على الدهر! واأسفاه! فلقد فقدتُه منذ قليل. فلم يقطع عني مودته إلا وقد انقطعتْ عنه أسباب الحياة؛ ولا انقضت الصداقة التي كانت بيننا إلا وقد انقضت أيامه. كان السيد دوجوفكور من أَحبِّ البشر كافة، ما لقيتَه إلا أحببتَه، ولا عايشتَه إلا تعلّقتَ به أيّ تعلّق. فلم أرَ قط هيئةَ [إنسان] أكرم انفتاحاً وأوفى شهامةً وذكاءً ولا أدعى إلى الثقة والأمان. ومهما تتحفظ، لا يسعك إلا أن تؤالفه من أول نظرة وكأنْ قد عرفتَه منذ عشرين سنة؛ أما أنا، ولطالما شقّ علي أن أرتاح إلى الوجوه الجديدة، فلقد ارتحتُ اليه من لحظتي الأولى. وكانت هيئتُه ولهجته وحديثه تنسجم أيّ انسجام. وكان جليّ الصوت منخفضه، على نعومة به لاذعة وامتداد نفَس وحُسن جرس، حتى إن صوته يَشيع ملء السمع ويتردد في أعماق القلب. وليس كمثْله أحد مرحاً وادعاً مطرداً، ورشاقةً عفوية صادقة، ومواهب قد فُطر عليها فتعهّدَها بكثير من سلامة الذوق، أضف، إلى هذا كله، قلباً كريماً أفرط في حبّ الناس بعض الإفراط، وطبعاً مال بصاحبه إلى الخدمة والمعروف من غير دقة تمييز، فأَخلص لأصدقائه الخدمة، حتى لقد جعل من نفسه صديقاً لمن أمكنه أن يخدمهم، فعرف كيف يدبر شؤونه الخاصة، وهو يندفع في تدبير شؤون سواه، معرفة بارعة حقّا. وكان جوفكور ابن ساعاتيّ وضيع، وتقدَّم له هو نفسه أن كان ساعاتيا. إلا أن هيئته وجدارته قد استوتا به إلى بيئة عالَم آخر، فلم يلبث أن دخل فيه. وذلك أنه تعرّف إلى السيد دولاكلوزير، المقيم الفرنسي في جنيف، فاتخذه هذا صديقاً، وأتاح له في باريس معارف آخرين انتفع بهم فاستطاع أن يحصل على تعهد لتقديم ميرة ملح فاليه، مما جعل له عشرين ألف ليرة دخلاً، فاقتصر على ذلك نصيبه من جهة الرجال، وهو نصيب جيد؛ أما من جهة النساء، فلقد اتسع

نصيبه حتى وجب عليه أن يختار، وهذا ما قد أراد. وأَعزُّ مزاياه وأعلاها شرفاً، وهو الذي كانت له اتصالات بمختلف الطبقات، هي أنه حيث اتجه أَحبَّه الناس فابتغوه جميعهم لم يحسده أحد منهم ولا حقد عليه أحد، وأغلب الظن أنه مات لا عدو له في حياته أبداً. فهنيئاً له! ولقد كان يأتي، في كل سنة، حمّامات أيكس، حيث مجتمع المعشر الطيّب، معشر بلدان الجوار. وكان هو على علاقات بطبقة الأشراف من أهل سافوى، وربما شخص من إيكس إلى شامبيري يزور الكونت دوبلجارد وأباه المركيز دانتريمون الذي في بيته تعرّفتْ ماما بالسيد دوجوفكور فعرفتْني اليه. فتجدَّد هذا التعارف في المناسبة التي أذكرها في ما بعد وتوطّد فصار تعلّقاً حقاً، مع أنه، في أول الحال، بدا كأن لا طائل تحته، ومع أننا بقينا سنين على غير تواصل. وكفى بهذا التعلّق مسوّغاً لي فأذكر هذا الصديق الذي طالما شدّتني اليه أواصر متينة، ولئن كان لي بذكره اهتمامٌ شخصيّ، فإن في ذكْري إياه خيراً لشرف النوع الإنساني، إذ كان رجلاً لطيفاً جداً قد جُبل على عدة مواهب خلقاً ومعرفة. لكن هذا الرجل الظريف البهيج كانت له، مع ذلك، عيوبه، شأنه في ذلك شأن سائر البشر، على ما ترى في ما بعد؛ فلو خلا من العيوب، لقلّ حبُّ الناس له في أرجح الحسبان، فلم يكن لهم بد من أن يجدوا عنده ما يسامحونه فيه فيظلّ هو على أقصى ما يسعه أن يظل عليه من إثارة الاهتمام.

ثم إن لي علاقة أخرى لم يغب عني ذكرها، فهو ما يفتأ يخدعني بأمل السعادة في الحياة الدنيا، الأمل الذي يتصعّب موتُه في قلب الإنسان، وذلك أن السيد دوكونزييه، أحد أشراف سافوي، وهو يومئذٍ شاب لطيف، خطر له أن يتعلّم الموسيقى، أو، في الأصح، خطر له أن يتعرّف بهذا الذي يعلّمها. ولقد رُزق السيد

twitter @baghdad_library

دوكنزييه ذكاءً وميلاً إلى المعارف البهية، على دماثة جعلتْه أنيس العشرة جداً. وكنتُ أنا كذلك مؤانساً جداً لمن من الناس أجد عنده هذه الصفة. فما عتّمنا أن تواصلنا فتآلفنا. وذلك أن مبادئ الأدب والفلسفة كانت قد ابتدأت تختمر في ذهني، ما ترتقب إلا قليلاً من الثقافة والمنافسة لكي تنمو حقَّ نموها، فأصابت عند السيد دوكنزييه ما قد ارتقبتْ من هذا القبيل. وكان هو ضعيف الموهبة الموسيقية، وهذا خير له، فكانت ساعات التدريس تنقضي في غير التمرن على الألحان والتغنية بها. فلربما تغذينا، وتحادثنا وقرأنا بعض المنشورات الجديدة لم نذكر الموسيقى بحرف واحد. وكانت مراسلة فولتير مع الأمير ولي عهد بروسية قد دوّى شأنها، وكثيراً ما تكلّمنا في هذين الرجلين الشهيرين، وقد اعتلى أحدهما العرش منذ مدة قريبة فبشَّرَ بما يكون عليه شأنه بعد زمن يسير، أما الآخر، الذي استخفَّ به الناس يؤمئذٍ بقدْر ما أُعجبوا به يومَنا هذا، فلقد رثينا له حقّاً لما حلّ به من بلية لم تزل تتعقبه تعقُّبها لمعظم المواهب الفذة. ذلك ولم يسعد أمير بورسية في شبابه سعادة بالغة، ويبدو أن فولتير خلق لكي لا يسعد أبد الدهر. فامتد اهتمامنا بأحدهما وبالآخر إلى كل ما يتصل بهما، فما فاتنا شيء مما كتبه فولتير عهدئذٍ. فكان من ميلي إلى هذه المطالعات ما رغبني في أن أتعلّم الكتابة الأنيقة وأحاول أن أقلّد أسلوب هذا المؤلّف وقد سحرتْني روعته. ثم نُشر بعد حين كتابه «**الرسائل الفلسفية**»[25] ولئن لم يكن خيْرَ مؤلّفاته، فإنما هو أكثر ما اجتذبني إلى الدراسة، ومنذئذٍ لم يهمد فيّ هذا الميل الطالع.

إلا أن إنكبابي على الدراسة إنكبابَ الجد لم يكن قد آن وقته بعد. فلم يبرح مزاجي على بعض التقلب وعلى رغبة في الذهاب

(25) **الرسائل الفلسفية** (*Lettres philosophiques*) ـ المترجم.

والرجوع قد اكتفتْ فوق ما كَفّتْ. وكان مجرى العيشة عند السيدة دو فارانس يضاعف رغبتي هذه إذ هو أَشدُّ ضجةً من أن يحتمله مزاجي المنفرد. فأصبحتْ سكناي همّاً لي حقّاً، وذلك لوفرة المجهولين الذين كانوا يأتون كل يوم من كل ناحية ولاقتناعي بأنهم لا غرض لهم إلا أن يخدعوا ماما، كلٌّ منهم بحسب طريقته، وكنتُ، مذ خلفتُ كلود أنيه في مُسارّات سيدته، قد بتُّ أَقرَبَ تتبعاً لحالتها المالية التي ألفيتُها من سّيء إلى أسوأ، وهو الأمر الذي هالني، ولطالما حذَّرتُ وأَنَبتُ ورجوتُ وألححتُ وتوسلتُ، ولكن بلا طائل. ولقد ارتميتُ يوماً عند قدميها فصوَّرتُ لها مبلغ الكارثة التي تهدّدها، وحثثتُها حثّاً على أن تقتصد في النفقة فتبدأ بي، وعلى أن تحتمل بعض العسر إذ هي لا تزال شابة بدل أن يتضاعف عليها الدين والدائنون فتعرّض نفسها لتعنُّتهم وتعرّض نفسها للبؤس وقد علت عليها السن. فأثّر فيها صدْقُ ولائي، فقاسمتْني شعوري، ووعدتْني خير الوعود. لكنها كانت ما يكاد يأتيها أحد الخساس النفعيين حتى تذهل عن كل شيء. أما بعد أن ثبت لديّ، ألف مرة، أن تأنيبي إياها لا نفع منه، فهل كان ينبغي من أمر سوى أن أشيح بنظري عن ضرر لا قبل بأن أتداركه؟ فصرتُ أبتعد عن البيت الذي لم أستطع حراسة بابه، وأخذتُ أقوم إلى نيون وجنيف وليون بأسفار قريبة الأجل ألهتني عن غمي الخفيّ الذي زادته نفقة تلك الأسفار. وأُقسمُ أنه لو كان لماما، حقّاً، انتفاع بإدخار هذه النفقة، لأفرحني أن أحتمل كل ما يُقتصَد فيه من هذا القبيل، لكني أيقنتُ أن ما أَمنعُ نفسي عنه ينتقل إلى لصوص خداعين، فغلوتُ في ما يسّرتْه ماما أقاسمهم ما قد أخذوا، ففعْلَ الكلب يرجع من حانوت اللحام، إذ حملتُ نصيبي من القطعة التي لم يسعني إنقاذها.

وما أعوزتني الأعذار لكي أقوم بتلك الأسفار كلها، ولقد كانت

twitter @baghdad_library

ماما، وحدها، تقدر أن تمدني بأعذار متعددة لفرط ما قد تعددت اتصالاتها ومفاوضاتها وشؤونها ولفرط ما قد احتاجت إلى من تأمنه على قضاء كثير من المهام. فما طلبتْ هي إلا أن تبعثني، ولا طلبتُ إلا أن أذهب، فتقلبتُ في عيش متنقل. وأتاحت لي تلك الأسفار أن أتعرّف إلى بعض خيار الناس ممن حَلتْ لي عشرتهم، أو ممن انتفعتُ بهم في ما بعد، ومن بينهم السيد بريشونن وقد تعرفتُ إليه في ليون، فلمتُ نفسي على أني لم أزَكّ هذا التعرف لما أحاطني هو به من طيبة كريمة ومن بينهم السيد باريزو، وسأتكلم عليه في حينه، والسيدة ديبنس والرئيسة مدام دوباردونانش، امرأة جمة الذكاء لو أمكنني أن ألقاها أكثر مما لقيتُها، لكانت صادقتْني، وقد تعرفتُ إلى هاتين السيدتين في جرينوبل، ومن بينهم السيد دوكلوزير المقيم الفرنسي في جنيف، وكثيراً ما كلّمني على والدتي التي لم يستطع قلبه أن ينفصل عنها برغم الموت ومرّ الزمان، ومن بينهم السيد باريّو، وكان باريّو الأب يدعوني حفيده، وكان لطيف العشرة ومن أوفى من عرفت إباءةً وكرامة، فلما حدثت اضطرابات الجمهورية، ارتمى كل من هذين المواطنين في الحزب الذي عارض الحزب الآخر: فكان الابن في حزب البورجوازيين، والأب في حزب القضاة، حتى إذا احتكم القوم هناك إلى السلاح، عام 1737، أبصرتُ، إذ كنت بجنيف، الأب والابن قد خرجا من البيت الواحد متسلحين، فمضى الأول إلى دار السلطة ومضى الآخر إلى معسكره، وقد أيقنا أنهما، بعد ساعتين، متلاقيان وجها إلى وجه وأنهما معرَّضان لأن يتقاتلا، فهالني هذا المشهد الفظيع وبلغ مني المبالغ، فأقسمتُ ألا اشارك أبداً في أيّ حرب أهلية كانت، وأن لا أنتضي السلاح لكي أنصر الحرية في داخل الوطن، وألا أعضدها بخضي ولا برضاي أما رُدّتْ عليّ حقوقي الرعوية يوماً من الأيام. وأَشهدُ أنني، في مناسبة دقيقة، قد أَوفيتُ بهذا القسم، وسيتبين

لك، في ما أحسب، أن اعتدالي كانت له منفعته.

لكني لم أكن بعد قد استيقظتْ مشاعري الوطنية التي أثارتها بقلبي، جنيف مسلّحةً، فهبّت مشاعري بعدئذ هبّتها الأولى. وسيرى القارئ مدى نأيي عنها إذ شغلني حدثٌ باهظٌ قد أثقل كاهلي ونسيتُ أن أورده في موضعه، فوجب ألا أغفله.

وذلك أن خالي برنار كان قد انتقل إلى كارولينة منذ سنوات فشيد فيها مدينة تشالرزتون التي أنشأ تصميمها. ثم توفي بعد وقت قصير، وتوفي أيضاً ابن خالي وهو في خدمة ملك بروسيا. ففقدتْ قرينة خالي زوجها وابنها في وقت معاً، على التقريب. وهذه الخسارةُ أذكت قليلاً صداقتها لأقرب أقربائها ممن بقي لها منهم؛ وهذا القريب هو أنا. فكنتُ إذا شخصتُ إلي جنيف نزلتُ في بيتها وتلهيتُ بالقراءة في الأوراق التي خلّفها خالي وبالتنقيب عما فيها جميعاً. فوقعتُ على جمة غرائب ووسائل لم يقدِّر أنها موجودة ولا ريب، وما كانت زوجة خالي لتعنى بتلك الأوراق، حتى لو شئتُ أن آخذها جميعاً، لتركتْني أفعل. لكني اكتفيتُ بكتابين بل ثلاثة علّق عليها جدي القس برنار، والتعليق بخط يده، وبينها كتاب كبير القطع قد تضمَّن ما نُشر من **مؤلفات** روهو[26] بعد وفاته وسوّدتْ هوامشُه بشروح نقدية موفَّقة حبَّبتْ إليّ الرياضيات. وظل هذا الكتاب بين كتب السيدة دو فارانس، فأسفتُ على أن لم أحتفظ به. ثم إني أضفتُ، إلى ما أَخذتُ من أوراق خالي، خمس مذكرات مخطوطة أو ستاً، ومذكرة واحدة مطبوعة هي من قلم ميكالي دوكريت الذائع الصيت، رجل عالي

(26) جاك روهو (1620-1675) عالم فيزياء ومفكر فرنسي من أتباع ديكارت - المترجم.
[تعليق المراجع ع. لبيب]: Jacques Rohault, *Œuvres posthumes de M. Rohault*, 1 vol., avec préface de Clerselier (Paris: [s. n.], 1682).

twitter @baghdad_library

الموهبة وعالم مستنير، لكنه مشاكس كبير فعامله قضاة جنيف معاملة قاسية فقضى في حصن أربرج، منذ وقت قريب، بعد ما سُجن هناك سنين طوالاً، لأنه، على ما قيل، شارك في مؤامرة برن.

وكانت هذه المذكرة عبارة عن انتقاد صائب لذلك التصميم التحصيني، العظيم، المضحك، الذي نفّذَ بعض منه في جنيف فسخر به ذوو الاختصاص، إذ لم يدركوا الغرض الخفيّ الذي حدا المجلس على أن ينفذ هذا المشروع الرائع. فلما نُحّي السيد ميكالي عن ديوان التحصينات لكونه قد انتقد التصميم، حَسب أنه، عضواً في مجلس المائتين بل مواطناً[27]، يحقّ له أن يبدي رأيه فيه على غاية الإسهاب، وهذا ما قد أبداه بتلك المذكرة التي دعاه سوءُ التبصر إلى أن يطبعها، لا إلى أن يذيعها، وإن لم يطبع منها إلا ما أَرسلَ به إلى مجلس المائتين، فصودرت النسخ كلها في البريد بأمر من المجلس الصغير. ولقد وقعتُ على هذه المذكرة بين أوراق خالي، ووقعتُ على الرد الذي عُهد إليه في وضعه للإجابة عنها، فأَخذتُ المذكرة والجواب. وكنتُ قد قمتُ بذلك السفر بُعَيدَ تخلّي عن العمل في المساحة، وأنا، يؤمئذٍ، ما أَبرحُ على بعض الاتصال برئيسها كوسيلّي المحامي. ثم رغب إليَّ مدير الجمارك في أن أعلّم أحد أولاده واختار السيدة كوسيلّي رصيفة لي، فاعتراني الدوار لما أُصبتُ من حظوة وتكريم، فافتخرتُ بتقربي إلى المحامي السيّد، فحاولت أن أتظاهر بأني رجل خطير ليرى الناسُ أني خليق بهذا المجد.

فلم أجد خيراً من أن أطلعه على مذكرة السيد ميكالي وهي، في الواقع، وثيقة نادرة، وكان قصدي أن أثبت للسيد كوسيلّي أنني أنتسب إلى وجهاء من جنيف قد وقفوا على أسرار الدولة. لكني لم

(27) يعني أنه مواطن من رعايا جنيف يتمتع بحقوقه الرعوية - المترجم.

أطلعه على جواب خالي، وذاك لشيء من التحفظ يصعب عليّ أن أَعلم سببه، ولعله يرجع إلى كون الجواب مخطوطاً، والمحامي لا ينبغي أن يقرأ إلا ما هو مطبوع. فقدَر قيمةَ المذكرة حقَّ القدر، فسلّمتُه إياها بضرب من الغباوة، فلم أقوَ يوماً على أن أسترجعها منه ولا أن أراها مرة أخرى. فلما أيقنتُ أنه لن يجدي تكرار المجهود لكي أسترجع منه المذكرة، حوّلتُ السرقة هديةً مني إليه فيكون لي في أمرها استحقاق. ولا شك عندي البتة أن السيد كوسيلّي قد بيّن لبلاط تورينو قيمة هذه الوثيقة التي هي إلى الغرابة أدنى منها إلى الإفادة، ولا شك عندي البتة أنه قد حرص، بطريقة ما، على أن يؤدّي إليه ما أدى هو من ثمن الحصول عليها. وفي حُسن الحظ أن أبعد الأمور عن أن تحدث هو أن يعمد ملك سردينيا إلى محاصرة جنيف. ولكن الأمر غير مستحيل، فلذلك لم أفتأ أَلوم نفسي على حمق افتخاري الذي حملني أن أُطلع أقدم عدو لجنيف على أعظم عيوب موقعها.

ولقد سلختُ سنتين، أو ثلاثاً، وأنا على هذا النحو، بين الموسيقى والعقاقير السحرية والمشروعات والأسفار، لا أبرح أتنقل من شيء إلى شيء، أحاول أن أَثبت، لستُ أدري أين، بيد أني أنشأتُ أميلُ تدريجاً إلى الدراسة والتحصيل، إذ لقيتُ بعض أهل الأدب واستمعتُ إلى من يتحدثون به حتى ربما تدخلتُ في موضوعه فتكلّمتُ فيه آخذُ بالاصطلاحات الكتابية أَكثرَ مما أكتنه فحوى المؤلَّفات. وكنتُ إذا سافرتُ إلى جنيف زرتُ، بين الحين والحين، السيد سيمون، صديقي الطيّب الذي شجّع مزاملتي له الناشئة، فأطلعني على أحدث أنباء العلم والأدب وقد استقاها من بايـيـه[28] أو من

(28) بايه (Adrien Baillet) (1649-1706) عالم فرنسي مؤلف دائرة معارف أدبية - المترجم.

twitter @baghdad_library

كولوميس[29]. وكثيراً ما لقيتُ في شامبيري أحد الآباء اليعقوبيين، وكان أستاذاً للفيزياء وكاهناً طيّباً وقد نسيتُ اسمه. فقام بعدة اختبارات تلهيتُ بها جدا. فأردتُ أن اقتدي به فأصنع حبراً سرّياً مستعيناً في ذلك بكتاب **ترويحات رياضية** لصاحبه أوزانام. فجعلتُ في احدى القناني كمية من النورة والزرنيخ تزيد على نصف ما تستوعبه القنينة، ثم أحكمتُ سدّها. فابتدأتْ هذه المواد تغلي وتفور. فطرتُ إلى القنينة لأفتحها، ولكن كنتُ قد تأخرتُ فانفجرتْ في وجهي وكأنها القذيفة، فبلعتُ بعض النورة والزرنيخ فكدتُ أقضي وكُفَّ بصري ستة أسابيع. فتعلَّمتُ أن لا أتدخل في شؤون الفيزياء الاختبارية ما لم أعرف مبادئها.

وما كانت هذه المغامرة لخير صحتي وهي، منذ بعض الوقت، قد أخذ بها الوهن أخذاً ملحوظاً، ولم أدر سبب انحطاطها وأنا متين بنية الصدر فما أُفرطُ أياً كان نوع الإفراط. ثم إنني واسعُ ما بين المنكبين، وواسع ما بين الرئتين فهما تتحركان على انشراح، ولكن كنتُ قصير النفس، ضيّقه، أتنهد بغير إرادة مني، أرتعش، أنفث دماً، فلزمني ارتفاع الحرارة، فضلاً على ذلك كله، فلم أتخلص منه يوماً على التمام. فكيف يتردى الإنسان في هذه الحالة وهو لا يزال في ملء الشباب، لا فساد في جهاز من أجهزة بدنه ولا فعْل له يهدم العافية؟

قيل أحياناً إن السيف يُتلف غمده. وهذا شأنُ قصتي. فالأهواء قد أحيتني، والأهواء قد أهلكتني، وربما قيل: «وأي أهواء؟» لا شيء، بل أسخف الأشياء، فبلغ مني أمرها وكأنه يدور على امتلاك هيلانة[30]، أو على امتلاك عرش الكون. أما أول تلك الأشياء،

---

(29) كولوميس (Adrien Colomiès) (1638-1692) لاهوتي إنجيلي فرنسي - المترجم.

(30) هيلانة هي، في الميثولوجية، أميرة إغريقية رائعة الجمال أدى خطفها إلى حملة الإغريق على طروادة - المترجم.

فالنساء، حتى إذا أوتيتُ امرأة سكنتْ حواسي، إلا أن قلبي لم يسكن يوماً من الأيام. كانت ماما أمّاً لي حنوناً وصديقةً حبيبةً وقد احتجتُ إلى معشوقة. فتمثلتُها فيها، وتصوّرتُها على ألف صورة منها لكي أهيّئ لنفسي سبل التغيير. فلو خيّل لي، وأنا أضمها إليّ، أنها بين ذارعيّ، لم يكن ضمي لها دون ما فعلتُ وأنا أضم طيف المعشوقة، بل لخمدتْ شهواتي كلها فبكيتُ من حبّ ولكن ما استمتعتُ المتعة، أيقدَّر للإنسان أن يبلغها؟ ليتني ذقتُ، مرة في العمر واحدة، طيّبات الحبّ كلها إلى أقصى حد، إلا أني لا أحسب ضعْف خيالي يشبعها، بل أخالني حينئذٍ قد قُضي عليّ فعلاً.

وإذاً، فلقد اشتعلتُ حبّاً وليس لديّ موضوعُ حبّ، ولعل الحبّ يفنى هكذا أكثر ما يفنى. فكنتُ قلقاً معذَّباً للحالة المالية السيئة التي انتهت إليها ماما ولتورطها الذي لا بد له من أن يفضي إلى تمام خرابها عما قليل. وكانت مخيّلتي، التي تتمثل البلايا قبل وقوعها، لا تفتأ تصوّر لي سوء هذه الحالة في غلوها وتبعاتها كلها. فرأيتُني منذئذٍ وقد أكرهني البؤس على أن أنفصل عن تلك التي وقفتُ حياتي عليها والتي لولاها لم استمتع بالحياة. فكانت نفسي لا تنفك في اضطراب وقد تناوبتْ عليّ الرغائب والمخاوف.

وكانت الموسيقى هوىً لي آخر هو أقلّ احتداماً فيّ، بيد أنها لم تكن أقل إضناءً لي، إذ مارستُها فاندفعتُ اليها، فأقبلتُ على كتب رامو الغامضة أدرسها في عناد وأصرُّ على أن أحشو بها ذاكرتي إصراراً لا يُقهَر وذاكرتي قد أبتْ؛ وإذ لم أبرح من سفر إلى سفر، وإذ جمعتُ كثيراً من منتخبات الموسيقى، أَحييتُ الليالي برمّتها أنسخ الألحان. ولكن لَم أتوقف عند ثوابت الأمور، في حين أن جميع الحماقات التي مرّت بذهني المتقلّب، وفي حين أن ميولي العابرة التي لا تجاوز اليوم الواحد، وفي حين أن سفراً ما، أو حفلة

twitter @baghdad_library

موسيقى، أو عشاءً، أو نزهة أقوم بها، أو كتاباً أقرأه، أو كوميديا أشهدها، وفي حين أن أيسر ما تعمّدتُه في ملذاتي وأعمالي أن كل ذلك قد أصبح عندي أهواء عنيفة تصيبني بقلاقل حقيقية، رغم ما هي عليه من حميّة مضحكة؟ وأحسب أن قراءتي لشقاوات كليفلاند[31] الخيالية، وقد كانت قراءة مسعورة ولكن متقطعة في الغالب، قد أحنقتني أكثر مما أحنقتني الشقاوات التي حلّت بي أنا.

ثم إني عرفتُ رجلاً من جنيف يدعى السيد باجوريه قد استُخدم في بلاط روسيا، على عهد بطرس الكبير، فكان من أقبح من عرفتُ وأحمق من عرفت، لا يني يلوّح بمشروعات غزيرة الملايين وكأنها المطر المدرار، إذ ليس يقتضيه إيرادُه الأصفارَ أيّ نفقة كانت. فجاء شامبيري لدعوى له أمام مجلس الشيوخ فاستولى على ماما كما كان خليقاً به أن يفعل، فجاد عليها بكنوز الأصفار من غير حساب واحتال عليها ليأخذ منها دريهماتها واحداً فواحداً. فلم أحبّ الرجل قط، فتبيّن له شعوري، إذ لا يصعب على أحد أن يتبين ما أشعر به، فلم يدَع دناءة إلا عمد إليها يتملّقني. فاقترح عليّ أن أتعلم لعبة الشطرنج، وكان يجيدها بعض الإجادة. فحاولتُ أكاد أكون مكرَهاً، فلما أَلفتُ مجرى اللعبة، وقد تعلّمتُه بين بين، تقدّمتُ فيها تقدّماً سريعاً جداً، حتى إنني أعطيتُه، قبلما أنهينا الدور الأول، الحجر الذي كان قد أعطانيه حين ابتدأنا نلعب. وما كان ينبغي غير ذلك

---

(31) كتاب **الفيلسوف الإنجليزي** أو **سيرة السيد كليفلاند الابن غير الشرعي لكرومويل** رواية ألّفها الأب بريفو ونشرت من عام 1732 إلى عام 1739 - المترجم. [تعليق المراجع ع. لبيب]: Antoine François Prévost, dit d'Exiles والمشهور بلقب L'abbé Prévost مؤلف كتاب: *Le philosophe anglais ou histoire de monsieur Cleveland, fils naturel de Cromwell, écrite par lui-même et traduite de l'anglais par l'auteur des mémoires d'un homme de qualité.*

لكي أُشغَف بالشطرنج. فابتعتُ لعبة شطرنج، وابتعتُ كتاب كالابريه[32]، فلزمتُ حجرتي أصلُ النهار بالليل أريدُ أن استظهر أجزاء الكتاب كلها، أحشو بها رأسي طوعاً أو كرهاً، ألعب وحدي ما أكفّ ولا أنتهي. فظللتُ شهرين، أو ثلاثة أشهر، على هذا الدأب الرائع أبذل من الجهد ما لا يمكن تصوّره، ثم ذهبتُ إلى المقهى وقد عراني الهزال والشحوب وأنا على ما يقرب من البلادة. فاختبرتُ براعتي فلاعبتُ السيد باجوريه من جديد، فغلبني للمرة الأولى، فالثانية، وغلبني للمرة العشرين، فاختلطتْ في ذهني تركيبات الشطرنج وتضاعفتْ عليّ صورُها، فهمدتْ مخيّلتي أي همود وأصبحتُ لا أرى أمامي إلا مثل الضباب. فلم أبتغ، يوماً، أن أتمرن على لعبة من الشطرنج في كتاب فيليدور[33] أو كتاب ستاما[34]، إلا ألفيتُني في ضباب، فجهدتُ وبلغ مني التعب، فأحسستُ أني أضعف مما كنتُ عليه قبْلاً. ثم أنا، مذ لعبتُ بالشطرنج أول مرة، لم أتقدّم

---

(32) كالابريه لاعب بالشطرنج شهير، وهو من سكان نابولي، عاش في القرن السابع عشر، له مؤلَّف في هذه اللعبة - المترجم. [تعليق المراجع ع. لبيب]: Gioachino Greco المشهور بـ Calabria أو «Le Calabrais» نسبة إلى كلابريا بإيطاليا، ولد في عام 1600 تقريباً ومات في سنة 1634. وكان عصره العصر الذهبي للعبة الشطرنج في إيطاليا.

(33) فيليدور (François André Danican [Philidor]) (1726-1795) مؤلف في الشطرنج ولاعب به شهير - المترجم. [تعليق المراجع ع. لبيب]: فرنسي، يعتبره البعض أكبر لاعب في الشطرنج في القرن الثامن عشر.

(34) ستاما (Stamma) (1737-1770) مؤلف كتاب في الشطرنج ـ المترجم. [تعليق المراجع ع. لبيب]: هو فيليب ستاما الحلبي ولقب بـ «السوري» في أوروبا. كان في عصره أكبر لاعب شطرنج في العالم إلى أن غلبه فيليدور في لندن. استعاد الطريقة العربية واستخدم العلامات الجبرية في تأليفه في موضوع الشطرنج. انظر له: Philippe Stamma, *Essai sur le jeu des echecs: Où l'on donne quelques règles pour le bien jouer, et remporter l'avantage par des coups fins et subtils, que l'on peut appeller les secrets de ce jeu* (Paris: impr. Emery, 1737).

twitter @baghdad_library

فيه قط، بل وجدتُني على الدوام حيث كنتُ في آخر مرة، أَعرضتُ عن الشطرنج أم رجعتُ إليه. ولو تدربتُ عليه ألوفَ الأجيال ما استطعتُ إلا أن أعطي باجوريه الحجر الأول لا غير. ولعلك تقول: «أهكذا شغلتَ وقتك»؟ الواقع أن لعبة الشطرنج لم تشغلني وقتاً يسيراً ولا أنهيتُ أول ما حاولتُ منها إلا وقد أعياني أن أواصل المحاولة. فكنتُ إذا خرجتُ من حجرتي، لاحت هيئتي وكأني قد خرجتُ من القبر، ولو داومتُ على هذا النحو، لم أَبقَ خارج القبر زمناً طويلاً، وإنك لتوافق على أن من كان مثلي هوًى وتخيّلاً وركوبَ رأس، فقد صعب عليه، ولا سيما في عنفوان الشباب، أن يوفّر لبدنه اطّراد العافية.

ثم إن انحطاط صحتي قد أثّر في مزاجي وفتّر من نزوات أخيلتي وأوهامي، فلما شعرتُ بالوهن، صرتُ أهدأَ حالاً وركد بعض ولعي بالأسفار. ولكن، إذ قلّت حركتي وكثر قعودي، استولى عليّ، لا الضجر، بل الاكتئاب، فعصفتْ بي الرياح السوداوية وقد اعترتني في أعقاب الأهواء. فتحوّل ضناي حزناً، فكنتُ أبكي وأتنهد لغير ما سبب، وأحسستُ بالحياة قد أَخذتْ تفلتُ مني وأنا لم أذق طعمها، فانتحبتُ على العسر الذي كنتُ أترك به ماما انتحابي على ما قد رأيتُها متردية فيه، والواقع أن ابتعادي عنها، وهي في ضيقة يرثى لها، قد كان هو ندمي الأوحد، فمرضتُ، آخر الأمر، حقّاً. فاعتنت بأن تداويني كما لم تعتن أمٌّ بولدها قط، فكان في ذلك ما نفعها، إذ شغلها عن المشروعات وأَبعدَ عنها اصحاب المشروعات. فما كان أهنأ نومتي لو وافتني المنيّة يومئذٍ! فلئن كنتُ لم أذق من خير الدنيا إلا نَبذاً، فقلما شعرتُ بأرزائها. فكان في وسع نفسي الآمنة أن ترتحل لم تبلُ ألم الشعور بالظلم بين الناس، وهو الشعور الذي يُمرّر طعمَ الحياة والموت. وكان من التعزية لي أن أبقى حياً في

نصفي الأفضل فأكاد لا اموت. ولولا قلقي لمصيرها قلقاً كسرَ حدّةَ مرارته الحبُّ والحنان، لمضيتُ لسبيلي أُغمض عينيّ وكأنني في رقاد. ولقد كنتُ أقول لماما: «إنك أنت وليّةُ كياني أجمع، فافعلي به ما يسعدني». واتفق لي مرتين أو ثلاثاً وأنا في أسوأ ساعات المرض، أن قمتُ في الليل أجرّ نفسي إلى حجرة ماما، أسدي اليها، في شأن مسلكها، نصائح أجرؤ على القول إنهن في غاية سلامة الرأي والصواب، ولكن بدا منهن أن اهتمامي بمصيرها قد غلب على سائر الأشياء. وكنتُ أتقوى بالدمع أذرفه وأنا بالقرب منها، بل معها، وقد قعدتُ على سريرها ويداها في يديّ. فكأن البكاء هو، عندئذٍ، غذائي ودوائي. وتنقضي الساعات في تلك المسامرات، فأعوذ منها وأنا أَحسن حالاً مما كنتُ عليه حين أَتيتُ، فتسرّني الآمال اللائي منتني بها وأسكن اليها، فأنام مطمئن القلب، مستسلماً إلى عناية الله. أما ولطالما بلوتُ ما يُحقد على الحياة وعصفتْ بي الأنواء حتى لم تبقَ أيامي إلا عبئاً، فمعاذ الله أن أجد الموت، وهو خاتمة حياتي، أرحمَ مما وجدتُه في ذلك الحين.

أنقذتْني ماما لما أحاطتني به من عناية ويقظة ولما بذلتْ لي من جهد لا يمكن تصديقه، والمؤكّد أنها، هي وحدها، قد أمكنها إنقاذي وذلك أنني ضعيف الثقة بطب الأطباء، شديد الثقة بطب الأصدقاء المخلصين، فالأمور، التي عليها تتعلّق سعادتنا، نحسن إتيانها أكثر مما نأتي سائر الأمور. فإذا كان في الحياة شعورٌ بهيجٌ لذيذ، فإنما هو ذاك الذي نعمنا به إذ رُددتُ إلى ماما وإذ رُدّت إليّ. ولئن لم يزدد تعالقنا، فلأنه لم يبقَ إلى المزيد من سبيل؛ إلا أنه قد بات على ما لست أدري من مزيد من الحميمية، ومن مزيد من التأثير وهو في بساطته العظيمة. فغدوتُ بأجمعي صنيعتها، بأجمعي وَلدَها، بل وأكثر مما لو كانت هي أمي أصلاً. فابتدأنا، عن غير

twitter @baghdad_library

انتباه منا، لا نتفارق، ونضع وجودنا كله مشتركاً بيننا؛ وإذ أحسسنا معاً وبالتبادل أن كلينا لم يكن ضرورياً [للآخر] وحسب وإنما كان أيضاً كافياً، تعوّدنا ألا نفكر في ما هو غريب عن وجودنا، وأن نَقصر سعادتنا وجميع رغباتنا على هذا الامتلاك المتبادل الذي ربما كان لا نظير له في الناس والذي لم يكن امتلاكاً حبّياً، ـ وقد سبق أن ذكرت ذاك، ـ بل كان امتلاكاً أخلص جوهراً، ولئن لم يكن يتعلق بالحواس وبالشهوة الجنسية وبالسن وبالهيئة، وإنما كان يتعلق بما به يكون المرء هو ذاته، أي بما ليس يمكنه أن يخسره إلا وقد كف عن أن يكون..

فلمَ لَمْ تأتنا هذه الأزمة القَيّمة بالسعادة بقيةَ عمرها وعمري؟ ألا إني أشهد بأن الأمر لا يرجع إليّ سببه ـ وذاك عزاء لي ـ ولا هو يرجع إلى ماما، أو، في الأقل، لا يرجع إلى مشيئتها. فلقد كُتب ان الطبيعة التي لا تُقهَر ستستعيد سلطانها يوماً ما. لكن عَوده المشؤوم لم يقع فوراً، بل جرى بعد مدًى، مدى قصير وعزيز لا ذنب عليّ فيه، فاغتنمتُه، لا ألوم نفسي على كوني لم أُحسن الاغتنام.

ولئن كنتُ قد شفيتُ من مرضي الشديد، فما استرددتُ قوّتي، ولا برىء صدري، بل لزمني ارتفاع الحرارة فأرهقني وأضنى. فأمسيتُ لا رغبة لي إلا في أن أسلخ ما بقي لي من العمر وأنا بالقرب من تلك التي أُحبُّ، وأن أجعلها تستقر على ما عزمتْ عليه، وأن أُشعرها بروعة العيش السعيد، وأن أُسعدها ما توقَّفَ عليّ إسعادها. غير أنْ تبينتُ بل أحسستُ أنّ استمرار انفرادنا في دار قاتمة كئيبة سيغدو هو أيضاً، في النهاية، شيئاً كئيباً. فتهيأتْ معالجةُ أمرنا هذا وكأنْ قد سنحتْ من تلقاء نفسها. فإن ماما كانت قد أشارت عليّ بالحليب، وأرادت أن أمضي إلى الريف أتداوى بالحليب هناك. فرضيتُ، شرط أن تأتي معي. فما احتجتُ إلى غير ذاك حتى عزمتْ

على موافقتي، ولم يبقَ إلا أن نختار المكان. ولم يكن بستانُ الضاحية يقع في الريف على التدقيق، فقد أحاط به بعض البيوت والبساتين حتى فقد مفاتن العزلة الريفية. ثم كنا، فضلاً عما تقدَّم ذكره، قد هجرنا ذلك البستان، بعد وفاة كلود أنيه، اقتصاداً منا في النفقة، فأصبحنا لا نعنى بالنبات، كما أننا، لأسباب أخرى، لم نندم على البستان كثيراً.

انتهزتُ عزوفَ ماما عن المدينة فاقترحتُ عليها أن تهجرها هجراً تاماً، فتقيم على منفردٍ طيّب بهيج، نسكن بعض البيوت النائية التي تُضلّ المزعجين. ولو أن ذلك هو ما قدّر لنا، لكانت ماما فعلتْه فبات هذا الاختيار، الذي أوحاه إليّ ملاكي الحارس وملاكها، أيامَ سعادة لنا وطمأنينة وسلام إلى أن يفرّق بيننا الموت. وكانت هي، بعد ما تقلّبتْ في اليسر والرخاء، قد أخذتْ تكابد من آلام الضيقة والعسر ما أرضاها بأن تغيَّر عيشها وهي أقلّ ندماً على ما فات. وكنتُ أنا، وقد أطبقتْ عليّ ضروب الألم والعذاب، خليقاً بأن أغدو، في بعض الأيام، مَثَل كل من لم يستلهم إلا حُبَّه للخير العام وللإنصاف فاستقوى ببراءته وحدها فقام يجترئ على أن يجاهر البشَر بالحقيقة من غير دوران، ليس يتخذ لنفسه أنصاراً فيذودوا عنه.

أَحجمتْ ماما لخشية مؤسفة. لم تجسر على هجر بيتها البشع خوف أن تُغضب مالك البيت، فقالت لي: «خطّتُك للعزلة جميلة، وهي على ذوقي، ولكن يجب أن نتعيّش في هذه العزلة، فإن هجرتُ سجني، خاطرتُ برغيفي، حتى إذا لم يبقَ في الغاب من قوت لنا، كان لا بد أن نرجع إلى المدينة نطلب هذا القوت. فلأجل أن تَقلَّ حَاجتُنا أن نعود إلى المدينة أكثر ما تقلّ لزمنا ألاّ نهجرها هجراً تاماً. ولنؤدّ إلى الكونت دوسان لوران هذا المرتب اليسير، يسلمْ مرتبي، ولنفتشْ عن بيت منعزل صغير يقع من المدينة على بعد

twitter @baghdad_library

يتيح لنا أن نحيا بسلام، ويقع من المدينة على قرب يمكننا من العود إليها كلما وجب أن نعود». وفتشنا عن مسكن لنا، وأَقمنا في الشارميت[35]، على أرض للسيد دوكنزييه عند مدخل شامبيري، إلا أنها أرض نائية منفردة كأنما نحن فيها على مئة فرسخ ويقع هناك، بين تلين قد ارتفعا بعض الشيء، واد يُطَلّ عليه من شمال وجنوب وتسيل في قراره ساقيةٌ ما بين الحصى والأشجار. ويتناثر على طول الوادي، من إحدى جهتيه، بعض البيوت التي يستحسنها من يميل إلى معتزَل موحش. فجرّبنا بيتين منها، أو ثلاثة، ثم اخترنا أجملها ويملكه رجل من الأشراف يخدم في الجيش واسمه السيد نويريه. وكان البيت صالحاً جداً للسكن. وكان أمام البيت حديقةٌ ذات رصيف، وفوقه بعض الدوالي، وتحته بستان، وإزاءه شجر بلوط، وعلى مرمى منه عينٌ من العيون، وكان على مرتفع الجبل، هناك، مروج للمواشي. وكان في البيت كل ما قد احتجنا اليه في العيشة الريفية التي أردنا. فتسلّمناه في أواخر صيف 1736، على قدْر ما يسعني أن أتذكّر الأوقات والتواريخ. فأولَ يوم نمنا في البيت طرتُ فرحاً. فقلتُ لتلك الصديقة الحبيبة وأنا أقبّلها وأغمرها بدموع الحنان: «ماما! إن مقامنا هذا لمقام السعادة والبراءة. فإذا لم نَلقَهما ههنا، الواحد منا مع الآخر، لزمنا ألاّ نطلبْهما في أيّ مكان آخر كان».

(35) الشارميت (Les Charmettes) أرض في جوار شامبيري، ذاع اسمها بعد ما أقام فيها روسو والسيدة دو فارانس ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

كان هذا ما تمنيتُ: أرض واسعة، مع بستان،
وينبوع في جوار البيت، وغابة صغيرة[1]

وليس يسعني أن أضيف لأقول: «إن الآلهة قد أعطتني ذلك وخيراً منه»[2]، ولكن لا همّ، فما احتجتُ إلى سواه ولا احتجتُ إلى أن أمتلكه، وإنما كفاني أن أستمتع به، وكنتُ، لزمن بعيد مضى، قد قلتُ وشعرتُ بأن مالك الشيء والمستمتع به هما، في الغالب، شخصان مختلفان، حتى ولو استثنينا الأزواج والعشّاق.

هنا تبدأ السعادة القصيرة التي لحياتي؛ هنا تاتي الأوقات الوادعة السريعة التي حُقَّ لي معها أن أقول إنني قد حَييت. فيا أيتها الأوقات الغوالي التي طالما أسفتُ عليها، أَعيدي إليّ مجراكِ الذي طالما أَحببتُ، وانسكبي مني في التذكار انسكاباً يكون أبطأ مما انسكبت

(1) عن هوراسيوس في الأصل باللاتينية:
Hoc erat in votis: modus agri non ita magnus
Hortus ubi et tecto vicinus jugis aquae fons,
Et pubulum sylvoe super his forest ـ المترجم.

(2) عن هوراسيوس في الأصل باللاتينية: Auctius atque di melius fecere ـ المترجم.

يوم تتاليت في تتاليك المتهارب، إن كان ذلك في الإمكان! كيف أعمل حتى أطيل هذه القصة المؤثّرة، البسيطة، ما شئتُ أن أطيل، وحتى أكرّر الأشياء نفسها ولا يملّها القراء أكثر مما أملّها أنا إذ لا أنفكّ أذكرها وأعيد؟ لو كانت هي أحداثاً وأعمالاً وكلمات، لاستطعتُ أن أصفها وأعيدها بطريقة ما، ولكن أَنَّى لي أن أذكر ما لم يُذكَر وما لم يُعمَل وما لم يُفكّر فيه، وإنما ما تُذُوّق وأُحسَّ به حتى لا يسعني أن أُفصح عن أمر من سعادتي خلا هذا الإحساس بعينه؟. كنتُ أنهض مع الشمس فأسعد، وكنتُ ألقى ماما فأسعد، وكنتُ أبرحها فأسعد، وكنتُ أطوف في الغابات والتلال، وأهيم في الأودية، وأقرأ ولا شاغل، وكنتُ أعنى بالبستان، وأجني الثمر، وأساعد في البيت، فتتبعني السعادة حيث اتجهتُ، على أنها ليست في شيء معيّن، بل هي كلها في كل شيء مني حتى لا يمكنها أن تنفصل عني لحظةً واحدة.

ولم يغب عن خاطري شأنٌ مما جرى لي في ذلك العهد الطيّب ولا مما أتيتُ ولا مما قلتُ ولا مما سنح لي في أثنائه جميعاً. أما الأوقات السابقة له واللاحقة عليه، فإنها تعاودني مدًى بمدًى؛ وإني أستذكرها على نحو متفاوت وغامض. وأما ما جرى لي في ذلك العهد، فإني أذكره بأسره وكأنه ما يزال جارياً. ثم إن مخيّلتي، التي كانت على تقدّم وأمست في تأخر، لتستعيدُ تلك الذكريات الحلوة فتعيضني من الأمل الذي فقدتُه إلى الأبد. ولستُ أرى في الغد ما يغريني البتة، وإنما يغريني أن يرجع الماضي فحسب، وكثيراً ما يسعدني، برغم شقاواتي التي نزلتْ بي، أن يرجع إليّ ذلك العهد حيّاً صادقاً.

وإني سأورد من تلك الذكريات مثَلاً واحداً يمَكّننا من تقييم قوتها وصدقها. فأول يوم نمنا في الشارميت، جاءت ماما على محفة

twitter @baghdad_library

وتبعتُها ماشياً. وكان الطريق في صعود، وماما وزنها غير يسير، فكرهتْ أن ترهق حامليها، فترجلتْ في منتصف الطريق. وبينما هي تمشي، إذ وقعتْ عينها في سياج شائك على شيء أزرق، فقالت لي: «هذه عناقيّة ما تزال مزهرة». ولم أكن قد رأيتُ من عناقيّة على الإطلاق، فلم أَنحن لكي أنظر إليها من كثب، وكان بصري أضعف من أن أميز النبات على الأرض إلا إذا انحنيتُ. فاكتفيتُ بأن ألقيتُ على هذه النبتة نظرة عابرة. ولقد مضى، مذ ذلك اليوم، نحو ثلاثين سنة لم يقع فيها بصري على عناقيّة ولا انتبهتُ لها. فلما كنت في كْرَسّيْه، عام 1764، مع صديقي السيد دو بيرو، صعدنا في جبل غير مرتفع، وكان لصديقي هذا، على قمة الجبل، أرضٌ مشجرة سمّاها بل فو. فقمتُ أجمعُ بعض النبات لكي أدرسه. فبينا كنتُ صاعداً أنظر بين الأشجار، صحتُ فرحاً: «هذي هذي عناقيّة!» وكانت في الواقع عناقيّة، فشعر دو بيرو بعجبي، لكنه لم يدر سببه، وسيعلمه حين يقرأ هذه السطور يوماً ما. والقارئ في وسعه أن يقدّر مما أثاره فيّ مثل هذا الشيء البسيط ما قد أثارته فيّ سائر الأشياء التي يرجع ذكرها إلى ذلك العهد.

بيد أن هواء الريف لم يردَّ علي العافية. فلقد كنتُ مضنًى قبلما وصلتُ إلى الريف، فأصبحتُ بعد وصولي إليه، أشدَّ ذبولاً ولم أحتمل الحليب، فوجب أن أتركه. وكان التداوي بالماء وحده موضة شائعةً آنئذ، فاحتميتُ اقتصر على الماء في غلو مني كاد يخلّصني لا من أوجاعي بل من الحياة. وكنت إذا نهضتُ في الصباح، ذهبتُ إلى العين ومعي كوب من الماء واسع فشربتُ، على التوالي وأنا أتنزه، محتوى قنينتين. وكنتُ قد أقلعتُ عن شرب النبيذ على المائدة إقلاعاً تاماً. وكان ماء العين صعب الهضم، ثقيلاً بعض الثقل كأغلب مياه الجبال. فأحسنتُ التداوي بالماء حتى إنني أَتلفتُ معدتي، في ما هو

دون الشهرين، إتلافاً شاملاً، وكنتُ إلى ذلك اليوم، متين المعدة. فلما وجدتُني عسير الهضم، أدركتُ أنه لا ينبغي أن أرجّي الشفاء. ولقد وقع لي، وقتئذٍ، حادث غريب في حدّ نفسه وفي عواقبه التي لن تنتهي إلا مع انتهاء العمر.

في صباح بعض الأيام، بينما كنتُ أنصبُ منضدة،، وأنا لستُ اسوأ حالاً مما أَلفتُ أن أكون عليه، إذ أحسستُ في بدني كله باضطراب مفاجئ غريب يصعب تصوّره أو يكاد. وخير ما أشبّهُ به اضطرابي، هذا، هو أنه كالعاصفة قد هبّت في دمي فاجتاحت جوارحي كلَّها في لحظة واحدة، وأخذتْ شراييني تجب وجيباً عنيفاً لم أُحسَّ به فحسب، ولكن، إلى ذاك، سمعتُه وسمعتُ خفق وَدَجَيَّ على الأخص. ودوّى في أذنيّ، فضلاً على ذلك، صخبُ ثلاثة أصوات، أو أربعة، هي طنينٌ ثخين مخنوق. وهمسٌ أوضحُ منه كأنما هو خرير المياه جاريةً، وصفيرٌ جدُّ حاد، إلى ما ذكرتُ من وجيب سهلَ عليَّ عدُّ خفقاته بغير أن أجسّ نبضي وبغير أن ألمس جسمي بيديّ. فدوّى هذا الصخب في داخلي دويّا أَفقدني ما كنتُ عليه من رهافة سمع وأوقر أذنيّ من ذلك الوقت وما يزال، وإن لم يصمّني على التمام.

فتصوّرْ دهشتي وذعري. فلقد خلتُني مائتاً، فلزمتُ السرير، فدعي بالطبيب، فأخبرتُه بحالتي وأنا أرتعد أحسبها لا دواء لها. وأرجح الظن أن الطبيب كان على رأيي، لكنه قام بما عليه. وساق إليّ استلالات عقلية مسهبة لم أفهم منها حرفاً قط، ثم استند إلى نظريته الرفيقة فجرَّب في العلاج الذي طاب له أن يحاول وكأنه يجرّبه في بعض الحيوانات(3) وكان العلاج مضنياً، كريه الطعم،

(3) في الأصل باللاتينية: in anima vili ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ضئيل النفع. فأعياني بعد قليل، فلما انقضت بضعة أسابيع وتبيّن لي أني لا أزال على حالي، لا أحسن ولا أسوأ، قمتُ من السرير فعدتُ إلى مألوف عيشتي لم يفارقني خفق الشرايين ولا دوي الأذنين، بل هما لم يفارقاني من يومئذٍ، أي من ثلاثين سنة.

وكنتُ، إلى ذلك العهد، شخصاً نؤوماً. وكان من حرماني النوم حرماناً شاملاً، مع تلك العوارض كلها التي لازمها الأرق، أنني قد اقتنعتُ بدنو أجلي اقتناعاً نهائيّاً خَففَ، إلى حين، من اهتمامي بأن أتداوى. فلما وجدتُ أنه يتعذّر عليّ إبعاد ساعة الأجل، عزمتُ على أن أنتهز من يسير ما بقي لي في هذه الحياة ما وسعني انتهازه، فأمكنني ذلك بفضل فريد من الطبيعة وقد جنّبتني الأوجاعَ التي كان مقدّراً أن يجلبها عليّ سوء صحتي. ثم إن ذلك الصخب قد أزعجني، ولكن لم يؤلمني إذ لم يصحبه شيء من سائر المزعجات المألوفة، ما عدا الأرق وما عدا قصَراً في النفَس لم يبلغ درجة الربو ولا أحسستُ به إلا اذا ركضتُ أو قمتُ بأعمال هي على بعض الشدة والعنف.

ثم إن ذلك الحادث الذي كان مقدّراً أن يقضي على جسدي، لم يقض إلا على أهوائي. وإني أحمد الله، في كل يوم، على ما كان لذلك الحادث من حُسن تأثير في نفسي، فاستطعتُ حقّاً أن أقول إنني لم أحيَ إلا لمَا حسبتُني إنساناً قد قضي عليه. حتى إذا علمتُ حقيقةَ ما كنتُ في سبيل أن أتخلى عنه، ابتدأتُ أعنى بما هو أسمى منه وكأني أسبُقُ إلى الأمور التي ينبغي أن أقوم بها عما قليل والتي كنت قد أهملتُها إلى ذلك الحين. وكثيراً ما كنتُ قد فسَّرتُ الدين على هواي، ولكن لم أخلُ من الدين يوماً، فكان رجوعي إلى هذا الموضوع أيسرَ كلفةً لي، وهو موضوع محزن عند الكثرة من الناس، ولكنه عذب غاية العذوبة عند من يتخذه موضوع تعزية

ورجاء. ولقد نفعتْني ماما في هذا القبيل أضعاف ما كان ينفعني جميع اللاهوتيين.

فما فاتها أن تجعل للدين نسقاً معيّناً وهي التي جعلتْ لكل شيء نسقاً. وكان نسقها شتيت أفكار بعضُها جدُّ سليم وبعضها جدُّ أحمق، مع مشاعر تُرَد إلى طبعها، ومع أحكام مسبقة نشأتْ عن تربيتها. وعلى الجملة، فإن المؤمنين يتمثلون الله على ما هم عليه أنفسهم، فالأخيار منهم يتمثلونه خيراً، والأشرار يتمثلونه شريراً، المتدينون الحاقدون المتشائمون لا يرون إلا الجحيم لأنهم يريدون أن يدينوا الناس كافة؛ أما النفوس المحبة الوادعة، فتكاد لا تؤمن بالجحيم، ومما أثار استغرابي، وما يزال، هو أن فينولون الطيّب قد ذكر الجحيم في كتابه «**تيليماك**»[4] وكأنه يؤمن بها حقَّ الإيمان، لكني آمل أن يكون قد كذب، إذ مهما يصدق الإنسان في قوله، فلا بد له أن يكذب أحياناً إذا كان من الكهنة. أما ماما، فلم تَكْذبني، ثم إن روحها التي لم تعرف الحقد ولا تمثّلت الله منتقماً حقوداً موصول الغضب، لم ترَ إلا الرحمة والغفران حيث لم يرَ المتدينون سوى العدل والقصاص. وكثيراً ما قالت إنه ليس في الله من عدالة تنصفنا، إذ لم يؤتنا ما يجب من أجل صلاحنا، بل هو قد دعانا إلى أن نسأله من جديد فوق ما قد آتانا. والغريب في ماما أنها ما انفكت تؤمن بالمطهر على غير إيمان منها بالجحيم. وذلك أن ماما لم تدر ما تصنع بنفوس الأشرار، ولا أن تكتب عليهم الهلاك الأبدي، ولا استطاعت أن تجعلهم مع الأخيار إلى أن يصبحوا هم أنفسهم أخياراً، والواقع أنه لا بد من الإقرار أن الأشرار هم، في الدنيا وفي الآخرة، قوم جد مزعجين.

(4) تيلمياك (*Télémaque*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وههنا غرابة أخرى. فلقد رأيتُ أن هذا المذهب يبطل عقيدة الخطيئة الأصلية ومغفرة الخطايا ويزعزع أساس المسيحية كما هي عليه لدى سواد الناس، ورأيتُ أيضاً أن هذا المذهب يقضي، في الأقل، على الديانة الكاثوليكية. بيد أن ماما كانت، مع ذلك، كاثوليكية حقّاً، أو ادّعت أنها كاثوليكية حقّ، والمؤكّد أن ادعاءها كان سليم النية. فلقد بدا لماما أن الكتاب المقدس يفسّر تفسيراً حرفيّاً ضيّقاً مفرطاً. وأن ما فيه من ذكر للعذاب الأبدي إن هو إلا وعيد أو مجاز، وبدا لها أن موت يسوع المسيح مَثلٌ للمحبة الإلهية الحقّ إذ يعلّم البشرَ أن يحبّوا الله وأن يتحابوا كما يحبّونه. وخلاصة القول أن ماما قد وفت بالدين الذي اعتنقتْ فسلّمتْ بعقائده تسليماً صادقاً، حتى إذا دار الجدل على كل عقيدة منه، اتضح أنها تؤمن على غير طريقة الكنيسة في الإيمان، وإن خضعتْ للكنيسة في كل حال. وكانت ماما من الدين على بساطة قلب ومصارحة هما أفصح من المماحكات، وكثيراً ما أَحرجت الناس، حتى معلم اعترافها أحرجتْه لأنها لم تخف عليه شيئاً. وكانت تقول له: «إنني كاثوليكية حقّ، وأريد أن أبقى هكذا أبداً فأتبنى أحكام الكنيسة، أُمَّنا المقدسة، أتبناها بكل ما في نفسي من قوىً وطاقات. فما أنا وليّة إيماني. إنما أنا ولية إرادتي أُخضعها بلا تحفظ، أريد أن أؤمن إيماناً شاملاً، فما الذي تطلب فوق ذلك؟»

ولو لم يكن من أخلاق مسيحية، لسارت ماما عليها لفرط ما قد لاءمت طبعها. فأدّت الفروض بأجمعها، ولو لم تكن فروضاً لأدتها، فإذا هي واجهتْ ما لا فرق فيه من هذا النحو، مالت إلى الطاعة، ولو لم يؤذَن لها أن تأكل اللحم في أيام القطاعة، بل لو لم يوصَف لها أن تأكله، لصامت عنه في ما بين الله وبينها من غير أن يكون لاحترازها الصحّيّ علاقةٌ بالصيام. لكن هذه الأخلاقيات

جمعاء قد ارْتَهَنت بما علّمها إياه السيد دوثافيلْ[5]، أو هي، في الأصح، قد زعمتْ أنها لا ترى في تعليمه ما يخالف الأخلاقيات. ولو قامت تضاجع، في اليوم الواحد، عشرين رجلاً، لظلت مطمئنة الضمير، بل ما شعرتْ بوخزة منه ولا أحست بلذة الشهوة. وإني أعلم أن الكثيرات من المتدينات لسن أبعد منها شكّاً في هذا الفعل، لكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن يتقلّبنَ في غواية الأهواء، على حين لم يستهو ماما إلا السفسطات. فإنها، وهي على أوفى أحاديثها تأثيراً، وأكاد أقول وهي على أوفى أحاديثها صلاحاً كانت يمكنها أن تتردى في هذا الفعل ولا تتبدل هيئتُها أو يتغير صوتُها أو تدرك أنها بفعلها قد ناقضتْ قولها. وربما قطعتْ حديثها من أجل هذا الفعل، ثم عادت إلى الحديث تواصله بمثْل ما كانت عليه من صفاء، وذلك لفرط ما قد أقنعتْ في قرارة نفسها بأن هذا الفعل ليس إلا تعاطياً اجتماعياً في وسع كل ذي لب أن يفسّره وأن يمارسه وأن يكفّ عنه بحسب مقتضيات أحواله ليس يخشى أن يخطأ إلى الله. ولئن لم أكن قط على رأيها من هذا القبيل، فإني أقرُّ بأنني لم أجرؤ على أن أعارضها فيه إذ أخجلني مثل هذا الدوار الذي يعارض أشياء المغازلة. ولقد وددتُ لو وضعتُ، في صدد هذا الفعل، قاعدة لغيري أحاول أن أستثني منها نفسي، ولكن كان في مزاج ماما وقايةٌ لها من شطط المبادئ، ثم كنتُ أعلم أنها ليست بالمرأة التي تنخدع، فلو طلبتُ إليها أن تستثنيني، لفسحتُ لها أن تستثني من تشاء. ولقد أَوردتُ، ههنا، هذا التناقض منها كما أوردتُ سواه، وإن لم يؤثّر قط في سلوكها يومئذٍ وإن قلّ تأثيره في سلوكها على وجه عام أوردتُه لأنني وعدتُ بأن أَصْدق

(5) عشيقها الأول، على ما ذكر في الفصل الخامس من هذا الكتاب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

في ذكري لمبادئها، فأَردتُ أن أوفي بوعدي. وبعد، فهآءنذا أعود إلى شأني.

لقد وجدتُ في ماما كل الأسباب التي احتجتُ إليها لكي أجعل نفسي بمأمن من مخاوف الموت وما بعد الموت، فكنتُ أستقي من ينبوع الأمان هذا، وأنا على ثقة وطمأنينة. فتعلَّقتُ يومئذٍ بماما فوق ما سبق أن تعلّقتُ بها، فوددتُ لو سكبتُ فيها كل ما عندي وقد أحسستُ أن الحياة أوشكت أن تفارقني. فنجم عن تجدد تعلّقي بها وعن اقتناعي بدنو أجلي وعن عمق شعوري بأن مصيري في ما بعد مصيرٌ مؤمّن نجم عن ذلك سكينة طبيعية داخلتْها الملذات الحسية. فاستنفدتُ الأهواء التي تُبعد المخاوفَ والآمال، وأخذتُ أستمتع بيسير ما بقي لي من أيام استمتاعاً لا قلق معه ولا اضطراب. وشاركَ في زيادة بهجتي أنني عُنيتُ بأن أتعهد ميل ماما إلى الريف، فقمتُ بما وسعني القيام به ثمة من التلهية لها. وكنتُ، وأنا أُحبّب إليها البستان وغناء الطير والحمامَ والبقر، أزداد تعلّقاً بذلك جميعاً، فنفعتْني تلك الشواغل اليسيرة، التي ملأتْ يومي والتي لم تُقلق سكينتي، أضعاف ما نفعني الحليب وكلُ الأدوية التي تناولتُها حفظاً مني لصحتي السيئة وشفاءً لها ما أمكن.

فألهاني القطف وجني الثمر بقيةَ عامنا ذلك، فازددنا تعلّقاً بالعيشة الريفية ازدياداً متضاعفاً وقد حفّ بنا أولئك القوم الطيّبون، فشقّ علينا أن يأتي الشتاء، فرجعنا إلى المدينة وكأنا قد مضينا إلى المنفى، وخصوصاً أنا، إذ شككتُ في أن ألقى الربيع مرة أخرى وخيّل إليّ أنني أودّع أرض الشارميت إلى أبد الدهر. فما برحتُها إلا وقد قبّلتُ التربة منها والأشجار، فلما ابتعدتُ عنها، التفتُّ إليها مراراً. وكنتُ من زمن طويل قد عفتُ تلميذاتي وفقدتُ الميل إلى التلهي وإلى مَعاشر المدن، فبتُّ لا أخرج من البيت ولا ألقى أحداً،

عدا ماما وعدا السيد سلومون الذي كان قد أصبح طبيبها وطبيبي منذ وقت قريب. ولقد كان رجلاً نزيها، وكان رجل فكر وديكارتياً كبيراً يحسن بما فيه الكفاية الحديث في نسق العالَم، فنفعتْني أحاديثه المبهجة المفيدة فوق ما انتفعتُ بكل ما وَصف لي من علاج، إذ لم أطق يوماً لغو الأحاديث المبتذلة حشواً وسخفاً، وإنما سرّتني على الدوام الأحاديث المفيدة المتينة فما أبيتها على الاطلاق. فاستطيبتُ حديث السيد سلومون، فبدا لي أنني معه سبّاق إلى طلب المعارف الرفيعة التي قُدّر لي أن أكتسبها يوم تتغلب نفسي على ما يعيقها. فلم تقتصر رغبتي على حديث السيد سلومون، بل امتدت إلى ما عالج هو من موضوعات، فابتدأتُ أطلب الكتب التي كانت خليقة بأن تساعدني على أن أستوعب أحاديثه. وكانت الكتب، التي تخلط التدين بالعلوم، هي أوفر الكتب ملائمةً لي، ولا سيما كتب الأوراتوار وبور رويال، فانكببتُ على قراءتها التهمها التهاماً. فوقعتُ على مؤلَّف للأب لامي عنوانه «**أحاديث في العلوم**»(6) وهو مدخل إلى معرفة الكتب التي تبحث في العلوم. فقرأتُه عشرات المرار وعزمتُ على أن أتخذه دليلي. ثم شعرتُ أنني ـ برغم حالتي، أو بالأحرى بسببها قد اجتذبتْني إلى الدراسة قوةٌ لا تُردّ؛ وحينما كنت أنظر بالكامل إلى كل يوم وكأنه آخر يوم من حياتي، كنت أدرس بحماس وكأني لزاماً علي أن أعيش أبداً. فقيل إن ذلك يضرّني، أما أنا، فأخاله نفعني لا في نفسي وحدها، ولكن في جسدي أيضاً. فإنّ ولعي بالاجتهاد والتحصيل قد طاب لي جداً، حتى بتّ لا أفكر في آلامي، فخفّ تأثيرها فيّ، وإن كانت، في الواقع، لا شيء سكّنها فعلاً. فأمسيتُ لا تعتريني أوجاع حادّة، فألفتُ حالة الذبول والأرق،

(6) **أحاديث في العلوم** (*Entretiens sur les sciences*). المترجم. [تعليق المراجع: ع. لبيب]: Bernard Lamy *Entretiens sur les sciences*, 1684.

twitter @baghdad_library

وأَلفتُ أن أفكر بدل أن أعمل، وألفت أن أنظر إلى تلاشي صحتي تلاشياً بطيئاً مستمراً وكأنه انحدار لا بد منه ولا مردّ له بسوى الموت.

فكان من نظرتي هذه أنها قد زهّدتْني لا عن كل سعي في الحياة فحسب، لكنها، إلى هذا، قد خلّصتْني من مزعجات الأدوية التي أُكرهتُ على أن أتناولها. فلما اقتنع السيد سلومون أن أدويته لن تقوى على إنقاذي، أعفاني من طعمها الكريه واكتفى بأن علّل أوجاع ماما ببعض العلاجات التي لا تنفع ولا تضرّ بل تخضع آمال المريض وتبقي ثقته بالطبيب. فملتُ عن الحمية الشديدة التي كنت عليها، ورجعت إلى شرب النبيذ وإلى معيشة الإنسان المتعافى ما وسعني الرجوع، فما امتنعتُ عن شيء، وإنما اعتدلتُ في كل شيء. وعدتُ أخرج من البيت وألقى معارفي، ولا سيما دوكونزييه الذي راقتني عشرته جداً. وما أدري هل استحسنتُ أن أطلب العلم حتى ساعتي الأخيرة، أم هل كان في قلبي بقية أمل في الحياة، لكنني أدري أن ارتقابي للموت لم يفتر من ميلي إلى الدراسة، بل ذكّى عندي هذا الميل، فأسرعتُ أجمع بعض ما حصّلتُ من معرفة لكي أحمله إلى دار الآخرة وكأني أحسب أن ليس فيها إلا ما أحمل إليها من هذا القبيل. وأُولعتُ بحانوت أحد الكتبيين، ويدعى السيد بوشار، وكان يتردد اليه بعض أهل الأدب، حتى إذ دنا الربيع الذي خلتُني لن ألقاه، تزودتُ بعضَ الكتب لكي أقرأها في الشارميت إذا نلت السعد بالرجوع إلى هناك.

ولقد أصبتُ هذا السعد، فاغتنمتُه ما استطعتُ. وإني ليعجزني أن أعبّر عن فرحي يوم أبصرتُ البراعم الأولى. فأن ألقى الربيع من جديد ذلك هو، عندي، أن أُبعَث في الجنة، فما أن ابتدأ الثلج يذوب حتى برحنا بيتنا المظلم فغدونا إلى الشارميت لنستمتع ببواكير

الطبيعة ألحاناً وألواناً، فأصبحتُ لا أشعر أنني مائت. والواقع أنني، إذ أنا بالريف، لم أُصَبْ يوماً بداءٍ مضن طويل ولا لزمتُ السرير قط، على كثرة ما مرضتُ هناك. ولطالما قلت إذ أحسستُ أني أسوأ حالاً مما أَلفتُ: «إذا دنت ساعتي، فاحملوني إلى ظل بعض السنديان، أَعدكم بأنْ سأعود». ثم إنني، مع ضعفي، رجعتُ إلى مزاولة أشغالي الريفية، ولكن على قدْر طاقتي. فأحزنني جداً الحزن أني لم أقوَ على أن أعتني وحدي بالبستان وقد كنتُ إذا قلبتُ قليلاً من التراب، ضاق نَفسي وتصبَّب عرقي فعييتُ، وإذا انحنيتُ، تضاعفَ عليّ الوجيب، فصعد الدم إلى رأسي صعوداً شديداً، فاستويتُ في عجل، ولقد اضطررتُ أن أكتفي من الأشغال بما هو أقلّ إتعاباً لي، ومنها الاعتناء ببرج الحمائم، فتعلّقتُ بها جداً، فكنتُ أُمضي معها عدة ساعات لستُ أملّ لحظة عين. والحمام طائر حييٌّ لا يدجن بالهيّن. فاستطعتُ مع ذاك، أن أوحي إلى حمائمي بجمّ الثقة، فصارت تتبعني حيث اتجهتُ، وتدعني اقبض عليها متى شئت، فكنتُ لا أطلّ على البستان وعلى ساحة الدار إلا حطَّ على ذراعيّ أو على رأسي حمامتان أو ثلاثة، حتى لقد أزعجني موكبها آخر الأمر، فكان لا بد أن أبعد بيني وبين ألفتها، ولقد طاب لي على الدوام أن يَدجن معي الحيوان، ولا سيما الحيوان البريّ المذعور، فأشيع فيه ثقة لم تخدعه يوماً، إذ أحببتُ أن يميل إليّ وهو طليق.

قلتُ إنني جئتُ معي ببعض الكتب، فعمدتُ إلى القراءة فيها ولكن على نحو أرهقني أكثر مما علّمني. وكان خطأ الفكرة التي عندي في الأمور والأشياء قد أقنعني أن مطالعة الكتاب لا نفع منها ما لم يؤتَ القارئ معرفةً تشمل كل مضمون الكتاب، ولم يخطر لي أن المؤلّف، هو نفسه، لم يرزَق مثل هذه المعرفة الشاملة بل

twitter @baghdad_library

استقاها من غيره ما احتاج إلى أن يستقي. فحملني رأيي، هذا، الأحمق على أن أتوقف كل حين، ألجأ إلى المؤلَّفات، كتاباً بعد كتاب، حتى ربما اضطررتُ إلى أن أستنفد عدة مكتبات برمّتها وأنا لم أصل بعد إلى الصفحة العاشرة من المؤلَّف الذي أطالع. ولكن، مع ذلك، أصررتُ على طريقتي الغريبة إصراراً أَضعتُ معه كثيراً من أوقاتي وشوَّشتُ كثيراً من خواطري حتى بتُّ، في باب المعرفة، وأنا أعجز من أن أبصر وأتبصر. وكان في حسن حظي أن قد تنبهت أني ضللت سبيلي في متاهة هائلة، فخرجت منها قبلما أتيه فيها كل التيهان.

ثم إن من أُوتي حقّ الميل إلى العلوم، ولو يسيراً، فزاولها، فطنّ، أولَ الشيء، لما بينها من تواصل يجعلها في تجاذب وتعاون واستنارة متبادلة حتى لا غنى للعلوم بعضها عن بعض. ولئن لا قبَل للذهن البشري بأن يستوعبها جميعاً، ولئن لزمه دائماً أن يختار منها موضوعاً رئيساً، فإذا لم يقف على المفاهيم العامة لسائر العلوم، وحتى في العلم الذي يخصه هو، فإننا كثيراً ما نخبط عمَهاً في الظلام. فأدركت أن ما قمتُ به، في هذه الناحية، هو في نفسه عملٌ جيد مفيد، وأنه لا ينبغي إلا أن أبدل الطريقة التي اعتمدتُها. فتناولتُ، بادئ بدء، الموسوعة فقسمتُها في فروعها، فتبيَّن لي أنه يجب أن أعمد إلى طريقة مخالفة تماماً فأتناول كل فرع على حدة فأتقصى فيه إلى أن تلتقي الفروع كلها عند أوفى غايات التقصي. فعدتُ هكذا إلى التأليف المعتاد، إلا أن عودتي كانت عودة الرجل قد عرف ماذا يعمل. وكان التأمل هو عندي بمقام المعرفة، وكان التفكير الفطري [الطبيعي] عوناً على هديي وإرشادي، فلم يبقَ لديّ من وقت أبدّده أظلَلْت حياً أم قضيت. فمن ناهز الخامسة والعشرين ولم يعرف شيئاً فرغب في أن يتعلم كل شيء، فقد أخذ على نفسه أن ينتفع من وقته ما استطاع. وكنتُ لا أعلم عند أيّ حد قد يوقفني

القدر، أو الموت، عما أنا فيه من جد واجتهاد، فأردتُ في كل مناسبة أن أكتسب كل شيء أَسبرُ استعداداتي الطبيعية وأتبيَّن ما هو أَولى بالدراسة والإنماء.

فوجدتُ في ذلك فائدة أخرى لم تخطر لي وهي أن أنتفع بالكثير من أوقاتي. ولا ريب أني لم أولد على الدرس والتحصيل، لأن طول الاجتهاد يرهقني حتى ليتعذّر عليّ أن أجدّ في الموضوع الواحد مدة نصف ساعة بلا انقطاع، وعلى الأخص حين أتبع أفكار غيري، أما أفكاري، فربما اتفق لي أن انقدتُ لها مدة أطول فوفَّقتُ، حتى إذا تبعتُ بضع صفحات من مؤلَّف ينبغي الاجتهاد في قراءته، مال عنه فكري وتاه بين السحاب. فإن أصررتُ على أن أواصل القراءة، أَرهقتُ نفسي من غير طائل فزاغ بصري فبتُّ لا أرى شيئاً. فأما إذا توالت عليّ موضوعات متنوعة، فقد أراحني أحدها من الآخر فغدت متابعتي لكل منها أسهل عليّ ولم يكن بي من حاجة إلى أن أستريح. فانتفعَ بهذه الملاحظة نهجُ دراستي، وربما خلطتُ الموضوعات بعضاً ببعض فشغلتْني طول النهار ولم تتعبني قط. ولئن كان لي من أشغالي الريفية والمنزلية إلهاءٌ مفيد، لقد وجدتُ، وأنا في حماستي النامية، مزيدَ وقت لكي أدرس، فأمكنتني العناية بالأمرين كليهما ليس يخطر لي أن في ذلك ما يعيق أحدهما ويعيق الآخر.

ثم إنني أسوق، بين هذه الوفرة من دقائق التفصيلات التي تفتنني، والتي كثيراً ما أرهقُ بها القارئ بعض ما لا يكاد يفطن هو له إلا إذا نبّهتُه عليه. وهنا يطيب لي أن أتذكر، ـ مثلاً، ـ مختلف المحاولات التي قمتُ بها لكي أوزع أوقاتي توزيعاً أصيبُ فيه، على حد سواء، من اللذة ما أصيبُ من الفائدة على قدْر الإمكان. وأستطيع القول إن عهد اعتزالي الناس، وأنا دائماً في مرض، هو العهد الذي فيه عشتُ على أقلّ ما يكون التعطل والملل. فانقضى

twitter @baghdad_library

عليّ هكذا شهران، بل ثلاثة أشهر هي من أجمل فصول العام وقد تقّريتُ ميولي الفكرية واستمتعتُ بسحر الحياة التي قدرتُها حقّ قدرها، واستمتعتُ بسحر مجلس حلو كريم، إن جاز أن أطلق اسم المجلس على اتحاد كامل كمالَ هذا الاتحاد، واستمتعتُ بسحر المعارف البهية التي نويتُ أن أكتسبها، إذ إني كنتُ كمن قد امتلكها، أو، بالأحرى، كان الأمر خيراً من ذاك، لأنّ لذة التعلّم قد شاركتْ في سعادتي إلى حد بعيد.

وينبغي أن أجاوز تلك المحاولات التي وفّرتْ لي متعات هي أبسط من أن يمكن تفسيرها. وههنا أقول، مرة أخرى، إن السعادة الحقّ لا توصَف بل تُحَسّ، وكلما تعذَّر وصفها ازداد الإحساس بها، لأنها لا تنجم عن مجموع وقائع، وإنما هي حالة دائمة. ولطالما كرَّرتُ أقوالي هذه، ولو ذكرت الأشياء نفسها كلما عنَّت لي، لكرَّرتُ أقوالي أضعافاً، فلما اتخذتْ عيشتي المتقلبة مجرى مطّرداً [سويّاً]، أصبحتْ ساعاتُ يومي موزعة على النحو التالي:

كنتُ أنهض، كل صباح، قبل الشروق فأصعد، من بستان مجاور، أسيرُ على طريق جميل يمرّ فوق الدالية ويمتد إلى شامبيري، فأؤدّي صلاتي وأنا أتنزه، ولم تكن صلاتي تمتمة شفاه، بل كانت سموّاً قلبيّاً صادقاً وابتهالاً إلى مبدع هذه الطبيعة الأليفة التي انبسط جمالها تحت ناظريّ. فما أَحببتُ قط أن أصلّي وأنا بحجرتي، إذ يبدو لي أن الجدران وسائر ما بناه البشر تحجز بيني وبين الله. وإنما أحببتُ أن أتأمل الباري في آثاره، وقلبي إليه يرتفع، ولقد زكت صلاتي فكانت حقيقة بأن تستجاب. ولم أسأل لنفسي، ولتلك، التي لم تفصلني عنها تمنياتي، إلا حياة بريئة وادعة لا إثم فيها ولا ألم ولا حاجة من مرهقات الحوائج، ولم أسأله، تعالى، إلا أن يميتني ميتة الصالحين ويكتب عليّ مصيرهم، وكانت هذه الصلاة

تنقضي في الإعجاب والتأمل أكثر مما تنقضي في الدعاء والطلبات، وقد أيقنتُ أن أفضل وسيلةٍ نتوسل بها إلى الوهاب، رازق الخيرات الحقّ، ليست أن نطلب ما نحتاج إليه بقدْر ما هي أن نستحق حاجاتنا. ثم كنتُ أعود وأنا أتنزه فأمرّ بطريق طويل وقد اتجهتُ إلى الأشياء الريفية التي تحيط بي، وهي الأشياء الوحيدة التي لا يملّها البصر ولا القلب البتة، وكنت أنظر من بعيد هل نهضتْ ماما، فإذا رأيتُ مصراع نافذتها قد فُتح، طرتُ إليها فرحاً. أما إذا رأيتُه ما يزال مغلقاً، فإنني كنتُ أعرج على البستان أنتظر أن تفيق، أتلهى بأن أستعيد ما قد تعلّمتُه البارحة أو أتلهى بالزريعة والأغراس. حتى إذا فُتح المصراع، ذهبتُ إلى ماما فقبّلتُها وهي في السرير، وكثيراً ما وجدتُها لم تصحُ تماماً بعد، فكان في تقبيلي لها الطاهر الحنون براءةُ سحر لا علاقة له بلذة الحواس.

وكان في عادتنا أن نتناول القهوة والحليب في وجبة الصباح، وهو أهدأُ ساعات يومنا، فتتحادث ونحن على أوفى ما يمكن من الراحة والحرية والاسترسال. فأبقت فيّ جلساتُنا تلك وهي، عادةٌ، جلسات طوال ـ ميلاً إلى وجبات الصباح. فلقد استحببتُ العادة التي تُتْبع في إنجلترا وفي سويسرا حيث طعام الصباح وجبة تامة تجْمع أهلَ البيت كلهم، ففضّلتُها على العادة التي تُتْبَع في فرنسا حيث يتناول الشخص طعام صباحه وهو وحده في حجرته، أو هو لا يأكل البتة في الصباح، وكنا إذا أمضينا ساعة أو ساعتين نتحادث، قمت أقرأ في كتبي إلى وقت الغداء، فبدأت ببعض كتب الفلسفة مثل «**المنطق**»[7] لبور رويال، أو «**المحاولة**»[8] للوك، أو مالبرانش، أو

(7) **المنطق** (*La logique*) ـ المترجم.

(8) **المحاولة** (*L'essaie*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ليبنتز أو ديكارت، إلخ. فما لبثتُ أن تبيَّن لي أن أولئك المؤلّفين هم على تناقض دائم، فصممتُ مشروعاً خياليّاً للتوفيق بينهم، مشروع أعياني وأَفقدني وقتاً كثيراً، فالتبستْ في ذهني الأمور ولم أتقدَّم في تصميمي قط، فتخليتُ عن هذه الطريقة، وأَخذتُ بطريقة أَفضل منها جداً أنسب إليها التقدّم الذي أحرزته رغماً من ضآلة طاقتي، إذ المؤكّد أن قدرتي على الدرس كانت ضعيفة بكل حال. وكنتُ كلما قرأتُ مؤلّفاً، تبينتُ آراءه فتبعتُها لم أُدخل فيها آرائي ولا آراء أحد سواه، ولم أجادله قط. ثم قلتُ لنفسي: «لنبدأ بخزن الآراء الواضحة، صواباً كانت أم خطأً، إلى أن يمتلئ بها ذهني امتلاءً وافراً، وعندئذٍ أقابل بعضاً منها ببعض وأختار». ولستُ أجهل أن هذا المنهج لا يخلو من آفة، لكني به وفَّقتُ لقصد التعلّم. حتى إذا سلختُ بضع سنوات لا أفكر إلا كما يفكر غيري وكأنني لا أتفكّر، بل ولا أكاد أقوم باستدلالات عقلية، وجدتُني بذخيرة كبيرة من المكتسبات تجعلني أكتفي بنفسي وأفكر من دون مساعدة الغير. فلما حرمتْني الأسفارُ والأعمالُ أسباب الرجوع إلى الكتب، أخذتُ أتلهى بأن أستعيد ما كنتُ قد قرأتُ وبأن أقابل بين مختلف أشيائه أَزن كل شيء منها بميزان العقل، وربما حكمت في أساتذتي المؤلّفين. ولئن كنتُ لم أمارس ملَكة الحكم التي لي إلا متأخراً، فما ألفيتُها قد فقدتْ طاقتها، فلما نشرتُ أفكاري المخصوصة علي أنا، لم أُتهَم بأني تلميذ تابع وبأني أخالف القول المحكَم الرفيع[9]

ثم انتقلتُ من هنا إلى علم الهندسة الأساسية، فلم أَذهب فيه إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ أصررتُ على أن أغلب ضعف ذاكرتي فكنتُ لا أنفكّ أرتد على أعقابي عشرات المرار، أعيد السيرة عينها

(9) في الأصل باللاتينية: et de jurer in verba magistri ـ المترجم.

من هذا القبيل. فلم أمل إلى هندسة إقليدس، وهو الذي ابتغى تسلسل الأدلة أكثر مما ابتغى تواصل الأفكار، بل آثرتُ هندسة الأب لامي فأَصبح منذئذٍ وهو أحبّ المؤلّفين إليّ، وما يزال يطيب لي أن أطالع كتبه. ثم كان علم الجبر، وههنا أيضاً اتخذتُ الأب لامي دليلاً. فلما تقدّمتُ في الجبر، استدللتُ بكتاب «**علم الحساب**»[10] للأب رينو، ثم استدللتُ بكتاب «**التحليل المبرهَن**»[11] ولكن مررتُ به مرّاً سريعاً. وذلك أني لم أتقصَّ يوماً في هذا الموضوع فأُدرك تطبيق الجبر على الهندسة إدراكاً وفيّاً، إذ لم أستحبّ قط هذه الطريقة الحسابية التي لا يتاح فيها للإنسان أن يرى ما يعمل، وبدا لي أن مَن حلّ المسألة الهندسية بالمعادلات الجبرية كان كمن عزف نغماً وهو يدير بمقبض آلة العزف. فأوّل مرةٍ اكتشفت بالحساب أن مربّعاً ذي الحدّين يؤلّفه مربّعُ كل جزء منهما ويؤلّفه ضعف محصَّل الضرب لأحدهما في الآخر، لم أصدّق الأمر إلا لمّا رسمتُ شكله، وذلك برغم صحة عملية الضرب التي قمت بها. وليس السبب أني لم أكن أستسيغ كثيراً علم الجبر باعتبار كميته المجرَّدة فقط، بل والحال أني كنت إزاء تطبيق الجبر على الامتداد أردتُ أن أبصر العملية الحسابية مرسومة على الخطوط، وإلا لم أفهم منها شيئاً.

ثم كانت اللغة اللاتينية. فوجدتُها أشقَّ الدروس عليّ فلم أُصبْ فيها قط من تقدّم مذكور. ولقد عمدتُ، في مبتدأ الحال، إلى نهج بور رويال في تعليم اللاتينية، فلم يثمر، فضقتُ بتلك الأبيات الأعجمية المتسعجمة [الأستروغوطية]، وتعذّر عليّ حفظها، وتهتُ بين تلك الكثرة الطاغية من القواعد التي كنتُ لا أتعلّم آخر قاعدة

---

(10) **علم الحساب** (*Science du calcul*) ـ المترجم.

(11) **التحليل المبرهن** (*L'analyse demontrée*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

فيها إلا نسيتُ كل ما سبق منها. فإنّ درس المفردات ليس هو ما ينبغي لمن كان مثلي عديم الذاكرة، لكني أصررتُ على أن أدرس المفردات لكي أقسر ذاكرتي على النمو والاتساع. فاضطررتُ، في النهاية، أن أترك اللاتينية وقد وقفتُ من تركيباتها على ما أمكنني معه أن أقرأ مؤلَّفاً سهل التناول بشرط أن أستعين عليه بالمعجم. فسرتُ على هذا النحو راضياً. واجتهدتُ في الترجمة. لا في الترجمة كتابةً، بل في الترجمة ذهناً، فاكتفيتُ. ولقد استطعتُ بالوقت والتدرب أن أقرأ المؤلّفين اللاتينيين قراءةً جارية مقبولة، ولكن لم أستطع قط أن أتكلّم بهذا اللسان ولا أن أكتب به، وكثيراً ما أحرجني ذلك إذا وجدتُني بين أهل الأدب، وما أدري كيف وجدتُني بينهم. ولقد نشأتْ عن هذه الطريقة في تعلّمي اللاتينية آفةٌ أخرى هي أني لم أُحسن يوماً صناعة النثر فيها وكنتُ بأصول النظم أشدَّ جهلاً. فرغبتُ، مع ذلك، في أن أتحسس تناغم هذا اللسان في منظومه ومنثوره، فاجتهدتُ في هذا الصدد، إلا أني اقتنعتُ أن شأنه يتعذّر من غير معلّم. فلما تعلّمتُ أن أنظم على أسهل التفاعيل، وهي التفاعيل المسدَّسة، أُوتيتُ الصبر على أن أُقطّع معظم أشعار فيرجيليوس مع إشارتي إلى الأوزان والشطور، وكنتُ إذا شككتُ في طول جزء من بعض اللفظات، أو في قصره، رجعتُ إلى فيرجيليوس، ولا يخفى أن هذه الطريقة قد أوقعتْني في أخطاء جمّة سببها بعض ما تجيزه أصول النظم. فإن تكن طريقةُ من يدرس على نفسه طريقةً نافعة، فإن لها مساوئها الجسيمة، وأفدحُها مشقّةٌ لا تُوصف وإني بذلك لأَعلمُ من أي كان.

وكنتُ أتوقف عن القراءة قُبيل الظهر. فإن وجدتُ الغداء لم يتم إعدادُه بعد، ذهبتُ إلى أصدقائي الحمائم فزرتُها، أو مضيتُ إلى البستان أشتغل في انتظاري ساعة الغداء. حتى إذا نودي بي، أَسرعتُ

جد مسرور أتشهى الطعام تشهياً، ومما هو خليق بالذكر أني مهما أمرض، لا أعدَم شهوة الطعام أبداً. فكنا نتغدى ونحن في غاية البهجة، نتحادث عن شؤوننا ريثما يتيسر لماما أن تأكل. وكنا إذا صحا الجو، ذهبنا مرتين في الأسبوع، أو ثلاث مرات، نشرب القهوة خلف البيت في حجرة باردة أنيقة زيّنتْها بحشيشة الدينار[12] فاستطيبنا أن نذهب إلى تلك الحجرة أَيام الحر، نمضي فيها زهاء الساعة، نتعهد خضارنا وأزهارنا، نتحادث عن طريقة معيشتنا، فتزداد استمتاعاً بحلاوتها. وكان لي، في أقصى البستان، أُسرة صغيرة أخرى هي جماعة النحل. فكدتُ لا يفوتني يوم، أن أزورهن، وكثيراً ما رافقتْني ماما في هذه الزيارة، وكنتُ جمّ الاهتمام بما يصنعن، شديد التلهي بأن أبصرهن عائدات بالغنائم، مثقلات بها أحياناً حتى ليتعسّر عليهن المسير. ثم إنني، في أول عهدي بهن، قد جعلني حبُّ الاستطلاع قليل التحفظ منهن، فلسعنني مرتين، أو ثلاثاً، وبعدئذٍ تَعارفنا حقَّ التعارف، فصرتُ مهما اقتربتُ منهن، يدَعنني أقترب، ومها ضاقت بهن الخلايا فخرجن منها فأَحطن بي وحططن على يديّ ووجهي، لا تلسعني منهن أيّ نحلة كانت. وذلك أن الحيوانات كلها تحذر الإنسان، وهي ليست في حذرها على خطأ، ولكن ما تثق أنه لا يريد بها ضرّاً حتى تأمنه أمناً، فمن خان ثقتها به، فهو أشدُّ ضراوةً من الوحش.

ثم كنتُ أعود إلى كتبي، بيد أن شواغلي بعد الظهر كانت إلى التنزه والتلهي أدنى منها إلى العمل والدرس. فلم يسعني بعد الغداء قط أن أحتمل جهد العمل المكتبيّ، كما أن كل مجهود أبذله، في أثناء حر النهار، يشق عليّ أمره، ومع ذلك، لم أفتأ وقتئذٍ وأنا في

---

(12) حشيشة الدينار نبات حشيشي معرّش من فصيلة القرّاصيات يُستعمل زهره في صناعة الجعة - المترجم.

twitter @baghdad_library

شغل بالقراءة من غير درس وليس بها ما يزعجني وأكاد لا أجري فيها على نظام. وأَكثرُ ما تابعت من موضوعات كان التاريخ والجغرافية، وهما موضوعان لا يوجبان كدَّ الذهن أبداً، فتقدّمتُ فيهما ما أمكنني وهنُ الذاكرة أن أتقدّم. وأردت أن أدرس مؤلَّفات الأب بيتو[13]، فأوغلتُ في ظلمات التواريخ [السلاسل الزمانية]، ولكن عفتُ قسمه النقدي الذي لا حد له ولا قرار، فآثرتُ عليه المقياس الدقيق للأزمنة ومجرى الأجرام السماوية. ولو ملكتُ الأجهزة اللازمة، لملتُ إلى علم الفلك، ولكن كان لا بد لي أن أكتفي منه ببعض المبادئ التي أخذتُها عن بعض المؤلَّفات، وأن أكتفي ببعض أعمال الرصد الإجمالية التي أجريتُها بالنظّارة، لا لأمر إلا لكي أعرف المجرى العام للأفلاك، وذلك أن بصري الكليل لا يمكّنني من أن أميّز النجوم بالعين المجردة تمييزاً جلياً. وأذكر، من هذا القبيل، حادثاً كثيراً ما أضحكني: كنتُ قد ابتعتُ مخطط خريطة فلكية مسطَّحة لكي أَدرس النجوم وبروجها. فجعلتُ المخطط في إطار، وكنتُ إذا صفت السماء ليلاً، خرجتُ إلى البستان فوضعتُ الإطار على أربعة قضبان هي في مثل قامتي، وأدرتُ وجه المخطط إلى ناحية الأرض، ثم وضعتُ الشمعة في سطل بين القضبان الأربعة لكي يصل النور إلى المخطط من غير أن تطفئ الريح شمعتي، ثم نظرتُ إلى المخطط بالعين المجردة وإلى الكواكب بالنظّارة، فتمرنت على أن أعرف النجوم وأميز بروجها. ولقد سبق أن أوردتُ، في ما أحسب، أن بستان السيد دو نويريه[14] كان بإزاء الطريق، فأمكن

---

(13) الأب دونيس بيتو (Denis Pétau) (1583-1652) كاهن يسوعي له عدة مؤلفات في التاريخ - المترجم.

(14) السيد دو نويريه (de Noiret) هو مالك البيت الريفي الذي أقام فيه روسو والسيدة دو فارانس، على ما ذكر في آخر الفصل الخامس من هذا الكتاب - المترجم.

المارّين أن يشاهدوا كل ما يجري في البستان. فبينما كان بعض الفلاحين يجوزون ليلاً، والوقت متأخر، إذ أبصروني مع أدواتي وقد شُغلتُ برصد الكواكب. وكان منظر النور على المخطط، ولم يتبينوا مصدره لأن أطراف السطل حجبتْ عنهم الشمعة، وكان منظر القضبان الأربعة، ومنظر الرقعة الواسعة التي لُطختْ بالخطوط والأشكال، ومنظر الإطار، وحركة نظّارتي ذاهبةً إلى السماء، وعيني آيبةً إلى المخطط. كان منظر ذلك كله أشبه بالسحر، ففزعوا. ولم تكن ملابسي لتدعوهم إلى الاطمئنان، إذ على رأسي قبعة لها طرفان متدليان كأذني الكلب، وإذ علي رداء مضرَّب قصير إلى الخصر قد أجبرتْني ماما على أن ألبسه، فبدا لهم في ذلك صورةُ ساحر ولا ريب، وكان الوقت قد قارب نصف الليل، فظنوا بلا أدنى شكّ أنه موعد الابتداء بجلسة السحر واستحضار الشيطان. فأبوا أن يروا أكثر مما أبصروا، فهربوا مذعورين جداً، فأيقظوا جيرانهم يخبرونهم بما قد شاهدوا. فانتشرت القصة أيّ انتشار حتى إن كل من بالجوار قد علم، في الغد، أن جلسة السحر والشيطان كانت تقام في بيت السيد دو نويريه. ولستُ أدري ما الذي كان ينجم، في النهاية، عن هذه الشائعة لولا أن أحد الفلاحين ممن شهدوا أعمالي السحرية اشتكى، في اليوم عينه، إلى راهبين يسوعيين كانا يزوراننا. فأزالا عنهم الغشاوة إلى حين من غير أن يقفا على جلية الأمر، ثم رويا لنا القصة، فذكرت لهما سببها، فضحكنا كثيراً. ولكن قُرّرَ أن أرصد الفلك بلا إنارة وأن اراجع المخطط وأنا في داخل البيت لئلا يتكرر ما قد حصل. فمن قرأوا في «**رسائل من الجبل**» أعمال السحر الذي قمتُ به في البندقية، وجدوا، ولا جرم، أن لي مؤهلات سحريةً فائقة يعود أمرها إلى وقت بعيد.

كان ذلك هو مجرى عيشتي في الشارميت يوم لا تلهيني

twitter @baghdad_library

الشواغل الريفية التي آثرتُها على سواها إيثاراً تاماً، فدأبتُ دأب الفلاح، في حدود طاقتي وقواي، وإن لم يدَع لي وهني الشديد إلا مزية حسن الإرادة. ولقد توخيتُ عملين، فلم أتقن منهما عملاً. وأصررتُ على أن أنشّط ذاكرتي عنوةً واقتداراً أريد أن أستظهر الشيء الكثير. فكنتُ على الدوام، أحمل كتاباً من الكتب، فلا أنفكّ أدرسه وأعيده في أثناء الشغل حتى ألقى عنتاً لا يمكن أن تتصوّره، وما أدري كيف لم تنته بي تلك المجهودات الباطلة العنيدة إلى الحماقة والبله. فلقد حاولتُ أن أستظهر **ريفيات** فيرجيليوس عشرين مرة في الأقل فلم أحفظ منها حرفاً واحداً. وأضعتُ كثيراً من الكتب، أو أجزاءً منها، إذ تعودتُ أن أحملها حيث اتجهتُ، أإلى برج الحمام ذهبت أم إلى الحديقة أم إلى البستان أم إلى الدالية. فكنتُ أضع كتابي على جذع شجرة، أو على سياج بعض الأغراس، فيشغلني عنه شاغل، فأذهلُ عن استعادة الكتاب، وكثيراً ما رجعتُ بعد زهاء أسبوعين فوجدتُه قد تلف أو قد دبّ فيه النمل أو ذهب به الحلزون. ولقد أمسى شغفي بالحفظ عادة لي غريبة فاشبهتُ ذوي البلادة ولم أن أتمتم في بعض الكلام.

وكانت مؤلَّفات بور رويال والأوراتوار، وهي جُلّ ما قرأتُ أيامئذٍ، قد صيّرتْني يانسينياً بعض الشيء، وربما هالني لاهوت اليانسينيين القاسي، مع ثقتي بهم العظيمة. فأخذ الخوف من الجحيم يُقلق اطمئناني، وكنتُ إلى ذلك الحين قليلاً ما خفتها، ولولا أن ماما هدّأتْ من روعي، لكانت زعزعتْني تلك العقيدة المرعبة، كما أن معلم اعترافي، وكان أيضاً معلم اعتراف ماما، قد شارك في تهدئتي، وهو الأب هيمه اليسوعي، شيخ طيّب حكيم لن أبرح أجلّ ذكره أبداً. ولئن كان من اليسوعيين، فلقد أُوتي بساطة الطفل، وكانت الأخلاق عنده إلى اللطف أقرب منها إلى التساهل، وهي ما قد

احتجتُ اليه حيال الانطباعات اليانسينية المؤسفة. فكان هذا الإنسان الطيّب ورفيقه الأب كوبييه كثيراً ما يزورانا في الشارميت برغم صعوبة الطريق وطوله عليهما إذ هما في تلك السن. فأجزلتْ زيارتهما عليّ نفعاً أَجزلَ الله مثله على روحيهما. فلقد كانا يؤمئذٍ، أعلى سنّاً من أن أحسب أنهما، يومَنا، ما يزالان في هذه الحياة الدنيا. وكنت أَشخص إلى شامبيري أزورهما، فأَلفتُ بيتهما شيئاً بعد شيء. وإنَّ ذلك العهد السعيد ليتصل تذكاره بعهدي مع الكاهنين اليسوعيين حتى إن كلا العهدين يحبّب إلي أحدُهما الآخر. ولئن بدا لي على الدوام أن عقيدتهما خطرٌ، لم أتمكن قط أن أبغضهما بغضاً صادقاً.

ثم إنني أود لو أعلم هل يخطر لقلوب سائر البشر مثل هذه الصبيانيات التي تخطر بقلبي أحياناً. ومع ما قد قيل لي في شأن الجحيم، لم يبرح خوفي منها يهزّني وأنا بين دروسي أعيش عيشة بريئة على قدْر المستطاع. وكثيراً ما ساءلت نفسي أقول: «في أيّ حالة أنا؟ وإن متّ لساعتي، أفإلى الهلاك الأبدي؟» إن الأمر، بحسب رأي اليانسينيين، لا شك فيه. أما بحسب ضميري، فإن الأمر قد بدا لي على خلاف ذلك. فتخوفتُ وتحيرتُ، فلجأتُ إلى أدعى الوسائل إلى الضحك والسخرية وهي التي لو لجأ إليها أحد سواي، لحبستُه في دار الأمراض العقلية. وذلك أنني كنتُ، يوماً، أتأمل في هذا الموضوع المقلق، فقمتُ أرمي جذوع الشجر بالحجارة رمياً آليّاً من غير انتباه، فرميتُ برشاقتي المعهودة، أعني أنني كدتُ لا أصيب أيّ شجرة كانت. وإني لأُجري هذا التمرين الرائع، إذ عنّ لي أن أتخذه وسيلةَ تخمين وتقدير فأسكّن ما أنا فيه من قلق. فقلتُ في نفسي: «سأرمي الحجر تجاه الشجرة التي هي قبالتي، فإن أَصبتُها، فهذا علامة خلاص، وإن أخطأتُها، فهذا علامة هلاك». وبينما كنتُ

twitter @baghdad_library

أقول ذلك، رميتُ الشجرة بالحجر ويدي ترجف وقلبي في وجيب، ولكنه من حسن الحظ الكبير أصاب الشجرة في وسطها، ولم تصعب عليّ إصابتها لأني اخترتُها شجرة ضخمة قريبة، ومن ذلك اليوم لم أشكّ في خلاصي قط. ولست أدري، وأنا أتذكر هذي الأضحوكة، أينبغي أن أضحك من نفسي أم ينبغي أن أبكي عليها. أما أنتم، أيها العظماء الذي لا ريب يضحكون، فهنّئوا أنفسكم، ولكن لا تحتقروا بؤسي، أَقسمت لكم أني لأشعرُ به حقّ الشعور.

بقي أن هذه الحيرات والدموع التي ربما لا تنفصل عن التدين، لم تكن تمثل حالة دائمة. فكنتُ، على الجملة، في هدوء، وكان لتفكيري في قرب الأجل تأثيرٌ في نفسي هو إلى سكينة الذبول أدنى منه إلى الاكتئاب، لا بل هو تأثيرٌ له حلاوته. فلقد وقعتُ، بين أوراق لي قديمة، على كلمة مني وإليّ هنّأتُ فيها نفسي بأن سأقضي في السن التي بها يتشجع الإنسان على أن يواجه الموت لم يكابد في حياته آلاماً مبّرحة لا في الجسد ولا في الروح. فلكم كنتُ على صواب! فلقد أَلهمني الحسُّ أنْ أخشى الحياة لئلا أشقى، وكأنني قد تنبأتُ أرى ما ينتظرني في الشيخوخة من مصير. فما ألفيتُني يوماً وأنا إلى الحكمة أقرب مما كنتُ عليه في تلك الأيام، إذ لم أندم على ما فات ندماً كثيراً، وإذ عشتُ بنجوة من هموم الغد، فتملّكني الاستمتاع بالساعة التي أنا فيها. ثم إن اللذات الحسّية، وهي في سجية المتدينين، لتمتّعهم بما يباح لهم أن يتمتعوا به من لذات بريئة. فيتجرّم عليهم محبو الحياة الدنيا، وما أدري لتجرمهم سبباً، بل إني لأعرف السبب، وذاك أنهم يحسدون غيرهم على كونهم يتمتعون بيسير المباهج التي فقدوا هم لذة التمتع بها. ولقد نعمتُ بهذه اللذة، فطاب لي أن أشبعها في ارتياح ضمير. فأخذ قلبي، ولم يكن بعد قد ابتلى الأهواء، ينقاد لكل شيء وأنا في مثل لذة الطفل، أو إن جاز

التعبير في مثل لذاذة الملاك، ذلك، والحقّ يقال، إن لتلك المتعات الهنيئة الصفاءَ الذي للمتعات في الجنة. فالغداء على العشب في مونتانيول، والعشاء تحت العريش، وقطف الثمر، وجني العنب، وسهرات قَشر الحبوب مع الخدم ذلك أجمع كان لنا منه مواسم سُرَّت بها ماما على قدْر ما سُررتُ. وكانت لنا نزهةٌ أوفرُ متعةً إذ نحن أوفى انفراداً وإذ القلب منا أوفى بوحاً وانطلاقاً. ومن النزه التي رسختْ فيّ ذكراها نزهةٌ قمنا بها يوم عيد القديس لويس، وكانت ماما على هذا الاسم[15] فذهبنا وحدنا معاً، في ساعة مبكرة، بعد القداس الذي كان أحد الآباء الكرمليين قد أقامه، عند شقّ الفجر، في كنيسة تلاصق البيت. فاقترحتُ أن نجول في الناحية المواجهة للناحية التي كنا فيها ولم نكن قد زرناها بعد. وحملنا زادنا لأن الرحلة رحلةُ نهار كامل. ولم تكن ماما لتقصّر عن المشي، مع أنها سمينة، على شيء من قصر القامة، فمضينا من تل إلى تل، ومن غابة إلى غابة، والشمس علينا في أحيان، ونحن في الظل أغلبَ الأحايين، نستريح بين آنٍ وآن، ننسى أنفسنا الساعات الطوال، نتحادث عنا، عن اتحادنا، عن طيب ما نحن فيه، نتمنى لو يدوم، ولكن هيهات. وبدت الأحوال كلها وكأنها تشارك في سعادة ذلك اليوم. وكان السحاب قد همى منذ قليل، ولا غبار، وكانت السواقي جاريات، وكان النسيم البليل يهز الأوراق، والجو في نقاوة، والأفق بلا غيوم، وكانت السماء صافية، وكان قلب ماما وقلبي على صفو السماء. فتغدينا عند أحد القرويين نتقاسم الغداء نحن وأُسرته فشكرتْنا هذه شكراً صادقاً، حقّاً إن أهل سافوى المساكين لقوم طيّبون! فلما تغدينا، ملنا إلى ظلال بعض عاتيات الشجر، ثم قمتُ أجمع العيدان

(15) السيدة فرنسواز لويز دو فارانس - المترجم.

twitter @baghdad_library

اليابسة لكي نغلي قهوتنا، فيما ماما قد تلهّت بجمع الأعشاب ما بين العلّيق، حتى إذا جئتُها بضمة أزهار، لفتت هي نظري إلى ألف شيء من الأزهار غريب التكوين، فأبهجني ذلك ومال بي إلى علم النبات ولكن في ما بعد؛ أما عهدئذٍ، فإن الوقت لم يكن بعد قد حان وكنتُ عن علم النبات في شغل بدروس أخر. ثم طرقت خاطري فكرة، فثنتني عن الأزهار والأغراس. وذلك بأن حالتي النفسية، وما قلنا يؤمئذٍ وما فعلنا، والأشياء التي أثّرت فيّ - قد ذكّرتْني كلُّها بالحلم الذي أتاني في أنوسي وأنا صاح، لسبع سنوات أو ثمان خلتْ، وقد أوردتُه في موضعه. وكانت العلاقة ما بين نزهتنا وذلك الحلم بالغة الوقع فيّ فتأثرتُ منها حتى الدموع. فأقبلتُ على هذه الصديقة الغالية الحبيبة فقبّلتُها وأنا في نوبة انفعال، ثم قلتُ لها في هيام: «ماما! ماما! من زمان بعيد وعُدتُ بهذا اليوم، ولستُ أرى فوقه شيئاً. بفضلك أنت بلغتُ أوج السعادة، فعسى ألا أهبط عن أوجها يوماً، وعسى أن تدوم سعادتي ما شئت أن تدوم فلا تزول إلا عندما أزول».

فمضت أيامي السعيدة على هذا النحو من تمام الهناء، ولا سيما أنني لم أقع على ما يكدّرها ولا توقّعتُ نهايتها إلا مع نهايتي. وليس ذلك أن همومي نضبتْ كلها، ولكن رأيتُ همومي قد جرت على مجرَى آخر حاولتُ جهدي أن أوجهه إلى أمور مجدية يكون لي بها الشفاء. ولقد طُبعتْ ماما على حبّ الريف، وما كان حبّي للريف على شيء من الفتور، ثم أخذتْ تميل إلى الأشغال الريفية ميلاً متدرجاً، فرغبتْ في أن تستغل الأراضي، ورُزقتْ، في هذا الشأن، علماً طاب لها أن تستخدمه. فلما لم ترقْها أراضي البيت الذي استأجرتْه، اكترتْ بعضَ الحقول تارة، وتارة بعض المروج، فوجَّهتْ ميولاتها الاستثمارية إلى الزراعة بدل أن تبقى في البيت ولا شاغل

لها فيه، وابتغت أن تصبح عن قريب مزارعة كبيرة. فلم أستحسن هذا التوسع، فقاومتُه ما استطعتُ، يقيناً مني بأنها ستُخدَع في كل حال وبأن إنفاقها لن يبرح فوق دخلها لما قد فُطرتْ عليه من تسهّل وتبذير. ولكن هان عليّ الأمر إذ فكرتُ أن هذا الدخل لن يكون، في الأقل، دون جدوى وإنه مُعين لها على العيش. وبدأ العمل الزراعي ذاك من بين المشروعات التي يمكنها إقامتها وكأنه أقلها مدعاة للإفلاس، ولم أرَ فيه مصدر ربح، بل وجدتُ به شاغلاً مستمرّاً يجنّبها صفقات الخسران والمحتالين. فرغبتُ حق الرغبة في أن أستعيد ما يمكن أن أستعيد من عافية ونشاط فأرعى شؤون ماما وأراقب عمالها أو أَرأسهم، وبديهيّ أن جهدي في هذا السبيل لا بد أن يخرجني من بين الكتب ويلهيني عن حالتي فتتحسّن.

فلما وافى الشتاء التالي، حمل إليّ باريو[16]، وقد عاد من إيطاليا، بعض الكتب ومنها كتاب **البونتاميي**[17]، وكتاب في **الموسيقى**[18] للأب بانكييري، فرغّباني في تاريخ الموسيقى وفي الأبحاث النظرية من هذا الفن الجميل. فمكث باريو معنا بعض الوقت، وكنتُ قد بلغتُ سن الرشد منذ بضعة أشهر، فاتُّفقَ على أن أمضي إلى جنيف، الربيعَ القادم، لكي أجدد مطالبتي بمال الوالدة، أو، على الأقل، كي أجدد المطالبة بحصتي منه ريثما يُعلَم إلى ما صار إليه شقيقي. فجرى ذلك على حسب ما اتفق عليه. فشخصتُ إلى جنيف، وشخص إليها أبي من جهته، وكان يأتي جنيف من زمن طويل فما يتصدى له أحد، وإن لم يتقيد هو بما حُكم عليه به. فلقد

---

(16) باريو (Barillot) صاحب مكتبة في ليون - المترجم.

(17) بونتاميي مؤلف عدة كتب منها **تاريخ الموسيقى**، وهو من معاصري روسو - المترجم.

(18) في الأصل بالإيطالية: Cartella per musica ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

كان أولوا الأمر في جنيف يقدرون شجاعة أبي، ويحترمون تجرده ونزاهته، فتناسوا قضيته، وكان القضاة قد شغلهم المشروع الذي افتضح بعد وقت قريب، فلم يشاؤوا أن يخيفوا البورجوازية، بل لم يشاؤوا أن يخيفوها قبل الأوان فيذكّروها بما سلف من انحيازهم، والوقت يومئذٍ غير ملائم للإخافة والتذكير[19] فخشيتُ أن تُفتعل لي القلاقل لأني غيرتُ ديني، ولكن لم أَلقَ شيئاً من هذا القبيل. فشرائع جنيف هي، في هذه الناحية، أقلّ قسوةً من شرائع برن حيث من يغيّر دينه لا يفقد حقوقه وحدها بل يفقد أيضاً ماله. فلم ينازعني مالي أحد، لكن هذا المال انتهى إلى حاصل زهيد جداً، ولستُ أدري لماذا. ولئن أيقنت السلطة بأن شقيقي قد توفى، لم يكن لديها على وفاته من أدلة شرعية. فأعوزتْني الأسباب الموجبة التي تسوّغ لي أن أطالب بحصته، فتركتُها لم آسف عليها إذ تخليتُ عنها لأبي فتعينه على أن يتعيش، فانتفعَ بها حتى آخر أيامه. وما أن أُنهيت الإجراءات القضائية وتسلّمتُ حصتي حتى أَنفقتُ بعضاً منها على الكتب، ثم طرتُ إلى ماما فوضعتُ عند قدميها بقية النقود. وكان قلبي يخفق من فرح وأنا راجع، حتى إذا سلمتها المال، شعرتُ بأن تلك الساعة هي، عندي، أعذب جداً من الساعة التي فيها تسلّمته. فتقبلتْه ببساطة النفوس الكريمة التي ترى مثل هذا الأمر فلا تعجب له لأنها تأتيه في غير تكلّف ولا مجهود. ولقد أُنفقَ معظم المال من أجلي بما يشبه تلك البساطة، ولو ورد المال على ماما من باب آخر، لم ينفَق إلا في هذا السبيل.

ثم إنني لم أسترد العافية، بل أخذتُ أتلاشى تلاشياً قد اتضح

(19) إشارة إلى اضطرابات جنيف عام 1737 وقد تقدم ذكرها في الفصل الخامس من هذا الكتاب ـ المترجم.

للناظرين، إذ شحبَ لوني كأنني الميت، وهزلَ بدني كأني الهيكل العظم، واشتدّ عليّ ضربُ الشرايين وتضاعَفَ ارتعاش القلب ولم يبرح نفَسي في ضيق، فوهنتُ حتى شقَّ عليّ أن أتحرك. وكنتُ لا أحثّ خطاي إلا لهثتُ أكاد أختنق، ولا أنحني إلا شعرتُ بالدوار وتعذَّرَ عليّ أن أنهض بأخفّ حمل. فأُكرهتُ ألا أقوم بأيّ عمل كان إكراهاً هو أكثر ما يعذّب امرأ مثلي دائم الحركة. والمؤكّد أن أبخرة [أمزجة] سوداوية قد خالطتْ ما اعتراني، وهذه الأبخرة هي أمراض الناس السعداء؛ وإنها مرضي أنا: فإن الدموع التي طالما ذرفتُ من غير داعٍ إلى البكاء، وذعري إذا سمعتُ صوتَ ورقة أو عصفور، واضطراب مزاجي وأنا في أهدإ عيش إن ذلك أجمع قد دلّ على سآمة عيشة الرغد والسعة، السآمة التي تهيج الإحساس حتى الجنون إن جاز التعبير. فلقد خُلقنا لكي لا نسعد في دنيانا إلا قليلاً. فلا بد أن تشقى الروح فينا أو أن يشقى الجسد، ذلك إذا لم يشقَ كلاهما، فإن تعافت الروح أساءت إلى الجسد، وإن تعافى الجسد، أساء إلى الروح. ولو أمكنني أن أستمتع بالحياة، لمنعني من هذا الاستمتاع انحطاطُ الآلة التي لي [جسدي]، ولم يستطع أحد أن يدلّني إلى موضع الداء. لكن جسدي، برغم انحدارالعمر [السنين] وخطر العلل، قد استردّ بعدئذٍ طاقة أعانتني على أن أبلو المصائب التي نزلتْ بي خيراً مما بلوتُها قبْلاً. واليوم إذ أكتب ذلك وأنا عاجز وقد قاربتُ الستين وأثقلتْني ضروب الأوجاع، أحسُّ أن عندي عنفوان لمجابهة الألم يفوق ما أوتيتُ من عنفوان للإقبال على الاستمتاع إذ أنا في أوج الشباب وفي حقّ السعادة التي لا تعلو عليها سعادة.

ولقد تمَّ ما ترديتُ فيه إذ أَدخلتُ في مطالعاتي شيئاً من الفيزيولوجية، فطفقتُ أَدرس علم التشريح وأعرضُ أجهزة آلتي [البدنية] المتعددة فأتوقَّع أن يختلّ مجراها مراراً في اليوم الواحد. فلم

twitter @baghdad_library

أعجَب من أني مائت، ولكن عجبتُ من أني بقيتُ حيّاً إلى ذلك اليوم. فكنتُ لا أقرأ وصْفَ مرض إلا حسبته مرضي أنا. وإني لعلي يقين أنني لو لم أمرض عهدئذٍ، لكنتُ مرضتُ إذ قمتُ بتلك الدراسة المشؤومة، وكنتُ أجد في كل مرض عارضاً من عوارض مرضي حتى خيّل إليّ أنني مصاب بعوارضه جميعاً. ثم جنيتُ، زيادة على ذلك، مرضاً أشدَّ إيلاماً خلتُني برئتُ منه: مرض توهُّم الشفاء، وهو الذي قلما يجتنبه من يقبل على قراءة كتب الطب. ولفرط ما قد بحثتُ وفكرتُ وقابلتُ، أنشأتُ أتصوّر أن أساس مرضي تورّمٌ في القلب، وسلومون[20] نفسه قد صعقه هذا الأمر. وكان من المعقول، على هدى ما تصوّرتُ، أن أمضي في ما سبق أن عزمتُ عليه. ولكن لم أفعل ذلك، بل وتَّرتُ كل ما بذهني من أعصاب أبحث في كيف الشفاء من تورّم القلب وقد صممتُ أن آخذ بذلك العلاج العجيب. وكان أنيه، في أثناء رحلة قام بها إلى مونيلييه لكي يزور حديقة النبات ويزور السيد سوفاج المعلّم فيها، قد قيل له إن السيد فيز شُفي من مثل هذا التورّم. فتذكرتْ ماما هذا الذي قيل لأنيه فكلّمتْني به. فما احتجتُ إلى غير ذلك حتى أرغب في أن أقصد السيد فيز لأشاوره في حالتي. وكان أملي بالشفاء قد جدّد شجاعتي وقواي على أن أقوم بتلك الرحلة وقد أتاحها لي المال الذي حصلت عليه في جنيف. أما ماما، فقد حثتني على ذلك بدل أن ترغّبني عنه، وبعد، فهآءنذا في طريقي إلى مونبلييه.

لكني لم أضطر أن أُبْعدَ إلى هناك لكي ألقى الطبيب الذي احتجتُ اليه. وكان ركوب الفرس يتعبني، فاكتريتُ محفة في جرينوبل. فلما كنتُ في موران، توالت في إثر محفتي خمس محفات

---

(20) هو طبيب روسو وطبيب السيدة دو فارانس، على ما سبقت الإشارة إليه - المترجم.

أو ست، لكأنها حقاً قصة المحفات[21]، وكانت هذه المحفات يؤلّف معظمُها موكبَ عروس تدعى مدام دو كولومبييه وقد رافقتْها سيدة أخرى تدعى السيدة دو لارناج هي دون الأولى صباً وجمالاً، بيد أنها ليست دونها لطفاً وإيناساً. وكانت السيدة دو لارناج تريد أن تواصل الطريق من رومان إلى بورج سانت أنديول في جوار بون دوسانت أسبري، على حين أن السيدة دوكولومبييه قررتْ أن تقف في رومان. ولستَ تنتظر، وأنت تدري ما أنا عليه من حياء، أن أسارع للتعرّف إلى سيدتين باهرتين وإلى الحاشية التي حفّت بهما، إلا أني كنتُ أتبع الطريق نفسها وأحلّ بمواضع النزول نفسها وأتقدّم إلى المائدة نفسها، فكان لا ندحة لنا عن أن نتعارف لئلا يُظنّ أني خشن الطباع أجتنب معاشرة الناس. فتعارفنا في أسرع مما أَردتُ أن نتعارف، لأن الضجة التي رافقت الموكب لم تكن لتلائم شخصاً مريضاً نظيري، ولا سيما إذا كان على ما قد اضطربتُ فيه من مزاج، لكن الفضول يجعل أمثال تلك النساء الحسان فاتنات الهيئة، بارعات التصدي، حتى إنهن إذا قصدن أن يتعرفن برجل، بدأن بإثارة إعجابه، وهذا ما قد جرى لي. لكن مدام دوكولومبيه لم يتح لها الوقت أن تثيرني وقد أحاط بها بعض «الأشراس»، كما أنه لم يكن من داعٍ إلى أن تثيرني ما دمنا إلى افتراق.

أما السيدة دو لارناج، فقد اتسع لها المجال طول الطريق، وكانت أقلّ عرضةً للمزعجين، فأقبلتْ عليّ، فالوداع جان جاك، أيها المسكين! بل الوداع أيتها الحمّى والأبخرة السوداوية والتورّم! كل شيء زال عني وأنا بالقرب من مدام دولارناج كل شيء عدا بعض

(21) يومئ روسو، ههنا، إلى فصل من كتاب سكارون *Le roman comique* وهو فصل توالت فيه أربع محفات تجرها الخيول بدل أن يحملها الرجال، فوصلت إلى النزل محفة بعد محفة. انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الارتعاش الذي لم تشأ أن تبرئني منه. وكان سوء صحتي أول سبب لتعارفنا. فلقد ظهر أنني كنتُ مريضاً، وكان معلوماً أنني قاصد إلى مونبلييه، فوجب ألا تنبئ هيئتي وسلوكي بأني متهتك خليع. فاتضح، في ما بعد، أنه لم يُظَن أني شاخص إلى مونبلييه لكي أتعالج تعالجاً مضاداً للأمراض الزهرية. ولئن لم يكن في مرض الرجل ما يوصي به إلى النساء توصية بالغة، فإن مرضي قد وجّه إليّ اهتمام هاتين السيدتين. فكانتا تبعثان في الصباح تستعلمان حالتي وتدعواني إلى تناول القهوة معهما وتسألاني أن كيف أمضيتُ ليلتي. فقلتُ لهما، مرة، إنني لا أدري كيف أمضيتُ ليلتي، وذلك بحسب عادة لي حميدة درجتُ معها على ان أتكلّم من غير تفكير. فحسبتا أني مجنون، فازدادتا تأملاً فيّ وازدادتا نظراً إليّ. وسمعتُ مدام دوكولومبييه تقول لصديقتها مرة: «إنه لم يألف الناس، لكنه لطيف» فارتحتُ إلى هذا القول ارتياحاً كثيراً، فصرتُ، في الواقع، لطيف العشرة.

فلما تآلفنا كان لا بد لنا أن نتعارف يتحدث كل منا عن نفسه، مَن هو ومن أين قدم فارتبكتُ إذ شعرتُ حقاً بأن قولي إنني حديث الاهتداء[22] سيقضي عليّ بين هذه العشرة الأنيسة اللطيفة وهاتين المرأتين الكريمتين. وما أدري أيّ غرابة جرّأتْني على الزعم انني إنجليزي من اليعاقبة[23] وأن أسمي ضدنج، فدعيتُ السيد ضدنج، وكان معنا المركيز دو طورينيان اللعين، وهو مريض مثلي، فضلاً على علو سنه وسوء طبعه، فأخذ يحدّث السيد ضدنج، فكلّمني على

(22) يريد حديث الاهتداء إلى المذهب الكاثوليكي - المترجم.

(23) اليعاقبة (Les Jacobites) هو الاسم الذي أطلق في إنجلترا، بعد ثورة 1688، على أنصار الملك جاك الثاني وعلى أنصار آل ستيوارت، وبديهي أنهم لا علاقة لهم بيعاقبة الشرق - المترجم.

جاك الملك، وعلى المطالب بالعرش، وعلى بلاط سان جرمان القديم، فأحرجني إذ لم أكن أعرف عن ذلك كله إلا يَسير ما قرأتُه في مؤلف الكونت هاملتون وفي الصحف. ولكن أحسنتُ التصرف في هذا اليسير أيَّ إحسان حتى إني تخلصتُ وقد سعدتُ إذ لم يطرح عليّ أحد سؤالاً يدور على اللغة الإنجليزية التي لم اكن أفقه منها حرفاً.

وكانت رفقة السفر على تآلف، فعزّت عليها ساعةُ الفراق. وكنا نمضي أوقاتنا في الجولان، فبينما نحن، ذات يوم أحد، في سان مرسيلان، إذ أرادت مدام دو لارناج أن تحضر القداس، فذهبتُ معها، فكدتُ أشوّش أموري، لأنني سلكتُ كما درجتُ أن أسلك على الدوام. فلما رأتني خاشعاً متواضعاً، حسبتْني تقيّاً، فأساءت الرأي فيّ إلى أقصى حد، على ما باحت به إليّ بعد يومين. وعندئذٍ أَبديتُ لها كثيراً من آيات المغازلة لكي أمحو عنها سوء هذا الانطباع، وربما كانت مدام دولارناج، وهي المرأة المجرَّبة التي لا تفتر بالهيّن همّتُها، قد شاءت أن تجازف بما سلف منها إليّ لترى كيف أدبّر شأني. فبادرتْني تظهر لي كثيراً من التحبُّب، فلم أُعجب بنفسي، بل خلتُ مدام دولارناج تهزأ مني، فلا حماقة إلاّ أتيتُها حالئذٍ، فكنتُ شرّاً من المركيز في رواية «**الهبة بالوصية**»[24]. ولقد ثبتت مدام دولارناج على موقفها، فأبدت لي من فنون الإغراء وكلمات الحبّ ما كان يصعب حتى على من هو أشدُّ حماقةً مني أن يصدّقه. وكانت كلما أفصحتْ عن شيء من ذلك، زادتْني تمسّكاً

(24) «**الهبة بالوصية**» *(Le legs)* كوميدية لماريفو (Marivaux) بطلها مركيز يرث مبلغاً من المال بشرط أن يتزوج أورتانس أو يعطيها ثلث المبلغ. ولم يكن المركيز يميل إليها، بل كان يحب كونتسة قد نزل هو وأورتانس ضيفين عليها، فعجز أن يقرر من يختار منهما، إلى أن اختار المرأة التي يرغب وأعطى أورتانس ثلث المال - المترجم.

twitter @baghdad_library

برأيي. ولقد أحببتُها جاداً فتضاعفَ عذابي، فقلتُ في نفسي وقلتُ لها وأنا أتنهد: «لو يصحّ هذا، فأكون أسعد الناس». وأحسب أن سذاجتي المتدرجة لم تؤد إلي سوى الإثارة لخيال تلك السيدة، فأبت أن تلقى ما يكذّبه.

وكنا قد فارقنا مدام دو كولومبييه وحاشيتها في رومان. فواصلْنا، أنا ومدام دولارناج والمركيز دو طورينيان، طريقنا ونحن في غاية التمهل والانشراح. وكان المركيز دو طورينيان، مع مرضه وطبعه المؤنّب، رجلاً طيباً، لكنه لم يستحسن المتعة الخيالية استحساناً بالغاً. وما كانت مدام دولارناج لتخفي ميلها إليّ، فشعر هو بهذا الميل قبلما شعرتُ أنا به. وكان تهكمه الخبيثُ خليقاً بأن يوليني، في الأقل، الثقة التي لم أجرؤ على أن أعرب عنها لمدام دولارناج لما تلقتني به من لطف وعنايةٍ وكرم التفات، ذلك لولا أني، لغرابة لي فذة، تصوّرتُ أنهما قد اتفقا على أن يسخرا مني. فأكملتْ هذه الحماقة ما قد اعتمل فيّ من اضطراب، فمثّلتُ دور أبلد الناس وأنا من الوجد في حالة أستطيع معها أن أمثّل دوراً باهراً. ولستُ أدري كيف لم يصدم وجهي الكالح مدام دولارناج ولا كيف لم تطردني وتحتقرني أيّ احتقار، بيد أنها كانت امرأة ذكية قد عرفتْ كيف تميزُ معشرها فأدركتْ أن بسلوكي من الحماقة أكثر مما به من الفتور.

فتمكنتْ أخيراً أن تُفهمني قصدها. وكنا قد وصلنا إلى فالانس نريد أن نتغدى، فأمضينا فيها بقية نهارنا بحسب عادتنا الحميدة، وكنا نبيت خارج المدينة في سان جاك، ولسوف أذكر ذلك النزل وحجرة مدام دولارناج هناك أبد الدهر. فلما تغدينا، أرادت أن تتنزه وهي تعلم أن السيد دوطورينيان لا ينوي أن يتنزه، فوجدتْ في ذلك وسيلة لكي تخلو معي، وصممتْ على أن تنتهز الفرصة إذ لم يبقَ لنا

من وقت غيرها. فقمنا نتنزه حول المدينة، على طول الخنادق. فعدتُ أسترسل في مشاعري، فأجابتني هي بصوت عذب حنون وقد أمسكتْ بيدي وربما جعلتْ يدي إلى صدرها، فكنتُ أشدَّ غباوةً من ان أتحقق هل صدقتْ في ما تقول. والمضحك في ذلك هو أني كنتُ متاثراً جداً. ولقد تقدَّم لي القول إن مدام دولارناج امرأة لطيفة أنيسة، فصيَّرها الحبُّ امرأةً فاتنةً وأعاد إليها البريق الذي كان لها في ريعان شبابها، فبرعتْ في فنون الإغراء، حتى لو شاءت أن تغري الرجل، لأغرت. فتضيَّقتُ، فأوشكتُ أن أُقدم عليها، ولكن خشيتُ أن أنفرها أو أن أغضبها، وخشيت، في الأكثر، أن تسخط عليّ وتهزأ مني فأغدو موضوع التلهي على المائدة ويثني على إقدامي السيد دوطورينيان، وهو الذي لا يعرف الرحمة، فأحجمتُ وحنقتُ على نفسي لما أنا فيه من حياء غبيّ لم يسعني أن أغلبه بلوم نفسي عليه، فشقيتُ. وكنتُ قد كففتُ عن مثل غراميات سيلادون[25] إذ شعرتُ بأنهن، في رحلتنا تلك، سلوك مضحك. فلم أدر كيف أَسلك، ولم أدر ماذا أقول فصمتُّ. فظهر عليّ الاستياء وقمتُ بما أدّى إلى الذي خفتُ أن يكون. ولكن في حُسن الحظ أن مدام دولارناج قد رأفتْ بي. فقطعت الصمت بغتةً، وطوقتْ عنقي بذراعها، وفمُها إلى فمي يبثّ شيئاً هو أحلى من أن يدَعني في غيّي. لم تعد الأزمة في محلها بعد هذا الذي قد جرى بيننا. فعدتُ لطيفاً أنيساً. وقد آن لي أن أعود إلى اللطف والإيناس. وكانت مدام دولارناج قد أشاعت فيّ الثقة التي لمّا حُرمتُها، حُرمتُ أن أكون أنا هو أنا في معظم الأحايين. أما وقتئذٍ، فقد أصبحتُ أنا هو أنا. فما أحسنتْ عيناي وحواسي وقلبي وفمي أن تتكلّم يوماً كما أحسنتْ أن

(25) سيلادون بطل رواية *L'astrée* وحبيب أستريه. والرواية من تأليف دورفيه. انظر الفصل الرابع - المترجم.

twitter @baghdad_library

تتكلّم ذلك اليوم، ولا أَحسنتُ أن أُصلح ما سلف من سوء فطنتي كما أحسنتُ في تلك الساعة. ولئن كان هذا الفتح اليسير قد اقتضى مدام دولارناج أن تهتم بي، فإني أحسبها لم تندم على ما أولتني من اهتمام.

ولو عشتُ مئة سنة، لم أَذكر تلك المرأة اللطيفة إلا ابتهجتُ. أقول: «لطيفة»، وإن لم تكن حسناء ولا شابة، لكنها، وهي غير بشعة ولا عجوز، لم يكن في هيئتها ما يمنعها أن تؤثر حقّ التأثير ذكاءً ورشاقة. وكان وجهها على خلاف سائر النساء أقلّ ما فيها نضارةً، وأظنُّ محمّر الخدّ أضرَّ بشرةَ وجهها. وسلوكُها غير المتمنع له دواعيه فقُدرتْ حقّ قدرها. فلو رأيتَها، لأمكنك ألا تهواها، ولكن لو ملكتَها، لم يسعك إلا أن تحبّها حتى العبادة، وهذا، في ما أحسب، دليلٌ أنها لم تكن، على الدوام، تسرف في ما أعطت بقدر ما أَسرفتْ وهي معي. فلقد تعلّقتْني وأنا امرؤ أَشدُّ عفويةً وحدَّةَ طبع من أن تُعذَر على تعلّقها بي. لكنه تعلّقٌ قد شارك فيه القلب مثلما اشتركتْ فيه الحواس على الأقل. فاتضح لي، من خلال الوقت القصير الذي سلختُ وإياها، أنها، مع كونها شهوانية وصاحبة لذاذة، قد آثرتْ صحّتي على اللذة ففرضتْ عليّ بعض الاحترازات.

ولم تخفَ علاقتنا على المركيز دوطورينيان. غير أنه لم يحمل عليّ، بل نظر إليّ نظرته إلى العاشق الولهان المسكين شهيد الحبيبة القاسية. فلم تفرط من السيد دو طورينيان قولة ولا بسمة ولا نظرة أَظنَّتْني أنه خمن علاقتنا. فخلتُه قد خدعناه، إلا أن مدام دولارناج، وهي التي كانت أَدق مني نظراً، قالت لي إن علاقتنا لم تغرب عنه، بيد أنه رجل كريم، والواقع أن لا نية أرفع خُلقاً من نيّته ولا سلوك أوفر أدباً من سلوكه ولو معي، ما خلا ممازحته لي، وعلى الأخص مذ يوم حظيتُ عند مدام دولارناج. وربما نسب إليّ شرفَ تلك

الخطوة، فقدَّرَ أني أَقلّ بلاهةً مما ظهر عليّ منها، فأخطأ كما قد رأيتَ. ولكن لا همّ، فلقد انتهزتُ خطأه، فكان الضاحكون يضحكون لي لا عليّ، فصرتُ هدفاً لسهامه عن طيبة مني وعن عفوية، فرددتُ عليه سهامه، في بعض الأحيان، ردّاً موفقاً وقد زُهيتُ أمام مدام دولارناج بما ألهمتْني من فطنة وذكاء. فتغيرتُ لم أَبقَ الإنسان الذي كنتُ إياه.

وكنا في بلدٍ جيد الطعام، وكنا في فصل الطيّبات. فحيثما نزلنا أحسنّا أكلاً وذلك لعناية من السيد دوطورينيان. لكني كنتُ في غنية عن أن تصل عنايته إلى حجرات النوم. فلقد أرسل خادمه قبْلنا ليحجز الحجرات. فاختار هذا الوغد حجرةَ سيده في جوار حجرة مدام دولارناج وأقصاني إلى الطرف الآخر من النزل، إما من تلقاء نفسه وإما بأمر من المركيز دوطورينيان. على أن إقصائي لم يكد يعيقني، بل زاد مواعيدنا إثارةً وإلحاحاً. فاستمر ذلك العيش اللذيذ أربعة ايام، أو خمسة، امتلأتُ في أثنائها وانتشيتُ من أحلى اللذاذات أَذُوقهن مضطرمات صافيات لا يشوبهن كدر. ثم إنهن أول ما ذقتُ على هذا النحو. وإني لمدين للسيدة دولارناج بكوني لم أَمتْ من غير أن أعرف اللذة.

ولئن كان شعوري حيالها ليس شعور حُبّ على وجه التدقيق، فإنه، في الأقل، عرفان بالغ الرقة والحنان بما أعربتْ لي عنه. إنه شهوة مضطرمةُ اللذة، وصلةٌ عذبةُ المسارّة، حميمة، إنه ينطوي على كل ما بالغرام من السحر والفتون ولا يصحبه ما يصحب الغرام من دوار يذهب باللب ويعطّل الاستمتاع. إني لم أشعر بالحب الحقّ الا مرة واحدة في العمر، ولم يكن ذلك بالقرب منها، ثم إنني لم أُحبَّها كما سبق أن أَحببتُ السيدة دو فارانس ولا أزال أحبُّ. فلأجل ذلك امتلكتُ مدام دولارناج امتلاكاً هو أَحسن جداً مما امتلكتُ سواها.

twitter @baghdad_library

أما وأنا بالقرب من ماما، فإنّ لذتي لم يفتأ يداخلها حزن في القلب وانقباض خفيّ لم أقوَ عليه إلا بالكدّ، فلمتُ نفسي على أني قد امتهنتُ ماما بدل أن أهنئ نفسي بامتلاكي ماما. وأما إذ أنا بالقرب من مدام دولارناج، فقد كان شعوري على خلاف ذلك، فزهيتُ برجوليتي وبسعادتي، فطاب لي أن أنقاد لحواسي في ثقة مني وجرأة، فشاركتُها في الشعور بحواسها، وامتلكتُ نفسي أتأمل في ما قد ظفرتُ به تأمّلَ زهوٍ واغتباط استمددتُ منهما ما زادني ظفراً.

ولستُ أذكر اين انفصل عنا المركيز دو طورينيان، وهو من أهل تلك البلاد، ولكن أذكر أننا أصبحنا وحدنا قبلما وصلنا إلى مونتليمار. فحينئذٍ نقلت مدام دولارناج خادمتها إلى محفتي. وانتقلتُ إلى محفتها هي، فما مللنا الطريق ونحن معاً على هذا النحو، ولكنْ صعبَ عليّ أن أصف البلاد التي مررنا بها. وكانت لمدام دولارناج في مونتليمار شواغل اضطرتها إلى ان تبقى هناك ثلاثة أيام لم تفارقني في أثنائها إلا ربع ساعة، إذ قامت بزيارة جلبتْ عليها مزعجات مؤسفة ودعوات اجتنبتْ أن تلبيها وقد تذرعتْ بأسباب صحية لم تحل دون أن نمضي معاً، كل يوم، في أجمل بلاد، تحت أبهى سماء. فيا لتلك الأيام الثلاثة! لقد ندمتُ، بعض الأحيان، على فواتها إذ لم أعرف لها مثيلاً.

ذلك أن غراميات السفر لا تدوم. فكان لا بد أن نفترق، ولقد حان لنا أن نفترق، لا لأني ارتويتُ أو أوشكتُ أن أرتوي وقد ازددتُ تعلّقاً بمدام دولارناج في كل يوم، ولكنْ لأنني، مع تحفظها، لم يبقَ لي إلا حُسنُ الإرادة، فابتغيتُ أن أستمتع بهذه البقية قبل أن نفترق، فارتضت هي أن أستمتع في يقظة منها حذراً من بنات مونبلييه، فاعتضنا من افتراقنا نهيئ أسباب لقاء قادم. فقرّرنا أنه ما دام مجرى العيش هذا ينفعني، فعليّ أن أسير عليه فأقضي

الشتاء في بورج سانت أندول ترعاني مدام دولارناج، على أن ألبث في مونبلييه خمسة اسابيع، أو ستة، يتاح لها من خلال ذلك أن تمهد لي السبيل وتتقي القيل والقال. فأرشدتْني إلى ما ينبغي أن أعرف وأقول وإلى ما ينبغي أن أسلك إرشاداً مسهباً. واتفقنا على أن نتراسل ريثما نلتقي. وكلّمتْني في شأن الاعتناء بصحتي كلام جد وحثتْني على أن أشاور أُولي الحذق والدراية وعلى أن أتبع كل ما يشيرون به عليّ، وأخذتْ على نفسها، يوم أصير بالقرب منها، أن تنفذ ما يأمرني به الأطباء، وإن قسَت أوامرهم. وإخالها صدَقَ قولُها لأنها أحبتني فأقامت على حبّها ألف دليل يفوق ما أعربتْ لي عنه من عناية والتفات. وتبيَّنَ لها من أمتعتي أنني لا أرتع في البحبوحة، ولم تكن هي نفسها موسرة، ومع هذا، أرادت، ونحن نفترق، أن تجبرني على أن أقاسمها ما بكيسها الملآن نقوداً أتت بها من جرينويل، فأَبَيتُ وجهدت أيَّ جهد قبلما صرفتُها عما قد أرادت. ثم برحتُها وقد شغلتْ قلبي كله وتعلّقتْ بي حقّاً.

فأكملتُ طريقي أستعيد ذكرياتها وقد سرّني كثيراً أنني في محفة مريحة أحلم على هواي بما قد ذقتُ من لذات وبما قد وُعدتُ. فلم أكن أفكر إلا في بورج سانت أندول وإلا في العيش البهيج الذي ينتظرني هناك. ولم أكن أرى إلا مدام دولارناج ومَن حولها، أما سائر العالم، فهو، عندي، لا شيء، حتى ماما نسيتُها وقتئذٍ. فأنشأتُ أنسج في خاطري جميع التفصيلات التي ذكرتْها السيدة دولارناج كي تمثّل لي مسكنها وجوارها ومعشرها وطريقة عيشتها. وكانت لها بنتٌ، فكلمتني بها كثيراً كلام الأم قد أُولعتْ بولدها. وكانت هذه الفتاة قد جاوزتْ سنتها الخامسة عشرة، وكانت جمّة الحيوية، دمثة الأخلاق، لطيفة. فوُعدتُ بأن ستلاطفني. فلم أنس هذا الوعد. وكنتُ شديد الرغبة في أن أرى كيف تعامل مدوموازيل

twitter @baghdad_library

دولارناج صديق أمها الطيب. فكان ذلك مدار أحلامي من بون سانت أسبري إلى ريمولان. وكنتُ قد قيل لي لأذهب إلى بون دوجار، فذهبتُ بعد ما أكلتُ في وجبة الصباح بعض التين الممتاز، واتخذتُ لي دليلاً. وكان بون دو جار أول أثرٍ رومانيّ وقعتْ عيني عليه.

فتوقَّعتُ أن أرى هناك بناءً خليقاً بالأيدي التي بنته، ففاق منظرُه ما توقّعتُ، وكان ذلك مرةً في العمر واحدة، لأن للرومان دون سواهم عظمة الفخامة والتأثير. فبلغ مني منظر صنعهم البسيط الجليل، ولا سيما أنه قد ارتفع وسط صحراء صامتة موحشة تزيد الأثر تأثيراً والمعجب إعجاباً، إذ لم يكن ذلك الذي قيل له جسرٌ إلا قناة لجرّ المياه. وربما ساءل الإنسان نفسه أيّ قوة نهضتْ بتلك الحجارة الضخمة التي نأت عن كل مَقْلع، وأيّ قوة جمعت سواعد ألوف الرجال في أرض لا يقطن بها أحد. فجعلتُ أدور في الطوابق الثلاثة من ذلك البناء الرائع الذي كان خشوعي حياله يمنعني أن أطأ ارضه. فخيّل إليَّ، وأنا أسمع وقع خطاي تحت تلك القباب الضخمة، أنني أسمع أصوات الذين شيدوها. فتهتُ في ذلك المدى المهيب وكأني حشرة من الحشرات. وشعرتُ، مع إحساسي بالتصاغر، بشيء قد سما بروحي وإن لم أدر ما هو، فقلتُ في نفسي وأنا أتنهد: «ليتني كنتُ رومانيّاً». وبقيتُ هناك عدة ساعات في تأمل فتّان، ثم رجعتُ ساهياً حالماً، فلم يكن ذلك لخير مدام دو لارناج التي فطنتْ لأن تقيني من بنات مونبلييه لا من بون دو جار، إذ لا يسع الإنسان أن يفطن لكل أمر في كل حال.

فلما كنتُ في نيم، زرتُ «قصر المصارعة» (les Arènes). وهو أثرٌ أروع جداً من بون دو جار، لكنه أقلّ انطباعاً في نفسي، وذلك إما لأنني قد استنفدتُ إعجابي في المبنى الأول، وإما لأن موقع القصر، وهو في وسط المدينة، كان أضعف إثارةً للإعجاب. ولقد

أحاطت بالسرك الواسع الجميل منازل بشعة ضيقة، كما أن منازل أبشع منها وأضيق قد ملأتْ أرجاءه، فلم يكن للمنظر بأجمعه إلا تأثير مشتّتٌ مبهم يغلب فيه الأسف والغيظ على الدهشة والارتياح. ولقد زرتُ، في ما بعد، سرك فيرونا، وهو أضيق جداً من سرك نيم ودونه جمالاً، ولكن تعهدتْه العناية والنظافة ما أمكن، فكان أوقع في نفسي بهجةً، وأَبعد تأثيراً، وذلك أن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يحترمون أيّ أثر كان. فإذا باشروا عملهم، اتقدوا رغبة وحماسة، لكنهم لم يحسنوا أن يتموا شيئاً ولا أن يصونوا شيئاً.

وكنتُ قد تغيرتُ كثيراً ومارستُ ملكتي الحسيانية الشهوانية فشبّتْ، فتوقفتُ، يوماً، عند بون دو لونيل كي نتناول، أنا والمعشر الأنيس، بعض الأكل الطيّب. وكان ذلك المطعم أشهر مطاعم أوروبا، فاستحقّ شهرته وقتئذٍ. وكان المشرفون عليه قد استغلوا شهرته فتولوه بسخاء وحُسن اختيار. فكان من غرائب الأمور أن تجد، في بيت منفرد وسط الريف، مائدةً عليها سمك البحر والنهر وطيّبات الطرائد والخمور في عناية والتفات لا مثيل لهما إلا في بيوت الأغنياء، وذلك كله بخمسة وثلاثين فلساً. بيد أن بون دو لونيل لم يبقَ على هذا المستوى زمناً طويلاً، فما برح يستنفد شهرته حتى فقدها آخر الأمر فقداً تاماً.

وكنتُ، في أثناء الطريق، قد نسيتُ أنني مريض، فلما وصلتُ إلى مونبلييه، تذكرتُ مرضي. وكنتُ قد شفيتُ من الأبخرة السوداوية دون سائر العلل. ولئن تعودتُ عللي حتى خفّ شعوري بها، لقد كفى بها داءً أن تُوهم مَن تفاجئه أنها علل مميتة. وذلك لأنها تخيف أكثر مما توجع، فهي تؤلم النفس أضعاف ما تؤلم الجسد، مع كونها تبدو نذير قضاء عليه. فشغلني احتدام الأهواء عن حالتي الصحية التي لم تكن توهماً مني، إذ كنتُ ما يكاد يهدأ روعي حتى أعي تلك

twitter @baghdad_library

الحالة من جديد. ففكرتُ في نصائح مدام دولارناج وفي ما ابتغيته من السفر تفكيراً جدياً. فمضيتُ أقصد مشاهير الأطباء، ولا سيما السيد فيز، ونزلتُ في مصحة أحدهم زيادةً مني في الاحتياط. وكان هذا الطبيب إرلندياً يدعى فيتزموريس وله تلاميذُ طب متعددون. وكان يلائم المريض أن ينزل بتلك المصحة، لأن السيد فيتزموريس قد اكتفى ببدل الطعام فلم يتقاضَ نزلاءه بدل التطبيب. ثم إنه أجرى ما أشار عليّ به السيد فيز واعتنى بصحتي فأَحسنَ القيام بذلك من جهة الحمْيَة [نظام الغذاء]؛ إذ لم نَشْكُ التخمةَ ونحن عنده. ولئن لم يؤثَر في حرماني الطعام، فلقد أخذتُ أقابل ما كان بما هو الآن، فتقاربتْ لديّ أسباب المقابلة حتى لم يسعني أن أجد، في ما بيني وبين نفسي، أن السيد دوطورينيان كان في التمرين أفضل من السيد فيتزموريس. ولكن لم نقض جوعاً. ولقد أقام أولئك الشبان على غاية الحبور، فنفعتْني طريقة المعيشة هناك، فحالت دون أن أتردى في الكآبة والذبول مرة ثانية. وكنتُ أقضي أوقات الصباح أتناول بعض العقاقير، ولا سيما بعض المياه التي لستُ أدري ما هي ولكن أظنها من مياه فال. وكنتُ أكتب إلى السيدة دولارناج إذ نشطتْ بيننا أسباب التراسل، فكان روسو يتسلم المكاتيب التي بُعث بها إلى صديقه ضدنج. فإذا وافى الظهر، ذهبتُ إلى كانورج مع بعض النزلاء الشبان، وكلهم فتيان خيّرون جداً، فاجتمعنا ومضينا إلى الغداء، ثم شغل أكثَرنا، إلى المساء، شاغلٌ مهم هو أن ننطلق إلى خارج المدينة نتناول لُمْجَة العصر ونتبارى في لعبة الكرة. أما أنا، فلم أكن ألعب إذ لم أُوتَ القوة ولا الحذق، بل كنتُ أراهن على اللعب أهتم به، أتبع حركات لاعبينا وكراتهم في طرق وعرة حجرة. فقمتُ برياضة لذيذة مفيدة قد لاءمتْني حقّ الملاءمة. وكنا نتناول لُمْجَة العصر في خارج المدينة. وما بي حاجة إلى القول إن تلك الوجبات قد سادها المرح والحبور، ولكن أضيفُ أنها كانت على كفاية حشمة

مع أن فتيات المطعم كن جميلات. وكان السيد فيتزموريس يرئس جمعنا، وهو لاعب بالكرة ماهر. ومع ما للطلاب من سوء سمعة، لقد وجدتُ عند أولئك الشبان من مزايا الخُلق والاستقامة أكثر مما يسهل أن تجد مثله عند من بلغوا الرجولية والنضج. فلقد كان أولئك الشبان إلى الصخب أقرب منهم إلى التهتك، وإلى المرح أقرب منهم إلى الإباحية. وإني ليهون عليّ أن أتكيف بمجرى عيشة عفويّ الإرادة فما أرجو شيئاً أفضلَ من أن يدوم مجرى تلك العيشة. وكان بين أولئك الطلاب عدة إرلنديين، فحاولتُ أن آخذ عنهم بعض مفردات الإنجليزية أحتاط لأمري في بورج سانت أندول إذ دنا وقت ذهابي إلى هناك؛ وكانت مدام دولارناج لا تفتأ تلحّ عليّ أن أذهب، فتأهبتُ لكي ألبّي إلحاحها. ولقد اتضح أن أطبائي، وهم الذين لم يفقهوا من علّتي شيئاً، قد نظروا إليّ على أني مريضُ أوهامي فعالجوني، في هدي ذلك، ببعض الأعشاب والمياه والحليب. فالأطباء والفلاسفة هم على نقيض اللاهوتيين، لأنهم لا يسلّمون إلا بصدق ما يمكنهم تفسيره. يتخذون عقلهم مقياساً للممكنات. فلم يدرك أولئك الأساتيذ شيئاً من علّتي، وإلاّ فكيف لعلماء متبحرين [دكاترة] ألاّ يعرفوا كل شيء؟ فلما تبيَّن لي أن لا غرض لهم إلا أن يلهوني ويطعموني بديل ما أؤدّي من دراهم، رأيتُ أن في بورج سانت أندول خَلَفاً عنهم يستطيع ذلك مثلما يستطيعون، بل وبمزيد من البهجة والسرور، فآثرتُه عليهم، وبرحتُ مونببلييه على هذه النية الحكيمة.

وكان ذهابي في أواخر تشرين الثاني بعد ما أقمتُ بتلك المدينة ستة أسابيع، أو شهرين، وبعد أن أنفقتُ نحو عشر ليرات فرنسية ذهباً لم تنفع صحتي ولا تعلُّمي، ما خلا درساً في علم التشريح بدأتُه تحت إشراف فيتز موريس، لكن نتانة الجثث، التي كانت

twitter @baghdad_library

تشرَّح، قد أكرهتْني على أن أَهجر ذلك الدرس إذ لم أحتمل الروائح.

فلم أطمئن في صميم نفسي إلى ما قد اعتزمتُ، فأخذتُ أفكر فيه وأنا أتقدّم نحو بون سانت إسبري الذي يفضي طريقه إلى بورج سانت أندول وشامبيري. وذلك أن رسائل ماما، على كونها أقلّ من رسائل مدام دولارناج، قد حرّكتْ في قلبي ندماً كنتُ قد كبته وأنا في المرحلة الأولى من سفري ذاك. ولكن اشتدّ ندمي وأنا راجع فأخذتُ أوازن بين الحبّ واللذة، فأصغيتُ إلى العقل وحده. فدور العاشق المغامر، الذي أنا معيده، قد أَسعدُ فيه أقلّ مما سعدتُ أول مرة، إذ يكفي أن يكون في سانت أندول شخصٌ واحد قد زار إنجلترا وعرف الإنجليز، أو لسانهم، لكي يكشف عني القناع. وربما حنقتْ عليّ أُسرة مدام دولارناج وأساءت معاملتي. كما أن ابنتها أقلقتْني إذ جعلتُ أفكر فيها أكثر مما ينبغي أن أفكر وأنا لا رغبة لي في هذا التفكير، فارتعدتُ خوفَ أن أقع في غرامها. وكان خوفي، هذا، في كفة، وسائر الهواجس في كفة. أأحاول أن أفسد أخلاق البنت جزاءَ معروف الأم؟ أأقيم لي أَمقَتَ العلائق بالبنت أشيعُ في بيتها الشقاء والفضيحة والعار وأحمل إليه الجحيم؟ فهالني الأمر، فصممتُ حق التصميم على أن أغلب نفسي فأغلبها إذا شبّ في ذلك الميل المشؤوم. ولكن لمَ أعرّض نفسي لذلك الصراع؟ يا لتعاستي إذا لابستُ الأم فارتويتُ منها، وتحرقتُ أبتغي البنت لم أجرؤ على أن أكشف لها عما بقلبي! أيّ ضرورة تدعوني إلى أن أطلب ذلك أعرّض نفسي لألوان البلوى والفضيحة والندم لأجل لذّات قد استنفدتُ أكثر ما بها من جاذبية وفتون؟ المؤكّد أن هواي قد همدتْ فورته الأولى وإن كان ميلي إلى اللذّة لم يبرح هو إياه، أما الهوى [الوجد] فلم يبقَ من لواعجه شيء. فداخلني التفكير في ما أنا فيه

وفي ما يجب عليّ وفي هذه الماما الخيّرة السخيّة التي أثقلتْها الديون كما أثقلتْها نفقاتي المسرفة، والتي أَعيت لأجلي، والتي خنتها خيانة لا تليق. فجعلتُ ألوم نفسي لوماً تغلَّب عليّ في آخر الأمر، فلما قاربتُ بون سانت إسبري، عزمتُ ألا أتوقف ببورج سانت أندول بل أعود رأساً. ففعلتُ هذا في جرأة مني وفي بعض التنهد ـ على ما أقرُّ به ـ لكني فعلتُه بارتياح في الضمير بلوتُه أول مرة في العمر إذ قلتُ في نفسي: «إنني أستحق أن أقدر نفسي، فما ينبغي قد آثرتُه على ما يلذّ»، وذلك هو أول واجب اعتبرتُ به فعلّمني أن أفكر وأن أفاضل. فبَعْد المبادئ الخالصة التي تبنيتُها من زمن قريب، وبَعْد قواعد الحكمة والفضيلة وقد اتخذتُها سنناً لي فافتخرتُ بأني أتبعها، غلب عليّ الحياء من أن أناقض نفسي بنفسي وأكذّب ما قلتُ به تكذيباً وشيكاً صارخاً. وربما كان للزهو مثل ما للفضيلة في ما عزمت عليه، فإن لم يكن هذا الزهو هو الفضيلة عينها، فإن له نتائج تشبه ما ينشأ عن الفضيلة حتى ليسوغ لي أن لا أميز بينها.

ومن مزايا الأعمال الحسنة أنها تسمو بالنفس فتعدّها لما هو أَحسن مما كان. فالضعف البشريّ جدٌّ بالغ، حتى إن الإمساك عن الشر، الذي يُغري الإنسان بارتكابه، يجب أن يضاف إلى المآثر. فما أن اعتزمتُ على ما قد عزمتُ حتى تغيرتُ فبتُّ شخصاً آخر، بل عدتُ ذاك الذي كنتُ إياه والذي كانت قد غيّبته ساعةٌ من ساعات النشوة، فواصلتُ طريقي تفعمني المشاعر الخيّرة والنيات الصالحة أريد أن أكفّر عما سلف من ذنبي فأقيم سيرتي على أركان الفضيلة، وأقف نفسي على خدمة خير الأمهات وقفاً شاملاً فأوليها من الوفاء قدْرَ تعلّقي بها لستُ أصغي إلى شيء من الحبّ خلا ما يدعو إليه الواجب. ولكن واأسفاه! فإنّ صدق رجوعي إلى سبل الخير قد هيأني لمصير آخر: ولكن مصيري كان قد كُتب عليّ وابتُدئ من قبل، حتى

twitter @baghdad_library

إذا بات قلبي لا يرى في الدنيا إلا البراءة والسعادة، وهو الذي امتلأ بحبّ الخير والاستقامة، انتهيتُ إلى ساعة شؤم قدّر لي فيها أن أنقاد لما كان يترقبني من محن وأرزاء.

فحدتني الرغبة في الرجوع أن أعجّل أكثر مما حسبتُ. وكنتُ، وأنا بفالانس، قد أنبأتُ ماما بيوم وصولي وبساعته. فتقدّمتُ مدة نصف يوم أمضيتُه في شاباريان لكي أصل في تمام الوقت الذي عيّنتُه. وذاك أنني وددتُ لو أذوق لذة لقائي ماما من جديد بكل ما في تلك اللذة من غبطة وبهجة وفتون. وآثرتُ أن أتأخر قليلاً كي أضيف، إلى ما سبق، لذةَ انتظارها إياي، وكنتُ على الدوام أوَفّق في ما آثرتُ من هذا القبيل أجدُ عودتي وكأنها شبهُ عيد لم أكن في هذه المرة أقلّ توقّعاً له مما توقّعتُه في الماضي. فإن ما سبق أن أعربتْ لي عنه من ضروب الحفاوة كان خليقاً بمثْل هذه التهيئة. فوصلتُ في الموعد تماماً. وكنتُ أنظر من بعيد لعلي أراها على الطريق، وكلما اقتربتُ، ازداد قلبي خفقاً وارتعاشاً. فوصلتُ ألهث إذ كنتُ قد ترجلتُ عن العربة وأنا في المدينة. فلم أرَ أحداً لا في ساحة الدار، ولا على الباب، ولا إلى النافذة، فابتدأتُ أضطرب، وخفتُ أن يكون قد وقع حادث ما. فدخلتُ، فإذا كل شيء في سكون، وكان في المطبخ بعض العمال يأكلون لُمْجَة العصر، ولا استعداد لوصولي. ففوجئت الخادمة لمّا أبصرتْني إذ لم تدر نبأ قدومي. فصعدتُ فرأيتُها هي آخر الأمر، فقالت لي وهي تقبّلني: «آه! هآءنت ذا يا صغير. هل كانت الرحلة موفقة؟ كيف حالك؟» فاستغربتُ هذا الاستقبال بعض الاستغراب، فسألتها ألم تبلغها رسالتي. فقالت: «بلى». فقلتُ: «حسبتُها ما وصلتْ». وانتهى الاستيضاح وكان إلى جانبها أحد الشبان. فعرفتُه إذ كنتُ قد لقيتُه في البيت قبلما سافرتُ. لكنه، في هذه المرة، بدا وكأنه يقيم هناك،

ولقد كان مقيماً. وخلاصة القول أنني وجدتُ سواي قد حلّ محلّي.

كان هذا الشاب من بلاد فو، وكان أبوه، ويدعى فينتزنريد، قيّماً على قصر شيّون، أما ابن القيّم، فحرْفتُه صناعةُ وفرات الشعر، فجال في البلاد لهذا الغرض، إلى أن تعرّف إلى مدام دو فارانس، فأحسنت استقباله كما درجتْ على أن تُحسن استقبالها أيَّ عابر سبيلٍ كان، ولا سيما أهل بلدها. وكان هو شاباً أشقر غير ذي شأن، حَسن الهيئة بعض الشيء، بارد الوجه، بارد الروح، كلامه أشبه بلهجة لياندر[26] الجميل، وكان يخلط كل أمر بالقصة المسهبة لغرامياته الموفَّقة ليس يذكر إلا بعض المركيزات التي ضاجع، يزعم أنه لم يصفف شعور نساء جميلات إلا قَرَنَ أزواجهن؛ وكان متعجرفاً، جاهلاً، وقحاً، وما عدا ذلك، فإنه من خير الناس. هذا هو الشخص الذي حلّ محلي في أثناء غيابي، وهذا هو الشريك الذي أُهديَ لي بعد رجوعي.

آه! ليت النفوس، التي تحررتْ من عوائق الدنيا، ترى، وهي في صميم الضياء الإلهي، ما يجري عند الناس! فيا أيتها النفس الحبيبة الغالية! سامحيني أني لم أسكت عن ذنوبك أقلّ مما سكتُّ عن ذنوبي وأنني قد كشفتُ للقارئين عن ذنوبي، وذنوبك على السواء. فإنما عليّ بالصدق أبتغيه فيك وفيٍّ فيكون خسرانك من هذا القبيل دون ما أنا عليه من خسران. ألا كم لخُلقك الرَّضيّ اللطيف، وكم لقلبك الذي لا تفنى طيبته، وكم للمصارحة ولسائر فضائلك السامية من تكفير عن أسباب ضعفي، إنْ جاز أن يقال لأخطاء عقلك ضعْف! فلقد أخطأت، لكنك تنزهت عن النقائص؛ ولقد لامك

---

(26) يرجع أغلب الباحثين المختصين بأدب روسو أن المقصود، ههنا، بلياندر تشبيه ذلك الشاب بأهل القرى - المترجم.

twitter @baghdad_library

الناس على سيرتك، ولكن ظلّ قلبك طاهراً أبد الدهر. فليُجعَل الخيرُ في كفة والشرُّ في كفة وليُنظَر في أمرك حقّاً وإنصافاً: فأيّ امرأة سواك تجرؤ على التشبه بك إن كانت سريرتها قد تأدّت مثلما تأدّت سريرتك؟

ثم إن القادم الجديد قد أظهر نخوة ودقة واجتهاداً في كل ما عُهد إليه فيه من عدة شؤون يسيرة؛ وكان قد أصبح مراقب عمال ماما. وكان كثير الضجة بقدْر ما أنا قليلها، وكان يشاهَد، وكان يُسمَع، على الأخص، وهو عند المحراث وفي المعلف وفي الغابة والإسطبل وفناء الطير. فلم يهمل إلا البستان، لأن الشغل فيه شغلٌ هادئ جداً على غير ضجيج. أما لذته الفائقة، فأن يحمل الأثقال ويجرّها وينشر الخشب ويقطع الحطب، فكنتَ لا تفتأ تراه والفأس بيده، ولا تفتأ تسمعه راكضاً، ضارباً، صائحاً ملء صوته. وما أدري كم رجالاً قام هو بأعمالهم، بيد أنه قد صخب صخب عشرة رجال أو اثني عشر رجلاً. فكان لهذا الضوضاء كله وقعٌ في ماما، فحسبت الشاب كنزاً لأعمالها. فأرادت أن يلتحق بها، فعمدتْ إلى مختلف الوسائل التي وجدتْها خليقة بما أرادت ولم تنس الوسيلة التي كانت تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على غيرها من وسائل.

ولا ريب أنك قد وقفتَ على ما بقلبي وعلى أثبت مشاعري وأصدقها، ولا سيما تلك التي عادت بي إلى ماما. فيا لانقلاب سريع قد شمل كياني بأجمعه! فضعْ نفسك بموضعي، تدرك ما أقول. فلقد انهار، يؤمئذٍ، مستقبل سعادتي التي تمثّلتُ. وغابت الأخيلة الحلوة التي طالما داعبتُ. وألفيتُني أول مرة وحدي وأنا الذي لم يألف، منذ الحداثة، أن يرى حياته إلا مع حياتها هي. فكان ذلك اليوم يومًا عليّ هائلاً، وكانت الأيام التي تلته أياماً مظلمة على الدوام. وكنتُ لا أزال شاباً، ولكن فقدتُ الشعور بالمتعة والرجاء فقداً مؤبداً. هذا الشعور

العذب الذي ينشَط الشباب ويحْييه، فمات فيّ الكائن الحسّاس بعضَ الموت وعدتُ لا ألقى إلا بقايا حزنٍ على حياة لا طعم لها؛ فإن سنحتْ لرغائبي، يوماً، صورةٌ من صور السعادة، لم تكن تلك السعادة هي سعادتي أنا، وشعرتُ بأنني إذا نلتُها، لم أسعد حقّاً.

وكنت غبياً جداً، وكانت ثقتي راسخة حتى إني لم أشكّ في القادم الجديد، برغم ما قد اتصل بينهما من إلفة عزوتُها إلى لين طباع ماما التي كانت تحدو جميع الناس على أن يتقربوا إليها. لكنها، هي نفسها، قد أنبأتْني بالحقيقة، فخفّت تعترف إليّ تصارحني مصارحة حريّة بأن تضاعف حنقي لو أمكن قلبي أن يحنق على ماما؛ أما هي، فلقد استسهلت الأمر، ولامتني على إهمالي شؤون البيت، واحتجتْ بتكرار غيابي كأنما هي على طبع يتعجل أن يسدّ ما بشؤون البيت من تقصير. فقلتُ لها وقلبي ينقبض ألماً: «آه ماما! على مَ تجاسرت أن تُخبريني؟ أهذا هو الجزاء على تعلّقي بك؟ ألم تحفظي حياتي مراراً إلا لكي تنزعي مني ما قد حبَّبَ إليَّ الحياة؟ لسوف تقضين عليّ ولسوف تندمين». فقالت لي بصوت هادئ يثير الحفيظة إنني طفل وإن هذه الأمور لا تُميتُ وإنني لن أفقد شيئاً وإننا سنبقى صديقين حميمين بكل ما في ذلك من مَعان وإنّ تعلقها بي لن يخفّ ولن يزول إلا أن تزول هي. وآية القول أنها أفهمتْني أن ما حُق لي عليها يبقى هو إياه وأنني لم أُحرَمها إذ قد قاسمني إياها شخص آخر.

فلم أشعر يوماً بطهارة حبّي إياها وبصدقه وبقوّته ولا بإخلاصي لها قلباً وأمانةَ نفس شعوراً هو أوفى مما شعرتُ به في ذلك الأوان. فارتميتُ عند قدميها وقبّلتُ ركبتيها وعيناي تذرفان. فقلتُ لها بانفعال: «لا يا ماما، إنّ حبّي لك لأشدُّ من أن أذلّك، وامتلاكي إياك لأعزّ من أن أجزّئه، والشجو الذي لازم هذا الامتلاك قد زاده حبّي إياك، لا، لا يسعني أن أستبقي حبّي على هذا النحو، بل إني

twitter @baghdad_library

لموليك محبتي، فكوني خليقة بها طول العمر، وإني على أن أُشرّفك لأَحرصُ مني على أن أمتلكك. فلأجْلك أنت ماما، أتخلى عنك، ولأجل اتحاد قلبينا أضحّي بملذاتي كلها. ولأهلكْ ألف مرة قبل أن أذوق لذةً تحطّ من قدْر مَن أحبُّ».

فبررتُ في عزمي برّاً ثابتاً يليق بالمشاعر التي حدتني عليه، إن ساغ هذا القول. فأصبحتُ لا أنظر إلى ماما الحبيبة إلا كأني ولدٌ لها حقٌّ. والجدير بالذكر أنها، في ما بينها وبين نفسها، لم ترضَ عن عزمي، كما قد تبيَّن لي، لكنها، مع ذلك، لم ترغبني عنه قط إذ لم تقل لي شيئاً ولا عمدتْ إلى ألوان المغازلة والمداعبة البارعة التي تجيد النساء أن يتوسلن بها، وقليلاً ما يخفقن في هذا القبيل. فاضطررتُ إلى أن أبتغي مصيري مستقلاً عنها، فتعذر عليّ حتى أن أتصوّر ذلك، فلم ألبثْ أن ملتُ إلى أقصى الموقف المناقض أَرومُ فيه مصيري أجمع. ولقد رمتُه حقّاً، حتى كدتُ أذهل عن نفسي. فسيطرتْ على مشاعري الرغبة في أن أرى ماما قد سعدتْ بالغا ما بلغ ثمنُ ذلك. ولكم حاولتْ أن تفصل سعادتها عن سعادتي، لكني، بالرغم منها، وجدتُ أن سعادتها سعادتي.

ثم إنه، إلى جنب المحن التي أصابتني، أخذتْ تنبت الفضائلُ التي زرعتْ بذورُها في قرارة نفسي والتي تعهّدها درسي وتحصيلي والتي لم تنتظر إلا أن يتعسّر أمري فتتفتح. وكان أول ثمرةٍ لحُسن استعدادي المنزَّه هو أنني نَفيتُ عن قلبي كل حقد على ذاك الذي حلّ بمحلي كما نَفيتُ كل غيرة منه. فأردتُ أن أصحبه وأنشّئه وأسعى لأن أربيه وأُشعرَه بسعادته وأجعله خليقاً بها إن أمكن، وخلاصة القول إنني أردتُ أن أعمل من أجله كل ما كان أَنيه يعمله من أجلي في مثل هذه الحال. ولكن لم تكن طباعنا على تساو؛ فأنا أَوفر من أنيه معارفَ [ألمعيةً] ووداعةً، غير أني دونه صلابةً ورباطةَ

جأش، وليس لديّ قوةُ الطبع المؤثّرة المهيبة وهي التي أعوزتني للنجاح. ولم أجد في ذلك الشاب من المزايا ما كان أنيه قد وجده فيّ من حيث الطاعة والتعلّق وعرفان الجميل، وعلى الأخص من حيث شعوري بالحاجة إلى أن يعتني بي أنيه ومن حيث شدّة رغبتي في أن أنتفع بعنايته. فلا شيء من ذلك أجمع. فإن من أردتُ أن أنشئه لم يرَ فيّ إلا مدّعياً للمعرفة مزعجاً لا يدري إلا الثرثرة. وكان الشاب معجباً بنفسه وكأنه رجل في البيت خطير يقيس الخدمات التي يأتيها على ما قد أتى من صخب وعياط، فنظر إلى الفؤوس والمعاول التي بين يديه على أنها أنفع جداً من كتبي جميعها. ولم يخطئ من بعض هذا القبيل، غير أنه انطلق من هنا يتظاهر بما يضحك أيّ اضحاك. فطفق يوجه إلى الفلاحين التابعين للرجل الريفي الكريم[27] كلاماً قاطعاً، ولم يلبث أن أخذ يوجه إليَّ مثل هذا الكلام، ثم جعل يكلّم ماما نفسها هكذا. فبدا له أن دو فينتزنريد، اسمَه، ليس من أسماء الأشراف، فاستبدل به اسماً آخر، فصار يدعى السيد دوكورتيّ. فعُرف بهذا الاسم في شامبيري وفي مورييِن حيث تزوج.

فما برح ذلك المرء اللامع يدأب ويسعى حتى غدا هو كل شيء في البيت ولم أبقَ شيئاً. ولقد كان في سوء حظي أنني لم أَرُقْه، فدرج على أن يؤنب ماما بدل أن يؤنبني. فأذعنتُ لرغباته كلها خوف أن أعرّض ماما لفظاظته. وكان كلما قطع الحطب، وهو شغل قد اعتزّ بأن يمارسه اعتزازاً لا نظير له، وجب عليّ أن أشهد بطولته فأُعجَب بها. إلا أن ذلك الفتى لم يكن سيّئ الفطرة، فأحبَّ ماما، لأنه يتعذّر على الإنسان ألا يحبّها؛ ولم يكن عنده من كرهٍ لي، فإذا

(27) يريد مالك البيت الذي استأجرته السيدة دو فارانس - المترجم.

twitter @baghdad_library

أتاحت لنا فتراتُ حدّته أن نكلّمه، أصغى إلينا بعضَ الأحيان إصغاءً مذعناً فسلّم بأنه لم يكن في سلوكه إلا أحمق تسليماً صريحاً، ثم لم يعتّم أن اجترح غباوات جديدة. وكان على ذكاءٍ محدود جداً، وعلى ميول سافلة جداً، حتى ليصعب عليك أن تخاطبه بلغة العقل وتكاد لا يسعك أن تنشرح وأنت معه. ثم إنه لم يكتف بأن يمتلك امرأة جمّة الفتون، بل مال إلى خادمة شمطاء صهباء قد فقدتْ أسنانها، وكانت ماما قد صبرتْ عليها تكابد خدماتها رحمة لها. فانتبهتُ لهذه العلاقة الجديدة، فثرتُ واغتظتُ؛ ثم انتبهتُ لأمر آخر كان أَشدَّ إغاظةً لي وتخييباً، ذلك هو برودة ماما حيالي.

فإن الحرمان، الذي فرضتُه على نفسي والذي تظاهرتْ ماما بأنها قد ارتضته، لهو أمر من تلك الأمور التي لا تسامحُ بها النساءُ أبداً كيفما نظرن فيه، وما ذلك لما ينجر عنه من حرمان لهن بقدْر ما هو لما يجدن فيه من لامبالاة بهن. فتأمّلْ في أفهم النساء وأوفرهن فلسفةً وأقلهن تعلّقاً بشهوة الحواس، ترَ أن أفدح جرم يرتكبه الرجل في تلك المرأة، على قلة اكتراثها له، إنما هو أن تقوى المرأة على أن تستمتع به فلا يفعل بها. ولا ريب أن ذلك هو، عندي حُكمٌ مطلق من غير استثناء، لأن حب ماما إياي ذاك الحب العفوي البالغ قد أوهنتْه عفةٌ لي ليس لها دواعٍ إلا أسبابُ فضيلةٍ ووفاءٍ وتقدْير. فمن ذلك الوقت، أصبحتُ لا أَلقى في ماما الوشائج القلبية التي أمتعتْ قلبي أَعذب إمتاع. وباتت هي لا تكشف لي عن قلبها إلا أن يكون لديها ما تشكوه من القادم الجديد. فإذا كانا على علاقة طيّبة، لم أدخل في مُسارّتها إلا على نحو قليل. ثم أخذتُ، في آخر الحال، تسلك شيئاً بعد شيء، سبيلَ عيشٍ لم أعد جزءاً منه. ولئن كان حضوري لا يزال يسرّها، فإنها أضحت لا تحتاج إليه، حتى إني لو بقيتُ أياماً لستُ ألقى ماما، لم تشعر بذلك.

فطفقتُ أزداد إحساساً أنني قد عُزلتُ وحدي في البيت عينه الذي كنتُ روحه والذي فيه عشتُ واحداً في اثنين. فتعودتُ أن أنفصل عن كل ما يجري فيه، وحتى عمّن يسكنونه، تعوداً تدريجاً. فصرتُ أخلو مع كتبي أو أذهب إلى الغاب أتنهد أو أبكي ما شئتُ، أجنّبُ نفسي استمرار التمزق. فأَمسيتُ لا أطيق هذا اللون من الحياة. وشعرتُ بأن المرأة التي طالما أحببتُها، إذا حضرتْ شخصاً وغابت قلباً، فقد آلمتْني، وشعرتُ بأنني إذا امتنعتُ عن أن ألقاها، عاد انسلاخي منها أيسرَ إيلاماً لي. فنويتُ أن أبرح بيتها، فقلتُ لها ذلك، فشجّعتْني ولم تعارض. وكان لها جرينويل صديقة تدعى السيدة ديبانس. وكان زوج السيدة ديبانس صديقاً للسيد دو مابلي، كبير ضباط الملك في مدينة ليون. فاقترح عليّ السيد ديبانس أن أكون مؤدّباً لولدَي السيد دو مابلي، فقبلتُ، فشخصتُ إلى ليون لم أخلّف أسفاً ولا أسفتُ على فراق ما كنت في وقت مضى، أفكر فيه إلا وأخذني الجزع حتى الموت.

ولقد أُوتيتُ من المعارف ما يلزم لكي أضطلع بعملي مؤدّباً، وأخالني أُوتيتُ الموهبة اللازمة له. فأتيحَ لي، في غضون سنة واحدة سلختُها في بيت السيد دو مابلي، سعةُ وقت لكي أصحو من نشوتي. ولولا ما قد عصف بي، لأمكنتْني وداعةُ طبعي أن أضطلعَ بعمل المؤدّب. فكنتُ إذا سار كل أمر على ما يرام فوفّقتُ لما لم أنفكّ أبذل من عناية ومجهود، أَشبهتُ الملاك؛ ولكن إذا انحرفت الأمور، أَشبهتُ الشيطان. فإذا لم يفهم تلميذاي ما أقول، هذرتُ ولو بدت منهما خباثةٌ ما، لقتلتُهما. فلم يكن سلوكي هو الوسيلة التي تجعلهما من أُولي العلم والدراية. كانا تلميذين جد متغايرين مزاجاً؛ فأحدهما، ويدعى سانت ماري، جميل الهيئة، منفتح الذكاء، نشيط ساه، مزّاح، ماكر في مرح. أما الآخر، وهو الأصغر، ويدعى

twitter @baghdad_library

كوندياك، فقد كان شبْه غبي، عابثاً، عنيداً عناد البغل، فلم يسعه أن يتعلّم شيئاً. ولا يخفى أن عملي، بين هذين التلميذين، لم تسهل عليّ تأديته. وربما كنتُ وفّقتُ فيه لو رُزقتُ الصبر والحلم، ولكن لم أُرزَقهما، فلم أصنع ما ينفع، فتردّى التلميذان في حال سيئة جداً. وما أعوزتْني المواظبة، بل افتقرتُ إلى الانتظام، وافتقرتُ، على الأخص، إلى الاحتراس. فلم أعرف كيف التوسل إليهما إلا بثلاث وسائل لا تجدي لكنها تؤذي الأطفال في أغلب الأحايين. أما تلك الوسائل، فهي الشعور، العقل، الغضب. فتارةً كنتُ أعامل سانت ماري معاملة رقيقة حتى ربما بكيتُ أريد أن يرقّ فؤادُه كأنما الطفل خليق بانفعالات القلب. وتارةً كنتُ أُجهد نفسي أخاطب سانت ماري بلغة العقل كأنه يقدر أن يفهمني. ولربما واجهني بحجج دامغة فحسبتُه من أهل الحجى لأنه أتى ببعض البراهين. أما كوندياك الصغير، فكان أصعب مراساً، لأنه لا يدرك شيئاً ولا يجيب عن شيء ولا يبلغ منه شيء، فضلاً على عناده الذي يتحدى كل شيء. فلم يُحسن قط الانتصارَ عليّ خيراً منه لمّا كان يحنقني، وعندئذٍ فهو العاقل وأنا الطفل. فتبينتُ أخطائي كلها وشعرتُ بها، فأخذتُ أَدرس تلميذيّ أسبرهما نفساً، فنفذتُ حقّاً إلى غور كل واحد منهما، وما أخالهما قد خدعاني في حال. ولكن ماذا ينفعني أن ألمس الداء فلا أدري كيف أستخدم العلاج؟ ولئن أدركتُ كل شأو من هذا القبيل، فإني لم أمنع وقوع أمر، ولا وُفّقتُ في أمر، ولا عملتُ إلا ما وجب ألا أعمل.

فلم أَنجح في شأني أكثر مما نجحتُ في شأن تلميذيّ، وكانت السيدة دو ديبانس قد أوصت بي إلى السيدة دو مابلي وسألتْها أن تنشئني على حُسن السلوك في المجتمعات. فأولتني السيدة دو مابلي بعض عنايتها وأرادت أن تعلّمني أصول الاستقبال والضيافة عندها في

البيت، ولكن كنتُ أخرَقَ، حييّاً، غبيّاً، فيئستْ مني فتركتْني على ما أنا فيه من هذا النحو. فلم يحل ذلك دون أن أقع في غرامها بحسب ما تعودتُ. فبدا مني ما أشعرها بهذا الغرام، بيد أني لم أجرؤ قط على أن أبوح به إليها؛ ولم تكن على فطرة تبيح لها أن تبادرني إليه، فلم أتخطَّ غمزي لها وتنهدي منها، ولم ألبث طويلاً حتى مللتُ الغمز والتنهد إذ لم يؤديا إلى شيء.

وكنتُ، وأنا في بيت ماما، قد فقدتُ ميلي إلى بعض الاختلاسات اليسيرة، لأن كل ما لماما هو، أيامئذٍ، لي فلم يبقَ ثمة ما أسرق. ثم إن المبادئ السامية، التي اعتنقتُها، كانت خليقة بأن تنزّهني عن أمثال تلك الدناءات، والمؤكّد أنني، في الإجمال، قد تنزّهتُ، وذلك لا لكوني تعلّمتُ كيف أتغلب على مطامحي وإنما الأرجح لأني اقتلعتُها من جذورها، فلو رغبتُ في السرقة، لعدتُ إلى إتيانها كما كنتُ أفعل في عهد الفتوة. فأتاني الدليل على ذلك وأنا في بيت السيد دومابلي. وكان حولي بعض الأشياء السهلة الاختلاس فلم أهتم بها، بل طمعتُ ببعض النبيذ الأبيض الطيّب، وهو من خمور أربوي، وقد تشهيتُه بعد ما شربتُ منه بعض الكؤوس على المائدة، من هنا ومن هناك. وكان كدَر اللون بعض الكدر، فخلتُني أدري كيف أصفّيه فتباهيت بذلك، فعُهد إليّ في تصفيته، ففعلتُ. فأفسدتُ منظره، أما طعمه، فقد ظل طيّباً، وأتيحَ لي، حيناً بعد حين، أن أتناول بعض قنانيه أشرب منها في غرفتي ليس يزعجني أحد. ولكن في سوء الحظ أنني لم أستطع، يوماً أن أشرب من غير أكل. فكيف العمل كي أحصل على خبز؟ لقد تعذّر علي أن أدّخر منه بعض المونة؛ فإن طلبتُ من الخدم أن يشتروا لي خبزاً، فضحتُ أمري وكدتُ أهين ربّ البيت. أما أن أشتريه أنا بنفسي، فلم أتجاسر على ذلك قط. فمن كان مثلي حُسنَ هيئة، وقد تقلّد سيفاً،

twitter @baghdad_library

أيسعه أن يذهب إلى بعض الخبازين يبتاع كسرة خبز؟ وتذكرتُ ما كان من إحدى الأميرات العظيمات وقد قيل لها، يوماً، إن الفلاحين لا خبز عندهم، فقالت: «فليأْكلوا بريوش». فابتعتُ بريوش. ولكم اقتضاني ذلك! فتعمدتُ أن أخرج وحدي من البيت، وربما جُلتُ في المدينة كلها فمررتُ أمام ثلاثين حانوتاً للحلوى قبْل أن أدخل حانوتاً منها أتوخى ألا يكون ثمة إلا امرأة وحدها وأن تجتذبني هيئتها فأجرؤ على الدخول. حتى إذا حصلتُ على قطعة الحلوى الصغيرة ومضيتُ إلى غرفتي فأَحكمتُ إغلاق الباب، أخرجتُ قنينة النبيذ من بعض زوايا الخزانة. فكم نهلة طيّبة نهلتُ حينئذٍ وأنا وحدي أقرأ في بعض الروايات! وذلك أن المطالعة في أثناء الأكل كانت لذتي على الدوام إن فاتني أن أخلو بكتاب. فإنما حاجتي هي إلى ما يحلّ محل المعشر فألتهم صفحة كتاب وشيئاً من طعام وكأن كتابي يتغدى معي.

ثم إنني لم أتهتك ولا خَلُعتُ ولا سكرتُ يوماً. فاحترزتُ وأنا أقوم بتلك الاختلاسات اليسيرة، لكنها اكتُشفتْ إذ فضحتْني القناني. فتظاهروا في البيت أنهم لم يعلموا بما فعلتُ، إلا أن الخمور لم تُبقَ في عهدتي. فسلك السيد دومابلي في ذلك كله سلوكاً كريماً حكيماً. ولقد كان في دخيلة ذاته، تحت هيئته القاسية قسوةَ منصبه، إنسان وادع لطيف، على طيبة قلب نادرة، وسلامة رأي وإنصاف. وكان شفوقاً، وهذا لا يُتوقَّع أمره عند ضابط أمن. فلما شعرتُ بحلمه، ازددتُ تعلّقاً بشخصه، فأَقمتُ في بيته مدة أطول مما لو كنتُ لم أَشعر حياله بذلك أجمع. إلا أني، في آخر الأمر، عفتُ عملاً لم أُجعَل له وعفتُ حالة قد أزعجتْني جداً ولم يعجبني منها شيء، فصممتُ على أن أفارق تلميذيّ بعد ما قضيتُ سنة واحدة حاولتُ فيها أن أعلّمهما وبذلتُ كثيراً من الجهد والعناية في هذا القصد. ولكن اقتنعتُ حقّاً أنني لن أستطيع البتة أن أُحسنَ تأديبهما. فتبيَّن

ذلك للسيد دومابلي على نحو ما تبيَّن لي. بيد أنه لو لم أَكفه مؤونة فصلي عن عملي، لما فصلني قط. ولستُ أوافق على غلوه في هذه المراعاة. ثم إن الذي صيّرني في ما لا يطاق هو أني لم أزل أقابل ما أنا فيه بما كنتُ عليه، وكانت ذكرى الشارميت العزيزة، وحديقتي فيها، والأشجار والعين، والبستان، ولا سيما المرأة التي خُلقتُ لها، هي ما قد بثّ الروحَ في ذلك كله. وكنتُ إذا أعدتُ التفكير في تلك المرأة وفي ملذاتنا وفي عيشنا البريء، انقبض قلبي وضاق نفَسي فأحجمتُ عن كل عمل. فأُغريتُ مراراً أن أرجع إليها أذهب مشياً فألقاها تارةً أخرى، ولو لقيتُها من جديد مرة واحدة، لارتضيتُ أن أفارق الحياة على الفور. فلم أقوَ في نهاية الأمر، على أن أقاوم تلك الذكريات المشوّقة اللائي دعونني إلى جوارها، مهما اقتضاني ذلك من ثمن. فقلتُ في نفسي إنني لم أصبر على ماما صبراً كافياً ولا راعيتُها مراعاة كافية ولا غازلتُها مغازلة كافية، وإنني ما يزال يسعني أن أحيا حياةً سعيدة بصداقتها العذبة الحنون إذا بَذلتُ في هذا النحو فوق ما تقدَّم لي أن بَذلتُ. فأَخذتُ أضع أبهى الخطط أتحرّق رغبةً في أن أحقق خططي، فتركتُ كل شيء، وتخليتُ عن كل شيء، وطرتُ إلى ماما، فوصلتُ إلى بيتها وأنا على ما كنتُ عليه في ريعان الشباب من فورة وانفعال، فألفيتُني عند قدميها. آه! لو لقيتُ في استقبالها إياي، وملاطفتها لي، وفي قلبها، بعضَ ما كنتُ قد لقيتُ منها بالأمس وما لم أبرح أعيده في روعي، إذاً لقضيتُ فرَحاً.

ولكن يا لأوهام الإنسان المرعبة! لقد تلقتني ماما بمثْل ما أَلفتُ فيها من قلبٍ سمح كريم لن يفارقها إلا أن تفارقها الحياة. بيد أني كنتُ قد رجعتُ أطلب الماضي الذي انقضى بلا رجعة فتعذّر أن يُبعَث حيّاً. فما كدتُ أمكث معها زهاء نصف ساعة حتى أحسستُ أن سعادتي الغابرة قد غابت إلى الأبد. فوجدتُني في تلك الحالة

twitter @baghdad_library

الكئيبة التي كانت قد ألجأتني إلى الانكفاء، ولم يسعني أن أحمّل أحداً وزْرَ ما وجدتُني فيه؛ إذ الواقع أن السيد كورتيّ لم يكن امرأ سوء، فلما لقيني من جديد، لاح لي أنه ابتهج أكثر مما انزعج. ولكن كيف أحتمل الشعور بأنني عالة على تلك التي كنتُ كل شيء عندها والتي لم يسعني إلا أن تبقى وهي، عندي، كل شيء؟ كيف أقيم وكأني الغريب في البيت الذي كنتُ وَلده؟ ثم إن منظر الأشياء، التي شهدتْ سعادتي، قد زاد في قسوة التشبيه، ولو كنتُ في بيت آخر، لم أَشقَ بقدْر ما شقيتُ هناك. لكن تلك الذكريات الحلوة قد أثارت شعوري بما قد مُنيتُ به من خسران. فعدتُ أعيش وحدي خلا أوقات الطعام، وقد أضنتني ندامةٌ لا تجدي واستسلمتُ إلى أقتم ألوان الاكتئاب، فجعلتُ أخلو مع كتبي وأبتغي ما يلهيني فينفعني، وتبيّنَ لي الخطرُ الوشيك الذي طالما خفتُ منه في بعض ما مضى، فأقلقني شأنه من جديد، فقمتُ أبحث عما لديّ من وسائل لكي أدفعه يوم تعدم ماما كل مورد. وكنتُ قد نظّمتُ الأمور في بيتها على ما يحول دون أن تتفاقم، ولكن منذئذٍ تغيَّرَ كل أمر. فإن متولي أموالها كان مسرفاً، فأراد الظهور، فاقتنى فرساً أصيلاً وأمتعة جيدة، وطاب له أن يبدي للجيران أنه على سعة الأشراف، ولم يفتأ يقوم بمختلف الأعمال التي لم يدر منها عملاً، فكان المرتَّب ينفَق قبل أن يؤدّي، وكانت أقساطه مرهونة، والأجور متأخرة، والديون على ازدياد؛ فتوقَّعتُ أن المرتب لن يلبث طويلاً حتى يُحجز وأنْ قد يلغى. ولم أرتقب إلا الكوارث والدمار، وبدا لي أن يومها قريب جداً، وأحسستُ أهوالها مذ ذلك الحين.

وكانت غرفتي العزيزة هي سلواي الوحيدة. ولطالما ابتغيتُ علاجات لاضطرابات نفسي حتى لقد أخذتُ أبتغي ما أعالج به كلَّ العلل التي توقَّعتُ. فعدتُ إلى أفكاري السالفة أبني قصور أوهام

جديدة لكي أنقذ ماما المسكينة أخلّصها من الشدّة القصوى التي رأيتُها متردية فيها. فلم أجد لديّ من المعرفة والذكاء ما يكفي لأن يلمع شأني في دولة الأدب فأُثري عن هذا السبيل. فسنح لي خاطر جديد أوحى إليّ بالثقة التي لم يسعْ مواهبي المحدودة أن تشيعها فيّ. وذلك أنني، إذ أقلعتُ عن تعليم الموسيقى، لم أهجرها، بل كنتُ على الضد من ذلك، إذ درستُ أصولها النظرية درساً وافياً فاعتبرتُ نفسي عالماً في هذا الموضوع. فلما مرّت ببالي المشقة التي عانيتُها لكي أتعلّم قراءة الألحان وتلك التي عانيتُها لكي أتعلّم أن أغنّي من غير استعداد، توصلتُ إلى الاعتقاد أن الصعوبة قد تنشأ عن الموضوع بقدْر ما تنشأ عني أنا، ذلك ولم يخفَ عليّ أن تعلّم الموسيقى ليس، على الجملة، بالأمر الهيّن. حتى إذا نظرتُ في تركيبات العلامات الموسيقية، ألفيتُها كثيراً ما أُسيءَ صنعها. وكنتُ، من زمن طويل، قد فكرتُ في أن أعمد إلى الأرقام فأخطّ بها سلّم الألحان فأجتنب أن أرسم السطور ومجموعها إما كتبتُ أيسر النغمات، ولكن عاقتني، يومئذٍ، صعوبةُ الألحان الثُمانيّة وصعوبةُ مدى الأصوات والإيقاع. فعاودني هذا الخاطر القديم، فلما تدبرتُه مرة أخرى، تبيّن لي أنه لا يتعذّر عليّ أن أتمكن من تلك الصعاب. فتأملتُ فيها، فوفّقتُ، واستطعتُ أن أخط بالأرقام بعض الألحان خطّاً هو في غاية الدقة والبساطة واليسر. فمنذ تلك الساعة، خلتُ سعدي قد أكتمل، فأصبحتُ، وأنا على حماسة رغبتي في أن أقاسم ماما هذا السعد، لا أحلم إلا بأن أشخص إلى باريس، لستُ أشكّ أني إذا قدّمتُ مشروعي إلى الأكاديمية، أحدثتُ ثورة هناك. وكنتُ قد أتيتُ من ليون ببعض الدراهم، وبعتُ كتبي، فحققتُ، في خمسة عشر يوماً، ما قد عزمتُ عليه. فمضيتُ من سافوى بنهجي الموسيقيّ وقد أفعمتْني الأفكار الرائعة التي ألهمتْني هذا العزم وأنا على نحوْ ما أنا عليه في كل حين؛

twitter @baghdad_library

وكان ذهابي من سافوى كذهابي في الأمس من تورينو ومعي إناء هيرون.

تلك أخطاءُ شبابي وذنوبه، رويتُ قصتها روايةً صادقةً قد انشرح لها قلبي. فإذا شرّفتُ سنوات النضج من عمري ببعض الفضائل، أوردتُها بالمصارحة نفسها، فإنما ذلك هو قصدي. ولكن ينبغي أن أتوقف ههنا. ولربما كشف الزمان عن كثير من الحجب. فإن انتهت ذكراي إلى الخلف، فربما بما علمتْ يوماً بما كان عليّ أن أقول. وعندئذٍ سيعلَم الناس لمَاذا ألوذ بالصمت.

twitter @baghdad_library

اعترافات روسو

في الدخيلة، ومن تحت الجلد[1]

الجزء الثاني

(1) في الأصل باللاتينية: Intuts, et in cute ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

إن هذه الدفاتر[1] التي امتلأت بالخطأ من كل لون والتي لا وقت عندي ولو لكي أعيد قراءتها، تكفي لتضع كل صديق للحقيقة على أثرها ولتؤتيه ما يوصله إليها بما يكون قد اطلع عليه هو بنفسه من يقين أخبارها. ويبدو لي، ولسوء الحظ، أنه يصعب بل يستحيل أن تنجو هذه الدفاتر من تيقظ أعدائي. فإن هي وقعت في يدي امرئ نزيه (أو في أيدي اصدقاء للسيد دو شوازول، أو إن هي انتهت إلى السيد دوشوازول نفسه، فما أحسب ذكراي قد خلا شرفها بعد من كل مورد. ولكن، أيتها السماء، يا حامية البراءة، صوني آخر أخبار براءتي، صونيها من أيدي مدام دوبوفلير ومدام دو فردولان، ومن أيدي أصدقائهما، أو، في الأقل، أنقذي من هاتين الغضبتين الخبيثتين ذكرى امرئ نكد تخليت لهما عنه وهو حي).

---

(1) هذه السطور هي على بعض صفحات الغلاف، من الجزء الثاني، من مخطوط جنيف لكتاب **الاعترافات**. أما مخطوط باريس للكتاب نفسه، فليس فيه شيء من هذا النحو. والجدير بالذكر أنه قد شطب فوق النصف الأخير من النص ابتداء من «أو في أيدي أصدقاء السيد دو شوازول»، ولكن لم تتعذر قراءة المشطوب فوقه وهو الذي جعلناه بين معقّفين - المترجم.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

أعود إلى الكتابة بعد سنتين من الصمت والصبر وبعد ما كنت قد عزمت ألا أعود إلى هذه الاعترافات. فيا أيها الْقارئ! تريث في حكمك بالدواعي التي تضطرني إلى أن أكتب، فلن يتهيأ لك الحكْم بها ما لم تقْرأني.

ولقد رأيتَ شبابي الوادع المطمئن ينقضي في سيرة مطّردة سويّة، على حلاوة عيش من غير عائق يُذكَر ولا إقبال عظيم. وفي الأغلب، كانت هذه الحال المتوسطة من صنع طبعي المشبوب الذي اتسم بالوهن والذي هو إلى الفشل والإحجام أَقرب منها إلى الإقدام والْعزيمة. فأزعجتْني عن راحتي هزّات، وأرجعتْني إليها رغبات وميول نأت بي عن النقائص الفادحة أكثر مما أبعدتْني عن الفضائل السامية، وردّتْني إلى العيشة الفارغة الهادئة التي شعرتُ بأني خُلقتُ لها، فلم يسعني قط أن أروم شيئاً كبيراً، أفي الخير كان هو أم في الشر.

فما أبعد الفرق بين ما كتبتُ وما أنا مسهب فيه عما قليل! فإن القدَر، الذي تعهَّد ميولي فيسّرَها في ثلاثين سنة خلتْ، قد ضادّها في الثلاثين سنة التي تلت. وسترى أن استمرار تعارُض حالي وميولي قد نجمتْ عنه ذنوب بالغة ومحن غريبة وجميع الفضائل التي ربما

شرَّفت الإنسان في أوقات الشدائد، وما أستثني من تلك الفضائل إلا فضيلة القوة.

ولقد اعتمدتُ على الذاكرة لأكتب الجزء الأول من اعترافاتي. وإني لمضطر إلى الاعتماد عليها أيضاً لأكتب الجزء الثاني فأكون أَكثر خطأً في ما أرجّح. ثم إن ذكريات سنواتي الحلوة، الطيّبة، قد طبعتْني بألف طابع فاتن لذيذ وددتُ لو أستعيده على الدوام. وسيتبين لك، بعد قليل، كم هي مغايرةٍ [مختلفة] ذكريات بقية العمر من الذكريات الماضية التي إن استعدتُها، جدَّدتُ ما بها من مرارة. فلذلك أنحيّها عني ما استطعتُ لئلا أنغّص ذكرياتي الحاضرة، وكثيراً ما وُفّقت لأن أنحيّها حتى إنني إذا احتجتُ يوماً إليها، فاتني أن أعثر عليها من جديد. هذه السهولة في نسيان المحن هي عزاء قد آتاني الله إياه بين الآلام التي قُدّر أن تتراكم عليّ. فإن الذاكرة، عندي، وهي التي وُفّقتْ أن تعيد إليّ رسم الموضوعات البهيجة، هي العديل السعيد لمخيلتي المذعورة الذي لا تنفك تتمثّل صوراً للغد أليمة.

ثم إن كل الأوراق التي كنتُ قد جمعتُها لكي تنوب عن ذاكرتي وتهديني سبيل عملي، هذا، قد انتقلتْ إلى أيدٍ غير يديّ، فهي لن تعود إليّ أبداً. فلم يبق لديّ إلا دليل أمين واحد أستطيع أن أعوّل عليه، وهو سلسلة المشاعر التي وسمت التتابع الذي لوجودي وبالتالي سلسلة الأحداث التي ألهبتْ مشاعري أو التي نشأتْ عنها. وإني ليهون عليّ أن أنسى شقاواتي، ولكن لا يمكنني أن أنسى ذنوبي، ولا يمكنني، في الأخص، أن أنسى مشاعري الطيّبة، الكريمة. فإن ذكرها لأعزُّ عندي من أن يُمحى عن قلبي في يوم من الأيام. وربما غفلتُ عن بعض ما حدث، أو تناولتُ بعض ما حدث أنقله إلى غير موضعه، أو ربما أخطأْتُ في التاريخ، ولكن لا يسعني أن أخطئ في ما قد أحسستُ ولا في ما حدتني مشاعري على إتيانه،

twitter @baghdad_library

وههنا فحوى القصد. فإنما الموضوع المخصوص الذي **لاعترافاتي** هو أن أكشف عن دخيلتي كشفاً دقيقاً يشمل جميع الأحوال التي بلوتُها في حياتي. فلقد وعدتُ أن أروي قصة نفسي، ولستُ أحتاج إلى غير الذاكرة لأكتب هذه القصة كتابة صادقةً أمينة، فإنما حسبي أن أدخل في جوّانية ذاتي أنا، على نحو ما فعلتُ إلى الآن.

ولكن في حُسن الحظ أن لديّ، عن ست سنوات أو سبع، أنباءَ صادقة نقلتُها في مجموع من نسخ الرسائل التي يحتفظ بأصلها السيد دو بيرو. فإن هذا المجموع، الذي تنتهي فيه أخباري إلى عام 1760، يتضمن كل عهدي في الإرميتاج وانفصالي عمن زعموا أنهم أصدقائي، وهو عهد في حياتي مذكور قد نجم عنه سائر ما اعتراني من شقاوات. أما الرسائل التي هي أحدث تاريخاً والتي بقيتْ عندي، وعددها قليل، فسأنسخها في هذا الكتاب ما وجدتُ أنها تشارك في جلاء ما هو لي أو ما هو عليّ، بدل أن أنسخها في آخر المجموع الذي يبدو أضخم من أن أرجّي إخفاءه على مساعي هؤلاء الأرجوسيين[1]، وذلك بأني لا أخشى أن يذهل القارئ عن كوني أعترف فيخالني أمدح نفسي. ولكن لا يتوقَّع القارئ أن أسكت عن الحقيقة إذا كانت تشهد لي.

وهذا الجزء الثاني ليس بينه وبين الجزء الأول جامعة مشتركة إلا في هذه الحقيقة، وهو لا يفضل الجزءَ الأول إلا بأهمية ما يجري فيه؛ وما عدا ذلك فإنه، على التقريب، دوْنه في كل شيء. فلقد كتبتُ الجزء الأول بلذة ورضًى وراحة إذ أنا في فوتُّون، أو في قصر تري، فأصبحت الذكريات، التي استعدتُها، متعاً لي جديدة. فلم أَزل أرجع إليها، وقد تجددتْ بهجتي، حتى أمكنني أن أقلّب الرأي في

(1) أرجوس أمير أسطوري له مائة عين، وهو رمز المراقب المزعج ـ المترجم.

صيغة الأشياء التي وصفتُها ما شئتُ أن أقلّبه، إلى أن رضيت عنها. أما اليوم، فإن وهن ذاكرتي وذهني يكاد يُعجزني عن كل عمل، فما أعنى بعملي، ههنا، إلا وصدري منقبض من ضيق وعناء. وذلك أن عملي لا يريني سوى ضروباً من الشقاء والخيانة والغدر وسوى ذكريات شجية تحزّ مني في صميم الفؤاد. ولقد وددتُ لو استطعت أن أغيّب، في ظلمة الأبد، ما عليّ أن أقول، لكني مكرَه على أن أتكلّم وأواري نفسي وأحتال وأسعى إلى الخديعة وعلى أن أتذلل لأَبعد الأمور التي خُلقتُ لها، فإن للأرض إلى أطأها عيوناً، وإن للجدران التي تحيط بي آذاناً، ولقد أحدقَ بي جواسيس ومراقبون سيئو النية ومتيقظون، فقلقتُ، وسهوتُ، وغدوتُ ما أَتعجلُ أكتب بعض الكلمات حتى يُقطَع عليّ شأني فأكاد لا يتاح لي الوقت لكي أعيد النظر في ما كتبتُ، ولا لكي أُنقّحه على الخصوص. وإني لأعلم أنه، برغم الحواجز الهائلة التي ما تفتأ تطوّقني، يُخشى أن تتفلّت الحقيقة يوماً فتخرج من بعض الشقوق. فكيف أعمل كيما أَجعل الحقيقة تخترق تلك الحواجز؟ إني أحاول ذلك وأنا ضعيف الثقة بالنجاح. فأحكمْ هل ثمة ما يلهمني أن أرسم صوراً جميلةً جذّابة الألوان وأنا على ما أنا عليه؟ فمن أرادوا أن يبدأوا بقراءة هذا الكتاب فواصلوها، حذّرتُهم أنه لا شيء يقيهم الضجر إلا الرغبة في أن يكملوا معرفتهم بواحد من البشر ولحبّهم الصادق للعدالة والحقيقة.

وكنت، في الجزء الأول من كتابي، قد وصلتُ إلى حين قصدتُ باريس على كره مني وقد أبقيتُ قلبي في الشارميت أبتني آخر قصر أوهام، أنوي العود يوماً إلى ماما وقد آبت إلى نفسها فأُلقي عند قدميها الكنوزَ التي أكون قد حصّلتُها، أعتمد على منظومتي الموسيقية وكأنها ثروة مضمونة.

twitter @baghdad_library

فتوقفتُ في مدينة ليون بعض الوقت لكي ألقى معارفي وأتزود ببعض التوصيات إلى باريس ولكي أبيع كتبي الهندسية التي كنتُ قد حملتُها معي. فرحّب بي الجميع. فأبدى السيد دو مابلي وقرينته سرورهما إذ لقياني من جديد ودعواني إلى الغداء مراراً، فتعرّفتُ في بيتهما إلى الأباتي دومابلي على نحو ما تعرّفتُ قبلاً إلى الأباتي دوكونديّاك، وكان كلا الكاهنين قد جاءا يزوران شقيقهما. فزودني الأباتي دو مابلي رسائلَ إلى باريس، منها رسالة إلى السيد دو فونتنيل، ومنها رسالة إلى الكونت دو كايلوس. فكان هذا وذاك من المعارف التي طاب لي أن ألقى، ولا سيما أوّلهما لأنه ظلّ إلى بقية عمره يعرب لي عن صداقته ويسدي إليّ، في أثناء خلواتنا، نصائح كان ينبغي أن أنتفع بها خيراً مما انتفعتُ.

ولقيتُ السيد بورد من جديد، وكنتُ قد تعرّفتُ إليه من زمن طويل، وكان كثيراً ما أولاني معروفه بقلب غنيّ وسرور حقيقي. فوجدتُ السيد بورد لا يزال هو إياه. وكان هو الذي حملني على بيع كتبي، كما أنه قد زودني رسائلَ منه يوصي بي خيراً في باريس، فضلاً عن أنه قد حصل لي على توصيات من سواه.

ولقيتُ من جديد الناظر العام الذي كنتُ مديناً للسيد بورد بتعرّفي إليه، وكنتُ مديناً للناظر العام بتعرّفي إلى السيد دو ريشليو وقد مرّ بليون في ذلك الوقت. فعرّفني إليه السيد بالّو[2]. فأحسنَ السيد دو ريشليو استقبالي وقال لي لأذهب إليه في باريس، فقصدتُه مراراً، ولكن لم تنفعني تلك الصلة الرفيعة، وسأتكلم عليه في عدة أحوال.

ولقيتُ من جديد دافيد الموسيقي، وكان قد أولاني معروفاً في بعض ما سلف من أسفاري وأنا في ضيق. فلقد أعارني حينئذٍ، أو

(2) اسم الناظر العام - المترجم.

أعطاني، قبّعة وجوارب، فلم أُرجعها إليه قط ولا طالبني بها يوماً، مع أننا كثيراً ما تلاقينا مذ ذلك الحين. ثم أهديتُ إليه، في ما بعد، هدية تساوي القبّعة والجوارب على التقريب. ولو أن القول، ههنا، يدور على ما كنتُ مديناً به، لكان قولي خيراً مما ذكرتُ، لكن الكلام، ههنا، يدور على ما فعلتُ، وفي سوء الحظ أن هذا لا يعدل ذاك.

ولقيتُ من جديد السيد برّيشون النبيل الكريم، فما أمكنني إلا أن أُشعُره، ثانية، بسخائه المعهود وقد أهدى إليّ الهدية عينها التي تقدَّم له أن أهداها إلى الظريف برنار[3]، إذ إنه أدّى عني ثمن ركوبي العربة السريعة [الديليجانس]. ولقيتُ من جديد باريزو الجراح، خير الناس وأفضلهم سلوكاً. كما لقيتُ من جديد جودفروى عزيزته التي كان يتعهدها منذ عشر سنوات والتي كانت دماثة طبعها وطيبة قلبها رأس مالها كله، ومع ذلك لم يلقَها الإنسان إلا اهتّم بها، ولا فارقها إلا حنا عليها إذ أوفت على آخر مرحلة من داء السل، فقضت به بعد زمن قريب. ولا شيء أدَلُّ على حقيقة ميول الإنسان من طبيعة علائقه بسواه[*] فإذا رأيتَ جودفروى الوادعة، عرفت باريزو الطيّب.

---

(3) بيار أوجوست برنار الملقب بجانتيّ برنار (1708 ـ 1775) مؤلّف موسيقي- المترجم.

(*) ذلك ما لم يخطئ الإنسان، أول الحالة، في الاختيار، أو ما لم تكن تلك التي تعلّق بها قد تغيَّر طبعُها بعدئذٍ لدواعٍ غريبة قد شاركتْ في هذا التغير الذي لا ينفي حصولُه نفياً مطلقاً، فإذا شئتَ أن تسلّم بهذه النتيجة تسليماً كلياً، وجب أن تحكم لسقراط، أو عليه، تستند، في حكمك، إلى كسانتيبه زوجة سقراط، ووجب أن تحكم لديونوس[أ]، أو عليه، تستند، في حكمك، إلى كاليبوس صديق ديونوس، فتكون قد أصدرت حكماً هو أظلم ما أصدرَ من أحكام أوفرها خطأً. ولكن ليُقصَ من ههنا كل تشبيه مهين لزوجتي. ولئن كانت زوجتي محدودة الفهم فسهلَ أن تخدَع أكثر مما ظننتُ، فإنّ خُلقها الطاهر، البريء، الكريم، لحقيق بتقديري أجمع، ولسوف أقدرها ما حييتُ.

(أ) ديونوس فيلسوف يوناني عاش في القرن الميلادي الأول ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ولقد كنتُ مديناً لجميع أولئك القوم الكرام. لكني أهملتُهم في ما بعد، لا إنكاراً مني لجميلهم، على وجه التأكيد، بل لكسل عندي لا يقهر وكثيراً ما أَظهرني بمظهر الناكر للجميل. إلا أن شعوري بمعروفهم لم يفارقني يوماً: أما أَنْ أُثْبتَ لهم عرفاني لجميلهم فذلك أهون عليّ من أن أثبتهم لهم باستمرار. فإن دقة المراسلة هي فوق طاقتي، فما أتكاسل حتى يزداد شعوري بالكسل إذ يخجلني ذنبي وأرتبك لست أدري كيف أصلحُ أخطائي، وعندئذ لا أكتب إليهم أبداً. فلذلك لزمتُ الصمت كأنما أنا قد نسيتُهم. لكن باريزو وبرّيشون لم يهتما بذلك، حتى إنهما لم ينتبها له، فوجدتُهما هما عينهما على الدوام؛ أما السيد بورد، فسوف ترى فيه، بعد عشرين سنة، مدى الانتقام الذي يفضي إليه الحب الشخصي بالفكر الجيّد إذا خيّل إلى صاحبه أنه قد قوبل بالإهمال.

ثم يجب عليّ، قبل أن ابرح ليون، ألا أنسى فتاةً لطيفةً لقيتُها فيها من جديد فأبهجني لقاؤها كما لم يبهجني يوماً وأبقت في قلبي ذكريات رقّة وحنان. إنها الآنسة سر، وقد تكلّمتُ عليها في الجزء الأول وجدَّدتُ تعرفي إليها وأنا عند السيد دو مابلي. فأتيحَ لي، في سفري ذاك، من وقت الفراغ ما أمكنني معه أن ألقاها أكثر مما لقيتُها في الماضي، فتعلّق بها قلبي تعلّقاً شديداً. وبدا لي أن قلبها لم يكن دون ما قد كنتُ عليه، إلا أنها أولتني من الثقة ما رغبني عن أن أفرط فيها. ولم تكن هي لتملك شيئاً ولا كنتُ أملك من شيء. فتشابهتْ أحوالنا المالية تشابهاً هو أقرب من أن أستطيع الاقتران بها، ولقد حدث ما شغلني وأَبعدني عن التفكير في الزواج. وأنبأتْني هي أن تاجراً شاباً يدعى السيد جنيف قد أعرب عن رغبته في أن يقترن بها. فلقيتُه عندها مرة واحدة، أو مرتين، فظهر لي أنه رجل كريم وقد أُثِرَ عنه ذلك. فاقتنعتُ أنها ستسعد معه، فوددت لو يتزوجها،

وقد فعل في ما بعد، فتعجلتُ في الذهاب خوفَ أن أكدرَ حبّهما البريء، وتمنيت لتلك الفتاة اللطيفة ما لم يتحقق في هذه الحياة الدنيا إلاّ لأجل قصير، ويا أسفاه! إذ بلغني أنها توفيتْ بعد ما انقضى على زفافها سنتان أو ثلاث. ولقد اعتلجتْ فيّ، طولَ السفر، مشاعرُ الندامة فكنتُ كلما كرّرتُ التفكير في مَعاني التضحية، أحسستُ وما أزال أُحسّ أنه إذا كانت التضحية في سبيل الواجب والفضيلة تقتضي باهظ الكلفة، فإن جزاءَ من يضحّي هو ما يبقى في قرارة قلبه من ذكريات التضحية العذاب.

وكنتُ، في سفري السابق، قد نظرتُ إلى باريس من وجهها الكالح بقدْر ما رأيتُها، في سفري هذا، من وجهها المشرق، لكن ذلك الإشراق لم يكن في مسكني. وكان السيد بورد قد زودني عنوانَ فندق هو فندق سان كانتان، فبتُّ فيه، ويقع في شارع كوردييه بجوار السوربون؛ فبئس الشارع، وبئس الفندق، وبئس حجرتي هناك. ولكن، مع ذلك، حلَّ به أهل استحقاق أمثال جريسّه وبورد والأباتي دو مابلي والأب دو كونديّاك وسواهم ممن أُصبحت لا ألقى هناك أحداً منهم. بل لقيت هنالك رجلاً من أشراف الريف يدعى السيد دوبونفون، أعرج، محباً للدعاوى، يمثّل دور من يحرص على سلامة اللغة حرصاً بالغاً. فعرّفني إلى السيد روجان عميد أصدقائي اليوم، وروجان هو الذي عرّفني إلى ديدرو الفيلسوف. وسأكثُر من التكلّم على ديدرو في ما بعد.

وصلتُ إلى باريس في خريف عام 1741، وكان موردي خمس عشرة ليرة فرنسية ذهباً، فضلاً عن مسرحيتي الهزلية «**نرسيس**»(4) ومشروعي الموسيقي. فلم يكن لديّ إلا وقتاً قليلاً أبدّده إذ حاولتُ

---

(4) **نرسيس** *(Narcisse)* ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أن أنتفع بسائر الأوقات. فأسرعتُ أبرز رسائل التوصية. ذلك وإن الشاب المقبول الهيئة، إذا وصل إلى باريس فأخذ يبشّر بمواهبه، استُقبل على الدوام استقبالاً حسناً. ولكن جميع الذين كتب إليهم بالتوصية بي لم أنتفع بهم عدا ثلاثة أشخاص لا غير، وهم السيد داموزان أحد أشراف سافوى، وكان يومئذ من الفرسان وكان صاحب حظوة عند الأميرة مدام دوكارينيان، والسيد دوبوز أمين سر أكاديمية الحفريات[5] وحارس أوسمة ديوان الملك، والأب كاستل اليسوعي مؤلف كتاب «**الكلافسان البصري**»[6] وكانت هذه التوصيات كلها قد أتتني من الأباتي دومابلي، خلا توصية السيد داموزان.

فتولى السيد داموزان تدبير أشدّ أموري إلحاحاً إذ انتهت بي توصيته إلى رجلين من معارفه، أحدهما يدعى السيد دوجاسك، رئيس بمحكمة التمييز في برلمان بوردو، وكان يحسن العزف بالكمان، والآخر الأباتي دوليون، وكان يقيم في السوربون، وهو شاب من الأسياد، على غاية اللطف، وقد قضى في زهرة العمر بعد ما لمع في الناس ذكرُه حيناً من الدهر فعُرف بالشوفالييه دو روهان. ولقد خطر لأحدهما وللآخر أن يتعلّما الموسيقى. فعلّمتُهما بضعة أشهر مما مدّني ببعض المال، ونقودي يومئذ إلى نفاد. ولقد صادقني الأباتي دوليون وأراد أن يتخذني أميناً لسرّه، بيد أنه لم يكن موسراً فلم يمكنه أن يعرض عليّ إلا ثمانمائة فرنك، فأَبيتُها بأسف بالغ إذ لم تكن لتكفيني لنفقات سكني ولغذائي وسائر معيشتي.

---

(5) أكاديمية الحفريات (Académie des inscriptions) أُسست عام 1663، تعنى بالموضوعات الأثرية والتاريخية، ثم أضيف إلى اسمها: et belles- lettres أي والآداب، فأصبح: أكاديمية الحفريات والآداب (Académie des inscriptions et belles - lettres) ـ المترجم.

(6) **الكلافسان البصري** (*Le clavecin oculaire*) ـ المترجم.

واستقبلني السيد دو بوز استقبالاً حسناً جداً. وكان يحبّ المعرفة وقد أُوتي قسطه منها، بيد أنه كان في علمه بعضُ الادعاء. أما مدام دوبوز، فقد أمكن أن تكون ابنته، وكانت شابة فاتنة، أنيقة، معجبة بنفسها، فلم يسع المرءَ أن يبدو أكثر خرقاً وحمقاً مما بدوتُ وأنا حيالها. فأخجلتْني هيئتها الطلقة الواثقة، وجعلتْ هيئتي أَشدَّ إثارة للضحك. فكانت إذا قدّمتْ إليّ بعضَ صحون الطعام، تواضعتُ فقدّمتُ شوكتي أشكُّ بها قطعة منه صغيرة، فأعادت هي إلى خادمها الصحن الذي خصتني به وأدارت وجهها لئلا أبصرها وهي تضحك، ولم يكن عندها من ريب أن في رأس هذا القروي بعض الأرواح. ثم إن السيد دو بوز قد عرفني إلى السيد دو ريومور صديقه، وكان هذا يأتيه كلَّ يوم جمعة فيتغدى عنده في البيت، وهو يومُ اجتماع أكاديمية العلوم. فكلّمه بمشروعي وبرغبتي في أن أرفعه إلى الأكاديمية لكي تنظر فيه. فتولى السيد دوريومور تقديم الاقتراح فقُبل، فلما كان اليوم المعيَّن، أدخلني دو ريومور وقدّمني، وتشرّفتُ في اليوم نفسه، الثاني والعشرين من آب 1742، بأن أتلو المذكرة التي كنتُ قد أعددتها لهذا الشأن. ولئن كان ذلك المجمع الشهير جد مهيب، فقد ارتبكتُ أمامه أقلّ مما ارتبكتُ أمام مدام دو بوز، فتخلصتُ من تلاوتي فيه ومن أجوبتي إليه تخلصاً مقبولاً. فأصابت مذكرتي نجاحاً وجلبتْ لي تهنئات أدهشتْني بقدْر ما غرّتني وكدتُ لا أتصوّر أن سلامة الرأي تتهيأ لمن يَمثل أمام مجمع ليس هو عضواً فيه. أما المفوَّضون الذين وكلتُ إليهم، فهم السادة دو مايران وهيلّو ودوفوشي، ولقد كانوا من أُولي الجدارة ولا شك، إلا أنه ليس فيهم مَن علم الموسيقى، أو، في الأيسر، ليس فيهم من علمها علماً كافياً يخوّله أن يحكم بمشروعي.

وكنتُ، في أثناء محادثاتي مع أولئك السادة، قد أقنعتُ نفسي،

twitter @baghdad_library

في ثقة مني ودهشة، أنه إن يكن للعلماء من الأحكام المسبقة أقل مما لغيرهم من البشر، فإنهم، في مقابل ذلك، أكثر من غيرهم تمسكاً بتلك التي يصدرون. ولئن كانت أغلب اعتراضاتهم واهية ومخطئة، ولئن أجبتُهم باستحياء وبتعبيرات غير صالحة، كما أُقرُّ بذلك، فإن أسباباً قاطعة قد حالت دون أن أُفهمهم وأرضيهم. فأذهلتْني سهولةُ إبطالهم أقوالي من غير أن يدركوا ما أقول يتوسّلون ببعض العبارات الطنّانة. ولستُ أدري من أين نبشوا أن كاهناً يدعى الأب سوهايتي كان قد ابتكر طريقة كتابة الألحان بالأرقام. فكفى بذلك ليزعموا أن منظومتي ليست بجديدة، فلم أعترض. ومع أني لم أسمع قط بذكر الأب سوهايتي، ومع أن طريقته في رقم التسابيح السباعيّة، دون أن تخطر له الألحان الثمانيّة، هي طريقة لا تستحقّ، في أيّ وجه كان، أن تشبَّه بابتكاري البسيط اليسير الذي يستخدم الأرقام لكتابة كل ما يتصوّره الخيال من ألحان ومفاتيح موسيقية وثمانيّات وأوزان وأجزاء نغمات ومدَى أصوات لم تَعنّ للأب سوهايتي - مع ذلك كله، فلقد كان صحيحاً قولهم إن الأب سوهايتي هو أول من ابتكر العبارة السباعيّةَ الألحان، وهي عبارة أوّليّة [ابتدائية]. لكنهم لم يكتفوا بأن يولوا هذا الابتكار البدائي فوق ما يستأهل من اهتمام، بل إنهم ما إن أرادوا أن يتعمّقوا في أساس طريقتي حتى مالوا عن المنطق. وأكبر مزية أتت بها منظومتي فهي إلغاء إبدال الألحان والمفاتيح بحيث إن القطعة الموسيقية الواحدة يستطاع ترقيمها وإبدالها على حسب الرغبة وعلى أيّ لحن كان، وذلك بواسطة التغيير المفترض إجراؤه على الحَرْف الأصلي من مطلع اللحن. وكان هؤلاء السادة قد سمعوا، في باريس، من قال لبعض مرددي النوتات الموسيقية [croque-sol] إن طريقة العزف بالإبدال لا قيمة لها. فاستندوا إلى هذا القول لكي يقلبوا أبرز ميزة في منظومتي إلى اعتراض عليه اعتراضاً لا مردّ له، ثم قرروا أنها

تصلح الإنشاد، لكنها لا تصلح للمعزوفات، وذلك بدل أن يقرروا ما قد وجب عليهم تقريره وهو أن منظومتي تصلح للموسيقى الإنشادية، وأنها لموسيقى العزف بالآلات أصلح. فمنحتْني الأكاديمية، استناداً منها إلى تقريرهم، شهادة ملأى بعبارات الإطراء والتهنئة تَبيَّنَ، من خلالها، أن الأكاديمية لم تجد، في الواقع، منظومتي جديدة ولا وجدتْها مفيدة. فلم أرَ أنه ينبغي أن أزيّن بمثْل تلك القطعة مؤلَّفي «**مقالة في الموسيقى الحديثة**»[7]، وهو الذي احتكمتُ به إلى الجمهور.

أتاحت لي هذه المناسبة أن أتبيَّن أنه لكي تحكم في شيء حكماً صائباً فإن اقتصارك على معرفة الشيء معرفة مفردة مخصوصة ولكنها عميقة، إنما هي خيرٌ لك من جميع أنوار المعارف التي تشيعها فيك العلمية [العامة] ما لم تقترن هذه الثقافة بالدراسة الجزئية المطلوبة.. أما الاعتراض المتين الذي واجته منظومتي، فقد أقامه رامو[8]. فما شرحتُها له حتى أدركَ ناحية ضعفها، فقال لي: «إن علاماتك الموسيقية جيدة جداً من حيث كونها تحدّد مدى اللحن تحديداً واضحاً وتصوّرُ الفواصل تصويراً جليّاً وتبيّنُ الصوتَ المفرد في الصوت المثنى، مما لا تؤدّيه العلامة الموسيقية العاديّة؛ إلا أن علاماتك رديئة من حيث كونها تقتضي عملاً ذهنياً لا قبل له، في كل حالة، بأن يجاري سرعة العزف». ثم قال: «إن موضع علاماتنا الموسيقية يتصوّر للعين من غير هذا العمل الذهنيّ. فإذا كانت كتلة العلامات الموسيقية تَجمع بين علامتين موسيقيتين، إحداهما جهيرة جداً والأخرى منخفضة جداً، إذ هي تتخللهما،

(7) **مقالة في الموسيقى الحديثة** (*Dissertation sur la musique moderne*) ـ المترجم.

(8) جان فيليب رامو (Rameau) (1683-1764) المؤلف الموسيقي الفرنسي الشهير - المترجم.

twitter @baghdad_library

رأيتَ من أول نظرة تقارُبَ العلامتين تقارباً تدريجياً مشتركاً؛ أما أن أتأكّد أن هذه الكتلة قائمة عندك، فإن ذلك ليحتمُ أن أتهجى أرقامك جميعها رقماً رقماً، لأن النظرة السريعة لا تغني عن التهجية في شيء». فلاح لي أن اعتراضه لا يُدحَض، فوافقتُ عليه فوراً، ولئن كان هذا الاعتراض بسيطاً مؤثراً، فإنه لا توحي به إلا ممارسة للفن رفيعة. وليس بمستغرَب أن لا يكون هذا الاعتراض قد خطر لأحد من الأكاديميين، لكن المستغرَب أن جميع أولئك العلماء الفطاحل الذين يعرفون الكثرة الكثيرة من الأشياء لا يدرون إلا دراية ضعيفة بأنه يتوجب على الشخص ألاّ يحكم إلا في ما يتصل باحترافه.

ثم إن تكراري الزيارةَ لمفوَّضيّ الثلاثة ولسواهم من الأكاديميين قد أتاح لي أن أتعرّف إلى أعلام الأدب المميزين في باريس، فلما وجدتُني بعدئذٍ في عدادهم بغتةً، كنت قد عرفتُهم من قبْل. أما وقتئذٍ وقد أنكببتُ على منظومتي الموسيقية، فلقد أصررتُ على أن أُحدث بها ثورة في هذا الفن وعلى أن أتوصل إلى أن يغدو لي في الفنون الجميلة شهرةٌ هي قرينة الحظ على الدوام في باريس. فلزمتُ حجرتي أدأب شهرين أو ثلاثة أشهر دأباً يتعذّر وصفه، أعيدُ كتابتي المذكرة التي كنتُ قد رفعتُها إلى الأكاديمية، أضع مضمونها في مؤلَّف مُعَدّ للجمهور. وكانت الصعوبة هي أن أُوفَّق لناشر يرضى أن يتولى أمر هذا المخطوط، إذ إن طبعه يقتضي بعض النفقة بسبب الحروف الجديدة التي يستدعيها، وإذ إن الناشرين لا ينثرون دراهمهم في وجوه المبتدئين، وإذ وجدتُ أنه من الإنصاف أن يَردّ عليّ مؤلَّفي الخبزَ الذي أَكلتُ وأنا أكتبه.

فهداني بونفون إلى كيّو الأب، فاتفق هذا معي على أن نتقاسم الربح، أما ثمن الامتياز فقد أديته وحدي. ثم كان من كيّو ما قد

كان، فلم استردّ إلا مقدار ثمن الامتياز، ولم تكسبني تلك الطبعة درهماً واحداً؛ والواقع أن المبيع منها كان قليلاً، مع أن الأباتي ديفونتين قد وعدني بتصريفها.

وأصعب عقبةٍ واجهتْها منظومتي هي الخوف من أنها إن لم تُقبَل، فإن من يتعلّمها يضيّع وقته. فأَجبتُ عن ذلك أن التمرن عليها يوضح الأفكار، حتى إن من أراد أن يتعلّم الموسيقى بالحروف العاديّة فبدأ بحروفي، صان وقته واكتسب. وأردتُ أن أبرهن على جوابي برهاناً يثبته الاختبار، فعلّمتُ إحدى الأميركيات الموسيقى مجاناً، واسمها مدوموازيل ديرولين، وكان السيد روجان قد عرّفني إليها؛ ففي ثلاثة أشهر مكّنتْها منظومتي من أن تقرأ أيّ لحن كان، لا بل مكّنتْها، أيضاً، من أن تغنّي ارتجالاً كل لحن لم تتراكم عليه الصعابُ أحسنَ مما غنّيتُه أنا. فنجحتْ أيّ نجاح، ولكن بقي خبرها مجهولاً. ولو تهيّأَ مثلُه لسواي، لملأ به الصحف. وإذا كنتُ قد أُوتيتُ شيئاً من الموهبة لكي أكتشف بعض الفوائد، فإنني لم أُوتَ قط الموهبة لكي أَنتفع بها.

هكذا تحطّم، للمرة الثانية، الإناء الهيرونيّ الذي هو نبعي. بيد أني، في هذه المرة، كنتُ قد بلغتُ الثلاثين من العمر وأنا يومئذٍ في باريس إنائي متعطل، وباريس لا يسع الإنسان أن يتعيش فيها مجّاناً. أما ما ثبتَ عليه رأيي وأنا في هذا الضيق الأشدّ، فلن يستغربه إلا من لم يقرأوا الجزء الأول قراءة وافية. وذلك أنني كنتُ قد قمتُ بحركات كبيرة بقدْر ما هي لا نفع منها، فاحتجتُ إلى التوقف عنها فأستريح. فانقدتُ لكسلي وللعناية الإلهية انقياداً هادئاً بدل أن أستسلم إلى اليأس. فأخذتُ أنفقُ، في غير عجلة، بعض الليرات الفرنسية الذهب التي كانت لا تزال معي، أتيحُ للعناية الإلهية الوقت فتمدّني بعونها، أعتدل في نفقة ملذاتي المتوانية، ولكن ما أتخلّى عنها،

twitter @baghdad_library

فأصبحتُ لا أذهب إلى المقهى إلا مرة واحدة كل يومين، ولا أذهب إلى المسرح إلا مرتين في الأسبوع. أما من جهة الإنفاق على الفتيات، فلم أُضطر إلى أن أغيّر منه شيئاً، لأني لم أنفق عليهن درهماً واحداً قط، ما خلا مرة واحدة سأذكرها عما قريب.

وإني لأقبل على هذه الحياة المتوانية المتوحدة بسلام ولذاذة وثقة ومن غير أن يكون عندي من المال ما به أديمها ثلاثة أشهر، إن هذا الإقبال لفرادة من بين فرادات حياتي ولغريبة من بين غريبات مزاجي. وإنّ احتياجي الماس كأشد ما يكون الاحتياج إلى أن يفتكرني الناسُ كان هو، على وجه التدقيق، ما أَفقدني الشجاعة على الظهور؛ كما أن اضطراري إلى أن أقوم ببعض الزيارات قد جعلني لا أطيقها، حتى إنني كففتُ عن زيارتي للأكاديميين ولسواهم من أهل الأدب ممن كنتُ قد اتصلتُ بهم قبْلاً. وكان ماريفو والأباتي دو مابلي وفونتنيل يكونون الأشخاص الوحيدين الذين لم أنقطع عن زيارتهم في بعض الأحيان، لا بل لقد عرضتُ على ماريفو مسرحيتي الهزلية «**نرسيس**»، فراقته، وتفضّل عليّ بأن نقَّحها. أما ديدرو، وهو أصغر منهم سناً، فقد قارب سني. وكان يحبّ الموسيقى ويَعلم أصولها النظرية، فتحادثنا بموضوعها؛ وإلى هذا، لقد كلّمني على مشروعات مؤلَّفاته. فما لبثنا أن توثقتْ بيننا العلاقات الحميمة التي دامت خمس عشرة سنة، ولكانت تدوم أكثر لولا أنني، واأسفاه، أُلقيتُ في عين الحرفة التي هي حرفته؛ إنما الذنْبُ ذنبه.

ولا يسعك أن تتخيل كيف أمضيتُ تلك المدة الغالية القصيرة الباقية قبلما اضطررتُ إلى أن أستجدي كي أتعيّش. لقد أمضيتُها أستظهر فقرات شعرية تقدَّمَ لي استظهارها عشرات المرار فنسيتُها عشرات المرار. فكنتُ أذهب، في نحو الساعة العاشرة من صباح كل يوم، أتنزه في حديقة لوكسمبورغ وفي جيبي ديوان لفيرجيليوس أو

لروسو[9]، فأظل هناك إلى ساعة الغداء أستذكر بعض الأناشيد الدينيّة تارةً، وتارةً أستذكر بعض القصائد الريفية، لا يفتّر همتي كَوني قد نسيتُ قصيدة البارحة، إذ حفظتُ قصيدة اليوم الحاضر. فخطر ببالي أن الأثينيين لما أُسروا بعد هزيمة نيسياس[10]، أخذوا يتعيشون بأن يُنشدوا الناس قصائد هوميروس. أما وجهُ انتفاعي بوسيلة المعرفة هذه، وأنا أحتاط لنفسي حذرَ الفاقة، فهو أن أمرّن ذاكرتي السعيدة فتستظهر كثيراً من الأشعار.

ولقد أُوتيتُ وسيلة أخرى ليست دون حفظ الأشعار إصراراً وثباتاً، وهي لعبة الشطرنج. فكنت أكرّس لها، في مقهى موجي، بعد ظهر كل يوم من الأيام التي لا أذهب فيها إلى المسرح. فتعرّفتُ في ذلك المقهى إلى السيد دوليجال والى امرئ يدعى السيد هوسّون والى فيليدور والى سائر كبار لاعبي الشطرنج عهدئذٍ، فلم أزدد مهارة فيها. إلا أني، مع هذا، لم يفارقني الشك في أني سأتفوق عليهم جميعاً، في آخر الأمر، تفوقاً يكفي لأن يضمن لي مورداً أتعيّش به. فأيًا كانت الحماقة التي أُولَعُ بها، لا يتغيّر أسلوب تفكيري. فقلت في نفسي: «مَن تفوّق في شيء ما، فقد أيقن أنه امرؤٌ مرغوب فيه. فلنتفوقْ في أيّ شيء، كان، يُرغَب فيّ، ولسوف تتاح لي الفرص فتتولى جدارتي سائرَ ما يبقى». ولم يكن هذا التفكير الصبياني نتيجة لسفسطتي العقلية، بل كانت نتيجةَ ما انتهيتُ إليه من توانٍ واسترخاء. فلقد خفتُ من المجهودات البالغة، العاجلة، التي وجب عليّ أن أبذلها كيما أجدّ وأجتهد، فحاولتُ أن أتملّق كسلي وحجبتُ عني عار الكسل بحججٍ خليقة به.

---

(9) يريد جان باتيست روسو وقد تقدم ذكره - المترجم.

(10) نيسياس قائد يوناني عاش في القرن الرابع قبل الميلاد - المترجم.

twitter @baghdad_library

فانتظرتُ، هكذا، أن تنفد نقودي انتظاراً هادئاً، وأخالني كنتُ بقيتُ منتظراً لا أهتم بشأني حتى ينفد فلسي الأخير لولا أن الأب كاستل انتزعني من ذلك الخمول وقد كنتُ أمرّ بالأب كاستل أحياناً وأنا في طريقي إلى المقهى. وكان الأب كاستل رجلاً أحمق، بيد أنه إنسان طيّب، فساءه أن أفني أيامي لستُ أعملُ شيئاً. فقال لي: «ما دام الموسيقيون والعلماء لا يغنّون على نحو ما تغنّي، فبدّلْ أوتارك وراجع النساء، إذ ربما كنتَ، في ناحيتهن، أوفر نجاحاً. ولقد كلّمتُ في شأنك مدام دوبيزنفال، فزرها على أني قد بعثتُك إليها، فهي امرأة طيّبة يسرّها أن تلقى مَن هو من بلد ابنها وزوجها. وإنك ملاقٍ عندها مدام دو بروبل ابنتها، وهي امرأة ذكية. ثم إن مدام دوبان امرأة طيّبة أيضاً، وقد كلّمتُها في شأنك، فأحمل إليها مؤلّفك؛ فإنها ترغب في أن تلقاك، وستحسن استقبالك. فلا شيء في باريس يمكن عمله من دون النساء. إنهن مثل الخطوط الهندسية المنحنية التي تبدو وكأن الحكماء هم الخطوط المقاربة لها، إذ لا يفتأون يقاربون النسوان، لكنهم لا يمسّونهن أبداً».

فأرجأتُ تلك المراجعات المزعجة وما زلت أرجئها يوماً فيوماً حتى تشجعتُ فقصدتُ مدام دو بيزنفال، فاستقبلتْني بطيبة منها. فلما دخلتْ عليها مدام دوبرويل وهي في حجرتها، قالت لها: «يا بنتي، هذا هو السيد روسو الذي كلَّمَنا عليه الأب كاستل». فهنّأتْني مدام دوبرويل بمؤلَّفي، ثم اتجهتْ بي إلى كلافسانها تريني أنها قد عُنيتْ بهذا المؤلَّف. حتى إذا نظرتُ إلى ساعة الحائط فوجدتُها قد بلغت الواحدة بعد الظهر، أردتُ أن أذهب، فقالت لي مدام دوبيزنفال: «إنك بعيد من حيّك، فابقَ وتغدَّ هنا». فقبلتُ على الفور. ولكن، بعد ربع ساعة، فهمتُ من مجرى الكلام أن الغداء، الذي دعتني إليه، هو غداء الخدم. وكانت مدام دوبيزنفال امرأة طيبة جداً، إلا

أنها مقصورة الفهم، شديدة الزهو بأصالة نبالتها البولونية الشهيرة، فهي لا تقدر إلا قليلاً ما نحن ملزمون به من تبجيل تجاه المواهب. فعلى هيئتي بَنَتْ رأيها فيّ أكثر مما بنتْه على ملبسي الذي كان، مع بساطته البالغة، جد نظيف لا يدلّ البتة على أني امرؤ لا يليق أن يتغدّى إلا في غرفة طعام الخدم. وكنتُ قد نسيتُ الطريق إلى هذه الغرفة من زمان طويل، فلم أرغب في أن أسلكها من جديد. فقلتُ لمدام دوبيزنفال، وأنا لا أدعها تتبيّن مدى حنقي وخيبتي، إنني قد تذكرتُ أن بعض الشواغل اليسيرة يوجب عليّ أن أرجع الآن إلى الحيّ الذي أقيم فيه، وأردتُ الذهاب. فاقتربت مدام دوبرويل من أمها وهمستْ في أذنها ببضع كلمات أثّرتْ فيها. فنهضت مدام دوبيزنفال تستبقيني، قالت: «لو تُشرّفنا بأن تتغدى معنا». فوجدتُ أن تمثيل الدور الأبيّ المزهو دورٌ غبي فبقيتُ. ثم إن طيبة مدام دوبرويل قد بلغتْ مني وشغلتْني. فحلا لي الغداء معها؛ حتى إذا ازدادت معرفة بي، رجوتُ ألا تندم على ما أولتني من هذا الشرف. ولقد تغدًى هناك، يؤمئذ، الرئيس دو لاموانيون وهو صديق كبير للبيت. وكان حديثه حديثَ أهل باريس يُسْرَ قول في يُسْر ألغاز، وشأنه في ذلك شأن مدام دو برويل. فلم يكن من مجال لجان جاك المسكين لكي يلمع ويبدع. فأُوتيتُ سلامة الحسّ فلم أشأ أن أُكره نفسي على تصنع اللطف فصمتُّ. فهنيئاً لي لو رُزقتُ مثل تلك الحكمة في كل حال، إذاً لما ترديت في الهاوية التي انتهيتُ إليها اليوم.

فكدَّرني ما كنتُ عليه من عَيٍّ وثقل سلوك ومن عجزٍ عن أن أسوّغ، عند مدام دوبرويل، ما قد أسدت إليّ. فلما قمنا عن الغداء، عمدتُ إلى وسيلتي المعهودة، إذ كان في جيبي رسالة شعرية كتبتها لباريزو من خلال إقامتنا بمدينة ليون. ولم تخلُ تلك القطعة من دفء

twitter @baghdad_library

شعور أَفصحتُ عنه بالأسلوب الذي أنشدتُها به فأَبكيتُ الثلاثة: الأم والبنت والضيف. وخيّل إليّ، إما لغرور مني وإما لصدق إنشادي، أن نظرات مدام دوبرويل كانت تقول لأمها: «أجل يا أمي، هل أخطأتُ إذ قلتُ لك إن هذا الرجل أَولى بأن يتغدى معنا من أن يتغدى مع خادماتك؟» وكنتُ، إلى ذلك الحين، على شيء من الكآبة، ولكنْ داخلَني السرور بعدما تشفّيتُ. ولقد غلت مدام دوبرويل في حُسن رأيها فيّ إذ حسبتْني مثيراً لإعجاب [أهل] باريس يتولاني السعد والإقبال. فأعطتني «**اعترافات الكونت دو...**»[11] وقالت: «هذا الكتاب مؤدّب ستحتاج إليه في المجتمعات، فيحسن أن تراجعه في بعض الأحيان». فاحتفظتُ بتلك النسخة مدة تزيد على عشرين سنة أَذكرُ فضل اليد التي أعطتنيها، ولكن كثيراً ما أضحكني رأي تلك السيدة في براعتي في المغازلة. وما إن قرأتُ الكتاب حتى رغبتُ في أن أصادق مؤلّفه. ولقد صدق شعوري لأن هذا المؤلّف هو، بين أهل الأدب، صديقي الصدوق الأوحد»[*]

فقدَّرتُ، منذئذٍ، أن البارونة دو بيزنفال والمركيزة دو برويل، وقد عناهما شأني، لن تَدَعاني بلا مورد وقتاً طويلاً، ولم أخطئ في التقدير، والآن فلنذكر تعرّفي إلى مدام دوبان وهو التعرّف الذي نشأتْ عنه أمور أبعد مدًى.

ومعلوم أن مدام دوبان هي بنت صموئيل برنار والسيدة فونتين، وقد رُزقا ثلاث بنات خليقات بأن يسمَّين آلهات الجمال الثلاث،

---

(11) **اعترافات الكونت دو.** (*Les confessions du comte de...*) رواية لشارل دوكلو (1704-1772) عضو الأكاديمية الفرنسية - المترجم.

(*) ولقد وثقتُ به ثقة شاملة طويلة، فهو الذي ائتمنتُه على مخطوط اعترافاتي مذ عدتُ إلى باريس. وذلك أن جان جاك الحذر لم يؤمن قط بالغش والخيانة إلاّ بعد ما ذهب ضحيتهما.

وهن مدام دولاتوش التي هربتْ إلى إنجلترا مع الدوق دوكينجستون، ومدام دو آرتي، خليلة الأمير دو كونتي، بل صديقته المخلصة الوحيدة، امرأة رائعة الوداعة والطبع، رائعة الذكاء وخفة الروح، على السواء، فمدام دوبان، أجملهن كافة، وهي، بين الثلاث، الوحيدة التي لم تُلَم على سيرتها. وكانت عربونَ ضيافة السيد دوبان لأمها التي زفّتها إليه ومعها وظيفة صاحب الضرائب العام، فضلاً عن ثروة طائلة جزاءً له على حُسن استقباله إياها في إقليمه. فلما لقيتُ مدام دوبان، أول مرة، كانت لا تزال من أجمل نساء باريس. فاستقبلتْني في دارها، في حجرة اللبس والتزين، وكانت عارية الذراعين، غير مصففة الشعر، قد ارتدت فضالاً لا أناقة فيه. فلم يحتمل عقلي الضعيف مثل هذا المنظر الذي ما أَلفتُه قبْلاً، فاضطربتُ وارتبكتُ؛ وفحوى القول أنني وقعتُ في غرام مدام دوبان.فلم يجلب عليّ اضطرابي ما ضرّني عندها ولا شعرتْ هي قط بأني قد اضطربتُ. فرحَّبتْ بكتابي وبمؤلّف الكتاب، وكلَّمتْني على مشروعي كلام الإنسان المثقف، ثم غنّت وهي تعزف بالكلافسان، واستبقتني للغداء فأقعدتْني بجوارها إذ نحن على المائدة، فما احتجتُ إلى غير ذلك لكي يطير عقلي، فطار. وأَذنتْ لي أن أزورها، فزرتُها فأفرطتُ أكاد آتيها في كل يوم وأتغدى عندها مرتين في الأسبوع، أو ثلاث مرات. ولقد تحرقتُ أود لو أبوح إليها بشعوري، فلم أتجاسر، إذ ضاعفتْ خجلي الطبيعي عدةُ أسباب. وذلك أن الدخول في بيت غنًى بابٌ إلى السعد والتوفيق. فلم أشأ، وأنا على ما أنا عليه، أن أخاطر أُغلقُ الباب. وكانت مدام دوبان مع لطفها، رصينة باردة، فلم أجد في سلوكها من دواعي الغواية ما شجعني على الإقدام تشجيعاً كافياً. وكان بيتها، وهو ليس دون سواه من بيوتات باريس تألقاً، ملتقى منتديات لا يعوزهم إلا أن يقلّ عديدهم فيبلغوا طبقة النخبة في جميع الأجناس [الأدبية والثقافية].

twitter @baghdad_library

وكانت مدام دبوان تحبّ أن تستقبل، في بيتها، ذوي التألق والألمعية من العظام وأهل الأدب والنساء الحسان. فكنتَ لا تلقى عندها إلا أشرافاً وسفراء وفرساناً من رابطة الروح القدس. وكانت الأميرة مدام دو روهان والكونتسة دو فوركالكييه ومدام دو ميربوا ومدام دو برينيول واللايدي هيرفي يُعتبرن صديقاتها. وكان السيد دو فونتنيل والأباتي دو سان بيار والأباتي ساليبه والسيد دو فورمون والسيد دو برْني والسيد دو بوفّون والسيد دو فولتير من حلقتها وفي عداد المدعوين إلى ولائم الغداء عندها. ولئن كان سلوكها المحتشم، الرصين، قليلاً ما يجتذب إليها الشبان، فإن منتداها قد بات لذلك أشدَّ ائتلافاً وأجلّ هيبةً ووقاراً، فلم يسغْ جان جاك المسكين أن يفتخر بأنه جمُّ التألق بين أولئك القوم أجمعين. فلم أجترئ على الكلام ولا أمكنني الصمت، فتجاسرتُ على الكتابة. فاحتفظتْ هي برسالتي يومين فلم تفاتحني بأمرها، ثم ردّتها عليّ في اليوم الثالث وقد وجّهتْ إليّ بعضَ كلمات التشجيع في صوت بارد أشاع فيّ أقصى درجات البرودة. فأردتُ أن أتكلّم، فماتت على شفتيّ الكلمات، وانطفأ غرامي المفاجئ إذ انطفأ مرتجاي، فاعتذرتُ إليها إنقاذاً مني للمظاهر، ولم أَزل، مع ذلك، أعاشرها على نحو ما كنتُ قد عاشرتُها، بيد أني لم أذكر لها مما سلف شيئاً ولو بلغَة العيون.

فظننتُ أن حماقتي قد نسيتْ، ولكن أخطأتُ. فإن السيد دو فرنكوي، ابنَ السيد دوبان وصهر مدام دوبان، كان في مثل سنها وسني على التقريب. وكان ذكيّاً، حسَن الهيئة، فتهيّأ له أن يطمح وأن يبتغي. وقيل إنه تَشرَّفَ لها وابتغاها لا لسبب إلا لأنها زفّتْ إليه زوجةً قبيحة الهيئة، ساكنة الفطرة، وإلا لأنها عايشتْهما، هو وزوجته، خير معايشة. وكان السيد دوفرنكوي يحبّ المواهب

ويعنى بهن. فكانت الموسيقى، وقد أَحسنها أيَّ إحسان، هي بيننا سبيل تواصلٍ وتواثُق. فكثيراً ما لقيتُه فتعلّقتُ بمودته، فأَفهمني بغتاً، ذات يوم، أَن مدام دوبان تجد أني قد أَكثرتُ من زياراتي لها وأنها ترجو مني أن أكفّ عنهن. ولقد كان هذا الإطراء حلَّ بموضعه لو وجهتْه مدام دوبان إليّ لمّا ردّت عليّ رسالتي. أما أن يأتيني بعد ثمانية أيام أو عشرة، دون سبب له جديد، فإنه، على ما أرى، إطراء في غير موضعه. ولقد ازداد الموقف غرابة إذ لم أبرح ألقى في بيت السيد دو فرنكوي والسيدة قرينته الترحيب نفسه الذي سبق أن لقيتُ. إلا أني، مع ذلك، صرتُ أَقلّ تردداً إليهما؛ ولولا أن مدام دوبان أرسلتْ تسألني أن أعنى بابنها ثمانية أيام، أو عشرة، لأنه استبدل بمؤدّبه مؤدّباً جديداً لم يصل بعد، وريثما يصل هذا لن يكون لإبنها من مؤدّب، وتلك مصادفة أخرى غير متوقَّعة، لولا ذلك، لكنتُ انقطعتُ عن الزيارة انقطاعاً تامّاً. فأمضيتُ الأيام الثمانية في عذاب ما كنتُ لأحتمله لولا سروري بأن أطيع مدام دوبان. وذلك أن شونونسو[12] المسكين كان منذئذٍ على غرابة الطباع التي كادت تجلب على أُسرته العار والتي أودت به في جزيرة بوربون. ففي أثناء ملازمتي له، حُلْتُ بينه وبين أن يضرّ نفسه أو أن يضرّ سواه. ولم أفعل غير ذلك، إذ لم يكن أمري معه أمراً هيناً. ولو أن مدام دوبان استسلمتْ إليّ، على أن أعنى بتربية ابنها ثمانية أيام أخر، لما رضيتُ قط.

ولقد صادقني السيد دو فرنكوي وكنتُ أَدرس معه، فابتدأنا نأخذ الكيمياء عن رويل[13] فأردتُ أن أتخذ مسكني قريباً من السيد

(12) دو شونونسو (1730-1767) ابن السيد كلود دوبان من زواجه بلويز دو فونتين - المترجم.

(13) رويل (1703-1770) صيدلي فرنسي - المترجم.

twitter @baghdad_library

دوفرنكوي، فبرحتُ فندق سان كنتان، وأقمتُ في دار لعب الكرة[14] بشارع فيردوليه الذي يؤدّي إلى شارع بلاتريير حيث يقيم السيد دوبان. فأصابني زكام أهملتُ علاجه، فاعتراني التهاب في الصدر كاد يذهب بي. وكثيراً ما أصبتُ، في أيام الشباب، بالتهابات داء الجنب والخناق، إذ كنتُ معرَّضاً لها في أغلب الأحايين، ولستُ أعدّدها، ههنا، و قد أرتني الموت عن كثب حتى إني أَلفتُ صورته. فلما مررتُ بمرحلة النقاهة، أتيحت لي سعة وقت لكي أتفكر في حالي ولكي أرثي لخجلي ولوهني ولتوانيّ الذي أَذبلني فألقاني في فراغ نفسيّ طرحني على عتبة الفقر برغم ما قد كنتُ عليه من علوّ الهمة. ففي ليلة مرضي، ذهبتُ أشهد أوبرا لروييه كانت تُعرَض وقتئذٍ وقد نسيتُ عنوانها. ومع سبق ميلي إلى أن أقدر مواهب سواي ميلاً خفَّفَ من تقديري لمواهبي، وجدتُ أن تلك الموسيقى ضعيفة ليس بها دفءُ حياة ولا ابتكار. وربما مضيتُ في القول إلى أن يلوح لي أنني أستطيع أن أصنع ما هو خير منها. بيد أن غرابةَ تمثُّلي لتأليف الأوبرا، وما سمعتُه من سموّ هذه الصناعة عند أهل الفن، قد ثبطاني عنها فوراً فأخجلني أن أفكر في تأليف أوبرا. ومن وجهٍ آخر، كيف أُوفَّق لمن يرضى أن يكتب لي كلمات الأوبرا ويجشّم نفسه أن يصوغهن على حسب ما أشاء؟ فعاودتْني، في أثناء مرضي، هذه الأفكار التي تدور على الموسيقى والأوبرا، فألَّفتُ، وأنا في شدّة الحمّى، أَناشيد وثنائيات وغنائيات جوقية. وإني لعلى يقين بأنني قد ارتجلت[15] قطعتين منها بل ثلاث قطع ربما كانت خليقة بإعجاب الأساطين لو قُدّر لهم أن يسمعوها وهي تؤدّى! آه! ألا يمكن أن تسجَّل أحلام المحموم؟ وحينئذٍ فكم من أمور رفيعة عظيمة كانت تفرط منه وهو في هذيان!

---

(14) دار لعب الكرة (Jeu de Paume) ـ المترجم.

(15) في الإيطالية بالأصل: Di prima intenzione ـ المترجم.

شغلتْني موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه، في أثناء نقاهتي، مثلما شغلتْني في أثناء مرضي، ولكن أصبحتُ أهدأَ حالاً. ولفرط ما قد تفكرتُ في تلك الموضوعات، وكأنْ قد أكرهتُ على التفكر فيها، أردتُ أن أتبيّن حقيقةَ أمري منها وأن أحاول أن أؤلّف، أنا وحدي، أوبرا بكلماتها وألحانها. ولم تكن هذه المحاولة هي، على وجه التدقيق، أُولى محاولاتي في هذا السبيل، بل إني أَلّفتُ، وأنا بشامبيري، مأساة عنوانها: «**إيفيس وأناكساريت**»[16]. فألهمني صوابُ الرأي أن ألقيها في النار. ثم أَلّفتُ، وأنا في مدينة ليون، أوبرا أخرى عنوانها: «**اكتشاف العالم الجديد**»[17]، فلما تلوتُها على السيد بورد والأباتي دو مابلي والأباتي تريبله وعلى سواهم، ألقيتُها أيضاً في النار، وإن كنتُ قد أتممتُ ألحان مطلعها وفصلها الأول وإن كان دافيد[18] قد قال لي، لما اطّلع عليها، إن فيها ما هو جدير ببيونونكيني[19]

أما في هذه المرة، فقد تأملتُ في مشروعي وتمهلتُ. ونويتُ أن أؤلّف باليه بطولية ذات ثلاثة موضوعات وثلاثة فصول مستقل بعضها عن بعض، على أن يكون لكل واحد منها طابع موسيقي خاص؛ فأدرتُ كل موضوع على غراميات شاعر، وجعلتُ عنوان الأوبرا «**عرائس الشعر الغزلات**»[20]. وكان الفصل الأول، الجهير الألحان، موضوعه لوتاسيوس[21]؛ والفصل الثاني، العذب الألحان.

---

(16) **إيفيس وأنكساريت** (*Iphis et Anaxarète*) ـ المترجم.

(17) **اكتشاف العالم الجديد** (*La découverte du nouveau monde*) ـ المترجم.

(18) دافيد (1683-1750) أستاذ موسيقى - المترجم.

(19) اسم بونونكيني، لا بيونونكيني كما كتب روسو، هو اسم موسيقيين إيطاليين ولدا في القرن السابع عشر - المترجم.

(20) **عرائس الشعر الغزلات** (*Les muses galantes*) ـ المترجم.

(21) لوتاسيوس (1544-1595) شاعر إيطالي - المترجم.

twitter @baghdad_library

موضوعه أوفيدوس[22]؛ أما الفصل الثالث، وعنوانه أناكريونوس[23]، فقد أردتُه غنائياً حماسيّاً. فحاولتُ، باديً بدء، أن أضع الفصل الأول، فانطلقتُ في حماسة أشعرتْني، أول مرة في حياتي، بنشوة القريحة إلهاماً وتأليفاً. وكنتُ أهمّ بأن أدخل دار الأوبرا، ذات ليلة، فألَحّتْ عليّ القريحة واستولتْ على أفكاري، فأَعدتُ النقود إلى جيبي، وطرتُ إلى منزلي، فأَغلقتُ الباب واستلقيتُ على السرير بعد ما أَحكمتُ إسدال الستائر كلها لئلا يدخل ضوء النهار. ثم استرسلتُ في مدى القريحة، شعراً وألحاناً، فألّفتُ على عجل، في سبع ساعات أو ثمان، أَفضل أجزاء الفصل الأول. وإني ليسعني القول إن حبّي لأميرة فرّاري (وقد تلبستُ يومئذٍ بشخص لوتاسيوس)، وإن مشاعري الكريمة الأبية حيال شقيقها الظالم، قد أتاحت لي ليلةً هي أوفى لذةً مما كنتُ تمتعتُ به لو وجدتُني، حقاً، بين ذراعي تلك الأميرة. فلم يبقَ في روعي، صباح الغد، إلا بعضُ يسير مما كنتُ قد ألّفتُ، ولئن كاد يمحوه التعب والنعاس، فإنه لم ينفكّ يدل على متانة القطع التي لم يبقَ منها سوى بعض النتف.

لم أسترسل، هذه المرة، في تأليف الأوبرا إذ شغلتْني عنه أمور أخرى. وفيما كنتُ قد تعلّقتُ ببيت دوبان، لم تنسني مدام دو بيزنقال ومدام دو برويل اللتان ظللتُ ألقاهما في بعض الأوقات. وكان الكونت دو مونتيجو، الضابط في الحرس، قد عُيّن سفيراً بمدينة البندقية. وكانت سفارته صنيعة بارجاك[24]، وكثيراً ما تملّقه. وكان الشوفالييه دو مونتيجو، شقيقه وأحد فرسان الأكمام [gentilhomme

(22) أوفيدوس (43 ق. م. 17 ب.م) شاعر لاتيني - المترجم.

(23) أناكريونوس (560-478 ق.م.) شاعر يوناني - المترجم.

(24) بارجاك رجل الثقة عند الكاردينال دو فلوري ورئيس ديوانه - المترجم.

de la manche] في حاشية سيدي ولي العهد، هو من معارف هاتين السيدتين ومن معارف الأباتي ألاري عضو الأكاديمية الفرنسية. فلما بلغ مدام دوبرويل أن السفير يريد أميناً لسره، اقترحتْني لهذه الوظيفة. فتفاوضنا. فطلبتُ خمسين ليرة فرنسية ذهباً مرتباً لي، وهذا، في وظيفة تستدعي مخالطة المجتمع، مرتبٌ زهيد. لم يشأ السفير أن يؤدي إليّ غير ألف فرنك، على أن أقوم بنفقة السفر. فكان عرضه مضحكاً. فلم نتوصل إلى اتفاق. ولقد بذل السيد دوفرنكوي جهده يريد أن يستبقيني، ففاز بما أراد. فبقيتُ، وسافر السيد دو مونتيجو ومعه أمين للسر غيري يدعى السيد فولّو أتاه من ديوان الشؤون الخارجية. فما أن بلغا مدينة البندقية حتى تخاصما. ففارقه السيد فولّو إذ وجد أنه حيال امرئ مجنون. فلجأ إلي السيد دومنتيجو إذ لم يكن لديه إلا آباتي شاب يدعى دوبينيس قد عمل كاتباً تحت إشراف أمين السر ولكن لم يسعه أن يحلّ محله. فما زال بي الشوفالييه دو مونتيجو، وهو رجل فكر، وشقيق السفير، يحاورني ويداورني يقول لي إن لوظيفة أمين السر حقوقاً حتى رضيتُ بألف الفرنك مرتباً. وأُعطيتُ عشرين ليرة فرنسية ذهباً لنفقة السفر، ثم ذهبتُ.

فلما كنتُ في مدينة ليون، وددتُ لو سلكتُ طريق مون سنيس فأَزورَ ماما في أثناء ذلك. لكنني انحدرتُ على نهر الرون وركبتُ البحر من طولون بسبب الحرب ولكي أقتصد في النفقة وأَحصل على جواز السفر من السيد دو ميرابوا وهو يؤمئذٍ قائد في بروفانس، وكنتُ قد وُجّهتُ إليه. فلما لم يسع السيد دومونتيجو أن يستغني عني، أنشأ يكتب إليّ الرسالة بعد الرسالة يستعجلني، ولكن حدث ما أَخّر سفري.

وذاك أن الطاعون كان قد انتشر في مسّينة. فرسا في مياهها الأسطول الإنجليزي وقام يفتش في المركب الذي كنتُ عليه. فلما

twitter @baghdad_library

وصلنا إلى جنوى، بعد سفر طويل شاقّ، فرضَ علينا الحجر الصحي واحداً وعشرين يوماً، فخيّر المسافرون بين أن يقضوا هذه المدة في المركب وأن يقضوها في المحجر الصحي، وقيل لنا إنه ليس في المحجر إلا حجرات عارية لم يتسع الوقت لتأسيسها بعد. فاختار جميع المسافرين أن يلزموا المركب. لكن الحَرّ الذي لا يطاق، وضيق المكان، وتعذُّر التنقل، والحشرات قد حملتْني على أن أفضّل المحجر في كل حال. فاقتُدتُ إلى بناءٍ ضخم ذي طبقتين عاريتين عرياً شاملاً، فلا مصاريع للنوافذ، ولا سرير، ولا منضدة، ولا حتى من كرسي صغير أقعد عليه، ولا فراشٍ قش أرقد فيه. فحُملَ إليّ معطفي وكيس أمتعة النوم وحقيبتاي. ثم أُغلقَ دوني بابان واسعان ضخما القفلين، فلبثتُ هناك أتنقل من حجرة إلى حجرة ومن طبقة إلى طبقة ما شئتُ أن أتنقل، وكنتُ حيثُ اتجهتُ لا ألقى إلا التوحد والعري.

ولكن، مع ذلك كله، لم أندم على اختياري المحجر بدل المركب، فأخذتُ أدبّر أمري لمدة الواحد والعشرين يوماً وكأنني أدبّره إلى مدى الحياة كأنما أنا روبنسون جديد. فتلهيتُ، أول الشيء، بصيد القمل الذي كنتُ قد غنمتُه من المركب. فلما تخلصتُ من الحشرات، لكثرة ما بدَّلتُ ألبستي الداخلية وسائر ثيابي. بدأتُ بتأثيث الحجرة التي اخترتُها. فجعلتُ من ألبستي وقمصاني فراشاً لي، وخطتُ عدة مناشف بعضها إلى بعض فجعلتُها شراشف لهذا الفراش، واتخذتُ فضالي غطاءً، ثم طويتُ معطفي فاتخذتُه مخدة. وجعلتُ إحدى الحقيبتين على ناحية عرضها فاتخذتُها كرسيّاً، وجعلتُ الحقيبة الأخرى على ناحية طولها فاتخذتُها منضدة. ثم أَخرجتُ من بين أمتعتي قرطاساً ومحبرة، وتناولتُ بضعة عشر مؤلَّفاً كانت معي فنسّقتُها على شكل مكتبة. وخلاصة القول إنّي دبَّرتُ

أمري أيّ تدبير، حتى لقد وجدتُني، وأنا في ذلك المحجر العاري، على مثل ما كنتُ عليه في دار لعب الكرة بشارع فيردوليه، وما أستثني إلا الستائر والنوافذ. وكانت وجبات الطعام تُقدَّم إليّ بأبهة بالغة يواكبها جنديان قد تسلّح كل واحد منهما ببندقية على رأسها حربة. وكان السلّم هو غرفة طعامي، وكانت درجاته مائدة لي، وكنتُ أتخذ درجته السفلى كرسيّاً، حتى إذا جيء بالغداء، سمعتُ صوت جرس يُشعرني بأن أذهب إلى المائدة. وكنتُ، في ما بين وجبات الطعام، إذا لم أقرأ وأكتب أو أشتغل بتأثيث مسكني، مضيتُ إلى مدافن البروتستانت أتنزه وقد اتخذتُها ساحة لمسكني هذا، أو مضيتُ أصعد في برج يطلّ على الميناء فاستطعتُ أن أبصر منه السفن تدخل وتخرج. فقضيتُ هكذا أربعة عشر يوماً. ولو لم أَبعث إلى السيد دوجونفيل، معتمد فرنسا، برسالة سريّة معجّلة عطرة فأمكنه أن يسقط ثمانية أيامي من أيام بالمحجر، لكنتُ أَتممتُ مدة الحجر كلها. ولقد سلختُ في بيته تلك الأيام الثمانية، وإني لأقرّ بأنني، وأنا عنده، قد بتُّ أَحسن منزلاً مما كنتُ عليه في المحجر. وأَعربَ هو لي عن جمّ لطف وإيناس. وكان دوبون، امينُ سره، فتًى طيّباً. فسار بي، في جنوى والريف على السواء، إلى عدة بيوت فيها من أسباب اللهو ما يكفي، فتعارفنا وتآلفنا، وتراسلنا إلى زمن طويل. ثم واصلتُ طريقي عبْر لومباردية في رحلةٍ ممتعة. فزرتُ ميلانو وفيرونا وبرسّ وبادو، وانتهيتُ، في آخر الأمر، إلى البندقية والسفيرُ ينتظرني على أحرّ من نار.

فوجدتُ أكداس برقيات، سواء من البلاط أو من السفراء، ولم يكن السفير قد استطاع أن يفكّ البرقيات التي كُتبتْ بالرموز، مع أنه كان لديه كل الأرقام التي تلزم لفكّها. ولم أكن قد عملتُ قط في ديوان ولا رأيتُ قط من رقم رموز، فخفتُ في أول وهلة أن أرتبك،

twitter @baghdad_library

ثم رأيتُ أن لا شيء أيسر من ذلك العمل. فأَنهيتُ، في ما يقلّ عن ثمانية أيام، حلّ أرقام الرسائل كلها ولم يكن فيها ما يستحقّ الذكر، لأن ذلك المرء لا يُرغَب في أن يوكَل إليه أيسرُ مفاوضة، فضلاً عن أن سفارة البندقية ضئيلة الأشغال على الدوام. وكان السفير قد ارتبك إلى أن وصلتُ، فلم يعرف أن يملي ولا أن يكتب بخط تُمكن قراءته. فنفعتُه جداً، فشعر بهذا، فأَحسن معاملتي. ولقد حمله على محاسنتي سبب آخر، فضلاً عما تقدَّم. وذلك أن قنصل فرنسا، ويدعى السيد لوبلون، كان قد قام بأعمال السفارة منذ عهد السيد دوفرولاي السفير السابق الذي أصيب بمس، ثم ظل القنصل يواصل هذه الأعمال ريثما يُطلع عليها السفيرَ الجديد. فغار السيد دومونتيجو من أن يضطلع بمهامه أحد سواه، مع أنه هو نفسه قد عجز أن يضطلع بها؛ فكره القنصلَ ذلك؛ فما أن وصلتُ حتى نزع منه شؤون وكيل السفارة وعهد إليّ فيها، وهي شؤون لا يمكن فصلها عن رتبتها، فقال لي لأتقلّد هذه الرتبة. فلم يَبعث قط إلى مجلس الشيوخ ولا إلى كبير قوم أحداً غيري على أني وكيل السفارة، وذلك طول المدة التي التحقتُ به فيها. ولقد كان من الطبيعي أن يفضّل اتخاذَ امرئ تابعٍ له وكيلاً للسفارة على أن يتخذ لها قنصلاً أو كاتباً من كتبة الدواوين يعيّنه البلاط.

فجعلني ذلك في حالة طيّبة مستحبّة وحال دون أن ينازعني أشرافُه، وهم إيطاليون، ومرافقوه ومعظم أعوانه مرتبةَ الأولية، عنده، في البيت. فعرفتُ كيف أستخدم سلطتي لكي أصون حقّه بالحصانة وقد تكرَّرتْ محاولاتُ هضمه ولم يبد ضباطه مقاومة لكي يذودوا عن هذا الحقّ، وكانوا من أبناء البندقية. بيد أني لم أقبل قط أن يلجأ لصوص إلى مقر السفارة، وإن أمكنني أن أجني منهم منافع ما كان سعادة السفير ليستهين بحصته منها.

حتى إن صاحب السعادة قد اجترأ على أن يطالب بحصته من رسوم وكالة السفارة وكانت تدعى القنصلية، والبلاد يومئذٍ في حرب، فلم تفتأ ترد علينا جوازات السفر، وقد فرضَ على كل جواز منها ليرة ذهب تؤدى إلى وكيل السفارة فينجز الجواز ويوقّعه إثباتاً لصحته. وكان جميعُ أسلافي، هناك، قد استوفوا هذه الليرة من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء. فوجدتُ هذا العرف مجحفاً، فأَعفيتُ الفرنسيين منه وإن لم أكن فرنسيّاً، إلا أني تشددتُ في استيفاء حقّي من غيرهم بلا استثناء، حتى إن المركيز سكوتّي، وهو شقيق لصاحب حظوة لدى ملكة إسبانيا، بعث يوماً يريد جواز سفر ولكن لم يرسل بليرة الذهب، فبعثتُ أطالبه بها، وتلك جسارة مني لم ينسها المركيز الايطالي المحبّ للانتقام. فلما علم الناس بالإصلاح الذي أجريته في رسم جوازات السفر، لم يتقدّم لطلبها إلا جموع يزعمون أنهم فرنسيون، يتكلّمون بلهجات غريبة يصعب فهمها، فهذا يزعم أنه من بروفانس، وذاك أنه من بيكاردي، وذلك يزعم أنه من بورجونييه. ولكن لم يسعهم خدعي لأني رهيف السمع؛ ولا شك عندي في أنه ما من إيطالي واحد استطاع أن يسرقني هذه الليرة ولا من فرنسي واحد أدّاها. بيد أن الغباوة حملتْني أن أطلع السيد دو مونتيجو على ما أجريتُ وهو لا يعرف شيئاً عن شيء أبداً. فنبّهتْه لفظة الليرة الذهب. فلم يبد لي رأيه في إعفائي الفرنسيين، بل طالب أن أشاركه في ما يرد عليّ من ليرات غيرهم ووعدني بمنافعَ تساوي هذا المورد. فأَبَيتُ عرضه وقد أثارتني سفالته أكثر مما بلغ مني الحرص على منفعتي. فأَصرَّ، فحنقتُ، فقلتُ له بصوتٍ جادّ: "لا يا سيدي؛ ما هو لك فأَبقه لك يا صاحب السعادة، وما هو لي فأَبقه لي، فلن أتخلّى لك عن درهم واحد أبداً.» فلما رأى هذه الطريقة لم تكسبه شيئاً، عمد إلى طريقة أخرى، إذ لم يخجله أن يقول لي إنني ما دامت لي موارد قنصليته فقد حَقَّ عليّ أن

twitter @baghdad_library

أقوم بنفقاتها. فلم أشأ أن أجادله في هذا الأمر، بل أصبحتُ أؤدّي من مالي ثمن الحبر والورق والشمع والشرائط حتى الختم الذي استبدلتُ به ختماً جديداً، ولم يؤدّ إليّ السفير من الثمن فلساً واحداً قط. فلم يحل ذلك دون أن أخصّ الأب دو بينيس بقسط من حصيلة رسم الجوازات يسير، والأب دو بينيس فتًى طيّب لا يطالب بشيء من أمثال هذا الرسم. ولئن راعاني، لم أكن دون مراعاته لي أمانة له وصدقاً، فأقمنا على حُسن علاقة.

فلما بلوتُ وظيفتي، ألفيتُها أقلّ إزعاجاً مما خفتُ على امرئ نظيري لا خبرة عنده ويعمل لدى سفير لا يفوقه خبرة وكأن هذا السفير، لجهله وعناده، قد حلا له أن يخالف كل ما أوحت به إليّ سلامةُ الحسّ وبعضُ أنوار الذكاء من الخير لأجل خدمته هو وخدمة الملك. وكان أعقل ما فعل هو أنه وطّد صلته بالمركيز ماري سفير إسبانيا، وهو امرئ حاذق مرهف لو شاء لتسلّط على السيد دومونتيجو، بيد أنه، لوحدة مصالح العرشين، قد أسدى إليه نصائح هي، على الإجمال، نصائح حسنة لو لم يفسدها تدخُّله في تنفيذها. أما الأمر الذي وجب عليهما أن يقوما به معاً، فهو حثّ البندقية أن تبقى على الحياد. وما فات البندقية أن تُظهر ولاءها للحياد، على حين عمدتْ جهاراً إلى مد الجيش النمساوي بالعُدد، وربما مدته أيضاً بالرجال تدّعي أنهم فراريون. ولقد أراد السيد دو مونتيجو، في ما أحسب، أن يرضي الجمهورية[25]، فما فاته، برغم تنبيهاتي له، أن يستكتبني في جميع برقياته ما يؤكّد أن البندقية لن تخالف الحياد أبداً. فإن عناد هذا المرء وغباوته قد استكتباني، أموراً غريبة واستخدماني لأمور غريبة أُكرهتُ على أن أكون عميلها لأن هذي هي مشيئة السفير.

(25) يريد جمهورية البندقية - المترجم.

بيد أن تلك الأمور الغريبة جعلتْ عملي لا يطاق في بعض الأحيان، بل كادت تجعله غير مستطاع التحقيق. فلقد أصرّ السفير، مثَلاً، على أن يُرقَم بالرموز معظمُ برقيته إلى الملك ومعظمُ برقيته إلى الوزير، وإن لم يكن في هذه ولا في تلك ما يوجب هذا الاحتياط. فلفتُّ نظره إلى أنه، ما بين يوم الجمعة إذ تصل البرقيات ويوم السبت إذ يُرسل ببرقياتنا، لا يتسع الوقت لتركيب تلك الرموز كلها، فضلاً عن كثرة الرسائل التي عُهد إليّ في أن أكتبها لذلك البريد عينه. فاهتدى السفير إلى حيلة عجيبة هي أن يكتب منذ يوم الخميس الجواب عن البرقيات التي تصل في اليوم التالي. فوجد أنه قد وُفّق لهذه الفكرة أيّ توفيق، برغم ما ذكرتُ له من تعذّر تحقيقها وبطلانه، فكان لا بد أن أعمد إليها. فلم أفتأ، طول إقامتي عنده، أكتب بضع الكلمات التي يقولها لي، على الماشي، في خلال الأسبوع، وأكتب بعض الأنباء المبتذلة التي ألتقطها من هنا وهناك، حتى إذا تزودتُ من تلك المواد دون سواها، لم يفتني قط أن أحمل إلى السفير، في صباح الخميس، مسودة البرقيات التي ينبغي أن يرسل بها يومَ السبت، ما عدا بعض الإضافات أو التنقيحات السريعة وكنتُ أُجريها على البرقيات التي ترد يوم الجمعة والتي كانت برقياتنا أجوبة عنها. وكان للسفير عادة مضحكة أخرى تخلع على مراسلاته سُخرةً يصعب تصوّرها. وتلك هي أن يردَّ كلَّ نبإٍ إلى مصدره بدل أن يُتبعه مجراه. فكان يذكر للسيد أمولو أنباء البلاط، وللسيد دو موروبا أَنباء باريس، وللسيد دافرنكور أنباء أسوج، وللسيد دو لا شيتاردي أنباء بطرسبورج، وربما ذكر لكل واحد منهم الأنباء التي تصدر عنه هو نفسه والتي كنتُ أكسوها تعابير مختلفة بعض الشيء. ثم إنه، من بين كل ما كنتُ أحمل إليه من أوراق للتوقيع، لم يكن يقرأ إلا برقيات البلاط، أما برقيات سائر السفراء، فكان يوقّعها دون أن يقرأها، مما أتاح لي شيئاً من حرية التصرف فيها إذ كتبتُها على طريقتي فلاءمتُ بين الأنباء، في الأقل. بيد أنه تعذَّر

twitter @baghdad_library

عليّ أن أدير البرقيات الأساسية على نحو معقول، وكنتُ سعيد الحظ حين لا يضيف السفير بعض الأسطر التي يستقيها من قريحته ارتجالاً، فعندئذٍ أُضطر أن أعيد، على عجل، نسْخ البرقية كلها وقد ازدانت بهذه السخافة الجديدة التي كان لا بد من أن أشرّفها بأرقام الرموز وإلا لم يوقّعها السفير. ولقد أُغريتُ مراراً، ضنّاً مني بسمعته، أن أرقم بالرموز غير ما كان يقول، لكنني شعرتُ أن لا شيء يسوّغ مثل هذا التصرف غير الأمين، فتركتُ السفير يهذي يحمل تبعة هذيانه واكتفيتُ أن أصارحه بالكلام وأن أحمل تبعةَ ما يجب عليّ له.

ذلك شأني على الدوام أدّيتُه باستقامة وهمة وشجاعة كانت خليقة بجزاء آخر غير الذي جزاني به عليها في آخر المطاف. ولقد حان لي أن أكون، مرة واحدة في العمر، على ما وهب لي الله من فطرة سعيدة، وعلى ما أرادته بي التربية التي أخذتُها عن أفضل النساء، وعلى ما حصّلتُ بنفسي من تنشئة صيّرتْني إلى ما أنا فيه ولقد كنتُ على تلك الأمور جميعاً. وإذ تُركتُ إلى نفسي وحيداً، لا صديق، لا نصْح، لا خبرة، وأنا في بلد أجنبيّ، وفي خدمة أمة أجنبية، وبين جمهور من الماكرين الذين أخذوا يحرضونني على أن أقتدي بهم لكي يبعدوا عنهم فضيحة القدوة الصالحة. لم أكترث لهم، بل أحسنتُ خدمة فرنسا التي لم أكن مديناً لها بشيء، وأحسنتُ خدمة السفير في كل ما يتصل بي، خيراً مما خدمتُ فرنسا على ما يقتضيه الإنصاف. فكنتُ لا لوم عليّ في مثل هذا المنصب المرموق، فاستحققتُ ونلتُ قدْر الجمهورية وقدْر جميع السفراء الذين كانت لنا علاقات بهم، كما استحققتُ ونلتُ محبّة الفرنسيين المقيمين في البندقية، وما أستثني القنصل نفسه وهو الذي آسفني أن أحتل محله في شؤون أدركتُ أنْ قد حُقَّ له أن يقوم بها وكانت تزعجني أكثر مما تبهج.

ولقد انقاد السيد دو منتيجو للمركيز ماري انقياداً لا تحفظ فيه، ولم يكن ليعنى تفصيلات واجباته فأَهملها، حتى إنه لولاي لم يشعر الفرنسيون في البندقية بأن لأُمّتهم سفيراً هناك. وكانوا كلما احتاجوا إلى حمايته، صُرفوا عنه ببعض الخشونة، فاستنكفوا منه حتى لم يبقَ أحد منهم يُرى لا في حاشية السفير ولا على مائدته التي لم يدْعُهم إليها قط. وكثيراً ما قمت من تلقاء نفسي بما قد وجب عليه أن يقوم به، فأسديتُ إلى الفرنسيين الذين كانوا يرجعون إليه أو إليّ جميع الخدمات التي استطعتُ أن أسديها إليهم. ولو كنتُ في بلد غير البندقية، لأسديتُ إليهم أضعاف ما فعلتُ؛ لكنني، بحكم وظيفتي، لم يسعني أن أراجع أحداً من ذوي المناصب المرموقة، فاضطررتُ في أغلب الأحايين أن ألجأ إلى القنصل، وكان القنصل يقيم في البلد الذي تقطن به أُسرته مما جعله يراعي الناس مراعاة حالت بينه وبين ما كان يود. وربما رأيتُه في بعض المرات وقد وهن لم يجرؤ على الكلام، فأقدمتُ على مساع جريئة نجحتُ في عدة منها. وإني لأذكر مسعىً ما يزال يضحكني. ويكاد لا يعلم أحد أن هواة المسرح في باريس مدينون لي بكورالين وشقيقتها كميل[26]، ولا شيء أصدقُ خبراً من ذلك. فإن فيرونيز، أباهما، كان قد التحق هو وولداه بالفرقة الإيطاليا للتمثيل، فتناول ألفي فرنك لأجل سفره، لكنه بعدئذٍ التحق بمسرح سان لوك[*] بدل أن يسافر؛ ومع ذلك، لم يبرح في غاية الاطمئنان، وكانت كورالين ابنته، على حداثة سنها يومئذٍ، تجتذب كثيراً من الناس. فكتب الدوق دوجيفر، بصفة كونه كبير أشراف المجلس، إلى السفير يطالب بالأب والبنت. فناولني السيد دو

---

(26) ممثلتان إيطاليتان - المترجم.

(*) أشك في هل هو «سان لوك» أم هل هو «سان صموئيل» فإن أسماء الأعلام تغيب عن ذهني على وجه العموم.

twitter @baghdad_library

منتيجو الرسالة وكان كل ما أفادني، في صددها قوله: «انظرْ في ذلك». فذهبتُ إلى السيد لوبلون أرجو منه أن يراجع صاحب مسرح سان لوك، وهو، في ما أدري، من أشراف آل جوستينيان، لكي يطرد فيرونيز الذي كان قد التحق بخدمة الملك. فلم يكترث لوبلون للمهمة حق الاكتراث، فأساء تأديتها. وطفق جوستينيان يهذر ولم يَطرد فيرنوز. فاستأتُ. وكنا في أيام الكرنفال، فتغشيتُ بثوب تنكّر وقناع وركبتُ إلى قصر جوستينياني. فدهش كل من أبصر جندولي داخلاً وقد لاحت فيه ألبسة السفارة الرسمية، إذ لم يسبق أن أبصرت البندقية شيئاً مثل ذلك. فدخلتُ وأَرسلتُ أعرّف بنفسي على أنني شخص مقنّع. فما أن دخلتُ حتى أَلقيتُ عني القناع وأَعلنتُ اسمي. فاصفرّ الشيخ [السيناتور] وظلّ مشدوهاً. فقلتُ له: «سيدي، إني ليؤسفني أن أزعجك في هذه الزيارة يا صاحب السعادة، لكن في مسرحك سان لوك رجلا يدعى فيرونيز قد التحق بخدمة الملك، ولقد طولبتَ به في غير طائل: «فلذلك جئتُ باسم صاحب الجلالة أطالب به». فكان لخطابي الموجز فعلٌ وتأثير، فما أن خرجتُ حتى خفّ صاحبنا إلى محققي الدولة ليفضي إليهم بأمره، فعنّفوه. فطُردَ فيرونيز في اليوم نفسه. فبعثتُ إليه أنْ إن لم يذهب في غضون ثمانية أيام، أَمرتُ باعتقاله، فذهب.

ولقد أَنقذتُ، في مناسبة أخرى، ربان سفينة تجارية كان قد وقع في شدّة، وقمتُ أنا وحدي بإنقاذه ولم يكد يساعدني أحد. أما اسمه فهو الربان أوليفي دو مارساي [المرسيلي]؛ وأما اسم السفينة فقد نسيتُه. وكان ملاّحوها قد تخاصموا هم وبعض الصقالبة الملتحقين بخدمة الجمهورية واستُخدمتْ وسائلُ العنف، فحُجزت السفينةُ حجزاً بالغ الشدّة حتى لم يُبَح إلا لربانها أن يطأ اليابسة ويعود منها دون إذن. فلجأ الربان إلى السفير، فردّه بغلظة؛ فراجع

القنصلَ، فقال له إن المسألة ليست مسألة تجارية وإنه لا يمكنه أن يتدخل فيها؛ فحار أوليفيه في أمره، فرجع إليّ. فقلتُ للسيد دومنتيغو إنه ينبغي أن يأذن لي أن أقدّم إلى مجلس الشيوخ مذكرة في هذا الشأن؛ ولستُ أذكر هل قبل وهل قدّمتُها، ولكن أذكر جيداً أنني، إذ لم تؤدّ مساعيّ إلى نتيجة وإذ بقيت السفينة في حصار، عمدتُ إلى وسيلة نجحتُ فيها. فأدرجتُ موضوع هذه المسألة في برقية إلى السيد دو موروبا[27]، وعانيتُ بعض الصعوبة حتى حملتُ السيد دومنتيغو على أن يقبل إدراج هذا الموضوع. وكنتُ أَعلم أن برقياتنا تُفَضّ في البندقية وإن لم تستحقّ أن تُفَضّ. وبرهنتْ لي ذلك المقالاتُ التي أَلفيتُ الجريدة قد أخذتْها عن برقياتنا حرفاً بحرف. فحرضتُ السفير على أن يشكو سوء الأمانة هذا، لكني لم أفلح. ولقد قصدتُ، إذ أتيتُ في البرقية على ذكر هذا الظلم، أن أستغل فضول المسؤولين في البندقية فأخيفهم وأحثهم على أن يخلوا سبيل السفينة؛ ولو انتظرتُ جواب البلاط، لأفلس الربان قبْل ورود الجواب. ولقد عملتُ فوق ذلك أيضاً، فشخصتُ إلى السفينة أستنطق ملاّحيها. واستصحبتُ الأب باتيزيل، مستشار القنصلية، فلم يصحبني إلا على كره منه، وذلك لفرط ما قد كان هو، وأمثاله من أولئك القوم المساكين، يخشون أن يسخط عليهم مجلس الشيوخ. فلما لم أستطع أن أصعد إلى السفينة بسبب أمر الحظر، لزمتُ غوندولي وأخذتُ أضع محضر الضبط أسأل جميع الملاّحين على التوالي، أخاطبهم بصوت مرتفع، وأدرتُ أسئلتي على نحو أستخرج منه أجوبة يكون منها مصلحتهم. فحثثتُ باتيزيل على أن يتولى هو بنفسه الاستنطاق وكتابة محضر الضبط إذ الشأن إلى عمله أقرب منه إلى

(27) دو موروبا (1701-1781) ناظر البحرية الفرنسية - المترجم.

twitter @baghdad_library

عملي. فلم يقبل قطّ ولا تلفّظ بحرف واحد وكاد يأبى أن يوقّع محضر الضبط من بعد ما وقّعته. وكان لهذا المسعى؛ الجريء بعضَ الجرأة، نتيجةٌ موفّقة. فخُلّي سبيل السفينة قبلما وصل جواب الوزير، ولم يصل جوابه إلا بعد وقت طويل. فأراد الربان أن يقدّم لي هدية. فقلتُ له من غير حنق وأنا أربتُ على كتفه: «كابتن أوليفيه! أتظن أن من لا يستوفي من الفرنسيين رسم جوازت السفر، وقد وجده ساري المفعول، أتظن أنه يبيع الفرنسيين حماية الملك لهم؟» فأراد الربان، في الأقل أن يدعوني إلى الغداء على مائدته بالسفينة، فقبلتُ دعوته واستصحبتُ وكيل سفارة إسبانيا ويدعى كاريّو، وهو امرؤ ذكيّ جد لطيف، وقد أَصبح في ما بعد وكيلاً لسفارة إسبانيا في باريس وقائماً بأعمالها، وكنتُ قد وطدتُ علاقتي به أسوةً بسفرائنا.

ولكم كنتُ أكون سعيداً، وقد فعلت ما أمكنني فعله من خير، لو عرفتُ أن أنظّم دقائق تلك الشؤون فأوليها حقّ عنايتي فلا أُخدَع ولا أَخدم سواي على حسابي. لكني، في الوظائف التي تشبه وظيفتي تلك حيث أن أيسر الأخطاء لها تبعَتُها، قد استنفدتُ جهدي وعنايتي لكي لا أقع في خطإٍ يضرّ عملي؛ فلم أزل، حتى آخر عهدي بالسفارة، على أقصى درجات التنظيم والتدقيق في كل ما يتصل بالذي كان يجب عليّ عمله أساساً. وإذا استثنيتُ بعض الأخطاء التي أوقعْني فيها استعجال اضطراريّ وأنا أفكّ أرقام الرموز والتي تظلّمَ منها كَتَبَةُ السيد أمولو في إحدى المرات، فلا السفير ولا غير السفير قد وجدوا ما يلومونني عليه من إهمال في عمل من أعمال وظيفتي. وذلك جدير بالذكر عند شخص مثلي أنا إهمالاً وسهواً وتحيّراً. بيد أنني كنتُ، في أحيان، ضعيف الذاكرة، قليل العناية بالأمور التي أكلّف نفسي القيام بها فحمّلني حبّي للإنصاف وزْرَ تقصيري قبلما خطرَ لأحد أن يشكو هذا التقصير. ولن أورد إلا مثلاً واحداً لذلك

يتصل بارتحالي عن البندقية وقد شعرتُ بعدئذٍ بعاقبته وأنا في باريس.

فإن طبّاخنا، ويدعى روسولو، كان قد أتى من فرنسا بسند دين قيمته مائتا فرنك. وكان للطبّاخ صديق من صانعي وفرات الشعر قد أخذ هذا السند من أحد أشراف البندقية، ويدعى جانيتو ناني، ثمناً لبعض الوفرات. وكنتُ أعلم، وكان الطاهي يعلم، أن لأشراف البندقية عادةً ثابتة هي أنهم، عندما يرجعون إلى وطنهم، لا يؤدّون ما عليهم من ديون سبَقَ أن تعهدوا بها في الخارج؛ فإذا قسرَهم الدائنُ المسكين يريدهم على أن يؤدّوها، استنفدوا جهده تأجيلاً ونفقات إلى أن يخيب فيتخلى عن كل شيء أو يتفق معهم على أن يؤدّوا له قسطاً زهيداً من دَينه. فرجوتُ من السيد لوبلون أن يراجع جانيتو، فأَقرَّ هذا بصحة السند ولم يقرّ بتأدية المبلغ، فرجع مراراً، فوعد أن يؤدي ثلاث ليرات ذهباً. فلما جاءه لوبلون بالسند، لم تحضر الليرات الثلاث، فوجب الانتظار. وكنا، في أثناء ذلك، قد تشاجرنا، أنا والسفير، فبرحتُه. وخلّفتُ أوراق السفارة على أتم نظام، إلا أن سند روسولو لم يكن بينها.

فأكّد لي السيد لوبلون أنه قد أعاده إليّ، وكنتُ أعلم أنه أَنزهُ من أن أشكّ فيه، ولكنْ تعذّرَ عليّ أن أتذكّر إلى ما صار السند. فرجوتُ من السيد لوبلون أن يحاول تحصيل الليرات الثلاث من جانيتو، إذ إنه أَقرّ بالدين، ورجوتُ منه أن يعطيه إيصالاً بها، أو أن يدعوه إلى تجديد السند على نسخة ثانية. فلما علم جانيتو أن السند فُقد، أبى أن يؤديه وأبى أن يجدده. فأدّيتُ إلى روسولو ثلاث الليرات من مالي عوض السند. فأباها وقال لي إنني، في باريس، سأتفق مع الدائن، ودلّني إلى عنوانه. فلما علم صانع الوفرات بما جرى، أصرَّ أن يحصل على سنده أو على ماله أجمع. ولكم كنتُ أبذل، وأنا في غيظي، لكي أعثر على السند اللعين؛ فأدّيتُ مائتي

twitter @baghdad_library

الفرنك وأنا في ضيقي الأشدّ. وعلى هذا النحو، أتاح فقدان السند أن يؤدّى إلى الدائن المبلَغُ كله، في حين لو عُثر على السند، لشقّ على الدائن، وهذا في سوء حظه، أن يحصّل الدراهم العشرة التي وعد صاحب السعادة جانيتو ناني بأن يؤديها.

ثم إنّ ما وجدُتني عليه من براعة في شؤون وظيفتي قد جعلني أضطلع بها في لذة، فاتخذتُ الواجبات عليّ سبيل بهجتي الوحيدة، فضلاً عن معاشرتي كاريّو صديقي وألتونا الفاضل، وسآتي على ذكره، وفضلاً عن النزه البريئة في ساحة سان مارك، وفضلاً عن المسرح وبعض الزيارات التي كنا، أنا وألتونا، نقوم بها معاً في معظم الأحايين. ولئن كان عملي لم يرهقني جداً، ولا سيما أن الأب دوبينيس قد عاونني عليه، فإنني لم أزل في شغل به محتمَلٍ موصول، إذ المراسلات واسعة وإذ نحن في زمن حرب. فكنتُ أعمل في أغلب أوقات الصباح من كل يوم، أما في أيام كتابة البريد، فربما عملتُ إلى نصف الليل. وأما سائر وقتي، فقد وقفتُه على دراسة المهنة التي بدأتُها والتي نويتُ أن أرقى في منافعها لما أَصبتُ من نجاح في أول عهدي بها. والواقع أنني قد فزتُ بالقدر إجماعاً، فالسفير قد رضي عن عملي حقّ الرضى فلم يشكُ مني قط ولا حنق عليّ في ما بعد إلا لأني أَردتُ أن أنصرف آخر الحال بعدما تشكيتُ في غير طائل. كما أن سفراء الملك ووزراءه، الذين اتصلتْ بيننا وبينهم أسباب التراسل، قد هنأوا السفير بجدارة أمين سره تهنئات كانت خليقة بأن ترضيه، لكن نتائجها أتت في ضد ذلك والسفير على ما هو عليه من غرابة الطباع. وكان في أخصّ التهنئات، التي وردتْ عليه، تهنئةٌ لمناسبة خطيرة، فلم يسامحني بها قط. والأمر حقيق بالتفسير. ولقد كان السفير يكلّف نفسه أيسر ما يمكنه أن يكلّفها إياه إلى درجة أنه حتى في يوم السبت، يوم أَكثر البريد،

لم يسعه أن ينتظر إنجاز الأعمال فيخرج، بل كان لا ينفكّ يجدّ في إثري كيما أُسرع في برقيات الملك والوزراء، فيوقّعها على عجل، ثم ينطلق إلى حيث لا أدري، يدَع معظم الرسائل بدون توقيع. فإذا كان موضوعها يقتصر على الأخبار، اضطررتُ أن أحوّلها نشرات. أما إذا كان موضوعها يدور على شؤون تتعلّق بخدمة الملك، فلا بد من أن توقَّع الرسائل، فحينئذٍ أوقّعها. ولقد عمدتُ إلى هذا في إشعار مهم كان قد ورد علينا من السيد فانسان، القائم بأعمال الملك في فيينا، وذلك يومَ زحفَ الأمير دو لوبكوفيتز إلى نابولي وانكفأ الكونت دوغاج انكفاءه المشهور في أروع مناورة حربية عرفها عصرنا كله ولم تذكرها أوروبا إلا ذكراً قليلاً جدا. وتضمّن الإشعار أن رجلاً، وكان السيد فانسان قد بعث يصفه لنا، قد مضى من فيينا وأنه مارّ بالبندقية لكي يتسلل إلى جبل الأبروز إذ عُهد إليه أن يثير الشعب هناك عندما يقترب النمسويون. وكان الكونت دومونتيغو غائباً إذ لم يهمّه شيء. فأَحلتُ على المركيز دولوبيتال[28] هذا الإشعار الذي ورد في تمام أوانه، حتى إن آل بوربون ربما كانوا مدينين لجان جاك بحفظ عرش نابولي، جان جاك المسكين الذي طالما هُزئ به.

فلما شكر المركيز دولوبيتال رصيفه [زميله]، كما يقتضي الإنصاف، كلّمه على أمين سره والخدمة التي أسداها إلى القضية المشتركة. لكن الكونت دومونتيغو، إذ حَقَّ عليه أن يلوم نفسه على توانيه في القضية، خيّل إليه أن في هذه التهنئة لوماً له، فذكرها لي وهو مغتاظ. وكان في وسعي أن أستغل ذلك مع الكونت دوكاستلان السفير في القسطنطينية ومع المركيز دولوبيتال ولو في ما هو دون ذلك شأناً. ثم إنه لم يكن من بريد إلى القسطنطينية إلا المراسلات

(28) سفير فرنسا في نابولي ثم في روسيا - المترجم.

twitter @baghdad_library

التي يرسل بها مجلسُ الشيوخ، بين الحين والحين، إلى سفير البندقية لدى الباب العالي، فكان يرد على سفير فرنسا إشعار بموعد ذهاب هذه المراسلات، فإذا شاء استطاع أن يكتب إلى رصيفه يراسله على هذا السبيل. وجرت العادة أن يرد هذا الإشعار قبْل يوم واحد أو قبْل يومين. ولكن كان من قلة المبالاة بالسيد دومونتيغو أنْ قد اكتُفي بإشعاره، شكلاً، قبْل سفر البريد بساعة واحدة أو بساعتين، فاضطررتُ، عدة مرات، أن أكتب البرقية في غياب السفير. فكان السيد دوكاستلان إذا أجاب عنها، ذكَرني بكريم العبارات، وكان السيد دوجونفيل يفعل مثْل ذلك، مما عاد عليّ بلوم جديد.

وإني أقر بأنني لم أهرب من الفرص التي تعرّف بي، ولكن لم أطلبها إلا في موضعها المناسب. فبدا لي أنه من حقّ الإنصاف، وقد أحسنتُ الخدمة، أن أبتغي ما على الخدمات الحسان من جزاءٍ طبيعي، فيقدرني من يسعهم أن يحكموا بما أسديتُ وأكافأ على خدماتي. ولن أقول هل جاز للسفير أن يشكو دقة اضطلاعي بشؤون عملي، لكني أقول إن هذي هي الشكوى الوحيدة التي تلفَّظ بها إلى يوم افترقنا.

وكانت داره، التي لم يُبقها قط على مستوّى رفيع، قد امتلأتْ بالرعاع، وكان الفرنسيون قد أُسيءَ إليهم وتسلَّطَ عليهم الإيطاليون، حتى إن الفرنسيين المخلصين الذين التحقوا بالسفارة من زمن طويل قد طُردوا عنها على نحو يخالف اللياقة، وبينهم كبير أشراف السفير، وكان قد التحق بالخدمة منذ عهد الكونت دوفرولاي، وأظنه يدعى الكونت بيتي، أو ما يقارب هذا الاسم. أما الشريف الثاني، وقد اختاره السيد دومونتيغو، فقد كان من أسافل مدينة مانتو واسمه دومينيق فيتالي. فوكل إليه السفير أمر العناية ببيته، فنال ثقة السفير

وبات صاحب حظوته لفرط ما قد تملَّقه وقتَّر من أجله تقتيراً خسيساً، فآذى الموظفين النزهاء، القلائل، الذين ما برحوا هناك وعلى رأسهم أمين السر. فإنّ عين الإنسان العفّ النزيه لا تنفكّ تقلق اللصوص الماكرين. فما كان من حاجة إلى غير ذلك ليحقد عليّ فيتالي، بيد أن مشاعر حقده كان لها، فضلاً عما سبق، سببٌ آخر قد زادها شدّةً وقسوة. وينبغي أن أذكر هذا السبب فتحكم عليّ إن كنتُ في خطإ.

وذلك أنه كان للسفير، بحسب العرف المتبع، مقصورة واحدة في كل مسرح من مسارح المدينة الخمسة. وكان، في كل يوم وهو على الغداء، يذكر اسمَ المسرح الذي ينوي أن يذهب إليه يومئذٍ فاختار من بعده مسرحاً آخر، ثم يتصرف الأشراف في سائر المقصورات. وكنتُ، وأنا خارج من الدار، أتناول مفتاح المقصورة التي اخترتُها. فكلَّفتُ يوماً خادمي، اذ كان فيتالي غائباً، أن يأتيني بالمفتاح إلى البيت الذي عيّنتُه له. لكن فيتالي قال إنه تصرَّف في المفتاح، بدل أن يرسل به إليّ. فازددتُ غيظاً ولا سيما أن الخادم قد جاء يُبلغني ذلك على مسمع من جميع الحاضرين. فأراد فيتالي في المساء أن يوجّه إليّ بعض كلمات الاعتذار، فأَبَيْتُها وقلتُ له: «غداً، سيدي، ستوافيني الساعة كذا وكذا إلى البيت الذي فيه وجَّهتَ إليّ الإهانة فتعتذر أمام الذين شهدوها وإلا فإنّ أحدنا، نحن الاثنين، سيبرح السفارة بعد غد مهما يكن من شيء». فبلغ منه قولي الجزمُ، فوافاني في الوقت المعيّن والمكان المعيّن فاعتذر إليّ علناً بنذالة يستأهلها؛ إلا أنه أخذ عدّته على مهل، فما زال بي يعمل ويسعى، على حسب طريقة الإيطاليين، حتى ألجأني إلى أن أتخلى عن وظيفتي بعد ما تعذّر عليه أن يحمل السفير على صرفي منها.

وما كان لمثل ذلك الدنيء الخبيث أن يَفهمني، لكنه وقف من

twitter @baghdad_library

دخيلتي على ما يخدم أغراضه. فقد عرفني إنساناً في غاية الطيبة والوداعة أحتمل ما يصيبني من أذًى غير متعمَّد، وعرفني إنساناً أبيّاً قليل الاحتمال لما يصيبني من إهانة مقصودة، محبّاً للحشمة والوقار في ما يليق بهما من أحوال، وعرفني لستُ على الكرامة التي تحقّ **لي** بأحرص مني **عليّ** الكرامة التي تحقّ **عليّ** أنا تجاه الآخرين. على هذا النحو، عمد إليَّ ينغص عيشي فأدرك مبتغاه. فقلب البيت رأساً على عقب، وأبطل ما حاولت أن أرسي فيه من أركان وامتثال ونظافة ونظام. فإن البيت، الذي لا سيدة فيه، يحتاج إلى نظام يكون على بعض الشدة فيسدوه الاتضاع الذي لا ينفصل عن الكرامة. فجعل فيتالي من بيتنا داراً للخلاعة والفجور ومأوى للمكَرَة والفاسقين، وعين، بدل الشريف الآخر الذي تسبب هو بطرده، أمرأ خسيساً نظيره كان يدير، في بناية فرسان مالطة، منزلاً للدعارة العمومية. ثم إن هذين الوغدين قد تساويا قحة وقبيحة. فلم يبق في البيت زاوية واحدة يطيقها الإنسان العف الكريم، عدا غرفة السفير وإن لم تكن على ما تقتضيه أصول الحكمة والأدب.

ولم يكن في عادة صاحب السعادة أن يتعشى، فخصصْنا، أنا والأشراف، بمائدة يأكل عليها أيضاً الأباتي دوبينيس والمرافقون. وإن الأكل في أحط المطاعم لأنظف من تلك المائدة وأليق، والشراشف والفوط لأقل اتساخاً، والطعام لأجود نوعاً، وكان على المائدة شمعة صغيرة مظلمة وصحون معدنية وشوكات حديد، ذلك مع صرف النظر عما كان يجري سراً. ولقد انتزع مني جوندولي، فكنت، دون سائر الأمناء لسر السفراء، أمين السر الوحيد الذي اضطر أن يكتري جوندولاً أو يذهب مشياً، كما أني اصبحت لا أرتدي الملابس الرسمية إلا حين أشخص إلى مجلس الشيوخ. ولم يجر في داخل السفارة شيء إلا عُلم به في المدينة، فهب جميع رجال السفير

يتذمرون جهاراً ينادون بعظائم الأمور، وكان دومينيق[29]، وهو علة ذلك كله، أعلى المتذمرين صوتاً. وقد أيقن أنني أشد من غيري تألماً من القباحة التي عوملنا بها. وكنت، دون سائر من في البيت، لا أنقل إلى خارجه ما يجري في داخله. بيد أني شكوت السفير إلى السفير نفسه وشكوت إليه سائر ما يجري عنده، فأخذ يوجه الي، في كل يوم، إهانة جديدة وقد أثارته سريرته اللعينة ونفسه الهالكة الخبيثة. ولقد اضطررت أن أنفق كثيراً من الدراهم كي أبقى على مستوى رصفائي وعلى ما يليق بوظيفتي، ولكن لم يسعني أن انتزع فلساً من مرتبي واحداً. حتى إذا سألت السفير مالاً، أخذ يقول إنه يقدرني ويثق بي، كأن هذه الثقة تملأ كيس نقودي وتقوم بجميع ما أحتاج اليه.

فانتهى هذان اللصان إلى أن نأيا بسيدهما عن الرشد أقصى النأي، وهو الذي لم يكن يوماً على قسط من الرشد كثير، فافقداه ماله في مقايضات لا تنتهي وفي صفقات غشّاه بها يقنعانه أنها صفقات مخاتلة واحتيال. فحملاه أن يستأجر قصراً[30] على نهر برنتا بضعف القيمة وشاطرا صاحب القصر هذه الزيادة. وكانت أجنحة القصر مغشاة بالفسيفساء، مزينة بأعمدة وركائز من رخام في غاية الجمال بحسب الموضة الشائعة في البلاد. فاستصنع السيد دو مونتيجو لذلك كله ألواحاً من خشب الصنوبريات، لا لسبب إلا لأن المنازل في باريس قد جعل على جدرانها مثل هذا الخشب، ومنع السفير مرافقيه من حمل السيوف، وتابعيه من حمل العصي للسبب نفسه، وذلك دون سائر السفراء بالبندقية، هكذا كان الرجل الذي

(29) دومينيق فيتالي ـ المترجم.

(30) في الأصل بالإيطالية: Palazzo ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ربما نفر مني لعلة واحدة ثابتة هي أنني قد خدمته فكنت أميناً.

ولقد عانيت احتقاره وغلطته وسوء معاملته فصبرت عليها جميعاً، حتى إنني كنت اذا وجدته قد ثارت ثائرته، لم أحسبها تنطوي على الحقد. ولكن ما أن تبين لي أنه قصد أن يجردني من الشرف، الذي أستحقته خدمتي الحسنة، حتى عزمت أن أتخلى عنها. وكان أول ما اصابني من سوء قصده هو في حفلة غداء أراد أن يقيمها تكريماً للدوق السيد دو مودين ولأسرته، وهم يومئذ في البندقية، فأفهمني أن لا محل لي على مائدته. فقلت له، وقد استأت في غير حنق، إنني أتشرف بأن أتغدى على مائدته كل يوم، فإذا أصر الدوق السيد دومودين على ألا آكل بحضرته، فإن كرامة صاحب السعادة وواجبي يفرضان ألاّ نوافق على اصرار الدوق. فقال لي السفير بنزق: «كيف؟ أأمين سري، وهو ليس حتى من الأشراف، يطلب أن يتغدى مع ملك، في حين أن أشراف السفارة أنفسهم لا يتغدون معه؟» فقلت: «أجل سيدي، إن الوظيفة، التي تشرفني بها سعادتك، لتشرفني جداً حتى إنني ما دمت فيها، يؤذن لي أن أدخل حيث لا يستطيعون الدخول. وانت، عندما تدخل بأبهتك الرسمية الحافلة، لا تجهل أن نظام التشريفات والعرف المأثور يدعواني إلى أن أتبعك وأنا بالألبسة الاحتفالية ويدعواني إلى أن أتشرف بالغداء معك في قصر سان مارك، ولست أدري لم لا يحق للرجل الذي يستطيع والذي ينبغي له أن يأكل علناً مع رئيس جمهورية البندقية ومع مجلس شيوخها لست أدري لم لا يحق لهذا الرجل أن يأكل مع الدوق السيد دومودين في غداء خاص؟» ولئن كانت حجتي دامغة، فإن السفير لم يسلم بها قط. ولكن لم يتح لنا أن نعود إلى هذه المماحكة لأن الدوق السيد دو مودين لم يتغد عند السفير.

ومن ذلك اليوم لم يفتأ السفير يزعجني ويجور علي يجتهد في

أن يحرمني الامتيازات اليسيرة، التي هي من حق وظيفتي، لكي يعطيها لعزيزه فيتالي. وإني لعلى يقين أنه لو اجترأ على أن يبعثه إلى مجلس الشيوخ بدلاً مني، لفعل. وكان في عادته أن يستخدم الأب دوبينيس ليكتب له رسائله الخاصة وهو في ديوانه. فاستخدمه يوماً ليكتب إلى السيد دومورروبا، في شأن قضية الربان أوليفيه، رسالة لم يأت فيها على ذكري، أنا الذي تدخَّل وحده في تلك القضية، لا بل لقد بخسني شرفَ كتابتي محضرَ الضبط فنسبه إلى باتيزيل الذي لم يتلفظ يومذاك بحرف قط. ولقد أراد السفير أن يُذلني ويرضي صاحب الحظوة عنده، ولكن لم يرد أن يتخلص مني، إذ شعر أنه أصبح لا يسهل عليه أن يجد خلفاً لي كما سهل عليه، في ما مضى، أن يجد خلفاً للسيد فولّو الذي كان قد عرَّف به. فكان السفير لا غنى له عن أمين للسر يعلم الإيطالية من أجل أجوبة مجلس الشيوخ، ويكتب له جميع برقياته، وينجز جميعَ شؤونه من غير أن يتدخل هو في شيء، ثم يقرن بجدارة حُسن خدمته للسفير خسّةَ المراعاة لأشرافه السادة المتعجرفين. وإذاً، فلقد أراد أن يحتفظَ بي وأن يقمعني، يبقيني بعيداً من بلدي ومن بلده، لا مال معي فأقوى على الرجوع. ولو اعتدل في ما أراد، لربما أفلح؛ لكن فيتالي كانت له أغراض أخرى إذ ابتغى أن يلجئني إلى تقرير أمري، فظفر ببغيته. فما إن رأيتُ جهدي يذهب في غير طائل، والسفير ينظر إلى خدماتي على أنها جرائم بدل أن يرضى عنها، وما أن رأيتُ أنني أصبحتُ لا أرجو أن ألقى في داخل بيته إلا المزعجات وفي خارجه إلا الجور، وأنّ سوء سلوكه، وسط المَفضحة العامة التي تردّى فيها، قد يضرّني من غير أن ينفعني حُسن سلوكي، وما أن رأيتُ ذلك كله حتى قرّرتُ أمري، فسألتُ السفير أن يصرفني من الخدمة، وأمهلتُه بعض الوقت لكي يعيّن أمين سر آخر. فلم يجبني لا بنعم ولا بلا، بل ظلَّ على ما كان عليه معي. فلما وجدتُ أن لا شيء قد تحسّنَ من هذا القبيل وأنه لم

twitter @baghdad_library

يسعَ لتعيين خلف لي، كتبتُ إلى شقيقه أفصّل له الأسباب التي حملتْني على ما قرّرتُ وأرجو منه أن يحصل لي من صاحب السعادة على صرفي من الخدمة، وأَضفتُ أقول إنني لن يسعني أن أبقى في خدمته في أيّ حال كان. فانتظرتُ طويلاً فلم يرد عليّ جواب. فابتدأتُ أرتبك حقّاً، بيد أن السفير تسلَّم، في آخر الشيء، مكتوباً من شقيقه. ولا ريب أن المكتوب كان قاسياً، لأن السفير تغيّظ وتغضّب وثار كما لم أره قد فعل يوماً. فانهال عليّ يشتّمني تشتيماً فاحشاً وبات لا يدري ما يقول، واتهمني بأنني قد بعتُ أرقام الرموز. فأخذتُ أضحك وقلتُ له بصوت ساخر أيظن أن في البندقية كلها أحداً قد انتهت به الغباوة إلى أن يعرض فلساً واحداً ثمن تلك الرموز؟ فلما سمع هذا الجواب، هبّ يزبد مغضباً، وتظاهر بأنه ينادي رجاله لكي «يلقوني من النافذة» على حسب قوله. وكنتُ، إلى ذلك الحين، قد لزمتُ الهدوء؛ حتى إذا وجَّه إليّ هذا التهديد، ثرتُ بدوري وغضبتُ. فانطلقتُ نحو الباب فنزعتُ عنه شيئاً كان يقفله من الداخل وقلتُ للسفير وأنا أرتدّ إليه بخطو ثابت: «لا، سيدي الكونت، إن رجالك لن يتدخلوا في هذه القضية، إذ المستحسن أن يبقى شأنها بيننا». فسكن على الفور لما سمع من قولي ولما رأى من هيئتي وفعلي، ولاح عليه الدهش والرعب. فلما وجدتُه قد هدأتْ سورتُه، ودّعتُه بكلامٍ يسيرٍ، ولم أنتظر جوابه، بل اتجهتُ إلى الباب ففتحتُه ثانيةً وخرجتُ أمرّ بالديوان، في مهل ووقار، وسط أعوان السفير، فوقفوا جرياً على عادتهم، وأحسبهم كانوا ساعدوني عليه أكثر مما ساعدوه عليّ. فلم أصعد إلى غرفتي، ولكن انحدرتُ على السلّم فوراً وبرحتُ القصر من ساعتي ولم أدخله مرة أخرى.

فمضيتُ رأساً إلى السيد لوبلون أروي له الحادثة. فلم يستغربها جداً، لأنه كان يعرف الرجل، فاستبقاني على الغداء. وكان غداؤه

فخماً، وإنْ عن غير استعداد لضيافة، والتقى فيه جميع ذوي المكانة من الفرنسيين الذين كانوا في البندقية. وقد روى القنصل قصتي للمدعوين. فكانوا على صاحب السعادة صوتاً واحداً. ثم إن سعادته لم يكن قد أدّى إليّ مرتبي ولا أعطاني درهماً واحداً قط، فارتبكتُ من جهة عودتي إذ غدوتُ لا مورد لي إلا بضع الليرات الفرنسية الذهب وهي التي كنتُ أحملها. فانفتحتْ لي جميع الجيوب. فتناولتُ زهاء عشرين ليرة ذهباً من السيد لوبلون، ومثْلها من السيد دوسان سير، وكان أقرب الحاضرين علاقةً بي، حاشا السيد لوبلون، أما سائر المدعوين، فقد شكرتُهم. ونزلتُ بدار ريثما ارتحلتُ، وذلك لكي أبرهن للجمهور أن الأمة ليست شريكة في ما قد اجترح السفيرُ من ظلم. فثار هذا إذ وجد الناس يرحّبون بي وأنا في محنتي ويزورّون عنه وهو السفير الخطير، ففقد كلَّ رشده وسلك سلوك الأحمق المجنون. وتغافل حتى إنه قدّم إلى مجلس الشيوخ مذكرة يطلب فيها اعتقالي. فأخذتُ برأي الأب دوبينيس فعزمتُ أن أبقى خمسة عشر يوماً، زيادة على ما سلف، بدل أن أسافر من غدي كما كنتُ قد نويتُ. ولقد رأى الناس سلوكي فوافقوني عليه واحترمني الجميع. ولم يتنازل مجلس الشيوخ بالإجابة عن مذكرة السفير الرعناء، وأرسل إلى القنصل يقول له إنني أستطيع أن أبقى في البندقية ما شئتُ أن أبقى، فلا تقلقْني مراجعات امرئ أحمق. فواصلتُ زيارة أصدقائي، ومضيتُ أودّع سفير إسبانيا، فأَحسنَ استقبالي جداً، ومضيتُ أودّع الكونت دوفينوكيتّي وزير نابولي، فلم أَلقَه، فكتبتُ إليه، فأجابني برسالة هي من ألطف ما تكون عليه الرسائل. ثم سافرتُ لم أخلّف من ديون، برغم ضيقي، إلا ما كنتُ قد اقترضتُه على نحو ما ذكرتُ، وإلا زهاء خمسين ليرة اقترضتُها من تاجر يدعى موراندي، فتولى كاريّو إرجاعها إليه، فلم أردّها على كاريّو قط وإن كنا كثيراً ما تلاقينا بعد ذلك. أما القرضان اللذان

twitter @baghdad_library

ذكرتُهما فقد أدّيتُهما على وجه التمام فور ما استطعتُ.

ولكن لا نبرح البندقية قبل أن نتكلم على ملاهيها الشهيرة، أو، في الأقل، قبل أن نذكر المشاركة اليسيرة التي كانت لي في تلك الملاهي في أثناء إقامتي هناك. ولقد رأيتَ كم كنتُ في فجر شبابي ضئيل الطلب لملاهي تلك السن، أو، في الأقل، لما يدعى بملاهٍ. فلم يتغير ميلي وأنا في البندقية؛ إلا أن شواغلي، إذ حالت في كل حال دون هذا التغير، قد زادت النُزهَ اليسيرة، التي سوّغتُها لنفسي، غرابةً واجتذاباً. وكانت أُولى نزهي وأعذبها معاشرتي بعض ذوي الكفاية: السادة لوبلون، ودوسان سير، وكاريّو، وألتونا، وأحد نبلاء فريول ويؤسفني جداً أنني نسيتُ اسمه، ولكن لم يخطر ببالي ذكره الطيّب إلا تأثرتُ، فلقد كان، بين جميع من عرفتُ، أقربهم إليّ قلباً وشعوراً. وكنا، فضلاً عن ذلك، على صلة بإنجليزيين بل ثلاثة إنجليز أذكياء مثقفين قد شُغفوا بالموسيقى على قدْر ما أُولعوا بنا. وكان لأولئك السادة زوجات أو صديقات أو عاشقات؛ وكانت أكثر العاشقات من ذوات المواهب، وكان يقام عندهن مجالس موسيقى أو حفلات سهر. وكنا نقامر، ولكن في أحيان، لأن الميول المتألقة والمواهب والمسارح قد جعلت القمار شيئاً عندنا تافهاً. فإنما القمار وسيلةُ المتضجرين ليس لهم غيره من سبيل. وكنتُ قد أتيتُ من بارس بحكم مسبَّق شائع بين أناسها من حيث إنهم لا يميلون هناك إلى الموسيقى الإيطالية. لكن الطبيعة قد رزقتْني ذلك الشعور المرهف الذي لا تقوى عليه الأحكام المسبَّقة. فلم ألبث طويلاً حتى أُولعتُ بتلك الموسيقى بقدْر ما توحي من ولع إلى من فُطروا على أن يتذوقوها ويحبّوها ويبدو حُكمهم فيها. وكُنتُ إذا أصغيتُ إلى أغاني الملاّحين، وجدتُني لم أسمع من قبل أحداً يغنّي، ثم لم أُعتّم أن شغفتُ بالأوبرا، حتى إنني كنتُ إذا أردتُ أن أصغي لا غير،

انسللتُ من بين الجماعة فملتُ إلى ناحية أخرى بعدما أعيتني الثرثرة والأكل واللهو في المقصورات. فلبثتُ وحدي في مقصورتي أستمتع بروعة المشهد، على طوله، ما شئتُ أن أستمتع، إلى أن ينتهي كله. وكنتُ، يوماً، في مسرح سان كريزوستوم[31] فغلب عليّ النوم كما يغلب عليّ وأنا في السرير، فلم توقظني الألحان المدويّة المتألقة الأصوات. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفصح عن لذة شعوري بعذوبة صوت موقظي وبأناشيده الملائكية؟ يا لليقظة ويا للسحر ويا للاختطاف إذ فتحتُ عيني وسمعي في وقتٍ معاً! فأول ما خطر لي، آنئذٍ، هو أنني في الفردوس. وكانت تلك الأوبرا الرائعة، التي ما أزال أذكرها والتي لن أنساها ما حييتُ، تبدأ كلماتها على الوجه التالي:

«أبق لي الحسناء

التي اضطرم لها قلبي أيَّ اضطرام»[32]

فأردتُ أن أحصل على تلك الأوبرا، فحصلتُ عليها، واحتفظتُ بها زمناً طويلاً؛ لكنها على الورق غيرُها في ذاكرتي. فاللحن هو هو، بيد أن الشيء ليس هو إياه. فهذا اللحن الإلهي لا يمكن أن يؤدى إلا في ذهني على نحو ما قد أدّي عليه حين أيقظني.

أما الموسيقى التي تفوق، عندي، موسيقى الأوبرا والتي ليس لها نظير في إيطالية ولا في سائر العالم، فهي موسيقى المدارس[33]

---

(31) أي مسرح القديس الذهبي الفم (Théâtre Saint- Chrysostome) ـ المترجم.

(32) في الأصل بالإيطالية: Conservami la bella
Che si m'accende il cor ـ المترجم.

(33) في الأصل بالإيطالية: Scuole ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ولهذه المدارس دُورٌ للبر والإحسان أُسّستْ لتنشئة الفتيات المعدمات اللواتي تُعدّهن الجمهورية إما للزواج وإما للترهب. وتأتي الموسيقى في مقدمة المواهب التي يعنى بها هناك. ففي يوم الأحد من كل أسبوع ترتَّل في كنيسة كلّ مدرسة من تلك المدارس الأربع تسابيحُ تتخلل صلوات المساء ويشترك في الترتيل، من على منصات مشبّكة، جوقاتُ إنشاد تصحبها فرق موسيقى يقودها ويؤلّف ألحانها أكابرُ موسيقيي إيطاليا. وهذه الفرق تؤلّفها فتيات لم تبلغ أَسَنُّهن ربيعَها العشرين. ولا شيء، عندي، أوفى لذاذةً وتأثيراً من تلك الموسيقى: فإنّ غنى فنها وروعة تسابيحها وجمال أصوات منشديها وصحة تأديتها إنّ ذلك أجمع ليشتركُ في تلك الحفلات الممتعة فيشيع انطباعاً لم تألفه العادة، ولكن لا أشكّ أنه ينفذ إلى صميم القلب من كل إنسان. فما فاتنا، أنا وكاريّو، أن نحضر تلك الصلوات في مدرسة مانديكانتي ولا تفرَّدنا بهذا الحضور، بل كانت الكنيسة تمتلئ بالهواة، حتى ممثلو الأوبرا أنفسهم كانوا يأتون لكي ينشأوا على أصالة الذوق الغنائي وعلى نمطه الممتاز اللذين عُرفتْ بهما تلك الفتيات. أما ما قد كدَّرني، فهو تلك القضبان المشبَّكة اللعينة التي لم تأذن في مرور شيء غير الأصوات، فحجبتْ عني ملائكةَ جمال خليقاتٍ به. فكنتُ لا أتكلّم إلا على ذلك. فبينا قد فعلتُ يوماً وأنا في بيت السيد لوبلون، قال لي: «إذا كان الفضول يرغّبك في أن ترى تلك الفتيات الصغيرات، فقد سهل إرضاؤك، فإنني أحد المشرفين على إدارة هذه المدرسة وسأدعوك إلى أن تتناول معهن طعام العصر». فما زلتُ به حتى برَّ في قوله. فلما دخلنا القاعة التي تضمّ أولئك الحسان اللائي طالما تشوّق الناس إلى أن يبصروهن، شعرتُ برعشة حبٍّ لم أشعر بها من قبْل. فقام السيد لوبلون يعرّف إليّ أولئك المغنيات الشهيرات، مغنّية فمغنّية، ولم أكن أعرف من كل واحدة منهن إلا صوتها واسمها. قال: «تعالي صوفي...» فإذا

هي مَهولةُ القبح. وقال: «تعالي كاتّينة. . .» فإذا هي عوراء. وقال: «تعالي بتّينة. . .» فإذا الجدري قد شوّه وجهها. فكاد لا يكون بينهن من خَلتْ من بعض العيوب الناتئة. وكان الجلّاد يضحك لدهشتي المؤلمة. ولكن بدا لي أن فيهن فتاتين بل ثلاث فتيات هن بين بين ولم يكنّ يغنّين إلا في جوقة الإنشاد، فأسفتُ. وحاولنا، في أثناء تناولنا وجبة العصر، أن نغريهن فابتهجن. ثم إن القبحِ لا ينفي الجاذبية واللطف والكياسة. ولقد وجدتُهن على مثل ذلك. فقلتُ في نفسي: «لا يغنّي هكذا من لا روح عنده، وإن عندهن لروحاً». فتغيرتْ نظرتي إليهن حتى إنني خرجتُ من المدرسة أكاد أُغرَم بأولئك الدميمات وأكاد لا أجرؤ على أن أواصل حضوري صلواتهن المسائية. ولكن كان ما قد أشاع فيّ الاطمئنان إذ لم أبرح أستطيب غناءهن وإذ كانت أصواتهن تموّه أوجههن حتى لقد أصررتُ، برغم ما رأت عيناي، على أن أستجملهن ما دمن في غناء.

والموسيقى في إيطاليا زهيدة النفقة، حتى إنها لا تستحقّ أن يمسك الإنسان عنها إذا كان يميل إليها. فاكتريتُ كلافسان، وجئتُ بأربعة عازفين، أو خمسة، في مقابلة بعض الدريهمات، فأخذتُ أتمرن وإياهم، مرة في الأسبوع واحدة، على تأدية أكثر القطع لذة عندي في دار الأوبرا. ثم دعوتُهم إلى أن يمتحنوا بعض ألحان مؤلَّفتي «**عرائس الشعر الغزلات**». فأَرسل إليّ أستاذ باليه سان جان كريزوستوم(34) يسألني مؤلَّفتين من أعمالي، وذلك إما لأن ألحاني نالت الاعجاب، وإما لأنهم أرادوا أن يتملّقوني. فسرّني أن أصغي إلى المؤلَّفتين تؤديهما تلك الفرقة الموسيقية الرائعة وترقص على ألحانهما فتاةٌ جميلة، بل لطيفة على الأخص، تدعى بتّينة قد تعهّدها

---

(34) أي باليه القديس يوحنا الذهبي الفم (Le ballet de St. jean Chrysostome) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

بالنفقة عليها صديق لنا من الإسبانيين يدعى فاغواغا؛ وكثيراً ما أَتينا بتّينةَ نسهر عندها.

وما دمنا على ذكر الفتيات، أقول إن الإنسان في مدينة كالبندقية لا يمتنع عنهن؛ وربما قيل لي: «أليس عندك ما تعترف به من هذا القبيل؟» أجل، عندي، في الواقع، ما أقول، وإني لمعترف به في مثل السذاجة التي أَشعتُها في سائر اعترافاتي.

ولقد تقززتُ، على الدوام، من بائعات الهوى العموميات، ولم يكن بتناولي غيرهن وأنا في البندقية، إذ حُظر عليّ، بحكم وظيفتي، أن أدخل معظم البيوت. وكانت بنات السيد لوبلون جد لطيفات، إلا أن مقاربتهن صعبة واحترامي لوالديهما هو أوفى من أن أفكر في أبتغيهن. ولقد كنتُ أَشدَّ ميلاً إلى فتاة اسمها الآنسة دوكاتانيو، بنت سفير ملك بروسيا. بيد أن كاريّو قد أُغرمَ بها حتى لقد جرى البحث في الزواج. وكان كاريّو يسيرَ الحال وكنتُ معدماً. وكان مرتبه مائة ليرة فرنسية ذهباً، ومرتبي لا يزيد على ألف فرنك فرنسي. فأدركتُ أن الإنسان حيثما كان، ولا سيما في البندقية، لا يُحَقّ له أن يقوم بدور الغزل إذ أحواله المالية على شبه حالي، ذلك فضلاً عن أنني لم أشأ أن أنافس صديقاً لي. وما كنتُ قد فقدتُ عادتي المشؤومة التي توسلتُ بها عوض هذا الحرمان. وكنتُ أَكثرَ شغلاً من أن أحسّ إلحاحَ الحاجة التي يوحيها المناخ، فبقيتُ في تلك المدينة زهاء السنة وأنا على مثل اعتدالي أيامَ كنتُ في باريس، ثم برحتُ البندقية بعد ثمانية عشر شهراً لم أقارب من خلالها من جنس إلا مرتين، وذلك في فرصتين فريدتين أذكرهما الآن.

أما أُولاهما، فقد أتاحها لي فيتالي وهو النبيل النزيه، بعد ما انقضى بعض الوقت على الاعتذار الذي أجبرتُه أن يقدّمه إليّ بحسب ما وجب أن يقدّمه. وكنا يؤمئذٍ، ونحن على المائدة، نتكلّم في

ملاهي البندقية. فلامني الحاضرون على أنني لا أكترث لأحرّ تلك الملاهي، وجعلوا يطرون ملاحة بغايا المدينة يقولون أنه ليس لهن في العالم من مثيلات وقال لي دومينيق إنه يجب أن أتعرّف بألطفهن جميعاً وإنه يستطيع أن يمضي بي إليها وإنها سترضيني. فأخذتُ أضحك من هذا العرض الكريم؛ أما الكونت دوبيتي، وكان قد أصبح شيخاً وقوراً، فقد فاقه مصارحةً إذ قال: «إنني ما كنتُ لأتوقَّع من إيطالي مثل هذا العرض»، وحسبني أفطَنَ من أن أدَعَ خصمي يقودني إلى بعض النسوان. ولم يكن في نيتي أن أذهب إليهن ولا أغواني الذهاب. ومع ذلك انتهى بي الأمر، بضرب من المناقضة يصعب عليّ فهمه، إلى أنني انقدتُ لعرض فيتالي، خلافاً لميلي وقلبي وعقلي، حتى خلافاً لإرادتي هي نفسها ـ انقدتُ بضرب وهن واستحياء من أن أَحذر وأتخوف و«لكي لا أبدو غبياً جداً» [35] على حسب قول الناس بذلك البلد. ثم إن المرأة البادوية[36]، التي ذهبنا إليها، كانت على شيء من جمال الوجه، بل إنها كانت جميلة، ولكن لم يعجبني جمالها. فتركني دومينيق عندها؛ فدعوت ببعض المشروب وطلبتُ إليها أن تغنّي، فغنّت. فلما مضى نصف ساعة، أردتُ أن أخرج أدَع لها على المنضدة قطعة نقود؛ إلا أن ضميرها تردَّد تردداً فريداً أبتْ معه قطعة نقود لم تستحقَّها. وكنتُ على غباوة فريدة فأَبَيتُ أن تتردد فتأبى. ثم عدتُ إلى القصر وقد تهتكتُ، حتى إن أول ما قمتُ به، حين وصلتُ، هو أنني استحضرتُ الطبيب الجراح لكي أسأله بعض سوائل الحشائش. ولا شيء يعدل القلق الذي ظللتُ أكابده طوال ثلاثة أسابيع ليس يسوّغه مرضٌ فعليّ ولا علامةٌ ظاهرة. فلم يسعني أن أتصوّر أن الإنسان يمكنه أن يخرج من

(35) في الأصل بالإيطالية: Per non parer troppo coglione son cinda ـ المترجم.

(36) نسبة إلى مدينة بادو - المترجم.

twitter @baghdad_library

بين ذراعي البادوية وهو معافًى سليم. حتى الجراح نفسه عانى مشقّة بالغة لكي يشيع فيّ الاطمئنان، فلم يوفّق إلا بعد ما أقنعني أنني مركّب على نحو خاص يجنّبني سهولة العدوى؛ ولئن كنتُ دون سواي تعرّضاً لتلك التجربة، فإنّ صحتي، التي لم يصبها شيء من هذا القبيل، هي برهان على صواب رأي الجراح، بيد أن هذا الرأي لم يؤتني الجرأة يوماً، وإذا كانت الطبيعة قد آتتني هذه المناعة، فإنني أستطيع القول إنني لم أفرط فيها.

وأما مغامرتي الأخرى، فإنها على غير ما سلف خبرُه أصلاً ونتائج، وإن كانت قد جرت أيضاً مع إحدى الفتيات. ولقد ذكرتُ في بعض ما سبق أن أوليفيه، ربان السفينة، كان قد دعاني إلى الغداء على متنها، وأنني استصحبتُ أمين سر السفارة الإسبانيا. فتوقَّعتُ أن تحيّيني المدفعية. فاستقبلَنا البحارةُ مصطفين ولكن لم تُطلَق إطلاقةُ مدفع واحدة، وذاك مما أَذلَّني جداً لأن كاريّو قد رافقني فساءه الأمر بعض المساءة. وهو معلوم أن التحية بالمدافع، من على السفن التجارية، كانت تؤدّى لمن لا يساوونا، دون شك، فضلاً عن أنني قد حسبتُني أهلاً لشيء من تقدير الربان. فلم أستطع أن أخفي ما بي، لأن ذاك يتعذّر عليّ في كل حال. ولئن كان الغداء طيّباً جداً، ولئن قام أُوليفيه بجميع ضروب التكريم، فلقد بدأتُ الغداء وأنا عكر المزاج، قليل الطعام، قليل الكلام، قولي دون أكلي. فلما رفع الربان كأسه أول رفعة يشرب نخبي، انتظرتُ، في الأيسر، أن تحيّيني المدفعية، ولكن لم يُطلَق منها شيء. فقرأ كاريّو ما يجول في نفسي، فأخذ يضحك إذ رآني أدمدم كالطفل. فلما كنا في الثلث الأول من الغداء، أبصرتُ غوندولاً يقترب. فقال لي أُوليفيه: «سيدي، خذ حذرك، لعمري هوذا العدو». فسألتُه أن ماذا يعني، فأجاب يمزح. ولاصقَ الغوندول السفينة، فإذا فتاة رائعة الجمال، في

غاية الأناقة والرشاقة، قد بلغتْ حجرتنا ببضع خطوات، فاستوت إلى جانبي قبلما انتبهتُ أنه قد وُضع لها في جواري طبقُ طعام. وكانت لطيفة بقدْر ما امتلأتْ حياةً، سمراء، في ربيعها العشرين على الأكثر. ولم تكن تتكلّم إلا بالإيطالية، فكان صوتُها وحده كافياً لأن يذهب بلبي. فطفقتْ تأكل وتتحدث، تنظر إليّ وتحدّق لحظةً، ثم صاحت تقول: «يا عذراء! عزيزي بريمون، كم مضى من وقت لم أَرك فيه!» ثم ارتمت بين ذراعيّ وجعلت ثغرها إلى ثغري، وضمتني إليها حتى كدتُ أختنق.

فانطلقتْ من عينيها الواسعتين الشرقيتي السواد سهام نار صوّبت إلى قلبي، ولئن شغلتْني المباغتة بعض الشغل، ما لبثت الشهوة أن استولت عليّ، حتى إنه كان لا بد لتلك الحسناء من أن تسارع إلى كبحي وقد انتشيتُ بل شبقتُ. فلما رأتني قد بلغتُ الحد الذي أرادت أن أبلغه، اعتدلتْ في المغازلة لا في الهياج. حتى إذا شاءت أن تفسر لنا سبب سورتها، صدقاً أم كذباً، قالت لنا إنني شديدُ الشبه بالسيد دوبريمون، مدير جمارك توسكانا، حتى ليتعذّر التمييز بيني وبينه، وقالت إنها قد هامت بالسيد دوبريمون هذا، وما تزال هائمة به، وأنها هجرته لأنها غبية، وإنها تتخذني عوضاً منه تريد أن تحبني لأن هذا يلائمها، وقالت إنه، للسبب عينه، قد وجب أن أحبها ما دام حبي إياها ملائماً لها، وإنني متى تهجرني أَصبر كما صبر عزيزها بريمون. ما قد قيل قد فعل. تسلمتْني وكأني رجل لها، فحمّلتْني قفازيها ومروحتها وزنّارها[37] ووفْرتها، وأمرتْني أن أتجه إلى هنا أو إلى هناك، وأن أعمل كذا وكذا، فأَطعتُ. وقالت لي لأذهب أُرجع غوندولها لأنها تريد أن تركب غوندولي، فذهبتُ. وقالت لي لأتنحَّ

(37) في الأصل: son cinda أي زنارها - المترجم.

twitter @baghdad_library

عن مكاني وأطلب إلى كاريّو أن يصير إليه لأنها تريد أن تكلمه، ففعلتُ. فتحادثا وقتاً طويلاً جداً يتهامسان، فتركتُهما يتحادثان. ثم نادتني، فجئتُ، فقالت لي: «انتبه جانيتو، إنني لا أريد أبداً أن تحبني على طريقة الفرنسيين في الحب، فلن نلتذ بهذي الطريقة. فإن مللتَ، فاذهبْ على الفور، ولكن إياك أن يبقى شطر منك واحد لا غير». ثم مضينا بعد الغداء نزور مصنع الزجاج في مورانو. فاتباعت كثيراً من الجواهر الصغيرة الزهيدة الثمن، وتركتْنا نؤديه لم تتكلف. إلا أنها كانت حيثما اتجهتْ نثرتْ من الحلوان شيئاً وافراً يزيد على كل ما أَنفقنا. فمن تبذيرها المال بغير اكتراث، ومن تركها إيانا نبذّره على هذا النحو وهي لا تبالي، تبيَّن لي أن المال لا قيمة له عندها. وكانت إذا جعلتْ سواها ينفق عليها، فزهواً منها لا بخلاً، في ما أَحسب، إذ كانت تبتهج بما يؤدّي ثمناً لنيل حظوتها.

أوصلناها مساءً إلى منزلها. وبينا كنا نتحادث، أَبصرتُ على منضدة تزيينها مسدسين. فتناولتُ أحدهما فقلتُ: «هذي علبةُ رمي من صنعٍ جديد، ألا تذكرين لنا أيّ هدف ترمين؟ في علمي أن عندك أسلحةً من طراز آخر تُحسن إطلاق النار أكثر مما يحسنه هذان». وكانت لنا بعض المداعبات من هذا النحو، ثم قالت بزهو زادها سحراً: «إذا لاطفتُ من لا أحبّهم، حمّلتُهم ثمن إزعاجهم لي، ولا شيء أكثرُ إنصافاً من ذلك، ولئن قاسيتُ مغازلاتهم، لقد أَبَيتُ أن أقاسي إهاناتهم، فلم أخطئ أولَ من يخطئ إليّ منهم».

وبرحتُها أواعدها الوقتَ لغدنا. فلم أَدَعها تنتظر. فوجدتُها في اللباس الحميم[38]، مفضلٍ يجاوز حدود الأناقة ولا يُعرَف مثلُه في البلاد الجنوبية؛ ولكن لن أَتلهى بأن أصفه وإن تذكّرتُه جداً، بل إني

(38) في الأصل بالإيطالية: in vestito di confidenza ـ المترجم.

مقتصر على القول إن الأكمام منه وناحية الصدر قد ازدانت بخيطٍ حريرٍ تطرّزه باقةُ خيوط وردية اللون. فرأيتُ ذلك قد زاد بشرتها الناعمة، الجميلة، رونقاً وحياةً. ثم وجدتُ أنه الزيّ الشائع في البندقية؛ وهو ذو وقع فاتن مغر، فاستغربتُ كيف لم ينتقل هذا الزيّ إلى فرنسا قط. ثم إنني لم أتصوّر الملذات التي كانت في انتظاري. ولقد سبق أن تكلّمتُ على مدام دولارناج فاندفعتُ اندفاعاً ما تبرح ذكراها تردّني إليه في بعض الأحيان. ولكن كم هي عجوز بشعة باردة في جنب جوليتتي! فلا تحاولْ أن تتصوّر سحر تلك الفتاة الفاتنة ولا رشاقة جمالها، فلسوف تبقى نائياً عن الحقيقة. إن عذارى الأديرة الشابات لأقلّ طراوةً منها، وجميلات السرايا لأقلّ اضطراماً، وحوريات الجنة لأقلّ إثارةً وهياجاً. فلم يُتَح يوماً لقلب الإنسان ولا لحواسه مثل تلك المتعة العذبة. آه! لو عرفتُ، في الأقل، أن أذوقها كلها لحظة واحدة إلى أقصى حد! لقد ذقتُها ولكن بدون لذة، إذ أَوهيتُ منها كل غبطة فقضيتُ على متعتي لغير ما سبب. لا، إن الطبيعة لم تخلقني لكي أستمتع، بل هي سكبتْ في مزاجي الغريب سمَّ السعادة التي يتعذّر وصفها وجعلتْ في قلبي شهوة السعادة أبداً.

فإذا كان في سيرتي مناسبةٌ تصوّر طبيعتي تصويراً صادقاً، فإنما هي تلك التي أرويها بعد قليل. ثم إن القوة التي بها أتذكر غرض كتابي، لَتحدوني، ههنا، على أن أزدري الحشمة الزائفة التي تمنعني أن أصيب هذا الغرض. فأيّاً كنتَ، أنتَ الذي يريد أن يعرف إنساناً من البشر، فتجاسرْ على أن تقرأ الصفحتين التاليتين، أو الصفحات الثلاث التاليات، تَعرفْ جان جاك روسو حقّ المعرفة.

دخلتُ مخدع بغيّ وكأنني أدخل مَقدس الحبّ والجمال، وخيّل إليّ أنني أرى في شخصها إلهة الحبّ والجمال. وما كنتُ لأصدّق، يوماً، أن الإنسان يستطيع أن يحسّ ما قد أَلهبتْ فيّ من

twitter @baghdad_library

إحساس، على حين لا يحترم هو من تثير فيه مثل هذا الإحساس ولا يقدرها. فما إن بلوتُ، مذ أوائل المغازلة، سحر الفتاة وملاطفاتها الفائقة اللمس حتى أردتُ أن أسارع إلى قطف الثمر مخافة أن أفقده قبْل القطف. ولكن أحسستُ شيئاً بارداً جداً يسري في عروقي بغتةً بدل ما قد تأجَّجَ فيّ من نار، فاصطكتْ ركبتاي، وكدتُ أنهار، فجلستُ، وأخذتُ أبكي بكاء الطفل.

فمن ذا الذي يخمّن سبب دموعي وما قد خطر لي آنئذٍ؟ كنتُ أقول في نفسي: «إن هذا الشيء [الموضوع] الذي أتصرّف فيه الآن لأهو أثر رائع من آثار الطبيعة والحبّ، فروحها وجسدها بل كل شيء فيها كامل؛ وهي كذلك طيّبة وكريمة بقدْر ما هي لطيفة وبقدْر ما هي جميلة. فحُقَّ لها أن يكون العظماء والأمراء عبيدها وأن تُطرَح الصوالجة عند قدميها. ولكنها، مع ذلك، طائشة، خفيفة، مسكينة قد استسلمتْ إلى الجمهور، فتصرّفَ فيها ربان سفينة تجارية، وارتمت عليّ تعرف أنني لا أملك شيئاً، ارتمت عليّ أنا الذي لا بد أن يكون استحقاقُه، عندها، نظيرَ العدم، هذا الاستحقاق الذي لا قبل لها أن تفهمه. فإما أن يكون قلبي يخدعني ويخلب حواسي ويجعلني مخدوعاً بين يدي امرأة ساقطة، وإما أن يكون بها عيبٌ خفيّ أَجهلُه قد أَبطلَ سحرَها وكرَّهها إلى الذين كان ينبغي أن يتنازعوها. فطفقتُ أبحث عن هذا العيب أبذل جهداً عقلياً فريداً، فلم يخطر لي أن قد يكون للجدري أثرٌ في عيبها. فإن طراوة لحمها، وإشراق بشرتها، وطيب نفَسها، وهيئة النظافة على شخصها أجمع قد أبعدتْ عني هذه الفكرة أيّ إبعاد، وكنتُ، منذ المرأة البادوية، ما أزال في ارتياب من حالي، فشككتُ بالأحرى في أنني لم أكن على ما ينبغي لها هي من تمام سلامة الصحة. واقتنعتُ حقّ الاقتناع أن ثقتي لم تخدعني من هذا القبيل.

أقلقتْني هذه التفكُّرات المحكَمة حتى أبكتني، فبقيتْ جوليتة حيناً في دهشة وحيرة، إذ الأمر عندها، في تلك الحال، أمر جديد. فلما مشت في المخدع قليلاً ووقفتْ أمام المرآة، أدركت الحقيقة وأكّدتْ لها عيناي أن التقزز لا علاقة له بما أنا فيه. فلم يصعب عليها أن تبرئني منه ولا أن تنفي عني حيائي اليسير. ولكن، لحظةَ كدتُ يُغشى عليّ أمام العنق الذي لاح وكأنه قد احتمل ثغرَ الرجل ويدَه لأول مرة، انتبهتُ أن أحد ثدييها لا حلمة له، فاضطربتُ وتفحَّصتُ، فبدا لي أن ثديها الأعور ليس كأخيه شكلاً. فطفقتُ أبحث وأفكر في كيف يكون الثدي أعور، فاقتنعتُ أن ذلك ترجع علّته إلى عاهة طبيعية بالغة، واتضح لي اتضاح النهار أنه ليس بين ذراعيّ، في أفتن امرأة استطعتُ أن أتصوّرها، إلا مسيخٌ قد رذلتْه الطبيعة والبشر والحبّ. وذهبتُ في الغباوة حدّ التحدث إليها في شأن ثديها الأعور. فتلقت كلامي، أول الأمر، تمزح، وذكرتْ لي، وهي على ما هي عليه من مرح، أموراً خليقة بأن تثيرني حقّاً. ولكن بقيتُ في قلق لم يسعني أن أخفيه عليها، فأبصرتُها قد احمرّ لونها فتهيّأتْ، فجلستْ، فاتجهتْ إلى نافذتها لم تتلفظ بحرف واحد. فأردتُ أن أقف إلى جنبها، فابتعدتْ واقتعدتْ بعضَ المتكآت، ثم نهضتْ فتمشتْ في المخدع تتروح وقالت لي بصوت بارد مزدر: «جانيتو دع النسوان وادرس الرياضيات»[39]

سألتُها، قبلما خرجتُ من عندها، أن تضرب لي موعداً للغد، فأجّلتْه إلى اليوم الثالث وقالت لي وهي تبتسم بتهكم إنني ربما كنتُ في حاجة إلى شيء من الراحة. فأمضيتُ وقتي ذلك وأنا على

(39) في الأصل بالإيطالية: Jannetto, lascia le donne, et studia la matamatica ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

انزعاج، تفعم قلبي ألوانُ سحرها وفتونها، وقد شعرتُ بغرابة سلوكي ولمتُ نفسي عليه وندمتُ أنني قد أسأتُ جداً استخدامي لأوقات كان وقفاً عليّ وحدي أن أجعلها أعذب أوقات العمر، فترقبتُ الموعد القادم أيَّ ترقب لكي أعتاض مما فات. ولكن، مع ذلك، لم أفتأ قلقاً يشغلني أن أوفّق بين جمال تلك الفتاة الرائعة وما هي عليه من قبح. فأسرعتُ بل طرتُ إلى منزلها في الساعة المعيّنة. وما أدري هل كانت تلك الزيارة تكون أكثر إشباعاً لمزاجها المتقد، ولكن على الأقل كان زهوها كذلك. فقبلما وصلتُ، طاب لي أن أتصوّرني وقد عبّرتُ لها، بمختلف الوسائل، كيف أعرف أن أُصلح أخطائي. ولكنها جنّبتْني هذه المشقّة، فإن الملاّح الذي بعثتُه إليها عند إرساء الغوندول حذو بيتها عاد يُبلغني أنها مضت البارحة إلى فلورنسا. وإذا كنتُ لم أشعر بمدى حبّي لها لمّا امتلكتُها، فلقد شعرتُ به شعوراً مؤلماً لمّا فقدتُها، لأن ندمي الذي لا فحوى له لم ينفصل عني يوماً. ولقد كنتُ أستطيع أن أتعزى عن فقدي إياها مع ما هي عليه من لطف وسحر؛ أما ما لم يسعني أن أتعزى عنه، وهو ما أقر به، فكوْنها لم تحمل عني سوى ذكرى احتقار.

هاتان هما حكايتاي. ولم تتح لي الثمانية عشر شهراً التي سلختُها في البندقية أن أذكر، فضلاً عما سلف، إلا شيئاً من هذا النحو يسيراً. كان كاريّو غزلاً؛ فأزعجه ألا يقصد غير فتيات قد ارتهنّ بسواه، وأَحبَّ أن يكون له فتاته، هو أيضاً. وكنا لا يفترق أحدنا عن الآخر، فاقترح عليّ حلاًّ قد شاع في البندقية وهو أن يكون لنا، نحن الاثنين، فتاة واحدة. فوافقتُ. فأصبح مدار الأمر أن تكون الفتاة مأمونة. فما زال يبحث حتى نبش فتاة صغيرة، تُراوح سنُّها بين الحادية عشرة والثانية عشرة، قد سعت أمها القبيحة لأن تبيعها. فمضينا إليها معاً. فلما وقعتْ عيني على تلك الطفلة، تأثرتُ

في الصميم. كانت شقراءَ وديعةً كأنها النعجة حتى إنك لا تخالها إيطالية على الاطلاق؛ والمعيشة في البندقية زهيدة النفقة. فأَعطينا الأم بعض الدراهم وقمنا بنفقة البنت. وكانت الطفلة جميلة الصوت، فأتيناها بكلافسان صغير وبمعلّم غناء لكي نعدّ لها موهبةً ذات مورد. فكاد ذلك أجمع لا يقتضي كل واحد منا غير دينارين في الشهر، كما أنه قد أعفانا، في ناحية أخرى، من نفقات هي فوق ذلك. ولكن كان لا بد أن ننتظر حتى تنضج الفتاة، ولا بد أن نزرع كثيراً قبْل أن نحصد. ولقد سرّنا أن نذهب إلى هناك، نسهر ونتحادث ونلاعب تلك الطفلة ملاعبةً هي في منتهى البراءة، وربما كان تَلهّينا وابتهاجنا أكثر منهما لو امتلكناها، لأن ما يشدّنا إلى النسوان هو ضربٌ من المعاشرة لهن أكثر مما يشدّنا إليهن الفجور. فأخذ قلبي يتعلّق بأنجوليته الصغيرة يحبّها شيئاً بعد شيء، لكنه تعلّقٌ أبويّ ليس فيه للحواس إلا قسط جد يسيرٍ، حتى إنني كنتُ كلما ازددتُ تعلّقاً بها، تعذّر عليّ أن أُشرك فيه حواسي؛ وشعرتُ بأني إن قاربتُ هذه الفتاة وقد بلغتْ، هالني الفعل وكأنني في نكاح محارم فظيع. ورأيتُ مشاعر كاريّو الطيّب قد مالت به، على غير علم منه، إلى مثل هذا الاتجاه. فأَتحنا لأنفسنا، ونحن على عفو البديهة، ملذات لا تقلّ حلاوة عما قد تمثّلناه أول الحال، وإن غايرتْه في كل حال. وإني لعلى يقين أن تلك الطفلة المسكينة مهما تصبح فيه من جمال، فلن نفسد براءتها، بل نبقيها في حمايتنا. إلا أن الكارثة التي حلّت بي بعد وقت قريب، لم تمكّني أن أشارك في ذاك الصنيع. ولستُ أطري نفسي من هذا القبيل إلا إطراءً لميولي القلبية. ولكن لنرجع إلى سفري.

لما برحتُ السيد دومونتيغو، كان غرضي الأول أن أنكفئ إلى جنيف أنتظر نصيباً أَفضل يتغلّب على العوائق فيجمعني، مرة أخرى،

twitter @baghdad_library

إلى ماما المسكينة. بيد أن أصداءَ تخالُفنا، أنا والسفير، والحماقة التي اقترفها إذ كتب في هذا الأمر إلى البلاط، قد حدتني على أن أشخص بنفسي إلى البلاط أبيّنُ حقيقةَ سلوكي وأشكو سلوك ذلك الأحمق. فأَرسلتُ إلى السيد دوتيْل الذي وُكلتْ إليه وزارة الشؤون الخارجية بعد وفاة السيد أمولو، أُبلغه ما قد اعتزمتُ. وسافرتُ في إثر رسالتي، فسلكتُ طريق برغام وكوم ودومود وسّولا، فعبرتُ ممرّ سامبلون. فلما كنتُ في سيون، حاسنني السيد دوشاينيون، القائم بأعمال فرنسا، أيّ محاسنة، كذلك حاسنني السيد دولاكلوزير في جنيف. فجدَّدتُ علاقتي بالسيد دو غوفكور، وكان لي دراهم ينبغي أن أتسلمها منه. وكنتُ قد مررتُ بنيون فلم أزر والدي، لا لأن زيارته قد شقَّت عليّ، بل لأنني لم أستطع أن أواجه زوجة أبي بعد الكارثة التي أصابتني، يقيناً مني بأن زوجة أبي ستَدينني قبْل أن تصغي إليّ. فلامني دوفيلار الكتبيّ، الصديق القديم لوالدي، على هذا الخطأ لوماً شديداً. فأبديتُ له سببه وأردتُ أن أصلح خطأي من دون أن أعرّض نفسي لأن ألقى زوجة الوالد، فاكتريتُ محفة وذهبنا معاً إلى نيون نريد المقهى. ومضى دوفيلار إلى أبي المسكين فأتى به، فخفّ إليّ يقبّلني، فتعشينا معاً، وأَمضينا سهرة حلوة طيّبة. ثم عدتُ في الغد إلى جنيف مع دو فيلار الذي حفظتُ، على الدوام، ما قد أسدى إليّ في تلك المناسبة من معروف.

ولم يكن مروري بمدينة ليون هو الطريق الأقرب، ولكن أردتُ أن أمرّ بها لكي أتحقق من أمر سرقة خسيسة أتاها السيد دومونتيغو. وذلك أنني كنتُ قد استحضرتُ من باريس سترة مزركشة بالذهب وبعض أزواج الأكمام وستة أزواج جوارب حريراً بيضاء، لا غير. فاقترح عليّ هو بنفسه أن أضيف هذا الصندوق، بل هذه العلبة، إلى أمتعته. ثم ذكر في البيان الحسابي الذي غلا فيه يريد أن يؤديه بدل

مرتباتي والذي رقمه بيده ـ ذكر أن تلك العلبة، وقد سمّاها بالةً، تزن أحد عشر قنطاراً، وحمّلني ثمناً لشحنها باهظاً. لكنِ السيد بوادو لاتور، وهو الذي وصّاه بي خاله السيد روغان، قد أُجري بعنايته كشفٌ تبيَّن منه، بالرجوع إلى سجلات الجمارك في ليون ومرسيليا، أن ما سمي بالة لا يزن إلا خمساً وأربعين ليبرة وأنه لم يؤد بدل شحنه إلا بالنسبة إلى هذا الوزن. فتناولت بيان الكشف الحقيقي فضممته إلى البيان الحسابي الذي وضعه السيد دومونتيجو، ثم شخصت إلى باريس وقد تزودت من تلك الوثائق ومن كثير غيرها مما يماثلها حجة وقوة إثبات، وكنت على أحر من جمر أريد أن أبرز تلك الوثائق. وجرى لي، في كوم وفاليه وفي سواهما، بعض يسير الأمور، وشاهدت عدة أشياء تستحق أن أصفها، ومنها جزر بوروميه. لكن الوقت يزحمني، والجواسيس تزعجني، فأنا مضطر إلى أن أتعجل في عمل يقتضي ما قد أعوزني من سعة الوقت والتفرغ والسكينة، وانا مضطر إلى أن أسيء هذا العمل. فإن التفتت إلى العناية الالهية فأتاحت لي أياماً أهدأ، وقفت أيامي تلك على أن أعيد كتابتي هذا المؤلف ـ إذا استطعت ـ أو، في الأقل، وقفتها على أن أضع ملحقاً أشعر أن بمؤلفي حاجة إليه ماسة(*)

وكانت قصتي قد سبقني صداها، فلما وصلت، رأيت جميع من في الدواوين والجمهور قد ساءتهم حماقات السفير. ولكن، مع ذلك، ومع اتفاق البندقية على إنكارها، ومع ما قد سقت من أدلة لا تدحض، لم أحصل على شيء من حقِّي، ولا عوضّت منه قط، بل ترك أمر مرتباتي لمشيئة السفير يتصرف فيه كما يريد لا لسبب إلا لكوني غير فرنسي، فلم تُحقَّ لي الحماية الوطنية إذ القضية بينه

(*) لقد تخليت عن هذا المشروع.

twitter @baghdad_library

وبيني قضية خاصة. ولقد وافقني الجميع على أنني قد أهنت، وعلى أنني قد بُخست حقي وساء حظي، وعلى أن السفير امرؤ غريب الطباع، قاس، ظالم، وعلى أن هذه القضية تشينه أبداً. ولكن ماذا؟ لقد كان هو السفير، أما أنا، فلم أكن إلا أمين السر. فشاء انتظام الأمور، أو ما يدعى هكذا، ألا أحصل على شيء من الحق، فلم أحصل على شيء منه. وخيل إليّ، لفرط ما قد اعترضت ولفرط ما قد وصفت جهاراً هذا الأحمق بما يستحق من وصف ـ خيل اليّ أنني سيطلب مني في النهاية أن أسكت، وهذا ما قد توقعته وأنا جدّ مصمم على ألا أمتثل إلا بعد أن تبت قضيتي. ولكن لم يكن يؤمئذ من وزير للشؤون الخارجية. فتُركت أعترض، بل وشُجّعت على الاعتراض وأجمع الناس عليه، بيد أن القضية وقفت عند هذا الحد، حتى لقد يئست في آخر الأمر فتركت كل شيء على ما هو فيه وقد أعياني أن أكون على حق ولا أتوصل إلى حقي أبداً.

وكانت مدام دوبيزنفال هي الشخص الوحيد الذي لم يستقبلني استقبالاً حسناً، وكانت آخر من توقعت منهم مثل هذه المَظلمة، فأفعمتها امتيازات الطبقة والأشراف حتى لم يسعها قط أن تتصور أن سفيراً ما قد يخطئ إذا اختلف هو وأمين سره. فكان استقبالها مطابقاً لحكمها المسبق هذا، فاستأت جداً حتى إنني لمّا خرجت من عندها، كتبت إليها رسالة هي من أعنف الرسائل التي ربما كتبتها يوماً، وعدت لا أزورها على الإطلاق، أما الأب كاستل، فقد كان استقباله لي أحسن، غير أني رأيته قد اتبع، من تحت الدهاء اليسوعي، قاعدةً مأثورة هي من أكبر قواعد تلك الرهبنة وقوامها التضحية بالأضعف من أجل الأقوى. فلم تدعني قوة شعوري بعدالة قضيتي ولا غباءتي الفطرية أن أكابد هذا الانحياز أصبر عليه. فانقطعت عن زيارة الأب كاستل، وانقطعت بالتالي عن الذهاب إلى

رهبنة اليسوعيين، ولم أكن أعرف منهم أحداً سواه. ثم إن روح الطغيان والكيد الذي لرصفائه [زملائه]، وهو مختلف غاية الاختلاف عن دماثة طبع الأب هيمه، قد أبعدني عن معاشرتهم حتى لم ألقَ، مذ ذلك الوقت، أحداً منهم عدا الأب برتييه الذي لقيته في دار السيد دوبان مرتين، أو ثلاث مرات، والذي كان يعمل مع السيد دوبان يبذل جهده ليعارض آراء مونتسكيو.

وبعد، فلنفرغ مما بقي علي أن أقول في السيد دومنتيجو، ولا نرجع إلى ذكره أبداً، وكنت قد قلت له يوماً، ونحن نتنازع، إنه لا يحتاج إلى أمين سر بل إلى كاتب قضائي. فأخذ برأيي، وعين خلفاً لي كاتباً قضائياً سرق، في ما يقل عن سنة واحدة، عشرين ألف ليرة، أو ثلاثين ألفاً، من مال السفير. فطرده واستصدر أمراً بحبسه، وطرد أشرافه، الذين كانوا في السفارة، وقد فضحهم وشهرهم بما فعلوا، وكان السفير حيث اتجه خاصم، فوجه إليه من ضروب الإهانة ما كان يأبى خادم أن يحتمل مثله، وانتهى به الأمر إلى أنه استدعي فعزل. والظاهر أن قضيتي معه لم يُغفل عنها بين ما وجه إليه من تأنيب في البلاط، لأنه، بعيد عودته، أرسل إلي كبير خدمه لكي يؤدي لي بقية حسابي وينقدني مالي، وأنا يومئذ في ضيق، وديوني بالبندقية قد أثقلت صدري، فإن كان في العالم ديون شرف، فإنما هي تلك الديون. فانتهزت الفرصة لكي أبرئ ذمتي منها ومن سند جانيتو ناني. فرضيت بما شاء السفير أن يؤديه إليّ، فوفيت ديوني كلها، فلم يبق لدي من درهم واحد، فعدت كما كنت عليه من قبل، ولكن خفّ عني حمل لم أطقه. ولم أسمع، مذ ذلك اليوم، بذكر السيد دومونتيجو، إلى أن مضى لسبيله فبلغني من الرأي العام أنه قد مات. أراح الله نفس هذا المسكين. لقد كان يصلح لمنصب سفير بقدر ما كنت أصلح لحرفة نقش الأختام. إلا أنه كان وقفاً عليه

twitter @baghdad_library

وحده أن يحفظ كرامته يستند إلى خدماتي له استناداً نزيهاً فيرقيني ترقيةً سريعةً في ما قد أعَدَّني له الكونت دوجوفون لمّا كنتُ شاباً، وذاك ما أصبحت خليقاً به من تلقاء نفسي عندما تقدمتُ في السن.

ثم إن عدالةَ ما رفعتُ من شكاوى وعدم جدواها قد خلّفا بنفسي بذورَ استنكار على مؤسساتنا المدنية الخرقاء التي فيها يضحّى بالمصلحة العامة الحقّ، وبالعدالة الحقّ في سبيل نظام لا أدري ما هو إلا أنه نظام يهدم كلَّ نظام، ويزيد السلطة العامة تأييداً لاضطهاد الضعيف ولتعسّف القوي. وحال أمران دون أن تنمو فيّ تلك البذور، يومئذٍ، على نحو ما نَمَتْ في ما بعد. أما أحد الأمرين، فهو أن تلك القضية قد اتصلتْ بي وأن المنفعة الخاصة، التي لم تصنع قط شيئاً عظيماً نبيلاً، لن يسعها أن تبعث في قلبي الفورات السامية التي لا يبعثها إلا أصفى الحبّ للحقّ والجمال. أما الأمر الآخر، فسحرُ الصداقة وهو الذي هدّأَ من غضبي إذ غلب عليّ شعور أرقّ وأَعذب. وكنتُ، وأنا في البندقية، قد تعرّفتُ ببيسكاويّ[40] صديق لصديقي كاريّو، خليق بأن يصادق كلَّ خيّر كريم. وكان هذا الشاب اللطيف، الذي فُطر على جماع المواهب والفضائل، قد طاف في إيطاليا يريد أن ينمي ميل ذوقه إلى الفنون الجميلة. فلما لم يتصوّر أن هنالك شيئاً آخر يحصّله، ابتغى أن يعود رأساً إلى وطنه. فقلتُ له إن الفنون الجميلة إن هي إلا وسيلةٌ تريحُ ذكاءً مثل ذكائه قد جُبل على دراسة العلوم، ونَصحتُ له أن يسافر إلى باريس ويبقى فيها ستة أشهر فيستطيب الفنون الجميلة. فصدّقني، فمضى إلى باريس. فلما وصلتُ إليها، كان هو ينتظرني هناك. وكان مسكنه فوق حاجته، فقدَّم إليَّ بعضه، فقبلتُ. ولقد ألفيتُ الشاب في حظوة المعارف العالية ولا

(40) نسبة إلى بيسكاي، أحد أقاليم إسبانية ـ المترجم.

شيء يتعذّر على متناوله، وكان يلتهم كل شيء فيستوعبه بسرعة عجيبة. ولكم شكر لي أن قد وفّرتُ لذهنه مثل هذا الغذاء! ولكم عذّبه العطش إلى المعرفة على غير شعور منه! وكم من كنوز أنوار وفضائل وقعتُ عليها في روحه الناشطة المتوقدة! فأدركتُ أن هذا هو الصديق الذي أحتاج إليه فبتنا إلفين حميمين. ولم نكن على تشابه أذواق، وكثيراً ما تجادلنا، فلم نتفق يوماً على شيء، إذ كلانا عنيد. ومع ذلك، لم نقوَ على أن نتفارق، وأبى كل منا، ونحن في استمرار تناقض، أن يكون أحد منا على غير ما هو فيه.

كان إينياسيو إمانويل دو ألتونا رجلاً من نوادر الرجال الذين تصنعهم إسبانيا دون غيرها فتصنع منهم أقلّ مما ينبغي أن تصنع بالقياس إلى مجدها. لم يُرزَق هو تلك الأهواء المحلّية العنيفة التي شاعت في بلده. وما كانت فكرة الثأر لتغشى روْعه فوق ما تُداخل الشهوةُ قلبه. كان أَشدَّ إباءةً من أن يحبّ الانتقام، وكثيراً ما سمعتُه يقول برباطة جأش بالغة إنه لا سبيل إلى مخلوق آدمي أن يهينه. فلطفَ من غير لين. ولاعب النساء كأنه يلاعب الأطفال. فاستطيب معشوقات أصدقائه، ولكن لم أرَ له معشوقة واحدة قط ولا لمستُ عنده من رغبة في ذلك. فإنّ لهيب الفضيلة المتأجج في قلبه لم يأذن للهيب الحواس أن يولد أبداً.

فلما أتمّ أسفاره تزوج، ثم مات وهو شاب، وخلّف أولاداً. وإني لعلى يقين مطلق أن زوجته هي المرأة الأولى الوحيدة التي عرّفتْه بملذات الحبّ. كان هو، في ظاهره، تقياً تقوى الإسباني؛ أما في داخله، فلقد كان وَرِعاً ورَعَ ملاك. وعدا نفسي أنا لم أعرف منذ أن وُجدت متسامحاً واحداً سواه. فلم يستعلم أحد رأيَه في موضوع الدين، ولا عناه أيهودياً كان صديقه، أم إنجيلياً، أم تركيّاً، أمْ من غلاة التدين، أم ملحداً، إلا عناية بسيطة، ما دام صديقه إنساناً

twitter @baghdad_library

كريماً. فإذا خالفتَ رأيه، عاد صلْبَ الرأي عنيداً، فما يصل الأمر إلى الدين، لا بل إلى الأخلاقيات، حتى يخشع هو فيصمت أو يكتفي بأن يقول: «أنا لست مكلّفاً إلا بنفسي أنا». ولستُ أتصوّر الإنسان وقد جمع بين هذا الشأو من السمو الروحي والنظرة التفصيلية حتى غاية التدقيق. وكان هو يبادر يومَه قبل حلوله، يقسّم أوقاته بالساعة وربع الساعة والدقائق، فيراعي ذلك التقسيم حقَّ المراعاة، فلو وافت الساعة المعيّنة وهو يقرأ بعض العبارات، لطوى الكتاب لم يواصل القراءة. وكان لتقسيمه يومَه على هذا النحو وقتٌ لدراسة كذا وكذا، ووقتٌ لدراسة غير هذا؛ فوقتٌ للتفكير، ووقتٌ للتحدث، ووقتٌ للصلاة، ووقتٌ للوك[41]، ووقتٌ للسبحة الوردية، ووقتٌ للموسيقى، ووقتٌ للرسم؛ فما من لذة ولا من غواية ولا من مراعاة يمكنها أن تغيّر هذا النظام. وكنتُ إذا وضع لي لائحة أوقاته وقد قسّمها لكي أتقيد بها، ابتدأتُ أضحك ثم انتهيتُ إلى أن أبكي إعجاباً. ثم إنه لم يزعج أحداً قط ولا احتمل قط أن يزعجه أحد؛ ولقد كان يعنّف من يريدون إزعاجه تأدّباً منهم وتهذّباً، ويهبّ حانقاً، لكنه لا يحرد. وكثيراً ما رأيتُه وقد غضب، إلا أني لم أَره يوماً وقد استاء. فلا شيء كمزاجه مرَحاً: فهو يُحسن التهكم ويحبّ أن يتهكم، بل هو متهكم لامع. ولقد أُوتي موهبة النظم هجواً. وكان إذا أَثرتَه، جلّب وصاح فسُمع صوته من بعيد. ولكن بينما هو قد جلّب، إذا به قد ابتسم، فسنحتْ له، من خلال فورانه، كلمةٌ مرحة قد أطلقت الجميع. ولم يكن لون بشرته أوفَر انتساباً إلى الإسبانيين من هدوء طبعه. كان أبيض البشرة، متورد الخدّين، كستنيّ الشعر إلى ما يداني الشقرة، عالي القمة، حَسنَ الهيئة، فتكوَّنَ جسدُه ليؤوي نفسه.

(41) أي لوك الفيلسوف (1632-1704) ـ المترجم.

هذا الحكيم، قلباً وعقلاً، كانت عنده خبرة بالناس فصادقني. وإني بهذا أردّ على من ليس لي بصديق. ولقد تمكنتْ بيننا أسباب الإلفة، حتى إننا صممنا أن نتعايش بقية العمر. فقرّرنا أن أمضي إلى أزكويتيا بعد بضع سنوات فأقيم وإياه على أرضه هناك. ووضعنا، ليلةَ سافر صديقي، جميع تفصيلات المشروع، فليس هناك شيء منقوص في هذا المشروع سوى ما أمْره ليس في نطاق إلى البشر حتى في أفضل المشروعات انبناء على المشورة. بيد أن الأحداث التي جرت بعد ذلك ـ مصائبي، وزواجه، فموته ـ قد فرّقتْ ما بيننا إلى أبد الدهر.

فكأن لا فوز إلا لدسائس الأشرار الخبيثة، أما مشروعات الخيّرين البريئة، فتكاد لا تتحقق في يوم من الأيام.

فلما شعرتُ بآفة التُبّعيّة، عزمتُ ألا أعرّض لها نفسي البتة. ولما رأيتُ بعض مشروعات الطموح قد أخفقتْ مذ أبصرت النور بعد أن كنتُ قد أُتيحَ لي ما حداني على وضعها، ولما كرهتُ أن أعود إلى سلك العمل الذي كنتُ قد بدأتُه بداْةً حسنةً جداً وعُزلتُ عنه مع ذلك، صممتُ ألا ألتحق بأيّ شخص كان، وصممتُ أن أظلّ مستقلاً أنتفع بما عندي من مواهب أخذتُ، في آخر الأمر، أدرك مداها. وكنتُ، إلى ذلك الوقت، قد نظرتُ إليها نظرة غالت في التواضع. فعدتُ إلى تأليفي في الأوبرا، وكنتُ قد توقفتُ عنه حين ذهبتُ إلى البندقية. ولقد رجعتُ إلى فندقي السالف، فندق سان كانتان، فسكنتُ فيه؛ ويقع في حي منفرد غير بعيد من لوكسمبورغ، وكان موقعه أشدّ ملاءمة لعملي من شارع سانت هونوريه الكثير ضجيجه. فانتظرتُ هنالك التعزية الوحيدة التي أذاقتنيها السماء وأنا في بؤسي والتي لولاها لم أحتمله. وما هذه التعزية بتعارف عابر، وإنما ينبغي أن أفصّل كيف جرى هذا التعارف.

twitter @baghdad_library

كان قد أصبح للفندق صاحبة جديدة هي من أورليان. فاستخدمتْ فتاةً من بلدها سنُّها بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، ووكلتْ إليها رفءَ الثياب والملابس الداخلية. وكانت الفتاة تأكل معنا هي وصاحبة الفندق. وكانت الفتاة، واسمها تيريز لوفاسّور، من أُسرة كريمة، وكان أبوها موظفاً في مالية أورليان، وكانت أمها بائعة، وقد رُزقا أولاداً كثيرين. فلما تدهورت مالية أورليان، بات الأب على الحضيض؛ أما الأم، وقد أفلستْ مراراً، فإنها أساءت التصرف في أعمالها، فهجرت التجارة وأتت باريس مع زوجها وابنتها التي بعملها قامت بأودهم جميعاً.

والمرة الأولى التي ظهرت فيها لناظري تلك الفتاة، ونحن على مائدة الطعام، بلغتْ مني هيئتُها المتواضعة، وبلغ مني، على الأخص، نظرُها المتقد العذب الذي لم يكن له عندي من نظير. وكان على المائدة عدة كهنة إرلنديين وغاسكونيين وسواهم من مثل هذا الطراز، فضلاً عن السيد دوبونفون. وكانت صاحبة الفندق قد عاشت، هي نفسها، عيشة خفة وطيش. فلم يكن ثمة أحد غيري في حشمة قول وسلوك. فحاولوا إغراء الفتاة، فحاميتُ عنها. فلم تلبث أن انهالت عليّ الكلمات اللاذعات، وحتى إذا لم يكن عندي بالطبع ميل قط إلى تلك الفتاة المسكينة، لكان من شأن رأفتي بها ومنزعي الاحتجاجي أن يولد عندي ذلك الميل. ولقد أحببتُ، على الدوام، استقامة السلوك والحديث، ولا سيما مع النساء. فغدوتُ، علناً، محامي تلك الفتاة، وألفيتُها قد أثّرت فيها عنايتي بها، فازدادت عيناها اتقاداً وقد ذكّاهما عرفانها جميلي، عرفانها الذي لم تجرؤ على أن تفصح عنه بالكلام.

كانت ذات حياء شديد، وكنتُ أنا كذلك أيضاً. ومع ذلك، فسريعاً ما نشأتْ بيننا العلاقة التي بدا أن حياءنا المشترك قد أَبعدها.

فغضبتْ صاحبة الفندق غضباً شديداً إذ انتبهتْ للأمر، فزادت شراستُها في تمتين علاقتي بالفتاة التي إذ لم يكن لها في البيت من سندٍ غيري، كان يشقّ عليها أن أخرج، ثم تتنهد بعد رجوع حاميها. فما لبثتْ علاقتنا القلبية وميولنا المشتركة أن أتت بنتيجتها المعهودة. فوجدت الفتاة فيّ رجلاً نزيهاً كريماً، فلم تخطئ في رأيها. ووجدتُ فيها فتاةً حساسة بسيطة على غير دلال، فلم أخطئ في رأيي. فقلتُ لها، منذ أول الشيء، إنني لن أتخلى عنها ولن أتزوجها يوماً. فكان الحبّ والتقْدير والصدق الساذج عوامل انتصاري، فسعدتُ ولم أُقْدم لأنها كانت ذات قلب حنون نزيه.

لكن خوفها من أن يسوءني ألا أصيب عندها ما اعتقدت أني أبتغيه منها قد عاق سعادتي أكثر مما عاقها أيّ شيء آخر كان. فرأيتُها حائرة خجلى قبلما استسلمتْ، تريد أن أَفهمها، ما تجرؤ على أن تبيّن شأنها. فلم أفطن لحقيقة سبب ارتباكها، بل تمثّلتُ له سبباً خطأً يمتهن أخلاقها. حتى إذا خلتُها تُنبّهني على أن في ذلك مخاطرة بصحتي، ترديتُ في حيرة لم تحبسني عن ذلك بل سمّمتْ سعادتي عدة أيام. فلم نتفاهم، فأمسى تحادثنا بهذا الأمر ضرباً من الأحاجي والألغاز فحسبتْني أحمق مجنوناً. أما أنا، فلم أدر ماذا أرى فيها. ثم تفاهمنا آخر الحال: فأقّرت لي، وهي تبكي، بذنب وحيد ارتكبتْه في أول حداثتها ثمرةَ جهلها وبراعة أحد الغواة. فما إن فهمتُ ذلك حتى صحتُ فرحاً، قلتُ: «البكارة! إنها تُطلَب في باريس، إنها تُطلَب من العشرين ربيعاً! آه! تيريز، عزيزتي، إنني لجد سعيدٍ بأن أمتلكك رزينةً سليمةً وبأن لا أقع عندك على ما لم أَطلب».

وما طلبتُ، بادئ بدء، إلا أن أتلهى. فألفيتُني قد أَتيتُ ما يجاوز التلهي واتخذتُ لي رفيقة. فلما أَلفتُ تلك الفتاة الممتازة بعض الإلفة، ولما فكرتُ في حالتي بعض التفكير، أدركتُ أنني، إذا

twitter @baghdad_library

لم أتوخَ غير ملذاتي، قد أسديتُ إلى سعادتي الشأنَ الوفَير. وذلك أنني احتجتُ، يومئذٍ، إلى شعور متقد يفعم قلبي ويحلّ محل الطموح الذي خبتْ ناره. وفحوى القول أنني قد احتجتُ إلى من تَخلف ماما، وما دمتُ لن أعايش ماما، فإنّ بي احتياجاً إلى من تعايش مريدها، فألقى عندها ما قد لقيتْ عندي ماما من بساطة القلب وانقياده. ولقد حَقَّ على عذوبة الحياة المنزلية الخاصة أن تعيضني من المصير المتألق الذي تخليتُ عنه. وعندما أكون وحيداً وحدة مطلقة أكون فارغ القلب، فلم يعوزني إلا قلبٌ يملأ قلبي. وكان القدَر قد انتزع مني القلب الذي صنعتني الطبيعة لأجله والذي انتزعه مني القَدَرُ انتزاعاً جزئيا. فأصبحتُ وحدي من ذلك الوقت، إذ لم أكن يوماً على حدٍّ وسط بين كل شيء ولا شيء. فوجدتُ في تيريز الخلَف الذي قد أعوزني، فعشتُ سعيداً ما أمكنني مجرى الأحداث أن أسعد.

فأردتُ، أول بدء، أن أُكَوّن ذهنها، فأضعتُ جهدي. وذلك لأن ذهنها هو ما قد فطرتْها عليه الطبيعة، أما التثقيف والاعتناء، فلا يجديان. ولستُ يخجلني أن أقرّ بأنها لم تحسن القراءة يوماً، وإن تكن كتابتها هي بين بين. فلما مضيتُ أقيم في شارع نوف ديه بتي شان، وكان على جدار فندق بونشارتران، تجاه نوافذي، ساعةٌ اجتهدتُ، مدةَ تُربي على الشهر، أن أعلّم تيريز أن تعرف في أي ساعة من الوقت نحن. لكنها إلى اليوم لا تكاد تعرف في أي ساعة من الوقت نحن. ولم يمكنها قط أن تتبع تَسلسُلَ الاثني عشر شهراً. كما أنها لا تعرف أيّ رقم كان، على ما قد بذلتُ لكي أدلّها إلى الأرقام. ثم إنها لا تعرف أن تعدّ الدراهم وتجهل ثمن كل شيء. أما الكلمة التي تسنح لها حين تنطق، فكثيراً ما تكون على ضد ما تريد أن تقول. وكنتُ، في ما مضى، قد وضعتُ معجماً لعباراتها لكي

أضحك مدام دولوكسمبورغ. وأما ظنُّها الأمرَ على غير ما هو فيه، فلقد اشتهر في المنتديات التي عاشرتُ. بيد أن هذه المرأة المحدودة الفهم، بل الغبية إن شئتَ، هي مستشارة ممتازة أيامَ الشدائد. وكثيراً ما تبينتْ في المحن التي أصابتني، إذ نحن في سويسرا وإنجلترا وفرنسا، ما لم أتبينه أنا نفسي، فمحضتْني أفضلَ الآراء التي ينبغي أن آخذ بها وانتشلتْني من الأخطار التي أَلقيتُ فيها نفسي بلا تبصّر، كما أن مشاعرها وسلامة حسّها وأجوبتها وسلوكها أمام سيدات أرقى الطبقات وأمام العظماء والأمراء قد أكسبتْها تقدْير الجميع وأكسبتْني تهنئات بمزاياها شعرتُ بأنهن تهنئات صادقات.

وإذا كنتَ حيال من تحبّهم، فقد غذّى شعورُك الذهنَ منك والقلبَ وقلما احتجتَ إلى أن تبتغي لك أفكاراً خارج هذا النطاق. فعايشتُ تيريز وكأني قد عايشتُ أعظم عبقري في الدنيا. وكانت أمها، وقد اعتزتْ بها نشأتْ في جوار المركيزة دومنبيبو، تمثّل دور المرأة صاحبة الذهن المتحذلق، فأرادت أن توجّه ذهن ابنتها، فأفسدتْ بمكرها بساطةَ علاقتنا. وساعدني انزعاجي منها على أن أتغلب بعض التغلب على غباوة حيائي من أن أَظهر مع تيريز أمام الناس. وكنا نذهب وحدنا في نزهات ريفية قصيرة ووجبات لوقت العصر بسيطة شهية. فتبيَّن لي أَنها قد صدقَتْني الحبّ. فتضاعفَ حناني. فقامت هذه العلاقة مقام كل شيء، وأصبحتُ لا يعنيني المستقبل، أو أصبحتُ لا يعنيني أمره إلا بقدْر ما هو ديمومة لليوم الحاضر، وبتُّ لا أرغب إلا في أن أضمن استمراره.

فأراني هذا الحبُّ كلَّ هوًى سواه تافهاً لا طائل تحته. فأمسيتُ لا أخرج إلا لكي أذهب إلى تيريز، فكاد منزلها يغدو بيتي. ونفعتْ عيشةُ الخلوة هذه عملي، حتى إنني أَنهيتُ، في ما يقلّ عن ثلاثة أشهر، تأليف الأوبرا كلماتٍ وألحاناً. ولم يبقَ إلا بعض المصاحَبات

twitter @baghdad_library

والإيقاعات. فأزعجني أن أقوم بها، فاقترحتُ على فيليدور أن يتولاها فأُشركُهُ في الربح. فأتى مرتين فأجرى في فصل أوفيدوس بعض الإيقاعات، بيد أنه لم يسعه أن يرتهن بهذا العمل المضني، والربحُ بعيدُ الأجل بل غير مضمون. فلم يرجع فيليدور، فأكملتُ بنفسي هذا العمل.

فلما أنجزتُ الأوبرا، أصبح مدار الشأن أن أنتفع بها، وهذا الشأن هو أوبرا أصعب جداً من تلك. فالإنسان، في باريس، لا سبيل له إلى شيء، إن كان يعيش فيها عيشة العزلة. ففكرتُ أن أعتمد على السيد دو لا بوبلينيير من أجل أن أظهر، وكان السيد دوغوفكور قد جاء بي إلى بيت السيد دولا بوبلينيير فعرّفني إليه، وكان هذا نصير رامو، وكانت مدام دولا بوبلينيير تلميذته المتواضعة، وكان لرامو في ذلك البيت الحلّ والربط على حسب ما يقال. فأردتُ أن أَعرض عليه مؤلَّفتي الموسيقية اعتقاداً مني أنه يطيب له أن يتولى بعطفه مؤلَّفةَ تلميذ من تلاميذه. فأبى أن ينظر فيها وقال إنه لا يستطيع أن يقرأ تقسيمات موسيقية وإنّ هذا يتعبه كثيراً. فعندئذٍ قال لابوبلينيير إنه يمكن إسماع رامو هذه الأوبرا، وتبرَّعَ بأن يجمع لي بعض الموسيقيين لكي يؤدوا أجزاءً منها، فلم أبتغ خيراً من ذلك. فوافق رامو وهو يغمغم ولا يفتأ يقول إن هذه الأوبرا، لا شك، رائعة ألَّفها شخص من غير أهل الفن قد تعلّم الموسيقى وحده. فأسرعتُ أنتخب منها خمس فقرات، أو ستاً. وجيء لي بزهاء عشرة عازفين وثلاثة منشدين هم ألبير وبيرار والآنسة بوربونوى. ومنذ الافتتاحية، ابتدأ رامو يغلو في مدحي يقول إن هذه الأوبرا لا يمكن أن تكون من تأليفي. ولم يدَع فقرة تمرّ إلا أبدى دلائل على نفاد صبره، لكنه لما سمع لحناً جهير الصوت بعيداً مدوياً، على مصاحبة موفَّقة، لم يبقَ في وسعه أن يتمالك، فخاطبني بشراسة ساءت الجميع يؤكّد أن

بعض ما سمعه قد ألَّفه امرؤ متبحر في الفن وأن سائر ما سمعه قد ألَّفه جاهل حتى بالموسيقى. والواقع أن مؤلَّفتي، التي لا قاعدة لها ولا تعادُل فيها، كانت حيناً جليلةً، وحيناً سهلة سطحية، فكان شأنها شأن عمل من لا تعلو به وثبات العبقرية ولا تؤيده أسباب المعرفة. وزعم رامو أنه لم يرَ فيّ إلا سارقاً لا موهبة عنده ولا ذوق. أما الحاضرون، ولا سيما ربّ البيت، فقد خالفوا هذا الرأي. ثم إن السيد دوريشليو، وهو يومئذٍ كثيرُ التردد إلى السيد دولا بوبلينيير وقرينته، قد سمع بمؤلَّفتي، فأراد أن يصغي إليها كلها، فإذا راقته، نوى أن يدعو إلى تأديتها في البلاط. فأدّت الأوبرا الجوقة كلها والعازفون، وذلك على نفقة الملك وفي بيت السيد دوبونفال ناظر الملاهي. وكان فرنكور يدير العزف، وكان الوقع مدهشاً، والدوق لا يفتأ يصيح ويصفق. فلما كانت نهاية بعض الأناشيد في فصل لوتاسيوس، نهض الدوق فاتجه نحوي، فصافحني، فقال: «سيد روسو، هذي ألحان تؤثّر وتثير. فما سمعتُ قط ألحاناً أجمل منها. سأدعو إلى تأدية هذه الأوبرا في فرساي». وكانت مدام دولا بوبلينيير حاضرة فلم تنطق بحرف. أما رامو، فأبى أن يحضر، وإن يكن قد دعي. فلما كنا من الغد، استقبلتْني مدام دولا بوبلينيير في حجرة لبسها وتَزَيّنها استقبالاً جافاً، وتعمّدت الحط من مؤلَّفتي، وقالت لي إن السيد دو ريشليو قد عاد عن رأيه وإن تكن قد أدهشتْه بعضُ ألحاني الساطعة الخادعة؛ ثم قالت إنها تنصح لي ألا أعوّل على هذه الأوبرا. ووصل الدوق بعيدئذٍ، فكلّمني كلاماً يغاير ما قالت لي، وأطرى على مواهبي وبدا لي أنه ما يزال على استعداد لأن تؤدى مؤلَّفتي بين يدي الملك. وقال إنه ليس في الأوبرا ما لا يمكن جوازه بالبلاط إلا فصل لوتاسيوس، فينبغي تأليف فصل غيره. فما إن سمعتُ هذه العبارة حتى لزمتُ داري فألّفتُ، في مدة ثلاثة أسابيع، فصلاً آخر بدلاً من فصل لوتاسيوس موضوعه هيزيودوس قد ألهمتْه

twitter @baghdad_library

إحدى عرائس الشعر[42] فاستطعتُ أن أجعل في هذا الفصل شيئاً من سيرة مواهبي والحسد الذي شرّفها به رامو. فكان في الفصل الجديد سموٌّ هو أقلُّ فخامةً من فصل لوتاسيوس وأحسن حبكاً. كما أن الموسيقى ظلت على رفعتها وفاقت سابقَتها صنعاً وإحكام تأليف؛ ولو أن الفصلين الآخرين عادلا هذا الفصل، لكانت مؤلَّفة الأوبرا بأجمعها ساعدتْ على أن يمكن تمثيلها. ولكن بينما قد أنهيتُها، إذ أَوقفَ شاغلٌ آخرُ هذا التمثيل.

فلقد أُقيمت في فرساي، في الشتاء الذي تلا معركة فونتنوى، حفلات كثيرة، ومن بينها عدة مؤلَّفات أوبرا في مسرح بوتيت إيكوري. وكان في عدادها أوبرا فولتير «أميرة نافار»[43]، وقد وضع رامو ألحانها وهي الأوبرا التي كانت قد غُيّرتْ ونُقّحتْ فأصبح عنوانها «أعياد رامير»[44] فاقتضى هذا الموضوع الجديد عدة تغييرات في بعض فقرات الموضوع السابق، أفي الشعر كانت أم في الألحان. فأمسى مدار الأمر أن يهتدى إلى من يضطلع بهذا العمل ذي الشقين، وفولتير يومئذٍ في بلاد اللورين وهو ورامو في شغل بأوبرا «هيكل المجد»[45]، فلم يسعهما العناية بأوبرا «أعياد رامير»، ففكر السيد دوريشليو فيّ فبعث يقترح عليّ أن أتولى هذا العمل، وأَرسلَ إليّ بشعر الأوبرا وبموسيقاها كلٍ منهما على حدة لكي أفحص عما يجب إتيانه من هذا القبيل فحصاً أَفضلَ. فأَبَيتُ، في أول كل أمر، أن أغير شيئاً من الكلمات ما لم يوافق المؤلّف؛ وكتبتُ إليه في هذا الشأن

---

(42) هيزيودوس شاعر يوناني من القرن الثامن قبل الميلاد مؤلف ديوان **الأعمال والأيام** (*Travaux et jours*) ـ المترجم.

(43) أميرة نافار (La princesse de Navarre) ـ المترجم.

(44) أعياد راميو (Les fêtes de Ramire) ـ المترجم.

(45) هيكل المجد (Le temple de la Gloire) ـ المترجم.

رسالة هي في غاية الأدب والاحترام على النحو الذي يليق. وهذا هو جوابه عنها، وأصلُ الجواب في الرزمة أ، رقم 1:

15 كانون الأول 1745

"لقد جمعتَ، سيدي، موهبتين هما إلى اليوم منفصلتان. فكفى بهما سببين لأقدرك وأبتغي مودتك. ثم إني من أجلك أنت قد أسفتُ أنك استخدمتَ هاتين الموهبتين لعمل لا يليق بهما كثيراً، وكان الدوق السيد دوريشليو قد أمرني، لبضعة أشهر خلتْ، بأن أضع، في طرفة عين، مخططاً يسيراً رديئاً لبعض المشاهد التافهة الناقصة، على أن تضاف هذه المشاهد إلى بعض المقاطع التي لم تُصنَع لها. فامتثلتُ إلى أقصى حدود الامتثال، فصنعتُ ما عُهد إليّ فيه صنعاً خاطفاً جد رديء، ثم أَرسلتُ إلى الدوق السيد دو ريشليو بهذا المخطط السخيف اعتقاداً مني أنه لن يستخدَم أو أنْ سأُصلحه. وفي حُسن الحظ أنه بين يديك؛ فإنك أنت سيده المطلق. ولقد غاب عني جماعُ أمره غياباً شاملاً. ولا ريب عندي أنك قد صححتَ كل الأخطاء التي فاتتني حتماً إذ تعجلتُ في وضع هذا المخطط البسيط أيّ تعجل، ولا ريب أنك قد ملأتَ منه كل نقص.

«ثم إني أوردُ، في جملة النقائص، أنه لم يُذكَر، في المشاهد التي تصل ما بين المقاطع، كيف كان أن الأميرة غريناديين قد انتقلتْ فجأةً من أحد السجون إلى بعض الحدائق أو القصور. ويبدو لي أن لا شيء، ههنا، ينبغي أن يجري بضرب من السحر، لأن المحتفي بالأميرة ليس بساحر، بل هو من أشراف إسبانيا. فأرجو منك، سيدي، أن تعيد النظر في هذا الموضع الذي ليس عندي إلا صورة عنه غامضة. فإذا وجدتَ أنه يجب أن يُفتَح باب السجن وأن تمرّ أميرتنا من السجن إلى قصرٍ مزيّن جميل قد أُعدَّ لأجلها، فافعلْ. وإني أعلم أن ذلك أجمعَ شيء جد سخيف، وأعلم أنما دون

twitter @baghdad_library

مستوى الكائن الناطق أن يؤلّف بتلك السخافات شيئاً رصيناً؛ لكن القصد هو أن يثير ذلك كلُّه أقلَّ ما يمكن أن يثير من سخط، فوجب أن نضع فيه أكثر ما يمكن وضعه من حكمةٍ وسلامة رأي، ولو في مقطع للأوبرا رديء.

إنني أَوكل إليك وإلى السيد بالّو الأمر بأجمعه، وأرجو أن أتشرف عما قريب أن أزجي إليك شكري وأؤكّد لك تشرفي بأن أكون إلخ».

فلا تعجبْ لما انطوت عليه هذي الرسالة من أدب رفيع إذا قابلتَها بسائر الرسائل التي انطوت على بعض سوء الأدب والتي كتبها إليّ مذ ذلك الوقت. فلقد حسب أن لي عند السيد دوريشليو حظوة بالغة؛ كما أن مرونته الممالقة التي أُثرتْ عنه قد اضطرته أن يراعيني، وأنا القادم الجديد، جمَّ المراعاة، إلى أن يصبح أوفى علماً بمبلغ حظوتي.

فأَقبلتُ على هذا العمل وقد أَذن لي فيه السيد دوفولتير وقد استغنيتُ عن كل قدْر مني لرامو الذي لم يبتغ إلا أذيتي، فأنجزتُ العمل في مدة شهرين، واقتصرتُ فيه، من حيث النظم، على شيء يسيرٍ وتوخيتُ ألا يبدو الفرق بين الأسلوبين، فأقنعني الغرور بأنني قد وُفّقتُ. أما من حيث الموسيقى، فقد كان عملي أطول وأشقّ. فالإلقائيّة، التي عُهد بها إليّ، هي على منتهى الصعوبة، إذ كثيراً ما وجب، بأبيات قليلة ألحان سريعة، وصلُ الأنغام بأصوات المنشدين على نغمات جد متباعدة، وذلك لأنني لم أشأ أن أغيّر من موسيقى رامو أيّ لحن كان ولا أن أنقله من موضعه إلى موضع آخر لئلا يتهمني رامو بأني شوَّهتُ موسيقاه، فضلاً عن أنه قد وجب أن أضع عدة فقرات فخمة ومنها الافتتاحية؛ فوفّقتُ في تلك الإلقائية. فكانت بليغة الأداء، متفجرة الأنفاس، وكانت، على الأخص، في تمام

حُسن التنغيم والتوقيع. فإن فكرة الرجلين المتفوقين، وقد أُشركتُ فيها تنازلاً منهما، قد سمتَ بعبقريتي حتى ليسعني القول إنني، في معظم الأحوال، قد بقيتُ على مستوى المثالَين في شغلٍ عديم الشكور والجزاء ولا فخر يُبتغى منه، بل ولا يمكن الجمهور يكون على علم بما يجري فيه.

ولقد أُقيم التمرن على المؤلَّفة بمسرح الأوبرا الكبير. فكنتُ، من بين المؤلفن الثلاثة، أنا وحدي الذي حضر، إذ كان فولتير غائبا، أما رامو فلم يأت أو قل قد اختبأ.

وكانت كلمات المونولوغ الأول قاتمة شجية. وهذا مطلعها:

«أيها الموت! تعالى واختم آلام حياتي».

فكان لا بد من وضع ألحان تلائم الكلمات. وهذا ما بنتْ عليه مدام دولابوبلينيير اعتراضها تتهمني بأنني قد وضعتُ ألحاناً جنائزية، وانطوى قولها على قسط وافر من المرارة. فابتدأ السيد دو ريشليو يسأل في روية عمَّن نظم أبيات هذه المونولوغ. فقدّمتُ إليه المخطوط الذي كان هو قد بعث به إلي والذي يشهد أن الأبيات لفولتير. فقال: «أما والحالة هذه، فإن فولتير وحده على خطأ». لكن مدام دو لا بوبلينيير لم تفتأ، وهي في أثناء التمرن على الأوبرا، تعارض كل ما هو من صنعي فيها، والسيد دوريشليو لم يفتأ يسوّغه. فكنتُ حيال خصم شديد، فأُفهمتُ أن في عملي عدة أشياء يجب أن أنقحها وأشاور فيها رامو. فساءتني هذه النتيجة وقد توقّعتُ الثناء واستحققتُه ولا ريب. فعدتُ إلى منزلي كسير القلب، حزيناً. فمرضتُ وقد أنهكني التعب وافترستْني الكآبة، فلم أَقوَ على أن أخرج من البيت إلا بعد ستة أسابيع.

ثم إن رامو، إذ عُهد إليه في التغييرات التي أشارت إليها مدام

twitter @baghdad_library

دولا بوبلينيير، قد بعث يسألني افتتاحية أوبراتي الكبرى لكي يحلّها محل الافتتاحية التي كنتُ قد وضعتُها آخراً. فكان في حُسن الحظ أنْ قد شعرتُ بالحيلة، فأبَيتُ ما سألني. ولم يكن يفصلنا عن موعد عرض الأوبرا إلا خمسة أيام، أو ستة، فلم يتسع الوقت لرامو كي يؤلّف افتتاحية، فكان لا بد أن أدَع له افتتاحيتي، وهي على الطريقة الإيطالية، وأسلوبُها يومئذٍ جديد في فرنسا. ومع هذا استحسنها الناس، فأبلغني السيد دو فالماليت، كبيرُ خدم الملك وصهرُ السيد موسّار نسيبي وصديقي، أن الهواة قد سرّهم عملي وأن الجمهور لم يميزه عن تأليف رامو. ولكن رامو اتفق مع مدام دو لا بوبلينيير على أن يعمد إلى بعض الإجراءات كي لا يُعلَم أنني صنعتُ في تلك الأوبرا. فالكراريس، التي تُوزَّع على المشاهدين والتي تُذكَر فيها، على الدوام، أسماءُ المؤلّفين، لم يُذكَر فيها إلا اسم فولتير، إذ آثر رامو أن يُحذَف اسمه على أن يُشرَك به اسمي.

فما إن أصبحتُ قادراً على أن أخرج من البيت حتى أردتُ زيارة السيد دوريشليو. ولكن كان قد فات الأوان، فالدوق قد ذهب إلى دنكرك يقود حملة إنزال الجيوش في سكوتلندة. فلما عاد، قلتُ في نفسي أُسوّغُ كسلي إن الأمر قد مضى وقته. فلم أَلقَ الدوق مرةً أخرى قط، فحُرمتُ الشرف الذي حُقَّ لعملي، والأجرةَ التي تنتج منه، فبات وقتي وشغلي وحزني ومرضي والدراهم التي اقتضاني هذا المرض، بات ذلك بأجمعه على نفقتي، فلم يدخلني فلسُ ربح واحد، بل لم يدخلني أيّ تعويض كان. ولكن لاح لي، في كلّ حال، أن السيد دو ريشليو قد مال إليّ عفواً وقدر مواهبي، إلا أن سوء حظي ومدام دولابوبلينيير قد حالا دون أن أنعم بشيء من حُسن نية الدوق.

لم أستطع أن أفهم لمَ كرهتْني تلك المرأة وقد اجتهدتُ في

إرضائها واطّردتْ مغازلتي لها. ففسّر لي غوفكور الأسباب، قال: «أولُ سبب صداقتها لرامو الذي يتقلّب في كنف إطرائها والذي لا يطيق أن ينافسه أحد؛ ثم خطيئةٌ عندك أصلية تدينك بها تلك المرأة ولن تغفرها لك أبداً، وهي أنك من جنيف». وعلى هذا فسّر لي غوفكور أن الأب هوبير، الجنيفي، الصديق المخلص للسيد دولا بوبلينيير، قد بذل جهده كي يمنعه من أن يتزوج تلك المرأة التي كان الكاهن يعرفها حقّ المعرفة، وذكر لي أنها، بعد الزواج، قد حقدتْ على الأب هوبير حقداً لا يشفى، وحقدتْ أيضاً على سائر الجنيفيين. ثم قال: «ولئن صادقك لابوبلينيير، على ما أَعلم، فلا تعتمدْ على مساعدته. فإنه مغرَم بزوجته التي تكرهك، وإنها لامرأة خبيثة بارعة، فلن يسعك أن تعمل في هذا البيت شيئاً». فأخذتُ بما قاله لي.

ولقد أسدى إليّ غوفكور هذا، في الوقت عينه، خدمةً كنتُ في حاجة ماسة إليها، إذ فقدتُ والدي الفاضل وقد ناهز سنته الستين. فكان شعوري بهذه الخسارة أقلّ منه في أوقات أخرى شغلني فيها ارتباك أموري أَقلّ مما قد شغلني وقتئذٍ. ولم أشأ، قبْل ذلك، المطالبة بما بقي من حصة أمي ما دام أبي في هذه الدنيا، لأنه كان ينتفع بدخل هذه الحصة. فلما توفي، لم يثنني عن المطالبة شيء. بيد أن فقدان الدليل الشرعي على وفاة شقيقي نشأتْ عنه صعوبة تولى غوفكور حلّها فوفّق في هذا الحل بفضل مساعي دو لورم المحامي. ولقد كنتُ في أمسّ حاجة إلى هذا المورد الزهيد، وكان أمره موضع ارتياب، فانتظرتُ النبأ النهائي الحاسم وأنا في غاية التوق. حتى إذا رجعتُ إلى المنزل مساء، وقعتُ على الرسالة التي تضمنتْ هذا النبأ. فتناولتُها أريدُ أن أفضّها وقد ارتجفتُ لنفاد صبري، فخجلتُ في سرّي، فقلتُ في نفسي بازدراء: «ماذا؟ جان جاك يدَع نفسه تحت سلطان المنفعة والفضول؟» فأعدتُ الرسالة أضعها على المدفأة فوراً،

twitter @baghdad_library

وخلعتُ عني ثيابي ورقدتُ بهدوء. فنمتُ أحسن مما تعودتُ أن أنام، ثم نهضتُ في غدي وقد تأخرتُ لم أفكر في رسالتي. فلما أخذتُ أرتدي ثيابي، وقعتْ عيني على الرسالة، ففضضتُها في غير عجلة، فإذا هي سندُ حوالة مالية. فشعرتُ بعدّة ملذات في آنٍ واحدٍ، ولكن أقسمُ أنّ ألذّ ما شعرتُ به هو كوني قد عرفتُ كيف أتغلب على نفسي. ثم إن في سيرتي بضعة عشر موقفاً مثْل هذا الموقف، لكني أَعجلُ حالاً من أن يسعني ذكر كل شيء. فبعثتُ إلى ماما المسكينة بقسط يسير من هذا المبلغ أبكى ندماً على العهد الطيّب الذي فيه كنتُ أضع كل شيء عند قدميها. وكانت كل رسائل ماما تنبئ بما هي عليه من ضيق. فأرسلتْ إليّ بكدسة وصفات وأسماء عقاقير وزعمت أن بذلك ثروة لي ولها. وكان شعورها بالفاقة قد أخذ بقلبها وضيَّق فكرها، حتى إن الزهيد الذي بعثتُ إليها به قد ذهب فريسة اللصوص الماكرين الذين تسلطوا عليها، فلم تنتفع منه قط. فكرهتُ أن يقاسمني مالي أولئك الأشرار، ولا سيما بعد عبث المحاولة التي قمتُ بها لكي أنتزع ماما منهم، على ما أُوردُه في ما بعد.

فمضت الأيام ونفدتْ معها الدراهم. ولقد كنا شخصين، بل أربعة، بل كنا، في الأصح، سبعة أشخاص أو ثمانية. ولئن كانت تيريز منزهة من المنفعة تنزيهاً لا نظير له، فإنّ أمها لم تكن مثلها. فما أن شعرتْ الأُم بأن عنايتي قد انتشلتْها بعض الشيء، حتى استحضرتْ أسرتَها جمعاء لكي تقاسمها ثمرة عنايتي. فأتت الأُسرةُ كلها، شقيقات وبنين وبنات وحفيدات، ما عدا ابنتها البكر زوجة مدير عربات أنجيه. فكان أن كل ما عملتُ لأجل تيريز قد حوّلتْه أمها لمنفعة أولئك الجياع. لكن علاقتي بتيريز لم تكن علاقة بامرأة جشعة ولا استولى عليّ هوى غرام مجنون، فلذلك لم أُسرف بل اكتفيتُ

بأن أتعهّد تيريز تعهداً لائقاً، في غير أبهة وفي مأمن من الحاجات الملحّة، فقبلتُ أن تعطي أمَّها جنى شغلها كله ولم أقتصر على ذلك. بيد أن القدَر، الذي جدّ في إثري، قد أبى إلا أن تكون تيريز فريسة ذويها، في حين كانت ماما ضحية أولئك الأشرار. فلم أتمكّن، في كلا الجهتين، أن أعمل شيئاً لمن قد أردتُ نفعهما. والغريب أن ثانية بنات السيدة لوفاسور، وهي الوحيدة التي لم تعطَ مهراً، كانت هي الوحيدة التي تقوم بأود والديها. والغريب أيضاً أن تلك المسكينة، التي ظلت يضربها أشقاؤها وشقيقاتها، حتى بناتهم كن يضربنها، قد عادت اليوم ضحيةَ سلبهم لها ليست تدافعُ عن نفسها من سرقاتهم بأحسن مما دافعتْ عن نفسها من ضرباتهم. ولم يكن في بنات أشقائها وشقيقاتها إلا بنت واحدة هي على كفاية وداعةٍ ولطف، وإن تكن قد دلّلتْها القدوة التي رأتها عند الآخرين، وكانت تدعى غوتون لو دوق. وكثيراً ما أبصرتُهن معاً فسمّيتُهن بما يتسامين به، أقول لبنت الشقيق أو الشقيقة: «يا بنت شقيقي أو يا بنت شقيقتي»، وأقول للعمة أو للخالة: «يا عمتي أو يا خالتي». وكانت كلتاهما تقول لي: « يا عمّ». ومن هنا اسم «خالتي» الذي لم أزل أدعو به تيريز والذي كان أصدقائي يرددونه أحياناً وهم يمزحون.

وإنك لتشعرُ بأنه قد وجب عليّ، وأنا في الحالة التي كنتُ فيها، ألا أبطئ البتة في سعيي أن أتخلص منها. فلما رأيتُ أن السيد دو ريشليو قد غفل عني، ولما عدتُ لا أرجي من البلاط شيئاً، قمتُ أسعى أن تُمثَّل، في باريس، الأوبرا التي ألّفتُها. ولكن لقيتُ مصاعب اقتضت وقتاً كثيراً حتى أقوى عليها وكنتُ أزداد عجلة يوماً بعد يوم. فارتأيتُ أن أعرض على الإيطاليين ملهاتي الصغيرة التي عنوانها «نرسيس" ؛ فجازت، وأُذنَ لي أن أدخل المسرح مجاناً، فسُررتُ جد السرور. ولكن هذا هو كل ما كان. فلم أتوصل قط إلى

twitter @baghdad_library

أن تمثَّل مسرحيتي، فمللتُ ملاطفتي الممثلين هناك، فتركتُهم، ولجأتُ، في نهاية الأمر، إلى آخر وسيلة بقيتْ لي وهي الوسيلة الوحيدة التي كان ينبغي أن أعتمد عليها. كنتُ قد ابتعدتُ عن بيت السيد دوبان إذ ترددتُ إلى بيت السيد دولا بو بلينيير. وكانت السيدتان دوبان ودولا بوبلينيير على خصام، فهما لا تتزاوران، على ما بينهما من قربى. فلم يبقَ بين البيتين من اتصال قط، وكان تييربّو، دون سواه، ينزل في أحدهما وفي الآخر. فعهد إليه أن يسعى لإرجاعي إلى بيت السيد دوبان. وكان السيد دو فرنكوي يتبع درساً في الطبيعيات والكيمياء ويهيء لنفسه مكتباً. وأظنُّه قد تطلّع إلى أن يصير عضواً في أكاديمية العلوم؛ فأراد أن يؤلّف كتاباً، ووجد أنني يمكن أن أنفعه في هذا العمل. وكانت مدام دوبان، من ناحيتها، تفكر في أن تؤلّف كتاباً. فرأت فيّ مثل ما وجده السيد دوفرنكوي. والظاهر أنهما أرادا أن أقوم لديهما معاً بشيء من عمل كاتب السر، وكان ذلك هو موضوع التأنيبات التي وجهها إليّ تييريّو، فشرطتُ أول كل أمر، أن يستخدم السيد دوفرنكوي نفوذه ونفوذ جليوت لكي يجري في دار الأوبرا التمرن على مؤلَّفتي، فقَبل شرطي. فأُجريَ مراراً التمرن على «**عرائس الشعر الغزلات**» وذلك في مخزن دار الأوبرا ثم على مسرحها الكبير. ولقد شهد التمرن الأخير كثيراً من الناس فصفقوا لعدة فقرات تصفيقاً حادّاً. ولكني، مع ذلك، شعرتُ، في أثناء التمثيل والعزف الذي لم يحسن روبيل قيادته، بأن المؤلَّفة لن تُقبل، بل شعرتُ أنها لا تستحقّ أن تُقبَل ما لم تنقَّح تنقيحاً بالغاً. فاسترجعتُها لم أعترض ولا عرّضتُ نفسي للرفض؛ إلا أنه تبيَّن لي، من عدة دلائل، أن المؤلَّفة ما كانت لتُقبَل ولو كانت كاملة. فلقد وعدني فرنكوي بأن يجري التمرن لا بأن تُقبَل. فبرّ في قوله حرفاً بحرف. وكنتُ على الدوام أرى في هذه المناسبة، وفي مناسبات متعددة غيرها، أن السيد دو فرنكوي ومدام دوبان لم يعنهما أن

يدَعاني أنال بعض الشهرة بين الناس، وقد يكون سبب هذا مخافتهما أن يقدّر الناس، إذ يطّلعون على كتابيهما، أنهما لقّحا مواهبهما بمواهبي. بيد أن مدام دوبان كانت قد قدّرتْ، في كل حال، أن مواهبي رديئة فلم تستخدمني إلا لأكتب ما تملي هي عليّ أو لبعض أبحاث التنقيب البحت، ولذلك فإن لومي هذا، ولا سيما لومي إياها، لومٌ جائر حقّاً.

ثم إن نجاحي الأخير، الذريع، قد قضى على ما بقي لديّ من أمل. فتخليتُ عن مشروعات التقدّم والمجد، وأمسيتُ لا أفكر في مواهبي الصحيحة أو الزائفة التي لم أجن منها إلا النزر القليل، ووقفتُ وقتي على أن أحصّل قوتي وقوت تيريز على نحو ما يطيب لمن يتعهدونه. فالتحقتُ بمدام دوبان وبالسيد دو فرنكوي التحاقاً شاملاً. وما كان ذلك ليفسح لي في بحبوحة العيش، فإن ثمانمائة الفرنك، أو تسعمائة الفرنك، التي أُديتْ إليّ في السنتين الأوليين، كادت لا تكفي حاجاتي الأساسية، إذ اضطررتُ أن أسكن، في جوارهما، غرفة جيدة الأثاث، في حي مرتفع الأسعار. وكنت أؤدّي بدل استئجاري منزلاً آخر يقع في أقصى باريس، في أعلى شارع سان جاك. وكيفما تقلبت الأحوال الجوية، كنتُ أمضي إلى ذلك المنزل في كل مساء فأتعشى هناك. فما لبثتُ أن أَلفتُ شواغلي الجديدة، حتى إني قد ملتُ إليها. وأُولعتُ بالكيمياء فحضرتُ مع السيد دو فرنكوي عدة دروس فيها عند السيد رُويْل. وكنا نسوّد الأوراق بين بين في هذا العلم الذي كدنا لا نعرف غير مبادئه. ثم ذهبنا إلى تورين عام 1747 نقضي فصل الخريف بقصر شونونسو الملكي الذي ابتناه هنري الثاني على نهر الشير لأجل ديان دو بواتييه، وما تزال أحرفُ اسمها الأولى مرئيةً هناك إلى اليوم؛ وقد أصبح هذا القصر ملكاً للسيد دوبان صاحب الضرائب العام. فتلهّينا

twitter @baghdad_library

في ذلك المكان البهيج تلهياً بالغاً، وكان الطعام طيّباً جداً، فسمنتُ سمن كاهن. وعُزف هناك بكثير من الألحان. فألَّفتُ للغناء عدة ثلاثيات عالية النغم ربما ذكرتُها، ثانية، في ملحق هذه **الاعترافات**، إن كتبتُه يوماً. ولقد مثّل هناك بعض المسرحيات الهزلية. فأَلَّفتُ، في مدة خمسة عشر يوماً، هزلية عنوانها «**العهد الجريء**»، وهي بين أوراقي[46]، ولا مزية لها إلا ما بها من مرح كثير. كما أنني أَلَّفتُ بعض التمثيليات اليسيرة الأخرى ومنها تمثيلية منظومة عنوانها «**ممر سيلفي**»[47]، وقد استقيتُ العنوان من ممر حديقة تقع على شاطئ نهر الشير. ولقد جرى ذلك كله فلم يحبسني عن العمل بالكيمياء وعن الشغل الذي كنتُ أقوم به لدى مدام دوبان.

وبينا كنتُ أَسمن في شونونسو، كانت تيريز تسمن في باريس، ولكن على وجه آخر. فلما عدتُ إليها، وجدتُ فعلي قد تقدَّمَ فوق ما كنتُ أحسب. ولولا أن بعض رفقاء المائدة أتاحوا لي الوسيلة الوحيدة التي كانت خليقة بأن تنتشلني مما صرتُ إليه، لكنتُ ترديتُ في أقصى دركات الارتباك. إنها قصة من القصص الأساسية التي لا أستطيع أن أرويها بفائق بساطة لأن التعليق عليها يقتضيني أن أعتذر أو أحمّل نفسي الأوزار، في حين لا ينبغي لي، ههنا، أن آتي هذا الأمر ولا ذاك.

وكنا، في أثناء إقامة ألتونا في باريس، قد جرت عادتنا ـ هو وأنا ـ أن نأكل في مطعم يجاورنا، في ما يكاد يواجه طريق الأوبرا غير ذي المنفذ، وذلك عند امرأة تدعى مدام لا سيلّ، زوجة أحد الخياطين، وكان طعامها على نحو من الرداءة كافٍ، إلا أن مائدتها

---

(46) العهد الجريء (L'engagement téméraire) ـ المترجم.

(47) ممر سيلفي (L'Allée de Sylvie) ـ المترجم.

لم تبرح مرغوباً فيها لما قد التقى عليها من معشرٍ طيّب مأمون الجانب، فلم يُقبَل ثمة غريب قط، بل وجب أن يعرّف بالقادم الجديد أحدُ الذين جروا على الأكل هناك. ثم إن الضابط الأكبر دو جرافيل، وهو متهتك قديم جمّ التهذيب والذكاء، على بذاءة، قد نزل هناك فاجتذب من ضباط الحرس والفرسان شباباً طائشاً متألقاً. وكان الضابط الأكبر دونانون، فارسُ فتيات الأوبرا كافة، يأتي في كل يوم بجميع أخبار هذه البؤرة الفاسدة. وكان السيد دو بليسّيس، وهو ضابط عقيد متقاعد وشيخ طيّب حكيم، وأنسله[*]، ضابطُ سلاح الفرسان، يصونان بعض النظام وسط أولئك الشبان. وكان يأتي أيضاً تجار ورجال مال وبعض الملتزمين لأطعمة الجيوش، إلا أنهم قوم مهذّبون منزَّهون قد امتازوا بالأعمال التي يتعاطونها، ومن بينهم السيد دوبيس والسيد دوفوركاد وسواهما ممن نسيت أسماءهم. وكان ثمة أناس حسنة عشرتهم، وكانوا من مختلف الطبقات، ما عدا طبقة الكهنة والقضاة، إذ لم أرَ ثمة أحداً منهم قط، وقد جرى العرف على أن لا يؤتى بأحد منهم أبداً. ولقد كثر الناس في تلك المائدة التي سادها المرح من غير ضجيج وشاع فيها الطيش على غير ابتذال. وكان الضابط الأكبر الشيخ، إذ يروي ما يروي من مبتذلات، لا يفقد

(*) وكان السيد أنسله هو الذي قدمت إليه تمثيلية من تأليفي هزلية عنوانها «أسرى الحرب»[1] وضعتها بعد هزائم الفرنسيين في بافرية وبوهيمية. ولم أجرؤ قط أن أعرض هذه الهزلية على أحد ولا أن أريها أحداً، وذلك لسبب غريب هو أن الملك وفرنسا والفرنسيين ربما كانوا لم يوجه إليهم يوماً مديح أحسن ولا أصدق شعوراً مما تضمنته تلك التمثيلية، فضلاً عن أنني، وأنا جمهوري وناقد مر اللسان حقاً، لم أتجاسر أن أعلن مدحي لأمة كل مبادئها تخالف مبادئي، ولقد ساءتني مصائب فرنسا فوق ما ساءت الفرنسيين أنفسهم، فخشيت أن تنسب إلى الممالقة والجبن علامات تعلق لي صادق سبق أن ذكرت عهده وسببه في الجزء الأول من هذه الاعترافات فأخجلني أن أبديه.

---

(1) «أسرى الحرب» (Les prisonniers de guerre) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

شيئاً من أدبه البلاطيّ القديم ولا ينطق البتة بلفظة تخدش السمع إلا وهي خفيفة الروح، حتى إن النساء كن يسامحنه فيها. وكانت لهجة حديثه هي القاعدة لكل من هم على المائدة. فكان جميع أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية يوردونها في إباحة منهم ورشاقة على السواء، ولا سيما أن المخزن على الباب، والممر الذي يؤدّي إلى دار مدام لا سيلّ هو الممر نفسه الذي يطلّ عليه حانوت دو شاب، تاجرة للأزياء شهيرة كان لديها، وقتئذٍ، فتيات جدّ حسان قد انطلق سادتنا يحادثونهن قبل الغداء أو بعده. ولو كنتُ أجرأَ، لتلهّيتُ تلهي الآخرين، فلم يعوزني إلا أن أدخل كما كانوا يدخلون، ولكن لم أتجاسر قط. أما السيدة لا سيلّ، فكثيراً ما واصلتُ تناولي الطعام عندها بعد ما ذهب ألتونا. فتعلّمتُ هناك ألواناً من الملح والنوادر الملهية، وأخذتُ، في شيء بعد شيء، لا عن أخلاق تلك البيئة، والحمدلله، بل عن المبادئ التي وجدتُها قد سادت هناك. فمن أناس منزَّهين مستقيمين قد ضُربوا وأُهينوا، وأزواج قد خُدعوا، ونساء قد أُغويتْ، وولادات سرّية قد خالفت القانون ذلك بأجمعه كانت تدور عليه أغلبُ الأحاديث المألوفة؛ فمن كان أَكثر من سواه تعميراً لملجإ اللقطاء، غدا أكثر من غيره نيلاً للثناء والمدح. فسرى إليّ ذلك، فكوَّنتُ طريقتي في التفكير أبنيها على ما رأيتُه قد ساد بين قوم هم لطاف جداً، زيادةً على أنهم، في قرارة نفوسهم، جد خيّرين، فقلتُ في نفسي: «ما دام هذا هو عرف البلد، فمن أقام فيه، أمكنه أن يتبع عرفه». وتلك هي الحجة التي كنتُ أبتغيها. فصممتُ عليها تصميمَ جرأةٍ لم أتردد ولا تريّبتُ. أما العقبة الوحيدة التي وجب عليّ أن أتخطاها في هذا السبيل، فكانت عند تيريز. فكابدتُ أقصى العناء حتى حملتُها على أن تأخذ بالوسيلة الوحيدة التي تنقذ شرفها. فقامت أمها تساعدني عليها وقد خشيتْ، فضلاً عن ذلك، مشكل طفل جديد، فأذعنتْ تيريز. فاخترنا قابلةً فطنةً موثوقاً بها تدعى الآنسة

غوان تقيم في طرف سانت أوستاش، فأَتمنّاها على هذه الوديعة، حتى إذا حان الوقت، انطلقتْ أم تيريز بها إلى الآنسة غوان لكي تلد هناك. فذهبتُ أعودها عدة مرات، وحملتُ إليها رقماً كتبتُه على بطاقتين جعلتُ إحداهما بين قمط الطفل، فوضعتْه القابلة في مكتب ملجإ اللقطاء، على حسب الطريقة المعهودة. وفي السنة التالية تجدّدَ ارتباكنا، فتجدّدت الوسيلة عينها، وقارب الرقم سالفه، فتركناه لم أفكر إلا في نحو ما فكّرتُ فيه المرة السابقة، ولم تكن أم تيريز أقلّ تأييداً لي منها في ما تقدَّمَ ذكرُه، فأطاعتْ تيريز وهي تنوح. وإن القارئ سيرى، على التوالي، جميعَ التقلبات التي أَحدثها في طريقة تفكيري وفي مصيري، هذا السلوكُ المنحوس. أما الآن، فلنقتصرْ على هذا العهد الأول، فإن نتائجه، وهي نتائج أليمة وغير متوقَّعة على السواء، تضطرني أن أعود إليه فوق ما ينبغي أن أعود.

وإني أوردُ، ههنا، العهد الأول لتعرّفي بمدام ديبيناي، وسيتردد اسمها في هذه الذكريات تردداً جمّاً. وكانت تدعى الآنسة ديسكلافيل، وقد زُفّت يومئذٍ إلى السيد ديبيناي ابن السيد دولا ليف دو بلغارد صاحب الضرائب العام. وكان زوجها موسيقيّاً مثل السيد دو فرنكوي. وكانت هي أيضاً موسيقية، فوطّد الولعُ بهذا الفن، بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة، علاقاتٍ حميمة جدّا. وسار بي السيد دو فرنكوي إلى بيت مدام ديبيناي فعرّفني إليها، فكنتُ أتعشى معه عندها في بعض الأحيان. وكانت لطيفة، ذكية، ذات مواهب، فالتعرفُ إليها شيء حسن ولا ريب. ولكن كانت لها صديقة اسمها الآنسة ديْت قد عُرفتْ بالخبث، تُعايش الشوفالييه دو فالوري الذي لم يؤثَر عنه أنه امرؤ طيّب. وأحسبُ أن معاشرة مدام ديبيناي لهذين الشخصين قد أضرّتها وهي التي فُطرتْ على طبعٍ صعب المطالب فأُوتيتْ مزايا ممتازة لكي تُعادل بين مفارقات طبعها أو لتكفّر عن هذه

twitter @baghdad_library

المفارقات. فسرى إليها عن السيد دو فرنكوي بعضُ صداقته لي، وباح إليّ بعلاقاته بها، فمن أجل ذاك ما كنتُ لأذكرهنّ لولا أنّ خبرهن قد شاع حتى لم يبقين خافيات حتى على السيد ديبيناي. لا بل إن السيد دو فرنكوي قد أسرَّ إليّ، في شأن هذه السيدة، بغرائب لم تُسرّ هي نفسها بها إليّ قط ولا درتْ يوماً أنني قد وقفت عليها، فلن أقولها لها ولا لسواها ما حييتُ. ثم إن هذه الثقة كلها، التي محضنيها كلا الجانبين، قد حيّرتْني ولا سيما حيال مدام دو فرنكوي التي كانت أكثر معرفةً بي من أن تحذرني، مع كوني على اتصال بمنافستها. فبذلتُ جهدي لكي أعزّي تلك المرأة المسكينة التي لم يقابلها زوجها بما قد أحاطته به من حبّ وأصغيتُ إلى أولئك الأشخاص كل منهم على حدة، وكتمتُ أسرارهم إلى أقصى حدود الأمانة، فلم ينتزع مني أحد قط سرّاً من أسرار الاثنين الآخرين، ولم أُخف على كل من المرأتين علاقتي بمنافستها. وابتغى السيد دو فرنكوي أن يستخدمني لعدة أمور من هذا القبيل، فوقع مني على رفض قاطع؛ وأرادت مدام ديبيناي، مرة، أن تحمّلني رسالة إلى فرنكوي، فوقعتْ مني على مثل هذا الرفض، ثم واجهتُها بقول واضح صريح مؤداه أنها إذا كانت تريد أن تطردني عن بيتها طرداً نهائياً، فما ينبغي لها إلا أن تقترح عليّ ثانيةً هذا الاقتراح. وإنما يقتضي الإنصاف أن أشهد بمدام ديبيناي، فما ساءتها طريقتي، بل ذكرتْها لفرنكوي فأثنتْ عليّ ولم يغدُ حُسن استقبالها لي دون ما سلف. وهكذا احتفظتُ، حتى النهاية، بصداقة ثلاثة أشخاص قد وجب عليّ أن أراعيهمْ، وتعلّقَ بهم مصيري إلى نحو ما، وتوترتْ بينهم أسباب التواصل؛ كما أنني احتفظتُ بقدْرهم لي وثقتهم بي، لأنني سلكتُ حيالهم سلوك وداعة ومراعاة، على استقامة وصلابة في كل حال. وأرادت السيدة ديبيناي، برغم حمقي وخرقي، أن تشركني في أُلهيات الشوفريت، قصرٍ بالقرب من سان دونيس يملكه السيد دو

بلغارد. وكان ثمة مسرح كثيراً ما عُرضتْ فيه تمثيليات. فعُهد إليّ في أحد الأدوار، فواظبتُ على درسه ستة أشهر بلا انقطاع. فلما قمتُ أمثّله، كان لا بد من تلقيني إياه من أول المسرحية إلى آخرها. فبَعْد هذه التجربة، لم يُقترَح عليّ من دور قط.

ولما تعرّفتُ بمدام ديبيناي، تعرّفتُ أيضاً بالآنسة دوبلغارد، بنت حميها، وهي التي ما لبثتْ أن أصبحت الكونتسة دو دوتو. فحين لقيتُها أول مرة، كانت على وشك الزواج. فكلّمتْني طويلاً كلام الإلفة الجذابة التي طُبعتْ عليها. فوجدتُها لطيفة جداً، ولكن لم يخطر لي أن هذه الفتاة ستصنع، يوماً، مصيري فتشدّني، في براءة منها، إلى الهاوية التي أنا فيها اليوم.

ولئن كنتُ لم أَذكر ديدرو منذ عودتي من البندقية ولا ذكرتُ صديقي روغان، فإنني لم أهمل أحدهما ولا أَهملتُ الآخر، بل وطدتُ بأولهما، على الأخص، علاقتي الحميمة يوماً بعد يوم. وكانت لديدرو نانيت مثلما كان لي تيريز، وهذا تشابهٌ لنا آخر. بيد أن الفرق هو أن تيريز، وهيئتها ليست دون هيئة نانيت، كانت على عذوبة طبع ولطف مزاج يحببانها إلى الرجل الكريم؛ في حين أن صاحبة ديدرو، وكانت شرسة الخُلق، مماحكة، شتّامة، لم تبد للآخرين ما يشفع في سوء تربيتها. ومع ذلك تزوجها؛ ولو أنه وعدها بالزواج، لكان أَحسنَ عملاً. أما أنا، الذي لم يَعد بشيء مثل هذا فلم أتعجل في الاقتداء بديدرو.

ولقد اتصلتُ أيضاً بالأباتي دو كونديّاك، وهو يومئذٍ لا شيء، وشأْنه في هذا شأْني، لكنه قد خُلق لكي يغدو على ما صار إليه اليوم. ولعلي أول من رأى بُعدَ شأوه وقدرَهُ حقّ قدره. ولاح لي أن قد طابت له معاشرتي. وبينا قد لزمتُ غرفتي في شارع سان دونيس، بالقرب من الأوبرا، أنشئ فصل هزيودوس، كان الأب دو كونديّاك

twitter @baghdad_library

يأتيني في أحيان يتغدى معي، ونحن وحدنا، وكل منا يؤدّي ثمن طعامه. وكان يؤلّف وقتئذٍ «**محاولة في أصل المعارف الإنسانية**»[48]، وهو كتابه الأول. فلما أنجزه، كانت الصعوبة هي الاهتداء إلى كتبيّ ناشر يقبل أن يتولى إصداره. والناشرون في باريس قوم متعجرفون، قساة على المبتدئ أيّاً كان، والميتافيزيقا لا إقبال عليها يومئذٍ وليس في موضوعها ما يجتذب حقّاً. فكلّمتُ ديدرو في شأن كوندياك ومؤلّفه، وعرّفتُ أحدهما بالآخر. ولقد خُلقا ليتوافقا، فتوافقا. فحثَّ ديدرو الناشر دوران على أن يأخذ مخطوط الكاهن. فكان أن هذا العالم الكبير قد نال من كتابه الأول، في ما يكاد يشبه النعمة، مائة دينار ربما كان لم ينلها لولاي. وكنا نقيم في أحياء جد متنائية، فجعلنا، نحن الثلاثة، نجتمع في الباليه رويال مرة واحدة في الأسبوع، ثم نذهب إلى فندق البانييه فلوري نتغدى معاً. ولا شك في أن ملتقيات الغداء، هذه، اليسيرة قد راقت ديدرو إلى أقصى حد، لأنه لم يغب عن مواعيدها قط وهو الذي كان يغيب عن جلّ مواعيده. فأخذتُ أفكر في مشروع مجلة دورية عنوانها «**لوبرسيفلور**»[49]، على أن نتناوب، أنا وديدرو، إصدارَها. فخطّطتُ صفحتها الأولى، فأتاح لي ذلك أن أتعرّف بـ دالامبير الذي كان ديدرو قد كلّمه في شأنها. ولكن حدث ما لم يُتوقَّع فحال دون هذا المشروع الذي بقي على هذا النحو.

وكان هذان المؤلّفان قد ابتدأا بـ **الأنسيكلوبيديا [الموسوعة]**[50]، الذي قُرّرَ ألا يكون، في أول الأمر، إلا نوعاً من الترجمة لدائرة

---

(48) **محاولة في أصل المعارف الانسانية** (*Essai sur l'origine des connaissances humaines*) ـ المترجم.

(49) (*Le persifleur*) أي الساخر ـ المترجم.

(50) **المعجم الأنسيكلوبيدي** (*Le dictionnaire encyclopédique*) ـ المترجم.

معارف شامبير[51] يكاد يشبه «**معجم الطب**» لجايمس[52]، وهو المعجم الذي كان ديدرو قد فرغ من وضعه. فأراد ديدرو أن يدخلني في شيء من هذا المشروع الأخير، فاقترح عليّ باب الموسيقى، فقبلتُه وأَلَّفتُه بغاية السرعة ومنتهى الرداءة، وذلك في مدة ثلاثة الأشهر التي أمهلنيها على نحو ما أمهل سائر المؤلّفين الذين قُرّرَ أن يشتركوا في المشروع؛ بيد أنني كنتُ، من بينهم جميعاً، الشخص الوحيد الذي أَنجز عمله في الأجل المعيّن. فسلّمتُ ديدرو مخطوطي الذي كنتُ قد طلبتُ من أحد مستخدمي السيد دو فرنكوي أن يبيّضه، ويدعى دوبون، وكان جميل الخط، فأدّيتُ إليه عشرة دنانير انتزعتُها من مالي فلم تُرجَع إليّ قط. وكان ديدرو قد وعدني بأجرة يؤدّيها إليّ الناشرون، إلا أنه لم يذكرها لي ثانية ولا ذكرتُها له ثانية على الإطلاق.

ثم إن إعتقال ديدرو قد أوقف مشروع **الأنسيكلوبيديا**. وكان مؤلّفه «**الأفكار الفلسفية**»[53] قد جلب عليه بعض المتاعب التي لم يعقبها شيء. أما كتابه «**رسالة في العميان**»[54] فكان على خلاف ذلك، وإن خلا مما يستوجب اللوم اللهم بعض الملامح الشخصية التي صدمت مدام دوبري دو سان مور والسيد دو ريمور والتي من أجلها سُجن ديدرو في برج فانسين. ولا شيء البتة يصوّر ضروب القلق الذي ساورني حيال محنة صديقي. فجنح خيالي المشؤوم وهو الذي يحمل الضرّ على أسوإ محمل؛ وخلتُ صديقي باقياً هناك إلى

---

(51) أفرائيم شامبير (1680؟-1745) عالم إنجليزي مؤلف دائرة للمعارف استلهمها ديدرو ـ المترجم.

(52) **معجم الطب لجايمس** (*Le dictionnaire de médecine de James*) ـ المترجم.

(53) **الخواطر الفلسفية** (*Les pensées philospophiques*) ـ المترجم.

(54) **رسالة في العميان** (*Lettres sur les aveugles*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

آخر العمر، فكدتُ أفقد رشدي. كتبتُ إلى مدام دو بومبادور أتضرع إليها أن يخلى سبيله أو أن أُحبس معه. فلم أتسلّم من جواب عن رسالتي قط، لأن رسالتي كانت أعقل من أن تَفعل، ولستُ أفتخر بأنها قد شاركتْ في تخفيف القيود عن ديدرو المسكين، والقيود قد خففتْ عنه بعد مرور بعض الوقت على رسالتي. لكن لو ظلت تلك القيود على شدّتها لحين آخر من الوقت، لحسبتُني كنتُ قضيتُ يأساً عند أسفل ذلك الحصن المشؤوم. ولئن كانت رسالتي لم تؤثّر كثيراً، فإنني لم أفتخر بها جد الافتخار، إذ لم أذكرها إلا لقليل من الناس، ولا ذكرتُها لديدرو نفسه يوماً من الأيام.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

إضطررتُ أن أتوقف عند نهاية الكتاب السابق. أما هذا الكتاب، ففيه بدءُ سلسلة مصائبي الطويلة إذ هي في أول نشأتها.

ولقد أَقمتُ في بيتين هما من أعظم بيوتات باريس تألقاً، فلم أفتأ، مع ضآلة خبرتي بمخالطة الناس، أتعرّف ببعض منهم. وكان ممن تعرّفتُ بهم عند مدام دوبان الأمير الشاب ولي عهد ساكس جوتا والبارون دوتون مؤدّبه. وتعرّفتُ عند السيد دو لا بوبلينيير بالسيد سيغي صديق البارون دو تون، وقد عُرف في عالم الأدب بطبعته لروسّو[1] الأنيقة. فدعانا البارون، أنا والسيد سيغي، إلى أن نقضي في فونتونيه سير بوا يوماً واحداً أو يومين، وكان للأمير بيت هناك. فذهبنا. فلما مررنا أمام فانسين، شعرتُ، وقد رأيتُ البرج، بأن قلبي يتمزّق، فلحظ البارون تأثير هذا على وجهي. حتى إذا كنا على العشاء، تكلم الأمير على اعتقال ديدرو، فاتهم البارونُ السجينَ بضعف التبصر يريد أن يحدوني على الكلام، فكنتُ في دفاعي عنه قليل التبصر. وسومحتُ بهذا الإفراط في النخوة وقد أوحاه إليّ صديق بائس، ثم دار الكلام على غير ذلك. وكان ثمة ألمانيان قد

---

(1) يريد جان باتيسيت روسو ـ المترجم.

التحقا بالأمير. أما أحدهما، ويدعى السيد كلوبفل، فوافر الفكر قام بالخدمة الروحية للأمير ثم أصبح مؤدّبه بعد ما استولى على وظيفة البارون عنده. وأما الآخر، فشابٌ يدعى السيد جريم قد اتخذه الأمير قارئاً، ريثما يكون قد اهتدى إلى بعض الوظائف، وكان لباسه الزهيد يدل على احتياجه الماسّ إليها. فمذ تلك الليلة نفسها، نشأتْ بيننا، أنا وكلوبفل، علاقة لم تلبث طويلاً حتى بتنا معها صديقين. أما علاقتي بالسيد جريم، فلم تجر على تلك السرعة تماماً. فكاد لا يبدي نفسه ولا يقدّم نفسه، إذ كان في نأي عما وهبتْ له الطبيعة بعدئذٍ من مقام الزهو والمؤاتاة. فلما كنا من غدنا، تكلّمنا في الموسيقى ونحن على الغداء، فأَحسنَ قولاً. فطرتُ ارتياحاً إذ بلغني أنه يعزف بالكلافسان يصاحب عزفاً آخر. حتى إذا قمنا عن الغداء، استحضرنا بعضَ الألحان، فعزفنا بكلافسان الأمير طول النهار، وهكذا نشأتْ بيننا تلك الصداقة التي عذُبتْ إليّ، أولَ الأمر، أيَّ عذوبة، ثم باتت عندي، في آخر الأمر، على شؤم بالغ، وكثيراً ما أتكلّم عليها من ساعتي فيما بعد.

فلما رجعتُ إلى باريس، بلغني النبأ السارّ وهو أن ديدرو قد أُطلقَ من البرج فجُعل قصر فانسين وحديقته محبساً له بعد ما أقسم هو بشرفه ألا يبرح المكان، وأُذنَ له أن يلقى أصدقاءه. ولكم شقَّ عليّ أنني لم أستطع أن أخفّ إليه على الفور! فإن شواغل لا بد منها قد اضطرتني أن ألزم بيت مدام دوبان يومين، أو ثلاثة أيام، ثم طرتُ إلى صديقي بعد أن انتظرتُ ما يعدل ثلاثة قرون، أو أربعة، فارتميتُ بين ذراعيه. فيا له من أوانٍ غير قابل للتعبير عنه! لم يكن ديدرو وحده، بل كان معه دالامبير وخازن لا سانت شابيل، ولكن لما دخلتُ، لم أبصر أحداً سواه. وما هي إلا أن وثبتُ نحوه وثبة واحدة، فصحتُ، وجعلتُ وجهي على وجهه، وضممتُه إليّ

twitter @baghdad_library

وشددتُ لم أكلّمه بسوى البكاء والدموع. فضاقت أنفاسي من فرح وحنان. وكان أول ما قام به، إذ خرج من بين ذراعيّ، هو أنه التفت إلى الكاهن فقال له: «قد رأيتَ، سيدي، كيف يحبّني أصدقائي». وكانت قد تملكتْني فورة الشعور، فلم أفكر في هذه الطريقة النفعية. ولكن صرتُ منذئذٍ كلما فكرتُ فيها، بعضَ الأحيان، أدركتُ أنني لو كنتُ في موضع ديدرو، لم تخطر لي هذه الطريقة أول الشيء.

وألفيتُ ديدرو قد بلغ منه السجن أيَّ مبلغ. فإن البرج قد أثَّر فيه تأثيراً مهولاً. ثم كان هو في القصر على تمام الراحة، ولئن أبيحت له حرية التنزه في حديقة غير مسوّرة، فلقد أعوزه أن يخالط الأصدقاء فلا يستسلم إلى مزاجه الكئيب. ولقد كنتُ أكثرَ من يرثي لألمه، فخلتُني أكثرَ من يعزّيه إذ يراني. فكنتُ أقصد إليه، مرة واحدة كل يومين على الأقل، إما وحدي وإما مع زوجته، أُمضي وإياه أوقات بعد الظهر، برغم شواغل لي ملحّة جداً.

ولقد كانت صائفة عام 1749، تلك، شديدة الحَر إلى أقصى حد، وكانت المسافة بين باريس وفانسين نحو الفرسخين. ولم يتيسر لي أجرة الانتقال بالعربة، فكنتُ إذا جئتُه وحدي، ذهبتُ مشياً، في الساعة الثانية من بعد الظهر، أَخفُّ لكي أصل في أسرع وقت مستطاع. وكانت أشجار الطريق، وقد قُضّبتْ على حسب الموضة الشائعة في البلد، لا تكاد تلقي من حولها ظلاًّ، وكثيراً ما غلب عليّ الحر والتعب، فاستلقيتُ على الأرض وقد نهكتُ. فلذلك عمدتُ إلى بعض الكتب أَحملها لكي أخفف سرعة خطاي. فحملتُ، يوماً، «**لومركور دو فرنس**»[2]، فبينما قد سرتُ أقرأه في مهل، إذ وقعتُ على هذه المسألة التي اقترحتْها أكاديمية ديجون جائزةً للسنة القادمة

(2) **لو مركور دو فرنس** (*Le Mercure de France*) ـ المترجم.

وهي: «هل ساهم تقدّم العلوم والفنون في إفساد الأخلاق أم في تطهيرها؟».

ولحظةَ قرأتُ ذلك، رأيتُ عالماً آخر وأمسيتُ إنساناً آخر. ولئن لي ذكرى حية عن الانطباع الذي تقبلته، فإن تفصيلاته قد غابت عني مذ أودعتُها في رسالة من بين رسائلي الأربع إلى السيد دو مالزيرب. وهذه بعض فرادات ذاكرتي، وهي خليقة بالذكر. فإن ذاكرتي ليست أشدَّ تلبيةً لي منها حين أعوّل عليها، فما أوكل مضمونها إلى الورق حتى تتخلى عني، وما أَكتبُ أمراً من الأمور حتى أعود لا أتذكره أبداً. وهذه الغرابة تتبعني حتى في الموسيقى. فقبلما تعلّمتُها، كنتُ قد حفظتُ كثيراً من الأغاني، فما أن تمكنتُ من أن أنشد بعض الأصوات الملحَّنة حتى عجزتُ أن أحفظ صوتاً واحداً منها، وإني لأشكّ في قدرتي على أن أستعيد، من بين أَحبّ الأصوات إليّ، صوتاً واحداً أَجمعَ.

أما ما أتذكره في هذه المناسبة حقّ التذكر، فهو أنني لما بلغتُ فانسين، كنتُ في اضطراب يشبه الهذيان، فلحظ ديدرو اضطرابي، فأوردتُ له السبب، وقرأتُ عليه خطبة فابريسيوس(3) وقد كتبتُها بالقلم الرصاص تحت شجرة سنديان. فحثني ديدرو على أن أطلق عنان أفكاري وأشترك في المباراة من أجل الجائزة. ففعلتُ ذلك، وكنت منذ تلك اللحظة في ضلال. إلاّ إنَّ بقية عمري وبقية مصائبي كلها كانتا النتيجة المحتومة للحظة الضلال تلك.

فارت مشاعري على نحو ما ثارت أفكاري، فارت بسرعة هي أبعد ما تكون عن التصوّر. وكَبَتَ حماسي لأجل الحقيقة والحرية

(3) فابريسيوس (282 ق. م.) قنصل روماني اشتهر بالزهد وبساطة العيش ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

والفضيلة جميعَ أهوائي الصغيرة. وأعجبُ ما في الأمر هو أن تلك الفورة لم تزل تعتلج في قلبي، مدة تزيد على أربع سنوات أو خمس، اعتلاجاً ربما كان لم يبلغ مثل هذا المدى في قلب أيّ إنسان آخر كان.

وأخذتُ أصنع هذه الخطبة صنعاً فريداً كدتُ أسير عليه في سائر مؤلّفاتي. ووقفتُ على تلك الخطبة معظم ليالي السهد. وكنتُ، وأنا في السرير، أنطلقُ متأملاً، مغمض العينين، لا أنفكّ أدير في ذهني عبارات الخطبة أعاني مشقّة لا يمكن تصوّرها. حتى إذا توصلتُ إلى أن أرضى عن تلك العبارات، وأودعتُها ذاكرتي ريثما يتهيأ لي أن أخطها على الورق. ولكن كان يغيب عني كل شيء منها بعد أن أكون قد نهضتُ ولبستُ. حتى إذا استويتُ إلى الكتابة، لم يكد يسنح لي شيء مما أَلَّفتُ. فرأيتُ أن أتخذ السيدة لوفاسور كاتبة لي. وكنتُ قد آويتُها وابنتها وزوجها مكاناً هو أقرب إليّ من قبْل، فكانت هي التي تأتيني في كل صباح توقد ناري وتقوم بخدماتي اليسيرة فتغنيني عن خادم. وكنتُ إذا وصلتُ، أمليتُ عليها وأنا بالسرير ما أَلَّفتُ بالليل، فحالت هذه الطريقة دون أن أنسى الشيء الكثير.

فلما أنجزتُ خطبتي، عرضتُها على ديدرو، فرضي عنها وأرشدني إلى بعض التنقيحات. بيد أن هذا المؤلَّف، مع ما به من حرارة أنفاس ومتانة نهج، قد أعوزه المنطق والنظام أيَّ إعواز، فهو، بين جميع المؤلَّفات التي خطَّها قلمي، أضعفها منطقاً وأفقرُها انسجاماً وتَوافُق أسباب؛ ومهما عظمتْ موهبة الإنسان، لا يسعه، على الفور، أن يتعلّم فن الكتابة.

فأرسلتُ بهذه الخطبة لم أنبئ بها أحداً إلا ديدرو، خلا جريم في ما أحسب. وكنتُ، منذ التحقتُ بخدمة الكونت دو فريز، قد

عاشرتُ جريم معاشرة حميمة إلى أقصى حد. وكان عنده كلافسان بات موضع اجتماعنا، إذ كنتُ أقضي مع جريم، حول الكلافسان، أوقات عطالتي كلها ننشد ألحاناً إيطالية وبعض أغاني الملاّحة البندقيين، لسنا نكفّ ولا ننثني من الصباح إلى المساء، بل من المساء إلى الصباح، فإذا لم أكن عند مدام دوبان، كنتُ ـ على وجه التأكيد ـ عند السيد جريم، أو معه إما في نزهة وإما في المسرح. وانقطعتُ عن الذهاب إلى مسرح لاكوميدي إيتاليين حيث أُذنَ لي في الدخول مجاناً، وسببُ انقطاعي هو أن جريم لم يكن يحبّ هذا المسرح، فمضيتُ معه إلى مسرح لاكوميدي فرنسيز لأن جريم قد أُولعَ به، فأديتُ ثمن الدخول. ولقد ربطتني بذلك الشاب جاذبية قوية، فأصبحتُ لا أفارقه، حتى إنني أهملتُ الخالة[4] المسكينة، هي نفسها، أعني أنني غدوتُ أَقلّ لقاءً لها، أما تعلّقي بها، فإنه لم يهنْ يوماً من الأيام.

ثم إن عجزي أن أقسّم ميولي على قلة ما كان لديّ من وقت الفراغ، قد جدّد رغبتي القديمَة في ألا أؤلّف مع تيريز إلا بيتاً واحداً. بيد أن أثقال أُسْرتها المتعددة الأفراد وفقدان الدراهم لمشترى الأثاث قد حالت، إلى ذلك الوقت، بيني وبين رغبتي. ثم أتيحت لي الفرصة لكي أجدّ في هذا السبيل، فانتهزتُها. فلقد شعر السيد دوفرنكوي ومدام دوبان أن ثمانمائة فرنك أو تسعمائة فرنك في السنة لا تكفيني، فعمدا من تلقاء أنفسهما إلى زيادة مرتبي السنوي فجعلاه خمسين ليرة فرنسية ذهباً. كما أن مدام دوبان، لما بلغها أنني أسعى لتأثيث منزلي، أسدت إليّ شيئاً من المعونة. وكان لدى تيريز بعض الأثاث فأضفناه إلى ما لديّ منه وجمعناه كله، ثم استأجرنا بفندق

---

(4) أي تيريز ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

لانغدوك، في شارع غرونيل سانت أونوريْه، منزلاً صغيراً، وذلك عند قوم جد خيّرين. فدبّرنا أمورنا على نحو ما تهيّأَ لنا. ولقد مكثنا هناك بسلام وبهجة سبع سنوات، إلى أن انتقلتُ إلى الإرميتاج.

كان والد تيريز شيخاً طيّباً وادعاً قد خاف زوجته أشدّ الخوف. فلقّبها بالضابط الجاني، وهو اللقب الذي حوّله جريم بعدئذٍ إلى تيريز مزحاً. وكانت السيدة لوفاسور لا يعوزها الذكاء، أي البراعة، حتى إنها قد افتخرتْ برفعة التهذيب وظهرتْ بهيئة علية القوم؛ ولكن كانت على تملّق خفيّ لم يسعني احتماله، فنصحتْ ابنتها نصائح غير صالحة وسعت لحملها على أن تتحفظ مني، وتملّقتْ أصدقائي، كلاً منهم بمعزل عن الآخر، على حسابهم بعضاً إلى بعض وعلى حسابي أنا؛ وكانت، مع ذلك، أُمّاً صالحة، إذ وجدتْ في هذا الصلاح ما تنتفع به. وكانت تستر ذنوب ابنتها وترى في ذلك مكسباً لها. ثم إن هذه المرأة، التي غمرتُها بضروب الالتفات والعناية وبيسير الهدايا والتي حرصتُ على أن تودّني غاية الحرص، كانت هي السبب الأوحد لشقائي في عيشي البيتي، إذ لم يسعني الظفر بمودتها. بيد أني قد ذقتُ، في تلك السنوات الست أو السبع، أوفى السعادة البيتية التي يتيحها وهنُ الإنسان. ولقد كان قلب تيريز، عزيزتي، قلب ملاك، فازداد تعلّقنا ما تمكنتْ وشائجنا الحميمة، وتضاعَفَ، يوماً فيوماً، شعورُنا بأنني قد خُلقتُ لها وبأنها قد خُلقتْ لي. ولو أَمكن وصف مباهجنا لأَضحكَنا ما هي عليه من بساطة. فكنا نتنزه وحدنا في خارج المدينة، أنفقُ بضعة دراهم في بعض مقاهي الضواحي؛ وكنا نتعشى على نافذتي عشاءً يسيراً، ونحن وحدنا، على كرسيين صغيرين قد جعلناهما على صندوق هو بعرض فرجة النافذة التي اتخذناها وقتئذٍ مائدةً لنا، فتنشّقنا الهواء واستطعنا أن نبصر الديار المجاورة والمارّين. ولئن كنا في الطابق الرابع، فقد تهيّأ

لنا أن نطلّ على الشارع ونحن نأكل. فمن ذا الذي يصف ويحسّ مباهج تلك الوجبات التي اقتصرتْ ألوانها على ربع رغيف كبير وعلى بعض الكرز وقطعة جبن صغيرة وزهاء ربع ليتر خمراً كنا نشربه كلانا؟ فيا أيتها الصداقة والثقة والوشائج الحميمة، ويا وداعة النفس، ما أطيب توابلك! وكنا، في بعض الأحيان، نبقى هناك إلى منتصف الليل لسنا نشعر بالوقت يمرّ ولا ندري في أيّ ساعة منه قد أمسينا لولا أم تيريز كانت تنبّهنا. ولكن لندَعْ هذه التفصيلات التي تبدو تافهة أو مضحكة. فلقد ذكرتُ وأحسستُ على الدوام أن المتعة الحقّ لا توصَف أبداً.

ولقد كانت لي، في عين ذلك الوقت تقريباً، متعةٌ أكثر ابتذالاً وهي آخر ما لمتُ نفسي عليه، بالنسبة لذلك النوع من المتعات. تقدَّم لي القول إن القسيس كلوبفل كان شخصاً لطيفاً. ولم تكن علاقتي به أَوثقَ منها بجريم، ثم غدتْ مثلها أليفة حميمة، وكانا يأكلان عندي أحياناً. وكانت وجبات الطعام هذه أبسط من البسيط، وقد أشاع فيها المرحَ مُلحُ كلوبفل الإباحية المرهفة ولهجةُ جريم الجرمانية المضحكة، ولم يكن جريم قد بات حريصاً على صفاء اللغة بعد. فلم تسُد الشهوات مجالسنا المرحة، بل كانت السعادة تعيضنا منهن، فطاب لنا أن نتعاشر حتى لقد تعذَّر علينا أن نتفارق. وكان كلوبفل قد جعل في بيته فتاة صغيرة لم تفتأ يملكها الجميع إذ لم يقدر هو وحده أن يقوم بنفقتها. فبينا قد دخلنا المقهى، ذات مساء، لقيناه خارجاً يريد أن يمضي إلى العشاء مع الفتاة. فسخرنا به، فانتقم منا انتقاماً غزلاً، إذ أَشركَنا في العشاء نفسه ثم أخذ يسخر بنا. فبدت لي تلك المخلوقة المسكينة وهي على كفاية من طيب الفطرة، إلى غاية وداعة ولطف؛ وبدا لي أنها لم تُجبَل على ما كانت تتعاطى، فأنشأت امرأةٌ ماكرةٌ خبيثةٌ تدرّبها عليه ما استطاعت أن

twitter @baghdad_library

تفعل. ولقد أشاعت المُساراتُ والنبيذ مرَحاً فينا حتى ذهلنا عما نحن فيه. ولم يشأ كلوبفل الطيّب أن يكرمنا بعض الإكرام، فقمنا، نحن الثلاثة، إلى الغرفة نتوالى على الفتاة الصغيرة المسكينة التي لم تدر أتضحك أم تبكي. ولم يفتأ جريم يؤكّد أنه لم يمسسها، ولكنه أطال الخلوة بها تلهياً منه بإثارة صبرنا. ولئن أَمسكَ عنها، فالمرجح أنه لم يُمسك عفة وهو الذي كان قد سكن منزل بعض الفتيات، في حي سان روك عينه، وذلك قبل أن يلتحق بالكونت دو فريز.

خرجتُ من شارع موانو، حيث كانت تقيم تلك الفتاة، وقد خجلتُ قدْرَ ما خجل سان برو[5] لمّا خرج من البيت الذي أُسكرَ فيه، وتذكرتُ قصتي وأنا أكتب قصته. فلحظتْ تيريز، من بعض ما ظهر عليّ من أمارات، ولا سيما من هيئتي الخجلى، أنني قد أَتيتُ ما ألوم نفسي عليه؛ فخفَّفتُ هذا العبءَ إذ اعترفتُ إليها على الفور اعترافاً صريحاً. فأحسنتُ، لأن جريم أَقبلَ ظافراً، من الغد، يروي لها فاحشتي ويغلو. فلم يفته قط، مذ ذلك الحين، أن يذكّرها بها تذكيراً خبيثاً. فكان أشدّ خطأً، لأنني قد ساررتُه وأنا مطلَق الحرية والإرادة، فحُقَّ لي أن أتوقَّع منه ألا يجعلني أندم على هذه المسارّة. ولم أشعر يوماً بطيب قلب تيريز كما شعرتُ به في تلك المناسبة؛ فلقد صدمتْها طريقة جريم أضعاف ما أساءت إليها خيانتي، فلم ينلني من تيريز غير عتاب مؤثّر حنون لم أتبيّن فيه قط شيئاً من الأسف والموجدة.

لقد كانت تلك الفتاة على بساطة في الروح تُعادل بساطةَ قلبها، وكفى بذلك؛ إلا أن في هذه الناحية مثَلاً يخطر لي فيستأهل أن أضيفه إلى ما سبق. فلقد كنتُ ذكرتُ لتيريز أن كلوبفل هو راعي أمير

---

(5) سان برو بطل رواية **إيلوييز الجديدة** ـ المترجم.

ساكس غوتا وخادمه الروحي. وكان القسيس، في نظرها، شخصاً غريباً حتى إنها خلطتْ أكثر الأفكار تشتتاً في هذا الأمر خلطاً يُضحك فحسبتْ أن كلوبفل هو البابا. وإذ عدتُ إلى البيت أول مرة فقالت لي، إن البابا قد أتى يزورني، خلتُها مجنونة. واستفسرتُها، وسرعان ما قصدت جريم وكلوبفل أروي لهما القصة، ولم نبرح، في ما بيننا، ندعوه بالبابا. أما فتاة شارع موانو فأطلقنا عليها اسم «البابا جانّ»[6] فكنا في ضحك لا ينقضي حتى كدنا نختنق. أما الذين طاب لهم أن ينسبوا إليّ إحدى الرسائل وقوّلوني فيها بأنني لم أَضحك في حياتي سوى مرتين، فإنهم لم يعرفوني عهدئذٍ ولا عرفوني أيام الشباب، وإلا لما خطرت لهم هذه الفكرة قط بكل التأكيد.

وفي العام التالي، عام 1750، وقد عدت لا أفكّر في **خطابي** [**خطاب في العلوم والفنون**]، بلغني، أنه فاز بجائزة ديجون. أيقظ هذا النبأ جميع الأفكار التي أملت عليّ **الخطاب**، وبعث فيها طاقة جديدة، وأَكملَ ما قد نما بقلبي من بذور بطولة وفضيلة كان أبي ووطني وبلوتارخوس قد زرعوهما في طفولتي. فعدتُ لا أجد من شيء عظيم ولا جميل إلا الحرية والفضيلة، فهما أسمى من الثروة ومما تقدره الآراء والاعتبارات؛ فلا شيء أعظم وأجمل من الاكتفاء بالذات. ولئن كان خجلي وخوفي من الناس قد حالا، في أول الأمر، دون أن آخذ بتلك المبادئ ودون أن أقطع ما بيني وبين مبادئ عصري قطعاً صريحاً عنيفاً، فإنني منذئذٍ قد صممتُ على ذلك، فما تأخرتُ عن إنفاذه إلا قدْرَ ما اقتضته المقاومات التي لقيتُها في هذا السبيل، فأثارتني فانتصرتُ.

---

(6) «البابا جان» في الأصل: (La papesse Jeanne) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وبينما كنتُ أتفلسف في واجبات الإنسان، إذ حدث ما حملني أن أفكر في ما يجب عليّ فكيراً جيداً في واجباتي أنا. وذلك أن تيريز كانت قد حبلتْ للمرة الثالثة. وكنتُ أوفى صدقاً لنفسي وأَشدّ إباءةَ وجدان من أن أكذّب مبادئي بأفعالي، فطفقتُ أبحث في مصير أولادي وفي علاقاتي بأمهم وفي قوانين الطبيعة وسنن العدالة وأحكام العقل وفي شريعة هذه الديانة الطاهرة المقدسة الخالدة خلود باريها، هذه الديانة التي دنّسها البشر وقد تظاهروا بأنهم يريدون أن يزكّوها فلم يجعلوا منها بطقوسهم إلا ديانة كلمات، لأن من دعاك إلى أن تقوم بما يستحيل القيام به وأعفى نفسه منه، لم يتجشم كلفة باهظة.

ولئن أخطأتُ في ما استنتجتُ، فلا أَغرب من الطمأنينة التي بها انقدتُ لما استنتجتُ. ولو كنتُ من أولئك البشر الذين ساء مولدهم وتصامّوا عن صوت الطبيعة العذب فلم تَنبت فيهم أصالةُ الشعور بالعدالة والإنسانية، لبات هذا التصلب شأناً يسيراً. لكن حرارة قلبي، وفورة شعوري، وسهولة تعلّقي بالناس، وشدّة تسلّطهم عليّ، وما أحسُّ من ألم التمزق حين ينبغي أن أقطع ما بيني وبينهم، ومراعاتي لأشباهي مراعاة فطرية، وحبي ما هو كبير وحقّ وجميل وعادل حبّاً متأججاً، وكرهي للشر على أنواعه، وعجزي عن الحقد والضرر والأذية، بل عجزي أن أروم الضرر والأذية، وحناني، وفيض شعوري ورقّته حيال كل شأنٍ فاضل محبّ كريم لكن ذلك أجمع أيمكنه يوماً أن يكون في نفس واحدة منسجماً هو والفساد الذي يدوس أعزَّ الواجبات من غير تردد في الضمير ولا انزعاج؟ والجواب كلا، فإني لأشعر وأَجهر أن ذلك ليس في الإمكان. فما كان جان جاك، في يوم من أيامه، إنساناً بغير قلب ولا إحساس، ولا كان أباً بلا عواطف، شاذاً. ولربما أخطأتُ، بيد أني لم أقسُ ولا تصلّبتُ.

فلو ذكرتُ ما عندي من أسباب، لقلتُ فوق ما ينبغي أن أقول. وما دامت أسبابي قد استطاعت أن تغويني، فربما أغوت كثيرين سواي. ثم إن الشبان، الذين يطالعونني، لا أريد أن أعرّضهم لخديعة هذا الخطإ عينه. وإنما حسبي أن أقول إن هذا الخطأ قد بلغ المبالغ، حتى إنني لما أسلمتُ أولادي إلى التربية العمومية، وقد تعذَّر عليّ أن أربيهم بنفسي، ولما أعددتُهم لأن يصبحوا عمالاً ومزارعين بدل أن يبيتوا أُولي مغامَرة وطلّاب ثراء، خلتُني قد فعلت فعلة المواطن وفعلة الأب، ونظرتُ إلى نفسي على أنني من رعايا جمهورية أفلاطون. ومذ ذلك الحين، فإن الندامة قد علّمتْني، غير مرة، أنني قد أخطأتُ. ولئن لم يوجّه إليّ عقلي مثل هذا التنبيه، فلقد طالما حمدتُ الله لأنه وقى أولادي مصير أبيهم وجنّبهم المصير الذي كان يتهدّدهم إذ أُكرهتُ على أن أتخلى عنهم. فلو تركتُهم أَكلهُم إلى مدام ديبيناي أو إلى مدام دو لوكسمبورغ فشاءتا أن تتوليا أمرهم في ما بعد، إما صداقةٌ منهما لي، وإما سماحةٌ، وإما لداعٍ من سائر الدواعي، فهل كانوا يبيتون أسعد حالاً، أو هل كانوا، في الأقل، نشأوا نشأة القوم الكرام؟ لستُ أدري، لكني على يقين أنهم كانوا حُملوا على أن يكرهوا ذويهم وربما حُملوا على أن يخونوهم: فمن الخير الخير أنهم لم يعرفوا ذويهم قط.

وهكذا إذاً وُضع ولدي الثالث في ملجإ اللقطاء على نحو ما كنا قد وضعنا الولدين الأولين. كذلك وضعنا هناك الولدين التاليين، إذ رُزقتُ خمسة أولاد لا غير. فبدا لي أن هذا التدبير تدبيرٌ موفَّق، حكيم، شرعي، حتى إنني إذا كنتُ لم أفتخر به علانية، فمراعاة مني لأمهم، ولكن ذَكرتُه لجميع الذين كنتُ قد أطلعتُهم على علاقاتنا؛ ذكرتُه لديدرو ولجريم، ثم أطلعتُ عليه مدام ديبيناي، وبعدئذٍ أنبأتُ به مدام دولوكسمبورغ، وذلك بملء حريتي ومن دون اضطرار إذ

twitter @baghdad_library

كان يسعني إخفاؤه على الجميع. فإن غوين[7] كانت امرأة مستقيمة جد كتوم، فوثقتُ بها حقّ الثقة. أما الصديق الأوحد الذي وجدتُ بعض المنفعة في بوحي إليه، فهو تييرّي الطبيب الذي عالج الخالة المسكينة إذ تعسّر حالها في إحدى ولاداتها. وخلاصة القول إنني لم أُحط سلوكي بأيّ سرّ كان، لا لأني لم أعرف قط كيف أخفي على أصدقائي شيئاً فحسب، ولكن، إلى هذا، لأني لم أرَ في سلوكي من سوءٍ قط. فلما وزنتُ الأمور جميعاً، اخترتُ أفضلها لأولادي، أو ما حسبتُه أفضلها. ولقد وددتُ وما أزال أود لو رُبّيتُ وغُذّيتُ كما رُبّوا وغُذُّوا.

وبينا كنتُ ماضياً في مسارّتي، كانت السيدة لوفاسور، من جهتها، ماضية في المسارّة عينها، ولكن لأغراض هي دون أغراضي تجرداً. وكنتُ قد أدخلتُها وابنتها بيت مدام دوبان التي تولتهما ببالغ إحسانها صداقةً منها لي. فأطلعتْها الأمر على سر ابنتها. ومدام دوبان امرأة طيّبة كريمة. بيد أن الأم لم تذكر لها مبلغ عنايتي بتأمين كل شيء برغم ضآلة مواردي، فجعلت مدام دوبان، من جهتها، تمدّها بسخاء كتمتْنيه البنتُ ما أقمتُ في باريس، إذ أمرتْها أمها أن تكتمه، فلم تقرّ به إليّ إلاّ في الإرميتاج، على أثر مُسارّات متعددة أخرى. وما كنتُ أدري أن مدام دوبان قد اطّلعتْ على الأمر حقّ الاطلاع، إذ لم تلمّح إليّ بشيء منه قط. كذلك لستُ أدري هل اطّلعتْ عليه مدام دو شونونسو كنّتها، إلا أن مدام دو فرنكوي، بنْت زوجها، قد اطّلعتْ عليه، فلم يسعها أن تكتمه. فذكرتْه لي في سنتنا التالية إذ كنتُ قد برحتُ دارهم. فدعاني ذلك أن أكتب إليها رسالة هي بين **مجموعات** كتاباتي أبديتُ لها فيها ما أمكنني إبداؤه من الأسباب دون

(7) غوين اسم القابلة التي تقدم ذكرها ـ المترجم.

أن أعرّض سمعة السيدة لوفاسور وأسْرتها، لأن أبرز تلك الأسباب نتجتْ من هنا، فسكتُّ عنها.

وإني لواثق بكتمان مدام دوبان للسر ثقتي بصداقة مدام دو شونونسو. ولقد كنتُ على ثقة بصداقة مدام دو فرنكوي التي لما فشا سرّي، كان قد مضى على وفاتها زمن طويل. وما كان سرّي ليفشى لولا القوم أنفسهم الذين ائتمنتُهم عليه، والواقع أنه لم يفشَ إلا بعد قطيعتي معهم. وإن هذا الأمر وحده ليشهدُ عليهم؛ وإذا كنتُ لا أبرئ نفسي من اللوم الذي أستحقّ، فأَنْ أحمل وزره أَحَبُّ إليّ من أن أحمل الوزر الذي يستحقّه خبثهم ورداءتهم. إن ذنبي عظيم، لكنه خطأ من الأخطاء؛ فلقد أهملتُ واجباتي، إلا أن الرغبة في الضرر لم تُداخلِ قلبي، ولا تهيأَ للمشاعر الأبوية أن تفيض على أولادي لأني لم أَرهم قط. أما خيانة الصداقة، ونقضُ أقدس العهود، ونشرُ ما انطوت عليه صدورنا من أسرار، والتلذذ يجلب العار على صديق مخدوع ما زال يحترمنا وهو يفارقنا، فإن هذه الأمور كلها ليست بذنوب، بل هي ألوان دناءة وخبث.

لقد وعدتُ باعترافي لا بتبريري، وإني لأقف عند هذا الحد، عليّ الصدقُ وعلى القارئ الإنصاف، ولن أسأله من شيء فوق هذا أبداً.

ثم إن زواج السيد دو شونونسو قد حبَّب إليّ بيت أمه أكثر مما أحببتُه قبْلاً، وذلك لجدارة العروس وذكائها؛ هذه العروس شابة جد لطيفة، وقد لاح أنها فضّلتْني على سائر كتبة السيد دوبان. وكانت هي البنت الوحيدة للفيكونتسة دو روشوشوار، صديقة الكونت دو فريز الكبيرة وبالتالي صديقة جريم الذي التحق به. ومع هذا، كنتُ أنا من أَدخَلَ جريم بيت ابنتها، لكن طباعهما لم تتوافق، فلم يعقب هذه العلاقة شيء، فتوخى جريم، منذئذٍ، ما هو ثابت، فآثر الأم،

twitter @baghdad_library

وهي سيدة من علية القوم، على ابنتها التي ابتغت أصدقاء أوفياء يلائمونها، ما يتدخلون في أيّ دسيسة كانت ولا يسعون لأن يكسبوا رضى العظماء. فلما لم تجد مدام دوبان في مدام دوشونسو كل ما توقّعتْ أن تجد عندها من طاعة وامتثال، أشاعت في بيتها كثيراً من الكآبة. فكان أن مدام دوشونونسو، وهي التي افتخرتْ بجدارتها وربما اعتزت بأصلها، قد فضّلتْ أن تتخلى عن مباهج المجتمع، تكاد تبقى وحدها في جناح منزلها، على أن تحتمل نيراً أحست أنها لم تُخلَق لأمثاله. فزادني وجه المنفى هذا تعلّقاً بها وقد ملتُ إلى الأشقياء ميلاً طبيعياً. فرأيتُ عندها روحاً ميتافيزيقياً ومفكراً، وإن يكن على شيء من السفسطة بعض الأحيان. أما حديثها الذي لم يشبه قط حديث فتاة قد خرجت من الدير، فإني أَلفيتُه جذاباً. ومع ذلك، لم تكن قد بلغتْ سنتها العشرين. وكانت ذات بشرة رائعة البياض؛ ولو كانت أَحسن هيئة وخطواً، لغدتْ طويلة القوام، بهيّته. ولقد ذكّرني شعرها الأشقر الرماديّ النادر الجمال بشعر ماما المسكينة يوم هي في عز الشباب، فهزّ قلبي هزّاً. ولكن وقاني منها ومن فتونها ما كنتُ قد اتخذتُ لي من مبادئ قاسية قد صممتُ على أن ألتزمها مهما اقتضاني ذلك من ثمن. فبقيتُ صيفاً كاملاً أخلو معها، نحو ثلاث ساعات أو أربع ساعات من كل يوم، أبرهن لها بعض الحسابيات جادّاً وأُبرمها بأرقامي التي لا حد لها، لستُ أفضي إليها بكلمة غزل واحدة ولا أغمزها البتة. ولو أن الأمر جرى بعد خمس سنوات، أوست، لما كنتُ يومئذٍ على هذا القسط من الحكمة أو من الحمق؛ ولكن كُتب أني لن أُحبّ إلا مرة في العمر واحدة وأن ستنال امرأةٌ غيرها أولَ تنهداتي وآخرها.

وكنتُ، مذ أقمتُ في بيت مدام دوبان، قد رضيتُ بنصيبي فلم أرغب قط في أن أحسّنها. وكانت الزيادة التي أجرتْها هي والسيد دو

فرنكوي على مرتبي قد أتت منهما وحدهما. أما في سنتنا تلك، فإن السيد دو فرنكوي، إذ تضاعفتْ صداقته لي يوماً بعد يوم، رأى أن يوسّع رزقي ويخفف ما أنا عليه من حالة وهي في غير استقرار. وكان هو الناظر العام لواردات بيت المال. وكان السيد دو دويه، خازنُهُ، شيخاً غنياً، فأراد أن يستقيل من وظيفته. فعرضها عليّ السيد دو فرنكوي، فظللتُ بضعة أسابيع أقصد السيد دو دويه لكي أتدرب على أعماله وآخذ عنه ما أحتاج إليه من هذا القبيل. لكني حصّلتُ المعلومات التي أعوزتني تحصيلاً بطيئاً سيئاً. فلم يسعني قط أن أَفهم حقّ الفهم نظام حسابات مشوشة تشويشاً مقصوداً، وذلك كله إما لأني ضعيف الموهبة في هذا النحو، وإما لأن السيد دو دويه لم يُخلصني التعليمَ وقد بدا لي أنه يريد أن يخلفه شخصٌ غيري. ولئن كنتُ لم أَفهم دقائق المهنة، فإني لم أزل آخذ عن سيرها الجاري ما يكفيني لأن أزاولها على وجه التقريب؛ حتى لقد ابتدأتُ أعمل، فتوليتُ السجلات والصندوق [الخزينة]، وكنتُ أؤدّي الدراهم وأتسلمها وأوقّع الإيصالات. ولئن كنتُ ضئيل الميل إلى هذا الشغل وقليل الموهبة فيه، فلقد صممتُ أن أتغلب على كراهتي له فأمارسه حقّ الممارسة بعد ما قام نضج السنين يشيع فيّ التعقل والحكمة. ولكن من سوء الحظ أنني لما ابتدأتُ بذلك، رحل السيد دوفرنكوي رحلة قصيرة توليتُ من خلالها صندوقه الذي لم يكن به يومئذٍ إلاّ ما يراوح بين خمسة وعشرين ألف فرنك وثلاثين ألفاً. فهمّتني هذه الوديعة وأقلقتني، فشعرتُ بأنني لم أُخلَق لكي أقوم بعمل أمين الصندوق. ولستُ أشكّ أن حنقي، في أثناء غياب السيد دوفرنكوي، قد شارك في المرض الذي أصابني من بعد رجوعه.

قلتُ، في الجزء الأول من كتابي، إنني ولدتُ مائتاً، ولقد عانيتُ، في سنواتي الأُول، انحصاراً في البول شبه دائم، وذاك

twitter @baghdad_library

لعاهة في المثانة أساسية، فكابدتْ سوزون، عمتي التي اعتنت بي، مشقّات لا يمكن تصوّرها لكي تحفظني. فأفلحتْ، وكانت الغلبة لبنيتي المتينة، فقويتْ صحتي أيامَ الشباب، حتى إنني لما بلغتُ الثلاثين من العمر، كدتُ لا أحسّ بعاهتي الأصلية إذا استثنيتُ علّة ارتخاء القوى وقد رويتُ قصتها، وإذا استثنيتُ كثرة حاجتي إلى أن أبول، وهي حاجة كان أيسرُ ارتفاع في حرارة بدني يجعلها مزعجة في كل حال. وكان أول ما تجدّد من إحساسي بتلك العاهة هو يومَ وصلتُ إلى البندقية. فإن عناء الرحلة والحر المذيب الذي قاسيتُه قد تسببا لي بحريق في المثانة وبأوجاع في الكليتين لزمتْني إلى حلول الشتاء. حتى إذا لقيتُ البادوية، حسبتُ أن سأموت، ولكن لم أشعر بأقلّ انزعاج. فلما أضنيتُ نفسي من أجل جوليته، وكان ذلك بالخيال أكثر مما كان بالجسد، غدوتُ أَحسن حالاً مما كنتُ عليه في أيّ وقت سبق. ثم إني لما ارتفعتْ حرارة بدني في تكرار ذهابي إلى فانسين بعدما اعتُقل ديدرو، والحر وقتئذٍ شديد، أصابني التهاب في الكليتين، فلم أستردّ عافيتي يوماً من الأيام.

أما في المدة التي أذكرها الآن، فربما أتعبني الشغل بذلك الصندوق اللعين، وهو شغلٌ مستكرَه، فانحطتْ صحتي أضعاف ما تقدّم لها أن انحطتْ، فلزمتُ سريري خمسة أسابيع، أو ستة، وأنا على أشقى حالة يمكن تصوّرها. فبعثتْ إليّ مدام دوبان مورانَ الشهير، فقاسيتُ منه أوجاعاً لا يمكن تصوّرها، ذلك برغم براعته ومهارة يديه، ولم يستطع قط أن يسبرني. فنصح لي أن ألجأ إلى داران، وكانت الأميال التي سبرني بها داران ألْينَ فأمكنَ إدخالها. لكن موران، لما أطلع مدام دوبان على حالتي، قال لها إني، بعد ستة أشهر، لن أبقى في الأحياء. فبلغني هذا القول، فحملني على أن أفكر جد التفكير في حمق تضحيتي براحة أيامي القليلة الباقية

وبهجتها، وفي عبودية شغل لم أشعر الا بالكراهية له. ثم كيف أطابق بين المبادئ القاسية التي تبنيتُها ووضع لا يتصل بها إلا اتصالاً ضعيفاً جداً، أوَلاَ يكون لي فضلُ التبشير بالتجرد والفقر وأنا أمين صندوق قابض المالية العام؟ فاختمرتْ في خاطري تلك الأفكار هي والحرارة المرتفعة وانسجمتْ أيّ انسجام، حتى لم يمكن نزعها من ذهني قط. فلما كنت في النقاهة، ثبتُّ في ما قد عزمتُ عليه في خلال هذياني ثباتاً رابط الجأش، هادئاً. فتخليتُ إلى الأبد عن كل رغبة في الإثراء والتقدّم. وصممتُ على أن أعيش، في ما بقي لي من قليل الأيام، عيشة الحرية والفقر، فاستخدمتُ كل ما بنفسي من قوّى لكي أحطّم أغلال الآراء ولكي أصنع كل ما أستحسن صنْعَ شجاعة وإقدام، ليس يزعجني حُكمُ الناس في حال من الأحوال. أما العقبات التي صارعتُ، والمجهودات التي بذلتُ لكي أنتصر، فلا يمكن تصوّرها. فأفلحتُ ما أمكن أن أفلح، بل فوق ما رجوتُ أن أفلح. ولو نفضتُ عني نير الصداقة كما أَحسنتُ أن أنفض نير الآراء، لربما أَصبتُ غرضي، ولعله أعظم الأغراض، أو لعله، في الأيسر، أنفعها للفضيلة في ما قد تمثَّله الإنسان أبد الدهر. ولكن بينما قد دستُ الأحكام الطائشة التي يقول بها أخلاط العامة ممن زُعمَ أنهم عظماء وأنهم حكماء، إذا تسلَّط عليّ من زُعم أنهم أصدقاء، فانقدتُ لهم انقياد الطفل وقد حسدوني أني أسيرُ وحدي على درب جديد، وتظاهروا أنهم جد معنيين بإسعادي، في حين لا همّ لهم إلا أن يجعلوني في المضحكات. فقاموا يسعون لإذلالي حتى يمكنهم أن يطعنوا فيّ. وإذ حسدوني بسبب شهرتي الأدبية فحسدهم هذا أقل من حسدهم بسبب اصلاحي لشخصيتي، وهو إصلاح أحدد هنا حقبته. ولربما كان لهم أن يغفروا لي تألقي في فن الكتابة، ولكن لم يكن لهم ليغفروا لي أن أعطيت بسلوكي مثالا يحتذى ويزعجهم. لقد ولدت لأجل الصداقة، فتعهّدها طبعي الليّن الوادع تعهداً لا مشقّة

twitter @baghdad_library

فيه. ثم إن جميع من عرفوني قد أحبّوني ما دام الناس على جهل بي، فلم يكن لي من عدوّ واحد. ولكن ما إن اشتهر اسمي حتى فقدتُ أصدقائي. فكانت محنةٌ قاسية شديدة. ولعلّ ما أقسى منها وأشدّ هو أنه قد جاورني أناس حملوا هذا الاسم فلم يستخدموا الامتيازات التي يخولّهم إياها إلا ليجرّوني إلى الخراب. ولسوف أعمد، في ما يلي من هذه الاعترافات. إلى الإسهاب في تلك الدسيسة المستكرهة، ولستُ أبدي، ههنا، إلا مصدرها: وعما قريب سيرى القارئ كيف تكوّنت عقدتها الأولى.

ولقد كنتُ، في الحياة المستقلة التي أَردتُ، لا بد لي من أن أتعيش. فتصوّرتُ وسيلة جد يسيرة هي أن أنسخ الألحان أتقاضى كذا وكذا درهماً لنسخ الصفحة الواحدة. ولو أن عملاً آخر كان يؤدّي إلى الغرض نفسه، لأخذتُ به. لكن هذه الصناعة قد لاءمت ذوقي، وهي، دون سواها، يمكنها أن تقوتني يوماً فيوماً من غير أن تقسرني، فرضيتُ بها. فأصبحتُ ناسخ ألحان بعد ما كنتُ خازن رجل مال، وخلتُني لم تبقَ لي حاجة إلى التبصر، وأَسكتُّ ما بي من زهو. وحسبتُ أنني، بهذا الاختيار، قد كسبتُ جداً، فلم أندم على قيامي به ولا هجرتُ تلك المهنة إلا على كره مني، قصْدَ أن أعود إليها فور ما أستطيع. ثم إن نجاح خطابي الأول قد جعل تنفيذي لما عزمتُه أسهلَ عليّ من قبْل.

فلما فاز **خطابي** بالجائزة، تولى ديدرو أمر طبعه. وبينما كنتُ في سريري، إذ كتب إليّ ديدرو رقعة تبشّرني بنشر **الخطاب** وبتأثيره، قال: «إن الخطاب قد فاق جميع التصورات، فليس لهذا النجاح من نظير». إن هذا الرضى من قبل الجمهور على مؤلّف مجهول لم يطلب الرضى قط، وهبني أول سبب لأثق بموهبتي ثقةً حقيقية، وهي الموهبة التي دائماً ما شككت فيها إلى ذلك الوقت، على الرغم من شعوري الجواني [دخيلتي]. فأدركتُ مدى النفع الذي أقدر أن

أَجنيه منها في ما قد تأهبتُ لأن أختار من هذا القبيل، ورأيتُ أن الناسخ، الذي أصاب في الأدب قسطاً من الشهرة، لن يتعطل في واقع الحال.

فما أن عزمتُ على ما قرّرتُ، وما أن ثبتُّ فيه، حتى كتبتُ رقعة إلى السيد دو فرنكوي أُبلغه ذلك وأشكر له وللسيدة دوبان ما قد أولياني من معروف وأسألهما العون على قصدي. فلم يفهم فرنكوي شيئاً من هذه الرقعة، فخالني لا أزال في حمّى الحرارة فخفّ إليّ، فوجدني راسخاً في عزمي لم يقوَ أن يثنيني عنه، فقام يقول للسيد دوبان ولسائر القوم إنني قد جُننتُ. فتركتُه يقول، ومضيتُ لشأني. فابتدأتُ أصلحُ ذاتي بأن أَصلحتُ زينتي؛ فخلعتُ عني المزركشات المذهّبة والجوارب البيض، واتخذتُ لي وفرةً مستديرة الشكل، وأَلقيتُ سيفي، وبعتُ ساعتي أَقول لنفسي بفرح لا يمكن تصوّره: «الحمدلله على أنني لن أحتاج من بعد اليوم إلى أن أعرف في أيّ ساعة من الوقت أنا». ولقد شاءت رقة السيد دو فرنكوي أن ينتظر وقتاً غير يسير قبلما تسلَّم مني صندوقه [خزينته]. فلما وجدني، في النهاية، قد صممتُ على قصدي حقّ التصميم، عهد في أمر صندوقه إلى السيد داليبار الذي كان، في ما مضى، مؤدّباً للصغير شونونسو والذي عُرف في علم النبات بكتابه «**نبات باريس**»(*)(8)

ولئن كان إصلاحي لزينتي المفرطة النفقة هو إصلاح متقشف، فإنني لم أَصل به، في أول الأمر، إلى ألبستي الداخلية التي كانت

(*) ولا أشك في أن فرنكوي وجماعته قد أصبحوا يروون هذا كله رواية تغاير قولي كل المغايرة، إلا أني اعتمد على ما قد قاله هو لجميع الناس يؤمئذ وبعد وقت بعيد، إلى أن تكونت الدسيسة. ويتذكر قوله أُولو الرأي السليم والنية الصافية.

(8) نبات باريس في الأصل باللاتينية: (*Flora parisiensis*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

جميلة النوع، وافرة العدد، وهي بقية أمتعتي التي ملكتُها يوم أنا في البندقية والتي تعلّقتُ بها تعلّقاً خاصاً. ثم إني، لفرط ما قد حرصتُ على نظافتها، جعلتُها أداةَ فخفخة باهظة النفقة. فأسدى إليّ بعضهم خدمة جزيلة إذ خلّصني من تلك العبودية. وذلك أنه في ليلة الميلاد، والخادماتُ في صلاة المساء، وأنا في حفلة الموسيقى الدينية، كُسر بابُ الهري حيث نُشرتْ كلّ ألبستي الداخلية من بعد غسلها. فسُرق جميعُ ما كان هناك ومن بينه اثنتنان وأربعون قميصاً لي جيدة القماش هي كل ما كنتُ أملك من ألبسة داخلية. فوصف الجيران رجلاً أبصروه في تلك الساعة نفسها وقد خرج من القصر يحمل بعض الأمتعة، فظننا، أنا وتيريز، بشقيقها استناداً منا إلى هذا الوصف، وكنا نعرف أن شقيق تيريز امرؤ شرّير. فدفعتْ أمه عنه التهمة دفعاً عنيفاً، ولكن أيّد التهمة ما توافر لنا من أدلة فأبقانا على ظننا، وذلك برغم حنق الأم. فلم أجرؤ على القيام بتحريات دقيقة خوف أن أقع من الأدلة على أضعاف ما أردتُ أن أقع عليه. ومنذئذٍ لم يدخل شقيق تيريز بيتنا قط، ثم اختفى اختفاءً نهائياً. فرثيتُ لحال تيريز لانتسابنا لأُسرة متباينة هذا التباين كله، فحثثتُ تيريز على أن تنفض هذا النير البالغ الخطر كما لم أحثّها يوماً على أن تنفضه. ولقد شفتني هذه الحادثة من ولعي بالألبسة الداخلية الجميلة؛ فعدتُ، مذ ذلك الحين، لا أملك غير ألبسة داخلية متوسطة النوع تنسجم هي وسائر ألبستي.

فلما أكملتُ إصلاح شأني على هذه الصورة، بتُّ لا أفكر إلا في أن أدعمه وأديمه أَعملُ على أن أجتث من قلبي جميع ما كان لا يبرح متصلاً بأحكام البشَر، وجميع ما ربما مال بي عما هو بذاته خيّر حكيم، وذلك لخوفي من لوم الناس. وكان من الضجة، التي أثارها مؤلَّفي، أن ما عزمتُ عليه قد بعد صداه وجلب لي

بعض الأشغال، فبدأتُ مهنتي وقد أَصبتُ فيها قسطاً من التوفيق كافياً. لكن عدة أسباب قد حالت دون أن أنجح على نحو ما كنتُ أستطيع النجاح في حالات أخرى. أما أول هذه الأسباب، فسوء صحتي. فإن النوبة التي اعترتني، يومئذٍ، قد نشأتْ عنها نتائج لم تَدعني قط على ما كنتُ فيه من عافية، وأحسب أن الأطباء، الذين انقدتُ لهم، قد أضروني بقدْر ما أضرني الداء. ولقد راجعتُ موران، فداران، فهلفيسيوس، فمالوان، فتييرّي، وكلهم نطاسيّ عالم، وكلهم صديق لي، فعالجني كل واحد منهم على حسب طريقته، فلم يخففوا عني شيئاً، بل أوهنوني إلى نحو بعيد. وكنتُ كلما أَذعنتُ لإرشاداتهم، ازددتُ شحوباً ونحولاً وضعفاً. فأصبحتْ مخيّلتي، التي أثاروها فأقلقوها، تقيسُ حالي بتأثير عقاقيرهم ولا تريني، قبْل الموت، إلا سلسلة أوجاع، وإلا انحصار البول، وإلا الرمل والحصى. وبات كل ما يخفف آلام سواي، أعني ماء الحشائش والحمّامات والفصد، يزيد في آلامي. فلما وجدتُ أن أميال داران لم تخفف عني إلا إلى حين، وأن لها وحدها بعض التأثير فيّ، إذ لولاها ما خلتُني أبقى حيّاً، جعلتُ أدّخر كميات منها وافرة، باهظة الثمن، كيما يتهيأ لي أن أحملها حتى منتهى العمر ولو لم يبقَ عند داران شيء من تلك الأميال. ولكم استخدمتُها، في غضون ثماني سنوات أو عشر، حتى إنني، ولا ريب، قد اشتريتُ منها بخمسين ليرة فرنسية ذهباً، ففضلَ لديّ من أميال السبر ما قد فضل. وإنك لتدرك أن مثل هذا العلاج الغالي الثمن، الشديد الإيلام، العظيم المشقّة، لم يدَعني أعمل من غير أن أسهو، وأن المائت لا يبذل بالغ الجهد ليكسب قوت يومه.

ثم إن الشواغل الأدبية قد ألهتني إلهاءً لا يقلّ عن سابقه ضرّاً لعملي اليومي. فما إن صدر **خطابي** حتى انقضّ عليّ حماة الأدب

twitter @baghdad_library

وكأنهم على موعد. فساءني أن أرى كثيراً من أمثال السيد جوسّ[9]، ممن لا يفقهون حتى هذا الموضوع، قد ابتغوا أن يبدوا آراءهم فيه إبداء الأساتذة المعلّمين، فتناولتُ قلمي وقلتُ في بعض منهم قولاً أضحكَ الناس عليهم. فكان أن أحدهم المدعو السيد غوتييه، وهو من نانسي وأول من وقع عليه قلمي، قد أصابته رسالة مني إلى السيد جريم. أما الثاني، فكان ستانسلاس الملك هو بنفسه، بيد أنه لم يتنازل بأن يدخل معي في جدل. فاضطرني هذا الشرف، الذي أوْلاني إياه، أن أغيّر أسلوب ردّي عليه، فاتخذتُ أسلوباً أرصن وإن لم يكن دون سالفه عنفاً، فدحضتُ المقال لم أسئ إلى القائل، وعلمتُ أن أحد اليسوعيين، ويدعى الأب دو مونو قد شارك في هذا المقال. فعوّلتُ على فطنتي أميّزُ ما هو للأمير عما هو للراهب، ثم انقضضتُ على جميع العبارات اليسوعية انقضاضاً لا هوادة فيه، ولفتُّ النظر، في أثناء ذلك، إلى غلط في التأريخ لم أحسبه قد أتى إلا من الكاهن الوقور. وما يزال هذا التأليف، وهو الذي لستُ أدري لمَاذا الضجة التي أثارها هي أقل من سائر كتاباتي الأخرى، ما يزال تأليفاً هذا فريداً في بابه. ولقد انتهزتُ هذه الفرصة التي أتاحت لي أن أعلّم الجمهور كيف يستطيع شخص فرد أن يذود عن قضية الحقّ ولو من مليك. فصعبَ أن يُتخَذ أسلوبٌ أعلى إباءً وأوفى احتراماً من الأسلوب الذي اتخذتُ لكي أردّ عليه. وكان في سعدي أنني نازلتُ خصماً أحترمه، فأمكنني أن أعرب له عن احترامي من غير أن أتملّقه، فأَصبتُ بعض التوفيق وبقيتُ مصون الكرامة. فخاف عليّ أصدقائي وظنوا أني قد أمسيتُ في سجن الباستيل. ولكن لم تساورني هذه الخشية طرفة عين، فكنتُ على صواب. فإن ذلك الأمير الطيّب

---

(9) جوسّ شخص في بعض تمثيليات موليير، وهو مثال ذي النصائح النفعية ـ المترجم.

لما قرأ إجابتي، قال: «لقد نلتُ نصيبي، فلن أحتك به من بعد اليوم». فأولاني هو، مذ ذلك الوقت، مختلف آيات التقدير والمراعاة، وسأذكر بعضاً منها؛ أما ردّي، فلقد انتشر في فرنسا وفي سائر أوروبا ليس يعوقه عائق ولا يجد فيه أحد ما يلومني عليه.

ثم كان لي، بُعيدئذٍ، خصم آخر لم أتوقّعه، وهو السيد بورد نفسه، رجل من مدينة ليون، وكان، لعشر سنوات خلت، قد أظهر لي جمّ صداقة وأسدى إليّ عدة خدمات. ولم أكن قد نسيتُه، ولكن أغفلتُه كسلاً مني، فلم أبعث إليه بمؤلَّفاتي إذ لم تتح لي الفرصة أن أبعث بها إليه. وإذاً، فلقد أخطأتُ، فانتقدني انتقاداً نزيهاً مجرّداً، فأجبته بمثْل ما قد فعل. فردّ بأسلوب أشدّ حزماً. ثم كان جوابي الأخير، فسكت هو عنه، لكنه بات ألد عدوّ لي، فاغتنم أيام محني فصنع في شأني أهاجي شنيعةً، وسافر إلى لندن لا لغرض إلا كيما يضرّني هناك.

ثم إن هذه المساجلات كلها قد شغلتْني جداً، فبدَّدت من وقت نسخي للألحان تبديداً كثيراً، ولم يكن بها تقدّمٌ بعيد في سبيل الحقّ، ولا كان لي بها ربحٌ ماليّ جزيل. وكان بيسّو الكتبيّ هو من تولى، يومئذٍ، بيع مطبوعاتي، فأدّى إليّ من دخلها قسطاً زهيداً، ولم يؤدّ إليّ شيئاً منه في أغلب الأحايين. فمن **خطابي الأول**، مثَلاً، لم أصب درهماً واحداً قط، وكان ديدرو قد دفع الخطاب إلى الكتبيّ مجاناً، فبقيتُ وقتاً طويلاً أنتزع منه يسيرَ ما كان يؤديه إليّ فلساً بعد فلس؛ ولم يكن شغلي بالنسخ على إقبال. فمارستُ مهنتين، وهذي هي الوسيلة الوحيدة كيما أسيء مزاولتي إحداهما والأخرى.

كذلك فإن المهنتين قد تعارضتا من غير هذا الوجه، أعني من حيث تباين أسباب المعيشة التي أكرهتاني عليها. وكان نجاح مؤلّفاتي الأولى قد جعلني في الموضة الشائعة بين الناس. وكان الشأن، الذي

twitter @baghdad_library

اخترتُه، قد أثار فضولهم فأرادوا أن يعرفوا هذا الشخص الغريب الذي لم يبتغ أحداً ولا أهتم إلا بأن يحيا على حسب طريقته حُرّاً سعيداً: فكفى بذاك مانعاً له من أن يحيا على حسب طريقته. فكانت حجرتي لا تخلو ممن أتوا يستولون على وقتي يتوسلون إليّ بمختلف الذرائع. وعمدت النساء إلى ألف حيلة كي أتغدى عندهن. وكنتُ كلما عنّفتُ الناس، ازدادوا عناداً. فلم يسعني أن أرفض الجميع. ولئن بات لي منهم ألف عدوّ، فإن مراعاتي لهم لم تفتأ تسيطر عليّ، وكنتُ كيفما عملتُ لم يبقَ لي أنا ساعةٌ في اليوم واحدة.

فشعرتُ، وقتئذٍ، بأن الإنسان لا يسهل عليه، في كل حال، أن يكون فقيراً وأن يكون مستقلاً قدْرَ ما يتخيل سهولة هذا الأمر. فلقد أردتُ أن أرتزق بمهنتي، ولكن لم يُرد الجمهورُ. فتصوّر الناسُ ألف وسيلة يسيرة لكي يعيضوني من الوقت الذي أفقدوني إياه، حتى لم يبقَ إلا أن يعرضوني بَعْدَ حين كما يُعرَض قراقوش، فيؤدّي كل من يشاهدني كذا وكذا درهماً. ولستُ أعرف قسراً أذلّ ولا أشدّ إيلاماً من هذا القسر. فلم أجد علاجاً له إلا أن أرفض الهدايا، كبيرة كانت أم صغيرة، ما أستثني منها هدية أحد. فلم يفض ذلك إلا إلى اجتذاب المتبرعين وقد ابتغوا أن يظفروا بمجد التغلب على مقاومتي إياهم فيضطروني أن أكون مديناً لهم على كره مني. ولو سألتُ فلاناً من الناس، لما أعطاني درهماً واحداً، لكنه لا ينفكّ يزعجني بعروضه، حتى إذا رفضتُها، هبّ ينتقم مني ينسب رفضي إلى التكبر والعناد.

ولا ريب أن النهج الذي اخترتُه وأن النسق الذي أردت السير عليه لم يلائم ذوق السيدة لوفاسور. ثم إنّ كل التنزه من المنفعة الذي لابنتها لم يمنعها من أن تتبع توجيهات أمها. ذلك والمدبّرتان، كما قد دعاهما غوفكور، لم تكونا في كل حال على مثل صلابتي

في رفضهما ما قد اخترتُ وابتغيتُ. ولئن أُخفيتْ عليّ جمّة أمور، لقد رأيتُ منها ما كفاني لأن أتبيّن أنني لم أرَ كل أمر. فإنّ اتهامي بالتواطؤ، وقد هان عليّ أن أحتاط لنفسي منه، لم يشفني بقدْر ما أشفاني ألمُ التصوّر أنني لن أقوى البتة على أنّ أكون سيد بيتي وذاتي. فتوسلتُ وتضرعتُ وحنقتُ، ولكن في غير طائل؛ فزعمتْ أم تيريز أنني دائم التأنيب، فظ. فكان لها مع أصدقائي مهامَسات لا تنقضي؛ وكان جميع ما في عيشتي البيتية أسراراً في أسرار. فأصبحتُ لا أجرؤ على أن أستفسر عما يجري في بيتي مخافةَ ألا أَزال أعرّض نفسي للدواهي والأعاصير. فلقد أعوزتْني صلابة لم أكن خليقاً بها فتنقذَني من هذه المتاعب جميعاً. فأحسنتُ صياحاً، ولم أحسن عملاً، فتركوني أقول، ومضوا لشأنهم يفعلون.

فكرهتُ مقامي في باريس، آخر الأمر، وقد قسرتْني تلك المراجعات المستمرة والمزعجات اليومية. وكنتُ إن أَذنتْ لي مزعجاتي في أن أخرج ولم أنقذْ لمعارفي من هنا ومن هناك، ذهبتُ أتنزه وحدي، أتأمل في طريقتي العظيمة، ألقيْ على الورق شيئاً منها أخطّه بقلم لا يفارق جيبي البتة، أكتب في دفتر أبيض صغير. وهكذا فإن الحال الذي اخترتُ قد قذفت بي مزعجاته التي لم أتوقّعها في الأدب، إلقاءً تامّاً فأتلهى عما كنتُ فيه. وهكذا حملتُ في بواكير مؤلّفاتي مزاجَ القلق الذي شغلني بها.

وشارك في ذلك عامل آخر. فلقد أُلقيتُ بين الناس على كره مني وأنا على غير ميولهم، ليس يمكنني أن أتردى بها ولا أن أقسر نفسي عليها، فاتخذتُ لي ميلاً أغناني عنها. ثم إن حيائي الغبيّ، العبوس، الذي أعياني التغلب عليه، كان مصدره الخوف من أن أقصّر في أسباب اللياقة والمجاملة، فقررتُ أن أدوسها كيما أقوى عليها وأتشجع. فتواقحتُ وصرتُ لاذع السخرية يدفعني إلى ذلك

twitter @baghdad_library

داعي الحياء؛ فتكلفتُ أن أستخفّ بالتهذيب الذي لم أدر كيف أَسلك فيه. فصحَّ أن هذه الفظاظة، التي وافقتْ مبادئي الجديدة، قد تعالت في روحي فأخذتْ عن روحي جرأةَ الفضيلة. وإن جاز لي، قلتُ إن الفظاظة عندي قد استندتْ إلى هذا الركن المكين فازدادت ارتكازاً وطال أجَلها إلى أبعد مما كان متوقَّعاً من مجهود يخالف طبيعة كياني حقَّ المخالفة. ولئن اشتهرتُ بالفظاظة وبالنَفْر من الناس اشتهاراً خلعتْه عليّ ظواهرُ هيئتي وبعضُ الكلمات الموفّقة مني، فلا ريب أنني، في المواقف الخاصة، لم أدعم هذا السلوك إلا دعماً واهياً. فأن يَعمد أصدقائي ومعارفي إلى شخصي المتوحش النافر يقودونه وكأنه الحمَل، وأن أَعمد، في سخريتي اللاذعة، إلى الاقتصار على الحقائق القاسية، إلا أنها حقائق عامة، ذلك ما لم أَعرف معه قط أن أوجّه كلمة مكدّرة لأحد أيّاً كان.

ثم إن أوبرا «**عرّاف القرية**»(10) استكملت إشاعة اسمي في الذوق العام [الموضة]، فلم ألبث إلا قليلاً حتى لم يبقَ في باريس أحد يبتغونه كما قد ابتغوني. أما قصة هذه الأوبرا، التي تَذكَّرها الناس ردحاً من الزمن، فإنها تتصل بما كان لي يومئذٍ من علاقات. وهذا تفصيل يجب أن أدخل فيه حتى يُفقَه ما يلي نصه.

فلقد رُزقتُ عدداً غير يسير من المعارف، ولكن لم أُرزَق إلا صدقين ممتازين: ديدرو وجريم. وكان من رغبتي في أن أضم بين كل ما هو عزيز عندي أن صداقتي لكليهما أمست أشدّ من أن لا يلبث أحدهما إلا وهو صديق الآخر. فوصلتُ ما بينهما، فتوافقا واتحدا فوق ما اتحدا بي. وكان لديدرو معارف لا يحصون؛ أما جريم، وهو أجنبي حديث القدوم، فلقد احتاج إلى أن يتخذ له

(10) **عراف القرية** (*Le devin du village*) ـ المترجم.

أصدقاء. فلم أرغب في شيء رغبتي في أن أجتلبهم له. وكنتُ قد وصلتُه بديدرو، ثم وصلتُه بغوفكور. ومضيتُ به إلى بيت مدام دو شونونسو ومدام دييناي والبارون دولباخ الذي كادت علاقتي به تكون على كره مني. فأصبح جميع أصدقائي أصدقاء لجريم، وهذا سهلٌ جداً؛ ولكن لم يصبح قط أحد من أصدقائه صديقاً لي، وهذا أقلُّ يسراً. وحين كان جريم يقيم في بيت الكونت دو فريز، دعانا إلى الغداء عنده مراراً؛ إلا أنني لم أنل يوماً دليل صداقة ومراعاة لا من الكونت دو فريز ولا من الكونت دو شومبرغ نسيبه والصديق الحميم لجريم، ولا نلتُ مثل هذا الدليل من أيّ شخص آخر كان، رجلاً أم امرأة، ممن قامت بينه وبين جريم أسبابُ تواصُل. ولستُ أستثني إلا الأباتي راينال، فإنه، مع صداقته لجريم، كان في أصدقائي، فبسط لي يده، عند الحاجة، بسطاً نادر السخاء. بيد أني كنتُ قد عرفتُ الأباتي راينال من زمن طويل قبلما عرفه جريم، ولم أزل متعلّقاً به مذ أولاني، في مناسبة عابرة، آيةً قد أَفعمها اللطف والعناية والكرم فلم أنسها قط.

والأباتي راينال هذا، صديق غيور، لا ريب في ذلك. فأوتيتُ البرهان على هذه الصداقة ما يناهز الوقت الذي أذكره الآن، وذلك مع جريم نفسه وقد اتصل بالكاهن اتصالاً وثيق العرى. وكان جريم قد صادق الآنسة فلْ بعض الوقت، ثم خطر له فجأةً أن يهيم بها أيّ هيام وقد أراد أن يحلّ عندها محلّ كاهوزاك[11] فادّعت الفتاة أنها مقيمة على حبّها، فصدّت طالبها الجديد. فهبّ يتويّل وقد شقّ عليه الأمر حتى ودّ لو يموت. واعتراه، على حين بغتة، داء هو أغرب علّةٍ سُمع بها على الدهر. فسلخ الأيام والليالي وهو في انحطاط

(11) كاهوزاك (1700-1759) مؤلّف موسيقي ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

متلاش موصول، وعيناه مفتوحتان، وعرْقه نابض، إلا أنه لا يتكلّم ولا يَطعم ولا يتحرك، يبدو أحياناً وقد سمع، لكنه لا يجيب البتة ولو بالإشارة. وكان جريم، إلى ذلك، هادئاً، لا اضطراب، لا وجع، لا ارتفاع حرارة؛ فظلَّ على هذه الحالة وكأنه ميت. فتناوبنا، أنا والأباتي راينال، أمر ملازمته: فكان الكاهن، وهو أصلبُ بنيةً مني وأحسنُ عافية، يلازمه في الليل؛ وكنتُ ألازمه في النهار، لسنا نفارقه كلانا أبداً، فلا يذهب أحدنا إلا وقد أتى الآخر. فقلق الكونت دو فريز، فجاءه بسيناك الذي عاينه جيداً فقال إنه لن يحصل شيء، ولم يصف له شيئاً. بيد أن خوفي على صديقي حملني أن أراقب وجه الطبيب، فأبصرتُه يبتسم وهو خارج. ومع هذا، بقي المريض أياماً متعددة لا يتحرك ولا يتناول السوائل ولا شيئاً البتة إلا حلوى الكرز وكنتُ أجعلها على لسانه في الحين بعد الحين فيُحسن ابتلاعها. ثم نهض، ذات صباح، فلبس، وعاد إلى مجرى عيشته المألوفة، لم يذكر قط، لا لي ولا للأب راينال ولا لأحد سوانا، أمراً عن ذلك الانحطاط الغريب ولا عن ضروب العناية التي أسديناها إليه طولَ مرضه.

فلم تزل هذه الحادثة تثير الضجة زمناً؛ ولو أن قسوة فتاة من فتيات الأوبرا قضت على امرئ يأساً، لبات الأمر في النوادر العجائب. ثم إن هذا الهيام الرائع قد جعل جريم على الزيّ الشائع بين الناس، فلم يلبثوا أن نظروا إليه على أنه نادرةُ حبٍّ وصداقة ومختلف ألوان التعلّق والوفاء. فقاموا يطلبونه ويرحّبون به في المجتمعات الراقية الرفيعة، وذاك مما أَبعده عني، أنا الذي لم يكن قط عند جريم إلا أسوأ شيء. فرأيتُه قد أوشك أن يفلت مني تمام الإفلات، لأن جميع المشاعر المتوقدة، التي اعتز بها وابتهى، كانت مثل مشاعري له، ولكن في ما هو دونها ضجة. فارتحتُ إلى أن

ينجح جريم بين الناس، ولكن ما كنتُ أود أن ينجح فينسى صديقه. فقلتُ له يوماً: «إنك لتهملني، وإني لأعفو عن هذا الإهمال. ولكن أرجو أن تعود إليّ بعد أن تكون أُولى سكرات النجاح الطنّان قد فعلتْ فعلها، ولسوف تجدني لك على الدوام. أما الآن، فلا تُتعب نفسك، فإني أَدَعك حرّاً طليقاً وأنتظرك». فقال لي إنني على صواب، ودبَّر أمره على هدي قولي، فأراح نفسه حتى لم أره قط منذئذٍ إلا وهو مع أصدقائنا المشتركين.

أما موضع ملتقانا الرئيسيُّ، قبلما توطدتْ علاقته بمدام ديبيناي على نحو ما قد توطّدتْ في ما بعد، فكان بيت البارون دولباخ. والبارون المذكور ابن امرئ وصوليٍّ قد تمتع بثروة غير يسيرة فأَحسن أن يستخدمها يستقبل في داره قوماً من أهل الأدب وذوي الجدارة، فصان منزلته بينهم لما كان عليه من معرفة وذكاء. وكانت علاقته بديدرو علاقة قديمة، فطلبني عن طريقه حتى قبلما عُرف اسمي. فبقيتُ وقتاً طويلاً تمنعني نفرة طبيعية أن ألبي ما قد بادرني إليه من هذا القبيل. فلما سألني يوماً أنْ ما السبب، قلتُ له: «إنك لمفرط في الغنى». فأصرّ عليّ فغلبني آخرَ الأمر. وذلك أن بليتي العظمى هي كوني، على الدوام، لا أستطيع أن أقاوم ضروب الملاطفة. فلم أجدني قط في حُسن حال إذ انقدتُ للملاطفة وأَذعنتُ.

ولقد عرفتُ رجلاً آخر ما إن حُقَّ لي أن أتشوف إلى صداقته حتى تصادقنا، وذاك هو السيد دوكلو. وكنتُ، لسنين كثيرة مضت، قد لقيتُه أول مرة في الشوفريت في بيت مدام ديبيناي، وكانت علاقته بها حسنة جداً. فلم نأْت من شيء سوى أنْ تغدينا معاً، ثم عاد في اليوم نفسه. لكنا تحادثنا بعد الغداء وقتاً يسيراً. وكانت مدام ديبيناي قد كلّمتْه بشأني وبشأن الأوبرا تأليفي «**عرائس الشعر الغزلات**». وكان دوكلو أَعظم مواهب من أن لا يحبّ ذوي المواهب، فحسُنَ رأيُه فيّ

twitter @baghdad_library

قبلما عرفني، فدعاني أن أذهب لزيارته. ومع ميلي القديم الذي أيّدتْه أسباب المعرفة، فإن حيائي وكسلي قد حبساني عن زيارة السيد دوكلو ما دمت ليس لي مجاز إليه إلا لطفُه بي ومراعاته إياي، ولكن لما شجعني نجاحي الأول وثناؤه عليّ وقد انتهى إليّ خبره، مضيتُ أزوره وأتى يزورني، فنشأتْ بيننا وشائج تُحبّبه إليّ أبد الدهر وتعلّمني أن الاستقامة والتجرد ربما كانا والعناية بالأدب على تحالف بعضَ الأحيان.

ثم إنه قد نشأتْ عن أوائلِ ما أَصبتُ من نجاح علاقاتٌ أخرى كثيرة أقلّ متانةً استمرت إلى أن أُشبعَ فضولُ ذويها، ولستُ آتي على ذكرها ههنا. فلقد كنتُ امرأً ما تكاد تراني حتى لا يبقى عندي من جديد تراه فيّ منذ غدي. بيد أن إحدى النساء قد ابتغتني وقتئذٍ فثبتتْ على بغيتها فوق ما ثبتتْ سائرُ النسوان: تلك هي المركيزة دوكريكي، بنت شقيق السيد دوفرولاي القاضي، سفير مالطة، وكان شقيقه قد تولى سفارة البندقية قبلما خلفه فيها السيد دو مونتيغو، وكنتُ قد ذهبتُ أزوره لما رجعتُ من تلك المدينة. فكتبتْ إليّ مدام دوكريكي، فجئتُ بيتها، فصادقتْني. وربما تغديتُ عندها أحيانا، فلقيتُ هناك عدة رجال أدب ومن بينهم السيد سوران مؤلّف «**سبارطاقوس**» و«**بارنوفلت**»[12] إلخ، فبات منذئذٍ وهو عدوّي الألد، ولستُ أتصوّر لعداوته سبباً إلا كوني أحمل اسم الرجل الذي جار عليه والد السيد سوران جوراً بالغ الخسّة والشناعة.

فتبيّن أنني، من حيث أنا ناسخ وجب عليه أن تشغله مهنته من الصباح إلى المساء، قد ألهاني عنها ما جعل يومي زهيد المكسب وما حال دون أن أعنى بعملي عناية كافية فأُتقنه. ولقد بدّدتُ ما يزيد

---

(12) **سبارطاقوس** (*Spartacus*) **وبارنوفلت** (*Barnevelt*) ـ المترجم.

على نصف ما أبقى الناسُ من وقتي أمحو أخطاءً في النسخ أو أحكّها، أو أعيد نسخي بعض الصحائف. فأزعجني ذلك، فأصبحتُ لا أطيق باريس يوماً فوق يوم، وبتُّ في شوق إلى الريف. فقصدتُ قرية ماركوسّي عدة مرات أقضي فيها بضعة أيام. وكانت السيدة لوفاسور تعرف نائب الأسقف هناك، فدبّرنا أمرَ حلولنا جميعاً بمنزله على نحو لا يزعجه. وأتى جريم معنا مرة واحدة(*). وكان نائب الأسقف جميل الصوت، حَسن الإنشاد. ولئن جهل أصول الموسيقى، لقد كان يتعلّم دوره بكثير من السهولة والدقة. فأمضينا وقتنا هناك نغنّي ثلاثيّاتي التي ألّفتُها في شونونسو. كما أنني صنعتُ ثلاثيتين بل ثلاثاً جديدة صاغ كلماتها جريم ونائب الأسقف صياغة هي بين بين. ولا يسعني إلا أن آسف على تلك الثلاثيات التي أَلَّفتُها وأنشدتُها في أيام سعادة صافية حقّاً والتي خلّفتُها في فوتّون مع سائر ألحاني. وربما كانت الآنسة دافانبور قد صنعتْ بها ورقاً للف الشعر؛ ولقد كانت تلك الثلاثيات جديرة بالحفظ، إذ معظمها رائع المقاطع والتأليف. فلما رجعتُ من بعض تلك الرحلات القصار التي سرّني فيها أن أجد الخالة[13] على راحة وارتياح والتي تولاني فيها تمام المرح والحبور، نظمتُ، على عجل، رسالة لنائب الأسقف هي في غاية الرداءة، وستجدها بين أوراقي.

وكان لي، في ما هو أقرب إلى باريس، محلّة للنزول الموقّت

(*) أما وقد أهملت أن أروي، ههنا قصة جرت لي مع السيد جريم في صباح بعض الأيام إذ نوينا أن نذهب إلى نبع سان فاندريل نتغدى، وهي قصة بسيطة، إلا أنها خليقة بالتذكار ـ أما وقد أهملتها، فلن أعود إليها. ولكن كلما فكرت فيها مرة جديدة، استنتجت أن جريم كان منذئذٍ قد أضمر، في أعماق نفسه، الدسيسة التي أنفذها بعد ذلك فأصاب فيها بالغ التوفيق.

(13) يريد تيريز وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

تلائم ذوقي أوفى الملاءمة، وذلك عند السيد موسّار، مواطني ونسيبي وصديقي الذي كان قد اتخذ له في باسيّ معتزلاً فاتناً سلختُ فيه أوقاتاً هنيئة ساكنة. وكان السيد موسّار جوهرياً، ورجلاً سليم الرأي والشعور. فلما أثرى في تجارته وزفَّ وحيدته إلى السيد دوفالماليت، ابن أحد الصيارفة وكبير خدم الملك، رأى، عن حكمة منه، أن يهجر، في أيام شيخوخته، التجارة والأعمال ويجعل بين هموم الحياة والموت فاصلَ راحة واستمتاع. فكان موسّار الشيخُ فيلسوفاً عمليّاً حقّاً يعيش بلا همّ، ويقيم في منزل ممتع جداً ابتناه هو، وفي حديقة غرسها بنفسه. فبينما كان يبحث، يوماً، في أرض الحديقة، إذ وقع على أصداف متحجرة. فأصاب مقادير منها وافرة، فجمحتْ به مخيّلته، فبات لا يرى في الطبيعة غير أصداف. ثم رسخ اعتقاده، آخر الحال، أن الكون إن هو إلا أصداف وبقايا أصداف، وأن الأرض برمّتها إن هي إلا رمال بها من تلك البقايا شيء كثير. فلم يزل تشغله الأصداف واكتشافاته المتفردة حتى هبّت أفكاره، فما منعها أن تتحول عنده منهجاً ذهنيّاً، أي جنوناً، إلا المنيّة التي اختطفتْه من بين أصدقائه، إذ اعتراه داء هو في أغرب الأدواء وأوجعها، ذلك لحُسن حظه عقلاً ورشداً ولسوء حظ أصدقائه وقد أحبّوه ووجدوا في بيته أطيب ملاذ. وكان الداء تورماً في المعدة لا يفتأ ينمو فيصدّه عن الطعام، ومع ذلك، لم يُهتدَ إلى علّة الداء الذي انتهى بصاحبه إلى الموت جوعاً بعدما قاسى الآلام عدة سنين. فما ذكرتُ ذلك الرجل المسكين الأبيّ، إذ هو في أواخر أيامه، إلا انقبض فؤادي. ولقد كان السيد موسّار، وقتئذٍ، لا يزال يسعده أن يستقبلنا، أنا ولونيابس، نحن صديقيه الوحيدين اللذين بقِيا حتى ساعته الأخيرة لا ينحيهما عنه منظر الأوجاع وقد كابدها وأُكرهَ على أن يفترس بعينيه طعاماً يستقدمه لنا، ما يكاد يقوى على أن يحتسي بعض القطرات من شاي خفيف حتى يقيئها بعد قليل. ولكن، قبْل

أيام الأوجاع هذه، كم من أيامٍ طيّبات قضيتُ عنده مع نخبة ممن اتخذهم أصدقاء له! وإني أضع، في رأسهم، الأباتي بريفوست، وهو امرؤ جد لطيف، جد بسيط، مؤلّفاته قد أنعشها قلبه؛ وهو، إلى ذلك، إنسان أهلٌ للخلود، ليس في طبعه ولا في عشرته شيء من الجو القاتم الذي أشاعه في كتاباته؛ كما أني أضع بروكوب الطبيب، وهو بخفة روحه شبهٌ مصغر للقمان؛ وأضع بولانجيه، المؤلّف الشهير لكتاب «**الاستبداد الشرقي**»[14] وقد صدر بعد وفاته، وإخال بولانجيه وسّع أنساق موسّار فشمل بها ديمومة العالم كلها. أما في النساء، فإنني أضع السيدة دونيس، بنت شقيقة فولتير، وهي يومئذٍ امرأة بسيطة القلب لأنها لم تكن قد تعاطت أشياء الفكر بعد؛ وأضع السيدة فانلو، وهي غير جميلة ولا ريب، إلا أنها فاتنة تغنّي وكأنها ملاك؛ وأضع مدام دو فالماليت نفسها، وكانت تغنّي أيضاً، ولئن كانت شديدة الهزال، فإنها لو قلّت ادعاءً للتحبّب، لغدت منه على نحو كثير. أولئك هم، في وجه التقريب، معشر السيد موسّار. ولقد كانوا أعجبوني إعجاباً كافياً لولا أن خلوتي بالسيد موسّار ـ وهو على ما هو عليه من الولع بعلم الأصداف ـ كانت أشدّ إثارةً لإعجابي، حتى إنني عملتُ في مكتبه مدة تزيد على ستة أشهر وأنا في سرور يعادل ما قد شعر هو به منه.

وكان موسّار يزعم، منذ وقت طويل، أن مياه باسّي تنفعني في حالتي، ويحثني على أن آتي إليه فأشرب منها عنده. فأتيتُه في آخر الأمر، لكي أنجو من صخب المدينة، فبقيتُ في باسّي ثمانية أيام أو عشرة، فنفعني نزولي بالريف أضعاف ما نفعني الشرب من تلك المياه. وكان موسّار يعزف بالفيلونسيل ويهوى الموسيقى الإيطالية.

---

(14) **الاستبداد الشرقي** (*Le despotisme oriental*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

فتكلَّمنا فيها، ذات ليلة قبلما ذهبنا إلى النوم، كلاماً مسهباً دار، في وجه خاص، على **الأوبرا الهزلية**[15] وكلانا قد شاهدها في إيطاليا فبلغتْ منه المبالغ. ثم إنني لم أنم تلك الليلة، بل قمتُ أتأمل كيف العمل من أجل التعريف، في بلاد فرنسا، بمبادئ مؤلَّفةٍ تمثيلية من هذا الطراز؛ فإن «**غراميات راغوند**»[16] فلم يشبهها في أمر قط. فلما كنتُ أتنزه في الغد وأشرب من المياه، نظمتُ، في عجل، بعض الأبيات على بعض الأساليب واقتبستُ بعض الأغاني التي سنحتْ لي وأنا أنظم. ثم اتجهتُ إلى قاعةٍ معقودة البناء تقع في مرتفع الحديقة فكتبتُ هذا كله كتابة رديئة الخط؛ حتى إذا كنا على الشاي، لم أتمالك عن أن أَعرض هذه الألحان على موسّار وعلى مدوموازيل دوفيرنوا مدبّرة شؤونه وهي، في الحقّ، فتاة لطيفة جداً. ثم إن المقطوعات الغنائية الثلاث، التي أعددتُ كبريات خطوطها، كانت تؤلّف المناجاة الأولى وهي: «**فقدتُ خادمي**»، وهذا لحن العرّاف، و«يزداد الحبّ متى كان يَقلَق»، والثنائية الأخيرة «ألاَ إني مستخدمكَ أبد العمر، يا كولان». إلخ. فلم أتخيل كثيراً أن ذلك يستحقّ جمَّ انتباه، حتى إنني لولا تصفيق موسّار ومدبّرته وتشجيعهما لي، لمضيتُ ألقي في النار أوراقي الحقيرة فلم أعد إلى التفكير فيها، وذلك على حسب ما صنعتُ بأشياءَ غيرها تساويها جودةً في أقلّ حال. لكنهما شجعاني حقّ التشجيع، فلم تنقض ستة أيام حتى أنجزتُ كتابة الأوبرا، ما خلا بعض الأبيات، وخطّطتُ ألحانها جميعاً فلم يبقَ عليّ في باريس إلا يسير من الإلقائية وإلا الموقّعات كلها، فأتممتُ ذلك أجمع بسرعة فائقة، حتى إنني، في ثلاثة

---

(15) في الأصل بالإيطالية: Opere buffe ـ المترجم.

(16) **غراميات راجوند** (*Les amours de Ragonde*) باليه هزلي تأليف ديتوش (Destouches) (1680 ـ 1754) ـ المترجم.

أسابيع، بيّضتُ المشاهد وأعددتُها للتمثيل. ولم يعوزها غير الفاصل الموسيقي الذي لم أصنعه إلا بعد وقت بعيد.

ثم إن تأليفي هذه الأوبرا قد حمّسني، فتشوقتُ ولعاً بسماعها، ولقد كنتُ أبذل أقصى ما أملك حتى أشاهدها قد عُرضتْ كما يطيب لي أن أشاهدها إذ الأبواب مغلقة دون الجمهور على نحو ما يقال أن لولّي[17] استعرض، مرة، «**أرميد**» لأجله هو وحده. ولكن لم يكن في الإمكان أن أتمتع بهذه اللذة إلا وأنا مع الجمهور، فوجب أن تُقبَل مؤلَّفتي في دار الأوبرا لكي أستمتع بها. وكان في سوء الحظ أن لونها جديد جدة تامة لم تألفها الأسماع، فضلاً عن أن إخفاق «**عرائس الشعر الغزلات**» قد نبّأني أنه إذا قدّمتُ أوبرا «العرّاف» فعُلم أنها لي، أَخفقتْ. فأنقذني دوكلو من هذه المشقّة، فاستدعى أن يمتحنَ التأليف على أن يظل اسم صاحبها مجهولاً. فلم أحضر الامتحان لئلا يُكتشَف أمري؛ وأما الكمانان الصغيران[*]، وهما اللذان توليا قيادة العزف في أثناء تجربة الأوبرا، فلم يعرفا اسمَ مؤلّفها إلا بعد ما شهد بجودتها هتافُ الاستحسان العام. فطرب لها جميع الذين سمعوها أَيَّ طرب، حتى لقد أصبحتْ، منذ الغد، وهي حديث المنتديات كافة لا حديث لهم غيرها. ثم إن السيد دوكوري ناظر الملاهي الملكية، وقد حضر تجربة العرض، طلب الأوبرا لكي تُعرَض في البلاط. فأبى دوكلو، وقد وقف على رغباتي ووجد أنني، في البلاط، لن أكون الوليّ لأمر مؤلَّفتي بقدْر ما أكون وليّ أمرها وأنا في باريس، لكن كوري طالبَ بها بقوة سلطته؛ فقاومه دوكلو،

---

(17) لولّي (1632-1687) صاحب مؤلّفات أوبرا ومنها **أرميد ورينو** (*Armide et Renaud*) ـ المترجم.

(*) هكذا كان يدعى روبيل وفرنكور، وقد عُرفا منذ شبابهما وكانا يمضيان معاً يعزفان بالكمان في البيوت.

twitter @baghdad_library

فتجادلا تجادلاً محتدماً، حتى إنه لو لم يفصل الناس بينهما إذ هما يوماً في دار الأوبرا، لكانا خرجا معاً[18] وكان بعضهم يريد الرجوع إليّ في هذا الأمر، فأَحلتُ به على السيد دوكلو ليقرّ ما يرتأي، إذ كان ينبغي الرجوع إليه فيه. فتدخّلَ الدوق السيد دومون. فرأى دوكلو، في النهاية، أن يذعن للسلطة، فقدّمت الأوبرا لكي تُعرَض في فونتينبلو.

أما الجزء الذي تعلّقتُ به أكثر من غيره والذي لم أسلك فيه مسلكا مألوفاً فهو الإلقائية [الإنشاد]. فلقد نهجتُ فيه نهجاً طريفاً كله فتلاءم هو ومجرى الكلام. فلم يجسر القوم على أن يأذنوا لي في هذا التجديد المفرط خوفَ أن يثيروا الأسماع المقلّدة. فرضيتُ أن يصنع فرنكوي وجليوت إلقائية أخرى، ولكن أَبيتُ أن أتدخل فيها.

فلما أُعدَّ كل شيء وعُيّن يومُ عرض الأوبرا، اقتُرح عليّ أن أشخص إلى فونتينبلو لكي أَحضر، في الأقل، التمرين الأخير. فشخصتُ إلى هناك مع الآنسة فل وجريم، ومع الأباتي رينال في ما أظن، وركبنا إحدى عربات القصر. فكان التمرن بين بين، ورضيتُ عنه فوق ما توقّعتُ. وكانت الجوقة وافرة العدد يؤلّفها موسيقيو دار الأوبرا وموسيقيو الملك. فمثّل جليوت دور كولان؛ ومثّلت الآنسة فل دور كوليت؛ ومثّل كوفيلييه دور العرّاف؛ وكان المنشدون منشدي دار الأوبرا. فلم أتفوه إلا بالقليل، وكان جليوت هو الذي أَشرف على كل شيء؛ فلم أشأ أن أراقب ما عمل؛ فكنتُ، مع إباءتي، مستحيياً بين أولئك الناس جميعهم وكأني أحد التلاميذ.

فذهبتُ في الغد، وهو يومُ عرض الأوبرا، إلى مقهى غران

---

(18) الأرجح أن روسو أراد أن يقول: لكانا خرجا معاً لكي يتضاربا ـ المترجم.

كومّان أتغدى. وكان ثمة خَلق كثير، والحديث يدور على تجربة البارحة وعلى ما قد لقي الناسُ من صعوبة لكي يدخلوا فيشهدوا التمرين. وكان في المقهى أحد الضباط، فقال إنه دخل من غير مشقّة، ثم روى كل ما جرى في التمرين، ووصف المؤلّفَ يذكر ما قد فعل وقال؛ بيد أن ما استغربتُه من هذه الحكاية التي رواها بثقة وبساطة على السواء، هو أنّها لم تتضمن كلمة صدْق واحدة. فلقد اتضح لي أن هذا الذي تكلَّم على تجربة الأوبرا تكلُّمَ العالم العلاّمة لم يحضر هذه التجربة، إذ كان نُصْبَ عينيه المؤلّفُ هو نفسه الذي قال الضابط إنه طالما أبصره في حفلة التمرين. وكان أطرف ما بهذا المشهد تأثيره فيّ. فالراوي لم يبقَ في سن الشباب، ولا كان في هيئته وصوته زهو ولا اختيال؛ ولقد دلّت سيماؤه أنه من ذوي الجدارة، ودل وسامه، وسام القديس لويس، أنه ضابط قديم. فعناني أمره برغم وقاحته وبرغم أنفي أنا؛ فبينما هو قد انطلق يسرد أكاذيبه، إذ استحييتُ فكسرتُ طرفي وتملّكني اضطراب شديد؛ وربما أخذتُ أفتش في ما بيني وبين نفسي عن وسيلة تحملني على أن أعتقد أنه أخطأ وأنه حَسنُ النية. فخفتُ، في آخر الأمر، أن يعرفني أحد من الناس هناك فيفضحه، فأسرعتُ أَفرغ من حسو القهوة لم أنبس بحرف، ثم اجتزتُ من أمام الرجل وقد أطرقتُ رأسي وخرجتُ أعجّل ما استطعتُ، على حين طفق الحاضرون يتحادثون عما روى لهم ويسهبون. فأحسستُ، وأنا في الشارع، أنني عرقان؛ ولو أن أحدهم عرفني فذكر اسمي قبلما خرجتُ، لبدا عليّ، بلا شك، خجلُ المذنب وارتباكه، وإنما ذلك لشعوري بالحرج الذي كان يعانيه هذا المسكين لو افتضح كذبه.

وهآءنذا في ساعة من العمر حرجة يصعب عليّ فيها أن أقتصر على رواية الأخبار، لأنه يكاد يستحيل ألا يحمل السرد، هو نفسه،

twitter @baghdad_library

أثر الرقابة أو أثر التقريظ. ومع ذلك سأحاول أن أذكر كيف سلكتُ وإلى ما استندتُ في هذا السلوك، لستُ أضيف إليه إطراءً ولا لوماً.

كانت عليّ، يومئذٍ، الألبسة المهملة التي تعودتُ أن أرتديها، وكانت لحيتي قد طالت، ووفرتي سيئة التصفيف. فخلتُ سوء لياقتي هذه ضرب شجاعة، فدخلتُ، وأنا في هذه الهيئة، القاعة التي لم يلبث أن وصل إليها الملك والملكة والأُسرة المالكة والبلاط أجمع. فاتجهتُ إلى المقصورة التي قادني إليها السيد دو كوري وهي مقصورته، مقصورة واسعة تشرف على المسرح، وتجاهها مقصورة ضيقة أعلى منها قد قعد فيها الملك ومدام دوبومبادور. وكانت النساء تحيط بي، وكنت الرجل الوحيد الذي قعد في مقدمة المقصورة، فما شككتُ أني قد وُضعتُ هناك ليبصرني الحاضرون. فلما أنيرت القاعة ورأيتُني في ذلك اللباس، بين قوم هم على غاية الأناقة، ابتدأتُ أنزعج وأتضيّق، وأخذتُ أسائل نفسي أقول أفي موضعي أنا، أوَ ثيابي تليق؟ فظللتُ بضع دقائق مضطرباً، ثم أَجبتُ عن سؤالي، قلتُ: «نعم»، قلتُها بجسارة ربما نشأتْ عن عجزي أن أكذّب نفسي أكثر مما نشأتْ عن قوة حجتي. ثم قلتُ في نفسي: «إنني بمكاني ما دمتُ أشهد تمثيل تأليفي، وما دمتُ قد دُعيتُ إلى أن أحضرها، وما دمتُ لم أعملها إلا من أجل ذلك، وما دام لا يُحَقّ لأحد أن يتمتع بثمر جهدي ومواهبي كما يُحَقّ لي أنا. أما لباسي، فإنه على مجرى عادتي، لا أحسن ولا أسوأ. فإن عدتُ وقد استرقّتْني آراء الناس في شيء ما، لم ألبث طويلاً حتى تمسي آراؤهم وقد عادت إلى أن تسترقّني في كل شيء. فحيثما كنتُ وجب عليّ ألا أستحيي من أن أتردى بهيئة الصناعة التي اخترتُ فأكون أنا إياي في كل حال: ولئن بدا مظهري بسيطاً مهملاً، فإنه غيرُ دَرن ولا وَسخ؛ أما لحيتي، فإنها، في نفسها، غير قذرة ما دامت الطبيعة هي التي ترزقنا اللحى

وما دامت اللحية زينة في بعض الأحيان، على حسب العهود والموضات. وقد يجدني الناس مضحكاً وقحاً، ولكن لا يهمّ! فإنما عليّ أن أعرف كيف أكابد الهزء واللوم، بشرط ألا أستحقهما». فلما فرغتُ من هذه المناجاة للنفس، ثبتُّ وتقويّتُ حتى لو احتجتُ إلى أن أتجاسر حينئذٍ، لتجاسرتُ. بيد أني لم أَرَ في ما قد بَعثتُ من فضول الناس إلا لطفاً منهم وكرماً، وذلك إما لكون المولى حاضراً، وإما لميل في قلوبهم عفو البديهة. فتأثرتُ حتى غدوتُ وأنا من نفسي ومن مصير مؤلَّفتي على قلق واضطراب، أخشى أن أمحو ما سبق من حُسن آرائهم التي بدت وكأنها لم تتوخ إلا أن تتلقاني بالموافقة والثناء. وكان معي سلاحي الذي به أتقي سخرية الناس، بيد أن ما ظهر لي من لطفهم، وهذا ما لم أتوقّعه، قد تسلَّط عليّ حتى إنني لما ابتُدئ بالموسيقى والغناء والتمثيل، أخذتُ أرتجف.

فما عتَّمتُ أن أَصبتُ ما أشاع فيّ الاطمئنان، وذلك أن الأوبرا قد أساء تمثيلها الممثلون، وأجاد إنشادها المنشدون، وأَحسن تأدية ألحانها العازفون. فسمعتُ منذ المشهد الأول، وهو مشهد بالغ السذاجة، همسات الدهش والاستحسان قد ارتفعت من المقصورات مما لا عهد به إلى ذلك اليوم في مثل هذا اللون من الأوبرا. فما برحت الهمسات في ارتفاع حتى سُمعت في القاعة كلها، فازدادت بتأثيرها تأثيراً، على نحو أسلوب مونتسكيو في الكلام. فبلغ هذا التأثير أقصى المبالغ في مشهد الشخصين اللذين هما من سواد خَلق الله. ثم إن التصفيق في حضرة الملك أمرٌ لا يجوز، فأمكن سماع كل شيء، فكان في هذا كسب للأوبرا ولمؤلّفها. فسمعتُ من حولي وشوشات نساء رأيتُهن كمثْل الملائكة جمالاً، يتهامسن قائلات: «إن هذا لشيء ساحر، إنه لشيء فتّان، فلا صوْت منه إلا خاطب القلب». فتأثرتُ حتى الدموع يبهجني أنني هززتُ مشاعر هذا الحشد

twitter @baghdad_library

من الجميلات اللطيفات، فلم يسعني، في المناجاة الأولى، أن أملك دموعي وقد لحظتُ أني لم أكن وحدي في الباكين. ثم رجعتُ إلى نفسي حيناً أتذكر الحفلة الموسيقية التي أحياها السيد تريتورانس[19] فكان من وقع هذا التّذكّر أنني شعرتُ وكأنما أنا العبد قد أُمسك التاجَ على رؤوس المنتصرين؛ ولكن سرعان ما فارقني هذا الشعور، فلم ألبث إلا قليلاً حتى استسلمتُ إلى لذة مجدي استسلاماً مطلقاً، فأخذتُ أستمتع بها ما يلهيني عنها شيء. لكني، مع هذا، على يقين أن الشهوة الجنسية كان لها في لذتي، حينئذٍ، نصيب يربي على ما كان لزهو المؤلّف من نصيب فيها أضعافاً مضاعفة. ولا شك أنه لو لم يكن ثمة إلا رجال، لما تحرّقتُ أتشهى أن ألتقط بشفتيّ لذائذ الدموع التي أَثرتُها على نحو ما تحرّقتُ وقتئذٍ بغير انقطاع. ولقد شهدتُ مؤلّفات أوبرا هي أعظم إثارة لمشاعر الإعجاب، ولكن لم أشهد قط ما يعادل تلك النشوة الكاملة، العذبة، المؤثّرة التي سادت مؤلَّفة الأوبرا كلها، ولا سيما إذ عُرضتْ في البلاد ليومها الأول. ثم إن الذين شهدوا تلك الأوبرا يذكرونها ولا ريب، لأن وقعها لم يُعرف له نظير.

فأَرسلَ الدوق السيد دومون يُبلغني، في المساء عينه، أن أكون بالقصر في الساعة الحادية عشرة من الغد فيعرّفني إلى الملك. وأضاف السيد دوركوري، وهو الذي أبلغني تلك الرسالة، يقول إنه يظن أن في الأمر شأنَ مرتَّب لي وأن الملك يريد أن يبشرني هو نفسه بهذا الأمر.

أفتحسب أن الليلة التي تلت ذلك اليوم المشرق المتألق، كانت عندي ليلة قلق وتحيّر وارتباك؟ إنّ أول ما خطر لي، بعد الحفلة،

(19) هذه الحفلة تقدم ذكرها في الفصل الرابع من هذا الكتاب ـ المترجم.

هو أن أقضي حاجة بي ملحّة قد ألّمتْني في ذلك المساء وأنا بدار الأوبرا، وقد تعذبني غداً إذ أنا في أروقة القصر، أو في الجناح الملكي، وسط جميع أولئك العظام، أنتظر أن يمرّ صاحب الجلالة. وكانت عاهتي تلك هي العلّة الأُمّ التي نأت بي عن حلقات الناس ومنعتْني أن ألازم النساء، لأن مجرّد تفكيري في الحال، التي قد تضطرني إليها حاجتي، كان يجعلني على تلك الحال، أو يفتضحَ أمري، وهذا ما أفضّل عليه الموت. فإن من ابتلوا تلك الحال يستطيعون، دون سواهم، أن يقدروا مدى الرعب الذي تبعثه فيهم إذا خاطروا بأن يعرّضوا لها أنفسهم.

ثم تصوّرتُني بين يدي الملك وقد عرّفتُ إلى جلالته فتنازل فوقف فوجّه إليّ الكلام. فههنا قد احتجتُ إلى سداد الرأي وسرعة الخاطر لكي أدري بمَ أجيبُ. فهل كان حيائي اللعين، الذي يحملني على الارتباك وأنا حيال أدنى شخص مجهول هل كان حيائي هذا يفارقني وأنا أمام ملك فرنسا، أم يمكنني على الفور أن أُحسن الاختيار لما ينبغي أن أقول؟ فأردتُ أن أبدي تأثري للشرف الذي أولانيه مثل هذا العاهل العظيم، شرط ألا أتخلى عن هيئة الرصانة التي ترديتُ بها. فوجب أن آخذ ببعض الحقائق الكبيرة المفيدة فأغلّفها بكلمة مدح رائعة مستحَقّة. كما أنه وجب أن أتنبأ فأعلم ما قد يقوله لي الملك فأُعدّ جواباً موفَّقاً. ثم أيقنتُ أنني لن أهتدي، في حضرة الملك، إلى حرف واحد مما أكون قد تأملتُ فيه. فما الذي أصير عليه وقتئذٍ وقد تسلّطتْ عليّ أنظار البلاط أجمع، إذا فرط مني، وسطَ ارتباكي، بعضُ حماقاتي المألوفة؟ فأقلقني هذا الخطر وروّعني فأخذتُ أرتعد حتى صمّمتُ ألا أعرّض له نفسي مهما يكن من حال.

ولئن فقدتُ المرتب الذي قدّم إليَّ على نحو ما قيل، لقد

twitter @baghdad_library

أَعفيتُ نفسي من النير الذي يفرضه عليّ مثل هذا المرتب. فوداعاً أيها الصدق والحرية والشجاعة! كيف أجرؤ، بعد اليوم، أن أتكلّم على الاستقلال والتجرد؟ لو نلتُ المرتب، لما كان يجب عليّ إلا أن أتملّق أو أن أَصمت. ثم من ذا الذي يضمن لي، فضلاً عما سلف، أن سيؤدي إليّ المرتب؟ كم من خطًى ينبغي أن أخطو في سبيله، وكم من أناس ينبغي أن ألتمس منهم لأجله! فأن أحتفظ به أَشَقُّ عليّ وأكرهُ عندي من أن أستغني عنه. فلما تخليتُ منه، ظننتُ أنني اخترتُ ما يوافق مبادئي حقّ الموافقة وأنني ضحَّيتُ بالظواهر فدى الحقيقة الواقعة. فأنبأتُ جريم بعزمي، فلم يعارضني في شيء. أما لغير جريم، فقد احتججتُ بصحتي، وعدتُ في صباح اليوم نفسه.

أثارتْ عودتي ضجة ولامني الناس بوجه عام، إذ لم يسعهم جميعاً أن يدركوا ما عندي من أسباب. فأن أُتهَم بأني متكبر أحمق ذلك أيسر وأسرع وأكثر إرضاءً لحسد كلّ من شعر في سريرته بأنه ما كان ليسلك مثل الطريق الذي سلكتُ. فكتب إليّ جليوت، في الغد، رقعة فصّل لي فيها نجاح الأوبرا تأليفي وما قد حُظيتُ به من إعجاب الملك هو نفسه. وذكر لي أن صاحب الجلالة لا يفتأ يغنّي طول النهار: «ضيّعتُ خادمي؛ ضيّعتُ كل سعادتي»، يغنّيها بصوت هو أعظم أصوات المملكة مخالفةً لأصول اللحن والإيقاع. وأضاف جليوت إلى ذلك يقول إنه من المقرّر أن تُعرَض أوبرا «**العرّاف**»، في خلال الأسبوعين، عرضاً ثانياً يثبت للجمهور بأسره نجاح العرض الأول تمام النجاح.

ثم إنني بينما كنتُ أدخل بيت مدام ديبيناي بعد يومين، في نحو الساعة التاسعة ليلاً، وقد كنتُ أجيئها فأتعشى هناك، إذ تصدّت لي إحدى العربات عند الباب. فأشار إليّ بعضهم، وكان بالعربة، أن

أصعَدْ إليها، فصعدتُ: فإذا أنا بديدرو. فكّلمني على شأن المرتب بحميّة لم أتوقّعها لدى فيلسوف قد تكلّم في مثل هذا الموضوع. فلم يكن ديدرو شديد اللوم لي على أنني أَبيتُ أن يتعرّف إليّ الملك، لكنه لامني على أني لم أبال بالمرتب لوماً شديداً. وقال لي إنه إذا كنتُ لا يهمني أمري، فلا يجوز إلا أن أهتم بأمر السيدة لوفاسور وابنتها؛ وقال إن عليّ ألا أدَع وسيلة نزيهة ممكنة إلا عمدتُ إليها لكي أَقُوتهما؛ ثم ذهب في رأيه إلى أنه لا يستطاع القول إني قد أَبَيتُ المرتب، فوجب أن ألتمسه وأحصل عليه بأي ثمن كان ما دام ثمة استعداد لمنحي إياه. ولئن أثّرتْ فيّ حمية ديدرو، لم أقدر أن أستسيغ حكَمه ونصائحه، فنشب بيننا جدل عنيف هو أول جدل نشب بيننا؛ ولم ينشب بيننا من جدل إلا على هذا النحو، إذ كان هو يصف لي ما يزعم أن عليّ عمله، وإذ كنتُ أمتنع عن هذا العمل اعتقاداً مني أنه لا ينبغي لي أن أقوم به.

فلما افترقنا، كنا في ساعة من الليل متأخرة. فأردتُ أن أسير بديدرو إلى بيت مدام ديبيناي فيتعشى عندها؛ بيد أنه لم يشأ. وبالغاً ما بلغ الجهد الذي كانت الرغبة في الجمع بين أصدقائي تحملني على أن أبذله في مختلف الأوقات لكي أحثّ ديدرو أن يزور مدام ديبيناي، حتى لقد مضيتُ بها يوماً إلى بابه فأَغلقه دوننا، بالغاً ما بلغ هذا الجهد، فإن ديدرو لم يبرح يأبى أن يلقاها، ليس يأتي على ذكرها إلا بعبارات شديدة الاحتقار. فلم يتواصلا إلا بعد ما خاصمتُها وخاصمتُه، فابتدأ يذكرها بالثناء والإكرام.

ولاح، مذ ذلك الحين، أن ديدرو وجريم قد جدا في أن ينفّرا مني الإمرأتين المدبّرتين لبيتي، يذكران لهما أن إذا لم تكونا على مزيد يُسرٍ وراحة ورخاء، فإنما ذلك عن قصد مني، وأنهما لن تستطيعا منعي عن قصدي أبداً. وسعيا لحملهما على أن تهجراني يعدانهما صفقةً لبيع الملح بالتفصيل ودكّانَ تبغ وغير ذلك مما لستُ

twitter @baghdad_library

أدري، فضلاً عما سبق، وذلك بنفوذ السيد دييناي، لا بل لقد ابتغيا أن يجّرا إلى زمرتهما دوكلو ودولباخ، فأبى دوكلو في كل حال. فبلغني، وقتئذٍ، بعضُ الحيل التي كانت تحاك لهذا الغرض، ولكن لم أطّلع عليها حقّ الاطّلاع إلا بعد زمن طويل، وكثيراً ما استقبحتُ حمية صديقيّ العمياء، الضعيفة التبصر، وقد حاولا أن يلجئاني إلى أظلم ألوان الوحدة والانفراد، إذ ضقتُ بما أنا فيه، فدأبا ينويان إسعادي بأشدّ الوسائل إشقاءً لي.

فلما وافى الكرنفال التالي، عام 1753، مُثّلتْ في باريس أوبرا «**العرّاف**»، فأتاح لي الوقت، في أثناء ذلك، أن أصنع افتتاحية الأوبرا وفاصلَها الموسيقى. وهذا الفاصل، كما أُجريَ رقمه، قد وجب أن يكون، من أوله إلى آخره، فاصلاً متحركاً، وأن يكون على موضوع موصول يكشف، في رأيي، مَشاهدَ رائعةً جداً. فلما اقترحتُ على دار الأوبرا رأيي، هذا، لم يُؤخذ به وحده، بل وجب تلفيق أغنيات ورقصات على النحو المألوف. فكان أن هذا الفاصل، مع ما حفل به من أفكار مستحبّة لا تفسد المشاهد، قد أصاب من التوفيق قسطاً هزيلاً جداً. فحذفتُ إلقائية جليوت وأرجعتُ إلقائيتي كما كنتُ قد وضعتُها وكما كانت قد رُقمتْ، فلم تصدم أحداً، مع كونها على بعض التفرنس ـ وأني لأقرُّ بهذا ـ أعني أن الممثلين قد أدوها تأدية متمهلة بطيئة؛ لكنها لم تكن دون سائر ألحان الأوبرا توفيقاً، فبدا حتى للجمهور أنها تُعادلها، في الأقل، إتقاناً وجودةَ صنع. فأَهديتُ مؤلَّفتي إلى السيد دوكلو الذي كان قد شملها بحمايته، وأَعلنتُ أن هذا هو إهدائي الوحيد. ولكن، مع ذلك، ثنّيتُ الإهداء[20] بعد ما

(20) يشير روسو إلى مؤلفه **خطاب في أصل التفاوت** وقد أهداه إلى جمهورية جنيف ـ المترجم.

وافق السيد دوكلو، وأخاله قد وجد هذا الاستثناء أعظم تشريفاً له مما لو كنتُ لم أستثن أحداً.

وعندي بصدد هذه الأوبرا، حكايات جمّةٌ تمنعني من التوسع فيها أمورٌ أخرى يعنيني أن أذكرها فوق ما يعنيني أن أذكر تلك الحكايات. وربما عدتُ إليها، يوماً، في الملحق. ولكن، مع هذا، لا يسعني أن أغفل حكاية ربما تعلّقتْ بكل ما يلي. وتلك هي أنني كنتُ، مرة، في غرفة البارون دولباخ أشاهد مجموعته الموسيقية؛ فلما طويتُ ألواناً منها وافرة، قال لي وهو يريني مجموعة ألحان وُضعتْ للكلافسان: «هذه ألحان قد أُلِّفتْ لأجلي؛ إنها ملأى بحُسن الذوق، والتغنّي بها شيءٌ سهل؛ ولا أحد يعرفها، ولن يراها أحد سواي. فجدير بك أن تختار منها لحناً تُدخله في فاصلك الموسيقى». ولقد كنتُ قليل الاهتمام بألحانه إذا احتشد في روعي من الأنغام والألحان ما زاد على طاقتي بأن أستخدمه منها زيادةً كثيرة. إلا أن الرجل لم يزل بي حتى اخترتُ أحد ألحان الرعاة لطفاً مني ومجاملة، فاختصرتُ اللحن وجعلتُه في ثلاثية غنائية تؤدي حين تلج المسرحَ رفيقاتُ كوليت. ومرّت بضعة أشهر، وكانت «**العرّاف**» تُمثَّل وقتئذٍ، فدخلتُ يوماً على جريم، فرأيتُ حول كلافسانه بعض الناس، فتوقف جريم عن العزف بغتةً إذ وصلتُ. فنظرتُ إلى المقرأ عفو النظر، فأبصرتُ عليه مجموعة البارون دولباخ نفسها وقد فُتحتْ عند صفحة اللحن الذي كان دولباخ قد ألحّ عليّ أن آخذ به يؤكّد لي أن اللحن لن يخرج من يديه أبداً. ثم أبصرتُ، بعد مدة من الزمن، المجموعة هي نفسها قد وُضعتْ على كلافسان السيد ديبيناي وكانت مشرَعة الصفحات، وذلك في يوم عزفٍ أُقيم في بيته. فلم يكلمني جريم، ولا سواه، على شيء من هذا اللحن قط، وما أذكره، ههنا، إلا لأنه قد أُشيعَ، بعد حين، أن لستُ أنا مؤلّف «**عرّاف القرية**».

twitter @baghdad_library

وإني لمقتنع أنه لولا مؤلِّفي «معجم الموسيقى» لقيل، آخرَ الأمر، إنني جهلتُ بها، إذ لم أكن قط موسيقياً جيد العزف(*)

وكانت قد وصلتْ إلى باريس، قبْل مدة من عرض «**عرّاف القرية**»، فرقة أوبرا هزلية إيطالية دُعيتْ إلى التمثيل على مسرح دار الأوبرا دون أن يقدَّر ما يكون وقعُها هناك. ولئن كان ممثلو الفرقة هم من الطبقة الرديئة، ولئن كانت جوقة الموسيقى، وهي يؤمئذٍ على جهل كثير، قد مسخت المقطوعات الغنائية التي أدّوها مسخاً لا سبب له، فإن هذه المقطوعات قد أَنزلتْ بالأوبرا الفرنسية ضرراً لم تعوّض نفسها منه قط. وذلك أن مقابلة هذين اللونين من الموسيقى، وقد سُمعا في اليوم عينه، على المسرح عينه، قد فتَّحت آذانَ الفرنسيين. فلم يبقَ فيهم من استطاع أن يحتمل الألحان الفرنسية البطيئة، المتمهلة، بعدما سمع الألحان الإيطالية الحارّة، المؤثّرة. فما أن كان الهزليون الإيطاليون يفرغون من أدوارهم حتى يخرج الناس جميعاً. فاضطرت إدارة الأوبرا أن تقلب برنامج العرض فجعلت الهزليين في ختامه. وكانت تعرض أوبرات «**إغله**» و«**بَجماليون**» و«**لوسيلف**»[21]، فلم يثبت منها شيء. فكانت «**عرّاف القرية**» هي الأوبرا الوحيدة التي احتلمت المقابلة بغيرها والتي لم تزل تروق الجمهور، تأتي بعد أوبرا «**لا سرفة بادرونة**»[22] فلما ابتدأتُ أصنع فاصلي الموسيقي، ملأتْ خاطري تلك الأوبرات، فكانت هي التي ألهمتْني موضوع الفاصل، فكدتُ لا أظن أن ستُعرض إلى جانبه. ولو أنني سلاّبٌ نهّاب، فكم من سرقة كانت قد تجلّت عندئذٍ وكم من

(*) ولم أكد يومئذٍ أتبيّن بعد أن سيقال عليّ، آخر الشيء، مثل هذا القول برغم تأليفي **المعجم**.

(21) *Eglé, Pygmalion, le Syplhe* أسماء أوبرا فرنسية ـ المترجم.

(22) (*La serva padrona*) أي «**الخادمة السيدة**» ـ المترجم.

عناية كانت قد بُذلتْ لإشعاري بما كنتُ ارتكبتُ! ولكن لا شيء من ذلك حدثَ: فبُذلتْ محاولات جمّةٌ على غير طائل، إذ لم يُعثَر في ألحاني على أيسر ما يذكّر بغيرها من الألحان؛ أما أغانيَّ كلها، فإنها، بعد مقابلتها بتلك التي زُعمتْ أغانيَ أصيلةً، قد كانت جديدةً جدّةَ الأسلوب الموسيقي الذي ابتدعتُ. ولو عُرّض موندوفيل[23] أو رامو لمثْل هذه التجربة، لم يتخلّصا منها إلا وقد مُزّقا تمزيقاً.

ثم إن أولئك الهزليين قد أكسبوا الموسيقى الإيطاليا أتباعاً متقدي الحماسة. فانقمستْ باريس كلها فئتين كانتا أشدّ تحمساً مما لو دار الأمر على قضية من قضايا الدولة أو الدين. أما إحدى الفئتين، وهي أعظم نفوذاً وأوفر عَدداً وقد ضمت كبار القوم والأغنياء والنسوان، فإنها كانت تؤيد الموسيقى الفرنسية. وأما الفئة الأخرى، وهي أوفى نشاطاً وأشمخ أنفاً وأبلغ حماسةً، فقد كانت تضم أُولي معرفة أصيلين وذوي مواهب وعبقرية. وكانت هذه الفئة الصغيرة تجتمع في دار الأوبرا، تحت مقصورة الملكة، وكان الحزب الآخر يملأ ما بقي من أسفل المسرح ومن القاعة كلها؛ بيد أن مركزه الرئيس كانت تحت مقصورة الملك. فمن هنا منشأ هذين الإسمين لحزبين اشتهرا في ذلك العهد وهما حزب **«ركن الملك»** وحزب **«ركن الملكة»**[24] فلما احتدم الجدل، صدرت عنه كراريس. فشاء ركن الملك أن يمزح، فسخر منه **«النبي الصغير»**[25]، وشاء ركن الملك، هذا، أن يأتي بالأدلة والبراهين، فسحقه الكراس الذي

---

(23) موندوفيل (1715-1773) موسيقي فرنسي ـ المترجم.

(24) «ركن الملك» (Le coin du roi)، «ركن الملكة» (Le coin de la reine) ـ المترجم.

(25) «النبي الصغير» (Le petit prophète) كراس هجائي غفل وضعه جريم عام 1753 وحمل فيه على الموسيقى الفرنسية ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

عنوانه «**رسالة في الموسيقى الفرنسية**»[26]. ثم إن هذين الكراسين، وأَولهما لجريم والآخر لي، هما المنشوران الوحيدان اللذان بقيا من بعد ذلك النزاع، وما سواهما فقد انتقل إلى رحمة النسيان.

بيد أن «النبي الصغير»، الذي أصرَّ الناس، ردحاً من الزمن، على أن ينسبوه إليّ، قد حُمل على محمل الهزل فلم يجلب على مؤلّفه أدنى مشقّة؛ في حين كان كراس «**رسالة في الموسيقى**» قد حُمل على محمل الجد، فأثار عليّ الأمة جمعاء، إذ حسبتْ أن قد أُهينت في ألحانها. فكان لكراسي وقعٌ بعيد التصديق يجدر بقلم تاسيتوس أن يمعن فيه وصفاً وتصويراً. ولقد جرى ذلك أيامَ تنازعَ البرلمان ورجال الدين. وكان البرلمان قد حُلّ؛ وكانت النفوس في غاية القلق؛ وكان كل شيء يهدّد بفتنة قريبة. وقتئذٍ صدر كرّاسي: فنسي الناس من فورهم سائرَ الخلافات، وعادوا لا يفكرون إلا في خطر الموسيقى الفرنسية. ولم يكن من ثورة إلا عليّ. فبلغت الثورة حدّاً لم يهدأ الناسُ من بعده تمام الهدوء. فأما في البلاط، فكانوا لا يترجحون إلا بين إلقائي في سجن الباستيّل ونفيي، ولقد أوشكتُ أن يُنْفَذ إليّ، في هذا الصدد، بالأمر الملكي، لولا أن السيد دو فوييه بيَّنَ ما في ذلك من مضحكات. ويومَ يقرأ الناس أن كراسي هذا ربما منع أن تنشب ثورة في الدولة، فلسوف يخيَّل إليهم أنهم يحلمون. لكنها الحقيقة التي وقعتْ، وما يزال في وسع باريس كلها أن تشهد على ما قد وقع، فإن هذه الحكاية الغريبة لم يمض عليها، إلى يومنا، غير خمس عشرة سنة.

واذا كنتُ لم يُعتدَ على حريتي، فإني، في الأقل، لم أُحْمَ من ضروب الإهانة، وباتت حياتي، هي نفسها، في خطر. فحاكت جوقة

---

(26) **رسالة في الموسيقى الفرنسية** (*Lettre sur la musique française*) ـ المترجم.

موسيقى الأوبرا دسيسةً نزيهة مستقيمة، وقد نوت اغتيالي وأنا خارج من دار الأوبرا. فنُبّئتُ بذلك، فما ازددتُ إلا مواظبة على حضور الأوبرا، ثم لم يبلغني إلا بعد وقت طويل أن السيد أنسله ضابط الفرسان، وكان على صداقة لي، قد أحبط الدسيسة فتقدَّمَ إلى بعض رجال الحرس أن يتبعوني حين يخرج الناس من دار الأوبرا، وأنا لا علم لي بذلك. وكانت بلدية المدينة قد تولت إدارة الأوبرا. فأولُ مأثرةٍ قام بها رأسُ موظفي التجارة هي أنه أَمرَ بأن تُنزع مني بطاقةُ دخولي الأوبرا مجاناً، وعُمدَ في ذلك إلى أشنع وسيلة ممكنة، أعني أنه أُوعزَ أن أُمنَع جهاراً من الدخول عندما أجتاز بالمدخل، فاضطررتُ يومئذٍ أن أشتري إحدى بطاقات مدرّج المسرح لئلا أُكرَه على الرجوع وقد أُهنتُ أمام الناس. وكان هذا الظلم مثيراً، ولا سيما أن الثمن الوحيد الذي طلبتُه بدل مؤلَّفتي، لمّا تنازلتُ عنها لهم، هو أن يُحَقّ لي أن أدخل دار الأوبرا مجاناً على الدوام؛ ولئن كان هذا الحقّ هو من حقّ المؤلّفين كافة، ولئن كنتُ قد وجبتْ تأديته إليّ من أجل سببين، فإني ما برحتُ أتعمد أن أذكره بمحضر من السيد دوكلو. صحيح أنه قد أُرسلَ إليّ بخمسين ليرة فرنسية ذهباً بدل أتعابي، ولم أكن قد طالبتُ بها، فحملها إليّ أمين صندوق الأوبرا، لكن هذه الخمسين ليرة لا شأن لها في حقّ الدخول، فلقد ذُكرَ حقّي صراحاً، وهو مستقل عنها كل الاستقلال، فضلاً على كونها لا تبلغ حتى قيمة المال الذي وجب لي بمقتضى الأصول. فكان في تلك الوسيلة من فرط التعسف والفظاظة شيء كثير، حتى إن الجمهور قد أجمعَ على النفور منها، مع كونه يومئذٍ قد بلغ سخطُه عليّ كلَّ مبلغ. وكما كان الجمهور قد صوّب إليّ البارحة قولاً مهيناً، فإنه عاد في الغد ينادي ملء القاعة أنه من العار أن تُنزَع حقوق الدخل من مؤلّف قد استأهلها أيَّ استئهال، حتى لقد جاز له أن يطالب بها لأجل

twitter @baghdad_library

شخصين. ولكم صدقَ المثَل الإيطالي الذي مؤدّاه أن «كل إنسان يحب الإنصاف عند غيره من الناس»[27].

ولم أكن ههنا بالخيار؛ فطالبتُ بمؤلَّفتي ما دمتُ قد نزع مني ثمنها المتفَق عليه. فكتبتُ في هذا الصدد إلى السيد دارجنسون متولي إدارة الأوبرا؛ وضممتُ إلى رسالتي مذكرة لا تقتضي ردّاً، فبقيتْ هي والرسالة بغير جواب ولا نتيجة. وبقيتُ، في ما بيني وبين نفسي، أذكر سكوت هذا الرجل الظالم ذكراً لم يخفف من استصغاري لخُلقه ولمواهبه في كل حال. وأُبقيتْ تأليفي هكذا في دار الأوبرا، فحُرمتُ الثمن الذي به تنازلتُ عنها. فمن الضعيف إلى القويّ ذلك سرقة؛ ومن القويّ إلى الضعيف فإنما هو أن يمتلك القويُّ ما لسواه.

ولئن كان الدخل، الذي تحصّل لي من «**العرّاف**»، لم يعدْ عليّ منه ربعُ ما كان عاد عليّ لو تسلّمه غيرُ ذلك الرجل، فإن قيمته لم تزل على كفاية مكّنتْني أن أرتزق سنين متعددة، وأعاضتني من نسخ الألحان وقد كان ضئيل المورد، في كل حال. فنلتُ من الملك مائة ليرة فرنسية ذهباً، ومن مدام دو بومبادور خمسين لأجل تمثيل الأوبرا في بل فو وقد قامت هي نفسها بدور كولان؛ ونلتُ من إدارة الأوبرا خمسين ليرة، ومن بيسّو خمسمائة فرنك بدل رقم الألحان؛ وعلى ذلك، فإن فاصلي الموسيقي، الذي لم يقتضي مني إلا خمسة أسابيع أو ستة أسابيع من العمل، قد عاد عليّ، برغم محنتي وغباوتي، بمال يكاد يساوي ما عاد عليّ، في ما بعد، من كتاب «**إميل**» الذي اقتضاني عشرين سنة من التأمل وثلاثاً من العمل. بيد أن السعة المالية، التي وفّرتْها لي تلك الأوبرا، قد جلبتْ عليّ من المكدّرات

(27) في الأصل بالإيطالية: Ogn' un ama la giustizia in casa d'altrui ـ المترجم.

ما لا نهاية له. فتسبب لي تأليفي ببذور حسد لم تنمُ إلا بعد زمان طويل. وكنتُ، مذ نجاحها، قد أصبحتُ لا آنس عند جريم، ولا عند ديدرو، ولا عند أغلب من عَرفتُ من أهل الأدب، تلك الصداقة القلبية وتلك المصارحة وتلك الرغبة في أن يلتقوني، وهي التي كنتُ قد خلتُها عندهم إلى ذلك الحين. فما أن كان الناس تقع عليّ أبصارهم في دار البارون دولباخ حتى يكفّوا عن التحادث عامة، يتجمعون فئات صغيرة ويتهامسون، فأَظلُّ وحدي لستُ أدري إلى أيّ منهم أوجّه الكلام. ولم أفتأ، ردحاً من الوقت، أكابد هذا التخلي المثير. فلما وجدتُ مدام دولباخ الوادعة اللطيفة قد أحسنت استقبالي في كل حال، احتملتُ غلظة زوجها ما دامت تُحتمَل. إلا أنه تصدّى لي، ذات يوم، تصدّياً فظاً لا سبب له ولا عذر، وذلك بمحضر من ديدرو الذي لم ينبس بحرف وبمحضر من مارجنسي الذي كثيراً ما قال لي منذئذٍ إنه قد أُعجب بلطف أجوبتي واعتدالها. ثم إن هذه المعاملة غير اللائقة قد طردتْني، فخرجتُ من بيت دولباخ وصمّمتُ ألا أعود. فلم يحل ذلك دون أن أذكره وأذكرَ بيته ذكراً على الدوام كريماً؛ في حين لم يكن هو يذكرني بسوى عبارات الإهانة والاحتقار، ما يسمّيني إلا بقوله «هذا المدعي المضحك الغليظ»، وليس يمكنه، مع ذلك، أن يُثبت أنني أخطأتُ إليه ولا إلى أحد من الذين عناه أمرهم أيّ خطإٍ كان. هكذا حقَّق دولباخ، في آخر الأمر، تنبؤاتي ومخاوفي. أما أنا، فأظن أن أصدقائي المزعومين قد يسامحوني لتأليفي كتباً، وهي كتب ممتازة، فإن هذا المجد لم يكن غريباً عنهم؛ ولكن أَحسبُهم لم يستطيعوا أن يسامحوني لتأليفي أوبرا ولا لما لقيتْ من نجاح عظيم، إذ لم يكن فيهم أحد قد استطاع أن يخوض هذا الميدان الذي خضتُ ولا أن يطمح إلى الإكرام الذي أَصبتُ. فترفَّع دوكلو وحده عن هذا الحسد، حتى لقد ازداد مصادقة لي ومضى بي إلى عند الآنسة كينو فعرّفني إليها، فلقيتُ في بيتها من

twitter @baghdad_library

العناية والكرم واللطف قدْرَ ما لقيتُ من ضآلة ذلك أجمع في بيت السيد دولباخ.

وبينا كانت «**عرّاف القرية**» تُمثَّل في دار الأوبرا، كان مؤلّفها يُذكَر في «لاكوميدي فرنسيز»، ولكن على دون ما سلف من النجاح والتوفيق. وذلك أنني لمّا تعذّر عليّ، في غضون سبع سنوات أو ثمان، أن أحمل الإيطاليين أن يمثّلوا الأوبرا مؤلفتي «**نرسيس**»، كرهتُ مسرحهم لأنهم لم يكونوا يجيدون تأدية أدوارهم باللسان الفرنسي، فتمنيتُ لو يمثّل الأوبرا الفرنسيون بدل الإيطاليين. فذكرتُ رغبتي للانو الممثل الهزلي، وكنتُ قد تعرّفتُ به؛ ولقد كان، كما لا يخفى، رجل استحقاق وكان مؤلّفاً. فأعجبتْه «**نرسيس**»، فعُنيَ بأن تمثَّل مع إغفال اسمي. واستحصل لي، في انتظار ذلك، على بطاقة دخول مجانية سُررتُ بها لأنني فضّلتُ مسرح «لوتياتر فرنسيه» على المسرحين الآخرين. فقُبل تأليفي بالتصفيق ومُثّلتْ ولم يُذكَر اسم واضعها؛ ولكن بدا لي ما ظننتُ معه أن الممثلين وكثيراً من الناس غيرهم لم يجهلوا اسمه. وكانت الآنستان جوسّان وغرانفال تمثّلان دورَي العاشقَين؛ ولئن فات الممثلين أن يفهموا الأوبرا كلها، فلم يمكن أن يقال، بحسب ما أرى، أنها قد أُسيءَ تمثيلها كله. بيد أنني عجبتُ وتأثرتُ لإغضاء الجمهور إذ صبر عليها من أولها إلى آخرها وهو ساكن، ثم احتمل، إلى ذاك، تمثيلَها مرة أخرى ليس يعرب عن أيسر علامة تململ ونفاد صبر. أما أنا، فلقد بلغ مني الملل في الحفلة الأولى حتى إني لم أصبر إلى النهاية، بل خرجتُ من المسرح فدخلتُ مقهى بروكوب فلقيتُ هناك بواسّي وبعض الناس الذين أرجح أنهم كانوا قد ملّوا كما مللتُ. فكشفتُ عن خطأي[28]

(28) في الأصل باللاتينية Peccavi ـ المترجم.

جهاراً فأقررتُ أنني مؤلّف الأوبرا إقرارَ رجل أو إقرارَ رجل أبيّ، وتكلّمتُ عليها بما يشبه رأي جميع الناس فيها. فأعجبهم حقّاً هذا الإقرار العلنيّ قد جهر به مؤلّف أوبرا رديئة مخففة، أما أنا، فلم يشقّ عليّ أن أجهر به، ولكن وجدتُ، في الشجاعة التي بها أبديتُه، تعويضاً لكرامتي، وأحسب أن كلامي، وقتئذٍ، كان فيه من الكبر أضعاف ما كان في صمتي من خجلٍ أحمق. ولكن، مع ذلك، أَيقنتُ أن الأوبرا، على برودتها حين تُمثَّل، تحتمل القراءة؛ فطبعتُها، وأخذتُ، في المقدمة التي هي من كتاباتي الجيدة، أكشف عن مبادئي كشفاً هو أكثرُ قليلاً مما كنتُ قد فعلتُ إلى ذلك اليوم.

فلم ألبث طويلاً حتى أتيح لي أن أتوسع في تلك المبادئ توسعاً وافياً، وذلك في مؤلَّف هو أخطر شأناً، فإن برنامج أكاديمية ديجون في «**أصل التفاوت بين البشر**» كان قد صدر في ذلك العام، عام 1753، على ما أذكر. فبلغتْ مني هذه المسألة الكبيرة، وأدهشني أن أكاديمية ديجون قد اجترأتْ على أن تطرح هذا الموضوع، ولكن ما دامت قد اجترأتْ، فلقد أمكنني أن أجترئ على معالجته، ففعلتُ.

قمتُ برحلة سبعة أيام، أو ثمانية، إلى سان جرمان إرادةَ أن أتأمل في هذا الموضوع الكبير ما طاب لي التأمل. وكانت معي تيريز وصاحبة الفندق الذي سكنّا فيه، وهي امرأة طيّبة، وإحدى صديقاتها. وإني لأعدّ هذه النزهة من أمتع نزهات العمر. ولقد كان الجو رائعاً جميلاً؛ وقامت هاتان المرأتان الكريمتان تعتنيان بشؤون النزهة ونفقاتها؛ وكانت تيريز تلهو معهما؛ أما أنا، فلم أهتم بشيء من هذا القبيل، بل كنتُ آتي في ساعات الطعام أمرحُ بلا تكلف ولا انزعاج، وأُوغلُ سائرَ يومي في الغابة، أَنشد صورة الأعصر الأولى، فأقع عليها، فأفتخر بذكري تاريخها، أَسترقُ ما صغر من أكاذيب البشر، وأتجاسر أن أكشف طبائعهم، على تقدّم الزمن والأشياء التي شوّهتْ

twitter @baghdad_library

هذي الطبائع، ثم أقارن إنسان الإنسان بإنسان الطبيعة، أُري البشر أن في تكامله المزعوم تكمن علّة شقائه الحقيقية. فهاجتني تلك التأملات الرفيعة، فسمت روحي إلى جوار الألوهة، أُطلُّ من هناك على أشباهي فأبصرهم يتبعون سبل أخطائهم ومصائبهم وأوزارهم وقد أعمتهم أحكامهم المسبقة، فأناديهم بصوت ضعيف قد تعذَّر عليهم سماعه أقول لهم: «يا أيها المغفّلون الذين لا تبرحون تشتكون من الطبيعة، تعلّموا أنكم أنتم مصدر بلاياكم جمعاء».

فتحصَّلَ من تلك التأملات مؤلَّف **«خطاب في التفاوت»**[29]، وكان إلى ذوق ديدرو أقرب من سائر مؤلَّفاتي، وكانت نصائح ديدرو لي في شأنه على تمام الفائدة[*]، بيد أن كتابي هذا لم يُصب في أوروبا كلها إلا قلة من القراء الذين فهموه، ولا أصاب فيهم أحداً قد رضي أن يتكلّم عليه. وكنتُ قد ألّفتُه قصْدَ المباراة لنيل الجائزة، فأَرسلتُ به وأنا على يقين أنه لن يفوز بها، أَعرفُ حقّ المعرفة أن جوائز المجامع العلمية والأدبية لم تُنشأ لهذا اللون من المؤلَّفات.

ثم إن نزهتي وشاغلي حينئذٍ قد نفعا مزاجي وصحتي. وكنتُ قد مرّت عليّ عدة سنوات وأنا أقاسي انحصار البول وأنقادُ للأطباء

---

(29) **خطاب في التفاوت** (*Discours sur l'inégalité*) ـ المترجم.

(*) يوم كتبت هذا القول، لم يكن قد خامرني بعد أدنى شك في دسيسة ديدرو وغريم، وإلا لتبين لي مدى ما كان يبغي أوّلُهما، وقد ركنت إليه، أن يشيع، في ما أكتب، تلك النبرة القاسية وتلك المسحة المتشائمة الكئيبة اللتين خلت منهما كتاباتي مذ كف ديدرو عن توجيهي، فإنما هو صانع مقطع الفيلسوف الذي برهن لنفسه بنفسه يصمّ أذنيه لئلا يسمع شكوى امرئ يائس مسكين. وكان ديدرو قد كتب لي مقاطع أخرى أعنف، فلم يسعني استخدامها، ولكن لم يخطر لي قط أن فيها أقل خبث منه، بل عزوت تشاؤم ديدرو إلى ما قد رسب في نفسه من سجن فانسين، وإنك تجد في شخص كليرفال[أ] تشاؤماً غير يسير.

(أ) يريد روسو أن يقول دورفال، لا كليرفال كما ذكر خطأ، ودور فال هذا هو شخص كتاب ديدرو **الابن غير الشرعي** (*Le fils naturel*) ـ المترجم.

انقياداً مطلقاً. فأوهنوا طاقتي وقضوا على بنيتي ولم يخففوا من علّتي شيئاً. فلما عدتُ من سان جرمان، ألفيتُني أَنشطَ، وأقوى، وأَحسنَ حالاً. فسرتُ على هذا النحو، وصمّمتُ أن أشفى أو أن أهلك، بلا أطباء ولا أدوية؛ فودّعتُ الأطباء توديعاً نهائياً وقمتُ أعيش في يومي ليومي أَلزمُ الهدوء إذا تعذَّرَ عليّ الذهاب، فما أكاد أقوى على السير حتى أسير. ولم يكن بي ميل إلى مجرى الحياة في باريس بين القوم المدّعين، فكرهتُ واستقبحتُ دسائس أهل الأدب وخصوماتهم المخجلة، وضآلة الصدق في مؤلَّفاتهم، وما يَظهرون به في الناس من مظهرٍ قاطعٍ حاسم؛ حتى أصدقائي وجدتُ عندهم من قلّة اللطف وضيق انفتاحِ القلب وقلة المصارحة ما كرَّهَ إليّ تلك العيشة الصاخبة، فابتدأتُ أشتهي أن أسكن الريف. فلما رأيتُ أن عملي لا يأذن لي في سكناه، أصبحتُ أنطلق إلى هناك أقضي، في الأقل، ساعات الفراغ. وظللتُ عدة أشهر أمضي إلى بوادوبولون، بعد الغداء في أول الأمر، أتنزه وحدي، أتأمل في مواضيع بعض المؤلَّفات، لستُ أعود إلا عند هبوط الليل.

فاقترح عليّ غوفكور، وكنتُ يومئذٍ على اتصال وثيق به، أن أسافر إلى جنيف وقد اضطر هو أن يقصدها لأجل عمله، فرضيتُ. ولم تكن صحتي على حالة أقدر معها أن أستغني عن عناية المدبّرة. فقرّرنا أن ترتحل وإيانا وتبقى أمها فتحرس البيت، فأعددنا كل ما لزم وسافرنا، نحن الثلاثة، في الأول من حزيران 1754.

وينبغي أن أذكر هذه الرحلة على أنها، وأنا يومئذٍ في سنتي الثانية والأربعين، عهدُ التجربة الأولى التي أصابتني في طبعي الذي ولدت به والمفعم تماماً بالثقة فانقدتُ له في جميع الأحوال بلا تحفظ ولا عقبات. فركبنا إحدى عربات الضواحي، فانطلقتْ بنا، على مراحل يومية يسيرة، من غير أن تُبدَّل الجياد. وكثيراً ما ترجلتُ

twitter @baghdad_library

أذهب مشياً. فما كدنا نصل إلى نصف الطريق حتى أبدت تيريز أنها تكره أشدّ الكره أن تظل مع غوفكور وحدها في العربة. فكنتُ إذا ترجلتُ، برغم إلحاحها، ترجلتْ فمشتْ. فأنّبتُها جداً ألومها على هذه النزوة، حتى إني منعتُها عنها منعاً باتاً، إلى أن اضطرت، في نهاية الأمر، أن تعلنني السبب. فخلتُني في حلم إذ فوجئتُ ودهشتُ لمّا بلغني أن غوفكور صديقي الذي نيَّف على الستين واعتراه داء النقرس فهو أكسح والذي أفنت قواه الملذاتُ والشهوات ـ ما فتئ، منذ ارتحلنا، يعمل على إغواء امرأة لم تبقَ جميلة ولا شابة، فضلاً عن كونها من حوز صديقه. ولقد عمد غوفكور إلى ذلك بأحط الوسائل وأشدّها عاراً، حتى إنه دفع إلى تيريز كيس نقوده وحاول أن يغويها يقرأ لها في كتاب قبيح ويريها ما قد حُشي به من صور خلاعة وتهتُّك. فثارت تيريز مرة، فألقت من باب العربة هذا الكتاب الشنيع؛ وبلغني، في يومنا الأول وقد اعتراني صداع شديد أجبرني أن أذهب إلى النوم لم أتعشَّ، بلغني أن غوفكور ما انفكَّ، مدةَ خلوته بتيريز، يحاول ويداور في ما هو بمتهتك خليع أجدر منه برجل كريم قد ائتمنتُه على رفيقتي وعلى نفسي. فيا لها مفاجاة! ويا له انقباضاً في القلب لا عهد لي به من قبْل! فلقد كنتُ، إلى ذلك اليوم، أحسب أن الصداقة لا تنفصل عن سائر المشاعر المُحبّة النبيلة التي هي قوام الصداقة روعةً وجمالاً. فإذا بي، أولَ مرة في العمر، قد أُكرهتُ على أن أرهن الصداقة بالاحتقار، وعلى أن أحجب ثقتي وقدري عن امرئ قد أحببتُه وأخاله قد أَحبَّني! ثم إن هذا التعس قد أخفى عليّ عاره. فاضطررتُ أن أخفي عليه ازدرائي إياه وأن أكتم في أعماق قلبي المشاعر التي لا ينبغي له أن يقف عليها، أو أعرّضَ تيريز. فيا لوهم الصداقة الحلو المقدّس! لقد كان غوفكور أول من رفع الغطاء عن هذا الوهم. فكم من أيدٍ قاسية حالت، منذئذٍ، بينه وبين الانسدال!

فلما كنا في مدينة ليون، فارقتُ غوفكور أسلكُ طريقي عبر سافوى، إذ لم يسعني، مرة أخرى، أن أجوز بمكان قريب إلى ماما هذا القرب كله فلا ألقاها من جديد. ولقد لقيتُها من جديد. فبأيّ حال وجدتُها، يا لله! وبأيّ هوان! ماذا بقي من عزّها الأول؟ أهي مدام دو فارانس نفسها التي طالما تألقتْ في ما مضى والتي كان قد بعثني إليها كاهن بونفير؟ لكم حزنتُ وكم تأسفتُ! فلم أجد من مخرج لها إلا أن تهجر بلدها. فجدّدتُ ما سلف من إلحاحي عليها مراراً في رسائلي إليها فتنزل عندي وتحيا معي حياة وادعة مطمئنة، أريد أن أقف أيامي وأيام تيريز على أن نسعد أيامها. لكنها لم تصغ إليّ، إذ تمسكتْ بمرتبها الذي باتت لا تنتفع به منذ وقت طويل، وإن كان يؤدى إليها على التمام. فمددتُها بقسط من مالي يسيرٍ هو دون ما كان يجب أن أمدّها به ودون ما كنتُ فعلتُ لو لم أوقن حقّاً أنها لن تنتفع منه بفلس واحد. فلما نزلتُ بجنيف، سافرتْ هي إلى شابليه فأتت تزورني في غرانج كنال. فأعوزها المال حتى تكمل سفرها، ولم يكن معي منه حينئذٍ ما يجب لذلك، فأرسلتُ إليها بالدراهم مع تيريز بعد ساعة من الزمن. فيا لماما المسكينة! ألا فلأذكرْ، فضلاً عما سبق، هذه المزية من مزايا قلبها. وذلك أنه لم يكن قد بقي عندها من جواهرها إلا خاتم صغير. فنزعتْه من إصبعها تريد أن تجعله في إصبع تيريز التي وضعتْه في إصبعها على الفور وهي تبوس الكفّ الندية الكريمة وتغسلها بالدموع. آه! لقد كان هذا هو الوقت المناسب لأن أوفي ماما دَينها! ولقد كان ينبغي أن أدَع كل شيء، فأتبعها وأتعلّق بها حتى ساعتها الأخيرة وأشاطرها ما كُتب لها، كائناً ما كان أمره. فلم أفعل من ذلك شيئاً وقد شغلني عنها تعلّقي بسواها، فشعرتُ أن ما سلف من تعلّقي بها قد وهت أسبابه، إذ لم يكن عندي ما أرجو أن أنفعها به إذا عدتُ إليها. فبكيتُ عليها

twitter @baghdad_library

وانتحبتُ، لكني لم أَتبعها. وإن ذلك لأَشدُّ وأبقى ندامةٍ بلوتُها على العمر، فاستأهلتُ العقوبات المريعة التي ما برحتْ تفدحني مذ ذلك الوقت، فعسى أن تكون هذه العقوبات قد كفَّرتْ عن إنكاري الجميلَ! ولئن سلكتُ حيال ماما سبيل إنكار الجميل، فإن هذه السبيل كانت أكثر تمزيقاً لقلبي من أن يكون هو، يوماً، قلب امرئ من ذوي الإنكار.

وكنتُ، قبلما ارتحلتُ عن باريس، قد ابتدأتُ أكتب ديباجةَ إهداء «**خطاب في التفاوت**». فأَكملتُ كتابتها في شامبيري، وأَرَّختُها عن هذا المكان، إذ وجدتُ أنه من الأفضل ألا تؤرَّخ لا عن فرنسا ولا عن جنيف تجنباً لكل مماحكة. فلما وصلتُ إلى جنيف، اندفعتُ وراء الحماسة الجمهورية التي حملتْني إلى هذه المدينة. وزادني تحمساً ما لقيتُ فيها من ترحيب. فلما أَهّل بي الناس، على اختلاف أحوالهم، وتوددوا إليّ، جعلتُ طاقتي كلها وقفاً على الحميّة الوطنية وقد أَخجلني أنني حُرمتُ حقوقي كمواطن إذ جهرتُ بمذهب دينيّ هو على غير مذهب آبائي، فقرّرتُ أن أرتد إلى مذهبهم علناً. أما والكتاب المقدّس هو للمسيحيين كافة، وأما وجوهر العقيدة هو هو إلا في النواحي التي يعنى الناس بأن يفسروا ما يتعذّر عليهم فهمه منها، فلقد كنتُ أحسب أنه يُحَقّ للملك وحده، في كل بلد، أن يعيّن المذهب ويعيّن هذي العقيدة التي يتعذّر فهمها، وأنه بالتالي يجب على المواطن أن يقبل العقيدة ويتبع المذهب الديني الذي يحدده القانون. ثم إن معاشرتي للأنسيكلوبيديين لم تزعزع إيماني، بل ثبتتْه لأني جُبلتُ على أن أَكره المساجلة والأحزاب. وكانت دراستي للإنسان وللكون قد أرتني أقصى غايات العلل وأرتني العقل الذي يوجه تلك الغايات، على اختلاف العهود والأحوال. وكانت قراءتي الكتاب المقدّس، ولا سيما العهد الجديد، قد حدتني على

أن أستخف بالتفسيرات الدنيئة الغبية التي يلصقها بيسوع المسيح أقلُّ الناس جدارةً بفهم كتابه وقد كنتُ جاداً في مطالعته منذ سنين. وخلاصة القول إن الفلسفة، إذ وصلتْني بجوهر الدين، قد فصلتْني عن خليط التفسيرات الصغيرة التي خلعها الناس عليه فحجبوه. فلما وجدتُ أنه ليست للعاقل طريقتان إلى المسيحية، وجدتُ كذلك أن ما يتصل منها بالشكل وبالنظام فهو من اختصاص الشرائع والقوانين في كل بلد. فكان أن هذا المبدأ الحقّ، رأياً واجتماعاً ومسالَمة، هذا المبدأ الذي جلب عليّ اضطهادات قاسية، قد نشأ عنه ما اقتضى أن أكون بروتستنتياً فأرتد إلى المذهب الراهن في البلد وقد أردتُ أن أصبح من رعايا جنيف. فصمّمتُ على أن أرتد إلى المذهب البروتستنتي، حتى لقد خضعتُ لتعليمات قس الرعية التي كنتُ أقيم بينها في ظاهر المدينة. إلا أني وددتُ ألا أُضطر أن أَمثل أمام مجمع القساوسة. والقانون الكنسي كان نصه، في هذا الشأن، واضحاً صريحاً؛ ولكن رضي أُولو الشأن أن يخالفوه لأجلي، فعيَّنوا لجنةً تضم خمسة أعضاء، أو ستة، لكي تتقبل إعلان إيماني في جلسة خاصة. وكان في سوء حظي أن القس بردريو، ذلك الرجل الوادع اللطيف، قد قال لي إن أعضاء اللجنة يسّرهم أن يصغوا إليّ أخطبُ في مجمعهم المختصر. فبقيتُ ثلاثة أسابيع أدرس، ليل نهار، خطبة قصيرة أعددتُها لهذا الغرض، فأشاع فيّ انتظاري لجلسة المجمع خشية بالغة، حتى إنني، حين هممتُ بإلقاء الخطاب، ارتبكتُ ارتباكاً شديداً فعييتُ أن أنطق بحرف واحد منه. فكان دوري، في ذلك الاجتماع، دور أسخف التلاميذ؛ وقد تولى الأعضاء المفوَّضون أمر الكلام بدلاً مني، فأَجبتُهم ببلاهة أن «نعم» وأن «لا». ثم قُبلتُ للمناولة، ورُدَّتْ عليّ حقوقي مواطناً، فسُجّل اسمي على هذا النحو في لائحة ضريبة الحراسة وهي التي لا يؤديها إلا طبقة الرعايا والبورجوازيين. وحضرتُ جلسة استثنائية للجمعية الوطنية العامة أقسم

twitter @baghdad_library

فيها موسّار الوكيل[30] يمينه الشرعية. فبلغتْ مني المعاملة الكريمة التي أبداها لي جميع القضاة والرعاة والمواطنين، حتى إنني، إذ أَلَحَّ عليّ دولوك الطيّب ولم يفتأ يزعجني، وإذ كانت فطرتي أشدّ إلحاحاً عليّ، أمسيتُ لا أفكر في الرجوع إلى باريس إلا لكي أنهي سكني فيها وأدبّر أموري اليسيرة وأُوجدَ عملاً للسيدة لوفاسور ولزوجها، أو أقوم بنفقتهما، ثم أعود مع تيريز فأستوطن جنيف حتى آخر العمر.

فلما قرّرتُ ذلك، توقفتُ عن أعمال الجد وجعلتُ أتلهى وأصدقائي إلى أن وافى يوم السفر. وكان أرْوع ما راقني، بين جميع ما تلهيتُ به، نزهة على البحيرة قمتُ بها، على بعض السفن، مع دو لوك الأب وكنّته وابنيه وتيريز. فدامت رحلتنا سبعة أيام والجوُ على أصفى ما يكون. فبقيتُ أتذكر المناظر التي تقع عند الطرف الآخر من البحيرة وقد أعجبتني أيّ إعجاب، فوصفتُها، بعد بضع سنوات، في كتابي «**إيلوييز الجديدة**».

والصداقات الرئيسة التي اتخذتُها لي بجنيف كان قوامها ـ علاوة على آل دو لوك وقد ذكرتُهم ـ القسّ الشاب السيد فرن الذي كنتُ قد عرفتُه في باريس وتوسمتُ فيه فوق ما بات عليه في ما بعد؛ والسيد بردريو، وهو وقتئذٍ من قساوسة الريف وقد أصبح اليوم استاداً للآداب، ولسوف أندم أبداً على فراقه لما تحلّى به من لطف عشرة ووداعة، وإن يكن قد وجد في مفارقته إياي ما يلائم سلوكه بين الناس؛ والسيد جالابير، وهو وقتئذٍ أستاذ للفيزياء، ثم غدا مستشاراً فوكيلاً[31]، فقرأتُ عليه مؤلّفي «**خطاب في التفاوت**» (ولكن

(30) بيار موسار هو أحد الوكلاء الأربعة الذين كانوا يعيَّنون على رأس جمهورية جنيف لسنة واحدة ـ المترجم.

(31) أي وكيلاً من وكلاء الجمهورية ـ المترجم.

لم أَتلُ عليه ديباجة الإهداء)، فبدا لي أن المؤلَّف قد سرّه جداً؛ والأستاذ لولان، وقد بقينا نتراسل إلى أن توفي، حتى إنه عهد إليّ أن أشتري بعض المؤلَّفات لدار الكتب؛ والأستاذ فيرنه، الذي مال عني ميلَ سائر الناس بعد ما أَقمتُ له من أدلّة التعلّق والثقة ما كان خليقاً بأن يؤثّر فيه لو كان رجل اللاهوت يؤثّر فيه شيء؛ وشابوي كاتبُ غوفكور فخلَفَه، وقد أراد أن يحلّ محله فلم يلبث شابوي هذا أن حلّ غيرُه بمحلّه؛ ومارسيه دو ميزيير، صديق قديم لوالدي، وقد صادقني أيضاً، إلا أنه، بعد ما استحقّ شكر الوطن، جعل من نفسه مؤلّفاً مسرحياً وقام يطالب أن يكون عضواً في مجلس المائتين، فأصبح أضحوكة الناس قبلما ارتحل عن هذه الدنيا؛ وأما الصديق الذي توقّعتُ منه فوق ما توقّعتُ من سواه، فلقد كان مولتو، وهو شاب عُلّقتْ به أوسع الآمال لما له من مواهب وحدّة ذكاء، فأحببتُه على الدوام، وإن كان، في أغلب الأحايين، قد سلك مني على وجهين واتصل بألدّ أعدائي؛ ولكن، مع ذلك، لا يسعني أن أنظر إليه إلا على أنه سيدعى يوماً إلى الدفاع عن ذكري فيثأر بصديقه.

فلم أفقد، وأنا بين تلك الألوان من التلهي، ميلي إلى نزهاتي المتوحدة، ولا فقدتُ هذه العادة؛ وكثيراً ما قمتُ، حول ضفاف البحيرة، بنزهات دانية كبيرة بما فيه الكفاية، وما كان ذهني ليتعطّل في أثناء ذلك وهو الذي تعوّد أن يتشغّل. فأخذتُ أستوعب تصميم كتابي «**النظم السياسية**»[32] [المؤسسات السياسية]، وسأتكلّم على هذا المؤلَّف، وكان تصميمي فيه قد اكتمل يومئذٍ؛ وطفقتُ أتأمل في مؤلَّف على «**تاريخ فاليه**»[33] وفي مخطط لتراجيديا [مأساة] نثرية،

---

(32) **النظم السياسية** (*Institutions politiques*) ـ المترجم.

(33) **تاريخ فاليه** (*Histoire du valais*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وهذه كان في شأن موضوعها، الذي ليس دون لوكريسية[34]، ألا يُفقدني أملي أن أُدهش الهازئين، وإن كنتُ، وقتئذٍ، لا أزال أجترئ على أن أُظهر شخص هذه المرأة المنحوسة، في حين لم يبقَ بوسعها أن تبدو على أيّ مسرح فرنسي كان. وتطرقتُ، في الوقت عينه، إلى بعض مؤلَّفات تاسيتوس، فترجمتُ الكتاب الأول من **تاريخه**، وستجد هذا الكتاب بين أوراقي.

ثم عدتُ في تشرين الأول إلى باريس بعد ما نزلتُ بجنيف أربعة أشهر. وتجنبتُ المرور بمدينة ليون لئلا ألتقي غوفكور وأنا في بعض الطريق. وكان في جملة ما دبرتُه ألا أرجع إلى جنيف إلا في الربيع القادم، فمضيتُ في ذلك الشتاء إلى ما سلف من شواغلي وعادتي، وعلى رأسها المراجعة لمسوّدات «**خطاب في التفاوت**»، وكنتُ قد بعثتُ أطبعه في هولندا على يد راي الناشر الذي تعرّفتُ به حينئذٍ في جنيف. أما وقد أَهديتُ هذا المؤلَّف إلى الجمهورية، وربما كان إهدائي لن يروق المجلس[35]، فقد أردتُ أن أرتقب ما يكون لإهدائي، هذا، من وقع في جنيف قبْل أن أعود إليها. فلم يقع منها موقعاً حسناً ولا كان من هذا الإهداء، الذي أملاه أخلص الشعور الوطني، إلا أنْ جلب عليّ أعداءً في المجلس وحسّاداً بين البورجوازيين، فكتب إليّ السيد شويه، وهو يومئذٍ الوكيل الأول[36]، رسالة رصينة لكنها باردة، وستجدها بين مجموعاتي، الرزمة أ، الرقم 3. وورد عليّ من الأفراد، وفيم دولوك وجالابير، بعض التهنئات، وذلك هو كل ما كان في هذا القبيل؛ فرأيتُ أن أهل

---

(34) لوكريسية (510 ق. م.) سيدة رومانية اشتهرت بفضلها وانتحرت يأساً ـ المترجم.

(35) أي مجلس القضاة والبورجوازيين وأمثالهم ـ المترجم.

(36) الوكيل الأول للجمهورية ـ المترجم.

جنيف ليس بينهم أحد قد قدّر صدْقَ حميّتي التي يشعر بها قارئ ذلك المؤلَّف. فاستغرب هذا الفتور كلُّ من لاحظوه. وأذكر أنني كنتُ، يوماً، أتغدى عند مدام دوبان مع كروملان مقيم الجمهورية ومع السيد دو ميران، فقال هذا ونحن على المائدة إن المجلس مدين لي بهدية وبإكرام علنيّ جزاءَ مؤلَّفي، فإذا قصَّر المجلس في ذلك، لا يشرّفه تقصيره. فلم يتجاسر كروملان، وكان رُجيلاً خبيثاً دنيئاً، أن يجيب إذ أنا حاضر، بيد أنه تصعّر تصعيراً بشعاً ابتسمتْ له مدام دوبان. أما الفائدة الوحيدة التي أكسبني إياها مؤلَّفي، - زيادةً على أنه قد لبىّ نداء القلب فأرضاه، - فهي لقبُ مواطن وقد أَطلقه عليّ أصدقائي، ومن بعدهم أناس آخرون فعلوا ذلك أسوةً بهم، ثم فقدتُه في ما بعد، إذ كنتُ أَكثر استحقاقاً له من أن لا أفقده يوماً من الأيام.

وما كان هذا النجاح الضئيل ليثنيني عن العودة إلى جنيف لو لم تشارك في الأمر دواعٍ هي أشد استئثاراً بقلبي وشعوري. وذلك أن السيد ديبيناي، إذ ابتَغى أن يضيف إلى قصر الشوفريت جناحاً كان يعوزه، قد أَنفقَ إنفاقاً بالغاً حتى يكمل الجناح. فلما ذهبتُ مرة ومدام ديبيناي لكي نرى أشغال البناء، والَينا النزهة في ما يقارب ربع الفرسخ حتى بلغنا مستودع مياه الحديقة التي تتاخم غابة مونمورانسي، وكان هناك بستان جميل، فيه مسكن صغير خربٌ يقال له الإرميتاج. وكان هذا الموضع المتوحّد الحلو قد راعني يوم رأيتُه أول مرة قبْل سفري إلى جنيف. ففرط مني حينئذٍ، وأنا في تأثري وانفعالي، هذا القول: «واهاً سيدتي! ما أحلى هذا البيت! إن هذا المأوى ليناسبني على التمام». فلم تشر مدام ديبيناي إلى كلامي بشيء كثير، لكنني فوجئتُ في هذه الرحلة الثانية أيَّ مفاجأة، إذ رأيتُ، في مكان الخربة العتيقة، بيتاً صغيراً يكاد يكون جديداً كله قد أُحسنَ تقسيمُه فصلح جداً لأن تقيم به أسرةٌ ذات ثلاثة أشخاص.

twitter @baghdad_library

وكانت مدام ديبيناي قد ابتنت هذا البيت بلا ضجة، واقتضاها بناؤه نفقة زهيدة، لأنها استحضرتْ بعض المواد وبعض العمال من بين مواد بناء القصر وعماله. فلما كنا في رحلتنا الثانية، قالت لي وقد رأتني في عجب: «يا دبّي [صديقي] المعتزل، هوذا ملجؤك، وأنتَ الذي اخترتُه، والصداقة أهدتْه إليك، فعسى أن ينزع منك قسوةَ التفكير في أن تبعد عني». فلا أخالني تأثرتُ قط تأثراً أبلغ ولا أعذب من تأثري في ذلك الحين؛ فبللتُ بدموعي يد صديقتي المحسنة، ولئن كانت لم تتغلب عليّ من فورها، فلقد تزعزعتُ إلى الحد الأقصى. فلم تشأ مدام ديبيناي أن أخيّبها، فما انفكتْ تلحّ عليّ وتعمد إلى وسائل جمّة وأناس كثيرين حتى تغلبتْ على ما كنتُ قد عزمتُ، ثم هي قد فازت بتأييد السيدة لوفاسور وابنتها. فلما تخليتُ عن الإقامة بوطني، صمّمتُ على أن أسكن الإرميتاج ووَعدتُ. فعُنيت مدام ديبيناي بتهيئة الأثاث إلى أن يكون قد جفّ البناء بحيث يُنجَز كل شيء فنأتي في الربيع القادم.

وكان ثمة ما أيّد عزيمتي جد التأييد، وذلك هو إقامة فولتير بالقرب من جنيف. فلقد أدركتُ أن هذا الرجل سيكون صانع ثورة، وأني ملاقٍ في وطني المناخ والهيئات والعادات التي طردتْني عن باريس، وأنه لا بد لي، في وطني، أن أعارك بلا انقطاع، وأدركتُ أنه لن يسعني أن أكون بالخيار في سيرتي وسلوكي إلا أن أغدو عالماً مدعياً لا يطاق، أو مواطناً جباناً غير صالح. ثم إن الرسالة، التي كتبها إليّ فولتير في شأن مؤلَّفي الأخير، قد أتاحت لي أن أُلمّح، في جوابي عنها، إلى ما هجس فيّ من مخاوف ثبَّتَها وقعُ هذا الجواب. فمن ذلك اليوم، اعتبرتُ جنيف مدينة قد قضي عليها، ولم أكن على خطأ. وربما كان وجب عليّ أن أَشخص إليها أُواجهُ الإعصار لو شعرتُ أني سأقوى عليه. ولكن ما الذي يسعني إتيانه،

وأنا وحدي مع خجلي وعيّي، حيال امرئ متعاظم ثريّ قد دعّمتْه حظوة الكبار، وأيّدتْه فصاحة اللسان، فبات وقد تعشَّقتْه النسوان والشباب؟ فخشيتُ أن أخاطر بشجاعتي في غير طائل، فلم أصغ الا إلى طبعي المسالم وحبّي للسكينة، هذا الحبّ الذي إن خدعني يومئذٍ، فإنه ما يزال يَخدع. ولو عدتُ إلى جنيف، لاجتنبتُ فادح البلايا. ولكن أشكّ في أني كنتُ استطعتُ أن أعمل لبلدي شيئاً عظيماً مفيداً، ذلك مع حميّتي الوطنية المتأججة.

ثم إن ترونشان الذي مضى يقيم بجنيف، في ما يقارب تلك الأيام، كان قد جاء باريس لبعض الوقت يشعوذ ويحتال، فعاد منها بكنوز. فلما وصل إليها، أتى يزورني مع الشوفالييه دو جوكور. فودت مدام ديبيناي لو تشاوره على انفراد، لم يكن الأمر سهلاً. فلجأتْ إليّ. فحثثتُ ترونشان على أن يزورها. فابتدأ هكذا يتواصلان وهما في رعايتي، ثم قاما، في ما بعد، يوطدان أسباب هذا التواصل توطيداً وقع على عاتقي. ذلك ما قد كُتبَ لي في كل حال؛ فما أَدنيتُ قط بين إثنين من أصدقائي غير متصادقَين إلا تألّباً عليّ. ولئن كان آل ترونشان، إذ تآمروا لاستعباد وطنهم، قد ضغنوا عليّ حتى الموت، في ما أقدّر، فإن ترونشان الطبيب قد ظل يلاطفني ردحاً من الزمن. وكتب إليّ حتى بعد عودته إلى جنيف يعرض عليّ أن أتولى منصب الحافظ الفخري لدار الكتب. إلا أنني كنتُ قد قرَّرتُ ما قرَّرتُ، فلم يثنني عنه هذا العرض.

ورجعتُ وقتئذ إلى بيت السيد دولباخ لوفاة زوجته التي ماتت في أثناء نزولي بجنيف، وكانت مدام دوفرنكوي قد توفيتْ في أثناء ذلك أيضاً. فلما نبّأني ديدرو بوفاة مدام دولباخ، ذكر لي ما تملَّكَ زوجها من حزن عميق، فرثيتُ لحزنه وأسفتُ على تلك المرأة اللطيفة. فكتبتُ في هذا الشأن إلى السيد دولباخ وقد أنستْني الرزيئة

twitter @baghdad_library

أخطاءه جميعاً. حتى إذا عدتُ من جنيف وعاد هو من جولة قام بها في فرنسا ينشد السلوان وقد صحبه جريم وأصدقاء آخرون، قصدتُه زائراً، وما برحتُ أزوره إلى أنّ انتقلتُ للإرميتاج. فلما علم أفرادُ عصبته الدساسة أن مدام ديبيناي، التي لم يكن قد لقيها بعد، تهيئ لي مسكناً، انهالوا عليّ بهزئهم المدرار، يزعمون أن لن أطيق العزلة ولو خمسة عشر يوماً، إذ بي حاجة إلى التقريظ وإلى ملاهي المدينة. فتركتُهم يقولون ومضيتُ لشأني وقد عرفتُه حقّ المعرفة. فلم يبرح السيد دولباخ يساعدني(*) على إيجاد عمل للوفاسور، الشيخ الطيّب الذي كان قد جاوز الثمانين والذي ما انفكتْ زوجته تلحّ عليّ أن أخلّصها منه وقد استثقلتْ أمره. فوُضع الرجل في دار للإحسان، فما لبث علُو سنه وأسفه على فراق أُسرته أن أنزلاه في القبر بُعيد وصوله إلى دار الإحسان. فلم تحزن عليه زوجته ولا حزن عليه سائر أولاده حزناً كثيراً. أما تيريز التي أحبّتْه وحنّتْ عليه، فإنها لم تتعزَّ عن فقده قط ولا تعزّتْ قط عن كونها قد أَذنتْ في أن يختم أيامه بعيداً عنها وهو على حافة القبر.

وزارني، في ما يقارب تلك المدة، من لم أكد أتوقّع زيارته، وإن يكن هو من معارفي القدامى، وأعني به صديقي فانتور. فلقد أتانا ذات صباح على حين بغتة، وأنا أَقلّ ما أكون ذكراً له. وكان يرافقه شخص آخر. فلكم بدا لي وقد تغيّر! فلم أرَ، في محلّ رشاقته

(*) هذا مثلٌ لِما تُوقعني به الذاكرة من أخطاء. فلقد كنت، يوماً، أكلم زوجتي على أبيها الشيخ الطيب، وقد انقضى على كتابتي ما تقدم أعلاه زمن طويل، فعلمت أن السيد دولباخ ليس هو الذي أوجد لأبيها عملاً، لكن السيد دو شونونسو، وكان يؤمئذٍ أحد المشرفين على مستشفى أوتيل ديو، هو الذي أوجد له هذا العمل. فغاب عني أن أذكر السيد دو شونونسو غياباً شاملاً، ولازمني ذكري السيد دولباخ، حتى إني كنت أُقسِمُ أنه هو الشخص المعنيّ.

الماضية، إلا هيئة خلاعة صدّتني عن الاسترسال إليه. فإما أن نظرتي تبدّلتْ، وإما أن الفجور خبّله، وإما أن تألقه الأول كان تألُق شبابه الذي مضى. فقابلتُه أكاد لا أبالي، وافترقنا على بعض الجفاء. فلما ذهب، جعلتُ أتذكر علاقتنا القديمة فرجعتُ إلى عهد صباي الذي وقفتُه، برفق مني وحكمة، على تلك المرأة الملائكية وقد باتت، يومَنا هذا، ليست دون فانتور تبدّلاً؛ كما أني رجعتُ إلى حكايات ذلك العهد السعيد أتذكرهن وأتذكر نزهة تون الخيالية وقد سلختُ نهارها بكثير من البراءة والمتعة مع تينك الفتاتين اللطيفتين اللتين لم تولياني من الحظوة إلا بَوسي يدَ إحداهما، واللتين خَلّفتا بقلبي حسرة حية مؤثّرة إلى أجل طويل. فكان من هذا البحران الذي هزّ مشاعري الفتية فأحسستُ عنفوان فتنته ثم خلتُ عهدها قد مضى بلا رجوع، وكان من تلك الذكريات الحلوة، أنني بتُّ وعيناي تهميان أبكي شبابي الذي انقضى وأبكي المشاعر المتأججة التي ظننتُ أيامها ذهبتْ عني إلى الأبد. آه! كم من دموع كنتُ ذرّفتُ أبكي رجوع تلك المشاعر رجوعاً متأخراً مشؤوماً لو تنبأتُ، وقتئذٍ، بما اقتضتْني عودتُها من آلام.

ولقد أتيحَ لي، في الشتاء الذي تقدَّم خلوتي قبلما برحتُ باريس، أن أَنعم ببهجة استجابت لميلي وشعوري فاستمتعتُ بصفائها حقّ الاستمتاع. وذلك أن باليسّو عضو أكاديمية نانسي، وهو الذي عُرف ببعض مؤلَّفاته المسرحية، كان قد عرض إحدى تمثيلياته في لونيفيل أمام ملك بولونيا. فحسب، في ما يبدو، أنه يتزلف إلى الملك إذا هو مثّل، في تلك المسرحية، دورَ امرئ قد اجترأ، والقلم بيمينه، على أن يتشبه بصاحب الجلالة. فغضب ستانسلاس الملك السمح الكريم الذي لم يكن يميل إلى الهجو، وساءه أن يجترأ في حضرته على هذا النحو من التمثيل. فكتب الكونت دو ترسّان، وقد

twitter @baghdad_library

أمره هذا الأمير أن يكتب إليّ وإلى دالامبير، ينبئني أن صاحب الجلالة يرغب في أن يُطرَد السيد باليسّو من أكاديميته. فأَجبتُ ألحُّ على السيد دوترسّان أن يشفع في السيد باليسّو إلى ملك بولونية ليعفو عنه. فأنهى إليّ السيد دوترسّان هذا العفو باسم الملك، وأضاف يقول إن ما قد جرى يدوَّن في سجلات الأكاديمية. فأَجبتُ أقول إن هذا هو إلى استمرار عقوبة أدنى منه إلى منح عفو. فما زلتُ أسعى وألح حتى نلتُ، في النهاية، أن لا يُذكَر في السجلات شيء مما جرى فلا يبقى من الحادث أثرٌ علنيّ. ولقد رافقتْ ذلك أجمع آياتُ تقديْر واحترام أبداهما لي الملك والسيد دوترسّان على السواء، فاعتززتُ أيّ اعتزاز، وأدركتُ، في تلك المناسبة، أنّ تقدير البشر، الذين يليق بهم التقديْر حقّاً، إنما يولّد في النفس شعوراً أحلى من الزهو وأنبل أضعافاً. ونسختُ في مجموعتي رسائل السيد دوترسّان وأجوبتي عنها. وستجد أصولها في الرزمة أ، الرقم 9 و10 و11.

ويلهمني الحسّ أنه إذا أمكن أن تبصر هذي المذكراتُ النورَ يوماً من الأيام، كنتُ أنا بنفسي قد خلّدتُ ذكرى حادث أردتُ محوَ أثره؛ ذلك ولقد أوردتُ، على كره مني، حوادث أخرى كثيرة. فإنّ غرض **اعترافاتي** الأكبر الذي ما يفتأ ماثلاً أمام عينيّ، وإن الواجب المحتوم الذي يقضي بالاضطلاع بهذا العمل على مداه الشامل الأقصى، لن يتركاني أحيد عن هدفي بتعلة اعتبارات ضعيفة. إذ إنني، في الحالة الغريبة الفريدة التي أنا عليها، مَدينٌ للصدق بما هو أجلّ من أن أكون فيه مديناً لسواي بشيء غيْر الصدق. وإن **اعترافاتي** لمتصلة باعترافات بَشر كثيرين اتصالاً محتوماً، فهذه وتلك أكتبها بالمصارَحة عينها، في كل ما يتعلّق بي شأنُه، فما أخالني مديناً لأيّ كان بشيء من المراعاة يزيد على مراعاتي لنفسي، وإن كنتُ أود لو أراعي سواي أكثر مما أراعي نفسي أضعافاً، فإنما بغيتي أن أُنصفَ

وأَصْدُق على الدوام وأن أذكر سواي بالخير ما استطعتُ، وألا أذكر من المساوئ إلاّ ما يتصل بي وإلا ما أُضطر إلى ذكره. فمن ذا الذي يُحَقّ له أن يُلزمني بما هو فوق ذلك وأنا على الحالة التي وُضعتُ فيها؟ لم أكتب **اعترافاتي** لكي تصدر في أثناء حياتي ولا في أثناء حياة الأناس المعنيين. ولو كنتُ وليّ مصيري ووليّ هذا الكتاب، لم يبصر النورَ إلاّ وقد مضى على وفاتي وعلى وفاتهم زمن بعيد. لكن مجهودات ظالميّ النافذين الذين دفعهم الخوف إلى أن يبذلوها فيمحوا آثار اعترافاتي، لكن هذه المجهودات تلجئني إلى أدقّ ما يجيزه لي الحقّ وإلى أشدّ ما يسوّغه لي العدل كيما أحفظ **اعترافاتي**. فلو كان ذكري يغيب معي، لاحتملتُ خزياً جائراً موقتاً فلم أنبس بحرف، ذلك أَولى من فضحي أحداً من الناس. أما واسمي اسمٌ خالدٌ، فلقد وجب عليّ أن أسعى لأن أحمّله ذكر الإنسان المنحوس الحظ الذي حمله، فيكون ذكرُه على نحو ما كان عليه أمرُه في الواقع، لا على نحو ما وصفه أعداءٌ له ظُلّامٌ لا يكفّون عنه ولا ينثنون.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

عيل صبري شوقاً إلى سكنى الإرميتاج، فلم أنتظر عودة الربيع؛ فما أن أُعدَّ منزلي حتى أسرعتُ إليه وقد سخرتْ مني عُصبة الدولباخيين الدساسين الذين تكهنوا علانية يقولون إني لن أطيق ثلاثة أشهر من التوحد وإنهم واجدوني عائداً بعد قليل أتعثر بخيبتي فأقيم مثلهم في باريس. أما أنا، وقد كنت منذ خمس عشرة سنة في خارج البيئة التي تلائمني وأوشكتُ أن أرتد إليها، فلم ألتفت ولو إلى هزلهم. وما فتئتُ، مذ ألقيتُ نفسي في دنيا البشر [عالم الناس] على كره مني، نادماً على الشارميت العزيزة وعلى العيش الطيب الذي كان لي فيها. لقد كان من المحال عليّ أن أحيا سعيداً في مكان آخر غير الشارميت: ففي البندقية وأنا في خضم الشؤون العامة، وشرف السفارة وزهوي بمشروعات الترقية؛ وفي باريس وأنا في خضم مجالس خاصة الخاصة القوم ولذاذة الولائم المسائية وتألق الحفلات المسرحية وفي ترهات المَجْد، كانت غاباتي الصغيرة وسواقيّ ونزهاتي متوحّداً تأتيني في الذكرى فتلهيني وتشجيني وتبعث في تنهدات ورغائب. فجميع الأشغال التي أمكنني أن أقسر عليها نفسي، وجميع مشروعات الطموح وهي التي انتابتني فهيجتْ نخوتي، لم يكن لي فيها من قصد إلا أن أصل يوماً إلى أوقات التفرغ الريفية السعيدة التي اعتززتُ وقتئذٍ بأنني

بلغتُها. ولم أكن قد أصبتُ البحبوحة الكريمة التي خلتُها تقدر وحدها على أن تفضي بي إلى تلك الأوقات، ولكن رأيتُ، على هدي وضعي الخاص، أنني أستطيع أن استغني عن البحبوحة فأنتهي إلى قصدي أسلكُ طريقاً يخالف طريقها كل المخالفة. ولم يكن لي من دخل قط؛ وإنما كنتُ صاحب شهرة، وكانت مواهب، وكنت قنوعاً، فأسقطتُ أكثر الحاجات مدعاةً إلى الإنفاق، وألغيتُ جميع الحاجات المتأتيّة من الرأي [الشائع]. وإلى ذلك، لقد كنتُ، مع كسلي، مجتهداً ولكن حين أَروم الاجتهاد؛ وكان كسلي أَقرب إلى كسل المستقل الذي لا يحب أن يعمل إلا عندما يريده، منه إلى كسل المتواني الذي لا يفعل شيئاً أبداً. ولم تكن مهنتي في نَسخ الألحان مهنة لامعة ولا جمة المكاسب، إلا أنها مهنة مضمونة. فأثنى عليّ الناس لأني اجترأتُ أن أختارها. فأمكنني الاعتماد على أنه لن يعوزني الشغل من هذا القبيل، إذ كان الشغل يكفيني لان أرتزق إذا أحسنتُ القيام به. وكان قد بقي لي، من حاصل «**عراف القرية**» ومن مؤلفاتي الأخرى، ألفا فرنك هي سلفٌ يجنبني الضيق، وكان بين يديّ عدة أشغال أَمّلتُ معها زيادات في الدخل كافية لأن أعمل بسعة فلا أطالب الناشرين بما لم يستحقّ لي ولا أرهقُ نفسي. ثم إن هذه الزيادات تكفيني، فضلاً عما تقدّم، لأن أنتهز ساعات النزهة. وكان أهلُ بيتي، وهم ثلاثة أشخاص، يأتون كلهم أشغالاً نافعة، وما كانوا ليقتضوا باهظ الإنفاق. وكانت مواردي، وهي على نسبة حوائجي ورغباتي، قد مكّنتْني أن أرجّي عيشة سعيدة مديدة في هذه العيشة التي ملتُ إلى اختيارها.

كنتُ أستطيع أن أندفع من الناحية الأوفر مكسباً، فلا أُكرهُ قلمي على النسخ ولكن أُطلقه برمّته في مؤلّفات خليقة بأن تتيح لي عيش السعة بل عيش الثراء بعد ما وثبت وثبة شعرتُ معها بأني قادر على دعم وثبتي وتأييدها، شرط أن أرضى القيام بشيء من مناورات المؤلّفين أضيفها إلى عنايتي بعمل كتب جيدة. ولكن أحسستُ أن

twitter @baghdad_library

الكتابة لأجل كسب الرغيف، لن تلبث حتى تخنق عبقريتي وتقضي على موهبتي التي لم تكن في قلمي بقدْر ما كانت في قلبي والتي لم تنشأ إلا عن طريقة في التفكير عالِية أبيّة يمكنها وحدها أن تغذّي موهبتي. ما من شيء متين، ما من شيء عظيم يمكنه أن يخرج من ريشة مرتزقة. وربما كان الاحتياج أو الطمع قد حملاني، يومئذٍ، على أن أصنع ما هو إلى العجلة أقرب منه إلى الجودة. ولولا أن حاجتي إلى النجاح لم تُلقني في الدسائس، لكانت قد حدتني على أن يكون نشداني أن أقول قولاً مفيداً وصادقاً أضعف من نشداني أن أقول قولاً يروق الحشود؛ وهكذا لما أمكنني وقتئذٍ أن أكون إلا مسوّد أوراق بدل أن أكون مؤلّفاً ممتازاً، ذلك الذي يمكنني أن أكونه. كلا، وكلا: فلقد شعرتُ، على الدوام، أن المؤلّف لا يفوز بالشهرة والاحترام ولا يسعه أن يفوز بهما إلا بقدْر ما لا يتخذ صناعته مهنة له. فأن لا تفكر إلا لكي تتعيش ذلك أصعب من أن تفكر تفكيراً سامياً نبيلاً. فإذا تهيّأَ لك أن تورد حقائق كبيرة، وإذا تجاسرتَ أن توردها، وجب عليك ألا تتعلّق بالنجاح. ولقد كنتُ أطرح كتبي بين الناس وأنا على مثل اليقين أنني قد نطقتُ لأجل الخير المشترك فلم أكترث قط لسائر الأمور، فإنْ نُبذَ مؤلّفي، وقعت الخسارة على من لم يريدوا الانتفاع به؛ أما أنا، فلم تكن بي حاجة إلى أن يؤيدوني فأرتزق. فإذا لم ترجْ كتبي، رزقّتني مهنتي. ولهذا، على وجه التدقيق، كانت كتبي تروج.

وبرحتُ المدينة في التاسع من نيسان 1756، فلم أعد إلى الإقامة بها قط، أما الأوقات القليلة التي قضيتُها بعدئذٍ في باريس أو لندن أو في غيرهما من المدن الكبيرة، فلستُ أَعدّها إقامة فيها، وإنما كنتُ أمّر بها مرّاً عابراً، أو أمرّ دون رغبة مني على كل حال. فأتت مدام ديبيناي تقلّنا ـ نحن الثلاثة ـ في عربتها، وجاء مكاريها

يحمّل أمتعتي اليسيرة، فسكنتُ البيت في اليوم عينه، إذ ألفيتُ عزلتي الصغيرة قد سُوّيتْ وأُثثت ببساطة ونظافة، بل حتى بحُسن ذوق. فإن اليد، التي اعتنتْ بهذا التأثيث، قد جعلتْ له، عندي، قيمةً لا يقدَّر ثمنها، وطاب لي أنني ضيف صديقتي وأنني في بيت قد اخترتُه فابتنتْه لأجلي.

ولئن كان الجو بارداً حتى لم يزَل الثلج بعد هناك، فلقد هبّت الأرض يطلع نباتُها، فكنتَ ترى البنفسج وترى أزاهير الربيع؛ وابتدأ الشجر تتفتح براعمه؛ أما ليلة وصولي، فلقد امتازت بشدو البلبل سمعتُه، في ما يجاوز نافذتي، من غابة تتاخم البيت. فنمتُ نوماً خفيفاً، ثم صحوتُ وقد سهوتُ أني انتقلتُ من مكان إلى مكان، فخلتُني لم أبرح في شارع سان جرونيل، فإذا البلبل قد هزّني شدوه، فارتعشتُ وصحتُ وأنا في تأثري: «كل أمانيّ تحققتْ في نهاية الأمر!» وكان أول ما عنيتُ به هو أني استسلمتُ إلى انطباعات ما بالريف من أشياء تحيط بي. فابتدأتُ أدبّر شؤون النزهة بدل أن أبدأ بتدبيري شؤونَ السكن، فلا درب ولا غابة ولا حرج ولا معتزَل أحدقتْ بمسكني إلا طوفتُ فيها من غد ذلك اليوم. وكنتُ كلما ازددتُ تقرّياً لتلك العزلة الفاتنة، ازددتُ شعوراً بأنها قد جُعلتْ لأجلي. فإن تلك الديار، وهي إلى الانفراد أقرب منها إلى الوحشة، قد حملتْني بالفكر إلى أقصى الأرض، وكان لها ألوان ذلك الجمال الذي كدنا لا نجد له في المدن أثراً، فما أمكنك، وقد نُقلتَ بغتةً إلى هناك، أن تصدّق أنك على أربعة فراسخ من باريس.

فلما سلختُ في نشوتي الريفية بضعة أيام، طفقتُ أُنضّد أوراقي وأُنظّم أشغالي. فوقفتُ ساعات الصباح على نَسخ الألحان كما كنتُ قد فعلتُ إلى ذلك الحين. أما ساعات بعد الغداء، فقد كرّستُها على النزهة أذهب ومعي قلمي ودفتري الأبيض الصغير: إذ لم يسعني قط

twitter @baghdad_library

أن أكتب وأفكر وأنا في راحة إلا أن أكون تحت قبة السماء[1]، فلم أُغرَ بتبديل طريقتي، وصمّمتُ على أن أتخذ غابة مونمورانسي مكتب عملي وهي تُجاور باب البيت. وكنتُ قد شرعتُ عدة مؤلَّفات؛ فمررتُ بها أَعرضها. ولقد كنتُ خصب المشاريع؛ بيد أن تأليفي لها، وأنا في ضوضاء المدينة، كان، إلى ذلك الوقت، بطيئاً. فعزمتُ أن أعجّل فيها بعض الشيء عندما أُمسي أقلّ لهياناً عنها؛ وأحسبني شغلتُ انتظاري بما فيه الكفاية. فلقد كنتُ كثير الاعتلال، كثير الذهاب إلى الشوفريت وإيبيناي وأوبونّ وإلى قصر مونمورانسي، وغالباً ما أزعجني في البيت متعطلون غرباء، ذلك فضلاً على اشتغالي بنسخ الألحان شطرَ النهار من كل يوم. فإذا أحصيتَ وقدّرتَ ما كتبتُ في السنوات الست التي قضيتُها في الإرميتاج أو في مونمورانسي، وجدتَ، بلا ريب، أنه إذا كنتُ قد بددتُ وقتي في تلك الفترة، فإني، على الأيسر، لم أبدده في البطالة.

ثم إن كتابي «**النظم السياسية**» هو، بين مختلف المؤلَّفات التي أخذتُ أصنعها عهدئذٍ، أكثرُ ما تأملتُ فيه وأشدها إثارةً لميلي وعنايتي، فأردتُ أن أقضي أيامي كلها وأنا أصنعه، على أنه، في ما رأيتُ، آية شهرتي. وكنتُ قد تمثلتُ فكرته الأولى لثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة خلتْ، إذ أنا في البندقية وقد أُتيحَ لي أن ألاحظ مساوئ تلك الحكومة التي طالما أُجزلَ عليها الثناء. وكانت نظراتي قد اتسعتْ، مذ ذلك العهد، جد الاتساع، لأني درستُ الأخلاق درساً تناولها من الناحية التاريخية. فوجدتُ أن السياسة إليها مَرجعُ كل أمر، وأنه كيفما يُعمَل، فإن الشعب، أيّاً كان، لا يغدو إلا ما على ما شاءتْ تنظيمات حكومته أن يكون عليه؛ وهكذا فإن السؤال

(1) في الأصل باللاتينية Sub dio، أي «تحت قبة السماء»، والتعبير هو من اللهجة اللاتينية العتيقة، فآثرنا أن نترجمه بتعبير عتيق ـ المترجم.

الكبير أنْ «ما هي أفضل حكومة ممكنة؟» لاح لي وقد اقتصر على هذا السؤال: «ما هي طبيعة الحكومة التي تنشّئ خيرَ الشعوب فضلاً وعلماً وحكمةً واستيعاباً لتلك الكلمة بأوفى معانيها؟» وكنتُ أحسبُ أن هذا السؤال مردّه إلى السؤال التالي، وإنْ غايره، وهو: «أيّ حكومة نظامُها أقرب إلى القانون في كل حال؟» ومن هنا كان السؤال: «ما هو القانون؟» وكانت سلسلة من الأسئلة على هذا المستوى من الأهمية. فرأيتُ أن ذلك أجمع يفضي بي إلى حقائق كبيرة تُسعد البشر ولا سيما بني وطني، إذ إنني، في سفرة إليه كنتُ قد قمتُ بها آخراً، لم أجد أن مبادئ الشرائع والحرية هي من العدل والقسطاس على قدْرٍ كافٍ أرضى به. فظننتُ أن أسلوبي، هذا، غير المباشر الذي به أردتُ أن أوفّر لبني قومي تلك المبادئ، هو أفضل الأساليب حفظاً لكرامتهم ومدعاةً إلى أن يسامحوني بأنني كنتُ، من هذا القبيل، أَبعدَ نظراً منهم على نحوٍ يسيرٍ.

ولئن كنتُ قد مضى عليّ خمس سنوات، أو ست، أصنع في ذلك المؤلَّف، فإنه لم يكد يتقدّم يومئذٍ بعد، لأن هذا الصنف من المؤلَّفات يقتضي التأمل والتفرغ والسكينة. ثم كنتُ، إلى ذلك، أصنع كتابي خفْيةً، ولم أشأ أن أطلع أحداً على مشروعي، حتى ديدرو لم أطلعه عليه. فلقد خشيتُ أن يبدو الكتاب وهو على فرط جرأة بالنسبة إلى العصر والبلد اللذين فيهما كنتُ أكتب؛ وخشيتُ أن يزعجني عن تأليفه خوفُ أصدقائي عليّ(*) وكنتُ لا أعلم هل أُنجزه

(*) وكانت قسوة دوكلو الحكيمة هي، على الأخص، ما أشاع في هذه الخشية. أما ديدرو، فلست أدري كيف كانت جميع محادثاتي وإياه تميل بي إلى قوارص الكلم ولواذعها ميلاً يجاوز ما فُطرتُ عليه منها. حتى إن ذاك هو السبب الذي ثناني عن أن أشاور ديدرو في شأن هذا الكتاب الذي إنما ابتغيت أن أسكب فيه قوة الحجة كلها بلا أثر هوًى ولا انحياز. وإنك لتستطيع أن تقدّر الأسلوب الذي نهجتُ في مؤلّفي هذا، إذا نظرتَ في نهج **العقد الاجتماعي** الذي استخلصتُه منه.

twitter @baghdad_library

في أوانه فيصدر وأنا لا أزال في هذه الدنيا. وتوخيتُ أن أوفي موضوعي حقّه بلا قسر ولا إكراه؛ وأيقنتُ أني لا لوم عليّ فيه حقّاً وإنصافاً، إذ لم أُجبَل على القدح ولا أردتُ قط أن أجدّ في كتابته. ثم ابتغيتُ، ولا ريب، أن أستخدم تمام حقّي في التفكير وقد رُزقتُه مع الحياة؛ بيد أني كنتُ لا أنفكّ أحترم الحكومة التي أقيمُ تحت سلطتها فلا أخالف يوماً شرائعها، وكنتُ لا أنفكّ أحرص على ألا أنتهك حرمات الناس فيها حرصاً بالغاً، ولكن أبيتُ أن تستأثر بي الخشية فأتخلى عن هذا الحقّ.

حتى إن لأقرُّ أنني، وأنا أجنبي مقيم بفرنسا، قد ألفيتُني على حال جدّ مؤاتية لأن أجسر على قول الحقّ. وعلمتُ أنني ما دمتُ لا أرغب في أن أطبع، في داخل الدولة، أيّ كتاب لي كان إلا أن أستأذنها، فلستُ مديناً لأحد بما يتصل بمبادئي وبنشرها في الخارج حيث شئتُ. ولو كنتُ حتى في جنيف، لما تمتعتُ بتلك الحرية، إذ القاضي هناك يسوغ له أن ينتقد مضمون كتبي أينما طُبعتْ. وكان لهذا الأمر مشارَكة كبيرة في حملي على أن أستجيب لإلحاح مدام ديبيناي وعلى أن أتخلى عن مشروع الإقامة بجنيف. ولقد شعرتُ، على ما ذكرتُ في كتاب «**أميل**»، بأنك إذا شئتَ أن تقف موضوعات كتبك على خير وطنك حقّاً، وجب عليك ألا تؤلفها وأنت مقيم فيه، ما لم تكن أخا دسيسة ومكر.

ثم إن ما أَظهرَ لي أنني أَحسن حالةً هو كون حكومة فرنسا، إن لم تنظر إليّ نظرة الرضى، وإن لم يشرّفها أن تتولاني بالحماية، فإنها، على الأقل، كان يشرّفها أن تدَعني وشأني. فكان ذلك، في ما رأيتُ، أسلوب سياسة جد بسيطة، جد بارعة، تدّعي فضل إباحة ما لا يمكنها منعه، إذ لو طُردتُ من فرنسا، وهذا هو أقصى ما يُحَقّ لحكومتها عليّ، لم تكن كتبي دون ما هي عليه تأليفاً، بل كانت

دونه تحفّظاً؛ أما إذا تُركتُ وشأني، فإن المؤلّف يبقى ضماناً لكتبه، وفوق ذلك، فإن فرنسا تمحو عنها لطخة أحكام مسبَّقةٍ رسختْ في سائر بلدان أوروبا، فتشتهر بأنها ترعى حقوق الناس رعاية واعية نيّرة.

فمن استندوا إلى هذا الذي جرى ليحكموا بأن ثقتي قد خدعتْني، فربما كانوا يخدعون أنفسهم. وذلك أن كتبي قد اتُخذتْ ذريعةً في العاصفة التي هبّت عليّ؛ أما النقمة، فلقد انصبّتْ على شخصي، إذ قليلاً ما اكترُثَ الناس للمؤلّف، وإذ كان القصد القضاء على جان جاك، فإن أسوأ ما وُجد بمؤلَّفاتي كان هو ما قد شرّفني منها. ولكن لا نتخطَّ المستقبل. فلستُ أدري هل ينجلي هذا السر للقراء بعدئذٍ، أما عندي، فإنه ما يزال شيئاً مغلقاً. وكل ما أعلم هو أنه لو كانت مبادئي، التي أفصحتُ عنها، سبب المعاملة التي كابدتُ، لذهبتُ ضحية مبادئي من قبْل ذلك الحين. فإن مؤلَّفي الأكثر شجاعةً على الإعراب عن تلك المبادئ ـ إن لم يكن الأشدّ جُرأة على الإعراب عنها ـ كان قد صدر فنشأ عنه ما نشأ قبلما اعتزلتُ في الإرميتاج، فلم يخطر لأحد أن يخاصمني، وإنما اكتُفى الناس بمنعي من طبع الكتاب في فرنسا وقد كان يباع فيها علناً مثلما كان يباع في هولندا. ثم صدر كتابي «**إيلوييز الجديدة**»، فلقي مثْلَ هذا التيسير، وأكاد أقول إنه لقي مثْلَ هذا الترحيب. أما الذي لا يمكن تصوّره، فهو أن إعلان إيمان إيلوييز هذه، وقد حانت وفاتها، كان إعلان إيمان الكاهن السافواوي على وجه التدقيق. وكل ما تضمَّنه «**العقد الاجتماعي**» من جرأة، كان قد تقدَّم ذكرُه بمؤلَّفي «**خطاب في التفاوت**»؛ وكل ما تضمنَّه «**كتاب إميل**» من جرأة، كان قد تقدّم ذكره بمؤلَّفي «**جولي**». إلا أن هذه الأمور الجريئة لم تثر أي سخط قط على الكتابين الأولين، وإذاً، فليست هي التي أثارت السخط على الكتابين الأخيرين.

twitter @baghdad_library

ولقد شغلني، يومئذٍ، عملٌ يكاد يشبه ما سلف قولُه، بيد أنه أَحدثُ عهداً منه. أما هذا العمل، فهو استخلاص مختارات من مؤلَّفات الأباتي دو سان بيار، ولم يُتح لي أن أتكلّم عليه قبلاً، إذ استرسلتُ في ما كنتُ أرويه. وكان الأباتي دو مابلي قد أوحى إليّ بفكرة هذا العمل بعد ما عدتُ من جنيف، إلا أنه لم يعمد لي رأساً، بل أوحى إليّ به على يد مدام دوبان وقد عناها أن أتبنى هذه الفكرة. وكانت مدام دوبان هي إحدى ثلاث نساء باريس، أو إحدى أربع نسائها اللائي كان الأباتي العجوز دوسان بيار ولدَهن المدلّل. ولئن كان لم يفضّل مدام دوبان على غيرها منهن، فلقد تقاسمتْ هي ومدام ديجويّون هذا التفضيل. فبقيتْ وفيةً لذكرى الرجل الطيّب وفاءَ احترام ومحبّة، مما شرّفها وشرّفه. فإذا أحيا كاتب سرّها مؤلَّفات صديقها، وهي مؤلَّفاتٌ مجهضة منذ الولادة، ـ كان في ذلك لها شأنُ اعتزاز. وما كانت هذه المؤلَّفات لتخلو من أشياء ممتازة، لكنها أُدّيتْ أداءً جد رديء حتى لقد تعسّرَ احتمال مطالعتها؛ والغريب أن الأباتي دوسان بيار، الذي نظر إلى قرائه وكأنهم أطفال كبار، قد خاطبهم وكأنه يخاطب رجالاً ليس يعنى بأن يجتذبهم إليه إلا عناية ضئيلة. فلأجل ذلك اقتُرح عليّ هذا العمل، على أنه برأسه عمل مفيد، وعلى أنه عمل جد مناسب لامرئ يجتهد في تنقيح ما كتب سواه، لكنه مؤلّف، امرئٍ كسلان قد شقّت عليه مؤونة التفكير فآثر، في ما يوافق ذوقه، أن يجلو أفكار غيره ويتوسع فيها على أن يبتدع لنفسه بعض الأفكار. وإلى ذلك، فإني لم يُحظَّر عليّ أن أفكر بنفسي أحيانا، إذ لم يقتصر صنعي على الترجمة، فاستطعتُ أن أجعله على نحو أَشعتُ فيه كثيراً من الحقائق الخطيرة التي تسترتْ برداء الأباتي دو سان بيار على ما هو أعظم توفيقاً مما لو كانتْ تردتْ بشخصي. ولم يكن العمل، فضلاً عن ذلك، شيئاً سهل المنال، بل كان يقتضي قراءة عشرين جزءاً غامضاً محشواً، جمَّ الإسهاب والتكرار، جمَّ

الآراء السطحية أو الخاطئة، فوجب عليّ أن أستخلص من بينها جميعاً بعض النظرات العظيمة، الرائعة، التي تشجعني على احتمال هذا العسر. ولو أمكنني أن أخلف بوعدي إخلافاً لا يمسّ شرفي، لكنتُ أنا بنفسي تخليتُ عن هذا العمل كثيراً من الأحايين؛ ولكن لما تسلمتُ مخطوطات الكاهن، وقد سلمنّيها الكونت دوسان بيار ابن شقيقه، أصبحتُ وكأنْ قد أخذتُ على نفسي ذلك العمل، فحَقَّ عليّ إما أن أردّ المخطوطات، وإما أن أحاول الانتفاع بها. فلهذا القصد الأخير، حملتُها إلى الإرميتاج، فكانت أول مؤلَّف نويتُ أن أكرّس له أوقات الفراغ.

وكنتُ أتأمل في مؤلَّف ثان استقيتُ موضوعه من بعض الملاحظات التي أخذتُها عني أنا، وزادني إقداماً عليه أنني رجوتُ أن أصنع كتاباً ينفع البشر حقَّ النفع، لا بل أن أصنع كتاباً هو من أنفع ما يهدى لهم، شرط أن يؤدّى تأديةً جديرة بالتصميم الذي خططتُه في هذا السبيل. ولقد لوحظ أن أغلب البشر كثيراً ما يبيتون وهم من مجرى سيرتهم على ما لا يماثلهم فيبدون وقد صاروا قوماً آخرين يغايرون ما كانوا عليه قبْلاً. ولم اقصد بتأليفي لهذا الكتاب أن أُثبت أمراً معلوماً كهذا الأمر، ولكن توخيتُ غرضاً أحدثَ منه وأَجدَّ وأعظمَ شأواً، وهو أن أبحث عن علل هذه التغييرات فأتمسك بما يتصل بنا منها لكي أبرهن كيف نستطيع أن نوجهها بأنفسنا فتحسّن أحوالنا وتقوّي ثقتنا بذواتنا. إذ لا جدال أن الإنسان، حين يقاوم رغبات قد اكتمل تكوينها فوجب عليه قهرها، يلقى صعوبة هي أشدّ من الصعوبة التي يلقاها حين يستدرك هذه الرغبات وهي لا تزال في منشئها، أو حين يبدلها أو يبدل منها شيئاً، ذلك أن هو استطاع أن يفعل. وربما أغوته، فقاومها تارةً لأنه قويّ وغلبتْه تارةً لأنه ضعيف؛ ولو بقي الإنسان على ما كان إياه قبْلاً، لم يُغلَب.

twitter @baghdad_library

ولقد سبرتُ غوري واستقرأتُ الآخرين أفتش عما يسبب اختلافَ أحوال الوجود في سلوك الناس، فوجدتُ أن السبب يعود، في الأكثر، إلى ما تفعله داخلنا موضوعاتُ العالم الخارجية من انطباعات، كما يعود إلى أننا، إذ نحن لا نفتأ نتغير تغيراً مستمراً بفعل حواسنا وأعضائنا، فإننا نحمل، بدون وعي منا، أثر هذه التغيرات في أفكارنا ومشاعرنا وأعمالنا. فكانت الملاحظات المدهشة المتعددة، التي جمعتُها، ملاحظاتٍ لا يرقى إليها الشك، فبدا لي أنها، بمبادئها المادّية، خليقة أن تتيح نظام سلوك خارجيّ إذا غُيّر وفقاً لتغير الأحوال، أمكنه أن يبقي النفس أو أن يجعلها على ما يلائم الفضيلة. فلو عرفنا كيف نحمل نظام الطبيعة أن يلائم سنّة الأخلاقيات التي كثيراً ما وجدناه يقلقها، فكم من انحراف كنا جنّبنا عقلنا، وكم من رذيلة كنا قضينا عليها قبل أن تولَد! فإن المناخات، والفصول، والمآكل، والضجيج، والسكوت، والحركة، والهدوء كلها تؤثّر في الآلة التي لنا وفي والروح الذي لنا، وإذاً، فإن لنا من كل شيء ألف وسيلة تكاد تضمن لنا أن نسوس مشاعرنا وهي في المهد، مشاعرنا التي ندَعها تتسلط علينا. تلك هي الفكرة الأمّ التي كنتُ قد رسمتُ خطوطها الكبرى والتي أَمّلتُ أن تؤثّر في من فطروا على الخير تأثيراً لا ريب فيه، وهم الذين أخلصوا للفضيلة حبّاً، فاحترزوا مما بهم من ضعف. ولقد لاح لي أن يسهل عليّ أن اصنع بتلك الفكرة كتاباً تلذّ قراءته مثلما يطيب لي تأليفه. ولكن مع ذلك، لم أشتغل بهذا الكتاب إلا قليلاً، وكان عنوانه «**الأخلاق الحسّاسة**[2] أو **مادّية الحكيم**»[3] فثنتني عنه شواغل سيُعلَم سببها، وسُيعلَم أيضاً مصير مخطّطي هذا، وقد اتصل بمصيري اتصالاً هو أدنى مما قد يلوح.

---

(2) **الأخلاق الحسية** (*La morale sensitive*) ـ المترجم.

(3) **مادية الحكيم** (*Le matérialisme du sage*) ـ المترجم.

وإلى ذلك، لقد كنتُ، منذ بعض الوقت، أتأمل في نسق للتربية كانت مدام دو شونونسو قد طلبتْ إليّ أن أعنى بوضعه إذ خافت على ابنها من نظام زوجها التربوي. فجعل سلطانُ الصداقة هذا الموضوعَ أَعزَّ الأمور لديّ وإن قلّ ميلي إليه. فمن بين جميع الموضوعات، التي تقدَّمَ لي الكلام عليها، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي أَنجزتُ. ثم إن ما قد نويتُ، وأنا أؤلّفه، قد حُقَّ لي معه مصيرٌ أفضل. ولكن لا نَسبَقْ إلى ذكرنا هذا الأمر المؤسف، فلسوف أُضطر إلى أن أتكلّم عليه في ما يلي من هذا الكتاب تكلّماً يجاوز ما ينبغي أن أَذكره به.

ولقد أتاحت لي تلك المشروعات المختلفة أسبابَ تأمل من أجْل أوقات النزهة؛ وذلك أنني، كما تقدَّمَ لي قوله في ما أحسب، لا يتهيأ لي التأمل إلا وأنا أمشي. فما أقف حتى أتوقّف عن التفكير، لأن ذهني يسيرُ ما سارتْ قدماي. ثم إني احتطتُ، فضلاً عما سلف، فاتخذتُ لي عملاً يصلح لأن أقوم به وأنا في المكتب أيامَ المطر. وذاك هو مؤلَّفي «**معجم الموسيقى**»، وكانت مواده، المبعثرة، المشوَّهة، الناقصة، توجب أن يعادل تأليف معظمه. فأتيتُ ببعض الكتب التي احتجتُ إليها لهذا الغرض؛ وكنتُ قد سلختُ شهرين أَستمد من مؤلَّفات كثيرة غيرها استعرتُها من دار الكتب الملكية وأُذنَ لي أن احمل بعضاً منها إلى الإرميتاج. تلك هي عدّتي لكي أستخلص وأجمع إذ أنا في البيت، والجوُّ لا يبيح لي أن أخرج، وقد مللتُ نَسخ الألحان. فلاءَمني هذا التدبير جد الملاءَمة، فانتفعتُ به في الإرميتاج ومونمورانسي على السواء، ثم انتفعتُ به حتى في موتييه بعدئذٍ، فأَنجزتُ هناك هذا العمل بينما كنتُ آتي غيره من الأعمال، أجد أن التنقل من صنع إلى صنع راحةٌ حقّ.

وظللتُ بعض الوقت أسيرُ على نحو ما قسَّمتُ أوقات أشغالي سيراً كافي الانتظام، فطبتُ بذلك نفساً؛ ولكن لما وافى الربيع فعادت

twitter @baghdad_library

مدام ديبيناي أوفَر تردداً إلى إيبيناي أو إلى الشوفريت، ألفيتُ أن عنايتها، التي لم تقتضني في أول الأمر شيئاً والتي لم أكن قد حسبتُ ما تقتضيني، قد أَزعجتْ سائرَ مشروعاتي إزعاجاً كثيراً. ولقد تقدَّمَ لي القول إن مدام ديبيناي أُوتيتْ صفات مستحبّة جداً، فودّت أصدقاءها واندفعتْ تخدمهم بنخوة بالغة، فما ضنّتْ عليهم لا بوقتها ولا بضروب عنايتها، فاستحقّت أن يُعنَوا بها. وكنتُ، إلى ذلك اليوم، قد قمتُ بما عليّ من هذا القبيل لم أشعر أني أقوم بواجب؛ ولكن، في النهاية، أدركتُ أنني أَثقلتُ نفسي بقيد حالت الصداقة وحدها دون أن أحس بعبئه. وضاعفتُ هذا العبء لأني كنتُ أكره المنتديات الغفيرة بالناس. فانتهزت السيد ديبيناي هذه الفرصة فاقترحتْ عليّ ما بدا مناسباً لي وما قد ناسبها أضعافاً، وهو أنها كلما كانت وحدها، أو في ما يقارب أن تكون وحدها، بعثتْ إلى تنبئني بذلك؛ فوافقتُ على اقتراحها لم أرَ ما قد أخذتُ على نفسي من هذا الوجه، فأصبحتُ لا أزورها في الساعة التي تلائمني، بل في الساعة التي تلائمها، وبتُّ لا أكفل أن أكون حرّ التصرف في شخصي يوماً واحداً. فخفف انزعاجي الكثيرَ من ارتياحي إلى زيارتي لها. ووجدتُ أن هذه الحرية، التي طالما وعدتْني هي بها، لم أُعطَها إلا بشرط ألا أنتفع منها أبداً. ولقد أردتُ مرة واحدة أو مرتين، أن أحاول الانتفاع بهذه الحرية، فكان من توارد رقع مدام ديبيناي عليّ ومن شدّة خوفها على صحتي ما أراني حقّاً أنه لن يعفيني من أن أَخفّ إلى تلبية كلمتها الأولى إلا اعتذاري أني مريض في السرير. فكان لا بد لي أن أذعن لنيرها ففعلتُ، بل فعلتُ ذلك عن طيبة كافية بالنسبة إلى من هو مثلي عدوّ من ألدّ أعداء التّبعيّة، وذلك أنّ صدق تعلّقي بمدام ديبيناي قد حال، في الأغلب، دون شعوري بالقيد الذي صحب هذا التعلّق. فملأتْ ما خلّفه غياب المعجبين بها من فراغ في أسباب لهوها، ملأتْه بين بين. وكان ذلك، عندها، عوضاً زهيداً، إلا أنه لم يزَل خيراً من الوحدة الشاملة التي لم

تقوَ هي على احتمالها. وكان لديها، إلى ذلك، ما تشغل به وحدتَها على نحوٍ أيسر جداً مذ شاءت أن تحاول في الأدب ومذ ركبتْ رأسها تريد أن تؤلّف روايات ورسائل ومهازل وحكايات وغيرها من السخافات، رضي الناس أم أبوا. بيد أن أكثر ما طاب لها لم يكن هو أن تكتبها بقدْر ما كان أن تقرأها؛ فإن اتفق لها تسويد صفحتين أو ثلاث صفحات تباعاً، فقد وجب أن تضمن، في الأقل، مستمعَين بل ثلاثة مستمعين يتبرعون بالإصغاء إليها بعد هذا المجهود العظيم. وكدتُ لا أتشرف بأن أكون في عداد هؤلاء المختارين إلا بفضل سواي. أما وأنا وحدي، فلقد كنتُ في كل أمر لا شأن لي أغلبَ الأحايين؛ ولم يقتصر ذلك على معشر مدام ديبيناي، ولكن تعداها إلى معشر السيد دولباخ وإلى حيثما كان السيد جريم يدبّر الأمور. فلاءمني انعدام الجدارة هذا حيثما كنتُ إلا في خلوتي بمدام ديبيناي، إذ لم أدر أيّ موقف ألزمُ، ولا اجترأتُ أن أتكلّم على الأدب وهو الذي ليس في شأني الحُكم به، ولا اجترأتُ أن أبدي لها شيئاً من الغزل وقد غلبتْ عليّ شدّة الحياء فخشيتُ أن يضحك الناس من الكهل الغزل أكثر مما خشيتُ الموت؛ ذلك فضلاً على أن الخواطر الغزلية لم تسنح لي يوماً وأنا بالقرب من مدام ديبيناي؛ ولو قضيتُ العمر بالقرب منها، لربما كانت هذه الخواطر لم تسنح لي مرة واحدة قط. وما كنتُ قط لأَكره شخصها، بل كنتُ على النقيض من ذلك، لأنني أحببتُها، ولعل حبّي لها، صديقةً، كان أوفى من أن أقدر على أن أهواها عاشقاً، فطاب لي أن ألقاها وأتحدث إليها. ولئن ساغ حديثها وهي في الحلقات، فلقد جفّ وهي في الملتقى الخاص؛ أما حديثي، وهو لا يعلو على حديثها رونقاً ونضارة، فلم يؤتها عوناً بالغاً. فكان يخجلني هذا الصمت الطويل، فأبذل وسعي أريد أن أذكي الحديث، ولئن أتعبني التحدث معها في جل الأحوال، فما سئمتُه قط. ولقد طاب لي أن أسدي إليها ألواناً من يسير العناية وأن أقبّلها تقبيلاً أخويّاً

twitter @baghdad_library

حقاً لا يبدو لي أنه قد زادها شهوة: ذلك هو كل شيء فحسب. وكانت هي جد هزيلة، بيضاء البشرة جدّاً، وكان صدرُها مثل كفّي. فكفى بهذا العيب حتى يجمدّني الصقيع: فإن قلبي وحواسي لم تستطع يوماً أن ترى المرأة في شخص غير ناهد الثديين، كما أن أسباباً أخرى قد أنستْني جنس مدام ديبيناي وأنا معها.

فلما سلّمتُ بما قُسرتُ عليه حتماً، انقدتُ له لم أقاوم، فوجدتُه، للسنة الأولى في الأقل، دون ما توقّعتُه كلفةً. وذلك أن مدام ديبيناي، وقد جرت عادتها أن تقضي بالريف معظم فصل الصيف، لم تُمض هناك إلاّ بعضاً منه إما لأن أعمالها اضطرتها أن تلزم باريس مدةً أطول، وإما لأن غياب ريم لم يحبّب إليها الإقامة في الشوفريت بقدْر ما أحبّتْها من قبْل. فاغتنمتُ الفترات التي لم تكن هي فيها بالريف، أو تلك التي كان يأتيها فيها كثير من الناس هناك، فتمتعتُ بوحدتي مع تيريز الطيّبة ومع أمها فشعرتُ بتلك الغبطة حقّ الشعور. ولئن كنتُ، منذ بضع سنوات، غالباً ما قصدتُ الريف، فقد كدتُ لا أستطيبه، إذ إن استمرار أسفاري إليه مع بعض المدعين وإذ إن ما نغّص أسفاري من أسباب الضيق لم يؤديا إلى سوى إذكاء حبّي للمبهجات الريفية التي عدتُ لا أستشفّ صورتها إلا ازددتُ إدراكاً لحرماني إياها. فسئمتُ الصالونات، والاستقبالات ونافورات المياه، وبساتين الشجر، وحدائق الزهر، وأصبحتُ من أَملّ الذين يَدُلّون إلى ذلك جميعاً. وكنتُ قد أعيتني المنشورات، وآلات الكلافسان، ولعبة الورق «التري»[4] والأقوال الساذجة الغبية، والتغنجات السمجة، وصغار الحكاة، وولائم العشاء، حتى إنني صرتُ إذا لمحتُ نبتةَ علّيق وضيعة، أو سياجاً شائكاً، أو بعض الأهراء، أو بعض

---

(4) التري (Le tri) لعبة ورق إسبانية الأصل ـ المترجم.

المروج، وإذا شممتُ، وأنا أمرّ بقرية، رائحةَ عجّة بالبقدونس طيّبة، وإذا سمعتُ من بعيد القرارَ الريفي لأغنية راعيات الماعز، عفتُ الأرجوان والديباج والعنبر، وأسفتُ على غداء ربة البيت وعلى نبيذ البلد، فوددتُ لو أَلكم رئيس الطهاة وكبير الخدم على الحنك منهما وهما اللذان كان يغدّياني في ساعة عشائي ويعشّياني في ساعة نومي، ووددتُ، في الأخص، لو أَلكم الخدم على أحناكهم وهم الذين بعيونهم كانوا يلتهمون طعامي، ويبيعوني نبيذ أسيادهم المغشوش يقتضوني أسعاراً تزيد عشرة أضعاف على سعر أجْود نبيذ أبتاعه في المقهى أو يهلكوني عطشاً.

فهآءنذا، آخر الأمر، في بيتي، في مأوًى طيب منفرد، وقد غدوتُ حر التصرف في شأني، أَمضي أيامي في العيشة المستقلة، الرغدة، الوادعة التي شعرتُ بأني قد ولدت لأجلها. ولكن، قبْل أن أذكر وقع هذه الحال وهي، عندي، حال جديدة، يخلق بي أن أختصر ما سلف من مشاعرها الخفيّة، فتمسي وأنت أَحسن اتباعاً لدواعي تلك التغيرات الجديدة ولتقدّمها وتطورها.

دائماً ما نظرتُ إلى اليوم الذي اقترنت فيه بتيريز وكأنه اليوم الذي ثبَّتَ كياني الأخلاقي. فلقد احتجتُ إلى ما أتعلّق به، لأن ما وجب أن يكفيني منه قد انقطعتْ عني أسبابه انقطاعاً شديد الإيلام. والإنسان عطشان إلى السعادة، لا يرتوي منها قلبُه أبداً. وكانت ماما قد فعلتْ فيها المذلّة والسنون، فأيقنتُ أن ماما أضحت لا سعادة لها في هذه الحياة الدنيا. فبقي أن أبتغي ما يسعدني وقد فقدتُ أملي أن أقاسمها الهناء. وظللتُ بعض الحين وأنا من خاطر إلى خاطر ومن مشروع إلى مشروع. وكان سفري إلى البندقية حرياً بأن يرسيني في الحياة العامة، لو أن الرجل، الذي التحقتُ به هناك، كان من ذوي البصيرة وسلامة الرأي. ثم إنني سهلُ الخيبة ولا سيما في الأعمال

twitter @baghdad_library

الشاقة الطويلة النفَس، فكان من إخفاقي في الأعمال ما كرَّه إليّ غيرها؛ فلما أخذتُ، على حسب حكمتي القديمة، أنظر إلى الأمور البعيدة وكأنها خدائع مخدوع، عزمتُ أن أعيش لليوم الذي أنا فيه وبتُّ لا أرى في الحياة شيئاً يغريني ببذل مجهود.

ولقد تعارفنا[5] في تلك الأيام، على وجه التدقيق. فبدا لي أن دماثة الفتاة قد لاءمت طبعي، حتى إني اتحدتُ بها في رباط ثبتَ على بلايا الدهر وجوره وحتى إن ما كان جديراً بأن يحلّ رباطنا لم يؤدّ إلا إلى ازدياده تمكناً وإحكاماً. ولسوف تقف على شدة هذا الرباط حين أكشف لك عما أمعنتْ هي في قلبي تجريحاً وتمزيقاً يوم أنا في دركات البؤس، فلم يفرط مني قط حرفُ تذمر إلى أحد حتى قمتُ، ههنا، أَكتب ما كتبتُ.

فإذا علمتَ أنني، وقد تقدمت بي السن، انتهيتُ إلى أن تزوجتُ بتيريز على غير توقّع منها ولا طلب، وعلى غير عهد مني ولا وعد، بعد ما سعيتُ جهدي وقاومت كل شيء لئلا أفارقها، وبعد ما عايشتُها خمساً وعشرين سنة برغم القدَر ورغم البشر، ـ إذ علمتَ ذلك برمّته، حسبتَ أن جنون الحبّ قد ذهب بلبي مذ لقيتُها أول مرة فما زال يتدرج بي حتى بلغتُ هذه الغرابة الأخيرة، ثم ازددتَ يقيناً بما حسبتَ إذ وقفتَ على الدواعي الخاصة والأسباب المتمكنة التي كانت خليقة أن تحول بيني وبين أن أفضي إلى تلك الغرابة يوماً من الأيام. وإذاً، فما يقول القارئ، وأنا على صدْق تام بات هو يعرفه عندي ولا ريب، متى قلتُ للقارئ إنني، مذ لقيتُ تيريز أول مرة إلى يومنا هذا، لم أشعر بحبّ لها قط، وإنني لم أكن في أن أمتلكها أشدَّ رغبةً مني في أن امتلك مدام دو فارانس، وإن

(5) يريد هو وتيريز ـ المترجم.

حاجاتي الجسدية، التي أشبعتُها مع تيريز، لم تكن، عندي، إلا حاجة جنسية لا تتصل بشخصها في شيء؟ وسيظن القارئ أنني لم أُفطَر على ما فُطر عليه بعض الرجال فعجزتُ عن الشعور بالحبّ ما دام الحبّ لا يتصل بالمشاعر التي تشدّني إلى أَحبّ إنسان إليّ. ولكنْ صبراً قارئي! فلقد قربت الساعةُ المشؤومة التي فيها يُزال عن عينيك ما قد غشّى عليهما.

إنني أكرر أقوالي، وإنك تدري هذا، ولكن يجب التكرار. ثم إن أُولى حاجاتي، وأعظمها، وأَشدّها، وأبعدها عن الهمود، كانت كلها في قلبي، وكانت في احتياجي إلى عشرة حميمة بقدْر المستطاع؛ فلأجل ذاك احتجتُ، على الأغلب، إلى امرأة فوق ما احتجتُ إلى رجل، واحتجتُ إلى صديقة أكثر مما احتجتُ إلى صديق. فبلغتْ عندي هذه الحاجة الغريبة حدّاً لم تكفني معه أوثقُ الروابط الجسدية، إذ كانت حاجتي إلى نفسين في جسد واحد، وإلا لم أَزل أحسُّ الفراغ. ولقد خيّل إليّ، أول وهلة، أنني بتُّ لا أحسُّ بهذا الفراغ. ولو عرفتُ، كما كنتُ أرجو، أن أقف حياتي على هذه الفتاة التي حبَّبها إليّ ألفُ مزية وحبَّبها إليّ، فوق ذلك، ملاحةُ الوجه قد خلا من زينة وتبرج، إذاً لباتت هي نفسها وقد وقفتْ عليّ حياتَها. فما خفتُ عليها من ناحية الرجال شيئاً؛ وإني لفي يقين بأنني الرجل الأوحد الذي أحبّته حقّاً، كما أن حواسها الهادئة كادت لا تسألها أحداً غيري، حتى لم أَبقَ، عندها، رجلاً في هذا النحو. ولقد كنتُ لا أُسرة لي، وكانت لها أُسرة قد طُبع كلُّ من فيها على ما يغاير سجية تيريز مغايرة هي أبعد من أن أقدر معها على أن أتخذ أُسرتها أُسرةً لي. وههنا علّة لشقائي. ولكم كنتُ أبذل حتى أغدو ولداً لأم تيريز! فحاولتُ ذلك جهدي، ولكن ما استطعتُ. وطالما سعيتُ لأن أجمع بين منافعنا كلها، فتعذَّر عليّ هذا الجمع، لأن أم

twitter @baghdad_library

تيريز قد اتخذتْ ما يباين مصلحتي وما يخالفها، حتى إنها اتخذتْ ما يخالف مصلحة ابنتها. فأصبحت الأم وسائر أولادها وحفدتها مثل العلق، وكانت أيسر أذيةٍ ينزلونها بتيريز هي أن يسرقوا مالها، وقد تعوّدت الفتاة المسكينة أن تذعن حتى لبنات شقيقاتها، فاستسلمتْ للنهب والتسلط لم تنطق بحرف، فأسفتُ على عجزي أن أعمل ما أنفعها به وقد استنفدتُ مالي ونصحي في غير طائل. فحاولتُ أن أفصلها عن أمها، فقاومتْني في كل حال. فاحترمتُ موقفها، وازددتُ قدراً لها؛ بيد أن هذا الرفض أضرّها وأضرّني على السواء. ولقد انقادت لأمها ولذويها، فكانت لهم أضعاف ما كانت لي ولنفسها. فلم يؤذها طمعهم بها على قدْر ما آذتها نصائحهم. فإذا كانت، من حبّها لي وطيبة عنصرها، لم يستأثر بها تسلُّطُ ذويها كلَّ الاستئثار، فلقد استبدَّ بها على نحو كفى لأن لا تؤثّر فيها معظمُ النصائح المخلصة التي اجتهدتُ أن أسدي إليها؛ وكيفما عملتُ، كان في ذلك ما يكفي لأن نبقى شخصين.

وهكذا فإن التعلّق الصادق، المتبادل، الذي سكبتُ فيه جميع ما بقلبي من مشاعر، لم يمتلئ به قلبي حقّ الامتلاء. ولقد رُزقنا أولاداً ربما كانوا ملأوا هذا الفراغ؛ لكن الأمر بات إذ ذاك شرّاً منه قبْلاً. فارتعدتُ خوفاً عليهم من أن أسلمهم إلى هذه الأُسرة السيئة التهذيب، فتنشئهم على ما هو أسوأُ منه تهذيباً، فكانت تربيتهم في ملجإ اللقطاء أقلّ أخطاراً. ثم إن هذا السبب، الذي حملني على ما قرَّرتُ من ناحية تربيتهم، هو فوق سائر الأسباب التي ذكرتُها في رسالتي إلى مدام دو فرنكوي، وإن يكن هو السبب الأوحد الذي لم أجرؤ على أن أذكره لها[6] فأن لا أُبرّأ من هذه الملامة البالغة

(6) تكلم روسو على هذه الرسالة في الفصل الثامن من هذا الكتاب - المترجم.

الخطر، ذلك ما آثرتُ عليه أن أراعي أُسرة امرأة أحببتُها. ولكن أيّاً كان قول القائلين، فانظرْ إلى سيرة شقيقها التعس، تحكمْ أحَقَّ يوماً عليّ أن أعرّض تنشئة أولادي لما يشبه تربيته؟

فلما تعذّر عليّ أن أتمتع وفي التمتع بتلك العشرة الحميمة التي شعرتُ باحتياجي إليها، ابتغيتُ عوضاً منها ما لم يملإ الفراغَ الذي نجم عنها وإن خفّ عندئذٍ شعوري بهذا الفراغ. أما إذا لم أُوتَ صديقاً يكون كلّه لي، فلقد احتجتُ إلى أصدقاء تتغلب حميّتهم على فتوري. فأخذتُ أتعهد علاقاتي بديدرو وبالأباتي دوكونديّاك وأقويها، وأقيمُ لي علاقة بحريم جديدة وأوفى ارتباطاً. فوجدتُني، في النهاية، قد عاد ذلك «**الخطاب**» المشؤوم(7)، الذي رويتُ قصته، يلقيني في الأدب على غير علم مني، وكنتُ أحسب أني بَرِئتُ من الأدب إلى أبد الدهر.

ثم إن بدايتي قد سلكتْ بي طريقاً جديداً نقلني إلى عالَم فكريّ آخر لم يسعني إلا أن تتقد حماستي لمّا واجهتُ نظامه الأبيّ البسيط. فلم ألبث، لفرط ما قد عناني أمرُ هذا العالم، أن غدوتُ لا أرى في مذاهب حكمائنا إلا خطأً وجنوناً، ولا أرى في نظامنا الاجتماعي إلا ظلماً وبؤساً. فظننتُ، وأنا في أوهام زهوي الغبيّ، أنني خُلقتُ لكي أقضي على سلطان تلك الأمور جميعاً. فلما وجدتُ أنه ينبغي أن أجعل سيرتي على وفق مبادئ فيسمع الناس لكلمتي، سلكتُ السبيل الفريد الذي لم يؤذَن لي أن أواصل السير عليه، والذي لم يسامحني به من أدعو أنهم أصدقائي، والذي أضحكَ الناس مني في مبتدإ الحال، والذي كان حريّاً بأن يكسبني احترامهم في آخر الحال لو أمكنتْني المواظبة على سلوكه.

---

(7) يريد مؤلّفه **خطاب في التفاوت** - المترجم.

twitter @baghdad_library

وكنتُ، إلى ذلك اليوم، إنسانا طيّباً، فأصبحتُ، مذ ذلك اليوم، إنسانا فاضلاً، أو، على الأقل، أصبحتُ إنساناً قد انتشى من مَعاني الفضيلة. وكانت نشوتي هذه قد وُلدتْ في عقلي، لكنها تحولتْ إلى قلبي فنمتْ فيه أنبلُ بذور الاعتزاز، وكان نموّها على ما قد اجتُثَّ عندي من بقايا الغرور. ولم أكن في ذلك أمثّل بعض الأدوار، وإنما أمسيتُ على حقيقة ما ظهرتُ به، وظللتُ أربع سنوات في الأقل، ـ وهي المدة التي فيها استمرت تلك الفورة على عنفوانها الأشدّ، ـ ظللتُ لا كبير ولا جميل، مما يداخل قلب الإنسان، إلا وسعني إتيانُه في ما بيني وبين الله. فمن هنا نشأتْ عندي، بغتاً، فصاحة اللسان؛ ومن هنا تأجَّجَ في كتبي الأولى ذلك اللهب الإلهيُّ الحقُّ الذي أضرمني والذي بقي أربعين سنة لا تطايَرُ منه أضعفُ شرارةٍ لأنه لم يكن قد اشتعل بعد.

تغيرتُ حقاً، بات لا يعرفني أصدقائي ولا معارفي. ولم أبقَ ذلك المرء الحييّ الذي كان إلى الخجل أدنى منه إلى الاتضاع، والذي لم يكن ليجسر أن يتقدّم ولا أن يتكلّم، والذي كان يرتبك لأيسر مداعبة ويحمّر خجلاً إذا نظرتْ إليه امرأة ما. فأصبحتُ جريئاً، أبيّاً، لستُ أخشى أحداً. وحيثما اتجهتُ حملتُ ثقة بالنفس شديدة بقدْر ما كانت بسيطة إذ شاعت في روحي فوق ما بدت على هيئتي. ثم إن ما أوحت إليّ به تأملاتي من ازدراء لعادات عصري، ولمبادئه، ولمسبّقات أحكامه، قد صيّرني لا أكترث لسخرية أصحاب تلك العادات والمبادئ والأحكام، فسحقتُ بأقوالي كلماتهم الساذجة وكأني أسحق بأصابعي بعض الحشرات. فيا للتغير! لقد باتت باريس كلها تُردّد تهكمات ذلك المرء اللاذعة القارصة، وقد كان، لسنتين خلتا، لا يهتدي إلى ما يريد أن يقول ولا إلى ما ينبغي أن يقول، فلما انقضت عليه بعدئذٍ عشر سنوات، عاد لا يهتدي إلى ذلك مرة أخرى.

ألا فاطلبْ أَبعد الأحوال عن طبعي، تجدْ أنها تلك الحال. وتذكَّرْ أوانات من عمري وجيزَة قد غدوتُ فيها شخصاً آخر ولم أبقَ أنا إياي، تجدْه أيضاً في الوقت الذي أتكلّم عليه؛ بيد أن هذا الوقت قد استمر ما يقارب ست سنوات، بدل أن يستمر ستة أيام أو ستة أسابيع. ولربما كان استمر إلى اليوم، لولا الدواعي الخاصة التي أنهتْه فأرجعتْني إلى الطبيعة التي أردتُ أن أعلو عليها.

وكان مبتدأ هذا التغير ساعةَ برحتُ باريس، ورذائلُ تلك المدينة الكبيرة قد كفّ منظرها عن أن يثير حفيظتي. فلما أَصبحتُ لا ألقى البشر، عدتُ لا أحتقرهم، ولما أصبحتُ لا ألقى الخبثاء، عدتُ لا أحقد عليهم. فإنّ قلبي، الذي كاد لا يُجبَل على شيء من الضغينة، قد بات لا شاغل له إلا أن يرثي لبؤسهم وبات لا يتبيّن ما هم عليه من خبث. لكن هذه الحالة، وهي أنعمُ لي بالاً وأقلُّ رفعةً وتسامياً، قد فتّرت من اتّقاد الحماسة التي كانت قد ألهبْتني ردحاً من الزمن، فعدتُ وجلاً، مراعياً، خجلاً؛ فلم يشعر الناس بذلك، وكدتُ، أنا نفسي، لا أشعر به؛ وخلاصة القول إنني عدتُ جان جاك عيْنه الذي إياه كنتُ في ما مضى.

ولو أن هذه الثورة اقتصرتْ على أن ترجعني إلى ذاتي فوقفتْ عند هذا الحد، لهان الأمر؛ ولكن في سوء الحظ أنها لم تقف عنده بل جاوزتْه وانطلقتْ بي إلى الطرف الآخر. فمنذئذٍ ما برحتْ نفسي على تحيّر، ولم أعرف من أسباب الراحة إلا حالاً لم يسعني قط أن أستقرّ فيه لما تجدَّدَ لديّ من استمرار التقلّب. فلندخلْ في مفصّل هذه الثورة الثانية. إنها العهد المهول المشؤوم لمصيرٍ ليس له في الخَلق مثيل.

لم نكن في خلوتنا إلا ثلاثة أشخاص، فأصبحتْ أوقات الفراغ والتوحد لا بد لها أن توطد علاقاتنا الحميمة توطيداً طبيعيّاً. وهذا ما

twitter @baghdad_library

جرى بيني وبين تيريز، فكنا نختلي تحت ظلال الشجر، نقضي ساعات عذبة لم يتقدّم لي أن شعرتُ بعذوبتها على نحو ما شعرتُ بها في تلك الأيام. وبدا لي أن تيريز قد طابت لها تلك الساعات فوق ما طابت لها قبْلاً. ففتحتْ لي قلبها بدون تحفّظ، ونبّأتني من أمور أمها وأُسرتها بما كانت قد استطاعت أن تكتمني إياه زمناً طويلاً. وكانت الأم والبنت قد نالتا من مدام دوبان هدايا جمّة أُهدين إليّ فاستولت عليهن المحتالة العجوز واتخذتْها لها ولسائر أولادها لم تبق منها شيئاً لتيريز، ومنعتْها أن تخبرني بها منعاً قاطعاً لئلا أغضب؛ فما كان من البنت المسكينة إلا أن خضعتْ لهذا الأمر خضوعاً لا يمكن تصوّره.

بيد أن ما كان أَشدَّ إثارةً لاستغرابي هو علمي أن ديدرو وجريم كثيراً ما اجتمعا، منذئذٍ، إلى أم تيريز يتحادثون سرّاً، وتيريز لا تدري البتة ما يحاك بينهم؛ ذلك فضلاً عن المحادثات الخاصة المتعددة التي أجراها الرجلان مع الأم والبنت ليحملاهما على أن تنفصلا عني والتي خابت إذ قاومتْها تيريز. وكل ما وقفتْ عليه البنت من تلك المُسارّات هو أنها قد اتصلتْ بأمر الهدايا الصغيرة وأنه كان ثمة يسيرُ ذهاب وإياب اجتهدوا في إخفائهما على تيريز التي جهلت الداعي إليهما جهلاً تامّاً. فلما برحنا باريس، كانت السيدة لوفاسور قد تعوّدتْ، منذ وقت طويل، أن تذهب مرتين في الشهر، أو ثلاث مرات، إلى دار السيد جريم فتزوره وتقضي وإياه بضع ساعات في محادثات جد سريّة حتى إن خادمه كان يقصي حينئذٍ.

فقدَّرتُ أن سبب ذلك إن هو إلا الخطة نفسها التي كان ديدرو وجريم قد حاولا أن يُدخلا فيها البنت يَعدانها ويَعدان أمها بأن يستحصلا لهما، عن يد مدام ديبيناي، على إجازة لبيع الملح بالمفرّق وعلى مكتب لبيع التبغ؛ وخلاصة القول إنهما قد لوَّحا للأم

والبنت بمغريات الأرباح. ومثَّلا لهما أنني، إذ لا قبل لي بأن أصنع شيئاً لأجلهما، قد غدوتُ بسببهما لا قبل لي أن أصنع لنفسي شيئاً. فلما لم أجد في ذلك إلاّ حُسن نية، لم يسؤني أمره حقّ الإساءة. وإنما أثارني الإخفاء والكتمان، ولا سيما عند الأم التي أخذت تزداد تملّقاً لي ومراوغةً يوماً بعد يوم. فلم يحل ذلك بينها وبين أن تُقبل سرّاً على ابنتها تلومها في أنها تحبّني فوق ما ينبغي أن تحبّ، وفي أنها تخبرني بكل أمر، وفي أنها ليست إلا غبية حمقاء ستذهب ضحية خدعي لها.

ولقد مهرتْ تلك المرأة أيّ مهارة في فن اجتلاب المكاسب أضعافاً مضاعفة، وفي أن تكتم أحدهم ما تتناول من الآخر، وفي أن تخفي عليّ ما تأخذ من سواي. وربما كنتُ سامحتُها بطمعها، ولكن لم أستطع أن أسامحها بكتمانها. فلِمَ الذي كان عندها فتخفيه عليّ وقد علمتْ حقّ العلم أن سعادتي تكاد تقتصر على إسعادي ابنتها وعلى إسعادي لها؟ فإنّ ما عملتُ لابنتها، فلأجلي قد عملتُه، أما الذي عملتُ لأجلها، فلقد استحقّ منها بعضَ عرفان الجميل؛ ووجب عليها أن تشكل ذلك لابنتها في الأقلّ، وأن تحبّني حباً منها لابنتها التي أحبّتني. وكنتُ قد انتشلتُ السيدة لوفاسور من أقصى دركات البؤس، فأصبحتْ مدينة لي بمعاشها وبجميع أولئك المعارفْ الذين انتفعت بهم كل الانتفاع. وكانت تيريز قد بقيتْ، ردحاً من الوقت، تعمل لتقوم بأود أمها، ثم باتت، يومَنا ذلك، تَقوتها بخبزي. فكانت الأم مدينة للبنت بكل شيء، لكنها لم تصنع لابنتها شيئاً؛ أما سائر أولادها الذين مهرتْهم ونفحتْهم حتى أملقتْ، فما انفكوا يلتهمون رزقها ورزقي بدل أن يساعدوها على أن تقتات.

فرأيت أن عليها، في مثل هذه الحال، أن تنظر إليّ وكأني صديقها الأوحد وحاميها الأولى ثقةً وأماناً، فلا تكتمني شؤوني

twitter @baghdad_library

الخاصة ولا تدسّ عليّ في داخل بيتي، بل تنبهني إلى كل ما يهمني تنبيهاً صادقاً أميناً، إذ بلغها ما يهمني قبْل أن ينتهي إليّ خبرُه. فكيف أنظر إلى سلوكها الكاذب الذي حفّت به الأسرار؟ وماذا أقول في المشاعر التي اجتهدتْ أن تنفثها في قلب ابنتها؟ ألا ما أَقبح إنكارَها جميلي وقد سعت لأن تولّد، عند ابنتها، إنكار الجميل!

فكان من هذي الخواطر كلها ما كرَّه إليّ تلك المرأة في آخر الأمر، حتى أمسيتُ لا ألقاها إلا احتقرتُها. لكني، مع ذلك، لم أبرح أعامل أم رفيقتي معاملة احترام، أكاد أبدي لها في كل حال ما يبديه الابن لأمه من قدر وإكرام، وان كنتُ، في الواقع، لم أطق أن أصحبها وقتاً طويلاً. ثم إنه ليس في طبعي أن أُكره نفسي على شيء.

وههنا أيضاً، أوان من آوانات العمر الوجيزة التي قاربتُ فيها السعادة فلم أصلْ إليها ولا وقع عليّ الخطأ إذ أخطأتُها. فلو أن تلك المرأة حَسُنتْ خُلقاً، لبتنا، نحن الثلاثة، وقد سعدنا حتى منقضى أيامنا فلم يرثَ إلا لآخر مَن بقي منا في هذه الحياة. لكنك سترى، بدل ذلك، كيف جرت الأمور فتحكم هل استطعتُ أن أبدّل مجراها.

ولما رأت السيدة لوفاسور أنني تقدمتُ في استمالتي ابنتها وأنها تأخرتْ، حاولتْ جهدها أن تستعيد ما فقدتْ من هذا القبيل، وسعتْ لأن تكرّهني إليها، بدل أن ترجع إليّ على يد ابنتها. وكان في الوسائل، التي استخدمتْها لهذا القصد، أنها استنجدتْ بأُسرتها.

وكنتُ قد رجوتُ من تيريز ألا تستقدم أحداً منهم إلى الإرميتاج، فوعدتْني، ولكن جيء بهم في غيابي ولم تشاوَر تيريز في أمر استقدامهم، وطُلب منها أن لا تذكر لي عنه شيئاً، فوعدتْ. فلما تمت الخطوة الأولى، هانت سائر الخطى؛ ثم إنك إذا ائتمنتَ من تحبّ على بعض الأسرار، لم تلبث طويلاً حتى تكاد لا تتردد في أن

تأتمنه على كل شأن. وما إن وصلتُ إلى الشوفريت حتى امتلأ الإرميتاج بأناس قد أخذوا يرتعون في ذلك المقام. وكان في أمر الأم أن تقوى أبداً على ابنتها الطيّبة العنصر؛ ولكن كيفما سلكت السيدة لوفاسور، لم يسعها قط أن تشرك تيريز في آرائها فتحملها أن تدسّ عليّ في جملة الدساسين. أما هي، فلقد ثبتتْ على ما قرَّرتْ؛ فلما رأتني أنا وابنتها من جهة، ولم يتهيأ لها أن تقيم إلا عندي، ولما رأت ديدرو وجريم ودولباخ ومدام ديبيناي من جهة أخرى، وقد أجزلوا لها الوعود ونفحوها ببعض الأشياء، وجدتْ أنها إذا اختارت جانب قرينة الملتزم العالم للضرائب وجانب أحد البارونات، لم تكن قط على ضلال. ولو كنتُ أنفذَ نظراً، لأبصرتُ، مذ ذلك الحين، أنني بتُّ أغذّي أفعى في بعض أحشائي؛ لكن ثقتي العمياء التي لم يكن قد غيّرها شيء بعْد،بلغتْ يومئذٍ ما لم أتخيل معه أن الإنسان يستطيع إضرار من ينبغي له أن يحبّ؛ حتى إذا رأيتُ ألف دسيسة قد حيكت من حولي، لم أحسن إلا أن أشكو ظلمَ أولئك الذين دعوتُهم أصدقائي أخالهم يريدوني على أن أسعد بحسب طريقتهم في السعادة أكثر مما يريدوني على أن أَسعد بحسب طريقتي فيها.

ولئن أبت تيريز أن تدخل في الدسيسة مع أمها، فلقد ظلت تصون لها أسرارها؛ وسببُ هذا الكتمان خليق بالثناء، ولن أقول أأحْسنتْ هي في ذلك أم أساءت. فإنه إذ تسارّت امرأتان، طابت لهما الثرثرة معاً، فقرَّبَ ذلك ما بينهما. وكانت تيريز، وقد انقسمتْ بيني وبين أمها، تُشعرني، بعضَ الأحيان، بأنني وحدي إذ لم يبقَ في وسعي أن أَعُدَّ في باب المجتمع ما كان يجمعنا نحن الثلاثة معا. فعندئذٍ أدركتُ حقّاً خطأي في مبتدأ علاقاتنا، إذ لم أغتنم ما قد أشاع الحبُّ في تيريز من طوع لي وانقياد فأُزيّنها بالمواهب والمعارف التي كانت حريّة أن تزيدنا تقارباً ونحن في خلوتنا، وأن تملأ وقتها

twitter @baghdad_library

وتملأ وقتي بما يبهج فلا نشعر يوماً بطول ساعات الخلوة وجهاً لوجه. وما القصد أن أحاديثنا كانت قد نضبتْ ولا أن تيريز كانت قد بدا عليها الملل في ساعات النزهة، ولكن لم يكن لدينا ما يكفي من الآراء المشترَكة لكي تجمعنا. فغدونا لا سبيل لنا إلى أن نتكلّم على مشروعاتنا كلاماً مطّرداً موصولاً، فاقتصرنا منها على الاستمتاع. وكان ما ألقاه من أشياء يوحي إليّ بخواطر ليست في متناول تيريز. ثم إنّ تعلّقنا، الذي مضى عليه اثنتا عشرة سنة، قد بات في غير حاجة إلى كلام. فكنا أشدّ تعارفاً من أن يفضل عندنا ما نتعالمه، فبقي لنا الثرثرة السطحية والاغتياب والمزح. ثم إن الإنسان إذا تقلّب في الوحدة، على الأخص، شعر بفائدة أن يعايش من يحسن التفكير. لكني ما احتجتُ إلى ذلك ليطيب عيشي مع تيريز؛ أما هي، فلقد احتاجت إلى ذلك ليطيب عيشها معي. وأسوأُ ما في الأمر أننا قد اضطررنا إلى أن نختلي سرّاً، لأن أمها، إذ أصبحتْ تزعجني، قد ألجأتني إلى مراقبة خلواتنا. فتضيقتُ في بيتي، وكفى بهذا قولاً، وأفسدَ جوُّ الحبّ طيبَ الصداقة. فكنا على علاقة حميمة، ولكن لم نعش عيشة حميمة.

فما أن رأيتُ أن تيريز قد تعللت أحياناً ببعض التعلات لكي تتملص من النُزهات التي كنتُ أقترح عليها، حتى كففتُ عن هذا الاقتراح فلم يسوءني أنها لم تنشرح للنُزهات على قدْر ما كنتُ أنشرح؛ وذلك أن الذي يطيب للإنسان لا يرتهن بمشيئته. ولقد ركنتُ إلى قلبها، فكان هذا حسبي. فقاسمتُها ملذاتي نستمتع بها ما أَبهجْنَها؛ وإذا لم يكن ذلك آثرتُ أن أرضيها هي على إرضاء نفسي أنا.

وهكذا انتهيتُ إلى الشعور بأني كدتُ أصبحُ في عزلة، لأن ما توقَّعتُه قد خدعني بعض الخداع، مع أني كنتُ أحيا حياة على ذوقي

في مقام هو من اختياري وأعايش امرأة عزيزة لديّ. وذلك أن ما أَعوزني قد حرمني أن أتمتع بما ملكتُ؛ فكنتُ إما أن يعوزني كل شيء من أشياء السعادة والاستمتاع، وإما أن لا يعوزني منها شيء. ولسوف ترى لمَ اعتبرتُ أن الدخول في هذا التفصيل شأنُ ضرورة. أما الآن، فإني عائد إلى مجرى حكايتي.

كنتُ أحسبُ كنوزاً عندي المخطوطات التي سلمني إياها الكونت دوسان بيار. فلما نظرتُ فيها، وجدتُها لا تكاد تعدو كوْنها مجموعَ ما طُبع من مؤلَّفات عمّه الذي علّق عليها ونقّحها بيده، فضلاً على بعض كتاباته الأخرى التي لم تكن قد أبصرت النور. ولقد ثبَّتتْ كتاباتُه في الأخلاقيات الفكرة التي تمثّلتُه فيها لما قرأتُ بعض رسائله، وكانت مدام دوكريلي قد أطلعتْني عليها. فاستخلصتُ من ذلك كله أن الرجل أذكى مما كنتُ أظن. بيد أن تعمقي في مؤلَّفاته في السياسة لم يُرني إلا نظرات سطحية ومشروعات مفيدة ولكنها غير قابلة للتطبيق بواسطة الفكرة التي لم يمكن المؤلّف قط أن يخرج منها والقائلة بأن البشر يتصرفون وفق أنوار عقولهم أكثر مما يتصرفون وفق أهوائهم. وكان حُسْنُ ظنه الكبير في المعارف الحديثة قد حداه أن يتبنى هذا المذهب الخطأ، مذهب العقل الكامل [المستجاد]، وهو أُسُّ جميع الأركان التي اقترحها ومصدرُ سفسطاته السياسية كلها. لكن هذا الرجل الفذ الذي شرّف عصره ونوعَه البشري والذي ربما كان، منذ وجود هذا الجنس [النوع]، الإنسان الأوحد الذي لم يكن له من هوى سوى هوى العقل ـ لكن هذا الرجل لم يقم في جميع أنساقه النظرية إلا بالذهاب من خطإٍ إلى خطإٍ، إذ ابتغى أن يجعل البشر أشباها له بدل أن يتناولهم كما هم كائنون وكما سوف يكونون باستمرار. وهكذا فإنه لم يكتب إلا لكائنات خيالية، والحال أنه كان يتصور أنه يكتب لمعاصريه.

twitter @baghdad_library

فلما نظرتُ في ذلك أجمع، داخلني بعضُ الحيرة في الشكل الذي يجب أن أصوغ به هذا الكتاب. فأن أدَع رؤى المؤلّف كما هي عليه، ذاك صنعٌ لا فائدة منه؛ وأن أدحضها، فذاك هو، على وجه التدقيق، عملٌ بعيد عن الأمانة، لأن تسلّمي تلك المخطوطات، إذ رضيتُ أن أتسلمها، بل إذ ابتغيتُه، قد فرض عليّ أن أعامل مؤلّفها معاملة صادقة وفية. فاخترتُ، في منتهى الأمر، أَصلحَ ما ارتأَيتُ وأعقلَه وأجزلَه نفعاً، وذاك هو أن أبدي آراء المؤلّف وأبدي آرائي، كلاً منها على حدة، فأدخل في وجهات نظره فأجلوها وأسهب فيها أبذل غاية الجهد لكي أبيّنها على حقّ قيمتها.

وإذاً، فلقد وجب أن يتألف كتابي من جزئين جد منفصلين: أما أحدهما، فأعرض فيه مختلف مشروعات المؤلّف بحسب الطريقة التي ذكرتُها، وأما الآخر، ففيه أَحكُمُ بتلك المشروعات نفسها، مما يعرّضها ـ وأنا أُقرُّ بهذا ـ لمثْل ما أصاب قصيدة « كاره البشر » ؛ ورأيتُ ألا يصدر الجزء الثاني إلا بعد أن يكون الجزء الأول قد فعل فعلَه. وكنتُ قد قرَّرتُ أن أتوّج المؤلّف كله بسيرة صاحبه، فجمعتُ بعض المواد الصالحة التي تتصل بها وتعللتُ بألا أمسخ تلك المواد حين أعمد إلى استخدامها. وكنتُ قد لقيتُ الأباتي دوسان بيار، في أيام شيخوخته، لقاءً يسيراً، وكان إجلالي لذكراه كفيلاً بأن الكونت، بعد إنعامه الرأي، لن يكون إلا راضياً عن الطريقة التي عاملتُ بها نسيبه.

فأنشأتُ محاولتي في **السلم الدائم**[8] وهي أَعظم كتب ذلك المجموع وأكثرها جهداً وإتقاناً؛ وأقدمتُ، قبلما انقدتُ لخواطري، على أن أقرأ جميع ما كان الأب دوسان بيار قد كتب في هذا

---

(8) **السلم الدائم** (*La paix perpétuelle*) ـ المترجم.

الموضوع الرائع، فلم أضق بما لقيتُ عنده من إسهاب وتكرار. ولقد اطلع الجمهور على تلك المنتخبات، فليس لي أن أقول فيها شيئاً. أما حُكمي فيها فلم يُطبَع، وما أدري هل سيُطبَع يوماً، وكنتُ قد كتبتُه لما جمعتُ المنتخبات. ثم انتقلتُ من هنا إلى كتاب **تعدد مجالس الحكم**[9]، وكان هو قد ألّفه في عهد الوصي[10] تأييداً للحكومة التي اختارها. فنشأ عن تأليف هذا الكتاب أن الأباتي دوسان بيار قد أُخرجَ من الأكاديمية الفرنسية لأنه أوردَ فيه من الأقوال التي ناهضت الحكومة السالفة ما أغضَب الدوقة دوماين والكردينال دو بولينياك. فأنجزتُ هذا الكتاب على نحو ما كنتُ قد أنهيتُ سابقه، وذلك سواء من جهة إبداء رأيي أو من حيث المنتخبات؛ لكنني اكتفيتُ بما صنعتُ وأبيتُ أن أواصل هذا العمل الذي ربما كان من واجبي ألا أكون قد بدأتُه.

ثم إن الفكرة التي حملتْني على تركه، قد أتتني من تلقاء نفسها، وفي العجيب أنها لم تسنح لي قبْل ذلك الحين. وكانت أَغلب مؤلَّفات الأباتي دوسان بيار عبارة عن ملاحظات تنتقد بعضاً من دوائر حكومة فرنسا، أو هي قد اشتملتْ على تلك الملاحظات التي كان فيها كثير من المصارحة، حتى بات في حُسن حظ مؤلّفها أنه لم يعاقَب عليها. لكن القوم في دواوين الوزراء قد نظروا دائماً إلى الأباتي دوسان بيار على أنه شبهُ واعظ أضعاف ما نظروا إليه على أنه رجلُ سياسة بحقّ، فتركوه يقول ما يشاء إذ لم يروا أحداً

(9) تعدد مجالس الحكم (Polysynodie)، أي نظام حُكم تحلّ فيه المجالس محل الوزراء. ولقد عرفتْ فرنسا هذا النظام بين عام 1715 وعام 1718، بعدَ وفاة لويس الرابع عشر، وكان هذا النظام ردة على تسلط الملك الشمس، غير أنه لم يدم طويلاً، ولم يؤيده إلا القليلون ومن بينهم الأب دو سان بيار ـ المترجم.

(10) الدوق دورليان الوصي على عرش فرنسا بعد وفاة لويس الرابع عشر ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

يصغي إليه. ولو تمكنتُ أن أُسمع أقواله، لتبدلت الأمور. ولقد كان فرنسياً، وما كنتُ من الفرنسيين؛ فلما تجاسرتُ أن أردّد انتقاداته، ـ مع أنني كنتُ قد قرنتُها باسمه، ـ عرّضتُ نفسي لأن يسائلني الناس، ولو بشيء من العنف ولكن من غير ظلم، لماذ أحشر نفسي. فلم أذهب إلى أبعد مما فعلتُ، إذ كان في حُسن الحظ أني تبيّنتُ ما سيعود عليّ، فانكفأتُ في عجل. ولقد علمتُ أني، وأنا أعيش وحدي بين البشر، بل بين قوم كلهم أعظم نفوذاً مني، لا يسعني البتة، كيفما أعمل، أن أتقي ما يريدون بي من ضرر. فوجب عليّ أن أسلك على نحوٍ إذا ابتغوا معه ضرّي، لم يستطيعوه ـ في الأقل ـ إلا ظلماً. ثم إن هذه الحكمة، التي حملتْني أن أدَع الأباتي دوسان بيار، قد حدتني، في جمّة أحايين كثيرة، على التخلي عن مشروعات هي أعزّ لديّ جداً. ولو أن أولئك الذين ما برحوا يجرّمون البلوى قد علموا ما بذلتُ في حياتي من جهد لئلا يحقّ القول لي يوماً وأنا وسط محنتي: «إنك تستأهلها»، إذاً لفوجئوا وباتوا في دهش عظيم.

بقيتُ مدة من الزمن، بعد ما تركتُ ذلك المؤلّف وأنا لا أدري أيّ كتاب آخر أبتدئ بتأليفه. فكانت فترةُ التحير هذه فترة قضت عليّ، إذ انطويتُ على تفكيري في نفسي لأني كنت فاقداً لموضوع خارجي يشغلني. فأصبحتُ لا مشروع يشغل خيالي، بل تعذّرَ عليّ أن أضع مثل هذا المشروع، لأن الحال، التي أنا عليها يومئذٍ، كانت هي الحال التي التقت فيها رغباتي جمعاء: فبتُّ لا شيء أصنعه وبات قلبي على فراغ. وكان أقسى ما في هذه الحال هو أني لم أر ما أفضّله عليها. وكنتُ قد جمعتُ أحنى مشاعري فسكبتُها في امرأة هي مشتهى القلب؛ فبادلتْني بمثْل تلك المشاعر. فعايشتُها لم أتضيق، ولابستُها على هواي. ولكن لم يفارقني انقباض الصدر، قريباً منها كنتُ أم بعيداً. فلما امتلكتُها، أحسستُ أني لم أفتأ على ظمإٍ إليها، وما فكّرت أنني لستُ

كل شيء عندها إلا كادت تصير وهي، عندي، لا شيء.

ولقد أُوتيتُ أصدقاء ذكوراً وإناثاً قد وصلتْني بهم أصفى روابط الصداقة وأوفى أسباب التقدير والاحترام، فعوّلتُ عليهم رجاةَ أن يبادلوني بذلك كله في أبرّ ما تكون عليه المبادلة. ولم يخطر لي أن أشك في إخلاصهم يوماً. بيد أن هذه الصداقة قد عذّبتْني أضعاف ما عَذُبتْ لديّ لما لقيتُ من عناد أصدقائي ومن سعيهم لأن يخالفوني في كل ميولي ورغائبي وطريقة عيشي؛ فكان يكفي أن أريد شيئاً لا يعني سواي، ولا شأن لهم فيه، حتى تراهم جميعاً قد تحالفوا يُكرهوني على التخلي عما أريد. فشقّ عليّ إصرارهم أن يراقبوني في كل ما أهوى إصراراً زاده جوراً أني لم أراقبهم في ما يشتهون ولا سألتُهم به قط. وأبغضتُ إصرارهم هذا حتى غدوتُ لم أتناول رسالة من رسائلهم إلا هجس فيّ، وأنا أفضّها، بعضُ الخوف الذي لم تكن قراءاتي لها إلا لتسوّغه حقّاً. فوجدتُهم قد غالوا في معاملتي وكأني أحد الأطفال، مع كونهم جميعاً دوني سنّاً، ومع أن بهم حاجةً ماسّة إلى ما قد جادوا به عليّ من نصح وإرشاد. فقلتُ لهم: «أَحبّوني مثلما أحببتُكم، ولكن لا تتدخلوا في شؤوني إلا على قدْر ما أتدخل في شؤونكم، ذلك هو كل ما أطلب منكم». فإن كانوا قد استجابوا لأحد هذين الطلبين، فإنهم لم يستجيبوا لطلبي الأخير.

ثم إنه كان لي مسكن منعزل، في توحّد فاتن؛ وكنتُ في بيتي سيدَ أمري، حتى غدا في مكنتي أن أحيا على المنوال الذي أريده ليس لأحد أن يراقبني في حال. بيد أن سكني هناك أوجب عليّ ما طابت لي تأديته؛ ولكنْ هذا فرضٌ لا غنية عنه: فكانت حريتي بأسرها غير ثابتة الأركان، إذ استرقّني ما هو أشدّ من الأوامر فكنتُ عبد إرادتي. وما عرفتُ يوماً واحداً استطعتُ فيه أن أقول وأنا أنهض من السرير: «هذا اليوم سأقضيه كما يحلو لي». وذلك أنني لم أفتأ

twitter @baghdad_library

رهين الجمهور والقادمين، فضلاً عن تدبيرات مدام دييباني. ولم تكن المسافة بين مقامي وباريس لتحول دون أن يأتيني، كلَّ يوم، جمهورُ متعطلين قد حاروا في كيف ينفقون أوقاتهم فبدَّدوا أوقاتي لا يكترثون. فكان القادمون يغزونني ولا يرحمونني وأنا أبعد ما يكون توقُّعي لهم؛ ونادراً ما بنيتُ مشروعاً جميلاً ليومي إلاّ هدمه بعض القادمين.

وموجز القول إنني، وقد كنتُ على أوفى ما ابتغيتُ من خير، لم أُصب من متعة خالصة قط؛ فارتدّت بي فوراتُ الشعور إلى أيام شبابي الصافية، حتى ربما صحتُ وأنا أتنهد: «آه! ليست الشارميت ههنا بَعْد».

ثم إن ذكريات العمر، بمختلف عهوده، قد حدتني على أن أفكر في ما انتهيتُ إليه، فرأيتُني قد أَشفيتُ على منحدر السنين، إذ برّحتْ بي الآلام وخلتُني أدنو من غاية المطاف لم أكد أستمتع حقّ الاستمتاع بشيء من الطيّبات التي اشتهى قلبي، ولم أُتح للمشاعر المتقدة التي أحسستُها فيه أن تنطلق على مداها، ولا ذقتُ ولا لمستُ، في الأقل، تلك الغبطة المسكرة التي كانت في نفسي بالقوة والتي أَعوزها ما تصبو إليه، فظلتْ في كبت لا ينفجر إلا تنهداً وتأوهاً.

أما وأنا على ما أنا فيه من قلبٍ قد جُبل على البوح والانفتاح، والحياةُ عندي هي الحبّ، فكيف لم أَلقَ، إلى ذلك الحين، صديقاً يكون لي كلُّه، ولا لقيتُ صديقاً حقانياً وقد شعرتُ بأني طُبعتُ على الصداقة أيَّ طبع؟ وأما إذ أنا على ما أنا فيه من احتدام الحواس واضطرام الفؤاد هوًى وهياماً، فكيف لم تشبّ فيّ نارها، ولو مرة واحدة في العمر، لأجل غرض من هذه الأغراض؟ لقد ألحت عليّ شهوة الحبّ، ولكن لم يسعني قط أن أُشبعها حقّاً، فوجدتُني أتدلّف

إلى أبواب الشيخوخة وأموت من غير أن أكون قد حَييت.

ثم إن هذه الخواطر الشجية الحنون قد طوتني على نفسي بأسف لم يخلُ من عذوبة وطيب. فخيّل إليّ أن القدَر مدين لي بما لم يوفّني إياه. فأيّ نفع لي إذ جُعلتُ تام المدارك ثم تُركتُ مداركي حتى النهاية بلا استعمال؟ فوجدتُ أن شعوري بقيمتي الباطنة، إذ بيَّنَ لي مبلغَ ذاك الجور، قد عاضني منه بعضَ الشيء فأسال دموعي التي حلا لي أن أدعها تسيل.

ولقد ذهبتُ على تلك التأملات، والعامُ في أبهى فصوله من شهر حزيران، وأنا تحت الظلال البليلة الأشجار، والبلبلُ في شدوه، والجداولُ في خرير. فهبَّ ذلك أجمع يعيد إغراقي في التواني الفتّان الذي لأجله وُلدت عليه والذي كانت أجواؤه العاتية، الشديدة، خليقاً بها أن تنقذني منه إلى الأبد بعد ما ارتفعتْ بي إلى تلك الأجواء فورةُ شعور مديدة الأنفاس. ولكن في سوء الحظ أنني قد أنشأتُ أتذكر غداءَ قصر تون ولقائي تينك الفتاتين اللطيفتين، إذ الفصل مثل فصلنا هذا، والديار تكاد تشبه ما أنا فيه يومئذٍ من ديار. فعاد بي هذا التذكار، وقد زادته البراءة حلاوة، إلى ذكريات أخريات نظيرات له من هذا القبيل. فلم ألبث أن رأيتُ من حولي جميع من هيّجن مشاعري أيام الشباب: رأيتُ الآنسة جالية، والآنسة دو جرافانريد، والآنسة دوبرويل، والسيدة باسيل، ومدام دولارناج، وتلميذاتي المليحات، ورأيتُ جوليتة اللاذعة التي لا ينساها قلبي أبداً. وألفيتُني قد حفّ بي حريمُ حوريات من عرفتُهن قْبلاً وممن لم يكن ميلي إليهن شعوراً جديداً عندي. فتأجَّجَ دمي وفار، ومادت بي الأرض، على كون الشيب قد دبّ في رأسي. فها هو ذا مواطن جنيف الرصين، جان جاك المتقشف الذي قارب سنته الخامسة والأربعين، قد عاد بغتةً وهو الراعي الجامح. ثم إن النشوة التي استولت عليّ

twitter @baghdad_library

كانت، مع سرعة إتيانها وفرط جنونها، نشوةً طويلة الأجل، عنيفة السورة، حتى لم يبرئني منها إلا ما دهورتْني فيه من أزمة المحن المفاجئة، المرَّوعة.

ومهما كانت تلك النشوة قد أخذتْ فيّ، فإنها لم تبلغ مني حدّاً أنستني معه سنّي وحالي، ولا غرّني أنه ما يزال في طاقتي أن أُلهمَ الحبَّ فأحاول بث لهيبه المحرق العقيم الذي ما برحتُ، منذ الطفولة، أُحسُّ بناره تلتهم فؤادي، فلم أَرجُ الحبَّ يومئذٍ قط، ولا اشتهيتُه وقد أدركتُ أن أيامه انصرمتْ، وكنتُ بالسخرية التي يثيرها الشيوخ المتصابون أَعرَفَ من أن أقع فيها؛ وما كنتُ ممن حسنتْ هيئتهم وربطَ جأشُهم وأنا على المنحدر، بعد ما كان شبابي، هو نفسه، من الحُسن ورباطة الجأش على نزر ضئيل. ثم إنني كنتُ قد آثرتُ الدعة فخشيتُ عواصف البيت، وكنتُ أوفى حبّاً لتيريز من أن أُحزنها إذا رأتني أبثُّ غيرها مشاعر هي أشدّ اتقاداً من المشاعر التي كانت تيريز تلهمنيها.

فما الذي أَتيتُ في تلك المناسبة؟ إذا كان القارئ قد تبعني ههنا، ولو في القليل، خمن [حَزرَ] ما أَتيتُ. وذلك أنني لما تعذّر عليّ الوصول إلى الكائنات الواقعيين، مضيتُ أسبح في عالم الأوهام، لم أَرَ من موجود يليق بما أنا عليه من هذيان، فانقدتُ لهذياني أُنميه في عالم مثاليّ لم يلبث خيالي المبدع أن جعل فيه أشخاصاً كانوا، عندي، على ما يشتهي القلب. فلم يكن هذا المورد، يوماً، أشدَّ ملاءمةً لي ولا أوفر خصباً منه في تلك الأيام. فأصبحتُ، وأنا في ما أنا عليه من اختطاف روحيّ موصول، أنتشي من سيول أَلذّ المشاعر التي أَحسها قلبُ إنسان. فذهلتُ عن البشر كل الذهول. واتخذتُ لي منتديات من مخلوقات بلغت الكمال فعزوتُها إلى السماء فضلاً وجمالاً، كما أني اتخذتُ لي أصدقاءَ لا شك

فيهم، صادقين، وأولي عطف ووفاء، لم أَعرف لهم قط في الدنيا من أمثال. ولقد طاب لي التحليق هكذا في عليين، بين المفاتن التي أحطتُ بها نفسي؛ فغبتُ عن سواها، ما أكاد ألتقم بعض الطعام حتى أخفّ هرباً لألقى أشجاري والظلال. وكنتُ إذا أوشكتُ أن أطير إلى ذلك العالم المسحور فبصرتُ ببعض الأشقياء من أهل الأرض قد أتوا يستبقْوني عليها، لم أَقدر أن أُسكّن من غيظي وغمي ولا أن أخفيهما، وبتُّ لا أملك نفسي، فاستقبلتُهم بخشونة حتى أمكن القول إن استقبالي إياهم استقبالٌ فظٌّ قد زاد شهرتي ككاره للبشر، وكان الأَولى به أن يؤتيني شهرة هي على نقيض ذلك لو عرف الناس أن يستجلوا ما بقلبي خيراً ممن كانوا يفعلون.

فبينما أنا، مرة، على أقصى فورتي وهياجي، إذا ما يشبه السلكَ قد شدّني فجذبني وكأنه يجتذب الطائرة الورقية، فانحدرتْ بي الطبيعة تردّني إلى موضعي وقد اعترتني نوبة من دائي شديدة. فعمدتُ للعلاج الأوحد الذي كان يخفّف حدّتها، أعني الأميال، مما جعل بيني وبين هواي الملائكي فترةَ هدنة. وذاك أن خيالي يهبّ وأنا بالريف تحت الشجر، ويركد وأنا بالحجرة تحت خشبات السقف، فضلاً عن أن الإنسان، إذا وَجعَ، كاد لا يسقط في حبائل الحبّ. ولقد طالما أسفتُ على أن ليس في الدنيا من آلهات للغاب، لأنني كنتُ أَقمتُ بينهن، لا محالة.

ثم إن مزعجات منزليةً أخرى قد حلّت بي في الوقت عينه، فضاعفتْ أسفي. وذلك أن السيدة لوفاسور، إذ أطرتني أيَّ إطراء، قامت تثير عليّ ابنتها ما استطاعت. فانتهت إليّ من جيرتي السالفة رسائلُ تنبئني أن العجوز الطيّبة قد استدانت باسم تيريز وأنا لا علم لي بما فعلتْ، وتيريز قد علمتْ به إلا أنها كتمتنيه. فساءني هذا الكتمان أضعاف ما ساءني إيفائي الديون. آه من هذه التي لم أكتمها

twitter @baghdad_library

سرّاً قط كيف وسعها أن تكتمني أمراً ! أوَ يستطيع الإنسان أن يخفي على من يحبّهم أيَّ شيء كان؟ فلما رأت عصبة الدولباخيين الدساسين أنني غدوتُ لا أسافر إلى باريس، ابتدأتْ تخشى كل الخشية أن يحلو لي المقام بالريف فتبلغ بي الحماقة إلى حد البقاء هناك. وهذا هو منشأ المزعجات التي سعوا معها لأن يحملوني ـ بنحو غير مباشر ـ على أن أرجع إلى المدينة. ولم يشأ ديدرو أن يبكر إلى الظهور بنفسه في هذا الصدد، فأرسل إلي دولير أولاً، وكنتُ قد عرّفته به، فأخذ ينقل إليّ الانطباعات التي حمّله إياها ديدرو، ولم يقف هو ـ دولير ـ على حقيقة القصد.

ولاح لي أن كل أمر قد أخذ يشارك في إزعاجي عن يقظتي الحالمة، العذبة، الغبية. فتسلمتُ، قبلما شفيتُ من النوبة التي اعترتني، نسخة عن القصيدة في خراب لشبونة[11]، فقدّرتُ أن ناظمها بعث بها إليّ. فوجب عليّ أن أكتب إليه أذكر القصيدة. فكتبتُ إليه رسالة طُبعتْ، بعد ردح من الوقت، بغير أن أكون قد وافقتُ على طبعها، كما يأتي خبرُه في بعض ما يلي.

فتأثرتُ حين وجدتُ أن هذا الرجل المسكين، الذي أثقله الإقبال والمجد ـ بحسب التعبير المأثور ـ قد هبّ يهجو ما في هذه الدنيا من شقاء ولا يجد من خير في شيء أبداً. فأنشأت مشروعاً أحمق وهو أن أعيد الرجل إلى دخيلة نفسه، وأن أبرهن له أن كل شيء حسن. ثم إن فولتير، إذ بدا عليه وكأنه قد آمن بالله على الدوام، لم يؤمن، في الواقع، إلا بالشيطان، لأن ربه المزعوم ليس، في نظره، إلا كائناً شريراً لا يطيب له سوى الأذية والإضرار. فكان

(11) وقع في لشبونة، عام 1755، زلزال عنيف أقلق بعض الشعوب في أوروبا؛ أما القصيدة، فإنها من نظم فولتير ـ المترجم.

بطلان هذه العقيدة التي لا شك في فسادها، أمراً يثيرك أن تلقاه عند رجل قد باشرته ألوانُ النعيم، فسعى، وهو في أوج السعادة، أن يخيّب إخوانه في الإنسانية يصوّر لهم كل الرزايا التي أُعفي منها تصويراً قاسياً شنيعاً. ولقد كنتُ أَولى منه بأن أحصي آفات البشرية وأَزنَ أعباءها؛ فطفقتُ أمتحنها امتحاناً عدلاً، فبرهنتُ له أن تلك الآفات جمعاء ليس بينها آفة واحدة إلا والله بريء منها، لأنها قد نشأت عن غلّو الإنسان في مؤهلاته أكثر مما نشأت عن الطبيعة نفسها. ولقد أدّيتُ له، في تلك الرسالة، ما أمكنتْني تأديته من فنون الإكرام والمراعاة والاحترام. غير أني كنتُ أعلمُ بما هو عليه من شعور بالكرامة جمّ التأثر، مرهفٍ، فلم أبعث إليه بالرسالة، ولكن بعثتُ بها إلى الدكتور ترونشان، طبيبه وصديقه، أفوّضُ إليه أن يسلّمه إياها، أو أن يسكت عنها، تفويضاً مطلقاً وذلك على خير ما يستنسب في هذا القبيل. فأجابني فولتير ببضعة أسطر يقول إنه المريض والممرّض في آنٍ واحدٍ، وإنه لذلك سيرجئ الإجابة إلى وقت آخر، ولم يأت على ذكر الموضوع بحرف واحد. فلما بعث إليّ ترونشان بهذه الرسالة، طواها على رسالة أخرى أعرب لي فيها عن قلة احترامه لمن سلّمه إياها. فلم أنشر يوماً هاتين الرسالتين ولا أَريتُهما أحداً قط، إذ ليس في طبعي أن أعرض أمثال هذي الانتصارات التافهة، بيد أن أصلهما هو بين مجموعاتي، (الرزمة أ، الرقم 20 و21). ولقد نشر فولتير، بعدئذٍ، الجواب الذي وعدني به، ولكن لم يرسل به إليّ. وما جوابه سوى رواية «كانديد»[12]، ولا يسعني الكلام عليها لأني لم أقرأها.

فكان حريّاً بتلك الشواغل كلها أن تشفيني من غرامياتي الغريبة

---

(12) **كانديد** (*Candide*) أي الصافي النية، البريء القلب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الجامحة شفاءً تاماً. وربما كانت شواغلي وسيلة أتاحتها لي العناية الإلهية لأَستدرك ما نجم عن غرامياتي من نتائج وخيمة؛ بيد أن طالعي المنحوس كان هو الأقوى. فما أن عدتُ إلى الخروج حتى عاد قلبي وعقلي وقدماي تسلك الدروب نفسها التي تقدَّم لي أن سلكتُ. أقول الدروب نفسها، ولكن من بعض النواحي؛ وذلك أن أفكاري باتت أقلّ هياجاً بعض الشيء، فبقيت هذه المرة على الأرض، إلا أنها عمدت إلى كل ما عليها من لطيف فاختارته اختياراً لذيذاً ممتعاً، حتى إن هذا المختار لم يكن أقل وهْماً من العالم الخيالي الذي هجرتُ.

فتصورتُ الحبّ والصداقة ـ وهما المعبودَان عند قلبي ـ على أروع صورهما. فطاب لي أن أزينهما بكل ما في الشهوة الجنسية من فتون قد أُولعتُ به على الدوام. فكنتُ أَقربَ إلى أن أتمثّل صديقتين مني إلى أن أتمثّلَ صديقين، لأنه إذا كان تمثُّلُ الصديقتين أندر، فإنه، ولا شك، أَحَبُّ. ولقد جعلتُهما على تشابه طباع في اختلاف أشكال، وجعلتُ لهما هيئتين غير كاملتين بيد أنهما على ذوقي يذكيهما، عندي، المراعاةُ والإحساس. وجعلتُ إحداهما سمراء والأخرى شقراء، وإحداهما حادّة المزاج والأخرى هادئة المزاج، وإحداهما حكيمة والأخرى ضعيفة الأسباب، لكنّ ضعفها بالغُ التأثير حتى ليزيدها فضلاً. وجعلتُ لإحداهما عشيقاً كانت الأخرى خليلته الحنون، حتى إني جعلتُ ما هو فوق ذلك فلم أرضَ أن تتعاديا، ولا أن تتخاصما، ولا أن تتحاسدا، إذ الشعور المؤلم يوجعني تمثُّله، وإذ أَبيتُ أن أخلع على هذه الصورة الفرحة لوناً قاتماً يمسخ طبيعتها. ولقد همتُ بالمثالين الساحرين، فحاولتُ أن أتشبه بالعشيق الخليل ما استطعتُ، فجعلتُه شاباً لطيفاً وأَلصقتُ به ما وجدتُ عندي من مزايا وعيوب.

ثم أَردتُ أن أُنزلَ أشخاصي بمقام يوافقهم، فأَخذتُ أعرض أجمل الأمكنة التي رأيتُها في أسفاري، مكاناً بعد مكان، فلم أجد من غابة تكون على كفاية ندًى وظلال، ولا وجدتُ من منظر يهز المشاعر قدْرَ ما نشدتُ. ولو أنني أَبصرتُ أودية تسّالية، لربما كنتُ رضيتُ بها؛ إلا أن مخيلتي، وقد أتعبها الاختراع، طلبتْ مكاناً واقعياً يصلح مرتكزاً لها فأَتوهّم حقيقةَ من رغبتُ في إسكانهم هناك. فبقيتُ زمناً طويلاً أفكر في جزر بوروميه التي كان قد هاجني منظرها الرائع. ولكن ألفيتُها على مبلغ من الزينة والفن أوفَر من أن يصلح لأشخاصي. وكنتُ، مع هذا، في حاجة إلى بحيرة، فانتهيتُ إلى اختياري البحيرةَ التي لم يكفّ القلب يوماً عن الطواف حولها. وثبتَ اختياري على ناحية من ضفافها كنتُ، منذ وقت بعيد، أتمنى لو أقيمُ بها وسط السعادة الخيالية التي قصرتْني عليها الأقدار. وذلك أن ماماي المسكينة كان مسقط رأسها لا ينفكّ يجتذبني إليه فآثرتُه على سواه. ثم إنّ تناقض مواقعه، وغنى مواضعه وتنوعها، ومحاسن دياره كلها، وجلاله الذي يفتن الحسَّ ويبلغ من القلب ويسمو بالروح قد وطّدتْ قراري. فاتخذتُ فيفاي مقاماً للفتاتين وللصديق العاشق. ذلك هو ما تصوّرتُه أول وهلة، أما سائره، فلم أُلحقه بما سبق إلا في ما بعد.

وظللتُ، ردحاً من الوقت، أقتصر على مخطط مبهم جداً قد كفى لأن يفعم خيالي بالمباهج ويبعث في صدري المشاعر التي يهواها القلب غذاءً له. ثم إن هذه الأوهام، لفرط ما قد عاودتْني، ازدادت ثباتاً فاستقرّت في روعي على شكل معيّن. فحملني الخيال أن أُودع الورق بعض الحالات التي أتاحتها لي صوره، وذكّرني الخيال بجميع ما كنتُ قد شعرتُ به في أيام الشباب؛ كما أنه حملني أن أُطلق رغبتي في الحبّ على مداها إذ فاتني إشباعُها وإذ كانت لا تزال تعتلج مني في الصميم.

twitter @baghdad_library

فأنشأتُ، في أول الأمر، بعض الرسائل المتفرقة التي لا تابع لها ولا رابط بينها، حتى إذا أردتُ أن أصل كل واحدة منها بسواها، ارتبكتُ في الأغلب أيّ ارتباك. أما ما يصعب عليك تصوّره فيها، وإن يكن جدَّ صحيح، فهو أن الجزئين الأولين كتبتُ جُلَّهما بحسب هذه الطريقة، فلم أتمثّل لها تصميماً واضحاً ولا تكهنتُ أقول إنني سأغرى يوماً بوضع كتاب وفق أصول التأليف. وهكذا ترى الجزئين، وقد ألّفتُهما بمواد لم تُصنع للموضع الذي أُنزلتْ به، قد شحنا بحشوٍ لفظيّ لا تراه في سائر الأجزاء.

وبينما كنتُ في أوج أحلامي العذبة، جاءت مدام دو دوتو تزورني أول مرة. بيد أن هذه الزيارة لم تكن ـ ويا للأسف! ـ زيارتها الأخيرة، كما يتضح لك في ما بعد. وكانت الكونتسة مدام دو دوتو بنت المرحوم السيد دو بلجارد صاحب الضرائب العام، وشقيقة السيد ديبيناي والسيدين دو لاليف، ودولابريش اللذين كان كلاهما يقوم برئاسة التشريفات لدى السفراء؛ وقد تقدّم لي القول إنني تعرفتُ إليها وهي فتاة. فلما تزوجتْ، أصبحتُ لا ألقاها إلا في حفلات الشوفريت عند مدام ديبيناي زوجة شقيقها. فقضيتُ وإياها عدة أيام، سواء في الشوفريت أو في إيبيناي، فألفيتُها لا تزال على غاية اللطف، ولاح لي أنها مالت إليّ فحلا لها أن تتنزه معي، وكلانا يحبّ المشي، فلم ينضب حديثنا. بيد أني لم أذهب لكي أزورها في باريس، وإن تكن قد طلبتْ إليّ أن أزورها فألحّت مراراً. وكانت علاقاتها بالسيد دوسان لامبير، الذي ابتدأتُ أتصل به في ذلك الحين، قد زادتني اهتماماً بها. فأقبلتْ تزورني في الإرميتاج تحمل إليّ أخبار هذا الصديق الذي كان يومئذٍ في ماهون على ما أحسب.

كانت زيارتها لي أشبه بمستهلّ رواية. وضلّت عن طريقها إليّ،

لأن حوذيها خرج الدرب الملتوي يريد أن يجتاز من طاحون كليرفو إلى الإرميتاج رأساً. فوحلتْ عربتُها في أسفل الوادّي، فأرادت أن تترجل فتمشي المسافة الباقية. فما عتَّمَ أن ثُقب حذاؤها الصغير فغاصت في الوحل، فجهد خدمها أيّ جهد حتى يخرجوها. ثم وصلتْ، آخر الأمر، إلى الإرميتاج تنتعل جزمة، وقهقهاتها تشقّ العنان، فلما رأيتُها قادمة، أخذتُ أقهقه. وكان لا بد أن تبدل ألبستَها جميعاً، فمدّتها تيريز بما يلزم، وسألتُها أن تتغاضى عن الكرامة فتتناول وجبةً ريفيةً خفيفةً طابت لها جداً. وكنا في ساعة من يومنا متأخرة، وحديثنا قد جرى على تمام البهجة، فاستحْلتْ لقاءنا وبدا أنها ترغب في الرجوع. ولكن لم ترجع إلا في السنة التالية، بيد أن هذا التأخر لم يوقني شيئاً وأسفاه.

ولقد أمضيتُ الخريف وأنا في شغل لا يخطر لك أمره، ذاك أني كنتُ أحرس ثمار السيد ديبيناي. وكان الإرميتاج مستودع المياه لحديقة الشوفريت. وكان ثمة بستان مسيَّج تزيّنه المعرَّشات وغيرها من الأشجار التي آتت السيد ديبيناي من الثمار ما زاد على ما في بستانه بالشوفريت، وإن كانت ثلاثة أرباعه قد ذهبتْ سرقةً. فأَبَيتُ أن أكون ضيفاً لا نفع منه البتة، فتوليتُ الإشراف على البستان ومراقبة البستاني، فسارت الأمور سيراً حسناً إلى أن وافى القطاف. فكنتُ كلما أَينعت الثمار، وجدتُها قد اختفتْ لم أدر ما حلّ بها. فأكّد لي البستاني أن اليرابيع هي التي تقضم كل شيء. فشهرتُ الحرب على اليرابيع، فأَبدتُ كثيراً منها، والثمار مع ذلك تختفي كما سبق ذكرُه. فما زلتُ أترصد حتى رأيتُ، في النهاية، أن البستاني إنما هو اليربوع الأكبر. وكان يقيم بمونمورانسي، فيأتي منها ليلاً تصحبه زوجته وأولاده فيحملون ما قد وضع في نهاره من ثمار كان يبعث بها إلى أسواق باريس، فيبيعها هناك جهاراً كأنما

twitter @baghdad_library

هو نفسه مالك البستان. ثم إن هذا التعس، الذي غمرتُه بإحساني وكسَت تيريز أولاده وقمتُ بمعظم أود أبيه الشحاذ، قد جعل يسلبنا بيسرٍ ووقاحةٍ على السواء، ولم يكن فينا، نحن الثلاثة، أحد يقظاً بما فيه الكفاية فيحسم ذلك؛ فاستطاع الرجل، في ليلة واحدة، أن يخلي مستودعي كله حتى إني لم أجد به، في غدها، شيئاً. وكنتُ قد احتملتُ من البستاني كل ما فعل، ما دام لم يصوّبه إلى غيري؛ ولكن لما أردتُ أن أؤدّي حساب الثمار، اضطررتُ إلى الوشاية باللص. فسألتْني مدام ديبيناي أن أدفع إليه مرتبه وأطرده وأستبدل به بستانياً آخر، ففعلتُ. فقام ذاك الوغد الكبير يطوّف، كل ليلة، حول الإرميتاج وقد تسلّح بعصا حديد طويلة هي أشبه بالنبّوت، وكان يتبعه بعض أمثاله من الأنذال؛ فأردتُ أن أُشيع الاطمئنان في الإمرأتين المدبّرتين للدار وقد أرعبهما الرجل، فطلبتُ من خليفته على البستان أن يبيت في الإرميتاج، فما برحتا على غير اطمئنان؛ فأرسلتُ إلى مدام ديبيناي أسألها بندقية وضعتُها في حجرة البستاني، على ألا يستعملها إلا إذا اقتضت الحاجة وعلى ألا يحشوها بسوى البارود فيخيف اللصوص لا غير. فكان ذلك هو، على التأكيد، أقلّ احترازٍ يعمد له امرؤ قد أُقلقَتْ راحته فتوخى أن يحفظ السلامة المشتركة إذ كان يسلخ الشتاء بين الأحراج وهو وحده مع امرأتين خائفتين. ثم إني أَتيتُ بكلب صغير فاتخذتُه للحراسة. وكان دولير قد جاء يزورني في تلك الأيام، فأخبرتُه بما جرى لي، فأخذنا نضحك من عدّتي العسكرية.

فلما رجع دولير إلى باريس، أراد تسلية ديدرو بهذا الخبر، فعلمتْ عصبة الدولباخيين الدساسين أني جد راغب في تمضية الشتاء بالإرميتاج. فحيّرهم ثباتي وقد أعياهم أن يتصوّروه، فأرسلوا إليّ، على يد ديدرو، دولير نفسه، وذلك ريثما يكونون قد ابتكروا بعض

المزعجات التي تنغّص عليّ العيش هناك(*) وكان دولير قد رأى، في أول الأمر، أن ما اتخذتُ من أسباب الاحتراز هو شأنٌ يسيرٌ، ثم عاد يرى أن هذه الأسباب تُخالف مبادئ وتُجاوز أغرب المضحكات، إذ كتب إليّ رسائل سخر فيها مني سخرية مُرّة وهزئ بي هزءاً قارصاً كان يكفي لأن يسوءني لو أن مزاجي، يومئذٍ، مال إلى الاستياء. ولكن كنتُ قد أفعمتْني المشاعر الريفية الحنون فأشبعتْني فلم يؤثّر فيّ غيرها قط، فلم أجد في تهكماته اللاذعة إلا ما أَضحكني، ولا وجدتُ دولير إلا مزّاحاً لعاباً، في حين كان سواي اعتبره غريب الطباع.

ولقد تمكنتُ، لفرط يقظتي وعنايتي، أن أحرس البستان أوفى الحراسة، حتى إن جني الثمار، تلك السنة، قد بلغ ثلاثة أضعاف ما كان قد بلغه في السنين الماضية، مع أن الجني، عامئذٍ، كاد لا يؤتي أُكله. ولا يخفى أني لم أدخر لصيانته جهداً، فذهبتُ إلى أن واكبتُ الثمار التي كنتُ أُرسلُ بها إلى الشوفريت وإلى إيبيناي حراسة لها، وذهبتُ إلى أن حملتُ بنفسي بعض السلال، وأذكر أننا، أنا والخالة، حملنا، ذات يوم، سلة ثقيلة جداً حتى كدنا نرزح، فكنا كلما خطونا بضع خطوات، اضطررنا إلى التوقف لكي نستريح، فلم نصل إلا ونحن نسبح في العرق.

فلما أخذ فصل الشتاء يأسرني في البيت، أردتُ العودة إلى شواغلي التي كنتُ أقوم بها حين أَلزمه، فتعذَّر عليّ شأنُها. ولقد

(*) وإني لمعجب بغباوتي إذ لم أرَ، وأنا أكتب هذا الذي أكتب، أن اغتياظ الدولباخيين، لما وجدوني قد قصدتُ الريف لأقيم فيه، إنما يرجع سببه إلى لوفاسور الأُم على الأخص، لأنها لم تبقَ في تناول يدهم فترة شدهم في أساليب مكرهم تعينُ لهم بعض الأمكنة والأوقات. ثم إن هذا الخاطر، الذي لم يسنح لي إلا متأخراً جد التأخر، قد وضّح غرابةَ سلوكهم توضيحاً كاملاً، فسلوكُهم لا يمكن تفسيره إلا على هدي ما قدَّرتُ من هذا النحو.

twitter @baghdad_library

كنتُ كيف ما نظرتُ لا أبصر إلا الصديقتين الساحرتين وخليلهما والبلد الذي تقيمان فيه، وإلا أشياء قد ابتدعها خيالي أو حسّنها لأجلهما. فلم أبقَ مُلكَ نفسي طرفة عين، وعاد الهذيان لا يفارقني البتة. فسعيتُ جهدي لأن أطرد عني تلك الأخيلة، ولكن على غير طائل، ففتنتْني فغدوتُ لا شاغل لي إلا أن أحاول تنسيقها بعض الشيء، أَصلُ ما بينها بعض الوصل لكي أؤلّف منها روايةً ما.

وكان أَشدّ ارتباكي هو أن أُكذّب نفسي بنفسي هذا التكذيب البيّن، المكشوف. فإنه، بعد المبادئ القاسية التي وضعتُها فأَثرتُ ضجة مدويّة، وبعد المذاهب المتقشفة التي بشَّرتُ بها وحرَّضتُ عليها، وبعد جمّ الأقوال القارصة التي انتقدتُ بها كتباً مخنَّثة قد فاح منها الهيام والتثنّي والارتخاء، بعد ذلك أجمع، أيسعك التصوّر لما هو أَكثرُ مفاجأةً وأعظمُ إدهاشاً من أن تراني، بغتةً، وأنا بيدي قد كتبتُ على نفسي أن أكون من مؤلّفي تلك الكتب التي انتقدتُها انتقاداً قاسياً؟ فأدركتُ هذا التناقض على أقصى مداه، فلمتُ نفسي عليه، وخجلتُ، واغتظتُ، بيد أن ذلك بأسره لم يكف لأن يرتد بي إلى الرشد والهدى. فلقد دوّخني ما كنتُ فيه، فأصبحتُ لا ندحة لي عن الإذعان له كيفما دار الأمر، وأمسيتُ لا بد لي من التصميم على أن أتحدّى القال والقيل؛ ثم بعدئذٍ أنظر هل أَعرض كتابي على أحد أم لا، إذ لم أكن قد قدّرتُ بعد أني سأهل إلى نشره يوماً.

فلما قرّرتُ ما قرّرتُ، أَمعنتُ في أحلام يقظتي لم أدخر شيئاً، فما زلتُ أجيلها في روعي وأعيدها حتى كونتُ، في آخر الحال، المخطط الذي رأيتَ وقد نفّذتُه. فكان ذلك هو أفضل ما أمكن استخلاصه من ضروب جنوني، لأن حبّي للخير، وهو الذي لم يفارقني يوماً، قد وجّه حماقتي إلى موضوعات نافعة كان بوسع الأخلاق أن تستفيد بها. ولو أن المَشاهد التي كتبتُها، خلَتْ من

مسحة البراءة العذبة، لفقدتْ جميع ما هي عليه من رشاقة. إن فتاة ضعيفةً تكون موضوعاً للتّحنّن، موضوعاً يمكن الحبّ أن يجعله هاماً صالحاً، وهو ليس غالباً بمحبوب أقل ؛ ولكن من يطيق أن ينظر من دون استنكار إلى المشهد الأخلاقي السائد كالموضة بين الناس ؟ أَوَمن شيء أكثر مدعاة للسخط من كبرياء امرأة خائنة داست علانية كل واجباتها فزعمتْ أن زوجها معترف لها بما أَنعمتْ عليه به إذ شاءت ألا يفاجئها أحد وهي تخون؟ ثم إن البشر الكاملين لا يوجدون في الطبيعة، وليست عبرهم على مقربة منا بما فيه الكفاية. ولكن أن تكون فتاة قد جُبلتْ على الحنو والكرم فاستسلمتْ للحبّ وهي بكرٌ فغلبها، ثم استردّت قواها إذ هي ثيّب، فغلبت الحبّ فعادت فاضلة ولكن أن تكون فتاة على ما سلف ذكرُه، ويقول لك قائل إن هذا المشهد مَفضحة كله وإنه لا فائدة منه، فإنما القائل مراءٍ كذّاب، فلا تصغ إليه.

واتَخذتُ، فضلاً عن هذا الموضوع الأخلاقي الذي يدور شأنه على الأمانة الزوجية ويتصل جذره بالنظام الاجتماعي كله، موضوعاً آخر أغمض سرّاً قوامه الوفاق والسلام العام؛ وهو موضوع أوسعُ بحراً، ولعله أهمُّ في حد ذاته، في ذلك الوقت على الأقل. وكانت العاصفة، التي أثارتها **الأنسيكلوبيديا**، قد تفاقمتْ سورتُها فبلغت المبالغ. فانفجر كل من الحزبين على الآخر إذ تفجّرت الغضبة الأخيرة، فكانا بالذئاب المسعورة وقد هبّت يمزّق بعضها بعضاً أشبه منهما بقوم من المسيحيين والفلاسفة الذين يريدون أن ينير بعضهم بعضاً، وأن يقنع بعضهم بعضاً، وأن يرجع بعضهم ببعض إلى سبيل الحقيقة. وربما كان كلا الحزبين لم يعوزه إلا قادة يوقظون الفتنة فيصغي الناس إليهم فتتحول العاصفة إلى حرب أهلية. ويعلم الله ما الذي كان ينجم عن حرب أهلية قد ذكّاها التعصب الأشدّ فبات هو

twitter @baghdad_library

إياه في المعسكرين على السواء. ثم إني، طبعاً، خصمٌ لكل تعصب، فصارحتُ رجال الفئتين بحقائق مؤلمة قاسية لم يصغوا إليها. فعمدتُ لوسيلة أخرى حسبتُها، وأنا على سذاجتي، وسيلة رائعة؛ وتلك هي أن أسكّن من تباغض رجال الفئتين أُبطلُ أحكامهم المسبّقة، وأن أدل كلاً من الحزبين إلى ما عند الآخر من فضل واستحقاق جديرين بالتقدير العام وباحترام جميع الكائنات الفانية. فكان أن مشروعي هذا، القليلة فطنته، قد أصاب ما تُوقّعَ له من توفيق، وهو المشروع الذي قدّرتُ فيه أن البشر هم على نيّة صالحة فوقعتُ في الآفة التي لمتُ عليها الأباتي دوسان بيار، فلم يقرّب مشروعي ما بين الحزبين ولا جمع بينهما إلا كيما يبهظني. وأجرؤ على القول إنني ـ ريثما أطلعني الاختبار على غباوتي ـ وقد انقدتُ لها بحميّةٍ حَريّة بالموجب الذي أوحى بها إليّ. ووصفتُ طباع فولمار وجولي[13] وصفاً جذلاً أَمّلْتُ معه أن أجعلهما على تحابّ، وكنتُ قد وصفتُهما فجعلتُ حبّ جولي لفولمار أشدّ من حبّه لها.

ولقد سرّني أني وضعتُ تصميم الرواية في خطوطه الكبرى، فعدتُ إلى المواقف، التي كنتُ قد خطّطتُها، أفصّلها، فحصل من تنسيقي إياها الجزآن الأولان من رواية «**جولي**»، فألّفتُهما وبيّضتُهما، شتاءَنا ذلك، وأنا في بهجة قد أعياني الإفصاح عنها. واستعملتُ أجمل الورق المذهّب. ومسحوق اللازورد والفضة لأجل تنشيف الخط، كما أني استعملتُ شرائط زرقاء لكي أخيط دفاتري، ولم أجد، مع ذلك، شيئاً هو من الرشاقة واللطف على ما تستأهل تانك الفتاتان الساحرتان اللتان شُغفتُ بهما وكأنني بجماليون آخر. وكنتُ في كل مساء، وأنا حذو الموقد، أقرأ على مدبّرتي المنزل الجزئيْن

(13) بطلا رواية **إيلوييز الجديدة** ـ المترجم.

من الرواية وأُعيد. فكانت البنت تشهق معي من رقة وحنان ولا تنبس بحرف؛ أما الأم، فإنها لم تقع في ذلك ما يستحق الإطراء ولا فهمتْ من القراءة شيئاً، لزمت الهدوء، فاكتفتْ بأن تردّد لي في أحيان الصمت تقول: «سيدي، إن هذا لجميل».

وكثيراً ما بعثت مدام ديبيناي تسأل عن خبري وقد أَقلقها أنني كنتُ وحدي في الشتاء، وسط الأحراج، في بيت منعزل. فلم أعرف من دلائل على صداقتها لي أَصدق، ولا كانت صداقتي لها قط أَحرَّ جواباً منها في تلك الأيام. فإن لم أذكر، من تلك الدلائل، أن مدام ديبيناي أرسلتْ إليّ بورتريبها [رسمها] يوماً وسألتْني بورتريِّيَّ الذي رسمه لي لاتور، وكان قد عُرض في البهو، ـ إن لم أذكر ذلك، أخطأتُ. ثم لا ينبغي أن أغفل عن لفتة أخرى من لفتاتها قد تبدو مضحكة إلا أنها تتصل بتاريخ طبعي لما لها من تأثير فيّ أنا. وذلك أنني، وأنا في يوم صقيع شديد، كنتُ أفضّ رزمة بعثتْ بها إليّ مدام ديبيناي، فوجدتُ فيها، بين عدة حاجات كانت قد قضتها لي، قطعة نسيج داخليّ هي من صوف إنجلترا، وأشارت إليّ أنها استحضرتْ هذا النسيج لكي أصطنع به سترة لي. وكان نفَسُ رقعتها طيّباً لطيفاً، وكان كله غزَلاً وصفاءَ قلب. فبلغتْ مني لفتتها التي فاقت الصداقة وجاوزتْها، حتى إني أحسستُ كأن تلك المرأة قد خلعتْ عنها لتكسوني، فأخذتُ أقبّل الرقعة وقطعة النسيج تقبيلاً كثيراً وطفقتُ أبكي وأنا على فورة الشعور. فظنت تيريز أني جُننتُ. والغريب أن جميع آيات الصداقة، التي أولتني إياها مدام ديبيناي، ليس بينها آية واحدة بلغتْ مني كما قد بلغتْ تلك اللفتة التي ما خطرتْ لي مرة، حتى بعد ما تَهاجرنا، إلا تولاني الحنان. ولقد حفظتُ رقعتها زمناً طويلاً، ولو لم يصبها ما أصاب سائر مكاتيب ذلك العهد، لكنتُ حفظتُها إلى اليوم.

twitter @baghdad_library

ولئن كان احتباس البول وقتئذٍ قلما هادنني في الشتاء فأُكرهتُ في بعض أيامه على العلاج بالأميال، فإن ذلك الفصل كان، في مجمله، أهنأ فصل وأهدأ فصل قضيتُه مذ أقمتُ بفرنسا. فكنتُ، في أثناء الأشهر الأربعة أو الخمسة التي وقتني الأمطارُ فيها مزيداً من طوارئ القادمين، لا أني أتمتع بذلك العيش المطّرد، البسيط، تمتعاً يفوق ما سلف منه وما لحق، ولم يكن تمتعي به إلاّ ليضاعف قيمته عندي، إذ أنا لا رفقة لي، في الواقع، سوى مدبّرتي بيتي، ولا رفقة لي، في الخيال، سوى الفتاتين. فأخذتُ، في ذلك الوقت على الأخص، أزداد كل يوم تهنئةً لنفسي بما قد اخترتُ عن سلامة رأي، لستُ أبالي صخَب أصدقائي وقد ساءهم أني تحررتُ من استبدادهم. حتى إذا بلغني اعتداءُ هائجٍ حانق[14]، ونبّأتْني رسائل دولير ومدام ديبيناي ما قد ساد باريس من قلق واضطراب، حمدتُ الله جد الحمد على أنه قد نأى بي عن تلك المشاهد أهوالاً وجرائم ما كانت إلاّ لتثير مزاجي الصفراوي الغضوب وإلاّ لتذكّيه وهو الذي أورثنيه منظر الاضطرابات العامة؛ ذلك على حين لم يَنقَد قلبي، يومئذٍ، إلا لما يحبّ من المشاعر فأصبحتُ لا أرى ما حول خلوتي إلا أشياء بهجةً عذبة. ويروقني أن أدوّن، ههنا، آخر الأيام الوادعة التي أُبقيتْ لي. فإن الربيع، الذي تلا ذلك الشتاء الفائق الهدوء، قد نبتتْ خلاله بذور المحن التي ينبغي لي وصفها والتي لن يسعك أن ترى، في حبكها، من فترة للراحة والاطمئنان تشبه ما تقدَّمَ خبرُه.

ولكن، مع ذلك، أحسبني أتذكّر أنه في تلك الفترة من الهدوء، وأنا في أقصى توحدي، لم يدَعني الدولباخيون على تمام الراحة.

---

(14) يشير روسو إلى أن أحد خدم لويس الخامس عشر طعن الملك وهو يهم بركوب العربة ـ المترجم.

فقد حرّك ديدرو بعض ما يزعجني، وأُرجّح أن «**الابن غير الشرعي**»[15] قد صدرتْ في ذلك الشتاء، وسأتكلّم عليها بعد قليل. ولم يبقَ عندي من ذلك العهد سوى آثار قليلة يوثق بها، فضلاً عن أن هناك أسباباً أخرى ستُعلَم في ما بعد. حتى الآثار، التي أُبقيتْ لي، أعوزتْها دقة التواريخ. فإن ديدرو لم يكن يؤرخ رسائله قط. وكانت مدام ديبيناي ومدام دو دوتو لا تكادان تؤرخان رسائلهما إلاّ بأن تذكرا يوم الأسبوع، وكان دولير في ذلك مثْلهما أغلب الأوقات. فلما أردتُ أن أرتّب تلك الرسائل بحسب تاريخ كل منها، كان لا بد لي، وأنا أتلمس دربي، أن أضع تواريخ لا يوثق بها ولا يمكنني الاستناد إليها. أما وقد تعذّر عليّ أن أعين بداية تلك الخصومة تعيينا متيقناً، فإني أفضّل أن أسوق كل ما أستطيع أن أتذكره في باب واحد هو الذي سيأتي.

كانت عودة الربيع قد ضاعفتْ هذياني الحنون فهزّتني فوراتي الشبقية. فألّفتُ، لآخر أجزاء روايتي **جولي**، عدة رسائل تُشعر بما كنتُ عليه من هيام حين كتبتُها. وإني أُورد، في ما أُوردُ منها، رسالة الأليزيه ورسالة النزهة على البحيرة، وهما، على ما أعي، في ختام الجزء الرابع. فمن قرأهما ولم يحسّ أن قلبه قد سال وذاب في تأجج الحنان الذي أملاهما عليّ، فليغلق الكتاب لأنه لم يُخلَق للحُكم بأسباب القلب والشعور.

وزارتني، في تلك الأيام، مدام دو دوتو، ولم أكن أتوقّع زيارتها. وكانت قد جاءت إلى أوبونّ، في وسط وادي مونمورانسي، فاستأجرتْ هناك بيتاً جميلاً، إذ كان زوجها، وهو ضابطُ درك،

(15) «**الابن غير الشرعي**» (*Le fils naturel*) مسرحية هزلية ألّفها ديدرو وصدرت عام 1757 وقد تقدّم ذكرها ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

غائباً، وإذ غاب عشيقها يخدم في الجندية أيضاً. فأقبلتْ إليّ من بيتها هذا تقوم برحلة جديدة وقد ركبتْ فرساً وعليها لباس الرجال. ولئن كنتُ ضعيف الميل إلى مثل تنكّرها، فلقد علقتُ بهيئتها الخيالية؛ فكان ذلك هو الحبّ، هذه المرة. وكان ذلك هو، على العمر كله، حبّي الأول وحبّي الأوحد الذي أذكره أبد الدهر ويهولني ما قد نجم عنه، فليؤذَن لي أن أدخل منه في بعض التفصيل.

كانت الكونتسة مدام دو دوتو قد ناهزت الثلاثين؛ ولم تكن حسناء؛ وكانت على وجهها آثار الجدري؛ وبشَرَتُها قد أعوزتْها النعومة؛ وكان بصرها كليلاً؛ وكانت عيناها على بعض التدوير. ولكن، مع ذلك كله، لم تبرح هيئتها في شباب، فلطفتْ سحنتُها، إلى وداعة ونشاط. أما شعرها، فغابةٌ فاحمة، متجعد بطبيعته، قد انسدلْ حتى الركبتين؛ وأما قدّها، فعلى نحافة، حتى إذا حَرُكتْ، رَشُقتْ وثَقُلتْ في آنٍ واحدٍ. وكان روحها روحاً طبيعياً وبهيجاً، قد ائتلف فيه المرح والخفة والسذاجة ائتلافاً موفقاً، فكانت هي جمّة اللطائف يأتينها عفو البديهة ويفرطن منها على رغمها في بعض الأحيان. ولقد تعددتْ مواهبها المستحبّة، فكانت تعزف بالكلافسان، وتُحسن الرقص، وتنظم أبياتاً هي على قدْر من الجودة. فأما طبعها، فطبعُ ملاك، وجوهره الدماثة، وقد اشتمل على الفضائل كلها خلا الاحتراس والقوة. فوثقتْ بنفسها إذ عاملت الناس، ووفت لهم إذ عاشرتْهم، حتى إن أعداءها أنفسهم لم يحتاجوا إلى التستر منها. وأعني بأعدائها أولئك الذين أبغضوها، أو، على الأصح، أولئك اللائي أَبغضنها، لأن قلبها لم يقوَ على أن يبغض أحداً؛ وأحسب أن هذا التشابه ما بيني وبينها قد شارك في هيامي بها مشاركة بعيدة. وكنتُ إذا سارّتني، ونحن على غاية الصداقة الحميمة، لم أسمعها قط تطعن اغتياباً ولو على زوجة شقيقها. ثم إنها لم يمكنها أن تصانع

أحداً، ولا حتى أمكنها أن تقسر أيَّ شعور لها كان؛ وأني لفي يقين أنها كانت تذكر عشيقها حتى لزوجها مثلما كانت تذكره لأصدقائها ومعارفها ولسائر القوم على السواء. وآية القول إن ما يقيم على طهارة قلبها وصدقه دليلاً قاطعاً فهو أنها قد عرَّضتْ نفسها لأعظم ضروب اللهو وأَظهر ألوان الطيش ففرطتْ منها، في هذا النحو، جمَّةُ أمور تتناول شخصها تناولاً قد نأى عن الاحتراس، ولكن لم يفرط منها قط ما يسيء إلى أيّ أحد كان.

ولقد كانت حديثة السن جداً يومَ زُفّت إلى الكونت دو دوتو، رجل مقام وجنديٍ كفْي، بيد أنه مقامر، إلى مماحكة وخشونة طباع، فلم تحبّه قط. فلقِيتْ عند السيد دوسان لامبير كفايات زوجها كلها، مع ذكاء وفضائل ومواهب. فإن يكن في أخلاق العصر الجارية ما يجب العفو عنه، فإنما هو، ولا جَرم، الحبّ الذي طهّره دوامُه وشرّفْته عواقبة ولم يؤيده إلا تبادل القدر والاحترام.

ولقد جاءت تزورني عن ذوق في نفسها، على ما ذهب في اعتقادي؛ وكانت قد أتت، في الأغلب، إرضاءً لسان لامبير إذ حضّها على القدوم. فأصاب حين وجد أن الصداقة، التي أخذتْ تنمو بيننا يومئذٍ، كانت حريّة أن تحبّب إلينا، نحن الثلاثة، أسبابَ هذا المجلس الأنيس. وكانت هي تعرف أني على علم بعلاقاتهما، فأمكنها أن تكلمني على سان لامبير ما تنزعج، فكان من الطبيعي أن تحلو لها صحبتي. جاءت، فأبصرتُها وأنا في نشوة من الحبّ ولا حبيب، فسحرت النشوة عينيّ، فاستقرّ حبّي على شخصها، فرأيتُ في مدام دو دوتو **جولي** روايتي، وما عتّمتُ إلا يسيراً حتى عدتُ لا أرى غير مدام دو دوتو، لكنني رأيتُها وقد اكتست بجميع ألوان الكمال الذي كنتُ قد زينت به معبودة القلب. فأجهزتْ عليّ وقد كلّمتْني على سان لامبير كلام العاشقة الولهى. فيا لعدوى الحبّ! لقد

twitter @baghdad_library

سمعتُها تتكلّم، وشعرتُ أني بالقرب منها، فتملكتْني ارتعاشة لذيذة لم أُحسّ بمثْلها مع أيّ امرأة أخرى كانت. ولقد تكلّمتْ وأنا في تأثر، فخلتُني لم أجاوز الاهتمام بمشاعرها إذ تحرَّكَ عندي نظيرُ تلك المشاعر؛ فطفقتُ أجرع كأس السم الذي لم أكن قد ذقتُ حلاوته بعد. ثم كان، في آخر الأمر، أنها قد ألهمتْني من الحبّ لها جميعَ ما كانت تفصح عنه لعشيقها، ذلك على غير علم مني ولا علم منها. ولكن واأسفاه! لقد فات الأوان إذ اضطرم فيّ حبّ شديد خائب معذَّب، فتعلّقتُ امرأةً قد أَفعم قلبَها حبُّ سواي.

ولم أنتبه، أول الأمر، لما جرى لي، مع ما كنتُ قد شعرتُ به من خفق هوًى واضطراب. حتى إذا برحتْني فأردتُ التفكير في **جولي**، فوجئتُ أني أصبحتُ لا أستطيع أن أفكر إلا في مدام دو دوتو. فتفتحتْ عيناي، فأدركتُ شقائي، فبكيتُ ولكن لم أتبيّن التبعات.

وظللتُ وقتاً طويلاً أتردد كيف أَسلكُ حيالها، كأن الهيام يبقي في الإنسان رشداً كافياً للبحث والتفكير. ولم أكن مصمماً إذ أقبلتْ وأخذتني على حين غرة. حينئذ علمت فتعلمتُ. أخرسني الخجل، وهو عشيرُ السوء، فأخذتُ أرتجف بين يديها لم أجرؤ على النطق بحرف ولا على رفع ناظريّ نحوها؛ فساورني قلق لا سبيل لي إلى الإعراب عنه ولا سبيل لها إلى أن تراه. فآثرتُ أن أبوح لها بذلك وأن أدَعها تخمن سببه، وكفى بهذا مصارحةً لها في قول واضح.

ولو كنتُ شاباً مستحبّاً، ولو كانت مدام دو دوتو وهنتْ بعدئذٍ، للمتُها الآن على سلوكها؛ ولكن لم تكن في شيء من ذلك جميعاً، فلا يسعني إلا الثناء عليها والإعجاب بها. فلقد اختارت سبيل العزة والسماحة والاحتراس، وما كان ليمكنها الابتعاد عني فجأةً إلا أن تذكر السبب لسان لامبير الذي كان قد حضّها على زيارتي. ولو

ابتعدتْ عني يومئذٍ، لعرّضتْ صديقين للقطيعة، ولربما عرّضتْهما للشقاق الذي ابتغت اجتنابه. ولقد قدرتْني وعطفتْ عليّ. فرَثتْ لهيامي ورقّت له تسعى لشفائي منه ليست ترضيه ولا تلبّيه. وحلا لها أن تصون لعشيقها ولنفسها هي صديقاً تحترمه، فلم تستطب شيئاً مثل الكلام على المجلس الحميم، الأنيس، الذي كنا نستطيع، نحن الثلاثة، أن نأتلف فيه إذا ثُبتُ إلى رشدي وهداي. بيد أنها لم تقتصر، في كل حال، على هذا الحثّ الودّي اللطيف، بل كانت إذا اقتضى الأمر، لوَمتْني تلويماً في ما قد استأهلتُ التلويم عليه.

وكنتُ أشدَّ منها تلويماً لنفسي أنا؛ فما أن عدتُ وحدي حتى عدتُ إلى نفسي أنا، فأصبحتُ أهدأَ بعد أن أفضيتُ بما في صدري، وذلك أن الحبّ إذا علمتْ به من ألهمتْه، بات احتمالُه أهون على صاحبه. ولو أن حبّي، هذا، كان يَقبَل الشفاءَ، لغدا لومي نفسي عليه خليقاً بأن يشفيني منه. فكم من دواعٍ عظيمة قد استنجدتُ بها لكي أطفئه! لقد استنجدتُ بالأخلاق والمشاعر ومبادئي والخجل والإجرام وإساءة الأمانة في وديعة صديق، واستنجدتُ بمنظري المضحك، إذ شبَّ فيّ، وأنا على تلك السن، أَغربُ هيام بالتي شُغل قلبُها عني بسواي فلم تقوَ أن تردّ عليّ من الحبّ شيئاً ولا أن تدَع لي فيه أيّ أمل كان. ثم إن هواي، هذا، كان كلما مرّت به الأيام، شقَّ عليّ احتماله، إذ ليس هو الحبّ قد نما بالثبات والاستمرار.

فمن يصدّق أن هذا السبب الأخير، الذي وجب أن يضاعف من مبهظات سائر الأسباب، قد كان هو الذي خفف عني من أعبائها؟ فقلتُ في نفسي: «لمَ الترتيب من حماقة لا تضرّ أحداً غيري؟ أأنا فارسٌ شابٌ يخاف منه على مدام دو دوتو حقَّ الخوف؟ وإذا لمتُ نفسي، عن سبق تصوّر وتخمين، أفلا يقال لي إن غزلي ومنظري وهيئتي ستغوي تلك المرأة؟ آه! جان جاك المسكين، ألا

twitter @baghdad_library

فاعشقْ كما تهوى، ولا تخفْ على سان لامبير أن تؤذيه إذا تنهدتَ».

ولقد رأى القارئ أني لم أكن محظوظاً قط حتى في أيام الشباب. لكن هذه الطريقة في التفكير كانت على مجرى ذهني فسحرتْني وأذكت هواي، فكفى بها حتى أنقاد لها انقياداً مطلقاً وأَضحك من تريّبي الوقح الذي داخلني إذ أنا إلى باطل الزهو أَقربُ مني إلى الرشد والتعقل. وهذه عبرة لكرام النفوس عظيمة، وهم الذين إذا مستهم الرذيلة لم تنكشف لهم، بل عمدتْ إلى حيلة تفاجئهم بها وقد تقنعتْ ببعض السفسطات على الدوام وتقنعتْ ببعض الفضائل أغلبَ الأحايين.

وكنتُ قد أَذنبتُ على غير ندم، فلم ألبث أن أذنبتُ إلى غير حد. ألا سألتُك أن ترى كيف سار هواي على خطى طبيعتي فاجتذبَني إلى الهاوية في آخر الحال. وكان هواي، في أول أمره، قد تردّى بمظهر الضعة كيما يشيع فيّ الثقة والاطمئنان، فتمادى في الضعة حتى بات يَحذر الخداع. وكانت مدام دو دوتو لا تنفكّ تدعوني إلى الواجب والتعقل فلا تمتدح جنوني بها ولو آوان واحد؛ وكانت تعاملني في غاية الوداعة والرفق، وتسلك بي أحنى مسالك الصداقة والود. وإني لعلى يقين أنني لو آمنتُ بصدق صداقتها، لاكتفيتُ بها؛ ولكن لما أَلفيتُ صداقتها أشدّ من أن تَصْدق، ألم أنطلق أُدخلُ في روعي أن الحبّ قد أذلّني عند مدام دو دوتو فشقّ عليّ أن أتصوّره عندي وأنا في ما أنا عليه من السن والهيئة؟ أولم أُدخل في روعي أن تلك الشابة الطائشة [المجنونة] لم تتوخَ إلا التسلية بغزلي العتيق الذي مضى زمانه، وأنها قد سارّت سان لامبير في هذا الشأن، وأن عشيقها قد ساءته خيانتي فطابقَ على رأيها، فتواطا على أن يكملا إثارة قلبي وإعجابي والسخرية مني؟ ثم هذه

الغباوة، التي بدت عليّ وأنا في سنتي السادسة والعشرين فسلكتُ يومئذٍ حيال مدام دولارناج سلوكاً غريباً أحمقَ ولم أكد أعرفها، هذه الغباوة كان يمكن أن أسامَح بها في الخامسة والأربعين وأنا مع مدام دو دوتو، ذلك لو لم أعلم، أنهما، هي وعشيقها، كانا أَنزه من أن يتخذا مثل هذه التسلية الوحشية.

وظلت مدام دو دوتو تزورني فلا ألبث أن أردّ زيارتها، وكانت تميل إلى المشي، وكنتُ أميل إليه، فقمنا نتنزّه النُزهات الطوال في بلد رائع. فأبهجني أن أُحبّ وأن أجرؤ على البوح بحبّي؛ ولولا أن جموحي هدم كل شيء، لتقلبتُ في أهنا حالة. فلم تفهم هي، في مبتدأ الأمر، شيئاً من غباوة الهوى الذي تلقيتُ به ما أبدت لي من ضروب الملاطفة. غير أن قلبي، وهو الذي لم يعرف قط أن يخفي ما يجري فيه، لم يدَعها طويلاً تجهل ارتياباتي، فأرادت أن تضحك منها؛ فلم تفلح في هذه الوسيلة التي ما كانت إلا لتغضبني؛ فغيّرتْ أسلوبها. فرقّت لي برفق لا يُغلَب، ولامتني لوماً بلغ مني، وأعربتْ لي عن قلقها لأني غلوتُ في مخاوف لا مسوّغ لها. فسألتُها دلائل على كونها لا تهزأ بي. فوجدتْ أن ليس لها إلا هذا السبيل كيما تشيع فيّ الاطمئنان. فألححتُ عليها، إذ الخطوة صعبة دقيقة. ولعله في العجيب الفريد أن قد توصلت امرأة إلى المساومة فخرجتْ منها بهذا الكسب. فلم تأبَ عليّ قط ما تأذن لي فيه أحنى الصداقة. ولا أباحت لي قط ما يحملها على الخيانة، فأذلّها إدراكي أن النيران، التي أجّجتْها في حواسي حظوتي القليلة عندها، لم يتطاير منها إلى حواسها أقلّ شررٍ على الإطلاق.

ولقد قلتُ، في بعض ما كتبتُ ههنا، إنه إذا أبى الإنسان على حواسه شيئاً، فقد حقَّ عليه ألا يرفدها بشيء. فإن ابتغيتَ أن تعرف مبلغ ما كانت عليه هذه الحكمة من خطأ حيال مدام دو دوتو، وأن

twitter @baghdad_library

تعرف مبلغ ما كانت عليه مدام دو دوتو من صواب إذ اعتمدتْ على نفسها، وجب أن تقف على تفصيلات خلواتنا الطويلة المتواترة فتتبعها على أقصى شدّتها من خلال أربعة أشهر سلخناها معاً ونحن على علاقة حميمة لا يكاد يكون لها نظير بين صديقين ذكرٍ وأنثى قد وقفا عند الحدود التي لم نجاوزها يوماً، آه! لئن تأخرتُ طول هذا الزمان قبلما شعرتُ بالحبّ الحقانيّ، فلكم وفّيتُها بقلبي وحواسي بدل هذا التأخر! وما الذي يحسّه الإنسان من فوران المشاعر وهو مع حبيب يبادله بالحبّ، إن كان الحبّ الذي لا مبادلة به قد استطاع أن يلهم أمثالَ تلك المشاعر التي أحسستُ؟

لكني أخطئ بالكلام عن حب لا اشتراك فيه، لأن حبّي كان على شيء من الاشتراك، ولأنه كان في الجانبين على السواء، وإن لم يكن حبّاً متبادلاً. فلقد انتشى من الحبّ كلانا، إذ انتشت هي من حبّها لعشيقها وإذ انتشيتُ أنا من حبّي لها. فامتزجت التنهدات منا وطيّبات الدموع. فكنتُ نجيّها، وكان نجيّتي، فتواصلتْ عواطفنا أيّ تواصل حتى لقد تعذّر ألا يختلط في حال؛ بيد أنها، وهي على تلك النشوة التي حفّت بها الأخطار، لم تذهل عن نفسها طرفَة عين. أما أنا، فإني أؤكد وأُقسم أنه إذا كانت حواسي قد أضلتني في أحيان فحاولتُ أن أحدو تلك المرأة على الخيانة، فإني ما اشتهيتُها في يوم من الأيام. وأما شهوتي، فلقد كبحتْها سورة الشهوة. وكان ما أوجبتُ على نفسي من الحرمان قد أثار نفسي وسما بها. كما أن الفضائل النبيلة قد زينتْ في عينيّ معبودةَ الفؤاد، فلو دنّستُ صورتها الإلهية، لمحوتُها. ولقد كان في طاقتي أن أرتكب هذا الجرم، إذ اجترحتُه في القلب مراراً؛ ولكن أأذلّ صوفي[16] حبيبتي؟ آه! أيمكنني إذلالها

(16) صوفي هو اسم للسيدة دو دوتو ـ المترجم.

يوماً؟ كلا، ثم كلا؛ فلقد قلتُ لها مراراً إنني لو تهيأ لي إشباع رغبتي فارتهنتْ هي بمشيئتي، لأَبَيتُ أن أشتري السعادة بهذا الثمن إلا في بعض ساعات النشوة والهذيان. فكان حبّي إياها أقوى من أبغي امتلاكها.

ثم إن المسافة بين الإرميتاج وأوبونّ تناهز الفرسخ الواحد. فاتفق لي، بعضَ الأوقات، وأنا في أسفاري المتعددة، أن بتُّ في أوبونّ. فتعشينا وحدنا هناك، ذات مساء، ثم خرجنا نتنزه في الحديقة والقمر علينا في ليلة رائعة. وكان في طرف الحديقة بعض الشجرات الملتفة، فمررنا من تحتها نريد حرجاً جميلاً يزينه شلالٌ كنتُ قد اقترحتُ على مدام دو دوتو أن تصطنعه ففعلتْ. فيا لتذكار براءة ومتعةٍ خالد! ففي ذلك الحرج، وأنا معها على مقعد من عشب، تحت شجرة لبَخ كلها أزهار، اهتديتُ إلى لغة تعبّر عن مشاعري تعبيراً يليق بها حقّاً. وكانت هذه أول مرة في العمر، وكانت هذه آخر مرة في العمر، ولكن كنتُ فيها عظيماً، إن جاز أن يدعى هكذا كل ما يستطيع أَرقُّ الحبّ وأَشدُّه اضطراماً أن يحمله إلى قلب الإنسان من رفق وملاطفة وإغراء! ولكم سكبتُ على ركبتيها من دموع! ولكم حملتُها على سكبها برغمها! ثم فرطَ منها، في آخر الأمر، بعضُ الفورات فصاحت: «لا إنسان كان يوماً محبوباً مثلك، ولا عاشق عشق يوماً مثلما تعشق! لكن صديقك سان لامبير يستمع إلينا، وقلبي لا يمكنه أن يحبّ مرتين». فسكتُّ وأنا أتنهد؛ ثم قبّلتُها؛ فيا لذاك التقبيل! بيد أنه كان كلَّ شيء. وكانت تقيم وحدها منذ ستة أشهر، أعني أنها كانت تقيم بعيدة من عشيقها ومن زوجها، وكنتُ، منذ ثلاثة أشهر، ألقاها في كل يوم، أو أكاد، والحبُّ بينها وبيني رهين شخص ثالث. وكنا، ذات مساء، قد تعشينا وحدنا، فمضينا وحدنا إلى بعض الأحراج، والليلة مقمرة، فتحادثنا زهاء ساعتين، إذ

twitter @baghdad_library

نحن على غاية الفوران والحنان. ثم خرجتْ من بين ذراعَيْ صديقها وهي كما دخلتْ لم يمسسها شيء، بل ظلت على ما كانت عليه من طهر جسد وقلب. فيا أيها القراء! تأملوا في تلك الأحوال كلها، فلن أزيد عليها حرفاً.

ولا تتصوّروا أن حواسي قد هادنتْني يومئذٍ على نحو ما فعلتْ وأنا مع تيريز ومع ماما. فلقد تقدَّمَ لي القول إن ذلك هو الحبّ، هذه المرة الحبّ في كل طاقته وفوراته. ولن أصف ما كنتُ لا أنفكّ أعانيه من اضطراب ورعدة وخفق واختلاج وإغماء تتبينونها في ما كان لمجرَّد صورتها هي من تأثير في نفسي بعيد. قلتُ إن المسافة بين الإرميتاج وأوبونّ طويلة، فكنتُ أمرّ بتلال أنديّي الفاتنة، أمشي حالماً بتلك التي أنا ذاهب لكي أراها وبما تتلقاني به من ترحيبٍ غزل لطيف وبالقبلة التي تنتظرني في ساعة الوصول. ثم إن هذه القبلة وحدها، هذه القبلة المشؤومة، كانت تؤجج دمي، قبل أن أذوقها، تأججاً يقلق روعي ويغشّي على بصري، فتصطك ركبتاي ما تحتملاني؛ فأُضطَر إلى التوقف والقعود، فيعود بدني كله وهو في اعتلاج لا يمكن تمثّله وقد أوشكتُ أن يغمى عليّ. حتى إذا أدركتُ مبلغ هذا الخطر، حاولتُ، وأنا سائر، أن ألهو عنه أفكر في ما سواه. فلا أخطو زهاء عشرين خطوة حتى تعاودني الذكريات نفسها وما ينجم عنها من معتريات، فتنقضّ عليّ لا قبل لي بالنجو منها. وكنتُ كيفما عملتُ، لا أحسبني قد عبرتُ المسافة وحدي إلا أصابني ما قد أصاب، فأصل إلى أوبونّ وقد عييتُ فنُهكتُ فأُرهقتُ فكدتُ لا أقوى على الوقوف. ولكن ما تقع عيني عليها هي حتى يهبّ فيّ كل شيء، فلا أحسّ وأنا بالقرب منها إلا بإلحاح قوة لا تنضب ولا نفع بها أبداً. وكان على طريقي، حيال أوبونّ، مرتفع جميل المنظر يسمى جبل أولمب؛ فكنا نقصده في أحيان وقد أتى

كل منا من جهته، وكنتُ أصل إليه قبْلها، إذ خُلقتُ لكي أنتظرها؛ وكم من باهظ الثمن قد اقتضاني هذا الانتظار! فكنتُ أتلهى في أثنائه، أحاول أن أخطّ بقلم رصاص رقعاً كان في وسعي كتابتها بأصفى دم الفؤاد، إلا أني لم أستطع يوماً إتمام رقعة منها واحدة جديرة بأن تُقرأ. وكانت هي إذا وقعتْ على إحدى تلك الرقع في المشكاة التي تواعدنا لنلتقي فيها، لم ترَ إلا الحال المحزن الذي تقلبتُ عليه وأنا أكتبها. ثم إن ما كان من هذا الحال، ولا سيما من امتداده ثلاثة أشهر موصولة التهيج والحرمان، قد أضناني أمره فبقيتُ عدة سنوات لا أقوى على التخلص منه فانتهى إلى إصابتي بفتق سأحمله أو سيحملني إلى القبر. تلك كانت المتعة الغرامية الوحيدة التي ذاقها صاحبُ أَشدّ مزاجٍ اضطراماً وحياءً في وقتٍ معاً أَشدّ مزاج ربما كانت الطبيعة قد صنعتْه على الدهر في هذا القبيل. وتلك كانت آخر الأيام الحلوة، البهيجة، التي كُتبتْ لي في هذه الدنيا. فههنا مبتدأ سلسلة المحن الطويلة التي اعترتْني في الحياة والتي قليلاً ما انقطعتْ عني.

ولقد رأيتَ، في مجرى سيرتي، أن قلبي، الشفاف كالبلور، لم يعرف قط أن يخفي، طوال دقيقة واحدة، ما يهزه من شعور. أفكنتُ أقدر أن أخفي حبّي للسيدة دو دوتو إلى وقت بعيد؟ ثم إن علاقاتنا الحميمة كانت قد لفتت جميع الأنظار، ولم نكن لنواريها بسرٍّ ولا بسترٍ ما لطبيعة علاقاتنا من حاجة إليهما. فصادقتْني مدام دو دوتو أحنى المصادقة ولم تلم نفسها على أنها صادقتني، وقدرتُها قدراً ليس في الناس أحدٌ أَعلم بحقّه مني. فأتحنا لهم المجال، ونحن في طمأنينتنا الخادعة، ليظنوا بنا ظنّاً هو على أضعاف ما كان يغدو عليه لو أَذنبنا فعلاً. وذلك لأن مدام دو دوتو كانت مصارحة، لاهية، ساهية، طائشة، ولأني كنتُ صادقاً، خرقاً، مزهواً، نافد الصبر،

twitter @baghdad_library

نزقاً. وكان كلانا يمضي إلى الشوفريت، وكثيراً ما التقينا في تلك الديار، حتى ربما كنا وقتئذٍ على ميعاد. ولقد جرى عيشنا هناك على النحو الذي ألفناه، فكنا نتنزه وحدنا في كل يوم، نتكلّم على حبّنا والواجبات علينا ونتكلّم على صديقنا ومشروعاتنا البريئة، ذلك ونحن في الحديقة، تجاه منزل مدام ديبيناي وتحت نوافذها، ومدام ديبيناي لا تفتأ تراقبنا من ههنا، ترى في أمرنا تحدياً لها فتروي قلبها بعينيها غيظاً وحفيظة.

ثم إن جميع النساء قد أُوتين فن إخفاء الحنق ولا سيما إذا اتقد فيهن واشتدّ؛ لكن مدام ديبيناي ـ وهي عنيفة ولكنها صاحبة تفكير ـ قد امتلكتْ هذا الفن خاصةً. فتظاهرتْ بأنها لم ترَ شيئاً وبأنها لم تشكّ في حال، بينا هي قد ضاعفت عليّ ضروب الالتفات والعناية وأكاد أقول ضروب الإغراء، ثم عمدتْ إلى بنت حميها[17] تعاملها معاملة بعيدة عن الاستقامة والأدب وتبدي لها من الاحتقار ما لاح لي أنها تريد أن أقف عليه. فلم تنجح ولا ريب، ولكن أصبحتُ في عذاب. فمزّقني تَضادُّ المشاعر وقد أثّرتْ فيّ ملاطفات مدام ديبيناي، فشقَّ عليّ أن أتمالك عن الغضب إذ وجدتُها تسيء إلى مدام دو دوتو التي احتملتْ ذلك كله بوداعتها الملائكية لا تشكو ولا تسخط. وكانت مدام دو دوتو، من وجه آخر، جد ساهية، قليلة الاكتراث لمثل هذه الأمور، لا تنتبه لها إلا أحياناً.

ولقد شغلني هيامي يومئذٍ حتى بتُّ لا أرى أحداً غير صوفي (وهو اسم من أسماء مدام دو دوتو)، بل حتى لم ألاحظ أني غدوت أضحوكة البيت بأسره وأضحوكة الآتين الطارئين. ثم إن البارون دولباخ، الذي لم يتقدّم له المجيء إلى الشوفريت، في ما أدري، قد

(17) أي مدام دو دوتو ـ المترجم.

أمسى في عداد أولئك الطارئين، ولو كنتُ يومئذٍ من حذري على ما صرتُ إليه في ما بعد، لاتهمتُ مدام ديبيناي بأنها دبَّرتْ قدوم البارون دولباخ لتتحفه هديةً مبهجة هي أن يشاهد المواطن الهيمان. بيد أني كنتُ عهدئذٍ غبيّاً جداً، فعمهتُ عما قد اتضح للجميع. ومع غباوتي كلها، وجدتُ البارون أكثر مرحاً وسروراً مما تعوّد أن يكون عليه، فلم ينظر إليّ نظرته القاتمة التي أَلفَ أن ينظر بها إليّ، بل أطلق عليّ جمَّ سخريةٍ لم أَفهم منها شيئاً. فبقيتُ في عجب، ولم أجبه بحرف، ومدام ديبيناي تمسك بجنبيها لفرط ما قد كانت تضحك، وأنا أجهل على أيّ نحو قد سارت هي ودولباخ. أما إذ لم يكن هناك بَعْد من أمر يتخطى حدود المزح، فإنّ خير ما وجب عليّ إتيانه هو أن أسلّم بذلك لو تنبهتُ عليه. ولكن الواقع أنك كنت ترى في عيني البارون، من خلال هذا الحبور المستهزئ، بريق فرحٍ خبيث لو أحسنتُ أن أراه وقتئذٍ كما فعلتُ حين تذكرتُه في ما بعد، لربما كنتُ أقلقني شأنه.

ثم إني ذهبتُ، يوماً، أزور مدام دو دوتو وقد رجعتْ من بعض أسفارها إلى باريس، فألفيتُها حزينة، ورأيتُ أنها قد بكت. فاضطررتُ أن أملك نفسي لأن السيدة بلانفيل، بنْت حميها، كانت عندها. ولكن ما أن تحينتُ بعض اللحظات حتى أعربتُ لها عن قلقي. فقالت لي وهي تتنهد: «إني لأخشى أن تحرمني جنونات هواك راحةَ العمر. فلقد أُخبرَ بها سان لامبير فأبلغنيها وسلّم بحقّي، لكنه كئيب، وأسوأُ ما في كآبته أنه يخفي عليّ بعضاً منها. وفي حُسن الحظ أني لم أَكتمه شيئاً من علاقاتنا التي كانت كلها برعايته. وهذه رسائلي إليه قد امتلأتْ منك مثلما امتلأ بك القلب؛ فما أخفيتُ عليه إلا هواك الأحمق الذي أمّلتُ أن أشفيك منه والذي أجد سان لامبير يلوّمني فيه ولا يكلّمني به. لقد أُوذينا ومسّني الضرر، ولكن لا همّ،

twitter @baghdad_library

فإما أن ننفصل حقاً، أو فكن كما يجب أن تكون، لأني أصبحتُ لا أريد أن يبقى عندي ما أخفيه على عشيقي».

تلك أول ساعةٍ شعرتُ فيها بالعار وقد وضع مني الإحساسُ بأني تذنبتُ على امرأة شابة آلمني حقُّ لومها إياي إذ وجب أن أغدو مرشدها الأمين. وربما كان حنقي من نفسي كافياً لأن يغلّبني على ضعفي لو لم أرث للضحية رثاءَ حنان زاد قلبي رقة وليناً. فواأسفاه! أكان ذلك هو اليوم الذي أستطيع فيه أن أقسّي قلبي وقد هَمَت عليه الدموع تغمره من كل صوب؟ فلم يلبث هذا الحنان أن تحوّل غضباً على الوشاة الأنذال الذين لم يروا إلا ناحية الشر في إحساس لي مذنب خامرني عن غير قصد مني؛ حتى الاستقامة القلبية الصادقة التي كفّرتْ عنه لم يتمثلوها عندي. ولم نلبث أن عرفنا اليد التي أَطلقت الضربة.

فلقد كنتُ أعلم وكانت مدام دو دوتو تعلم أن مدام ديبيناي تتراسل هي وسان لامبير. فليست هذه أول عاصفة تثيرها على بنت حميها، وإنما هي قد بذلتْ ألف جهد لكي تفصله عنها، فنجحتْ في بعض ما بذلتْ، فخافت مدام دو دوتو مما يعقب ذلك. ثم إن جريم، وأَظنُّه قد تبع السيد دوكاستري إلى الجيش، كان في وستفاليا، وكان بها أيضاً سان لامبير، فتلاقيا في بعض الأحيان. وكان جريم قد حاول أن يراود مدام دو دوتو عدة مرات، فلم يوفَّق. فاغتاظ جداً وانقطع عن زيارتها انقطاعاً نهائياً. فتصوّرْ هدوءَ أعصاب جريم، وهو على ما أُثرَ عنه من التواضع، إذ قدَّر أن هذه المرأة مالت إلى رجل أسنّ منه بات هو، جريم، مذ قام يعاشر العظماء، لا يتكلّم عليه إلا على أنه في حمايته.

ثم إن ظنائني إزاء مدام ديبيناي تحوّلتْ إلى يقين لمّا بلغني ما قد جرى في بيتي. وذاك أني كنت إذا حللتُ بالشوفريت، جاءتني

تيريز في كثير من الأحايين، إما لكي تحمل إليّ ما يكون قد ورد عليّ من رسائل، وإما لتعتني بما يجب لصحتي السيئة. فسألتها مدام ديبيناي إن كنا نتراسل أنا ومدام دو دوتو. فأقرّت لها بأنّا نتراسل. فألحّت عليها مدام ديبيناي أن تسلّمها مكاتيب مدام دو دوتو وأكّدت لها أنها ستختم المكاتيب ثانيةً فلا يظهر عليها أن قد فُضّت. فلم تبد تيريز ما أثارها ذاك الاقتراح من حنق ولا عمدتْ إلى تحذيري، بل اكتفت بأن زادت في إخفاء الرسائل التي كانت تحملها إليّ؛ وهذا احتراز ملائم، لأن مدام ديبيناي كانت تبعث من يترصد تيريز حين تصل، وكانت تنتظرها عند المدخل. وبلغتْ بها الوقاحةُ أنها قامت مراراً تتحرى عن الرسائل في مئزرها. وفعلتْ ما زاد على ذلك، إذ دعت نفسها، يوماً، إلى الإرميتاج مع السيد دو مارجنسي فتغدت عندنا لأول مرة منذ سكنتُ هناك. فانتهزتْ وقت نزهتي ومارجنسي فدخلتْ مكتبي مع الأم والبنت فحثتهما أن تدلاها إلى رسائل مدام دو دوتو. ولو علمت الأم أين الرسائل، لَسلّمتْها إلى من سألتْ عنها؛ ولكن في حُسن الحظ أن البنت وحدها كانت تعلم أين الرسائل، فأنكرتْ أني أحتفظ بشيء منها. وهذه كذبة كلها استقامة وأمانة وكرم؛ أما الصدق، ههنا، فإن هو إلا خداع. فلما وجدت مدام ديبيناي أنه يتعذر عليها إغراء تيريز، سعت جهدها لأن توغر فيها الحسد تلومها على ما بها من مساهَلة وعمهٍ، قالت لها: «كيف لا ترين أنهما على علاقة إثم؟ فإن كنت في حاجة إلى براهين أخرى، فضلاً عما قد تجلّى لعينيك، فاعملي ما يجب عمله لتحصلي عليها: تقولين انه يقرأ رسائل مدام دو دوتو فيمزقها على الفور. فالتقطيها مزقة مزقة، ثم أعطينيها وأنا أتولى رأبها». هذه كانت نصائح صديقتي لرفيقتي.

وظلت تيريز وقتاً غير يسير تكتمني تلك المحاولات؛ فلما

twitter @baghdad_library

وجدتْني في ارتياب، رأت أن تطلعني على كل شيء فأَعلمَ حقيقةَ ما يجري فأتقي الخيانة التي كانت تُدبَّر عليّ. ولستُ أقدر أن أصف ما قد كنتُ فيه من حنق واستياء. فلم أحذُ حذو مدام ديبيناي إخفاءً وكتماناً، ولا عمدتُ إلى حيل تُضادّ حيلها، بل اندفعتُ وحدّةَ مزاجي اندفاعاً لا حدّ له، فانفجرتُ جهاراً وأنا على ما أنا عليه من سهوي المألوف. وإنك تستطيع أن تتصوّر ضآلة احتراسي إذا قرأتَ الرسائل التالية التي تدل على كيف سلكتُ وكيف سلكت مدام ديبيناي في تلك المناسبة.

رقعة مدام ديبيناي. الرزمة أ، الرقم 44.

«لمَ لا أراك، يا صديقي العزيز. إني لفي قلق منك. ولقد طالما وعدتَني ألاَ تزال، من الإرميتاج إلى ههنا، في قدوم وإياب! فأبقيتُك حرّاً طليقاً، ولكن لم أدَعك يوماً؛ وهآنت ذا قد تَركتَ ثمانية أيام تمضي. فلو لم يُقَل لي إنك في عافية، لخلتُك مريضاً. ولقد انتظرتُك أمس الأول، أو أمس، فلم تصل. ربي! ماذا دهاك؟ لا شغل عندك، وليس بك من أحزان؛ وإلا لكنتَ أتيتَ من فورك تأتمنني على ما بك وعلى ما عندك، ذلك هو، في نفسي، شأنُ اعتزاز. أمعتلّ أنت؟ سألتُك أن أَسرعْ إلى إنقاذي من هذا القلق. ثم وداعاً، صديقي العزيز؛ وليحملْ إليّ هذا الوداعُ تحية منك».

الجواب:

صباح يوم الأربعاء هذا.

«لا يسعني، بعد، أن أقول لك شيئاً. فإن أنتظر أن أغدو أكثر اطلاعاً؛ وسأغدو هكذا، أو سوف أغدو. فأَيقني، في غضون ذلك، أن البراءة المتهَمة ستلقى من يذود عنها بما يكفي لأن يُشيع بعض الندامة في النمامين أيّاً كانوا».

الرقعة الثانية من مدام نفسها. الرزمة أ، الرقم45.

«أتعلم أن رسالتكَ تخوّفني؟ فماذا تقصد أن تقول؟ لقد قرأتُها ما يربي على خمس وعشرين مرة، والحقّ أني لا أفهم منها شيئاً. وكل ما أجد فيها هو أنك على قلق، وأنك معذَّب، وأنك تنتظر أن يزول عنك القلق والعذاب فتكلّمني فيهما. صديقي العزيز، أفذلك هو ما قد اتفقنا عليه؟ وما الذي انتهت إليه تلك الصداقة، تلك الثقة؟ وكيف فقدتُها؟ أعليّ أنت غضبان أم لي؟ مهما يكن من حال، فإني أتضرع إليك أن تَعالَ هذا المساء، وتذكّرْ أنك وعدَتني، منذ ما يقلّ عن ثمانية أيام، ألا تدَع شيئاً على قلبك إلاّ كاشفَتني به فوراً. صديقي العزيز، إني لأحيا على ثقتك. انظرْ، لقد فرغتُ الآن من مطالعتي رسالتك مرة أخرى، فما ازددتُ فهماً لها، بل أخذتُ أرتعد منها. ويلوح لي أنك على اضطرابٍ شديد الإيلام. ولقد وددتُ لو أسكّن من روعك. بيد أني أجهل علّة اضطرابك، فلذاك لستُ أدري ما أقوله لك إلا أنك تراني على مثل شقائك إلى يوم ألقاك. فإن لم تكن ههنا في الساعة السادسة من هذا المساء، جئتُك غداً في الإرميتاج، أيّاً كانت أحوال الجو، وأيا كانت حالي. فإني لا استطيع أن أقاوم هذا القلق. صباح الخير صديقي الطيّب العزيز؛ ومهما جرى، فإني أقول لك، ولست أَعلم أبك حاجةٌ إلى قولي أم لا، لتحترزْ ما قدرتَ على الاحتراز ولتجتهدْ أن تحاذر القلق وأن تكفّه عن الإمعان بك في الوحدة والانفراد. فالذبابة تمسي وحشاً. وكثيراً ما قاسيتُ ذلك».

الجواب:

مساء يوم الأربعاء هذا.

«لا يسعني الذهاب لأزورك ولا قبول زيارتك ما دمتُ على ما

twitter @baghdad_library

أنا عليه من قلق. أما الثقة التي تذكرين، فلقد ضاعت، ولن يسهل عليك استردادها. وما أرى في تعجّلك إلا رغبة في أن تستخلصي من إقرارات سواك بعض المنافع التي تطابق نظراتك. ثم إن قلبي، السريع الركون إلى الفؤاد الذي ينفتح له كيما يتلقاه، ينغلق دون الحيلة والمكر. أما صعوبة فهمك رقعتي، فقد عهدتُ فيها مألوف براعتك. أفتحسبيني قد هان خدعي فصدَّقتُ أنك لم تفهمي رقعتي؟ لا؛ بل إني بقوة المصارحة سوف أعرف كيف أتغلب على حيلك. وإني مفسر لك شأني تفسيراً أوضحَ فتزداد صعوبةُ فهمك إياي.

«وذاك أني أُحبُّ متعاشقين قد اتحدا حقّاً فهما خليقان بالتحابّ؛ وأني أتوقّع ألا تدري مَن عنيتُ إلا أن أسمّيهما لك. وأظن أنه قد سُعي للفصل بينهما وأن قد استُخدمتُ لكي أحمل أحدهما أن يغار مني على الآخر. وما هذا الاختيار بشيء بارع، لكن الخبث قد استنسبه، وإني أتهمك بهذا الخبث. فعسى أن يكون الأمر، عندك، على ازدياد وضوح.

«وهكذا فإن المرأة، التي أَقدرها أوفى القدْر، تكون قد اجترحتْ، على علم مني، شناعةَ أن توزّع قلبها وشخصها على عشيقين، وأكون قد اجترحتُ شناعةَ أن أغدو أحد هذين الجبانين. ولو دريتُ أنك ظننت أني وإياها قد عملنا ذلك الشيء، لحقدتُ عليك حتى الموت. لكن أتهمك بأنك قلت ذلك، لا بأنك ظننته. ولستُ أدري، والحالة هي هذه، أيّاً من ثلاثة الأشخاص توخيت ضرّه. فإن كنت تؤثرين الراحة، فخافي تَعَس هذا الظفر. ثم إني لم أخف عليك ولا أخفيتُ عليها كل ما أرى من سوء تلك العلاقات، ولكن أريدُ أن ينتهي بمثْل ما قد ابتدأت به شرفاً واستقامة، وأريدُ هذا الحبّ المحرَّم أن يتحوّل صداقةً دائمة. أَأُستخدَم، على براءة مني، لضرّ أصدقائي وأنا الذي لم يضرّ أحداً قط؟ لا؛ لن أسامحك

بذلك أبداً، بل سأبيتُ عدوّك الذي لا يصالحك على الدهر. ولن أرعى عليك أمراً ما عدا الأسرار، لأني لن أكون البتة امرأً بلا ذمام.

«والحيرة، التي أنا فيها، لا أخالها تستمرّ إلى وقت بعيد. ولن ألبث طويلاً حتى أعرف هل أخطأتُ إليك، وعندئذٍ فقد ينبغي أن أصلح بعض أخطائي الجسيمة فلا أكون قد صنعتُ في العمر ما يرضيني أكثر مما يرضيني إصلاحها. ولكن أتعلمين كيف أكفّر عن ذنوبي في يسير ما يبقى لي من أيام أقضيها بالقرب منك؟ سآتي ما لن يأتيه أحد سواي فأصارحك برأي الناس فيك وبما في سمعتك من أثلام يجب أن تصلحيها. حتى إذا فارقتُك، ودَّعت الصدق برغم جميع الأصدقاء المزعومين الذين يحيطون بك، إذ لن تري من بعدي أحداً يَصْدقك في القول».

الرقعة الثالثة للسيدة نفسها. الرزمة أ، الرقم 46.

«لم أفهم رسالتكَ المؤرخة في هذا الصباح، ولقد قلتُ لك ذلك لأنه الواقع. أما في رسالتك المؤرخة في هذا المساء، فإني أفهمها؛ فلا تخشَ أن أجيبك عنها يوماً، لأني متعجلة في نسيانها؛ ولئن تحننت عليك، فما تمالكتُ عن الشعور بالمرارة التي تفعم قلبي لما تضمنتْه رسالتك الأخيرة. أفأنا أعمد إليك بالحيلة والمكر؟ أوَأنا أُتهَم بأقبح شناعة؟ الوداع؛ إني ليؤسفني أن تكون على. الوداع؛ لست أدري ما أقول. الوداع؛ إني لمتعجلة في العفو عنك فتجيء متى شئتَ فأتلقّاك بخير مما تُوجبه ريبك. أما أسفك على سمعتي، فإني أعفيك منه إذ أنا قليلة الاكتراث للسمعة التي تُلصَق بي، وأما سلوكي، فإنه حسن، وهذا حسبي. ثم لقد كنتُ، فضلاً عن ذلك، على تمام الجهل بما مسَّ الشخصين اللذين أُحبُّهما بقدْر ما تحبّهما أنت».

twitter @baghdad_library

فانتشلتْني هذه الرسالة من ارتباك هائل وألقتني في ارتباك آخر لا يكاد يكون دونه. ولئن كانت الرسالتان والجوابان جميعاً قد بُعث بها، على أقصى السرعة، ذهاباً وإياباً في يوم واحد، فإن هذه الفترة قد كفت لأن تسكّن من حدّتي ولأن تحملني على التفكير في ما أنا عليه من ضعف تبصر وقلّة احتراس. ولم تكن مدام دو دوتو قد وصّتني بشيء أكثر مما وصّتني بأن ألزم الهدوء وأدَعها تتخلص وحدها من تلك القضية وبأن أجتنب كل قطيعة وكل ضجة ولا سيما على الفور؛ أما أنا، فقد عمدتُ إلى أصرح ضروب الإهانة وأشدّها قسوةً فأتممتُ إثارتي غيظ امرأة لم تكن منه إلا على فرط استعداد؛ وبديهٌ أني ما كنتُ لأتوقّع منها غير هذا الجواب الذي أوفى على غاية الزهو والاستهانة والاحتقار، حتى بتُّ لا أستطيع إلا أن أبرح بيتها من ساعتي، أو أنحدرَ إلى أحط دركات الجبن. ولكن في حُسن الطالع أن براعتها قد فاقت حنقي، فأدارت جوابها على نحو لم أُلجأ معه إلى ذلك الحد الأقصى. غير أنه وجب عليّ أما أن أبرح البيت وإما أن آتيها فوراً؛ ولم أكن في ذلك بالخيار. فآثرتُ الذهاب إليها وقد أزعجني كثيراً أن سأتمالك في ما توقَّعتُ بيننا من إيضاح وتفسير، وإلا فكيف أتخلّص بدون أن أحرج موقف مدام دو دوتو وموقف تيريز؟ ثم الويل للتي أسمّي لها منهما! فانتقام المرأة الحقود لا شيء مثله يخيفني على التي يصيبها ذلك الانتقام. وإذا كنتُ لم أُورد ما أَوردتُ في رسالتي إلا عن سبيل الظن، فلكي أستدرك هذه البلية فلا أُضطر إلى الإدلاء بالبراهين. وهو صحيح أن ذلك يزيدني في أن تكون فوراتُ حنقي لا عذر لها، لأن الظنون اليسيرة لا تجيز أن أعامل امرأة، ولا سيما أنها صديقة لي، كما قد عاملتُ مدام ديبيناي. ولكن ههنا تبدأ المهمة الكبيرة، النبيلة، التي اضطلعتُ بها اضطلاعاً لائقاً كريماً، وهي أن أكفّر عما سترتُ من ذنوبي وأسباب ضعفي أُحمّل نفسي ذنوباً أفدح لم يكن لي قبل بها ولا اقترفتُها يوماً.

ولكن لما لم أُلجأ إلى أن أؤيّد المنازعة التي خشيتُها، لم يعترني منها سوى الخوف. حتى إذا واجهتُ مدام ديبيناي، هجمتْ على عنقي وانفلتتْ باكية. فبلغ مني أن تستقبلني صديقة قديمة هذا الاستقبال الذي لم أتوقّعه، فاسترسلتُ في البكاء. ثم قلتُ لها بعض الأقوال التي لا تنطوي على معنًى كثير، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وكان الطعام قد هيئ، فملنا إلى المائدة وأنا أنتظر أن أوضّح للسيدة ديبيناي ما حسبتُ أنه أرجئ إلى ما بعد العشاء، فبقيتُ، في أثناء هذا، على هيئة لا ترضي، إذ إني يؤثّر فيّ أخفّ قلقٍ يداخلني حتى ليتعذّر عليّ إخفاؤه على أضعف الناس بصيرةً. ولا شكّ في أن هيئتي المرتبكة قد شجّعت مدام ديبيناي، لكن هذه لم تخاطر بأن تغامرني. فلما قمنا عن العشاء، لم يجر بيننا من إيضاح ولا جرى منه في الغد شيء. فكانت خلواتنا لا يشغلها إلا ما لا طائل تحته وإلا أحاديث لي صادقة أبديتُ فيها للسيدة ديبيناي أني لا أقدر بَعْدُ أن أقطع في أيّ أمر كان مما استندتْ إليه ظنوني، وأكّدتُ تأكيداً مخلصاً أنه لم يكن لظنوني من أساس، وقفتُ بقية العمر على إصلاح هذا الظلم. فلم تُظهر لي أقلّ فضول كي تعرف ما تلك الظنون على التدقيق ولا كيف خامرتْني؛ فاقتصرتْ مصالحتنا، سواء من ناحيتها أو من ناحيتي، على عناق المواجَهة الأولى. ولاح لي أنها ما دامت هي وحدها قد أُهينتْ ولو ظاهراً، فليس ينبغي لي أن أبحث عن إيضاح لم تطلبه هي نفسها؛ فرجعتُ من عندها كما أتيتُ. وظللتُ أعايشها على نحو ما مضى؛ وما عتّمتُ أن نسيتُ أغلبَ تلك المنازعة وصدّقتُ أنها هي نفسها قد نسيتْها تصديقاً غبياً، وذلك لأنها بدتْ وكأنْ قد أصبحتْ لا تتذكرها.

ولم يكن هذا هو، كما ترى بعد قليل، العذاب الأوحد الذي جلبه عليّ ضعفي؛ وإنما عذّبتْني أمور غيره ليست دونه إيلاماً ولم

twitter @baghdad_library

أكن قد جلبتُها على نفسي ولا كان لها من سبب إلا رغبة بعضهم في ألا ينفكّوا يعذّبوني حتى ينتزعوني من توحدي(*) أما منشأ تلك المعذّبات، فديدرو والدولباخيون. فلم يبرح ديدرو، مذ أقمتُ بالإرميتاج، يزعجني إما هو بنفسه وإما على يد دولير. وما لبثُت أن تبيّن لي أن دولير قد سخر مني لذهابي في الأحراج، وتبين لي مدى ما بلغاه من لذة وهما يمسخان الناسك راعياً غزلاً. لكن الأمر، ههنا، لم يتصل بمنازعاتي وديدرو، لأن أسبابها كانت أشدّ خطراً. وتلك أنه لما نُشر «**الابن غير الشرعي**»، بعث إليّ بنسخة منه، فقرأتُها بعناية نخص بها كتب صديق لنا. فبينا كنتُ أطالع حواره الشعري الذي أَلحقه بالكتاب، فوجئتُ بل استأتُ بعض الشيء، إذ وجدتُ، بين عدة أقوال مكدّرة ـ ولكن يمكن التسامح معها ـ، هذه الآية المُرّة، القاسية، التي كرّ بها ديدرو على المتوحدين كرّةً لا رفق فيها، قال: «لا أحد سوى الشرير يكون وحيداً»، ويبدو لي أن لهذه الحكمة وجهين، وأنها على معنيين أحدهما صادق جداً والآخر خاطئ جداً؛ فالإنسان الذي يريد أن يكون وحيداً، يتعذّر عليه أن يضرّ بأحد أو أن يريد ذلك، وبالتالي يتعذّر عليه الشر [الخبث]. فاقتضى هذا الحكم، هو بنفسه، تأويلاً، واقتضى، على الأخص، أن يؤوله كاتبه، وهو الذي لمّا طبعه، كان له صديق مختلياً إلى التوحد. فوجدتُ عمل ديدرو عملاً مهيناً وخالياً من النزاهة، فإما أن يكون ديدرو، يومَ نشرَ هذا الحكم، قد غفل عن صديقه المتوحد، وإما أن يكون قد تذكّره وليفعل ـ كما تقول به على الأقلّ القاعدة العامة ـ ما يحق عليه من استثناء مشرف وعادل لا إزاء صديقه

(*) أي رغبة بعضهم في أن ينتزعوا من وحدتي العجوز التي احتاجوا إليها ليدبروا الدسيسة. وهو مستغرب أن ثقتي البلهاء قد حجبتْ عني، في خلال ذلك الإعصار الطويل، كونهم لم يريدوني أنا في باريس، وإنما أرادوا العجوز.

فحسب، بل إزاء الكثيرين من جلّة الحكماء الذين كانوا، على توالي العصور، ينشدون بالخلوة السكينةَ والسلام، والذين نراهم، لأول مرة مذ وُجد العالَم، يجترئ عليهم كاتبٌ فيصنع منهم بجرة قلم واحدة ومن غير تمييز وفرة وفيرة من الأوغاد.

وكنتُ أودّ ديدرو وِدّاً رقيقاً، وأقدره تقديراً صادقاً، وأثق أنه يبادلني بمثل هذه المشاعر كل الثقة. ولكن أزعجني إصراره على أن يعارضني أبداً في ذوقي وميلي وطريقة عيشي وفي كل ما لا يعني أحداً سواي إصراراً لا يكلّ؛ وأثارني أن أجد امرأً دوني سنّاً قد ابتغى التسلط عليّ عنوةً وكأني الطفل؛ وكرهتُ سهولةَ وعده وإخلافه، وبرمتُ مواعيده الكثيرة التي ضربها لي ولم يأت، وبنزوة خياله التي تضرب مواعيد جديدة لا يفي بها؛ وضقتُ بأن أنتظره، على غير طائل، ثلاث مرات من الشهر أو أربع مرات، في الأيام التي كان يعيّنها لي، ثم أتعشى وحدي في المساء بعد أن أكون قد مضيتُ حتى سان دونيس لكي ألاقيه؛ فكان انتظاري إياه، طول النهار، يفعم قلبي بما قد تكاثر من عيوب هذا الرجل. ورأيتُ عيبه الأخير أشدَّها خطراً، وكدَّرني أضعاف ما كدَّرني سواه. فكتبتُ إليه أتظلم، ولكن تظلمتُ بعذوبة ورقّة غمرتْ رقعتي بالدموع. وكانت رسالتي على قسط من التأثير يكفي لأن يسيل دموع ديدرو. ولن تخمن البتة ما كان جوابه عن ذلك الأمر؛ فإليك الجواب حرفاً بحرف. (الرزمة أ، الرقم33).

«يطيب لي أن أعجبك مؤلَّفي وأثّر فيك. وبعد، فأنت لستَ على رأيي في النسّاك، فأَثنِ عليهم ما شئتَ الثناء؛ ولأَنتَ، من بينهم، المرءُ الأوحد الذي أُحسن الرأيَ فيه ثمة مجال لمزيد القول بهذا الصدد لو أمكننا أن نخاطبك دون إغضابك، فإن امرأة في الثمانين من عمرها! إلخ. لقد ذُكرت لي عبارة من رسالة ابن مدام

twitter @baghdad_library

ديبيناي أظنّها قد ألمتْك، اللهم أن أكون لا أعرف قرارة نفسك حق المعرفة».

ينبغي تفسير العبارتين الأخيرتين من هذه الرسالة.

وذاك أن السيدة لوفاسور، أولَ ما أَقمنا بالإرميتاج، لم يعجبها الأمر وأَلْفت المسكن موحشاً جداً. فلما بلغني قولها في هذا الصدد، عرضتُ عليها أن أعيدها إلى باريس إذا كانت الإقامة فيها تروقها أكثر، وأن أدفع إليها كراء المسكن وأعتني بها كأنها لا تزال معي. فأبت عرضي، وأكدتْ لي أنها مسرورة جداً في الإرميتاج وأن هواء الريف ينفعها. ولقد كنتَ ترى تأكيدها صحيحاً لأنها، على حسب التعبير المألوف، أخذتْ يتجدد شبابها فباتت أَحسن عافيةً مما كانت عليه في باريس، حتى لقد أكدتْ لي ابنتها أنه إذا برحنا الإرميتاج، استاءت أمها حقّاً، لأنه، في الواقع، مقام جميل، ولأن أمها ميّالة إلى تنسيق الحديقة والثمار وقد تولّت الإشراف على ذلك، وذكرتْ أن أمها إنما قالت لي ما قوّلوها إياه سعياً منهم لحضّي على الرجوع إلى باريس.

فلما خاب هذا السعي، طرقوا ضميري يحاولون إثارة هواجسي وشكوكي ليصلوا إلى ما لم توصلهم إليه طُرُقُ المجاملة. فأخذوا يقولون إنه لجرمٌ مني أن أبقي العجوز في الإرميتاج بعيدةً عما قد تحتاج إليه من ضروب الإسعاف وهي على سنها تلك. ولم يخطر لهم أنها مثلها مثل الكثيرين سواها ممن تقدمت بهم السنون وأطالت أعمارَهم جودةُ مناخ هذا الإقليم [الريف/ البلد]، يمكنهم طلب الإسعاف من مونمورانسي التي تجاور بيتي؛ هذا وكأنْ لا طاعنين في السن إلا في باريس، أما في كل موضع غيرها فلا قبل للطاعنين في السن بالحياة. والسيدة لوفاسور امرأة في غاية النهم، أكولٌ، فكانت تهيج عليها المرّةُ وينتابها إسهال شديد يلزمها بضعة أيام فيداويها.

فحين كانت تقيم في باريس، لم تعمد لعلاج قط، بل تركت الطبيعة تعمل وحدها، ثم جرت على النحو عينه وهي في الإرميتاج يقيناً منها أنه لا علاج أفضل من عمل الطبيعة. ولكن لا يهم، فأن أبقيها في الريف، حيث لا أطبة ولا صيادلة، ذاك هو أن أبغي موتها، وإن كانت على تمام العافية. ولقد كان حريّاً بديدرو أن يحدد السن التي لا يجوز معها أن يبقى الطاعنون في السن خارج باريس اللهم أن تُرتكبَ في حقهم جريمةُ قتل نفس بشرية.

تلك هي إحدى التهمتين الشنيعتين اللتين لم يستثنني منهما ديدرو في حكمه إذ قال لا أحد سوى الشرير يكون وحيداً. وذلك هو معنى صرخته المؤثّرة ومعنى الـ «إلخ» التي أضافها إليها بوداعة منه ورفق إذ قال: «إن امرأة في الثمانين من عمرها[18]! . إلخ».

فلم أَرَ لي جواباً أفضل من أن أراجع السيدة لوفاسور هي نفسها. فطلبتُ إليها أن تكتب مشاعرها بصدق إلى مدام ديبيناي. وأردتُ أن أفسح لها في مجال القول فأبَيتُ الاطلاع على رسالتها، وأطلعتُها على الرسالة التي أنسخها في ما يلي والتي كتبتُها إلى مدام ديبيناي في شأن ما ابتغيتُ ردّه إلى ديدرو من جواب عن رسالة منه كانت أقسى من سابقتها، إلا أن مدام ديبيناي كانت قد منعتْني أن أبعث إليه بهذا الجواب.

يوم الخميس هذا.

«ستكتب إليك السيدة لوفاسور، يا صديقتي الطيّبة، إذ طلبتُ إليها أن تبدي لك رأيها إبداءَ صدْق. ولقد أَردتُ أن أفسح لها في

(18) لم تذكَر علامة التعجب (!) في الرسالة، بل ذُكرتْ عند الاستشهاد بالرسالة ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

مجال الكتابة فقلتُ إني لا أريد الاطلاع على رسالتها؛ فأسألك ألا تذكري لي من مضمونها شيئاً.

«أما رسالتي، فلن أَبعث بها، لأنك أبَيت أن أفعل؛ لكني أشعر بأن قد أُهنتُ إهانة بالغة ولو سلّمنا بأني على حقّ، فإن في الأمر من الدناءة والبهتان ما لا أجيزه لنفسي. ولقد أمر الإنجيل من يُلطَم أن يحوّل خده الآخر، ولكن لم يأمره بالاستغفار. أتذكرين شخص المسرحية الهزلية الذي هبّ يصرخ وهو يضرب بالعصا ضرباً؟ أَلاَ إنّ ذلك هو دور الفيلسوف.

«فلا يغرّك أنك منعته من القدوم والطقس سيّئ. فإنّ غضبه سيؤتيه من الوقت ومن القوة ما أبت الصداقة أن تؤتيه إياه، فتكون هذه أول مرة له بالعمر يصل فيها على اليوم الذي وعد بالوصول فيه. وسيجهد نفسه لكي يأتيني يردّد لي، مشافهة، الشتائم التي قالها في رسائله إليّ، إلا أني لن أكابد شتائمه بما هو دون الصبر، فيعود إلى باريس فيمرض؛ أما أنا، فأكون، بحسب العادة، قبيحاً جداً. فما العمل؟ لا بد من العذاب.

«ولكن ألا تعجبين بحكمة هذا الرجل إذ أراد أن يمضي بي في العربة إلى سان دونيس فنتغدى هناك، ثم يردّني بالعربة. (الرزمة أ، الرقم 33)، فلما انقضت ثمانية أيام (الرزمة أ، الرقم 34)، غدت ثروته لا تأذن له أن يذهب إلى الإرميتاج إلا مشياً. وليس بمطلق المستحيل، وأنا أجري ههنا على تعبيره، أن يكون ذلك علامة النية الحسنة؛ ولكن، عندئذٍ، لا بد أن تكون ثروته قد طرأتْ عليها، في ثمانية أيام، تبدلات غريبة.

«ثم إني لأشارك في حزنك لاعتلال السيدة والدتك؛ بيد أنك تدركين أن ألمك لا يداني ما بي من ألم. فأن يرى الإنسان أَحبَّته،

وقد اعتلّوا، ذلك أقلّ إيلاماً له من أن يراهم قد جاروا وقسوا.

«الوداع، صديقتي الطيّبة؛ هذي آخر مرة أذكر لك فيها تلك الغضبة التعسة. ثم إنك تكلّميني على الذهاب إلى باريس تقولينه برباطة جأش لو أتت في غير هذا اليوم، لأبهجتْني».

وكتبتُ إلى ديدرو بما أتيتُ في شأن السيدة لوفاسور، وكانت مدام ديبيناي، هي نفسها، قد اقترحتْ عليّ الكتابة إليه بهذا الصدد؛ فلما اختارت السيدة لوفاسور أن تمكث بالإرميتاج حيث تقلبتْ في تمام العافية ودوام الرفقة واطّراد العيش الطيّب، ولما بات ديدرو ليس يدري كيف يتجرّم عليّ، أخذ يلوّمني في ما احتطتُ لنفسي، وما انفكَّ يلوّمني في أن السيدة لوفاسور قد ظلت تقيم بالإرميتاج، مع كونها هي التي اختارت أن تقيم هناك، حتى إن رجوعها إلى باريس لم يتعلّق إلا بها وحدها وما يزال متعلّقاً بها وحدها، على أن أمدّها هناك بأسباب المساعدة عينها التي مددتُها بها وهي تسكن عندي.

ذلك هو تفسير الملامة الأولى من رسالة ديدرو ذات الرقم33. أما تفسير الملامة الثانية، فهو في رسالته ذات الرقم 34 وقد قال فيها: الأرجح أن «المتعلّم» (وهو لقب أطلقه جريم على ابن مدام ديبيناي مزحاً)، الأرجح أن «المتعلّم» قد كتب إليكَ أن على السور[19] عشرين فقيراً قد برّح بهم الجوع والبرد ينتظرون الفلس الذي كنتَ تنفحهم به. وهذا نموذج لثرثرتنا الوضيعة؛ فلو استمعتَ إلى سائرها، لألهاك مثلما ألهاك نموذجها».

وفي ما يلي جوابي عن هذه الحجة الغريبة التي يبدو أن ديدرو قد اعتز بها أيّ اعتزاز:

(19) كان السور ريمبار (Rempart) اسم متنزه باريسيّ جديد ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

«أعتقد أني أَجبتُ «المتعلّم»، أي ابن صاحب لضرائب العام، أقول له إنني لا أرثى للفقراء الذين لمحهم على السور يترقبون فلساً مني، وإنه هو، كما تنبئ المظاهر، قد أعاضهم من فلسي أضعافاً من عنده، وإنني أُنصّبه [أي «المتعلم»] بديلاً عني، وإن فقراء باريس لن يتظلموا من هذا التعويض، ولكني لن أعثر بسهولة على بديل جيد في مثل جودة الأول من أجل فقراء مونمورانسي وهم أحوج إليه أكثر بكثير من فقراء باريس. ولقد كان، ههنا، شيخ طيّب جليل أفنى سنيه وهو يعمل، فلما أعياه العمل، قضى في شيخوخته من فرط الجوع. ثم إن ارتياح ضميري [وعيي] إلى الفلسين، اللذين كنتُ أمنحهما له في كل يوم، قد كان أشدّ من ارتياحه إلى مائة فلس ربما كنتُ وزعتُها على شحاذي السور كافة. وإنكم، معشر الفلاسفة، لمضحكون، إذ تنظرون إلى جميع أهل المدن على أنهم وحدهم القوم الذين يشدّكم إليهم ما عليكم من واجبات. ولكن في الريف يتعلّم الإنسان أن يحبّ الإنسانية وأن يخدمها. أما في المدن، فإنه لا يتعلّم إلا أن يحتقرها».

تلك هي الهواجس والشكوك التي عمد إلى إثارتها رجل فكْر أصابته غباوة أنْ يلوّمني على ابتعادي من باريس زعماً أنه يضرب بمَثَلي أنا برهاناً على أننا لا يسعنا أن نعيش خارج العاصمة اللهم أن نكون أشراراً. ولستُ أفهم، اليوم، كيف حَمقتُ فأجبتُه وغضبتُ بدل أن أجيبه أَسخرُ منه مواجهةً لا غير. لكن مقررات مدام ديبيناي وصيحات العصبة الدولباخية الصاخبة كانت، مع ذلك، قد سحرت العقول تأييداً لهذه السيدة حتى نُظر إليّ، في العموم، وكأني على غير حقّ، وحتى إن مدام دو دوتو نفسها، وهي جد معجبة بديدرو، قد أرادت أن أذهب إلى باريس فأزوره وأبادره إلى إصلاح ما بيننا على نحو إذا كنتُ قد صدقتُ فيه غاية الصدق، فإنه، مع هذا، لم

يدم إلا إلى وقتٍ يسيرٍ. وكانت الحجة، التي تمكنتْ من قلبي والتي استعملتها مدام دو دوتو، هي أن ديدرو كان في شقاء، إذ واجه، فضلاً عن العاصفة التي أثارتها **«الأنسيكلوبيديا»**، إعصاراً عنيفاً جداً بصدد مسرحيته، حتى إنه، برغم الحكاية القصيرة التي جعلها في رأس المسرحية، ظلَّ الناسُ يتهمونه بأن قد أخذها كلها عن جولدوني[20] إن ديدرو، وهو أشدَّ من فولتير تأثراً بالانتقادات، عظمتْ عليه الانتقادات؛ وكانت مدام دو جرّافيني قد حملها الخبثُ حتى أن تشيع أنني، لذاك السبب، قطعتُ علاقتي بديدرو. فوجدتُ أني إذا برهنتُ على نقيض ما أشاعت، أَنصفتُ وأَتيتُ صنعاً كريماً. فشخصتُ إلى ديدرو، فسلختُ يومين، لا معه فحسب، ولكن عنده أيضاً. وكان هذا هو ثاني سفر لي إلى باريس منذ أقمتُ بالإرميتاج. وكنتُ قد سافرتُ أول مرة لأعود جوفكور المسكين إذ اعترته نوبة من داء السكتة لم يشفَ منها قط شفاءً تاماً ولا برحتُ سريره، في أثنائها، إلا بعد ما زال عنه الخطر.

استقبلني ديدرو استقبالاً حسناً. ألا كم من ذنوب استطاع تقبيلُ صديق أن يمحو! وأيّ حقد يمكنه بعدئذٍ أن يبقى في القلب؟ فلم نستفسر عما حصل بيننا إلا استفساراً قليلاً، فالتشاتم بين الناس لا حاجة معه إلى استفسار، وإنما ينبغي فيه شيء واحد وهو أن نعرف نسيان ما قد حصل. ولم يكن ثمة من أساليب خفيّة، في ما علمتُ على الأقل، بل كان الأمر على خلاف ما جرى عليه مع مدام دبيناي. فعرض عليّ ديدرو مخطط **«رب الأسرة»**[21] فقلتُ له: «إن هذا خير دفاع عن **«الابن غير الشرعي»**. فالزم الصمت، واتقنْ

(20) جولدوني (1707-1793) مؤلّف مسرحيّ ـ المترجم.

(21) رب الأسرة (Le père de famille) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

صنعك هذه التمثيلية، ثم أَلقها بغتاً في وجه خصومك على أنها جوابك الأوحد». ففعل ذلك، فحسنَ الشأنُ لديه. وكان قد مضى زهاء ستة أشهر على إرسالي إليه بالجزئين الأولين من روايتي «**جولي**» كيما يبدي لي رأيه فيهما. ولم يكن قد طالعهما بعد؛ فقرأنا معاً دفتراً منهما. فوجد هذا كله «كثّاً» والتعبير تعبيره، أي كثير اللفظ والحشو. وكنتُ، أنا نفسي، قد شعرتُ بذلك، إلا أنه كان ثرثرةَ الحمى؛ فلم يسعني تنقيحه يوماً. أما الأجزاء الأخيرة، فليست على ذلك النحو. والجزآن الرابع والسادس، ولا سيما الجزء الرابع، هما في روائع الكلم.

ثم إن ديدرو، في اليوم الثاني لوصولي، قد أَصرَّ على أن يمضي بي فنتعشى عند السيد دولباخ. ولم يكن هذا ليرتقبنا، إذ كنتُ أريد أن أنقطع حتى عن اتفاقي معه على مخطوط الكيمياء[22] وقد ساءني أن أكون مديناً به لهذا الرجل. فتغلّب عليّ ديدرو في كل شيء، وحلف لي أن السيد دولباخ يودني مودة قلبية، وأن عليّ أن أسامحه بطريقة له في الكلام هي طريقته مع الجميع، وأن أصدقاءه يكابدونها أكثر مما يعانيها غيرهم من الناس. ومثّل لي أنْ إذا أَبَيْتُ حصيل هذا المخطوط، بعد ما رضيتُه لسنتين خلتا، أَهنتُ المعطي إهانة لم يستحقّها؛ كما أنه مثّل لي أن رفضي، هذا، قد يساء تأويله فيُنظَر إليه على أنه خفيٌّ لوم مني لدولباخ في كونه قد أبطأ، طول هذه المدة، عن عقده صفقة الاتفاق. وأخذ ديدرو يقول: «إني ألقى دولباخ في كل يوم، فأنا أدرى منك بما في نفسه. ولو لم يكن ثمة ما يرضيك، أفتظن صديقك يقدر أن ينصحك بعمل خسيس؟ «وخلاصة القول إنني، وأنا على ضعفي

(22) يُظَن أن دولباخ كان قد عهد إلى روسو في الإشراف على طبع كتاب في الكيمياء كان دولباخ قد نقله عن الألمانية- المترجم.

المألوف، أذعنتُ لأقوال ديدرو فذهبنا نتعشى عند البارون. فاستقبلني على حسب عادته. لكن زوجته استقبلتْني ببرودة وأكاد أقول أنها استقبلتني بغير تهذيب. فبتُّ لا أعرف كارولين اللطيفة تلك التي كانت، وهي فتاة، تُظهر لي من جميل الالتفات ما قد أظهرت. وكنتُ قد خيّل إليّ، لوقت بعيد مضى، أَنه مذ جعل جريم يتردد إلى بيت إين[23]، أصبح القوم هناك أقلّ مودةً لي.

وبينا كنتُ في باريس، وصل إليها سان لامبير وقد قدم من الجيش. فلم يبلغني خبرُ وصوله، فلم أَلقه إلا بعد ما رجعتُ إلى الريف، إذ لقيتُه في الشوفريت أول الحال، ثم لقيتُه في الإرميتاج وقد أتاني يتغدى مع مدام دو دوتو. وإنك تتصوّر البهجة التي استقبلتُهما بها! ولكن كنتُ أعظم ابتهاجاً إذ رأيتُهما على تفاهم وانسجام. فأسعدني أن لم أكدّر سعادتهما، وسُررتُ أنا نفسي بها. وأُقسمُ أنه لو أمكنني انتزاع مدام دو دوتو وأنا على هواي المجنون، ولا سيما في ذلك اليوم، لأَبَيتُ انتزاعها، بل ما أُغريتُ به. فلقد ألفيتُها على غاية اللطف إذ أحبّت سان لامبير، حتى كدتُ لا أتصوّر أنه يمكنها أن تكون على هذا المبلغ من اللطف إذا أحبّتني أنا بالذات. فلم أشأ أن أُقلق ما كان عليه من وئام، لكن أقصى ما رغبتُ إليها فيه، وأنا على وجدي وهيامي، هو أن تدَعني أحبّها. ومهما يكن عشقي لها قد تأجّجَ في صدري، فلقد وجدتُ عذوبة مساوية بين أن أكون نجيَّ حبّها، وأن أكون موضوع هذا الحبّ. فلم أنظر يوماً إلى عشيقها وكأنه خصمي، بل نظرتُ إليه دائماً وكأنه صديقي. وسيقال إن هذا لم يكن بعد هو الحبّ: أجل، ولكنه شيء فوق الحبّ، إذاً.

(23) بيت إين مسكن دولباخ ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أما سان لامبير، فلقد سلك سلوكاً كريماً حصيفاً. وأما إذ أذنبتُ وحدي، فقد عوقبتُ وحدي، وكان العقاب حليماً، فقسا سان لامبير في معاملتي، بيد أن معاملته كانت معاملة الصداقة. فرأيتُني قد فقدتُ شيئاً من تقديره لي، ولكن لم أفقد من صداقته شيئاً. فتعزيتُ وعلمتُ أن استعادتي تقديره أهون عليّ من استعادتي صداقته، وأنه أذكى من أن لا يجد فرقاً بين ضعفٍ عابر غير مقصود ورذيلة من رذائل الأخلاق. ولئن أخطأتُ في كل ما جرى، لقد كنتُ فيه على ذنبٍ يسيرٍ. أفأنا هو الذي توخى عاشقة سان لامبير؟ أوَليس هو الذي بعثها إليّ؟ أوَليست هي التي ابتغتني؟ أفكنتُ أقدر ألا أستقبلها؟ وما الذي أمكنني عمله؟ إنما هما وحدهما قد أثما، وإنما أنا وحدي قد كابدتُ هذا الإثم. ولو كان هو في موضعي، لصنعَ مثل الذي صنعتُ، وربما كان أتى شرّاً مما فعلتُ. ومهما تكن مدام دو دوتو وفية، ومهما تكن خليقة بالتقدير والاحترام، فإنها امرأة؛ ولقد كان هو غائباً، فتعددتْ أمامنا الفرص، وهبّت بيننا أسباب الغواية، فتعسّرَ عليها هي أن توفَّق، في كل حال، للامتناع عن رجل هو أَبعدُ إقداماً من سان لامبير. فلم يسعها ولا وسعني، ونحن على ما نحن عليه، أن نقف عند حد لا نجيز لأنفسنا تخطيه أبداً.

ولئن كنتُ، في صميم القلب، قد شهدتُ لنفسي بما يشرفني تشريفاً كافياً، فلقد تحالفتْ عليّ مظاهر جمّةٌ حتى إن خجلي، الذي لا يُقهَر والذي استأثر بي على الدوام، قد أبداني أمام سان لامبير وأنا في هيئة مذنب، فانتهز هو المناسبة لكي يضع مني. وإن نبذة من ذلك واحدة لتصفُ موقفي وموقفه. فلقد كنتُ أقرأ عليه، يوماً بعد الغداء، الرسالة التي كتبتُها إلى فولتير العامَ السابق، وكان سان لامبير قد سمع بها. فغلبه النوم إذ كنتُ أقرأها عليه. أما أنا، وقد كنتُ بالأمس على غاية الزهو وبتُّ يومئذٍ على أقصى الغباوة، فلم أجرؤ

قط أن أتوقف عن القراءة، بل واصلتُها، بينا هو قد واصل الغطيط. تلك هي أعماله التي لا تليق، وتلك هي ضروب انتقامه؛ بيد أن سماحة خُلقه لم تأذن له قط أن ينتقم مني إلا في ما بيننا نحن الثلاثة.

فلما بَرِحَنا سان لامبير مرة أخرى، ألفيتُ مدام دو دوتو قد تغيرتْ عليّ بودها تغيراً عظيماً. فدهشتُ كأنما لا ينبغي لي أن أتوقّع هذا التغير. فأثّر الأمر فيّ تأثيراً هو أشدّ مما كان يجب أن يؤثّر، واعتراني منه ضرر فادح. ولاح لي أن ذاك الذي ارتقبتُ الشفاء على يده لم يزدد إلا إمعاناً في شكّي بالسهم الذي غرّز به قلبي والذي كسّرتُه، في النهاية، أضعاف ما انتزعتُه.

فصمّمتُ أن أنتصر على نفسي حقّ التصميم، فلا أدَع جهداً إلا بذلتُه لكي أحوّل هيامي إلى صداقة صافية مستمرة. فوضعتُ لذلك أجمل ما في الدنيا من مشروعات احتجتُ، من أجل القيام بها، إلى معونة مدام دو دوتو. فلما أردتُ مخاطبتها، ألفيتُها ساهية مرتبكة؛ فشعرتُ أنها عادت لا تستطيب عشرتي، واتضح لي أنه قد جرى ما لم تشأ هي إطلاعي عليه ولا اطّلعتُه في يوم من الأيام. فآسفني هذا التبدل الذي أعياني الوصول إلى تفسيره. ثم إنها سألتْني أن أردّ عليها رسائلها، فرددتُها كلهن بأمانة شكّتْ هي فيها حيناً فأهانتني. فكان شكّها، فضلاً عما سبق، سبباً لتجريحي غير منتظَر، إذ وجب عليها أن تعلم بما بقلبي حقّ العلم. ولقد أنصفتْني في هذا الصدد، ولكن لم تنصف على الفور؛ فأدركتُ أنها لما فتشّتْ في الرزمة التي رددتُها عليها، شعرتْ بخطإها، حتى لقد أدركتُ أنها لامت نفسها على هذا الخطإ. ولم يكن ليُحَقّ لها أن تستعيد رسائلها ما لم تُرجع إليّ رسائلي. فقالت لي أنها أحرقتْها؛ فتجاسرتُ على الشكّ في قولها، وإني لأقرُّ بأنني ما أزال في ارتياب منه.

twitter @baghdad_library

لا، فإن أمثال تلك الرسائل لا تُلقى في النار. ولقد وجد الناس أن رسائل روايتي «جولي» رسائل متأججة؛ فوالله كم كانوا قد قالوا في رسائل تلك! كلا، وكلا، فإن المرأة التي تستطيع أن تُلهم ذلك الهيام، لن تجرؤ أبداً على أن تحرق أدلّته. ولستُ أخشى أن تكون أساءت التصرف في الرسائل، وما أخالها تقوى عليه، فضلاً عن كوني قد نسقتُ رسائلي تنسيقاً حسناً، وكان خوفي أن يهزأ بي الناس، وهو خوفٌ أحمق شديد، قد حملني على أن أبتدئ تلك المراسلة على نحو جعل المكاتيب في مأمن من التداول. وكنتُ قد ذهبتُ في الإلفة مع مدام دو دوتو، وأنا في عنفوان نشوتي، إلى حدّ أني قد خاطبتُها بصيغة المفرد، وأيّ صيغة هي! فما ساءها ذاك، ولا جرم. لكنها اشتكت عدة مرات في غير طائل: فما كانت شكاواها إلا لتوقظ مخاوفي، ولا كان في مكنتي العزم على التقهقر. فإن كانت رسائلي تلك ما تزال موجودة فقرئتْ يوماً، علم الناسُ كيف أَحببتُ.

ثم إن جفاء مدام دو دوتو ويقيني بأني لم أستحقَّه قد حملاني على قرار غريب هو أن أشكو الأمر إلى سان لامبير نفسه. وكنتُ، وأنا أنتظر وقْع رسالتي إليه في هذا الصدد، قد أَقبلتُ على المسلّيات التي كان ينبغي لي طلبها قبْل ذلك الحين. وأُقيمت أيامئذٍ في الشوفريت بعض الحفلات التي وضعتُ لها ألحاناً. فأثار قريحتي لذةُ أن أفتخر أمام مدام دو دوتو بموهبة كانت هي تميل إليها، وشاركَ في إثارة القريحة سببٌ آخر هو رغبتي في أن أدل أن «**عراف القرية**» يحسن الموسيقى، إذ كنتُ، من وقت بعيد، ألاحظ أن أحدهم يعمل خفيةً لإثارة الشك في معرفتي بتأليف الألحان على الأقل. وبدا لي أن مراحل ابتدائي بالموسيقى في باريس، وتجاربَها المتعددة التي واجهتُها عند السيد دوبان وعند السيد دو لابولينيير على السواء، وكثرةَ ما أَلَّفتُ من ألحان من خلال أربع عشرة سنة وسط أشهَر أهل

الفن وبمشهد منهم، وآخراً أن أوبرا «**عرائس الشعر الغزلات**» وأوبرا «**العرّاف**» ولحن الترنيمة التي عملتُها للآنسة فل فأنشدتْها في حفلة الموسيقى الدينيةِ، ووفرةَ محادثاتي على هذا الفن الجميل وقد جرت لي وأعظم أربابه بدا لي أن تلك ألأشياء كلها تنبئ بهذا الشك، أو فهي تبدّده. غير أن الشك قام، مع هذا، في الشوفريت ووجدتُ السيد ديبيناي لم يخلُ منه. فلم أُظهر أني لاحظتُ ذلك، وعمدتُ إلى تأليف ترنمية لتكريس كنيسة الشوفريت، وسألتُه أن يختار للترنيمة الكلمات التي يريد. فعهد في وضعها إلى دو لينان مؤدّب ابنه. فسوّى دو لينان كلمات تناسب الموضوع. فلما تسلمتُها منه، أتممتُ الترنيمة بعد ثمانية أيام. وكان مبعث وحيي مزيج كآبة وغيظ. أما الكلمات، فهذا مطلعها: «ههنا مقام سيد الآلهة الرب الهدّار»[24](*)

وكانت فخامة المطلع تلائم كلماته؛ أما سائر الترنيمة، فعلى صوت قد بلغ من الجميع. فأتيتُ عملاً موسيقيّاً كبيراً. فجمع ديبيناي خير العازفين. وأَنشدت الترنيمة السيدةُ بُرونة، مغنية إيطالية، وكانت مصاحبتها جيدة الألحان. فأصابت الترنمية نجاحاً جد عظيم، حتى أنها أُديتْ بعدئذٍ في حفلة الموسيقى الدينية فقوبلتْ مرتين بمثْل ما سبق أن قوبلتْ به من تصفيق، ذلك على رغم خفيّ الدسائس وضعف العزف. فاقترحتُ لحفلة السيد ديبيناي فكرةَ مسرحية تكون في نوع الدراما وفي التمثيل بالومأ على السواء، ووضعتُ أيضاً ألحان هذه المسرحية. حتى إذا وصل جريم، سمع بأخبار نجاحي الموسيقي. فلما مرت على وصوله ساعة واحدة، لم يبقَ أحد

(24) في الأصل باللاتينية: Ecce sedes hic Tonantis ـ المترجم.

(*) علمتُ، في ما بعد، أن هذه الكلمات هي لسانتوي وأن السيد دو لينان قد استولى عليها بالهيّن.

twitter @baghdad_library

يتحدث بهذا النجاح: إلا أن معرفتي بتأليف الألحان لم تبقَ، في الأقلّ، موضوع جدل، على ما أدري.

وما كاد جريم ينتهي إلى الشوفريت، وكنتُ قد أصبحتُ لا أجد في عيشي هناك لذة بالغة، حتى أكمل سعيه لأن يجعل مقامي بالشوفريت أمراً لا يسعني احتماله، وأَظهرَ لي ما لم أره عند أحد من الناس وما لم تكن لي عنه ولو صورة. وليلةَ وصلَ جريم، أُخرجتُ من الحجرة الخاصة التي كنتُ فيها والتي تلاصق مدام ديبيناي، فجُعلتْ لي حجرةٌ سواها أَبعد منها. فقلتُ للسيدة ديبيناي وأنا أضحك: «هكذا يحلّ اللاحقون محل السابقين». فلاح عليها ارتباك بتُّ أَكثر فهماً لسببه منذ مسائي عينه وقد علمتُ أن بين حجرتها والحجرة التي برحتُها باباً محجوباً لم تجد مدام ديبيناي من نفع في أن تدلني إليه. ثم إن علاقتها بجريم لم يجهلها أحد ممن في بيتها ولا من الجمهور، حتى زوجها كان على علم بتلك العلاقة. بيد أن مدام ديبيناي كانت لا تفتأ تصر كل الإصرار على ألا تُوافق شأني، أنا مستودع الأسرار التي عنتها هي أضعاف ما عناها غير ذلك فأمّنتْ عليها عندي. فأدركتُ أن تحفّظ مدام ديبيناي مصدره جريم الذي أودعتُه أسراري كلها فأبى أن أقف على شيء من أسراره.

ومهما مالت بي إلى هذا الرجل مشاعري السابقة التي لم تكن قد انطفأتْ، ومهما مالت بي إليه جدارته الحقّ، فإن مشاعري وجدارته لم تثبت أمام المجهودات التي بذلها للقضاء على ميلي هذا. وكنتُ إذا قاربتُ جريم، فكأنْ قد قاربتُ الكونت دو توفيير[25]، إذ كان جريم لا يكاد يتنازل بأن يردّ عليّ السلام؛ وبات لم يخاطبني

---

(25) الكونت دو توفيير بطل إحدى روايات ديتوش وعنوانها: **المَجيد** (*Le Glorieux*) - المترجم.

مرة واحدة قط؛ وما لبث طويلاً حتى أصلحني من أن أخاطبه إذ عاد لا يجيبني البتة. وكنا حيث ذهبنا، مرّ هو في الأول، وحيث قعدنا، احتلّ الموضع الأول، ليس يلتفت إليّ أبداً. وما كان في ذلك من بأس، لو لم يعمد إليه بتكلّف جارح يبيّنه حادث واحد أختاره بين ألف حادث. وذاك أن مدام ديبيناي أحسّت، ذات مساء، ببعض التعب، فدعت إلى حجرتها بشيء من طعام، ثم صعدتْ لتتعشى بالقرب من الموقد. واقترحتْ عليّ أن أصعد معها، ففعلتُ. ثم أَقبل جريم. وكانت المائدة الصغيرة قد وُضعتْ ليس عليها إلا لشخصين. فقُدّم الأكل، وكانت مدام ديبيناي قد استوت عند إحدى زاويتي الموقد، فحمل السيد جريم مقعداً واستوى عند الزاوية الأخرى فجرّ المنضدة الصغيرة فجعلها بينهما، ثم فتح منشفة المائدة وابتدأ يأكل لم يكلّمني بحرف واحد. فخجلت مدام ديبيناي فقدَّمتْ لي مقعدها تحثّ جريم على أن يستدرك غلاظته. فلم يقل شيئاً ولا نظر إليّ. فلما لم يسعني الاقتراب من الموقد، طفقتُ أذرع الحجرة ريثما وُضعَ لي على المائدة. فتركني جريم أتعشى عند طرف المنضدة بعيداً من النار، لم يُبد لي أيسرَ أدب ولا تهذيب وقد تضيّقتُ وكبرتُه بالسن وسبقتُه إلى ذلك البيت وعرّفتُه إلى ذويه فوجب عليه إكرامي وأنا صاحب حظوة عند ربة الدار. ولقد كان سلوكه مني كله على هذا النحو. فلم يعاملني وكأنما أنا دونه في وجه التدقيق، بل نظر إليّ وكأني لا شيء. فشقّ عليّ أن أعرف فيه، ههنا، المدعي المضحك، الغليظ، الذي كان، وهو عند أمير ساكس جوتا، يتشرف إذا التفتُّ إليه. ولقد وجب عليّ، فوق ذلك، أن أوفّق بين صمته العميق وانتفاخه المهين وبين صداقته لي الرقيقة التي كان يعتز بها أمام جميع الذين يعلم أنهم أصدقائي. ولا يخفى أنه لم يُظهر هذه الصداقة إلا كيما يرثي لنصيبي الذي لم أتظلّم منه قط، وإلا كيما يرقّ لمصيري المؤسف الذي كنتُ راضياً به، وإلا كيما يغتمّ إذ

twitter @baghdad_library

تأبّيتُ ما زعم إسداءه إليّ من عناية وإحسان. فعمد إلى هذه الطريقة البارعة لكي يثير الإعجاب بتكبره العطوف، ولكي يبعث اللوم عليّ لنفرتي وإنكاري الجميلَ، ولكي يعوّد الناس، في شيء بعد شيء، أن لا يتصوّروا، بين نصير مثله وتعسٍ مثلي، من صلات غير إحسانه إليّ من ناحية، وغير ما أنا مدين به لمننه من ناحية أخرى، فلا يقدّروا أن في علاقتنا صداقة الند للند، وهي صداقة كانت في الممكنات. أما أنا، فلقد فتشتُ عما عساي أكون مديناً به لهذا السيد الجديد، لكن تفتيشي ذهب دون طائل. فلقد أَقرضتُه مالاً، فلم يسلفني من مال قط؛ ولقد لزمتُه في مرضه، فكاد لا يعودني إذ أنا مريض؛ ولقد نفحتُه بأصدقائي كافة، فلم ينفخني قط بأحد من أصدقائه؛ ولقد مدّحتُه ما استطعتُ، أما هو. فإن يكن قد مدّحني، فإنه لم يجهر بهذا كما جهرتُ به، وكانت طريقته على غير ما سلكتُ. ثم إنه لم يُسد إليّ ولا اقترح عليّ من خدمة قط كائنة ما كانت. فكيف بات نصيري؟ وكيف بتُّ صنيعتُه؟ لقد فاتني معرفة ذلك وما تزال.

هو صحيح أن جريم كان، من علاقة الأعلى بالأدنى، في تكبّر على الجميع، إلا أنه لم يتكبّر على أحد كما تكبّر عليّ غلظةً منه وشراسة. وأذكر أن سان لامبير كاد يرميه بالصحن على رأسه وقد كذّبه جريم في أثناء الطعام يقول له بفظاظة: «هذا غير صحيح». ثم إنه كان يضيف، إلى نبرته القاطعة، اكتفاءَ المحدَث النعمة؛ ولقد أصبحَ مضحكاً لفرط ما كان وقحاً، وأُغريَ بمعاشرة الكبار، حتى إنه جعل يتردى بهيئة ليس إلا عند أخفّهم عقلاً. فلم يكن ينادي خادمه بسوى قوله: «آه!» كأن سيدنا لم يدر أيّاً من رجاله الكثر يتولى حراسته. وكان إذا كلَّف خادمَه بعض الأعمال، يرمي إليه بالنقود على الأرض بدل أن يناوله إياها، ثم ينسى كل النسي، في آخر الحال، أن خادمه إنسان، فلا يفتأ يعامله معاملة بالغة الاحتقار، قاسية،

مؤثّرة، حتى إن هذا الفتى المسكين، ـ وهو امرؤ طيّب كانت مدام ديبيناي قد جعلتْه لجريم، قد ترك خدمته لا لسبب إلا لعجزه أن يكابد مثل تلك المعاملة: فكان هو لافلور[26] هذا الممجَّد الجديد.

وكان جريم على سوية صلف وزهو، وقد تشوف إلى النسوان برغم عينيه الواسعتين، الكليلتين، وهيئته المخلعة المترهلة. وكان، منذ المغامرة المضحكة الغليظة التي جرت له مع الآنسة فل، تنظر إليه كثرة نساء على أنه رجل عظيم المشاعر. فأصبح وقد شاع زيه ومال إلى نصوع المرأة ذوقه، فقام يمثل دور الشخص الوسيم الجميل، فأمست زينته على شأن خطير، وعلم الجميع أنه كان يحسن بشرته بخضاب أبيض اللون، أما أنا الذي لم يكن ليصدق ذلك، فلقد ابتدأت أصدقه، لا لأن بشرته تحسنت، ولا لأني رأيت على منضدة زينته بعض طاسات الخضاب الأبيض، ولكن لأني، لما دخلت حجرته ذات صباح، ألفيته يلمع أظافره بفرشة صنعت لهذا على الخصوص، فواصل فعلته أمامي يتيه ويتعظم. فوجدت أن الرجل، الذي يمضي ساعتين من كل صباح وهو يلمع أظافره، ربما سلخ بعض الوقت وهو يبيض ما تجعد من بشرته، وكان جوفكور، الإنسان الطيب غير الخبيث ولا السيء النية، قد لقبه، في شيء من المزح بـ «**المستبد الأبيض**».

ولم يكن ذلك كله إلا في المضحكات، بيد أن طبعي قد نفر منها فأتم شكي في طبعه. وشق علي أن أتصور أن الرجل، الذي أعجب بنفسه على هذا النحو، قد أمكنته الصيانة لشرفه قلباً وشعوراً. فلم يكن جريم أوفر ادعاء لشيء منه لرقة النفس وقوة الإحساس. فكيف تلاءم ذلك وما قد اختصت به صغار النفوس من نقائص

---

(26) لافلور، أي الزهرة، هو اسم خادم الكونت دو توفيير بطل رواية **المَجيد** وقد تقدّم ذكرها في هذا الفصل من هذا الكتاب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وعيوب، والقلب المرهف، الذي لا تنفك تهزه المشاعر، كيف تدعه هذه في شغل عنها موصول، وصاحبه قد عني بشخصه الكريم هذه العناية الفائقة الدقيقة؟ أي والله! إن من يحسن تلك النار الإلهية، وقد أججت فؤاده، يحاول الإفصاح عن خلجاته يريد أن يبدي ما بدخيلته، فيود لو يجعل قلبه على صفحة وجهه، إذ هو لا يتصور من زينة غير ذلك أبداً.

وتذكرت مجمل أخلاق جريم، وكانت السيدة ديبيناي قد أوردته لي وأخذت به. وهذا المجمل نبذة يتيمة مؤداها أن على الإنسان أن يتبع ميوله القلبية جميعاً، فلما تعلمت هذه الأخلاق، حملتني على تفكر عسير، وإن كنت يؤمئذ لم أحسبها إلا ضرب لهو ومزاح. ولكن ما لبثت أن وجدت أن هذا المبدأ هو، في الواقع، قاعدة سلوك جريم، ولم أوت، في ما بعد، إلا جم أدلة عليها، ولقد تجشمت بها الصعاب. وكان ذلك هو العقيدة الجوانية التي طالما كلمني عليها ديدرو، بيد أنه لم يفسرها لي قط.

وتذكرت ما نبهت عليه مراراً، لعدة سنوات خلت، إذ قيل لي إن هذا الرجل شخص زيف، وإنه يتكلّف رقة الشعور، لكنه لا يميل إليها على الخصوص، فخطرت ببالي جملة نوادر يسيرة كان قد رواها لي، في هذا الصدد، السيد دوفرنكوي والسيد دوشونوسو، وكلاهما لم يكن يحترم جريم إذ قد عرفه، وذلك لأن السيدة دو شنونوسو هي بنت السيدة دوروشوشوار، الصديقة الحميمة للمرحوم الكونت دو فريز، ولأن السيد دو فرنكوي، وهو يومئذ قد تمكنت علاقته بالفيكونت دو بولينياك، كان قد أقام في الباليه رويال[27] ردحاً

(27) الباليه رويال قصر الدوق دورليان، وكان جريم قد أصبح كاتب سره من بعد وفاة الكونت دو فريز ـ المترجم.

من الزمن، ولا سيما حين ابتدأ جريم يغشى ذلك القصر، فعملت باريس كلها بالخيبة التي مني بها جريم بعد وفاة الكونت دو فريز. وكان قوام الحال أن يظهر جريم أنه خليق بالشهرة التي خلعها على نفسه بعد ما جفته الآنسة فل، ولو أنني وقتئذ أقل عمها، لكنت أحسن رؤية لتكبّره من سواي. فوجب سوقه إلى قصر دوكاستري[28]، فقام هناك بدوره على ما يليق وقد تملكه أمضّ اكتئاب. فكان يذهب إلى الحديقة في كل صباح فيبكي ما شاء البكاء ويجعل على عينيه منديله وقد غمرته الدموع، ذلك ما دام هو بمشهد من في القصر، لكنه لما وصل مرة إلى منعطف بعض الأشجار، إذا بأناس لم ينتبه لهم قد أبصروه يعيد منديله إلى جيبه فوراً ويتناول منه بعض الكتب. فرددوا ما أبصروا، فتناقل الناس الخبر، فما عتم أن شاع ملء باريس، ثم نسي بعد وقت قريب. وكنت أنا نفسي قد نسيته، فذكرنيه شيء يتصل بي. وذاك أني كنت يوماً بحجرتي في شارع جرونيك وأنا على أشد البؤس، وكان جريم بالريف، فأتى في الصباح يزورني وهو يلهث، فقال إنه قد وصل في ساعته، فعلمت بعد قليل أنه وصل البارحة وأنه شوهد، اليوم عينه في بعض المسارح.

ولقد عاودني ألف خبر كهذا الخبر، بيد أني فوجئت إذ لحظت، بعد طول لأي، ما قد بلغ مني فوق ذلك أضعافاً، وكنت قد نفحت جريم بأصدقائي كافة لم أستثن منهم احداً، فباتوا بأسرهم أصدقاءه. وصعبت علي مفارقته إلا ندراً، حتى كدت لا أبغي التردد إلى كل بيت لم يتح لجريم أن يغشاه. وكانت السيدة دو كريكي هي وحدها التي أبته في دارها، فلم ألبث طويلاً حتى كدت أنقطع عن

(28) قصر دوكاستري: يقول بعض المختصين بأدب روسو، ولا سيما بـ **الاعترافات**، إن روسو قد يكون أخطأ في التسمية، لأن جريم لم يلتحق بالمارشال دوكاستري، بل التحق بالمارشال دستريه ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

زيارتها. ولقد اتخذ جريم، من جهته، أصدقاء آخرين هم في طينته وطينة الكونت دو فريز على السواء. فمن أولئك جميعاً لم يصادقني أحد قط، ولا قال لي جريم قط ما يحثني على أن أتعرف بهم في الأقل، ومن بين جميع أصدقائه، الذين لقيتهم عنده، لم يعرب لي أحد قط عن أيسر لطف ومراعاة، حتى الكونت دو فريز، وقد كان جريم يقيم بداره، وقد طاب لي أن أجعل بيني وبينه بعض أسباب الاتصال، وحتى الكونت دو شومبرج نسيب الكونت دو فريز، وقد كانت علاقة جريم به أمتن ألفةً وإيناساً، ـ حتى هذا وذاك لم يعربا لي عن شيء من اللطف والمراعاة.

وإليك ما هو أشدّ من ذلك: فإن أصدقائي أنفسهم، الذين صيرتُهم أصدقاء له والذين كانوا تعلُّقهم بي وثيقاً قبلما عرّفتُه إليهم، قد تولوا عليّ بمودتهم بعدما عرفوه. ثم إن جريم لم يولني قط أحداً من أصدقائه؛ أما أنا فلقد أوليتُه أصدقائي كافة فانتزعهم مني أجمعين. فإن كانت هذي هي عواقب الصداقة، فما الذي تكون عليه تبعات الحقد؟

حتى ديدرو نبّهني مراراً في البداية يقول لي إن جريم الذي ركنتُ إليه حقّاً ليس بصديقي. فلما لم يبقَ ديدرو هو بالذات صديقي، غيَّر قولَه.

وكانت الطريقة، التي بها تصرفتُ في أولادي، لا حاجة لها إلى معونة أحد. ولكن، مع ذلك، أطلعتُ عليها أصدقائي، لا لداع إلا لكي أنبئهم إياها فلا أبدو لهم وأنا أَفضل مما كنتُ فيه. أمّا أصدقائي هؤلاء، فقد كانوا ثلاثة: ديدرو وجريم ومدام ديبيناي؛ وأما دوكلو، وهو أولاهم بالمسارّة، فقد كان الصديق الأوحد الذي لم أسارّه بهذا الشأن.

فبلغه، مع ذاك، خبره؛ فمن ذا الذي أَخبره به؟ لستُ أدري. ويكاد يُستبعَد أن يكون منشأ الخيانة هو مدام ديبيناي التي أدركتْ أنني لو حذوتُ حذوها من هذا القبيل، ـ ذلك إن استطعتُ أن أفعل، ـ لتسنى لي الانتقام منها. يبقى جريم وديدرو، وهما يومئذٍ قد تحالفا على أمور جمّة ولا سيما عليّ أنا، حتى إنه في الثابت أنهما قد اجترحا معاً هذا الجرم. وإني أُراهن أن دوكلو هو الشخص الأوحد الذي كتم سرّي، إذ لم أَبح إليه به، فبات وهو حرّ التصرف فيه.

وكان في نية جريم وديدرو أن ينتزعا مني مدبّرتي بيتي، فاجتهدا في حمل دوكلو على أن يشاركهما في ما يرتئيان، فأبى ذلك بازدراء. فلم يبلغني كل ما جرى بينهم على هذا النحو إلا في ما بعد؛ لكن تيريز كانت منذئذٍ قد نبّأتني بما يكفي لأن يريني أن في ذلك كله بعض المرامي السرّية وأنه قد ابتُغي التصرف في شأني تصرفاً إن لم يكن على غير ما أَردتُ، فإنه، في الأقل، كان على غير ما علمتُ؛ أَم ربما قُصد إلى استخدام هذين الشخصين لأجل بعض خوافي الأغراض. وما ذلك من الاستقامة على وجه التأكيد، كما تدلّ عليه معارضة دوكلو له معارضةً قاطعة. فمن شاء فليحسبْه من الصداقة.

ثم إن هذه الصداقة المزعومة كانت منحوسة السعد عليَّ في الظاهر مني والباطن. فالأحاديث المسهبة المتعددة التي كانت تدور مع السيد لوفاسور منذ سنوات قد بدّلتْ موقف تلك المرأة حيالي تبديلاً محسوساً ليس به نفعي ولا ريب. فعلامَ جرى الكلام في تلك الخلوات الغريبة؟ ولِمَ هذا السرّ العميق؟ وتلك العجوز أممتعٌ حديثها فيختلى معها خفيةً؟ أوَ خطير هو فيحاط بهذا السرّ الكثيف؟ لقد لاح لي أن تلك الأحاديث، التي كانت لا تزال تدور من ثلاث سنوات أو

twitter @baghdad_library

أربع، إنما هي في المضحكات. فلما عدتُ إلى التأمل فيها، ابتدأتُ أتعجب منها. ولو بلغني، منذئذٍ، ما كانت تعدّه لي تلك المرأة، لانتهى بي التعجب إلى درجات القلق.

لم يأتني من جريم، في أيّ وجه كان، ما أنتفع به، بالرغم من الحميّة المزعومة التي أبداها هو لي تبجحاً والتي صعب أن تنسجم هي وموقفه مني. أما رقّته لي، وقد كان يتظاهر بها، فلقد أذلّتني أضعاف ما خَدمتْني. حتى إنه قد سعى جهده يريد أن يحرمني مورد المهنة التي اخترتُها ينتقد عليّ كوني ناسخاً للإلحان رديء الصناعة؛ وإني لأوافقُ على أنه قال فصدَق، ولكن ما كان لينبغي له هو أن يأتي بهذا القول. فأَثبتَ جريم أنه لم يكن يهزل، إذ استخدم ناسخاً غيري، وإذ لم يتهيأ له أن ينتزع مني كل شغل لي بالنسخ إلا فعل. فكأنما قد نوى أن يقف شأنَ قوّتي على ما يريد هو بي وعلى حظوتي عنده فلا ينفكّ يضيّق عليّ حتى يلجئني إليه.

فكان من مجمل ذلك كله ما حدا تعقّلي على أن يُسكت ميولي إلى جريم السابقة التي كانت لا تزال تتكلّم. فوجدتُ أن طبعه، في الأقل، مثارُ شكّ بعيد. أما صداقته، فلقد قطعتُ بأنها مزيفة. ثم عزمتُ ألا ألقاه بعدئذٍ على الإطلاق، فأنبأتُ مدام ديبيناي بما عزمتُ عليه وأَيدتُ قولي بعدة أمور قد وقعتْ، ولا ريب، ولكن نسيتُها الآن.

قاومت مدام ديبيناي ما عزمتُه مقاومةً شديدة وكادت لا تدري بم تجيب عن الأسباب التي بَنيتُ عليها قولي، وهي يومئذٍ لم تتشاور مع جريم بعد. فلما أصبحنا من الغد، ناولتْني رسالة جد بارعة، بدل أن تفهمني الأمر شفاهاً. وكانت هي وجريم قد سوّدا هذه الرسالة التي لم تعمد فيها مدام ديبيناي إلى شيء من تفصيل ما قد جرى، بل أخذتْ تبرئ الرجل تقول إنه على انطواء سجيةٍ قليلة الكلام

وتلوّمني على اتهامي إياه بخيانة صديقه وتحضّني على مصالحته. فزعزعتْني هذه الرسالة، وتجدها في الرزمة أ، الرقم 48. ثم بعد ذلك دار بيننا حديث رأيتُها فيه أوفر استعداداً مما كانت عليه في المرة الأولى، فأتمت إقناعي والتغلب عليّ، فانتهيتُ إلى القول بإني أسأتُ الظن بصديق لي قد وجبتْ عليّ حقّاً إعاضته مما بهظتُه به من فادح الأضرار. وخلاصة القول أني قمتُ بما تقدّمَ لي القيام به مراراً مع ديدرو ومع البارون دولباخ عن رغبة مني وضعفٍ على السواء، فسبَقتُ إلى ما قد حُقَّ لي الإصرار على أن أسبق إليه، إذ قصدتُ السيد جريم وكأني جورج داندان آخر[29]، فاعتذرتُ إليه عما قد أصابني هو به من ضروب الإهانة. وكنتُ في مضلّة ذلك الاقتناع الذي حملني على إتيان ألف دنيئة بحضرة من تظاهروا بأنهم لي أصدقاء والذي حملني على الاعتقاد أن لا ضغينة إلا غلبتْها الوداعة والحسنى، بينما الأشرار لم تزدد ضغينتهم إلا استفحالاً إذا عجزوا عن إسنادها إلى أساس، فبات شعورهم بأنهم جائرون إن هو إلا جديد لومٍ لمن قد جاروا عليهم. ثم إن لديّ، ـ وأنا لا أحيد عن قصتي نفسِها، ـ برهاناً على هذه الحكمة رائعاً أجده عند جريم وعند ترونشان، وكلاهما قد بات لي ألدَّ عدّو عن ميل منه ولذة وهوًى، ولكن لم يسعه الادعاء أني أضررتُ أحداً منهما في أيّ شيء كان[*]، فأرغى حقداً وأزبد يوماً فوق يوم، حتى كأن هذا الحقد هو ضغينة النمر قد استشْرتْ كلما سهل عليه إشباعها.

(29) جورج داندان بطل تمثيلية لموليير بهذا العنوان تتضمن أن جورج داندان قد أجبره حموه على الاعتذار إلى كليتاندر عما كان هذا قد اتهم به داندان زوراً ـ المترجم.

(*) ثم بعدئذٍ لم أُلقب ترونشان بالمشعوذ البهلوان إلا وقد انقضى ردح من الزمن على خصومته لي العلنية وعلى الاضطهادات الدامية التي تسَّببَ لي بها في جنيف وفي غيرها. ثم عتّمتُ أن أسقطتُ عنه هذا اللقب حين ألفيتُني أنا وحدي ضحيّته. فقلبي لا يليق به أن يعمد للانتقام الخسيس، والضغينة ليس لها فيه من محلّ أبدًا.

twitter @baghdad_library

فلما تنازلتُ لجريم أبادره إلى المصالحة، توقَّعتُ أن يفتح لي ذراعيه يتلقاني بأطيب مشاعر الصداقة. فاستقبلني وكأنه أحد قياصرة روما استقبالَ تجبّرٍ لم أكن قد بلوتُ مثله عند أحد قط. وما كنتُ على أهبة لهذا الاستقبال. فارتبكتُ إذ قمتُ بدور لم يُجعل لي، فأتممتُه بيسير قول وحييّ هيئة، حتى إذا فرغتُ مما لأجله قصدتُ جريم، قام هو يلقي عليّ خطبة جزلة طويلة كان قد أعدّها، فنطق بها نطقاً فخماً عظيم الجلال، وضمَّنها ما قد رُزق من جمّ الفضائل النوادر ولا سيما في باب الصداقة. ولقد استرسل أيّ استرسال في ما دهّشني أولَ الأمر، إذ قال إن أصدقاءه هم هم على الدوام. وبينا كان يتكلّم، أنشأتُ أقول في نفسي إنه يؤلمني أن أشذ وحدي عن هذه القاعدة. فما برح يكرر قوله في هذا الصدد، على تكلف منه بالغ، حتى أَوقعَ في روعي أنه لم يلبّ، ههنا، إلا مشاعره القلبية، غدت هذه القاعدة أقلّ تأثيرا فيه، وأنه يتخذها وسيلة يؤيد بها نظراته في ما يوصله إلى غرضه من هذا القبيل. وكنتُ، إلى ذلك الحين، في مثل حالته، إذ احتفظتُ بأصدقائي على الدوام فلم أَفقد، مذ أوائل طفولتي، أحداً منهم إلا أن تخترمه المنون؛ لكني، مع ذلك، لم أكن قد فكرتُ في الموضوع ولا اتخذتُ لي فيه قاعدة أضعها لنفسي على هذا النحو. وما دام في الأمر فائدة لأحدنا وللآخر مشتركة، أفكان هو يعمد إلى التبجح بها لو لم يفكر في أن يحرمنيها؟ ولقد حرص جريم، بعدئذٍ، على الحط مني يسوق الأدلة على أن أصدقاءنا المشتركين يفضّلونه عليّ. وكنتُ في مثل علمه بهذا التفضيل، غير أن المسألة كانت أنْ كيف ظفر هو بإيثارهم؟ أعن حَقّ جدارة وبراعة وسموّ ذات، أم عن سعي منه لوضعي وإذلالي؟ فلما أقام، في النهاية، ما شاء أن يقيم من فرْق بينه وبيني شاسعٍ خليقٍ بأن يجعل قيمةً لما كان هو فيه من سبيل العفو عني، أنعمَ عليّ بقبلة السلام في عناق سريع يشبه قبلة الملك للفرسان الجدد. ففوجئتُ

ودُهشتُ لم أدر ماذا أقول ولا اهتديتُ إلى وجه الكلام. فكان المشهد برمّته كمشهد المؤدّب قد أنّب تلميذه وأعفاه من السوط. فلم أفكر في ذلك مرة إلا وأدركتُ كم هي مظلّلة الأحكام التي تبنى على المظاهر والتي يهتم بها عامة الناس أيّ اهتمام، وإلا أدركتُ أن الجرأة والإباءة كثيراً ما تكونان في جهة المذنب، وأن الحياء والارتباك كثيراً ما يكونان في جانب البريء.

فتصالحنا، فكان في هذا تعزية لقلبي على كل حال، إذ كل خصومة فهي، عندي، علّة قلق شديد. ولا مرية في أن مثل هذه المصالحة لم تبدّل سلوك جريم، لكنها حرمتْني حقّ التظلم منه. فآثرتُ أن أقاسي كل شيء لستُ أشكو ولا أتألم.

وتوالت عليّ الأحزان تلقيني في نصَب كاد لا يبقي لي من قوة أعود معها قادراً على امتلاك نفسي. فلما لم يرد عليّ جواب من سان لامبير، ولما أهملتْني مدام دو دوتو، ولما أصبحتُ لا أتجاسر أن أُشرع قلبي لأحد، ابتدأتُ أخاف من أني إذا عبدَ الصداقةَ قلبي، أفنيتُ العمر وأنا ضحية الأوهام. ولقد كنتُ بلوتُ ما بلوتُ، فلم يبقَ لي من جميع مَن عرفتُ إلا رجلان قد استأهلا تقدْيري حقّاً وأمكنتْني الثقة بهما، أعني دوكلو، وكان قد غاب عني من يوم خلوتي في الإرميتاج، وسان لامبير. فألفيتُني لن يتهيأ لي إعاضةُ سان لامبير من خطإي إليه ما لم أُخل له قلبي دون تحفظ، فصممتُ أن أعترف إليه، في ما لا يحرج عشيقته، اعترافاً وفياً شاملاً. ولا ريب عندي أن اختياري، هذا، قد كان شركاً جديداً نصَبه لي هواي حتى لا أفتأ على مزيد اقتراب من مدام دو دوتو. لكن المؤكد أني لو اعترفتُ، لارتميتُ بين ذراعي عشيقها بلا تحفظ فسرتُ على كل ما أرادني أن أسير عليه، ولذهبتُ معه في المصارحة إلى أقصى حدود الإمكان. ولقد كنتُ على وشك أن أبعثَ إليه برسالة أخرى أيقنتُ أنه سيجيبني

twitter @baghdad_library

عنها، فبلغني الداعي المؤسف الذي أسكته عن رسالتي الأولى. وذلك أنه كان قد أعياه أن يحتمل متاعب الريف حتى النهاية. فأنبأتني مدام ديبيناي أن قد انتابه الشلل؛ أما مدام دو دوتو، فإنها، هي نفسها، قد اعتلّت لما أصابه، فلم يسعها أن تكتب إليّ به على الفور، فذكرتْ لي بعد يومين أو ثلاثة، وهي وقتئذٍ في باريس، أنه أخذ يُحمَل إلى إكس لا شاييل كي يستحم بمياهها. ولستُ أقول إن هذا النبأ المؤسف قد أحزنني بقدْر ما أحزن مدام دو دوتو، ولكن لا أشكّ أن ما قد حزّ في صدري لم يكن أقلّ إيلاماً من حزنها ودموعها. فإنّ حزني على كون سان لامبير في تلك الحالة قد أذكاه خوفي من أن تكون هواجسُ القلق قد شاركتْ في ما حلّ به، فبلغ مني جماعُ الأمر أضعاف ما أثّر فيّ كلُّ ما كان قد وقع لي إلى ذلك الحين. فشعرتُ، في ما قدّرتُه نفسي، بأنني قد أعوزتني القوة على أن أطيق هذا الغم بأسره؛ وكان شعوري هذا أليماً. ولكن في حسن الحظ أن صديقي الكريم لم يدَعني في نصبي ردحاً من الوقت؛ إذ لم يسهُ عني برغم إصابته، وما لبثتُ حتى أخبرني، هو نفسه، أن قد أسأتُ بمشاعره وبحالته ظناً. أما بعد، فلقد حان لي أن أصل إلى ثورة مصيري الكبرى، إلى الكارثة التي شطرتْ حياتي شطرين جد متباينين، والتي نجم عن سبب فيها يسيرٍ تبعاتٌ مرّوعاتٌ شدائد.

فبعثت مدام ديبيناي تدعو بي، ذات يوم، وأنا على أبعد ما يخطر لي ذلك. فلما دخلتُ عليها، رأيتُ عينيها وهيئتها جميعاً في قلق أدهشني أمره ولا سيما أنه لم يكن من عادتها في شيء، إذ ليس في الناس من هو أقدر منها على أن يمتلك هيئته وحركاته. فقالت لي: «صديقي، إني ذاهبة إلى جنيف، فصدري قد ساءت حالته وصحتي على انحطاط، حتى إنه يجب أن أنتهي عن كل أمر فأمضي أزور ترونشان فأستشيره». فاستغربتُ ما عزمتْه بغتةً ونحن على

مدخل الشتاء، وخصوصاً أنني كنتُ قد برحتُها لست وثلاثين ساعة خلتْ فلم تذكر لي ما تقوله الساعة. فسألتُها أن من تستصحب، فقالت إنها مستصحبة ابنها والسيد دو لينان[30] ثم أضافت تقول من دون اكتراث: «وأنت، يا صديقي النفور، ألا تأتي كذلك؟» فلم أصدّق أنها قد جدّت في الكلام، وكنتُ أعلم، ونحن بالفصل الذي دخلنا فيه، أنني أكاد لا أقوى على الخروج من حجرتي، فأخذتُ أداعبها في ما لصحبة العليل من نفع للعليل الآخر؛ ولاح أنها، هي نفسها، لم تكن جادة في ما اقترحتْ عليّ فلم يُذكَر ثانية قط. وبتنا لا حديث لنا إلا إعداد سفرها وقد شغّلها فنشطتْ له إذ صمّمتْ على الارتحال بعد خمسة عشر يوماً.

وما كنتُ في حاجة إلى بُعد إدراك فأَفهمَ أن لسفرها سبباً خفياً قد كتمتْنيه. وهذا السبب، الذي لم يخفَ سرّه إلا عليّ دون سائر منْ في البيت، كشفتْه تيريز من غدنا إذ أفشاه لها تيسييه رئيس الخدم وقد أطلعتْه عليه الخادمة. ولئن كنتُ غير مدين به للسيدة ديبيناي ما دامت لم تخبرنيه، فإنه قد اتصل بمن أنبأني به اتصالاً هو أوثق من أن يسعني فصله عنهم، فلذلك أَسكتُ عن الموضوع. بيد أن تلك الأسرار، التي لم أنطق بها يوماً ولا كتبتُها قط والتي لن تنطلق عن لساني ولا عن شقّ قلمي أبد الدهر، كانت قد فشت في القوم على نحوٍ هو أمدى من أن لا يعلم به إلا الذين لابسوا مدام ديبيناي.

ولو أن داعي سفرها بلغني حينئذٍ على حقيقته، لعرفتُ فيه يد عدوّ قد قامت تسعى في الخفاء تحرّض مدام ديبيناي على أن أرافقها. ولكن لم تلحّ عليّ أن أصحبها، فبقيتُ لا أجد في هذا السعي محاولةً جدّية؛ ولو حمقتُ فرافقتُ مدام ديبيناي، لكفى بذاك

(30) مؤدّب ابنها وقد مرّ ذكره ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

إضحاكاً لي من الهيئة التي كنتُ ظهرتُ فيها. ثم إن رفضي قد عاد عليها منه نفع جزيل، لأنها استطاعت إقناع زوجها، هو نفسه، بأن يصحبها[31]

فلما مرّت عدة أيام، وردتْ عليّ من ديدرو الرقعة التي أنسخها في ما يلي، وكانت قد طُويتْ طيتين فتيسرتْ قراءة كل ما بداخلها، ووُجّه بها إليّ عند مدام ديبيناي، وجُعلتْ في عهدة السيد دو لينان مؤدّب الابن ونجيّ الأم.

رقعة ديدرو، الرزمة أ، الرقم 52.

«إني جُعلْت لأجل أن أُحبّكَ وأُحزنك. فلقد بلغني أن مدام ديبيناي شاخصة إلى جنيف، ولم أسمع بأنك مرافقها. فيا صديقي، إذا كنتَ راضياً عن مدام ديبيناي، حَقّت عليك مرافقتها؛ وإذا لم تكن راضياً عنها، حَقَّ عليك أن تغدو إلى مصاحبتها أسرع. أيبهظك عبءُ ما أنت مدين لها به؟ فهذه فرصة قد سنحتْ لكي توفّيها بعضاً منه فتستريح. أوَ يقدَّر لك سانحةٌ في العمر أخرى فتعبّر لها عن عرفانك الجميل؟ ثم إنها ذاهبة إلى بلد ستكون في عجب منه شديد. وإنها لمعتلّة، وستحتاج إلى ما يسلّيها ويلهي. الشتاء! فانظرْ، صديقي، فقد تكون موانع صحتك فوق ما أحسب. ولكن حالك الآن أَشرٌّ هي مما كنتَ عليه لشهر مضى ومما أنت صائر إليه في أوائل الربيع؟ أَبعْد ثلاثة أشهر يبيت سفَرك أَنعم راحةً منه اليوم؟ أما أنا فأقرُّ لك بأني لو كنتُ لا أحتمل المحفّة، لتناولتُ عصاً فتبعتُها. ثم ألا تخشى أن يؤوَّل هذا السلوك منك تأويلَ سوء؟ فتُتهمَ إما بإنكار الجميل وإما بشيء آخر خفيّ. وإني لأعلم علم اليقين أنك مهما

(31) ترى فئة من الباحثين في «**الاعترافات**» أن روسو يشير، ههنا، إلى أن السيدة ديبيناي قد حملتْ من جريم ـ المترجم.

تعمل، يشهد لك أبداً ضميرُك، ولكن أهذه الشهادة وحدها تكفي؟ أوَ يجوز أن تهمل ما يشهد به غيرك بعض الإهمال؟ ثم إني أكتب إليك، يا صديقي، هذه الرقعة لكي أبرئ ذمتي عندك وعندي. فإن لم ترقْك، فأطرحْ بها في النار، ولا تذكرْها ثانية، فكأنما هي لم تُكتَب قط. حيّيتُك، وأحببتُك، وقبّلتُك».

فأخذتُ أرتجف غضباً وقد بهرتْني قراءة هذه الرقعة حتى كدتُ لا أقوى على إتمامها؛ بيد أن ذلك لم يحل دون ملاحظتي البراعة التي أظهرها ديدرو وقد تكلّف من النعومة واللطف والأدب شيئاً يفوق ما بسائر مكاتبيه التي كان يقول لي فيها على الأكثر: «عزيزي»، ليس يتنازل بأن يدعوني صديقاً. فسهلَ عليّ أن أعلم من أين ارتدّت إليّ تلك الرقعة التي كانت عنوَنتُها وصياغتها وسياقتها تفضح ما كمنَ من قصدها على غير حذق. ولقد كان في عادتنا أن نتراسل بالبريد، أو على يد ساعي مونمورانسي، فتلك أول مرة عمد فيها ديدرو إلى مثل هذه الوسيلة.

فلما مكّنتني من الكتابة فورةُ غضبي واستيائي، كتبتُ إليه على عجل الجواب التالي نصه، فحملتُه من ساعتي إلى الإرميتاج لكي أُطلع عليه مدام ديبيناي، إذ أَردتُ، وأنا في عمة الغضب، أن أقرأ عليها جوابي وأقرأ عليها كذلك رقعة ديدرو.

«صديقي العزيز، لا يسعك أن تدري مدى ما أنا مدين به للسيدة ديبيناي، ولا إلى أيّ حدّ يشدّني إليها ذاك الدَين، ولا أن تدري هل لها من مسّ احتياج إليّ في سفرها، ولا هل بها من رغبة في أن أرافقها، ولا هل بإمكاني مرافقتها، ولا الأسباب التي قد تمنعني عن ذلك. ولستُ أرفض أن نتناقش في جميع هذه النقاط؛ ولكن ريثما نتناقش، وافقْني على أنك لمَا أمرتَني تجزم في ما ينبغي لي عمله، وأنتَ لم تجعل نفسك على ما يتهيّأ لك أن تَحكم فيه،

twitter @baghdad_library

كنتَ على منتهى خفة الرأي، يا فيلسوفي العزيز. ولأَسوأُ ما أجد في ذلك هو أنّ رأيك لم يأت منك. وأنا ضعيف الميل إلى أن أدع شخصاً ثالثاً أو رابعاً يسيّرني وقد تستّر باسمك؛ وأنا أجد، فضلاً عن ذلك، أن في ما قد ارتدَّ عليّ من هذا الدوران ما لا يلائم صراحتك وما يجدر بك، لأجلك ولأجلي، أن تكفّ عنه من يومنا فيما بعد.

«ثم إنك تخشى أن يؤوَّل سلوكي تأويلَ سوء. لكن أتحدى قلباً مثل قلبك أن يتجاسر على إساءة الظن بقلبي. ولو كنتُ أَشبهَ بسواك من القوم، لربما غدوا أَحسن قولاً فيّ. ولكن وقاني الله أن أسعى لنيل موافقتهم! فليترصدْني ذوو الخبث وليؤوّلوا، فإن روسو لم يُخلَق ليخافهم، ولا خُلقَ ديدرو ليصغي إليهم».

«ولقد شئتَ، إن لم ترقْني رقعتك، أن أطرح بها في النار فلا يعاد ذكرها أبداً! أفتحسب أن ما يرد منك يُنسى هكذا شأنُه؟ عزيزي، إنك لتسترخص دموعي في ما حزّنَتني به وفي ما أَلمتَني، على قدْر ما تسترخص حياتي وصحتي في ما حضضتَني عليه من عناية وعلاج. ولو مكّنك ذلك من إصلاح نفسك، لأضحت صداقتك أعذب مورداً، ولأصبحتُ اقلّ مدعاةً لأن يرثى لي».

فلما دخلتُ حجرة مدام ديبيناي، ألفيتُ جريم معها فابتهجتُ. فقرأتُ عليهما الرسالتين بصوت مرتفع واضح وبجرأة ما خلتُني أقدر عليها، ثم أَضفتُ إليها، في الختام، بعض الأقوال التي لم تكذّبها. فرأيتُهما كليهما قد دُهشا وصُعقا لم يتوقَّعا مثل هذه الجرأة عند امرئ فزِع هلوع، ورأيتُ، على الأخص، جريم الوقح قد أطرق رأسَه ليس يجرؤ على أن يواجه ما بنظراتي من تطاير الشرر؛ بيد أن جريم، في تلك الساعة عينها، كان يُقسم ليهلكنّني، وأيقنتُ أنهما قد تشاورا قبلما افترقا.

ثم كان، بعد وقتٍ يسيرٍ، أنه وردتْ عليّ، في آخر الشيء، رسالة سان لامبير وقد بعثتْ بها إليّ مدام دو دوتو (الرزمة أ، الرقم57)، وكانت مؤرخة عن فولفانبوتل، إذ لم يمض على إصابته إلاّ بضعة أيام، وكان جواباً عن رسالتي التي تأخرتْ في الطريق. فحمل إليّ جوابُ سان لامبير من ألوان التعزية ما قد مسّت حاجتي إليه حينئذٍ لما شُحن به من عبارات للقذْر والصداقة شجّعتْني وقوّتني على أن أستحقّهما. فمذ تلك الساعة، قمتُ بما يجب عليّ، ولكن الثابت أنه لو كان سان لامبير أقلّ فطنة وشعوراً وكرماً واستقامةَ أخلاق، لقُضيَ عليّ قضاءً نهائياً مبرماً.

وكان الشتاء قد اعتكرتْ به أحوال الجو، فابتدأ الناس يهجرون الريف. فعيَّنتْ لي مدام دو دوتو اليوم الذي تنوي القدوم فيه لتودّع الوادي وواعدتْني أوبونّ. واتفق أن موعدها كان في يوم انتقال مدام ديبيناي من الشوفريت إلى باريس كي تتم استعدادها للسفر. ولكن في حُسن الحظ أنها انتقلتْ في غد ذلك اليوم فأتاح لي الوقت، وأنا أفارقها، أن أذهب إلى بنت حميها أتغدى عندها. وكان في جيبي رسالة سان لامبير، فأعدتُ قراءتها مراراً إذ أنا سائر فقوّتني على ضعفي. فصمّمتُ ألا أرى في مدام دو دوتو إلا صديقتي وعاشقة صديقي، فبررتُ في ما صمّمتُ عليه. وخلوتُ إليها أربع ساعات، أو خمساً، ونحن في سكينة لذيذة هي، حتى من حيث الاستمتاع، أَفضلُ جداً من فورات الحمّى المتقدة التي كانت قد ساورتْني بالقرب منها. وكانت مدام دو دوتو على مزيد علم بأن شعوري لم يتبدّل، فقدرتْ ما بذلتُ من جهد لكي أتغلب على نفسي، فتضاعف احترامها إياي، وسرّني أن أجد صداقتها لي لم تنطفئ جذوتها. ثم أخبرتْني أن سان لامبير عائد في يوم وشيك، وكان، مع شفائه من النوبة التي اعترته، قد بات لا يحتمل مشاقّ الحرب، فهجر الخدمة

twitter @baghdad_library

في الجيش ليقيم بالقرب من مدام دو دوتو على عيش طمأنينة وسلام. فطاب لنا أن نخطط بيننا، نحن الثلاثة، صورةَ معشر حميم أَمَلنا أن يدوم، لأن قوامه صفوة المشاعر الخليقة بأن توحّد قلوباً حساسة نزيهة، ولأنّا، نحن الثلاثة، قد أُوتينا من المواهب والمعارف ما يكفينا ليس لنا من حاجة إلى بديل غريب. ولكن واأسفاه على أني، إذ انقدتُ لأمل هذا العيش الرغيد، كدتُ لا تخطر لي هواجسُ العيش الذي كان ينتظرني.

ثم تكلّمنا على الحالة التي أنا فيها مع مدام ديبيناي. فأريتُها مكتوب ديدرو وجوابي، وأخذتُ أفصّل لها كل ما جرى في هذا النحو، وأنبأتُها بعزمي على أن أبرح الإرميتاج. فعارضتْني معارضة شديدة، وتوسلتْ بأسباب كان لها في قلبي تأثير بعيد. وأكدتْ لي مبلغ ما كانت ترغب في أن أسافر إلى جنيف، وتكهنتْ تقول إن رفضي السفر لا بد أن يحمل الناس على الظن بها، وهذا ما كانت رسالة ديدرو قد بادرتْ إلى إعلانه. لكن مدام دو دوتو كانت تعلم الدواعي التي حدتني على الرفض مثلما علمتُها أنا فلم تلحّ عليّ في هذا الصدد، إلا أنها تضرّعتْ إليّ لكي أجتنب كل ضجة مهما اقتضاني اجتنابها من ثمن، ولكن أسترو رفضي بدواع تقاربُ المعقول فتنفي عنها هي جوَر الظن بأن لها نصيباً في هذا الرفض. فقلتُ لها إنها لم تلزمني بأمرٍ يسيرٍ، بيد أني قد صمّمتُ على أن أكفّر عن ذنوبي ولو أسأتُ إلى سمعتي، لأني أُوثر سمعتها في كل ما يجيزه لي الشرفُ أن أكابد في هذا القبيل. ولن يلبث القارئ حتى يعلم هل عرفتُ أن أبرّ في ما أخذتُه على نفسي.

وأُقسمُ أني لم أحبّ صوفي قط حبّاً أشدّ اضطراماً وأوفى حناناً مما أحببتُها في ذلك اليوم، إذ لم يكن هواي التعس قد انكسر شيء من حدّته. لكن رسالة سان لامبير وشعوري بالواجب وكرهي للخداع

قد بلغتْ مني فهادنتْني حواسي طول تلك المواجهة فلم أُغرَ ولو بأن أبوس يد صوفي. فلما خرجتُ من عندها، قبّلتْني أمام الخدم. فضمنتْ لي هذه القبلةُ أني قد استعدتُ امتلاك نفسي، وهي قبلة جد مباينة لتلك التي كنتُ قد اختلستُها منها تحت بعض الشجرات. وأكاد أوقن أنه لو فسح الوقت لفؤادي أن يتقوى في الدعة، لما احتجتُ إلى ثلاثة أشهر لكي أشفى تمام الشفاء.

ههنا تنتهي علاقاتي الشخصية بمدام دو دوتو. إنها علاقات قد استطاع كل بشَر أن يحكم فيها يستند إلى المظاهر وفقاً لما بذات قلبه من تهيؤ وقبول. لكن الهوى الذي ألهمتني إياه تلك المرأة الحبيبة، ـ ولعله أشدّ هوًى ابتلاه قلبُ إنسان على الدهر، ـ لكن هذا الهوى ستشرّفه أبداً، في ما بيننا وبين الله، التضحياتُ العزيزة الأليمة التي بذلناها، نحن الاثنين، ابتغاء الواجب والشرف والحبّ والصداقة. فكنا قد سما كل منا في عين الآخر سمواً هو فوق أن يهون علينا معه إذلالُ أنفسنا فيه. فمَن عزم على التخلي عن مثل هذا القدْر الرفيع، لم يكن خليقاً بشيء من القدْر، ثم إن قوة المشاعر، التي حملتْنا على الذنب، قد كانت هي التي حبستْنا عنه.

وهكذا ودّعتُ تينك المرأتين، كلاً منهما على انفراد، بعد ما صادقتُ إحداهما مصادقة طويلة العهد، وبعد ما أحببتُ الأخرى حبّاً متقداً ولهان. ودّعتُ إحداهما فلم أَلقها إلى بقية العمر، وودّعتُ الأخرى فلم أَلقها إلاّ مرتين في بعض المناسبات التي أذكرها في بعض ما يأتي.

فلما ارتحلنا، ألفيتُني على شدّة ارتباك في الاضطلاع بما قد أَلحَّ عليّ من كثرة الواجبات المتناقضة التي نشأتْ عن وهن فطنتي وضعف احترازي. ولو كنتُ على طبيعة حالي، لم ينبغ لي إلا أن ألتزم الهدوء بعد ما عُرض عليّ السفر فأَبَيتُه فانتهى كل شيء. ولكن،

twitter @baghdad_library

لغباوة مني، جعلتُ في الأمر قضية لم يكن أن تبقى على ما انتهت إليه، ولا أمكنني الاستغناء عن تفسير لاحقٍ لها ما لم أبرح الإرميتاج. وكنتُ قد وعدتُ مدام دو دوتو ألا أبرحه، وقتئذٍ على الأقل. وكانت قد طلبتْ مني، فضلاً على ذلك، أن أسوّغ لأصدقائي المزعومين لمَ أَبَيتُ السفر فلا يعزى إليها السبب. لكنني ما كنتُ لأستطيع أن أبدي حقيقةَ هذا السبب إلا إذا أَهنتُ مدام ديبيناي وهي التي قد وجب عليّ لها عرفان الجميل بعد كل ما صنعتْ لأجلي. فلما نظرتُ في ذلك أجمع، وجدتُني قد اضطررتُ إلى اختيار ما لا بد منه، على قسوته وإيلامه، وهو الإساءة إلى مدام ديبيناي، أو إلى مدام دو دوتو، أو الإساءة إلى نفسي، فاخترتُ آخر الثلاث، اخترتُها اختياراً علنياً مطلقاً لم أتردد ولا تلكأتُ، على سماحة مني كانت، ولا ريب، خليقة بغسل الذنوب التي ألجأتْني إلى هذه الضرورة القصوى. ثم إن هذه التضحية، التي عرف أعدائي كيف يستغلونها والتي ربما كانوا يتوقّعونها، قد قضت على سمعتي وأفقدتْني، بعنايتهم، تقدير الناس لي؛ بيد أنها ردّت إليّ تقديري لنفسي و عزّتني في شقاواتي. وليست هذه، كما ترى، آخر مرة ضحَّيتُ فيها مثل هذه التضحية، ولا هي آخر مرة استُغلّتْ لظلمي وإذلالي.

وكان جريم هو الشخص الأوحد الذي لاح أنه لم يشارك في هذه القضية قط، فصمّمتُ على الاتجاه إليه. فكتبتُ إليه رسالة طويلة عرضتُ له فيها أن إلزامي سفر جنيف شيء مضحك في غير نفع، وأن بسفري هذا إزعاجاً للسيدة ديبيناي، وأن ستنجم عنه متاعب لي أنا نفسي. ولم أقاوم، في هذه الرسالة، تجربةَ أن أُري جريم أنني قد بلغني زعمُ الزاعمين أن عليّ أنا القيام بهذا السفر، ولا أن أُريه أنني قد استغربتُ هذا الزعم، بينما جريم نفسه قد أعفى نفسه من السفر فلم يؤتَ على ذكره فيه. ولقد فاتني، في تلك الرسالة، أن أوضح

المسبّبات اللائي تذرعتُ بها فيها، فأكرهتْني على الهذر مراراً وأظهرتْني للناس وأنا على خطإ بعيد، لكنها كانت مثال الروية والكتمان عند من اطّلعوا اطّلاع جريم على الأمور التي سكتُّ عنها والتي سوَّغتْ سلوكي حقَّ التسويغ. حتى إني لم أخشَ أن أضيف، إلى ما سلف من الأحكام المسبقة حكماً مسبقاً جديداً، فنسبتُ رأي ديدرو إلى سائر أصدقائي لكي أُلمعَ إلى أن مدام دو دوتو كانت على رأيه، وقد كانت عليه في الواقع، ولكي أسكت عن أنها، في أول الأمر، قد وافقتْ على المسبّبات اللائي تذرعتُ بها ثم بدّلتُ فيها رأيها. فلم يسعني إبراؤها من ظنة الاتفاق معي إبراءً يكون أفضل من أن أظهر، في هذا الصدد، وقد سخطتُ عليها.

وختمتْ رسالتي بفعل من أفعال الثقة جديرٍ بأن يؤثّر في أيّ كان عدا جريم، لأني لما حضضتُه على أن ينعم النظر في الأسباب التي تذرعتُ بها وعلى أن يُبلغني رأيه فيها، قلتُ له إنني سآخذ برأيه كائناً ما كان، وهذا ما قد نويتُ ولو رأى أن أسافر، وذلك لأن السيد ديبيناي أراد أن يكون هو مرافق زوجته في سفرها، فأمسيتُ قد نُظر إلى سفري نظرةً تخالف النظرة السابقة كل المخالفة، بدل أن يُعهدَ إليّ أنا في مرافقتها فلا يُذكَر زوجها إلا بعد أن أكون قد أَبَيتُ.

فتأخر جواب جريم، وكان جواباً غريباً، وإني ناسخه ههنا، فها هوذا (الرزمة أ، الرقم 5):

«لقد أُرجئَ سفر مدام ديبيناي لأن ابنها مريض، فينبغي الانتظار إلى أن يشفى. ولسوف أتأمل في رسالتك. فابقَ في الإرميتاج هادئاً مطمئناً. ومتى حان الوقت، بعثتُ إليك برأيي. أما وهي لن تسافر قبل عدة أيام على التأكيد، فلا داعي للعجلة. فإذا رأيت، في غضون ذلك، أنه من المناسب أن تعرض عليها ما تريد عرضه أمكنك أن تفعل، مع كوني ما أزال أجد أنه لا فرق في الأمر على وجه

twitter @baghdad_library

التقريب. فإني أعرف موقفك مثلما تعرفه أنت نفسك؛ ولا شك، عندي، في أنها ستجيبك عما تعرض عليها كما ينبغي لها أن تجيب؛ وكل ما أرى من فائدة في ذلك فهو أن تقول لمن يواصلونك بإلحاحهم إنك إن كنتَ لم تسافر فما ذاك لأن السفر لم يُعرَض عليك. ولستُ أدري، فضلاً عما تقدّم، لمَ تصرّ أن يكون الفيلسوف[32] لسانَ حال الجميع؛ والحال أن رأيَ الفيلسوف هو أن تسافر، فلست أدري [أيضاً] لماذا تتخيل أنت أن أصدقاءك جميعاً هم على رأيه. فإذا كتبتَ إلى مدام ديبيناي، تهيأ لك أن تتخذ جوابها رداً منك على هؤلاء الأصدقاء كافة ما دمتَ حريصاً جداً أن تردّ عليهم. الوداع. تحيتي إلى مدام لوفاسور وإلى الجاني»[*]

فلما قرأتُ هذه الرسالة دهشتُ وقلقتُ أبحث عما تعني، فلم أقع على شيء. يا للعجب! أوَ يتمهل هو كيما يتأمل في رسالتي بدل أن يجيبني عنها ببساطة، فكأن لم يكتف بما سلف من تمهله! حتى إنه نبهني على ما أراد أن يبقيني فيه من تأجيل حال، كأن في الأمر مسألة عميقة يجب حلّها، أو كأنما وجهات نظره يعنيها أن تنتزع مني كلَّ وسيلة قمينة بسبر شعوره إلى يوم يشاء هو أن يُظهر لي هذا الشعور. فما فحوى هذه الاحترازات والتأخيرات والأسرار أفهكذا يجاوَب عن الثقة؟ أوَ هذا هو موقف الاستقامة وحُسن النية؟ ففتشتُ عن بعض التأويل الذي يسوّغ سلوك جريم، ولكن بلا طائل، إذ لم أهتد قط في سلوكه إلى وجه تأويل. وأيّاً كان غرض جريم، بل إن خالفني غرضه، فإن موقفه قد سهّل عليه بلوغَ قصده ولم يقدّرني

(32) أي ديدرو ـ المترجم.

(*) كان السيد لوفاسور يلقب زوجته بالملازم الجاني، لأنها كانت تغلظ له في المعاملة بعض الغلظة. فأطلق السيد جريم اللقب نفسه على البنت قصْدَ المداعبة، وطاب له، اختصاراً، أن يحذف أول لفظة من هذا اللقب.

موقفي على أن أَحول دون هذا القصد. فلقد كان للرجل حظوة في بيت أمير كبير، ولقد خالط الناس أجمعين، وأثّر في مجالسنا ومنتدياتنا المشتركة، وكان له فيها القول الفصل، ويسَّرتْ له براعته المألوفة أن يتصرف في هذه الأجهزة كيف شاء. أما أنا، فلقد كنتُ وحيداً بالإرميتاج، نائياً عن كل شيء، لا مشورة، لا اتصال، فلم يبقَ لديّ إلا الترقب والتزام الهدوء. بيد أني كتبتُ إلى مدام ديبيناي، في شأن مرض ابنها، رسالة كانت على ما أمكن من الأدب، ولكن لم أقع في شرك أن أَعرض عليها الذهاب معها إلى جنيف.

فانقضت عليّ دهورٌ من الانتظار أتقلّب على الحيرة الأليمة التي ألقاني فيها ذلك الوحش، ثم بلغني بعد ثمانية أيام، أو عشرة، أن مدام ديبيناي قد ارتحلتْ، ووردتْ عليّ من جريم رسالة جديدة لا تربو على سبعة أسطر، أو ثمانية، فلم أتمّ قراءتها. وكانت رسالةَ قطيعة، بيد أنها صيغت بعبارات لا يمليها إلا الحقد الجهنمي الأشدّ، حتى لقد بلغت درجة الحمق لفرط ما قد تعمّدت إهانتي والإساءة إليّ. فمنعني جريم عن معاشرته وكأنه يمنعني من المرور بأراضي دولته. ولم يعوز رسالته إلا أن تُقرأ بمزيد من هدوء الأعصاب لكي تمسي في المضحكات. فلم أنسخها، ولا حتى أتممتُ قراءتها، بل رددتُها عليه من ساعتي مع هذه الرسالة:

«كنتُ قد أَبَيتُ على نفسي صحة حذري منك، فأتممت معرفتي بك في وقت مفرط في التأخير إفراطاً شديداً».

«وإذاً، فها هي ذي الرسالة التي تملّيتَ تأملاً فيها. إني لأردُّها عليك، فهي ليست لأجلي. وإنَّ بوسعك أن تعرض رسالتي على الدنيا كلها، وأن تحقد عليّ جهاراً، فتُسقط عن نفسك شيئاً من الزور والبهتان».

twitter @baghdad_library

أما قولي لجريم إن بوسعه أن يعرض رسالتي السابقة، فقد اتصل بناحية من رسالته يمكن أن يُحكَم فيها بما كان هو قد أحاط به تلك القضية كلها من براعة عميقة المرامي.

ولقد ذكرتُ أن من لم يطّلعوا على حقيقة الأمر، أتاحت لهم رسالتي أن ينتقدوني. فرأى جريم ذلك، فابتهج. ولكن كيف له، عندئذٍ، أن يستغله فلا يحرج نفسه فيه؟ فإن هو أَرى رسالتي، فقد عرَّض نفسه لأن يلام على خيانته ثقةَ صديقه. فابتغى التخلص من هذه الورطة، فعمد إلى قطع علاقتنا على أمرّ ما يستطاع، وأبدى لي في رسالته أنه قد عفا عني إذ لم يُطلع أحداً على رسالتي. وكان في تمام اليقين بأني، وأنا في حنقي واستيائي، سأرفض ما قد تظاهر لي به من كتمان فأجيز له أن يُطلع الجميع على رسالتي، وهذا هو ما قد توخاه، في وجه التدقيق، فجرى كل شيء على نحو ما دبّره. فأشاع رسالتي في باريس بأسرها، مع تعليقات له عليها لم تظفر بكل ما أمّله من نجاح. فوجد الناس أن إذني له في أن يرى رسالتي، وقد عرف هو كيف يغتصبنيه، لا يعفيهم من أن يلوموه على كونه قد تسرّع إلى التوسل بهذا الإذن كيما يضرّني. وجعلوا يسألون عما أَنزلتُ به من أضرار تسوّغ مثل هذا الحقد. ثم وجدوا، في النهاية، أنني إن كنتُ قد أَنزلتُ به تلك الأضرار التي ألجأته إلى قطيعتي، فإن للصداقة، ولو همدتْ، حقوقاً قد وجبتْ عليه رعايتها. ولكن في سوء الحظ أن باريس مدينة طائشة العقل، فهي تنسى هذه الملاحظات العابرة وتهمل الغائب العاثر الحظ؛ ومن تَقبل عليه الدنيا في هذه المدينة، فإنما هويفرض نفسه بحضوره. أما عملُ الخبث والكيد، فيستمر ويتجدد ولا يفتأ منبعثاً فلا يعتّم حتى يمحو كل ما سبق.

على هذا النحو كشفَ لي الرجل قناعه بعدما خدعني ردحاً من

الوقت، وكان قد أيقن أنه، في ما أنهى إليه الأمور، لم تبقَ له حاجة إلى قناع. فاسترحتُ من خوفي أن أظلم ذلك التعس، فتركتُه على ما قد نوت نفسه، وعدتُ لا أفكر فيه. فلما مرت ثمانية أيام على تسلمي رسالته، ورد عليّ من مدام ديبيناي جوابها عن رسالتي إليها السابقة وقد أرَّختْه عن جنيف (الرزمة ب، الرقم 10). ففهمتُ من نفَس الرسالة، وقد عمدتْ إليه لأول مرة في عمرها، أنها هي وجريم قد اعتمدا على نجاح ما دبّراه وتعاونا على إتيانه، وفهمتُ كذلك أنهما قد نظرا إليّ على أني امرؤ مقضيّ عليه وأني لا مورد عندي، فانقادا للذة سحقي والإجهاز عليّ بلا خطر ولا مخاطرة.

والواقع أني قد كنتُ في حال هي من أفدح الأحوال مدعاةً للرثاء. فرأيتُ أصدقائي كافة قد نأوا عني ليس في إمكاني أن أعلم كيف نأوا ولماذا. ثم إن ديدرو، الذي ابتهى بأنه قد بقي لي، بل وبقي وحده لي، والذي كان، من ثلاثة أشهر، يعدني بزيارة لم يأت. وابتدأتُ أُحسُّ بالشتاء وأُحسُّ معه بنُوَب الأوجاع المألوفة. ولئن كنتُ متين المزاج، فإني لم أقدر أن أحتمل اصطراع تلك الكثرة من الأهواء المتخالفة. فترديّتُ في إعياء لم يُبق لي من قوة ولا من شجاعة على أن أطيق أيّ شيء كان. ولو أن العهود التي أخذتُها على نفسي، ولو أن التنبيهات المستمرة والنصائح المتجددة، التي وجهها إليّ ديدرو ومدام دو دوتو، قد مكّنتْني أن أبرح الإرميتاج، لم أدر إلى أين أذهب ولا كيف أجرّ نفسي. فلبثتُ في بلادة وجمود، لا قبل لي بالعمل ولا بالتفكير، أرتعد لا لسبب إلا لأنه قد خطر لي أن أخطو خطوة، أو أكتب رسالة، أو أتلفظ بكلمة. ولكن، مع ذلك، لم يسعني أن أترك رسالة مدام ديبيناي بلا جواب إلا إذا أقررتُ لنفسي بأني أستحقّ ما قد بهظتْني به هي وصديقها من ضروب المعاملة القاسية. فآثرتُ أن أنهي إليها مشاعري وما قد عزمتُ عليه،

twitter @baghdad_library

وكنتُ لا أشكّ أنها مسرعة إلى المشاركة في ذلك عن رفق منها وكرم ولياقة وعن طيبة العواطف اللائي خيّل إليّ أني ألفيتُها عليها. وها هي ذي رسالتي:

الإرميتاج، في 23 تشرين الثاني 1757

«لو كان الإنسان يودي به الألم، لما بقيتُ حيّاً. ولكني، في ختام الأمر، قد عزمتُ ما عزمتُ. فلقد قضي على الصداقة بيننا، يا سيدتي. بيد أن لهذه الراحلة حقوقاً أعرف رعايتها. فإني لم أنس قط ما أوليتني من آيات الإحسان، فثقي بكل ما يستطيع الإنسان أن يحفظ من عرفان الجميل لمن بات لا ينبغي له أن يحبّه؛ وما سوى ذلك من تفسير، فلا طائل تحته. إن ضميري لَيؤيدني، وإني لأحيلُك على ضميرك».

«ولقد أردتُ أن أزول عن الإرميتاج، وحَقَّ عليّ أن أفعل. ولكن زُعم[33] أنه يجب البقاء ههنا إلى الربيع؛ فما دام أصدقائي قد شاؤوا ذلك، فإني باقٍ إلى الربيع، إذا كنت تأذنين».

فلما كتبت هذه الرسالة وبعثت بها، غدوت لا أفكر إلاّ في التهدئة من روعي إفذ أنا بالإرميتاج، فأعتني بصحتي، وأسعى لأن أسترد بعض قواي، وأدبر أمر خروجي في الربيع بلا ضجة ولا إعلان قطيعة؛ إلاّ أن هذا لم يكن ما قد نواه السيد جريم والسيدة ديبيناي، كما سيتضح بعد حين.

(33) في أوراق روسو رسالة من مدام دو دوتو تقول له فيها يمدّد إقامته في الإرميتاج بعض الوقت. ويقول المطلعون على تلك الرسالة إن نائب فاعل «زُعم» هو مدام دو دوتو ـ المترجم.

حتى إذا انقضت بضعة أيام، سرّني أن يقومَ ديدرو بزيارتي التي طالما كان قد وعدني بها فأخلف، ولم يكن ثمة ما هو أشد ملاءمة لي منها. فلقد كان ديدرو صديقي الأقدم، وكان يكون الصديق الأوحد الذي بقي لي، فقدّر مبلغ مسرتي إذْ لقيته وأنا على تلك الأحوال. وكان قد طفح قلبي ففرغته في قلبه. وأوضحت له أموراً جمة كانوا قد كتموه إياها، أو موّهوها عليه، أو قدّروها تقديراً. فمن كل ما جرى أخبرته بما جاز لي إخباره به. ولم أخف عليه ما لم يعلم إلاّ حقّ العلم من أنّ هوى تعساً لا معنى له كان علة القضاء علي، ولكن لم أوافق قط أن مدام دو دوتو قد أنبئت بهذا الهوى، أو، في الأقل، لم أوافق قط أني قد أعلنتها إياه. ثم كلمته على المناورات غير اللائقة التي عمدت لها السيدة ديبيناي كي تطلع على ما كانت بنت حميها تكتبه إليّ من رسائل بريئة جداً. وأردت أن يقف ديدرو على مفصّل ذلك من فم الشخصين أنفسهما اللذين حاولت السيدة ديبيناي رشوتهما. فذكرته له تيريز بدقة. ولكن ما الذي أمسيت عليه لمّا جاء دورُ الأم فسمعتها تؤكد أنها لا علم لها بشيء من ذلك». كانت هذه عباراتها، ولم ترتد عنها قط، وكانت قد أعادت عليّ أنا نفسي، مذ أقل من أربعة أيام، قصة الرسائل، وها هي ذي قد كذبتني أمام صديقي! فبدت لي فعلتها شيئاً حاسماً، وأدركت حينئذ بُعْدي عن الاحتراس إذ أبقيت هذه المرأة على مقربة مني ذلك الوقت المديد. ولكن لم أسترسل في لومها والطعن عليها، بل كدت لا أتنازل بأن أسوق إليها بعض كلمات الاحتقار. فلقد علمت بما كنت مديناً به لابنتها التي ثبتت على استقامة تُخالف خساسةَ أمها. غير أني، من تلك الساعة، عزمت على ما قد عزمت في شأن العجوز، فبت لا ارتقب إلا يوم إنفاذه.

فوافى هذا اليوم في أدنى مما كنت أنتظر، إذ ورد علي، في

twitter @baghdad_library

العاشر من كانون الأول، جواب السيدة ديبيناي عن رسالتي السابقة، وهذا هو نصه:

جنيف، في الأول من كانون الأول 1757.

(الرزمة ب، الرقم 11)

«لم يبق عندي إلا أن أرثي لك بعد ما أوليتك، على تعدد السنوات، جميع ما أمكن أن أوليك من آيات الصداقة والعناية. ألا إنك لتعس، وإني لأود لو تكون على مثل ما أنا عليه من راحة الضمير، فربما كان ذلك لازماً لراحتك في الحياة».

«وما دمت قد أردت أن تبرح الارميتاج، وقد حق عليك أن تفعل، فإني لفي عجب من أصدقائك كيف منعوك عن الرحيل. أما أنا، فلست أشاور أصدقائي في ما علي من واجبات، ثم إني لم يبق لدي ما أقوله لك في ما عليك منها».

فلم أتردد لحظة أمام هذا الطرد الذي لم أتوقعه والذي كان في غاية الوضوح. فاقتضى الأمر أن أخرج فوراً، أيا كانت أحوال الجو، وفي أي أحوال تقلبت. ولو بت في الغاب أفترش الثلوج التي غطت الأرض أيامئذ، ومهما قالت مدام دو دوتو ومهما فعلت، فلقد شئت أن أجاريها في كل شيء، ولكن أبيت أن أراعيها إلى دركات الخزي والعار.

فألفيتني في أشد ما تورطت به على أيام عمري، ولكن كنت قد صممت، فأقسمت أني مهما يحصل من شيء، فلن أبيت في الإرميتاج إلا ثمانية أيام. فابتدأت أخرج أمتعتي وقد آثرت أن أتركها في العراء على ألا أرد المفاتيح في غضون الأيام الثمانية. وأردت في الأخص، إتمام كل شأن في هذا الصدد قبل أن يُتاح الوقتُ للكتابة إلى جنيف ولورود الجواب. فأوتيت شجاعة لم أكن قد آنستها في

نفسي قطّ، واستعدت قواي جمعاء وقد ردها عليّ الشرف والغضب، ولم تكن السيدة ديبيناي قد أدخلتهما في حسبان منها. وأقبل الحظ على جرأتي، وذلك أن السيد ماتاس، وكيل شؤون الضرائب لدى الأمير دو كونديه، كان قد سمع بالورطة التي ترديت فيها فبعث يعرض عليّ سكنى بيت له صغير كان في حديقته بمونمورانسي. فما لبثنا أن عقدنا الصفقة. ثم أرسلت، على عجل، أشتري بعض الأثاث، زيادة على ما كنت أملك منه، لكي نبيت أنا وتيريز هنا، فاقتضاني نقل أمتعتي بالغ المشقة وغالي النفقات، وجرى نقل بيتي في مدة يومين برغم الثلج والصقيع، ثم أرجعت مفاتيح الإرميتاج في الخامس عشر من كانون الأول بعدما أديت مرتب البستاني، ولكن تعذرت على التأدية لقيمة استئجاري الدار.

أما السيدة لوفاسور، فقد أعلمتها أن علينا أن نفترق، فأرادت ابنتها أن تثنيني فأبيْت أن ألين. ورحّلْتها إلى باريس مع كل ما ملكت هي وابنتها من مشترك الأمتعة والأثاث. ونفحتها ببعض الدراهم، وتعهدت أن أدفع إليها بقيمة إجارتها عند أولادها أو في غير ذاك، وأن أقوم بأودها ما استطعت لا أدعها تفتقر إلى القوت ما لم أفتقر أنا نفسي اليه.

ثم كتبت إلى السيدة ديبيناي، في الغد من يوم وصولي إلى مون لويس، هذه الرسالة:

مونمورانسي، في 17 كانون الأول 1757.

«لا شيء أسهل ولا ألزم من أن أبرح بيتك، سيدتي، إذ لم توافقي على بقائي فيه.

فارتحلت عن الإرميتاج في الخامس عشر من كانون الأول بعد ما أبيْت الموافقة على أن أقضي فيه سائر فصل الشتاء، ولقد كتبت

twitter @baghdad_library

لي أن أدخل الارميتاج على كره مني، وأن أخرج منه على مثل ذاك. فشكراً لك ما قد حضضتني عليه من الإقامة هناك، إلا أن شكري كان يزداد أضعافاً لو أن إقامتي لم تقتض ما قد اقتضت من باهظ الثمن، ثم إنك لعلى صواب إذ وجدتني تعساً، فما في الدنيا أحد أدرى منك بمبلغ تعاستي. فإن يكن الخطأ في اختيار الأصدقاء متعسةً، فإن الرجوع عن هذا الخطأ العذب لمتعسة ليست دون ما سبق إيلاماً».

تلك هي، بصدقٍ، قصة إقامتي بالإرميتاج والأسباب التي أخرجتني منه. فلم يسعني أن أقطع مجرى هذه القصة وقد وجبت متابعتها بالدقة القصوى، لأن تلك الحقبة من العمر قد أثرت في ما تلاها منه تأثيراً امتد حتى آخر يوم في حياتي.

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

ما إن برحت الإرميتاج حتى فارقتني القوة الخارقة التي آتتنيها فورةٌ عابرةٌ. وما كدت أقيم بمسكني الجديد حتى عاودتني نوبات انحصار البول فاشتدت علي وتكررت يضاعفها تجدد متاعب فتق كنت أعانيه مذ بعض الوقت لست أدري أنه فتق. لم ألبث طويلاً حتى اعترتني أقسى الأوجاع. فأقبل تييري الطبيب، صديقي القديم، يعودني ويوضح لي ما سلف من حالتي الصحية، فكان من سبري بالأميال، ومن الضمادات، ومن أدوات عاهات الشيخوخة، وقد تألبّت كلها علي، ما أحسست معه أن الإنسان إذا لم يبق جسده في شباب، لا يظل شاباً فؤاده إلا مسته بعض الأضرار، ولقد كان إحساسي، هذا، أليماً. فلما وافى الربيع، لم يرد علي قواي، فأمضيت عام 1758 كله وأنا في وهن حسبتني معه على نهاية المطاف، وألفيتني قد قاربت أجلي أتعجل في بلوغه. وكنت قد نفضت عني أوهام الصداقة وتخليت من كل ما حبب إليّ الحياة، فبت لا أجد فيها ما هو خليق أن استطيبها معه، وأمسيت لا أرى ثمة إلا أوجاعاً ومشاق أقعدتني عن الاستمتاع بنفسي. فاشتقت اليوم الذي فيه أتحرر، فأنجو من أعدائي، ولكن لنرجع إلى سياق الأمور.

الظاهر أن انتقالي إلى مونمورانسي قد أحبط خطة السيدة

ديبيناي، فهي، في الحق، لم تتوقع هذا الانتقال. فإن حالتي المؤسفة وقسوة الشتاء والانحطاط العام الذي كنت فيه، بل كل شيء قد أظنهما، هي وجريم، أن إذا دفعاني إلى الضرورة القصوى، ألجأني إلى التماس الرحمة فأذلاني أخس إذلال فأبقيت في الملاذ الذي أمرني الشرف بالخروج منه. لكني انتقلت عنه انتقالاً مباغتاً جداً حتى لم يتسع لهما الوقت فيستدركا ضربتي، فأصبحا وليس بين أيديهما إلا أن يسترجعا ما مُنيا به من خسران أو يزداد عليهما وزره، فإما أن يفقداني كل الفقد وإما أن يسعيا لإعادتي إليهما. فأخذ جريم بأول الأمرين، ولكن إخال السيدة ديبيناي فضّلتْ ثانيهما، وإنني، في تقديري هذا، أستند إلى جوابها عن رسالتي الأخيرة، إذْ لطّفتْ كثيراً من نبرة أسلوبها الذي عمدتْ له في ما سبق من رسائلها، فبدتْ وقد فتحتْ الباب للمصالحة، وكانت قد أبطأتْ عن إجابتي التي انتظرتها شهراً تاما، وكفى بذلك دليلاً على ما قد تقلبتْ فيه من حيرة إذ أرادتْ أن يكون جوابها ملائماً قصدها، وكفى به دليلاً على ما قد تقدم جوابها من مشاورات لها في أمره. فلم يسعها أن تخطو إلى أبعد مما خطتْ أو تحرج موقفها وتجلب عليها الظنون. ولكن، بعد رسائلها السابقة وبعد زوالي عن بيتها فجأة، لا يسعك إلا أن تستغربَ حرصها على ألا تدع من حرف مسيء واحد يتسرب في تلك الرسالة. وإني ناسخها برمتها لكي تحكم أنت بذلك.

جنيف، في 17 كانون الثاني 1758

(الرزمة ب، الرقم23)

«لم أتسلم رسالتكَ المؤرخة في 17 كانون الأول إلاّ أمس، سيدي. فقد بُعث إليّ بها في صندوق شُحنَ بأشياء مختلفة وظلَّ على الطريق طول هذا الوقت. وبعد، فلن أجيب إلاّ عما في الحاشية؛ أما الرسالة، فلستُ أفهمها حقّاً؛ ولو كنا الساعة على تفاهم، لشئتُ أن

twitter @baghdad_library

أَحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم. وأعود الآن إلى الحاشية. فإنك تذكر، سيدي، أننا كنا قد اتفقنا على أن مرتب بستانيّ الإرميتاج يُدفع إليه عن يدك فيغدو البستانيّ أوثق شعوراً بأنه تابع لك، وتغدو أنت وقد وُقيتَ ما أتى سلفُه من مضحكات مخزيات. والبرهان على ذلك هو أن أول أقساط المرتب قد سُلّمَتْ إليك قبْل سفري بأيام، وأنني قد اتفقتُ معك أن أردّ عليك ما كنتَ قد سلَّفتَ من مالك. وأنا أعلم أنك تصعبتَ في مبتدإ الشيء، ولكن كنتُ قد سألتُك تأدية هذا السلف وقد تيسرتْ لي توفيته، فاتفقنا على ذلك. ثم أخبرني كاهويه[1] أنك أبَيتَ أن تتسلم هذا المال. فالأكيد أن ثمة سوء تفاهم. فلقد أَمرتُ بأن يُدفع إليك المال، ولستُ أدري لِمَ تريد أن تؤدي مرتب بستانيَّ، مع ما قد اتفقنا عليه في هذا الصدد؛ حتى إنك تريد أن تؤدي مرتبه للمدة التي تُجاوز إقامتك بالإرميتاج. وإذاً، سيدي، فإني لموقنة بأنك، وقد تذكّرتَ ما يشرّفني قوله لك ههنا، لن تأبى أن يُرَدّ عليك السلفُ الذي تفضلتَ بتأديته عني.

«ولكن، بعد كل الذي جرى، تعذّرتْ عليّ الثقة بمدام ديبيناي، فلم أشأ وصْلَ ما انقطع بيننا، فلم أجبها عن هذا المكتوب، فانتهى به تراسُلنا. فلما رأتني قد عزمتُ على أمري، اعتزمتْ أمرها فدخلتْ في خطط جريم وعصبة الدولباخيين الدساسين، وضمّت جهدها إلى مجهودهم قصْدَ إغراقي حتى القعر. فبينا هم على سعيهم في باريس، كانت هي تسعى في جنيف، فوافاها جريم بعدئذٍ يُكمل ما قد بدأتْ. ثم إن ترونشان، وهو الذي لم تشقّ عليهم استمالته إلى جنبهم، قد أعانهم عوناً عظيماً وأمسى أَحنقَ من جاروا عليّ بغير أن يُحَقَّ له ولا لجريم أيسرُ تظلمٍ مني

(1) كاهويه مدبّر شؤون السيّدة ديبيناي ـ المترجم.

البتة. فتواطأ هؤلاء الثلاثة، فقاموا خفيةً يزرعون في جنيف البذور التي تفتحتْ بعد أربع سنوات.

أما في باريس، فقد لقوا صعاباً أَشدّ، وهي التي فيها عُرفتُ أكثر ما عُرفتُ في جنيف، وإذ القلوب أقلّ ميلاً إلى الحقد فلم يسهل التأثير فيها. فابتغوا أن يصوّبوا ضرباتهم بمزيد براعة، فابتدأوا يزعمون أني أنا قد فارقتُهم (انظرْ رسالة دولير الرزمة ب، الرقم30). وتظاهروا بأنهم ما برحوا أصدقائي، ومهروا في اتهاماتهم لي الخبيثة وكأنهم يتظلمون من جور صديقهم. فعاد الناس أَقلّ حذراً منهم وأكثر ميلاً للإصغاء إليهم وللومي. وكانوا هم، في خفيّ اتهاماتهم بأني خائن مكّار، قد ازدادوا حيطة واحترازاً، فأصبحت اتهاماتهم أبعد تأثيراً في الناس. وبلغني أنهم قد ألصقوا بي قبائح فظيعة، ولم يتهيأ لي يوماً أن أعلم إلى ما استندوا في ما كانوا يلصقون. وكل ما أمكنني استنتاجه مما شاع في العموم يقتصر شأنه على هذه الجرائم الأربع الكبرى: 1 ـ خلوتي بالريف؛ 2 ـ حبّي مدام دو دوتو؛ 3 ـ رفضي أن أرافق مدام ديبيناي إلى جنيف؛ 4 ـ خروجي من الإرميتاج. فإن كانوا قد أضافوا، إلى ما سبق، ذنوباً غيره، فقد عمدوا لغرضهم يدبرونه تدبيراً دقيقاً لا قبل لي معه بأن أقف على مدار تلك الذنوب.

وأخالني أقدر أن أعيّن، ههنا، نهج خطة كانوا قد وضعوها فأخذ بها الذين تسلّطوا عليّ، من ذلك الحين، أخذاً سريع التقدم والنجاح، حتى إن من لم يعرف سهولةَ الإتيان بكل ما يوغر الخبثَ في صدور البشر، حسب أن تلك الخطة من خوارق المعجزات. وينبغي أن أشرح بيسير قول ما بدا لي من تلك الخطة المظلمة، السحيقة المرامي.

كان اسمي قد اشتهر في أوروبا كلها وعُرف فيها، فاحتفظتُ، مع ذلك، ببساطة أذواقي الأولى. وكنتُ، لمقتي ما يقال له تحزّب

twitter @baghdad_library

وانحياز ومحاباة، قد بقيتُ حرّاً مستقلاً لا يقيدني إلاّ وشائج القلب. وكنتُ أعيش وحدي، غريباً، منعزلاً، لا سند، لا أُسرة، لا تعلّق إلاّ بما لي من مبادئ وبما عليّ من واجبات. فسلكتُ طريق الاستقامة سلوكَ شجاع، فلم أتملّق أحداً قط، ولا داريتُ من أحد يوماً في مقابل الانحراف عن العدالة والحقّ. وكنتُ، فضلاً على ذلك، قد اعتزلتُ منذ سنتين في وحدة ليس بها تبادُلُ أخبار ولا لها اتصال بشؤون الناس، فلم يبلغني من شيء ولا أَردتُ استطلاع شيء. فأَقمتُ على أربعة فراسخ من باريس، تفصلني عن هذه العاصمة رغبتي عن حبّ الاستطلاع بقدْر ما كانت تفصلني عنها البحار لو أنني أُقمتُ بجزيرة تينيان[2]

أما جريم وديدرو ودولباخ، فلقد كانوا على خلاف ذلك، إذ حلّوا في قلب التيّار، وانتشروا بين خاصة الخاصة، وكادوا يتقاسمون المناطق جمعاء. فاستطاعوا معاً أن يصغى إليهم حيث اتجهوا، أعظماءَ قوم خالطوا، أم أُولي ألباب، أم أهل أدب، أم رجال قضاء، أم نساء. ولا بد لك أن ترى، منذ الآن، التفوق الذي كان هذا الموقف يتيحه لثلاثة نفر قد اتحدوا على شخص رابع كان في ما كنتُ فيه. وهو صحيح أن ديدرو ودولباخ ليسا ممن يحوكون شنيع الدسائس، (أو، في الأقل، لا يسعني التصديق أنهما على ذلك،) إذ لم يُطبع ديدرو على خبث الدساسين ولا رُزق دولباخ حذقهم؛ ولكن من أجل ذلك عينه أُحكمَ حبْكُ الدسيسة. فكان جريم يضع الخطة وحده وقد تمثَّلها في ذهنه لا يُطلع الاثنين الآخرين إلاّ على ما قد احتاجا إليه منها ليشاركا في تنفيذها. وكان تسلّطه عليهما قد هوّن هذه المشاركة فنجم عن ذلك أجمع ما يناسب تفوُّقَ جريم موهبة واقتداراً.

(2) جزيرة بالمحيط الهادئ ـ المترجم.

فإن جريم، لما شعر أنه بهذا التفوق قد أمكنه أن يستغل موقف كل واحد منا، رسمَ الخطة ليقلب سمعتي رأساً على عقب فيجعلها مضادةً تماماً لما كانت عليه دون إثارة الظنون به ولا الإحراج لموقفه، فبدأ بأن ضرب من حولي ظلمات لم أقوَ على خرقها فأتبيّنَ مناوراته وأكشفَ عنه القناع.

وكانت خطته شيئاً عسيراً، إذ أوجبتْ إخفاء الظلم على من يشاركون فيه، وخدْعَ ذوي الإستقامة والشرف، وتنحيةَ جميع الناس عني فلا يبقى لي من صديق واحد لا صغير ولا كبير. ماذا أقول؟ إن الخطة قد استدعت ألا يَنفذ إليّ حرف من الحقيقة واحد. فلو جاءني امرؤ سمحٌ كريم فقال لي: «أنت تقوم بدور الإنسان الفاضل فتلقى، مع هذا، ما تلقى من سوء المعاملة فيُحكَم بها عليك، فما تقول؟» - لو جاءني مثل هذا المرء، لانتصرت الحقيقة فقُضي على جريم. ولقد كان جريم يعرف ذلك، بيد أنه سبر قلبه هو بالذات فلم يقدّر البشرَ إلاّ بما يساوون من قيمة. ولأجْل شرف الإنسانية يؤسفني أن أرى جريم قد حسب حساباً صائباً غايةَ الصواب.

حتى إذا مضى يمشي في تلك السراديب، كان ينبغي له الخطو في مهل فتَثبتَ خطاه. وإنه ليسيرُ على خطته منذ اثنتي عشرة سنة، وما يزال أمامه الفعل الأصعب: خدْع الناس كافة، وما يزال بينهم عيون تتبعه وهي منه على أدنى مما يخال. وإنه ليخشاها ليس يجرؤ على عرض دسيسته في جلية النهار(*) لكنه قد اهتدى إلى الوسيلة الهنية الكلفة فسلك خطّته في سلطان النفوذ الذي يتصرف فيّ كيف شاء. واعتمد جريم على هذا السند ليتقدّم في سعيه وقد خاطر على نحو هو دون ما سبق أن خاطر به. ثم إن أعوان هذا السلطان النافذ

(*) ولقد خطا جريم، مذ كتبتُ ذلك، الخطوة الحسم فأصاب من غاية النجاح ما لا يمكن تصوّره. وأظن أن ترونشان هو الذي شجّعه وآتاه وسائل النجاح.

twitter @baghdad_library

قلما تعوّدوا أن يبالوا بالاستقامة، وهم بالمصارحة أقلّ مبالاة. فبات جريم يكاد لا يخشى إلاّ أن يفشي حقيقة خبري بعضُ الخيّرين، لأن جريم كان، في الأغلب، يحتاج إلى أن تحفّ بي الظلمات التي لا سبيل إلى خرقها، ويحتاج إلى أن تخفى عليّ دسيسته في كل حين وقد أيقن أنه مهما يتفنن في حبكها، فإنها لن تقوى أبداً على أن تواجه نظراتي. وكانت آية براعته أن يبدو وقد راعاني بينما هو قد طعن عليّ، وأن يُظهر كيده بمظهر السماح.

فشعرتُ بأول نتائج الخطّة إذْ قامتْ عُصْبَة الدولباخيين الدساسين تطلق عليّ خفيَّ اتهاماتها من غير أن يتهيأ لي الوقوف على فحوى هذه الاتهامات ولا حتى على التخمين لها. وكان دولير يقول لي في رسائله إنه قد نُسبتْ إليّ أفعال سوء. وكان ديدرو يقول لي مثل هذا القول ولكن بأسلوب أغمض سرّاً؛ فلما استفهمتُ أحدهما واستفهمتُ الآخر، اقتصر الشيء كله على الاتهامات الأساسية التي تقدَّمَ لي ذكرها. وشعرتُ أن رسائل مدام دو دوتو قد أخذتْ تفتر تدريجاً. فلم يسعني أن أعزو فتورها إلى سان لامبير وقد كان يواصل الكتابة إليّ، على حسب ما سبق من صداقته، حتى إنه أَقبل يزورني بعد رجوعه؛ ولا وسعني أن أحمّل نفسي تبعة هذا الفتور، إذ كنا قد افترقنا وكل واحد منا راض عن الآخر حقّ الرضى، فلم آت، مذ ذلك اليوم، عملاً قط إلاّ ارتحالي عن الإرميتاج، وكانت مدام دو دوتو، هي نفسها، قد أدركتْ ضرورته. فبتُّ من كل أمر على قلق لم أدر إلى مَ أُرجعُ تبعة فتورها الذي لم تعترف هي به، ولكن، مع ذلك، لم ينخدع به قلبي. وكنتُ أعلم أنها على أقصى المراعاة لزوجة شقيقها[3] ولجريم بسبب علاقتهما بسان لامبير، فخفتُ مما يحوكان.

(3) أي السيدة ديبيناي ـ المترجم.

فجدَّد قلقي ما كان قد أُسي عندي من ماضيات الجراح، فعادت رسائلي إلى مدام دو دوتو توصف عصفاً، فكرهتْها، فعافت. فأخذتُ أستشفّ ألف خبر أليم، فلم يتضح لي شيء قط. فأمسيتُ على موقف هو أشقُّ ما لا يطيقه امرؤ نظيري سهْلُ التهاب الخيال. ولو كنتُ، يومئذ، على تمام العزلة ولم أعلم بخبر قط، لغدوت أهدأ حالاً، غير أن قلبي كان لا يزال يتسمك بالرباط الذي منه أوتي أعدائي ألف سبب ليتسلطوا علي، ولم تكن واهيات الأشعة التي نفذت إلى مفزعي إلا لتريني ظلمة ما قد أخفي علي من أسرار.

وكان في حسن الطالع أنه قد سنحت لقلبي موضوعات أثرت فيه فألهته عما شغله بالرغم مني، ولولا ذاك لأودى بي هذا العذاب، ولا جرم، لأنه كان أقسى وأوجع من أن تحتمله طبيعتي المنفتحة الصريحة التي لا يسعني معها إخفاء مشاعري والتي تريعني من كل ما يخفى علي شأنه. وذلك أن ديدرو، لما زارني آخر مرة في الإرميتاج، كلمني على المقال «**جنيف**»، وكان دالامبير قد أدرجه في «**الأنسيكلوبيديا**» فأنبأني ديدرو أن هذا المقال، الذي اتفق عليه وبعض علية القوم من أهل جنيف، قد قصد به تأسيس مسرح في تلك المدينة فأجري ما يلزم، وقال إن هذه المؤسسة لن يتأخر إنشاؤها. فلمّا بدا ديدرو وقد استحسن ذلك أيَّ استحسان ولم يشك في نجاحه، ولمّا دارت لي معه مناقشات أخرى هي أكثر من أن أجادله في ذاك المقال، لم أذكر له في صدده شيئاً، ولكن ساءتني هذه الحيلة للتضليل تُحْبك في وطني، فترقبت بنفاد صبر أن يصدر من الأنسيكلوبيديا الجزء الذي نشر فيه المقال فأرى هل من سبيل إلى تدارك الخطة الشريرة، فورد علي الجزء بُعيْد اقامتي بمون لويس، فوجدت المقال قد صنع بجمّ براعة وفن، وألفيته جديراً بالقلم الذي كتبه. لكن هذا لم يثني، مع ذلك، عن أن أجيب عن المقال، فقمت أضع جوابي، أجتهد اجتهاداً قد تغلب على كل

twitter @baghdad_library

حائل، برغم الإعياء الذي كنت فيه، وبرغم أحزاني وألامي وقسوة الشتاء، وبرغم أني لم أكن على راحة في مسكني الجديد الذي لم يتح لي فيه يومئذ أن أنظم أموري بعد.

فكنت، في خلال شتاء هو من الشدة بما فيه كفاية، وأنا على الحال التي تقدم لي وصفها، لا أنفك أذهب، في كل يوم من شباط، إلى برج مفتوح كله، وكان يقع في طرف الحديقة التي بها مسكني، فأمضي في البرج ساعتين من الصباح وساعتين من بعد الغداء. وكان البرج ينتهي عنده رصيف تراب، وكان يطل على وادي مونمورانسي وعلى غديرها، فأرى، في أقصى ما تمتد إليه العين، قصر سان جراتيان البسيط، ولكن المهيب، وهو خلوة كاتينا الفاضل[4] ففي ذلك المكان، وهو أيامئذ صقيع، وليس ما يقيني الرياح والثلوج، ولا عندي من نار إلا حرارة قلبي ألفت، في ثلاثة أسابيع، كتابي «**رسالة إلى دالامبير في [فنون] الفرجة**»[5] وههنا أول مؤلف لي شعرت بلذة وإمتاع وأنا أكتبه، (لأني لم أكن قد ألفت إلا شطرا من روايتي «**جولي**»). وكنت، إلى ذلك الحين، قد ثرت لأجل الفضيلة وعبدتها، أما في هذه المرة، فلقد كان معبودي الرقة والحنان. وذلك أن المظالم، التي لم أكن إلا مشاهداً لها، قد هاجتني وأغضبتني، فأما تلك التي عانيتها، فلقد أحزنتني حزناً لا مرارة فيه. فإنما هو شجو الفؤاد قد أفرط في الحب والعطف، فخدعه من عدهم في طينته، فأكره أن ينطوي من ذات نفسه على الصميم. وكان ما وقع لي قد أفعمني كله، فلم أزل يؤثر في ما لقيت من عنف التقلبات حتى أقبلت بالجنان على ما شعرت به من آلام،

(4) نقولا دو كاتينا (1637-1712) قائد من أبرع قادة لويس الرابع عشر ـ المترجم.

(5) **رسالة إلى دالامبير في الحفلات المسرحية** (*Lettre à d'Alembert sur les spectacles*) ـ المترجم.

فمزجتها بخواطر كان قد أوحى الي بها تأملي في الموضوع الذي كنت أكتب فيه، فبدا على عملي تأثير هذا المزيج وقد طفقت أصف حالتي وقتئذ لم أنتبه لما أفعل: وصفت جريم والسيدة ديبيناي ومدام دو دوتو وسان لامبير، ووصفت نفسي. فكم من لذيذ الدموع قد سكبت لما رقمت ذلك! واأسفاه! لقد غلوت في الشعور أن الحب ـ هذا الحب المشؤوم الذي اجتهدت أن أشفى منه ـ لم يكن قد حلّ عن قلبي بعد. ولقد خالط ذلك أجمع شيء من الحنو على نفسي، اذ خيل اليّ أني مائت، وحسبتني أودع الجمهور وداعي الأخير. فلم أخش الموت، بل فرحت لما رأيته يقترب، على أني أسِفت أن أفارق أشباهي من البشر ولم يدركوا حق قيمتي ولا أدركوا مدى ما استأهلت من حبهم إلا لو كانوا أكثر معرفة لي، تلك هي خفايا الدواعي في الجو الغريب الذي يسود هذا المؤلف والذي يخالف جو المؤلف السابق(*) مخالفة بالغة عجيبة.

فلما نقحت هذا الكتاب وبيضته وقمت أتأهب لأبعث به للطبع، وردت علي رسالة من مدام دو دوتو بعد صمت طويل، فألقتني في اكتئاب جديد هو أشد ما قاسيت إلى ذلك العهد. وأنبأتني في مكتوبها (الرزمة ب، الرقم 34) أن هيامي بها قد علمت به باريس جمعاء. وأنني قد كلمت فيه قوماً أذاعوه، وأن خبرياته قد بلغت عشيقها فكادت تقضي عليه، وأن عشيقها قد أنصفها آخر الشأن فتصالحا. ولكن قالت إنها مضطرة إلى أن تقطع كل ما يصلها بي من أسباب، وذلك لأجل عشيقها ولأجلها وحرصاً على سمعتها. ثم أكدت لي، فضلاً عما سلف، أنهما لن يبرحا يعنيهما أمري، وأنهما سيدافعان عني أمام الناس، وأنها ستبعث، بين الحين والحين، تستعلم أخباري.

(*) مؤلف خطاب في التفاوت.

twitter @baghdad_library

فصحت قائلاً: «وأنت أيضاً يا ديدرو؟ أيها الصديق النذل! .».. ولكن، مع ذلك، لم أستطع أن أدينه بعد، إذ كان غيره من الناس قد علموا بوهني، وربما كانوا هم الذين تقوّلوا عليه. فابتغيتُ الشكّ. ولكن لم ألبث طويلاً حتى لم يبقَ في إمكاني الارتياب. ثم إن سان لامبير أتى، بعيدئذٍ، مأثرةً خليقةً بكرمه. فقدَّر، وهو الذي عرف دخيلة نفسي معرفةً كافية، الحالَ التي أمسيتُ فيها إذ خانني بعض أصدقائي وتخلّى عني سائرهم. فأَقبل إليّ يزورني. فلم يتهيأ له معي في المرة الأولى متسعُ وقت، فجاءني مرة ثانية، ولكن في سوء الحظ أني لم أكن أنتظره، فلم يلقَني في البيت. وكانت تيريز ههنا، فتحادثا ما يربي على الساعتين يذكر كل منهما للآخر كثيراً من الأمور التي كان ينبغي لنا، أنا وهو، أن نقف عليها. ولقد فوجئتُ واستغربتُ لمّا أخبرني أن ليس في الناس من لا يشكّ أني قد عايشتُ مدام ديبيناي على نحو ما قد عايشها جريم في يومنا ذاك. فلمَ يعدل استغرابي إلاّ عجبُ سان لامبير نفسه حين وقف على مبلغ هذه الشائعة من الكذب. وكان سان لامبير على ما يشبه أمري، فساء ذلك مدام ديبيناي، فجرى بيني وبينه من أسباب الإيضاح ما أزال عني آخرَ ندم على كوني قد هجرتُها هجراً لا رجعة عنه، أما في ما يتعلّق بمدام دو دوتو، فإن سان لامبير قد فصّل لتيريز بعض الأمور التي لم تدر هي بها ولا درت بها حتى مدام دو دوتو نفسها والتي كنتُ وحدي مطلعاً عليها ولم أكن قد ذكرتُها لسوى ديدرو إذ أفضيتُ بها إليه باسم الصداقة، فلم يقع اختياره إلاّ على سان لامبير كيما يُسرّ إليه بتلك الأمور. فلما رأيتُ من ديدرو هذه الفعلة الأخيرة، عزمتُ أن أقطع علاقتي به قطعَ دوام، وعدتُ لا أفكر إلاّ في كيف أبترها وقد تبيَّن لي أن البتر سرّاً يضرني إذ يبقي قناع الصداقة على أوجُه ألد أعدائي.

ويبدو أن قواعد المجاملة، التي سنّها البشر في هذا النحو، قد

أملاها روح الكذب والخيانة. فأن تَظهر وأنتَ ما تزال صديقَ من لم تبقَ له صديقاً، فإنما لك هو أن تحتفظ بما يضيره وقد ضلّلتَ أُولي الاستقامة والشرف. وكنتُ قد تذكرتُ أن مونتسكيو الشهير، لما صرم علاقته بالأب دو تورنمين، خفّ إلى إعلان ذلك يقول للجميع: «لا تصغوا لا إلى الأب دو تورنمين ولا إليّ إذا تكلّم أحد منا على الآخر، لأنّا لم نبقَ صديقَين». فأثنى القوم على هذا السلوك ثناءً عظيماً، وأطروا كلهم ما به من مصارحة وسماح. فصمّمتُ أن أجري حيال ديدرو على الطريقة عينها؛ ولكن أنى لي، وأنا في خلوتي، أن أنشر أخبار هذه القطيعة نشرَ صدْق لا مَفضحة فيه؟ فرأيتُ أن أدرج، في هامش مؤلَّفي، شيئاً من سفر «ابن سيراخ»[6] يعلن هذه القطيعة حتى سببها إعلاناً يكون على كفاية وضوح لدى من انتهى إليهم خبرها ولا يعني شيئاً لسائر الناس. وحرصتُ، مع ذلك، ألا أذكر الصديق الذي تخليتُ عنه إلاّ بما يحقّ من دوام التكرمة للصداقة ولو همدتْ. ويمكن الاطلاع على ذلك جميعاً في الكتاب نفسه.

والدنيا ليس فيها إلاّ السعد والنحس؛ وكل ضرب شجاعة هو، في ما يظهر، جريمة عند الخصام. فالمأثرة، التي أُعجبَ الناس بها لدى مونتسكيو، لم تجلب عليّ إلاّ الذم واللوم. فما إن طُبع مؤلَّفي فتسلمتُ نسخاً منه حتى أرسلتُ بنسخة إلى سان لامبير، وكان، في البارحة نفسها، قد كتب إليّ بلسانه ولسان مدام دو دوتو رقعة شحنها بأرقّ الصداقة، (الرزمة ب، الرقم37). فها هي ذي الرسالة التي كتبها إليّ إذ ردّ عليّ نسخة مؤلَّفي:

أبونّ، في 10 تشرين الأول 1758

(الرزمة ب، الرقم38)

---

(6) **الكتاب المقدّس**، سفر يشوع بن سيراخ، العهد القديم ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

«لا يسعني، في الحقيقة، يا سيدي، أن أَقبل الهدية التي بعثتَ إليّ بها. فلقد سقط الكتاب من يدي وأنا من مقدمتك في الموضع الذي أوردتَ به، على شأن ديدرو، فقرة من سفر «**الجامعة**» (لقد غلط، لأني ذكرتُ فقرة من سفر «**ابن سيراخ**»). وكنتُ قد اتضح لي، بَعد محادثتنا هذا الصيف، أنك اقتنعتَ ببراءة ديدرو مما عزوتَ إليه من مزاعم إفشاء الأسرار. ولستُ أدري هل أخطأ هو إليك، لكني على تمام العلم أن خطأه لا يجيز لك إهانته علناً. ثم إنك لا تجهل ما يُنزَل به من ضروب الأذية، وها أنت ذا قد ضممتَ إلى أصوات الحسّاد صوت صديق له قديم؛ فما أَقدرُ أن أخفي عليك، سيدي، مبلغ ما تثيرني هذه القسوة الفظيعة. لستُ أعايش ديدرو؛ بيد أني أُكرمه وأشعر حقّ الشعور بالحزن الذي تسببتَ به لامرئ لم تلمه يوماً، أمامي في الأقل، إلاّ على ضعفٍ له يسير. سيدي، وإنّا من اختلاف المبادئ لفي ما هو أَبعد من أن نتوافق عليه أبداً. فانس أني موجود، وما هذا بالشيء العسير، إذ لم أصنع قط للبشر من الخير والشر ما يتذكرونه دهراً. وإني لأَعدك، سيدي، بأن أنسى شخصك فلا أذكر إلاّ مواهبك».

فوجدتُني قد مزّقتْني هذه الرسالة وأَحنقتْني، فترديتُ في أحط دركات البؤس، واسترجعتُ ما كان من إبائي، فأَجبتُ سان لامبير بالرقعة التالية:

مونمرانسي، في 11 تشرين الأول 1758

«سيدي، لما طالعتُ رسالتك، شرّفتُك إذ استغربتُها وفوجئتُ، ثم تأثرتُ منها فحمقتُ، ولكن ألفيتُها لا تستحقّ الجواب».

«ولستُ أريد البتة مواصلة نسخي الألحان للسيدة دو دوتو. فإن لم يلائمها الاحتفاظ بما لديها من هذا المنسوخ، أمكنها أن تبعث به

إليّ فأردّ عليها دراهمها. أما إذا احتفظتْ به، فقد وجب أن تستحضر ما بقي لها عندي من قرطاس ودراهم. وإني أسألها أن تعيد إليّ، في الوقت نفسه، النموذج الذي أودعتُها إياه. وداعاً سيدي».

ذلك والشجاعة في البؤس مَهْيجة لقلوب الرعاديد، لكنها مَعْجبة لكرام القلوب. والظاهر أن هذه الرقعة حثّت سان لامبير على التفكير فندم على فعلته، غير أنه كان أشدّ زهواً من أن يرتدّ عنها جهاراً، فاغتنم المناسبة، وربما أعدّ الوسيلة كيما يخفف من وقع ضربته عليّ. فوصلتْ إليّ من السيد ديبيناي، بعد خمسة عشر يوماً، الرسالة التالية:

يوم الخميس هذا، في 26

(الرزمة ب، الرقم 10)

«تسلمتُ، سيدي، الكتاب الذي تفضلتَ به عليّ، وإني لتسرّني قراءته غاية السرور. ولقد شعرتُ بهذا على الدوام إذ طالعتُ جميع المؤلَّفات التي أنتجها قلمك؛ فشكراً لك جزيلاً. ولو مكّنتْني شؤوني أن أمكث بعض الوقت في جوارك، لسعيتُ إليك أنا نفسي فشكرتُك، ولكن قليلاً ما نزلتُ بالشوفريت عامَنا هذا. وبعد، فالآن طلب إليّ السيد دوبان والسيدة زوجته أن أدعوهما إلى الغداء الأحد القادم. وفي نيتي دعوة السيدين دو سان لامبير ودو فرنكوي ومدام دو دوتو؛ فإذا شئتَ، سيدي، أن تكون في المدعوين، اغتبطتُ حقاً. فإن جميع الذين دعوتُهم إلى البيت، عندي، يرغبون فيك ويطيب لهم أن يشاركوني في بهجة قضائهم بعضَ النهار وإياك.

ويشرّفني، مع فائق قدْري، أن أكون. إلخ».

فهبّ قلبي يجبُّ حيال هذه الرسالة بعد ما كنتُ، لسنة خلتْ، حديث باريس. فلما فكرتُ في الذهاب لكي أعرض نفسي بين يدي

twitter @baghdad_library

مدام دو دوتو، أخذتُ أرتجف وشقَّ عليّ أن أوفَّق لقسط من الشجاعة يكفي لأن أحتمل هذه المحنة. فأما إذ هي وسان لامبير قد ارتضيا الأمر، وإذ ديبيناي قد تكلّم بلسان المدعوين كافة ليس يذكر منهم أحداً إلاّ طاب لي لقاؤه، فلم أجد ما يحرجني إذ قبلتُ غداءً كأنما دعاني إليه الجميع. فوعدتُ بالقدوم. وكان يوم الأحد مطراً، فأَرسل إليّ السيد ديبيناي بعربته، فمضيتُ. فلفت وصولي الأنظار. ولم أحظَ يوماً بما هو ألطف من ذلك الاستقبال. فكأن المعشر بأسره قد شعر بمسّ احتياجي إلى أن أستعيد الثقة. والواقع أن هذه الرقة لا يخفق بأمثالها إلاّ قلوب الفرنسيين. ولكن وجدتُ القوم أوفر عدداً مما توقَّعتُ، وفيهم الكونت دو دوتو الذي لم أكن أعرفه قط، ومدام دو بلانفيل شقيقته التي كنتُ في غنية عنها. وكانت قد جاءت أوبونّ عدة مرات العامَ الفائت، وغالباً ما كانت زوجة شقيقها، أيامَ نحن نتنزه وحدنا، تتركها في انتظارنا تحرس البغل فتضجر. فحقدتْ عليّ مدام دو بلانفيل حقداً أشبعتْه في خلل ذلك الغداء ما شاءت أن تفعل، إذ اتضح أن حضور الكونت دو دوتو وسان لامبير لم يكن ليحمل القوم هناك على السخرية بأعدائي، وأن من كان مثلي ارتباكاً في أيسر المحادثات، لم يَلمع شأنُه في حديثنا ذاك. فلم أعان يوماً قدْر ما عانيتُ وقتئذٍ، ولا ظهرتُ ولا أُصبتُ قط بأشدّ مما ظهرتُ به ومما أُصبتُ به فجأةً في ذلك الحين. فلما قمنا عن المائدة، آخر الحال، ابتعدتُ عن تلك المرأة الخبيثة، فابتهجتُ إذ رأيتُ سان لامبير ومدام دو دوتو قد اقتربا مني. فتحادثنا، ساعةً من بعد الظهر، نتناول أموراً لا أهمية لها في الحقيقة؛ بيد أن محادثتنا قد انطوت على الألفة عينها التي كنتُ فيها قبْل زمن التيه والضلال، لأن قلبي لم يعدَم ما تقدَّمَ لي من تلك الألفة. ولو تهيأ لسان لامبير أن يقرأ عندئذٍ في قلبي، لفرحَ ولا ريب. ولئن كنتُ، لما وصلتُ فوقعتْ عيني على مدام دو دوتو، قد ارتعشتُ حتى كدتُ يغمى عليّ، فإني

أُقسمُ أن لما رجعتُ، كدتُ لا أفكر فيها إذ لم يشغلني إلاّ سان لامبير.

نفعني ذلك الغداء نفعاً كثيراً، مع أن مدام دو بلانفيل قد تهكمتْني فيه بخبث، فهنأتُ نفسي أن لم أرفض الحضور. ثم وجدتُ أن دسائس جريم والدولباخيين لم تفصلني عن معارفي القدامى(*) وليس هذا فحسب، لكنّ ما أزكى رضاي هو أنني ألفيتُ مشاعر مدام دو دوتو ودو سان لامبير أقلّ تبدلاً عليّ مما ظننتُ؛ وأدركتُ، في آخر الشيء، أن ابتعاده بها عني كان إلى الغيرة أقرب منه إلى الازدراء. فتعزيتُ وارتحتُ وأيقنتُ أن مَن أقدرهما لا يحتقراني. فقمتُ أسعى لأن أهدّئ من قلبي وقد ازددتُ شجاعةً وتوفيقاً. ولئن تعذّر عليّ إطفاء هيامي المذنب، التعس، إطفاءً تاماً، فإني، في الأقل، قد أحكمتُ السيطرة على ما فضل عندي من جذوته حتى لم أقع، مذ ذلك اليوم، في ذنب منها واحد. ثم إن أشغال نَسخي الألحان للسيدة دو دوتو، وكانت قد طلبتْ إليّ أن أواصل النسخ، ومؤلَّفاتي التي كنتُ لا أزال أبعث إليها بها عند صدورها، كانت تحمل إليّ منها، بين الحين والحين، بعضَ الرسائل والرقع الزهيدة الشأن، إلاّ أنها على نحو لطيف؛ حتى إن مدام دو دوتو قد قامت بما هو فوق ذلك، وسيبدو لك أمره في ما بعد. فلما انقطعتْ بيننا أسباب التواصل، غدا سلوكنا، نحن الثلاثة بعضاً إلى بعض، قدوةً في كيف يفترق الكرام إذا عادوا لا يوافقهم التلاقي.

ولقد أتاني من ذلك الغداء نفعٌ آخر هو أن خبر الغداء قد ذُكر في باريس، فكان إبطالاً للشائعة من دون الردّ عليها، وهي الشائعة التي عمد أعدائي إلى نشرها حيثما كان، يزعمون أني على ألد

(*) ذلك ما كنتُ لا أزال أحسبه، وأنا على سذاجة القلب، لمّا كتبتُ اعترافاتي.

twitter @baghdad_library

خصومة وجميعَ من حضروا الغداء، ولا سيما السيد ديبيناي. وكنتُ، يوم برحتُ الإرميتاج، قد كتبتُ إليه رسالة شكر هي في غاية الأدب، فأجابني برسالة ليست دونها أدباً، ثم لم نفتأ على حُسن عناية والتفات سواء في ما بيني وبينه أو في ما بيني وبين السيد دو لاليف شقيقه الذي أَقبَل مرة يزورني بمونمورانسي ثم بعث إليّ برسومه. فلم أكن على سوء علاقة بأحد من أُسرة مدام دو دوتو، عدا زوجة شقيقها وبنت حميها[7]

ثم إن مؤلَّفي «**رسالة إلى دالامبير**» قد أصاب نجاحاً عظيماً. وكانت مؤلَّفاتي كلها قد لقيت النجاح، بيد أن نجاحي الأخير كان أجزل لي نفعاً، إذ علَّم الجمهور أن يحذروا تلميحات الدولباخيين الدساسين. ولما كنت أؤُمُّ الإرميتاج، كانت عُصْبتهم قد تكهّنتْ، وهي على ما هي عليه من مألوف الادّعاء، تقول إني لن أحتمل الإقامة فيه إلاّ ثلاثة أشهر. حتى إذا رأت أني قد لبثتُ عشرين شهراً هناك، وإني لما أُلجئتُ إلى أن أبرح الإرميتاج، اتخذتُ مقامي بالريف أيضاً، زعمتْ أن ذاك هو منّي عنادٌ بحت، وأني من عزلتي في ملل حتى الهلاك، لكني ـ في ما رأت ـ قد تجبَّرتُ فآثرتُ أن أذهب ضحية عنادي على أن أتخلّى عنه فأعود إلى باريس. وكان مؤلَّفي «**رسالة إلى دالامبير**» يدل على سكينة في النفس شعر الناس أن لا تصنُّع فيها. ولو كنتُ، وأنا في خلوتي، غشيتني السويداء، لبدا أثرها على أسلوبي في هذا الكتاب. وكان جميع ما ألّفتُ، وأنا في باريس، قد انطبع عليه هذا الأثر. أما أولُ مؤلَّف لي صنعتُه بالريف، فلم يكن فيه أثر من سويداء. فمن أحسنوا النظر، وجدوا أن هذه العلامة شيءٌ حسْم وأني قد رُدَّتْ عليّ طبيعةُ نفسي.

---

(7) أي السيدة ديبيناي ومدام دوبلانفيل ـ المترجم.

لكن هذا المؤلَّف، مع ما سال به من عذوبة، قد جلب عليّ عدوّاً في أهل الأدب جديداً، ذلك لبلاهتي ومألوف نحسي. فلقد كنتُ تعرفتُ بمارمونتيل[8] في بيت السيد دو لا بوبلينيير، فازددنا تعارفاً عند البارون[9]، ومارمونتيل، وقتئذٍ، ينشئ «**لومركور دو فرانس**». وكنتُ على زهوٍ أَبَيتُ معه أن أرسل بكتبي إلى المؤلّفين الذين يعملون في المنشورات الدورية، فأردتُ أن أبعث إليه بكتابي الأخير، على ألا يظن أني بعثتُ به إليه لكونه منهم ولا لكي يقول فيه بـ «**لومركور**»، فكتبتُ على نسختي إليه إنها ليست لمنشئ **المركور**، بل هي للسيد مارمونتيل. فخلتُني قد أثنيتُ عليه جميل الثناء، فوجد في ذلك إهانة له أليمة، فبات خصمي الألدَّ. فكتب يحمل على «**رسالة إلى دالامبير**» حملة مهذبة، إلا أنها على مرارة سهلة الإدراك، ثم لم يدَع فرصة تتيح له أن يؤذيني في الناس ويسيءَ إليّ في مؤلَّفاتي إساءة غير مباشرة إلاّ اغتنمها، ذلك لفرط ما تصعبُ المراعاة لكرامة الأدباء الشديدة التأثر ولفرط ما ينبغي الحرص على ألا يكون في ما يُمدَحون به أيّ مظهر من مظاهر التباس المعنى [الإبهام].

فلما هدأتُ من كل ناحية، انتهزتُ ما كنت عليه من تفرغ واستقلال فعدتُ إلى أعمالي أواصلها على أوفر ما سبق أن فعلتُ. فختمتُ، في ذلك الشتاء، روايتي «**جولي**»، فأرسلتُ بها إلى راي[10]، فدفعها للطبع في السنة التالية. ولكن قطعتْ عملي هذا شغلةٌ عنه يسيرة إلاّ أنها كانت على كفاية إزعاج. فلقد بلغني،

---

(8) مارمونتيل (1723 ـ 1799) كاتب فرنسي صنيعة فولتير ومدام دوبومبادرو ـ المترجم.

(9) أي البارون دولباخ ـ المترجم.

(10) ري صاحب مكتبة في أمستردام وقد تقدّم ذكره ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

يومئذٍ، أن القوم، في دار الأوبرا، يستعدّون لأن يعيدوا تمثيل «**عرّاف القرية**». فأحنقني أن أجدهم يتصرفون في رزقي تصرفاً وقحاً، فرجعتُ إلى المذكرة التي كنتُ قد بعثتُ بها إلى دارجنسون[11] والتي ظلت بلا جواب. فنقَّحتُها ثم رفعتُها إلى الكونت السيد دو سان فلورنتان الذي كان قد خلف السيد دارجنسون على قسم إدارة الأوبرا، فأنهيتُها إليه على يد السيد سلّون، مقيم جنيف، بعد ما طويتُها على رسالة شاء المقيم أن يأخذها على عاتقه. فوعد السيد دو سان فلورنتان أن يجيب لكنه لم يفعل. فكتبتُ إلى دوكلو بما أَتيتُ، فاتصل بالكمانين الصغيرين[12] فعرضا أن يردّا عليّ، لا الأوبرا تأليفي، بل بطاقة الدخول المجاني، وكنتُ قد مُنعتُ الانتفاع بها. فلما ألفيتُني ليس لي أملٌ في أيّ إنصاف كان، على أيّ وجه كان، تخليتُ عن هذه القضية، فلم تجبني إدارة الأوبرا إلى حججي ولا أصغت إليها، وبقيتْ تتصرف في «**عرّاف القرية**» وكأنما هي ملكها، فجنت منها ربحاً لا يرجع حقُّه إلى أحد سواي(*)

وكنتُ، من يوم نفضتُ نير الظالمين، أعيش عيشاً وادعاً سويّاً، إذ حُرمتُ فتنة العلاقات المفرطة التأجج وأمسيتُ قد تحررتُ من أعباء قيودها. فعفتُ أصدقائي الحماة الذين أبو إلاّ الاستبداد بمصيري يقسرونني على ما قد زعموه خيراً لي ومعروفاً. وعزمتُ أن أقتصر على علاقات المودة واللطف، وهي التي تحلّي العيش ولا تضيّق على الحرية والتي قوامها أن أعامل الناس معاملة المساواة. فأُوتيتُ

---

(11) دارجنسون هو الوزير الذي كان يشرف على المسرح في باريس، وقد تقدم ذكره - المترجم.

(12) الكمانان الصغيران هما عازفا الكمان روبل وفرنكور وقد تقدّم ذكرهما ـ المترجم.

(*) أصبحتْ «**عرّاف القرية**» ملكاً لدار الأوبرا بمقتضى اتفاق عقدتُه معي منذ وقت قريب.

من ذلك ما كنتُ في حاجة إليه لكي أستمتع بأطايب الحرية من غير أن أقاسي ضروب القسر والخضوع. فما إن بلوتُ هذا اللون من الحياة حتى شعرتُ بأنه هو الذي يوافقني فأختم أيامي بالسكينة بعيداً من العواصف والخصومات والمزعجات التي كانت قد غمرتني بعض الشيء.

وكنتُ، مذ حللتُ بالإرميتاج وأَقمتُ بمونمورانسي، قد تعرفتُ ببعض من حلتْ لي معرفتهم في جواري فلم يخضعوني لأمر. وكان على رأسهم لوازو دو موليون، الشاب الذي تدرّج عهدئذٍ إلى المحاماة لم يدر إلى أيّ محلّ سيرقى فيها. أما أنا، فلم أكن على مثل ريبته، فما عتَّمتُ أن رسمتُ له صورة السيرة الشهيرة التي نراه قد سلك في يومنا هذا. وتكهنتُ له أقول إنه إذا تصعّب في اختياره الدعاوى فلم يكن قط إلاّ محامي العدل والفضيلة، سما بعبقريته ذاك الشعورُ الرفيع فساوت عبقريةَ أكابر الخطباء. فتبع نصيحتي، فلمس نتيجتها. ولقد كان دفاعه عن السيد دو بورت خليقاً بمديموستينس. ثم إنه كان يأتي، في كل سنة، إلى ربع فرسخ من الإرميتاج يقضي أيام العطلة في سان بريس، في إقطاعة موليون التي تملكها أُمه، وكان بوسويه، ذلك الرجل الكبير، قد نزل بها في ما مضى. فها هي ذي إقطاعة إذا توالى عليها أمثال أولئك الأسياد، بات فيها الذود عن طبقة الأشراف شيئاً عسيراً.

وكان لي، في قرية سان بريس عينها، الناشر جيران، وهو رجلُ فطنة وأدب ولطف، على بُعد شأو. فعرّفني بجان نيولم، وهو ناشر من أمستردام ومراسله وصديقه الذي نشر بعدئذٍ مؤلَّفي **إميل**.

وكان لي، في ما هو أقرب من سان بريس، السيد مالطور، كاهن قرية جروسلاي، وهو إلى أن يكون رجلَ دولة ووزيراً أدنى فطرةً منه إلى أن يكون كاهنَ قرية؛ ولو أن المواهب هي التي تعيّن

twitter @baghdad_library

في المناصب، لعُهد إليه في بعض الأبرشيات. وكان قد عمل كاتباً لسرّ الكونت دو لوك، وعرف جان باتيست روسو معرفة خاصة، فعظم احترامه لذكرى هذا المنفي الشهير، على قدْر ما اشتدّ مقته لذكرى سوران[13] الخدّاع. وكان يروي عن أحدهما وعن الآخر كثيراً من المُلَح والنوادر اللاتي لم يكن سيجي[14] قد وضعها في سيرة أولهما وهي يومئذٍ لا تزال مخطوطة. ولقد أكد لي السيد مالطور أن الكونت دو لوك لم يتظلم من أخبار تلك الغرائب قط وأنه ظل حتى آخر أيامه على صداقة له حارّة. ثم إن السيد مالطور، بعد وفاة مستخدمه، وهب له السيدُ دو فانتيميل ذلك المعتزَل الذي هو على كفاية جودة؛ وكان السيد مالطور قد استُخدم بالأمس في أعمال جمّة ما برح يتذكرها، على تقدم سنه، ويفطن لها جداً. ولم يكن في حديثه من الفائدة أقلّ مما كان به من التسلية، حتى إنه لم يشتمّ فيه ريحُ كاهن قرية. فجمع بين هيئة رجل الدنيا ومعارف رجل الدواوين. فكان، بين كل جيراني الدائمين، ألذّهم إليّ عشرةً وأكثرَ من آسفني فراقه.

وكان عندنا، في مونمورانسي، آباءُ رهبنة القديس فيلبّس النيريّ، وفيهم الأب برتييه وهو أستاذ فيزياء. فملتُ إليه لما وجدتُه على طيبة قلب، برغم الذي كان فيه من بعض الغرور المعرفي. ولكنْ، مع ذلك، شقَّ عليّ التوفيق بين بساطته الكبيرة وتفنن رغبته في الدخول حيثما كان، لدى العظماء والنسوان والمتديّنين والفلاسفة. إنه كان يعرف كيف يكون كلَّ شيء مع كل الناس أجمعين. فطابت لي عشرته. فذكرتُها للقوم كافة. والظاهر أن ما كنتُ

(13) جوزف سوران (1659-1737) عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم. قيل إنه هو الذي نظم الأبيات الإباحية التي أدت إلى نفي روسو. بيد أنه أنكر أن يكون هو ناظمها ـ المترجم.
(14) الأب سيجي صديق لجان باتيست روسو وناشر مؤلَّفاته وقد تقدم ذكره ـ المترجم.

أقول فيه قد بلغه خبره، فشكر لي، مرة، أنني ألفيتُه طيّب القلب وابتسم كمن يهزأ، فوجدتُ في ابتسامه ما لا أدري من خبث التهكم، فتبدلتْ نظرتي إليه تبدلاً شاملاً، ثم عاودتْني صورةُ تهكمه في كثير من الأحايين. ولا يسعني أن أشبّه تلك البسمة بما هو أفضل من قولي إنها كابتسامة بانورج حين اشترى خراف داندونو[15] وكنا قد تعارفنا بُعيدَ وصولي إلى الإرميتاج ولقد طالما جاء يزورني هناك. فلما أَقمتُ بمونمورانسي، كان قد برحها فعاد إلى الإقامة في باريس. وكثيراً ما لقي فيها السيدة لوفاسور. فكتب يوماً إليّ، بالنيابة عنها، ينبئني أن السيد جريم عرض عليها التكفل بنفقتها ويستأذنني في قبولها العرضَ، وكنتُ أَبعد ما يكون توقُّعي لرسالته. وبلغني أن العرض عبارة عن مرتب ثلاث مائة ليرة، على أن تنتقل السيدة لوفاسور إلى دوي، ما بين الشوفريت ومونمرانسي، فتقيم ثمة. ولن أذكر موقع هذا النبأ عندي، فلقد كنتُ أكون أقلّ استغراباً له لو أن لجريم عشرة آلاف ليرة دخلاً، أو لو أنّ له بهذه المرأة علاقة معقولة في نظري، ولو لم يلوّمني على أني أَتيتُ بها الريفَ الذي حلا الآن لجريم أن يعيدها إليه وكأن شبابها قد تجدّد مذ تلك الأيام. فأدركتُ أن العجوز الطيّبة، وهي التي لو أَبيتُ عليها إذني لاستغنت عني، لم تستأذنّي إلاّ لكي لا تعرّض نفسها لفقد ما كنتُ أنفحها به. ولئن كان إحسانهم، هذا، قد بدا لي أمراً شاذاً، فإني لم أستغربه بقدْر ما استغربتُه في ما بعد. ولكن لو علمتُ وقتئذٍ بما قد اكتشفتُ بعد ذاك، لم أكن أقلّ موافقةً على ما أَذنتُ لها فيه وعلى ما قد اضطررتُ إلى الموافقة عليه إلا أن أَزيدَ على عرض جريم. فمذ تلك الساعة، أبرأني الأب برتييه بعض الإبراء من اتهامي إياه بطيبة القلب، وقد

---

(15) في كتاب **جارجانتويا** *(Gargantua)* لرابليه ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وجد اتهامي مَضحَكة، وكنتُ قد اتهمتُه عن خفة مني بالغة.

وكان الأب برتييه، هذا، يعرف شخصين أرادا التعرف إليّ، ولستُ أدري لمَ، إذ لسنا، أنا وهُما، من تشابه الأذواق إلاّ على نحو زهيد. ولقد كانا من بني ملكيصادق[16]، وهم الذين لا تُعلَم بلادُهم، ولا أُسرتُهم، ولا حقيقةُ اسمهم في أرجح الظن. وكانا من اليانسينيين، فحُسبا في عداد الكهنة المتنكرين، ولعل ذلك سببه الطريقة المضحكة التي عمد إليها كلاهما في حمل سيفه إذ رُبط كلٌّ منهما بالسيف. وكان ما يخلعان على هيئتهما جميعاً من عجائب المبهَمات قد جعلهما أشبه ببعض رؤساء الأحزاب، فلم أشكّ يوماً في أنهما يصنعان «**لا جازيت إكليزياستيك**»[17] فأما أحدهما، فعالي القامة، لطيف، مَلقٌ، ويدعى السيد فرّان؛ وأما الآخر، فقصير، سمين، على هزء ونَزَق، ويدعى السيد مينار. وكانا يتساميان بـ «يا ابن العم». فأقاما في باريس مع دالامبير عند ربيبته وتدعى السيدة روسو. واستأجرا بمونمورانسي دارا لتمضية الصيف هناك. فتوليا بأنفسهما شؤونهما المنزلية من غير خدم ولا مَن يقضي لهما حاجة. فكان على كل واحد منهما أسبوع يذهب فيه إلى السوق لشراء الحوائج، وأسبوع للطهي وكنس البيت، فتناوبا ذلك، فأَحسناه، وكنا ربما أكل بعضنا عند بعض. وما أدري لماذا عناهما أمري؛ أما أنا، فلم أُعنَ بأمرهما إلاّ لكونهما يلعبان بالشطرنج. فكنتُ أقاسي أربع ساعاتٍ مللاً كي أحظى بيسير من الشطرنج. ثم إنهما كانا يغشيان كل موضع ويبتغيان التدخل في كل شيء،

---

(16) يقال إن روسو استقى هذه العبارة عن بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين (7: 1-3) وقد ورد فيها: «فإن ملكيصادق ليس له أب ولا أم ولا نسب». إلخ ـ المترجم.

(17) **لا جازيت إكليزياستيك** (*La Gazette ecclésiastique*)، أي **الصحيفة الكهنوتية**، نشرة سرّية كان يصدرها اليانسينيون ـ المترجم.

فلقبتهما تيريز بالثرثارين، فلزمهما هذا اللقب في مونمورانسي.

أولئك هم أركان مَن عرفتُ في الريف، فضلاً عن السيد ماتاس، الإنسان الطيّب، مالك بيتي. ولقد بقي لي من المعارف، في باريس، مَن يكفيني لأن أعيش هناك، متى شئتُ، عيشاً رغيداً، خارج بيئة أهل الأدب حيث لم أعتبر إلاّ دوكلو وحده صديقاً لي. فإن دولير كان لا يزال في حداثة سنه، ولئن رأى عن كثب المناورات التي داورتْني بها العصبة الفلسفية فانفصل عنها انفصالاً تاماً، أو هكذا خلتُ في الأقل، فإنني لم يسعني يومئذٍ بعد أن أنسى السهولة التي بها جعل من نفسه إزائي لساناً لأولئك القوم أجمعين.

ولقد كان لي، أولَ الشيء، السيد روجان، صديقي القديم الجليل. فهو صديق العهد الطيّب فلستُ مديناً به لكتبي، ولكن لنفسي أنا به مدين، فلذلك احتفظتُ بصداقته على الدهر. وكان لي مواطني لونيبس الطيّب؛ والسيدة لامبير ابنته، وهي وقتئذٍ لا تبرح في هذه الحياة. وكان لي شاب من جنيف اسمه كوانديه، وهو، في ما رأيتُ، فتّى طيّب، محبّ للإتقان، أخو حميّة، بيد أنه جاهل، واثق، نهم، معجب بنفسه؛ فأَقبل يزورني مذ أوائل أيامي بالإرميتاج ولا معرّف له إليّ إلاّ هو نفسه، فما عتَّم أن أقام عندي بالرغم مني. ولقد أُوتي بعض الميل إلى الرسم، وعرف أهل الفن. فنفعني لصور رواية «**جولي**»، إذ أَشرفَ على الرسوم واللوحات فأجاد.

وكان لي بيت السيد دوبان؛ ولئن كان قد أمسى أقلّ إشراقاً منه في حلاوة أيام مدام دوبان، فإنه لم يفتأ من خير بيوتات باريس لجدارة أسياده وحُسن تخيّر من يجتمعون فيه. ولم أكن قد آثرتُ عليهم أحداً، ولا فَصلتُ عنهم إلاّ لكي أعيش حرّاً، فما انفكوا ينظرون إليّ نظرة الصداقة، فأيقنتُ أن مدام دوبان ستحسن استقبالي في أيّ وقتٍ أَتيتُ. حتى إنه أمكنني أن أعدّها إحدى جاراتي بالريف

twitter @baghdad_library

مذ جعلوا لهم مقاماً في كليشي، وقد كنتُ أذهب إلى هناك في أحيان، أَمضي اليوم أو اليومين. ولو أن مدام دوبان ومدام دو شونونسو أقامتا على مزيد تفاهم، لكان تضاعف ذهابي. إلاّ أنني صعبَ عليّ أن أقسم نفسي، في بيت واحد، بين امرأتين غير متحابتين، فصارت كليشي، عندي، مقصداً مزعجاً كل الإزعاج. ولقد شدّتني إلى مدام دو شونونسو صداقةٌ أوفى اطّراداً وأبعد إلفة، فأبهجني أن ألقاها في دوي، وأنا على راحة أوسع وهي تكاد تجاور بيتي، إذ استأجرتْ ثمة بيتاً صغيراً، حتى في بيتي كنتُ ألقاها وقد جاءت تزورني في أحايين.

وكان لي مدام دو كريكي التي لما انطلقتْ في التدين المجنح عاليا، كفّت عن لقاء دالامبير ومارمونتيل ومعظم أهل الأدب، حاشا الأباتي تروبليه في ما أخال، وهو يومئذٍ من تقْواه على بعض الرياء، فملّته مللاً غير قليل. أما أنا، وقد نشدتْني وابتغتْني، فإنها لم تفتأ تراعيني وتراسلني. فبعثتْ إليّ، في رأس العام، ببعض دجاج مانس المسمّن، وصمّمتْ أن تأتيني فتزورني في العام التالي، لكن سفر مدام دو لوكسمبورغ قطع عليها الطريق. ولقد حُقَّ لها عليّ، ههنا، محلّ على حدة. ولسوف يكون لها أبداً في ذكرياتي مرتبة مميزة.

وكان لي امرؤ قد وجب عليّ أن أُنزله بالمنزلة الأولى بعد روجان، ذاك هو كاريو، رصيفي وصديقي القديم، وكان في ما مضى الوكيل لأمين سر سفارة إسبانيا في البندقية ففي أسوج حيث عهد إليه بلاط دولته في القيام بأعمال السفارة هناك، ثم عُيّن، آخر الأمر، في سفارة إسبانيا بباريس، أميناً للسر أصيلاً. فأتى، مرة، يبتغيني في مونمرانسي وأنا أَبعدُ ما يكون توقّعي له. وكان على صدره وسام من إسبانيا غاب عني اسمه، وعلى الوسام صليبٌ من حجارة كريمة. وكان قد اضطر، في شأن ألقابه، أن يضيف إلى اسمه دو

كاريو حرفاً واحداً، فحمل اسم الشوفالييه دو كاريون. ودائماً ما كنت أجده هو عينه، أجده القلب الكريم عينه، والروح التي يزداد لطفها يوماً فيوماً. ولقد كنتُ استعدتُ ما سلف من حميم صداقتنا، لولا أن كوانديه ولَجَ بيننا، على عادته، فانتهز بُعدي فدخل في ثقة كاريون بدلاً مني، ودخل فيها باسمي، فحلّ عنده محلّي من فرط حميّته لخدمتي.

ثم إن ذكرى كاريون تعيد إليّ ذكرى أحد جيراني بالريف إن سكتُّ عنه أَصبحتُ أعظم خطأً مما أنا عليه من خطإٍ جسيم تجاهه ولا عذر لي فيه. ذلك هو السيد لوبلون الكريم الذي أولَاني في البندقية بعض الخدمات. وكان قد قدم فرنسا في رحلة مع أُسرته، فاستأجر في لابريش، غير بعيد من مونمرانسي، منزلاً ريفياً(*) فما بلغني أنه جاري حتى ابتهجتُ حقّاً، أجد ذهابي لزيارته مفرحة أضعاف ما أعتدُّه في الواجبات. فمضيتُ إليه من الغد. فصادفني أناس كانوا في طريقهم لزيارتي، فلم يكن لي بد من الرجعة وإياهم. ثم قصدتُ إليه ثانية بعد يومين، فإذا هو قد تغدى في باريس ومعه أُسرته كلها. فأما الثالثة، فقد كان في البيت، ولكن سمعتُ أصوات بعض النسوة، وأبصرتُ عربة على الباب، فتهيبتُ، إذ أردتُ أن ألقاه، ولو أول مرة في الأقل، وأنا منه على فسحة مجال فأكلّمه على ما كان بيننا من ماضيات الوشائج. ثم لم أزل أرجئ زيارتي من يوم إلى يوم حتى غلب عليّ الخجل لفرط ما قد أبطأتُ عن هذا الواجب فلم أقم به قط. فأمسيتُ لا جرأة لي أن تقع عينه عليّ بعد ما تجاسرتُ على الانتظار طول ذلك الوقت. ولقد حُقَّ للسيد لوبلون

(*) لما كتبتُ ذلك، ما شككتُ قط في حقيقة السبب لهذه الرحلة إلى باريس ولا في نتيجتها، إذ كنتُ قد أفعمتْني ثقتي القديمة، العمياء.

twitter @baghdad_library

أن يعتب عليّ، لأن إهمالي قد أظهرَ له كسلي بمظهر إنكار الجميل. ولكن، مع ذاك، شعرتُ في صميم الفؤاد بأني على قسط من الذنب زهيد زهيد حتى لو تهيأَ لي أن أعمل للسيد لوبلون ما يسرّه حقّاً، وإنْ على غير علمِ منه، إذاً لم يكن وجدني كسلاً، ولا ريب. لكن كثرة التواني والإهمال والتأخر عن الواجبات الصغيرة قد أضرّتني أضعاف ما عيّبتْني. فكانت أسوأ أخطائي أخطاء سهو: فما لا ينبغي لي عمله، لم أعمله إلاّ نادراً؛ وما ينبغي لي عمله، عملته، وأسفاه، بندرة نادرة.

وما دمتُ قد رجعتُ إلى ذكر معارفي بالبندقية، فإنه يجب ألا أنسى علاقتي بشخص هناك لم أَصرمها ولا صرمتُ غيرها إلاّ منذ عهد قريب. ذلك هو السيد دو جونفيل؛ وكان لا يفتأ يعرب لي عن جمّ صداقة مذ عاد من جنوى، فودّ لو يلقاني ويحادثني في أخبار إيطاليا وفي حماقات السيد مونتيغو، إذ انتهت إليه شجونها من دواوين وزارة الخارجية حيث كانت له أسبابُ اتصال متعددة. ولقد سرّني، أيضاً، أن ألقى عنده دوبون رفيقي القديم. وكان قد اشترى بعض الوظائف، فحملتْه أعماله إلى باريس في أحيان. ولقد ازداد السيد دو جونفيل رغبةً في أن ألزمه حتى بات مزعجاً. فإذا سلختُ الأسبوع كله فلم أذهب إليه أتغدى عنده، تصايحنا، مع أني أسكن في حي جد بعيد من الحي الذي يسكن فيه. وإذا يمَّمَ بلاد جونفيل، أبتغي صحبتي في كل حال. بيد أني لما صحبتُه مرة فأمضيتُ ثمانية أيام فاستطلتُها كثيراً، أَبَيتُ أن أعود إلى هناك. وكان السيد دو جونفيل وافر الأدب، كريماً، بل ولطيفاً من بعض الأوجه، ولكنه كان ضئيل الذكاء. وكان جميلاً، [مولعاً بنفسه] ولع نارسيس ولو قليلا. ولقد امتلك مجموعة غريبة في بابها، ولعلها الوحيدة في العالم، فتشغّل بها، وشغّل بها ضيوفه وربما كانوا دونه ميلاً إليها. فأما تلك، فمجموعة من طراز فودفيل كاملة

شاملة لأغاني البلاط وباريس منذ ما يربي على خمسين سنة. فكنتَ تقع فيها على الكثير من الحكايات والنوادر التي لا تصيبها في غيرها من المجموعات. إنها مذكرات لتاريخ فرنسا ما كان مثلها ليخطر لأمة غيرها إلاّ على نحوٍ يسيرٍ.

ثم إن السيد دو جونفيل، ونحن وقتئذٍ على خير تفاهم، قد استقبلني ذات يوم استقبالاً بارداً جداً بل في غاية الصقيع، وذلك على خلاف ما قد أَلفتُ منه. فخرجتُ من عنده بعد ما أتحتُ له وسألتُه أن يبيّن لي السبب. وعزمتُ ألا أطأ عتبة بيته مرة أخرى، فبررتُ؛ إذ حيثما أُسيءَ استقبالي مرة، كدتُ لا أجيء مرة ثانية، ولم يكن ثمة من ديدرو فيحامي عن السيد دو جونفيل. فذهبتُ في نفسي أفتش عما أكون قد أسأت به إليه، فلم أَرَ من شيء. وكنتُ على يقين بأني لم أذكره قط ولا ذكرتُ أسرته يوماً إلاّ أَشرفَ الذكر وأَكرمه إذ تعلّقتُ به صدقاً، ذلك فضلاً على كوني ليس لديّ ما أقول فيه إلاّ الخير. ثم إن شعاري، الذي لا أتخلى عنه أبداً، هو ألا أذكر البيوتات التي أتردد إليها إلاّ الذكر المشّرف الكريم.

ولقد فكرتُ في ذلك واجتررتُ، ولفرط ما قد فعلتُ انتهيتُ إلى التقدير التالي: لما التقينا آخر مرة، دعاني إلى العشاء عند بعض معارفه من بنات الهوى، ومعنا كاتبان، أو ثلاثة، من موظفي وزارة الخارجية، وهم قوم في منتهى اللطف لا يبدو البتة على هيئتهم ولا في حديثهم أنهم من الزنادقة. وأُقسمُ أني أحييتُ تلك السهرة أتأمل في المصير المنحوس لأولئك الفتيات. أما نصيبي من ثمن العشاء، فلم أدفعه إذ كان السيد دو جونفيل هو الداعي؛ وأما الفتيات، فلم أنفحهن بشيء لأني، وحالي معهن كحالي مع البادوية[18]، لم

(18) تقدّم ذكرها في ما سبق من إقامة روسو في البندقية ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أُكسبهن الدراهم التي كان يمكنني أن أهديها إليهن. ثم خرجنا جميعاً ونحن على كفاية مرح وغاية اتفاق. ولقد ذهبتُ ثلاث مرات، أو أربعاً، أتغدى عند السيد دو جونفيل، ولم أكن قد لقيتُه بعدئذٍ ولا كنتُ، في أثناء ذلك، قد عدتُ إلى أولئك الفتيات، فاستقبلني على الوجه الذي ذكرتُ. فلما لم يسعني أن أتصوّر سبباً لجفائه إلاّ بعض سوء التفاهم في أمر ذلك العشاء، ولما وجدتُه قد أبى أن يوضح لي الأمر، عزمتُ على ما عزمتُ عليه. فانقطعتُ عن زيارته، ولكن ظللتُ أَبعث إليه بمؤلَّفاتي، فأَرسل يمتدحني. ثم صادفتُه، مرة، بحجرة التدفؤ، في الكوميدي[19]، فعاتبني على انقطاعي عن زيارته عتاباً رفيقاً لم يُرجعني إلى لقائه. لكني لم أَلقَه بعدئذٍ ولا سمعتُ عنه قط؛ فأن أعود إليه، وقد مضى على انفصالنا عدة سنوات، فإنما ذاك عودٌ مسرف التأخر. فلم أُدرج السيد دو جونفيل في لائحتي ههنا، مع أني ترددتُ إلى بيته زمناً غير يسير.

ولن أضخّم البتة هذه اللائحة فأُدرج فيها كثرةَ معارف لي آخرين هم أقلّ إلفةً عندي، أو هم، لغيابي عنهم، لم يبقوا على شيء من الإلفة، وقد كنتُ في أحيان ألقاهم بالريف إما في بيتي وإما في الجوار، كالأباتي دو كونديّاك، مثَلاً، والأباتي دو مابلي، والسادة دو مايران، ودو لاليف، ودو بواجولو، واتله، وأنسله، وسواهم ممن إذا سميتُهم، أطلتُ. كذلك أمرّ بمعرفتي للسيد دو مارجنسي مروراً عاجلاً، وهو من سواد أشراف الملك، وكان من قبْل في عُصبة الدولباخيين فهجرها كما هجرتُها، وكان من سالف أصدقاء مدام ديبيناي فانفصل عنها كما انفصلتُ. كذلك أمرّ بمعرفتي لصديقي السيد ديماهي مرّاً سريعاً، وهو المؤلّف الشهير لهزلية «**الوقح**»[20]،

---

(19) يريد «لاكوميدي فرنسيز» وقد تقدّم ذكرها ـ المترجم.

(20) **الوقح** (*L'impertinent*) ـ المترجم.

بيد أن شهرته كانت عابرة. أما أولهما، فكان جاري بالريف، إذ أَرضُه بمارجنسي قريبة من مونمورانسي. ولقد كنا على تعارف قديم، فزادنا تقارباً التجاوُر وشيءٌ من تآلف أسباب الاختبار. فأما الثاني، فإنه قضى أجله بعد قليل؛ وكان على جدارة وذكاء، غير أنه كان طرفةَ تمثليته الهزلية، إلى بعض الزهو منه أمام النسوان، فلم يأسفن عليه كثيراً.

ولكن لا يسعني أن أَغفل عن مراسلة جديدة جرت لي في ذلك العهد فكان لها، في ما بقي من عمري، تأثير هو أعظم من أن لا أذكر معه كيف كان ابتداؤها. تلك هي علاقتي بالسيد دو لاموانيون دو مالزيرب، أول رئيس على المحكمة العليا للضرائب غير المباشرة، وقد كُلّف يومئذٍ شؤونَ دار الكتب فتولاها بألمعية ولطف، فأرضى أهل الأدب إرضاءً فائقاً. ولم أكن قد ذهبتُ قط لزيارته في باريس، ومع ذلك، شعرتُ قبَله، في كل حال، بأيسر التسهيلات من جهة المراقبة، وعلمتُ أنه، في غير مناسبة واحدة، قد عنّف الذين حملوا عليّ في بعض ما كانوا يكتبون. ثم أتاني جديدُ أدلّة على فضله لمّا طبعتُ رواية «**جولي**». وذلك أن مسّودات مؤلّف ضخم كهذا المؤلَّف كان الإرسال بها إليّ في بريد أمستردام يقتضي نفقة باهظة، فأَذن هو في أن يوجَّه بها إليه لأن بريده مجّانيّ، ثم كانت يبعث إليّ بها مجّاناً كذلك وعليها مهرُ والده السيد المستشار. فلما انتهى طبع الكتاب، لم يأذن في بيعه بالمملكة إلاّ بعد طبعة له ثانية أَمرَ بإصدارها لمنفعتي، وذلك على كره مني، لأن هذا الربح سرقة مني لراي وقد بعثُه مخطوط الرواية. فأَبَيتُ هذه الهدية إلاّ أن يوافق راي على أمرها، فوافق موافقة سمحة كريمة. ولم أقتصر على ذلك بل أردتُ أن أُقاسم راي مئة الدرهم حاصل الهدية، فأبى أن يأخذ منها درهماً واحداً. أما في مقابلة مئة الدرهم، فلقد ساءني أن أرى مؤلَّفي قد مُسخ مسخاً مريعاً لم ينبئني به السيد دو مالزيرب،

twitter @baghdad_library

فحال ذلك دون بيع الطبعة الجيدة، إلى أن نفدت الطبعة الرديئة.

وقد اعتبرتُ السيد دو مالزيرب، في كل حال، رجل استقامة على الدوام. فلا شيء البتة مما جرى لي أظنَّني بنزاهته أقلّ ظن؛ إلاّ أنه كان ضعيفاً بقدْر ما كان مستقيماً، وربما آذى من يعنيه أمرهم لفرط ما قد ابتغى حفْظَهم. فهو لم يكتف بأن حذف من طبعة باريس ما يربي على مئة صفحة، وإنما حذف كذلك عبارة من إحدى نسخ الطبعة الجيدة، وهي النسخة التي بعث بها إلى مدام دو بومبادور؛ وجائز أن ينعت هذا الحذف بعدم الأمانة. فلقد كان ورد في بعض فصول الكتاب أن امرأةَ فحّام هي أَولى بالاحترام من عشيقة أمير. وكانت هذه العبارة قد سنحتْ لي وأنا في وقدة التأليف، وأُقسمُ أني لم أتوخَ بها من غرض قط. فلما أَعدتُ قراءة المؤلَّف، وجدتُ أنه قد يُستنتَج من هذه العبارة ما يُستنتَج. ولكن أخذتُ بالرأي المتهور وهو ألا أحذف شيئاً بالمراعاة لما قد يُستنتَج منه ما دام ضميري يشهد أني، لما كتبتُ هذا الذي كتبتُ، لم أتوخَ له تأويلاً. فأَبيتُ حذف العبارة، واقتصرتُ على إحلال لفظة «أمير» بمحلّ لفظة «ملك»، وهذه كنتُ قد أوردتُها في أول الشأن. فلم يجتزئ السيد دو مالزيرب بهذا التلطيف، بل أَسقط العبارة كلها، وذلك على رقعة أَمرَ بها أن تُطبَع فتُلصَق على نسخة مدام دو بومبادور، في ما أَمكن من نظافة الشكل والإخراج. فلم تغب عنها لعبةُ الخفّة هذه. وكان في ذوي الأنفس الكريمة من أنبأها بخبرها. أما أنا، فلم أَعلم به إلاّ بعد وقت بعيد إذ ابتدأتُ ألمس ما قد نجم عنه من تبعات.أوَليس، ههنا أيضاً، أول منشإٍ للحقد الدفين، المتوغر، الموصول، الذي أضمرتْه لي سيدة[21] أخرى كانت على مثل ذلك الحال، وأنا لا علم لي

(21) اتفق معظم المختصين بأدب روسو على أن «السيدة الأخرى» هي مدام دو بوفلير عشيقة الأمير دوكونتي، وسيأتي ذكرها ـ المترجم.

بأمرها البتة ولا حتى عرفتُها يومَ كتبتُ هذه الفقرة؟ فلما نُشر مؤلَّفي، كنتُ قد تعرّفتُ بها، فقلقتُ جداً. فأخبرتُ الشوفالييه دو لورنزي، فسخر مني وأكد لي أن تلك السيدة كادت لا يسوءها كتابي حتى إنها لم تتنبه له. فصدّقتُ قوله، ولعل بتصديقي إياه بعض الخفة، فاطمأننتُ إلى ما لا يدعو إلى الاطمئنان.

ثم وردتْ عليّ، في أوائل الشتاء، آية من لطف السيد دو مالزيرب جديدة، فبلغتْ مني، وإن لم أَر من المناسب الانتفاع بها. وذلك أنه كان قد خلا عمل في **«لوجارنال دي سافان»**[22] فكتب مارجنسي يعرضه علي وكأنما هو قد فعل من تلقاء نفسه. ولكن تيسَّر لي أن أفهم من سياق رسالته (الرزمة ث، الرقم 33) أنه قد أُعلمَ بالأمر وأُذنَ له فيه؛ كما أن مارجنسي نفسه أخبرني في ما بعد (الرزمة ث، الرقم 47) بأنه قد كُلّف أن يعرض عليّ هذا العمل الهيّن، ومداره مقتطفان في الشهر يؤتى إليّ بالكتب التي تتعلّق بهما فلا أُضطر البتة أن أسافر إلى باريس ولو لكي أزور القاضي شكراً له. فتهيأَ لي أن أدخل في معشر أهل الأدب من أُولي الطبقة العليا وهم السادة دو مايران، وكليرو، ودو جينييه، والأباتي برتيليمي. وكنتُ قد تعرفتُ إلى الأولَين، وكانت تعرفي إلى الآخرين شيئاً حسناً جداً. ثم إن هذا الشغل، الذي قلّت كلفته وسهل عليّ القيامُ به، قد جُعل له مرّتبُ ثمانمائة فرنك. فأخذتُ أشاور نفسي، بضع ساعات، قبلما ثَبتُّ على قرار. وأُقسمُ أن السبب الوحيد، الذي حملني على التردد، إنما هو خشيتي أن أُغضب مارجنسي وأكدّر السيد دو مالزيرب. ولكن تغلَّبَ على كل أمر كوني لا أستطيع إتيان هذا العمل متى

(22) أي «صحيفة العلماء» (*Le journal des savants*) مطبوعة أدبية أسست في باريس عام 1665 فكانت أول نشرة من هذا الطراز في أوروبا، وقد اشترك في إصدارها أعضاء أكاديمية الحفريات ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

شئتُ، وكون الوقت يستأثر بي فيه، وذلك كله مَزعجة لي لا تطاق، زيادةً على كوني قد أيقنتُ بأني لا أجيد ما يُعهد إليّ فيها من أشغال، فصمّمتُ على رفض عمل لم أَصلح له. وكنتُ أعلم أن جماع المواهب عندي منشأه تأجُجُ نفسي حيال الموضوعات التي أعالجها، وأن عبقريتي لا يذكيها إلاّ كلفي بما هو كبير وبما هو حقّ وبما هو جميل. ثم بماذا تهمني موضوعاتُ أغلب الكتب التي ينبغي أن أستخلص منها المواد؟ حتى هذه الكتب نفسها بمَ تعنيني؟ فأن لا أباليها يجمّد قلمي ويصيّر ذهني بليداً. وكان القوم يحسبون أن في وسعي احتراف الكتابة كسائر أهل الأدب، على حين لم أَعرف، يوماً، أن أكتب إلاّ وأنا في تولّع وهيام. وليس هذا ما قد احتاجوا إليه في «**لوجورنال دي سافان**». فكتبتُ إلى مارجنسي رسالة شكر أَدرتُها على ما استطعتُ من اللطف والأدب، وفصّلتُ له فيها أسباب اعتذاري تفصيلاً وافياً حتى لا يمكن أن يكون قد ظن هو ولا السيد دو مالزيرب أن رفضي ينطوي على شيء من استياء ولا من تكبّر. فوافق كلاهما على هذه الأسباب، فظلا يبديان لي من الرفق والمراعاة مثل ما سبق، وبقي الخبر في سرٍّ حريز حتى لم ينته منه شيء إلى الجمهور في يوم من الأيام.

ثم إن ذلك العرض لم يأتني في ساعة ملائمة فأَقبله. فلقد كنتُ، منذ بعض الوقت، أفكر في أن أهجر الأدب، ولا سيما صناعة التأليف، هجراً شاملاً؛ لأن كل ما حصل لي كان قد كرَّه إليّ أهل الأدب، فأَدركتُ أنه لا يسعني أن أجري على سيرتهم إلاّ إذا وصلتْني بهم بعض الوشائج. ولم أكن أقلّ كرهاً لمعاشرتي علية القوم والناس عامة، وفيهم من يناسبني، وفيهم من لم أُجبَل على معاشرته قط. وبتُّ أَكثر ما يكون يقيني بأن كل مشارَكة لا تَساوي فيها فإنما هي على الفريق الضعيف؛ وعندي في ذلك ثَبْتُ اختبار. فلقد عايشتُ قوماً من المياسير هم في ما يغاير الحال التي اخترتُ؛ ولئن

لم أفتح بيتي كما فتحوا بيوتهم، فلقد أُلجئتُ إلى التشبه بهم في أمور جمّة، فكان من زهيد النفقات التي لا تؤثّر فيهم أبداً ما قد أَفقرني بقدْر ما كنتُ في غنًى عنه. فإن يذهبْ أحد سواي إلى بيت في الريف، يخدمْه تابعه، أَعَلَى المائدة كان أم في حجرته؛ ثم هو يرسل تابعه ليأتيه بكل ما يحتاج إليه، إذ ليس له مباشرُ اتصال بخدم ذلك البيت، حتى إنه، وهو لا يراهم، لا ينفحهم بحلوان إلاّ متى شاء وكيف شاء. أما إذ كنتُ وحدي ولا خادم لي، فلقد أمسيتُ تحت رحمة خدم البيت الذي أقصد، فحُتمَ عليّ التماسُ رضاهم وإلاّ شقيتُ كثيراً. ولقد عوملتُ وكأني سيدهم، فوجب أن أعاملهم كأنما أنا سيدهم، بل وجب أن أوليهم أضعاف ما يوليهم سواي، لأني، في الواقع، قد كنتُ أمسّ من غيري احتياجاً إليهم. وهذا الأمر يمكن احتماله إن كان الخدم نزراً عديدُهم؛ لكن البيوت، التي ذهبتُ إليها، قد وفر بها الخدمُ، وكلهم وقحٌ جداً، مكّار، شديد اليقظة، عنيتُ أنه هكذا من أجل منفعته؛ ولقد عرف أولئك الأوغاد كيف يسلكون لكي أحتاج إليهم أجمعين واحداً بعد واحد. ثم إن نساء باريس، وهنّ على ما هنّ عليه من الفطنة والذكاء، لا علم لهن بهذا الموضوع أبداً، فأفقرنني لفرط ما قد أردن أن يخففن عني النفقة. فكنتُ إذا تعشيتُ في المدينة، بعيداً من منزلي بعض البعد، أَبَتْ ربةُ البيت أن أدعو بإحدى العربات، فأمرتْ بمركبتها أن تُسرَج خيلُها لإيصالي وقد طاب لها أن تخفف عني الأربعة والعشرين فلساً كراء العربة، فأما الدينار الذي كنتُ أنفح به التابع وسائق المركبة، فلم يخطر لها خبره. وإذا كتبتْ إليّ إحدى السيدات من باريس، وأنا في الإرميتاج أو بمونمورانسي، أسفتُ على أربعة الدراهم التي يقتضينيها حملُ رسالة هذه السيدة إليّ وقد بعثتْ بها وبعض خدمها، فوصل ماشياً يسبح في عرقه، فأطعمتُه وأعطيتُه ريالاً قد استحقّه ولا ريب. فإن هي عرضتْ عليّ أن أُمضي معها في الريف ثمانية أيام، أو

twitter @baghdad_library

خمسة عشر يوماً، قالت في نفسها: «إن الأمر، في كل حال، يوفّر من دريهمات هذا الفتى المسكين، لأن قوْته، مُدتَنا هذه، لن يقتضيه من شيء». فلم يخطر لها أني، في هذه المدة، سأبقى متعطلاً، وأن نفقات بيتي وكرائه وثيابي وغسلها هي هي، وأني أدفع إلى حلاقي، وأنا بالريف، أجرة مضاعفة، وأن نزولي في بيتها أغلى نفقةً من الإقامة عندي في البيت. ولئن كنتُ، في توزيعاتي، هذه، اليسيرة، قد اقتصرتُ على البيوت التي حللتُ بها في المعتاد، فإن هذه التوزيعات لم تبرح، مع ذلك، مَخربة لي. وأني لأوكّد أنني قد أنفقتُ خمسة وعشرين دينارا في بيت مدام دو دوتو في أوبونّ ولم أنزل به إلاّ أربع مرات أو خمسا، وأؤكّد أنني قد أنفقتْ ما يربي على مائة دينار في إيبيناي والشوفريت على السواء، وذلك في غضون السنوات الخمس أو الست التي كنتُ فيها أكثر مواظبةً على الذهاب إلى هناك. وهذه النفقات كان لا بد منها لمن ماثلني طبعاً فلم يدر كيف يستغني عن شيء، ولا كيف يحتال في شيء، ولا كيف يحتمل هيئة خادم مدمدم يقدّم إليك الأكل وهو يعبس. أما عند مدام دوبان، وقد كنتُ من أهل بيتها وأَوليتُ خدمها ألف خدمة، فإنهم لم يخدموني إلاّ بدراهمي. ثم اضطررتُ، في ما بعد، أن أُقلع عن هذا الإسراف الزهيد، لأني أصبحتُ لا قدرة لي عليه، فزادني الناس شعوراً بآفة معاشرة الإنسان لمن هم على غير حاله.

ولو أن هذا العيش لاءَم ذوقي، لتعزيتُ عن باهظ النفقة التي وقفتُها على لذتي؛ فأما أن أُملق وأضجر، فذلك فوق الإمكان. ولقد نأت بي أعباءُ هذا العيش، حتى إني انتهزتُ كوني يومئذٍ حرّ التصرف فصمّمتُ أن أبقى حرّ التصرف على الدوام، أَصدُّ عن علية القوم وعن تأليف الكتب وعن كل علاقة لي بالأدب صدّاً شاملاً وأنطوي، ما حييتُ، على البيئة الضيقة، الوادعة، التي كنتُ أُحسّ أني خُلقتُ لها.

وكان حصيل مؤلَّف «**رسالة إلى دالامبير**» ومؤلَّف «**إيلويز الجديدة**» قد زاد ما لديّ من مال بعض الزيادة، فوجدتُ عندي ما يناهز ألف دينار بعد أن كنتُ قد أَملقتُ وأنا في الإرميتاج. وكان كتاب «**إميل**» قد تقدّمَ تأليفُه إلى حد بعيد، وهو الذي لما أَنهيتُ كتاب «**إيلويز**»، أكببتُ عليه جداً؛ وكان في المقدَّر أن حصيله سيضاعف تلك الدنانير. فنويتُ أن استثمر رأس المال هذا في ما يجعل لي، على العمر، يسيرَ دخل يمكّنني، مع نَسخي الألحان، من الارتزاق دون كتابة. وكنتُ لا أزال أُهيئ مؤلَّفين. أما الأول، فكتابي «**النظم السياسية**». نظرتُ في شأنه، فألفيتُه يقتضي، فضلاً عما سبق، عدة سنوات عمل. فلم أجسر على مواصلته وعلى انتظار فراغي منه لكي أُجري ما عزمتُ عليه. فلما عدلتُ عن هذا الكتاب، رأيتُ أن أستخلص منه ما يمكن أن ينفصل عنه وأحرقَ سائرَه. فما فتئتُ جاداً في ذلك، لستُ أتوقف عن «**إميل**»، حتى نفضتُ يدي من **العقد الاجتماعي** وقد أتممتُه في مدة هي دون السنتين.

بقي «**معجم الموسيقى**». وكان تأليفه صنْعَ جلادة قد أمكن إتيانه في أيّ وقت كان ولا غرض لي به إلاّ تحصيل المال. فاحتفظتُ لنفسي بحرية تركه أو إتمامه، وذلك على حسب ما كانت مواردي الأخرى تجعل تحصيل المال بنَسْخي الألحان ضرورةً عندي أو تجعله فوق الحاجة. أما كتابي «**الأخلاق الحسّاسة**»، وهو الذي بقي في مرحلة التخطيط، فقد تركته تركاً تاماً.

ثم إن آخر ما نويتُ، إذا استطعتُ أن أستغني كل الاستغناء عن نسخ الألحان، كان الابتعاد عن باريس حيث تقاطرَ عليّ القادمون يزيدون نفقات معيشتي ويحرمونني الوقت لكي أُدبّرهم. فابتغيتُ، يومَ أنتهي إلى خلوتي، أن أستدرك السآمة التي يقال إن المؤلّف يتردى فيها حين يهجر القلم، فاحتفظتُ بشغل لي يملأ فراغ توحّدي ولا

twitter @baghdad_library

يزيّن لي أن أطبع شيئاً من مؤلَّفاتي ما حييتُ. ولستُ أدري لأيّ نزوة خيال كان راي يلحّ عليّ أن أكتب مذكرات حياتي. ولئن لم يكن فيها، إلى ذلك العهد، وقائع جد مهمة، فلقد شعرتُ بأني إذا أشعتُ فيها المصارحة التي كنتُ أقدر على إشاعتها، أَثارة الاهتمام. فصمّمتُ أن أجعل من مذكراتي مؤلَّفاً فريداً بحكم صدقية لا مثيل لها، لأجل أن نرى، ولو مرة في الدهر واحدة، إنساناً كما هو في دخيلته. ولقد كنتُ على الدوام أهزأُ بسذاجة مونتينيه الكاذبة وقد تظاهر أنه يقرّ بذنوبه فتفنّن في أن لا يستعرض منها إلا ما كان مستحَبّاً. أما أنا، الذي أَنعمَ النظر في نفسه فحسبَ أنه خيرُ الناس كافة وما يزال يحسب أنه كذلك، فلقد أَدركتُ أن الإنسان مهما صفت سريرته، يخفي بعضَ الرذائل الشنيعة. وعلمتُ أني وُصفتُ أمام جمهور الناس وصفاً ضئيل الشبه بما أنا عليه، وأنني، في أحيان، قد وُصفتُ أمامهم وصفاً مشوّهاً. فإذا أبديتُ نفسي كما أنا عليه، لم يكن في ذلك إلاّ مَكسبة لي، برغم مساوئي التي أَبيتُ أن أسكت عنها في شيء. ثم لم يكن بوسعي الكشف عن نفسي ما لم أكشف عن غيري كما كانوا عليه؛ وإذاً، فإن مؤلَّفي هذا لن يُنشَر إلاّ بعد وفاتي وبعد وفاة كثير من الناس، فازددتُ جرأة على أن أكتب **اعترافاتي** التي لن أخجل بها أمام أحد أبداً. فعزمتُ أن أقف أوقات فراغي على حُسن القيام بهذا العمل، وأخذتُ أجمع الرسائل والأوراق التي تُرشد ذاكرتي أو تنبّهها، فاشتدَّ ندمي على كل ما مزقتُ منها أو أحرقتُ أو فقدتُ إلى ذلك الحين.

وكان مشروعي للخلوة المطلقة، وهو من أَفطن ما أَتيتُ من مشروعات، قد انطبع في ذهني انطباعاً، فابتدأتُ أعمل في مشروعي، فإذا السماء قد قدّرَت لي مصيراً آخر وألقتني في إعصار جديد.

ثم إن أملاك مونمورانسي، الميراث القديم الجميل لآل مونمرانسي المشاهير، لم تبقَ لهم منذ عهد المصادرة، بل نقلتْها شقيقة الدوق هنري إلى آل كونديه، فاستبدلوا باسم مونمرانسي اسم دانجان. وليس لهذه الدوقية من قصر إلاّ برجٌ عتيق تُحفَظ فيه الأوراق والوثائق ويُستقبَل فيه رجال الإقطاعات. بيد أنك ترى في مونمرانسي، أو في أنجان، بيتاً فريداً قد ابتناه كروزا[23] الملقَّب بـ «الفقير»، وهو بيتٌ على أبهة أروع القصور، فحمل اسمَ من ابتناه فاستحقَّ اسمَه. وكانت هيئةُ المبنى المهيبة، والمرتفَعُ الذي شُيّد عليه المبنى، ومطلّهُ الذي ربما كان لا نظير له في الدنيا، وقاعةُ الاستقبال الفسيحة التي رسمتْ ألوانَها يدُ صناع، وبستانه الذي اشرف على غرسه لونوتر الشهير كانت هذي كلها تؤلّف وحدة شاملة ذات جلال عظيم التأثير، بيد أنه جلال بسيط يبعث الإعجاب ويزكيه. وكان السيد المارشال الدوق دو لوكمسبورغ، وهو يومئذٍ قد اتخذ له هذا البيت، يأتي مرتين في العام إلى تلك البلاد التي كان قد سادها أسلافه، فيقضي ثمة خمسة أسابيع، أو ستة، على أنه رجلٌ كسواد السكان، ولكنْ في أبهة لا تحطّ من غابر عظمة أُسرته في شيء. فلما قدم أول مرة، في أثناء إقامتي بمونمرانسي، أَنفذ إليّ هو والسيدة قرينته تابعاً لها فحيّاني باسمهما ودعاني إلى العشاء عندهما كُلّما طاب لي أن أفعل. وكانا كلما عادا مرة جدّدا التحية نفسها والدعوة نفسها. فذكّرني ذلك بمدام دو بيرنفال إذ أرسلتْني أتغدى في غرفة طعام الخدم. فلقد دالت الأيام، ولكن ظللتُ أنا عيني، إذ أَبَيتُ أن أُرسَل فأتغدى بغرفة طعام الخدم، ولكن قليلاً ما باليتُ بموائد الكبار. ولقد كنتُ أُوثر لو تركوني على ما أنا فيه فلم يرحّبوا بي ولا

---

(23) كروزا هو مشتري أملاك مونمورانسي ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أذلّوني. ثم إنني قد رددتُ على مجاملات السيد دو لكسمبورغ والسيدة قرينته ردّ قدْرٍ كريم ولكن لم أُلبّ دعوتهما، وذلك لفرط ما قد كانت متاعب مزاجي الحييّ وارتباكي في الحديث تبلغ مني فأرتعد لمجرد أن أفكر في المثول بين مجلس من أهل البلاط؛ حتى إني لم أذهب إلى القصر فأزورهما زيارةَ شكر، وإن كنتُ قد أدركتُ أن هذا هو قصْدهما وأن تلك الحفاوة كلها هي إلى الفضول أَقرب منها إلى اللطف وحُسن الالتفات.

ولكن، مع ذلك، لم تبرح مبادرات اللطف ترد عليّ حتى باتت في ازدياد. فإن الكونتسة مدام دو بوفلير، وهي وثيقة العلاقة بمدام دو لوكسمبورغ، قد جاءت مونمرانسي، مرة، فبعثتْ تستعلم أخباري وتعرض عليّ أن تأتي فتزورني. فأجبتُها كما ينبغي لي الجواب، ولكن لم أذهب إليها قط. فلما كانت رحلةُ عيد الفصح من العام التالي، عام 1759، أقبل إليّ الشوفالييه دو لورنزي، وهو من بلاط الأمير دو كونتي ومن معشر مدام دو لوكسمبورغ، فزارني عدة مرات، فتعارفنا. فألحّ عليّ أن أمضي إلى القصر، فلم أفعل قط. فلما كنتُ من بعد ظهر أحد الأيام، إذا بي أرى المارشال السيد دو لوكسمبورغ قادماً وأنا أبعد ما يكون انتظاري لقدومه، وقد تبعه خمسة رجال، أو ستة. فلم يبقَ في وسعي التخلص منه، ولا اجتنابُ الرد لزيارته، ولا اجتنابُ زيارتي للسيدة دو لوكسمبورغ فأتودد إليها وقد حمل إليّ زوجها من عندها ألطف الأشياء لم يبقَ في وسعي ذلك كله إلاّ أن أكون وقحاً، قليل التهذيب. وعلى هذا النحو، نشأتْ، تحت برج النحس، علائق عجزتُ عن اتقائها؛ بيد أني، لسابق شعور راسخ خفتُ هذه العلائق إلى أن شبكتْني فيها وشائجُ الأسباب.

فلقد تهيبتُ مدام دو لوكسمبورغ أشدّ التهيب. وعلمتُ أنها

سيدة لطيفة. وكنتُ قد لقيتُها عدة مرات في المسرح وعند مدام دوبان، لعشر سنوات أو لاثنتي عشرة سنة مضت، يومَ هي الدوقة دو بوفلير ويومَ كانت لا تزال في رونق جمالها الأول. لكنها قد اشتهرتْ بأنها امرأة خبيثة، فخففتُ هذه الشهرة عند سيدة من علية القوم كمثْل هذه السيدة. فما أن لقيتُها حتى استولت عليّ، إذ ألفيتُها على فتون قد قاوم الزمنَ فأثّر في قلبي أعظمَ التأثير. وتوقّعتُ أن أجد حديثها قارصاً متهكماً، فلم يكن ذاك هو أمرها قط، بل كان أَحسن منه أضعافاً. فمدام دو لوكسمبورغ ليس في حديثها من اتقاد ذكاء ولا حضور بديهة ولا حتى من رهافة على الأخص؛ وإنما هو رقةٌ ساحرة لا تبلغ من نفس الإنسان أبداً ولكن تروقه على الدوام. فأما أسلوبها في الإطراء، فمسكر بقدْر ما هو بسيط، لكأنه يفرط منها، وكأن قلبها لا يفيض إلاّ لأنه على مزيد امتلاء. فخيّل إليّ، منذ الزيارة الأولى، أنني أعجبتُها، على خُرق هيئتي وثقل عبارتي. وذلك بأن نساء البلاط جميعهن إذا أردن إقناعك، عرفن كيف يسلكن حيالك، أكان سبيلهن الصدق أم خلافه؛ ولكن لسن كلهن على شبه مدام دو لوكسمبورغ خبرةً بكيف يحلّين إقناعك ويُنعّمنه حتى لا تشكّ فيه. ثم إن كنتّها الدوقة مدام دو مونمرانسي، وهي فتاة حمقاء، على خبث كاف، وأحسبها على بعض الإزعاج، كانت قد عمدتْ إليّ تستميلني، في حين قد أثنت عليّ حماتُها جمّ الثناء وتظاهرتْ بأنها، هي نفسها، تغازلني، فداخلني الشكُّ في كوني موضع سخرية؛ ولولا هذا لأصبحتْ ثقتي بمدام دو لوكسمبورغ، منذ اليوم الأول، ثقة بالغة لا تلبث أن توفي على التمام.

ولقد صعب عليّ أن أصدّق أن السيدتين قد هابتاني، لو لم يُثبت لي المارشال السيد دو لوكسمبورغ، بفضلٍ له عميم، أنهما قد كانتا من المهابة لي على شيء كثير. أما وأنا على ما أنا عليه من

twitter @baghdad_library

حياء فطرة وقد شاء الدوق السيد دو لوكسمبورغ مساواتي بنفسه، فإنه لا أمر أعجب من سريع تصديقي لأقواله إلا سريع تصديقه لأقوالي في ما أردتُ لي من عيش مطلق الاستقلال. فأَيقن هو ومدام دو لوكسمبورغ، كلاهما، بأني على حقّ إذ رضيتُ بحالي لستُ أُبدّلها شيئاً، فلم يَظهر لي قط أنهما قد عُنيا بشأن دراهمي ولا بثروتي وقسْمتي. ولئن كنتُ لا أشكّ في اهتمامها بي العطوف، فإنهما لم يعرضا عليّ من عمل ولا سلّفاني من معروف قط، عدا أن مدام دو لوكسمبورغ قد أعربتْ لي، يوماً، عن رغبتها في أن أدخل الأكاديمية الفرنسية. فاحتججتُ بديني، فقالت لي إنه ليس بعائق، أو قالت إنها ستتعهد بتدبير أمره. فقلتُ إني، وإن شرّفني أن أغدو عضواً في مجمع شهير كمثْل هذا المجمع، لم يبقَ في مكنتي، استقامةٌ مني وعلوَّ أخلاق، الدخولُ في أيّ مجمع علميّ كان إذ أَبيتُ ما سبق أن عرضه عليّ السيد دو تريسّان، وبالتالي ما سبق أن عرضه عليّ ملك بولونية من حيث دخولي في أكاديمية نانسي. فلم تلحّ عليّ مدام دو لوكسمبورغ، ولا ذكرنا ذلك مرة أخرى. ثم إنّ يُسر الاتصال بأمثال هؤلاء الأسياد، وقد أمكنهم نفعي بكل أمر، إذ السيد دو لوكسمبورغ هو الصديق الخاص للملك وإذ استحقّ أن يكون صديقه الخاص، إنّ يُسر الاتصال هذا ليناقضُ العناية الاستغلالية، المستمرة، المجاملة التي أبداها لي الأصدقاء النصراء الذين كُنتُ قد فارقتُهم منذ حين قريب، فابتغوا إذلالي أضعاف ما ابتغوا خدمتي.

فلما أتى السيد المارشال يزورني في مون لويس، شقّ عليّ استقباله هو وحاشيته في حجرتي الوحيدة، لا لأني قد اضطررتُ إلى دعوته للقعود وسط مهشَّم الآنية ومتسخ الصحون، بل لأن حجرتي قد خربتْ أرضُها فخفتُ أن تنهار تحت حاشيته. فأسرعتُ إليه،

فأخرجتُه من هناك وأنا بالخطر المحدق بي أقلُّ انشغالاً مني بما كان لطفُ هذا السيد الكريم قد عرّضه له من خطر. فصرتُ به، على رغم البرد الذي كان لا يزال ضارباً، أريدُ برج الحديقة، والبرج مشرَع كله وليس به من مدفأة. حتى إذا انتهى هو إلى البرج، ذكرتُ له السبب الذي حملني على أن أصير به إلى هناك، فأَخبر مدام دو لوكسمبورغ، فألحا كلاهما عليّ في أن أنزل عندهما بالقصر إلى أن يرمَّم سقف الدار، أو في أن أحلّ بمبنًى منفرد يقال له «القصر الصغير» إذا آثرتُ النزول فيه. والواقع أن هذا المسكن الساحر يستحقّ أن أتكلّم عليه.

وحديقة مونمورانسي ليست أرضها سهلاً كأرض الشوفريت. لكن أرضها وعرة، غير سويّة، ذات وهاد وتلال قد اغتنمها الفنان البارع فنوَّع البساتين وضروب التزيين والمياه والمشارف، وعمد إلى ما رُزق من صناعة ونبوغ ـ على مأثور القول ـ فوسّع دياراً هي برأسها ضيّقة الرقعة. أما ما يتوّج الحديقة في عالية أرضها، فهو الممر والقصر. وأما بالأسفل، فالحديقة منفرَجُ شقين قد انفتحا على الوادي. وأما زاوية الوادي، فملؤها خزّانُ مياه. فأما «القصر الصغير» الذي ذكرتُ، فهو ما بين خزّان المياه وبستان الليمون الذي يغطي المنفرَج، والخزّانُ تحفّ به تلال يزينها بعض الشجر والأحراج. هذا المبنى والأرض التي تحيط به قد امتلكهما في الأمس لوبران الشهير، فطاب له تشييدُ القصر وزخرفَتُه بما كان ذلك الرسام الكبير قد رضع من روعة الذوق زخرفاً وهندسة. ثم أُعيدَ ابتناءُ القصر بعدئذٍ، ولكن على نحو ما كان قد صوَّره المعلّم الأول. فالقصر ضيّق المساحة، بسيط الشكل، إلاّ أنه أنيق. وهو على قرارة من الأرض ما بين بستان الليمون وخزّان المياه الفسيح. فكان معرَّضاً للرطوبة، فحُفر في قلبه رواق ينفذ إليه الضياء بين طبقتين من الأعمدة كانتا متنفَّساً للهواء في

twitter @baghdad_library

المبنى كله فيظل بنجوة من الرطوبة، ذلك على رغم الموضع الذي أُقيمَ فيه. فإذا نظرتَ إلى القصر من جهة المرتفَع الذي يقابله ويطلّ عليه، لاح لك وقد أَحدقتْ به المياه، حتى ليخيَّل إليك أنك ترى جزيرة فتانة ساحرة، أو أنك تبصر أبهى جزر بوروميه الثلاث التي تقع في بحيرة ماجور، واسم الجزيرة إيزولا بيلا[24]

فخيّرتُ بين أحد الجوانح الأربعة التامة التي كان ذلك المبنى يحتويها زيادةً على طبقته الأرضية؛ أما هذه الطبقة، فتضم ردهة للمراقص، وقاعة للعبة البليار، والمطبخ. فاخترتُ أضيق الجوانح وأبسطها، وهو فوق المطبخ الذي جُعل له. وكان الجناح ناصع النظافة، وأثاثه أبيض اللون وأزرق. ففي ذلك التوحد العميق الطيّب، وبين الأحراج والمياه، وعلى شدو الطيور المختلفة الألوان، وعلى نفح من زهر الليمون - ألّفتُ الفصل الخامس من «**إميل**» وأنا في نشوة موصولة الأنفاس. فما قد شاع فيه من رونق، فإنما أنا، على الأكثر، مدين به لانطباعات الديار التي قد أنشأتُ فيها ذلك الفصل.

ولكم كنتُ أطير في كلِ صباح، عند الشروق، أتنسم، وأنا بالرواق، الأريجَ البليل! وما أَطيبَ الذي كنتُ أشرب من قهوة في حليب إذ أنا وتيريز وحدنا ومعنا قطتي وكلبي! ألا حسبي هذه الصحبة على مدى العمر فلا أتضجر أبداً. فلقد أَقمتُ، ههنا، في جنة عدن، فكنتُ على مثل براءتها وذقتُ سعادتها البكر.

فلما كانت رحلة السيد دو لوكسمبورغ والسيدة قرينته إلى مونمرانسي، في تموز، أبديا لي من بالغ العناية واللطف ما لم

---

(24) إيزولا بيلا أي المعتزَل الجميل - المترجم.

أستطع إلاّ أن أبدي لهما مثله، فواظبتُ على زيارتهما وقد كنتُ نازلاً عليهما يباشرني منهما الخير والمعروف. فكدتُ لا أفارقهما يوماً، إذ كنتُ أمضي في الصباح إلى مدام دو لوكسمبورغ ملاطفاً، مغازلاً، فأتغدى عندها، ثم أذهب بعد الظهر أتنزه مع السيد المارشال؛ ولكن لم أكن أتعشى ثمة لوفرة الناس ولأني وجدتُ ساعة العشاء متأخرة. فإلى ذلك اليوم، جرى كل شيء على ما يوافق، ولو اقتصرتُ على ما سلف، لم يكن فيه بَعْد من بأس قط. لكني لم أدر قط كيف أَلزم في علاقاتي الحدَّ الوسط فأقوم بما عليّ من واجبات اجتماعية قياماً يسيراً بسيطاً. فأنا على الدوام كل شيء، أو فأنا لا شيء؛ فما لبثتُ أن أصبحتُ كل شيء جميعاً. حتى إذا ألفيتُني قد رحّب بي شخصان من هذه الطبقة ولاطفاني، جاوزتُ الحد فصادقتُهما مصادقة لا تُحَقّ للإنسان إلاّ مع نظرائه من الناس، وسلكتُ حيالهما على غاية المؤانسة، في حين لم يتخليا قط عما عوّدانيه من مجاملة وأدب. لكني لم أشعر مرة بتمام الحرية وأنا مع مدام دو لوكسمبورغ. ولئن لم أطمئن إلى طبعها كل الاطمئنان، فقد كان تهيّبي لي دون تهيّبي لذكائها الذي به تسلطتْ عليّ في الغالب الكثير. وكنتُ أعلم أنها، في حديثها، صعبة المراس، وأنها قد حُقَّ لها ذلك. وكنتُ أعلم أن النساء، ولا سيما كبريات السيدات، جد حريصات على التسلية واللهو، فأن يهينهن المرء خيرٌ له من أن يُسئمهن. فقدّرتُ ما كان عليه رأيها في بلاهة حديثي إذ استندتُ إلى ما كانت تقول في أحاديث الناس إليها بُعيدَ أن يبرحوها. فعمدتُ لعلاج ينقذني من الارتباك إذا حادثتُها؛ أما العلاج، فهو أن أقرأ عليها. وكانت قد سمعتْ بذكر روايتي «**جولي**» وبأنها تُطبّع وقتئذٍ. فأفصحتْ لي عن عاجل رغبتها في الاطّلاع على الكتاب، فعرضتُ عليها أن أقرأه لها، فرضيتُ. فكنتُ أوافيها في نحو الساعة العاشرة من كل صباح، فيأتي السيد دو لوكسمبورغ، ثم يُغلَق الباب، فآخذ أقرأ وأنا بالقرب من

twitter @baghdad_library

سريرها. فنظّمتُ مَراحل القراءة أيّ تنظيم حتى إنها قد كانت كفت في أثناء الرحلة كلها ولو لم تقطَع مدتُها(*) فأصبتُ بعلاجي، هذا، فوق ما توقّعتُ من نجاح. فأُولعت مدام دو لوكسمبورغ برواية «**جولي**» وبمؤلّفها، وأمست لا كلام لها إلاّ عليّ ولا شاغل لها سواي. وطفقتْ تزجي إليّ لطائفَ القول طول النهار، وتُقبّلني في اليوم بضع مرات. وأرادت أن أتخذ مكاني بالقرب منها إذ نحن على المائدة، فإن شاء بعض الأشراف أن يحلّوا بمحلّي، قالت لهم إنه موضعي ودعتهم إلى مقاعد أخرى. فأمكنك أن تقدّر مدى ما بلغتْ مني هذه اللطائف وأنا الذي قد تسلطتْ عليه أيسرُ آيات الرقة والحنان. وكنتُ، في الواقع، قد تعلّقتُ بمدام دو لوكسمبورغ على قدْر ما أعربتْ لي عنه من تعلّق. فلما رأيتُ هذا الولع، ولما شعرتُ بوهن رغبتي في إذكائه، أصبحتُ لا أخشى إلاّ أن يتحول إلى نَفْر واشمئزاز؛ ولقد كان في سوء حظي أن هذه الخشية إنما ارتكزتْ على أسّ متين.

وكان لا بد أن يتعارض مجرى تفكيرها وتفكيري إذ بدت مني، وأنا معها على أحسن حال، أمورٌ جمّةٌ لم ترُقْها، ولستُ أدري لماذا لم ترُقها بدت مني في معزلٍ عن ضروب الغباوة التي كانت تفرط من حديثي وتفرط حتى من رسائلي. ولن أورد إلاّ مثَلاً منها واحداً، وكان بوسعي أن أورد عشرين مثَلاً. أما ذلك، فهو أن مدام دو لوكسمبورغ بلغها، يوماً، أني كنتُ أنسخ «**إيلوييز الجديدة**» مقابل كذا وكذا درهماً للصفحة. فابتغت لنفسها نسخة على الأساس عينه. فوعدتُها بها، وأدرجتُها في عداد زبونات أشغالي النسخية، وكتبتُ

(*) اضطر السيد دو لوكسمبورغ أن يهرول عائداً إلى البلاط بعد انكسار في إحدى المعارك غمَّ الملكَ غمًّا شديدًا.

إليها في ذلك رسالة مؤدَّبة لطيفة، أو هذا ما توخيتُ. فأما جوابها وقد أدهشني، فها هوذا نصه:

فرساي، يوم الثلاثاء هذا

(الرزمة ث، الرقم43)

«إني لمفتونة، إني لمبتهجة. لقد سرّتني رسالتكَ سروراً لا نهاية له، فأسرعتُ أُعلمك به وأشكره لك.

«وها هي ذي عبارات رسالتكَ: «**لئن كنت زبوناً جيداً ولا ريب، فإنه يؤسفني بعض الأسف أن آخذ من دراهمك شيئاً: فإنما عليّ أن أؤدّي لذة العمل من أجلك تأديةً مطّردةً منتظمة**». ولستُ أقول لكَ غير ذلك. ثم إني لأتظلم منكَ إذ لا تكلّمني على صحتك أبداً. فلا أمْر يعنيني فوق صحتك. وإني لأحبُّك حبّاً قلبياً خالصاً، وأؤكد لك أنه تشجيني الكتابة إليك بهذا الحبّ، فلقد كان يسرّني حقّاً أن أقوله لك أنا بنفسي. وبعد، فلك مودة السيد دو لوكسمبورغ وقُبله القلبية، الخالصة».

فلما تسلمتُ هذه الرسالة، أسرعتُ أجيب عنها، وكنتُ أرتقب المزيد من نظري فيها لكي أعترض على كل تأويل لها مكدّر. حتى إذا شُغلتُ بالنظر في شأنها بضعة أيام، وأنا على ما قد تصوَّرتَ من قلق، ولست أفهم من أمرها حرفاً، كتبتُ في صددها الجواب التالي نصه:

مونمرانسي، في 8 كانون الأول 1759

«الفقرة المذكورة قد نظرتُ فيها، مذ رسالتي الأخيرة، عشرات المرار. فتأملتُ في معناها الأصلي وفي معناها الطبعي، وتأملتُ في كل ما يمكن أن تفسَّر به من أغراض. فأُقرُّ لك، سيدتي قرينة المارشال، بأني قد أمسيتُ لا أدري أعليّ أنا الاعتذار إليك أم عليك أنت الاعتذار إليّ».

twitter @baghdad_library

ولقد مضت عشر سنوات على كتابة هاتين الرسالتين. وكثيراً ما قمتُ، مذ ذلك العهد، أجيل الفكر فيهما وأعيده، وما أزال شديد الغباوة عن هذا الموضوع حتى إني لم أدرك ماذا وجدت مدام دو لوكسمبورغ في تلك الفقرة مما لم يُرقْها، ولستُ أقول: ماذا وجدتْ مما كان به إهانة لها.

وينبغي أن أورد ههنا، على ذكر نسخة الـ «**إيلوييز**» المخطوطة التي أرادت مدام دو لوكسمبورغ الحصول عليها، ينبغي أن أورد ما اخترعتُ لكي أخلع على هذه النسخة بعض المحسّنات التي تميّزها عن كل نسخة سواها. وذاك أني كنتُ قد كتبتُ «**مغامَرات ميلورد إدوار**»(25) على حدة، فترددتُ كثيراً قبْل أن أُدرجها كلها أو قبْل أن أُدرج فقرات منها في المؤلَّف الذي بدا قد افتقر إليها. ولكن صحَّ رأيي، آخر الشيء، على حذفها جميعاً لأنها ليست على جو سائر الكتاب، فهي تُفسد بساطته المؤثّرة. فلما عرفتُ مدام دو لوكسمبورغ، بات عندي سبب آخر أعظم جداً يدعوني إلى حذف تلك المغامرات. فلقد كان فيهن مركيزة رومانية ذات طبع شديد القبح قد يعمد من لم يعرفوا مدام دو لوكسمبورغ إلاّ شهرةً لأن يلصقوا بها بعض ملامحها، وإن لم تنطبق عليها. فهنأتُ نفسي بما قد صحَّ عليه رأيي، ثم تقيدتُ به. ولكن، ألم تخطر لي تلك المغامرات المشؤومة؟ أوَلم أنو أن أستخلص منها ما أُدرجُه في نسخة مدام دو لوكسمبورغ، إذ اتقدتُ رغبةً في أن أُغْني نسختها بما ليس هو في أيّ نسخة أخرى كانت؟ فيا للفعل الأحمق الذي لا تفسير لغرابته إلاّ أنه عمَهُ القدَر يدفعني إلى التهلكة!

«ولقد سلب جويتار عقلَ مَن كَتَب عليهم الهلاك»(26)

---

(25) **مغامرات ميلورد إدوار** (*Les aventures de Milord Édouard*) ـ المترجم.

(26) في الأصل باللاتينية: Quos vult perdere juppiter dementat ـ المترجم.

وكنتُ على بلاهة أن أُتقنَ صنْعَ ما استخلصتُه من تلك المغامرات، وأن أجدّ فيه، ثم أن أبعث إليها بتلك الفلذة على أنها أجمل شيء في الدنيا. ولكن نبهّتُها إلى أني أحرقتُ الأصل، وأن المستخلَص منه إنما هو لها وحدها، وأن لن يراه أحد سواها إلاّ إذا أرته هي بنفسها. وذلك بأجمعه صحيح، بيد أنه لم يُثبت لها احتراسي وكتماني ـ على حسب ما كنت أظن، بل هو نبّهها إلى ما كنتُ أنا بنفسي أقدّره من حيث إضافتي بعض الملامح اللائي قد يسوءها أمرهُن. فبلغتُ من البلاهة ما لم أشكّ معه في أن مدام دو لوكسمبورغ قد سرّها كيف أدرجتُ لها هذا المستخلَص. أما هي، فلم توجّه إليّ ما كنتُ أتوقّعه من عظيم التهنئات، ولا كلّمتْني قط على الدفتر الذي أرسلتُ به إليها، فاستغربتُ ذلك حقّاً. وكنتُ لا أنفك مبتهجاً بسلوكي، هذا، فلم أقدّر سوء موقعه عندها إلا بأدلة أخرى أتتني بعد وقت بعيد.

وسنحتْ لي، من أجل نسختها المخطوطة، فكرةٌ أخرى أثقبُ عقلاً؛ ولكن نشأتْ عن فكرتي نتائج أَبعدُ مدىً، فلم تكن هذه الفكرة أقلّ من سواها ضرراً بي، وذلك مادام كل شيء يعاضد مشيئة القَدر إن هي قادت الإنسان إلى النحس والبلوى! فلقد كان في نيتي أن أزين النسخة برسوم من صور كتاب «**جولي**»، واتفقَ أن الصور كانت على قياس المخطوطة. فسألتُ كواندیه هذه الرسوم، وكانت ملكاً لي من كل ناحية، وعلى الأخص أنني قد تخليتُ له عن حصيل اللوحات التي بيع منها جمٌّ كثير. وكواندیه مكّار على قدْر ما أنا بنأي عن المكر. فما زال يحتال لأسأله تلك الرسوم وأكرّرَ السؤال حتى وقف على قصدي بها. فاحتجّ بأن أضاف إليها بعض الزخرف، فتركتُها له، فأهداها بنفسه إلى مدام دو لوكسمبورغ في آخر الحال.

twitter @baghdad_library

«أنا مَن نظم الأبيات، ومجدُها لغيري»[27]

فتّم بذلك دخول كوانديه في قصر لوكسمبورغ على نحو ما. وكان هو، مذ حللتُ بالقصر الصغير، كثيراً ما أَقبل يزروني يأتي دائماً في الصباح، ولا سيما أيام كان السيد دو لوكسمبورغ وقرينته في مونمورانسي. فلأجْل أن أقضي النهار معه كنتُ، عندئذٍ، لا أمضي إلى القصر. فعوتبتُ على هذا الغياب، فذكرتُ سببه، فطُلب إليّ أن أجيء بالسيد كوانديه، ففعلتُ. فكان ذاك ما قد توخاه المكّار. وهكذا أُتيحَ لكاتب[28] السيد تيلوسون أن يستوي فجأة إلى مائدة مارشال من قادة فرنسا، فيجالس الأمراء والدوقات وسائر مَن في البلاط من كبار القوم، ذلك لما قد لقيتُ ثمة من بالغ الإحسان، بينما كان السيد تيلوسون قد شاء، في بعض الأحيان، أن يأذن لكوانديه أن يكون على مائدته إن لم يكن عنده أحد على الغداء. ولن أنسى البتة، وقد اضطر كوانديه مرة أن يبكر في العودة إلى باريس، أن المارشال قال للرفقة بعد الغداء: «هيا نتنزه على طريق سان دونيس، فنصحب السيد كوانديه». فلم يحتمل الفتى المسكين ذلك الشأن كله، فطار عقله. أما أنا، فقد بلغ مني التأثر حتى إني عييتُ عن كل قول. فسرتُ خلفهم أبكي بكاء الطفل وقد تشهيتُ أن ألثم خطى هذا المارشال الطيّب. لكن بقية قصة النسْخ هذه قد حملتْني على استباق الأيام والتواريخ، فلنرجعْ إلى ذلك بحسب مجرى الأمور ما أعانتني عليه الذاكرة.

فما أن أُعدَّ منزل مون لويس الصغير حتى أثثتُه تأثيثاً نظيفاً بسيطاً. ثم عدتُ إلى الإقامة فيه وقد تعذَّر عليّ التخلي عن السنّة

(27) في الأصل باللاتينية: Ego versiculos feci, tulit alter honores ـ المترجم.

(28) أي كوانديه ـ المترجم.

التي أَخذتُ بها لمّا برحتُ الإرميتاج، وهي أن يكون مسكني لي أنا؛ ولكن، مع ذلك، لم يسعني التصميم على أن أهجر منزلي في القصر الصغير. فاحتفظتُ بمفتاحه، وكنتُ شديد الحرص على الغداء تحت القناطر؛ وكثيراً ما أمضيتُ ليلي فيه، وربما سلختُ به يومين، أو ثلاثة أيام، وكأني في بيت من بيوت الريف. ولعلّي، عهدئذٍ، أَحسن أفراد أوروبا سكنى وأَطيبُهم مقاماً. وكان السيد ماتاس، مالك منزل مون لويس وخيرُ الناس كافة، قد أطلق يدي في الإشراف على أشغال الإصلاح والترميم، فشاء أن أتصرف في عمّاله حتى من غير أن يتدخل هو في أمر. فوجدتُ سبيلاً إلى أن أجعل من حجرة واحدة، كانت في الطابق الأول، منزلاً لي كاملاً مؤلَّفاً من غرفة وغرفة أخرى تابعة لها ومن مستراح. أما في الطابق الأرضي، فكان المطبخ وحجرة تيريز. وأما البرج، فقد اتخذتُه مكتباً فأحطتُه بالزجاج ووضعتُ به مدفأة. فلما شخصتُ إلى هناك، قمتُ أتلهى بتزيين الممر الذي كان قد ظلله، منذئذٍ، صفّان من صغار الزيزفون. فأضفتُ إليهما صفّين آخرين، فكان ثمة عريش مُخْضَوْضر ركّزتُ فيه منضدة ومقاعد من حجر وسيجتُه بشجر الليلك وزهر العسل والآس، واستصنعتُ للحديقة حاشية أزهار تحاذي صَفَّي الشجر، فكان هذا الممر أعلى من ممر القصر، ومطلُّه ليس دون مطلّ القصر روعة وجمالاً. وجعلتُ به الكثير من دواجن الطير، واتخذتُه ردهة استقبال، فتلقيتُ فيه السيد دو لوكسمبورغ والسيدة قرينته، والدوق السيد دو فيللوروا، والأمير السيد دو تينجري، و المركيز السيد دارمانتيار، والدوقة مدام دو بوفلير، والكونتسة مدام دو فالانتينوا، والكونتسة مدام دو بوفلير، وأناساً آخرين من هذه الطبقة؛ وكانوا قبْلاً، وهم في القصر، لا يتنازلون بأن يقصدوا مون لويس إذ الطريق إليه وعرة جداً. فتلك الزيارات كنتُ مديناً بها للسيد دو لوكسمبورغ وللسيدة قرينته؛ فأدركتُ فضلهما، فأكرمتُهما بقلبي وبمشاعري.

twitter @baghdad_library

فهبّتْ بي، ذات مرة، فورةٌ من فورات هذا الحنان، فقلتُ للسيد دو لوكسمبورغ وأنا أقبّله: «آه! سيدي المارشال، لقد كنتُ أكرهُ العظماء قبلما عرفتُك، فازددتُ كرهاً لهم مذ أشعرتَني حقّاً بمبلغ ما يسهل عليهم أن يحملوا الناس على عبادتهم».

ثم إني أسأل جميع الذين رأوني عهدئذٍ هل لحظوا، يوماً، أن تلك الأبهة قد أسكرتْني، وأن بخور ذلك المديح قد أخذ فيّ؟ واسألهم هل ألفوني أَقلّ بساطةً في تصرفي وسلوكي، وهل وجدوني أَقلّ ملاطفةً لسواد الشعب، وأَقلّ مؤانسةً لجيرتي، وأَقلّ إسراعاً إلى خدمة الجميع ما استطعتُ؟ حتى إني لم أَزورَّ قط عما لا يحصى من المزعجات التي كان أغلبها في ناي عن الصواب والتي كانت لا تنفكّ ترهقني. وإذا كان قلبي قد اجتذبني إلى قصر مونمرانسي لصدق تعلّقي برب القصر وبربته، فإنّ قلبي قد ارتد بي إلى الجوار، فذقتُ طيّبات ذلك العيش السويّ، البسيط، الذي لا سعادة لي إلاّ فيه. وكانت تيريز قد صادقتْ بنت أحد البنّائين، وهو جاري، ويدعى بيلّو، فصادقتُه. فكنتُ أتغدى في القصر، وأنا على بعض الانزعاج، غير أني كنتُ أفعل ذلك إرضاءً للسيدة دو لوكسمبورغ، ثم أخفُّ عائداً في المساء، فأتعشى مع بيلّو الطيّب القلب وأُسرته، تارة عنده، وعندي تارة أخرى.

وبات لي، فضلاً عن ذينك المنزلين، منزل في قصر لوكسمبورغ إذ لم يبرح رَبّاه يلحّان عليّ أن أزورهما في أحيان حتى قَبلتُ، وذلك مع كرهي باريس التي لم أكن قد جئتُها، من يوم خلوتي بالإرميتاج، إلاّ في المرتين اللتين تقدَّمَ لي الكلام عليهما. ثم لم أكن لأقصد باريس إلاّ في لأيام المتواعَدة، ولا غرض لي ثمة غير العشاء والرجوع من صباح الغد. فكنتُ أدخل وأخرج من الحديقة التي تفضي إلى الشارع الكبير، فأمكنني، صدقاً، القول إني لم أطأ أرض باريس.

ولكن بينا أنا في صميم هذا العيش الهنيء، العابر، كانت تُهيّأ، عن بعد، الكارثةُ التي صرمتْ أيامَ الرخاء. وذلك أني، بُعيدَ رجوعي لمون لويس، تعرّفتُ إلى سيدة ما تزال ذكراها حية في سيرتي؛ وكان تعرّفي إليها دون رغبة مني فيه على حسب العادة. وسيتاح لك أن تقدّر أخيراً كان ذلك أم شراً. أما السيدة، فهي المركيزة مدام دو فردولان جارتي، وكان زوجها قد اشترى، في سوازي بالقرب من مونمرانسي، بيتاً ريفياً. وكانت الآنسة دارْس، بنتُ الكونت دارْس، ـ وهو رجل ذو مكانة إلاّ أنه فقير، ـ قد تزوجها السيد دو فردولان، شيخ، بشع، أصم، فظ، حسود، أعور، على وجهه ندبة طويلة، وهو، مع ذلك سليم الطوية إن عرفتَ كيف تسلك إليه. أما دخْله فبين خمسة عشر ألف ليرة وعشرين ألف ليرة قد زُفّتْ إليهن الآنسة دارْس. فكان هذا الشاب اللطيف الأنيق لا يفتأ مجدّفاً، صائحاً، موبّخاً، مزبداً، وكان يُبكي زوجته طول النهار، ثم لا يني يصنع، في آخر الأمر، ما تشاء، قصْدَ أن يغيظها، إذ عرفتْ كيف تقنعه بأن ما تشاء هي فإنما هو الذي قد أراده وبأنها هي التي قد أَبَته. وكان السيد دو مارجنسي، الذي تقدَّم لي ذكره، صديقَ هذي السيدة، فغدا صديقَ زوجها. وكان، منذ بضع سنوات، يؤاجرهما قصْرَه في مونمرانسي بالقرب من أوبونّ وأنديي. فكانا هناك زمنَ هيامي بمدام دو دوتو التي كانت هي ومدام دو فردولان قد تعارفتا عن يد مدام دو بوتير صديقتهما جميعاً. وكانت حديقة مارجنسي على طريق مدام دو دوتو إذ تمضي هي إلى جبل أولمب، نزهتها المفضّلة. فأعطتها مدام دو فردولان مفتاحاً للحديقة كي تمرّ من هناك. فمررتُ معها، والفضلُ للمفتاح، بيد أني لم أمل إلى الملتقيات غير المتوقَّعة. فكنتُ إن صادفتُ مدام دو فردولان، في أثناء مرورنا، تركتُهما، هي ومدام دو دوتو، معاً فلم أقل لهما شيئاً، بل سرتُ أتقدّمهما. ولا ريب أن سلوكي، هذا، القليل اللطف لم يرُق مدام دو فردولان. إلاّ أنها لما

twitter @baghdad_library

صارت إلى سوازي، لم تبرح تبتغيني. فأقبلتْ تزورني مراراً في مون لويس، فلم توفَّق لي. فلما ألفتني لم أَردّ عليها الزيارة، عمدتْ إلى ما يحملني على ردّها، إذ أرسلتْ إليّ بأُصُص[29] رياحين لأجل ممر البيت. فلم يبقَ لي بد من الذهاب إليها لأشكرها، فكفى، بذاك، فإذا بنا قد تَواصلنا.

وكان تواصُلنا، في أول شأنه، عاصفاً كسائر العلائق التي حبكتُها على كره مني؛ حتى إنه لم يَنعم بتمام السكينة يوماً. وكانت مدام دو فردولان على مجرى تفكير هو أقصى من أن يتعاطف ومجرى تفكيري. وكانت لواذع النكات والأقوال تنطلق منها عفو البديهة حتى لا بد لك من مزيد انتباه قد أَرهقني جداً لتدركَ أنها تسخر بك. وحسْبك هذا التافه الزهيد الذي أُوردُه الآن فتحكم بما أقول. وذلك أن شقيقها وُلّي، أيامئذٍ، قيادة بارجة قد طارت تُغير على الإنجليز. فأخذتُ أتكلّم في كيف تُسلَّح هذه البارجة من غير أن تُكبَح خفّتُها وسرعةُ جريها. فأجابتني مدام دو فردولان إجابة هي في منتهى البساطة، قالت: «أجل، فالبارجة لا يُحمَل عليها إلاّ المدافع اللازمة للقتال». وقلما سمعتُها تطري أحداً من أصدقائها، في أثناء غيابهم، إلاّ نفثتْ، في إطرائها، بعض الانتقاص لهم؛ فما لا تَعدّه مَسْوأةً فهو، عندها، مَضحكة. ولم يكن صديقها مارجنسي ليستثنى من ذلك. ثم إن الذي وجدتُه فيها أمراً لا يطاق هو كونُها لم تفتأ تثقّل عليّ بما ترسل إليّ به من يسير الهدايا والأشياء ومن صغير الرقع التي أرهقتْني الإجابة عنها في غير طائل، فكنتُ لا أني في تحيّر وارتباك ما أدري أأشكرها لها أم أردّها عليها. ولكن، مع ذلك، تعلّقتُ بها، آخر الأمر، لفرط ما قد لقيتُها. وكان لديها ما يحزنها،

(29) أصص، مفردها أصيص وهو وعاء تُزرعَ فيه الرياحين ـ المترجم.

وكان لديّ ما يُحزن. فتساررنا، فغدت خلواتنا وهي لنا مبعث اهتمام؛ إذ لا شيء يوطد ما بين القلبين أضعافَ ما توطده حلاوة البكاء معاً. فنشدتُها ونشدتْني لكي تعزيني وأعزيها. فمن أجْلِ هذه الحاجة سكتُّ عن كثرة أمور. ولكن صارحتُها فقوستُ وربما أَزريتُ بخُلقها، حتى إنها كانت على خُلق سام كريم، ولا ريب، وإلاّ لم أُصدّق أن قد سامحتْني حقّاً. وها هو ذا مثال من الرسائل التي كتبتُ إليها في بعض الأوقات؛ والحريّ بالذكر أن لم يبدُ على جوابها قط أنها استاءت في أيّ وجه كان:

مونمرانسي في 5 تشرين الثاني

«قلت لي، سيدتي، إنك لم توضحي ما يجول بخاطرك؛ لكن غرضك هو إفهامي أني لا أُوضح ما أقول. وكلّمتني على ما تزعمين أنه غباوتك؛ ولكن قصْدك هو أن تُشعريني بغباوتي. وابتهيت بأنك لست امرأةً سليمة الطوية، فكأنما أنت قد خشيت أن أُصدّقك على الفور. واعتذرت إليّ لكي تعلّميني أنما عليّ الاعتذار إليك. أجل، سيدتي، ولقد أدركتُ أني أنا هو الأبله، البسيط القلب، وأدركتُ أني شرٌّ من ذلك، إن كان في الوسع أن أكون. فأنا هو الذي لا يُحسن اختيار عباراته بحسب ما تهوى سيدة فرنسية جميلة قد انتبهتْ للكلمات قدْر ما تنتبهين، وأجادت فنون القول قدْر ما تجيدين. ولكن لاحظي أنني أتناول المفردات بمعناها اللغوي الشائع، فما تهمّني، في الواقع، المصطلحات الأدبية التي تخلعها على هذا المعنى المجتمعات الباريسية الفاضلة. فإن يكن لعباراتي معنيان أحياناً، فلقد اجتهدتُ أن يحدّد قصْدَها «سيرتي وسلوكي» إلخ. أما تتمة الرسالة، فتكاد تجري على النفَس عينه. فانظر الجواب في الرزمة د والرقم 41، وقدّرْ ما لا يصدَّق أن يكون عليه اعتدال الشعور عند امرأة لم تسؤها رسالتي إساءة تُجاوز ما قد أَفصح عنه جوابها ولا أعربتْ هي

twitter @baghdad_library

لي عن هذه الإساءة قط. ثم إن كوانديه، ـ البعيد الهمة، على جرأة حتى القحة، ـ كان يترصد أصدقائي كافة. فما لبث أن قصد إلى بيت مدام دو فردولان فدخله على أني قد أرسلتُه. فتقدَّمني ثمة ألفةً ومؤانسة، وأنا لا علم لي بذلك. ولقد كان كوانديه، هذا، شخصاً غريباً؛ فعرّف نفسه إلى أصدقائي أجمعين يزعم أني أنفذتُه إليهم، ثم نزل عندهم وأَكل على غير تكلّف. وكان، وهو بحضرتهم، يتقد حميّةً لخدمتي ليس يذكرني إلاّ وعيناه تدمعان. ولكن إذا أتى يزورني، كتمني هذه العلاقات أعمقَ الكتمان وسكتَ عن كل ما لا يخفى عليه أنْ قد عناني شأنه حتماً. فأصغى إليّ وقتئذٍ وساءلني، بدل أن يخبرني بما قد علم أو قال أو رأى. فلم يعلم بشيء عن باريس قط ما لم أكن أنا أنبأتُه به. ولئن بات الجميع، في آخر الحال، يكلّموني على كوانديه، فإنه لم يكلّمني على أحد، يوماً، ولا أحاط نفسه بالخوافي والأسرار إلاّ إذ هو مع صديقه[30] ولكن فلندَع، الساعة، كوانديه ومدام دو فردولان. فسنعود إليهما في بعض ما يلي.

ثم إن لاتور الرسام جاء، مرة، يزورني بعد رجوعي إلى مون لويس ببعض الزمن. فحمل إليّ صورتي التي كان قد صنعها بأقلام الباسْتل والتي تقدَّمَ له أن عرضها، لبضع سنوات خلتْ، في معرض الرسوم. وكان يريد أن يهب لي الصورة، فأبَيتُ. لكن مدام ديبيناي، وكانت قد أعطتني رسمها وابتغت الحصول على رسمي، هذا، قد طلبتْ إليّ أن أسأله إياه. فطال عليه الوقت وهو ينقّح الصورة. وكنتُ، في أثناء ذلك، قد انقطعتْ علاقتي بمدام ديبيناي، فرددتُ عليها رسمها، ولم يبقَ أن أمنحها رسمي موضعَ بحث، فعلّقتُه في حجرتي

(30) يريد مع روسو ـ المترجم.

بالقصر الصغير، فأبصره السيد دو لوكسمبورغ، فاستحسنه، فأهديتُه له، فقبله، فأرسلتُ به إليه. فأدرك هو والسيدة قرينته أني يطيب لي الحصول على رسميهما. فاستصنعاهما في شكل منمنمة قد عملتْها يدٌ بارعة، وأمرا بالرسمين أن يُلصَقا على علبة للحلوى من صفو البلور يغشّيها الإبريز، ثم أهدياهما لي بلطف كثير، فابتهجتُ حقاً. وأَبت مدام دو لوكسمبورغ، في كل حال، أن يُلصَق رسمها على وجه العلبة. وكانت قد عاتبتني عدة مرات أني أُوثُر زوجها عليها، فلم أنكر ذاك لأنه صحيح. فأعربتْ لي، ببالغ رشاقة منها وجمّ وضوح، أنّ رسمها قد أُلصقَ على ظهر العلبة إذ هي لم تنس هذا الإيثار.

واجترحتُ، عهدئذٍ في التقريب، حماقةً لم تساعدني على أن أحتفظ برضا مدام دو لوكسمبورغ. ولئن كنتُ لم أعرف قط السيد دو سيلويت[31]، ولئن لم يكن لديّ ما يحدوني على مودته، فلقد قدرتُ إدارته حقّ قدرها وحَسُن رأيي فيها. فلما قام يشدّ على أصحاب الأموال، وجدتُ أنه لم يبدأ عمله في الوقت المناسب. حتى إذا بلغني أن قد نُقل من منصبه، كتبتُ إليه، وأنا على اجتراء خفتّي، الرسالة التالية التي لا أحاول أن أسوّغها أبداً:

مونمورانسي، في 2 كانون الأول 1759

«تنازلْ، سيدي، بأن تتقبل إكرام امرئ متوحد لستَ تعرفه، لكنه قد احترمك لأجْل مواهبك، وقدّرك لأجْل إدارتك، وشرّفك إذ أيقن أن هذه الإدارة لن تبقى لك زمناً طويلاً. فلما لم يسعك إنقاذ الدولة إلاّ على حساب العاصمة التي ذهبتْ بالدولة، قابلتَ جلبةَ متكسبي الأموال فلم تنثن ولا باليتَ. حتى إذا رأيت إليك وقد

---

(31) كان دو سيلويت مفتش المالية العامّ عامَ 1759، ونُقل من منصبه في العام نفسه ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

سحقتَ أولئك الأردياء، غبطتُك على منصبك؛ أما الساعة وقد خرجتَ منه لم تكذّب نفسك، فإني لمعجب بك. فارضَ عن نفسك، سيدي، لأن منصبك قد صان لك شرفاً سوف تنعم به دهراً لا ينافسك أحد. فإنما لعنات الماكرين مجدُ الإنسان البار».

وكانت مدام دو لوكسمبورغ تعلم أني كتبتُ هذه الرسالة، فكلّمتْني عليها في رحلة الفصح، فأريتُها إياها، فرغبتْ في نسخة منها، فأعطيتُها. ولكن لم أدر، وأنا أعطيها النسخة، أن مدام دو لوكسمبورغ هي في عداد متكسبي الأموال، أولئك الذين كانت لهم منافع في إدارة الضرائب والذين تسببوا بإزعاج سيلويت عن منصبه. فكأني، مع ما سلف من غباوتي، إنما طاب لي أن أُوغر عليَّ امرأةً لطيفة، مستحبّة، عظيمة النفوذ، قد ازددتُ تعلّقاً بها يوماً فوق يوم وحرصتُ ألا تسخط عليّ أبداً، وإن كنتُ، لفرط خرقي وضعف تبصري، قد فعلتُ كل ما يُسخطها. وأحسب أنه لا حاجة للتنبيه أن مدام دو لوكسمبورغ هي المصدر لقصة **أفيون السيد ترونشان**، وقد رويتُها في الجزء الأول[32] من هذه **الاعترافات**. أما السيدة الأخرى، فهي مدام دو ميرابوا. فلم تكلّماني على هذه القصة مرة ثانية قط، ولا تظاهرتْ إحداهما ولا الأخرى بأنهما تتذكرانها يوماً. ولكن لو قدَّرتُ أن مدام دو لوكسمبورغ نسيت القصة في الواقع، وهذا عندي أمر مستبَعد، إذاً لم يُعلَم قط شيء مما اتصل بمجراها. أما أنا، فلقد أذهلتْني ضروب حمقي فأيقنتُ أنني لم أرتكب أيّ حمق كان قصْدَ الإساءة إلى مدام دو لوكسمبورغ، فكأن في الدنيا امرأة تصفح عن مثل هذا الحمق ولو أيقنتْ أنه ليس لنيّتي أقلّ نصيب في ما ارتكبتُ منه.

ولئن لم يبدُ على مدام دو لوكسمبورغ أنها قد آنستْ من ذلك

(32) الجزء الأول، الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ المترجم.

شيئاً ولا أحسست بشيء، ولئن لم أرَ حينئذٍ بَعْد من نقصٍ في حفاوتها ولا من تبدلٍ على سلوكها، فإنّ قلبي قد تضاعف عليه هاجسٌ راسخُ الشعور، عميق، فبتُّ في خوف من ألا يلبث الملل حتى يعقب ذلك الهوى. أفكان بوسعي أن أتوقَّع، لدى مثل هذه السيدة الكبيرة، ثباتاً على ابتلائها لضعفي؟ فلم أدر حتى كيف أُخفي عليها شعوري الهاجس وقد أقلقني فما زادني إلاّ عبساً واكتئاباً. وإنك لتقدّر ذلك حين تقرأ الرسالة التالية التي تحتوي على نبوءةٍ فريدة غريبة.

ملاحظة: هذه الرسالة ليس لها تاريخ في مسودتي، والأرجح أن تاريخها يعود إلى تشرين الأول 1760.

«ألا ما أقساك لطفاً ورفقاً! فلمَ الإقلاق لسكينة امرئ متوحد زهد في لذات الدنيا، ولا يشعر بما فيها من مزعجات؟ ولقد سلختُ أياماً أفتش عن روابط لي متينة، ولكن على غير طائل، فأعياني حبْكها في ما تعذَّرَ عليّ بلوغُه من أحوال. أفعندك ينبغي أن أطلب هذه الروابط؟ لا المَطمحة تغريني، ولا المنفعة تزيّن لي، إنما أنا ضئيل الوهم، قليل الخشية، أقوى على كل شيء ما عدا الغزَل. فلمَ يهجم كلاكما على وهَنٍ مني قد وجب كبْتُه، مع أني، ونحن ما بيننا من أبعاد، لا يحقّ لنجاوى القلب أن تدني قلبي إليك؟ والفؤاد الذي إذا بذل نفسه لم يعرف إلاّ الإخلاص ولا خفَقَ إلاّ بالصداقة، هذا الفؤاد أيكفيه عرفان الجميل؟ الصداقة، سيدتي! آه! تلك بليّتي! جميل أن تعمدي، أنت وسيدي المارشال، إلى هذه اللفظة، ولكن من الغباوة أن أُصدّق قولكما. فإنكما تعبثان؛ وأما أنا، فمقيّد، وقد جعلتْ خاتمةُ هذا العبث تهيئ لي دواعيَ جديدة للأسف والندم. ألا ما أَشدَّ كرهي لألقابكما جميعاً، وما أَعظَمَ رثائي لكما إذ تحملان تلك الألقاب! وإنكما، في ما أرى، لجد خليقين بطيّبات العيش الحميم! فلو تقيمان في كلارانس فأقصدها أَنشدُ سعادة العمر! أما قصر مونمرانسي، وأما قصر لوكسمبورغ، أفبهما ينبغي أن تَلقيا جان جاك؟ أفَهُنا يجب على صديق للمساواة أن يحمل مشاعره

twitter @baghdad_library

التي تسيل رقةً وحناناً، فيوفّي بها ما قد أُوليَ من الاحترام وهو يحسب أنه قد ردّ منه قدْرَ ما أخذ؟ ثم إنك، أنت أيضاً، سليمة الطوية، رقيقة الشعور. ولقد علمتُ بذلك إذ رأيتُه، فأسفتُ على أن قد فاتني تصديقه من قبْل اليوم. وأما وأنت في الطبقة التي تتقلّبين، وعلى مجرى العيش الذي به تنعمين، فلا شيء يؤثّر فيك إلى أجل بعيد، وإنما يمحى عنك أَكثرُ ما يجدّ من الأمور فلا يزال بعضُها يعفو بعضاً حتى لا يبقى منها أثر. ولسوف تنسيني، سيدتي، وقد عجزتُ عن الاقتداء بك، وقد شاركت في إتعاسي مشاركة جسيمة لا عذر لك فيها».

ولقد ضممتُ إليها، ههنا، زوجها لكي أُخفف عنها بعض اللوم والعتاب. وكنتُ، مع ذلك، قد وثقتُ بالسيد دو لوكسمبورغ حقّ الثقة حتى إني لم أخشَ قط على صداقته أن تزول، ولا امتدّ إليه مني سببٌ مما تخوفتُه عند السيدة قرينته، ولا ارتبتُ من سجاياه يوماً وقد علمتُ بضعفهن علمي بأنهن على نحو من الخُلق مأمون. كذلك لم أخشَ أن يجفوني، ولا انتظرتُ أن يتمسك بي تمسُّكَ البطل المقدام. ولكن كان بيننا من بساطة الأسباب، في غير تكلّف، ما بيَّنَ مبلغَ اعتماد كل منا على الآخر. ولقد كان كلانا على حقّ. ولسوف أُكرمُ ذكرى هذا السيد الأمير ولسوف أُعزُّها ما حَييتُ. ومهما بُذل لفصله عني، فإني لعلى يقين أنه قد مضى لسبيله وهو صديق لي كما لو كنتُ لزمتُه ساعةَ لفظَ نفسه الأخير.

ثم إن قراءاتي روايةَ «**جولي**» قد انتهت في ثاني رحلة إلى مونمورانسي، عام 1760[33] فعمدتُ إلى **إميل** أقرأه تمكيناً لنفسي عند مدام دو لوكسمبورغ؛ بيد أني لم أنجح وأنا أتلو عليها هذا الكتاب بقدْر ما نجحتُ وأنا أتلو عليها ذاك، فإما أن مضمونه كان

(33) يعني ثاني رحلة قام بها السيد دو لوكسمبورغ وزوجته ـ المترجم.

أَمْيل عن ذوقها، وأما أنها ملّت التلاوةَ في آخر الحال. ولكن، مع ذلك، لامتني على أن الذين نشروا مؤلَّفاتي من الناشرين قد تركتُهم يخدعوني، فأرادت أن أَكل إليها استصدار **إميل** فيغدو أَجزلَ عليّ نفعاً. فوافقتُ، بشرط ألا يُطبعَ في فرنسا البتة. فتجادلنا في ذلك طويلاً. أما أنا، فقد ذهبتُ إلى أن الحصول على الإذن التلقائي، من أجل طبع المؤلَّف، شيءٌ يتعذّر أمره؛ حتى الطلب لهذا الإذن عملٌ متهور[عديم الاحتراس]، وأَبَيتُ الموافقة على طبع الكتاب في المملكة ما لم أحصل على هذا الإذن؛ وأما مدام دو لوكسمبورغ، فقد ذهبتْ إلى أن الأمر، في نظام العمل الذي اعتمدتْه الحكومة، لا صعوبة فيه حتى من جهة الرقابة. فوجدتْ سبيلاً لأن تُشرك السيد دو مالزيرب في ما ذهبتُ إليه من رأي. فكتب إليّ بهذا الصدد رسالة مسهبة خطّها كلها بيده أراد أن يُثبت لي فيها أن **إعلان إيمان الكاهن السافواوي** هو، على الأخص، مقطوعة [فلذة] قد كُتبتْ لكي يؤيدها الناس حيثما كانوا ولكي يسندها البلاط. فاستغربتُ لمّا رأيت ذلك القاضي قد يسَّرَ شأن تلك القضية، في حين كان هو، على الدوام، كثير التخوف. أما وقد كانت موافقته على طبع كتابٍ ما هي برأسها مسوّغاً لإصداره، فلم يبقَ عندي من اعتراض على إصدار المؤلَّف. ولكن، مع ذلك، أمعنتُ في الاحتراز، فحرصتُ على أن يُطبَع الكتاب في هولندا، وحرصتُ حتى على أن يصدره الناشر نيولم. ولم أكتف بالإشارة إلى نيولم، وإنما نبّأتُه بالأمر، ورضيتُ، زيادةً على ما سبق، أن تُجعل الطبعة لمنفعة بعض الكتبيين الفرنسيين، حتى إذا فرِغ منها، أُدّي ثمنها إما في باريس وإما حيثما طُلبتْ تأديته، إذ لم يكن لي به من علاقة. ذلك هو، على وجه التدقيق، ما قد اتفقنا عليه أنا ومدام دو لوكسمبورغ؛ ثم دفعتُ إليها بالمخطوط.

وكانت، في رحلتها تلك، قد جاءت بالآنسة دو بوفلير

twitter @baghdad_library

حفيدتها، الدوقة دو لوزن اليوم، واسمها أَملي، فتاة لطيفة، على هيئة هي، في الحقّ، حلوة، حييّة، بكْر. فلا شيء أَحبّ من هيئتها، ولا شيء أرقّ ولا أطهر من المشاعر التي يوحي بها شخصُها. وكانت، يومئذٍ، طفلة لم تبلغ سنتها الحادية عشرة بعد. فألْفتها مدام دو لوكسمبورغ على فرط استحياء، فدأبتْ في تشجيعها. وأَذنتْ لي مراراً في تقبيلها، وأنا على عادتي من العبوس، فبقيتُ حينئذٍ صامتاً خجلان، بدل أن ألاطفها على نحو ما كان لاطفها سواي؛ فلم أدر أَينا كان أَشدّ استحياءً، الصغيرة المسكينة أم أنا. فصادفتُها مرة وهي وحدها على سلّم القصر الصغير، وكانت قد لقيتْ تيريز، ومربيتُها لا تزال مع تيريز. فلم أعرف ماذا أقول لها، فعرضتُ عليها أن أقبّلها، فلم تأبَ، وهي على ما هي عليه من براءة قلب، وقد تقدَّم لها، في صباح اليوم عينه، أنها نالت مني قبلة كانت جَدّتها قد أمرتْها أن تنالها بحضرتها. فلما كنتُ من الغد، وأنا اقرأ في **كتاب إميل**، وقد استندتُ إلى سرير مدام دو لوكسمبورغ، وقعتُ على فقرة انتقدتُ بها مثل ما كنتُ قد فعلتُه البارحة انتقاداً منصفاً. فاستصوبتْ فكرتي وقالت فيها قولاً ثاقباً، فخجلتُ. ألا لعن الله غباوتي التي لا تصدَّق والتي كثيراً ما أظهرتْني بمظهر العار والذنب، بينما لم أكن سوى أحمق شديد الارتباك! تلك الغباوة حسبَها الناسُ في مختلف الأعذار إذ علموا أني غير خفيف اللب. وأُقسمُ أن مشاعر الآنسة أَملي وحواسها لم تكن، في تلك القبلة الممقوتة ولا في سائر القبل، أصفى طهراً من مشاعري وحواسي؛ وأُقسمُ أني لو استطعتُ أن أجتنب لقاءها وقتئذٍ، لاجتنبتُه، لا لكوني لم يبهجني لقاؤها، ولكن لأني ارتبكتُ فأعياني أن أهتدي إلى شيءٍ لطيفٍ أقوله لها عفواً. فكيف تهيأَ لطفلة أن تروّع رجلاً لم يخشَ سلطة الملوك؟ وما الذي وجب عليّ إتيانه في ذلك الحين؟ وأيّ سبيل أسلك، وفكري لا قدرة له على البديهة والارتجال؟ فإنْ أَكرهتُ نفسي على مخاطبة مَن

ألقى، فرطتْ مني، لا محالة، بعضُ البلاهات؛ وإن أطبقتُ شفتيّ، قالوا إني امرؤ كاره للبشر وحيوان وحشي ودبّ [منفرد]. ولو كنتُ على منتهى الغباوة، لبتُّ أَحسنَ حالاً وأَجزلَ انتفاعاً. لكن المواهب، التي أعوزتْني أمام الناس، قد صنعتْ ما قضى على مواهبي إذ أنا وحدي.

ثم إن مدام دو لوكسمبورغ أتت، في نهاية رحلتها تلك، حسنَةً كان لي فيها نصيب. وذلك أن ديدرو أساء، يومئذٍ، إلى الأميرة مدام دو روبيك، بنت السيد دو لوكسمبورغ، إساءةً شطت عن الاحتراز، فانتقم لها باليسّو، وكان بحمايتها، إذ أَلّف كوميدية **«الفلاسفة»**[34] يتهكمني فيها ويطعن على ديدرو طعناً شديداً. وكان المؤلّف أكثر مراعاةً لي، وهذا، في ما أحسب، لا يعود إلى رغبته في إرضائي قدْرَ ما يعود إلى كونه قد خشي أن يكدّر والدَها وقد علم أن السيد دو لوكسمبورغ يوليني مودته. فبعث إليّ دوشين الكتبيّ بهذه المسرحية بعد ما طُبعتْ، وكنتُ، يومئذٍ، لا أعرف دوشين على الإطلاق؛ وأَظنُّ أن باليسّو أوعز إليه أن يبعث بها إليّ، وربما خالني باليسّو قد طابت لي رؤيةُ الطعن على امرئ انقطعتْ بيني وبينه الأسباب. لكنّ ظنه كان على خطإٍ بعيد. فإني، لما صرمتُ ديدرو وقد حسبتُه قليل الكتمان، ضعيفاً، أَكثرَ مما حسبتُه على خُلق خبيث، لم أبرح، في قرارة نفسي، متعلّقاً به، قادراً له، وفيّاً لما سلف من صداقتنا، مدركاً أن كل واحد منا قد أصفى الآخر مودته على نحوٍ سواء. أما شأني مع جريم، فلقد كان على غير ذلك كلّه. فإنما جريم امرؤ قد جُبل على المكر والخداع؛ فهو لم يحبّني يوماً، بل إنه لا قبل له بالمودة والحبّ. فتقنّعَ غيرَ مكرَهٍ ينمّ عليّ أشنع

---

(34) **كوميدية «الفلاسفة»** (*La comédie des philosophes*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

النميمة، لا لسبب إلاّ إرواءً لضغينته. فلم يبقَ لجريم في نفسي من حرمة قط. أما ديدرو، فلسوف يظل، على الأبد، صديقي الغابر. ثم إني لمّا شرعتُ أقرأ تلك المسرحية الممقوتة، بلغتْ مني كل مبلغ، فلم أحتمل قراءتها ولا واصلتُها، بل رددتُ الكتاب على دوشين مع الرسالة التالية:

مونمرانسي، في 21 أيار 1760

«سيدي، يوم اطّلعتُ على التمثيلية، التي بعثتَ بها إليّ، اطّلاعاً خاطفاً، هالني أن قد أصابني فيها بعض المديح، فلم أرتض قط هذه الخلعة البشعة. وفي يقيني أنك، لما أرسلتَ إليّ بالتمثيلية، لم تقصد إهانتي، ولكن جهلتَ أو نسيتَ أنني كان لي شرف المصادقة لرجل محترم قد طعنتْ فيه تلك الأهجية ونمّت عليه، مما لا يستحقّه أبداً».

فأَطلع دوشين بعضَ القوم على رسالتي. فاستاء منها ديدرو بدل أن ترضيه وتَبْلغَ منه، إذ لم يتمكن حبّه لشخصه من العفو عن قصدٍ لي سام كريم، وانتهى إليّ الخبر أنّ زوجته كانت، حيثما ذهبتْ، انهالتْ عليّ نقمتُها انهيالاً مقذعاً لم يكد يؤثّر فيّ إذ ألفيتُ الجميع قد علموا بأنها شتّامةٌ خَصوم.

كما أن ديدرو لقي في الأباتي مورليه منتقماً له، إذ ألّف هذا الكاهن كتيباً حذا فيه حذو «**النبي الصغير**» وحمل به على باليسّو، وعنوان الكتيب «**الرؤيا**»[35] لكن الأباتي مورليه قد أسخط عندئذٍ مدام دو روبيك إسخاطاً لا احتراز فيه، فألقاه أصدقاؤها في سجن الباستيل. أما هي، وقد فُطرتْ على المسالمة ودنا أجلُها، فإني مقتنع بأنها لم تتدخل في الأمر.

---

(35) **الرؤيا** (*La vision*) ـ المترجم.

ثم كتب إليّ دالامبير، وكان صديقاً حميماً للأباتي مورليه، فحثّني على الطلب إلى مدام دو لوكسمبورغ أن تسعى لتخلية سبيل الكاهن، ووعدها، عرفاناً منه لجميلها، بأن يمتدحها في **«الأنسيكلوبيديا»**(*) وهاهوذا جوابي:

«لم أرتقب رسالتك، سيدي، حتى أُعرب للسيدة قرينة المارشال دو لوكسمبورغ عن تألمي لاعتقال الأباتي مورليه. فهي تدري مبلغ اهتمامي بذلك، وستدري مبلغ اهتمامك به. وحسبُها أن تعلم أنه من أُولي الاستحقاق ليعنيها أمره. ولئن كانت هي والسيد المارشال، فضلاً عما تقدَّم، قد شرّفاني بحُسن التفات هو، عندي، سلوى العمر، ولئن كان اسمُ صديقك هو، عندهما، توصية بالأباتي مورليه، فإني أَجهل إلى أيّ حد يوافقهما أن يستخدما، ههنا، ما لمقامها من النفوذ وما لشخصيهما من القدْر والاحترام. حتى إني لستُ مقتنعاً أن هذا الانتقام يتصل بالأميرة مدام دو روبيك على نحو ما تظن أنت. أما لو كانت لها علاقة به، فلا تتوقَّعْ أن شهوة الانتقام تقتصر على الفلاسفة وحدهم، بل توقَّعْ أنه متى بات الفلاسفة مثل النسوان، غدت النساء من أهل الفلسفة.

«حتى إذا أطلعتُ مدام دو لوكسمبورغ على رسالتك، أخبرتُك بما قالت. وريثما يكون ذلك، أحسب أني قد عرفتُها معرفة تكفي لأن أؤكد لك، منذ الساعة، أنه متى أُتيحَ للسيدة دو لوكسمبورغ لذةُ المشاركة في إطلاق الأباتي مورليه، أبتْ ما قد وعدتَها به في **«الأنسيكلوبيديا»** من آيات عرفان الجميل، وإن اعتبرتْها تشريفاً لها. ذلك بأنها لا تصنع المعروف ابتغاءَ المديح، ولكنْ تصنعه إرضاءً لقلبها الكريم».

(*) إن هذه الرسالة قد فُقدتْ هي ورسائل أخرى كانت في قصر لوكسمبورغ أيام كنتُ قد أَودعتُ أوراقي هناك.

twitter @baghdad_library

فبذلتُ غاية الجهد أحث نخوة مدام دو لوكسمبورغ وأستعطفها لإنقاذ الأسير المسكين، فأفلحتُ. فسافرتْ إلى فرساي تتوخى الكونت السيد دوسان فلورنتان. واختُصرتْ رحلة مونمورانسي، إذ اضطر السيد المارشال أن يبرحها إلى روان لأن البرلمان قام ببعض الحركات فأُريدَ كبحُها، وكان الملك قد أوفد السيد المارشال إلى روان حاكماً على نورماندي. وهوذا نص الرسالة التي كتبتْها إليّ مدام دو لوكسمبورغ في اليوم الثاني من بعد سفرها:

فرساي، يوم الأربعاء هذا

(الرزمة د، الرقم 23)

«ذهب السيد دو لوكسمبورغ أمس في الساعة السادسة من الصباح. ولستُ أدري بعد هل أذهبُ؛ فإني أنتظر أخباره، وهو نفسه لا يدري إلى متى يظل هناك. ولقد زرتُ السيد دوسان فلورنتان، فكان على خير استعداد لإغاثة الأباتي مورليه، إلاّ أنه يرى دونها عقبات يأمل أن يتغلب عليها في أول شغل له مع الملك في الأسبوع القادم. ثم لقد استرحمتُ لئلاّ يُنفى الكاهن، وكان نفيه موضوع بحث إذ ابتُغي إبعادُه إلى نانسي. ذلك هو، سيدي، ما أمكنني الحصول عليه. ولكن أعدك بأني لن أدَع للسيد دوسان فلورنتان من راحة ولا قرار أو تنتهيَ القضية على الوجه الذي رغبتَ فيه. والآن، فلأَذْكُر لك ما قد تملّكني من اكتئاب إذ أعجلتُ فراقك، لكني أعتز بأنك لا تشكّ في اكتئابي، وأحبّك من صميم الفؤاد إلى أبد العمر».

ثم وردتْ عليّ، بعد بضعة أيام، هذه الرقعة من دالامبير، فأفرحتْني حقّاً:

هذا اليوم الأول من آب

(الرزمة د، الرقم 26)

«بفضلكَ وعنايتك، فيلسوفي العزيز، خرج الكاهن من الباستيل، ولن يكون لاعتقاله من تبعات. ثم إنه شاخصٌ إلى الريف. فإني وإياه لنشكرك ونهنئك ألف مرة. وداعاً، وحُبَّني»[36]

ثم كتب إليّ الأباتي مورليه، بعد بضعة أيام، رسالة شكر (الرزمة د، الرقم 29) بدا لي أنها لا تسيل رقةَ مشاعر، فكأنما هو قد خفف من شأن الخدمة التي أَسديتُها إليه. حتى إذا مرّ بعض الوقت، وجدتُ أن دالامبير والكاهن لم يحلا محلّي عند مدام دو لوكسمبورغ بقدْر ما خلفاني لديها، ورأيتُ أني قد فقدتُ لديها ما قد كسباه عندها. لكني، مع ذلك، بعيدٌ عن الشك في أن الأب مورليه قد شارك في عزلي. فأنا أَعظمُ قدْراً له من أن أشكّ في أنه فعل. أما السيد دالامبير، فما أذكره، ههنا، بحرف، بل سأتكلّم عليه في بعض ما يلي.

وكانت لي، في الوقت عينه، قضية أخرى تسببتْ بالرسالة الأخيرة التي كتبتُها إلى السيد دو فولتير، فاعترض على الرسالة وتويَّل وثار كأنما هي إهانة له فاحشة، بيد أنه لم يُطلع عليها أحداً قط. فلذاك أقوم ههنا بما أبى فولتير أن يقوم به.

وكان الأباتي تروبليه، وقد عرفتُه معرفة يسيرة ولم أَلقه إلاّ في الندر، قد كتب إليّ في 13 حزيران 1760 (الرزمة د، الرقم 11) ينبئني أن السيد فورميه، صديقه ومراسله، نشر في صحيفته رسالتي إلى السيد دو فولتير على كارثة لشبونة. فاراد الأباتي تروبليه أن يعلم كيف نشرت الرسالة، ثم سألني، على حسب طريقته اليسوعية المرهفة، أن ما رأيي في إعادة طبع الرسالة، ولم يبد لي رأيه في

(36) في الأصل باللاتينية Vale et me ama أي وداعاً وحبَّني ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ذلك. أما وأنا شديد الكره لأمثاله من المراوغين، فقد وفيته حقه من الشكر، ولكن أشعت من أقوالي قسوة أحس بها، إلا أنها لم تحل بينه وبين أن يصانعني في رسالتين له، أو ثلاث، حتى وقف على كل ما أراد علمه.

وأياً كان قول تروبليه، فلقد اتضح لي أن فورميه لم يعثر على الرسالة مطبوعة وأنه هو الذي طبعها أول مرة، وكنت قد عرفته وقحا سلاّباً يعمد إلى مؤلفات سواه، على غير تكلف، فيتخذها مورداً له، وإن لم تكن الوقاحة بعد قد وصلت به إلى أن ينزع اسم صاحب كتاب منشور فيضع اسمه بدل اسم المؤلف ثم يبيع الكتاب لمنفعته(*) هو فكيف انتهى اليه مخطوط الرسالة؟ تلك هي المسألة التي لا يصعب حلّها، لكن السذاجة غلبت علي فارتبكت. ولئن كنت، في رسالتي، قد أكرمت فولتير حتى الإسراف، ولئن حق له، مع ما قد سلك من سبل معوجة، أن يتظلم لو كنت نشرت الرسالة بغير موافقته، فلقد عزمت، يومئذ، على الكتابة اليه في ذلك الشأن. وها هو ذا نص رسالتي الثانية التي لم يجب عنها قط والتي تظاهر معها بالحنق فهاج وجاش إرادة أن ينطلق على غلطته ما شاء الانطلاق.

مونمرانسي، في 17 حزيران 1760

«سيدي، ما كنت لأظن أني سأكتب إليك يوماً، ولكن بلغني أن الرسالة، التي وجهتها اليك عام 1756، قد طبعت في برلين، فوجب علي اطلاعك على ما أتيت حيال ذلك، وإني قائم بهذا الذي وجب علي قياماً صادقاً بسيطاً.

(*) هكذا استولى، في ما بعد، على «**كتاب إميل**».

«تلك الرسالة وجهتها لك أنت، ولم أكتبها لأجل النشر. ولقد أطلعت عليها ثلاثة أشخاص شرطت عليهم أن يكتموها، وأبت علي حقوق الصداقة أن أرفض لهم شيئاً مثل ذلك، وأبت عليهم هذه الحقوق أن يخونوا الأمانة فيخلفوا وعداً. أما أولئك الأشخاص الثلاثة، فهم مدام دو شونونسو كنة مدام دوبان، والكونتسة مدام دو دوتو، وألماني يدعى جريم. فتمنت مدام دو شونونسو لو تطبع الرسالة، فسألتني الموافقة على ذلك، فقلت لها إن وافقت، وافقت. فسئلت الموافقة، فأبيت، فلم يبق الأمر موضوع بحث.

«لكن مع هذا، وردت علي من الأباتي تروبليه، الذي لا تصلني به أي علاقة كانت، رسالة كريمة الالتفات قال فيها إنه قد انتهت إليه أوراق صحيفة يصدرها السيد دو فورميه فقرأ فيها رسالتي عينها مع إشارة كتبها الناشر وأرّخها في 23 تشرين الأول 1759 وقال بها إنه عثر على الرسالة عند كتبيي برلين، لبضع سنوات خلت، وانها على رقعة مستقلة لا تلبث أن تضيع، فرأى أن يفسح لها في صحيفته.

«ذلك، سيدي، كل ما أعلم من الأمر. والأكيد الأكيد أن القوم في باريس لم يكونوا، إلى يومنا، قد سمعوا ولو بذكر الرسالة. والأكيد الأكيد أن نسختها المخطوطة، أو المطبوعة، التي وقعت في يد السيد فورميه، لم تصل اليك إلامنك أنت، ـ وهذا غير صحيح ـ أو لم تصل اليه إلا من أحد الأشخاص الثلاثة الذي تقدم لي، ههنا، ذكرهم. ثم الأكيد الأكيد أن السيدتين لا قبل لهما بمثل هذه الخيانة، وليس في إمكاني، وأنا في عزلتي، أن أعلم زيادة على ذلك شيئا. أما أنت، فإن لك مراسلين تهون عليك معهم العودة إلى منشأ الأمر فتستيقن واقعه، ان كان يستحق هذا المجهود.

«وذكر لي الأباتي تروبليه، في رسالته عينها، أنه احتفظ بالصحيفة احتياطاً، وانه لن يعيرها أحداً ما لم أوافق، وأني على

twitter @baghdad_library

إعارتها ولا ريب، ولكن ربما كانت هذه النسخة ليست هي النسخة الوحيدة في باريس، فأود سيدي، لو أن رسالتي لا تطبع في باريس، وسأبذل أقصى الجهد حتى لا تطبع، ولكن إن تعذر علي اجتناب طبعها فبلغني في حينه فخيرت فيه، لم أتردد أن أشرف، أنا بنفسي، على طبع الرسالة. وهذا هو، عندي، حق، وهذا شيء طبيعي.

«أما جوابك عن رسالتي عينها، فلم أطلع عليه أحداً، وثق أنه لن يطبع إلا إذا وافقت على طبعه، ولن تتولاني الخفة فأسلك أن توافق على طبع جوابك، وأنا أدري أن ما يكتبه المرء لا يكتبه إلى الجمهور. ولكن اذا شئت أن تكتب اليّ رسالة للنشر، وعدتك بأن أضمها إلى رسالتي ضماً أميناً، وأن لا أرد عليها بحرف.

«سيدي، ولست أحبك أبداً، فلقد آذيتني، أنا مريدك المتحمس، آلم أذية. ثم إنك خربت جنيف جزاء ما قد لقيت فيها من مأوى، وألّبت علي بني وطني جزاء ما قد أسبغت عليك من ثنائهم: فإنما أنت هو من جعل مقامي في بلادي أمراً لا يطاق، وإنما أنت هو من يحملني، يوماً، على الموت في أرض غريبة وقد حرمت كل ما يتأسى به الراحلون فلم أصب من الإكرام إلا أن أطرح في بعض مواضع الأقذار، على حين قد حفت بك، في بلادي، جميع ضروب التكرمة التي يتهيأ للإنسان أن يرتقبها، ثم أنا، في آخر الحال، أبغضك لأنك أردتني أن أبغضك، على أن بغضي إياك بغض امرئ كان الأولى به أن يحبك لو شئت، فكل ما كان لك بقلبي من كريم المشاعر لم يبق منه إلا إعجابي بعبقريتك الرائعة إعجاباً لا يسع الإنسان أن يأباه عليها، ولم يبقَ منه بقلبي إلا كلفي بنفثات يراعك. ولئن لم أستطع أن أكرم فيك شيئاً غير المواهب، فما الذنب ذنبي؛ ولن أقصّر في ما عليّ لهن من قدْر ولا في ما يقتضيني هذا القدْر من ألوان المجاملة».

فبينما كنتُ وسط هذه المزعجات الأدبية اليسيرة، التي كانت لا تني تُضاعف ما عزمتُ عليه، إذ نلتُ أرفع شرف أكسبتْنيه الآداب فبلغ مني شأنُه كل مبلغ. ذلك هو الزيارة التي تنازل الأمير السيد دو كونتي بأن يولينيها مرتين، مرة في القصر الصغير ومرة في مون لويس. حتى إنه، في المرتين، اختار الوقت الذي لم تكن فيه مدام دو لوكسمبورغ بمونمورانسي توكيداً منه أنه لم يأت إلاّ من أجلي. ثم لم أشكّ يوماً في أني مدين للسيدة دو لوكسمبورغ وللسيدة دو بوفلير بأوائل ما أسدى إليّ هذا الأميرُ من كرائم الفضل. لكن لا ريب عندي، كذلك، أني مدين لمشاعره هو ولنفسي بما لم يبرح منذئذٍ يشرّفني به من آيات اللطف(*)

أما وقد كان منزلي بمون لويس ضيّقاً صغيراً، وموقعُ البرج، في الحديقة، فتاناً رائعاً، فقد اتجهتُ بالأمير إلى البرج. وكان في غاية الحظوة والإنعام، عندي، أن الأمير قد شرّفني أن ألاعبه بالشطرنج. وكنتُ أعلم أنه يتغلب على الشوفالييه دو لورنزي الذي فاقني بهذه اللعبة براعةً واقتداراً. ولكن انتصرتُ على الأمير في المرتين اللتين لعبنا فيهما يومئذٍ، وذلك مع أن الشوفالييه وسائر الحضور قد أومأوا إليّ وتصعّروا فتظاهرتُ بأني لم أرهم يفعلون. حتى إذا انتهينا من اللعب، قلتُ للأمير بصوتٍ موقّر لكنه جادٌّ رصين: «مولاي، إني أعظمُ تشريفاً لصاحب السمو من أن لا أغلبه في الشطرنج». والواقع هو، على ما أحسب في الأقل، أن هذا الأمير الكبير، ـ الذي أشعّت منه أنوارُ الألمعية فكان جدّ خليق ألا يتملّقه الناس، ـ قد شعر بأني، دون سائر من كانوا حينئذٍ هناك، قد

(*) لاحظوا ثباتي على تلك الثقة العمياء، الغبية، وأنا تحت ضروب المعاملة التي كانت حَريّة بأن تزيل الغشوة عن عيني. فلم أفتأ على هذا الثبات حتى رجعت إلى باريس عام 1770.

twitter @baghdad_library

عاملتُه على أنه إنسان. فأيقنتُ أن الأمير قد سُرَّ بي ورضي عني حقّاً.

ولو كان سخطَ عليّ، ما لمتُ نفسي أني أَبَيتُ أن أخدعه بشيء. كذلك لستُ ألوم نفسي أني، في دخيلتي، قد أسأتُ أن أردّ عليه آيات اللطف؛ ولكن ألوم نفسي أني، في أحيان، قد رددتُهن عليه رداً متكلفاً، بينا كان هو يبدي لي آيات لطفه إبداءَ جمَّ الكياسة، رفيعاً، ثم إنه أرسل إليّ، بعد أيام، بسلّة من طرائد الطير فتلقيتُها كما ينبغي أن أتلقاها. فما انقضى بعض الوقت حتى بعث إليّ بسلّة أخرى، وكتب إليّ أحد قنّاصيه، وقد أمره بالكتابة، قال إن الطرائد هي من صيد صاحب السمو وإنها من الطير التي بيده رماها سموّه. فقبلتُ السلّة في تلك المرة أيضاً، ولكن كتبتُ إلى مدام دو بوفلير أني لن أَقبل مثلها أبداً. وفي وجه عام، لامني الناس على هذه الرسالة، ولقد كانت تستأهل اللوم. فأن أرفض هدايا من طرائد الطير قد أَرسل بها إليّ أمير من الأُسرة المالكة فأشاع في طريقة الإهداء عظيمَ لطف وكياسة ذلك هو إلى غلظة امرئ سيّء التهذيب قد جهل بحاله أَقرَبُ منه إلى رقة رجل قد ابتغى صون استقلاله وحريته. فما قرأتُ، في مجموعي، تلك الرسالة مرةً إلاّ نديتُ خجلاً فلمتُ نفسي على أني كتبتُها. ولكن، في آخر الشيء، لم أكتب اعترافاتي لكي أَسكت عن غباوتي وحمقي. ثم إن بلاهة رسالتي لأَشدُّ حنقاً لي من أن يجوز لي إخفاؤها يوماً من الأيام.

وإذا كنتُ لم أقترف بلاهةَ أن أغدو مُنافس الأمير، فقد كدتُ أقترفها، إذ إن مدام دو بوفلير كانت لا تزال عشيقته وأنا لا علم لي بذلك على الإطلاق. وكثيراً ما جاءت تزورني مع الشوفالييه دو لورنزي وهي وقتئذٍ لا تزال على جمال وشباب، فتكلفت الفضائلَ الرومانية القديمة؛ أما أنا، فلقد جُبلتُ أبداً على الأخيلة والأوهام. فجرى بيننا ما جرى عن كثب. فكدتُ أَسقط في الشرك، وأخالها قد

رأتني، ورآني الشوفالييه، أو هو، على الأقل، كلّمني في الأمر كلاماً لا يخيّبني. ولكن لزمتُ جانب الحكمة فوراً، إذ حان أوانها وقد بلغتُ الخمسين. وكنتُ قد أفعمتْنِي العبرة التي ألقيتُها على الشيوخ في كتابي «**رسالة إلى دالامبير**»، فأخجلني أن قد أسأتُ الاتعاظ بها إساءةً جسيمة. أما وقد تعلّمتُ، إلى ذلك، ما كنتُ أجهل، فلستُ أشكّ في أنه لو استوت بي المنافسة إلى ذلك الأوج، لركبتُ رأسي وأَخذ بي الدوار. ثم إني ربما كنتُ، عهدئذٍ، لم أشفَ بعدُ من هيامي بمدام دو دوتو كل الشفاء، فأحسستُ أن قلبي لم يبقَ له من خلفٍ عنها، فودّعتُ الحبّ إلى بقية العمر. والآن، بينا أكتب هذا الذي أكتب، أقبلتْ عليّ امرأة شابة[37] تريد بي مثل ما كانت مدام دو دوتو قد أرادت. فجعلتْ تغويني إغواءً شديد الخطر وتحدجني بنظرات مقلقة مخيفة. فإن تكن هي قد تظاهرتْ بأنها نسيتْ سنّي الخمسين، فلقد ذكرتُهن. أما إذ تخلصتُ من هذا المأزق، فقد أمسيتُ لا أخشى السقوط وتكفلتُ بأن لا أسقط ما حَييتُ.

فلما رأت مدام دو بوفلير ما قد هيّجتْ من عواطفي، رأت، كذلك، أني انتصرتُ عليهن. ولستُ غبيّاً ولا مزهوّاً فأصدّق أني أعجبتُها واستملتُها وأنا على سنّي هذه. ولكن تبيَّنَ لي، من بعض ما كانت تحدّث به تيريز، أني قد أثرتُ فضولها. ولئن صحَّ ذاك، ولئن لم تسامحني بتخييبي لهذا الفضول، فإنه لا بد لي من الإقرار بأني خُلقتُ لكي أذهب ضحيةَ ما يعتلج فيّ من ضروب الوهَن ما دام الحبّ المنتصر قد شَؤم عليّ كثيراً، وما دام الحبّ المقهور قد عاد أَكثرَ مشْأمةً لديّ.

---

(37) يقول أغلب المختصين بأدب روسو، ولا سيّما بـ **الاعترافات**، إن المرأة الشابة هي مدام دو لا شوساد ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

هـهنا ينتهي مجموع الرسائل التي استدللتُ بها في هذين الكتابين[38] ولن أسير بعدها إلاّ على آثار الذكريات. بيد أن ذكرياتي قد احتشدت في هذه المرحلة الأليمة فبلغت مني ورسخت فيّ حتى بتُّ لا أستطيع، وقد تهتُ في خضم شقاواتي، أن أنسى تفصيلات غرقي الأول، وإن كنتُ لم يبقَ عندي من تبعاته إلاّ ذكريات غامضة. وهكذا أتمكن من السير، في الكتاب التالي، وأنا على ثقة كافية. فإذا جاوزتُه بعيداً، لم أواصل طريقي إلاّ تلمساً وتحسّساً.

(38) أي الفصل التاسع والفصل العاشر من هذا الكتاب - المترجم.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

لئن كانت رواية «**جولي**» قد مضى عليها في المطبعة ردح من الزمن فلم تصدر بعد في آخر عام 1760، فلقد ابتدأتْ يومئذٍ تثير الدويّ البعيد. فتكلّمتْ عليها مدام دو لوكسمبورغ في البلاط، وتكلّمتْ عليها مدام دو دوتو في باريس. حتى إن مدام دو دوتو قد استأذنتني في أن يُقرئ سان لامبير مخطوطَ الرواية على ملك بولونية، فأعجبت الملك وأطربتْه. وكنتُ، إلى هذا، قد أقرأتُ المخطوط على دوكلو، فتكلّم به في الأكاديمية[1]، فباتت باريس كلها على نفاد صبر شوقاً إلى اطّلاع الرواية. فأَحدقَ بكتبييّ شارع سان جاك وشارع الباليه رويال جمهور من الناس قد هبّوا يستخبرون عنها. فصدرتْ آخراً، فأصابتْ نجاحاً يؤكد ما قد لقيتْ من ارتقاب غير مألوف. وكانت الأميرة قرينة ولي عهد فرنسا في أول من قرأها فكلّمتْ بها مدام دو لوكسمبورغ على أنها كتاب ساحر. أما أهل الأدب، فقد انقسمتْ آراؤهم فيها، ولكن أجمعتْ عليها آراء سائر الناس، ولا سيما النساء إذ انتشين من الكتاب ومن مؤلّفه، فلم يكد يبقى فيهن، حتى بين علية القوم، امرأة إلاّ أمكنني امتلاكها لو

(1) يريد الأكاديمية الفرنسية - المترجم.

عمدتُ إليه. وعندي على ذلك أدلة لا أريد كتابتها ولا بي من احتياج إلى أن أبلوها حتى أسوّغ ما أقول. والغريب أن هذا المؤلَّف قد أصاب في فرنسا من النجاح ما لم يُصب عديلَه في سائر بلدان أوروبا، مع أن الفرنسيين، رجالاً ونساءً، لم يَلقوا فيه حُسنَ مقال. أما أضألُ نجاح له ففي سويسرا، وأعظم نجاح ففي باريس، وذلك هو خلاف ما توقَّعتُ. أفي باريس تسود الصداقة والحبّ والفضيلة أكثر من أيّ بلد آخر كان؟ كلا ولا ريب، لكن باريس ما يبرح يتولاها ذلك الحسّ المترف الذي يهز الفؤادَ صداقة وحبّاً وفضيلة فيشغفنا ما نلقى عند سوانا من صفاء المشاعر وحنانها وكرمها بعد ما فقدْنا ذلك أجمع. فالفساد هو هو بكل أرض، وأوروبا لم يبقَ فيها من فضائل وأخلاق، فإن يكن لا يزال في أوروبا شيء من الحبّ، فإنما ينبغي طلبه في باريس(*)

ولا بد لك أن تجيد تحليلك لقلب الإنسان، رغم الأحكام المسبقة والأهواء المصطنعة، لأجل أن تميّز داخله الأحاسيس [المشاعر] الحقيقية للطبيعة. ولا بد لك من بصيرة دقيقة لا تُكتَسب بالتربية التي ينشأ عليها عليةُ الناس، لكي تُحسَّ بما قد شُحنَ به مؤلَّفي من رهافة شعور، إنْ حُقَّ لي هذا القول. ثم إن الجزء الرابع من مؤلَّفي قد ساويتُ به رواية «**أميرة كليف**»[2]، فقلتُ إنه لو لم تُقرأ هاتان المقطوعتان [الفلذتان] إلاّ في الأقاليم والجهات، لم يدرك أحد قط قيمتهما جمعاء. وإذاً، فلا تعجبْ من أن النجاح الأكبر الذي ناله هذا الكتاب كان في البلاط. فهو كتاب قد حفل بلواذع اللطائف المبطَّنة التي إذا كنتَ أوفى تدرباً على فهمها، راقتكَ ولا ريب.

(*) كتبتُ هذا عام 1769.

(2) **أميرة كليف** (*La princesse de Cléves*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ولكن، مع ذلك، لا بد لك، ههنا، من التمييز. فالمؤكد أن قراءة كتابي ليست لصنف من ذوي العقول لم يملكوا غير المكر والحيلة ولا رهفتْ مداركُهم إلاّ لفهم الشر ولا رأوا من شيء قط حيث لم يُرَ سوى الخير. ولو أن روايتي «**جولي**» نُشرتْ في بعض ما أحسب من البلدان، لأيقنتُ أنه لم يكن ثمة من قرأها كلها، ولقُضي عليها إذ وُلدتْ.

ولقد جمعتُ أغلب الرسائل التي كُتبتْ إليّ في شأن هذا المؤلَّف فجعلتُها في رزمة عند مدام دو ناديّاك. فإن صدرتْ، يوماً، هذه المجموعةُ، وقعتَ فيها على غرائب، ووجدتَ بها من تضادّ الآراء ما يدلّك على مغزَى أن تتعامل أنت والجمهور. فأما أيسرُ ما رأى الناسُ في تلك الرواية وما لن يفتأ يبقيها شيئاً لا نظير له، فهو بساطةُ موضوعها وإحكامُ عقدته التي اقتصرتْ على ثلاثة أشخاص واطّردتْ على ستة أجزاء بلا حادث يطرأ، ولا مغامَرة من مغامرات الخيال، ولا ضربٍ من ضروب الخبث في الأشخاص ولا بما كانوا يعملون. وكان ديدرو قد أثنى على ريتشاردسون[3] لأنه نوَّع مشاهد رواياته تنويعاً عجباً ولأنه أشاع فيها كثيراً من الشخوص. والواقع أن لريتشاردسون فضْلَ حُسن التمييز لشخوصه؛ أما كثرة عددهم، فإنها قد جرت على ما جرى عليه أسخفُ الروائيين ممن اتخذوا وفرةَ عدد الشخوص ووفرةَ المغامَرة عوضاً لها عما بها من عقيم الخواطر والأفكار. فإنه يهون عليك أن تثير الانتباه، إن كنتَ لا تفتأ تعرض من غرائب الأحداث وجُدد الوجوه ما يمرّ وكأنه صور الفانوس السحري. فأما أن تشدّ الانتباه نحو الأمور نفسها دون أن تتوسل بعجائب المغامرات، فإنما ذلك أصعب ولا جرم. فإذا كانت بساطة

(3) صموئيل ريتشاردسون (1689-1761) روائي إنجليزي - المترجم.

الموضوع تزيد في روعة الكتاب، ـ هذا لو كنتُ أنا وريتشاردسون على حد سواء، ـ لم يكن أن تقاس إلى روايتي رواياته التي تفوقتْ في أشياء جمّة. ولكن، مع ذلك، أَعلمُ أن روايتي قضت نحبها، وأعلمُ لماذا قضت نحبها؛ إلاّ أنها ستُبعَث حية.

وكان كل خوفي هو أن يكون مجرى الرواية مملاً لفرط ما به من بساطة، فلا أقوى على أن أُذكي اهتمام القارئ حتى نهاية الكتاب. لكني اطمأننتُ إلى شيء قد راقني، هو وحده، فوق ما راقتني جميع التهنئات التي ربما أتتني من أجل رواية «**جولي**».

وصدر الكتاب في أول أيام الكرنفال. فحمله إلى الأميرة مدام دو تالمون(*) بائعُ الكتب الجوّال، وكان ذلك في يوم حفلةٍ راقصة لليالي الأوبرا. فلما تعشَّت، دعت بمن ألبسها وهيأها للسهرة الراقصة. فبينا كانت تنتظر حينَ الذهاب، جعلتْ تقرأ الرواية الجديدة. فلما انتصف الليل، أَمرتْ بإعداد خيلها، ثم واصلت القراءة. فقيل لها إن الخيل قد أُعدّتْ، فلم تجب قط. حتى إذا رآها الخدم قد ذهلتْ عن نفسها، أقبلوا ينبّهونها أن الساعة قد بلغت الثانية من الصباح. فقالت: «لا لزوم بَعْدُ للعجلة»، وعادت إلى القراءة. ثم وقفتْ ساعتُها، فقرعتْ تسأل أن كم الساعة. فقيل لها إنها الرابعة. فقالت: «إذاً، تأخرْنا عن الحفلة، فليفكّوا عن الخيل». ثم دعت بمن خَلع عنها، فسلختْ ما بقي من الليل وهي تقرأ.

وكنتُ، مذ نُبّئتُ بهذه الطرفة، لا أفتأ راغباً في زيارة مدام دو تالمون، لا لكي أَعلم أَصحيحٌ الخبر بحذافيره فحسب، ولكن، إلى

(*) ليست هذي إياها، ولكن هي سيدة أخرى أجهل اسمها.

twitter @baghdad_library

ذلك، لأني رأيتُ، في كل حال، أن القارئ لا تعنيه رواية «**إيلوييز**» حقَّ العناية إلاّ إذا أُوتي ذلك حاسة السادس، الحاس الأخلاقي الذي قليلاً ما وُهب لقلوب البشر والذي بدونه لا يسع أحداً منهم أن يَسمع نبضَ قلبه.

وكان ما حبَّب روايتي إلى النساء هو اقتناعهن أني قد كتبتُ سيرتي عينها وأني، أنا بنفسي، بطل الرواية. فرَسخَ عندهن هذا الاقتناع حتى إن مدام دو بولينياك كتبتْ إلى مدامِ دو فردولان تسألها حضّي على أن أجيز لها مشاهدة صورة جولي. وأَيقنَ جميع القوم أن الإنسان لا يتهيأ له الإفصاح عن مثل هذه المشاعر المتأججة ما لم يكن قد عاناها، ولا يمكنه الوصف لفورات الحبّ إلاّ أن يستقيها من صميم قلبه. فأصابوا، إذ المؤكد أني قد كتبتُ الرواية وأنا على أشدّ حالات الوجد؛ ولكن أخطأوا إذ حسبوا أنه كان لا بد لي من أشياء الواقع لكي أغدو على تلك الحالات، وفاتَهم أن يتصوّروا مدى ما تقلبتُ عليه من اضطرام الحبّ لأشخاص خياليين. ولولا بعض ما أَتذكَّر من أيام الشباب وفي عهدي بمدام دو دوتو، لم تكن ألوانُ الحبّ الذي شعرتُ به فوصفتُه إلاّ عشقاً لبعض الجنيّات. فلم أشأ توكيد هذا الخطإ وقد لاءمني، ولا شئتُ نفيه. وإنك ترى في محاورات المقدّمة، التي استصدرتُها على حدة، كيف أَبقيتُ الجمهور في حيرة من الأمر. أما المتشددون، فقد قالوا إنه كان أَولى بي أن أجهر بالحقيقة كما هي. وأما أنا، فلستُ أرى ما يضطرني إلى ذلك، بل أرى أني لو فعلتُ، لأشعتُ فيه من الغباوة والحماقة أضعافَ ما أَشعتُ من المصارحة والصدق، إذ لا موجب لمثْل هذا الجهر.

وصدر أيامئذٍ، على التقريب، كتابي «**السلم الدائم**»، وكنتُ في السنة الماضية، قد بعته من امرئ يقال له السيد دو باستيد، وكان

يملك صحيفة اسمها «**لوموند**»[4] فأراد أن ينشر فيها جميع مخطوطاتي، شئتُ أم أَبَيتُ. وكان هو من معارف السيد دوكلو، فجاء يحثني أن أعينه على ملء صفحات «**لوموند**» يقول إن دوكلو أَنفذه إليّ. وكان قد سمع بأخبار «**جولي**»، فابتغى أن أنشرها في صحيفته، وابتغى أن أنشر فيها **كتاب إميل**؛ ولو ظن أني أَلَفتُ «**العقد الاجتماعي**»، لابتغى نشره فيها أيضاً. فلما أزعجني فضقتُ به، قررتُ بيعه «**المقتطف من السلم الدائم**» وذلك باثنتي عشرة ليرة فرنسية ذهباً. وكان قوام اتفاقنا أن يُنشَر في الصحيفة. ولكن ما إن امتلك باستيد هذا المخطوط حتى استنسب نشْرَه على حدة بعد ما حذف منه أشياء أَوجبَ المراقبُ حذفها. فلو ضممتُ إلى المخطوط رأيي في الكتاب، فما الذي كان بات عليه الأمر؟ ولكن في حُسن الحظ أني لم أكلّم السيد باستيد في هذا الرأي قط؛ وما برح نصه مخطوطاً بين أوراقي. فإنْ أَبصر النور يوماً، اطَّلعتَ على مبلغ ما قد ضحكتُ من تهكم فولتير ومن اكتفائه إذ اتضح لي جيداً الأفق الذي لهذا المسكين في الشؤون السياسة التي كان يتطفل في الكلام عليها.

فبينا قد ظفرتُ بإقبال وحظوة النساء، ألفيتُ منزلتي بقصر لوكسمبورغ على انخفاض، لا عند السيد المارشال، وقد كانت آياتُ لطفه وصداقته تتضاعف عليّ كل يوم، بل عند السيدة قرينته. فمذ لم يبقَ لديّ ما أقرأ عليها، غدت أَقلَّ ترحيباً بي إلى جناح بيتها، فكدتُ لا ألقاها في أثناء رحلات مونمورانسي إلاّ على الأكل، وإن كنتُ لم أبرَح أقصد بيتها على ما يكفي من الانتظام. حتى مكاني بالقرب منها، على المائدة، عادت لا تتمسك به بقدْر ما كانت تتمسك به من قبْل، فأصبحتْ لا تدعوني إليه، وأصبحتْ قليلاً ما تكلّمني،

---

(4) **لوموند** (*Le monde*) أي العالَم - المترجم.

twitter @baghdad_library

وأصبحتُ ليس عندي من شيء وفيرٍ أقوله له، فملتُ عفواً إلى مقعد آخر أجد فيه مزيداً من الراحة، ولا سيما المساء إذ تعودت، ونحن على المائدة، أن أتخذ لي موضعاً في ما هو أقرب إلى مقعد السيد المارشال.

وأذكر أني كنت قد قلت بصدد المساء إني لم أكن أتعشى في القصر؛ وهذا كان صحيحا في عهد تعارفنا الأول. لكن السيد دو لوكسمبورغ لم يكن يتعشى ولا كان يذهب إلى المائدة، فعهدئذٍ لم أكن قد تعشيتُ معه بعد؛ فانقضت بضعة أشهر فغدوتُ وأنا من بيته على ازدياد ألفة وإيناس. فشاء لطفه أن يلفت النظر إلى أمري. فحملني على أن أتعشى هناك أحياناً، يومَ الناسُ قلّة، فحلا لي ذلك إذ كاد العشاء يكون في الهواء الطلق، بل على طرف المقعد كما يقال، وإذ كنا يطيب لنا أن نستريح بعد نزهة طويلة بدل أن يمتدّ العشاء بنا كثيراً. وكان عشاؤنا لذيذاً شهياً، لأن السيد دو لوكسمبورغ أشرههم ؛ وكان عشاؤنا ممتعاً مبهجاً، لأن مدام دو لوكسمبورغ (الرزمة ث، الرقم36) فقال فيها إنه يحلو له أن يتذكر نزَهاتنا، ولا سيما أننا ـ كما أضاف يقول ـ قد كنا إذا عدنا في المساء فدخلنا ساحة القصر، لم نرَ فيها آثاراً لعجلات المراكب، لأن رجل الساحة كان يسوّى بالمشط الحديد فتمّحي آثارُ العجلات، فكنتُ أستند إلى عدد هذه الآثار لكي أقدّر عدد الذين قدموا بعد الظهر.

ثم إن ذلك العام، عام 1761، كان، مذ تشرفتُ بصحبة السيد دو لوكسمبورغ، قد جاء بأسوإِ ما مُني به السيد الطيّب الكريم. فكأن الآلام، التي عبّأها لي القدَر، قد كُتب عليها أن تبدأ بمن تعلّقتُ به فوق ما تعلّقتُ بسواه من الرجال، فكان أحقَّهم بمودتي. وذاك أنه، في السنة الأولى، فقدَ شقيقته الدوقة مدام دو فيلوروا؛ وفي السنة الثانية فقدَ ابنته الأميرة مدام دو روبيك؛ وفي السنة الثالثة فقدَ وحيده

في الدوق دو مونمورانسي وفقدَ حفيده في الكونت دو لوكسمبورغ، وقد كانا لأُسرته ولاسمه الركن الأوحد والقوام الأخير. فاحتمل تلك الأرزاء متجلداً متشجعاً، لكنّ قلبه لم يفتأ في صميمه يدمى إلى بقية العمر، وصحّتَه لم تزل على تخلف وانحطاط. وأما موت ابنه موتاً مفاجئاً ومأساوياً فبلغ منه فزاد أثره في نفسه لأنه جاء في الوقت الذي أَنعم فيه الملك عليه بمنصب قائد الحرس الملكي يتقلده ابنه ثم حفيده من بعده. وآلم السيد دو لوكسمبورغ أن يرى إلى حفيده، سليل الرجاء الأسمى، وقد ذاب شيئاً بعد شيء لأن أُمه قد وثقتْ بالطبيب ثقة عمياء قضت على الطفل المسكين فأودى به الجوع وليس له غير الأطبة غذاءً. واأسفاه! لو صدّقوني لبقي الجد والحفيد، إلى اليوم، في الأحياء. ولطالما قلتُ للسيد المارشال وكتبتُ إليه ونبّهتُ مدام دو مونمورانسي أُحذّر من فرط الحمية الشديدة التي ألزمتْ بها ابنها ثقةً منها بالطبيب! وكانت مدام دو لوكسمبورغ على رأيي من هذا القبيل، ولكن أبتْ أن تستأثر بسلطة الأُم؛ أما السيد دو لوكسمبورغ، وهو امرؤٌ وادع ضعيف، فإنه لم يكن يحبّ المعارضة. وكانت مدام دو مونمورانسي متينة الثقة ببورديه[5]، فقضى ابنها، في آخر الأمر، ضحية ثقتها. ولكم كان يطيب لهذا الطفل المسكين أن يؤذَن له في المجيء مع مدام دو بوفلير إلى مون لويس، فيسأل تيريز شيئاً من لُمْجَة العصر! فكنتُ إذا رأيتُ ذلك الوارث الفرد، ـ وارث الرزق الكثير، والاسم الكبير، والوافر من الرتب والألقاب، ـ قد التهم كسرة الخبز بنهم الشحاذين، رثيتُ لبؤس العظمة حقَّ الرثاء. وكأيّ من مرة قلتُ، وكأيّ من مرة حاولتُ، ولكن انتصر الطبيب، فقضى الطفل جوعاً.

---

(5) بورديه الطبيب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ثم إن الثقة بجهّال الأطباء، وقد ذهبتْ بالحفيد، كانت هي نفسها التي حفرتْ قبر الجد، ذلك مع أن الجد قد ابتغى أن يخفي عاهات شيخوخته جبناً منه وتهيّباً. وكانت إبهام رجله توجعه بين الحين والحين، فاعترته نوبة منها إذ هو بمونمورانسي، فأرّقتْه وحرَّت عليه بعضَ الشيء. فاجترأت أن أتفوّه بلفظة النقرس، فوبختْني مدام دو لوكسمبورغ. وأكد الخادم ـ وكان جراح السيد المارشال ـ أن النوبة ليست بداء النقرس وأخذ يدهن موضع الألم ببلسم مسكّن. فكان في سوء الحظ أن الوجع هدأت نوبته. فلما عاودتْ، عولجتْ بالدواء الذي كان قد سكّنها. فتأثرتْ بنيةُ الرجل وساءت صحتُه، فتضاعفتْ عليه الأوجاع فضوعفتْ عليه الأدوية. واتضح للسيدة دو لوكسمبورغ أن الإصابة هي بالنقرس، فعارضتْ ذلك العلاج الغريب، فأُخفي عليها أمره، فقضى على السيد دو لوكسمبورغ بعد عدة سنوات؛ وكان الذنب ذنبه إذ أَصرّ هو على الشفاء. ولكن لا نسبق البلايا قبْل وقوعها بزمن مديد، فكم من محنة ينبغي لي سردُها قبل ذاك المصاب!

وكان في المقدَّرات أن كل ما قلتُ عهدئذٍ وفعلتُ فكأنما هو قد جُعل كي لا يروق مدام دو لوكسمبورغ، مع أني التمستُ رضاها فتمسكتُ به أوفى التمسك. وكانت الأرزاء التي كابدها السيد دو لوكسمبورغ، في الضربة بعد الضربة، قد زادتني تعلّقاً به، فازداد ـ من هنا ـ تعلّقي بمدام دو لوكسمبورغ، إذ لاح لي أنهما كان على اتحاد صدْق وإخلاص، فما قد شعرتَ به من تعلّقٍ بالرجل، لم يسعك إلاّ أن تغدو من قرينته على مثل هذا الشعور. وكان المارشال قد طعن في السن. وكانت مواظبته على الذهاب إلى البلاط وما تستدعي من عناية وجهد، ورحلاتُ الصيد المستمرة، وفي الأخص تعبه من الخدمة بالجيش في غضون أشهرها الثلاثة كانت تلك الأمور

كلها تقتضيه قوةَ الشباب، فعدتُ لا أرى ثمة ما يؤيد ذلك الشيخ فينهض بمهامه وأعماله. أما ومناصبه إلى تبدّد، واسمه من بَعده إلى انطفاء، فقد كاد لا يبالي أن يظلّ على سيرته المُجدّة التي كان رأسُ قصْدها نيل رضى الأمير عن سلالته هو. فبينما نحن الثلاثة وحدنا ذات يوم، والسيد دو لوكسمبورغ يشكو متاعب البلاط شكوى امرئ قد خيّبتْه المصائب التي حلّت به، إذ تجاسرتُ أن أكلّمه في شأن التقاعد فنصحتُ له نصْحَ سينياس لبيروس[6]، فتنهد ولم يجب إجابة حاسمة. فلما لقيتْني مدام دو لوكسمبورغ أول مرة بعدئذٍ، ونحن على حدة، أنّبتْني على هذا النصح تأنيباً شديداً، فوجدتُ نصحي قد أَقلقها. وأضافت إلى ذلك قولاً أدركتُ صوابه فعزفتُ عن مس الوتر عينه مرة أخرى. أما القول الذي أضافت، فهو أن السيد دو لوكسمبورغ تعوَّد حياة البلاط تعوداً طويلاً صار عنده حاجةً طبيعية [حقيقية]؛ بل وصار سلوى له. ثم قالت مدام دو لوكسمبورغ إن العزلة، التي أشرتُ بها عليه، هي، في نفسه، إلى المنفى أَقربُ منها إلى الراحة، لأن عيش المنفى، مع التعطل والسأم والاكتئاب، لن يلبث حتى يقضي على السيد دو لوكسمبورغ. ولئن تبيَّن للسيدة قرينته أنها قد أقنعتْني فوثقتْ بما وعدتُها إياه من هذا القبيل فوفيتُ به، لم يبدُ أن قد اطمأنتْ إلى وعدي حقَّ الاطمئنان، فتذكرتُ أن خلواتي مع السيد المارشال ندرتْ من ذلك اليوم وقُطعتْ علينا في أغلب الأحوال.

وبينا كان حمقي ونكدُ حظي قد تعاونا على أذيتي عند مدام دو لوكسمبورغ، كان أَكثرُ من تلقاهم هي وتحبّهم لا ينفعوني في شيء

---

(6) كان سينياس قد حذّر بيروس الملك من الطموح، وقد ذكر روسو الأمر نفسه في الفصل الخامس من هذا الكتاب على ما تقدّمت الإشارة إليه ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

بين يديها. واتضح لي، على الأخص، أن الأباتي دو بوفلير، وهو شاب في غاية الألمعية، لم يكن على استعداد لنفعي قط. فإنه، دون سائر رواد منتداها، لم يُعرني أدنى انتباه. ولم يقتصر أمره على ذلك، بل خيّل إليّ أنه كان كلما رحل إلى مونمورانسي، فقدتُ شيئاً من حظوتي لدى مدام قرينة المارشال. فكفى بحضور الأباتي دو بوفلير أذيةً ولو لم يشأها، لفرط ما قد كانت لطائفُه، رشاقةً منه ومزحاً، تُثقل ما أنا عليه من خَرَق[7] وكان لا يكاد يأتي مونمرانسي في السنتين الأوليين، فقدرتُ على أن أحتفظ ببعض ما كان لي من الحظوة لدى مدام دو لوكسمبورغ كرماً منها وسماحاً. ولكن ما أن أَطلَّ الكاهن بُعيدَ ذلك حتى سحقني سحقاً نهائياً. ولقد وددتُ لو لذتُ بكنفه وسلكتُ ما ينبغي فيصادقني؛ إلاّ أن مزاجي الكدر، الذي أحوجني إلى إعجاب الأباتي دو بوفلير، قد كان هو المزاج عينه الذي حال دون ظفري بهذا الإعجاب، فبات ما عملتُه من أجل ذلك سبباً للقضاء على حظوتي عند السيدة قرينة المارشال بغير أن يكون في عملي، هذا، من منفعة قبلَ الكاهن. ولقد أمكنه النجاح في كل شيء. ولكن أعياه الجدّ، فجنح إلى التسلية، فلم يملك من كل ما وُهب له إلاّ بعض الشيء. ورُزقَ، في مقابلة ذاك، مواهب جمّةً هي جماعُ ما احتاجَ إليه في علية القوم وقد ابتغى التألق بينهم. فأجاد نظم القصائد القصيرة وكتابَة الرسائل القصيرة، وكان ربما نفخ في بعض آلات الناي نفخاً رديئاً ولطَّخَ بالألوان شيئاً من الرقع والألواح. فأراد، ذات يوم، أن يرسم مدام دو لوكسمبورغ، فإذا رسمُها فظيع الشكل. فقالت إنه لا يشبهها، البتة فصَدَقتْ. فشاورني الكاهن الخؤون، فحمقتُ وكذبتُ إذ قلتُ إن الرسم يشبهها، وكان قصدي أن أتملّق

---

(7) في الأصل بالإيطالية: Spropositi أي الدهشة من خوف أو حياء، وهي الخَرَق ـ المترجم.

الأباتي دو بوفلير، فلم أتملّق السيدة قرينة المارشال، فسجّلتْ عليّ هذا القول، وسخر بي الكاهن بعد أن قضى مني وطره. ثم إنّ ما أَصبتُ من توفيق في محاولتي هذه التي فات أوانها، قد علمّني أنْ لا أعمد لخسيس التملّق وقد كرهتُه في القلب مني والضمير.

وكانت آية موهبتي هي أن أذكر للناس من الحقائق ما يفيد وإن قسا أَمرُه. وكنتُ على كفاية عزم وجرأة، فوجب أن أقتصر على ما تقدَّم إذ لم أُجبَل ولو على المدح، ولستُ أقول: على التملّق. فعاد عليّ من خرَق المدائح، التي شئتُ نثرها، ضرٌّ أفدحُ من الضرّ الذي عاد عليّ من الانتقادات التي وجّهتُ. وإني ههنا أضرب عن ذلك مثلاً مهولاً حتى أن تبعاته لم تصنع مصيري بقيةَ عمري فحسب، ولكن ربما عيّنت شهرتي على طول الأجيال.

ثم إن السيد دوشوازول[8] كان ربما أتى القصر، خلال رحلات مونمورانسي، فتعشى هناك. فجاء يوماً وأنا خارج من القصر. فدار الكلام عليّ. فروى له السيد دو لوكسمبورغ القصة التي جرت لي في البندقية مع السيد دو مونتيجو. فقال السيد دو شوازول إن هجري لهذا السلك مَخسرة، وإني إذا رمتُ العودة إليه، لم يبتغ ما هو خيرٌ من انشغالي به. فنقل إليّ السيد دو لوكسمبورغ هذا القول، فأثّر فيّ ولا سيما أني لم أتعوّد أن يلاطفني الوزراء؛ ولو أَذنتْ لي صحتي أن أفكر في الموضوع، لربما ارتكبتُ حماقة الرجعة إليه، مع ما كنتُ قد عزمتُ عليه من هذا القبيل. فإن الطموح لم يهبّ عليّ إلاّ لآماد قصيرة حينما أنا أكون خلواً من كل هوًى آخر. بيد أن مَدًى واحداً من هذه الآماد كان يكفي لأن أندفع مجدداً في طموحي. فبلغ مني حُسن قصد السيد دو شوازول، فتضاعفَ احترامي لمواهبه التي كنتُ

(8) وزير خارجية لويس الخامس عشر وقد تقدَّم ذكره - المترجم.

twitter @baghdad_library

قد أَكبرتُها قدْراً لبعض ما نهض به في وزارته من أعمال، وخيّل إليّ أن «ميثاق الأسرة»[9]، على الأخص، يبشّر برجل دولة هو في الطبقة العليا. وكان تقدْيري له يزداد ما ازددتُ إغفالاً لأسلافه، ولا أستثني منهم مدام دو بومبادور وقد نظرتُ إليها على أنها شبهُ رئيس وزارة. فلما أُشيعَ أن إما ستنفيه وإما سينفيها، ظننتُ أني إذا تمنيتُ انتصار السيد دو شوازول، فقد تمنيتُ مجد فرنسا. وكنتُ، في كل حال، قد نفرتُ من مدام دو بومبادور حتى يوم لقيتُها عند مدام دو لا بوبلينيير قبلما كانت الدنيا قد أَقبلتْ عليها، وهي يومئذٍ لا تزال تدعى مدام ديتيول. فساءني، مذ ذلك الحين، سكوتُها عن قضية ديدرو، وساءني كل ما قد عمدتْ إليه معي، أفي شأن «**أعياد رامير**» و«**عرائس الشعر الغزلات**»، أم في شأن «**عرّاف القرية**». ولم تكن أوبرا «**العراف**» قد تحصَّلَ لي منها قط مكسب يلائم النجاحَ الذي أصابت. فألفيتُ مدام دو بومبادور، في المناسبات كلها، على غير استعداد لنصرتي؛ بيد أن ذلك لم يمنع الشوفالييه دو لورنزي أن يقترح عليّ عمل شيءٍ ما أَمدحها به وقد أَلمح إليّ أن هذا العمل ربما كانت لي به منفعة. فأَسخطني اقتراحه ولا سيما إذ اتضح لي أنه لم يعرضه من عند نفسه، وكنتُ على حقّ اليقين أن الرجل، وهو برأسه سواء والعدم، لا يفكر ولا يعمل ما لم يحرضه سواه. ثم إني كنتُ أَقلَّ تمالكاً من أن أخفى عليه ازدرائي لاقتراحه ومن أن أخفي على أحد رغبتي عن الحظيّة[10] فأَيقنتُ أنها قد شعرتْ بذلك، فغدت أسبابُ مصلحتي ودواعي رغبتي قد اختلطتْ في ما تمنيتُ للسيد دو شوازول. فعظُمَ تقديري لمواهبه، وهي كلُّ ما قد علمتُ عن شخصه، وأَفعمني عرفاني لحُسن قصده، وجهلتُ، وأنا بعزلتي،

(9) ميثاق الأسرة (Le pacte de famille) ـ المترجم.

(10) أي مدام دو بومبادور ـ المترجم.

طباعه وطريقةَ عيشة تمام الجهل. فنظرتُ إليه على أنه المنتقم لي ولجمهور الناس. وكنتُ وقتئذٍ قد أوشكتُ أن أفرغ من «**العقد الاجتماعي**»، فأبديتُ، بعبارة واحدة في الكتاب، رأيي في الوزراء الذين خلَفهم السيد دو شوازول وأبديتُ رأيي فيه هو وقد ابتدأ يكسفهم. ففاتني [حينئذ] أن أتمسك بقاعدة عملية هي أكثر قواعدي ثباتاً لديّ.

وفاتني، زيادةً على ذلك، أنكَ إذا أردتَ، في مقالة واحدة، أن تمدح وافر المدح أو تقدم بالغ القدح ولم تصرح بأسماء من توخيّت، فقد وجب أن يكون مدحك منطبقاً على الممدوح انطباقاً جيداً بحيث لا يرى الحب الشخصي الأكثر حنقاً في مدحك ما يدعو للخلط والالتباس. ولقد كنت، من هذا القبيل، على ثقة بعيدة الغباوة حتى لم يخطر لي أن في القوم من قد يسيء فهمي، وعما قريب سترى هل أصبت.

وكان أنّ حظّاً من حظوظي هو علائقي ببعض النساء الكاتبات. فخلتني، على الأقل وأنا بين كبار القوم، قد نجوت من هذا الحظ. لكن الأمر جرى على غير ما خلت، فما برح حظي يتبعني. بيد أن مدام دو لوكسمبورغ لم تصبها، في ما أدري، محنة التأليف يوماً من الأيام. أما الكونتسة مدام دو بوفلير، فلقد أصابتها. فكتبت مأساة نثرية قرئت في أول الأمر، ثم انتقل بها من مكان إلى مكان، فأطريت في منتدى الأمير السيد دو كونتي، فلم ترض المؤلفة بهذا الإطراء كله، بل ابتغت رأيي في التمثيلية لكي تظفر بثنائي. فظفرت به، لكنه كان ثناءً معتدلاً يلائم حال الكتاب. ثم نبهتها، فضلاً على ذلك، إلى ما اعتبرته واجباً علي فقلت لها إن تمثيليتها، وعنوانها «**العبد السمح**»[11]

---

(11) **العبد السمح** (*L'esclave généreux*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

كانت على قرب شبه بتمثيلية إنجليزية لم تعرف إلا معرفة قليلة، وإن تكن قد ترجمت، وعنوانها : **أورونوكو**»[12] فشكرت لي هذا التنبيه وأكدت أن تمثيليتها لا تشبه تلك أبداً. فلم أكلم في السرقة أحداً قط خلا مدام دو بوفلير، حتى إني لم أكلمها فيها إلا أداء مني لواجب قد فرضته هي علي. فلم يحل ذلك، في كثرة الأحايين، بيني وبين ان أتذكر مصير من يقوم بدور جيل بلاس لدى الأسقف الوعاظ[13]

ثم إن سائر أصدقاء السيدة قرينة المارشال علاوة على الأب دو بوفلير الذي لم يكن يحبني، وعلاوة على مدام دو بوفلير التي أسأت إليها إساءة لا يصفح عنها النسوان ولا المؤلفون لم يميلوا إلى مصادقتي. وكان فيهم السيد هينو، وهو ممن انضووا إلى جماعة المؤلفين فلم يبرأ من عيوبهم. وكان فيهم أيضاً السيد دو دوفان والآنسة دو لسييناس، وكلتاهما على علاقة وثيقة بفولتير وعلى صداقة حميمة لدالامبير. وكانت مدموازيل دو لسييناس قد انتهت أن عايشت دالامبير، فتفاهما على التمام خيراً وشرفاً، اذ لا يمكن تصور حالهما على غير ذلك. وكنت، بادئ بدء، قد عناني شأن مدام دو دوفان فرثيت لفقدها البصر. لكن عيشها كان مجراه على نقيض عيشي حتى إن ساعة صحوي من النوم كادت توافق ساعة ذهابها إليه، ثم إن هواها بصغار الفكر الظريف هوى لا حدود له، واطراد عنايتها، خيراً أو شراً، بسقْط المنشورات، واستبداد أحكامها وحدّتها، وفرط ولعها بكل شيء أو فرط مقتها لكل شيء حتى لم يسعها النطق إلا وهي ترتعش، وأفكارها المسبقة التي لا يمكن تصديقها، وعنادها الذي لا يقهر، وغلو خفتها وقد حملها عليه

(12) أورونوكو (Oroonoko) ـ المترجم.

(13) تقدم لروسو، في الفصل الثاني من هذا الكتاب، أن ضرب مثل مصارحة جيل بلاس للأسقف - المترجم.

تصلب أحكامها المشحونة بالأهواء كل ذلك قد نفرني من العناية التي أردت أن أسديها إلى تلك المرأة، فأهملتها، فشعرتْ بإهمالي، وكان ذلك كافياً لإثارة حنقها. ولئن أحسستُ بالخوف من امرأة لها هذا الطبع، فلقد آثرتُ أن أُعرّض نفسي لبلوى حقدها على أن أعرض نفسي لبلوى صداقتها.

ولم يكف أن أصدقائي في منتدى مدام دو لوكسمبورغ كانوا قلة قليلة، بل كان لي أعداء في أسرتها. لم يكن لي إلا صديق واحد، بيد أنه، وأنا على الحال التي أنا فيها اليوم، يساوي مائة صديق. لم يكن الدوق السيد دو فيلروا شقيق مدام دو لوكسمبورغ من بين أولئك الأعداء ولا ريب، فهو لم يأتني زائراً فحسب، وإنما دعاني مراراً للذهاب إلى فيلوروا. فلما أجبته إلى دعوته بما تهيأ لي من الاحترام والأدب، اعتبر جوابي المبهم قبولا لها، فدبر مع السيد دو لوكسمبورغ وقرينته رحلة لزهاء خمسة عشر يوماً، وقدّر أن سأكون في الرحلة إذْ اقتُرحتْ عليّ. بيد أن ضروب العناية التي اقتضتها صحتي لم تأذن لي في التنقل إلا مخاطرة، فسألت السيد دو لوكسمبورغ إعفائي من الرحلة. فاتضح من جوابه (الرزمة د، الرقم 3) إن الأمر قد جرى على خير ما يرام؛ أما الدوق السيد دو فيلوروا فلم يكن لطفه معي بأقل من السابق، لكن ابن شقيقه ووارثه، المركيز دو فيلوروا وكان شاباً، فلم يشارك في ما شرفني به عمه من حسن التفات، ثم إني لأقر بأنه لم يشاركني أيضاً احترامي لعمه. فأما مظاهره الطائشه فجعلته عندي ثقيلاً لا يحتمل؛ وأما مظهري البارد فجعلني عنده شخصاً كريهاً؛ حتى إنه بغتني يوماً، ونحن على المائدة، بقول جارح لم أدر كيف أتخلص منه لأني أبله، وضعيف البديهة، وبدل أن يشحذ الغضبُ ما لدي من بديهة قليلة فإنه ينزعها مني. وكان لي كلب أعطاني إياه بعضهم وهو جرو، أيام وصلت إلى

twitter @baghdad_library

الإرميتاج على التقريب، وسميته «دوق». ولم يكن جميل الهيئة الا أنه نادر الجنس، فجعلته رفيقي وصديقي، فاستحق هذا اللقب أضعاف ما استحقه معظم الذين اتخذوه، ولا ريب، فاشتهر الكلب في قصر مونمرانسي لما قد جبل عليه من الرقة والوداعة ولتعلق كل واحد منا بالآخر، ولكن، لجبانة غبية مني، أبدلت باسمه اسم «تركي»، كأن لا كلاب كثيرة تدعى «مركيز» إلا أن يستاء كل مركيز. فبلغ المركيز دو فيلوروا أني أبدلت اسم الكلب، فما زال بي حتى حملني مرة، ونحن في وسط الطعام، على أن أقص ما فعلت. أما الذي أهان اسم دوق في هذه القصة، فليس أني أطلقته على الكلب بقدر ما هو أني نزعته عنه. وشرُّ ما حصل، وقتئذٍ، هو أن المائدة جمعتْ غير دوق واحد؛ فالسيد دو لوكسمبورغ دوق، وابنه دوق. فكان أن المركيز دو فيلوروا، وهو الذي وُلد ليصير دوقاً فصار دوقاً في يومنا هذا، قد استمتع بالارتباك الذي ورَّطني فيه وبما كان لارتباكي من مَوقع لدى الحضور استمتاعاً قاسياً طاغياً. فأُكّد لي، في الغد، أن خالته قد أنبتْه شديد التأنيب. فإنْ صدقَ هذا التأكيد، أمكنك التقدير أن تأنيبها قد رأَبَ أموري لدى المركيز رأباً عظيماً.

ولم أُرزَق من سندٍ أستعينه على ذلك أجمع، أفي قصر لوكسمبورغ أم في لوتامبل[14]، ما عدا الشوفالييه دو لورنزي، وقد زعم أنه صديقي، لكنه كان أَكثَر مصادقةً لدالامبير، فاحتمى بهذا، فعدّته النساء عالماً كبيراً بالهندسة[15] وكان الشوفالييه دو لورنزي، إلى ذلك، فارس الكونتسة مدام دو بوفلير، بل مسايرها في الأصح، وكانت هي بنفسها صديقةً لدالامبير حميمة، وكان الشوفالييه دو

(14) لوتامبل، أي الهيكل، دير بني في باريس، في القرن الثاني عشر وهُدم عام 1811، وكان رجال الفكر والأدب، على عهد روسو، يجتمعون هناك ـ المترجم.

(15) أسوة بدالامبير الذي كان رياضياً كبيراً ـ المترجم.

لورنزي لا وجود له ولا تفكير إلاّ أن تأمره هي. وهكذا لم أُوتَ، في خارج القصر وفي خارج لوتامبل، عوضاً على بلاهتي يؤيدني عند مدام دو لوكسمبورغ، بل كان كل مَن قاربها يشارك في إيذائي بين حضرتها. ولكن مع ذلك، أولتني عنايةٌ كريمة الالتفات، فضلاً عن تكفلها بنشر **كتاب إميل**. فحملتْني عنايتها على الظن أنها، وإن ملّتني، فقد حفظت الصداقةَ وستحفظ هذه الصداقة التي طالما وعدتْني بأن تصونها على مدى الحياة.

فما إن وجدتُني قد استطعتُ أن أعوّل على شعورها ذاك حتى جعلتُ أتعزى لديها أعترف إليها بذنوبي جميعاً. فالمبدأ الذي لا أَحيدُ عنه البتة، إذ أكون مع أصدقائي، هو أن أنكشف بنفسي أمام أنظارهم كما أنا موجود تماماً، لا أَحسن ولا أسوأ. وكنتُ قد أطلعتُ مدام دو لوكسمبورغ على علاقاتي بتيريز وعلى كل ما نتج منهن، ولم أغفل أن أذكر لها كيف تصرفتُ في أولادي. فتلقت اعترافاتي تلقياً حسناً، حسناً فوق ما ينبغي، وجنبتْني ما قد استأهلتُ من لوم وتوبيخ. وكان أخصّ ما بلغ مني هو أن أراها تُجزل على تيريز آيات اللطف والمعروف، إذ أهدت لها بعض يسير الأشياء، ودعت بها إليها، وحثّتها على زيارتها، وتلقّتها بألوان الترحيب، وكثيراً ما قبّلتْها أمام الجميع. فهبّت الفتاة المسكينة وقد هزّها الفرح وعرفان الجميل، فشاركتُها في ذلك حقَّ المشاركة، لأن ما غمرها به السيد دو لوكسمبورغ والسيدة قرينته من ضروب اللطف والمعروف قد أثّر فيّ أضعافَ ما أثّر فيّ ما أولياني رأساً.

وظلت الأمور على تلك الحال زمناً غير قليل؛ بيد أن السيدة قرينة المارشال ذهبتْ، في طيبة النفس، إلى أن شاءت إخراج أحد أولادي من ملجإ اللقطاء. وكانت تعلم أنني استوضعتُ رقماً في قماط ولدي البكر، فسألتْني نظير هذا الرقم، فأعطيتُها إياه. فعهدتْ

twitter @baghdad_library

في البحث عن الولد إلى لاروش خادمها وثقتها. فقام يتحرى عنه بلا طائل، فلم يهتد إلى شيء، مع أنه لو كانت سجلات الملجإ منظَّمة، لوجب الاهتداء إلى الرقم إذ لم يمض عليه إلاّ اثنتا عشرة سنة، أو أربع عشرة سنة. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الإخفاق ساءني أقلّ مما لو كنتُ تعقبتُ نجلي مذ وُلد. ولو استُعينَ بالرقم فقدّمَ إليّ أحدُ الصغار على أنه نجلي فكان هو إياه ولم يُستبدَل به غيرُه، لاعتلجتْ فيّ الشكوك فلم أُوقن بأنه ولدي ولا ذقتُ الشعور الطبيعي الصحيح أَطيب مذاق، لأن هذا الشعور لا يدوم إلاّ أن يتكئ على العادة ولو في أثناء طفولة الولد بالأقل، فإن طالب نأيُ الأبوين عن ولدٍ لهما وهما لم يعرفاه بعد، وَهنتْ فيهما عواطفُ الأبوة والأمومة ثم تلاشت. والإنسان لن يحبّ ولدَه وقد أُودعَ بعضَ المرضعات مثلما يحبّه وقد أُرضِعَ بمشهد منه. وربما كان قولي، هذا، يخفف ذنوبي في نتائجها، إلاّ أنه يزيد أعباء ذنوبي في المنشأ الأساس.

ولعله من المفيد أن تلاحظَ أن لاروش، هذا نفسه، قد عرّفتْه تيريز بالسيدة لوفاسور، وأن جريم قد لبث في دُوي، على مدخل الشوفريت، بجوار مونمورانسي. فلما برحتُ الشوفريت، ظللتُ أُرسلُ بالدراهم مع السيد لاروش إلى تلك المرأة، ولم أكفّ عن إرسالي بالدراهم قط. وفي ظني أن لاروش كثيراً ما حمل إلى السيدة لوفاسور بعض الهدايا من عند السيدة قرينة المارشال. وهكذا، فإن السيدة لوفاسور لم تكن لتثير الشفقة، وإن تظلمتْ على الدوام. أما جريم، فلم أُكلم به مدام دو لوكسمبورغ إلاّ على رغمي، لأني لا أحب الحديث على الذين ينبغي علي أن أكرههم. لكنها ساقتني إلى ذكر جريم عدة مرات فلم تبد لي رأيها فيه ولا مكنتْني قط أن أعلم أتعرفه أم لا. أما ولستُ أَميلُ إلى التحفظ ممن أُحبّهم وممن لا يتحفظون مني ولا سيما في الشؤون التي تتصل بهم، فربما كنتُ

منذئذٍ فكرتُ في تحفّظ مدام دو لوكسمبورغ، ولكن لم أمض في هذا التفكير إلاّ وقد جرت أمور أخرى صيّرته شيئاً طبيعياً. فبقيتُ، ردحاً من الزمن، لا أسمع بذكر **كتاب إميل** مذ يوم سلّمتُه إلى مدام دو لوكسمبورغ. فبلغني، في آخر الحال، أن صفقةَ نشره عُقدتْ في باريس مع الناشر دوشين، وأن هذا أَتمها مع الناشر نيولم من أبناء أمستردام. فبعثتْ إليّ مدام دو لوكسمبورغ بنسخَتي اتفاقي مع دوشين لكي أُوقّعهما. وكان الخط خط اليد التي رقمتْ رسائلَ السيد دو مالزيرب، فأدركتُ أنه لم يكن يكتب إليّ بيده. فوقّعتُ اتفاقي وأنا موقن أنه قد أُجريَ برضى القاضي[16] وبمشهد منه. فأنالني دوشين من هذا المخطوط ستة آلاف فرنك نصفها نقداً، وأنالني مائة نسخة من الكتاب أو مائتي نسخة، على ما أظن. فلما وقّعتُ نسخَتي الاتفاق، أرجعتُهما إلى مدام دو لوكسمبورغ، إذ رغبتْ في ذلك، فسلّمتْ دوشين إحداهما واحتفظتْ بالنسخة الأخرى بدل أن تعيدها إليّ. فلم أرَ هذه النسخة مرة ثانية قط.

ولئن كان تعرّفي إلى السيد دو لوكسمبورغ والسيدة قرينته قد شغلني بعض الشغل عن العزلة التي نويتُ، فإنه لم يثنن عنها. حتى في خير أيام حظوتي عند مدام دو لوكسمبورغ، أحسستُ أن لا شيء إلاّ صدْق تعلّقي بالسيد المارشال وبالسيدة قرينته يقوّيني على احتمال الذين كانوا من حولهما. فبات أقصى ارتباكي هو أن أوفّق بين هذا التعلّق ومجرى عيشٍ يكون أوفى ملاءمةً لذوقي وأقلّ ضرراً لصحتي التي باتت من ذلك التضيّق ومن تلك الأعشية على استمرار تقلّب، مع ما قد بُذل من فنون الوقاية لئلا أعرّض نفسي لما يضرّ بحالتي الصحية. فالعناية، من هذا النحو ومن كل نحوِ سواه، قد بُذلتْ

---

(16) أي دو مالزيرب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أسبابها إلى غاية المستطاع؛ ومثال ذلك أن السيد المارشال، وكان يبكر إلى النوم، لم يَفُتْهُ قط، في كل ليلة بعد العشاء، أن يحملني على النوم، شئتُ أم أبيتُ فلم يكفّ عن تلك العناية إلاّ قُبيلَ نكبتي، ولستُ أدري لمَ كفَّ عنها.

ولقد أردتُ، حتى قبلما لحظتُ فتور السيدة قرينة المارشال، أن أنفذ خطتي القديمة لئلا أعرّض نفسي لذاك الفتور. فأعوزتْني وسائل التنفيذ، فاضطررتُ أن أنتظر توقيع اتفاق **كتاب إميل**. وكنتُ، ريثما أُبرمَ هذا الاتفاق، قد أَنهيتُ «**العقد الاجتماعي**»، فأرسلتُ به إلى راي، وحدّدتُ ألف فرنك ثَمناً للمخطوط، فأداها إليّ. ولعله في الواجب ألا أغفل أمراً يسيراً يتصل بالمخطوط المذكور. فلقد ختمتُ عليه يومئذٍ فسلّمتُه إلى دوفوازان، راعي بلاد فو وقس كنيسة قصر هولندا، وكان يجيئني في الأحيان زائراً، فتولى الإرسالَ بالمخطوط إلى ري إذ هو على اتصال به. وكان المخطوط دقيق الرقم، صغير الحجم حتى إنه لم يملأ جيب دو فوازان. ولكن، مع ذاك، بينا كان القس يجتاز بباب جباية المكوس، وقع المخطوط في أيدي الكتبة، ولستُ أدري كيف وقع، ففتحوه، فنظروا فيه، ثم ردوه عليه بعد ما طالب به باسم السفير. فأتاح له ذلك، على ما ذكر بسذاجة، أن يقرأه بنفسه، فأطرى على الكتاب عظيمَ الإطراء من غير انتقادٍ واحدٍ ولا حرف لوم، لأن دو فوازان قد ادّخر نفسه فيكون هو المنتقم للمسيحية يومَ يصدر الكتاب. ثم إنه أعاد الختم على المخطوط فبعث به إلى ري. ذلك حاصلُ ما أخبرني به دو فوازان في الرسالة التي أطلعني فيها على الأمر، وذلك هو كل ما علمتُ في هذا الصدد.

وكان لي، فضلاً عن هذين الكتابين، وعن كتابي «**معجم الموسيقى**» وقد كنتُ أَصنع فيه بين الحين والحين، كان لي بعضُ المؤلَّفات الأخرى، وهي أقلّ شأناً، بيد أنها جميعاً صالحة للنشر،

فرأيتُ أن أدفعها ليُطبَع كل منها إما على حدة، وإما مع مجموع مؤلَّفاتي إن وضعتُه يوماً. وكان رأس هذه المؤلَّفات، التي ما يزال أَكثرها مخطوطاً عند دو بيرو، كتابُ «**محاولةَ في أصل اللغات**»[17]، وقد أقرأتُه على السيد دو مالزيرب، وأقرأتُه على الشوفالييه دو لورنزي فأثنى عليه. وقدَّرتُ أن هذه المؤلَّفات، مجتمعةً، تُكسبني، بعد الإسقاط لكل نفقة، رأس مال يراوح بين ثمانية آلاف فرنك وعشرة آلاف فرنك أردتُ استثمارها في ما يرد عليّ منه دخلٌ إلى مدى العمر ما عشتُ وما عاشت تيريز. وهكذا نمضي معاً، كما تقدَّمَ لي القول، فنحيا في قرارة بعض الأقاليم، فلا أبقى شاغلاً الناس ولا يبقى لي من شاغل إلاّ أن أَختم سيرتي بسلام، فأواصل عمل الخير ما استطعتُ، وأتمهل في كَتَابة مذكراتي التي كنتُ أتأمل فيها.

وكان ذلك هو قصدي، فيسّرتْه يدٌ كريمة من راي لا ينبغي أن أسكت عنها. فإن هذا المرء، ولطالما ذَمَّمه لي القومُ في باريس، هو، دون سائر مَن عاملتُ من أهل النشر، الناشر الأوحد الذي أرضاني في كل حال(*) والحقّ أننا كثيراً ما اختلفنا في كيف تنفد كتبي؛ فكان ري خفيفاً، وكنتُ نزقاً. أما في رعايته للمصلحة وما يتصل بها من أسباب، فلقد ألفيتُه أبداً على غاية الدقة والنزاهة، وإن لم نتعاقد يوماً بحسب مقتضى الأصول. حتى إن ري هو الكتبيّ الأوحد الذي اعترف إليّ وصارحني أنه موفَّق في أعماله معي، وكثيراً ما قال إنه مدين لي بثروته فعرض عليّ بعضاً منها. فلما لم يسعه أن يعرب لي رأساً عن عرفانه الجميل، أراد أن يعرف عنه في مدبّرة بيتي فرتّب لها، على العمر، دخلاً سنوياً قدره ثلاثمائة فرنك،

---

(17) **محاولة في أصل اللغات** (*Essai sur l'orgine des langues*) ـ المترجم.

(*) لما كتبتُ هذا، كنتُ لم أزل بعد في نأي عن أن أتصوّر وأن أتمثّل وأن أصدّق ما قد اكتشفتُ بعدئذٍ من ضروب الغش في طبع ري لمؤلّفاتي، فاضطُر إلى الإقرار بغشه.

twitter @baghdad_library

وذكر في الصك أنه قد فعل ذلك اعترافاً بما أَكسبتُه من أرباح. فكان الفعل منه إليّ بلا ابتهاء ولا ادعاء ولا ضجيج؛ فلو لم أكن أوّل من أخبر الناس بما فعل راي، لما علم به أحد قط. فبلغتْ مني يدُه، فصادقتُه حقّ المصادقة. فاختارني بعد زمن عرّاباً لولد[18] من أولاده، فوافقتُ. ولقد كان مما ندمتُ عليه، وأنا في الحال التي أُلجئتُ إليها، أنني حُرمتُ كل وسيلة يتهيأ لي بها أن أتخذ تعلّقي بفليونتي وبذويها سبيلاً إلى نفعهم. فلمَ أنا قليل الاكتراث للحفاوة المدويّة التي أحاطني بها الكثُر من مياسير القوم، فملأوا الدنيا بالخير يزعمون أن قد ابتغوا إسداءه إليّ فلم أشعر به يوماً، مع كوني رهيفَ الشعور بتواضع السخاء عند هذا الناشر [الكتبيّ]؟ أَفَهُمُ المخطئون أم أنا؟ أفليسوا إلاّ مزهوين مغترّين، أوَلستُ إلاّ منكراً للجميل؟ فيا أيها القارئ الفطن! انظرْ وقُل، أما أنا، فأَصمُت.

ولقد كان هذا المرتّب مورداً وافراً لتيريز، وكان لي عوناً جزيلاً. ولكن، مع ذلك، لم أنتفع به رأساً ولا انتفعتُ بشيء من الهدايا التي كانت تهدى إليها. فإن تيريز قد تصرفتْ، هي نفسها، في كل شيء على الدوام. فكنتُ إذا احتفظتُ بدراهمها، رقمتُ لها حساباً بذلك دقيقاً لم أقيّد منه على نفقتنا المشتركة درهماً واحداً قط، حتى عندما تكون هي أغنى. فلقد كنتُ أقول لها: «ما هو لي أنا هو لنا [الاثنان]، وما هو لك أنت هو لك [وحدك]». ولم أنفكّ حيالها سائراً على هذا القول أُردّده عليها في كثير الأحايين. أمّا من حملتْهم الخسّةُ على اتهامي بأني كنتُ أتلقى بيد تيريز ما قد أَبتْه يداي، فقد استندوا إلى ما بقلوبهم ليقدّروا ما بقلبي فجهلوا جهلاً عظيماً. وإني لكنتُ ارتضيتُ أن آكل الرغيف من يد وقد كسبته

(18) اسم الولد سوزان مادلين جانّ ري ـ المترجم.

بنفسها؛ أما الرغيف وقد قَبلتْه منّةً، فمحال أن أرتضيه أبد الدهر. فلأجل ذلك أَستشهد بها منذ الآن، ولأجل ذلك أَستشهد بها إن كانت ـ على ما تقدّر الطبيعةُ ـ أطول مني عمراً. وانه لفي سوء الحظ أن تيريز ضئيلة الخبرة بكيف تقتصد على كل وجه، قليلة الإتقان، تنفق فتسرف، لا زهواً منها ولا جشعاً، بل عن إهمال لا غير. ثم هذه الحياة الدنيا ليس فيها من بشَر كامل؛ فما دام لا بد لتيريز من التكفير عن مزاياها، فأن تكون تيريز على عيوبٍ، ذاك أثرُ إليّ من أن تكون أخْتَ نقائص، وإن كنا، نحن الاثنين، ربما عاد علينا من عيوبها ما هو أشدّ ضرراً من نقائصها. ثم لا يسعك أن تتصوّر مدى اهتمامي بأن أدخر لتيريز بعض المال علّ يكون به موردٌ تنتفع منه يوماً من الأيام. وكنتُ، في ما مضى، قد اهتممتُ بمثْل ذلك لأجل ماما. لكن اهتمامي ذهبَ كله في غير طائل. فلا إحداهما ولا الأخرى حاسبتْ نفسها قط؛ فأُنفقَ من كلّ دخل مبلغُ ما دخل، ذلك برغم جميع المجهودات التي بَذلتُ. ومهما كانت تيريز ترتدي من ألبسة بسيطة، فإن مرتب ري لم يكفها ثمن ألبسة إلاّ أن أُضيفَ إليه من دخلي شيئاً كل سنة. فلم تُفطَر هي ولا فُطرتُ على أن نغدو، يوماً، ونحن من المياسير. ولستُ أعدّ ذلك في جملة بلايانا، ولا ريب.

وكان «**العقد الاجتماعي**» يُطبَع في ذلك العهد، وكان طبعه يجري على سرعة كافية. أما **كتاب إميل**، فلم يجر على هذه السرعة طبعُه، فارتقبتُ نشره لكي أُنفّذ خطة الخلوة التي نويتُها. وكان دوشين يبعث إليّ، في الحين بعد الحين، بنماذج طباعيّة لكي أختار منها. حتى إذا اخترتُ، بعثَ إليّ بنماذج غيرها بدل أن يبدأ بطبع الكتاب. فلما ثبتَ رأيُنا، آخرَ الشأن، على قَطع الورق وشكل الحرف، فبات عند دوشين عدةُ صفحات مطبوعة، فأدخلتُ على إحدى المسوّدات

twitter @baghdad_library

تبديلاً يسيراً، أعاد دوشين طبْعَ كل ما كان قد انتهى طبعُه، فإذا بنا، من بَعد ستة أشهر، على ما كنا عليه في أول يوم. فتبيَّن لي، في أثناء تلك المحاولات كلها، أن المؤلَّف يُطبَع في فرنسا كما يُطبَع في هولندا، وأنه تُصنَع منه طبعتان. فما الذي أمكنني حينئذٍ عملُه ولم أبقَ مالك مخطوطي ولا شاركتُ في طبعة فرنسا بل عارضتُها في كل حال؟ أما وقد صُنعتْ هذه الطبعة، شئتُ أم أَبَيتُ، واتُخذتْ مثالاً للطبعة الأخرى، فقد وجب أن ألقي نظري إليها وأُصحح مسوّداتها لئلا يُمسخ الكتاب فيشَّوه. وكان القاضي قد وافق على نشره ورضي عنه حتى كأنما هو المشرف على العمل. وكثيراً ما كتب إليّ في شأنه. ولقد أتى يزورني، مرة، لهذا الغرض في مناسبة أذكرها من ساعتي.

وبينا دوشين قد خطا كالسلحفاة، كان نيولم أبطأَ خطواً منه وقد أخره دوشين فلم يبعث إليه بالصفحات على انتظام كلما طُبعتْ. فرأى نيولم في مناورة دوشين، أعني في مداورة عميله جي، سوءَ نية، ورأى أن الاتفاق لا ينفَّذ، فكتب إليّ الرسالة في إثر الرسالة يشحن كل واحدة منها بتظلم وشكوى كنتُ عن أن أقضي عليهما أَعجزَ مني عن أن أَقضي على ما لديّ منهما. وكان جيران، صديق نيولم، يزورني بعض الأحيان فلا يفتأ يكلّمني على هذا الكتاب، إلاّ أنه التزم في كلامه غاية التحفظ على الدوام. فعلم ولم يعلم أن الكتاب يُطبَع في فرنسا، وعلم ولم يعلم أن القاضي يتدخل في شأن الكتاب. فلما رثى لي بسبب المزعجات الكثيرة التي وجد أنها ستعود عليّ من مؤلَّفي، لاح وكأنّه قد لامني على عدم احتراسي [تهوّري]، ولم يشأ قط أن يذكر لي في ما كنتُ كذلك. فما برح جيران يواربني ويستدرجني حتى بدا أنه لم يكلّمني إلاّ ليستنطقني. وكنتُ يومئذٍ على أوفى اطمئنان، فسخرتُ به كيف كلَّمني فتلفَّظَ وتحفَّظَ وأحاط الشأنَ

بالخوافي والأسرار كأنما قد ركبتْه عادة مضحكة سرَتْ إليه من الوزراء والقضاة إذ كان يتردد إلى دواوينهم. لكني أيقنتُ أن مؤلَّفي هو، من كل ناحية، على مقتضى الأصول وأنه لم يحظَ برضى القاضي وحمايته فحسب، بل هو، إلى هذا، قد استحقّ رعاية الوزارة، فهنأتُ نفسي بجدّي في ما قد أَحسنتُ عمله، وهزئتُ بجبن الأصدقاء الذين أقلقهم أمري. وكان دوكلو في عدادهم. وإنني لأقرُّ بأني لو كنتُ أضعف ثقةً بفائدة الكتاب وبنزاهة نصرائه، لربما قلقتُ قَلَقَ دوكلو، إذ أيقنتُ باستقامته وبأنوار معرفته. فجائني، مرة، وقد أتى من عند السيد باي[19]، أيام **«كتاب إميل»** في الطبع، فكلّمني على هذا المؤلَّف. فقرأتُ عليه فعْل إيمان النائب لأسقف ساوى. فأصغى بهدوء، وإخاله أصغى بلذة. فلما فرغتُ من القراءة، قال: «ما هذا أيها المواطن؟ أهو كتاب يُطبَع في باريس؟» قلتُ: «نعم، ولقد كان يجب طبعه في اللور بأمر من الملك». فقال: «إني لأوافقك، ولكن أرجو منك ألا تخبر أحداً بأنك قرأتَ عليّ هذه المقطع». فعجّبني قوله، بيد أنه لم يُخفْني. وكنتُ أعلم أن دوكلو كثيراً ما دخل على مالزيرب، فصعب عليّ أن أتصوّر كيف رأى، في الموضوع نفسه، رأياً جد مغايرٍ لرأي القاضي.

وكنتُ أقيم بمونمورانسي منذ ما يربي على أربع سنوات لم أذق في غصونها يوماً من العافية واحداً. ولئن كانت مونمورانسي جيدة الهواء، فإنها رديئة المياه؛ ولعل هذا هو أحد الأسباب التي زادت في مألوف عللي. حتى إذا وافت أواخر أيام الخريف من عام 1761، مرضتُ حقّاً، فقضيتُ الشتاء بأسره أتقلب على آلام كادت لا تكفّ عني. وكان الذي بي من أوجاع البدن قد تضاعفَ عليه ألفُ همّ،

(19) يقول بعض المختصين بروسو إن باي هو صديق لدوكلو ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

فبتُّ أيقظَ شعوراً بآلامي. وكنتُ، منذ بعض الوقت، قد اعتلج فيّ خفيٌّ هواجس واكتئاب، فلم أدر لذلك سبباً. وكان يرد عليّ غفلُ رسائل غريبة؛ ويرد عليّ، فضلاً عن هذي، رسائل موقَّعة ليست دونها غرابةَ شأن. فوردتْ عليّ رسالة من أحد المستشارين في برلمان باريس، وقد تفاقمت الأمور يومئذٍ فلم يتفاءل بما ينجم عنها، فشاورني في أن يتخذ بجنيف، أو بسويسرا، ملجأً يعتزل فيه مع أُسرته. ووردتْ عليّ رسالة من السيد دو...، الرئيس في مورتيبه في برلمان...، اقترح عليّ فيها أن أكتب لهذا البرلمان، وقد ساءت علاقاته بالبلاط، مذكراتٍ وخطباً إلى الملك تنتقد بعض المراسيم؛ وعرض أن يمدني بكل المواد والوثائق التي قد أحتاج إليها لذلك الغرض. ولقد كنتُ إذا تألمتُ، ربما اسودّ مزاجي. فلما وردتْ عليّ تلك الرسائل، كنتُ في سويداء أَشعتُ بعضاً منها في أجوبتي، ورفضتُ كل ما سئلتُ رفضاً قاطعاً لا ألوم نفسي عليه البتة، لأن تلك الرسائل بما كتبها أعدائي(*) ولأن ما سُئلْتُه قد خالفَ مبادئي التي بتُّ على أشدّ التمسك بها. إلاّ أني، مع هذا، كنتُ أستطيع أن أَرفض برفق، فرفضتُ رفضاً قاسياً فأخطأتُ.

وسيجد بعضهم بين أوراقي الرسالتين اللتين ذكرتُ. أما رسالة المستشار، فلم أستغربها قط، لأني كنتُ على رأيه ورأي الكثيرين أن التكوين الأساسي لفرنسا، وقد انحرف، أصبح يهدد فرنسا بخراب قريب. فإن بلايا حرب كارثة كلٍّ تبعاتها على الحكومة؛ والفوضى في أموال الدولة إلى ما لا يمكن تصوّره؛ واستمرارَ تنازُع وزيرين، أو ثلاثة وزراء، في اصطراعٍ سافر أفسد الدولة ولا قصد له إلاّ التضارّ؛ وعنادَ امرأة متشبثة ضَحّت بأنوار معرفتها من أجل

(*) كنتُ أعلم، مثلاً، أن رئيس... وثيق العلاقة بالأنسيكلوبيديين والدولباخيين.

ميولها ـ إن أُوتيتْ مثل هذه الأنوار- فكادت تُقصي عن الوظائف أعظمَ القوم جدارةً لكي توظف أوفرهم إعجاباً لها هي، ـ إن كل شيء قد سوّغ حذر المستشار وحذر جمهور الناس وسوّغ حذري. فجعلتُ أسائل نفسي هل ألجأُ إلى خارج البلاد قبْل أن تنشب الاضطرابات التي لاح أنها تهدّد المملكة. فركنتُ إلى صغر همتي ومزاجي الوديع فظننتُ أنني، وأنا في توحّدي الذي ابتغيتُ العيش فيه، لن ينفذ إليّ أيّ إعصار كان. ولكن كدَّرني أن السيد دو لوكسمبورغ قد قام بأشياء مريبة فتّرتْ رغبةَ الحكومة فيه. فوددتُ لو هيأَ لنفسه معتزَلاً اجتنابَ كلّ ما قد يحدث إذا انهار الجهاز الأكبر مثلما كان يُخشى انهيارُه، والأمورُ على ما هي عليه. ولا شك، في أن مقاليد مملكة فرنسا لو لم تفض، آخرَ الشأن، إلى يد واحدة، لتردّى العرش في أيأس حال.

وبينا صحتي على تدهور، كان طبعُ **كتاب إميل** على ازدياد بطءٍ حتى أُوقفَ طبعُه في النهاية، فلم أتمكن من معرفة السبب، ولا تنازَلَ جي بالكتابة إليّ والإجابة عن رسائلي، ولا قدرتُ أن أقف على شيء مما كان يجري، لأن السيد دو مالزيرب كان حينئذٍ بالريف. ثم إن البلية، كائنة ما كانت، لا تشوّشني ولا تهدّني أبداً، بشرط أن أطّلع جليّةَ أمرها؛ لكني جُبلتُ على خوف الدسائس، فهالني ما يكتنفها من ظلمات، وأقلقتْني الخوافي والأسرار لأنها على تنافر هي وطبعي المنفتح حتى النأي عن التبصر والاحتراز. ويخيَّل إليّ أنّ أكلحَ الوحش منظراً لن تروّعني هيئتُه إلاّ في اليسير؛ فإن وقعتْ عيني، ليلاً، على شبح في بعض الشراشف البيض، تولاني الرعبُ. فها هي ذي مخيّلتي قد ألهبها ذلك السكوت الطويل فهبّتْ تُمثّل لي بعضَ الأشباح. وكنتُ كلما ازددتُ اهتماماً بأن يُنشَر آخرُ كتبي وأحسنُها، ازددتُ دأباً في البحث عما عاق نشرَه فغلوتُ في

twitter @baghdad_library

التقدير؛ وهذا هو حالي في كل حال، فظننتُ أنّ وقف طبع الكتاب إلغاءٌ له. ولكنْ تعذَّرَ عليّ أن أتصوّر لمَ كان ذاك وكيف كان، فتقلبتُ على أقسى ألوان الحيرة شدّةً وإيلاماً. فكتبتُ إلى جي وإلى السيد دو مالزيرب وإلى السيد دو لوكسمبورغ الرسالة في إثر الرسالة. حتى إذا لم ترد عليّ الأجوبة، أو حتى إذا لم ترد عليّ في الوقت الذي انتظرتُها فيه، اضطربتُ جداً ورحتُ في هذيان. وكان في سوء الحظ أن الأب ريفّيه اليسوعي قد تكلّم على «**كتاب إميل**» وذكَر فقرات منه. فشبّت مخيّلتي فوراً وقد التمعت التماع البرق، فكشفتْ لي جميعَ خوافي البغي والجور، فرأيتُ مجراها رؤية واضحة لا ريب فيها وكأنما أمرهُا قد أُفشي لي سرُّه. فتجسّمَ في روعي أن اليسوعيين قد أحنقتْهم الطريقة المزدرية التي تكلّمتُ بها على المدارس فاستولوا على مؤلَّفي، وأنهم هم الذين أخّروا نشْره، وتمثّل لي أن صديقهم يران قد أَطلعهم على ما أنا عليه يومئذٍ فتوقّعوا أن أَقضي عما قليل، وهذا ما لم أشكّ فيه، فأرادوا تأخير الطبع إلى ما بعد وفاتي ليحذفوا من الكتاب شؤوناً جوهرية، ويبدّلوا فيه تبديلاً، ولينسبوا إليّ من المشاعر ما قد غايرَ مشاعري مغايرة عظيمة تلائم وجهات نظرهم. فازدحمتْ في خاطري من وفرة الأدلّة والحالات أشياءُ عجيبة شابهتْ ما تصوّرتُه فبدا وكأنه قد حدث حقّاً، بل ماذا أقول؟ إن تلك الأشياء قد أرتني أن ما تصوّرتُ كان في مؤكَّد الواقع وأقامت لي عليه دليلاً. وكان يران على انقياد لليسوعيين شامل، وكنتُ أعلمُ ذاك. فعزوتُ إليهم كل ما أَعربَ لي عنه من سلف الصداقة، وأقنعتُ نفسي بأنه قد حثّني على أن أعامل نيولم لأنهم حضّوه على حثّي، وبأن اليسوعيين قد حصلوا من نيولم على أوائل صفحات الكتاب، فوجدوا سبيلاً إلى أن يوقفوا طبعه عند دوشين، وربما وجدوا السبيل إلى أن يستولوا على المخطوط يَعملون فيه براحة إلى أن تأذن لهم وفاتي في نشره وقد حرّفوه فبات على طريقتهم. ولقد شعرتُ أبداً،

مع تملّق الأب برتييه[20] لي، بأن اليسوعيين لم يكونوا يحبّوني، لا لأني من جماعة **الأنسيكلوبيديا** فحسب، ولكن، إلى ذاك، لأن كل مبادئي قد عارضتْ مذاهبهم ونفوذهم معارضة هي أَشدُّ مما كان رصفائي ينكرون تلك المذاهب وذلك النفوذ. فالتعصب الملحد والتعصب الدّيني، إذ يصل بينهما التعصب المشترَك، ربما اجتمعا ههنا مثلما اجتمعا في الصين ومثلما تألبا عليّ. أما الديانة الأخلاقية العادلة، فإنها تنزع كل سلطان للبشر على الضمائر ولا تبقي من حيلة للمستبدين بهذا السلطان. وكنتُ أعلمُ، إلى ذلك، أن السيد المستشار هو واليسوعيين على صداقة بالغة، فخشيتُ أن يُضطر الابنُ، وقد خوَّفه أبوه، إلى أن يتخلى لهم عن المؤلِّف الذي شمله بحمايته. ولقد أَلهمني الحسُّ أن نتائج هذا التخلي كنتُ أَلمسها في المحاكمات التي ابتدأتُ أواجهها في الجزئين ـ الأولين وقد حُذف منهما بعضُ الصفحات لغير ما سبب. ولا يخفى أن الجزئين الآخرين قد شُحنا بأقوال عظيمة الشدّة حتى وجبتْ إعادة كتابتهما جميعاً ومراقبتهما كما روقب الجزآن الأولان. وكنتُ أَعلمُ، إلى ذلك، أن الأب دو راف، وهو الذي عهد إليه السيد دو مالزيرب في مراقبة هذه الطبعة، كان من أنصار اليسوعيين، وقد أخبرني بالأمر السيد دو مالزيرب. فحيثما نظرتُ، بتُّ لا أبصر إلاّ اليسوعيين؛ فلم يخطر لي أنهم، عهدئذٍ، على وشك أن يبادوا فاهتموا بحماية أنفسهم فشغلتْهم عن المماحكة في طبع كتاب لا يمتّ إليهم موضوعُه. ولقد أخطأتُ إذ قلتُ: «لم يخطر لي»، فإني تفكرتُ في الأمر حقّاً، فاعترض عليّ السيد دو مالزيرب حين بلغه ما رأيتُ في ذلك. لكني، لسبب من أسباب الانحراف برجلٍ شاء، وهو في صميم عزلته، أن يحكم

(20) الأب برتييه اليسوعي هو، كما لا يخفى، غير الأب برتييه الفيليبي النيري الذي ذكره روسو في الفصل العاشر من هذا الكتاب ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

بخوافي الشؤون التي لم يدر منها شيئاً، أَبَيتُ التصديق أن اليسوعيين كانوا في خطر، واعتبرتُ أن ما أُشيعَ في هذا النحو خدعةٌ عمدوا إليها ليخدروا أعداءهم. وكان ما أصابوا من سالف النجاحِ، الذي لم يكذِّب قط خبرُه، قد صوَّر لي سلطانهم تصويراً مهولاً عظُمَ عليّ معه خنوعُ البرلمان. وكنتُ أعلمُ أن السيد دو شوازول درس عند اليسوعيين، وأن مدام دو بومبادور على علاقة بهم حسنة، وأن تحالفهم وأصحاب الحظوة والوزراء قد نفعهم ونفع أُولي الحظوة والوزراء وأضرَّ أعداءهم المشترَكين. وبدا البلاط كأنما هو ليس يتدخل في شيء، فاقتنعتُ أنه إن منيتْ هذي الرهبنة بهزيمة فادحة، فإن البرلمان أضعفُ من أن يكون هو الذي يهزمها. واستنتجتُ أنهم في ثقتهم وانتصارهم يعوّلون على جمود البلاط. ثم لم أجد في كل ما أُشيعَ عليهم إلاّ تظاهراً منهم بما ليس فيهم ونصْبَ أشراك. وحسبتُ أن لهم بمأمنهم فسحةَ وقتٍ يقومون في خلاله بما ينبغي القيام به، فلم أشكّ في كونهم سيسحقون اليانسينية والبرلمان والأنسيكلوبيديين وكل من لم يحمل نيرهم، ولا شككتُ في كونهم إن يدَعوا كتابي يصدر، فلن يدَعوه إلاّ وقد حرّفوه فاتخذوه لهم سلاحاً وأجازوا لأنفسهم أن يسخّروا اسمي ليفجأوا به قرّائي.

ولقد شعرتُ عهدئذٍ بأن أجَلي وشيك. ثم إني ليعييني أن أفهم كيف لم يجهز عليّ تفكيري هذا الغريب وقد طالما هالني أن يلطِّخ ذكري في أجدر كتاب لي وخير كتاب. فلم أخشَ المنيّة يوماً بقدْر ما خشيتُها في ذلك اليوم. وأغلب الظن أني لو قضيتُ وأنا على تلك الأحوال، لقضيتُ يأساً. حتى في الساعة التي أنا فيها وقتئذٍ، وقد رأيتُ أظلمَ الدسائس على الدهر وأقبحها تشويهاً لذكر الإنسان قد مضت إلى بغيها تخبكه ليس يحول دونها حائل حتى في تلك الساعة، كنتُ رقدتُ الرقاد الأخير وأنا أوفى سكينةً فأيقنتُ أني

خلَّفت بمؤلَّفاتي شهادةً تنتصر على دسائس البشَر انتصاراً عاجلاً أو في آجل وقت.

ولقد شهد السيد دو مالزيرب على ما اعتلج فيّ وعلى ما أَسررتُ به إليه، فعُني بتهدئة روعي عنايةً تدلّ على طيبة في قلبه لا تنضب. وشاركت مدام دو لوكسمبورغ في ذلك المعروف، فقصدتْ إلى دوشين مراراً لتعلم إلى ما صارت طبعة الكتاب. فرُجع إلى طبعه آخرَ الأمر، فجرى على نحوٍ أسرع من قبْل، ولكن لم يتهيأ لي قط أن أعلم لمَ كان وقفه. ولقد تجشَّم السيد دو مالزيرب القدوم إلى مونمورانسي حتى يحملني على الاطمئنان، فأَفلحَ لأني وثقتُ باستقامته ثقة تامة تغلّبتْ على أوهام عقلي المسكين، فأثّر فيّ كل ما عمله السيد دو مالزيرب ليرتدّ بي إلى الصواب والرشد. فكان من الطبيعي أن يرثي هو لي حقَّ الرثاء بعد الذي رآه من مخاوفي وهذياني، فرثى. وتذكَّر الأحاديث التي كانت لا تفتأ ترددها العصبة الفلسفية الدساسة المحدقة به. فيومَ ذهبتُ للإقامة في الإرميتاج، كانوا قد أذاعوا، كما تقدَّم لي قوله، أنني لن أحتملها طويلاً. فلما وجدوني قد ثبتُّ عليها، قالوا إني إنما ثبتُّ عناداً مني وتكبراً وخجلَ الإخلاف بالوعد، يزعمون أن قد مللتُ مقامي هناك غايةَ الملل فشقيتُ جداً. فصدَّقَ السيد دو مالزيرب أقوالهم وكتب بها إليّ. فأَثّر فيّ هذا الخطأ يقع فيه رجل قد قدرتُه عظيم القدْر، فكتبتُ إليه أربع رسائل متوالية أطلعتُه فيها على حقيقة الأسباب التي دعتني إلى ما سلكتُ. فوصفتُ له ذوقي وميولي وفطرتي وكل ما قد جرى في قلبي وصْفَ صدْق. ولعل هذه الرسائلِ الأربع، التي أنشأتُها رأساً بلا مسوّدة وتعجلتُ في كَتْبها حتى لم أُعد قراءتها، ـ لعلها، على العمر كله، الشيء الأوحد الذي سهلتْ عليّ كتابته، وذاك مدعاة إلى العجب وأنا عهدئذٍ على ما أنا عليه من آلام وقد انحدرتُ إلى أقصى دركات الضعف والانحطاط. فلما شعرتُ بقواي تخور، جعلتُ

twitter @baghdad_library

أنتحب أسفاً على أن سأبقي في أذهان كرام القوم صورةً لي نائيةً عن الحقيقة، فأسرعتُ أخطُّ هذه الرسائل الأربع وأحاول ـ على قدْر ـ أن أعتاض بها عن المذكرات التي كنتُ أنوي كتابتها. فهذه الرسائل، التي راقت السيد دو مالزيرب فأراها في باريس، هي، على وجهٍ ما، خلاصةُ ما أَعرضُ ههنا مفصَّلاً، فلهذا كانت خليقة بالحفظ. وستجد في أوراقي صورة عنها استنسخها لي السيد دو مالزيرب تلبية لطلبي ثم بعث بها إليّ بعد عدة سنوات.

أما الأمر الأوحد الذي بات يغمني وقد أوجستُ أن أجَلي قريب، فهو أنه لم يكن لي قط من رجل أدب أركنُ إليه فأستودعه أوراقي فيعمد من بعدي إلى تنظيمها وانتقاء ما يصلح منها. وكنتُ، من يوم سافرت إلى جنيف، قد صادقتُ مولتو[21]، إذ ملتُ إلى هذا الشاب، فوددتُ لو يأتي فيغمض عينيّ، فأفصحتُ له عن رغبتي؛ ولو أن أعماله وأُسرته أَذنتْ له أن يقوم بهذا الصنيع الإنساني، لسرَّه القيام به في ما أحسب. فلما حُرمتُ هذه التعزية، أردتُ، في الأقل، أن أعرب لمولتو عن ثقتي به فأرسلتُ إليه بفعل إيمان نائب الأسقف قبل نشره. فأعجبه، ولكن لم يَظهر لي من جوابه أنه قد شاركني في اطمئناني إلى ما ارتقبتُ للنص من حُسن مَوقع. ولقد رغب مولتو في أن يأتيه مني نفثةٌ أديبة لم يؤتَها أحد سواه. فبعثتُ إليه برثاء المغفور له الدوق دورليان، وكنتُ قد كتبتُه للأباتي دارْتي، إلاّ أنه لم يُلق الرثاء إذ لم يكن هو الذي عُهد إليه فيه، وذلك بخلاف ما قد توقَّع.

ثم إن الطبع[22] استمر، بعد الرجوع إليه، حتى انتهى على هدوء كاف. فلاحظتُ شيئاً غريباً هو أن ما كانت المراقبة قد فرضتْه

---

(21) بول مولتو (1725-1787) قسيس من رعاة جنيف سلّمه روسو مخطوط **الاعترافات** وهو الذي يسمى مخطوط جنيف، فأصدر ودوبيرو الجزء الأول منها ـ المترجم.

(22) أي طبع كتاب **إميل** ـ المترجم.

من ضروب الحذف على الجزئين الأولين لم يُفرَض مثْله على الجزئين الأخيرين، فلم يحل مضمونُهما دون نشر الكتاب. ولكن، مع ذلك، حدثَ ما أَقلقني بعضَ القلق وما لا ينبغي أن أَسكت عنه. وذلك أني أصبحتُ أخشى اليانسينيين والفلاسفة بعد ما كنتُ أخشى اليسوعيين. فإنما أنا عدوّ لكلّ ما يقال له حزب وتحزّب وعصبة وتعصّب، فلم أرتح ممن انضووا إلى ذلك خيراً قط. وكان المنعوتان بـ «**الثرثارتين**»[23] قد غيّرا مسكنهما منذ بعض الوقت فأقاما بمنزل مجاور لي جداً حتى إن مَن في حجرتهما يمكنه أن يسمع كل ما يقال في حجرتي وفي ممر بيتي، ومَن في حديقتهما يهون عليه جداً أن يتسلق الجدار الوطيء الذي يفصلها عن برج منزلي. وكنتُ قد جعلتُ من هذا البرج غرفة عملي، وكان لي فيه منضدة حفلتْ بمسوّدات «**كتاب إميل**» و«**العقد الاجتماعي**» وبصفحات المؤلَّفين. فكنتُ أجمعُ تلك الصفحات كلما أُرسلَ بها إليّ، فأمست لديّ هناك أجزاؤهما كلها قبلما نُشرا بزمن طويل. وكان من طيْشي وإهمالي ومن ثقتي بالسيد ماتاس[24]، الذي احتبستُ في حديقته، أني كثيراً ما نسيتُ أن أغلق باب البرج مساءً، فإذا الباب، في الصباح، مشرَع كله؛ وما كان الأمر ليقلقني لو لم أَلحظ أن بعض أوراقي قد بُعثرتْ. فلما لحظتُ ذلك مراراً، ازداد اهتمامي بإقفال البرج. وكان القفل رديئاً والمفتاح لا يزُلجه إلاّ بعض الشيء. فضاعفتُ انتباهي، فألفيتُ أوراقي أشدَّ بعثرةً مما كانت عليه حين أبقيتُ البرج كله مشرعاً. ثم اختفى جزء من بعض مؤلَّفاتي يوماً واحداً وليلتين، فتعذّرَ عليّ أن أعلم ما الذي صار إليه، ثم وافى اليوم الثالث فإذا الجزء على

(23) أي فرّان ومينار، وهما اللذان لقّبتْهما تيريز بالثرثارتين، وكانا يصيّفان معًا بمونمورانسي، على ما تقدَّم ذكره في الفصل العاشر من هذا الكتاب ـ المترجم.

(24) ماتاس هو مالك مسكن روسو بمونمورانسي وقد تقدَّم ذكره ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

المنضدة. فما شككتُ قط في السيد ماتاس ولا في السيد دومولان ابن شقيقته، إذ أدركتُ أن كليهما يحبّني فركنتُ إليهما حقّاً. لكن ثقتي بـ «الثرثارتين» أخذتْ تضعف. وكنتُ أدري أنهما ودالامبير على بعض العلاقات، وإن كانا من اليانسينيين؛ ثم لقد سكنا وإياه منزلاً واحداً.

فأقلقني ذلك بعض القلق وزادني تنبهاً. فنقلتُ أوراقي إلى حجرتي؛ وانقطعتُ عن زيارتهما انقطاعاً شاملاً إذ بلغني أنهما ابتهيا، في عدة بيوت، بالجزء الأول من «**كتاب إميل**» وكنتُ قد أعرتُهما إياه لسوء تبصري واحترازي. ولئن لبثا في جواري إلى أن برحتُ مونمورانسي، فلقد صرمتُهما من ذلك الحين.

وصدر «**العقد الاجتماعي**» قبلما صدر «**إميل**» بشهر واحد أو شهرين. وكنتُ قد شرطتُ على راي، في كل حال، ألا يُدخل شيئاً من كتبي أرضَ فرنسا على خفية البتة. فبعث إلى القاضي يستأذنه في إدخال **إميل** من مدينة روان وقد أَرسل بالكتب إلى هناك من طريق البحر. فلم يرد على راي من جواب قط. فظلت رزم الكتب أشهراً في روان، ثم رُدّت عليه بعد ما سعي لمصادرتها، إذ لم يفتأ يصيح ويتويّل حتى أعيدت إليه. فتناول منها بعضُ الفضوليين في أمستردام عدة نسخ انتشرتْ فلم تثر صدًى بعيداً. وكان موليون[25] قد سمع بها حتى إنه اطّلع شيئاً منها، فكلّمني عليها كلاماً تكتنفه الأسرار، فدهشتُ. ولولا يقيني بأني في كل وجه على مقتضى الأصول وبأنه لا لوم عليّ مني أبداً، ولولا اطمئناني إلى جميل سيرتي، لأَقلقني كلام موليون. ثم إني لم أشكّ حتى في كون السيد شوازول سيؤيدني

---

(25) موليون (1728-1771) محامٍ في برلمان باريس وجار لروسو في سان بريس بالقرب من مونمورانسي، وقد تقدّم ذكره في الفصل العاشر من هذا الكتاب - المترجم.

على سوء نية مدام دو بومبادور وقد أَحسنَ رأيَه فيّ وتأثر بمدحي إياه في ذلك المؤلَّف مدحاً أوحاه إليّ تقديري له.

ولقد أَصبتُ إذ اعتمدتُ حقّ الاعتماد على فضل السيد دو لوكسمبورغ وعلى مساعدته لي عند الحاجة، لأنه لم يولني قط من آيات الصداقة ما هو أوفى وأبلغُ مما أولاني في ذلك الحين. حتى إذا جاء مونمورانسي في رحلة الفصح، لم تأذن لي حالتي الصحية المؤسفة أن أسعى إلى القصر، فلم يتخلف هو عن زيارتي كل يوم. فلما رآني على أوجاع موصولة، ما زال بي حتى حملني على أن أستشير الأخ كوم[26] فاستحضره وأتاني هو نفسه به، ثم شَجُع شجاعة نادرة خليقة بالتقدير والإطراء لدى سيد من علية القوم نظيره، فلزمني بينما الطبيب يُجري عليّ عمله. وكان هذا العمل طويلاً موجعاً، وإن هو إلاّ أن الأخ كوم قد سبرني بالميل: ولم يكن قد أمكن سبري يوماً ولو على يد موران إذ حاول مراراً فلم ينجح قط. أما الأخ كوم، وهو صاحب يدين لا مثيل لهما براعةً ورشاقةً، فلقد استطاع أن يسبرني بميل دقيق جداً بعد ما وجّعني مدة تربي على الساعتين جهدتُ فيهما أن أمسك عن التشكي لئلا أحزّ في قلب المارشال الطيّب، الرقيق. وكان الأخ كوم، لمّا عاينني أول معاينة، قد حسب أن بي حصاة ضخمة، فقال لي ذلك. حتى إذا عاينني ثانية، بات لا يجد الحصاة. فعاينني مرة ثالثة فرابعة يعتني ويدقّق، فاستطلتُ جداً وقت المعاينة، ثم أعلن أن لا حصاة، لكنه ذكر أن الموثة[27] عندي على تورم متصلّب وجسامة غير طبيعية. ووجد المثانة واسعة وعلى حالة جيدة. وخلص إلى قوله لي أني سوف أتألم

(26) الأخ كوم (1703-1781) كاهن جراحيّ، والمعلوم أن القديس كوم هو شفيع الجراحين- المترجم.

(27) الموثة: البروستات ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

كثيراً وسوف أعمّر دهراً. فإنْ صدقَ في نبوءته الثانية صدْقَه في الأولى، امتدت بي الآلام إلى أجل بعيد.

وهكذا علمتُ في النهاية، ـ بعد ما ظللتُ، على توالي السنين، أُعالَج لكي أشفى من علل جمّة لم تصبني، ـ هكذا علمتُ أن دائي لا يُبرأ منه وإن لم يكن قاضياً، وأنه سيلازمني ما حييتُ. فأمست مخيّلتي قد كبحها ما علمتُ من هذا القبيل، فعادت لا تصوّر لي، في أوجاع الحصاة، ممكنات موت أليم. وبتُّ لا أخاف أنّ طرف أحد الأميال، وقد انكسر في مجرى البول مني، سيكوّن عندي نواةَ حصاة. فلما نجوتُ من آلام الوهم، وكانت أشدّ عليّ من أوجاع الواقع، أخذتُ أكابد هذه وأنا أهدأُ مني إذ كابدتُ الأولى. والثابت أنه، من ذلك الوقت، أصبحتُ أقاسي آلام علّتي مقاساة هي أخفّ جداً مما قاسيتُ قبْلُ؛ ولم أتذكّر مرة أني مدين للسيد دو لوكسمبورغ بتخفيف الآلام عني إلاّ تجدَّدَ حنيني إلى ذكراه.

فلما عدتُ إلى الحياة، كما يقال، وغدوتُ أوفى ما يكون اشتغالي بما نويتُ أن أقضي فيه بقية العمر، لم أنتظر إلاّ إصدار **كتاب إميل** حتى أجري إلى ما قد نويتُ. ففكرتُ في بلاد تورين التي تقدَّمَ لي الذهاب إليها فأعجبني منها كثيراً لطفُ المناخ ولطفُ السكان على السواء:

«فالبلاد منظرها جميل، وزرعها سهلٌ يسير،

وأهلُها مثلها في كل شيء»(28)

وكنتُ قد كلّمتُ السيد دو لوكسمبورغ في شأن ما أنوي، فأراد

---

(28) في الأصل بالإيطالية عن لوتاسيوس الشاعر: La terra molle lieta a dilettosa

Simili a se gli abitator produce ـ المترجم.

أن يثنيني عنه، فذكرتُه له ثانية على أنه أمرٌ قد عزمتُه. فعرض عليّ قصر مرلو، وهو على خمسة عشر فرسخاً من باريس، وقال إنه مأوًى يناسبني وأنه يطيب له وللسيدة دو لوكسمبورغ إسكاني هناك. فأثّر فيّ هذا العرض وراقني. فوجب، أولَ كل حال، أن أزور المكان، فاتفقنا على يوم يبعث إليّ فيه السيدُ المارشال خادمَه وإحدى العربات فأذهب إلى مرلو. ولكن انتابتني، في الموعد المضروب، وعكةٌ شديدة، فكان لا بد من إرجائه، ثم تواترت المضادّات غير المتوقَّعة، فحبستْني عن الذهاب. حتى إذا بلغني، بعد ذلك، أن أرض مرلو لا يملكها السيد المارشال بل تملكها السيدة قرينته، تعزيتُ أني لم أذهب إليها تعزيةً كانت أَهْون عليّ مما لو كانت الأرض ملك السيد دو لوكسمبورغ.

ثم صدر **إميل** في النهاية، وقد أصبحتُ لا أسمع بمراقبته ولا بأيّ صعوبة أخرى كانت. وكان السيد المارشال، قبلما صدر المؤلَّف، قد طلب مني، ثانية، جميع الرسائل التي كَتبها إليّ السيد دو مالزيرب في شأن «**كتاب إميل**». ولقد وثقت بالرجلين عظيم الثقة واطمأننتُ إليهما عميق الاطمئنان فلم أفكر في ما ينطوي عليه ذاك الطلب من غرابة ولا حتى في ما يحرّك من هواجس. فأعدتُ الرسائل ما عدا رسالة واحدة، أو رسالتين ظلتا سهواً في طي بعض الكتب. وكان السيد دو مالزيرب، قبْل ذلك ببعض الوقت، قد ذكر لي أنه سيسترجع الرسائل التي كتبتُها إلى دوشين لمّا تخوفتُ من اليسوعيين؛ ولا بد لي من الإقرار بأن تلك الرسائل لم تكن لتشرّفني رشداً ورجاحةَ عقل. ولكن قلتُ له إنني لا أبتغي البتة أن أبدو أفضل مما أنا عليه وأن بوسعه أن يدَع الرسائل لدوشين. ولستُ أدري ما فعل.

ولم يلقَ نشر **إميل** من ألوان الترحيب ما قد لقيه سائرُ مؤلَّفاتي.

twitter @baghdad_library

فلا كتاب أصاب، على الأيام، ما قد أصابه ذاك الكتاب من بالغ الإطراء لدى الخاصة ومن ضعف التأييد لدى الجمهور. ولقد قال فيه أعظمُ الناس أهلاً للحُكم به وكتبوا إليّ في صدده ما أكد لي أن «**كتاب إميل**» هو خيرُ مؤلَّفاتي وأبعدُها رفعةَ شأو. بيد أن ذلك أجمع قد أُدّي بأغرب أساليب الاحتياط وكأن حُسن الرأي في الكتاب قد اقتضى أن يبقى خبره في كتمان. فذكرتْ لي مدام دو بوفلير أن المؤلِّف يستحقّ أن تُنصَب له التماثيل وتزجى إليه تكرمةُ الناس أجمعين؛ لكنها ختمتْ رقعتها تسألني، من غير تكلّف، أن أردّها عليها. وكتب إليّ دالامبير يقول إن مؤلَّفي هذا قد حكم بتفوقي حتى وجب أن أتقدَّم أهل الأدب كافة؛ غير أن دالامبير لم يوقّع رسالته، وإن كان قد وقّع سائر الرسائل التي كتبها إليّ قبلئذٍ. أما دوكلو، الصديق المأمون والرجل الصدق، ـ إلاّ أنه كان متحفظاً، ـ فلقد قدّر الكتاب أوفى تقدير، ولكن اجتنب أن يذكره لي خطّاً. وأما لاكوندامين[29]، فقد هجم على **إعلان الإيمان**[30] ثم طفق يهذر. وأما كليرو[31]، فاقتصر، في رسالته، على تلك النبذة عينها، بيد أنه لم يخشَ أن يفصح لي عن تأثره إذ قرأها، بل اتجه إليّ بعبارات واضحة، فقال إن هذه القراءة قد ردَّت على نفسه العجوز الحرارةَ والنشاط. فإنما كليرو هو، دون سائر من أَرسلتُ إليهم بكتابي، الرجل الأوحد الذي ذكر للجميع كلَّ حُسن رأيه فيه ذكراً صريح العبارة، حُرّاً.

وأهديتُ إلى ماتاس أيضاً نسخة من الكتاب قبلما عُرض للبيع.

(29) لاكوندامين (1701-1774) عالم في الرياضيات ـ المترجم.

(30) أي فعل إيمان نائب الأسقف ـ المترجم.

(31) كليرو (1713-1765) عالم في الفلك والرياضيات ـ المترجم.

فأعارها للسيد دو بلير، المستشار في البرلمان ووالد مفتش ستراسبورغ. وكان للسيد دو بلير سان راتيان بيت ريفيّ؛ وكان ماتاس، وقد عرفه من قديم الأيام، يمضي ليزوره هناك إذا تيسَّرَ له الذهاب. فأقرأه **كتاب إميل** قبْل نشره. حتى إذا أَرجعه إليه، قال: «سيد ماتاس، هوذا كتاب رائع جميل، إلاّ أنه سيُذكَر فوق ما يرغب الناس في ذكر مؤلّفه». فلما نقل إليّ ماتاس هذا القول، هزئتُ به لم أرَ فيه إلاّ اهتمام رجل قضاءٍ قد أحاط كلَ شيء بالخوافي والأسرار. ثم إني لم أكن أبلَغ تأثراً بجميع الأقوال الملقلقة التي نُقلتْ إليّ، ولا أوجستُ قط بالكارثة وقد أخذتُ أقترب منها، بل أيقنتُ بفائدة مؤلَّفي وروْعته يقيني بأنني، من كل نحو، على مقتضى الأصول، ويقيني بتمام نفوذ مدام دو لوكسمبورغ وبتأييد الوزارة كما كنتُ أظن. فهنأتُ نفسي بما عزمتُ عليه من اعتزالي الناس وأنا في صميم النجاح والانتصار وقد سحقتُ حسّادي أجمعين.

ولكن أقلقني من نشْر الكتاب أمرٌ واحد لا يعود إلى ثقتي واطمئناني بقدْر ما يعود إلى راحة بالي. فزمنَ كنتُ بالإرميتاج ومونمورانسي، ساءني ما قد رأيتُ عن كثب من ضروب القهر والجور تنزلها بالفلاحين المساكين عنايةُ بعض الأمراء بلذّاتهم وغيْرتُهم عليها، إذ كانوا يجبرون الفلاحين على أن يتحملوا الضرّ الذي تُسببه، في حقولهم، طرائدُ الحيوان، والفلاحون لا يجرؤون على الذود عن أنفسهم من الطرائد إلاّ بقوة الضجيج وقد أُكرهوا على أن يُحْيوا لياليهم وسط حقول الفول والجلبان يعمدون إلى القدور المعدنية والطبول وصغار الأجراء لكي يصدّوا وحوش الخنازير. ولقد شهدتُ القسوة الفظيعة التي كان الكونت السيد دو شاروليه يسومها أولئك المساكين، فحملتُ عليها في أواخر «**كتاب إميل**». ثم إني خالفتُ المبادئ التي التزمتُها مخالفةً أخرى لم تبقَ

twitter @baghdad_library

دون عقاب، إذ بلغني أن رجال الأمير السيد دو كونتي كادوا لا يكونون على أراضيه أقلَّ مما سلف ذكرُه قسوةً وتفظيعاً. فارتعدتُ خشيةَ أن يكون هذا الأمير، الذي احترمتُه جداً وعرفتُ جميله وفيَّ العرفان، قد ساءته حملتي يحسبني قد عنيتُه بما حدتني الإنسانية المعذَّبة على أن أرمي به عمّه[32] لكن ضميري ارتاح إلى ذلك، فهدأ روعي، فأَحسنتُ. فأنا، على الأقل، لم أعلم قط أن هذا الأمير الكبير قد انتبه لنبذتي أيسرَ انتباه، وكنتُ قد كتبتُها قبلما أُوليتُ شرف التعرف إليه بزمن طويل.

وقُبيل صدور كتابي أو بُعيد صدوره، ولستُ أذكر على التدقيق متى، صدر في الموضوع نفسه مؤلَّف آخر قد أُخذ عن أول جزء من كتابي حرفاً حرفاً، عدا بعض السخف الذي خُلط بما أُخذ عن «**كتاب إميل**». وكان على الكتاب اسم أحد الجنيفيين ويدعى بالوكْسير، وذُكر في العنوان أنه فاز بجائزة أكاديمية هارلم. فسهل عليّ أن أدرك أن هذه الأكاديمية وهذي الجائزة هما في جديد المبتكَرات تمويهاً للسرقة على الجمهور. وإلى ذلك، رأيتُ ثَم بعض سوابق الدسائس التي لم أفقه منها شيئاً؛ فإما أن مخطوط «**كتاب إميل**» اطُّلعَ عليه، ـ ولولا هذا لم تحصل السرقة، ـ وإما أن الغرض وضعُ قصة الجائزة المزعومة، فعندئذٍ لا بد من إسناد القصة إلى بعض الأسس. فلم أكشف السر إلاّ بعد عدة سنين وقد فرطتْ من ديفيرنوا[33] كلمةٌ فضحتْه فعلمتُ مَن هم الذين أشركوا السيد بالوكسير في ذلك وهو لا يشعر.

ولقد هبَّ، يومئذٍ، التهدار الخفيّ الذي يتقدّم الإعصارَ، فتردَّد

(32) أي الكونت دو شاروليه ـ المترجم.

(33) فرنسوا هنري ديفيرنوا (1722-1778) تاجر بجنيف ـ المترجم.

في الأسماع، فتبيَّن لكل ذي بصيرة أنه تُحاكُ على كتابي وعليّ بعض الدسائس فلا تعتّم أن تتفجر. أما أنا، فلقد وثقتُ أيّ ثقة وحمقتُ جداً فلم أوجس بليّتي قبْل حلولها، ولا شككتُ ولو في سببها بعد أن دريتُ بما قد نشأَ عنه. فأُطلقتْ، في أول الأمر، شائعة بارعة فحواها أن التضييق على اليسوعيين لا تمكن معه مساهلةُ الكتب والكتّاب التي تطعن في الدين ولا تمكن محاباتُها. فوجّهَ إليّ اللوم أني وضعتُ اسمي على **«كتاب إميل»** كأن لم أضعه على سائر مؤلَّفاتي، ولم يكن قد وُجّه إليّ قبلاً مثل هذا اللوم. ولاح أنه يُخشى أن يُضطر بعضهُم إلى إجراءات تُنزَل بي على كره من يجريها، إلاّ أن الأحوال توجب إنزالها بعد ما سبّبها نأيي عن التبصر والاحتراز. فبلغتْني تلك الأخبار، فلم تكد تقلقني، حتى لم يخطر لي أن في القضية بأسرها أقلَّ ما يتصل بي اتصالاً شخصياً، أنا الذي أَدرك أنه لا لوم عليه أبداً، وأنه متين السند، وأنه ـ من كل وجه ـ على وفق الأصول حقّاً، وأنا الذي لم يخشَ أن تدَعه مدام دو لوكسمبورغ في ارتباك من خطإٍ أن اجتُرح، ارتدّ عليها وحدها. بيد أني كنتُ أعلمُ كيف تجري الأمور في تلك الأحوال، وكنتُ أعلمُ أن العرف درجَ على أخذ الناشرين أخذاً شديداً، وأنه درجَ على ملاينة المؤلّفين، فلم أخلُ من قلقٍ لأمر دوشين إذا تخلّى عنه السيد دو مالزيرب.

وبقيتُ في هدوء. فازدادت الشائعات، وما لبثتْ أن تغيرتْ لهجتها. فبدا الجمهور وبدا البرلمان، في الأخص، وقد أثارهم صمتي. فما مرّت بضعة أيام حتى اشتدّ هيجان الخواطر، فتحوّلَ الوعيد عن سبيله، وضرَبَ إليّ رأساً. فقيل جهراً للبرلمانيين إن إحراق الكتب لا يجدي في شيء، وإنما ينبغي إحراق المؤلّفين. أما الناشرون، فلم يؤتَ على ذكرهم قط. فلما انتهت إليّ، أولَ مرة،

twitter @baghdad_library

تلك الأقاويل التي هي برئيس لمحكمة التحقيق في جوى[34] أجدَرُ منها بعضو في مجلس الشيوخ، لم أتريب قط أنها من اختراع الدولباخيين يحاولون إرهابي وحثّي على الفرار. فسخرتُ بحيلتهم الصبيانية وقلتُ في نفسي، وقد هزئتُ منهم، إنهم لو وقفوا على جليّة الأمور، لعمدوا إلى بعض الوسائل الأخرى فيرهبوني. غير أن الشائعة ما فتئتْ، في النهاية، على ازدياد حتى تبيَّن أنها في صلب الواقع. وكان السيد دو لوكسمبورغ والسيدة قرينته قد قدَّما، في ذلك العام، رحلتهما الثانية إلى مونمورانسي فوصلا إليها في مبتدإ حزيران. فلم أسمعهما يذكران كتبي إلاّ نزراً، على ما قد كان لها من دويّ في باريس، ولم يفاتحني بمؤلَّفاتي ربُّ البيت ولا ربّته. ولكن بينما كنت وحدي مع السيد دو لوكسمبورغ، صباح بعض الأيام، إذ قال لي: «هل طعنتَ على السيد دو شوازول في «**العقد الاجتماعي**»؟» فارتددتُ دهشاً وقلتُ: «أنا؟ أُقسمُ أني لم أفعل إلاّ نقيض ذاك. فلقد صغتُ بقلمي، الذي ليس في شيمته المدح، أروع مديح أَصابه وزير على الدهر». ثم أَوردتُ له الفقرة. فقال: «وفي «**كتاب إميل**»؟ قلتُ: «لا حرف أبداً، فـ «**كتاب إميل**» ليس به على السيد دو شوازول حرفٌ واحد». فقال وهو على أحرّ من عادته: «آه! كان يجب أن تعمل الشيء نفسه في الكتاب الآخر، أو أن تكون فيه أوضح كلاماً». فقلتُ: «حسبتُني قد فعلتُ، إذ احترمتُ السيد دو شوازول احتراماً يكفي لأن أكون منه على مثل ذلك». فهمّ السيد دو لوكسمبورغ بمواصلة القول، ورأيتُه يكاد يبوح بشيء، ثم تمالك فصمتَ. فبئس السياسة الزريّة يسلكها رجل البطانة فتتسلط حتى على الصداقة عند أطيب الناس قلباً.

---

(34) جوى مستعمرة برتغالية على شاطئ الهند الغربي ـ المترجم.

ولئن قصر حديثُنا يومئذٍ، فلقد بيَّن لي ما كنتُ عليه من هذا النحو، في الأقل، فأَفهمني أني أنا هو مصبّ النقمة. فألّمتْني غرابة القدَر وقد أَخذتْ تنقلب عليّ في كل ما أُتي من خير قولاً وفعلاً. ولكن، مع ذلك، شعرتُ بأني كنتُ في حماية مدام دو لوكسمبورغ والسيد دو مالزيرب، فلم أدر كيف تُمكن تنحيتُهما عني ولا كيف يمكن الوصول إليّ وقد أيقنتُ، مذ تلك الساعة، أن المسألة لم تبقَ مسألة عدل وإنصاف وأن بعض القوم لن يجشّموا أنفسهم التحري أنْ أحقّاً يقع عليّ الخطأ أم لا. وكان الإعصار قد أمسى تهداره على ازدياد. حتى نيولم انطلق في ثرثرته ويقول لي إنه ندم على تدخله في ذلك المؤلِّف ويؤكد ما يتهدد مصيرَ الكتاب ومصيرَ الكاتب. ولكن كان ثمة ما لم يفتأ يدعوني إلى الطمأنينة إذ ألفيتُ مدام دو لوكسمبورغ وافرة الهدوء، جمّة الرضى، باشّة، ضاحكة، حتى لا شكّ في أنها قد وثقتْ بنفسها فلم يقلقها من أمري شيء، ولم تقل لي كلمةَ إشفاق واحدة ولا كلمةَ اعتذار، ولم تنظر إلى مجرى القضية إلاّ نظراً ساكن الروح كأنْ ليس لها من اتصال بالقضية أبداً، ولا اهتمت بي أيسرَ اهتمام. فاستغربتُ أن لم تقل لي في ذلك حرفاً واحداً، ورأيتُ أنه كان ينبغي لها أن تقول. أما مدام دو بوفلير، فقد بدت أقلّ اطمئناناً فلم تَن ذاهبة آيبة وقد اضطربتْ فجدّتْ كثيراً وجدّ الأمير السيد كونتي كثيراً، ـ كما أكدتْ لي، ـ وذلك لأجل وقايتي من الضربة التي دُبّرتْ عليّ والتي عزتْها إلى الأحوال الحاضرة يومئذٍ وقد حرص البرلمان ألا يتيح لليسوعيين أن يتهموه باللاّمبالاة بالدين. ولكن ظهر أن مدام دو بوفلير كانت ضعيفة الاعتماد على نجاح مساعي الأمير ونجاح مساعيها. فغدت في أحاديثها وهي إلى بثّ الخوف أَقربُ منها إلى إشاعة الأمان، وابتغت حضّي على الخلوة، فكانت على الدوام تشير عليّ بإنجلترا فتعرّفني هناك إلى كثير من الأصدقاء، وفيهم هيوم الشهير، صديقها منذ وقت بعيد. فلما رأتني

twitter @baghdad_library

قد لزمتُ الهدوء، عمدتْ إلى حيلة أدهى لكي تزعزعني. فأفهمتْني أنه إذا اعتُقلتُ فاستُنطقتُ، اضطُررتُ أن أذكر اسم مدام دو لوكسمبورغ، وأن الصداقة التي تكنها لي تستحقّ أن أجنب نفسي أسباب توريطها. فقلتُ إنه انْ وقعَ ذلك، فلتطمئن إلى كوني لن أُحرج البتة مدام دو لوكسمبورغ. فقالت لي أن ما عزمتُ عليه أهونُ من قيامي به، فأصابت ولا سيما في ما يعود إليّ شأنه وقد صمّمتُ ألا أحنث في يميني وألا أكذب أمام القضاء أبداً مهما يكن في قول الحقيقة من مخاطرة.

فوجدت مدام دو بوفلير أن قولها أثّر فيّ بعض التأثير، لكني لم أعتزم الهرب؛ فبقيتُ بضعة أسابيع تكلّمني على الباستيّل فقالت إنه وسيلة تجنّبني سلطة البرلمان القضائية لأن البرلمان لا يتدخل في سجناء الدولة. فلم أعترض قط على هذا العفو الغريب، ولكن شرطتُ ألا يُلتمَس بالنيابة عني. فلم تذكره لي مرة ثانية، فقدّرتُ، بعدئذٍ، أنها لم تعرض عليّ هذا الذي عرضتْ إلاّ سبراً لدخيلتي، وقدَّرتُ أنه لم يُبتغَ له حيلةٌ قاضية.

فمرت بضعة أيام، ثم ورد على السيد المارشال من كاهن دُوي، صديق جريم ومدام ديبيناي، رسالةٌ قال إنه استقى نبأها عن مصدر ثقة، ومؤداها أن البرلمان سيأخذني أخذاً بالغَ الشدة، وأن القضاء سيصدر، في يوم كذا وكذا، أمراً باعتقالي. فخمّنتُ أن النبأ هو من صنع الدولباخيين، وكنتُ أدري أن البرلمان حريص جداً على الشكليات، وأن الأمر باعتقالي يخالفها إن هو أُصدر قبْل أن يتقرر قانوناً أني قد اعترفت بالكتاب وبأني مؤلّفه حقّاً. فقلتُ للسيدة دو بوفلير إن الأمر باعتقالي لا يُصدَر إلاّ في الجرائم التي تمسّ الأمن العام، فعندئذٍ يؤمَر باعتقال المتهمين استناداً إلى الأدلة اليسيرة خوفَ أن يهربوا من العقاب. فإذا أريدت معاقبتي بمخالفة كالتي أنا عليها،

وهي تستحقّ المكافأة والتكريم، أُنزلت الإجراءات بالكتاب واجتُنبَ التضييق على الكاتب ما أَمكن اجتنابه. ففطّنتْني مدام دو بوفلير إلى فرق ههنا دقيق نسيتُه وقصْدُها أن تبرهن لي أن الأمر باعتقالي يُصدَر مراعاةً لشأني بدل أن أستُحضَر بين يدي القضاء. فلما كنتُ من الغد، وردتْ عليّ رسالة من جي يذكر فيها أنه اتفق له أن كان، في اليوم نفسه، عند السيد النائب العام فأبصر على منضدته مسوّدةَ إدانة ضد **إميل** وضد مؤلفه. لاحظ أن جي المذكور كان شريك دوشين صاحب المطبعة التي طبعت الكتاب، فاطمأن إلى مصيره كل الاطمئنان، فأنفذَ إلى المؤلّف بهذا التنبيه على وجه الخير! ثم قدّرْ مبلغ ما صدَّقتُ ذلك أجمع! فلقد كان في منتهى البساطة واليسر أنّ أحد الناشرين، وقد أُذن له في الدخول على النائب العام، استطاع أن يقرأ المخطوطات والمسوّدات التي انتشرتْ على منضدة هذا القاضي! فأكدتْ لي مدام دو بوفلير الخبر عينه وأَكده سواها. فلم تزل تلك السخافات تملأ سمعي حتى كدتُ أتصوّر أن الجميع مسَّهم الجنون.

فلما أدركتُ أن تحت ذلك كله بعض الخوافي التي كُتمْتُها، جعلتُ أرتقب الحدث وأنا في هدوء، فاعتمدتُ على استقامتي وعلى براءتي في تلك القضية بأسرها، فأسعدني حقّاً أن الشرف يدعوني إلى أن أُعذَّب من أجل الحقيقة، كائناً ما كان لون التعذيب. فلم أرهب ولا اختبأتُ، بل قمتُ أذهب كل يوم إلى القصر وأتنزه بعد الظهر على ما تعودتُ. ثم إنه في الثامن من حزيران، وهو اليوم الذي سبق يومَ الأمر باعتقالي، مضيتُ أتنزه مع أستاذين من رهبنة القديس فيلبّس النيري هما الأب ألامانين والأب ماندار. فحملنا إلى شامبو[35] لُمْجَة العصر، فأكلناها بشهية مريئة. وسهونا أن نأتي ببعض

(35) في ظاهر مونمورانسي ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الأكواب، فاستعضنا منها بأنابيب الشعير لكي نجتذب النبيذ من القنينة فنشربه، ولقد حرصنا على أن نختار الأنابيب الواسعة لكي نتبارى في أيّنا هو أَحسن ضخّاً. فلم أمرح قط مرحي في ذلك اليوم.

رويتُ كيف استبدَّ بي الأرق أيامَ الشباب. فتعودتُ، مذ تلك الأيام، أن أقرأ في كل ليلة وأنا على السرير، حتى إذا أحسستُ بالثقل قد أَخذ بعينيّ، أطفأتُ الشمعة فحاولتُ التهويم بعض اللحظات. ولقد جريتُ، ليلاً، على مطالعة **الكتاب المقدّس**، فطالعتُه برمته ما لا يقلّ عن خمس مرات، أو ست، قد توالت على هذا النحو. وكنتُ، وأنا في ليل ذلك اليوم، أكثَر يقظةً مما أنا عليه في المألوف، فواصلتُ القراءة وقتاً أطول أطالع السفر الذي خُتم بلاويّ أفرائيم، وهو سفر «القضاة»، إلا أن أكون على خطأ لأني لم أقرأه مذ ذلك الحين. فبلغتْ مني تلك القصة، فشغلتْني، فذهبتُ في مثل الحلم إلى أن استيقضت منه بفعل صوت وبعض النُور، وإذا تيريز قد حملت القنديل تنير للسيد لاروش. فلما رآني قد نهضتُ فجأة فجلستُ، قال: «لا ترتعبْ؛ إن مدام دو لوكسمبورغ قد أنفذتْني وكتبتْ إليك وبعثتْ لك برسالة وردتْ عليها من الأمير السيد دو كونتي». والواقع أني وجدتُ، في رسالة مدام دو لوكسمبورغ، رسالة من الأمير أسرعَ بها إليها بعضُ سُعاته، فنبهها الأمير إلى أنه قد صُمّم على أخذي أخذاً عظيم القسْوة، وذاك برغم المجهودات التي بَذلها هو من أجلي. وذكر في الرسالة أن الهياج قد أمسى على أشدّ ما يكون وأنه لا شيء يقوى على وقايتي من الضربة؛ فالبلاط يوجبها، والبرلمان يريدها، والأمر بالاعتقال سيُصدَر في الساعة السابعة صباحاً إذ يُبعَث فوراً من يقبض على المطلوب. وقال الأمير في رسالته: «إني توصلتُ إلى أن لا يُجَدّ في إثره إذا هو ارتحل، أما إن هو أصرّ على أن يُعتقَل، فإنه سيُعتقَل». فرجا مني لاروش،

بلسان السيدة قرينة المارشال، يلحّ أن أنهض فأذهب لمشاورتها. وكانت الساعة قد بلغت الثانية، ومدام دو لوكسمبورغ قد مضت للنوم منذ قليل. فقال لي لاروش: «إنها لفي انتظارك وقد أبَت النوم إلا أن تراك». فلبستُ على عجل وطرتُ إليها.

فألفيتُها على اضطراب. فكانت هذه أول مرة وجدتُها على مثل هذا الحال. فبلغ مني اضطرابها. فلم تخلُ نفسي من القلق تلك الساعةَ المفاجئة وأنا في صميم الليل. فلما وقعتْ عيني على مدام دو لوكسمبورغ، ذهلتُ عن نفسي فعدتُ لا أفكر إلاّ فيها هي وفي الدور المؤسف الذي تقوم به إذا هيأتُ القبض عليّ. وذلك بأني آنستُ عندي من الشجاعة ما يكفي لأن لا أقول إلاّ صدقاً ولو أضرّني، ولكن لم آنس عندي من حضور البديهة ومن البراعة وربما كنتُ لم آنس لديّ من الصلابة ما يكفي لأن لا أُحرج مدام دو لوكسمبورغ إذا شُدَّ عليّ في الاعتقال. فحملني ذلك على أن أبذل شرفي دون راحتها فأعمل من أجلها ما لم أكن لأعمله لنفسي في يوم من الأيام. فلما عزمتُ على ذلك، أخبرتُها به، ولم أشأ أن أحطّ من شأن تضحيتي فأجعل مدام دو لوكسمبورغ تؤدي ثمنها. ثم إني لعلى يقين بأنها قد وقفتْ على السبب فلم تقل لي، مع ذلك، حرفاً واحداً يدلّ أنه أثّر فيها. فصدمني كونها لم تبال بالتضحية، فترجَّحتُ في الرجوع عنها، ولكن إذ ذاك وافى السيد المارشال؛ ثم وصلت مدام دو بوفلير من باريس بعد بضعة أوانات. فقاما بما قد كان يجب على مدام دو لوكسمبورغ أن تقوم به. فتركتُهما يتملقاني وأَخجلني أن أُخلف بوعدي، فأصبحت المسألة لا تدور إلاّ على موضع سكني وعلى وقت الرحيل. فعرض عليّ السيد دو لوكسمبورغ أن أمكث عنده بضعة أيام متخفياً لكي أنظر في أمري وأُقرّر شأني وأنا أوسعُ راحةً فأَبَيتُ، وأَبَيتُ أن أتسلل إلى دير لوتامبل. وأصررتُ على

twitter @baghdad_library

الارتحال في اليوم عينه بدل التخفي حيث كان.

ولقد أدركتُ، حينئذٍ، أن لي في المملكة أعداءً سرّيّين ومقتدرين [اقوياء]، فوجدتُ أنه ينبغي أن أخرج من فرنسا، ـ مع تعلّقي بها، ـ فأَضمن راحتي وسلامي. فأولَ الحال، اتجه نظري صوب جنيف، فما فكرتُ فيها حتى عدلتُ عن هذه الحماقة. فلقد كنتُ أعلمُ أن وزارة فرنسا أقوى يداً في جنيف منها في باريس، فإذا ابتغت التنكيل بي، لم تدَعني في مأمن، أفي هذه المدينة أَقمتُ أم في تلك. وكنتُ أعلمُ أن «**الخطاب في التفاوت**» قد كرَّهني إلى المجلس[36] كراهيةً زاد خطرَها كون المجلس لم يجرؤ على الإفصاح عنها. وكنتُ أعلمُ أنه في آخر الشيء، يوم صدرتْ روايتي «**إيلوييز الجديدة**»، خفَّ المجلس يدافع عن الكتاب نزولاً على التماس الدكتور ترونشان؛ فلما لم يجد أحداً قد حذا حذوه حتى في باريس، أخجلتْه خفّته فعاد عن دفاعه. فلم أشكّ في أن المجلس سيجد الفرصة أحسن ملاءمةً عند ذاك فيحرص على اغتنامها كل الحرص. وكنتُ أعلمُ أن الجنيفيين، مع كل ما أعربوا لي عنه من جميل الظواهر، قد حسدتْني قلوبهم خفْيةً فلم يرتقبوا إلاّ الفرصة ليشبعوا حسدهم. بيد أن حبّ الوطن كان يدعوني إلى وطني؛ فلو ظننتُ أن بمكنتي الإقامة فيه بسلام، لما ترددتُ. ولكن لم يُبح لي الشرف ولا العقل أن أفزع إلى الوطن، فقرّرتُ أن أقتصر على الاقتراب منه فأذهب إلى سويسرا أنتظر ما يُجرى بجنيف في شأني. ثم إنك لن تلبث حتى تجد أن حيرتي لم تستمر إلى زمن طويل.

ولقد خالفت مدام دو بوفلير قراري جد المخالفة، فكررتْ جهدها تحثني على أن أُيمم إنجلترا، فلم تزحزحني عما قرَّرتُ.

---

(36) أي المجلس في جنيف ـ المترجم.

وذلك أني لم أحبّ يوماً إنجلترا ولا الإنجليز، فلم تؤد بلاغة مدام دو بوفلير إلاّ إلى ازدياد نفرتي بدل أن تقوى عليها، ولم أدر السبب.

أما وقد صمّمتْ على الارتحال في اليوم عينه، فقد ظن الجميع أنني مضيتُ منذ الصباح. ولم يشأ لاروش، وكنتُ قد أرسلتُه ليأتيني بأوراقي، أن يقول لتيريز، لها هي نفسها، إنْ قد ارتحلتُ أم لا. وكنتُ، منذ اعتزمتُ أن أكتب يوماً مذكراتي، قد جمعتُ كثيراً من الرسائل وغيرها من الأوراق التي اقتضتني عدة أسفار. وكنتُ قد تحيّرتُ بعضاً من تلك الأوراق فجعلتُها على حدة. فسلختُ بقية ذلك الصباح أنظر في سائر الأوراق وأتخيّر منها حتى لا أحمل إلاّ التي قد تنفعني؛ وما سواها فإلى الحرق. وشاء السيد دو لوكسمبورغ، لطفاً منه، أن يعينني على هذا الشغل، فامتد شغلنا حتى لم نفرغ منه قبل الظهر، فلم يُتح لي الوقتُ أن أحرق شيئاً. فعرض عليّ السيد المارشال أن ينظر في سائر الأوراق ويتخيّر منها، فيحرق هو بنفسه الفضالة، ثم يبعث إليّ بكل ما جُعل على حدة. فقبلتُ واسترحتُ وقد خلّصني من هذا الجهد. فاستطعتُ، في ما بقي لي هناك من سويعات، أن أُمضيها مع من أُحبُّهم ومع من كنت مُفارقهم إلى الأبد. وأخذ السيد دو لوكسمبورغ مفتاح الحجرة التي وضعتُ فيها الأوراق. فألححتُ عليه فاستحضر خالتي[37] المسكينة وقد ذابت قلقاً لما أصبحتُ فيه ولما هي صائرة إليه فتوقَّعتُ، في كل لحظة، أن يصل شرطيو القضاء لم تدر كيف تسلك حيالهم ولا بِمَ تجيبهم. فجاء بها لاروش إلى القصر وقد ظنت أني ارتحلتُ فأَبعدتُ. فما أبصرتْني حتى هبّت تصيح وارتمت بين ذراعيّ. فيا عجباً للصداقة، ولتواصل القلبين، وللعادة، وللشعور الحميم! ألا كم من أيام سعادة

---

(37) أي تيريز ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وحنان وسلام كنا قد أمضينا معاً فاجتمعتْ كلها في تلك الساعة الحلوة، المُرّة، فزادتنا إحساساً بأنّا نتمزق ونحن، أولَ مرة، على انفصال بعد ما تَعايشنا سبع عشرة سنة لم أكد، في خلالها، أغيب عن نظر تيريز ولا كادت تغيب عن نظري. فرآنا السيد المارشال وقد تَعانقنا فلم يملك دمعه، فتنحّى عنا. ثم أبت تيريز أن تفارقني. فأشعرتُها بما في صحبتها لي وقتئذٍ من صعوبة، وأشعرتُها بضرورة بقائها لكي تدبّر أمتعتي وتجمع دراهمي، لأن العرف درجَ على أن من صدر الأمر باعتقاله، أُخذتْ أوراقه وخُتم على أمتعته فوُضعَ بيان فيها وجُعل عليها حارس. فكان لابد للخالة أن تظل هناك لتراقب ما يجري فتتناول ما يمكنها تناوله على خير وجه مستطاع. ووعدتُها بأنها ستوافيني، فأيّدَ وعدي السيد المارشال، ولكن أَبيتُ، في كل حال، أن أخبرها إلى أين كنتُ مرتحلاً، فإذا استنطقها من يبحثون لاعتقالي، أكدتْ أنها تجهل مكاني فصدَقتْ. فلما قبّلتُها ونحن نفترق، هزّني اضطرابٌ جد غريب، فقلتُ لها وقد تأثرتُ تأثراً لم تتحقق نبوءته ـ واأسفاه ـ إلاّ بالغ التحقّق: «يا بنيّتي! ينبغي لك أن تتسلحي بالشجاعة. لقد قاسمتني أيام الرغد سعة وإقبالاً؛ بقي عليك أن تشاركيني في أيام البؤس أشكالاً وألواناً، لأن هذا هو ما قد أَردت. فلا تتوقّعي بعد الآن، وأنت تتبعيني، إلاّ ضروب الإهانة والبلوى: فإن مصيري، وقد ابتدأ يومُنا هذا يكتبه عليّ، سوف يجدّ في إثري إلى ساعتي الأخيرة».

ولم يبقَ أمامي إلاّ الرحيل. فقدّرتُ أن شرطيي القضاء جاؤوا في الساعة العاشرة صباحاً، فلما ارتحلتُ في الرابعة من بعد الظهر، لم يكونوا قد وصلوا بعد. وكان قد قُرّر أن أتخذ خيل المحطة لسفري، ولم يكن عندي عربة، فأهدى إليّ السيد المارشال عربة خفيفة ذات مظلّة وأعارني خيلاً وسائقاً لها ريثما أصل إلى محطة

للخيل، وكان قد أجرى هناك ما لا ألقى معه أيّ صعوبة كانت في الحصول على الخيل.

ولم أتغدَّ يومئذٍ على المائدة ولا ظهرتُ في القصر، فأَقبلت السيدات يودّعنني في الطبقة التي تقع بين طبقتيه السفلى والأولى، وكنتُ قد أَمضيتُ فيها ذلك النهار. فقبّلتْني السيدة قرينة المارشال مراراً وعلى هيئتها اكتئاب. ولكن لم أُحسّ في قُبلها شدّة الضم الذي كانت قد أحاطتني به لسنتين خلتا، أو لثلاث سنوات خلت. وقبّلتْني مدام دو بوفلير كذلك وقالت لي أقوالاً رائعة جميلة. أما التقبيل الذي كنتُ أَكثر استغراباً له، فهو تقبيل مدام دو ميرْبُوا إياي، إذ أَقبَلتْ هي أيضاً إلى هناك. وذلك لأن السيدة قرينة المارشال دو ميربوا امرأة باردة جداً، على تحشّم وتحفّظ، ويبدو لي أنْ لم تخلُ كل الخلو من الشموخ الذي فُطرتْ عليه أُسرة دو لورين. ثم إنها لم يتقدَّم لها قط أن أولتني عظيم التفات. فآنستُ في حركتها وفي نظرتها قوةً لستُ أدري ما هي إلاّ أنها أثّرتْ فيّ إما لأنني غرّني هذا التشريف الذي لم أتوقَّعه فحاولتُ أن أزيد في شأنه، وإما لكونها لمّا قبّلتْني، أشاعت اليسير من الرحمة التي جُبلتْ عليها القلوبُ السخية. وكنتُ إذا عدتُ إلى التفكير في ذلك، غلب على ظني أن مدام دو ميربوا لم تجهل ما قد كُتبَ عليّ فلم تتمالك عن الرأفة بمصيري.

أما السيد دو لوكسمبورغ، فقد تمَّلكه الصمت فشحب لونُه وكأنه الميت. فأَصرّ جد الإصرار على أن يصحبني إلى العربة التي كانت تنتظرني عند مَشرب الحيوان. فجزنا بالبستان كله لم ننبس بحرف. وكان معي مفتاح للحديقة، ففتحتُ بابها وناولتُه المفتاح بدل أن أردّه إلى جيبي؛ ولم أقل من شيء. فتناوله بخفة عجيبة لم يسعني، منذئذٍ، إلاّ أن أفكر فيها كثيراً. ثم إني كدتُ لا أعرف، على العمر، ساعةً أمرَّ من ساعة افتراقنا ذاك. فتعانقنا طويلاً ونحن في

twitter @baghdad_library

سكوت. فشعر كلانا بأن هذا التعانق هو الوداع الأخير.

فصادفتُ في ما بين بارّ ومونمورانسي أربعة نفر سود الملابس، فحيّوني وهم يبتسمون، وكانوا في عربة من محطة كراء العربات. ثم إن تيريز وصفتْ لي، بعدئذٍ، هيئةَ شرطيي القضاء وذكرتْ وقت وصولهم وكيف كان سلوكهم. فلم أتريب قط أنهم كانوا هم إياهم، وخصوصاً إذا بلغني، بعد ذلك، أن الأمر باعتقالي لم يُصدَر إلاّ ظهراً بدل أن يُصدَر في السابعة صباحاً كما نُبّئتُ. وكان لا بد لي أن أجتاز بباريس كلها. والإنسان، وهو راكب عربة مكشوفة، قلما يتخفّى شخصُه. فأبصرتُ في طريقي عدة أناس حيّوني وكأنهم قد عرفوني، ولكن لم أعرف منهم أحداً. فتحولتُ عن طريقي الليلة نفسها أريد يلوروا. ولقد أُوجبَ في ليون أن يصار بالبُرُد[38] إلى القائد. وربما كان في ذلك ما يزعج امرأً أبى أن يكذب وأبى إن يغيّر اسمه. وكنتُ أحمل رسالة من مدام دو لوكسمبورغ إلى السيد دو يلوروا وقد سألتُه فيها أن يقوم بما يخلّصني من هذه المشقة، فزوّدني رسالةً لم أستعملها لأني لم أمرّ بليون. وما تزال رسالته مختومة، وهي بين أوراقي. ولقد ألحَّ عليّ السيد الدوق[39] أن أَبيتُ ليلتي بفيلوروا، إلاّ أني فضّلتُ أن أواصل السفر، فاجتزتُ، في ذلك اليوم عينه، بمحطتين فضلاً عما سبق.

وكانت عربتي متعبة، فأمسيتُ أشدّ نصباً من أن أقوى على السير أياماً طويلة المراحل. وكنتُ، إلى ذلك، على هيئة لا تفرض هيبتها فتضمن لي حُسنَ الخدمة؛ وهو معلوم أن خيل العربات، في فرنسا، لا تحتمل السوط إلاّ أن يكون على مناكب السُوّاق. فلما

(38) البرد جمع بريد ـ المترجم.

(39) أي الدوق دو فيلوروا ـ المترجم.

نفحتُ الأدلاّء نفحاً سخياً، حسبتُني قد أَعضتُهم من هيئتي وحديثي، فإذا الأمر، مع ذاك، أسوأُ حالاً. فظنّوني امرأً من عرض الناس دنيئاً قد استُخدم لبعض الأعمال فركب عربةً أولَ مرةٍ في عمره. فلم أَلقَ إلاّ لواذع التهكم الخبيث، فغدوتُ مَضحكةَ السائقين. فصبرتُ عليهم في النهاية غير معترض وسرتُ على ما يروقهم؛ وكان الأولى بي أن أصبر منذ البدء.

ولقد أتاني وأنا بالطريق ما نفى عني المللَ إذ جعلتُ أتأمل في كل ما وقع لي؛ لكن ذلك ليس مني على مجرى التفكير وميل الشعور. فإني جمُّ النسيان لسالف المضرّة مهما يقرب عهدُها، وهذا النسيان شيء عجيب؛ فإذا رأيتُ إلى المضرّة قبْل أن تصيبني، روّعتْني فأقلقتْني بقدْر ما إذا تذكرتُها، وهَنَ تذكُّري لها فتلاشى من فوره بلا مشقّة. وذلك أن مخيّلتي الطاغية لا تنفكّ يشقيها اجتنابُ المضارّ اللائي لم يصبنني بعد، حتى تلهيني عن أن أذكرهن ليس يخطر ببالي منهن ما قد فات، إذ لا يبقى عندي حذرٌ مما حدث، وإذ الاهتمام به لا طائل تحته. فكنتُ، من بعض الأوجه، أستفرغ البليّة قبل أن تعتريني؛ وكلما شقيتُ في توقّعي لها، سهلَ عليّ نسيانُها. وعلى نقيض ذلك، فإذْ كنتُ لا أنفك منشغلاً بسعادتي الماضية [الغابرة]، فإني أستذكرها وأَجترّها ـ كما يقال ـ حتى لأستمتع بها مرة أخرى متى شئتُ. هذا الطبع الميمون أجدني مديناً له بكوني لم أُجبَل قط على الضغينة قد اعتملتْ في القلب الحقود فلم يزل يتذكر ما حلّ به من ضروب الإساءة حتى أشقاه ذكرُها، فودّ لو ينوب عدوَّه بكل ما ابتُليَ هو به من عذاب. وإذ كنت إندفاعياً بالطبع، عرفتُ الغضبَ، بل وحتى الانسعار في أثناء الحركات الانفعالية الأولى؛ ولكن الرغبة في الثأر لم تتأصل بنفسي يوماً. فإن التفاتي إلى الإساءة هو دون أن أُولي المسيء إليّ عظيم اهتمام.

twitter @baghdad_library

ولستُ أفكر في المضرّة التي أَنزلها بي إلاّ بسبب تلك التي قد ينزلها بي أيضاً، فلو أيقنتُ أن مضرّته لن ترتد عليّ أبداً، لنسيتُها من ساعتي. وطالما وُعظنا لكي نعفو عن الإساءة؛ ولا ريب أن ذلك فضيلة رائعة، لكني لستُ آخذ بها. وما أدري هل يتمكن قلبي أن يسيطر على حقده، لأن قلبي لم يعرف الحقد في يوم من الأيام. ثم إن تفكيري في أعدائي هو أضأل من أن يكون لي به فضلُ الصفح عنهم. ولن أذكر مبلغ ما يَشْقون وقد أرادوا تعذيبي، فإنما أنا تحت رحمتهم، وكلُّ سلطان فبيدهم، وهم عنه لا يعفّون. وليس فوق سلطانهم إلاّ أمر واحد أتحداهم به، ذاك هو أنهم كلما عذّبوا أنفسهم، دفعوني إلى العذاب.

فلما كنتُ من غد يوم ارتحالي، نسيتُ جميع ما قد حصل تمام النسي، ونسيتُ البرلمان ومدام دو بومبادور والسيد دو شوازول وجريم ودالامبير، ونسيتُ مكايدهم وأعوانهم؛ فلو لم أُضطر إلى الحذر والاحتياط، ما رجعتُ حتى إلى التفكير في ذلك طولَ السفر. ولقد خطر ببالي، وأنا في صميم تلك الأمور كلها، آخرُ ما كنتُ قد قرأتُه ليلةَ ارتحلتُ. وخطرتْ ببالي قصائد جسنر[40] على الرعاة والريف. وكان هوبير، مترجمُها، قد بعث إليّ بها لزمن مضى. فاستولى عليّ هذان الخاطران فتتداخلا بروعي حتى أردتُ أن أسعى لتأليفهما، فأعالج موضوع «**لاويّ أفرائيم**»[41] على طريقة جسنر، بيد أن هذا الأسلوب الريفي الساذج كاد لا يلائم ذاك الموضوع الفظيع المهول، ثم كدتُ لا أقدّر أن حالي يومئذٍ ستلهمني من تفاؤل

(40) جسنر (1730-1778) أديب سويسري غنّي بفضائل الرعاة وعيشة الريف ـ المترجم.

(41) لاوي أفرائيم (Le Lévite d'Ephraïm) وقصة لاويّ أفرائيم: **الكتاب المقدس**، سفر القضاة، الأصحاح التاسع عشر ـ المترجم.

الخواطر ما يشيع فيّ المرحَ والحبور. ولكن، مع ذلك، حاولتُ الموضوع لا لداعٍ إلاّ طلباً للتلهي إذ أنا في العربة، غير أني لم آمل توفيقاً على الإطلَاق. فما أن شرعتُ في الكتابة حتى عجبتُ لعذوبة خواطري ولتيسّر بيانها. فصنعتُ، في ثلاثة أيام، الأنشودات الثلاث الأولى من هذه القصيدة القصيرة التي ختمتُها بعدئذٍ في موتييه. وإني لعلى يقين بكوني لم أصنع قط ما هو على رقة طبعٍ أوفى حناناً، وإشراقاً أنضر لوناً، ولا ما هو على صُوَرٍ أصفى براءةً، وحلّةٍ أصدق نَفَساً، وبساطةٍ أعرق أصلاً في كل شيء؛ ذلك جميعاً، برغم هول الموضوع، هو، برأسه، فاحشٌ مقيت، حتى لقد كان لي فضل التغلب على صعوبته، زيادةً على ما سواها. ولئن لم يكن «**لاويّ أفرائيم**» خيرَ كتبي، فلسوف يظل أَحبَّها إليّ. فما أعدتُ قراءته يوماً، ولن أعيدها مرة، إلاّ آنستُ بصدري هتاف قلبٍ لم يعرف الغلَّ ولا مرّرتْه المصائب، وإنما هو قد عزّى نفسه عنها بنفسه فوجد بها منها عوضاً. ألا فاحشدوا أولئك الفلاسفة الكبار الذين مضوا في كتبهم يتفوقون على ما لم يعانوه من الشدائد قط، وأَحرجوهم بموقف كموقفي، ثم اسألوهم أن يصنعوا نظير مؤلَّفي وقد مُسَّ شرفُهم فجاشت منهم أولُ غضبة ـ تَعْلموا كيف كانوا يتخلصون.

ثم إني لما ارتحلتُ عن مونمورانسي أريدُ سويسرا، نويتُ التوقف في إيفردون عند السيد روان صديقي الطيّب القديم، وكان يقيم فيها من بضع سنوات وقد دعاني إلى زيارته. فعلمتُ وأنا بالطريق أنه تُجرى بعض المناورات في ليون، فعدلتُ عن المرور بها. فكان لا بد لي من المرور ببوزانسون، وهي موقع حربيّ، وعلى هذا فإنها معرَّضة للآفة نفسها. فرأيتُ أن أَحيد عن بوزانسون فأجوز في سالانس، وحجتي أنني متوجه لزيارة السيد دو ميران، ابن شقيقة السيد دوبان، وكان يعمل في مصنع الملح هناك وقد دعاني بالأمس

twitter @baghdad_library

إلى زيارته فألَحَّ عليّ. ولقد وُفّقتُ في ما احتججتُ به، إذ لم ألقَ السيد دو ميران، فسرّني أني أُعفيتُ من التلبث عنده، فواصلتُ سبيلي لم يتصدَّ لي أحد.

فلما دخلتُ أرض برن، استوقفتُ عربتي، فترجلتُ، فسجدتُ، فقبّلتُ التراب، لا بل بستُه، ثم صحتُ في تهلل وانفعال: «الحمد لك، ربي، يا حامي الفضيلة! لقد بلغتُ أرضاً حُرّة!» وهكذا ركنتُ إلى آمالي بعمهٍ مني وغير تبصر. وكنتُ، على الدوام، أسلك سلوكاً أوقَعني في البلوى. فدهش سائق العربة يحسب أني مجنون؛ فصعدتُ إليها، فما انقضت بضع سويعات حتى كان السيد روان الجليل قد تلقّاني فضمّني إلى صدره فابتهجتُ ابتهاجاً فائقاً عظيماً. آه! فلنسترحْ بعض الوقت عند هذا المضيف الكريم! فإني لفي احتياج إلى أن أستردّ بأسي وقواي، إذ لن ألبث طويلاً حتى أستخدمها.

وبعد، فلقد توخيتُ الاسترسال في ما أخبرتُكَ به الساعة فسردتُ جميع مطابقاته اللائي أمكنني أن أتذكرها. ولئن كانت لم تتضح لك جداً، فإنك إذا أَمسكتَ بخيط الدسيسة، فربما جلوت عليك سِرها. ثم لئن كانت لم يُظهر لك ـ مثَلاً ـ أولَ ما يتصل بالمسألة التي أَعرضها في ما يلي، فإنها تساعدك على حلّها جمَّ المساعدة.

فلنفترضْ أن إبعادي قد كان لا بد منه لإنفاذ الدسيسة عليّ، نجد أن كل ما أُجريَ قصْدَ هذا كاد يُجرى كما كان ينبغي إجراؤه. ولكن لو لم أستسلم للخوف من الرسالة الليلية التي طيَّرَتْ بها إليّ مدام دو لوكسمبورغ، ولو لم أستسلم للقلق حينما حذّرتْني، لو ثبتُّ على ما كنتُ فيه بادئ بدء فلم أَلزم القصر بل عدتُ إلى سريري فرقدتُ إلى الصباح وأنا على بَرْده واطمئنانه، ـ لولا ذلك أجمع، هل كان أُصدرَ الأمرُ باعتقالي؟ إنها لمسألةٌ جَلل يتوقف عليها حلّ

كثيرٍ من المسائل الأخرى؛ فإذا نظرتَ في هذه المسألة، أفادك أن تلحظ الساعة التي فيها أُصدرَ أمر التهديد باعتقالي والساعةَ التي فيها أُصدرَ، في الواقع، أمرُ الاعتقال. ذلك مثَلٌ فظ، إلا أنه دقيق فهو يريك القيمة التي لأدنى التفصيلات في عرض الأمور التي جرت والتي نبحث لها عن أسبابها الخفية من أجل اكتشافها بالاستقراء.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

هنا يبدأ عمل الغياهب التي ما تزال تكتنفني من ثماني سنوات؛ وكيفما أسلك، لا أقوى على النفاذ من ظلامها الرهيب. وإني لأَحسُّ بما يصيبني من ضربات قد أُنزلتْ بي وأنا في الهاوية التي غمرتْني فيها الأرزاء، فأبصُر برأس الأداة، ولكن لا يسعني أن أبصر باليد التي توجّهها، ولا بالوسائل التي تستخدمها تلك اليد، فتنصبّ عليّ البلايا والمعايب كأنما هي من تلقاء نفسها تنصبّ، ولكن لا تبدو أنها على هذا النحو. فإذا فرطَ من قلبي الممزَّق بعضُ الأنين، أشبهتُ من تشكّى في غير علّة. ثم إن الذين عملوا على خرابي قد تفننوا في ما لا يصدّقه العقل فأَشركوا في دسيستهم جمهورَ الناس، والناسُ ما يشكّون في ذلك ولا يشعرون بما قد نجم عنه. فإذا أنشأتُ أروي ما يتصل بي من مجرى الأمور، وما قد قاسيتُ من ضروب المعاملة، وكلَّ ما قد وقع لي من أشياء، عييتُ عن التحديد لدواعيه وأنا أُخبرُ بالذي حصل. ولقد ذكرتُ، في الكتب الثلاثة السابقة، جميع تلك الدواعي الأصلية، فعرضتُ كل ما يتصل بي منها وبيّنتُ كل ما بها من خوافي الأسباب. أما أن أذكر في ما تألبتْ عليّ تلك العلل المتنوعة فأجرت ما بسيرتي من غرائب الأحداث، فذلك لا قبل لي بتفسيره ولو تخميناً. فإن كان في قرائي مَن هُم على

كفاية سخاء فشاؤوا التعمق في تلك الأسرار وابتغوا الكشف عن الحقيقة، فليعيدوا قراءة الكتب الثلاثة السابقة قراءةً جادّة متأنية؛ ثم كلما قرأوا في الكتب التالية[1] شيئاً قد حدث، فليصيبوا من الأنباء التي تكون في تناولهم، وليرجعوا من حبكة إلى حبكة ومن عامل إلى عامل حتى ينتهوا إلى المحرّكات الأولى التي سبّبتْ كل شيء. وإني لأَعلمُ علم اليقين إلى أين تفضي بهم تحرياتهم؛ لكنني تائه في السراديب المظلمة، المتوعرة، التي تفضي بهم إلى هناك.

ثم إنه، في خلال إقامتي بإيفردون، تعرّفتُ بأُسرة السيد روان كلها، ومن بينها ابنة شقيقته مدام بوا دو لاتور وكريماتها. وكنتُ بالأمس قد عرفتُ أباها في ليون، وأخالني قلتُ، في بعض ما سبق، إنني عرفتُه. وكانت مدام بوا دو لاتور قد جاءت إيفردون تزور خالها وشقيقاتها؛ فسحرتْني بنتها البكر لما هي عليه من سعة إدراك ورفعة خُلق وقد ناهزتْ، يومئذٍ، سنتها الخامسة عشرة: فصادقتُ الأم والبنت أرقَّ مصادقَة. وكان السيد روان يريد البنت لابن شقيقه، وهو زعيم في الجيش تخطى أيام الشباب. وكان ابن شقيقه يعرب لي عن أحرّ المودة فعْلَ سواه. ولئن شُغف العم بإتمام الزواج، ولئن رغب فيه ابن الشقيق رغبة عظيمة، ولئن اهتممتُ بإرضاء هذا وذاك، فإن التفاوت بالسنّ واشمئزاز الفتاة قد حملاني على أن أشارك الأم في إحباط الزواج، فلم يُعقَد. ثم تزوج الزعيم قريبته الآنسة ديْلان، وكانت من الخُلق والجمال على ما اشتهى قلبي، فجعلتْ زوجها أسعد قرين وأسعد أب. لكن السيد روان لم يقدر، مع ذلك، أن ينسى كوني عارضتُ رغبته في هذا الصدد. فتعزيتُ إذ أيقنتُ بأني

(1) قال روسو، في أواخر هذا الفصل الثاني عشر، إنه ينوي كتابة جزء ثالث ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

صنعتُ ما كانت أقدسُ الصداقة توجبه عليّ للسيد روان ولأُسرته على حد سواء، فما أَقدَسُ الصداقة أن نلاطف على كل حال، وإنما هي أن ننصح بما هو لخير الأحوال.

ولم يطل زمنُ شكّي في لون الترحيب الذي ينتظرني بجنيف إذا تمنيتُ العودة إليها. فلقد أُحرقَ فيها كتابي وأُصدرَ الأمر باعتقالي في العاشر من حزيران، أي بعد ما أُصدرَ في باريس بتسعة أيام. فشُحنَ هذا الأمر الثاني شحناً بالغ السخافة، كثيرها، ونُقضَ به القانون الكنسي(2) نقضاً صريحاً فاضحاً، حتى إني أَبَيتُ أن أصدّق الأنباء الأولى التي وردتْ عليّ في هذا الشأن. فلما أُكّدتْ لي حقّاً، تخوفتُ من أن مخالفة الشرائع مثل هذه المخالفة العلنية، الجمّة، المثيرة، وفي مقدّمتها شريعة سلامة الرأي، تخوفتُ من أن هذه المخالفة تقلب جنيف رأساً على عقب فتُلقيها في شرّ فوضى. ولكنْ حدثَ ما اطمأننتُ معه إذ لم يحدث شيء. ولئن أُشيعَ في سواد الأهلين بعضُ الأخبار، فهي لم تطعن إلاّ عليّ، لأن جميع المثرثرين المُهذرين والمدّعين الغلاظ المضحكين قد وصفوني علانيةً يقولون إنني شبهُ تلميذ هُدّدَ بالسوط إذ لم يُحسن تلاوة درسه في التعليم المسيحي.

وكان ذانك الأمران باعتقالي نذيرَ صيحة الشؤم وقد علت في أوروبا كلها فشَنّتْ عليّ حملةً لم يكن لعنفها قط من مثيل. فهبّت كل الصحف والمجلات والمنشورات تضرب ناقوس الخطر الأشدّ. وهكذا إذا بالفرنسيين على الأخص ـ هذا الشعب العظيم الرفق والتهذيب والسماح، العظيم التبجح برعايته للتعساء وبحُسن معاملته لهم، ـ إذا بهم قد غفلوا عن مزاياهم المفضَّلة فرموني بالمقذعات وتباروا في ما كانوا يفعلون. فأَصبحتُ كافراً ملحداً وهائجاً مغضباً،

(2) أي القانون الكنسي الذي أُصدرَ عام 1568 ـ المترجم.

وأصبحتُ وحشاً ضارياً، وأصبحتُ ذئباً. فكتبَ من كان يواصل إصدار «**جورنال دو تريفو**»[3] يقول في ذآبتي[4] مقالاً شطَّ عن الرشد والتأدب والأخلاق فدلّ على ما بالرجل من ذآبة. ولقد أمكن القول إنك لو نشرتَ في باريس مؤلَّفاً ما ـ كائناً ما كان موضوعه ـ فلم تلذعني ببعض الشتائم، لخشيتَ أن تَلقى في الشرطة عسراً. فلما أخذتُ أفتش أن في مَ هذا الإجماع على بغضي فذهب تفتيشي في غير طائل، كدتُ أحسب الناس كافة قد مسّهم الجنون. ماذا؟ أمنشئ «**السلم الدائم**» ينفث الشقاق؟ أوَ يكون كاتب «**الكاهن السافواوي**» كافرا؟ أوَيكون مؤلّف «**إيلوييز الجديدة**» ذئبا من الذئاب؟ أوَ يكون صاحبُ **إميل** هائجاً مسعوراً؟ عجباً والله! ما الذي كنتُ سأمسي فيه لو كنت من نشر كتاب «**في الفكر**»[5]، أو كتاباً آخر شبيهاً به؟ ولكن لمّا هبّت العاصفة على صاحب «**في الذهن**»، لم ينضّم الجمهور إلى مضطهدي المؤلّف، بل انتقم له منهم بما أثنى به عليه. فقابلْ كتابه بكتبي، والترحيب الذي لقيه كتابه قابلْه بالترحيب الذي لقيتْه مؤلَّفاتي، والمعاملة التي عومل بها أحدنا، في مختلف دول أوروبا، قابلْها بتلك التي عومل بها الآخر هناك، ثم فتشْ عن أسباب لهذا التفاوت تفحمُ امرأً سليم الرأي: ذلك هو كل ما أَسأل فأَسكت.

ولقد طاب لي المقام في إيفردون حتى عزمتُ أن أبقى فيها بعد ما أَلحّ عليّ السيد روان وأسرته جميعاً. وحضّني السيد دو مواري دو

---

(3) **جورنال دو تريفو** (*Journal de Trévoux*)، أي **صحيفة تريفو** صحيفة انتقادية أدبية أصدرها الآباء اليسوعيون في مدينة تريفو لمحاربة مدرسة الفلاسفة، واستمر إصدار الصحيفة من عام 1701 إلى عام 1775 ـ المترجم.

(4) الذآبة (Lycanthropie) لوثةٌ توهم من تمسّه أنه ذئب ـ المترجم.

(5) **في الفكر** (*De L'esprit*) كتاب للفيلسوف الفرنسي هلفيسيوس (1715-1771) وهو من أتباع جون لوك. ولقد قاوم روسو مذهب هلفيسيوس ومداره أن المنفعة أساس الأخلاق. وأحرق كتابُ **في الفكر** عام 1758 ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

جينجين، قاضي المدينة، على أن أظل في ولايته، وذلك لمَا أعربَ لي عنه من آيات اللطف والمعروف. ولم ينفكّ الضابط الزعيم يُلحف عليّ أن أرتضي الإقامة بجناحٍ من بيته صغير يقع بين الساحة والحديقة، حتى وافقتُ. فخفّ من ساعته يؤثث الجانح ويضع فيه كل ما يحتاج إليه مسكني اليسير. وكان البانّوريه روان[6] من أشدّ الناس حفاوةً بي ليس يفارقني طول النهار. فأثّرتْ فيّ ألوان تلك الملاطفة البالغة، بيد أنها أزعجتْني بعضَ الأحيان. وكان انتقالي إلى المسكن قد حُدّد يومه، فكتبتُ إلى تيريز أن توافيني إليه، فإذا بي أعلم أنه قد أخذتْ تهبّ عليّ في برن عاصفةٌ نُسبتْ إلى الأتقياء ولم يسعني قط أن أكشف منشأَ سببها. فهاج عليّ مجلسُ الشيوخ هناك، ولم يُدرَ لمَ هاج، فكأنه أبى أن يدَعني مطمئناً في عزلتي. فلما اتصل بالقاضي أولُ نبأ ذاك الهياج، كتب من أجلي إلى عدة أعضاء في الحكومة يلومهم على تعصبهم الأعمى ويعيّرهم بأنهم عمدوا إلى امرئ كفْؤ، مضطهَد، يمنعونه أن يفزع إلى ولاياتهم وقد لجأ إليها كثير من اللصوص. فخمَّن بعضُ ذوي الرأي السليم أن شدّة لومه زادت الخواطر هياجاً أضعافَ ما سكّنتْها. وكائناً ما كان الشيء، لم يقوَ نفوذ القاضي ولا بلاغته على وقايتي من الضربة. وكان الأمر، الذي وجب على القاضي أن يُبلغني إياه، قد اتصل به قبلما أُنهي إليه، فنبّهني عليه سلفاً، فاعتزمتُ الرحيل من غدي لستُ أنتظر وصول الأمر. وكانت الصعوبة هي إلى أين أصير بعد ما رأيتُ جنيف وفرنسا قد أُقفلتا بوجهي وبعد ما توقّعتُ، في هذه القضية، أن يُسرع كلٌ يحذو حذو جاره.

---

(6) هو من أنسباء السيد روجان. أما لفظة بانوريه (Banneret) فهي، في الأساس، لقب عسكريّ، ثم تطورتْ فأصبحتْ تؤدّي، على عهد روسو، معنى بعض الوظائف في إدارة بلاد فو ـ المترجم.

فعرضتْ عليّ مدام بوا دو لاتور أن أذهب إلى بيت لابنها ليس به أحد، إلاّ أنه تام الأثاث، وهو في قرية موتييه، في فال دو ترافير، من كونتيّة نوشاتيل، فأقيم فيه. ولم يكن ينبغي لي إلا أن أقطع أحد الجبال فأصل إلى هناك. فلاءمني هذا العرض جد الملاءمة، ولا سيما أنني إذا كنتُ في ولايات ملك بروسيا، نجوتُ من الاضطهادات فلم يكد يمكن الاحتجاج بالدين على الأقل. ولكن هجستْ في نفسي مَصعبةٌ خفيّة لم يوافقني ذكرُها فحملتْني على التردد. وتلك أني جُبلتُ على الكلف بالإنصاف كلفاً قد التهم فؤادي على الدوام، وملتُ إلى فرنسا ميلاً مكتوماً، وشعرتُ بالكره لملك بروسيا إذ لاح لي من مبادئه أنه قد امتهن كل حرمة لسنّة الطبيعة وازدرى الفروض الإنسانية جميعاً. وكان عندي، بين الرسوم المائية التي جعلتُها في أُطر فزينتُ بها برج مسكني في مونمورانسي، صورةٌ لهذا الأمير تحتها بيتان من الشعر هذي خاتمتهما:

«إنه يفكر تفكير فيلسوف، ويسلك سلوك ملك».

ولو لم يكن هذا البيت من قلمي، لانطوى على مدحة جزيلة؛ لكن قلمي أدى به معنًى لا مدحة فيه إذ فسره البيتُ السابق تفسيراً جاوز حدَّ الوضوح[7] ولقد أبصر هذين البيتين جميعُ الذين أتوا لزيارتي هناك، وكان عددهم غير قليل[8] حتى إن الشوفالييه دو لورنزي قد نسخهما فأعطاهما لدالامبير، فلم أشكّ أن دالامبير قد حرص على التغزل بي بين يدي الأمير تزلفاً إليه. وكنتُ قد أنشأتُ،

---

(7) أما البيت السابق فهو: «المجد والمنفعة، هذا ربّه، وهذي شريعته» ـ المترجم.

(8) يقول موسيّه باتّيه (Musset - Pathay)، وهو من المختصين بروسو، إن بيتَي الشعر قد خُطأ على ظهر الصورة لا تحتها، وفي هذا القول ما فيه من الإشارة إلى غلوّ روسو في **«الاعترافات»** بعض الأحيان ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

في «**كتاب إميل**»، فقرةً ضاعفتْ ذنبي كثيراً لأنني ذكرتُ فيها أدراستوس ملك الدونيين فتبيَّن مَن قصدتُ من وراء هذا الاسم، فلم يخفَ على المنتقدين أن يلاحظوا قصدي إذ إن مدام دو بوفلير أخبرتْني بذلك مراراً. فأيقنتُ أن اسمي قد خُطّ بالحبر الأحمر في سجلات ملك بروسيا. ثم لو افترضتُ أن ملك بروسيا كان على المبادئ التي اجترأتُ أن أعزوها إليها، فحينئذٍ ما كانت كتبي ومؤلّفها إلاّ لتُسخطه: وهو معلوم أن الأشرار والمستبدين قد أبغضوني أشدّ البغض لا لسبب إلاّ لكونهم قرأوا مؤلَّفاتي ولو لم يعرفوني.

ولكني، مع ذلك، تجاسرتُ على أن أضع نفسي تحت رحمة ملك بروسيا، فحسبتُني لا أخاطر إلا باليسير. وكنتُ أعرف أن الأهواء الدنيئة لا تستأثر إلاّ بالضعفاء وأنها ضئيلة التأثير في النفوس القوية الشكيمة. وكنتُ أعرف أن الأمير قويّ الشكيمة في كل حال. فقدّرتُ أن من فنّ الحُكم عنده أن يبدي، في هذه المناسبة، حلماً وسموَّ أخلاق، وقدّرتُ أن الأمر ليس، في الحقيقة، فوق سجيّته. وحسبتُ أن الانتقام مني انتقاماً هيناً خسيساً لن يكون البتة عند ملك بروسيا أَرجح كفّةً من حبّه للمجد. ثم وضعتُ نفسي في موضعه فخلتُه ربما انتهز تلك المناسبة لكي يطوّق بكرمه الرجلَ الذي اجترأ على سوء الرأي فيه. فكنتُ بسبيل الإقامة في موتييه وأنا من الأمير على ثقة اعتبرتُه قد جُبل على إدراك قيمتها، فقلتُ في نفسي: «أيكون فردريك دون قائد الفولسكيين، وجان جاك قد ارتفع إلى جوار كوريولانوس؟»(9)

فأصرّ الضابط الزعيم روان على أن يصحبني حين قطعتُ الجبل

---

(9) كوريولانوس قائد روماني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ونفي عن روما فاستقبله عدوّه قائد الفولسكيين وهم شعب من شعوب إيطالية القديمة ـ المترجم.

إلى موتييه فيأتيَها ليُقرَّني هناك. وكانت للسيدة بوا دو لاتور ابنةُ حمي تدعى السيدة جيراردييه، قد أراحها المنزل الذي كنتُ بسبيل السكن فيه فلم يسرّها أن تراني قد وصلتُ إليه؛ بيد أنها سلّمتْنيه عن طيبة خاطر، فجعلتُ آكل عندها ريثما وصلتْ تيريز فانتظم أمر سكني البسيط.

وكنتُ قد أدركتُ، منذ ارتحلتُ عن مونمورانسي، أني لن أبرح في الأرض مطرَّداً، مشرَّداً، فترددتُ في الإذن لتيريز أن توافيني إلى موتييه تشاركني في عيش التيه الذي ألفيتُني قد حُكم عليّ به. وشعرتُ بأن علاقاتنا ستغيّرها تلك الكارثة وبأن ما كان، إلى ذلك الحين، فضلاً مني ومعروفاً، سيغدو، مذ ذلك الحين، فضلاً من تيريز ومعروفاً. فإن يكن تعلُّقها بي يثبت على ابتلائها ما قد أصابني، تمزّقتْ فزادني ألمُها إيلاماً. وإن يكن ما أصابني يفتّر قلبَها، وجدتُها قد ثبتتْ عن تضحية منها فلم أستطْيب أن أقاسمها آخر كسرة من خبزي ولم تشعر هي إلاّ بفضل أن تتبعني حيثما اضطرني القدَر أن أتوجّه.

ثم ينبغي أن أذكر كل شيء: فأنا لم أستر عيوب ماماي المسكينة ولا سترتُ عيوبي؛ فيجب ألا أكون أكثر عفواً عن تيريز. ومهما يحلُ لي أن أُكرم شخصاً عزيزاً، فلستُ أريد كتمان ذنوبه، هذا إن كان تبدُّلُ المشاعر هو، في الحقّ، ذنباً. وكنتُ قد أدركتُ، منذ وقت بعيد أن تيريز أخذتْ تفتر مشاعرُها، فأحسستُ أنها لم تبق مَني على ما كانت عليه في سنواتنا العذبة الجميلة. ولقد كنتُ أَشَدَّ إحساساً بذلك، لأني بقيتُ من تيريز على ما أَقمتُ عليه في كل حال. فوقعتُ في الارتباك عينه الذي تقدَّمَ لي أن شعرتُ بتأثيره وأنا عند ماما، فظلَّ هذا التأثير هو إياه وأنا مع تيريز: فعلينا ألاّ نطلب الكمال خارج الطبيعة، فإنما التأثير هو هو أيّاً كانت المرأة. ولئن

twitter @baghdad_library

وجدتُ أن ما قرَّرتُه في شأن أولادي هو قرارٌ معلَّلُ الأسباب، فإنّ قلبي لم يطمئن إليه على الدوام. فلما جعلتُ أتأمل في كتابي «**رسالة في التربية**» [**إميل**]، أدركتُ أنني أهملتُ واجبات لم يُعفني منها شيء. ثم تضاعفتْ عليّ الندامة حتى كادت تنتزع مني إقراراً بذنبي علنياً أوردتُه في مبتدأ «**كتاب إميل**»، وكان مقالي ثمة واضحاً لا لبس فيه، حتى إن جرأة بعضهم على لومي عليه إنما هي أمرٌ عجب. وكانت حالتي يومئذٍ لا تغيُّر فيها، بل إن ما لقيتُه من بعض الأعداء قد زادني سوءاً وهم الذين لم يتوخوا إلا أن ينهالوا عليّ تلويماً وتجريحاً. فخفتُ أن يتكرر ذنبي فلم أشأ المخاطرة فألزمتُ نفسي بالامتناع وقد آثرتُه على أن أعرّض تيريز لمثْل ما كانت قد مرّت به من هذا القبيل. ثم إني لاحظتُ أن مجامعة النسوان تزيد بدني وهناً؛ فعزمتُ على ما ربما كنتُ لم أَف به في بعض الأحيان. إلا أني بتُّ، من ثلاث سنوات أو أربع، وأنا أَوفر ثباتاً على هذا الذي عزمتُ. وكنتُ قد لحظتُ، مذ تلك السنوات أيضاً، أن تيريز أصبحتْ مني على فتور وقد تعلّقتْ بي قياماً بواجب، لا عن حب؛ فكان لا بد أن تبرد علاقتنا ولذّاتنا. وخيّل إليّ أن تيريز ربما فضّلت البقاء في باريس، إذ أيقنتْ أني لن أفتأ مهتماً بها حيث أقامت. غير أنها، لما افترقنا، أظهرتْ بالغ حزن وأصرت على أن أَعدها بأنها ستوافيني، وما برحتْ، منذ ارتحلتُ، تبدي رغبتها في أن تلحق بي وتفصح عنها للأمير السيد دو كونتي وللسيد دو لوكسمبورغ على السواء، حتى لم أتجاسر قط أن أكلّمها في أن ننفصل، بل كدتُ، أنا نفسي، لا أتجاسر أن أكلّم نفسي على الانفصال. فعدتُ لا أفكر إلا في أن أستحضر تيريز من دون إبطاء وقد شعرتُ حقَّ الشعور بمبلغ ما يتعذّر عليّ الاستغناء عنها. فكتبتُ إليها بالقدوم، فجاءت، وافتراقُنا لم يكد يمضي عليه شهران، بيد أن ذاك أولُ افتراق لنا منذ سنين طوال، فكلانا أَحسَّ به إحساساً شديد الإيلام. وكم تأثرنا حين تَعانقنا! وما

أعذب دموع الحنان والفرح! ولكم يرتوي منها الجنان! فلمَ لم يحملني الناس على أن أذرف غير القليل القليل من هاتيك الدموع؟

وكنتُ، لمّا وصلتُ إلى موتييه، قد كتبتُ إلى ميلورد كيث، مارشال سكوتلندة وحاكم نوشاتيل، أُنبئه بأني قد صرتُ في ولايات صاحب الجلالة وألتمس حمايته. فأجابني بما أُثرَ عنه من كرم قد توقّعتُه. ودعاني لزيارته، فذهبتُ إليه مع مارتينيه مدير ناحية فال دو ترافير، وكان جمَّ الحظوة لدى سعادة الحاكم. فتأثرتُ جداً ساعةَ وقعتْ عيني على ذلك السكوتلندي الجليل الهيئة، الشهير، الفضيل؛ فعلى الفور نشأتْ بيننا تلك المودة التي بقيتْ، عندي، هي إياها على الأيام؛ ولولا أن الخونة، الذين سلبوني كل سلوى في الحياة، انتهزوا فرصة إبعادي فخدعوا شيخوخة الحاكم يشوّهون سمعتي لديه، لبقيتْ مودته لي على ما كانت عليه من قبْل.

وكان جورج كيث، مارشال سكوتلندة وارثة وشقيق القائد كيث المشهور الذي سار في حياته سيرة المجد ورقد في مماته رقدة الشرف، ـ كان جورج كيث قد هجر بلاده وهو في الشباب إذ نُفي عنها لتعلّقه بآل ستيوارت. فما لبث أن كرههم لما رأى فيهم من روح جور واستبداد هما السجية التي غلبتْ عليهم أبداً. فأقام بإسبانيا ردحاً من الزمن وقد استطيب مناخها، ثم انتهى أن التحق وشقيقه بملك بروسيا العليم بالرجال، فاستقبلهما بما يستحقّان. فوفّياه حُسنَ استقباله، إذ أدى له المارشال كيث خدمات عظيمة وإذ أخلص له ميلورد المارشال صداقةً، ولَهذي أغلى من تلك ولا ريب. وكان ميلورد المارشال، الرجلُ الكبير، الأبيُّ النفس، الجمهوريُّ الروح، لا ينحني إلاّ لنير الصداقة؛ لكنه قد انحنى لنيرها حتى بات، منذ التحق بفردريك، لا يرى أحداً سواه، وإن كان هذا على مبادئ تُغاير طبع ميلورد المارشال. فعهد إليه الملك في مهام خطيرة، وأوفده إلى

twitter @baghdad_library

باريس وإسبانيا، فلما ألفاه قد تقدمت سنُّه فأحتاج إلى الراحة، أولاه نوشاتيل متقاعَداً له وشاغلاً مستحبّاً، فيقضي فيها بقية عمره يُسعد شعبَها الصغير.

ثم إن أهل نوشاتيل لا يحبّون إلاّ المظهر البرّاق والخلاّب، ولا خبرة لهم بالجوهر الحقّ الأصيل، وهم ينشرون ألمعيتهم في مسهَب العبارات. فلما وجدوا رجلاً هادئاً متحفظاً في غير تكلف، ظنوا بساطته شموخاً، وصراحته خشونة، وإيجازه حمقاً، فثاروا على حُسن عنايته بهم وقد ابتغى إفادتهم، لا تملُّقهم، فلم يدر كيف يمتدح مَن لا يقدرهم من أولئك الناس. ففي قضية القس بوتيبيار[10] المضحكة، وهو الذي طرده زملاؤه لأنه أبى أن يُكتَب عليهم الهلاكُ الأبدي، عارض ميلورد اعتداءهم ذاك، فهاجت عليه كل البلاد التي كان يحامي عنها. فلما وصلتُ إلى هناك، لم يكن التهامس بتلك القضية قد همدتْ غباوتُه بعد. فنظر القوم إلى ميلورد على أنه رجل يقبل التحذيرَ في الأقل، ولعل هذه التهمة هي، بين التهم التي وجّهتْ إليه، أيسرها حيفاً. فما وقعتْ عيني على هذا الشيخ الوقور حتى أثّر في هزالُ بدنه وقد أَنحلتْه السنون؛ ولكن لما تطلعتُ إلى محياه المنفتح الكريم وقد نبضتْ فيه الحياة، تملّكني احترامٌ خالطه الأمان فغلب عل كل شعور سواه. فدنوتُ منه، فأعربتُ له عن بعض التمنيات أوجزُ غاية الإيجاز، فأجابني يتحدث بشيء آخر وكأن قد مضى عليّ هناك ثمانية أيام؛ حتى إنه لم يُشر إلينا لنقعد. أما مدير الناحية الجامد، فقد ظل واقفاً؛ وأما أنا، فقد قرأتُ، في نظرات ميلورد النافذة، المرهفة، ملاطفةً لستُ أدري ما هي؛ فأحسستُ،

(10) القس بوتيبيار (1722-1790) طرده مجمع القسوس عام 1760 لأنه وعظ يحمل على معتقَد الهلاك الأبدي ـ المترجم.

منذ أول الحال، أني على الراحة والسعة، فاتجهتُ إلى مقعده لم أتكلف فقعدتُ بالقرب منه. فآنسني من فوره، فأدركتُ أن حريتي قد سرّته وأنه قال في نفسه: «ما هذا من أهل نوشاتيل».

فعجباً للطباع إذا تآلفتْ فغدا لها تأثير فريد! فإن هذا الشيخ الطيّب، وقد طعن في السن التي يبرد فيها الشعور، قد شبّ فؤادُه يتلقاني بما أَدهشَ الجميع. ثم إنه جاء يزورني في موتييه وقد احتج بصيد السمانى، فأمضى هناك يومين لم يلمس في خلالهما بندقية قط. ولقد توطدتْ بيننا الصداقة حتى لم يسع أحداً منا، على وجه التدقيق، أن يستغني عن الآخر. وكان ميلورد المارشال يقيم في قصر كولومبييه، على ستة فراسخ من موتييه؛ وكنتُ أَقصده، في الخمسة عشر يوماً، مرة على الأقل واحدة، فأقضي عنده أربعاً وعشرين ساعة، ثم أرجع سائحاً وقد ملك ربُّ القصر على نفسي وقلبي جميعاً. ولا ريب أن شعوري، أيامَ رحلات الإرميتاج وأوبونّ، كان غير هذا الشعور، لكنه ليس دونه رقةً وقد دنوتُ في كولمبييه. فكم من دموع حنان ذرفتُ وأنا بطريقي إلى هناك أفكر في آيات الرفق الأبوي والفضائل العزيزة المستحبّة والحكمة الوادعة اللطيفة التي اجتمعتْ في ذلك الشيخ الجليل! فكنتُ أقول له: «أبي»، وكان يدعوني ولده. فأفصحتْ عذوبة الاسمَين عن تعلّق كلٍّ منا بالآخر بعضَ الإفصاح، بيد أنها لم تزل غير مفصحة عن حاجة كلٍّ منا إلى الآخر وعن رغبتنا في التواصل. فأصرّ هو على أن يسكنني قصر كولومبييه، فبقي ردحاً من الوقت يلحّ عليّ أن أتخذ منزلي في الجناح الذي كنتُ أَحلُّ به هناك. فقلتُ له، آخر الأمر، إنني، مقيماً في بيتي، أوسعُ حريةً وإنني أُوثر التردد إليه في القصر فأزوره ما حييتُ. فاستحسن صراحتي، فلم يُعد عليّ قط هذا الحديث. فيا ميلورد الطيّب! ويا أبي الفاضل الوقور! لكم أتأثّر إلى اليوم إذ أفكر

twitter @baghdad_library

فيك! ويا للقساة! فما أَشدَّ الضربة التي أنزلوها بي وقد سلخوك عني! لا بل كلا ثم كلا، يا أيها الإنسان الكبير! فإنما أنت، عندي، مثلما كنتَ عليه، ولسوف تبقى أنت إياك في نفسي، أنا من يبقى هو إياه على العمر. فلقد خدعوك، إلا أنهم لم يغيّروك.

وبعد، فإن ميلورد المارشال ليس بلا نقيصة؛ فهو حكيم، على أنه بَشَر. ولقد أُوتي أثقبَ نظر، ورُزق أرهفَ ذكاء ممكن وأعمقَ معرفةٍ بالناس. ولكن، مع ذلك، خدعوه في الأحيان، فدهش يكاد لا يصدّق. ثم إن ميلورد يلوح وقد غفل عمن يلقاهم في كل يوم، ثم هو يتذكرهم يومَ هم أبعدُ ما يتوقّعون أن يخطروا في باله، فكأن آيات لطفه ومعروفه تتجلى في غير أوانها. أما هداياه، فهي من وحي ما يحلو له، لا مما يقتضيه الحال؛ وهو يعطي من فوره ما يعنّ له إعطاؤه، أو هو يُرسل به من وقته، ولا فرق عنده نفيسة كانت الهدية أم غير ذات قيمة. ولقد جاءه، مرة، شاب من أهل جنيف وتعرَّف إليه يرغب في أن يلتحق بخدمة ملك بروسيا، فحمّله ميلورد كياساً من الجلبان وعهد إليه أن يرفعه إلى الملك، ولم يحمّله رسالة. فلما تسلّم الملك الهدية الفريدة، استخدم حاملها. فكأن بعض أُولي العبقريات السامية يتفاهمون بلسان لن يفهمه العوامل أبد الدهر. وما كانت تلك الغرائب اليسيرة، التي تشبه نزوة الحسناء، إلاّ لتزيدني ميلاً إلى ميلورد المارشال. فأَيقنتُ أن غرائبه لا تؤثّر في مشاعره ولا في ضروب العناية التي توجبها عليه الصداقة إذا دعا الداعي وجدّ الأمر؛ ولقد بلوتُ ذلك حقّاً في بعض ما يلي. ولكن الواقع أن ميلورد المارشال كان إذا أسدى، أضحى غريبَ الإسداء بقدْر ما أضحى على سلوك فيه عجيب. ولن أُوردَ في كيف يسدي إلاّ نبذة واحدة تدور على شيء تافه. وذلك أن يوم السفر من موتييه إلى كولومبييه كان أَشقّ عليّ من أن أحتمله كله دفعة واحدة، فجرت

عادتي أن أشطره فأذهب من موتييه بعد الغداء فأَبيتُ في برو، وهي بمنتصف الطريق. وكان صاحب النزل الذي أَبيتُ فيه، ويدعى ساندوز، قد ابتغى في برلين خدمةً عنته جداً، فطلب إليّ أن أسأل سعادة الحاكم التماسها له. فرضيتُ عن طيبة خاطر، فاستصحبتُه، حتى إذا وصلنا إلى كولومبييه، أبقيتُ صاحب النزل في حجرة الانتظار، ودخلتُ على ميلورد فكلّمتُه في المسألة، فلم يجب. ومرّ الصباحُ كله. فلما اجتزتُ بالقاعة أريدُ الغداء، رأيتُ ساندوز المسكين ما برح ينتظر وقد ضاق ذرعاً. فحسبتُ أن ميلورد سها فيه، فأَعدتُ عليه المسألة قبلما اتجهنا إلى المائدة؛ فإذا هو على ما سبق. فآلمتْني هذه الطريقة التي عمد إليها ميلورد المارشال كيما يشعرني بأني أزعجتُه، فسكتُّ وأنا أرثي لساندوز المسكين رثياً صامتاً. فلما ارتحلتُ من الغد، فوجئتُ حقّاً إذ شكر لي ساندوز ما أولاه صاحبُ السعادة من حُسن استقبال وما تناول عنده من طيب غداء، وقال لي إن صاحب السعادة قبل عريضتَه، فضلاً عما سلف أجمع. ثم بعث إليه ميلورد، بعد ثلاثة أسابيع، بالردّ الذي التمسه وقد أرسل به الوزير ووقّعه الملك، ذلك وميلورد لم يشأ قط أن يذكر لي ولا لساندوز شيئاً على المسألة ولا أن يجيب عنها بشيء، فظننتُه قد أبى أن يتولاها.

ولقد وددتُ لو أنني لا أَكفّ عن الكلام على جورج كيث؛ فإنما هو مَصدرُ آخر ذكرياتي السعيدة، إذ أمسيتُ، بقيةَ العمر كلها، لستُ إلاّ على شجو والتياع. فإذا خطرت في روعي، اكتأبتُ والتبستْ عليّ أمورها فلم يتهيأ لي أن أُنسّق ما أكتب فاضطررتُ إلي تنسيقه كيفما اتفق وعلى النحو الذي عرض لي.

وما لبثتُ أن زال عني القلق من أمر لجوئي، إذ ورد على ميلورد المارشال جواب الملك ولقيتُ في ميلورد، كما ترى، محامياً

twitter @baghdad_library

مقتدراً يحامي عني. فإن صاحب الجلالة لم يوافقه على ما قد عمله لأجلي فحسب، بل هو، زيادةً على ذلك، ـ ولا بد من ذكر الأشياء كلها، ـ قد عهد إليه في أن يمنحني اثنتي عشرة ليرة ذهباً. فحيال مثل هذه العهدة، ارتبك ميلورد الطيّب لم يدر كيف يضطلع بها اضطلاعاً كريماً، فحاول أن يخفف ما فيها من مهانة فحوَّل الليرات إلى بعض الأمتعة، وقال لي إنه أُمرَ بأن يقدّم إليّ حطباً وفحماً لكي أبدأ بتدبير شؤوني البيتية اليسيرة؛ ثم قال إن الملك قد يبتني لي، عن طيبة خاطر، منزلاً صغيراً إذا شئتُ اختيار موقعه، وربما كان القول الأخير هو من عند ميلورد. فأَثَّر فيّ هذا العرض فأنساني خسّةَ ذاك. ولئن لم أقبلهما كليهما، فلقد نظرتُ إلى فردريك على أنه المحسن إليّ وعلى أنه حاميّ أنا، فتعلّقتُ به تعلّقاً صادقاً حتى غدوتُ جمَّ الاهتمام برفعته ومجده على قدْر ما كنتُ، إلى تلك الساعة، قد وجدتُ انتصاراته ظلماً. فلما عَقد الصلحَ، بُعيدئذٍ، أعربتُ عن ابتهاجي فأزهرتُ زينةً رائعةً إذ جعلتُ على مسكني سلكاً من الرياحين. وكان زهوُ حبّ الثأر قد حداني أن أنفق على هذا المسكن ما كاد يساوي الليرات التي أراد الملك أن يهبها لي. فلما عُقدت الصلحُ، والمَلكُ في ذروة مجده العسكري والسياسي، ظننتُ أنه مشيّد لنفسه مجداً هو من غير هذا الطراز، فينهض بولاياته يعزّز فيها التجارة والزراعة، وينشئ أرضاً جديدة يُقطن بها شعباً جديداً، ويصون السلمَ في كل الجوار، فيبيت حَكَمَ أوروبا بعد ما كان هوْلَها. فلقد قوي على إغماد السيف ولم يخاطر، بل أَيقنَ أنه لن يُلجأ إلى شهره من جديد. فلما ألفيتُه لم يُلق السلاح، خشيتُ ألا يُحسن انتفاعاً بغنائمه وألا يكون إلاّ رجلاً منتقَص العظمة. فاجترأتُ على الكتابة إليه في هذا القصد، وعمدتُ له بالطريقة التي لا تكلُّف بها والتي جُعلتْ لإرضاء من كانوا على جبلته، فتجاسرتُ أن أُسمعه ذلك الصوت المقدّس، صوت الحقّ، الصوت الذي لم يُفطَر على

سماعه غيرُ قلّة ملوك. ولكن لم أُبح لنفسي هذه الحرية في مخاطبته إلاّ وقد كتمتُها بيني وبينه. حتى ميلورد المارشال لم أُشركه فيها، بل بعثتُ إليه برسالتي إلى الملك مختومةً فأَنفذَ بها إلى صاحب الجلالة، فلم يجب عنها قط. ثم شخص ميلورد إلى برلين بعد زمن، فقال له الملك إنني قد أَنّبتُه، ولم يقل في شأن رسالتي غير ذلك. فأدركتُ أنها قد ساءته فعدَّ صراحةَ نخوتي غلظَةَ عالم مدّع. ولعل ذاك هو الواقع، إذ ربما كنتُ لم أذكر في رسالتي ما وجب ذكره ولا جريتُ فيها على الأسلوب الذي وجب أن أجري عليه. لكنني لستُ بمسؤول إلاّ عن الشعور الذي أملى عليّ ما كتبتُ.

فلم يمض على إقامتي في موتييه وترافير سوى القليل حتى اتخذتُ لي أَلبسةً على الشكلِ الأرمني[11] بعد ما حصلتُ على جميع ما أمكن من التأكيد أنني سأبقى هناك بسلام. ولم يكن اتخاذي هذه الألبسة فكرة عندي جديدة، بل هي قد خطرتْ لي مراراً على مراحل العمر، وكثيراً ما عاودتْني في مونمورانسي لأن تكرار معالجتي بالأميال اقتضى أن أَلزم حجرتي في أغلب الأحايين فزادني خبرةً بمنافع اللباس الطويل. ثم إن سهولة الوصول إلى خيّاط من الأرمن، وكثيراً ما أتى مونمورانسي يزور نسيباً له فيها، قد أغرتني بأن أنتهز الفرصة لأتخذ تلك الألبسة الجديدة ولو عرَّضْتُ نفسي للقال والقيل، إذ لم أعبأ بهما إلاّ في النزر. بيد أني، مع ذلك، شاورتُ مدام دو لوكسمبورغ قبلما اتخذتُ زينتي الجديدة، فأشارت عليّ بها حقّاً.

فاستصنعتُ بعض الملابس الأرمنية الشكل، لكن الإعصار، الذي هبّ عليّ، حملني أن أرجئ ارتداءها إلى أيام تكون أوفى

---

(11) أي على الشكل الشرقي القديم ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

سكينةً واطمئناناً. فمضت بضعة أشهر، فانتابني ما ألجأني إلى الأميال مرة أخرى، فحسبتُني أقدرُ على أن أتخذ اللباس الجديد وأنا في موتييه، ولا سيما بعد ما شاورتُ راعي الكنيسة هناك فقال لي إنه يمكنني ارتداء هذا اللباس، ولو في المعبد، فلا أُثير أحداً. فاتخذتُ الجبة والقميص والقلنسوة والزنار. فلما حضرتُ الخدمة الإلهية وأنا في لباسي هذا، لم أجد ما يحول دون أن أرتديه في قصر ميلورد المارشال. حتى إذا أبصرني صاحب السعادة وأنا في تلك الهيئة، هنأني، قال: «السلام عليك»[12] فحسبْ، وانقضى الأمر، فأصبحتُ لا أرتدي غير هذا اللباس.

أما إذ كنتُ قد هجرتُ الأدب هجراً شاملاً، فقد بتُّ لا أفكر إلاّ في أن أحيا حياة الدعة والاطمئنان ما تعلَّقَ بي ذلك. ثم إنني لم أضجر قط إذ أنا وحدي، ولو في أعظم فراغ، فإنما حسْبي مخيّلتي، فهي تشغلني تملأ مني كل فراغ، أما ما لم يسعني احتماله يوماً، فهو الثرثرة البيتية المتوانية، إذ القوم كلٌّ واحد منهم قد قعد بإزاء الآخر ليس يحرّك إلاّ لسانه. وأما إذا مضوا يمشون أو يتنزهون، فقد أمكن احتمال شأنهم لأن أقدامهم ونواظرهم تأتي، في الأقل، شيئاً؛ ولكن أن يظلوا مكتوفي الأذرع يتحدثون بالحال الجويّ الحاضر وبالذباب الطائر، أو أن يكونوا على ما هو أسوأُ أمراً، أعني أن يتمادحوا، فذلك كله عذاب، عندي، لا يطاق. فرأيتُ أن أتعلّم التطريز لئلاّ أعيش عيشة متوحشة. فكنتُ أحمل مخدة التطريز وأنا في زياراتي، أو كنتُ أتجه إلى باب المنزل أطرّز وأحادث السابلة فعْلَ النسوان، فأَحتمل سخافة الثرثرة وأُمضي الوقت عند جاراتي لستُ أتبرم، إذ إن الكثيرات منهن قد كنّ على كفاية لطف وذكاء. فإحداهن، وتدعى

(12) في الأصل: Salamaleki ـ المترجم.

إيزابيل ديفرنوا وهي كريمة المدعي العام في نوشاتيل، وجدتُها خليقة بالقدْر فصادقتُها صداقة خاصة نفعتْها، فأسديتُ إليها من فوائد النصح، وأديتُ لها من ضروب العناية، في المناسبات الجلل، ما لعلها مدينة لي معه برشدها وبزوجها وبسعادتها بعد ما غدت، في يومنا هذا، ربةً لأُسرتها فاضلةً مستحقةً. أما أنا، فإنني مدين لها بألوان من السلوى صافية عذبة، ولا سيما في شتاءٍ حالكٍ وقد برّحتْ بي الأوجاع والأحزان، فكانت إيزابيل تجيئنا، أنا وتيريز، فتُساهرنا الليالي الطوال تعرف كيف تُشعرنا وكأنه قصار، ذلك لحلاوة ذكائها وللذي بيننا من تبادل المشاعر والميول. فكانت تدعوني أباها، وكنتُ أدعوها ابنتي؛ وفي مؤمَّلي أن هذين الاسمين، اللذين ما برحنا نتسامى بهما، لن يفتآ عزيزين إليها بقدْر ما هما، عندي، اسمان عزيزان. ولقد أردتُ أن يكون لمطرَّزاتي بعضُ النفع، فأخذتُ أهديها إلى صديقاتي الشابات لمناسبة زفافهن وذلك بشرط أن يُرضعن أطفالهن. فأصابت مني الشقيقة الكبرى لإيزابيل هدية مطرزّة بعد ما وافقتْ على شرطي، فاستحقّتها؛ وأصابت مني إيزابيل هدية مماثلة، فلم تكن هي في نيتها دون شقيقتها الكبرى استحقاقاً للهدية، بيد أن الحظ لم يسعدها أن تسلك في هذا الوجه كما كانت تود. فلما أَرسلتُ إليهما بالمطرّزتين، كتبتُ إلى كل واحدة منهما رسالة، فكان أن رسالتي إلى الشقيقة الكبرى قد ذاعت في الناس؛ أما إيزابيل، فلم يلائمها مثل تلك الأبّهة لأن الصداقة لا تتوافق هي والدويّ البعيد.

وكان لي، في العلاقات التي أقمتُها بيني وبين جيرتي والتي لن أُفصّل خبرها، علاقةٌ بالضابط الزعيم بوري، وكان له بيت في الجبل، فكان يشخص إلى هناك لقضاء الصيف. فلم أسارع إلى التعرف به، إذ بلغني أنه على سوء علاقة بالبلاط وبميلورد المارشال.

twitter @baghdad_library

ولكن أَقبلَ الزعيم بوري يزورني فأعربَ لي عن فائق لطف وكرم، فوجبتْ عليّ زيارته، فاستمرت علاقاتنا على هذا النحو. وربما تغدينا معاً عنده أو عندي. فتعرفتُ في منزله إلى السيد دو بيرو، فنشأتْ بيننا صداقة حميمة لا يسعني معها أن أسكت عن ذكره.

والسيد دو بيرو أميركي ابن قائد لسورينام[13]. وكان السيد لوشامبرييه، وهو من نوشاتيل، قد خلف ذاك القائد ثم تزوج أرملته. فترملتْ ثانية، فقصدتْ، ومعها ابنها، إلى بلاد زوجها الأخير فأقامت فيها. وكان دو بيرو وحيد أبويه، عظيم الثروة، قد حنتْ عليه أُمه، وأحسنتْ تنشئته فنفعتْه. فحصَّل من متوسط المعارف الشيءَ الكثير، واكتسب بعضَ الميل إلى الفنون، وابتهى بأنه قد ثقَّف عقله على الأخص. فأيّد رأيَه في نفسه هيئتُه الهولندية الباردة المتفلسفة وبشَرتُه السمراء الملوَّحة ومزاجُه المتحفظ السَكوت. ثم إنه ابتُلي بالصمم وبداء النقرس، مع كونه لم يزل في الشباب. فأضحى متزن الحركات، جد رصين. ولئن كان، في الأحيان، ينزع إلى المماحكة حتى الإسهاب، فلقد قلّ، في الإجمال، كلامُه إذ فاته سمعُه. فأثّرتْ فيّ تلك الظواهر جميعاً، فقلتُ في نفسي: «هذا مفكر حكيم تسعدني مصادقته». فأتمّ دو بيرو تأثيره فيّ؛ وكثيراً ما كلّمني فلم يُثن عليّ قط؛ وقليلاً ما حدّثني على نفسه؛ فلم يخلُ من الأفكار حديثُه؛ أما قوله، فلقد جرى كله على صواب كاف. فاجتذبني صوابُه واطّرادُ تفكيره. ثم إنه لم يؤتَ رفعةَ الذكاء الذي عند ميلورد ولا رهافته، بل هو قد رُزق بساطته، فكأنه، في بعض الأوجه، يمثّل صورة ميلورد. وأما أنا فلم أُولَع به، ولكن وددتُه تقديراً له، فما برح تقديري إياه على ازدياد حتى صادقتُه تدريجاً. فسهوتُ كل السهو في الاعتراض

(13) سورينام هي جينية الهولندية ـ المترجم.

الذي كنتُ قد أبديتُه للبارون دولباخ يوم قلتُ له إنه قد أَفرط في الغنى، وأحسبني أخطأتُ في هذا السهو. فلقد تعلّمتُ أن من استمتع بالثروة العظمية، أيّاً كان هو، لم يستطع، ولا ريب، أن يحبّ المبادئ التي هي مبادئي ولا أحب صاحبَها [الذي هو أنا]،.

وبقيتُ زمناً غير يسير لم ألقَ دو بيرو، إذ كنتُ لا أذهب إلى نوشاتيل على الإطلاق وإذ كان لا يأتي جبل الزعيم يوري إلاّ مرة في السنة واحدة. فلمَ كنتُ لا أذهب إلى نوشاتيل؟ إنها قصة صبيانية لا ينبغي كتمانها.

فلئن كنتُ قد صرتُ في حماية ملك بروسيا وميلورد المارشال، ولئن نجوتُ، في أول الأمر، من ضروب الاضطهاد وأنا بملتجإي، فإنني، في الأيسر، لم أنجُ مما تَهامس به الجمهور والقضاة البلديون والقساوسة. وذاك أنه لم يكن في اللائق، بعد ما بادرتْ فرنسا إلى التهييج عليّ، أن لا يثار عليّ بنوشاتيل بعضُ القذع في الأقل، فإن لم يحذُ القومُ هنا حذوَ مضطهديّ هناك، خشوا أن يظهروا وكأن لم يؤيدوهم. فكان أنّ مصفّ نوشاتيل، أي مجمع قساوسة هذه المدينة، بدأ بالتهييج يحاول أن يثير عليّ مجلس الدولة. فلما أخفقتْ محاولته، اتجه القساوسة إلى القاضي البلدي. فأمر بكتابي أن يُمنَع فوراً، ولم يدَع مناسبة إلاّ أهانني فيها، فأومأ يوماً، بل أعلن أنه لو أردتُ الإقامة بالمدينة، لم يطقني أحد. وشحَنَ القساوسة صحيفتهم «**لومركور**»[14] بالسخافات وبأتفه الورع المزيَّف، فسخرتْ منهم العقول الراجحة، لكنهم هيّجوا الشعب وحرضوه عليّ. فلم يحل ذلك ـ بحسب قولهم ـ دون ما ينبغي لي من عرفاني جميلهم وقد عفوا عني أكرمَ عفو إذ أباحوا لي الإقامة بموتييه حيث لا سلطة لهم

(14) **لومركور** (*Le Mercure*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أبداً؛ ولو أديتُ ثمناً للهواء فاحشاً، لطاب لهم أن يكيّلوا عليّ الهواء. ولقد ابتغوا أن أكون مديناً لهم بالحماية التي أَذن لي فيها الملك على الرغم منهم والتي ما انفكوا يسعون لينزعوها عني. فلما خاب سعيهم فأَنزلوا بي ما قد وسعهم من الضرر وطعنوا عليّ واستخفّوا بشأني ما استطاعوا، اتخذوا عجزهم عني فضلاً لهم عليّ فامتدحوا إحسانهم إليّ وقد احتملوني في بلدهم. فكان أخلق بي ألا أجيبهم بسوى الهزء منهم؛ بيد أني كنتُ من الحماقة على ما أَغضبني ومن الغباوة على ما أَبيتُ معه الذهاب إلى نوشاتيل. فأقمتُ سنتين على هذا الذي أَبَيتُه وكأني قد خلعتُ على هؤلاء الأنجاس شرفاً هو فوق ما يستحقّون إذ التفتُّ إلى أساليبهم التي لا يمكن عزوها إليهم، حسنة كانت أم سيئة، لأنهم لا يأتون شيئاً إلاّ وقد حرّكهم بعض المحرّضين. أضف أن العقول إذا أقفرتْ من الثقافة والذكاء فلم تحترم إلاّ نفوذَ الكلمة وقوةَ السلطة والمال، لا يداخلها الشعور بأن للمواهب عليها حقّاً وبأن في إذلال المواهب خزية وعار. ثم إن رئيس بلدية إحدى القرى، وكان قد اختلس فعُزل، قال مرة لقاضي فال دو ترافير، زوج صديقتي إيزابيل: «يقال إن روسو، هذا، جمُّ الذكاء؛ فلو تأتوني به فأرى أَحقّاً هو كما يقال؟» ولا ريب أن من استاء فنَبَر مثل هذه النبرة، لم يسئ إلى من عانى من استيائه إلا إساءة طفيفة. فالمعاملة، التي قاسيتُها في باريس وجنيف وبرن والتي قاسيتُها حتى في نوشاتيل، لم أتوقّع بعدها رعايةً أفضل منها قبَل راعي الديار التي حللتُ بها. وكنتُ، مع ذلك، قد وصّت بي إليه السيدة بوا دو لاتور، فرحّب بقدومي ترحيباً حاراً. لكن الملاطفة ليس لها معنًى في هذا البلد الذي يُتملَّق فيه الجميع على السواء. فلما حضرتُ، في كنيسة الإصلاح، اجتماعاً حافلاً، ولما سكنتُ بلداً قد شمله هذا الإصلاح، لم أستطع إلاّ أن أُعلن إيماني بالديانة التي انضممتُ إليها، أو أُقصّرَ في ما تعهدتُ به وفي ما يجب عليّ مواطناً. وإذاً،

فقد حضرتُ الخدمة الإلهية، لكني، من وجهٍ آخر، خشيتُ أن أعرّض نفسي لإهانة الرفض إذا تقدّمتُ إلى المائدة المقدَّسة. ولقد استبعدتُ موافقة الراعي على أن يناولني في كنيسته العشاءَ السرّي، واستبعدتُ ألا تقلقه الضجة التي أثارها عليّ المجلسُ في جنيف ومجمعُ القساوسة في نوشاتيل، فلما وجدتُ المناوَلة (communion) قد اقترب موعدها، كتبتُ إلى السيد دو مونمولان، وهم اسم القسيس، فأكدتُ له حُسن نيتي وأعلنتُه أن قلبي موصول بالكنيسة الإنجيلية. وقلتُ، في الرسالة عينها، إنني لا أبتغي أيّ تفسير كان يختص بالعقيدة تجنباً مني للمماحكة في جوهر الإيمان. فكنتُ، في هذا النحو، على مقتضى الأصول، فلبثتُ هادئاً لستُ أشكّ أن السيد دو مونمولان لن يوافق على قبولي إلا بعد المناقشة الابتدائية التي أَبَيتُها، ولستُ أشكّ أن كل شيء سيؤدي إلى أن يرفضوني في ما لا ذنب عليّ فيه. ولكن لم يحصل ذلك قط. فبينما أنا على أوهى ما يكون انتظاري للسيد دو مونمولان، إذ جاءني فقال إنه يقبلني في المناوَلة (communion) على حسب ما شرطتُ؛ ولم يكتف بهذا، بل قال أيضاً إنه يشرّفه ويشرّف شيوخ كنيسته أن أنضم إلى رعيتهم. فلم أعرف، على العمر، مثل هذه المفاجأة ولا ما هو أوفى عزاءً منها. فأن أحيا، طول الأيام، وحيداً على الأرض: ذلك، عندي، مصيرٌ مظلم كئيب ولا سيما في الملمّات. فذقتُ، وأنا في شدّة المنع والاضطهاد، حلاوةً فائقةً إذ غدا بوسعي القول: «إنني بين أخواني على الأقل». فمضيتُ أتناول وقلبي في تأثّر وعيناي تذرفان رقةً وحناناً. ولعل دموعي أحبُّ تهيئةٍ أَمكنَ رفعُها إلى الله.

ثم بعث إليّ ميلورد، بعد زمن، برسالة من مدام دو بوفلير أُخمّن أنها وردتْ عن طريق دالمبير، وكان يعرف ميلورد المارشال. فكانت أول رسالة كتبتها إلى هذه السيدة منذ ارتحلت عن

twitter @baghdad_library

مونمورانسي. فأنبتني على رسالتي إلى السيد دو مونملان وخصوصا أني تناولت، فلم أدرك لم غضبت ولم أُنبت، ولا سيما أنني كنت، منذ رحلتي إلى جنيف، قد جهرت، على الدوام، بأني إنجيلي وذهبت إلى قصر هولندا[15] علانية فلم يستقبح فعلي أحد. فأضحكني أن الكونتسة السيدة دو بوفلير قد ابتغت أن تتدخل في ضميري توجهه في شأن الدين. ولكن، مع ذلك، ما شككت في نيتها الحسنى وإن لم أفقه منها شيئا، فلم تسؤوني غضبتها، فأجبتها بغير حنق وذكرت لها الأسباب التي حدتني على ما فعلت.

إلا أن شتائم المطبوعات لم يفتأ نشرها مستمراً، وكان كاتبوها المتساهلون الكرام يلومون السلطات على أنها قد لاينتني فوق ما يجوز. ثم هذا النباح المشترك، الذي لم ين محركوه يثيرونه خفية، قد ران عليه ظل شؤم مريع، أما أنا، فتركتهم يتقوّلون لم أقلق. فأكد لي أن ثمة لوماً من السوربون، فلم أصدق قط. فما علاقة السوربون بهذه القضية؟ أأرادت أن تثبت أني غير كاثوليكي وقد علم بذلك الجميع، أم أرادت أن تبرهن أني لست بكالفيني صالح؟ ولكن ما يهم السوربون من هذا القبيل؟ إنها لعناية منها فريدة، إنها لتحصل محل رعاتنا. وكنت محل رعاتنا. وكنت، قبلما أطلعت على المنشور، قد حسبت أنه أذيع بلسان السوربون للسخرية بها، فلما قرأته، ازددت يقيناً بما حسبت، حتى إذا لم يبق بوسعي أن أشك في صحته، آخر الأمر، اقتصرت على القول أنه ينبغي وضع السوربون في مستشفى ليه بوتيت مايزون[16]

(15) الكنيسة الإنجيلية، التابعة لسفارة هولندا (قصر هولندا) في باريس، كان يؤمها الإنجيليون فرنسيين وأجانب ـ المترجم.

(16) ليه بوتيت مايزون مستشفى للأمراض العقلية أنشئ في باريس قديماً ـ المترجم.

ولقد بلغ مني منشور آخر أضعاف ما بلغ مني ذاك المنشور، لأنه أتاني من رجل قدرته على الدوام وأعجبت بثباته في حين رثيت لما به من عمهان: عنيت المنشور الرعوي الذي أصدره رئيس أساقفة باريس يحمل به علي.

فرأيت وجوب الرد عليه. ولكن ما كنت لأستطيع الرد ما لم أتذلل، فكان حالي هذا شبيهاً بحالي وملك بولونيا. ثم إني لا أميل البتة إلى فظاظة الخصام بحسب طريقة فولتير. ولست أجيد إلا المواقعة اللائقة الكريمة، فمن هجم علي سألته ألا يشين ضرباتي فأتنازل بالدفاع عن نفسي. وكنت لا ريبة عندي أن اليسوعيين هم الذين وضعوا المنشور. ولئن باتوا يتقبلون على الشدائد، فلقد عرفت فيه قديم مبدأهم ليسحقوا أهل الشقاء. فأمكنني، إذا، اليسير على مبدأي أكرم الكاتب المستحق واسحق النص المنشور، وذاك ما أخالني قد صنعته فوفقت.

واستطيبت المقام في موتييه فلم يعوزني إلا أن أضمن قوتي لأصمم على أن أقضي بقية العمر هناك. لكن المعيشة في موتييه غالية النفقة، وما سلف من خططي قد انقلب كله بعد إخلاء بيتي وبيع أثاثه أو تبديده، وبعد إنشاء بيت لي جديد، وبعد النفقات التي اضطررت إليها منذ ارتحلت عن مونمورانسي. فأخذ رأس مالي الزهيد يتضاءل يوماً فيوماً، حتى كفى بسنتين، أو ثلاث، فاستهلك فضلته، ولم يكن لدي من وسيلة لأجدده ما لم أعد إلى تأليف الكتب، وهذي صناعة نحس كنت قد عزفت بها.

ولقد اقتنعت أن كل شيء لن يلبث أن يتغير، وأن الجمهور سيرتد عن هيجانه فيخجل السلطات. فلم أسع إلا إلى إطالة مواردي ريثما يحصل ذلك التغير الميمون فيتيح لي أن أختار ما قد يسنح منها. فرجعت إلى كتابي «**معجم الموسيقى**»، وكانت السنوات

twitter @baghdad_library

العشر، التي سلختها في تأليفه، قد سارت به شوطاً بعيداً. فلم يبق إلا أن أختم المؤلف وأبيضه. وكانت كتبي، التي أرسل بها الي منذ قليل، قد مكنتني أن أبدأ بعمل **مذكراتي** وقد أردت التفرغ لها من ذلك الحين، فشرعت أنسخ بعض الرسائل في مجموعة ترشد ذاكرتي إلى مجرى الأحداث وأوقاتها. وكنت قد تخيرت الرسائل التي ابتغيت تذكرها لهذا الغرض، ولم أنقطع عن ذلك من زهاء عشر سنوات. وإني لأنظم تلك الرسائل كيما أنسخها. إذ وقعت على ثغرة أدهشتني، وقد تناولت ما يناهز ستة أشهر، منذ تشرين الأول 1756 إلى آذار في العام التالي. فتذكرت تمام التذكر أنني لما تحيّزت الرسائل، جعلت بينها عدداً من رسائل ديدرو ودوليتير والسيدة ديبينايو، السيدة دو شونونسو. إلخ، وهي الرسائل التي تملأ تلك الثغرة والتي فقدت من المجموعة. فأين أصبحت؟ وهل وضع أحد يده على أوراقي من خلال بضعة الأشهر التي أبقيت فيها الأوراق في قصر لوكسمبورغ؟ إن ذلك لا يصدق، فلقد أبصرت السيد المارشال يتناول مفتاح الحجرة التي وضعت فيها الأوراق، أما وعدّة رسائل نساء ورسائل ديدرو كلها قد خلت من تاريخ واضطررت إلى تأريخها أعتمد على حافظتي، وأخذت أتلمس طريقي لكي أنظم تلك الرسائل على حسب تاريخها، فقد ظننت، بادئ بدء، أنني أخطأت في التأريخ، فمررت بجميع الرسائل التي خلت منه أو التي أرختها عوضاً عنه لعلي أهتدي إلى الرسائل التي تملأ الثغرة. فأخفقت محاولتي، فلمست الثغرة حقاً وأيقنت أن الرسائل قد سرقت. فمن سرقها، ولم فعل؟ ذلك ما قد جاوز علمي. ولم تكن لتعني أحداً وقد سبقت منازعاتي الشديدة واتصلت بأول عهد نشوتي من رواية «**جولي**». وتلك الرسائل هي، في الأكثر، بعض المزعجات قد خطها ديدرو، وبعض التهكمات قد أطلقها دولير، ودلائل صداقة قد أعربت عنها السيدة دو شونونسو بل حتى السيدة ديبيناي التي كنت

منها، يومئذ، على أحسن علاقة. فمن ذا الذي تهمه تلك الرسائل؟ وما القصد بأخذها؟ إن قصد هذي السرقة، قصدها الرهيب، ما شككت فيه إلا بعد سبع سنوات.

ثم إن هذا النقص الجليّ، الملموس، قد حملني على أن أفتش بين مسوّدات أوراقي، إذ ربما اكتشفتُ فيها نقصاً آخر. فوجدتُ أن بعض الرسائل فُقدتْ، فقدَّرتُ، وأنا على ما أنا عليه من ضعف الذاكرة، أن رسائل أخرى فُقدتْ بين أوراقي الكثيرة. أما ما لاحظتُ فقدانه، فمسوّدة كتاب «**الأخلاق الحسَّاسّة**» ومسوّدة المقتطف من «**مغامَرات ميلورد إدوارد**». وإني أُقرّ بأن هذه المسوّدة الأخيرة قد شكّكتْني في مدام دو لوكسمبورغ، لأن خادمها لاروش هو الذي أرسل إليّ بأوراقي، ولم أتصوّر أن في الدنيا شخصاً غير مدام دو لوكسمبورغ تهمّه تلك المسوّدة التي لا شأن لها. ولكن في ما تعنيها المسوّدةُ الأخرى والرسائلُ المسروقة التي إن ابتغى أحد أن يستخدمها ليضرّني، تعذّرتْ عليه مضرّتي، ولو ساءت نيّته، ما لم يزوّر الأوراق؟ أما السيد المارشال، وقد عرفتُ ثباتَ استقامته وصدْق صداقته، فلم يسعني الشك فيه طرفَة عين. حتى السيدة قرينة المارشال لم أستطع أن ألقي عليها التهمة. فكان أَرجح ما خطر لي من الأمور المعقولة، بعد ما دأبتُ أتحرى عن مرتكب السرقة، هو أن أعزوها إلى دالامبير وقد اندسّ في بيت مدام دو لوكسمبورغ فتسنى له أن يفتش في أوراقي فيأخذ منها كل ما راقه من مخطوطات ورسائل، وذلك إما سعياً لإقلاقي وإما ليستولي على ما قد يوافقه. وخمّنتُ أنه أساءَ فهماً لعنوان «**الأخلاق الحسَّاسة**» فظنَّ أنه وقع على مخططٍ حقيقي لمبحث في المادية فيستخرج منه ما به يحمل عليّ كما يمكن للمرء أن يتخيله حقاً. أما وقد أيقنتُ أن دالامبير ما أن ينظر في المسوّدة حتى يرتدّ عن سوء فهمه؛ أما وقد صمّمتُ على أن أهجر الأدب بتمامه وكماله، فقد كدتُ لا أبالي بتلك الاختلاسات

twitter @baghdad_library

التي ليست أول ما اقترفتْه اليد نفسها(*) والتي كنتُ قد كابدتُ غيرها فلم أتظلّم. فما لبثتُ إلاّ يسيراً حتى غدوتُ لا أفكر في هذه السرقة كأنما لم يُختلَس لي شيء. وقمتُ أجمع المواد التي أُبقيتْ لي أريد أن أضع **اعترافاتي**.

وظللتُ، ردحاً من الزمن، أحسب أن مجمع القساوسة في جنيف، أو رعاياها البورجوازيون، في الأقل، سيعترضون على مخالفة القانون الكنسي في الأمر الذي أُصدرَ عليّ. إلاّ أن كل شيء بقي ساكناً، خارج جنيف في الأقل؛ أما جنيف، فلقد عمَّها الاستياء فلم يتحيَّن إلاّ الفرصة ليتفجر. فكتب إليّ أصدقائي هناك، أو من تسمّوا هكذا، الرسائل في إثر الرسائل يحضّوني على القدوم فأسير في طليعتهم ويؤكدون لي أن المجلس سيعيضني علانية. لكني خفتُ أن أثير الفوضى والاضطراب إن أنا حضرتُ؛ فلذلك لم أنزل على إلحاحهم، فأَوفيتُ بالعهد الذي أخذتُه على نفسي في ما مضى وهو أن لا أتدخل في أي انشقاق أهليّ يصدّع بلادي. فلأن أدَع المهانة عليّ فأنتفي إلى الأبد عن وطني: ذلك آثرُ لديّ من الرجوع إليه وقد توسلتُ بالعنف والأخطار. ولا يخفى أني كنتُ أنتظر أن تعترض البورجوازية على تلك المخالفة للقانون اعتراضاً شرعياً هادئاً، وقد عناها أمر المخالفة. بيد أنها لم تعترض عليها قط، لأن قواد البورجوازية لم يبتغوا تقويم الاعوجاج بقدْر ما ارتقبوا السانحة التي يُحتاج إليهم فيها. فجعلوا يدسّون، ولكن على السكت. أما ألسنة الثرثرة

(*) وقعتُ، في كتاب دالامبير **مبادئ الموسيقى**(أ)، على جمّة أشياء استُخرجت مما كنتُ قد كتبتُه في هذا الفن لأَجْل الأنسيكلوبيدية ومما كان قد سُلّم إلى دالامبير قبلما نُشر كتابه **المبادئ** بعدة سنوات. ولستُ أدري ما نصيبُ دالامبير من مؤلَّف عنوانه: **معجم الفنون الجميلة**(ب)، بيد أني وقعتُ، في هذا المؤلَّف، على ما قد نُقل عن مقالاتي حرفًا حرفًا قبلما نُشرتْ في الأنسيكلوبيدية بزمن طويل.

(أ) **مبادئ الموسيقى** (*Eléments de musique*) ـ المترجم.

(ب) **معجم الفنون الجميلة** (*Le Dictionnaire des beaux - arts*) ـ المترجم.

والهذر، أو تلك التي زُعمتْ هكذا، فلقد تركوها تنمّ، وأطلقها المجلس في المقدّمة ليكرّهني إلى الأهلين فيعزو غلوَّهم إلى الغيرة الدينية.

ولقد مكثتُ ما يربو على سنتين أرتقب أن يعترض أحد على ذلك الإجراء الذي خالف القانون، فذهب ارتقابي في غير طائل. فاعتزمتُ ما عزمت عليه آخرَ الشأن، إذ وجدتُ بني وطني وقد تخلّوا عني، فصحَّ رأيي أن أتخلى عن وطني وقد أَنكرَ ما أسديتُ إليه فلم ألقَ به خيراً ولا معروفاً، بل أجمعَ قومي فيه على الإساءة إليّ جزاءَ محاوَلتي أن أردّ على وطني العزة والمجد، وذلك أن من قد وجب عليهم القول لم ينبسوا بشيء. فكتبتُ إلى رأس وكلاء المجلس لتلك السنة، وهو السيد فافر على ما أظن، رسالة تنزّلتُ بها عن حقّي البرجوازيّ تنزّلاً شرعياً، وجريتُ فيها على نفَس من الأدب والاعتدال قد أَشعتُه في جميع الأعمال الأبية التي انتزعتْها مني قسوةُ أعدائي اذ تقسّمتْني المحنُ والأرزاء.

ففتّح مسعاي عيون المواطنين، آخر الأمر، فأدركوا أنهم أضرّوا مصالحهم إذ لم يحاموا عني، فهبّوا يحامون ولكن بعد فوات الأوان. وتحصّلتْ عندهم شكاوى أخرى ضمّوها إلى دفاعهم واتخذوها موضوع سلسلة من البيانات المتينة الحجّة. وكانوا كلما رفض المجلس بياناتهم وردّ عليها رداً قاسياً، تضاعفَ شعورُهم بالخطة التي بُيّتتْ لاستعبادهم فازدادوا استرسالاً في بياناتهم وتأييداً لها. ولقد قامت وزارة فرنسا تدعم المجلس في هذا السبيل. فصدرتْ عن تلك المناقشات العنيفة عدّةُ منشورات لم تحسم شيئاً من القضية، إلى أن أُذيع فجأةً **«رسائل كُتبتْ من الريف»**[17]، وهو مؤلَّفٌ وُضعَ لنصرة المجلس ببراعةٍ داهيةٍ أَفحمتْ فئةَ المعترضين فغُلبوا على أمرهم زمناً.

---

(17) **رسائل كُتبتْ من الريف** (*Lettres écrites de la campagne*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أما الكتاب، وهو أثرٌ باق ومؤلّفه فذُّ المواهب، فقد وضعه النائب العام ترونشان، أخو ألمعية ومعرفة على عمق تبحّرٍ في شرائع الجمهورية وحُكمها، فـ «سكتت الأرض»[18]

ثم إن المعترضين أفاقوا من وهلتهم، فأنشأوا جواباً تخلصوا فيه تخلصاً أضحى على مرّ الوقت، مقبولاً. بيد أن أنظارهم كلها اتجهتْ إليّ وكأنما أنا هو الرجل الأوحد الذي يقوى أن ينازل مثل ذلك الخصم رجاءَ صرعته والتغلب عليه. وإنني أقرّ بأني كنتُ على رأي مواطنيّ السابقين وقد حرضوني على نجدتهم بقلمي وقالوا إنها لتُحتَم عليّ في هذا الحرج الذي كنتُ الباعثَ عليه. فأقبلت على دحض «**رسائل كُتبتْ من الريف**» بـ «**رسائل كُتبتْ من الجبل**»[19]، وهو عنوان قلّدتُ به العنوان الأول على سبيل التهكم، وضربتُ كثيف الكتمان حول عملي، حتى إنني، لما اجتمعتُ في بلدة تونون إلى رؤساء المعترضين لكي نتباحث في قضاياهم فأطلعوني على مخطط جوابهم، لم أذكر لهم شيئاً يتصل بجوابي، وكنتُ قد فرغتُ منه، وما سكوتي عنه إلاّ خيفةَ أن يحول دون طبعه حائل، إذا انتهى إلى القضاة، أو إلى أعدائي الخصوصيين، أيسرُ نبإٍ عن هذا القبيل. بيد أني لم أحاذر أن يُعرَف الكتاب في فرنسا قبل نشْره؛ فتركوه يصدر وقد آثروا صدوره على أن أعلم كيف كشفوا سرّي فوق ما ينبغي لي علمُه. وإني موردٌ ما بلغني عن هذا النحو، وخبرُه جد زهيد؛ وإني ساكت عما ذهبتُ فيه مذهب التخمين.

وكان عدد زواري في موتييه يكاد يساوي عددهم إذ أنا في الإرميتاج أو بمونمورانسي، إلاّ أنهم من فئة أخرى. فالذين زاروني،

---

(18) في الأصل باللاتينية: Siluit terra (**الكتاب المقدّس**، سفر المكابيين 1-1: 3)- المترجم.

(19) **رسائل كُتبتْ من الجبل** (*Lettres écrites de la montage*) ـ المترجم.

إلى ذلك الوقت، وصلتْني بهم مواهب وأذواق وحكَم احتجّوا بها لزيارتي فحدّثوني بموضوعات أمكنني الخوض فيها. أما في موتييه، فلم يبقَ الحال كذلك، ولا سيما حيال القادمين من فرنسا. فكان زواري عندئذٍ من أهل المناصب أو من سواهم ممن لا يميلون البتة إلى الأدب، حتى إن أكثرهم لم يطّلعوا على مؤلَّفاتي. لكنهم، بحسب ما قالوا، لم يتمالكوا أن يقطعوا ثلاثين فرسخاً، أو أربعين، أو ستين، أو مئة فرسخ، ليؤموا الرجل الكبير، الشهير، البعيد الصيت، العظيم الشأن، إلخ. فواجهوني بأوقح ألوان التملّق، وكانوا، إلى تلك الأيام، قد قدروني فأَعفوني منه. ولم يكن جُلُّ الطارئين عليّ ليتنازلوا أن يتلقبوا بأسمائهم ولا أن ينبئوني بأحوالهم، ولم تكن معارفي ومعارفهم لتجري على موضوعات واحدة، ولا كانوا قد قرأوا مؤلَّفاتي ولا مرّوا بها مرّاً عابراً، فلم أَدر بمَ أُحدّثهم. فكنتُ أنتظر أن يبدأوا هم بالكلام، إذ وجب عليهم، هم أنفسهم، أن يدركوا سبب قدومهم إلي فيذكروه لي. وإنك لتشعرُ بأنني لم أستسغ تلك الأحاديث وإن طاب لهم ما ابتغوا أن يقفوا عليه منها. وكنتُ لا أَحذر أحداً، بل أُعلنُ رأيي في كل المسائل التي استنسبوا طرحها عليّ إعلاناً لا تحفّظ فيه، فينصرفون عني وقد علموا، في الأغلب، مثل ما أَعلمه عن أموري إجمالاً وتفصيلاً.

فممن جاءني على هذا النحو السيد دو فايْن، وهو فارس من فرسان الملكة وقائدٌ في سريّتها بكتيبة الخيّالة. فلبث بموتييه عدة أيام يواظب عليّ، حتى إنه تبعني إلى لافريير ماشياً، يقود حصاني وليس بيننا من رابط إلاّ أن كلينا يعرف الآنسة فل وإلا أن كلينا يلعب بكرة القرن. ولقد بلوتُ، من قبْل السيد دو فاين ومن بَعْده، زيارةً أدعى إلى العجب. فأتاني، مرة، رجلان مشياً، كل واحد منهما يقود بغلته وقد حمّلها يسيرَ أمتعته؛ فحلاّ بالنزل، وساسا هما بأنفسهما البغلتين، ثم ابتغيا زيارتي. فلما أبصر الناس أمتعة البغّالَين، ظنوهما

twitter @baghdad_library

من المهرّبين. وسريعاً ما فشا النبأ بأن رجلين من المهربّين قد أقبلا يزوراني. فما أن رأيتُ كيف واجهاني حتى أدركتُ أنهما ليسا من هذه الطينة. ولكن إذ لم يكونا من المهرّبين، فربما كانا من المغامرين، فأبقاني شكّي حذراً بعض الوقت. فما عتّما أن اطمأننتُ إليهما لأن أحدهما كان السيد دو مونتوبان الملقَّب بالكونت دو لاتور دوبان، وهو من أشراف دوفينيه؛ والآخر كان السيد داستييه، من بلدة كاربانتراس، وهو عسكريّ سابق، فتعذَّرَ عليه أن يعرض وسامه، وسام القديس لويس، فطواه في جيبه. والسيدان كلاهما على لطفِ جمٍّ وذكاءٍ وفْرٍ وحديثٍ يجتذب الأسماع. فملتُ إليهما قد سافرا على ذلك الوجه الذي طالما أحببتُه والذي لم يشبه طريقة سفر الأشراف الفرنسيين؛ فلما عاشرتُهما، تضاعَفَ ميلي إليهما فلم ينته تعارفنا عهدئذٍ، بل نحن ما نزال على تواصل، ولقد زاراني مراراً، ولكن أصبحا لا يأتيان مشياً، فإنما هذا كان يصلح في أول الحال. بيد أني كلما لقيتُ هذين السيدين، ازددتُ إحساساً بأن أذواقهما بعيدة عن أذواقي، وبأن الحكَم العملية التي لهما ليست كمثل التي لي، وازددتُ شعوراً بأنهما لم يطّلعا على مؤلّفاتي، وبأنه ليس بيني وبينهما من تعاطفِ حقّ. فما أرادا بي إذاً؟ ولـمَ زاراني وهما على تلك الهيئة؟ ولماذا مكثا عدة أيام؟ ولـمَ كررا القدوم؟ ولـمَ رغبا في استضافتي جد الرغبة؟ يومئذٍ لم أنتبه لتلك الأسئلة فأطرحها على نفسي. أما من ذلك اليوم، فقد بتُّ أُلقيها على نفسي بعض الأحيان.

فأثّر فيّ ما سلّفاني من الود فانقادَ لهما شعوري دون روية. وكان قلبي أوفى انقياداً للسيد داستييه، إذ هو على هيئة أرحب انفتاحاً قد أعجبتْني فوق ما أعجبتْني هيئةُ رفيقه حتى إني ظللتُ أراسله. فلما أردتُ أن أبعث بـ «**رسائل من الجبل**» لأجل الطبع، فكرتُ في الاتجاه إلى السيد داستييه مغالطةً مني لمن كانوا على طريق هولندا يترصدون رزمتي المخطوطة. وكان السيد داستييه قد

كلّمني على حرية الصحافة كلاماً كثيراً، وربما تعمّد ذلك؛ وعرض عليّ خدماته إذا ما كان لديّ شيء أُرسلُ به للطبع، فانتهزتُ عرضه فأخذتُ أرسل [أُبردُ] إليه تباعاً بدفاتري الأُولى. فاحتفظ بها زمناً غير قصير، ثم ردّها عليّ وقال إنه ليس من ناشر البتة يجرؤ على أن يتولاها، فأُكرهتُ على العودة إلى راي، وحرصتُ ألا أَبعث إليه بدفاتري إلاّ دفتراً من بَعْد دفتر، وألا أُرسل بالدفاتر التي تلي ما أكون قد سبق أن أرسلتُ به إليه منها إلا بعد أن ينبئني هو بتسلمه الأولى. وبلغني أنه، قبلما نُشر المؤلَّف، اطُّلعَ عليه في دواوين الوزراء، فكلّمني ديشرني، امرؤٌ من أبناء نوشاتيل، على كتاب عنوانه «**رجل الجبل**» وقد أخبره دولباخ أني أنا مؤلّفه. فأكدتُ له أنني لم أَصنع قط من كتاب يحمل هذا العنوان، فصدقتُ. فلما صدرت «**الرسائل**»، اغتاظ ديشرني فاتهمني بالكذب، وإن كنتُ لم أقل له إلاّ صدقاً. وهكذا أيقنتُ أن مخطوطي قد عُلم خبرُه. أما أمانة راي، فقد أُلجئتُ إلى تقديرها في غير هذا الموضع، فكان أشدّ أمر آثرتُ أن أتوقف عنده منها هو أن رزمي قد فُتحتْ في البريد.

وتعرَّفتُ بشخص آخر، يومئذٍ في وجه التقريب؛ لكن تعارُفنا اقتصر، أولَ الشيء، على التراسل. أما الشخص، فاسمه السيد لاليو، وهو من أبناء نيم. فكتب إليّ من باريس يسألني أن أبعث إليه برسم جانبيّ لي، وقال إن به إليه حاجة لأجْل تمثالي النصفي، وهو من المرمر، الذي عهد في صنعه إلى لو موان[20] والذي أراد أن يجعله في مكتبته. فإن يكن ذلك تملّقاً ابتكره لاليو كيما يروّضني، فلقد نجح كل النجاح. فقدّرتُ أن هذا الذي أراد أن يحصل على تمثالي النصفي، من المرمر، فيضعه في مكتبته، إنما هو امرؤٌ قد

(20) جان باتيست لو موان (1704-1778) مثّال فرنسي ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أفعمتْه مؤلَّفاتي فزخرَ بمبادئي، وقدّرتُ أنه قد أحبّني لأن روحه جرت على المجرى الذي جرت عليه روحي، فصعبَ أن لا تغويني هذه الفكرة. ثم لقيتُ السيد لاليو بعد ذلك، فألفيتُه عظيم النخوة لكي يسدي إليّ الكثير من الخدمات الصغيرة ويتدخل في الكثير من شؤوني الصغيرة. بيد أن الكتب القليلة، التي قرأها في حياته، أَشكُّ أن يكون بينها مؤلَّف من مؤلَّفاتي. ولستُ أدري هل عنده مكتبة وهل يستخدم هذا الأثاث. أما التمثال النصفي، فقد اجتزأ هو منه بشيءٍ إعداديّ صنعه لوموان بالطين. ثم عهد لاليو إلى بعضهم في أن ينقش عن هذا الشيء صورةً لي، فإذا الصورة بشعة، فلم تزل في انتشار وقد حملتْ اسمي كأن بيني وبينها بعض الشبه.

أما الفرنسي الأوحد، الذي لاح لي أن قد أَقبل يزورني لأنه مال إلى مشاعري ومؤلَّفاتي، فهو ضابط شابٌ من كتيبة ليموزان يدعى السيد سيغييه دو سان بريسّون، رآه الناس متألقاً في مجتمعات باريس لما هو عليه من مستَحبّ المواهب ومن التشوف إلى الآداب، ولعلهم ما يزالون يرونه على هذا التألق. فأتى يزورني بمونمورانسي الشتاءَ الذي سبق كارثتي، فوجدتُه على فورة مشاعر أعجبتْني. ثم كتب إليّ بعدئذٍ، وأنا بموتييه، فأخبرني أنه سيهجر الجيش فيحيا حياة مستقلة، وأنه سيتعلم حرفة النجارة، وذلك إما ابتغاءَ تملّقي وإما لشدّة إعجابه بـ **كتاب إميل**. وكان له شقيق أكبر سنّاً منه، ضابط نقيب في الكتيبة عينها، قد فضّلتْه أمُّه عليه تمام التفضيل، إذ غلتْ في التقوى يسيّرها كاهنٌ مُصانع لستُ أدري من هو. فأساءتْ معاملة ابنها الأصغر، واتهمتْه بالإلحاد، حتى إنها اتهمتْه بجريمة الاتصال بي، وهي الجريمة التي لا تُغْتفَر. تلك أسبابُ شكايته؛ فأراد أن يقيم قطيعة مع أمه ويختار السبيل التي كنت بصدد الحديث عليها فيقوم بدور الصغير إميل.

أما وقد أقلقتْني سورتُه، فإني أسرعتُ أكتب إليه أدعوه أن يرتدّ عما قد اعتزم وأَحثُّه جهْدَ الطاقة، فأصغى إلى قولي. ثم عاد لما قد وجب عليه لأُمّه، واسترجع من الضابط زعيم كتيبته الاستقالةَ، وكان قد قدّمها إليه، فأُوتي الزعيم من الاحتراس والتدبير ما جعله لا يتصرف في هذه الاستقالة لكي يتيح له الوقتَ فيتروّى في التفكير. فلما ثاب سان بريسّون عن حماقاته، اقترف حماقةً لم تكن دون ما سلف غرابةً وإمراً، ولا كانت أدنى إلى ذوقي أو كادت لا تكون. وتلك أنه جعل من نفسه مؤلّفاً، فأصدر مجلدين، أو ثلاثة مجلدات، الواحد تلو الآخر بلا انقطاع، فبشَّرَ ذلك بأنه لم يخلُ من موهبة. لكني لم أمدحه بما يشجعه على أن يمضي في هذه السيرة، ولستُ ألوم نفسي على أنني لم أفعل.

فجاء يزورني بعد زمن، فتَرافقْنا إلى جزيرة سان بيار. فوجدتُه، في سفرتنا هذه، على غير ما كنتُ قد وجدتُه عليه بمونمورانسي. فلقد ركبه تصنّعٌ لا أعرف ما هو، فلم أستغربه جداً أولَ الحال، بيد أنه كثيراً ما خطر في بالي مذ ذلك اليوم. ثم أتى يزورني تارة أخرى وأنا بقصر سان سيمون وقد مررتُ بباريس أريد إنجلترا، فأخبرني أنه يعايش علية القوم وأنه يزور مدام دو لوكسمبورغ في الأحايين، ولم يكن قد أخبرني بذلك من قبْل. فلما صرتُ إلى تري، لم يرد عليّ منه نبأٌ قط، ولا سأل قريبته الآنسة سيغييه أن تذكر لي شيئاً، وهي عهدئذٍ جارتي، فلم أَرها على حُسن ظن بي يوماً. وخلاصة القول إن فرط الإعجاب، الذي أعرب لي عنه السيد دو سان بريسّون، قد انتهى فجأة مثلما انتهت علاقتي بالسيد دو فان. على أن هذا ليس مديناً لي بشيء؛ أما ذاك، فإنه مدين لي ببعض الشيء، إلاّ أن تكون فنونُ الحماقة، التي أمسكتُه عنها، ضرْبَ تسلية من عنده؛ ولعل ذاك هو ما حصل في حقيقة الأمر.

twitter @baghdad_library

وأتاني أيضاً من جنيف زوار كثيرونٌ. واتخذني آل دولوك، الأب والابن، ممرضاً لهما على التوالي: فقد اعتل الأب وهو بطريقه إليّ؛ أما الابن فقد مسّه الداء لمّا برح جنيف؛ فجاءني كلاهما فنزلا عليّ. ولقد أَقبلَ من جنيف وسويسرا قسوس وأقرباء لي وأتقياء مصانعون وأناس من مختلف الألوان، لا ليعجبوا بي ويسخروا كما فعل الذين قدموا من فرنسا، ولكن ليؤنّبوني ويعظوني. فلم يسرّني أحد منهم حاشا مولتو[21]، وقد أمضى معي ثلاثة أيام، أو أربعة، فوددتُ لو استبقيتُه زمناً أطول. أما أَشدُّ القادمين مواظبةً وعناداً، فهو المدعو السيد ديفيرنوا، تاجر من جنيف ولاجئ فرنسي ونسيب لنائب نوشاتيل العام، فتسلّط عليّ لفرط ما قد أزعجني. وكان السيد ديفيرنوا هذا يشخص من جنيف إلى موتييه مرتين في السنة، لا لداع إلاّ ليزورني، فيلازمني من الصباح إلى المساء عدة أيام متوالية يرافقني فيها بنُزَهي، ويحمل إليّ ألف صنف من صغار الهدايا، ويلقي نفسه في سريرتي على كره مني، ويتدخل في شؤوني برمّتها، ذلك وليس بيني وبينه أيّ مشاركة كانت، لا في الأفكار ولا في الميول ولا في المشاعر ولا في أشياء المعرفة. فأنا أشكّ أن يكون قد قرأ كتاباً في العمر واحداً فأَتمّ قراءته، كائناً ما كان هذا الكتاب، وأنا أشكّ أن يدري ما تدور عليه مؤلّفاتي. فلما ابتدأتُ أجمع النباتات لكي أدرسها، تبعني في دروسي على علم النبات لم يستسغ هذه التسلية، ولا عنده ما يقول لي، وليس عندي ما أقول له. حتى إنه صبر على أن يخلو إليّ ثلاثة أيام ونحن بمقهى في غومونس؛ فحسبتُني قد طردتُه لفرط ما قد أضجرتُه ولفرط ما قد أشعرتُه بمبلغ ما قد أضجرني؛ ولكن، مع هذا، عجزتُ أن أصدّه عني وقد ثبت

(21) مولتو، هذا، تقدّم ذكرُه في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب - المترجم.

عليّ ثباتاً لا يمكن تصوّره، وعجزتُ أن أقف على الداعي إلى ذلك أجمع.

ولا ينبغي أن أُغفل العلاقة الوحيدة التي طابت لي، دون سائر العلاقات اللائي أكرهتُ عليه فعنيتُ بها عناية قلبية فائقة. إنها علاقتي بشاب مجريّ قدم نوشاتيل فأقام بها، ثم انتقل إلى موتييه فسكنها بعد ما سكنتُها ببضعة أشهر. وكان الناس، في البلاد يدعونه البارون دو سوترن، وهو الاسم الذي ذُكر في التوصية به من زوريخ. ولقد كان الشاب عالي القمة، حسن الهيئة، لطيف الوجه، ليّن العشرة، وديعاً. فذكر للجميع وأفهمني أنه لم يقصد نوشاتيل إلاّ بسببي أنا، إذ أراد أن يلابسني لينشئ شبابه على الفضيلة. فوجدتُ هيئته ولهجته وسيرته قد وافقتْ مجرى خطابه، ورأيتُ أنني إن رددتُ شاباً لم آنس منه إلاّ اللطف وقد سعى إليّ يحثه مثل ذاك السبب الخليق بوافر الاحترام، قصّرتُ في واجب من أعظم الواجبات. ثم إن قلبي لا يعرف كيف ينقاد نصفَ انقياد. فلم يلبث الشاب أن ملك صداقتي كلها واستحوذ على ثقتي بأسرها، فبتنا لا نفترق. فصحبني في جميع نزَهي التي كنتُ أذهب فيها مشياً، فحَلَتْ له. ومضيتُ به إلى ميلورد المارشال، فأولاه من لطفه الشيءَ الكثير. فلما لم يكن قد أمكنه بعد أن يفصح عن نفسه بالفرنسية، أخذ يخاطبني باللاتينية ويكاتبني بها، فأجيبه بالفرنسية؛ على أن اختلاط اللسانين هذا قد جعل أحاديثنا أقلّ سلاسةً وأعيا بديهةً في كل نحو. فكلَّمني هو على أُسرته وأشغاله ومغامَراته، وكلَّمني على بلاط فيينا فبدا واسعَ العلم بداخليّات هذا البلاط إجمالاً وتفصيلاً. ولقد تعايشنا، أنا والشاب، ما يناهز السنتين ونحن على أوفى الود الحميم، فلم ألقَ عنده إلاّ عذوبة الطبع في كل حال، ولم أقع منه إلاّ على شيم نزيهة، ظريفة الخصال، وألفيتُه على هيئةٍ ناصعة النظافة وعلى غاية الحشمة في كل قول، ورأيتُ فيه

twitter @baghdad_library

جميع آيات الرجل ذي الأصل الكريم، فكان تقديري إياه أجلّ من أن لا أعزّه.

وبينما أنا على أوثق وشائجي به، إذ كتب إليّ ديفيرنوا من جنيف يحذّرني من الشاب المجريّ الذي أتى يسكن بالقرب مني، وذكرَ في رسالته أن بعضهم قد أكَّد له أن الشاب جاسوس عليّ إقامته بجواري وزارة فرنسا. فأمكن أن يكون هذا التنبيه شيئاً مقلقاً، ولا سيما أن جميع من في البلاد التي سكنتُها، يومئذٍ، قد جعلوا يحذّروني ويقولون إن ثمة من يترصدني ويحاول أن يجتذبني إلى أرض فرنسا يريد بي شرّاً.

فابتغيتُ أن أسكتَ أولئك الأغبياء، الذين تبرعوا بالنصح لي، إسكاتاً نهائياً فاقترحتُ على سوترن أن نخرج مشياً إلى بونتارلييه في نزهة، فوافق، ولم أخبره بشيء مما قيل. فلما وصلنا إلى بونتارلييه[22]، ناولتُه رسالة ديفيرنوا ليقرأها، ثم عانقتُه عناقاً حارّاً وقلتُ له: «إن سوترن لا يحتاج أن أبرهن له على ثقتي به، لكن الجمهور يحتاج أن أبرهن له أني أُحسنُ وضْعَ ثقتي في موضعها». فكان العناق عذباً طيّباً ومَبهجةً من المباهج التي لا يتسنى للمضطهدين أن يذوقها ولا ينتزعوها من المضطهَدين.

ولن أُصدّق البتة أن سوترن كان جاسوساً ولا أن قد خانني، لكنه خدعني. فلما ملتُ إليه ميلاً قلبياً لا تحفُّظ فيه، قسّى فؤاده فأَغلقه دوني على الدوام، وغشّني بما أخبرني به من أكاذيب. فاخترع قصةً لستُ أدري ما هي حملتْني على أن أقدّر أن حضوره لزمَ في بلاده. فحضضتُه على الذهاب إليها في أسرع ما يمكن، فذهب،

---

(22) في فرنسا ـ المترجم.

حتى إذا خلتُه قد بات في المجر، بلغني أنه في ستراسبورغ. ولم تكن هذه أول قدمةٍ له إلى ستراسبورغ، فلقد سبق أن أَقلق راحةَ بيت فيها. فعلم الزوجَ أنني ألقى سوترن، فكتب إليّ. فلم أَدَع من مجهود لأن أُعيد المرأة الشابة إلى الفضيلة وسوترن إلى الواجب إلا بذلتُه. فحسبتُهما قد انفصلا انفصالاً تاماً، فإذا هُما قد تقاربا، حتى إن الزوج عمد إلى المجاملة فقبل الشابَ في بيته مرة ثانية، فلم يبقَ عندي ما أقول من ذلك الحين. ثم علمتُ أن البارون فرض عليّ مهابته إذ لفّق لي كثيراً من الأكاذيب. فهو لا يدعى سوترن، بل اسمه سوترشايم. أما لقب بارون الذي أُطلقَ عليه في سويسرا، فلم أَلمهُ فيه لأنه لم يتخذه لنفسه قط؛ ولكن ريبةً عندي أنه كان حقّاً من الأشراف؛ فإن ميلورد المارشال، وهو خبير بالناس وقد زار وطنَ الشاب، لم يفتأ ينظر إليه ويعامله على أنه من هذه الطبقة.

فما أن ارتحل حتى أَعلنتْ خادمُ النزل، الذي كان يَطعم فيه بموتييه، أنها حامل وأنه هو الفاعل. وكانت الخادم قذرة قبيحة، وكان الناس، على العموم، يقدرون سوترن في البلاد كلها ويحترمونه لاستقامة سلوكه وحُسن أخلاقه، وكان هو عظيم التبجح بنظافته، فإذا إن تلك الوقاحة قد صدمت الجميع. فثارت عليه ألطفُ النساء اللائي كن قد أسرفن في إغوائه إسرافاً لا طائل لهن فيه؛ أما أنا، فلقد بلغ استيائي كل مبلغ. فاستفرغتُ جهدي لأُسكتَ تلك المرأة الوقحة، وعرضتُ عليها أن أؤدّي جميع النفقات وأن أكفل سوترشايم. فكتبتُ إليه وقد أيقنتُ أنه لم يتسبب قط بحبل الخادم يقيني بأن هذا الحبل شيء مختلَق وبأن القصة كلها إن هي إلاّ ضربٌ ركّبه أعداؤه هو وأعدائي. فأردتُ أن يرجع إلى البلاد فيُخرس تلك المرأةَ الدنيئة ويُخرس الذين أطلقوا لسانها. فاستغربتُ رخاوة جوابه. فكتب إلى الراعي، إذ تلك المرأة القذرة هي في سواد رعيّته؛ ثم عمل ما أَهمدَ

twitter @baghdad_library

القضية. فلما رأيتُ ذلك، أمسكتُ عن التدخل فيها وعجبتُ كل العجب لامرئ، هذا مدى خلاعته، كيف سيطر على نفسه سيطرة كفت لأن يفرض عليّ هيبته إذ لبث مني بتحفظ ونحن على أوفى التآنس الطبعيّ الحميم.

وبرح سوترشايم ستراسبورغ إلى باريس يرتزق، فلم يصب إلاّ بؤساً. فكتب إليّ يخبرني أنه أخطأ[23] فتأثّرتُ في الصميم وقد ذكرتُ صداقتنا القديمة، فأرسلتُ إليه ببعض الدراهم. فلما مررتُ بباريس، في السنة التالية، وجدتُه على الحالة نفسها في وجه التقريب، إلاّ أنه كان على صداقة عظيمة للسيد لاليو[24] لم يسعني أن أهتدي إلى منشإها أهيَ قديمةُ العهد أم حديثتُه. ثم عاد سوترشايم إلى ستراسبورغ بعد سنتين، فكتب إليّ منها، وفيها كانت وفاته. ذلك هو المختصَر لقصة علاقاتنا ولما أَعلمُ عن مغامراته. وإني، إذ أرثي لمصير هذا الشاب التعس، لن أبرح أعتقد أنه كان كريم الأصل وأن ما اضطرب في سيرته قد نجم كله عن الأحوال التي تقلَّب عليها.

وبعد، فتلك هي حصيلة العلاقات والمعارف التي أصبتُها في موتييه. فما كان أحوجني إلى أمثالها خَلَفاً عن الرزايا الأليمة التي مُنيتُ بها في هاتيك الأيام.

أما أول رزيئة مُنيتُ بها، فهي فقدُ السيد دو لوكسمبورغ وقد عذّبه الأطباء ردحاً، فذهب ضحيّتهم، آخر الحال، إذ عالجوه على أنه قد أصابه النقرس فأبوا أن يُقرّوا أن النقرس يمكنهم مداواةُ مَن ابتلي به. وإذا حقَّ الاستناد، ههنا، إلى ما رواه لاروش في رسالته

---

(23) في الأصل باللاتينية peccavi ـ المترجم.

(24) لاليو هو ذاك الذي سأل روسو أن يبعث إليه برسمه على ما تقدَّم ذكره في هذا الفصل - المترجم.

إليّ، وهو ممّن تثق بهم السيدة قرينة المارشال، ، فإنما بهذا المثَل القاسي الأليم والخالد ذكره على السواء قد وجب الرثاء لبؤس العظمة.

فبلغ مني فقدان هذا السيد الطيّب الكريم، ولا سيما أنه كان الصديق الأوحد الذي أُوتيتُه بفرنسا؛ ولقد كان من الدماثة على ما إنساني طبَقتَه نسياً تاماً، فتعلّقتُ به وكأنه نظيري. فلم تنقطع بيننا أسبابُ التواصل بعد ما ارتحلتُ عنه، بل ظلَّ يراسلني كما سلف. ولكن، مع ذلك، خيّل إليّ أن غيابي، أو مصابي، قد فتّرا من حنانه. فإن رجال البطانة يتصعّب عليهم أن يقيموا على ما مضى من تعلّقهم بمن علموا أن قد سقطتْ عنه حظوةُ السلطات. ولقد قدّرتُ، فضلاً على ذلك، أن لم يؤاتني عظمُ تأثير مدام دو لوكسمبورغ في زوجها، وأنها انتهزتْ كوني قد ابتعدتُ عنه لكي تؤذيني قبَله. أما هي، فقد أمست، يوماً فيوماً، أقلَّ إخفاءً لتغيّرها عليّ، وذلك برغم الذي تكلّفتْه من رفق بي أخذتْ آياته تندر على الدوام. فكتبتْ إليّ وأنا بسويسرا أربع مرات، أو خمساً، ثم لم تكتب إليّ قط؛ وكنتُ لا أزال على ميلي السابق إليها، وعلى تمام ثقتي بها، وعلى كلّ عمهي عنها، فلم أرَ في ذلك إلاّ جفاءً منها لي فحسْب.

ووردتْ عليّ رسالة من الناشر غي، وهو شريك دوشين، يقول فيها إنني ذُكرتُ في وصية السيد المارشال، وكان غي يتردد إلى قصر لوكسمبورغ مذ أيامي هناك. ولم يكن ذكري في الوصية إلاّ أمراً طبيعياً جداً وإلاّ أمراً قابلاً للتصديق جداً، فلم أشكّ فيه. فجعلتُ أشاور نفسي كيف أتصرف في هذا الورث. فلما ترويتُ، قرّرتُ أن أَقبله كائناً ما كان، فأُشرّف رجلاً كريماً قد صادقني فصدَق، مع كونه في طبقة لا تكاد تنفذ إليها الصداقة. لكني أَعفيتُ من هذا الواجب، إذ لم أبقَ أسمع بالورث، صحيحاً كان أم غير صحيح؛ والحقّ أنني

twitter @baghdad_library

لو كنتُ اغتنمتُ شيئاً إذ قد توفي شخصٌ أُعزّه، لآلمني أن أسيء إلى أحد مبادئي الأخلاقية الكبيرة. وكان لونيابس، يومَ صديقُنا موسار[25] في مرضته الأخيرة، قد اقترح عليّ أن أنتهز ما أَعربَ لنا عنه من المشاعر لعنايتنا به فأُلمّح إليه أن يجري لنا بعضَ المنافع. فقلتُ له: «آه! عزيزي لونيابس، لا نعمدْ إلى النفعيات فنلطّخ الواجبات المحزنة المقدّسة التي نؤديها لصديقنا المائت». وإني أرجو ألا يذكرني أحد في وصيته أبداً، وأرجو، في الأقل، ألا يذكرني أحد من أصدقائي في وصيته على الدهر. ثم إن ميلورد المارشال، في تلك الأيام على التقريب، كلّمني بوصيته وبما ينوي إتيانه لأجلي فيها، فأجبتُه بما تقدّم لي قوله في الجزء الأول[26]

فأما الرزيئة الثانية التي نابتني، فلقد كانت أَشدّ إيلاماً وأَفدح كلفةً من أن تعوَّض. إنها فقدان خير النساء، وخير الأمهات[27] وقد أثقلتْها السنون، وأبهظتْها العاهات، وأوقرتْها ضروبُ الشقاء، فزالت عن وادي الدموع وانتقلتْ إلى مقام الصالحين حيث يطيب للإنسان أن يذكر ما قدَّم في دنياه من معروف هو ثواب الباقية الخالد. فيا أيتها النفس الوادعة المحسنة، اذهبي إلى جوار فينولون وبرنكس وكاتينة وإلى جوار أولئك الذين كانوا أوضع حالاً منهم فأَشرعوا مثلهم القلوبَ على المحبة الحقّ. ألا فامضي وذوقي ثمرةَ محبتك، وأَعدّي لمريدك المَقعدَ الذي يؤمّل أن يصير إليه في جوارك يوماً! فما أسعدك في بلاياك وقد ختم الله عليها فنجّاك من مشهد بلاياي القاسي الأليم! ثم لقد كنتُ خشيتُ أن أُحزنها هي إذا رويتُ لها

(25) موسار صديق روسو، سبق ذكره وذكر لونيابس في الفصل الثامن هذا الكتاب - المترجم.

(26) انظر الجزء الأول، الفصل الثاني من هذا الكتاب - المترجم.

(27) مدام دو فارانس ـ المترجم.

مصائبي الأولى، فانقطعتُ عن الكتابة إليها مذ وصلتُ إلى سويسرا. بيد أني كتبتُ إلى السيد دو كونزييه أستعلمه شأنها، فكان هو الذي نبّأني أن قد كفّت عن مؤاساة المعذَّبين وكفّت، هي نفسها، عن العذاب، فما لبثتُ أن عدتُ وأنا في نجوة منه. ولكن لولا اعتقادي أني مُلاقيها في النشأة الثانية، لأبى وهَنُ مخيّلتي فكرةَ السعادة الآخرة، الكاملة، التي وَعدتُ بها نفسي.

فأما الرزيئة الثالثة والأخيرة، إذ لم يبقَ لديّ بعدها من أصدقاء أَفقدُهم، فهي غياب ميلورد المارشال. لكنه لم يُتوفَّ، بل أعيته خدمة منكري الجميل، فهجر نوشاتيل، فلم أرَه من ذلك الحين. على أنه في الأحياء، وأرجو أن يكون أطول عمراً مني. إنه في الأحياء، وإنني، بفضله، لم ينقطع عني كل ما يشدّني إلى هذه الدنيا، فما يزال فيها إنسان خليق بصداقتي، لأن قيمتها الحقّ هي بالذي أُحسُّ من الصداقة له أكثر مما هي بما يُلهمني هو من الصداقة؛ غير أني فقدتُ الطيّبات التي أسبغتْها عليّ صداقته، فأمسيتُ لا قبَل لي أن أجعله إلاّ بمرتبة الذي ما فتئتُ أُحبّهم ولكن لم يبقَ بيني وبينهم من سبيل اتصال. فلقد يممَ إنجلترا يتلقى عفوَ الملك عنه ويعيد شراءَ ممتلكاته التي أُخذتْ منه في الأمس. فلم نفترق إلاّ ونحن على خُطط التقاءٍ استعذبَها هو - أو كاد يستعذبها - بقدْر ما استعذبتُها. فأراد الإقامة بقصره في كيث هول بالقرب من أبردين، وصحَّ الرأي على أن آتيه ثمة. لكن هذه الخطة كانت، عندي، أرْوع من أن أُؤَمّل نجاحها. فلم يمكث هو في اسكوتلندة قط، بل دعته إلى برلين مرغّباتُ ملك بروسيا ورغباتُه؛ وسترى كيف مُنعتُ أن أوافيه إلى هناك.

وتوقَّعَ، قبل ارتحاله، أن تهبّ العاصفة التي ابتدأتْ تثور عليّ، فأَرسل إليّ من تلقاء نفسه بأوراق تجنّس بدت ضرباً من الوقاية

twitter @baghdad_library

موثوقاً به فيتعذَّر طردي من البلاد. ثم إن مديرية كوفيه، في فال دو ترافير، حذت حذو الحاكم فمنحتْني مجّاناً أوراقَ انتسابي إليها، كما أن أوراق الجنسية أتتني مجّاناً. فأمسيتُ، من كل وجه، مواطناً للبلاد، فبتُّ بمأمن من أيّ إبعاد شرعيّ كان ولو قضى به الأمير. لكن الرجل[28]، الذي كان في جميع الأحوال أوفى الناس احتراماً للقوانين، لم يمكن اضطهادُه بالطرق الشرعية يوماً من الأيام.

فأما وفاة الأباتي دو مابلي عهدئذٍ، فلستُ أعدّها في الرزايا التي أصابتني. وكنتُ قد أَقمتُ عند شقيقه فوصلتْني بالأباتي دو مابلي بعض الأسباب، ولكن لم نلبث قط على علاقة حميمة. ثم أَصبحَ لديّ من الدواعي ما أَظنَّني أنه قد تولّى عليّ بوده مذ فاقت شهرتي شهرته. فلما نُشر كتاب «**رسائل من الجبل**»، لمستُ أولاً دلالة على سوء قصْده بي، إذ أُشيعتْ في جنيف رسالة إلى السيدة سالادان عُزيتْ إليه وفيها تكلَّمَ على الكتاب فصخبَ وأَضلَّ كأنما هو ديماغوجي [غوغائيّ] جَموح. ولقد كان من احترامي للأباتي دو مابلي ومن تقديري معارفَه ما لم أعتقد معهما قط أنه هو صاحبُ تلك الرسالة الغريبة التي شطّت عن الصواب. فصحَّ رأيي على ما ألهمتْني إياه صراحتي. فبعثتُ له بنسخة من الرسالة وقد نبَّهتُه على أنها نُسبتْ إليه. فلم يجبني قط. فأدهشني صمتُه. ولكن تصوّرْ مَبالغَ دهشتي إذ نبّأتْني مدام دو شونونسو أن الأباتي دو مابلي هو، فعلاً، كاتب الرسالة وأن رسالتي قد أوقعتْه في ارتباك عظيم. فإن هو كان على حقّ، آخرَ الشيء، فكيف يمكنه الاعتذار عن سعي علنيٍّ ظاهر لا موجب له ولا غرض إلاّ أن يثقل كاهل امرئ قد اضطرب في أدهى البلايا وحاسنَ الأبَاتي دو مابلي على الدوام فلم يكُ جديراً

(28) أي روسو ـ المترجم.

بسوى تقديْره ومودته؟ ثم صدر، بعد زمن، كتاب «**محاورات فوسيونوس**»[29]، فلم أرَ به غير مقتطفات من مؤلَّفاتي قد جُمعتْ بلا رويّة ولا خجل. فلما قرأتُ الكتاب، شعرتُ بأن مؤلّفه قد حدّد موقفه إزائي وبأنه ليس لي عدوٌّ شرٌّ منه بعد اليوم. وأخاله لم يسامحني لا بـ «**العقد الاجتماعي**» إذ هو فوق طاقته أضعافاً، ولا بكتاب «**السلم الدائم**»؛ وأحسبه لم يرغب في أن أختار مقتطفات من الأب دو سان بيار إلاّ وقد قدَّرَ أنني لن أُحسنْ هذا العمل على النحو الذي أَحسنتُ.

وبعد، فكلما أوغلتُ في ما أرويه، ضعفتْ قدرتي عليه نسقاً واطّراداً. ذلك بأن ما قد اعتلجَ فيّ، بقيةَ العمر، لم يُتح، للأمور التي حدثتْ، وقتاً لكي تنتظم بذهني. فهي أكثفُ حشداً وأَشدُّ اختلاطاً وإزعاجاً من أن أرويها بلا التباس. أما أمرها الوحيد الذي أَثّر فيّ تأثيراً بالغاً، فإنما هو السر الهائل الذي اكتنف سببَها، والحالُ المحزن الذي أوصلتْني إليه. فما أرويه قد بات لا يسعه أن يجري إلاّ في غير قصد، على حسب ما يعاودني من الخواطر. وأذكر أنني، في تلك الأيام التي أتكلّم عليها الآن، قد كنتُ شغلتْني «**اعترافاتي**»، فأخذتُ أُحدّث بها الجميع دون احتراز لستُ أتصوّر أن في الناس من تهمّه إعاقةُ هذا العمل، ولا فيهم من يبتغيها، ولا من يقوى عليها. ولو تصوّرتُ ذلك، كدتُ لا أزداد كتماناً، إذ أنا على سجيّة

---

(29) **محاورات فوسيونوس** (*Les dialogues de Phocion*) مؤلَّف للأباتي دو مابلي. أما فوسيونوس هذا (400-317 ق.م.) فقائد وخطيب أثينيّ من حزب الأرستقراطيين اشتهر بتجرده وحُكم عليه بالموت حكمَ بغيٍ وعدوان ـ المترجم. [تعليق المراجع: ع. لبيب] يعتمد روسو على ذاكرته الضعيفة للتنصيص على عنوان كتاب مابلي. ونحن هنا نصحح: *Entretiens de Phocion sur le rapport de la politique avec la morale* (1763)، وقد حاز هذا المؤلَّف على جائزة أحسن تأليف في القرن من قبل جمعية بارن (Berne) الأدبية.

twitter @baghdad_library

لا تمكنني من إخفاء ما أُحسُّ به وما أفكر فيه. والمرجح عندي أنه العلم بمشروع «**اعترافاتي**» هو السبب الحقيقي في العاصفة التي هبت ضدي لأجل إبعادي عن سويسرا وتسليمي إلى أيدٍ تمنعني عن هذا المشروع.

ولقد نويتُ يومئذٍ مشروعاً آخر لم يكن الذين أخافتهم «**اعترافاتي**» أكثر رضًى عنه، أو كادوا لا يكونون؛ وذاك هو أن أَنشر مجموع مؤلَّفاتي. فرأيت في الأمر ضرورة حتى أبيّن الكتب التي حملت اسمي والتي صنعتُها حقّاً ولأمكّن الجمهور أن يميّزها من المؤلَّفات التي نُحلتْ فنسبَها إليّ أعدائي حتى ينالوا من شهرتي ويستخفّوا بشأني. ثم إن إصدار مجموع مؤلَّفاتي كان، زيادة على ذلك، وسيلةً يسيرةً نزيهةً تضْمن قوْتي، بل كان هو الوسيلة الوحيدة التي تضمن هذا القوت، إذ أَقلعتُ عن التأليف، وإذ لم يتهيأ نشرُ مذكراتي ما دمتُ حيّاً، وإذ لا دخْل لي إلاّ من هذا الباب، وإذ لم أبرح أُنفقُ المال. فرأيتُ نضب مواردي في نضب ما يرد عليّ من مؤلَّفاتي الأخيرة. فسارعتُ إلى تسليم كتابي «**معجم الموسيقى**» ولم أُتمَّه بعد. فأتاني منه على الفور مائة ليرة ذهباً، وأتاني منه مائة درهم مرتباً على العمر. ولكن، مع ذلك، لم تلبث مائة الليرة الذهب أن نفدتْ إذ كنتُ أُنفقُ في السنة الواحدة ما يربي على ستين ليرة. أما مرتب مائة الدرهم فإنما هو كَلاَ شيء عند امرئ لم يبرح الطارئون والصعاليك ينقضّون عليه مثل الزرازير.

ولقد جاءني، يوماً، جماعة من تجار نوشاتيل كيما يتولوا نشر مؤلَّفاتي كلها، ولستُ أدري كيف أقبلَ من مدينة ليون صاحبُ مطبعة أو ناشر، اسمه روغيّا فتدخّل بينهم ليتولى إدارة هذا النشر. فاتفقنا على أساس معتدل يكفيني في ما قصدتُ. وكان لديّ ما يؤلّف ستة أجزاء كبيرة القطع، سواء من مؤلَّفاتي التي سبق طبعُها أو من تلك

التي كانت لا تزال مخطوطة بعد؛ وتعهدتُ، فضلاً عما سلف، بمراقبة النشر، على أن يؤدوا إليّ، في مقابلة ذلك، مرتباً إلى مدى الحياة قدْره ألف وستمائة ليرة فرنسية ويؤدوا معه ألف درهم هديةً مقطوعة.

وكان قد عُقدت الاتفاقية ولكن لم توقَّع بعد، عندما صدرت «**رسائل كُتبتْ من الجبل**». وحصل ضد هذا المؤلَّف الجهنمي وضد صاحبه المقيت انفجار رهيب فذُعر له جماعةُ التجار، فتلاشى المشروع. وإنه لجائز أن أشبّهُ أثر هذا المؤلَّف الأخير بأثر كتاب «**رسالة في الموسيقى الفرنسية**»، لو لم تكن هذه الرسالة التي بغّضتْني وعرّضتْني للنفي قد أبقت لي، في الأقل، التقدير والاحترام. ولكنْ، بَعْد مؤلَّفي الأخير، بدا الناس في جنيف وفرساي وقد عجبوا كيف لم يُقضَ على وحشٍ مثلي أنا. فأذاع المجلس الصغير، وقد أثاره مقيم فرنسا ووجّهه النائب العام، بياناً في كتابيَ ضمّنه أفظع الصفات وأَعلنَ به أن المؤلَّف لا يستأهل أن يحرقه الجلاّد؛ وكان البيان على براعة مضحكة حتى الغلظة إذ أضاف يقول إنه لا يمكن الرّدّ على الكتاب، ولا يمكن حتى مجرد الإشاره إليه إلا ونتردى في المخزاة والعار. ولقد وددتُ لو تهيأَ لي أن أنقل، ههنا، تلك المقطوعة الغريبة؛ ولكن في سوء الحظ أنها ليست في حيازتي، ولستُ أتذكر منها حرفاً واحداً. وإني لأرغب رغبة قوية لو يقوم بين قرائي قارئ تهزّه نخوة الحقّ والإنصاف فيُقبل على «**رسائل كُتبتْ من الجبل**» يطالعها بحذافيرها، فإني لأتجاسرُ على هذا القول بأن هذا القارئ سوف يشعربالاعتدال الجلد الشجاع [اعتدال الرواقيين] الذي يسود الكتاب والحال أنه جاء بعد أن كان الناس قد انهالوا على مؤلفه، شَماتةً فيه، بسهام الإهانة المؤلمة القاسية. فلما أعيتهم الإجابة عن الشتائم، والكتابُ لا شتائم فيه، ولما أعيتهم الإجابة عن

twitter @baghdad_library

الأسباب، إذ ليس لها من جواب، صحَّ رأيهم على أن يتظاهروا بأنهم أشدُّ غضباً من أن يبتغوا الإجابة؛ والحقّ أنهم إذا كانوا اعتبروا الحجج الدامغة شتائم، فقد حسبوا أنهم قد شتموا شتماً فاحشاً.

ثم إن النواب لم يتظلموا قط من ذلك البيان الشنيع، بل ساروا على الطريق التي خطّها لهم. فلم يعتزّوا بـ «**رسائل من الجبل**»، ولكن حجبوه فاتخذوه لهم درعاً، وجبنوا فأَحجموا عن تكرمته ونصفته وهو الذي أُنشئَ محاماةً عنهم ونزولاً على إلحاحهم، وسكتوا عن ذكر الكتاب وعنوانه، وإن استقوا منه كل حججهم ضمناً، وإن تكن دقَّةُ اتباعهم النصح، الذي يختم المؤلَّفَ، هي السبيل الأوحد الذي أفضى بهم إلى النجاة والانتصار. وكانوا قد فرضوا عليّ ذلك الواجب، فنهضتُ به، فخدمتُ الوطن وقضيّتهم حتى النهاية. فسألتُهم أن يتخلوا عن قضيتي وألا يفكروا إلاّ في أنفسهم وسْط ما هم عليه من منازعات. فأخذوا بما سألتُهم أخذاً حرفياً، فعدتُ لا أتدخل في شؤونهم إلا لكي أحضّهم على السلم في كل حال، إذ لم أشكّ في أنهم إذا عاندوا، سحقتْهم فرنسا. فلم يحدث هذا، فأدركتُ سببه، ولكن ليس ههنا مجال إيراده.

ثم إن كتاب «**رسائل من الجبل**» قد وقع من نوشاتيل موقع هدوءٍ في أول الحال. فأرسلتُ بنسخة منه إلى السيد دو مونمولان، فرحّب به وطالعه فلم يعترض عليه. وكان معتلاً مثلي، فلما عوفي، جاء يزورني زيارةَ صداقة فلم يأت قط على ذكر الكتاب. وكانت الضجة قد هبّت، فأُحرقَ المؤلَّف لستُ أَعلم أين. فما عتّمتْ ألسنةُ اللهيب أن امتدت من جنيف وبرن، وربما امتدت من فرساي، إلى نوشاتيل، ولا سيما في فال دو ترافير حيث ابتدأ بعضهم يعمدون إلى مكايد مستترة يهيّجون بها الشعب حتى قبلما أبدى مجمع القساوسة أيّ حركة كانت. وإني لأجترئ على القول إنه قد حُقَّ لي أن يحبّني

شعب هذا البلد، إذ كنتُ في الصدقات سخيّ اليد فلم أَدَع معوزاً من حولي إلاّ أَغثتُه، ولا صددتُ أحداً ما أمكنتْني خدْمتُه الخدمةَ العدل؛ وربما أَسرفتُ في مؤانستي الجميع، ولكن بذلتُ جهدي للهرب من كل تمييز يوغر عليّ الحسد. بيد أن ذلك بأسره لم يمنع غوغاء الشعب، ـ وقد أثارهم خفيةً أحدٌ لاُ أدري مَن هو، عن أن يتحركوا ضدي تدريجاً حتى اهتاجوا وجاشوا، ولا منعهم عن أن يهينوني علناً في جليّة النهار، ليس بالريف وعلى الدروب فحسب، ولكن في وسط الشارع أيضاً. فإذا الذين إليهم أَحسنتُ أكثر ما يكون هم أَشدُّ الناس انهيالاً عليّ، حتى إن فيهم من كنتُ لا أزال أُسدي إليهم فلم يتجاسروا على الظهور، بل هيّجوا غيرهم وكأنما هم ينتقمون من مذلة كونهم مديونين لي بالمعروف. ولاح مونمولان كأنه لا يرى شيئاً، ولم يكن قد أبدى نفسه بعد. إلاّ أن المناوَلة قرُب وقتُها يومئذٍ، فجاءني مونمولان، فنصح لي أن لا أقوم بها، وأكد أنه ليس بواجد [بلائم] عليّ وأنه تاركُني وشأني. فاستغربتُ مجاملته، فذكّرتْني برسالة مدام دو بوفلير، وعجزتُ أن أتصوّر أن أحداً يبالي تناولتُ أم لا. فرأيتُ أنّ تنازلي عن المناولة ضربُ جبن، وأَبَيتُ أن أتيح للشعب مثل هذه العلّة فينادوا بالكافر الزنديق. فلذلك رفضتُ ما سألني إياه القس، فانصرف عني مستاءً وأفهمني أن سوف أندم.

ولم يكن في سلطته وحدها حبسي عن المناوَلة، وإنما لا بد له من سلطة المجمع الأعلى الذي قبلني. فكان يمكنني الإقدام على المناوَلة لستُ أخشى الرفض ما دام المجمع لم يعترض عليّ. فاستحصل مونمولان من مصف الرعاة على قرار دعوتي أمام المجمع الأعلى حتى أُدلي إليه بإيماني؛ فإنْ أَبَيتُ حُرمتُ. أما الحرم، فلا يقضي به إلا هذا المجمع، على أن تُقرّه أكثرية الأصوات فيه. لكن الفلاحين الذين يؤلّفون هذا المجلس باسم «القدماء» والذين يَرأسهم،

twitter @baghdad_library

بل قُلْ ـ على ما يرجح الفهمُ - يحكمهم راعيهم، لم يكونوا على ما يخالف رأي قسيسهم ولا سيما في موضوعات لاهوتية هم دونه إدراكا لها. فدُعيتُ أمام المجلس، فعزمتُ على المثول بين يديه.

فنعْم المناسبة التي سنحتْ لي ويا للفوز لو عرفتُ كيف أتكلّم ولو أن قلمي كان بفمي إن جازت العبارة! ولكم كان يهون عليّ أن أتمكن من القس المسكين فأصرعه بين الفلاّحين الستة التابعين له! وذلك أن شهوة التسلط غلبتْ يومئذٍ على رجال الدين الإنجيليين فأنستْهم مبادئ الإصلاح، فبتُّ ليس ينبغي لي إلا أن أعلّق على الرسائل الأولى لكتابي «**رسائل من الجبل**»، وقد بلغ بهم الحمق أن انتقدوها عليّ، فأُذكّرهم بتلك المبادئ وأُفحمهم. وكنتُ قد وضعتُ نصّي كله، فلم يبقَ إلاّ أن أبسطه لكي أُخرس خصمي. ولم أكن من الغباوة على ما ألتزم به موقف الدفاع، بل سهل عليّ الهجوم، والرجل لا ينتبه حتى لهذا، أو هو لا يقدر على اتقائه. وكان جهابذة مصفّ الرعاة، وهم من الخفّة والجهل على نحو سواء، قد وضعوني في خير المواقف التي ربما تمنيتها لكي أسحقهم ما طاب لي أن أفعل. ولكن ماذا؟ لقد وجب عليّ أن أتكلّم، بل وجب أن أتكلّم فوراً فأهتدي إلى الأفكار والألفاظ والعبارات لحظةَ أحتاج إليها، فلا أزال متحفز البديهة، ساكن الأعصاب، غير مضطرب أبداً. فما الذي كنتُ أرجو من نفسي وقد طالما شعرتُ بعدم القدرة على الارتجال؟ تقدَّم لي أن أُسكتُّ بجنيف أَذلَّ إسكات وأنا بين يدي مجلس قد مال إليّ بأسره فعزم أن يوافق لي على كل شيء. أما ههنا، فالأمر على نقيض ما كان فيه ثمة. وذلك أنني وقعتُ على امرئ مزعج قد تصعَّبَ من غير داعٍ، فجهل ما يريد، وعمد إلى المكر بدل المعرفة، فنصب لي عشرات الحبائل قبلما فطنتُ لحبالة منها واحدة، وصمَّم أن يتجنى عليّ، بالغاً ما بلغ الثمن. وكنتُ كلما نظرتُ في هذا

الموقف، وجدتُه على ازدياد خطر. حتى إذا شعرتُ بأني لن أقوى على التخلص منه تخلصاً موفّقاً، ابتكرتُ وسيلة أخرى. فجعلتُ أفكر في خطبة أُلقيها أمام المجمع فأُنكرُ سلطته وأُعفي نفسي من الإجابة، وكان ذلك جدّ يسير. فكتبتُ الخطبة، واندفعتُ أستظهرها وأنا على أنشط همة. فسخرتْ مني تيريز وقد سمعتْني أُردّد العبارات نفسها وأُهمهم بلا انقطاع أُحاول أن أحشو بها ذهني. فأمّلتُ، في آخر الحال، أن أملك زمام خطبتي. وعلمتُ أن حاكم القصر[30] سيحضر جلسة المجمع بصفة كونه موظّف الأمير، وأن معظم الشيوخ قد حَسُنَ ظنهم بي على رغم مداورات مونمولان وعلى رغم خموره. وكان يؤيدني الرشدُ والحقُّ والإنصافُ وحمايةُ الملك وسلطةُ مجلس الدولة وأدعيةُ المواطنين الصالحين الذين عنتْهم إقامة محكمة التحقيق هذه؛ وكان أمر يحثّني ويشجّعني.

فلما وافت ليلة اليوم المضروب، كنتُ قد استظهرتُ خطبتي، فتلوتُها لم أُخطئ. ثم أَحييتُ ليلي بأجمعه أُكررها وأُعيدها. فلما أصبحتُ، لم أبقَ جيّد الحفظ لها وطفقتُ أتردد عند كل لفظة منها إخالني ماثلاً أمام المجلس الشهير. فاضطربتُ، فتلعثمتُ، فذُهلتُ. فما كاد يحين موعد الذهاب إلى المجمع حتى خانتْني الشجاعة تماماً، فلزمتُ البيت، وقرَّرتُ أن أكتب إلى المجلس أُبدي له حججي على عجل وأعتذر بما بي من انحراف صحة قد شقّ عليّ معه حقّاً احتمال الجلسة كلها وأنا في ما أنا فيه.

فحار القس في رسالتي، فأرجأ النظر في القضية إلى جلسة أخرى. وقام، في غضون ذلك، يجدّ قصْدَ أن يُغري من الشيوخ من ليسوا على رأيه إذ تبعوا وحي ضمائرهم بدل أن يتبعوا ما أراد هو

---

(30) حاكم القصر كانت وظيفته تساوي وظيفة رئيس بلدية على التقريب - المترجم.

twitter @baghdad_library

ومصفّ القساوسة. ومهما كان لحجمه من تأثير في مثل هؤلاء الناس، ـ وقد استقى حججه من قَنانيّ خموره، ـ فإنه لم يقدر أن يظفر بأحد منهم، عدا الشيخين أو الثلاثة الذين كانوا قد أخلصوا له فلُقّبوا بـ«الأنفس الهالكة» التابعه له. أما سائر الشيوخ، فإن موظَّف الأمير والضابط الزعيم بوري الذي سلك في هذه القضية سلوك المروءَة قد أبقياهم عند الواجب. وعندما أراد مونمولان، هذا استصدار الحرم، رفضه المجمع بأكثرية الأصوات رفضاً قاطعاً. فلجأ حينئذٍ إلى آخر حيلة وهي أن يفتن الشعب؛ فأخذ مونمولان ورصفاؤه وسواهم يعملون على الفتنة علناً، فأصابوا من عظيم النجاح ما أكرهني على أن أهجر البلاد برغم تكرار النواهي الملكية المشدّدة وبرغم جميع الأوامر التي أصدرها مجلس الدولة. ولقد اضطررتُ إلى ذلك لئلا أُعرّض موظَّف الأمير نفسه للاغتيال وهو يذود عني.

ولستُ أذكر تلك القضية كلها إلاّ تذكاراً كثيفَ الغموض حتى ليتعذّر عليّ انتظام شيء من الأفكار التي تُعاودني فيها وحتى ليتعذّر عليّ وصلُ ما بينها في حال من الأحوال، فلا يسعني تأديتها إلاّ وقد انفصلتْ فتبددتْ وإلا على نحو ما عرضتْ لخاطري. وأذكر أنه جرت بيني وبين مصفّ القساوسة بعض المفاوضات، وكان مونمولان هو الوسيط فيها. فتظاهر بأن الناس يخشون أن أُقلق بمؤلَّفاتي راحة البلاد، وتظاهر بأنهم سيحمّلون المصفّ تبعات حريتي في الكتابة. ثم أفهمني أنه، إذا تعهدتُ بهجر القلم، ساهلوني في شأن ما مضى. وكنتُ قد قطعتُ على نفسي هذا العهد، فلم أتردد أن أتعهد به لمصفّ الرعاة، ولكن بشرط ألا يجاوز موضوعات الدين. فوجد مونمولان سبيلاً كيما يحصل على نسختين من تعهدي إذ طلب إليّ أن أغيّر بعض ما فيه. فأبى الرعاة الموافقة على ما شرطتُ،

فسألتُ مونمولان أن يردّ على التعهد، فأَرجَعَ إليّ إحدى النسختين واحتفظ بالنسخة الثانية يزعم أنه أضاعها. ثم كان من بعد ذلك أن القساوسة هيّجوا الشعب جهاراً فبات لا يكترث لنواهي الملك ولا لأوامر مجلس الدولة، بل انطلق الشعب فجمع ليس يردّه أحد. فأُنذرتُ من على المنابر، ودُعيتُ المسيح الدجّال، وتعقَّبني القوم بالريف كأني ساحرٌ مشعوذ. فكان لباسي الأرمني الشكل علامةً استدلّ بها عليّ الأهلون، فشعرتُ بآفة هذا اللباس شعوراً أليماً، ولكن استجبنتُ أن أخلعه عني وأنا في تلك الحال. فلم أقوَ على خلعه، فسرتُ بهدوء أتنزه في البلاد وعليّ الجبّة والقميص والقلنسوة، فأَحدقَ بي الرعاع فجلّبوا، وربما رموني بالحصى في بعض الأحيان. وكنتُ إذا مررتُ أمام البيوت، كثيراً ما سمعتُ من يقول لسكانها: «هاتوا بندقيتي لأطلق عليه النار»، فلم أحثّ خطاي، فما ازدادوا إلاّ غيظاً؛ غير أنهم اكتفوا بالوعيد، في ما يتصل بالأسلحة النارية، على الأقل.

وكنتُ، في أثناء هياج الخواطر، لا يفتأ يطيب لي شيئان عظيمان قد بلغا مني. أما أولهما، فهو أن أعرب، على يد ميلورد المارشال، عن عرفاني الجميل. وذلك أن جميع أُولي النزاهة والاستقامة من أهل نوشاتيل قد ساءتهم المعاملة التي قاسيتُها والمداورات التي ذهبتُ ضحيتها، فمقتوا القساوسة أشدّ المقت، إذ أدركوا أن هؤلاء القساوسة قد انقادوا لبعض المحرّضين الأجانب وأنهم ليسوا إلاّ أتباع سواهم ممن تستّروا بهم وممن جعلوا يثيرونهم. ثم إن أولي النزاهة والاستقامة من أهل نوشاتيل قد خشوا أن هذا الذي أصابني ربما نجم عنه فعلاً ما يؤدي إلى إقامة محكمة تحقيق. فبذل القضاة غاية الجهد لكي يحاموا عني، ولا سيما السيد مورون خلف السيد ديفيرنوا في منصب النائب العام. وكان الزعيم بوري

twitter @baghdad_library

أوفى سعياً منهم وأكثر توفيقاً مع أنه غير ذي منصب؛ فإنما هو الذي اهتدى إلى وسيلة تغلَّبَ فيها على مونمولان في صميم مجمعه، إذ أبقى الشيوخ عند الذي وجب عليهم عمله. وكان الزعيم بوري نافذ الكلمة، فاستخدم كل نفوذه ليهمد الفتنة؛ على أنه لم يملك إلا سلطة الشرائع والعدالة والعقل ليقاوم سلطة المال والنبيذ. فلم تكن المعركة متساوية القوى، فههنا انتصر عليه مونمولان. ولكن، مع ذلك، أثّر فيّ مسعاه الكريم، فوددتُ لو أوفّيه إياه خيراً بخير على وجه من الوجوه. وكنتُ أعلمُ أن بوري يطمح إلى منصب مستشار للدولة، لكنه سلك في قضية القس بوتيبيار سلوكاً لم يُرض البلاط فسقطتْ عنه حظوة الأمير وحظوة الحاكم. ومع ذلك، خاطرتُ بالكتابة من أجله إلى ميلورد المارشال، حتى لقد اجترأتُ على ذكر المنصب الذي رغب هو فيه، فوفَّقتُ أيّ توفيق، فلم يلبث الملك أن ولاّه المنصب خلافاً لما قد توقَّعه جميع الناس. وهكذا لم يبرح القدَر يقذفني من الأقاصي إلى الأقاصي فما غلا في رفعي إلاّ غلا في وضعي؛ وبينا أَوْحَلَتني الغوغاء، كنتُ أصنع مستشارا للدولة.

وأما الشيء العظيم الآخَر الذي طاب لي، فهو أن مدام دو فردولان جاءت تزورني ومعها ابنتها، وقد قصدتْ بها إلى مياه بوربونّ ومنها مدّت في السير إلى موتييه، فباتت بمنزلي يومين، أو ثلاثة أيام. وكانت، في آخر الأمر، قد انتصرتْ على نفرتي منها لكثرة ما أحاطتْني به من عناية والتفات، فتغلبتْ على قلبي ألوانُ لطفها، فبادلتُها بالصداقة التي أعربتْ لي عنها زمناً طويلاً. فأثّرتْ فيّ زيارتها تلك، ولا سيما إذ أنا على ما أنا عليه وقد أعوزتْني الصداقة لكي أتعزى فأقوى على الصبر والاحتمال. أما ضروب الإهانة التي أَنزلتها بي الغوغاء، فقد خشيتُ أن تُحزن مدام دو فردولان، فوددتُ لو جنّبتُها منظرها لئلا تكتئب، ولكن تعذّر عليّ ذلك. ولئن أدّى

حضورها إلى ما ردّ عني الوقحين بعض الردّ وقتَ كنا نتنزه، فلقد رأت منهم ما كفى لأن تقدّر ما قد وقع لي في سائر الأوقات. حتى إن الهجوم عليّ ليلاً، وأنا بمسكني، قد ابتُدئ به في خلال نزولها عندي في البيت. ثم إن خادمتها بصرتْ بنافذتي، ذات صباح، وقد غطّتها الحجارة التي قُذفتْ بها في أثناء الليل. وكان في الشارع مَقعد ثقيل الوزن قد وُضع بالقرب من منزلي وأُحكمَ تركيزه، فنُزع من موضعه فنُقل إلى بابي فأُوقفَ على جهة الطول وأُسندَ إلى الباب، فلو لم ننتبه، لسقط المقعد على أول من ابتغى الخروج ففتح باب المدخل فأودى به المقعدُ لا محالة. ثم إن مدام دو فردولان لم تجهل شيئاً مما جرى لي، فإن خادمها، وهو امرؤٌ ثقة، قد جوّل في القرية فلقي الناس جميعاً فكلّمهم، حتى لقد شوهد يتحادث هو ومونمولان، ذلك فضلاً عما كانت مدام دو فردولان قد رأت بنفسها. ولكن، مع هذا، لم يظهر عليها قط أن قد عناها ما أصابني، فلم تكلّمني على مونمولان ولا على سواه. فلما كلّمتُها في ذلك بعض الأحيان، أجابت بقول يسير. لكنها اقتنعتْ أن الإقامة بإنجلترا تلائمني فوق ما تلائمني الإقامة بغيرها، فكلّمتْني على السيد هيوم، وهو يومئذٍ في باريس، فأكثرتْ، وكلّمتْني على صداقته لي وعلى رغبته في أن ينفعني في وطنه فأَسهبتْ. وبعد، فقد آن أن أذكر السيد هيوم ببعض القول.

كان السيد هيوم قد أصاب شهرة واسعة في فرنسا، ولا سيما بين الأنسيكلوبيديين، لأجل مباحثه في التجارة والسياسة ولأجْل كتابة «**تاريخ آل ستيوارت**»[31] آخرَ الأمر، وهو، من بين مؤلّفاته، الكتاب الوحيد الذي كنتُ قد قرأتُ شيئاً منه في ترجمة الأب بريفو. ولم

(31) **تاريخ آل ستيوارت** (*Histoire de la maison Stuart*) ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

أكن قد اطّلعتُ على سائر نتاجه. فأيقنتُ، استناداً إلى ما قيل لي، بأن هيوم قد جمع بين الروح الجمهوري الحقّ والمفارقات الإنجليزية المؤيّدة للترف. فالذي أيقنتُه من هذا القبيل عوّلتُ عليه وأنا أنظر في دفاع هيوم عن شارل الأول، فاعتبرتُ دفاعه آية في التجرد والإنصاف، وعظُمَ تقديري لفضيلة هيوم ولعبقريته على السواء. ثم إن رغبتي في أن أعرف هذا الرجل الفذ وأن أحظى بصداقته قد ألهبتْ شوقي للانتقال إلى إنجلترا بعد ما حثتني عليه ملتمَساتُ [مناشدات] مدام دو بوفلير، صديقته الحميمة. وكنتُ، لمّا وصلتُ إلى سويسرا، قد ورد عليّ منه، عن يد هذه السيدة، رسالة هي في نهاية اللطف أثنى بها على عبقريتي ثناءً جميلاً ودعاني أن أصير إلى إنجلترا، وعرضَ عليّ نفوذه وأصدقاءه جميعاً ليطيّب لي الإقامة هناك. فلقيتُ في سويسرا ميلورد المارشال، وهو من مواطني هيوم ومن أصدقائه، فأكد لي كل ما قد حَسُن ظني به من هذه الناحية، حتى إنه أخبرني بنادرة أدبية حصلتْ لهيوم فوقعتْ من ميلورد ومني موقعاً مستحبّاً جداً. وذلك أن والاس[32]، وهو الذي كتب يحمل على هيوم في شأن أهل الأزمنة القديمة، كان غائباً بينما مؤلّفه يُجرى طبعه. فتولى هيوم إعادة النظر في مسوّدات المؤلّف واعتنى بنشره وإصداره. فجرى هذا السلوك على مجرى فطرتي وتفكيري، وكنتُ على مثل ذاك يومَ روّجتُ نُسخَ أغنية أُلّفتْ للطعن عليّ وثمن النسخة منها ستة دراهم، فحسُن ظني بهيوم في كل وجه. إذ ذاك أَقبلتْ إلي مدام فردولان فحدثتْني بالصداقة التي قال هو إنه يوليني إياها وبشوقه إلى أن يحتفي بي في إنجلترا؛ هكذا قالت. فألحت عليّ أن أغتنم هذه المروءَة فأكتب إلى السيد هيوم. فأَبَيتُ أن أكتب إليه وأَبَيتُ أن أعدها

---

(32) روبرت والاس (1697-1771) قسيس اسكوتلندي عمل في خدمة الكنيسة وفي التأليف، ومما ألّفه كتاب في شتى العناصر البشرية في الأزمنة القديمة والحديثة ـ المترجم.

بالكتابة، لأني لم أمل إلى إنغلترا ولا أردتُ الإقامة بها إلا على أقصى اضطرار. بيد أني أطلقتُ يد مدام دو فردولان لتعمل كل ما تعتبره مناسباً فتُبقي هيوم على جميل استعداده. فلما انصرفتْ عن موتييه، كانت قد قالت لي في هذا الرجل الشهير ما اقتنعتُ معه أنه صديق لي وأنها هي، علاوةً على ذلك، صديقة له.

حتى إذا ارتحلتْ، أَمعن مونمولان في مداوراته، فجمح الغوغاء لا رادع لها. فلم أَن، مع ذلك، أتنزه بهدوء وسط الصخب. وكنتُ قد ملتُ إلى علم النبات، إذ ابتدأتُ آخذه عن ديفيرنوا الطبيب، فعادت نزَهي مبعث اهتمام جديد. فذهبتُ في البلاد أجمعُ النباتات لكي أدرسها، فلم تؤثر فيّ جلبة أولئك الرعاع بأسرهم. فلما أَلفوني ثابت الجنان، لم يزدادوا إلاّ غيظاً. وكان من أشدّ ما آلمني هو أن أرى أَسَرَ أصدقائي(*)، أو من دُعوا هكذا، قد حالفوا مضطهديّ فجهروا بمحالفتهم أو كادوا يجهرون. ومن أمثال أولئك الأصدقاء آل ديفيرنوا، وما استثنى منهم والد عزيزتي إيزابيل وشقيقها، وبوا دو لاتور، نسيب الصديقة التي كنتُ مقيماً عندها، ومدام جيراردييه بنت حميها. فإن بيار بوا دو لاتور، هذا الوفر غلظةً وحمقاً وغباوةً، قد سلك حيالي سلوكاً جمّ الفظاظة، حتى لقد أجزتُ لنفسي أن أُمازحه لئلا أَغضب، فصنعتُ، على مثال كتاب «**النبي الصغير**»، كراساً لم يجاوز بضع

(*) كان الشؤم قد ابتدأ يحلّ بي مذ أقمتُ في إيفردون. وذلك أن البارون دي روجان توفي بعد ما زلتُ عن هذه المدينة بسنة أو بسنتين، وأن روجان الشيخ الأبوي الطيّب ذكر لي، عن حُسن طوية، أنه عُثر، في أوراق نسيبه، على أدلة تُثبت أنه قد شارك في الدسيسة ابتغاءَ طردي من إيفردون ومن ولاية برن. فأقام ذاك أجلى برهان على أن الدسيسة لم تكن شأن ورعٍ مزيّف كما أراد بعضهم أن يوهموا أنها عليه؛ فالبارون دي روجان لم يكن قط في أهل التقى، وإنما هو قد أمعن في الماديّة والإلحاد حتى التضييق والتعصّب. وإلى ذلك، لم يُقبل عليّ أحد في إيفردون فلزمني فبالغَ في ملاطفتي ومدحي وتملّقي مثلما فعل الباورن دي روجان المذكور. فلقد أخذ بخطة مضطهديّ العزيزة فسار عليها سيراً أميناً.

twitter @baghdad_library

صفحات عنونتُه: «**رؤيا بطرس الجبليّ، المسمى الرائي**»[33] فوجدتُ به السبيل إلى أن أتهكم الغرائب التي احتجوا بها ليضطهدوني، ولم يكن تهكمي نزْرَ المداعبة. فبعث **دو بيرو** يطبع وريقاتي هذه في جنيف، فلم تلقَ سوى نجاح ضئيل؛ وذاك أن أهل نوشاتيل، مع ما هم فيه من ذكاء، لا يكادون يستشفّون رقة المُلح والمزح ما أن يكون لها القليل من الرهافة.

ولقد عملتُ، يومئذٍ، مؤلَّفاً آخر كنتُ أكثر عنايةً به، وستوجد مخطوطته بين أوراقي، ولا بد من أن أذكر موضوعه ههنا.

وذلك أني بينما كنتُ تحت شدّة أوامر الاعتقال والاضطهاد المسعورة، تميَّزَ أهل جنيف تميّزاً خاصاً إذ قاموا يكيلون الويل والوعيد جهد طاقتهم؛ وكان من بينهم صديقي فرن فاختار تلك الساعة بالذات ليذيع رسائل حمل بها عليّ بسخاء لاهوتيّ حقّاً وزعم أنه ثبَّتَ كوني لستُ على دين المسيح. ولقد كتب رسائله بروح الاكتفاء بالنفس، فلم تَفْضُل على رسائلي، حتى ولئن أكدَ الناس أن بونيه، عالم الطبيعيات، قد ساعد فرن على وضع رسائله. وكان بونيه مادياً، لكنه، برغم ذاك، ما إن انصبتْ عليَّ النقمة حتى لم يفتأ في استقامة رأيٍ شديد التعصب. فلم أُغَر بالرد على هذا المؤلَّف ولا جرم، لكنْ سنح لي الكلام عليه في «**رسائل من الجبل**»، فأدرجتُ، في كتابي هذا، نبذة استخفّت بكتاب فرن، فغضب وثار فملأ جنيف صياحاً، فقال لي ديفيرنوا إن فرن بات لا يتمالك. فصدرتْ، بعد حين، نشرةٌ غفْلٌ لم يبدُ أنها خُطّت بالحبر ولكن بعباب فليجيتونوس[34] فاتُّهمتُ،

---

(33) **رؤيا بطرس الجبليّ المسمى الرائي** (*La vision de Pierre de la montagne, dit Le Voyant*) ـ المترجم.

(34) فليجيتونوس هو، في الميثولوجية، نهرُ نار بالجحيم ـ المترجم.

في هذه الرسالة، بأني تركتُ أولادي في الشوارع، وبأني أجرّ خلفي امرأة من اللائي يتصدين لحرس الثكنات، وبأنْ قد نهكني الفجور وعاث فيّ داء الزهري. فلذلك كله لم يصعب عليّ أن أعرف صديقي فرن[35] فلما قرأتُ الأهجية، كان أول ما خطر لي هو أن أجزي كل ما يقال له شهرةٌ وصيتٌ بين البشَر حقَّ جزائه، إذ رأيتُ بعضهم يتناولون إنسانا لم يغشَ المواخير قط فيصفونه بأنه من روّادها، على حين كان جُلُّ عيبه الحياء والخجل كأنما هو امرأة عذراء، وإذ رأيتُهم يعلنون أن الزهري قد عاث فيّ، أنا الذي لم يُصَب قط بشيء من هذه العلة ولا بمثْلها، فضلاً عن أن بعض ذوي العلم فيها وجدوني قد بُنيتُ على نحو لا أصاب معه بهذه [الأمراض]. حتى إذا فكرتُ وترويتُ، ألفيتُني لا أستطيع أن أُبطل هذه الأهجية إبطالاً هو أَحسن من طبعها في المدينة التي أقمتُ فيها أطول وقت. فأَرسلتُ بالأهجية إلى دوشين ليطبعها كما هي، ومعها تنبيه أوردتُ فيه اسم السيد فرن وبعضَ التعليقات القصيرة إيضاحاً لواقع الأمور. ولم أكتف بطبع هذه النشرة، بل بعثتُ بها إلى عدة أناس، منهم الأمير السيد لويس دو فرتنبر، وكان قد سلّفني من لطفه وفضله آيات كريمة جداً، وكنا يومئذٍ على تراسل. فشكّ الأمير ودو بيرو وشكّ سواهما أن يكون فرن هو صاحب الأهجية، فلاموني على فرط خفّتي وقد ذكرتُ اسمه. فوخزني ضميري، فكتبتُ إلى دوشين أن يتلف النشرة. فكتب إليّ غي بأنه أتلفها، ولستُ أدري هل فعل، فلقد طالما رأيتُه يكذب، حتى إنه لو أضاف، إلى ما سبق منه، كذبة أخرى، لم أستغرب شأنه. فبتُّ، مذ تلك الساعة، وقد تكاثفتْ عليّ الغياهب فلم أقدر أن أستجلي أيّ حقيقة كانت.

---

(35) الرسالة التي طُعن فيها على روسو عنوانها: شعور المواطنين وقد ألّفها فولتير، لافرن ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

فاحتمل السيد فرن هذي التهمة، بعد الذي سلف من غيظه، احتمالاً هو أَعجبُ من أن يكون عليه رجل لم يستأهل أن يعزى إليه شأنها. فكتب إليّ رسالتين، أو ثلاث رسائل، فتروّى جداً في ما كتب، فلاح لي أنه يحاول أن يتخذ إجابتي وسيلة يقف بها على مبلغ علمي بأمره وهل عندي من بيّنة عليه. فكتبتُ إليه في هذا المعنى جوابين، فأوجزتُ وجفوتُ وكنتُ قاسي الكلام، ولكن لم أطو عبارتي على سوء تهذيب، فلم يغضب السيد فرن. فلما وردتْ عليّ رسالته الثالثة فوجدتُه قد ابتغى أن يجعل بيننا ضرباً من التكاتب، عدتُ لا أجيبه بشيء، فأنطقني على يد ديفيرنوا. فكتبت السيدة كرامر[36] إلى **دو بيرو** تقول إنها على يقين بأن الأهجية لم يضعها فرن. فما كان ذلك كله ليزعزع ما قد اقتنعتُ به؛ ولكن، إذ ربما كنت أخطأتُ فوجب عليّ أن أستدرك خطأي إلى فرن أيَّ استدراك، قلتُ لديفيرنوا يقول له إنه إذا استطاع حقّاً أن يدلني إلى كاتب الأهجية، أو إذا استطاع، في الأقل، أن يُثبت أن ليس هو بصاحبها، استدركتُ خطأي إليه على حسب ما يرضيه. ولقد ذهبتُ إلى أبعد من ذلك، فشعرتُ أنه إن كان فرن غير مذنب، لم ينبغ لي أن أُلحف عليه حتى يأتيني بشيء من الإثبات. ورأيتُ أن أضع أسباب اقتناعي في مذكرة كافية الإسهاب أعرضها على حَكم لا يسع فرن أن يأباه. وإنك تحزر من الحَكم الذي اخترتُ؛ هو مجلس جنيف. وأعلنتُ، في ختام المذكرة، أن إذا نظر المجلس في الأهجية فقام بما يستلزمه من التحري فوفّق فقضى بأن السيد فرن ليس بصاحبها، عدتُ فوراً عن ظني أن مؤلّفها، وجئتُه فارتميتُ عند قدميه فما فتئتُ أستصفحه ذنبي إلى أن يصفح عنه. وإني لأجرؤُ على القول إن نخوتي للإنصاف العظيمة، واستقامة نفسي

(36) الأرجح أنها زوجة أحد الشقيقين كرامر وهما اللذان توليا طبع مؤلّفات فولتير - المترجم.

وسماحها، ويقيني بحبّي للعدل حبّاً قد فُطرتْ عليه جميع القلوب - أجرؤ على القول إن ذلك بأسره لم يكن قط أوفى تجلياً ولا أفصح شعوراً مما قد كان عليه في مذكرتي التي احتكمتُ بها إلى ألد أعدائي في ما جرى بيني وبين النمّام. فقرأتُ المذكرة على **دو بيرو**، فأشار عليّ بأن أطويها، فطويتُها. ونصح لي أن أنتظر الأدلة التي وَعد بها فرن، فانتظرتُها وما أزال أنتظر. ثم نصح لي أن أسكت في غضون ذلك، فسكتُّ، ولسوف أَسكتُ ما حييتُ وقد أصابني اللوم على أني اتهمتُ فرن اتهاماً جسيماً كاذباً يفتقر إلى برهان، وإن ظللتُ مقتنعاً، في الصميم، بأن فرن هو صاحب الأهجية اقتناعي بأني، أنا نفسي، موجود. أما مذكرتي، فهي في حيازة **دو بيرو**. فإن نُشرتْ يوماً، وقفتَ على بيّناتي فعرفتَ، وهو ما آمله، روح جان جاك وهي التي ما كان المعاصرون ليريدون معرفتها إلاّ قليلاً.

ولقد حان أن أرجع إلى النائبة التي نابتني في موتييه، وإلى رحيلي عن فال دو ترافير، بعد ما أقمتُ هناك سنتين ونصف السنة، وبعد ما بقيتُ ثمانية أشهر أُقاسي شرّ معاملةٍ ثبتُّ على احتمالها ثباتاً لم يتزعزع. ولا يمكنني أن أتذكر تفصيلات ذلك العهد المكروه، بيد أنك تجدها في ما روى عنها **دو بيرو** مما أنا متكلّم عليه.

فكان أن هبّتْ عليّ الخواطر فتفاقمتْ ثورتها مذ برحتْني مدام دو فردولان، فكرّر الملك نواهيه، وكرّر مجلس الدولة أوامره، فاهتم حاكم القصر واهتم القضاة المحليّون، ولكن، مع ذلك، نظر إليّ الشعب على أنني، فعلاً، المسيح الدجّال. فلما رأوا صخبهم قد ذهب في غير طائل، عمدوا إلى العنف. وكنتُ قد رُشقتُ بالحصى وأنا على الدروب، إلاّ أني رُميتُ بها من حيث كانت أَبعد من أن تصيبني. حتى إذا وافت ليلةُ معرض موتييه، في مبتدأ أيلول، هُجم على منزلي فعُرّضتْ حياةُ من به للخطر.

twitter @baghdad_library

وذلك أنه دوّى بسمعي، نصفَ الليل، صوتٌ في الممر الذي يشرف على مؤخر البيت. فإذا سيلٌ من الحصى قد انهمر على الشبّاك وعلى الباب اللذين يؤديان إلى هذا الممر، فسقطتْ عليه الحصى بصوت عظيم، حتى إن كلبي، وكان يرقد هناك، قد جعل ينبح ثم صمتَ فزعاً فنفر إلى بعض الزوايا يقضم خشب الممر ويُعمل فيه أظفاره يحاول الهرب. فنهضتُ على الصوت أهمُّ بأن أخرج من حجرتي إلى المطبخ، فإذا حصاة قد رَشقتْ بها يدٌ قوية، فجازت المطبخ، بعد ما حطمتْ نافذتَه، فضربتْ بابَ حجرتي ففتحتْه فوقعتْ على أسفل سريري حتى إني لو لم أكن أسبَق منها بطرفة عين، لأصابتني في المعدة. فقدّرتُ أن الصوت قُصدَ به اجتذابي، وأن الحصاة قُصدَ بها استقبالي لحظةَ أخرج. فطرتُ إلى المطبخ، فبصرتُ بتيريز وقد نهضتْ أيضاً، فخفّتْ إليّ تتملّكها الرعدة. فاصطففنا إلى جدار لم يكن على اتجاه النافذة اجتنابَ أن تصيبنا الحجارة وإرادةَ أن نرى ما ينبغي لنا إتيانه، لأنه لو خرجنا فاستغثنا، لقُضي علينا. ولقد كان في حُسن الحظ أن خادمة رجل عالي السن طيّب يبيت في الطابق الذي فوقي، قد نهضتْ على الصوت فأسرعتْ إلى حاكم القصر تناديه، وكنا نسكن في جوار بيته، باباً إلى باب. فقفز من سريره، فارتدى على عجل فضْلته، فجاء فوراً ومعه العسس، وقد طوّفوا ليلئذٍ من أجْل المعرض فصادفهم الحاكم قريباً منه. فلما رأى إلى الأضرار، ذُعر جداً حتى لقد شحب لونه، ولما رأى إلى الحصى قد ملأت الممر، صاح قال: «يا الله! هذا مقلع!» ثم انحدرنا إلى الطبقة السفلى، فوجدنا إحدى الدور الضيقة قد كُسر بابُها محاولةَ الدخول إلى البيت من الممر. فلما بحثنا أن لمَ لم ينتبه العسس لهذا الشغب أو لمَ لم يمنعوه، تبيَّن أن عسس موتييه قد تشبثوا بأن يطوّفوا هم ليلئذٍ، وإن لم تكن نوبتهم بل نوبة قرية أخرى. حتى إذا أصبحنا من الغد، أرسل حاكم القصر بتقريره إلى

مجلس الدولة، فبعث إليه المجلس، بعد يومين، يأمره أن يحقق في القضية، وأن يَعد بمكافأة من يدلّون إلى المذنبين وبكتم أسماء المرشدين، وأن يقيم، في غضون ذلك، حرساً على داري ودار حاكم القصر الملاصقة لها فيجرى لهم من مال الأمير. ثم أقبل يزورني، في الغد، الضابط الزعيم بوري، والنائب العام مورون، وحاكم القصر مارتينيه، ومحصّل الضرائب غيونيه، وخازن الأموال ديفيرنوا ووالده؛ وخلاصة القول أن كل من في البلاد من ذوي النجابة والإلطاف قد أقبلوا يزورونني فأجمعوا على حضّي والطلب إليّ أن أُذعن للإعصار فأخرج، ولو إلى حين، من رعيّة لم يبقَ في وسعي الإقامة بينها على الأمان والعز. ولقد لاحظتُ أن حاكم القصر هالته سورة ذلك الشعب الغضبان، فخشي أن تمتد إليه، فودّ لو أرتحل بأسرع ما يكون، فأكفيه مشقّة حمايتي؛ وودّ لو أنه هو نفسه يهجر تلك الرعية، فهجرها بعدرحيلي عنها. وإذاً، فقد أذعنتُ لم آسف إلاّ قليلاً؛ فإن ضغينة الشعب كانت قد مزّقني مشهدُها فبتُّ لا أقوى على احتماله.

وكان أمامي أكثر من خلوة واحدة أختارها مسكناً. وكانت مدام دو فردولان، مذ رجعتْ إلى باريس، قد ذكرتْ لي، في عدة رسائل، رجلاً اسمه السيد والبول[37] تدعوه ميلورد قد هزته لأجْلي نخوة عظيمة فعرض عليّ، في أرض من أراضيه، مأوًى وصفتْه لي مدام دو فردولان أبهج وصف، ثم دخلتْ، في أمر سكني ومعاشي، دخولاً مفصلاً دلّ على مبلغ اهتمام ميلورد والبول هذا بما عرضه

(37) والبول (1717-1797) شريف إنجليزي صديق لهيوم وللفلاسفة الفرنسيين، ويقول المختصون بروسو وسيرته إن والبول قد نظر إلى صاحب «**الاعترافات**» نظرة غير ودية وعدّه في الدجّالين ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

عليّ. وكان ميلورد المارشال قد نصح لي، على الدوام، أن أقطن بإنجلترا أو باسكوتلندا، فعرض عليّ كذلك مأوًى بأراضيه، إلاّ أنه اقترح عليّ، بالقرب منه في بوستدام، مقاماً أُغريتُ به إغراءً هو أوفى أضعافاً مضاعفة. وكان ميلورد المارشال قد نبّأني، يومئذٍ، يقول حدّثه به الملك في شأني وكأنما هو دعوة لي إلى هناك. وكانت الدوقة مدام دو ساكس غوتا قد اعتمدتْ على سفرتي هذه كل الاعتماد، حتى إنها كتبتْ إليّ تحثني أن أزورها وأنا بطريقي فأتوقف عندها بعض الوقت. غير أني كنتُ قد تعلّقتُ بسويسرا تعلّقاً وثيقاً فلم أقدر أن أعتزم هجرها ما استطعتُ المكوثَ فيها، فانتهزتُ مدتي هذه لكي أُنفّذ خطة كانت قد شغلتْني منذ بضعة أشهر فلم يتهيأ لي الكلام عليها بعد حتى لا أقطع مجرى قصتي.

أما تلك الخطة، فمدارها أن أُيمم جزيرة سان بيار، وهي في أملاك مستشفى برن، وسط بحيرة بيانّ. وكنتُ، بالصيف الماضي، قد سافرتُ مع **دو بيرو** مشياً، فزرنا تلك الجزيرة، فسحرتْني جداً حتى لم أزل أفكر في الإقامة بها مذ ذلك الحين. لكن المشقّة الكبرى هي أن الجزيرة قد ملكها أهل برن، وهم الذين كانوا، لثلاث سنوات خلتْ، قد طردوني من بلدهم طرداً شنيعاً. فإن عدتُ إليهم بعد إعراضهم عني، جرّحتُ عزّتي وإبائي وخشيتُ ألا يُبقوني ثمة على ما يَفضُل صنيعَهم بي في إيفردون سكينةً وسلاماً. فشاورتُ ميلورد المارشال، فكان على رأيي أن البرنيين إنما يطيب لهم أن أنتفي إلى تلك الجزيرة فيتخذوني رهينةَ ما قد يسوّل لي تأليفُه. فبعث ميلورد المارشال يسبر نياتهم، وعَهدَ في الشأن إلى امرئ يدعى السيد ستورلر، جاره القديم في كولومبييه. فاتجه السيد ستورلر إلى بعض رؤساء الولاية، فتوكأ على أجوبتهم فأكد لميلورد المارشال أن البرنيين، وقد أَخجلهم ما سبق من سلوكهم حيالي، لا يبتغون شيئاً

مثلما يبتغون سكني جزيرة سان بيار فيدَعوني بسلام. فجدّدتُ أسباب الاحتياط وضاعفتُها قبلما ذهبتُ للإقامة هناك، فسألتُ الضابط الزعيم شاييه أن يستعلم الأمر فيأتيني بأنباء زيادةً على ما تقدَّم خبرُه، فثبَّت لي الزعيم شاييه تلك الأقوال نفسها. ثم إن محصّل ضرائب الجزيرة حصل على إذن أسياده أن يسكنني فيها، فحسبتُني إذا أَقمتُ عنده، وقد وافق على إقامتي كلٌ من ذي السلطان وأصحاب الجزيرة موافقةً ضمنية، لم أُخاطر بشيء، إذ لم آمل أن السادة أهل برن سيقرّون علانية بأن قد ظلموني ولا أنهم سيتجنّون على أعظم المبادئ حرمةً لدى الملوك أجمعين.

وجزيرة سان بيار، وتسمى في نوشاتيل جزيرة لامُوتْ، هي في وسط بحيرة بيانّ، ومحيطُها يناهز نصف الفرسخ؛ إلاّ أنها، في ضيق رقعتها، تنتج قوامَ العيش كله. ففي تلك الجزيرة حقول ومروج وبساتين وغاب وكروم قد جادت عليها أرض جبلية منوّعة فأَلَّفتْ ألواناً موزَّعةَ البهجة لا تتبدى كلها معاً، بل تتجالى إذ بعضها يدلّ إلى بعض، حتى إنك لتخال الجزيرة أوسع مساحةً مما هي عليه في واقع الأمر. أما نحوها الغربيّ الذي يطلّ على غليريسّ وبونفيل، فهو أرض شامخة قد زُرعتْ، فامتدّتْ، فشُطرتْ، فرُفعَ فيها عريش كان القوم يجتمعون تحته أيامَ الآحاد عند القطاف، يُقبلون من جميع الضفاف المجاورة، فيرقصون ويطربون. وليس في الجزيرة إلاّ بيت واحد، غير أنه فسيحٌ مريح، وهو على وهدة تجنبّه الرياح، وفيه يسكن محصّل الضرائب.

وعلى خمسمائة خطوة، أو على ستمائة خطوة من جنوبي الجزيرة، جزيرة أضيقُ منها جداً، مُهمَلة، خالية، تلوح وقد سلختْها من أختها الكبرى أعاصيرُ بعض ما انطوى من الزمان. أما أرضها الرملية ذات الحصى، فليس بها إلاّ شجر الصفصاف والزنجبيل؛

twitter @baghdad_library

ولكن ثم أكماتٌ معشَّبة رائعات الحسن. وأما شكل بحيرة بيانّ، فشكلُ البيضة على التقريب؛ وأما ضفافها، فأقلُّ غنًى من ضفاف بحيرة جنيف وبحيرة نوشاتيل، بيد أنهن على هيئة زينة وافية الجمال، ولا سيما في شطرهن الغربي الذي كثر سكانُه وسجيته الكرومُ عند سفح قافلة من الجبال في ما يكاد يشبه كروم كوت روتي، إلا أنه لا يجود بمثْل خمرتها الطيّبة المذاق[38] فإن اتجهتَ من الجنوب إلى الشمال، رأيتَ محكمة سان جان، ورأيت بونفيل وبيانّ ونيدو على طرف تلك البحيرة تتخللهن جمعاء قرًى فاتناتُ الروعة.

ذلك هو المأوى الذي هيأتُه لنفسي فاعتزمتُ الإقامة فيه يوم برحتُ فال دو ترافير[*] فكان ما اخترتُه جد موافق لطبعي المسالم ولمزاجي المتفرد الكسول، حتى إني لأعدُّه في ألذّ ما همتُ به من طيّبات أحلامِ اليقظة. فخيل إليّ أن سأكون، وأنا في تلك الجزيرة، أبعد انفصالاً عن الناس، وأن سأكون من إهاناتهم على ما هو أوثقُ أماناً، وأن سيبيتون أعظم نسياً لي. وخلاصة القول إنه خيّل إليّ أن سأغدو أسلس انقياداً لحلاوة الفراغ ولعذوبة الحياة التأملية. فوددتُ، حقاً، لو أنتفي إلى تلك الجزيرة فلا يبقى لي من اتصال بالبشر. والمؤكد أنني قد عملتُ جميع ما يمكنك أن تتصوّره لكي أنجو من ضرورة هذا الاتصال.

---

(38) كروم كوت روتي، وهي غير بعيدة من مدينة ليون، كروم مشهورة بطيب خمرتها ـ المترجم.

(*) ولعله من المفيد التنبيه أنني خلّفتُ بفال دو ترافير عدوّاً لي شخصياً هو المدعو السيد دو ترّو، رئيس بلدية فيريير؛ والقوم هناك على قدْر لدو ترّو نزرٍ ضئيل، لكن له شقيقاً يعمل في مكاتب السيد دو سان فلورنتان يقال إنه رجل نزيه. فأتى رئيسُ البلدية يزور شقيقه قبلما وقع لي الحادث ببعض الوقت. ثم إن أمثال هذه الملحوظات اليسيرة، التي ليست، هي نفسها، ذات شأن، قد تؤدي إلى اكتشاف كثير من خوافي الأمور.

وكان الأمر يتعلق بكسب العيش؛ فالمعيشة في تلك لجزيرة غالية مأكلاً ومشقّةَ أسباب انتقال، والإنسان هناك رهين محصّل الضرائب[39] فجاز بي دو بيرو تلك الصعوبة كلها إذ شاء أن يُجري لي ما دبَّر شأني، فحلّ هو محلّ التجار الذين كانوا قد تولّوا الإصدار لمجموع مؤلَّفاتي ثم تخلّوا عنه. فسلّمتُ دو بيرو مواد ذلك الإصدار برمّتها وقد نسّقتُها وبوّبتُها، وضممتُ تعهدي أن أُسلّمه مذكرات العمر، وأودعتُه أوراقي كلها في وجه العموم، فشرطتُ عليه ألا يستعملها إلاّ بعد وفاتي شرطاً واضحاً لا لبس فيه، إذ تمنيتُ أن أُنهي أيامي بسلام فأعود لا أذكّر بي الجمهور. فكان المرتب، الذي تولى دو بيرو إجراءه لي مدى الحياة، مرتباً كافياً لمعيشتي. وكان ميلورد المارشال قد استردّ جميع أمواله فأهدى إليّ مرتباً قدره ألف ومائتا فرنك لم أقبلها إلاّ بعد ما أَسقطتُ منها النصف. فأراد أن يبعث إليّ برأس مالها، فأَبَيتُ لم أدر أين أستغله. فحوّله إلى دو بيرو، فبقي في حيازته، وما يزال **دو بيرو** يدفع إليّ المرتبَ حصيلَ رأس المال هذا، يؤديه لي كما اتفق عليه مع الموكّل. فلما ضممتُ اتفاقي و**دو بيرو** إلى مرتب ميلورد المارشال، ـ وثلثاهما يستحقّان لتيريز من بعد وفاتي، ـ وإلى مرتب ثلاثمائة فرنك التي وجبتْ لي على دوشين، أمكنني الاعتماد على معيشة كريمة تستمر هكذا من بعدي لأجْل تيريز وقد خلّفتُ لها سبعمائة فرنك دخلاً سنوياً، سواء من مرتب ري أو مرتب ميلورد المارشال. فأصبحتُ لا أخاف أن يعوزها القوت، ولا أن أفتقر إليه. ولكنْ كُتبَ عليّ أن الشرف سيلجئني أن أصدّ عني جميع الموارد التي جعلها في تناول حظّي وعملي، **وكُتبَ عليّ أن أموت فقيراً كما عشتُ**. فإذا أنتَ لم تكن

---

(39) كان محصّل الضرائب يتولى شؤون الجزيرة لمصلحة مستشفى برن ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

بأسفل دركات القبح، قدّرتَ هل أمكنني أن أوفي باتفاقات حرص بعضهم على تشنيعي فيها بكل حال، فحرموني سواها من الموارد ليُكرهوني على أن أرضى بعاري وذلي. فكيف لهم أن يشكّوا في ما كنتُ عازماً عليه وأنا فيه بالخيار؟ ألا إنهم بما في قلوبهم قد قدَّروا ما ظنوه من قلبي في الصميم.

فلما اطمأْنَنْتُ إلى ناحية المعيشة، خلوتُ من كل الهموم. ولئن تركت لأعدائي المجال حراً بين الناس، فلقد أودعت في حماستي النبيلة التي أَلهمتْ مؤلَّفاتي، وفي ثبات مبادئي واطّرادها، شهادةً بحقّ روحي تؤكد ما قد شهدتْ به سيرتي برمتها عن حقيقة طبعي. إني لا أحتاج إلى غير هذه الشهادة لكي أدافع عن نفسي ضد المفترين عليّ. يمكنهم أن يتّخذوني اسماً وأن يصفوا من ورائه بشرا آخر سواي، ولكن لا يمكنهم أن يخدعوا بذلك أحدا إلا الذين سلّموا [أرادوا] بأن يُخدَعوا. كان يمكنني أن أكشف لهم سيرة حياتي فيراقبونها: فيقيني أنهم لن يفتؤوا يرون فيّ شخصي، ومن خلال ضعفي وذنوبي وعجزي عن احتمال أيّ نير كان، إنساناً صالحاً طيّباً لا حقد عنده ولا ضغينة ولا حسد، سريعاً إلى الاعتراف بأوزاره، وهو إلى نسيان أوزار غيره أَسرعُ، إنساناً ينشد كل سعادته في الأهواء الأليفة والعذبة، وهو يذهب في صدقه إلى حدّ التهوّر [عدم الاحتراس] وإلى ما لا يمكن تصوره من ضروب التنزه عن المنفعة.

انزويت إذاً عن عصري وعن مُعاصريَّ، على نحو من الأنحاء؛ وودّعتُ العالمَ منطوياً في تلك الجزيرة بقية العمر؛ فذاك هو ما قد صمّمتُ عليه، وهناك كنتُ أنوي أن أقوم بأكبر مشروع في حياتي المتعطلة، وهو المشروع الذي أوليته، إلى حدّ ذلك الحين، القليلَ من النشاط الذي حبتني به السماء. وكانت تلك الجزيرة آيلة أن تكون

عندي، جزيرةَ البَابيَمانيّة[40] [أرض الصالحين]، ذلك المكان السعيد حيث الناس نيام:

«وحيث الناس أَكثرُ عملاً،

«وحيث الناس لا يعملون شيئاً».

فهذا الـ «أكثر» كان عندي كلَّ شيء، لأنني قليلاً ما ندمتُ على النوم؛ فإنما حسْبي العطالة تكفيني؛ وشريطة ألاَّ أفعل شيئاً البتة، أحب أن أحلم في يقظتي أكثر من منامي. أما وقد انقضى عهد المشاريع الخيالية [الرومنسية]، أما وقد أصابني سرابُ الغرور بالعمهُ أكثر مما استمالني بالمديح، فإنني لم يبقَ لي إلاّ أن أحيا بلا عوز وأنا على فراغ وقت موصول. ذلك هو مرتجاي الأخير، وذلك هو ما يحيا عليه السعداء في ديار الآخرة، فجعلتُ منه أقصى سعادتي في هذه الدنيا.

فمن لاموني في كثرة ما تقلبتُ عليه من متناقضات، فلن يفوتهم، ههنا، لومي على تناقض جديد. وهو أني قد قلت إن العطالة جعلتني أضيق ذرعاً بالمجالس والحلقات، وهآءنذا أنشدُ الخلوة لا لأمر إلاّ لأسلم نفسي للعطالة. بيد أني هكذا هو أنا موجود، فإن يكن في ذلك من تناقض، فإنما بفعل الطبيعة لا بفعلي أنا لكن لا يوجد من هذا التناقض إلا ما كان قليلاً جداً حتى إني، بسبب ذلك تدقيقاً، أنا هو دائماً أنا. فأما عطالة المجالس والحلقات فشيء قاتل لأنها اضطرارية؛ وأما عطالة التوحّد، فشيء بهيج لأنها عن حرية وعن إرادة. فإن كنت في جماعة من الناس، شقَّ عليّ التعطل لأني مكره عليه، فكان لا بد لي أن أقتعد كرسياً وقد

(40) جزيرةُ بابيمانية جزيرة وهمية ابتكرها رابليه ثم كتب عليها لافونتين إحدى حكاياته وفيها هذا البيت الذي استشهد به روسو فتصرف فيه بعضَ التصرف ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

سُمّرْتُ، أو لا بد لي أن أظلّ واقفاً وكأنني الوتد المثَبت، لستُ أحرّك قدميّ ولا الساقين، ولستُ أجرؤ على الركض والقفز والغناء والصياح ولا على الانتقال إذا شئتُ، ولستُ أتجاسر أن أستوي ولو إلى عالم الأحلام، فأصبحتُ من سأم الفراغ وعذاب القسر في أشدّ حال، واضطررتُ أن أنتبه إلى كل ما يدور عليه الحديث من سخف وكل ما يرسَل به من مديح، وأُجبرتُ على كدّ الذهن بلا انقطاع لئلا يفوتني دوري في لعبة الألغاز وفي الأكاذيب. أفهذا هو ما تسمّونه تعطلاً وتفرغاً؟ إنه لشغلُ من قُضي عليه بالأشغال الشاقة.

وأما العطالة [الفراغ] التي أُحبُّ فليست عطالة امرئ مكسال، مكتوف اليدين، خامل عن الفعل خمولاً شاملاً فكراً وعملاً؛ بل هو، في آن واحد، عاطل عطالة الطفل لا ينفك في حركة لا تصنع شيئاً، وعطالة الأحمق يهذر وساعداه ساكنان. فإني أُحبُّ الانشغال بالمعدومات [بتوافه الاشباء] فأبدأ بألف شيء لستُ أُكمل منها شيئاً. وأُحبُّ أن أنطلق ذاهباً عائداً، على حسب ما يخطر لي، أبدل مشروعي كل لحظة، أتعقَّب بعض الذبابِ أينما حطّ وطار، أبتغي أن أقتلع صخرةً لكي أرى ما تحتها. وأُحبّ أن أتولى عملَ عشر سنوات، فأجدّ فيه ثم أعرض عنه بعد عشر دقائق غير آسف عليه. وأُحبُّ، في نهاية الأمر، أن أتجوّل عبثاً طول النهار إلى حيث لا نظام ولا غاية، لستُ أتبع، في كل حال، إلاّ هوى الأوان الذي أنا فيه.

ثم إنّ علم النبات، كما اعتبرتُه على الدوام وكما ابتدأتُ أُولَع به يومئذٍ، كان، على وجه التدقيق، عملَ تعطلٍ ميلاً وتعوّداً، خليق بأن يملأ أوقات فراغي كلها فلا يُبقي مجالاً لهذيان المخيّلة ولا لسآمة البطالة الشاملة عن كل عمل. فأن أذهب في الغاب والريف هائماً متوانياً، أقطف زهرة من هنا تارة، وتارة أقطفها من هناك،

وطوراً أقطع أحد الغصون فأرعى كما يتفق لي أو أكاد، وأن أنظر إلى الأشياء نفسها ألف مرة وألف مرة أخرى فما أزال على ما سلف من اهتمامي بها لأني كنتُ أنساها على الدوام ذلك أجمع هو ما به أمضي الأبدية بلا **ضجر** ولو أواناً واحداً. ومهما يكن شكل النبات أنيقاً رائعاً منوَّعاً، فإنه لا يؤثّر في العين التي تجهله تأثيراً يحرّك اهتمامها به. وذلك لأن اطّراد التشابه في الأنواع العجيبة التي تسود نظام النبات لا يهز إلاّ الذين أُوتوا بعض العلم في هذا النظام. أما سواهم، فإذا بصروا بتلك الكنوز الطبيعية، لم يعجبوا بها إلاّ إعجاباً غبياً رتيباً، فهم لا ينظرون إليها نظرةَ تفصيل لأنهم لا يعرفون ولو ما ينبغي أن ينظروا إليه. أَضفْ أنهم لا ينظرون إليها نظرة إجمال، لأنهم لا علم لهم البتة بتسلسل العلاقات والنسب والتوليفات التي تستأثر بروح رجل الملاحظة. ولقد كنتُ عند هذا الحد السعيد الذي أوقفني فيه وهنُ الذاكرة وهو أني لا أعرف من الأشياء إلا القيل حتى ليكون عندي كل شيء جديداً، وأعرف معرفةً كافية حتى ليكون كلُّ شيء له أثره فيّ. ثم إن مختلف الأتربة التي قسّمتْ تلك الجزيرةَ مع ضيق مساحتها، قد أتاحت لي ألواناً من الأغراس كفتني للدراسة وللتسلية ما حييتُ. فأَبيتُ أن أمرّ بعشبة إلاّ حلّلتُها. فجمعتُ كثيراً من الملحوظات فأنشأتُ، مذ تلك الأيام، أسعى لتأليف كتاب «**نبات جزيرة سان بيار**»[41]

استحضرتُ تيريز، ودعوتُ بكتبي وأمتعتي؛ فنزلنا في بيت صاحب الضرائب. وكان لزوجته شقيقات في نيدو يأتين لزيارتها، كل واحدة منهن بدورها، فأصبحن رفيقات لتيريز. فبلوتُ هناك حياة حلوة وددتُ لو قضيتُ العمر في ما هو مثلها، إذ استطيبتُها فما

---

(41) في الأصل باللاتينية: *La Flora Petrinsularis* ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

ازددتُ إلاّ مرارةَ شعور بما قد تلاها دون إبطاء.

ولقد أُولعتُ بالمياه على الدوام، فإن منظرها ينطلق بي في رؤَى يقظة عذاب، وإن كانت لا يجري إلى معيَّن قصد في كثرة الأحايين. فما نهضتُ من السرير يوماً، والجوُّ صحوٌ جميل، إلاّ صعدتُ إلى السطح أتنشق نسيم الصبح المنعش، البليل، وأُشرفُ على أفق تلك البحيرة الرائعة، ففتنتْ نظري ضفافُها، وفتنتْه الجبالُ المحدقة بالضفاف. ولستُ أرى تمجيداً للألوهة أَولى من هذا الإعجاب الصامت الذي يبعثه التأمّلُ في آثارها والذي لا يفصح عن نفسه بأفعال بيّنة ومكتملة. وإني أفهم لمَ سكان المدن إيمانُهم ضعيف، وهم الذين لا تقع أبصارهم إلاّ على جدران وطرق وجنايات؛ أما أهل الجبال، ولا سيما المتوحدون منهم، فلا قبل لي أن أفهم كيف يستطيعون الجحود بذاك التمجيد. فكيف لا تسمو نفوسهم عشرات المرار كل يوم فيتجهون إلى صانع تلك الآيات الروائع وقد تملَّكهم سحرٌ عجيب. أما أنا، فكنتُ إذا غدوتُ في ساعة النهوض خاصة فأثقلني طول السهاد، طار بي سموُّ المشاعر، وقد أَلفتُه منذ وقت بعيد، فلم يقسرني على كد الذهن والتفكير. ولكن لا يكون ذلك ما لم يبلغ من عينيّ منظرُ الطبيعة الفتّان. وأما إذا كنتُ بداخل حجرتي، أصبحتُ أندرَ صلاةً وعادت صلاتي أكثر فتوراً. ثم إني ما أَشهد المنظر الجميل حتى يغلب عليّ التأثر لستُ أقدر أن أقول ما الذي أثّر فيّ. ولقد قرأتُ أنه بينما كان أسقفٌ حكيم يزور أبرشيته في بعض الأيام، لقي عجوزاً كلما صلّت لم يتهيأ لها إلاّ أن تقول: «واهاً!» فقال لها: «أمّي الطيّبة، ظَلّي أبداً على صَلاتك؛ إنها أَحسن من صلواتنا». هذه الصلاة الحسنى هي صلاتي أيضاً.

وكنتُ إذا قمتُ عن طعام الصباح، أسرعتُ أخطّ بعض الرسائل

وأنا في عبوس، فتشوقتُ اليوم السعيد الذي فيه أغدو لا أَكتب من رسائل البتة. ثم أقبلتُ على كتبي وأوراقي ذاهباً آيباً، فأخرجتُها مما صُندقتْ فيه ورتّبتُها أَكثَر مما قرأتُها، فبات هذا الترتيب وكأنه، عندي، شغل بنيلوبة وأتاح لي لذة التلهي بعضَ الوقت على غير جدوى؛ ثم مللتُ ذلك، فملتُ عنه، فسلختُ ما بقي من ساعات الصباح الثلاث، أو الأربع، أدرس علم النبات، ولا سيما طريقة لينّيه، فشغفتُ بها شغفاً لم أستطع أن أبرأ منه حتى بعد ما أدركتُ أنها طريقة فارغة. وإني أميل إلى الاعتقاد أن هذا العالم الدقيق الملاحظة هو، إلى يومنا، الشخص الوحيد الذي نظر في علم النبات نظرةَ عالم بالطبيعيات ونظرةَ فيلسوف، فلم يعدله في ذلك إلاّ لودفيج. بيد أن لينّيه قد أفرط في الدراسة بمجموعات النبات وبالحدائق ولم يدرس في الطبيعة، هي عينها، درساً كافياً. أما أنا، وقد عددتُ الجزيرة كلها بستاناً، فلقد كنتُ إذا احتجتُ إلى أن أراقب شيئاً، أو إلى أن أتيقَّنه، أسرعتُ إلى الغاب، أو إلى المروج أتأبط كتابي، فاستلقيتُ بالقرب من الغرسة التي أريدها، فجعلتُ أنظر إليها وألحظها عن كثب ما شئتُ أن أفعل. فساعدتْني هذه الطريقة جمَّ المساعدة على معرفة النباتات في أحوالها الطبيعية قبلما تناولتْها أيدي البشر فزرعتْها وغرستْها فغيَّرتْ طبيعتها. ولقد كان فاغون، رأسُ أطباء لويس الرابع عشر، يعرف حقّ المعرفة في جميع أغراس الحديقة الملكية ويعلم أسماءها كلها، ولكن يقال إنه كان على تمام الجهل بنباتات الريف، حتى لم يعرف فيها قط. أما أنا، فعلى نقيض ذلك بوجه التدقيق، إذ أعرف صنع الطبيعة بعض المعرفة؛ بيد أني لا أعرف شيئاً من صنع البستاني.

وكنتُ إذا وافى ما بَعْد الغداء، استسلمتُ إلى مزاجي المتواني المكسال، فسرتُ حيثما سارت بي نزوة الأوان الذي أنا فيه. فإذا كان

twitter @baghdad_library

الجو صافياً، فكثيراً ما ذهبتُ، بعد القيام عن المائدة، أرتمي وحدي على قارب علّمني صاحب الضرائب كيف أُجريه بمجذافٍ فرد، فمخرتُ به ملءَ المياه. فإذا ابتعدتُ من الشاطئ، فرحتُ حتى ارتعشتُ طرباً لم أدر كيف أعبّر عن طربي ولا وقفتُ على سببه حقّاً إلاّ أن يكون هو، مني إليّ، عن خفيّ تهنئةٍ بأن قد غدوتُ في مكان لا يصيبني فيه الأشرار. ثم همتُ بعد ذلك على البحيرة وحدي، وربما قاربتُ الشاطئ ولكن لم أطأ اليابسة قط. وغالباً ما خلّيتُ قاربي وأنا فيه فجرى على ما يحلو للنسيم والماء، فانقدتُ لأحلام يقظة لا موضوع لها، ولئن دوّمتُ فيها على ما لا طائل تحته، فإنها لمن طيّبات الأحلام. وربما صحتُ وقتئذٍ في حنان أقول: «أيتها الطبيعة! يا أمي! هأءنذا في حمايتك وحدك؛ فليس ههنا من بشرٍ بارعٍ خادعٍ يحول بينك وبيني». فابتعدتُ عن اليابسة إلى زهاء نصف الفَرسخ وأنا على تلك الحال، فوددتُ لو أن البحيرة هي الأوقيانوس. إلاّ أن كلبي المسكين لم يكن مثْلي حبّاً لطول الاسترسال على المياه، فألفتُ، إرضاءً مني له، أن أتجه في نزهتي إلى بعض المقاصد فأنزل بالجزيرة الصغيرة، فأتنزه فيها الساعة أو الساعتين، وأستلقي إلى العشب عند قمة الأكمة، فأرتوي من بهجة التأمل للبحيرة وللجوار، وأنظر في جميع الأعشاب التي تكون في تناولي فأُشرّحها، وأبني لنفسي في تلك الجزيرة مقاماً خيالياً، وكأنني روبنسون آخر. ولقد تعلّقتُ بهذه الأكمة أيّ تعلّق. وكنتُ إذا تهيأَ لي أن أستصحب تيريز وزوجة صاحب الضرائب وشقيقاتها إلى هناك، بلغ اعتزازي مبلغاً عظيماً إذ أنا القائد لهن وإذ أنا الدليل. ولقد احتفلنا بنقل بعض الأرانب إلى الجزيرة لكي يعمرنها، فكان هذا لجان جاك عيداً آخر، لأن جماعة الأرانب زادت من اهتمامي بالجزيرة الصغيرة، فازددتُ سعياً إليها ولذةً فيها مذ ذلك الحين وقد ابتغيتُ البحث عن آثار تقدّم السكان الجدد.

ثم ضممتُ إلى ألوان التسلية هذه لوناً ردّ على بالي حلاوةَ أيام الشارميت؛ ولقد حداني على هذا اللون، في الأخص، الفصل الذي كنا فيه من العام. وكان لون التسلية يدور على شيء من العناية الريفية بجني الخضرة والثمر عنايةً ريفية؛ فطاب لنا، أنا وتيريز، أن نقاسم زوجة صاحب الضرائب وأُسرتها تلك العناية. وإني أتذكر أن رجلاً من أهل برن، ويدعى السيد كيرشبرجيه، أتى مرة يزورني فرآني على شجرة عالية وقد علّقتُ بزناري كيساً حُشي بالتفاح حتى لقد تعذّرتْ عليّ الحركة، فلم يسؤني هذا اللقاء ولا ساءني بعض أمثاله. فأمّلت أن البرنيين الذين شهدوا كيف كنتُ أملأ أوقات الفراغ، قد باتوا لا يخطر لهم أن يكدّروا صفاءها بل يدَعوني في توحدي بسلام. ولكم فضّلت لو أنّ توحدي كان بمقتضى إرادتي لا بمقتضى إرادتهم، فإذّاك أزدادُ يقينا بأن لا أحد قط سيعمد إلى إقلاق راحتي.

ذلك هو إقرار آخرَ مني أيقنتُ مسبقاً بأن القراء لن يصدّقوه إذْ يُصرُّون على أن يحكموا دائماً بأنفسهم هم بالذات في شأني أنا بالذات حتى ولئن أُرغموا على أن يتبيّنوا في مجرى حياتي كلها ألف وجْدان ووجدان لا يشبه وجداناتهم البتة. والأغرب أنهم، وقد أنكروا عليّ جميع المشاعر الحسنة أو اللاّمبالية مما ليس بحوزتهم، فإنهم على تمام الاستعدادا دائماً لكي ينسبوا إليَّ أشنع المشاعر كلها مما لا يقدرون على إسكانه في قلب إنسان: فحينئذٍ يسهل عليهم أن يجعلوني في تناقض مع الطبيعة، وأَن يجعلوا مني وحشاً هو على حال لا يمكن أن يوجَد له مثيل أبداً. وليس هناك من شيء لا معقول [عبثي] إلا ويظهر لهم غير قابل للتصديق كُلّما نزع إلى تبكيتي، بالغاً ما بلغ هذا الأمر، حتى يبدو لهم أنه قابلٌ التصديق؛ ولكن ما من شيء عجاب خارقٌ إلا ويظهر لهم من الممكنات كلما، نزع إلى تكريمي. ومهما كان اعتقادهم وأقوالهم، فلن أبرح أعرض ما كانه

twitter @baghdad_library

جان جاك روسو، وما فعله، وما فكر فيه، عرضاً أميناً لا أشرح به غرابةَ مشاعره وخواطره، ولا أسوّغها، ولا أتحرّى أن هل سواه على مثل رأيه. ثم إن جزيرة سان بيار طابت لي كثيراً، ولاءمني المقام بها جد الملاءمة، فنزلتْ كلُّ رغائبي في تلك الجزيرة، حتى إني أردتُ ألا أبرحها. فكنتُ إذا اضطررتُ أن أزور بعض الجوار وأن أقصد نوشاتيل وبيانّ وإيفردون ونيدو، أَعييتُ مخيّلتي. فأن أسلخ في غير الجزيرة يوماً واحداً، فهذا عندي يوم قد أسقطتُه من أيام السعادة، وأن أخرج من حدود البحيرة، فهذا عندي خروج عن العنصر الطبيعي الذي هو لي. ثم إن تجربة الماضي قد صيّرتني حذراً. فكفى أن تصيب نفسي شيئاً من خير حتى أتوقَّع فقدانه. فما اشتهيتُ أن أختم العمر في تلك الجزيرة إلاّ خفتُ أن أُرغَمَ على الخروج منها. ولقد تعودتُ أن أصير، في كل عشيّة، إلى الشاطئ الرمليّ فأقعد هناك، ولا سيما إذ البحيرة في هياج، فأشعر بلذة غريبة وأنا أنظر إلى الأمواج تتحطم عند قدميّ، فأتصوّر في ذلك اعتلاجَ العالَم وهدوءَ مسكني، وربما تملَّكْني التحنن أحياناً وأنا على هذه الخواطر، فأحسستُ أن عينيّ تذرفان. ثم هذه الراحة، التي استمتعتُ بها أيّ استمتاع، لم يكدّر صفوَها إلاّ قلقي خوفَ أن أعدمها، فانتهى هذا القلق إلى أنْ أَضعَفَ من استمتاعي بها. ولقد أدركتُ أن حالتي غير مستقرة، حتى إني لم أجرؤ أن أعوّل عليها. فقلتُ في نفسي: «آه! لو أَستبدل بحريّة الخروج من الجزيرة ثقةَ التمكن من البقاء فيها طول العمر، إذ لستُ أبالي حريّة الخروج! ولو أُحبس في الجزيرة قهراً بدل أن أُطلق فيها منّةً وتفضلاً! وإن الذين احتملوني في الجزيرة يستطيعون، في كل وقت، أن يطردوني منها؛ أوَيسعني الأمل أن مضطهديّ، وقد رأوني سعيداً بها، يقيموني على السعادة؟ آه! أن يؤذَن لي في السكنى هناك ذاك شيء قليل؛ فلو يُحكَم عليّ بهذه السكنى! ولو أُجبَرُ عليها لئلا أُجبَر على الخروج من الجزيرة». ولقد

حسدتُ ميكالي دو كريت، وهو الذي أقام بقصر أربرج على الدعة والسلام فكان حسْبه أن يريد السعادة حتى يصيبها. فأَفرطتُ في استسلامي إلى تلك الهواجس وإلى قلق المخاوف من أن تتجدد الأعاصير فتنقضّ عليّ، حتى لقد تمنيتُ حقَّ التمني لو أن الجزيرة تُتخَذ حبساً لي مؤبَّداً بدل أن تباح لي الإقامة فيها لا غير. وأُقسمُ لو أن هذا الحُكم عليّ لم يتعلّق إلاّ بي، لحكمتُ على نفسي، فأوفيتُ على منتهى السعادة؛ فأن تُفرَض عليّ الإقامة بالجزيرة ما حييتُ، ذلك آثرُ إليّ من خطر أن أُطرَد عنها.

لم يبقَ خوفي هذا طويلاً خوفاً وهمياً بلا مبرر. فحينما كنت أَقلّ توقّعا [لما سيحدث]، إذ وردتْ عليّ رسالة من قاضي نيدو، ـ وجزيرة سان بيار تحت سلطة نيدو، ـ يُبلغني فيها أمر أصحاب السعادة أن أخرج من الجزيرة ومن ولاياتهم. فخيّل إليّ، وأنا أقرأ الرسالة، أنني في منام. فلا شيء أَبعد عمّا هو طبيعي وعن المعقول وعن المُتوَقَّع من أمر كهذا الأمر. فخلتُ هواجسي مخاوفَ إنسان قد ذعرتْه مصائبُه أَكثر منها تكهناً له أساس أدنى. فإن الإجراءات التي عمدتُ لها كي أضمن أن يوافق الملكُ على إقامتي بالجزيرة موافقةً ضمنية، وإن الطمأنينة التي جُعلتُ فيها لكي أتخذ مقامي هناك، وقدومَ عدة برنيين ليزوروني، وقدومَ القاضي هو نفسه لزيارتي وقد غمرني بمودته وعنايته، وقسوةَ الفصل الذي كان من فظيع الشدّة أن يُطرَد فيه رجل سقيم إن ذلك أجمع قد حملني وحمل كثيراً من الناس على الظن أن في الأمرالذي أُمرت به بعضَ سوء التفاهم، وأن من أضمروا لي الشر قد اغتنموا قطافَ العنب وندرةَ اجتماع مجلس الشيوخ يومئذٍ ففجأوني بتلك الضربة.

ولو أصغيتُ إلى هبّة الغضب، لارتحلتُ على الفور. ولكن إلى أين؟ وما الذي أصير فيه على أبواب الشتاء وأنا بلا هدف ولا

twitter @baghdad_library

استعداد ولا سائق ولا عربة؟ وكنتُ لا غنية لي عن فسحة وقت لأدبّر أوراقي وأمتعتي وسائر شؤوني أو أَتركَها جميعاً؛ ولم يُذكَر في الأمر أيُفسَح لي في الوقت أم لا. فأَخذ تَوالي المصائب عليّ يوهن جلدي وشجاعتي. واستشعرتُ، لأول مرة، إبائي الطبيعي ويُذعن لنير الضرورة، إذ وجب عليّ، برغم همسات الفؤاد، أن أتذلل فأستمهل. فكتبتُ إلى السيد دو غرافانريد أن يفسر لي أمر إخراجي، وكان السيد دو غرافانريد هو الذي بعث به إليّ. فأجابني برسالته يقول إنه كثير المعارضة لهذا الأمر وإنه لم يُبلغنيه إلاّ بأعظم الأسف، وأَفعمَ رسالته بعبارات الأسى والتقدْير، فقرأتُ فيها ما دعاني إلى مصارحته، ففعلتُ. حتى إني لم أشكّ أن رسالتي ستفتّح عيونَ أولئك الظالمين فيبصرون ما قد اجترحوا من قسوة، ولم أشكّ أنه إن لم يُلغَ هذا الأمر الشديد، أُمهلتُ في الأقل مهلةً معقولة، وربما أُمهلتُ إلى آخر فصل الشتاء فأتهيأ للرحيل وأختار لي مكاناً لخلوتي.

وبينما كنتُ أرتقب الجواب، أنشأتُ أفكر في حالتي وأنظر في ما ينبغي أن أُقرره. فرأيت جمَّ الصعاب قد أحدقتْ بي، وألفيتُني قد بلغتْ مني الكآبة فساءتْ صحتي جداً، حتى إني استسلمتُ للهزيمة فنجم عن خيبتي ما أَفقدني الطاقة الضئيلة التي رسبتْ في ذهني فأتكئ عليها وأتدبر حالتي المؤسفة خير تدبرٍ مستطاع. وكنتُ حيثما أردتُ اللجوء، اتضح لي أنه لا يسعني النجاة من الوسيلتين اللتين عُمد إليهما لأجْل طردي. أما إحداهما، فهي إثارة الغوغاء عليّ بمناورات خفيّة؛ وأما الوسيلة الأخرى، فهي طردي علناً واقتداراً، دون الذكر لأيّ سبب كان. فغدوتُ لا يمكنني الاعتماد على خلوة مأمونة ما لم أذهب إلى أبعد مما تبيحه لي قواي وما يبيحه الفصل الذي أنا فيه. فارتدّ بي ذلك كله إلى الأفكار التي انشغلت بها منذ حين، فاجترأتُ على أن أتمنى وأقترح إلقائي في أسرٍ مؤبّد، بدل أن

أظلّ هائماً على وجه الأرض وقد توالت عليّ ضروب الطرد عن كل مأوًى أكون قد اخترتُه. فلما انقضى على رسالتي الأولى يومان، كتبتُ إلى السيد دو غرافانريد رسالة ثانية أسأله أن يعرض على أصحاب السعادة ما قد اقترحتُ في هذا الصدد. أما جواب برن عن رسالتيّ الأولى والثانية، فكان أمراً قد صيغ بأقطع العبارات جزماً وقسوة، فأمهلني أربعاً وعشرين ساعة لكي أرحل عن الجزيرة وعن سائر أراضي الجمهورية ـ أراضيها المباشرة وغير المباشرة ـ فلا أعود إلى هناك أبداً أو تُنزَلَ بي أبهظُ العقوبات.

فهالتني تلك الساعة. ولقد ألفيتُني بعدئذٍ على أحوال قلقٍ هو شرّ منها، ولكن لم أبلُ قط ما جاوزها تحيّراً وارتباكاً. وكان أفدح ما شجاني هو أنني أُكرهتُ على التخلي عن الخطة التي رغّبتْني في أن أقضي الشتاء بالجزيرة. ولقد حان لي أن أروي القصة المشؤومة التي زادتني وطأةَ مصائب والتي حملتْ، على خرابي، شعباً منكود الحظ كانت فضائلُه الناشئة قد وعدتْ، مذ ذلك العهد، بأن تُساوي فضائلَ سبارطا وروما يوماً من الأيام.

وكنتُ قد تكلّمتُ على أهل كورسكة في «**العقد الاجتماعي**» فقلتُ إنهم شعب جديد وإنهم، في أوروبا، الشعب الوحيد الذي لم تستنفذه الشرائع، وذكرتُ عظيم الرجاء الذي عُلّق على هذا الشعب إذا أسعده الجد فاهتدى إلى مشترع حكيم. فقرأ مؤلَّفي بعض الكورسكيين، فأثّرتْ فيهم الطريقة المشرّفة التي تكلّمتُ بها عليهم؛ وكانوا يعملون على تأسيس جمهوريتهم، فعنّ لرؤسائهم أن يستشيروني في ذلك العمل الخطير. فكتب إليّ بشأنه رجل يدعى السيد بوتّافيوكو، وهو سليل أُسرة من أُولى أُسَر البلاد وضابط نقيب في فرنسا بالكتيبة الملكية الإيطالية، ثم بعث إليّ بعدة وثائق كنتُ قد سألتُه إياها لكي أقف منها على تاريخ الأمة وأحوال البلاد. وكتب

twitter @baghdad_library

إليّ السيد باولي، أيضاً، مرات متعددة، فشعرتُ أنني لا طاقة لي بمثْل ذلك الشأن، ولكن، مع هذا، لم يسعني ردّ طلبهم أن أشاركهم في عمل عظيم جميل كعملهم، وذلك بعد أن أكون قد حصلتُ على جميع المعلومات التي احتجتُ إليها في هذا السبيل. فكتبتُ إلى أحدهما وإلى الآخر أُجيبُ في هذا المعنى، ولم نزل نتراسل إلى أن ارتحلتُ.

وبلغني وقتئذٍ، على وجه التدقيق، أن فرنسا بعثتْ جنوداً إلى كورسكا وأنها عاهدتْ أهل جنوى. فأقلقتْني المعاهدة وأقلقتْني بعثة الجنود، ولم أكن قد تصوّرتُ بعدُ أن لي بهذا كله أيسرَ تعلّق. فقدّرتُ أن تأليف مثل ذلك الكتاب يقتضي سكينة عميقة، لأن موضوعه يدور على شرائع شعب قد يُقهَر حينئذٍ فيستحيل تأليف الكتاب ويعود في المضحكات. فلم أكتم السيد بوتّافيوكو ما قد ساورني من قلق، فأشاع فيّ الاطمئنان وأكد لي أنه لو انطوت المعاهدة على ما يعارض حريةَ أمته، لم يكن، وهو المواطن الصالح، ليبقى في خدمة فرنسا طرفة عين. والواقع أنني لم أشكّ في الرجل لما كان عليه من الحميّة لأجْل شرائع الكورسكيين ومن وثيق العلاقة بالسيد باولي. فلما علمتُ أن السيد بوتّافيوكو يتردد إلى فرساي وفونتينبلو وأنه على اتصال بالسيد دو شوازوال، لم أستنتج إلاّ أن عنده، عن حقيقة نيات البلاط الفرنسي، الأنباء التي يوثَق بها والتي أَلمعَ إليها ولم يشأ إعلانها في رسائله.

فاطمأن قلبي بعض الاطمئنان، ولكن لم أفهم القصد بإرسال الجنود الفرنسيين، وعجزَ عقلي عن التصديق أنهم إنما كانوا هناك ليدافعوا عن حرية الكورسكيين، وهؤلاء وحدهم قد أمكنهم أن يذودوا عنها أهلَ جنوى. فلم يسعني الاطمئنان حقّاً، ولم يسعني أن أتدخّل في أمر الشرائع المقترَحة ما لم تُثبت لي البراهين أن ذلك

بأجمعه ليس خديعة أُريدتْ بها السخرية مني. ولقد وددتُ لو اجتمعتُ إلى السيد بوتّافيوكو، لأن هذا الاجتماع كان الوسيلة الصحيحة لكي أستنير بها في ما احتجتُ إلى أن أعمله من هذا القبيل. فحداني السيد بوتّافيوكو على أمل الاجتماع إليه، فانتظرتُ وأنا على أنفد صبر، ولستُ أدري أحقّاً كان ينوي الاجتماع إليّ: ولو قد نواه، لحالت دون انتفاعي به النوازل التي أصابتني.

وكنتُ كلما تأملتُ في العمل المقترَح، وكلما نظرتُ في الوثائق التي بين يديّ فأنعمتُ فيها، تضاعفَ عليّ الشعور بأن الشعب موضوعَ الاشتراع، وبأن الأرض التي يقطن بها، وبأن جميع النواحي التي ينبغي أن يُشتَرع له فيها إنما يجب درسها عن كثب. وكنتُ، في اليوم بعد اليوم، أزداد إدراكاً أنه يتعذّر عليّ، وأنا بعيد، أن أصل إلى المعلومات التي لا بد منها لإرشادي. فكتبتُ بذلك إلى بوتّافيوكو، فشعر هو نفسه بمثل ما شعرتُ به. ولئن لم أعتزم الانتقال إلى كورسكا، لقد شغّلتْني أسبابُ السفر إليها. فكلّمتُ في ذلك السيد داستييه، وكان قد خدم في جزيرة كورسكا على عهد السيد دو مايبوا فعرفه في ما أخال. فلم يدَعِ السيد داستييه ذريعة يُرجعني بها عن قصدي إلاّ عمد لها. وإني لأقرّ بأنه إذ وصف لي الكورسكيين وبلادهم فشنّعهم وشنّعها، فترت رغبتي في الذهاب إليها وفي الإقامة بينهم فتوراً عظيماً.

ولكن لما فكرتُ أن أهجر سويسرا بعد ما اضطُهدت في موتييه، تجددتْ رغبتي في الانتقال إلى كورسكا لعلي أصيبُ عند أهل الجزيرة، وأنا بآخر المطاف، تلك الراحة التي أبى الناس أن يُبقوني عليها حيثما كنتُ. بيد أن سفري قد أفزعني منه شيء واحد هو عجزي عن عيشة العمل وكرهي لها في كل حال؛ وهذه العيشة سيُحكَم بها عليّ هناك. فلقد جُبلتُ على التأمل وأنا وحدي ما شئتُ

twitter @baghdad_library

أن أفعل، ولم أُجبَل على الكلام والسعي ومعالجة الأمور وأنا بين الناس؛ لأن الطبيعة، التي رزقتْني أُولى الموهبتين، قد أمسكتْ عني الموهبةَ الأخرى. ومع ذلك، أدركتُ أنني ما أكاد أصل إلى كورسكا حتى أُضطر إلى الانقياد لحماسة الشعب وحتى أُضطر إلى مباحثة الرؤساء جُلَّ الأحايين، وإن لم أشارك في الشؤون العامة مشاركةً مباشرة. فرحلتي قد اقتضى غرضُها أن أفتش، في صميم تلك الأمة، عن المعلومات التي احتجتُ إليها، ورحلتي لم يقتض غرضها أن أطلب الخلوة. فتبيَّنَ لي أنني لن أبقى في أمري حُرَّ التصرف، وأني سأقيم على ما يناقض طبعي أقصى المناقضة وعلى ما لا يُظهرني إلاّ بما يسيء إليّ وقد جرفني تيّارٌ لم أُخلَق له في شيء. وتوقّعتُ أن حضوري لن يحقق ما كان للكورسكيين من رأي في جدارتي لحسنٍ قد أوحت به إليهم مؤلَّفاتي، وتوقّعتُ أن أَفقد منزلتي عندهم، وتوقّعتُ أن أضيّع ثقتهم بي وحينئذٍ لا أوفَّق في العمل الذي ارتقبوه مني فيكون في ذلك مَخسرةً لي ولهم على السواء. وأيقنتُ أنه إذا خرجتُ عن نطاقي الذي كنتُ فيه، لم أنفعهم قط وأشقيتُ نفسي.

ولقد أمسيتُ في عذاب، وصعقتْني ضروب الأعاصير، وأعيتني الأسفار والاضطهادات قد تواترتْ عليّ منذ عدّة سنين؛ فشعرتُ بأمسّ الحاجة إلى الراحة التي كان أعدائي القساة يتلهون بحرماني إياها، وغدوتُ أَشدَّ ما يكون تنهدي بعد زمن عطالتي الطيّبة وبعد عذوبة سكينتي روحاً وجسداً، سكينتي التي طالما اشتهيتُها وابتغيتُها فوقفتُ عليها سعادةَ القلب إذ قد صحوتُ من أوهام الحبّ والصداقة. بيد أني لم أفكر مرة في الأعمال التي كنتُ بسبيل الإقدام عليها ولا في العيشة الصاخبة التي كنتُ بسبيل الانقياد لها إلاّ أطبقتْ عليّ المخاوف. وإذا كانت عظمةُ الموضوع الذي أتصدى له وروْعته وفائدته قد ألهبتْ شجاعتي، فلقد أَهمدها عجزي أن أبذل نفسي فدية

هذا الموضوع. فلو ظللتُ عشرين سنة وأنا بيني وبين قلبي في تأمل عميق، ما تجشَّمتُ الذي تُجشّمني ستةُ أشهر عملٍ ونشاط أسلخها وسط الناس والأعمال ولأَيقنتُ، يومئذٍ، أنني إلى إخفاق.

ثم إني عمدتُ لوسيلة وجدتُها توفّق بين ذلك جميعاً. وكنتُ أينما التجأتُ، جدّت في إثري خفيّاتُ الدسائس قد حاكها عليّ الذين اضطهدوني ولم أدر مَن هم. فأصبحتُ لا أرى إلاّ جزيرة كورسكا مأوًى به أرجو لأواخر أيامي الراحة التي أبوا أن يدعوني فيها حيثما تقلبتُ. فاعتزمتُ السفر إلى كورسكا وقد وجّهني بوتّافيوكو؛ أما الموعد، فلحظةَ يتهيأ لي الرحيل. بيد أني قرّرتُ أن أقيم هناك على دعة وسلام، فأتخلى عن العمل التشريعي ولو في الظاهر. أما الذين يضيفوني، فحسبي من إيفائي لهم حقَّ الضيافة أن أكتب تاريخ بلادهم إذ أكون فيها، على أن أتلقى المعلومات التي أحتاج إليها تلقياً لا ضجة فيه فأُصبحُ أجزل لهم نفعاً، ذلك إنْ وجدتُ السبيل إلى النجاح والتوفيق. ولقد رأيتُ أنني إذا ابتدأتُ بهذا النحو فلم أتعهد بشيء، أمّلتُ أن يتاح لي التأمل سرّاً في مخطط يناسب مضيفيّ إذ أنا أَوسعُ راحةً لستُ أتخلى بالغ التخلي عن توحدي الغالي، ولستُ أخضع لنظام عيش لم أطقه ولا فُطرتُ عليه.

لكن هذا السفر لم يتيسر لي القيام به وأنا على الحال التي كنتُ فيها؛ إذ ما كنتُ لأجد من أبسط مسهّلات العيش في كورسكا، بحسب ما أخبرني عنها السيد داستييه، إلاّ ما أَحملُ إليها من شراشف وألبسة وأدوات طهي وآنية طعام وأوراق وكتب قد وجب نقلها جميعاً معي. وكان لا بد لي من قطع جبال الألب فننزعج، أنا ومدبّرة شؤون المنزل[42]، إلى تلك الجزيرة، أجرُّ أمتعتي كلها إلى

(42) أي تيريز ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

بُعد مائتي فرسخ؛ وكان لا بد من المرور بدُوَل عدة ملوك، وحيثما اجتزتُ، فإنه في الطبيعي أن أتوقّع العقبات، فيتشرف الناس أن يذلّوني ببعض جديد المحن وينتهكوا فيّ حرمات البشر والحق الدولي وحقوقَ الإنسانية بعد الذي قد نابني من الشقاوات وبعد الذي قد قيل عليّ في أوروبا جمعاء. ثم إن جسامة النفقات والمتاعب وأخطار ذلك السفر قد اضطرتني إلى الاحتياط مقدّماً، فوزنتُ كل ما يحفّ بسفري من صعاب. حتى إذا تصوّرتُني وحدي، في آخر التجوال، ولا مورد لي، وأنا على السن التي بلغتُ، وقد نأيتُ عن معارفي كافة وأمسيتُ تحت رحمة ذلك الشعب المتوحش الشديد القسوة، ـ كما وصفه لي السيد داستييه، ـ أخذتُ أتأمل في ما اعتزمتُ، وذلك من قبْل أن أعمد إليه. فرغبتُ حقَّ الرغبة في الاجتماع الذي كان بوتّافيوكيو قد حداني على الأمل فيه فأُقرر من بعدها ما أتبغي تقريراً نهائياً.

وبينا قد ترددتُ هكذا، وقعتْ عليّ اضطهادات موتييه فأُرغمت على الرحيل. ولم أكن قد تأهبتُ لطول السفر ولا سيما إلى كورسكا. وكنتُ أنتظر أن ترد عليّ أنباء من بوتّافيوكو، ففزعتُ إلى جزيرة سان بيار، ثم طُردتُ منها على أبواب الشتاء بحسب ما تقدَّم لي ذكره. وكانت جبال الألب قد غطّتها الثلوج، فامتنعتْ عليّ الهجرة وخصوصاً على العجلة التي أُمرتُ بها. ولا يخفى أن غرابة ذلك الأمر قد جعلتْه شيئاً مستحيل التنفيذ وأنا في صميم ذلك التوحد الذي حفّت به المياه، وليس أمامي، مذ بُلّغتُ الأمر، سوى أربع وعشرين ساعة كيما أستعدّ للرحيل وأهتدي إلى قارب وعربة فأخرج من الجزيرة وأخرج من تلك الأرض كلها؛ ولو قد أُوتيتُ جناحين، لشقّتْ عليّ وتعذّرت الإطاعة لأمر الخروج. فكتبتُ بشأني إلى قاضي نيدو أُجيبه عن رسالته، وتعجلتُ في الخروج منتلك البلاد الظالمة.

فكنتُ لا بد لي أن أتخلى عن خطتي العزيزة لأنه لم يمكنني الظفر بحُسن المعاملة، فخاب مسعاي. فصمّمتُ على السفر إلى برلين ألبّي دعوة ميلورد المارشال. وأبقيتُ تيريز بجزيرة سان بيار فتشتّي هناك، وخلّفتُ معها أمتعتي وكتبي؛ أما أوراقي، فقد أودعتُها السيد دو بيرو. ولقد جدَدتُ في ذلك، حتى إني برحتُ الجزيرة من صباح الغد، فشخصتُ إلى بيانّ قبل الظهر. فلما أنهيتُ سفرتي، كاد يحدث لي ما لا ينبغي أن أغفل ذكره.

وذلك أنه ما إن فشا نبأُ الأمر بخروجي من ملجأي حتى احتشد عليّ الجوار، وكان فيهم، على الأخص، بعض البرنيين قد جاؤوا يتملقونني ويلاطفونني ويحتجون بأنه اغتُنمت العطلةُ وندرةُ اجتماع مجلس الشيوخ فوُقّتَ الأمر بإخراجي ووُقّتَ تبليغي إياه، ثم قالوا إن أعضاء مجلس المائتين قد ساءهم جميعاً ذلك الأمر. وكان في كثرة هؤلاء المعزّين بضعةُ نفر أقبلوا من مدينة بيانّ وبينهم شاب اسمه فليدرمت كان لأُسرته أولُ منزلةٍ في تلك المدينة الصغيرة وكان لها بها أنفذ كلمة. فسألني فيلدرمت وألحّ عليّ، يتكلّم بلسان مواطنيه، أن أتخذ مقامي بينهم؛ وأكد لي أنهم إنما يرحبّون بي ترحيباً عظيم الرغبة ويعتزّون بأن يُنسوني الاضطهادات التي قاسيتُها يرون ذلك واجباً عليهم، وأكد لي أنني إذا بتُّ عندهم، فلا خوف عليّ من نفوذ البرنيين أبداً، وأكد أن بيانّ مدينة حُرّة لا تقبل شرائعَ من أحد، وأن مواطنيها كافة قد أجمعوا على ألا يصغوا إلى أيّ طلب كان إن هو خالف مصلحتي.

فلما وجد فيلدرمت أنه لم يبدّل موقفي، استعان بعدة أناس من بيانّ ومن جوار برن، وفيهم كيرشبرجيه نفسه السالف الذكر. وكان هذا يفتش عني مذ يوم اعتزلتُ بسويسرا، فعنتْني مواهبه وعنتْني مبادؤه. ولكن السيد بارتس وكيل سفارة فرنسا التمس مني التماسات

twitter @baghdad_library

هي الأقل توقّعاً والأكثر شأناً. فأتى يزورني ومعه فيلدرمت. فحضّني على أن أُلبّي دعوته، فعجبتُ لما قد لاح عليه من رفق بي وبالغ اهتمام. ولم أكن أعرف السيد بارتس على الإطلاق؛ بيد أني، مع ذاك، ألفيتُه قد أشاع في كلامه حرارة الصداقة ومروءتها، وألفيتُه حريصاً جداً على أن يُقنعني بالإقامة في بيانّ. فأطرى لي هذه المدينة وأهلها أفخمَ إطراء، وأظهرَ أنه حميم الوشائج بهم حتى لقد سمّاهم حُماته وآباءه، وأعاد عليّ التسمية مراراً.

ثم إن هذا المسعى، الذي قام به بارتس، قد حيّرني في جميع ما ذهبتُ إليه من تقديرات. وكنتُ، على الدوام، أشكُّ في السيد دو شوازول أظن أنه هو الذي عمد، خفيةً، إلى إثارة كل الاضطهادات التي كابدتُها في سويسرا. وما كان سلوك مقيم فرنسا بجنيف وسلوك سفيرها بسولور إلاّ ليثبتا هذي الشكوك تمام الإثبات؛ فرأيتُ فرنسا قد أثّرتْ في كل ما أصابني في برن وجنيف ونوشاتيل تأثيراً خفياً، ولم أعتقد أن لي بفرنسا عدوّاً نافذ السلطان خلا الدوق دو شوازول. فما الذي يمكنني أن أعتبره في زيارة السيد بارتس وفي العناية العطوف التي أبداها لي إذا اهتم بمصيري؟ لكن شقاواتي لم تكن قد قوضت بعدُ الثقة الطبيعية التي لي بقلبي، ولا كانت التجربة قد علّمتني بعدُ أن أبصر تحت مظاهر الملاطفة الأشراك والمكايد. فاستغربتُ المراعاة التي أبداها لي بارتس، فجعلتُ أفحص عن سببها؛ وما كنتُ من الغباوة على ما أحسب معه أن بارتس قد سعى سعيَه من تلقاء نفسه، وإنما ألفيتُ مسعاه تظاهراً بل تكلفاً قد انطوى على قصد. ثم لم أجد، في أولئك العملاء المرؤوسين، الجرأة السمحة التي كثيراً ما ألهبتْ قلبي وأنا في مثل تلك الوظيفة.

وكنتُ قد عرفتُ في الأمس، عند السيد دو لوكسمبورغ، الشوفالييه دو بوتفيل معرفة يسيرة، فأعرب لي عن بعض المراعاة. ثم

أتاني منه، مذ ولي السفارةَ بعضُ الآيات التي ذكرني فيها، حتى إنه بعث يدعوني إلى زيارته في سولور، فلم أُلبّ دعوته، بيد أنها أثّرتْ فيّ لأني لم آلف أن يعاملني ذوو المناصب هذه المعاملة الكريمة. وإذاً، فقد قدّرتُ أن السيد دو بوتفيل اضطر أن يتقيد بما لديه من تعليمات في شؤون جنيف، وقدّرتُ أنه، مع هذا، رثى لحالي وقد نابتني الأرزاء، فدبّر لأجْلي ملجأً بيانّ ذاك، فيتهيأ لي أن أقيم فيه بسلام، فأكون بحمايته هو. فأثّرتْ فيّ لفتته، ولكن لم أشأ الانتفاع بها، بل صمّمتُ على السفر إلى برلين وقد تشوقتُ اليوم الذي فيه ألقى ميلورد المارشال مرة أخرى وأيقنتُ أنني بتُّ لا أذوق الدعة الحقّ والسعادة المقيمة إلاّ وأنا بجواره.

فلما ارتحلتُ عن الجزيرة، صحبني كيرشبرجيه إلى بيانّ. فرأيتُ بها فيلدرمت وبعض البرنيين الآخرين قد انتظروني ساعةَ خرجتُ من القارب. فتغدينا كلنا معاً في النزل؛ وحين وصلتُ إليه، عُنيتُ، أول ما عُنيتُ به، أن أدعو بمحفّة لأني ابتغيتُ الارتحال منذ صباح الغد. وبينا نحن على الغداء، عاد هؤلاء السادة إلى الإلحاح عليّ يريدون أن يستبْقوني بينهم، فأعربوا لي عما قد بلغ مني كلَّ مبلغ، حتى إن قلبي، الذي لم يستطع يوماً أن يقاوم ألوان الملاطفة، قد انقاد لرفقهم، وذلك برغم جميع ما كنتُ قد صمّمتُ عليه. فلما وجدوني في تردد، كرّروا عليّ ما سلف من جهدهم فما زالوا بي حتى غلبوني آخر الشيء، فرضيتُ أن أمكث في بيانّ إلى الربيع القادم، في الأقل.

فلما لبث فيلدرمت أن خفّ يتخذ لي أحد المساكن، فابتهى بأنه قد وُفّق لمنزل فريد هو، في الواقع، حجرة صغيرة بشعة كانت بمؤخر طابق ثالث وكانت تشرف على ساحة تمتعتُ فيها بمنظر جُلود للظباء منتنة قد عرضها ثمة صاحبُها الدبّاغ. وكان مالكُ حجرتي قصير

twitter @baghdad_library

القامة، زريّ الهيئة، في بعض المكر. فبلغني في الغد أن الرجل فاجر مقامر، وأنه على شهرة قد فضحتْه في الحي كله. ولم يكن له زوجة ولا وُلد ولا خدم. فانزويتُ بحجرتي الموحشة وقد غلبني الشجو وأنا في أبهج بلدان العالم وقد أَقمتُ على كآبة خليقة أن تقضي عليّ في بضعة أيام. وكان أقصى ما بلغ مني، ـ مع ما قد قيل لي إن السكان يرحبّون بي ويحتفون، ـ هو أنني لما مررتُ بالطرقات، لم ألحظ من كرم في سلوكهم حيالي قط، ولا لحظتُ في نظراتهم إليّ شيئاً من رفق. ومع ذلك، صمّمتُ حقَّ التصميم على البقاء هناك؛ فإذا بي، منذ الغد، قد علمتُ وبصرتُ وشعرتُ أن بالمدينة هياجاً عليّ هائلاً. فتلطفَ بعض ذوي النخوة فأسرعوا ينبّهوني أن سينهي إليّ غداً أمرٌ قاسٍ شديد يقضي بأن أخرج من الولاية، أي من المدينة، فوراً. ولم يكن لي فيها أحد أركن إليه؛ ثم إن الذين استبْقوني هناك تفرّقوا جميعاً، وفيلدرمت اختفى، وبارتس أصبحتُ لا أسمع بأخباره، وتوصيتَه بي إلى من اتخذهم أمامي حُماةً له وآباءً لاح لي أنها لم تُحسن ظنهم فيّ. ومع ذلك، فإن رجلاً من أهل برن يدعى السيد فوترافير له منزل جميل كان بقرب المدينة فآواني إليه، وقال لي إنه يرجو أن أقوى على اتقاء الرجم هناك. فلم يَرُقْني ما أنا فيه، فلم أُغْرَ بأن أمدد إقامتي عند ذلك الشعب المضياف.

أضعتُ ثلاثة أيام في هذا التأخر. فتجاوزتُ الأربع والعشرين ساعة، التي أمهلنيها البرنيون لكي أخرج من ولايتهم، تجاوزاً بعيداً. ولقد كنتُ أدري بما هم عليه من قسوة، فأصبحتُ قد أقلقني كيف يأذنون لي في المرور؛ فإذا بقاضي نيدو قد أقبل إليّ، فكان قدومه في أوانه، فأنقذني مما تورطتُ فيه. وذلك بأن القاضي سبق أن جهر بمعارضته الإجراءَ العنيف الذي أنزله بي أصحاب السعادة، فاعتقد،

عن كرم منه ومعروف، أنه مدين لي بأن يشهد علناً أنه لم يشارك في هذا الإجراء قط. ثم هو لم يخشَ أن يبرح دار القضاء فيأتي لزيارتي في بيانّ. فجاءني ليلةَ سفري، ولم يُقبل متنكراً، بل تعمّد الأبهة الرسمية فارتدى لباس الاحتفال(43) وركب عربته الفخمة ومعه كاتبُ سرّه، فأتاني بجواز للسفر عليه توقيعه فأَمُرّ بولاية برن ما يزعجني أحد ولا أخاف أن يقلقني أحد. فأثّرتْ فيّ الزيارة فوق ما أثّر فيّ جواز السفر. ولو حُظي بها أحد سواي، لما كانت فيّ أقلَّ تأثيراً، إذ لستُ أعرف ما هو أعظمُ سلطاناً على قلبي من عمل شجاع قد جدّ في أوانه نصرةً للضعيف، المضطهَد، المظلوم.

فلما حصلتُ، في آخر الشأن، على محفّة قد صعب حصولي عليها، قمتُ من صباح الغد فارتحلتُ عن تلك الأرض التي تقتل الإنسان. وكان ارتحالي قبلما وصل الوفدُ الذي قُرّر أن يشرّفني بزيارته، وقبلما تسنى لي أن ألقى تيريز، وكنتُ قد بعثتُ أقول لها توافيني إلى بيانّ، إذ خلتُني متلبثاً فيها، فكاد الوقت لا يتيح لي أن أرسل إلى تيريز بكلمة أسألها الرجوع عما تقدَّم لي قوله لها وأنبئها بالنازلة الجديدة التي أصابتني. فإن أُوتيتُ يوماً من الأيام القدرة على أن أكتب الجزء الثالث من **اعترافاتي**، فلسوف ترى كيف خلتُني ذاهباً إلى برلين وأنا ذاهب في واقع الأمر إلى إنغلترا، و كيف تمكنت السيدتان من أن تسلّماني إلى صديقهما(44)، إذ ابتغتا التصرف في مصيري فحبكتا عليّ جمَّ الدسائس لطردي عن سويسرا حيث لم أكن قريباً إلى متناول نفوذهما قرباً كافياً.

---

(43) في الأصل بالإيطالية: in fiocchi ـ المترجم.

(44) السيدتان هما مدام دو فردولان والكونتسة دوبوفلير، وصديقهما هو هيوم، على ما سبق ذكره ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

فلما قرأتُ كتابي هذا على الكونت السيد دغمون والكونتسة السيدة قرينته والأمير السيد بينياتلّي والمركيزة مدام دو ماسم والمركيز السيد دو جونييه، أضفتُ إليه ما هذا نصه[45]:

ألا إني قلتُ الحقيقةَ: فإنْ علمَ أحدٌ بأشياءَ تُضادّ ما ذكرتُ، فقد علم أكاذيب وخدائع إذا هو أبى أن يشاركني في التعمق بها والإيضاح لها ما دمتُ حيّاً، لم يكن محبّاً لا للإنصاف ولا للحقّ. أما أنا، فإنني أُعلنُ تلك الأشياء صراحاً وأجهر بها دون خشية: فمن نظر بكلتا عينيه إلى كياني الطبيعي، وإلى طبعي وأخلاقي وميولي ومباهجي وعاداتي، أيّاً كان هو، ولو لم يطّلع على مؤلَّفاتي، فاستطاع الظنَّ أنني إنسان غير نزيه، فإنما هو نفسه امرؤٌ أَولى له أن يخنق.

هكذا ختمتُ قراءتي، فصمتَ الجميع. فلاح لي أن السيدة دغمون هي وحدها التي تأثّرتْ، فارتعشتْ وكانت بادية الارتعاش، لكنها ما عتَّمتْ أن رجع إليها قلبُها، فلزمت الصمت ولزمه سائر الأصحاب. فكان ذلك هو الثمر الذي جنيتُه من هذه القراءة ومن إعلاني.

(45) كان روسو يجتمع إلى بعض معارفه ليقرأ عليهم **الاعترافات** ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الثبت التعريفي

اعترافات (confessions): لا يستخدم روسو هذا المصطلح في معناه الديني المسيحي المباشر، وبالخصوص في معناه الكاثوليكي الحديث، وهو الإقرار بالخطايا في سرّ التوبة، أو ما يسمى بالاعتراف الأذني. بل إن الغالب في كتاب **الاعترافات** أن هذا اللفظ يرادف كلمة **سيرة حياة**، أو كما يقول روسو: **الاعترافات** هي «قصة نفسي»، أي تاريخ حياته النفسية والروحية. إنها بإيجاز البورتريه الذاتي أو الشخصي لجان جاك روسو. على هذا النحو أصبغ روسو على الاعتراف المسيحي طابعاً دنيوياً ومدنساً واضحاً. إنه لم يطلب الغفران الديني بالبوح بخطاياه وإنما صعّد نواقصه ورذائله وجعلها مناسبة للإبداع الأدبي. لقد طهّر نفسه بفعل الكتابة، وبفعل الكتابة وحدها. وبدل أن يتوجه إلى أسماع راعٍ من رعاة الكنيسة، كتب للإنسانية جمعاء. والداعي، في الأصل، إلى كتابة **الاعترافات** هو تبرير سيرة حياته، خصوصاً بعد أن فضحه فولتير متهماً إياه بإهمال أبنائه الخمسة أمام ملجأ اليتامى، وهي فعلة شنيعة لم يهدأ لها بال روسو طوال حياته. ولئن درج الناس في مذكراتهم على ذكر مزاياهم وربما أخطائهم وحتى بعض

جرائمهم، فإن روسو يتفرد بوصف حماقاته المخجلة والتي تدعو إلى الضحك منه والسخرية به، وهو يؤكده روسو بقوله في مستهل كتابه: «ليست الجريمة هي ما يكلفنا البوح به الكلفة الأشد، وإنما ما يكون مضحكاً ومخجلاً». من هذا المنظور فإن كتاب **الاعترافات** هو كتاب الفرق والاختلاف، وروسو هو القائل في مستهله: «هذي هي الصورة اليتيمة لإنسان من الناس [...] إني أعتزم عملاً لم يكن له قط من نظير ولن يكون البتة لإنشائه أحد يقلّده. إني أريد أن أُري أشباهي [من الناس] إنساناً على تمامِ طبيعته الحق، وذلك الإنسان هو أنا. أنا وحدي».

أنا/ آخر/ آخرون (moi/ autre/ autres): كلمات ومفاهيم مركزية ومترابطة في **الاعترافات** يبلورها روسو في شبكة كاملة تجعل من فكرة المغايرة إشكاليةً فلسفية وأدبية حقيقية، لا في **الاعترافات** وحسب وإنما في جل مؤلفاته. ومن بين هذه المفاهيم الفرد والجماعة (individu et communauté)، الاستقلال والتبعية (indépendance et dépendance)، العين والشبيه (le même et le semblable)، الاكتفاء بالذات (se suffire à soi-même)، الفرادة (singularité)، التوحد (solitude)، وغير ذلك من المصطلحات الراسمة لإيقاعات الهوية والاختلاف في **الاعترافات**. «أنا آخر» (moi autre)، تطالعنا هذه العبارة البليغة منذ الصفحة الأولى لهذا الكتاب. والمقصود هو تغيرات الأنا بفعل حوادث الوقت. الانشطار أو التثنية أنا/ آخر هي موضع الوعي. فيرى روسو نفسه أنا وآخر في ذات الوقت، ثابتاً ومتحولاً. وتلك هي **السيرة الذاتية** (أوتوبيوغرافيا) موضوع الاعترافات برمتها. وذلك أن الأبرز عند روسو هو كونه لا يتحدث عن «الآخر»، وعن الجار، وعن

twitter @baghdad_library

الأجنبي، وعن المجانب، وعن الغريب، وعن الكافر، وعن العدو، ممن هو في خارج نفسه بقدر ما يتحدث عن المغاير في **دخيلة نفسه**. آخر روسو هو آخر متأصل في الذات فتكون الغيرية الروسوية شكلاً من أشكال المحايثة النفسانية. وهنا يكون المقصود من الآخر هو الزمان كحسٍّ داخلي. ليس الآخر إذاً كائناً برانياً وإنما هو كائناً جوانياً. إنه العين، ولكنه ليس عيناً أجوف بل هو مكتنز بالمغايرة، بخلافية العالم، بالتكامل بين الأنا والهو. في سياق هذه المغايرة القائمة على التفاعل والاشتراك تنشأ علاقة الفرد والجماعة: إنها علاقة مفارقة قوية، فمن جهة لا يحصل تأنس الإنسان إلا بعضويته في جماعة إنسانية يطلب الفرد اعترافها، ولكنها علاقة خصامية من جهة ثانية إذ يطلب الفرد هوية ذاتية تبدأ بالاستقلال الذاتي، والاكتفاء بالذات، فتحصل منهما الفرادة التي تقود إلى العتبة القصوى وهي عتبة التوحيد الذي هو أحد المفاتيح الوجودية لفهم **الاعترافات**.

طبيعة (nature): مفهوم أساسي ورئيس في أدب وتفكير روسو فتوجّههما توجيهاً قوياً. وهي لا تعني الفيزيائي أو الجسماني أو المادي حصراً، بل تتعدّى كل ذلك لتشتمل أيضاً على ما هو أصيل وأصلي وبدائي وفطري وسليقي. ومع ذلك لا يخلو مفهوم الطبيعة، عند روسو، من غموض مرده صعوبة التمييز بين ما هو طبيعي في الإنسان وما هو مصطنع، أي بين الطبيعة والثقافة، بين الأصلي والوضعي. ومهما يكن من أمر فليست الطبيعة عنده حقبة تاريخية تجاوزها الزمن، وإنما معطى وجودي سار في عمق الإنسان لا تمحوه الاستنساخات المتوالية، ولذلك تظل الطبيعة منظومة معايير بها نزن ونقيس المصطنعات والتشويهات، ومنظومة

قيم بها ننشد مأمولات ونحققها. ولا بد من التمييز بين توظيف الطبيعة في **الخطاب في أصل التفاوت** وبين توظيفها في **الاعترافات**. ففي الفصل الأول تبدو الطبيعة حالة أنثروبولوجية ربما لم توجد قط ولن توجد أبداً. أما في الفصل الثاني، فهي حالة وجودية فردية يعيشها روسو بتمامها وكمالها، روحياً وجسمياً؛ هي الدائرة المغلقة، دائرة التوحد والعزلة التي ضربها صاحب **الاعترافات** حول نفسه، وسط الناس والمدنية والعالم. الطبيعة هي «حقيقة» روسو و«طيبته» الأصلية، هي القالب الذي منها صنعته ثم كسرته، ليبقى فريداً، لا أحد من بني الإنسان يشبه إنْ في سعادته أو في شقائه.

عزلة/ وحدة (solitude): من أعوص الأفكار والمعاني في النصوص الروسوية، وبالخصوص في **الاعترافات**، وذلك لسببين اثنين. أولهما عقلي، وثانيهما وجودي. فأما العقلي فكون روسو يراوح بين قطبين: قطب الجماعة وقطب الانعزال، قطب الاندماج وقطب التوحد، قطب الإنسان المتوحش (**الخطاب في أصل التفاوت**) وقطب الإنسان المدني (**العقد الاجتماعي**)، قطب الطبيعة وقطب التربية والثقافة (**إميل**). وأما السبب الوجودي فكون حياة روسو ذاتها راوحت بين حب العيش والمتعة والسعادة المشتركة وبين اللجوء إلى الانعزال والانكفاء على الذات والتفرد والوحدة. ولقد بلغ به حب الوحدة مبلغاً جعله يكره البشر ويضيق بدنياهم ذرعاً حتى بات يستشعر منهم الاضطهاد في كل مكان وفي كل أوان. إلا أن الوحدة وكذلك الخلوة (retraite) ليسا مشحونين بشحنة دينية صوفية، فروسو لا يزهد في الحياة، بل، على العكس من ذلك، يطلب السعادة في الدنيا، بل ويطلب فيها اللذة

twitter @baghdad_library

والمتعة والبهجة أيضاً، فإن لم يجدها بين عموم الناس بحث عنها بين المصطافين من معارفه، فإن لم يجدها بينهم أيضاً بحث عنها في توحده، أي في دائرة وجوده الخصوصي، وهو التوحد الذي يدعوه بهذه العبارة: «يا توحدي يا أغلى ما عندي». أما من حيث التضاد والاستقطاب بين الجماعة والتوحد، فمسعى روسو هو أن يجاوزه تماماً إلى دائرة توفيقية سامية يعيش في كنفها الفرد استقلاله الذاتي (استقلاليته) وهو في أحضان جماعته الإنسانية، ويتواصل مع أشباهه من الناس وهو في خلوته ووحدته. إن الحساسية الفردية وما قبل الرومنطيقية تقود روسو إلى الوحدة حباً في الفرادة والأصالة وعدم الامتثال بينما يقوده الشرط الأنثروبولوجي السياسي إلى المجتمع واحترامه. وظاهر الأمر أن روسو لم يفلح في مسعاه التوفيقي.

لحظة (instant): الجزء الأصغر والأسرع من الزمان إن أخذنا باستعمال روسو لهذا اللفظ في **الاعترافات**. ولابد من تمييزها من الأوان (moment) الذي قد يطول. واللحظة أيضاً هي إحساس في حينه بالزمان حتى ليتماهيان وينطبقان أو يكادان. وتلعب اللحظة في **الاعترافات** وظيفة سردية لازمة لزوماً شديداً لكون هذا الكتاب ضرباً من ضروب اليوميات. ولئن اصطبغت سيرة روسو الذاتية، بل قل حياته، إذا قستها بوحدات الزمان الكبرى من حقب ومراحل عمرية، [لئن اصطبغت] بالشقاء والألم والشعور بالظلم والاضطهاد، فإن اللحظات والهنيهات الصغرى يسرقها صاحب السيرة من الوقت الغاشم فتلون حياته باللذة وبالمتعة وبالبهجة. غير أن مفهوم اللحظة في **الاعترافات** يقوم على مفارقة وجودية شديدة: ففي غالب الأحيان يذكر روسو لحظات من حياته، لا

عد لها ولا حصر، على أنها أهنأها وأسعدها وأمتعها، فهو يستحضر مثلاً أنه لم يعش لحظة أجمل من «تلك اللحظة» طوال حياته؛ ولكن مثل هذه الأقوال تتكرر في كامل **الاعترافات.** وسبب ذلك أن روسو لا يقارن ولا يحكم أحكاماً خارجية وبعدية، وإنما يستحضر شعوره الآني فيستذكره تاماً كاملاً كما كان لحظته، حتى للقارئ بأن كل لحظة منقطعة عما سواها. هذا الانقطاع هو علامة **الاختلاف** الوجودي الذي ينشده روسو، وهو القائل في بداية الاعترافات: «أنا آخر».

مخيلة (imagination)، نزوة خيالية (fantaisie)، حلم يقظة (rêverie): هذه مفردات ومصطلحات مترابطة ومتداعية بعضها مع بعض في **الاعترافات.** فأما من جهة كونها ملكة فإن المخيلة مشحونة بعلامتين: الأولى علامة سالبة لانعدام المخيلة لدى الإنسان الطبيعي أو البدائي، بل قل إنها عنده مجرد ملكة بالقوة أو ملكة كمونية (افتراضية بلغة عصرنا). وهكذا فإن الإنسان البدائي أو «المتوحش الطيب» لا يعرف الشقاء لأنه لا يعرف الخيال، وإنما يعيش في حدود يومه ولا يعتبر بآراء الأخرين ولا يعيش في نظراتهم. وحده الخيال هو ما يحملنا إلى الاحتياط لمستقبلنا فنهوي في الشقاء تاركين وراءنا نعيم السذاجة والفطرة. أما العلامة الثانية، فعلامة موجبة، وذلك أن المخيلة تكون ملكة استباق فعالة فتبدع التصاوير والمشاريع والمأمولات التي ترفع الإنسان إلى مقامات الفضيلة والكمال. وعلى العكس من ذلك، بانعدامها ينعدم كل مشروع من دنيا الإنسان. وقد يعتقد البعض أن المأمولات من صنع العقل؛ بينما وظيفته، كما يراها روسو، لا تتعدى اكتشاف الوسائل التي بها يبلغ الإنسان الغايات التي ترسمها

twitter @baghdad_library

له المخيلة. على هذا النحو فإن الخيال عند روسو هو كل حياته وأدبه وفلسفته تقريباً: بالخيال يؤسس لوضع الطبيعة الأصلي، وبالخيال يسهر على تربية إميل، وبالخيال ينعم بالملذات على اختلاف ضروبها بما في ذلك اللذات الحسية والجنسية، وبالخيال يصنع عالمه الخاص ويحتمى في وحدته وفي غربته من الناس ومن دنياهم.

twitter @baghdad_library

ثبت المصطلحات

آخر/ آخرون	autre/ autres
أباتي	abbé
إباحية	libertinage
ابن غير شرعي	fils naturel
أثر	oeuvre
احتباس البول	rétention
أحكام مسبقة	préjugés
أحلام يقظة	rêverie
اختلاف/ فرق	différence
أخلاط عامة	tourbe vulgaire
أخلاق	morale

morale sensitive/ le matérialisme du sage	أخلاق حسّاسة/ مادّية الحكيم
moeurs	أخلاق جارية
polissonnerie	أخلاق سوق
perplexité	ارتياب/ حيرة
dater	أَرَّخ/ يورّخ
ermitage	إرميتاج
despotisme oriental	استبداد شرقي
raisonnement	استدلال
disposition	استعداد
indépendance	استقلال
indignation	استنكار
réforme	إصلاح
confession	اعتراف
profession de foi	إعلان إيمان
profession de foi du vicaire savoyard	إعلان إيمان الكاهن السافواوي
académie	أكاديمية
suffire à soi-même (se)	اكتفاء بالذات

twitter @baghdad_library

équivoque	التباس/ إبهام
sociabilité	ألفة اجتماعية
récitatif	إلقائية
émile	إميل
secrétaire	أمين سر
encyclopédie	أنسيكلوبيديا
émotion	انفعال
opéra	أوبرا
nouvelle héloïse	إيلوييز جديدة
papimanie	بَابَمانيّة
petite poste	بريد المسافات القريبة
synthèse	تأليف
interprétation	تأويل
dépendance	تبعية
analyse	تحليل
analyse démontrée	تحليل مبرهَن
réminiscence	تذكّر
éducation	تربية
oisiveté	تعطل

prétexte	تعلة
attachement	تعلّق
inégalité	تفاوت
réflexion(s)	تفكر/ تفكرات/ تفكير/ خاطرة/ خواطر
apologie	تقريظ
sobriété	تقشف
piétiste	تقوية
constitution	تكوين
buste	تمثال نصفي
contradiction	تناقض
désinterêt	تنزيه عن المصلحة
institutions politiques	تنظيمات سياسية
recommandation	توصية
foule/ public	جمهور
amour-propre	حب شخصي
argument	حجة
quarantaine	حجر صحي
artisan	حرفيّ
sens	حس/ حواس

twitter @baghdad_library

sensible	حسّاس
vérité	حقيقة
anecdote	حكاية
sentence	حكم
loi du moment	حُكم ساعة
maxime/ sagesse	حكمة
intimité	حميمية
discours	خطاب
péché originel	خطيئة أصلية
salut	خلاص
luxure	خلاعة
retraite	خلوة
maîtresse	خليلة
imaginaire	خيال
privautés	دالآت
intérieur (mon)	دخيلتي
dogmatisme	دوغمائية/ وثوقية
holbachique	دولباخيون
souverain juge	ديّان أعظم

durée	ديمومة
lycanthropie	ذآبة
esprit	ذهن/ فكر
opinion	رأي
honnêtes gens	رجال شرفاء
gentilhomme	رجل نبيل
profil à la silhouette	رسم جانبيّ
confrère	رصيف
jargon dévot	رطانة تديُّنيّة
désir	رغبة
censure	رقابة
vision	رؤية
écu	ريال
libertin	زنديق
polémique	سجال
narration	سرد
sophisme	سفسطة
seigneur	سيد
érotique	شبقي

twitter @baghdad_library

populace	شعب
culte	شعيرة دينية
appétit	شهية
malédiction	شؤم
véridique	صادق
apprenti	صانع
véracité	صدقية
idée	صورة
sceptre	صولجان
conscience	ضمير
peste	طاعون
catéchumène	طالب المعمودية
nature	طبيعة
monde	عالم الناس
merveilleux	عجيب
justice	عدالة
devin	عرّاف
muses	عرائس شعر
usage immémorial	عرف مأثور

solitude	عزلة/ وحدة
coterie	عُصبَة
abstinence	عِفّةّ
contrat social	عقد اجتماعي
raison/ intelligence	عقل/ ذكاء
doctrine/ dogme	عقيدة
botanique	علم النبات
grâce (de dieu/ du ciel)	عناية (من الله/ السماء)
époque	عهد
anachronisme	غلط في التأريخ
démagogue	غوغائيّ
débauché	فاسق/ ماجن
singularité	فرادة
gentilhomme de la manche	فرسان أكمام
perte	فقدان
esprit	فكر/ ذهن
beaux-arts	فنون جميلة
spectacles	فنون فرجة
maxime	قاعدةً مأثورة

twitter @baghdad_library

messe	قداس
sort/ destiné	قدَر
êtres réels	كائنات واقعية
écriture	كتاب مقدس
catholicité	كثلكة
volupté	لَذاذَة
goûter	لُمْجَة العصر
matérialiste	ماديّ
missionnaire	مبشّر
efféminé	متخنث
dévot	متدين
raisonnable	متعقل/ عاقل
charité	محبة/ برّ
inquisition	محكمة تفتيش
chambre d'une courtisane	مخدع بغيّ
gouverneuse	مدبِّرة
confidence	مُسارّة
monstre	مسخٌ
antéchrist	مسيح دجّال

confiscation	مصادرة
injustice	مَظلمة/ ظلم
miracle	معجزة
dictionnaire de musique	معجم موسيقى
confesseur	معلم اعتراف
notion	مفاهيم عامة
inquisiteur	مفتش
communion	مناوَلة
infortuné	منحوس الحظ
système de musique	منظومة موسيقية
encyclopédie	موسوعة
objet	موضوع
monologue	مونولوغ
auteur	مؤلّف
métaphysique	ميتافيزيقا
goût	ميل
mollesse	ميوعة
fontaine de héron	نبع هيرونيّ
noble	نبيل

twitter @baghdad_library

fantaisie	نزوة خيال
honnête	نزيه
système	نسق
félicité	نُعْمى
inceste	نكاح محارم
délire	هذيان
hérésie	هرطقة
affection	وجدان
être	وجود
régence	وصاية
désespoir	يأس

twitter @baghdad_library

الفهرس

ـ أ ـ

الأرجوسيين: 393
أريستيدوس: 38، 57
أقليدس: 58، 342
أناكريونوس: 415
أوجين: 35
أوفيدوس: 38
أوليفي دو مارساي: 425
أوليفيه: 436
الإيمان الوثوقي: 109

ـ ب ـ

البارون دولباخ: 824
بازيل: 123، 125، 127 ـ 132، 154
باولي: 883
باييه: 314
برانتوم: 268
برتييه: 456، 693 ـ 695، 776
برنار، جبريال: 7، 34 ـ 35، 42 ـ 43، 50، 59، 64، 81، 99، 108، 312، 396، 409
بروتوس: 38، 57
بلوتارخوس: 38
بوتافيوكو: 882 ـ 884
البورجوازية: 353، 831
البورجوازيون: 132، 831
بورد: 395، 397 ـ 398،

414، 510
بوسييه: 38
بوفلير: 711، 722، 743 ـ 744، 754، 760 ـ 761، 763، 785، 790 ـ 792، 794 ـ 796، 798، 811، 826، 852، 859
بومبادور: 485، 537، 703، 759، 777، 782، 801
بيروس: 756
بيزوزي: 121

ـ ت ـ

ترسيتوس: 147
تروبليه: 697، 738، 740
تريتورانس: 222، 271، 527
توفيير: 641

ـ ج ـ

جاكلين: 36
جرافانريد: 205 ـ 206، 209، 215، 590
جرو: 182، 184، 202، 296 ـ 297
جريم: 8، 104 ـ 105، 535، 570، 579، 582، 619، 632، 636، 640 ـ 652، 657، 661 ـ 667، 674 ـ 675، 677 ـ 679، 682 ـ 683، 688، 694، 734 ـ 735، 740، 765، 791، 801
جسنر، أديب: 801
جوتون: 61 ـ 63، 143
جوتييه: 42
جونفيل: 699 ـ 701
جيراردييه: 812
جيرو: 203، 215 ـ 216

ـ ح ـ

هنيبعل: 104

twitter @baghdad_library

ـ د ـ

دارجنسون: 537، 691

دارمانتيار: 722

داستييه: 835، 884، 886 ـ 887

دافيد: 395، 414

دالامبير: 9، 483، 488، 555، 680 ـ 681، 689 ـ 690، 695، 697، 708، 736 ـ 738، 744، 761، 763، 781، 785، 801، 810، 830

دانتريمون: 271 ـ 272، 304، 308

داندان، جورج: 650

دو دوتو: 597، 606 ـ 614، 616 ـ 620، 625، 633 ـ 634، 636 ـ 639، 652 ـ 653، 658 ـ 662، 666، 668 ـ 669، 676، 679 ـ 680، 682 ـ 684، 686 ـ 689، 707، 724، 740، 744، 747، 751

دو فارانس: 7، 9، 89 ـ 99، 102 ـ 103، 105، 124، 134، 139، 158، 162 ـ 167، 175 ـ 176، 181، 186، 188، 195، 199، 201 ـ 203، 205، 211، 227، 239، 244، 261، 271، 280، 289 ـ 290، 310، 312، 362، 372، 544، 573

دو موروبا: 422، 426

دو مونمولان: 826

دوبان: 407، 409 ـ 412، 475 ـ 477، 487 ـ 488، 492، 499 ـ 501، 503، 550، 565، 579، 696 ـ 697، 707، 712، 740

دوبرنكس، ميشال جبريال: 92

دوبـــرويـــل: 151 ـ 153، 269، 407 ـ 409، 416، 590
دوبـــري دو ســـان مـــور: 484
دوبـــــون: 88 ـ 91، 110، 175، 185 ـ 186، 200، 274، 398، 461، 466
دوبوناك: 233 ـ 234
دوبـــيزنـــفـــال: 407 ـ 408، 455
دوبينيس: 433
دوتريتورانس: 222
دوجـرافـانـريـد: 205 ـ 206، 209، 215
دوجــــوفــــون: 151، 156 ـ 159، 162، 457
دوجونتو: 180
دورتان: 201، 271
دوريشليو: 466 ـ 471
دوسان: 565، 585 ـ 587، 603
دوشـــاتـــوليه: 244، 248، 251 ـ 252
دوشوازول: 389، 758
دوفرولاي: 431
دوكريكي: 517
دوكورتاي: 234
دوكولومبييه: 356
دوكومان: 65
دوكونزييه: 308، 335
دولوبيتال: 430
دولوك: 233
دومالزيرب: 234
دومرفيو: 237
دونانجي: 304 ـ 305
ديبانس: 378
ديبانيي: 214
ديـبـيناي: 480 ـ 482، 498، 514، 516، 529 ـ 530، 550 ـ 553، 559، 563، 569 ـ 571، 579، 582، 597، 599، 604 ـ 606،

twitter @baghdad_library

617 ـ 621، 625 ـ 626، 629 ـ 630، 632 ـ 634، 641 ـ 642، 644، 647 ـ 649، 653 ـ 659، 661 ـ 664، 666، 675 ـ 676، 683، 701، 727، 791
ديجاردان: 121
ديدرو، دونيز: 8، 104 ـ 105، 398، 405، 482 ـ 485، 487 ـ 491، 498، 503، 505، 510، 513 ـ 514، 516، 530، 538، 541، 552، 562، 576، 579، 582، 593، 599، 606، 627 ـ 628، 630، 632 ـ 636، 645، 647 ـ 648، 650، 655 ـ 657، 659، 662، 666، 668، 677، 679 ـ 680، 683 ـ 685، 700، 734 ـ 735، 749، 759، 829
ديماغوجي: 847

ـ ذ ـ

الذكريات: 53، 179، 207، 257، 326، 382 ـ 383، 392 ـ 393، 480، 554، 615، 745

ـ ر ـ

رامو، جان فيليب: 269 ـ 270، 300، 304، 316، 402، 465 ـ 467، 469 ـ 472
روبيك: 734 ـ 736، 753
روجان: 232، 398، 404، 696
روسو، إسحق: 34
روهو: 312
ريتشاردسون، صاموئيل: 749 ـ 750
ريشليو: 395، 466، 468،

470 ـ 471، 474
ريمور: 484

- س -

ستاما: 318
ستورلر: 867
سكافولا: 38
سكرة الرغبة: 143
سلومون: 334 ـ 335، 355
سوترشايم: 842 ـ 843
سوران: 517
سوميس: 121
سيجي: 693
سيفينييه: 133

- ش -

شارلي: 277
شامبير، أفرائيم: 7 ـ 8، 100، 162، 186، 214، 251، 254، 259 ـ 260، 262، 264، 267، 276 ـ 277، 281، 286، 295، 300، 302 ـ 305، 308، 315، 317، 323، 339، 348، 369، 376، 414، 484، 545
شوازول: 389، 758 ـ 760، 777، 789، 801، 889

- ص -

الصداقة: 43، 59 ـ 60، 165، 204، 262، 279، 307، 457، 488، 494، 500، 504، 514، 538، 543، 551، 568 ـ 569، 583، 588 ـ 589، 595، 604، 607 ـ 608، 611 ـ 612، 622، 631، 637، 642، 647 ـ 648، 651 ـ 652، 658، 660، 665، 667، 669، 673، 683 ـ 684، 696، 730، 740،

twitter @baghdad_library

748، 764، 775، 782، 789، 791، 796، 807، 814، 816 ـ 817، 822، 844، 846، 857، 859، 885، 889

ـ ط ـ

طوريـنيان: 357، 359، 363

ـ ع ـ

علم الايقاع: 300

علم التشريح: 354، 368

العمل التشريعي: 886

ـ ف ـ

فابريسيوس: 490

فالانتينوا: 722

فالماليت: 519

فرتنبر، لويس دو: 862

فردولان: 60، 89 ـ 99، 102 ـ 103، 105، 133 ـ 134، 175، 188، 237 ـ 238، 271، 277، 289، 311، 356 ـ 365، 367 ـ 369، 372، 389، 399 ـ 400، 407 ـ 412، 415 ـ 416، 448، 455، 464 ـ 466، 470 ـ 471، 475 ـ 477، 481، 484 ـ 485، 487 ـ 488، 492، 498 ـ 501، 503، 514، 517، 520، 525، 537 ـ 538، 544، 550، 552، 565، 568، 573، 575، 579، 584، 590، 597، 606 ـ 614، 616 ـ 620، 625، 633 ـ 634، 636 ـ 639، 652 ـ 653، 658 ـ 662، 666، 668 ـ 669، 676، 679 ـ 680، 682 ـ 684، 686 ـ 689، 696 ـ 697، 703، 707، 710 ـ 714،

716 ـ 717، 719 ـ 720، 722، 724 ـ 725، 727 ـ 729، 731 ـ 738، 740، 742 ـ 744، 747، 749 ـ 751، 753 ـ 757، 759 ـ 766، 777 ـ 778، 782، 785 ـ 786، 788، 790 ـ 796، 798 ـ 799، 801، 803، 811، 820، 826، 830، 838، 844، 847، 852، 857 ـ 860، 864، 866 ـ 867، 893

فرنكوي: 76، 411 ـ 412، 475 ـ 476، 480 ـ 481، 484، 502، 506، 645

فورميه: 738، 740

فولتير (فرانسوا ماري أرويه): 411، 738

فولسون: 60 ـ 64، 227

فولمار: 164، 603

فونتنيل: 38

فيتالي، دومينيق: 431، 434، 444

فيرجيليوس: 155، 343، 347، 405

فيرسلي: 133

فيلوروا: 753، 762، 763، 799

فيليدور: 318، 406، 465

ـ ق ـ

القديس أغسطينوس: 113

القديس غريغوريوس: 113

القديس لويس: 350، 524، 835

قراقوش (أبو سعيد بن عبد الله الأسدي): 59، 511

twitter @baghdad_library

القس بوتيبيار: 815، 857
قيصر، يوليوس: 57، 65، 230

ـ ك ـ

كاتينا: 681
الكاثوليكيون: 88
كاريو: 698
كاريون: 698
كالابريه: 318
الكاهن السافواوي: 148، 185
كاهوزاك: 514
كاهويه: 675
كروساز: 228
كلو بينما: 40
كليرو: 704، 785
كوانديه: 721
كورفيزي: 185
كوريولانوس: 811
كولومييس: 315
الكولونيل جودار: 238 ـ 239، 241
كوم: 782
كوندياك: 701
كيث، جورج: 814، 818

ـ ل ـ

لا بوبلينيير: 465، 470 ـ 471، 487، 690، 759
لا مارتينيار: 233
لابروير: 20، 38، 174
لاتريبو: 77 ـ 79، 156
لارناج: 362، 364، 367
لاروك: 135 ـ 136، 149
لاكلوزير: 35
لاكوندامين: 785
لاليو: 843
لامبرسييه: 42 ـ 43، 45 ـ 48، 50، 53 ـ 54، 56 ـ 57، 65 ـ 66، 108، 112، 184

لامبير: 597
لباريزو: 408
لوتاسيوس: 414 ـ 415، 466 ـ 467
لـــوران، دوســـــان: 260، 322
لورنزي: 135 ـ 137
لوسيور: 38
لوشامبرييه: 823
لـوفـاسـور: 474، 491، 493، 499، 500، 511، 518، 530، 547، 551، 581، 592، 629
لوكريسية: 549
لوكسمبورغ: 498، 697، 711 ـ 714، 716 ـ 717، 719 ـ 720، 728 ـ 729، 731 ـ 734، 736 ـ 738، 742، 747، 753 ـ 757، 760، 762، 764 ـ 766، 778، 786، 788، 790 ـ 791، 793 ـ 794، 799، 803، 820، 830، 838، 844
لوموان، جان باتسيت: 836 ـ 837
لـومـيـتـر: 188 ـ 197، 199، 201، 244، 300
لينان: 654 ـ 655

- م -

مابلي: 378
مارجنسي: 620، 701، 724
مارمونتيل: 690، 697
مــالــزيــرب: 9، 490، 702 ـ 705، 732، 766، 768، 774 ـ 776، 778 ـ 779، 784، 788، 790
المذهــب الـكـاثـوليكـي: 112، 136، 271
مسايرون: 176
مــوســار، بــيار: 157، 471، 519 ـ 521، 547، 845

twitter @baghdad_library

مولتو، بول: 548، 779، 839
موليون: 692، 781
موليير (جون باتيست بوكلان): 38
مونتسكيو، شارل دو سكوندا: 456، 526، 684
مونتيجو: 416، 419، 421، 454، 456
موندوفيل: 534
الميتافيزيقا: 483
ميرابوا: 729
ميران: 550، 802 ـ 803
ميكالي دو كريت: 880
ميلاريد: 146

- ن -

ناني: 38
نيسياس: 406

- هـ -

هزيودوس: 482
هوميروس: 406
هيرون: 160، 385، 404
هيوم: 790، 858 ـ 860

- و -

والاس، روبرت: 722، 859

- ي -

يشوع ابن سيراخ: 684 ـ 685

الاعترافات

يعتبر كتاب **الاعترافات** لروسو من روائع كتب السيرة، بثّ فيه روسو لواعج قلبه، ونداءات عقله إلى عالم تقود فيه الحرية إلى الحقيقة.

وقد لخّص فيه معاناته في الوحشة، والشعور بالاغتراب، والحنين إلى طبيعةٍ إنسانية أكثر براءة، وأوفى صدقاً.

ولئن كانت آراء روسو ومذاهبه الفكرية حدت بالفيلسوف الألماني كَنْت إلى «اعتباره نيوتن الأخلاقي»، فإن روسو الإنسان الكاتب يؤسس في اعترافاته لخطابٍ فلسفي حول الذات، والحياة، وزمن التاريخ، والحساسية.

● **جان ـ جاك روسو (1712 ـ 1778)**: كاتب، وفيلسوف، وموسيقي. عرف في عالم الأدب والفكر من خلال كتبه. ومن أهمها: *Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes* (1755), *Du contrat social* (1762), *Emile* (1762).

● **خليل رامز سركيس**: علم من أعلام الحركة الثقافية اللبنانية، وصحافي لامع، أغنى المكتبة الثقافية بعطاءات أدبية هامة. من مؤلفاته: **صوت الغائب، وصية في كتاب، أرضنا الجديدة، مصير.**

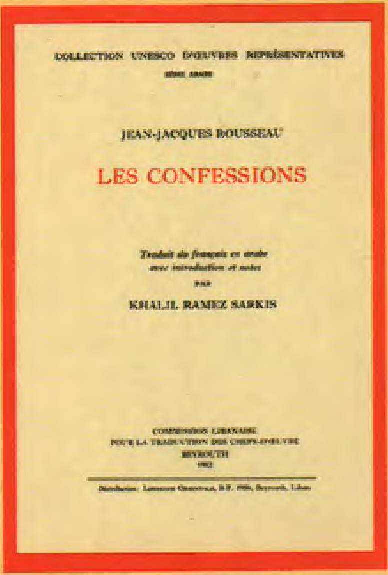
COLLECTION UNESCO D'ŒUVRES REPRÉSENTATIVES
SÉRIE ARABE

JEAN-JACQUES ROUSSEAU

LES CONFESSIONS

Traduit du français en arabe avec introduction et notes
PAR
KHALIL RAMEZ SARKIS

COMMISSION LIBANAISE
POUR LA TRADUCTION DES CHEFS-D'ŒUVRE
BEYROUTH
1982

Distribution: Librairie Orientale, B.P. 1986, Beyrouth, Liban

● أصول المعرفة العلمية
● ثقافة علمية معاصرة
● فلسفة
● علوم إنسانية واجتماعية
● تقنيات وعلوم تطبيقية
● آداب وفنون
● لسانيات ومعاجم

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

المنظمة العربية للترجمة

الثمن: 42 دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN 978-9953-82-525-0
9 789953 825250

twitter @baghdad_library